1965

مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

1



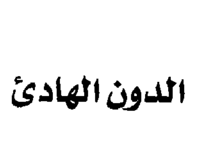
ترجمة

علي الشوك.أمجد حسين . غانم حمدون

مراجعة : غائب طعمة فرمان

علي مولا




الدون الهادئ

١٩٦٥

مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

(المجلد الأول)

ترجمة

علي الشوك . أمجد حسين . غانم حمدون

مراجعة: غائب طعمة فرمان



مكتبة نوبل



اسم المؤلف : ميخائيل شولوخوف
عنوان الكتاب : الدون الهادئ ـ ١
ترجمة : علي الشوك/أمجد حسين/غانم حمدون
مراجعة : غائب طعمة فرمان
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
المجمع الثقافي/ أبو ظبي
الطبعة الأولى : ١٩٩٨
الحقوق محفوظة

Author : Mikhail Sholokhov
Title : The Silent Don /1
Translator: A. Al-Shuk/
A.Hussein\ G. Hamdoun
Al- Mada : P. C.
Cultural Foundation
First Edition 1998
Copyright ©

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة - أبو ظبي
ص .ب : ٢٣٨٠
تلفون : ٢١٥٣٠٠

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or
7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

Cultural Foundation
U.A.E. Abu Dhabi
P.O.Box: 2380
Tel. 215300

كتاب عن الثورة والانسان

قبل عدة اعوام احتفلت الصحافة الادبية بمناسبة رائعة ، وهي مرور خمسين عاما على ظهور رواية شولوخوف «الدون الهادئ» .

هل كان في مقدور سيرافيموفيتش اقدم الكتاب السوفييتيين وصاحب الرواية الشهيرة «السيل الحديدي» أن يعرف أنه ، في حينه ، اي قبل نصف قرن كان ذا نبوءة بشكل ما ؟ فقد قرأ لتوه مخطوطة المؤلف الشاب من قرية الدون البعيدة «فيشينسكايا» في قلب روسيا . كانت المخطوطة قد وصلت الى مجلة «اوكتوبر» التي كان سيرافيموفيتش آنذاك يرأس تحريرها . وكان سيرافيموفيتش قبل سنتين من هذا التاريخ قد شخص في مقدمة كتاب شولوخوف الاول ، وهو مجموعة قصص ، الخصائص الفنية لهذه الموهبة الشابة . وتقرر البدء بنشر الرواية ابتداء من سنة ١٩٢٨ الجديدة . في عشية ذلك استقبل الكاتب الشيخ في بيته زملاءه الاجانب هنري باربوس ، ومارتين اندرسون نيكسه ، وبيلا ايليش . وانزل من الرف اضبارة ضخمة من الاوراق المطبوعة على الالة الكاتبة ، ووزنها في يده ، وقال وفي صوته نبرة انتصار :

ـ اصدقائي الاعزاء! ارجو أن تتذكروا العنوان : «الدون الهادئ» وتتذكروا اسم المؤلف ميخائيل شولوخوف... وهذه كلمتي لكم : عن قريب سيكون هذا العمل مشهوراً في روسيا كلها ، وبعد سنتين او ثلاث في العالم أجمع...

وهذا ما حصل بالفعل . في نهاية ١٩٢٨ ، بعد أن نشر المجلد الاول من «الدون الهادئ» في مجلة «اكتوبر» صدر في مجلة «رومان - غازيتا»* بعدد نسخ ضخم بالنسبة لذلك العهد ، ثم في طبعة «الجديد في الادب البروليتاري» . ونوهت بالكتاب جميع صحف ومجلات البلاد تقريباً (ومما تجدر الاشارة اليه أن التنويه لم يأت من قبل النقاد المحترفين وحدهم ، بل ومن عدد كبير من «القراء البسطاء» حيث اعرب عمال ومستخدمون في مكتبات ومراسلون ريفيون في القرى عن انطباعاتهم عما قرأوه) وقبل أن ينقضي عامان ترجم المجلد الاول من الرواية الفرنسيون والالمان والسويديون والاسبان ، والتشيكيون ، والهولنديون الى لغاتهم ، وصدر «الدون الهادئ» في النمسا ، وفي المستعمرات الفرنسية ، ومن بعد ذلك في اليابان ، وانجلترا ، والصين ، وبولونيا ، والولايات المتحدة الامريكية...

كان ميخائيل شولوخوف عندما صدر المجلد الاول في الثالثة والعشرين لا غير . الا أنه كان يملك حياة تكفي لأكثر من شخص ، اذا جاز القول ، فقد كان معلما في مدرسة للفلاحين القليلي التعليم ، كاتباً مسجلا في مكتب التخزين ، وكان يعرف فخارة الاجر والشحن والتفريغ . وقد عمل في فصيلة تموين ، وهو في سن الخامسة عشرة ، فكان لذلك أعمق الاثر في ذاكرة الكاتب المقبل اذ شارك في مصادرة الحبوب من الكولاك ، الحبوب الضرورية لروسيا الجائعة .

ولم ينس شولوخوف استجواب ماخنو** نفسه له ، عندما لم ينج من الاعدام رميا بالرصاص «الا لصغر سنه» ولا المعركة التي شارك فيها ضد زمرة فومين ، والتي ينسبها شولوخوف فيما بعد لبطله غريغوري ميليخوف .

---

* مجلة مخصصة للرواية تصدر حتى الآن . المترجم

** ماخنو - ناستور ماخنو هو رئيس العصابات الفوضوية المعادية للثورة في اوكرانيا ما بين ١٩١٨ - ١٩٢٠ .

بل على العكس جعل الحماس الكاتب الشاب يتوغل أعمق فاعمق في تتبع واستقصاء جذور الظواهر والمصائر التي كان شاهدا عليها . وفي الوقت الذي صدرت فيه المجموعتان القصصيتان «قصص الدون» و«السهب اللازوردي» كانت قد نضجت وسجلت على الورق شخصيات المرحلة الشعبية التراجيدية والعظيمة : «الدون الهادىء» .

وصار ظهور المجلد الاول من «الدون الهادىء» في عام ١٩٢٨ حدثا كبيراً للادب السوفييتي الفتي بأسره . وحين قرأ مكسيم غوركي «الدون الهادىء» قال عن مؤلفه : «انه يكتب كقوزاقي عاشق للدون ، ولحياة القوزاق ، وللطبيعة...»

في رواية شولوخوف بالذات انفتح اقليم الدون على الادب العالمي بشكل حقيقي . واصبحت منطقة الدون جزءا لا يمكن فصله عن اسم شولوخوف ، مثلما لا يمكن فصل الدنيبر عن غوغول ، منطقة ريازين عن يسينين ، والفولغا عن غوركي .

في السنوات الاولى من السلطة السوفييتية ، كان ذكر الدون ، وقوزاق الدون يستحضر في اذهان جمهور القراء أعلى درجات القلاقل والبلبلة .

ماذا كانوا يعرفون عن القوزاق ؟ انهم ، من ناحية ، احفاد اولئك الاحرار الجريئين الذين استطاعوا حتى في القرن الخامس عشر أن يثبتوا حقوقهم في الحرية ، ويحصلوا على غايتهم في الواقع المريع لدولة الاقنان الروسية ، اولئك العبيد الهاربون ، المتمردون تحت رايتي ستيبان رازين ويمليان بوغاتشيف... ومن الناحية الاخرى ، «القوزاق» شيء يُعاب ويخَّوف به الناس . انهم أولئك الذين كانوا يجلدون الطلبة بالسياط في العهد القيصري ويفرقون مظاهرات الاول من ايار ، والذين اغرقوا بالدم ثورة ١٩٠٥ الشعبية...

ولكن القوزاق ايضا هم جيش الخيالة الاول الاسطوري ، مجد ودرع السلطة السوفييتية الفتية! وبودوني نفسه ، قائد جيش الخيالة الاول من

القرية القوزاقية كوزيورين... فأي ناس هم ، هؤلاء القوزاق على كل حال ، من هم في واقع الحال ؟

الرواية تجيب عن هذا السؤال ايضاً . لقد جعل شولوخوف القارئ احد المقيمين القدامى في كوخ قوزاقي ، واجلسه مع ارباب البيت على مائدة واحدة ، وأخذه الى الحقل للم التبن في أكداس ، والى صيد السمك ، والى درس الحبوب . ولم يُرِه فقط القوزاقي على صهوة حصانه ، والرمح في يده ، والجزمة الطويلة في ساقيه ، فقط ، بل والقوزاقي في حذائه اللبادي والمحش في يديه ، أو الطفل على ركبتيه ، او مع محبوبته يغازلها عند السياج... وشولوخوف يتحدث عن الحياة الصعبة والمتناقضة . وقد رسم اخلاق ناس لطفاء وافظاظ ، أباة ومتشربكين بايديهم وارجلهم في الانحيازات الطبقية في الكثير من النواحي . ذلك شعب كادح ، مجتمع كادح ، يعرف مثل اي مجتمع طبقي ، الانقسام الاجتماعي الداخلي ، والتناقضات الطبقية ، وما هو عامل على التطور التاريخي النشيط والسير نحو الكمال .

«الدون الهادئ» ذو قيمة هائلة للمؤرخ والمختص بالاقتصاد السياسي ، والفيلسوف ، والعالم الاجتماعي . ومع ذلك فان كشف الفنان الكبير للنفس الانسانية هو أعلى من كل الحقائق الاخرى . ان المعرفة بالخلق القوزاقي ، والعادات ، والقوة الحياتية ، والمطامح الرفيعة لهولاء ليس بمجموعهم فقط ، بل ولكل شخص على انفراد ، هي وحدها تتيح لنا أن نفهم فهما كاملاً لماذا كان من الممكن أن ينشأ ، تحت سقف بيت واحد ، اشخاص متباينون ، مثل بيتر ميليخوف ، وغريغوري ميليخوف ، ومثل ميتكا الجزار وناتاليا الطاهرة النفس من آل كورشونوف .

يقص «الدون الهادئ» بلغة الفن عن انتصار الثورة الاشتراكية في روسيا بموثوقية ثابتة .

و«الدون الهادئ» من ناحية الشكل الفني غالبا ما يصنَّف كملحمة شعبية . ومن هذا الارتفاع يجب ان يُفهم كل شيء في هذا العمل . ومن

ضمنه المجلد الاول من الكتاب . ان حوادثه «محلية» وبعيدة عن ثورة ١٩١٧ التي كانت موضوع اهتمام المؤلف الرئيسي .

... الشاب القروي الفتى غريشا ميليخوف ينام في الفجر . وقد رمى ذراعه بحرية وبكل طولها ، ويراجع أحلامه الفتوية .

في الامكان أن تمعن فيه العين من غير عجالة وتميزه كما هو : جميلا جماله الخاص ، نافر الخصلات ، احدب الانف ، ذا وجنتين حادتين ، وبشرة سمراء متوردة مشدودة . كم كان هذا الشاب من قرية تاتارسكي في تلك اللحظة فتيا ، مفتوحا لكل مسرات الحياة!

وأيامه قائمة على الفرح خلية ، بسيطة . وها هم فتيان القرية ينظمون السباقات ، وغريشا بالطبع ، شديد الولع بلعب الخيول . ثم جاء أوان حش المروج ، ويتهيأ الى العمل بحذق . ان ذلك يريحه . وبصره يلتقط أرض المرج الملونة بتنورات النساء القشيبة ، والمروحة الشفافة التي تكونها اشعة الشمس الغاربة وراء الجبال البعيدة . ومحشه يقطع الاعشاب بتنغيم ، تاركاً أثرا متماوجا ينساب بنعومة وراءه...

تبدو هذه الفصول من النظرة الأولى غير المتمعنة كثيرا «لا تقول شيئاً مهما» وكأنها تخطيطات حياتية لمختلف وجوه المعيشة . نسمع نوادر الشاب المرح البسيطة تبدو على كثير من السذاجة . ونحس كيف يبرد الندى الاقدام الحافية . وكل ذلك يبدو ابسط من البسيط . وحتى ما حدث لغريغوري مع اكسينيا ، لا يحمل بعد ما يعكر كثيرا مجرى الايام الهادىء السمح ، الخالي من الاحداث من الناحية الاجتماعية...

ولكن في غضون ذلك هناك قصة تروى عن الشعب ، عن المجتمع ، عن الفرد . وبدأت ترتسم ، بالفعل ، لوحة عريضة عن عالم القوزاق الخلقي ، بل ، اذا توسعنا قلنا وعن شعب روسيا بأسرها ، في عشية الحرب الامبريالية الاولى ، مع الاحساس بدنو الثورة العظمى .

ان اللحظات الاجتماعية لحياة البطل ، وما هو شخصي لصيق به ،

تماما ، يرد في «الدون الهادىء » في وحدة متلاحمة ، ويشكل تيارا حياتيا هداراً واحدا . وفي سلوك غريغوري ميليخوف الاجتماعي ، ومصيره الحياتي الكثير من النموذجي بالنسبة لقوزاق تلك السنين ، وفي نفس الوقت لا نجد شبهـا لكل مـا يحصل له بشيء آخر . لم يتكرر في اي انسان ، وعلى الاطلاق ، مصير وشخصية غريغوري ميليخوف! على الأقل لأن ما هو متناقض في هذه الشخصية كأنما مضاعف ، واكثر من مضاعف ، ولا عجب . فانه «تركي » «شركسي » حفيد بروكوفي الذي دخل اسمه ولمدة طويلة في تاريخ قرية تاتارسكي ، لانه كان جسورا بشكل فريد في اتخاذ القرارات ، وصلبا بشكل مذهل في الدفاع عن كرامته الانسانية...

ومن ناحية اخرى تبدو قصة حب غريغوري واكسينيا الجميلة منفصلة بما فيه الكفاية عن كل ما هو اجتماعي الى ابعد الحدود . ولكننا نفكر : أليست هي الاخرى مرتبطة ، بطريقتها الخاصة ، بتحول الاحداث والمعارك الاهلية ، وذات صلة بالتحول الشديد لمصير غريغوري السياسي ، وعموما ، بكل بحثه المضني عن الطريق الصحيح في الحياة ؟

والذي يحدث على الدوام أن الواقع الثوري يضفي ألوانه ، على نحو فريد ، ليس على ما كان يبدو خصوصيا ، غير خاضع لاية تأثيرات خارجية بل على مصير غريغوري كله . ومن بداية الرواية حتى نهايتها لا يضعف ميدان الأحداث الموحد الجبار القوي .

تضم رواية «الدون الهادىء » اكثر من ٦٠٠ شخصية ، وجميعهم ضروريون لان نفهم في اكثر ما يمكن من العمق ونقيم بشكل اصدق تلك الشخصية المعقدة من الشعب ، الباحثة بعذاب عن موقعها في الثورة . فغريغوري ميليخوف مرتبط ، بهذا الشكل او بذاك ، بكل هذه الشخصيات ، وحتى بأولئك الذين لم يلتقهم بشكل مباشر ابداً ، في شربكات الاحداث العاصفة .

وعلى خلفية مصائر كل هذه الشخصيات الستمائة في «الدون الهادىء »

(وشخصيات من مثل بونتشوك أو ميشكا كوشيفوي قبل كل شيء) يمكن ان نفهم الى الآخر تاريخ حياة غريغوري نفسه ، تلك الفكرة العميقة التي وضعها المؤلف في هذه الشخصية الرائعة حقا .

و«الدون الهادىء» سرد قصصي يبين لنا كيف تستحوذ عملية الثورة بشكل لا مرد له على الانسان مهما كان موقفه من الثورة ذاتها معقدا ومتناقضا .

ومع السنين تكشف رواية شولوخوف امام عالم القراء المزيد والمزيد من طبقاتها الجديدة ذات الدلالة ، والمواضيع والصراعات ، والمشاكل الاجتماعية والمعاشية المحضة التي لم يلحظها النقد من قبل . ولا يخلو من دلالة أن الجدل الابداعي الواسع الذي يدور حول «الدون الهادىء» منذ عام ١٩٢٨ لا ينقطع . فالكتاب هو نفس الكتاب ، ولكن الاسئلة التي تبرز في مجرى النقاش ، في العقود المختلفة ، تبدو مختلفة .

يتصور البعض ان «الدون الهادىء» يظهر بشكل شامل ومقنع اصطفاف القوى الطبقية في الثورة والحرب الاهلية ، وأن المؤلف يجيب ، بالدرجة الاولى ، عن هذا السؤال : كيف تصرف الفلاحون المتوسطو الحال ، والذين ترتبط بهم دائما احدى اللحظات في أية ثورة شعبية . وبالطبع ليس من الصعب إيجاد الأسس لمثل هذا الرأي في المعيار العام للرواية وفي تفاصيلها ، فان «الانقسام» الطبقي لأبطال «الدون الهادىء» واضح جدا . في أحد الطرفين يقف أفقر القوزاق («ولد» ، كريستونيا ، بروخور زيكوف ، كوشيفوي) وفي الطرف الاخر المستغلون الريفيون «ذوو الايدي البيض» (موخوف ، كورشونوف ، ليستنتسكى) وبينهما آل غريغوري ميليخوف الذي يمثلون الوسط في أكثر مظاهره الاجتماعية والخلقية تعبيراً...

وآخرون في التزامهم «الضيق» للطريق السيوسيالوجي يجدون في الرواية ، دون عناء ، المادة اللازمة لان يستنتجوا : لقد كان من المهم لشولوخوف أن يظهر أن الجماهير الكبيرة ، القسم الكبير من الشعب وليس

فقط المشاركين الأفراد في الثورة يمكن أن يتعرضوا ، دون وعي ، إلى الضلال التاريخي ، ويجدوا أنفسهم منجرين الى قضية غير صحيحة مناقضة لمصالحهم ، كما حدث ذلك في تمرد فيشينسكويه . ان تتبع طريق البطل باعتباره «ضلالا» من جانبه يعارض في البحث الأدبي اعتبار هذا الطريق جريرة ثابتة لغريغوري إزاء الثورة والشعب . جريرة شخص وحيد لم يرغب في الإصغاء إلى حقيقة الشعب المعذبة ، التي قادت أغلبية القوزاق إلى الطريق الثوري الصحيح الوحيد .

وفي رأيي إن الكثير جداً من الأدلة المقنعة سيجد ، في عمل شولوخوف هذا ، اصحاب الرأي القائل بأن الجوهري ، بالنسبة «للدون الهادىء» هو دحر الفكرة الكاذبة عن إمكانية وجود طريق ثالث للثورة . وفي حقيقة الأمر : لماذا ترك غريغوري معسكر الحمر ، على الرغم من انه كان يكره البيض «ذوي الايدي البيض» بكل قوة روحه المتمردة ؟ فهو ليس انانياً ، على الاطلاق ، ولا مالكا صغيرا ، بل على العكس ، إنه في إلقائه نفسه في الاتون ، غير باخل بها ، كان يريد أن يجد أفضل نصيب لشعبه الذي يتعرض غريغوري في سبيله لجميع العذابات التي وصفها المؤلف ذلك الوصف البليغ .

ومع ذلك فإن مصيبة غريغوري هي أنه كان يعتبر الشعب كله يتجسد كلياً في القوزاق ، ولا يرى شعباً خارج الدون ، ولا يفهم «عذابات» «روسيا» هنا . ولم يكن متعطشاً أبدا للقتال مع «روسيا» هذه . يكفيه أن يكون للقوزاق برنامج بسيط بما فيه الكفاية : وليتحارب البيض مع الحمر ، أما نحن فسنجد طريقنا الى الثورة ، الطريق الذي لا يؤدي إلى هؤلاء ، ولا الى اولئك... وكل التاريخ الحياتي لبطل الرواية الرئيسي ، وتاريخ الكثيرين الذين كانوا مرتبطين به يخبرنا أيضاً الى أين تؤدي بالناس مثل هذه الفلسفة في ظروف الانقسامات الثورية العظيمة .

في كل ثورة ، في كل عاصفة اجتماعية يوجد دائما أناس يحاولون خداع انفسهم بهذه الفكرة البريئة من الوهلة الاولى ، فكرة الحياد

السياسي . ولكن كم من الناس قادت الى حافة الهاوية ، وكم من الناس دفعت الى دوامة مصائب وعذابات لا حصر لها! وقد أظهرت رواية «الدون الهادیء» كل ما ينطوي عليه هذا الموقف الـ «بين بين» من تهلكة في الصراع بين القوى المقاتلة من أجل الحياة او الموت ، وفشل البحث عن «طريق ثالث» بين الحق والباطل ، الخير والشر ، النور والظلمة ، الثورة والعداء للثورة ، الايديولوجية التقدمية ، والايديولوجية الرجعية . وفي هذا المنحى يمكن ان تضاف ميزة اخرى الى الميزات الكثيرة لرواية شولوخوف الرائعة هذه وهي أن هذا العمل يصف كيف أن الافكار الاجتماعية السياسية تأسر الناس ، جماهير غفيرة من الناس ، ويكشف أهمية هذه الافكار بالنسبة لناس أحياء ، بالنسبة لعائلة بعينها او هذه القرية المعنية . ان الثمن الفعلي لفكرة «الطريق الثالث» في الثورة هو حياة غريغوري المريرة ، وموت جميع المحيطين به على وجه التقريب .

بالطبع ، إن مثل هذا التفسير «للدون الهادیء» ليس إلا واحداً من التفسيرات العديدة ، ولا يستوعب مطلقا كل الغنى الفكري للرواية . ومهما كان عدد التفسيرات التي تظهر يجب أن نفهم دائما ، مثلما لاحظ الاكاديمي السوفييتي خرابتشنكو ، ان السمة الحقيقية لفن شولوخوف «تتمثل في أنه اعطى للشخصيات التي أبدعها عمقا مذهلاً ، وملأها بمحتوى ذي أهمية انسانية شاملة» .

في «الدون الهادیء» لوحة تاريخية محددة هائلة ، وأمام نظر القارىء تندلع عاصفة الثورة النارية ، وتجري الاحداث على مساحة هائلة ـ من بطرسبورغ الثورية وخنادق غاليتسيا الى قرية على الدون ، وسهوب الكوبان ، التي صارت مسرحاً لواحدة من أخطر معارك الثورة . ومع كل هذه السعة توجد عناية دقيقة ومتفحصة بشكل مذهل تكاد تشمل كل الذين يقعون في مدى نظر المؤلف ، عناية بالتحولات المفاجئة للمصائر ، وباليومي الاعتيادي المعيشي الصغير...

ويجب بشكل خاص أن يُبْرز في مهارة شولوخوف فن النفاذ السيكولوجي الى حياة البطل الداخلية الروحية : فالقارىء يعيش شيئاً فشيئاً ودون أن يدري أحاسيس البطل ، وينظر بعينيه الى ما يحيطه .

إن العبارة التي ألقاها شولوخوف ذات مرة في حديث مع ادباء فرنسيين تجعلنا اكثر فهما لما يقلق شولوخوف أكثر من غيره في حياة الإنسانية وفي مصير كل فرد محدد . لقد قال شولوخوف :

« يهمني الناس الذين تستحوذ عليهم الفورات الاجتماعية والوطنية... إذ يبدو لي أن شخصياتهم تتبلور في هذه اللحظات » .

ويمكن للمرء ان يسمع من صفحات « الدون الهادىء » ذلك النداء الداعي إلى تذكر الانسان دائما في كل الازمنة ، وفي اية هزات وتغيرات اجتماعية عالمية . إن ذلك ما يؤكده الفنان الذي رسم شخصيات غريغوري واكسينيا ، وبودتلكوف ، وبونتشوك ، وايلينشنا ، وداريا ميليخوفا . ومع ذلك فان من القليل على شولوخوف الرضى بالتجاوب الخيّر مع مصيبة انسان ، وقليل عليه أن يفهم الناس ويتعاطف معهم . بل ان الكاتب كان يريد أن تثير الشخصيات التي أبدعها النشاط ، وتدعو بفعالية الى مساعدة الانسان .

يشترط ميثاق جائزة نوبل أن يُلقي الحائز عليها كلمة تعطي بشكل موجز تصورا عن نظرات الكاتب إلى الحياة والفن ، والى واجب الفنان . وقد قال شولوخوف عن نفسه ما يلي : « أود ان تساعد كتبي الناس ليكونوا أحسن ، وأنقى روحا ، وتوقظ الحب نحو الانسان ، والسعي الى النضال الناشط في سبيل مثل الروح الانسانية وتقدم البشرية » .

واعتقد ان ذلك أهم شيء لفهم مؤلف « الدون الهادىء » كفنان ، وكانساني .

ليتفينوف

ليس بمحراث شُقّت أرضنا المجيدة... .
بسنابك الخيل تُحرث ارضنا ،
برؤوس القوزاق تُزرع ارضنا المجيدة ،
بهيٌ دوننا الهادیء بأرامله الصبايا ،
أبونا ، الدون الهادیء ، يزهو باليتامى ،
وأمواج الدون الهادیء تزخر بأدمع الاباء والامهات .

ايه ، يا أبانا ، أيها الدون الهادیء!
ايه ، يا دوننا الهادیء ، علام تجري مياهك عكرة ؟
هيهات لي ، انا الدون الهادیء ، ان أجري صافيا!
ففي أعماقي تنبض ينابيع باردة ،
وفي أحشائي ، ، أنا الدون الهادیء ، تتواثب الأسماك الشهب .

(أغنيتان قوزاقيتان قديمتان)

الجزء الأول

١

كان بيت ميليخوف يقع عند طرف القرية الأقصى . وكانت بوابة زريبة الماشية تفتح صوب الشمال باتجاه الدون . ويأتي الشاطىء وراء منحدر وعر يمتد مسافة حوالي سبعة عشر متراً بين صخور طباشيرية ضخمة يغطيها الطحلب . وثمّة أكوام لؤلؤية من قواقع المحار ، وحافة رمادية اللون متكسرة قوامها الحصباء تلثمها الأمواج ، ومن ثم وجه الدون الرقراق الفولاذي اللون ، تلاعبه الريح . وإلى الشرق ، وراء أسيجة من أغصان الصفصاف تحيط بساحات درس الحبوب ، يمتد طريق هتمان ، حيث يوجد نبات الشيح الرمادي ، ونبات لسان الحمل المتصلّب ذو اللون البنّي والذي هرسته حوافر الخيل ، وثمّة مصلى عند مفترق الطريق ، ثم يأتي السهب مغلفاً بضباب متنقّل . وإلى الجنوب ، تمتد سلسلة من التلال الطباشيرية . وإلى الغرب ، هناك الشارع ، يقطع الساحة ميمماً صوب المروج الساحلية .

عاد القوزاقي بروكوفي ميليخوف إلى القرية أثناء الحرب ماقبل الأخيرة مع تركيا ، وقد جلب معه زوجة : امرأة صغيرة متلفعة بشال من رأسها إلى قدمها ، تغطّي وجهها على الدوام ، ونادراً ما تكشف عن عينيها الوحشيتين الحزينتين . وكان الشال الحريري يحمل عطوراً غريبة فوّاحة ، وطرائزه

الملونة بألوان قوس قزح تثير حسد النساء القوزاقيات . وظلّت هذه الأسيرة التركية بعيدة عن أقارب بروكوفي ، ولم يمض وقت طويل حتى أعطى ميليخوف العجوز لولده حصته من الإرث . وظلّ طيلة حياته يرفض أن يضع قدمه داخل بيت ابنه ، ذلك لأنه لم يستطع أن ينسى ذلك العار .

وسرعان ماتدبّر بروكوفي أمره ، فأقام له النجارون داراً ، وصنع هو بنفسه سياجاً لساحة الماشية ، وفي مطلع الخريف أخذ زوجته الاجنبية محنية الرأس الى دارها الجديدة . وقد سار معها خلال القرية وراء العربة المحملة بما لديهما من متاع الدنيا ، فاندفع الجميع ، شيباً وشباناً ، الى الشارع . وكتم الرجال ضحكاتهم وراء لحاهم ، وتناقلت النسوة تعليقات مسموعة ، بينما اندفع سرب من أطفال القوزاق الوسخين يزعقون خلف بروكوفي . ولكنّه واصل سيره بطيئاً ، بمعطفه مفتوح الأزرار ، وكأنّه يترسّم أرضاً حرثت تواً ، وهو يعصر معصم زوجته الرقيق بكفّه السوداء الضخمة ، رافعاً رأسه ذا الناصية الشقراء ، في تحدٍّ واستخفاف . سوى أن أكياسه الدهنية تحت عظام خديه انتفخت وارتعشت ، وتفصّد العرق بين حاجبيه المقطّبين دائماً .

منذ ذلك الحين لم يقع عليه نظر إنسان في القرية إلا نادراً ، ولم يحضر هو لقاءات القوزاق بتاتاً . وعاش حياة عزلة في داره المنفردة على جانب الدون ، ورويت عنه حكايات غريبة في القرية . زعم الصبيان الذين يرعون العجول وراء طريق المرج أنهم كانوا يشاهدون بروكوفي كل مساء ، وضوء النهار يتلاشى ، يحمل زوجته بين ذراعيه حتى رابية مدفن التتار . فيجلسها على قمة الرابية ، مسنداً ظهرها الى صخرة مسامية تآكلتها الأنواء ، ويجلس هو إلى جانبها ، والاثنان يحدقان بثبات عبر السهب ويلبثان يحدقان حتى يتلاشى الغروب ، ثم يلف بروكوفي زوجته بمعطفه المصنوع من الجوخ الخشن ويحملها عائداً الى البيت . وتاهت القرية في الظنون ، بحثاً عن تفسير غريب كهذا . وتقولت النساء كثيراً حتى انشغلن عن تفلية رؤوسهن

بحثاً عن القمل . وسرت الشائعات حول زوجة بروكوفي أيضاً ، فقال البعض أنها ذات جمال خلاّب ، وذهب آخرون الى نقيض ذلك . على أن الأمر حسم في الأخيرحينما انطلقت الى دار بروكوفي واحدة من أكثر النساء جرأة ، وهي مافرا زوجة الجندي ، بحجة الحصول على شيء من الخميرة . وحين نزل بروكوفي الى القبو لجلب الخميرة ، سنحت الفرصة لمافرا لتكتشف أن سبية بروكوفي التركية كانت الرعب بعينه...

بعد بضع دقائق كانت مافرا ، وقد تورّد وجهها وانداحت عصابة رأسها ، تسامر جمعاً من النساء في زقاق صغير :

ـ وماذا يمكن أن يكون قد رأى فيها ، ياعزيزتي ؟ ليتها كانت امرأة حسب ، ولكن مخلوقاً مثلها!... لامؤخرة لها ولا نهد! هي الهول بعينه! إن فتياتنا لذوات أجساد أفضل! عجباً! وأنتن تستطعن أن تفككن جسمها ، كالزنبور . أما تلكما العينان الهائلتان السوداوان ، فإنها تجعلهما تومضان كما يفعل الشيطان ، اللهم اغفر لي . لابد أنها على وشك الولادة ، يشهد الله .

فقالت النساء في دهشة :

ـ على وشك الولادة ؟

ـ لست ابنة البارحة! فقد ربيت ثلاثة أبناء بنفسي .

ـ ولكن ، ترى ما شكل وجهها ؟

ـ وجهها ؟ أصفر . لاضياء في عينيها . ويتوجّب عليّ أن أقول أنها لا تجد الحياة في أرض غريبة محققة لأحلامها . والأدهى ، يافتياتي ، أنها ترتدي ...سروال بروكوفي!

فشهقت النساء معاً وفي ذعر : ـ مستحيل!

ـ لقد رأيتها بنفسي ، إنها ترتدي السروال ، ولكن من غير أشرطة لابد أن ما عليها هو سروال عمله . إنها ترتدي قميصاً طويلاً ، ومن تحته يمكن لكنّ أن تشاهدن السروال محشواً في الجواريب . أنا ، حينما رأيتها ، سرت البرودة في دمي...

وانتشر الهمس في القرية أن زوجة بروكوفي ساحرة . وأقسمت زوجة ابن استاخوف (وآل استاخوف كانوا أقرب جيران بروكوفي) انها شاهدت زوجة بروكوفي في اليوم الثاني للثالوث* ، قبيل الفجر ، حافية ، حاسرة الرأس ، تحلب بقرة استاخوف في ساحة الماشية . ومنذ ذلك الحين تضاءل ضرع البقرة حتى صار بحجم قبضة الطفل ، وفقدت البقرة حليبها ، ثم سرعان ما نفقت .

في تلك السنة ، كانت ثمّة حالة غير اعتيادية نفق خلالها الكثير من الماشية ، وعند المناطق الضحلة من الدون كانت تظهر ، كل يوم ، جيف جديدة لأبقار وعجول على الشاطئ الرملي . ثم سرت العدوى الى الخيل . وقلّت القطعان التي كانت ترعى في مراعي القرية . وزحفت خلال أزقة القرية وشوارعها إشاعة شريرة...

عقد القوزاق اجتماعاً ثم ذهبوا الى بروكوفي ، فخرج الى درج العتبة وانحنى لهم قائلاً :

ـ ماالذي أستطيع أن أفعله من أجلكم ، أيها الشيوخ المبجلون ؟

وبدون أن ينبسوا ببنت شفة ، تقدّم الجمع من الدرج . وكان أول الصارخين عجوز مخمور :

ـ جرّ ساحرتك الى هنا! فلسوف نحاكمها...

فاندفع بروكوفي الى داخل الدار ، غير أنهم أمسكوا به في الممر ، وضرب قوزاقي ضخم ، يعرف باسم لوشنيا ، رأس بروكوفي على الحائط وقال له :

ـ أقلع عن العراك ، ولا حاجة بك للصياح . نحن لن نمسك بشيء ، لكننا سنسحق زوجتك سحقاً . خير لنا أن نهلكها من أن تموت القرية بكاملها بسبب من نقص الماشية . ولكن إياك والعراك وإلا بقرت الحائط برأسك!

---

* الثالوث في الدين المسيحي ، اتحاد الثلاثة : الأب والابن وروح القدس . المترجمون .

وجاء الزئير من الدرج :

ـ اسحبوا العاهرة الى الفناء!

فلف زميل بروكوفي في الجيش شعر المرأة التركية حول إحدى يديه ، وبالأخرى أغلق فمها الصارخ وسحبها جرياً عبر الممر وطرحها أرضاً عند أقدام الجمع . وانطلقت صرخة حادة فوق الأصوات العاوية ، فانفلت بروكوفي من قبضة ستة من القوزاق واندفع متفجراً الى داخل الدار واختطف سيفاً من الحائط . فتدافع القوزاق بالمناكب وهم ينطلقون خارج الدار . وجرى بروكوفي نازلاً الدرج وهو يلوح بسيفه الصافر اللماع فوق رأسه ، فتراجع الجمع وتفرقوا شذر مذر في أرجاء الفناء .

كان لوشنيا بطيئاً فاستطاع بروكوفي أن يلحق به عند السقيفة . وبضربة مائلة على الكتف الأيسر من الخلف شق سيف بروكوفي جسم القوزاقي الى حد الحزام . أما الجمع ، الذين كانوا ينتزعون أوتاد السياج ، فقد تراجعوا على أعقابهم وانطلقوا عبر ساحة درس الحبوب نحو السهب .

بعد نصف ساعة ، تجرأ القوزاق على الاقتراب من دار بروكوفي من جديد ، وتقدم اثنان منهم بحذر نحو الممر . هناك ، على عتبة المطبخ كانت زوجة بروكوفي راقدة ، وسط بركة من الدماء ، رأسها ملقى الى الوراء ، وشفتاها ملتويتان في ألم ، ولسانها المقضوم بارز الى الخارج . وكان بروكوفي يهز رأسه وفي عينيه حملقة زجاجية وهو يلف كرة صغيرة زاعقة في معطف من جلد الخراف ـ هو وليد جاء قبل الأوان .

* * *

ماتت زوجة بروكوفي في المساء . وأشفقت أمه العجوز على الطفل فتعهدته بالرعاية .

لبخوه بمعجون النخالة ، وأطعموه حليب الفرس ، وما أن مضى شهر حتّى حملوه إلى الكنيسة ، بعد أن تأكد لهم أن الصبي الأسمر ذا الملامح

التركية سيعيش ، وهناك عمدوه ، وأطلقوا عليه اسم جدّه بانتلاي . ورجع بروكوفي بعد اثني عشر عاماً قضاها في الأشغال الشاقة . ولم يكن ليشبه القوزاق بلحيته المقصوصة الحمراء التي وخطها المشيب ، وبملابسه الروسية . وأخذ ابنه وعاد الى داره .

شب بانتلاي أسمر البشرة صعب المراس . وكان يشبه أمه وجهاً وقالباً . وزوجه بروكوفي الى ابنة جار له قوزاقي .

منذ ذلك الحين بدأ الدم التركي يمتزج بدم القوزاق ، وهكذا ظهر في القرية آل ميليخوف ، الذين عرفوا باسم الأتراك ، وهم القوزاق ذوو الأنوف المعقوفة والوسامة المتوحشة .

وحينما مات بروكوفي ، تعهد ابنه بانتلاي شؤون الدار ، فأعاد تسقيف الدار بالقش ، وألحق بالحقل نصف هكتار من الأرض المشاعة ، وبنى سقائف جديدة ومخزناً للحبوب جعل له سقفاً من صفائح الحديد . وطلب من السمكري أن يقطع من مخلفات الحديد زوجاً من ديوك ، وحينما ثبت هذان على سطح المخزن ، أضفيا حيوية على عزبة ميليخوف وأسبغا عليها مظهر الاعتداد والرفاهية .

تحت وطأة السنين العابرات أصبح بانتلاي بروكوفتش مفتول العضل صلباً ، وعرض جسمه واحدودب قليلاً ، ولكنه مافتيء يبدو رجلاً كبيراً قوي البنيان . لقد كان يابس العظام ، أعرج (فقد انكسرت ساقه اليسرى في شبابه حينما كان يطفر الموانع أثناء استعراض امبراطوري للجيش) . وكان يعلق في أذنه اليسرى قرطاً فضّياً على شكل هلال ، وبقي شعره ولحيته محافظين على لونهما الأسود الزاهي حتى تقدمت به السن . وكان اذا استبد به الغضب فقد زمام نفسه ، مما جعل ، بلاشك ، زوجته الممتلئة تشيخ قبل أوانها ، ويصبح وجهها ، الذي كان جميلاً يوماً ما ، كنسيج العنكبوت ، مليئاً بالغضون .

وقد ورث بيوتر ، ابنه الأكبر المتزوج ، عن أمّه قامة معتدلة وأنفاً

أفطس ، وشعراً غزيراً بلون الحنطة ، وعيوناً بنية . غير أن الابن الاصغر ، غريغوري ، كان يشبه أباه . وهو أطول من بيوتر بمقدار نصف رأس ، وأصغر منه ست سنوات ، وله ذات الأنف المتدلّي المعقوف الذي كان لأبيه ، أمّا بياض عينيه الملتهبتين فكان مائلاً الى الزرقة داخل شقيهما المنحرفين قليلاً . وكان جلده أسمر مائلاً للحمرة ، مشدوداً على عظام خديه البارزين . وقد احدودب ظهر غريغوري قليلاً ، تماماً كأبيه . حتى في ابتسامته كانت ثمّة سمة متشابهة ، وحشية بعض الشيء .

ويكتمل شمل أسرة ميليخوف بدونيا ، الأثيرة لدى والدها ، وهي صبية نحيفة ذات ذراعين طويلتين وعينين واسعتين ، وداريا ، زوجة بيوتر وطفلها الصغير .

٢

كانت نجمات قليلات تتلألأ في سماء الفجر الرمادي ، والريح تهب عند أعتاب الغيوم . وثمّة ضباب عال يتدحرج فوق الدون ليتجمّع عند منحدر تل طباشيري ، ويزحف داخلاً الأخاديد كما تزحف أفعى رمادية لا رأس لها . وكانت الضفة اليسرى للنهر ، والرمال ، والغدران المعشوشبة ، ومستنقعات القصب ، والأشجار الندية تومض تحت ضياء الفجر البارد الفتان . ووراء الأفق ، كانت الشمس تحترق بلا لهب ، وهي لما تزل متحجبة .

كان بانتلاي بروكوفتش أول من استيقظ في دار ميليخوف ، فخرج الى العتبة وهو يزرر ياقة قميصه المطرّز ، كان الفناء الحشيشي مغطّى بلون فضّي نَدي ، فأطلق الماشية في الشارع . وجرت داريا لتحلب البقرة وهي ماتزال ترتدي قميص النوم ، وتلألأ الندى على سمانتي ساقيها البيضاوين العاريين ، وتركت قدماها على حشيش الفناء أثراً فضّياً .

ووقف بانتلاي بروكوفتش لحظة يراقب الحشيش وهو يستقيم بعد أن تطأه أقدام داريا ، ثم استدار عائداً الى الغرفة .

على افريز النافذة المفتوحة كانت ثمّة أوراق ازهار وردية لشجرة الكرز الآخذة بالتفتّح في الحديقة الأمامية . وكان غريغوري نائماً على وجهه وإحدى ذراعيه مسبلة إلى جانب .

ـ غريغوري ، أتأتي للصيد ؟

فتساءل هامساً وهو ينزل ساقيه من السرير :

ـ ماذا ؟

ـ تعال نخرج للصيد حتى طلوع الشمس .

فسحب غريغوري بنطاله اليومي من المشجب ، وهو يتنفّس من أنفه في تثاقل ، ولبسه ، ودسّه في جواربه الصوفية البيضاء ، وقضى وقتاً طويلاً في لبس حذائه وهو يصلح من وضع أعلى كعبيه المطويين .

وتساءل بصوت أجش فيما كان يتبع أباه الى الممر :

ـ ولكن هل غلت أمي طُعم الصيد ؟

ـ أجل . اذهب الى القارب . سآتي بعد دقيقة .

وصب العجوز الجويدار* المغلي ذا الرائحة النفاذة في إناء ، ولمّ الحبّات المتساقطة بحرص في كفه ومضى يظلع نحو الشاطىء ، فوجد ابنه جالساً في القارب محدودب الظهر .

ـ أين ستذهب ؟

ـ إلى الشاطىء الاسود . وسنجرّب الصيد عند الشجرة الغريقة حيث كنّا نصيد منذ أيام .

انفصل القارب عن الشاطىء ، ومؤخرته تخط على الأرض ، ثم استقر في الماء . وحمله التيار ، وهو يهزّه محاولاً أن يقلبه جانباً ، فيما كان

---

* الجويدار : نبات كالشعير . المترجمون .

غريغوري يقوده بالمجذاف دون أن يجذف .

ـ فيم لا تجذف ؟

ـ لنصل الى وسط التيار أولاً .

وتحرّك القارب باتجاه الضفة اليسرى قاطعاً تيار المجرى الرئيسي . وتعالى وراءهما صياح ديوك القرية الرنان منداحاً فوق الماء بلا رنين . وفيما كان جانب القارب يحتك بالضفة الصخرية السوداء المتعالية فوق النهر ، اقترب من الشق . وعلى مبعدة حوالى عشرة أمتار من الشاطىء ظهرت من الماء أغصان معوجة لشجرة دردار غريقة ، ودارت حولها ودوّمت فقاقيع زبد مضطربة .

همس الأب لابنه :

ـ أحضر الخيط بينما أنثر أنا الطعم .

وغمس يده في فوهة الإناء الذي يتصاعد منه البخار . وتناثر الجويدار في الماء بصوت مسموع كما لو أن أحداً كان يهمس « شش » . ثم لضم غريغوري بعض الحبات المنتفخة في الصنارة ، وتبسّم :

ـ هيا ، يا أسماك! صغيرات وكبيرات معاً!

ونزل الخيط في الماء بدوائر وتوتّر ، ثم ارتخى من جديد حالما وقعت رصاصة الصنارة في القعر . ووضع غريغوري قدمه على نهاية العصا ، ودس يده في جيبه بحذر ليخرج كيس تبغه .

ـ لا حظّ لنا اليوم يا أبتاه . فالقمر في المحاق .

ـ هل جلبت بعض عيدان الكبريت ؟

ـ أي .

ـ أعطني ناراً .

وشرع العجوز يدخن ، وحدّج صوب الشمس الراقدة وراء شجرة الدردار . وأجاب :

ـ يأكل الشبوط الطعم كما يحلو له . فقد يفعل ذلك أحياناً والقمر في أفول .

فتنهد غريغوري :
ـ يبدو أن صغيرات الأسماك ينقرن الطعم .

وتلاطم الماء صخاباً على جانبي القارب ، وقفز الى الأعلى شبوّطٌ طوله أكثر من متر ، زاوٍ كما لوصب من نحاس أحمر ، وهو يئن ، ضارباً الماء بذيله العريض المقوّس . وتناثرت قطرات كبيرة من الرذاذ فوق القارب .

ومسح بانتلاي بروكوفتش لحيته المبللة بكمه :
ـ انتظر الآن!

وإلى جانب الشجرة الغريقة وبين الأغصان العارية المتفرعة ، قفز شبوطان في آن واحد ، وتلوّى ثالث في الهواء ، أصغر حجماً ، ورف بعناء قرب الشاطىء .

* * *

لاك غريغوري بنفاد صبر عقب سيكارته المبلل . وكانت الشمس الموشحة بالضباب قد طلع نصفها الآن . ونثر بانتلاي بروكوفتش بقية الطعم ، وزم شفتيه معبساً وهو يشخص نظره بقساوة على طرف العصا الساكن .

بصق غريغوري عقب سيكارته مراقباً انفلاته السريع في حنق . وفي سرّه كان يلعن أباه لأنه أيقظه في ذلك الوقت المبكّر . ثم إن التدخين ومعدته خالية جعل الدخان يفوح من فمه وكأنّه شعر محروق . وكان على وشك أن ينحني ويغرف بعض الماء في كفه ، حينما تحرّكت نهاية العصا في تلك اللحظة حركة طفيفة وبدأت تغيب في الماء .

همس العجوز :
ـ انتشه!

انتفض غريغوري وأطبق كفيه على العصا ، غير أنها تقوّست وغاص

طرفها بسرعة في المـاء . جرت إلى الاسفل قوة هائلة كقوة الطارة العصا المرنة المصنوعة من الصفصاف الاحمر .

فدمدم العجوز : «أمسكه!» بينما كان يجنح بالقارب بعيداً عن الشاطئ .

حاول غريغوري أن يرفع العصا ، لكن السمكة كانت من القوة بحيث انقطع الخيط الغليظ محدثاً صوتاً جافاً ، فترنّح غريغوري وأوشك أن يسقط .

فتمتم ابوه : «إنها قويّة كالثور» فيما كان يحاول أن يلضم صنارة بشيء من الطعم الجديد دون أن يفلح . أمّا ابنه فقد أطلق ضحكة منفعلة وشد خيطاً جديداً إلى العصا ، وألقى به في الماء . وما كاد الرصاص يصل الى القعر حتّى تقوّس طرف العصا .

فحمحم غريغوري وهو يداور السمكة في طرف الخيط . بصعوبة : «هوذا ابليس!» وجعلت هذه تندفع الى وسط التيار . وشق الخيط صفحة الماء محدثاً حفيفاً عالياً ، مخلفاً وراءه حاجزاً مائياً مخضوضراً . وجعلت أصابع العجوز القصيرة تعبث بمقبض المغرفة بلا تفكير .

ـ لا تدعه يدنو من القارب! حاذر أن يقطع الخيط!

ـ لا تقلق .

وارتفع الى سطح الماء شبوط كبير ، ذو لون أحمر وأصفر ، وخبط الماء محدثاً زبداً ، ثم غاص من جديد إلى الأعماق شاقاً الماء برأسه العريض .

ـ إنه يخلع ذراعي! كلا ، أيها الشبوط ، لن تفلت!

ـ أمسك به ، غريغوري!

ـ إنني ماسكه!

ـ لا تدعه يلجأ الى أسفل القارب! اياك!

وشرع غريغوري ، وهو يستعيد أنفاسه ، يسحب إلى القارب الشبوط

المنهك الراقد على جنبه ، ودفع العجوز المغرفة الى الماء ، لكن الشبوط عاد فغطس من جديد إلى الأعماق بما تبقّى لديه من قوة .

وصاح العجوز :

ـ اجعل رأسه إلى الأعلى! ودعه يبتلع بعض الهواء ، فذلك كفيل بتهدئته!

مرة ثانية ، سحب غريغوري السمكة المتعبة إلى القارب ، فطافت على سطح الماء وفمها مفتوح وأنفها يصطدم بحافة القارب الخشنة ، وزعانفها الذهبية ترف .

فقال بانتلاي بروكوفتش منحنحاً ، فيما كان يرفع الشبوط بالمغرفة :

ـ لقد انتهى أمره!

ولبثا جالسين طوال نصف ساعة أخرى ، لكن سمك الشبوط لم يعد يتواثب .

وأخيراً قال العجوز :

ـ لف الخيط ، يبدو أننا حصلنا على نصيب يومنا .

استعدا للعودة فدفع غريغوري القارب بعيداً عن الشاطىء ، لقد اجتازا نصف الطريق . كان غريغوري يستشف من وجه أبيه أنه كان يريد أن يقول شيئاً ما ، غير أن العجوز جلس يشخص بنظره في صمت الى بيوت القرية المتناثرة على سفح التل .

ثم شرع يتكلم متردداً وهو يجرجر عقدة الكيس تحت قدميه :

ـ اسمع ياغريغوري... لقد لاحظتُ أنك واكسينيا استاخوفا...

فاحمر وجه غريغوري بشدة ، وأدار رأسه . وحزّت ياقة قميصه رقبته الغليظة التي لوحتها الشمس ، وضيقت عليها حتى برز طوق أبيض من البشرة .

واستطرد العجوز ، خشناً ومغضباً هذه المرة :

ـ كن على حذر أيها الفتى ، وإلا فسيكون لي معك حديث من نوع آخر . إن ستيبان جار لنا ، ولن أقبل بأي تعابث مع امرأته . فهذا الضرب من

الأشياء قد يؤدي الى أفدح الضرر ، وأنا أحذرك مقدّماً ، إن وجدتك تعابثها فسأسلخ جلدك!

وضم بانتلاي بروكوفيتش قبضته الناتئة ، وبعينين ضيقتين لاحظ انحسار الدم عن وجه ولده .

تمتم غريغوري بصوت أجش : «كلها أكاذيب» ، وحدّق صوب جسر أنف أبيه المزرق .

ـ اسكت!

ـ الناس ميالون إلى الكلام...

ـ أمسك لسانك يا ابن العاهرة!

فانكب غريغوري على المجذافين ، وتواثب القارب الى الامام ، وجعلت فقاقيع الماء تتراقص مبتعدة عن ذيل القارب في مويجات صغيرة .

ظلا صامتين إلى أن أشرفا على الشاطىء حين ذكّره أبوه قائلاً :

ـ تذكّر ماقلته لك ، وإلا فسأمنعك منذ اليوم من الخروج ليلاً ، وآنئذ لن تستطيع أن تمد قدماً خارج الحوش!

لم يجب غريغوري . وتساءل فيما كان يجنح بالقارب الى الضفة :

ـ هل سأعطي السمكة للنساء ؟

فأجاب العجوز بصوت أرق :

ـ اذهب وبعها ، وبثمنها تستطيع أن تبتاع لك تبغاً . وتبع غريغوري أباه ، وهو يعض شفتيه . وقال في سره : «حاول ذلك ياأبي! فلسوف أخرج الليلة حتى لو علّقت قدمي» وراحت عيناه تنغرزان بقساوة في قفا رأس العجوز .

حين وصل غريغوري إلى الدار ، غسل السمكة بعناية ونظفها من الرمل ، وأدخل عوداً في خياشيمها .

عند بوابة الحوش التقى بصديقه القديم ميتكا كورشونوف . وكان ميتكا يتمشى وهو يعابث طرف حزامه المرصعّ بالفضّة ، وقد تلألأت عيناه

الدائريتان الصفراوان بوقاحة في حدقتيهما الضيقتين . كان بؤبؤا ميتكا مستطيلين كبؤبؤي القطة مما يجعل نظراته زائغة .

ـ أين تذهب بهذه السمكة ؟

ـ لقد صدناها اليوم ، وسوف أبيعها .

ـ لموخوف ؟

ـ أي .

وبنظرة واحدة خمّن ميتكا وزن السمكة .

ـ خمسة عشر رطلاً ؟

ـ خمسة عشر ونصف ، فقد وزنتها على القبان .

ـ خذني معك ، وسأقوم بالمساومة عليها .

ـ هيا إذن .

ـ وما هو نصيبي ؟

ـ لا حاجة بك للتخوف ، فلن يذهب تعبك سدى . كان القداس قد انتهى ، والقرويون الخارجون من الكنيسة يملأون الشوارع .

وكان الاخوة من آل شامل يوسعون الخطى ، ثلاثتهم ، جنباً إلى جنب في الطريق . كان أكبرهم ، أليكسي الأقطع* ، يتوسطهم ، وقد جعلت ياقة قمصلته العسكرية الضيقة رقبته القوية تشرئب منتصبة ، وكانت لحيته الصغيرة المدببة ذات الشعر المجعد الخفيف تتلوى جانباً بشكل متحد ، وعينه اليسرى تطرف بصورة عصبية فقد انفجرت بندقيته بيده أثناء تدربه على الرماية قبل عدة سنوات ، ونفذت شظية طائشة في وجنته ، وهكذا غدت عينه اليسرى تطرف بمناسبة وبدونها ، وكانت ندبة زرقاء تمتد على وجنته إلى أن تختفي وراء شعره الشبيه بألياف القنب . وقد بترت يده اليسرى عند المرفق ، لكن أليكسي معروف بمهارته في لف السيكارة بيد

* الأقطع : ذو الذراع الواحدة . المترجمون .

واحدة . يضغط كيس التبغ على صدره ويقطع الحجم المناسب من الورق بأسنانه ، ويلفه على شكل حوض ، ثم يضع التبغ ويلف السيكارة ، وقبل أن تدرك ما الذي يفعله تجده يسألك ناراً ليشعل سيكارته وهو يطرف بعينه .

وعلى الرغم من أنه ذو ذراع واحدة فإنه أبرع مقاتل في القرية . ولم تكن قبضته ضخمة بصورة متميزة عن القبضات الاعتيادية ـ حوالي حجم القرعة البرية ـ ولكن حدث مرة أن اغاظه ثوره أثناء الحراثة ، ولم يكن يحمل سوطه ، فانهال عليه بضربة من قبضته ، طرحت الثور على أخاديد الأرض المحروثة والدم يتدفق من اذنيه . ولم يستعد الثور صحته إلا بعد جهد . أما الأخوان الآخران ، مارتن وبروخور فقد كانا يشبهان اليكسي حتى في أدق التفاصيل . كانا قصيرين قويين ، مثله ، وعريضي المنكبين ، سوى أن لكل منهما ذراعين .

حيّا غريغوري الأخوة شامل ، غير أن ميتكا واصل السير مشيحاً بوجهه بحدة . ففي مباريات النزال بالقبضات يوم عيد المرفع لم يظهر اليكسي أي اعتبار لأسنان ميتكا اليافعة . فبضربة قوية ، أصابه في فمه وكانت النتيجة أن بصق ميتكا زوجاً من الاسنان الجيدة على الجليد الازرق الرمادي الذي حفرته كعوب الأحذية الحديدية .

وفيما تقدّم اليكسي ناحيتهما ، غمز خمس مرات .

ـ أتبيع حملك ؟

ـ هل تريد أن تبتاعه ؟

ـ بكم ؟

ـ بزوج من الثيران زائداً امرأتك!

فزر اليكسي عينيه وهزهز طرف ذراعيه وقال :

ـ إنك لشخص هزلي! ها ـ ها! زائداً امرأتي! هل ستأخذ أولادها أيضاً ؟

فتبسم غريغوري وقال مازحاً :

أبق لنفسك شيئاً للنسل ، وإلا فسينقرض آل شامل .

في ساحة القرية تجمع القوزاق حول سور الكنيسة . وكان حارس الكنيسة يمسك إوزة فوق رأسه ويصيح : خمسون كوبيكا . هل من مزيد ؟ »

ومدت الإوزة عنقها وجعلت تجيل النظر حولها ، بينما حولت عينها الخرزية بازدراء .

وسط إحدى حلقات الناس كان ثمّة عجوز أشيب يقف ملوحاً بذراعيه ، وصدره مغطى بالأوسمة والميداليات .

فقال ميتكا مشيراً ناحية تلك الحلقة :

ـ إن غريشاكا العجوز يروي إحدى حكاياته عن الحرب التركية . فلنذهب ونستمع إليه .

ـ وبينما نستمع إليه ، سيجيف الشبوط وينتفخ .

ـ إذا انتفخ ، ازداد وزنه وهذا من صالحنا .

في الساحة الواقعة وراء مأوى عربة الحديقة ـ حيث توجد براميل متشققة ذات مقابض مكسورة ـ كان السقف الاخضر لبيت موخوف يرتفع أمام البصر . حين حاذى غريغوري المأوى بصق وسد أنفه : برز عجوز من وراء برميل وهو يزرر سرواله ويمسك حزامه بين أسنانه .

فسأله ميتكا بسخرية :

ـ هل ضايقتك بطنك كثيراً ؟

فأتم العجوز تزرير سرواله ، وأخرج الحزام من بين أسنانه وقال :

ـ مادخلك أنت ؟

ـ يجب أن يدس به ذقنك ولحيتك ، فلا تستطيع امرأتك أن تنظفه حتى لو قضت أسبوعاً في غسله .

فقال العجوز في حنق :

ـ سأدسّك أنت فيه!

فضيق ميتكا عينيه الشبيهتين بعيني القط ، وكأنّما في وهج الشمس .

ـ يالرقتك! أغرب عنّي ياابن العاهرة . فيم تضايقني ؟ أترغب أن تتذوق طعم حزامي ؟

تضاحك غريغوري وتقدّم صوب مدخل بيت موخوف . كان الدرابزين تزينه ضفائر غزيرة من أغصان الكروم البرية ، بينما تظللت الدرجات بظلال كسلى .

ـ انظر كيف يعيش بعض الناس ياميتكا!

ـ حتى مقبض الباب مذهب...

وضحك ميتكا ضحكة قصيرة فيما كان يفتح الباب المؤدي الى الشرفة ، واستطرد :

ـ تصوّر ذلك العجوز وهو يدخل هنا...

ونادى شخص من الجهة الاخرى للباب : «من هناك ؟ » فدخل غريغوري بحياء ، بينما ترك ذيل الشبوط أثراً على ألواح الأرضية المطلية .

ـ من تريد ؟

كانت ثمّة فتاة تجلس في كرسي هزّاز مصنوع من خشب الصفصاف ، وبيدها صحن من الفراولة . وحملق غريغوري بصمت في الشفتين الممتلئتين الورديتين المرسومتين على شكل قلب تحتضنان ثمرة . ونظرت الفتاة الى الفتيين ورأسها مائل الى جانب .

أسرع ميتكا لنجدة غريغوري . فتنحنح وهو يسأل :

ـ أتريدون شراء شيء من السمك ؟

ـ سمك ؟ سأذهب لأستفسر .

وأرجحت كرسيها صعداً ، ثم نهضت وخرجت تصفق بخفيها المطرزين . وتلألأت الشمس خلال ثوبها الأبيض ، ورأى ميتكا معالم باهتة لساقين ممتلئتين ودانتلا قميصها الداخلي العريض المتموج . وأذهله البياض الحريري لسمانتي ساقيها العاريين . أمّا عند كعبيها المكورين الصغيرين ، فقد كان الجلد أصفر بلون الحليب . وقال لاكزاً غريغوري :

ـ انظر أي ثوب! مثل الزجاج تستطيع أن ترى كل شيء خلاله .

وعادت الفتاة من الباب المؤدي الى الممر ، وجلست برشاقة على الكرسي .

ـ اذهب إلى المطبخ .

فسار غريغوري على رؤوس أصابعه داخل البيت . ووقف ميتكا يطرف محملقاً في الخط الأبيض لمفرق شعر الفتاة المقسوم إلى نصفي حلقة ذهبية . وتفحصته هي بعينين مرحتين لا يقر لهما قرار .

ـ أنت من القرية ؟

ـ نعم .

ـ ابن من أنت ؟

ـ ابن كورشونوف .

ـ وما اسمك ؟

ـ ميتري!

وتفحصت أظافرها الوردية بتمعّن ، وبحركة رشيقة ثنت ساقيها الى أعلى .

ـ من منكما اصطاد السمكة ؟

ـ صديقي غريغوري .

ـ وهل تصيد السمك أنت أيضاً ؟

ـ عندما تحدوني الرغبة .

ـ بالخيط والصنارة ؟

ـ نعم .

بعد برهة ، قالت :

ـ أود لو أذهب للصيد يوماً ما .

ـ حسناً ، سآخذك إن رغبت .

ـ حقاً ؟ وكيف يمكننا ترتيب ذلك ؟

ـ يستوجب عليك أن تستيقظي مبكّرة جداً .
ـ سوف أستيقظ مبكّرة ، سوى أن عليك أن توقظني .
ـ بإمكاني أن أفعل هذا . ولكن ماذا عن أبيك ؟
ـ ماذا عن أبي ؟
فتضاحك ميتكا وقال :
ـ قد يحسبني لصاً ويطلق الكلاب عليّ .
ـ هراء! فأنا أنام في الغرفة التي في الزاوية . تلك هي النافذة ـ وأشارت إليها ، واستطردت : ـ اذا جئت تطلبني ، دق على النافذة فأستيقظ .
وبين حين وآخر كان يأتي من ناحية المطبخ صوت غريغوري متهيباً ، ونبرة الطباخة الغليظة المتشحمة . وصمت ميتكا وهو يتحسس فضة حزامه .
ثم سألته بابتسامة خفية :
ـ أنت متزوج ؟
ـ لماذا ؟
ـ اوه ، مجرّد فضول .
ـ كلا ، أنا أعزب .
واحمر وجه ميتكا فجأة ، أمّا هي فعادت تسأله وهي تبتسم في غنج وتعابث غصناً من التوت الشتائي* المتناثر على الأرضية :
ـ وهل تحبّك الفتيات يا ميتيا ؟
ـ بعضهن يحببنني وبعضهن لا يحببنني .
ـ قل لي... ولماذا تشبه عيناك عيني القط ؟
ـ القط ؟
وهنا بلغ ارتباك ميتكا أشدّه .
ـ أجل ، فهما بالضبط كذلك ، كعيني القط .

* التوت الشتائي : المزروع في المنابت الزجاجية . المترجمون .

ـ لابد أنني ورثتهما عن أمي . ليس لي حيلة في الأمر .

ـ ولماذا لايزوجونك يا ميتيا ؟

وأفاق ميتكا من اضطرابه العارض ، وقد أحس بالسخرية الخفية في كلماتها ، وراح صفار عينيه يومض وقال :

ـ لابد للديك أن يشتد عوده قبل أن يبحث له عن دجاجة .

فرفعت حاجبيها دهشة ، واحمر وجهها ، ونهضت عن كرسيها . وكان ثمّة وقع أقدام ترتقي الدرجات من الشارع .

لقد لسعت ابتسامتها العابرة ميتكا كالشوكة . ومرّ بميتكا رب البيت ، سيرغي بلاتونوفيتش موخوف ، حاملاً جسده البدين في اعتزاز ، وهو يجرجر برقّة حذاءه الكبير المصنوع من جلد الجدي .

وتساءل ، فيما كان يمر دونما التفاتة من رأسه :

ـ أيريدني هذا الشخص ؟

ـ لقد جلبا شيئاً من السمك يا بابا .

وظهر غريغوري بدون شبوطه .

٣

كان صياح أول ديك قد انطلق حينما عاد غريغوري من سهرته تلك الليلة . وانبعث من ناحية الردهة عبير الكروم الحامضة ونبات الكرنب الشوكي ذي الرائحة النفّاذة .

مشى على أطراف أصابعه إلى الغرفة ، خلع ملابسه ، وعلّق سروال يوم الاحد بعناية ، ورسم إشارة الصليب واستلقى . كانت على أرضية الغرفة بركة ذهبية من ضوء القمر ، تتقاطع عليها ظلال النافذة . وفي الزاوية التمعت فضة الإيقونات باهتة تحت المناشف المطرزة ، وانبعث من الرف المثبّت فوق السرير طنين متكاسل لذباب مستثار .

وكاد ينام لولا أن ابن اخيه شرع يبكي في المطبخ . وبدأ المهد يصر كعجلة عربة غير مشحّمة . وسمع داريا ، زوجة أخيه ، تتمتم بصوت نعسان : «نم أيها الملعون الصغير! أنت لاتدعني أظفر بلحظة هدوء!» وشرعت تترنم للطفل برقّة :

اوه ، أين كنت إذن ؟
كنت أراقب الخيل
وماالذي رأيت ؟
رأيت حصاناً ذا سرج
مقصّباً ، كلّه ، بالذهب...

وفيما غريغوري يغفو على صرير المهد المنتظم المريح ، تذكّر : «غداً ، سيرحل بيوتر إلى المعسكر ، تاركاً داريا مع الطفل... سيتوجّب علينا أن نقوم بالحش بدونه» .

ودفن رأسه في وسادته الحارة ، غير أن تنويمة داريا ظلّت تنفذ إلى إذنه بإصرار :

وأين هو حصانك ؟
خارج البوابة
وأين هي البوابة ؟
جرفها الفيضان بعيداً

وانبعث صهيل قوي أطار من عينيه النوم ، وأدرك من نبرته أنه حصان بيوتر العسكري . وامتدت أصابعه الخدرة ليزرر قميصه بتثاقل ، وكاد أن يلفّه النوم من جديد على وقع أغنية داريا المنساب :

وأين هو الإوز ؟

راح الى القصب
وأين هو القصب ؟
قطعته الصبايا
وأين هن الصبايا ؟
الصبايا تزوجن
وأين هم القوزاق ؟
ذهبوا الى الحرب

توجّه غريغوري النعسان إلى الإسطبل وقاد حصان بيوتر إلى الشارع . وفارقه النعاس من غير ما توقّع حينما دغدغ وجهه نسيج عنكبوت طائر .

عبر الدون ، انتشر ضوء القمر متراقصاً ، لايطاله الموج أبداً . وتعلّق فوق النهر ضباب ، وفوق الضباب نجوم ، كحبات قمح متلألئات . وفي حذر شديد تهجس الحصان طريقه بحوافره ، فالمنحدر إلى النهر صعب الارتياد ، ومن الجانب الأقصى للنهر تناهى صياح البط . وقفزت سمكة قرموط محدثة رذاذاً على الشاطىء الطيني الضحل ، تبحث على غير هدى عن سميكات أصغر .

وقف غريغوري وقتاً طويلاً إزاء النهر . كان الشاطىء ينضح برطوبة وعفونة شديدتين . سقطت من شفتي الحصان رذاذة ماء . كان ثمة فراغ رقيق وبهيج في فؤاد غريغوري ، وغمره شعور بالطيبة وصفاء البال . وفيما انثنى عائداً حدق صوب الشرق حيث شرعت عتمة الليل الزرقاء تنجاب رويداً رويداً .

والتقى بأمه عند الاصطبل .

ـ أهذا أنت ياغريشا* ؟

---

* صيغة تحبب لاسم غريغوري . المترجمون ، .

ـ ومن عسى أن يكون ؟
ـ هل أوردت الحصان ؟
فأجابها باقتضاب أن : «نعم» . وألقت أمه رأسها إلى الوراء وهي تحمل ملء صدريتها روثاً جافاً للموقد ، وقدماها الحافيتان المتيبستان تصطفقان على الأرض .
ـ هلاّ ذهبت لإيقاظ آل استاخوف . فقد قال ستيبان أنه سيمضي مع ولدنا بيوتر .
وأشاعت رطوبة الصباح قشعريرة باردة راعشة في غريغوري ، وسرت في جسمه وخزات مخدرة . وجرى صاعداً الدرجات الثلاث ذات الصدى المتجاوب الى دار استاخوف . كان الباب مرفوع المزلاج ، وكان ستيبان نائماً على فرشة في المطبخ ورأس زوجته تحت إبطه .
وعلى ضوء الفجر الشاحب رأى غريغوري قميص نوم اكسينيا منحسراً فوق ركبتيها ، ونظر إلى ساقيها المنفرجتين بلا حياء بيضاوين كلحاء نبات البتولا . فوقف لحظة يحملق ، وهو يحس بجفاف يزحف في حلقه ودوي حديدي يتفجّر في رأسه . جعل يسترق النظر . ثم نادى بصوت أجش غريب :
ـ هاي! هل من أحد هنا ؟ استيقظوا!
وتنهدت اكسينيا بعمق وهي تستيقظ .
ـ اوه ، من هذا ؟
ومدت يدها العارية وشرعت تتحسس قميصها باستعجال ، مسوّية إياه فوق ساقيها . وكان ثمّة قطرة صغيرة من الرضاب على وسادتها : فنوم النساء عميق عند الفجر .
ـ هوذا أنا . أرسلتني أمّي لأوقظكما .
ـ سننهض بعد لحظة . إننا نائمان على الأرض بسبب من البراغيث . قم يا ستيبان ، ألا تسمعني ؟

وخمّن غريغوري من صوتها أنها شعرت بالحرج ، فأسرع بالخروج .

* * *

ثمّة ثلاثون قوزاقياً سيذهبون الى معسكر ربيعي للتدريب ومكان اجتماعهم ساحة القرية . وقبيل الساعة السابعة بدأت تتوارد على ساحة القرية عربات ذات أغطية مشمعية ، وقوزاق مشاة وخيّالة يرتدون قمصاناً خفيفة ويحملون عُددهم .

كان بيوتر واقفاً عند عتبة الدار وهو يخيط باستعجال عناناً مقطوعاً . وكان بانتلاي بروكوفيتش يظلع حول حصان بيوتر ، ويضع شوفاناً في معلفه ، ويصيح من حين لآخر :

ـ دونيا ، ألم تضعي كسرات الخبز في الكيس بعد ؟ هل ملّحت شرائح لحم الخنزير ؟

وكانت دونيا تنطلق كالسنونو رائحة غادية ، متوردة الوجنتين ومتفتحة كالبرعم ، وهي ترد على صيحات أبيها بالضحك :

ـ عليك بما يخصّك يا أبتاه ، وأنا سأحزم متاع أخي بصورة متقنة بحيث لن يتحرك منه شيء حتى يصل تشركاسك .

وسأل بيوتر والده وهو يومىء برأسه الى الحصان ويبلل الخيط برضابه :

ـ ألم ينته من طعامه بعد ؟

فأجاب أبوه متأنياً : «لم ينته بعد» فيما كان يفحص مرشحة السرج بكفه الخشن ، فإن وجود عشبة أو كسرة خبز صغيرة عالقة بالمرشحة قمينة ، خلال مسيرة واحدة ، بحز ظهر الحصان وجعله يتقيّح .

ـ حينما ينتهي من طعامه ، أورده ياأبي .

ـ سينزل به غريشا الى الدون . ياغريغوري قد الحصان إلى النهر!

أخذ غريغوري الحصان الطويل الضامر ، ذا الغرّة البيضاء ، وقاده خلال البوابة ، ثم قفز إلى ظهره مسنداً يده اليسرى برفق على غاربه ، ومضى في

خبب متمايل . وحاول أن يكبح جماح الحصان عند النزول الى النهر ، غير أن الحيوان أسرع الخطى وجرى نازلاً المنحدر . وفيما أرجع غريغوري ظهره إلى الوراءحتى كاد أن ينطبق على العمود الفقري للحصان ، رأى امرأة تحمل سطلين نازلة التل . فانحرف بحدّة عن الممشى وانطلق الى الماء مخلفاً وراءه مثاراً من النقع .

جاءت اكسينيا هابطة المنحدر وهي تتمايل ، وصاحت بصوت زاعق من بعيد :

ـ أيها الشيطان المجنون! كدت تدحرجني بحصانك . ألا انتظر ، فلسوف أحكي لوالدك كيف تركب .

ـ لا ياجارتي ، لا تغضبي . فحينما تودعين زوجك الذاهب الى المعسكر ، قد أكون ذا فائدة في بيتك .

ـ وكيف بحق الشيطان ستكون ذا فائدة لي ؟

وتضاحك غريغوري قائلاً :

ـ ستطلبينني حينما يحل موسم الحصاد .

وغرفت اكسينيا بمهارة سطلاً مليئاً بماء النهر ، وحبست تنورتها بين ركبتيها لتحميها من الريح ونظرت إلى غريغوري .

سألها غريغوري :

ـ هل تهيأ ستيبان للرحيل ؟

ـ وما دخلك أنت ؟

ـ أية نارية أنت! ألا يجوز السؤال ؟

ـ حسناً ، لقد تهيأ . ثم ماذا ؟

ـ إذن ستصبحين امرأة بلا رجل ؟

ـ نعم .

رفع الحصان شفتيه من الماء ، صرّ بأسنانه وهو يحاول أن يلوك الماء وضرب سطح الماء بحافره الأمامي شاخصاً عبر الدون . أمّا اكسينيا فقد

ملأت سطلها الثاني ، ورفعت النير الى كتفيها ، وبخطوات متمايلة جعلت ترتقي المنحدر ، فأدار غريغوري حصانه وتبعها في حين خفقت الريح بتنورتها وتعابثت بجعدات شعرها اللطيف الناعم على رقبتها السمراء . وتوهجت عصابتها المطرزة بالحرير الملون فوق عقصتها الغزيرة ، والتم قميصها الوردي في تنورتها عند الخصر ، والتصق في نعومة بظهرها المنتصب وكتفيها المرصوصين . وبينما كانت تتسلق المرتقى انحنت إلى الأمام ، فبان المنخفض مابين كتفيها واضحاً تحت قميصها ، ورأى غريغوري حلقات إبطها السمر ، حيث تبقّع قميصها بالعرق . وظل يراقبها في كل لحظة ، وألحّت عليه الرغبة في مواصلة الحديث معها .

ـ ستفتقدين زوجك ، أليس كذلك ؟

وبدون أن تتوقف ، التفتت اكسينيا وتبسمت .

ـ بالطبع سأفتقده . تزوّج أنت وسترى ما إذا كنت ستفتقد حبيبتك أم لا .

قالت هذا بصوت متقطّع وهي تتنفس بصعوبة .

واقترب غريغوري بحصانه منها حتى حاذاها ، ونظر في عينيها .

ـ ولكن ثمّة زوجات أخريات يسعدن بذهاب أزواجهن . فهذه داريا ستسمن في غياب بيوتر .

ارتجف منخرا اكسينيا من شدّة تنفسها وسوّت شعرها وقالت :

ـ ليس الزوج دودة علق ، مع أنّه يمتص الدم .

ثم تساءلت :

ـ هل سنراك متزوجاً عمّا قريب ؟

ـ أنا لاأدري ، فالموضوع يعتمد على والدي . ربّما بعد خدمتي العسكرية .

ـ لازلت يافعاً ، فلا تتزوج .

ـ ولم لا ؟

ـ الزواج ضجر لاغير .

وتطلعت من تحت حاجبيها ، وابتسمت بكآبة دون أن تنفرج شفتاها . فلاحظ غريغوري لأول مرة أن لها شفتين شرهتين بلا حياء وممتلئتين نوعاً ما . وأجاب وهو يمرر أصابعه على عرف الحصان :

ـ أنا لا أريد أن أتزوج . فثمة من ستحبني دونما زواج .

ـ هل لاحظت واحدة ، إذن ؟

ـ من عساي ألاحظ ؟ فها أنت الآن وأنت تودعين زوجك...

ـ لاتحاول أن تتعابث معي!

ـ وما الذي ستفعلين إن حاولت ؟

ـ سأخبر ستيبان .

ـ وأنا سألقن ستيبان هذا درساً...

ـ أنت معتد بنفسك كالديك ، ولكن إياك أن تكون أول من يصيح .

ـ لا تحاولي أن ترهبيني يا اكسينيا!

ـ أنا لا أحاول إرهابك . تعابث مع الفتيات ، وليطرزن لك مناديلك ، ولكن اصرف نظرك عني .

ـ سأنظر إليك أكثر الآن .

ـ حسناً ، فانظر إذن .

وأعطته اكسينيا ابتسامة مصالحة ، وحادت عن الممشى محاولة المرور من جانب الحصان . فأدار غريغوري الحصان جانباً وسدّ عليها الطريق .

ـ دعني أمر ياغريشا .

ـ لن أدعك .

ـ لاتكن أحمق ، فيجب أن أعين زوجي .

فاستفز غريغوري الحصان مبتسماً ، وحاصر اكسينيا عند الضفة ، فقالت :

ـ دعني أمر أيها الشيطان! فثمة اناس فوقنا . ماذا عساهم يظنون لوشاهدونا ؟

وتلفتت حولها في نظرة وجلة ، وتخطّته مقطبة دون أن تلتفت الى الخلف .

كان بيوتر يودّع عائلته عند درجات الباب . فأسرج غريغوري الحصان .وأسرع أخوه هابطاً الدرجات وهو يشد على سيفه إلى جانبه وأمسك بالأعنّة . وراوح الحصان في اضطراب وهو يتحسس بالطريق الطويل ، وجعل يلوك اللجام . وقال بيوتر لأبيه وقد وضع قدماً في الركاب وأمسك بالسرج :

ـ لا ترهق الخيل ذوات الطرر البيض ياأبي ، فإننا سنبيعها في الخريف . وسيحتاج غريغوري إلى حصان في الجيش ، كما تعلم . ولا تبع حشائش السهب . فأنت نفسك تعلم أي تبن قد نحصل عليه من المرج هذا العام .

فأجاب العجوز راسماً إشارة الصليب :

ـ حسناً... ليكن الله معك . حظاً سعيداً .

فألقى بيوتر بجسمه الصلب على السرج بحركة معتادة ، وسوّى طيّات قميصه في نطاقه من الخلف . وتحرّك الحصان صوب البوابة ، واهتز السيف بإيقاع فيما كانت رمانته تتلامع باهتة في ضوء الشمس .

وتبعته داريا والطفل على ذراعيها ، بينما وقفت أمه وسط الحوش تمسح عينيها بكمها وأنفها بطرف صدريتها .

ومرقت دونيا الى البوابة تصيح :

ـ يا أخي! الفطائر! لقد نسيت الفطائر! فطائر البطاطة!

صاح بها غريغوري متضايقاً :

ـ فيم هذا الزعيق ، ياحمقاء ؟

ـ لقد ترك فطائره وراح ـ وانتحبت دونيا مستندة الى عمود البوابة ، وجرت الدموع على خديها الملتهبين وسالت على بلوزتها البسيطة .

وظللت داريا عينيها بكفها ، ووقفت تشخص إلى قميص زوجها الأبيض خلال ستار من التراب . وهز بانتلاي بروكوفيتش العجوز عمود البوابة المتهرئ ، ونظر إلى غريغوري قائلاً :

ـ أصلح البـوابة ، وضع عـموداً جـديداً لـها . ـ ووقف لحظة يفكّر ، ثم أعلن كما تعلن الأخبار : ـ رحل بيوتر .

ورأى غريغوري ستيبان ، عبر السياج المضفور ، يتهيأ للرحيل ، بينما أخرجت اكسينيا حصانه ، وهي ترتدي تنورة صوفية خضراء جميلة . وقال لها ستيبان شيئاً وهو يبتسم ، ومن غير ما استعجال قبّل زوجته باعتداد ، وترك ذراعه حول كتفها لوقت طويل . وبدت يده التي لفحتها الشمس والأشغال المـرهقة سـوداء كالفحم إزاء قـميـصها الأبيض . كـان يقف وظهره صـوب غريغوري ، ورقبته القائمة الحليقة ، وكتفاه العريضتان المتهدلتان بعض الشيء ، وذؤابة أحد شاربيه المفتولين ، تبدو عبر السياج كلّما مال على زوجته .

وضحكت اكسينيا لشيء ما وهزّت رأسها بالنفي . وتمايل الجواد الضخم الأدهم قليلاً حينما ألقى ستيبان جرمه الثقيل على السرج . ومضى بحصانه عبر البوابة مستعجلاً ، وقد بدا وكأنّه مزروع على السرج ، وسارت اكسينيا إلى جانبه وهي تمسك بالركاب وتنظر كالكلبة في عينيه من أسفل الى أعلى بوجد ونهم .

وظل غريغوري يراقبهما بنظرة طويلة لاتطرف حتى مرّا ببيت مجاور واختفيا وراء منعطف الطريق .

٤

قبيل المساء بدأت عاصفة رعدية ، وامتدّت طبقة من السحب الثقيلة فوق القرية . وأهاجت الريح نهر الدون فجعل يرسل أمواجاً كاسرة مزبدة صوب ضفتيه ، وأومضت السماء ببرق جاف ، وبين آونة وأخرى كانت الأرض تهتز بقصف الرعد . وحوّمت حدأة بجناحين منشورين تحت الغيوم ، وطاردتها غربان ناعقة . وعبرت الغيمة نهر الدون من الغرب ، ناشرة

أنفاسها الباردة . وادلهمّت السماء متوعدة وراء المروج ، وامتد السهب في صمت وترقّب . وفي القرية ، كان ثمّة اصطفاق ينبعث من صفاقات النوافذ المغلقة ، وأسرعت العجائز عائدات الى بيوتهن من صلاة المغرب وهن يرسمن علامة الصليب . ودوّم عمود رمادي من الغبار فوق ساحة القرية ، وكانت أولى قطرات المطر تهبط على الأرض التي أرهقها الحر الربيعي .

جرت دونيا عبر الحوش ، هازة ضفائرها المجدولة ، وصفقت باب بيت الدجاج ، ووقفت وسط الحوش ومنخراها منتفخان كحصان يتهيأ لطفر الموانع . وفي الشارع كان الأطفال يتقافزون هنا وهناك . وكان ميشكا ابن الجار ، ذو الثمانية أعوام ، يدور حول نفسه على رجل واحدة ، وقبعة أبيه الواسعة بشكل غير معقول تغطّي رأسه حتّى عينيه ، ويهزج بصوت حاد :

رُحْ ، رُحْ ، يامطر
فنحن خارجون
لنوفي ربّنا النذر
ولننحني للمسيح

راقبت دونيا بغبطة قدمي ميشكا الحافيتين الخشنتين تضربان الأرض . هي ، الأخرى ، ودّت لو ترقص في المطر وتبلل رأسها ، كي يغزر شعرها ويتجعّد ، وهي ، الاخرى ، ودّت لو تقف على يديها فوق التراب على جانب الطريق ، كما يفعل صديق ميشكا ، مجازفة بالسقوط على الاعشاب الشوكية . لكنّ أمها كانت ترافقبها وتحرّك شفتيها مُغضبة من وراء الشبّاك . فتنهدت وجرت إلى الدار . وكان المطر آنذاك ينهمر بغزارة ، وقرقع رعد فوق سطح الدار تماماً ، ثم انحدر مبتعداً عبر الدون .

في الممر كان بانتلاي بروكوفيتش وغريغوري الناضح عرقاً ، يجرجران شبكة صيد ثقيلة ملفوفة من الغرفة الجانبية .

وصاح غريغوري على دونيا : «هاتي خيطاً غليظاً ومخيطاً ، بسرعة!»
وأشعلوا المصباح في المطبخ . وقعدت داريا لتصلح الشبكة . وتأففت حماتها فيما كانت تهزهز الطفل :

ـ ماذا في دماغك يارجل! فلنذهب إلى الفراش . لقد زادت كلفة الكاز أكثر وأكثر وأنت لاتبخل به . فما عساكم تصيدون الآن ؟ وأين تراكم ذاهبون بحق الطاعون ؟ قد تغرقون ، انظروا إلى ما يجري في الحوش! فغضب الله مسلّط على رؤوسنا . ياللبرق الرهيب! ياسيدي عيسى المسيح ، ياأم السماوات...

ولبرهة ، كان كل شيء أزرق زاهياً وساكناً داخل المطبخ ، وكان بالإمكان سماع المطر ينقر صفاقات النافذة . وتلا ذلك قصف الرعد . فندت عن دونيا شهقة متكسرة وأخفت وجهها في الشبكة . ورسمت داريا علامة الصليب إزاء النوافذ والباب . وحملقت العجوز بعينين مخيفتين في القطة المتمسحة برجليها :

ـ دونيا ، اطردي هذه الملعونة... يا أم السماوات ، اغفري لي ذنوبي... دونيا ، أخرجي القطة إلى الحوش . بست ، ياروح الشر! فلتنزل عليك...

واهتز غريغوري في ضحك صامت وهو يلقي الشبكة .

ـ حسناً ، فيم ضجيجك هذا ؟ ـ صاح بانتلاي بروكوفيتش ، وأردف : ـ أسرعن بعملكن يانسوة . لقد أخبرتكن ذاك اليوم أن تعنين بالشبكة .

فتجرأت زوجته قائلة :

ـ ليس ثمّة سمك في الوقت الحاضر .

ـ إن كنت لا تفهمين ، فأمسكي لسانك! سنصيد أسماك الحفش الصغيرة في الأماكن الضحلة . ستجنح أسماك الحفش الصغيرة نحو الضفاف الآن ، فهي تخاف العواصف . ولابد أن يكون الماء طينياً الآن . دونيا ، اخرجي لتتسمعي إلى المجرى فيما إذا كان سريعاً .

فتقدمت دونيا صوب الباب في تردد .

أما الأم فما كان لها إلا أن تسكت ، وألحّت قائلة :

ـ ومن الذي سيخوض معك ؟ داريا لا يجب أن تفعل ذلك ، فقد يصيب البرد صدرها .

ـ أنا وغريغوري ، وأما بشأن الشبكة الاخرى... فسننادي على اكسينيا وامرأة أخرى .

وجرت دونيا الى الداخل منقطعة الانفاس ، وقد علقت بأهدابها قطرات مطر متراقصة ، وفاحت منها رائحة التراب الأسود الرطب . وقالت لاهثة :

ـ إن المجرى يهدر أيما هدير .

ـ هل تأتين أنت أيضاً ؟

ـ ومن غيري ذاهب ؟

ـ سنأخذ بعض النساء .

ـ حسن .

فقال لها أبوها :

ـ ضعي عليك معطفك واجري الى اكسينيا . فإن رغبت في المجيء معنا ، اطلبي منها أن تحضر مالاشكا فرولوفا أيضاً .

فقال غريغوري بابتسام :

ـ أمّا تلك ، فلن يجمدها البرد ، فهي سمينة كالخنزير .

أسدت أم غريغوري نصيحة إليه : ـ لم لا تأخذ شيئاً من القش ، غريشا أيها العزيز ؟ احش بعضاً منه تحت قلبك ، وإلا ستصيبك نزلة في داخلك .

ـ أجل ياغريغوري ، اذهب وأحضر بعض القش ، فالعجوز على حق بين .

عادت دونيا بسرعة مع المرأتين . وبدت اكسينيا بتنورتها الزرقاء وسترتها الممزقة والمحزومة بحبل ، أقصر وأكثر نحافة . وفيما كانت تتبادل الضحكات مع داريا ، نزعت عصابة رأسها . ولفّت شعرها في عقصة أكثر إحكاماً ، وإذ كانت تلقي برأسها الى الوراء حين وضعت عصابتها على رأسها

من جديد ، شخصت ببصرها الى غريغوري في برود . وقالت مالاشكا البدينة بصوت مبحوح وهي تشد جوربيها :

ـ هل أحضرتم الاكياس ؟ قسماً بالرب سنصطاد السمك عن آخره ، اليوم .

وذهب الجميع الى الحوش . كان المطر لا يزال ينهمر بغزارة على الأرض المنقوعة ، تاركاً على البرك زبداً ، ومتدفقاً صوب الدون في جداول .

قادهم غريغوري في طريق النزول إلى النهر . ومن غير ما سبب ، أحس فجأة بالمرح الشديد .

ـ حذار من الحفرة ، ياأبتي .

ـ ما أشد الظلمة!

وقالت مالاشكا متضاحكة بصوت خشن :

ـ تشبثي بي ، ياأكسينيا . سنهلك معاً .

ـ أليس هذا هو مرسى ميدانيكوف ، ياغريغوري ؟

ـ هو بالذات .

وصاح بانتلاي بروكوفيتش فوق زئير الريح :

ـ ابدأوا من هنا .

وانطلق صوت مالاشكا الأجش :

ـ لا أستطيع أن أسمعك ياعم .

ـ ابدأوا بالخوض والله في عونكم ، وأنا سآخذ الجانب العميق... العميق... أقول يامالاشكا ، أيتها الشيطانة الصماء ، الى أين تجرجرين الشبكة ؟ ها أنا ذاهب نحو الجوانب العميقة... غريغوري ، غريشا ، دع اكسينيا تأخذ جانب الضفة!

ويزأر الدون زئيراً مزمجراً ، والريح تمزّق صفحة المطر المائل شذر مذر .

خاض غريغوري ، متحسساً القاع بقدميه ، حتّى بلغ الماء خصره . وزحفت إلى صدره برودة ثقيلة ، حتّى ضيقت الخناق على قلبه ، وكانت الأمواج تضرب وجهه وعينيه المخاوصتين بإحكام ، كما يضرب السوط . وتجوفت الشبكة وانجرفت نحو الاعماق وتزحلقت قدما غريغوري الملفوفتان بجوارب صوفية فوق القاع الرملي . انفلتت الشبكة من يده ، أعمق فأعمق . وهوى فجأة ، وانجرفت ساقاه . ثم انتشله التيار وحمله إلى وسط المجرى . فراح يجذف بذراعه اليمنى بعنف عائداً الى الضفة . لقد أخافته الأعماق المدوّمة السوداء كما لم تخفه من قبل . وتحسست قدماه ، فرحتين ، القاع الطيني . واصطدمت سمكة بركبتيه .

ـ خذها إلى الأعماق! ـ هكذا تناهى إليه صوت أبيه من الظلمة المخيفة .

ومرة أخرى غاصت الشبكة المائلة إلى الأعماق ، ومن جديد جرف التيار قدمي غريغوري عن القاع ، وسبح نافثاً الماء رافعاً رأسه .

ـ اكسينيا ، هل أنت بخير ؟

ـ بخير ، حتّى الآن .

ـ ألن يتوقف المطر ؟

ـ بلى ، سيتوقف الرذاذ ، ليبدأ فوقنا المطر الثقيل .

ـ تكلمي بهدوء . فلو سمعنا أبي ، فسيصب جام غضبه عليّ .

ـ خائف من أبيك . هه ؟

مرت لحظة ، وهما يجرجران الشبكة في صمت . ويحول الماء دون أي حركة مثل عجين لزج .

ـ غريشا ، ثمّة شجرة غريقة إزاء الضفة ، كما أتصوّر! لابد لنا أن نجنّب الشبكة منها .

وطوّحت غريغوري موجة لاطمة فظيعة الى بعد كبير عنها . بدا وكأن كتلة هائلة من التراب قد انفصلت عن الجرف وهوت في الماء فأثارت موجة صاخبة .

ـ آه ـ آه ـ صاحت اكسينيا من مكان ما قرب الضفّة . فشرع غريغوري يسبح ، باتجاه صياحها والرعب يتملكه .

ـ اكسينيا!

ريح ، وزئير الماء الدفوق .

ـ اكسينيا! ـ صاح غريغوري ثانية ، ورعشة الخوف تغشاه .

ـ ايه ، غريغوري ـ تناهى إليه صوت أبيه من بعيد . وصار يضرب الماء بضراوة . تحسس شيئاً لزقاً تحت قدميه ، فأمسكه بيده : لقد كانت الشبكة .

وجاء صوتها مختنقاً بالدموع : «غريشا ، أين أنت ؟» فزعق غاضباً فيما كان يحبو على يديه وركبتيه صاعداً الى الضفة :

ـ لم لم تجيبي ندائي ؟

وأخذا يسوّيان الشبكة الملتفة المشربكة ، جالسين القرفصاء على أعقابهما وهما يرتجفان . وأطل القمر خلال فرجة مشروخة لإحدى الغيمات . كان ثمة همهمة مكتومة للرعد فيما وراء المروج ، وتلامعت الأرض بالبلل ، وبدت السماء ، غب استحمامها بالمطر ، صاحية باردة .

وبينما كان غريغوري يفك الشبكة ، تفرّس في اكسينيا . كان وجهها أبيض كالطباشير ، لكنّ شفتيها الحمراوين الغليظتين قليلاً كانتا تبتسمان . وكانت تقول بصوت منقطع لتستعيد أنفاسها :

ـ ليتك رأيت كيف ارتطمت بالضفّة! كدت أفقد عقلي . كنت خائفة حتّى الموت . فقد ظننت أنك قد غرقت .

تلامست يداهما ، وحاولت اكسينيا أن تدس يدها في كم قميصه .

ـ ما أدفأ ذراعك ـ قالت ذلك متشكية وأضافت : ـ فأنا جمدانة! والقشعريرة تسري في جسمي .

ـ انظري كيف انفلت هذا النغل ، ـ وأطلعها غريغوري على ثقب في وسط الشبكة ، قطره أكثر من متر .

وجاء شخص راكضاً على الضفّة . وخمّن غريغوري أنها دونيا ، فصاح عليها من بعيد :

ـ هل جلبت الخيط ؟

أجابت دونيا وهي تقترب منهما لاهثة :

ـ أجل ، لماذا جالسان هنا ؟ لقد أرسلني أبي إليكما لتذهبا في الحال إلى رأس الضفة ، لقد صدنا ملء الكيس حفشاً صغيراً .

وكان في صوتها رنّة انتصار جلي .

رتقت أكسينيا الثقب في الشبكة ، وأسنانها تصطك برداً . ولأجل أن يدفأوا ، قطعوا المسافة إلى رأس الضفة ركضاً .

كان بانتلاي بروكوفيتش يلف سيجارة بأصابع متشققة ، ومتورمة من الماء . وقال متفاخراً ، وهو يحرك قدميه كأنه يرقص :

ـ في المرة الأولى ، ثماني سمكات ولكن في المرة الثانية ... ـ وتوقف برهة يشعل سيجارته ، ثم أشار بقدمه إلى الكيس دون أن يقول شيئاً . فنظرت أكسينيا بفضول إلى داخل الكيس ، حيث انبعثت منه حسحسة السمك المضطرب ، يتزحلق بعضه فوق بعض .

ـ أين كنتما ؟

ـ لقد أحدثت سمكة قرموط ثقباً في شبكتنا .

ـ هل أصلحتماها ؟

ـ نعم ، بصورة ما .

ـ طيب . سوف نخوض مرة أخرى إلى ركبنا ، ومن ثم إلى الدار . انزل ياغريشا ، ماذا تنتظر ؟

وخطا غريغوري نحو النهر وساقاه خدرتان . وكانت أكسينيا ترتعش بشدة حتى أنه شعر بالشبكة تهتز معها .

ـ لاترتعشي!

ـ بودي لو استطعت ، لكن ستختنق أنفاسي .

ـ أصغي إلي! فلنخرج ، وعلى السمك اللعنة!

وفي تلك اللحظة وثب فوق الشبكة شبوط كبير ، فضيق غريغوري دائرة الشبكة . وتحاملت أكسينيا على نفسها حتى بلغت الضفة . وعلى الرمال تناثرت المياه ثم كرت منحسرة ، بينما استلقى السمك مرتعشاً في الشبكة .

ـ هل سنعود عن طريق المرج ؟

ـ العودة أقرب عبر الغابة . هاي ، أنتم ، يامن هناك . هل أنتم قادمون ؟

ـ اذهبا قبلنا . سنلحق بكما . فنحن نقوم بتنظيف الشبكة .

عصرت أكسينيا تنورتها ، عابسة الوجه ، وألقت كيس السمك على كتفها وانطلقت راكضة . التقط غريغوري الشبكة . وكانا قد قطعا حوالي مائتي خطوة حين بدأت أكسينيا تئن :

ـ لم أعد أقوى على السير ، فساقاي خدرتان .

ـ انظري ، ثمة كومة قش عتيقة . لماذا لاتتدفأي فيها ؟

ـ شيء حسن! وإلا لن أصل بيتي .

فأزاح غريغوري ذروة الكومة وحفر حفرة ، فانبعثت من القش المتروك زمناً طويلاً رائحة دفء وعفونة .

ـ ازحفي إلى الوسط إنه كالفرن هنا . فألقت عنها الكيس ودفنت نفسها بالقش حتى الرقبة .

واستلقى غريغوري إلى جانبها وهو يرتعش من البرد وانبعثت رائحة لطيفة مثيرة من شعرها المبلل . كانت قد استلقت ورأسها ملقى إلى الوراء وهي تتنفس بانتظام من فمها المنفرج . همس غريغوري مائلاً نحوها :

ـ إن لشعرك رائحة كرائحة السيكران . أتعرفين تلك الزهرة البيضاء ؟

التزمت الصمت . كانت نظرتها غائمة وبعيدة ، ومثبتة على الهلال الأفل .

أخرجَ غريغوري يده من جيبه ، وجذب رأسها إليه فجأة . فانتزعت نفسها منه بعنف . وقامت من القش .

ـ تخلّ عني!

ـ اهدأي .

ـ تخلّ عني ، وإلا صرخت !

ـ انتظري ياأكسينيا!

ـ ياعمي بانتلاي! وانبعث بانتلاي بروكوفيتش قريباً جداً ، من وراء أجمة من شجيرات الزعرور البري :

ـ هل ضللت الطريق ؟

فقفز غريغوري من كومة القش وهو يصر بأسنانه . وتساءل العجوز من جديد وهو يتقدم نحوها :

ـ فيمَ صراخك ؟ هل تهت ؟

فوقفت أكسينيا إزاء كومة القش تصلح من وضع عصابتها ، والبخار يتصاعد من ملابسها .

ـ لم أته ، ولكنني أكاد أتجمد .

فقال لها العجوز :

ـ انظري ياامرأة ، ثمة كومة قش ، تدفأي فيها . وتبسمت أكسينيا وهي تنحني لترفع الكيس .

٥

يبعد معسكر التدريب في قرية سيتراكوفو حوالي ٦٠ فرستا* . وقد ركب بيوتر ميليخوف وستيبان ستاخوف في عربة واحدة ، وكان برفقتهما ثلاثة

---

* فرستا : مقياس طول روسي قديم ، يساوي ١,٠٦ كيلومتر . المترجمون .

آخرون من قريتهم : فيدوت بودوفسكوف ، وهو قوزاقي شاب له وجه كالميكي مجدور ، وكريسانف توكين الذي يلقب بكريستونيا وهو جندي احتياط من الوجبة الثانية في كتيبة حرس الأتمان* ، وإيفان توميلين ، المدفعي الذي كان يتوجه الى قرية بريسيانوفكا . وبعد أن توقفوا لإطعام الأحصنة ، شدوا حصاني كريستونيا وأستاخوف إلى العربة ، واقتيدت الخيول الأخرى وراءها ، وأمسك بالأعنة كريستونيا ، وهو قوي البنية ، غريب الأطوار نوعاً ما ، كأغلبية أفراد كتيبة الأتمان . فجلس في مقدمة العربة ، محني الظهر كالعجلة ، حاجباً الضياء عن داخلها ، واستحث الخيول بصوته ذي الجرس العميق ، الخفيض الهادر ، وتمدد بيوتر واستيبان وتوميلين يدخنون تحت غطاء المشمع الجديد المشدود بإحكام . وسار بودوفيسكوف خلف العربة ، وساقاه الكالميكيتان الحنفاوان** تسرعان الخطو على الطريق المعفر .

كانت عربة كريستونيا تتقدم الركب وتتقاطر خلفها سبع عربات أو ثمان أخر ، تجر وراءها خيولاً مسرجة وغير مسرجة . وضج الطريق بالضحك والصياح والأغاني وزنخرة الخيل وجلجلة الركائب الخالية .

كان رأس بيوتر مسنداً على كيس فيه البقسماط ، وهو مضطجع بلاحراك ، يبرم شاربيه الطويلين الأصفرين .

ـ ستيبان!

ـ ها ؟

ـ هيا نغني .

---

* الأتمان ، كان الأتمانات ينتخبون من القوزاق في روسيا القيصرية لإشغال مناصب القيادة على مستويات متعددة ، فقد كان قائد جيش الدون يسمي أتمان الجيش ورئيس القصبة (ستانيتسا) وتعني منطقة أو مركز منطقة قوزاقية . ـ كان يسمى أتمان القصبة ، وإذا ماخرجت مفرزة قوزاقية في حملة ما انتخبت المفرزة أتماناً لها . وتعني الكلمة بتعبير واسع الرئيس أو الزعيم . وحينما فقد القوزاق استقلالهم في النهاية أصبح (أتمان جميع القوات القوزاقية) لقباً وراثياً للقيصر ، وصارت قيادة جميع القطعات القوزاقية في الواقع ، بيد أتمانات معينين .

** الحنفاوان ، معوجتان الى الداخل . المترجمون..

ـ الحر شديد ، وحنجرتي جافة كالعظمة!

ـ سوف لاتجد حانات هنا ، فلا تنتظر ذلك!

ـ حسناً ، غنّ أنت . غير أنك لاتصلح للغناء . لكن غريشا ، أخاك ، يمكنه أن يغني . فما صوته كالأصوات ، إنه وتر من الفضة الخالصة . كنا أنا وهو نغني في السهرات .

وألقى ستيبان رأسه إلى الخلف ، وتنحنح ثم شرع يغني بصوت خفيض متناغم :

أواه ثمة شروق بديع وضاء .
قد تعالى مبكراً في السماء

وأسند توميلين خده على راحته ، كما تفعل النساء ، والتقط النغم في صوت رفيع نواح . وراقب بيوتر ، مبتسماً ، وطرف شاربه في فمه ، العقد الصغيرة في أوردة صدغي المدفعي العريض الصدر تزرق من الجهد الذي يبذله .

يافعة كانت ، تلك المرأة
التي درجت نحو الجدول الصغير .

واستدار ستيبان على مرفقه ، وكان مضطجعاً ورأسه إزاء كريستونيا واحمرت رقبته الجميلة الصلبة . وقال :

ـ هيا ياكريستونيا... اشترك في الغناء .

والولد لما أدرك مرماها .
أسرج فرسه الكستنائية

حول ستيبان نظرته الباسمة إلى بيوتر الذي أطلق طرفي شاربيه من فمه وضم صوته إليهم . أما كريستونيا فقد زأر بصوت هز غطاء المشمع ، شاطراً بفمه شاربيه العريضين :

أسرج فرسه الكستنائية
ليلحق بالمرأة الشابة

وثنى كريستونيا قدمه الحافية الضخمة وانتظر أن يستأنف ستيبان الغناء . وواصل ستيبان غناءه برقة مغمض العينين ، ووجهه المعروق في الظل ، وقد جعل صوته خفيضاً حتى الهمس تارة ، ورناناً كرنين المعادن تارة أخرى .

دعيني ، دعيني ، أيتها المرأة
أسقي كستنائيتي في الجدول

ومن جديد انطلق صوت كريستونيا الهادر العميق ليغرق أصوات الآخرين . وانبعثت أصوات من العربات المجاورة تردد الأغنية . وقرقعت العجلات على حوافها الحديدية ، وزنخرت الخيل من الغبار ، وانسابت الأغنية فوق الطريق ، قوية عميقة كمياه الفيضان . وانطلق في الجو زقزاق أبيض الجناحين من السهب البني ذي الأشجار المتهدلة ، فطار مطلقاً صيحة باتجاه الوادي ، محولاً عيناً زمردية ليراقب سلسلة العربات ذوات الأغطية البيض ، وخيلاً تثير بحوافرها سحائب ترابية ، ورجالاً في قمصان بيض معفرة ، يسيرون على حافة الطريق . ولما هبط الزقزاق في الوادي واستقر صدره الأسود على الحشيش الرطب الذي سوته حيوانات هائمة ، فاته المشهد الذي كان يجري في الطريق . كانت العربات مازالت تدرج على الطريق كما في السابق ، والخيل العروقى مازالت تشق طريقها ، برمة ، خلال الغبار ، غير أن القوزاق صاروا الآن يركضون بقمصانهم المتربة من عرباتهم إلى عربة القيادة ، يدورون حولها ويزأرون بالضحك .
كان ستيبان منتصباً بطوله فوق العربة ، ماسكاً الغطاء بيد ، وموقعاً اللحن بأخرى ، وهو يهدر بنغم شائع في سرعة مضاعفة :

لاتقعد قربي
لاتقعد قربي
سيقول الناس أنك واقع في حبي
واقع في حبي
وآت على دربي
واقع في حبي
وآت على دربي
ولكنني لست من الصنف الوضيع...

وانطلقت حزمة من الأصوات الخشنة لتؤدي دور الجوقة في زئير ينفرش على الغبار المثار على جانبي الطريق :

لكنني لست من الصنف الوضيع
لست من الصنف الوضيع
فقد ولدت ابنة لشيخ قطاع الطريق
وقد نشأت ابنة لشيخ قطاع الطريق
ولست من الصنف الوضيع
إنني حبيبة لابن الأمير...

صفر فيدوت بودوفسكوف ، واضطربت الخيل محاولة أن تحرر نفسها من الأعنة ، ومال بيوتر جسمه خارج العربة وضحك ولوح بقبعته ، وهزّ ستيبان كتفيه في مجون ، وابتسامة براقة على وجهه ، وعلى امتداد الطريق تدحرجت سحابة من غبار ، وقفز كريستونيا من العربة ، وهو في قميصه الكبير الطويل من غير ما نطاق ، وشعره متلبد ، ووجهه ينضح بالعرق ، وأدى رقصة قوزاقية ، مدوماً كأنه عجلة ضخمة ، عابساً ومتأوهاً ، تاركاً على التراب الحريري اللاهب آثاراً مفلطحة لقدميه العاريتين .

٦

توقفوا عند رابية ذات قمة رملية عريضة ، ليقضوا ليلتهم . زحفت سحب من الغرب ، وتساقط المطر من أجنحتها السود . وأوردت الخيل من بركة تمايلت فوق سدها ، على مهب الريح ، أشجار صفصاف موحشة . وعلى الماء الذي تغطيه طحالب راكدة وتزحف فوقه مويجات يائسة ، كان ضوء البرق ينعكس مشوهاً . وكانت الريح تفتت قطرات المطر ، وكأنها تنثر الهبات على راحة الأرض السمراء .

واقتيدت الخيل المقيدة الى الكلأ ، وأنيطت حراستها بثلاثة رجال ، فيما أشعل الآخرون النيران وعلقوا القدور على عرائش* العربان .

وكان كريستونيا يطبخ الدخن . وبينما كان يحركه بملعقة شرع يروي قصة للقوزاق الجالسين حوله :

ـ كانت الرابية عالية ، كهذه . قلت لأبي الذي مات :

«ألن يعاقبنا الأتمان على حفرنا الرابية دونما إذن بذلك ؟ »

فتساءل ستيبان فيما كان عائداً من موضع الخيل :

ـ فيم يهرف هذا ؟

ـ إنني أروي كيف نقبنا عن الكنز ، أنا وأبي ، رحمة الله على روحه .

ـ وأين بحثتم عنه ؟

ـ خلف الوادي أنت تعرف هذا المكان هو رابية مركولوف .

قال ستيبان : ـ هكذا إذن .

وجلس القرفصاء حذاء النار والتقط جمرة بكفه وجعل يتلاعب بها وقتاً طويلاً ، ثم أولع سيكارة بها .

ـ طيب ، وقال أبي :«هيا ياكريستونيا ، فسوف نحفر في رابية

---

* العريش : المحور الذي تشد به الخيل . المترجمون .

مركولوف» . فقد سمع عن أبيه أن ذلك الكنز مدفون فيها . ولكن الكنز ليس شيئاً سهل المنال ولذ فإن أبي نذر لله بقوله : «هبني الكنز ، ولسوف أشيد كنيسة بديعة» . وهكذا تم الاتفاق بيننا ومضينا ، كانت أرضاً مشاعة . ولهذا فلم يكن هناك من يستطيع منعنا غير الأتمان ، وصلنا عند العصر ، ولهذا انتظرنا حتى حلول الليل وقيدنا الخيول وتسلقنا مع مجارفنا حتى قمة الرابية . وشرعنا نحفر في القمة تماماً . وحفرنا حفرة عميقة ، وكانت الأرض مثل الصخر . وغمرني العرق من رأسي الى قدمي ، بينما ظل أبي يتمتم بصلواته ، ولكن صدقوني ، ياإخوان ، كانت بطني تقرقر بشدة... فأنتم تعرفون ما نأكله في الصيف : لبن حامض وكفاس* وأشعر بالمغص حتى أكاد أموت! وأبي رحمة الله عليه يقول : «اف!يا كريستونيا ، إنك وغد . فها أنا أصلي وأنت لا تستطيع أن تضبط بطنك ، أنا لا أقدر أن أتنفس بسبب الرائحة الكريهة . تنح عن الرابية يا... . وإلا فسأشج رأسك بالمجراف . إن وقاحتك كفيلة بجعل الكنز يغور في أعماق الأرض» . وهكذا استلقيت إلى جانب الرابية وأوجاع بطني قمينه بهلاكي ، وأبي - الذي كان رجلاً قوياً - يمضي ويمضي في التنقيب وحده . ويظل يحفر حتى يصل الى بلاطة صخرية ، فيناديني ، وأضع قضيباً تحتها . وأرفعها . صدقوني ، ياإخوان ، كانت ليلة قمراء ، وتحت تلك البلاطة انبعث بريق ، وأي بريق...

فقاطعه بيوتر مبتسماً ومعابثاً شاربيه :

- ها أنت ذا تكذب الآن ياكريستونيا .

- من الذي يكذب ؟ فلتذهب أنت الى الشيطان ، وإلى أم الشيطان!

وعقد كريستونيا بنطاله ذا المؤخرة العريضة وألقى نظرة خاطفة على مستمعيه .

---

* الكفاس : مشروب شعبي روسي . المترجمون

ـ كلا ، فما أنا بكاذب . إنها حقيقة الله .

ـ أكمل قصتك!

ـ ثمّة بريق ينبعث يا إخوان . وأنا أنظر ، واذ به فحم خشبي . حوالي أربعين بوشلا* وأبي يقول : «ازحف ياكريستونيا داخلاً ، وأخرجه برمته» . وهكذا أخرجت كل تلك النفايات . مضيت أخرجها حتى طلوع النهار . وفي الصباح ، كان هو أمامنا .

ـ من ؟ ـ تساءل توميلين المضطجع على مشرحة السرج .

ـ من يكون غير الاتمان ؟ يصادف أن يمر من هناك بمركبته . «من أعطاكما الإذن ؟» وما إلى ذلك . أمّا نحن فنصمت ويقبض علينا ويجرجرنا الى القرية . ثم استدعينا الى المحكمة في كامنسكايا في السنة ما قبل الأخيرة ، لكنّ أبي ، وقد خمّن ما هو آتٍ عليه ، استطاع أن يموت قبل حلول الأوان . فكتبنا الى المحكمة نقول إنه ليس في عداد الأحياء .

وأخذ كريستونيا قدر الدخن المغلي من النار وذهب إلى العربة لإحضار الملاعق . وحينما عاد سأله ستيبان :

ـ حسناً ، وماذا عن أبيك ؟ فقد نذر لله أن يبني كنيسة ، ألم يف بنذره ؟

ـ أنت أحمق ياستيبان . فماذا عساه يبني بقيمة الفحم الخشبي ؟

ـ مادام قد نذر ، كان عليه أن يفي بنذره .

ـ لم يكن هناك اتفاق ، أيّاً كان شكله ، حول فحم الخشب ، أمّا الكنز...

واهتزّت ألسنة النار من القهقهات التي انطلقت عالياً ، ورفع كريستونيا رأسه عن القدر ، ولمّا لم يفهم سبباً للضحك ، انطلق هو الآخر بزئيره المرعد وغطّى على ضحك الجميع .

---

* بوشلا : اربعة غالونات . المترجمون .

٧

كانت اكسينيا في السابعة عشرة من عمرها حينما زوجت من ستيبان استاخوف . لقد جاءت من قرية دوبروفكا ، من رمال الجانب الآخر للدون .

قبل الزواج بحوالي عام ، كانت اكسينيا ذات يوم خريفي تحرث في السهب الذي يبعد حوالي ثمانية فرستات عن القرية . وفي ذلك الليل قيّد يديها أبوها ، وهو في الخمسين من عمره ، واغتصبها .

وتوعّدها قائلاً :

سوف أقتلك إن تنفّست بكلمة ، ولكن إذا بقيت هادئة فلسوف أشتري لك سترة فاخرة وطماقين وخفّين ، تذكّري ، لسوف أقتلك إن أنت ...

وتحت جنح الليل جرت اكسينيا بتنورتها الداخلية الممزقة عائدة الى القرية . وارتمت على قدمي أمّها ونشجت تروي القصّة كاملة . فشدّ أخوها الأكبر الذي عاد منذ حين من الخدمة العسكرية وأمها حصانين الى العربة وجعلا اكسينيا تجلس معهما ، وانطلقا الى الأب . أوشك أخوها أن يميت الخيول في منطلقه عبر الفرستات الثمانية . ووجدوا العجوز بالقرب من خيمة الحقل . كان مستلقياً على معطفه في غيبوبة سكران وإلى جانبه زجاجة فودكا فارغة . وأمام عيني اكسينيا حل أخوها العريش من العربة ، وبرفسة أقام أباه على قدميه ، ووجه إليه باقتضاب سؤالاً أو سؤالين ، ثم ضربه فيما بين عينيه بالعريش ذي الرأس الحديدي . وطوال ساعة ونصف ، ظل وأمّه يضربانه بدون توقّف . وجعلت الأم المسنّة ، وهي التي كانت على الدوام زوجة مطيعة ، تمزّق بجنون شعر زوجها الغائب عن الوعي ، بينما استخدم الأخ قدميه . وتمددت اكسينيا تحت العربة ، وقد غطّت رأسها وهي ترتعش في صمت..وحملوا أباها الى الدارقبيل الفجر . تمدد يئن بصوت ذبيح وعيناه تجولان في أرجاء الغرفة بحثاً عن اكسينيا

التي أخفت نفسها وجرى الدم من أذنه الممزقة على الوسادة ، إلى أن مات قبيل المساء . وأخبروا الجيران بأنّه سقط سكراناً من العربة فمات .

بعد عام من الزمن ، وصل خاطبون في عربة صغيرة زينت بصورة مرحة ، طالبين يد اكسينيا . فلقي ستيبان الطويل ، ذو الرقبة المنتصبة والجسم القوي ، قبولاً لدى زوجته المقبلة ، وحدد عيد الخريف ميعاداً للزفاف . كان النهار زمهريراً والجليد ذا وقع بهيج على الطرق يوم نصبت اكسينيا سيدة فتيّة لبيت استاخوف . وفي الصباح الباكر الذي تلا أفراح الزواج جاءت حماة اكسينيا ، وهي عجوز طويلة تقوّص ظهرها بسبب من مرض نسائي مؤلم ، وأيقظتها ، ثم أخذتها الى المطبخ وقالت لها وهي تنقل الأشياء بلا هدف :

ـ والآن ياعزيزتي ، نحن لم نأخذك لتمارسي الحب ، ولا لكي تضطجعي في الفراش . اذهبي واحلبي البقرات ، وبعد ذلك أعدي شيئاً من الطعام . إنني عجوز ومريضة . ويجب عليك أن تتعهدي شؤون الدار ، فكل مافيها سيقع على عاتقك .

وفي اليوم نفسه ، أخذ ستيبان زوجته داخل المخزن ، وضربها عامداً وبشكل فظيع . ضربها على بطنها ونهديها وظهرها ، حريصاً ألا تكون آثار الضرب ظاهرة للعيان . وبعد ذلك ، أهملها ، وجعل يصاحب زوجات طائشات منفصلات عن أزواجهن الجنود ، ويترك داره كل ليلة تقريباً ، بعد أن يحبس أكسينيا في المخزن أو في الغرفة .

وطوال ثمانية عشر شهراً ، أي إلى أن رزقا بطفل ، لم يكن ليغفر لها العار الذي جلبته إليه . ثم صار أكثر هدوءاً ، ولكنه كان ضنيناً في ملاطفتها ، ونادراً ما كان يقضي ليلة في الدار .

أثقل الحقل الواسع بماشيته الكثيرة كاهل أكسينيا بالعمل . وكان ستيبان يعمل بلا حماسة ، ويزوغ للتدخين أو لعب الورق بعد أن يمشط شعره بعناية ، أو لتقصي آخر الأخبار ، وصار على أكسينيا أن تفعل كل

شيء . ولم تكن حماتها لتساعدها إلا بالنزر اليسير . فما أن تنتقل هنا وهناك قليلاً حتى تهوي على الفراش ، وبشفتين مزموميتن صفراوين وعينين محملقتين في السقف بألم ، تستلقي متأوهة وتتكوم على شكل صرة . وفي مثل هذه الأوقات ، كان وجهها ، الذي تكسوه شامات كبيرة قبيحة ، ينضح بالعرق وتقطر دموعها على خديها ، قطرة إثر قطرة . وكانت أكسينيا تترك عملها وتنزوي في ركن من الغرفة وتحدق في وجه حماتها بخوف وإشفاق .

ماتت العجوز بعد عام ونصف عام . ففي الصباح بدأت أكسينيا تشعر بآلام المخاض ، وحوالي الظهر ، وقبل مجيء الطفل إلى العالم بساعة أو زهائها ، سقطت العجوز ميتة عند باب الاسطبل القديم وجرت القابلة لتحذر ستيبان السكران من دخول غرفة النوم ، فوجدت العجوز ممددة وقد انثنت رجلاها تحت جسمها .

وبعد ولادة الطفل ، كرست أكسينيا نفسها لزوجها ، غير أنها لم تكن لتشعر نحوه بأية عاطفة غير الإشفاق الأنثوي المر وحكم العادة . وفي غضون عام مات الطفل ، وعادت الحياة إلى ما كانت عليه . وحينما عبر غريشا ميليخوف درب أكسينيا ، أدركت ، والرعب يتملكها ، أنها كانت منجذبة إلى ذلك الفتى الأسمر اللطيف ، وقد تصابر غريشا عليها في حب مؤمل عنيد ، وكان هذا الإصرار عين ما كانت تخشاه أكسينيا في غريشا . ووجدت أنه لا يخاف ستيبان ، أو يتراجع بسببه ، وعلى الرغم من مقاومة شعورها بكل قوتها ، فقد لاحظت على نفسها أنها كانت تعنى بزينتها أيام الآحاد وفي أيام الأسبوع أكثر من أي وقت مضى . وكانت تعلل نفسها ، إزاء ضميرها ، بشتى المعاذير وهي تحاول أن تظهر أمامه كلما سنحت لها الفرصة . لقد كان مما يسعدها أن تتحسس عيني غريغوري السوداوين تلاطفانها باصرار وهيام . وحينما كانت تستيقظ في الصباح قبل أن تمضي لتحلب البقرات ، كانت تبتسم لنفسها ، ومن غير أن تدرك لماذا ، تقول في دخيلتها : « اليوم يوم سعيد . ولكن لماذا ؟ أواه ياغريغوري...

ياغريشا » . كان يخيفها هذا الشعور الجديد الذي ملأها ، وصارت تتلمس طريقها عبر أفكارها في حذر ، كما لو كانت تعبر الدون فوق جليد آذار الذائب .

وبعد أن ودعت ستيبان الذاهب الى المعسكر ، قررت أن تتجنب غريغوري مااستطاعت . وقد ازداد قرارها تصميماً بعد حادثة صيد السمك .

٨

قبل أحد الثالوث بحوالي يومين ، تم توزيع مروج القرية ، وكان بانتلاي بروكوفيتش حاضراً أثناء التوزيع . ثم عاد إلى داره عند موعد الغداء . فألقى جزمته متأففاً ، وأعلن وهو يهرش قدميه المتعبتين بتلذذ :

ـ حصتنا هي البقعة القريبة من الضفة الحمراء . ليست بذي حشائش أفضل بكثير من المعتاد . ويمتد جزؤها الأعلى حتى الغابة . وهي مجرد نجيل في بعض الأماكن وشيء من الثيل .

تساءل غريغوري :

ـ ومتى سنقوم بالحش ؟

ـ بعد العيد .

دمدمت العجوز مقطبة :

ـ وهل ستأخذون داريا معكم ؟

لوح بانتلاي بروكوفيتش بيده فأسكتها :

ـ دعيني وشأني! سنأخذها إذا احتجنا إليها . هيا أعدي الغداء . فيم وقوفك فاغرة الفم ؟

ففتحت الزوجة العجوز باب الفرن بقرقعة وأخرجت حساء الكرنب المدفئ . وجلس بانتلاي بروكوفيتش إلى الطعام وقتاً طويلاً يروي أحداث التوزيع ويحكي عن الأتمان المخادع الذي كاد أن يغش مجمع القوزاق برمته . وعقبت داريا :

ـ لقد لجأ إلى حيلة في العام الماضي أيضاً . خصوصاً حينما حاول أن يغش مالاشكا أثناء توزيع الأرض .

فتمتم بانتلاي بروكوفيتش :

ـ لقد كان ابن عاهرة دائماً .

وتساءلت دونيا متهيبة :

ـ ولكن من الذي سيجرف ويكوّم يا بابا ؟

ـ ماذا عنك أنت ؟

ـ أنا لا أستطيع أن أقوم بكل ذلك لوحدي .

ـ سوف ندعو أكسينيا ستاخوفا ، فقد رجانا ستيبان أن نحش له . علينا أن نلبي رجاءه .

في الصباح التالي ، جاء ميتكا كورشونوف راكباً جواده أبيض السيقان ودخل إلى حوش ميليخوف . كان ثمة مطر خفيف وضباب كثيف عالق فوق القرية . ومال ميتكا من على سرجه وفتح البوابة ودلف إلى الداخل ، فصاحت به العجوز من العتبة :

ـ هاي ، أنت ، أيها الوغد ، ماذا تريد ؟ ـ وكان النفور واضحاً في صوتها ، فلم تكن تميل إلى ميتكا المشاكس .

ومادخلك أنت يا ايلينيشنا ؟ ـ قال ميتكا ذلك في استغراب بينما كان يربط جواده إلى حاجز العتبة ، وأضاف :

ـ أريد غريشا ، أين هو ؟ .

ـ إنه نائم في السقيفة . ولكن هل أصابك مس ؟ أم تراك لم تعد قادراً على استعمال ساقيك حتى صار عليك أن تأتي راكباً ؟

فرد عليها ميتكا برماً :

ـ أنت دائماً تحشرين أنفك أيتها العمة .

وصقع جزمته الجلدية اللامعة بسوطه الأنيق ، وانطلق متمايلاً يبحث عن غريغوري فوجده نائماً في عربة صغيرة . فزر ميتكا عينه اليسرى كأنه

يصوب ، وهوى بسوطه على غريغوري .

ـ قم ، يا موجيك*!

كانت (موجيك) أسوأ كلمة وجدها ميتكا . فقفز غريغوري كما لو كان فوق نوابض .

ـ ماذا تريد ؟

ـ لقد نمت مافيه الكفاية .

ـ دعك عن العبث ياميتكا قبل أن يعصف بي الغضب .

ـ قم ، فلدي ماأحدثك به .

ـ حسناً ؟

فجلس ميتكا على جانب العربة وقال وهو يكشط بالسوط الوحل المتيبس من جزمته :

ـ لقد أُهنتُ ، ياغريشا .

ـ أي ؟

ـ انظر ، إن القضية... .

وقذف من فمه سباباً كثيراً ، واستطرد :

ـ إنه ملازم أول ، ولهذا فإنه يريد أن يتباهى .

وكان يلفظ الكلمات بسرعة مغتاظاً دون أن يفتح فمه ، فيما كانت ساقاه ترتجفان .

ورفع غريغوري جسمه قليلاً متسائلاً :

ـ أي ملازم أول ؟

فقال ميتكا بهدوء أكثر وهو يمسك بكم غريغوري :

ـ أسرج حصانك في الحال ، وتعال إلى المروج . لسوف أريه! قلت له : تعال ، ياصاحب السعادة ولسوف نرى ـ فقال ـ أجلب جميع أصدقائك

---

* موجيك : تعني فلاحاً . المترجمون

ورفاقك ، وسوف أهزمكم جميعاً ، فلقد حصلت أم فرسي على الجوائز في سباق قفز الموانع لخيل الضباط في بطرسبورغ ، وماعسى أن تكون فرسه أو أمها بالنسبه لي ؟ عليهما اللعنة! فلن أدعهما تسبقان جوادي!

فارتدى غريغوري ملابسه مسرعاً وتبعه ميتكا ، والغضب آخذ بخناقه :

ـ لقد جاء لزيارة التاجر موخوف . اسمع ، ماكان اسمه ؟ ليستنتيسكي ، على ماأظن . ضخم ، جدي المظهر ، ويضع عوينات . حسناً فليضع عوينات ، لكنها لن تساعده في شيء : فلن أدعه يلحق بجوادي .

وأسرج غريغوري الفرس العجوز متضاحكاً . ولكي يتحاشى لقاء أبيه انطلق إلى السهب خلال بوابة ساحة درس الحبوب . وركبا صوب المرج بمحاذاة سفح التل ، وكانت حوافر الخيل تعجن الوحل بفرقعة . وبالقرب من شجرة حور جرداء كان عدد من الفرسان في انتظارهما : الضابط ليستنتيسكي على فرس رشيقة جميلة ، وسبعة من صبيان القرية ممتطين جيادهم .

ـ من أين سنبدأ ؟ ـ تساءل الضابط ملتفتاً إلى ميتكا ، وهو يسوي عويناته المعلقة على أنفه دون إطارات ، وينظر بإعجاب إلى عضلات الصدر القوية بجواد ميتكا .

ـ من شجرة الحور إلى بركة القيصر .

ـ وأين هي بركة القيصر ؟ ـ

ـ حاوص ليستنتسكي عينيه بصورة تنم عن قصر نظره .

ـ هناك ، ياصاحب السعادة . عند طرف الغابة واصطفت الخيل في خط واحد . ورفع الضابط سوطه فوق رأسه . فتلوت كتافته .

ـ نبدأ حينما أقول «ثلاثة» اتفقنا ؟ واحد : اثنان : ثلاثة!

وانطلق ليستنتسكي أولاً ، منحنياً فوق قربوس* السرج ، ويده على

---

* القربوس : حنو السرج او حدبته . المترجمون

قبعته . وبقي ، برهة ، يتقدم الجميع . ثم انتصب ميتكا على ركابيه ، ووجهه شاحب قانط . وبدا لغريغوري أن ميتكا كان متباطئاً بشكل لايحتمل في إنزال السوط على كفل الجواد .

كانت المسافة الى بركة القيصر حوالي ثلاثة فرستات . وحينما قطعوا نصف المسافة لحق جواد ميتكا الذي استقام جسمه كالسهم بفرس ليستنتسكي ، أما غريغوري الذي تخلف منذ البداية ، فقد كان يخب خاملاً وهو يراقب بفضول سلسلة الراكبين المتناثرة .

كان إلى جانب بركة القيصر تل رملي صغير ، غسلته فيضانات الربيع ، وقد كست حدبته أعشاب قليلة . ورأى غريغوري ميتكا والضابط ينطلقان صاعدين التل ثم يختفيان معاً عبر حافته ، يتبعهما الآخرون . وحينما بلغ البركة وجد الخيل العرقة متجمعة إلى جانب بينما كان الصبيان المترجلون يتحلقون حول ليستنتسكي ، وميتكا يتألق في حبور مكتوم ، وتنم كل حركة فيه عن الشعور بالانتصار . أما الضابط فلم يبد عليه الغم مطلقاً ، بخلاف ماكان متوقعاً ، إذ كان يقف وظهره مستند على شجرة ويدخن سيكارة . وقال مشيراً إلى فرسه المزبدة : « كنت قد قطعت عليها مائة وخمسين فرستا وجئت عليها من المحطة أمس ، فلو كانت مرتاحة لما استطعت أن تلحق بها ، يا كورشونوف » .

فقال ميتكا بأريحية : ـ ربما .

كان صبي أنمش الوجه ، قد وصل آخر الراكبين ، فصاح حاسداً :

ـ إن جواده أحسن ما في المقاطعة من خيل .

فقال ميتكا : « إنه حصان جيد » ، ومرر كفه على رقبة الجواد ، ويده تهتز انفعالاً . ونظر إلى غريغوري وابتسم ببلاهة .

ترك غريغوري وميتكا الآخرين وعادا إلى البيت بمحاذاة أطراف القرية . أما الضابط فقد ودعهما ببرود وحياهما تحية عسكرية رافعاً إصبعين إلى حافة قبعته ، واستدار مبتعداً .

وبينما كانا يقتربان من الدار ، رأى غريغوري أكسينيا قادمة باتجاههما ، وهي تجرد غصناً أثناء سيرها . وحينما لحظته طأطأت رأسها .
فصاح ميتكا قائلاً :

ـ فيم تحمرين خجلاً ، هل نحن عاريان ؟ ـ وغمز بعينه ـ يافرحة عيني!

وكاد غريغوري أن يحاذيها وهو يحدق أمامه في خط مستقيم ، ثم ضرب فرسه المتبخترة بسوطه ، على حين غرة ، فأقعت إلى الوراء على ساقيها الخلفيتين ، وأرسلت رذاذاً من الوحل فوق أكسينيا .

ـ تباً لك من شيطان مخبول !

فأدار غريغوري فرسه الجامح بحدة وتقدم نحوها ، وتساءل :

ـ لم لا تقولين « مرحباً » ؟

ـ إنك لست أهلاً لها .

ـ ولهذا نثرت عليك الوحل . لاتغتري بنفسك كثيراً .

فصاحت أكسينيا ملوحة بذراعيها أمام أنف الفرس :

ـ دعني أمر . فيم تدوسني بحصانك ؟

ـ إنها فرس وليست حصاناً .

ـ هذا لايهمني ، دعني أمر .

ـ فيم غضبك يا أكسينيا ؟ أبسبب ماحدث ذلك اليوم في المرج ؟

وحدجها غريغوري محدقاً في عينيها . فحاولت أكسينيا أن تنطق بشيء ما ، لكن دمعة صغيرة ظهرت في زاوية عينها السوداء ، وارتعشت شفتاها بصورة تثير الشفقة . وهمست وهي تبتلع ريقها بصعوبة :

ـ اتركني ياغريغوري... لست غاضبة... فأنا ... ثم مضت .

لحق غريغوري بميتكا عند البوابة والاستغراب يتملكه .

سأله ميتكا :

ـ هل ستخرج الليلة ؟

ـ كلا .

ـ لماذا ؟ ما السبب ؟ أم تراها دعتك لقضاء الليلة معها ؟ فمسح غريغوري جبينه براحته ، ولم يجب .

٩

لم يخلف عيد أحد الثالوث في بيوت القرية سوى زعتر جاف منثور على الأرض ، ونثار أوراق مسحوقة ، وأغصان دردار وبلّوط ذابلة معقودة على البوابات والسلالم .

بدأ جمع القش مباشرة بعد أحد الثالوث . فمنذ الصباح الباكر ازدهرت المروج بتنورات النساء الزاهية ، والصدريات المطرزة اللامعة ، وعصابات الرأس الملوّنة . وخرجت القرية عن بكرة أبيها للحش . وتزيّن الحاشّون والجارفون ، كما لو كانوا في عيد سنوي . هكذا جرت الأمور منذ القدم . ومن الدون الى أدغال الحور البعيدة ، تململت أرض المروج المنهوبة وتأوّهت .

أمّا أسرة ميليخوف فقد تأخرت عن العمل ، ولم ينطلقوا إلا بعد أن كان نصف القرية تقريباً قد بلغ المرج .

حيّا جامعو القش رب الأسرة والعرق يتصبب منهم :

ـ أنت تستيقظ متأخراً ، يابانتلاي بروكوفيتش .

ـ ليست غلطتي ، إنهن النساء مرّة أخرى ـ وتضاحك العجوز ، واستحث الثيران بسوطه المصنوع من الجلد الخام .

ـ طاب يومك ، ياجار! أنت متأخّر قليلاً ، أليس كذلك ؟ ـ قالها قوزاقي طويل يعتمر قبعة من القش ، هازاً رأسه وهو واقف على جانب الطريق يشحذ منجله .

ـ أتحسب أنّ العشب سيكون جافاً ؟

ـ اذا لم تسرع خطاك سيجفت عمّا قريب . أين حصّتك ؟
ـ بالقرب من الضفّة الحمراء .
ـ استعجل إذن وإلا فاتك الأوان .

وفي مؤخرة العربة جلست اكسينيا وقد غطّت وجهها كلّياً لتتقي الشمس ومن الفتحات الضيقة التي تركتها لعينيها ، جعلت تحدّق بهدوء وصرامة في غريغوري الذي جلس إزاءها . وكانت داريا متلفعة أيضاً وقد ارتدت أحسن ثياب يوم الأحد ، وقد تدلت ساقاها بين عوارض جانب العربة ، وأعطت ثديها الطويل ذا العروق الزرق للطفل الراقد بين ذراعيها . وتململت دونيا على حافة العربة وعيناها السعيدتان تتفرسان في المرج والناس السائرين على امتداد الطريق ، وقد بدا على وجهها المرح الذي لفحته الشمس ، وأنفها الذي انتثرت عليه رشّه من النمش ، وكأنّه يقول بلسانها « إنني أشعر بالمرح والسعادة لأن اليوم ، بسمائه الزرقاء الصافية ، هو الآخر سعيد ، ولأن روحي يملؤها الهدوء الأزرق الصافي ذاته . إنني سعيدة ، ولدي كل ما أريد » . وجذب بانتلاي بروكوفيتش كمي قميصه القطني فوق قبضتيه ، ليمسح العرق المنساب من تحت ذؤابة قبعتة . والتصق قميصه التصاقاً محكماً على ظهره المقوّس ، وقد قتم لونه ببقع العرق . ونفذت الشمس قويّة خلال غيمة رمادية منفوشة ، وأسالت مجرى من الأشعة المتكسّرة السديمية فوق المرج والقرية والسهب وتلال الدون الفضّية البعيدة .

كان النهار قائظاً . والغيمات الصغيرة تزحف متكاسلة ، حتّى أنها لم تسبق ثيران بانتلاي بروكوفيتش في سيرها المكدود على الطريق . وكان بانتلاي بروكوفيتش العجوز نفسه يرفع ويلوّح بسوطه متثاقلاً ، كما لو كان متردّداً في ضرب جوانبها الهزيلة . ويبدو أن الثيران نفسها أدركت ذلك ، فلم تسرع خطاها ، وواصلت سيرها إلى الأمام متباطئة متكاسلة تهز ذيولها بلا انقطاع . حوّمت فوقها ذبابة خيل غبراء ذات لون ذهبي وبرتقالي .

وبدت أرض المروج ، حيثما قطعت الحشائش على مقربة من بيوت القرية ، تتألّق في بقع خضراء شاحبة ، وفي المناطق التي لم تقطع فيها الأعشاب ، انبعث من الحرير الحشيشي ، الأخضر المشوب بالسواد ، حفيف كلّما داعبة النسيم .

لوّح بانتلاي بروكوفيتش بسوطه قائلاً :

ـ تلك هي قطعتنا .

سأله غريغوري :

ـ نبدأ من الغابة ؟

ـ من الممكن أن نبدأ من هذا الطرف أيضاً ، تركت العلامة هناك .

حل غريغوري الثيران المتعبة . وراح العجوز ، والقرط يتلامع في اذنه ، يبحث عن العلامة التي وضعها عند نهاية القطعة . وبعد دقيقة صاح ملوحاً بيده : «هات المناجل» .

فذهب غريغوري إليه وهو يدوس الحشيش ، مخلفاً وراءه أثراً متماوجاً . ويمم بانتلاي بروكوفيتش وجهه صوب برج الناقوس البعيد ورسم علامة الصليب وتناول المنجل . وشع أنفه المعقوف وكأنّه قد لمع بالدهان لتوّه ، وتلكأ العرق في تجاويف خدّيه الاسمرين . وابتسم ، فكشف عن صف مرصوص من الأسنان البيض اللامعة وراء لحيته السوداء بلون الغراب ، ومال برقبته المتغضنة الى اليمين ، وهوى بمنجله الكبير على الحشيش ، فاذا بنصف دائرة ، قطرها متران ، من الحشيش تتكوّم عند قدميه .

وحذا غريغوري حذو أبيه ، وعيناه نصف مغمضتين ، وهو يلقي الحشيش أرضاً بمنجله . وأمامه ازدهت صدريات النساء كقوس قزح مبعثر ، لكنّ عينيه كانتا تبحثان عن صدرية واحدة ، بيضاء مطرّزة الحاشية ، واختلس نظرة إلى اكسينيا واستأنف الحش من جديد ، متساوقاً مع خطى أبيه .

لقد شغلت اكسينيا ذهنه طوال الوقت . وفيما كانت عيناه نصف مغمضتين قبّلها في الخيال وناجاها بكلمات ملتهبة رقيقة تدفّقت على لسانه

من حيث لايدري . ثمّ أزاح عنه تلك الأخيلة وواصل الخطى من جديد بصورة منتظمـــة... واحـــد... اثنان... ثلاثة ، وانصـــرف ذهنه الى شـــذرات من الماضي .« كنت جالساً معها تحت كومة القش الرطب... القمر فوق المرج... وبين حين وآخر تتساقط قطرة من الشجيرات في البركة... واحد... اثنان... ثلاثة... بديع! آه ، لكم كان هذا بديعاً!»

وتناهت إليه ضحكة من ورائه ، فتطلّع إلى الخلف : كانت داريا مستلقية تحت العربة واكسينيا منحنية عليها تسرّ لها شيئاً ما . ولوّحت داريا بذراعيها ، وعادتا تضحكان من جديد . وكانت دونيا جالسة على محور العربة تغنّي بصوت زاعق .

قال غريغوري لنفسه : «سأبلغ تلك الشجيرة ، ثم أشحذ منجلي» . وفي تلك اللحظة شعر بمنجله يمر خلال شيء ناعم ومستكين . فانحنى غريغوري ، فاذا ببطة بريّة صغيرة تمرق داخل الحشيش وهي تصيح . وإلى جانب الحفرة التي ضمّت عشّها تكوّمت بطّة أخرى وقد شقّها المنجل نصفين ، بينما تفرقت بقية الفراخ مذعورة واختفت في الحشيش . فوضع غريغوري الطائر الميت على راحته . لقد كان واضحاً أنّه خرج من البيضة قبل بضعة أيام ، فقد كان ثمّة دفء باقياً في زغبه . وعلى منقاره المسطّح نصف المفتوح ، كانت فقاعة وردية من الدم ، وانكمشت عيناه الخرزيتان ، بينما ظلت رجلاه الصغيرتان دافئتين ترتعشان . وجعل غريغوري يحدّق في الكرة الصغيرة الهامدة في يده ، وقد انتابه شعور حاد مفاجىء بالرثاء له .

ـ ماذا وجدت ياغريشا ؟ ـ وجاءت دونيا ناطة خلل الممر المحشوش وضفيرتاها تتواثبان على صدرها . فألقى غريغوري البطّة ، متجهّم الوجه ، وأعمل بمنجله مغضباً .

تناولوا غداءهم بسرعة . وكان قوام وجبتهم ، التي كانوا قد جلبوها من البيت في كيس ، شحم الخنزير واللبن الرائب .

قال بانتلاي بروكوفيتش أثناء الغداء «لا داعي للذهاب الى الدار . سنسرح الثيران لترعى في الغابة ، وفي الغد ، حالما يزول الندى من العشب سنتم الحش » .

بعد الغداء ، شرعت النساء في جرف القش ، وانكمش الحشيش المقصوص وتيبس فصار يبعث رائحة قويّة مخدّرة .

كان الغسق قد حل حينما توقفوا عن عمل اليوم . وجمعت اكسينيا الصفوف الأخيرة من الحشيش معاً ، ومضت الى العربة لتطبخ شيئاً من هريسة الدخن ، لقد سخرت متخابثة من غريغوري طوال اليوم ، وظلّت تتابعه بنظرات تفيض كراهية ، كما لو كانت تقتص منه لذنب عظيم لايغتفر . ساق غريغوري الثيران ليوردها من الدون ، وهو مكتئب خائر العزيمة . ظل أبوه يراقبه هو واكسينيا طوال النهار . وقال ناظراً الى غريغوري في كدر : «تناول عشاءك ، ثم اذهب لحراسة الثيران . واحرص ألا تدخل المرج . وخذ فروتي » .

وأرقدت داريا طفلها تحت العربة ومضت إلى الغابة بصحبة دونيا لجلب الحطب .

وفوق المرج ، تعالى القمر الشاحب في السماء المنيعة المظلمة . وحوّمت زوبعة من الفراشات حول ألسنة اللهيب ، وإلى جانبها وضع العشاء على قطعة قماش خشنة . وغلى الدخن في إناء الحقل الأسخم . وصاحت داريا على غريغوري ، وهي تمسح ملاعق بطرف تنورتها الداخلية :

ـ تعال تناول عشاءك .

فظهر غريغوري من الظلمة ، وفروة أبيه ملقاة على كتفيه ، واقترب من النار . سألته داريا مبتسمة : «ما الذي يثقلك بالهموم . بهذا القدر ؟ » فردّ عليها مازحاً : «أحس بألم في ظهري . يبدو أنها ستمطر » .

وقالت دونيا متضاحكة : ـ إنه لايريد أن يحرس الثيران . وحاولت أن تجاذب أخاها الحديث بينما جلست الى جواره . ولكن باءت محاولاتها بالفشل لأمر ما . رشف بانتلاي بروكوفيتش الهريسة جارشاً بأسنانه الدخن غير

المستوي . وكانت اكسينيا تأكل دون أن ترفع عينيها ، وهي تبتسم لفكاهات داريا من غير ما حماسة كثيرة في حين اشتعلت وجنتاها باحمرار شديد .

نهض غريغوري قبل الآخرين ، ومضى إلى الثيران .

فصاح أبوه وراءه :«احرص على ألا تدوس الثيران حشيش الآخرين» ، ثم غص بلعومه بفتات الدخن فجعل يسعل سعالاً جافاً لوقت طويل .

وانتفخت وجنتا دونيا فيما كانت تحاول أن تكتم ضحكتها . تضاءلت النار . ولف الجماعة رائحة حلوة انبعثت من الأوراق المحترقة في الحطب المتوهّج .

***

عند منتصف الليل تسلل غريغوري إلى المضرب ، وتوقف على مبعدة عشر خطوات . كان أبوه يشخر شخيراً مرناناً في العربة . والجمر غير المطفأ يتألّق من خلل الرماد كأنّه عيون طاووس ذهبية .

وانتزع شبح رمادي ملثّم نفسه من العربة واقترب وئيداً من غريغوري . وعلى مبعدة خطوتين أو ثلاث ، توقّف الشبح . اكسينيا! ودق قلب غريغوري سريعاً وعنيفاً ، وتقدّم إلى الامام حبواً ، وقد نحى طرف فروته الى الوراء ، وضغط إليه جسدها الملتهب المستسلم . وانثنت ساقاها عند الركبتين ، وارتعشت واصطكّت أسنانها . فرفعها غريغوري فجأة وألقاها على ذراعيه ، كما يلقي ذئب شاة ذبيحة على ظهره ، ومضى متعثراً بأطراف معطفه المفتوح مبهور النفس .

ـ اوه! غريشا ، غريشا! أبوك... .

ـ اهدئي!

وانتزعت نفسها منه ، لاهثة تنشد الهواء في ثنايا صوف الفروة الحامض ، والندم يأخذ بخناقها ، وندّت عنها صيحة متأوّهة خفيضة هي إلى العياط أقرب :

ـ أنزلني ، مافي اليد حيلة سأذهب بنفسي .

١٠

ليس لازوردياً ولا أحمر فاتحاً كلون الخشخاش ، حب المرأة المتأخّر ، لكنّه مسعور كعشب السيكران النابت على جانب الطريق .

بعد انتهاء الحش ، أمست اكسينيا امرأة اخرى : وكأن أحداً قد وسم وجهها بميسم من نار . واذا صادفتها النساء تبسمن بخبث ، وهززن رؤوسهن وراءها . أمّا الفتيات فقد حسدنها ، لكنها شمخت عالياً برأسها الهانيء المجلل بالعار .

وسرعان ماعرف الجميع حكايتها مع غريغوري ميليخوف . في البدء ، كان الحديث يدور همساً ، والناس بين الشك واليقين ، ولكن بعد أن رآهما راعي القرية في بكرة الفجر مستلقيين في الذرة اليانعة تحت ضياء القمر الآفل بالقرب من طاحونة الهواء ، انتشرت الشائعات كموجة عكرة تتكسّر مضطربة على الشاطيء .

ثم بلغت الشائعة سمع بانتلاي بروكوفيتش أيضاً . فقد حدث ذات يوم أحد ، أن ذهب الى حانوت موخوف ، وكان الازدحام على الباب شديداً الى درجة لاتحتمل المزيد . فدخل بانتلاي بروكوفيتش ، وبدأ الجميع يوسعون له الطريق ، وهم يبتسمون وراءه . واتجه صوب الطاولة حيث تباع الأقمشة . وجاء صاحب الحانوت ، سيرغي بلاتونوفيتش موخوف ، ليلبي طلب العجوز بنفسه . وسأله :« أين كنت طوال هذه المدّة يا بروكوفيتش ؟ »

ـ لدي عمل كثير ومتاعب في الحقل .

ـ حقّاً ؟ متاعب وعندك مثل هذين الولدين ؟

ـ أي ولدين ؟ لقد ودّعت بيوتر إلى المعسكر ، وليس ثمّة سواي وغريشا لنعمل كل شيء .

وفرّق موخوف لحيته الحمراء الناشفة بأصابعه إلى نصفين ، وألقى من زاوية عينه نظرة ذات معنى على جمع القوزاق .

ـ لمَ لمْ تحك لنا شيئاً عنه ؟

ـ عن أي شيء ؟

ـ ماذا تعني بقولك عن أي شيء ؟ تفكّر بتزويج ابنك ، دون أن تقول كلمة ما لأي انسان ؟

ـ أي ابن ؟

ـ غريغوري ابنك غير متزوج .

ـ أنا لم أفكّر بتزويجه ، بعد .

ـ لكنني سمعت أنك بصدد اتخاذ كنّة لك . اكسينيا ، زوجة ستيبان استاخوف .

ـ ماذا ؟ وزوجها على قيد الحياة... كيف يا بلاتونوفيتش... لابد أنك تمزخ . أليس كذلك ؟

ـ أمزح ؟ ولكني سمعت الخبر من الآخرين .

فمسح بانتلاي بروكوفيتش بيده على قطعة القماش المبسوطة على الطاولة ، ثمّ استدار بحدّة ومضى يعرج قاصداً الباب . واتجه الى داره مباشرة ، مطأطأ الرأس كالثور وقد ضمّ قبضة أصابعه المعروقة ، وصار يحجل على ساقه العرجاء بصورة أوضح . وحين مرّ بدار استاخوف ألقى نظرة عجلى عبر سياج الصفصاف . كانت اكسينيا في ثوب جميل تدلف إلى الدار تحمل سطلاً فارغاً وقد بدت يافعة ، وهي تهزهز ردفيها اللدنين .

صاح بانتلاي بروكوفيتش : «ياهذي ، انتظري» ومرق إلى الداخل خلال البوابة . فتوقفت اكسينيا تنتظره . ثمّ دخلا الى المطبخ . كانت القاع الترابية المكنوسة يتلألأ عليها رمل أحمر ، وكان ثمّة على المصطبة في الزاوية الأمامية فطائر طازجة أخرجت تواً من الفرن . وانبعثت من الغرفة رائحة ملابس زنخة وتفاح حلو .

هرت قطة رقطاء ذات جرس كبير حول رجلي بانتلاي بروكوفيتش . وقوّست ظهرها والتصقت بجزمته . فركلها ركلة ضارية قذفت بها إلى المصطبة . صاح وهو يسمّر نظره في عيني اكسينيا :

ـ ماهذا الذي أسمعه ؟ ها ؟ لم يكد زوجك يغيب ، حتّى عمدت الى غواية رجال آخرين! لسوف أجعل دم غريشا يسيل لأجل ذلك ، وسأكتب الى زوجك ستيبان! فليسمع بهذا! ياعاهرة ، لم تنالي كفايتك من الضرب على ما يبدو ؟ إياك أن تضعي قدماً داخل حوشي من الآن فصاعداً . تتعابثين مع شاب . وعندما يأتي ستيبان ، هو سيقول لي...

أنصتت إليه اكسينيا وقد حاوصت عينيها . وفجأة رفعت طرف تنورتها بلا حياء وغمرت بانتلاي بروكوفيتش برائحة ملابس النساء وتقدّمت نحوه متلعة بصدرها وقد التوت شفتاها وتعرّت أسنانها .

ـ من أنت ؟ حماي ها ؟ من أنت كي تعلمني ؟ رح وعلّم امرأتك ذات المؤخرة السمينة . اضبط من في دارك أنت ، لن أعيرك اهتماماً أيها الشيطان الاعرج ذو القدم البتراء! اخرج من هنا ، فأنت لا تخيفني!

ـ انتظري ، أيتها السفيهة المخبولة!

ـ ليس ثمّة ما أنتظره! عد من حيث أتيت! وإذا أردت ابنك غريشا ، فلسوف آكله ، بعظامه وكل مافيه ، دون أن يحاسبني أحد! ماذا لو أحببت غريشا ؟ اضربني ، هلاّ فعلت ؟ تريد أن تكتب إلى زوجي ؟ اكتب إلى الاتمان لوشنت ، ولكن غريشا يعود لي! فهو لي! إنّه ملكي ، وسأبقيه ملكاً لي!

وضغطت اكسينيا على بانتلاي بروكوفيتش الواهن بنهدها الذي كان يترجرج خلف قميصها الرقيق الضيّق كطير حباري واقع في فخ ، وألهبته بشعلة عينيها السوداوين ، وأغرقته بمزيد من الكلمات البذيئة الفظيعة . فتراجع العجوز نحو الباب ، وحاجباه يرتعشان ، وتلمّس العصا حيث تركها في الزاوية ، ودفع الباب بمؤخرته وهو يلوّح بيده . وظلّت اكسينيا تضغط عليه حتى أخرجته من الممر ، وهي تصيح لاهثة هائجة :

ـ سوف أنعم بحبّي ، وسوف أعوض عن كل ماقاسيته من مظالم! وآنذاك ، لك أن تقتلني إن شئت! فغريشا ملكي ، ملكي!

ومضى بانتلاي بروكوفيتش يعرج إلى بيته ، مدمدماً بشيء خلل لحيته . فوجد غريغوري في الغرفة ، ومن غير أن يقول شيئاً هوى بعصاه على ظهر ابنه ، فتقوّس غريغوري وأمسك بذراع أبيه :

ـ فيم هذا ، ياأبي ؟

ـ جزاء أفعالك المشينة ، يا ابن العاهرة!

ـ أيّة أفعال ؟

ـ لا تلوّث جارك! لا تجلب العار لأبيك! لا تجر وراء النساء ، أيها التيس الحقير!

وطفق بانتلاي بروكوفيتش يزمجر وهو يجرجر غريغوري في أرجاء الغرفة محاولاً انتزاع العصا التي كان غريغوري يمسك بها .

ـ لن أدعك تضربني ـ صاح غريغوري في صوت مبحوح وهو يصر على أسنانه ، ووضع العصا على ركبته ، ثم... طاق... كسرها!

فهوى بانتلاي بروكوفيتش بقبضته القاسية على رقبة غريغوري ، مزمجراً : سأجلدك علناً ياابن الشيطان الرجيم! سوف أزوجك من بلهاء القرية! سوف أخصيك! ـ راوح في مكانه مستعداً ليوجّه ضربة جديدة .

وجلب الصياح الأم العجوز فجاءت الى الغرفة مهرولة .

ـ بروكوفتش . بروكوفتش! اهدأ قليلاً . مهلاً!

لكن الرجل العجوز كان قد استشاط غضباً عن جد ، فدفع زوجته بعنف ، وقلب المنضدة وعليها ماكنة الخياطة وانطلق إلى الحوش . ولم يكن غريغوري قد أتمّ نزع قميصه الذي تمزّق كمّه خلال العراك ، حين دفع أبوه الباب وظهر من جديد على العتبة كأنّه سحابة عاصفة .

ـ لسوف أزوجه وأتخلّص منه ، ابن العاهرة هذا ـ وضرب الأرض بقدمه كما تفعل الخيل ، وثبت نظره على غريغوري القوي ، واستطرد : ـ سأذهب

غداً وأدبّر الزيجة . ما كنت أعتقد أنني سأعيش لأرى الناس يتضاحكون عليّ بسبب ابني .

ـ دعني أرتدي قميصي أولاً ، ثمّ زوجني!

ـ سأزوجك من بلهاء القرية! سأزوجك حتماً!

وانصفق الباب ، وطقطقت أقدام العجوز هابطة السلّم وهدأت .

١١

على مبعدة من قرية سيتراكوفو ، كانت صفوف العربات ذات الأغطية المشمعية تمتد عبر السهب . كانت ثمّة بلدة صغيرة نظيفة ذات سقوف بيضاء ، تتنامى بسرعة لا تصدّق ، وامتدّت خلالها شوارع مستقيمة ، وتوسطتها ساحة صغيرة حيث يمشي جندي للحراسة ذهاباً واياباً .

كان الرجال يحيون حياة معسكر التدريب الاعتيادية الرتيبة . ففي الصباح تقوم مفرزة من القوزاق الذين يتولون حراسة الخيل السارحة بسوقها إلى المعسكر . ثم يتبع ذلك الحس* وسرج الخيول وقراءة الأسماء ، والاستعراض . وكان ضابط الركن آمر المعسكر ، العقيد بوبوف ، ينعق بصوت جهوري ، والعرفاء الذين يدربون القوزاق الشباب يصرخون بأوامرهم . وقد اشتركوا في الاشتباكات خلف التل ، وحاصروا «العدو» بمهارة وصوّبوا النار إلى الأهداف . وتحمس فتيان القوزاق في مباريات المبارزة بالسيف ، بينما تملّص كبارهم من التدريب قدر مااستطاعوا .

وبينما كانت الأصوات تخشوشن من الحر والفودكا ، هبّت رياح منعشة معطّرة فوق صفوف العربات الطويلة المغطّاة ، وصفرت السوالق من بعيد وأومأ السهب يدعوهم إليه ليخلفوا وراءهم دخان الأكواخ البيضاء .

---

* الحس : تنظيف الخيل بالمحسة . المترجمون

قبل ارفضاض المعسكر بحوالي اسبوع ، جاءت زوجه أندري توميلين (وهو أخو المدفعي ايفان) لزيارته ، وقد جلبت له شيئاً من الفطائر المصنوعة في البيت ، ومجموعة من الأطعمة اللذيذة ، وقبضة من أخبار القرية .

وقفلت عائدة في الصباح الباكر ، حاملة تحيّات القوزاق وتوصياتهم إلى عوائلهم وأقربائهم في القرية ، إلا ستيبان استاخوف الذي لم يحمّلها أيّة رسالة . فقد ألمّ به مرض في الليلة السابقة ، وشرب الفودكا ليشفي نفسه ، فكانت النتيجة أن أمسى عاجزاً عن رؤية أي شيء في عالمنا الفسيح هذا ، بما في ذلك زوجة توميلين . ولم يخرج إلى الاستعراض ، ورجا مساعد الطبيب أن يفصد له دمه ، فاستجاب الاخير لرجائه واضعاً مجموعة من ديدان العلق على صدره ، وجلس ستيبان بقميصه الداخلي مستنداً إلى عجلة عربته وقد تلطّخ غطاء قبعته الكتاني الأبيض بشحم العربة ، أرخى شفته السفلى ، وراح ينظر الى ديدان العلق وهي تمتص من صدره الذي يشبه البرميل فتنتفخ بالدم القاتم .

وكان مساعد الطبيب يقف الى جانبه مدخناً ، ينفث الدخان خلال الفجوات الواسعة بين أسنانه .

ـ أتشعر بأي تحسّن ؟

ـ إنها تمتص الدم بصورة حسنة . هذا أخف على القلب نوعاً ما .

ـ ديدان العلق شيء عظيم!

واقترب توميلين وغمز لستيبان قائلاً :

ـ ستيبان ، لدي معك كلمة .

ـ تكلّم .

ـ تعال لحظة .

فنهض ستيبان متأففاً وابتعد مع توميلين .

ـ قل مالديك .

ـ كانت امرأتي هنا في زيارة . وقد رحلت هذا الصباح .

ـ حسناً ؟
ـ ثمة لغط كثير حول زوجتك في القرية .
ـ ماذا ؟
ـ لغط لايسر .
ـ أي ؟
ـ إنها تتعابث مع غريغوري ميليخوف . وبصورة مكشوفة تماماً .
فشحب وجه ستيبان وانتزع الديدان من صدره وسحقها بقدمه . وحين أتم سحق آخر واحدة منها ، زرر ياقة قميصه ، ثمّ ، كما لو انتابه الخوف على حين غرّة ، عاد ففك أزرار قميصه ، فيما كانت شفتاه الطباشيريتان تتحركان بدون توقّف ؛ ارتجفتا ، ثمّ انزلقتا في ابتسامة بلهاء ، ثمّ ارتعشتا وتجمعتا في ثنية دكناء . وظنّ توميلين أن ستيبان لا بد ماضغ شيئاً قوياً وصلباً . ثمّ ، شيئاً فشيئاً ، عاد اللون إلى وجهه ، وتجمّدت شفتاه ، اللتان ضغطت عليهما أسنانه ، وغدتا هامدتين بلا حراك . نزع قبعته ، وفرش بكمّه بقعة الشحم على غطائها الأبيض ، وقال بصوت رنّان : «شكراً للأخبار» .
ـ لم أرد سوى تحذيرك . معذرة... هذه هي أخبار البيت...
وخبط توميلين يديه على بنطاله في أسف ، ومضى إلى حصانه غير المسرج . وانبعث عن المعسكر لغط وصيّاح . فقد عاد القوزاق من تمارين المبارزة . ووقف ستيبان برهة يحدّق بثبات وتجهّم في اللطخة السوداء في قبعته . كانت ثمّة علقة نصف مسحوقة ، ومحتضرة ، تزحف صاعدة على جزمته .

١٢

بعد عشرة أيام سيكون القوزاق في طريق عودتهم من المعسكر .
وفي تلك الأثناء عاشت اكسينيا في جنون حب مرير لم تظفر به إلا

متأخرة . وكان غريغوري ينسل إليها في الليل ، على الرغم من وعيد أبيه ، ويعود عند الفجر .

وفي ظرف أسبوعين استنزف قواه ، كحصان يجهد نفسه بما يفوق طاقته . وبسبب من قلّة نومه ، تشرّب وجهه الأسمر ذو الوجنتين البارزتين بلون أزرق ، ولمعت عيناه المتعبتان من محجريهما الغائرين لمعاناً محموماً . أمّا اكسينيا فصارت تمضي سافرة الوجه تماماً ، وقد اسودّت التجاويف العميقة تحت عينيها في سواد كلّي ، وابتسمت شفتاها الشرهتان المتورّمتان في تحدّ قلق .

وقد بلغت علاقتهما المجنونة حدّاً من الغرابة والعلانية ، واحترقا هائمين في شعلة واحدة لاتعرف الخزي ، ولم يردعهما ضمير ولا أخفيا حبهما عن العالم ، وتضاءلا أمام أعين الناس واسودّت صورتاهما ، وصار الناس يخجلون من النظر إليهما أثناء التقا ئهما في الشارع .حتّى رفاق غريغوري الذين كانوا يمازحونه حول اكسينيا ، غدوا الآن يلزمون الصمت ويشعرون بالتثاقل والضيق في صحبته . أمّا النساء ، فقد غبطن اكسينيا في قلوبهن ، ومع ذلك ذممنها ، وانتظرن بشماتة عودة ستيبان ، يلوعهن الفضول لمعرفة ما ستؤول إليه الأمور .

ولو أن غريغوري تظاهر وبذل أي جهد لإخفاء علاقته مع اكسينيا زوجة الجندي ولو أن اكسينيا أبقت علاقتها بغريغوري خفيّة نسبيّاً ، دون الإعراض عن الآخرين ، لما كان العالم قد وجد في علاقتهما شيئاً غير عادي ، ولربّما كانت القرية قد ثرثرت بعض الشيء ثم نسيتهما . لكنهّما تعاشرا فيما يشبه العلن . وكانت تربطهما علاقة قويّة لاتشبه أيه عشرة عارضة ، ولهذا السبب اعتبرها القرويون منافية للأخلاق ، وأمسكوا أنفاسهم في ترقّب متلصص . فسيعود ستيبان ويحل العقدة .

في حجرة نوم آل استاخوف ، كان خيط يمتد فوق السرير لُضمت فيه بكرات خياطة ، بيضاء وسوداء ، كان القصد من تعليقها تزيين الغرفة .

وكان الذباب يقضي لياليه على البكرات ، وقد امتدّت منها أنسجة العنكبوت حتّى بلغت السقف . كان غريغوري متمدّداً على ذراع اكسينيا البارد العاري ، يحدّق في سلسلة البكرات . وكانت اكسينيا تعابث خصلات شعره الخشنة بيدها الأخرى ذات الأصابع التي اخشوشنت في العمل الشاق . وكانت ثمّة رائحة لبن دافىء تنبعث من أصابعها ، وحينما أدار غريغوري رأسه غارزاً أنفه في إبطها ، أفعمته رائحة العرق الأنثوي الحلوة النفاذة .

إلى جانب السرير الخشبي المطلي المزيّن ببكرات صغيرة ، ضمّت الحجرة صندوقاً واسعاً ، ذا أطر حديدية ، كان موضعه قرب الباب ، وقد احتوى على ملابس زفاف اكسينيا وحليها . وفي ركن من الغرفة ، كانت منضدة ، وصورة زيتية للجنرال سكوبوليف على صهوة حصان منطلق صوب صف من الأعلام المنحنية أمامه ، وكرسيان ، فوقهما أيقونات ذوات هالات ورقية مزخرفة ، وعلى الحائط الجانبي ، تدلّت صور نقطها براز الذباب . وكانت واحدة منها تضم عدداً من القوزاق بخصل شعرهم المجعّدة ، وصدورهم المنتفخة تزينها سلاسل الساعات ، وسيوفهم المشهرة ، وكانت الصورة لستيبان ورفاقه أثناء الخدمة العسكريّة الفعلية . وعلى مشجب علقت بزّة ستيبان العسكريّة التي لم تغادر مكانها ذاك . وأطلّ القمر خلال النافذة وحطّ متردداً على خيطي نائب العريف الأبيضين فوق كتف البزّة .

قبلت اكسينيا ، متأوهة ، غريغوري على منبت أنفه فيما بين حاجبيه .

ـ غريشا ، ياحبيبي .

ـ ماذا ؟

ـ لم يبق غير تسعة أيام .

ـ ليس هذا بالأجل القصير .

ـ ماذا عساي أن أفعل ، ياغريشا ؟

ـ وكيف لي أن أعرف ؟

وكتمت اكسينيا آهة ، وعادت من جديد تسوّي شعره الملبّد وتفرّقه .

قالت بلهجة اختلط فيها التساؤل بالإفصاح : «سيقتلني ستيبان» .

لم ينبس غريغوري ببنت شفة . لقد أراد أن ينام . وبذل جهداً كي يفتح جفنيه الملتصقين ، فرأى فوقه سواد عيني اكسينيا المزرق المتلألىء .

ـ حينما يعود زوجي ، ستتخلّى عنّي ، أليس كذلك ؟ ستخاف ؟

ـ لمَ أخاف منه ؟ أنت زوجته ، ويفترض فيك أن تكوني الخائفة .

ـ حينما أكون الى جانبك لا ينتابني خوف ، ولكنّي حينما أفكّر في الأمر أثناء النهار أجدني خائفة .

تثاءب غريغوري وغيّر من وضع رأسه وقال :

ـ ليست لعودة ستيبان أهمية كبيرة . إن أبي يتحدّث عن تزويجي .

وابتسم ، وكان على وشك أن يضيف شيئاً ، إلا أنّه أحس بيد اكسينيا تحت رأسه ترتخي فجأة ، وتلين وتدفن نفسها في الوسادة ، وترتعش وبعد لحظة تعود فتتصلّب من جديد . ثم تساءلت والغصّة تخنق صوتها :

ـ ممن يفكّر في تزويجك ؟

ـ إنّه يتحدث في الأمر ، لاغير . أمّي تقول إنّه يفكّر في ناتاليا بنت كروشونوف .

ـ ناتاليا... إنها فتاة جميلة . جميلة جداً . حسناً ، امض وتزوّج منها . رأيتها في الكنيسة قبل مدّة . كانت أنيقة الملبس...

كانت اكسينيا تتكلّم بسرعة ، لكنّه لم يكد يسمعها ، فقد كان صوتها خالياً من الحياة وكئيباً الى درجة كبيرة .

ـ إنني لا أعير جمالها قدر دبوسين من اهتمامي ، بودّي أن أتزوجك أنت .

فسحبت اكسينيا ذراعها من تحت رأسه ، وأخذت تحدّق في النافذة بعينين جافتين . كان في الحوش ضباب ليلي أصفر ، وألقت السقيفة ظلاً ثقيلاً . وكانت الصراصير تصر ، وعلى الدون تهدر طيور الواق ، وتنساب نغماتها الأسيانة خلال نافذة حجرة النوم .

ـ غريشا!

ـ خطر لك شيء ما ؟

فأمسكت اكسينيا بيدي غريغوري الخشنتين الصلبتين ، وضغطتهما على صدرها وعلى خديها الباردين شبه الميتين ، وأعولت :

ـ فيم أقمت علاقتك بي ، عليك اللعنة! ماالذي سأفعله ؟ لقد أخذت قلبي... غريشا ، لقد انتهى أمري... ستيبان سيرجع ، وماذا عساي أقول له ؟... من ذا الذي سيكون في عوني ؟

لم يجب غريغوري بشيء . وحدّقت اكسينيا بأسى في أنفه الجميل الذي يحاكي منقار النسر ، وعينيه المظللتين ، وشفتيه الخرساوين... وفجأة اجتاح فيضان طاغ من الشعور السد الذي كان يكبح جماح عواطفها ، فجعلت تقبّله بجنون في وجهه ورقبته وذراعيه والشعر الأسود الخشن المجعّد على صدره ، وأحسّ غريغوري بجسدها يرتعش حين التقطت أنفاسها وهمست :

ـ غريشا... يا أعز من عندي... ياحبيبي... لنهرب بعيداً . ياحبيبي . لنترك كل شيء ونمضي . سأهجر زوجي وكل شيء مادمت أنت معي... سنرحل بعيداً ، إلى المناجم . سأظل أحبّك وأرعاك . لي عم يعمل حارساً في مناجم بارامونوف سوف يساعدنا... غريشا... قل شيئاً!

التوى حاجب غريغوري الأيسر . وظلّ يفكّر لحظة ، ثم فتح فجأة عينيه التركيتين الملتهبتين ، وكان فيهما استخفاف هازىء متلامع .

ـ حمقاء أنت يا اكسينيا ، حمقاء! تثرثرين ، وليس في كلامك ما يستحق الإنصات . كيف أستطيع أن أرحل عن القرية ؟ عليّ أن أؤدّي الخدمة العسكرية في العام القادم... لا جدوى من الرحيل... لن أتزحزح مطلقاً عن أرضنا . هنا ، يوجد السهب ، وثمّة شيء أستنشقه ـ أمّا هناك ؟ في الشتاء الماضي ، ذهبت مع أبي إلى المحطّة . كدت أموت . آلات تزأر ، والهواء خانق ومثقل بالفحم المحترق . كيف يعيش الناس هناك ، لا أدري . ربّما اعتادوا ذلك!

وبصق غريغوري ، وكرّر القول :

ـ لن أرحل عن القرية .

اشتدّت عتمة الليل خارج النافذة ، ومرّت سحابة أمام القمر . وتلاشى الضباب الأصفر من الحوش ، واختفت الظلال ، وصار من العسير أن يتبين المرء ما إذا كانت أحطاب العام الماضي أم أعشاب جافة ، تلك التي لاحت ، عتماء ، وراء السياج .

واشتدّت العتمة في الغرفة أيضاً . اختفى لمعان الخيطين على بزّة ستيبان العسكرية المعلقة إلى جانب النافذة ، وفي الظلام الرمادي الهامد لم يلحظ غريغوري الارتعاش الخفيف في كتفي اكسينيا ، ولا رأسها المدفون في يديها ، وهي تهتز في صمت على الوسادة .

١٣

بعد زيارة زوجة توميلين ، تغيرت ملامح ستيبان بشكل واضح ، فتدلّى حاجباه فوق عينيه ، وتجعّد جبينه في تقطيب قاسٍ عميق . صار مقلاً في كلامه مع رفاقه ، وجعل يغضب لأتفه الأسباب ، وتخاصم مع رئيس العرفاء ، ولم يعد يطيق النظر إلى بيوتر ميليخوف . لقد انقطعت عرى الصداقة التي كانت تربطهما في السابق . وفي حومة هياجه الفوار المغتاظ ، انحدر في سلوكه الى الحضيض وكأنّه حصان شموس . وهكذا ، رجعا الى القرية عدوّين .

وكان لابد من حدوث شيء يوصل العداء الغامض بينهما إلى حد فاصل . انطلقا الى قريتهما مع الجماعة نفسها كما كان الحال في السابق . وكان حصان بيوتر وستيبان مشدودين إلى العربة ، وكان كريستونيا على حصانه خلفهما . وتمدّد اندري توميلين ، الذي كان يعاني من الحمّى ، في العربة يغطيه معطفه العسكري . وكان فيدوت بودفسكوف أكسل من أن

يقود العربة ، فأمسك بيوتر بالأعنّة . وسار ستيبان الى جانب العربة ، لافحاً بضربات من سوطه الرؤوس القرمزية للأشواك النامية على جانب الطريق . كان المطر يتساقط ، وجعل التراب الأسود الثر يلتصق بالعجلات كالقطران . وكانت السماء خريفية تضفي عليها السحب لوناً رمادياً . وجاء الليل . ولم تكن أنوار أيّة قرية تلوح في مدى الرؤية . فأخذ بيوتر يستحث الخيل بسوطه بلا رادع . وفجأة صاح ستيبان في الظلمة :

ـ أنت... يا... أنت! تترك حصانك ، وتهوي بالسوط على فرسي طول الوقت!

ـ افتح عينيك! أنا أضرب الحصان الذي لا يسحب .

ـ اخشَ ألا أربطك أنت الى عريش العربة . ذاك هو المكان اللائق بالأتراك .

فألقى بيوتر بالأعنّة وقال :

ـ ماذا تقصد ؟

ـ اوه ، ابق في مكانك .

ـ اخرس!

وتساءل كريستونيا وهو يقترب من ستيبان على حصانه : «فيم هياجك عليه ؟ »

لم يجبه ستيبان ، وكان الظلام يخفي وجهه . ومضوا صامتين طوال نصف ساعة أخرى . كان الطين ينسحق تحت العجلات ، والمطر يتساقط برتابة فوق الأغطية المشمعة . أرخى بيوتر الأعنّة ، ودخّن وهو يسترجع في ذهنه كل كلمات الإهانة التي قد يستعملها في عراكه القادم مع ستيبان . فار الحنق في قلبه واستبدّت به الرغبة في أن يقول لستيبان السافل كلمات لاذعة ويستهزىء به .

ـ تنح عن طريقي . أريد أن أدخل تحت الغطاء .

قال ستيبان ذلك وهو يدفع بيوتر جانباً ووثب الى مدوس العربة .

ارتجّت العربة فجأة ووقفت ، فقد تزحلقت الخيل في الوحل ، وتتابعت حوافرها ، وأنّ العريش . فصرخ بيوتر :

ـ هوه! ـ وقفز الى الأرض .

فتساءل ستيبان قلقاً :«ماذا حدث ؟» اقترب كريستونيا على حصانه قائلاً :

ـ ماذا حدث ياشياطين ؟

ـ هات ضوءاً .

ـ أين الكبريت ؟

ـ ياستيبان هات الكبريت .

في المقدّمة ، كانت الفرس تنافح وتزنجر . وأشعل أحدهم عود ثقاب ، فتكوّنت دائرة برتقالية صغيرة من الضياء ، ثمّ خيّم الظلام من جديد . وبيدين مرتعشتين تحسس بيوتر العمود الفقري للفرس المنكفئة ، ثم جر العنان :«هاي!»

أنّت الفرس وانقلبت ، فانكسر العريش الأوسط نصفين . وأشعل ستيبان جملة من عيدان الثقاب . كانت فرسه متمددة وهي تشرئب برقبتها ، وقد انغرست إحدى قادمتيها حتّى الركبة في حفرة مرموط في الأرض .

فك كريستونيا السيور ، في عجلة . وتبادل بعضهم البعض بالكلام :

ـ اسحب قادمتها!

ـ فك العنان عن حصان بيوتر بسرعة!

ـ هوه! على مهلك! على مهلك!

ـ إنها ترفس! اللعنة عليها! احترس!

وأخيراً ، أوقفت فرس ستيبان على أقدامها بعد لأي . وفيما أمسك بها بيوتر من عنانها ، زحف كريستونيا على ركبتيه في الوحل ، متحسساً ساقها المتدلية باستكانة .

وهدر كريستونيا :

ـ يبدو أنها كسرت .

وضرب فيدوت براحة يده على ظهر الفرس المرتعش :

ـ لنر فيما اذا كانت تستطيع السير .

وسحب بيوتر العنان ، فحجلت الفرس خطوة أو خطوتين دون أن تطأ الأرض بقائمتها اليسرى ، وصهلت . راح توميلين في قلق وهو يرتدي معطفه السميك ، ويقول :

ـ كُسرت ، اللعنة! فقدنا فرساً .

وبدا على ستيبان الذي ظلّ صامتاً حتى الآن ، كأنّه ينتظر مثل هذه الملاحظة . فهجم على بيوتر منحيّاً كريستونيا عن طريقه . كان يستهدف رأسه ، إلا أنّه أخطأ ، وهوى بضربته على كتفه . وتماسك الاثنان ، وسقطا في الوحل . وانبعث صوت قميص يتمزّق . واستطاع ستيبان أن يطرح بيوتر تحته ، ضاغطاً بركبته على رأس بيوتر . وراح يكيل له الضربات بقبضته . واستطاع كريستونيا أن يجرّه عن بيوتر وهو يصرخ بالشتائم البذيئة .

صاح بيوتر وهو يبصق دماً :

ـ فيم ذلك ؟

ـ افتح عينيك حين تسوق ، يا أفعى! سر في الطريق!

وحاول بيوتر أن ينتزع نفسه من قبضة كريستونيا ، فزأر الأخير لاصقاً بيوتر بيد واحدة على العربة :

ـ كفاية! حذار أن تعاركني!

شدوا حصان بودوفسكوف الصغير القوي إلى جانب حصان بيوتر . وأعطى كريستونيا حصانه لستيبان ليمتطيه ، وزحف هو إلى داخل العربة مع بيوتر .

كان أول الليل قد انتصف حينما بلغوا إحدى القرى ، فتوقفوا عند أول دار ، ذهب كريستونيا ليطلب من أهلها مبيتاً عندهم . فقد مضى كريستونيا

يخوض في الوحل صوب الشباك ، غير مكترث بالكلب الذي كان يعض أطراف معطفه . فتح شيش الشباك ، وجعل يخمش على لوح الزجاج بأظفر متقرّن .

ـ يارب البيت!

ولم يجبه سوى همس المطر ، وهدير النباح .

ـ يارب البيت! أيها الأخيار ، سلاماً! دعونا نقضي الليلة عندكم ، إكراماً للمسيح ، ها ؟ نحن قادمون من معسكر التدريب ، كم عددنا ؟ خمسة . بديع ، فليحفظكم المسيح .

ثم استدار إلى ناحية البوابة وصاح :«ادخلوا!»

فقاد بودوفسكوف الخيل الى الداخل ، وتعثّر بمعلف خنزير ملقى في وسط الحوش ، فانحدر من فمه سيل من السباب المقذع . وقادوا الخيل إلى الحظيرة . ومضى توميلين الى البيت وأسنانه تصطك ، بينما بقي كريستونيا وبيوتر في العربة .

عند الفجر ، تهيأوا لمواصلة الرحلة ثانية . فخرج ستيبان من البيت ، تظلع وراءه عجوز حدباء . وصاح كريستونيا ، الذي كان يشد الخيل ، بلهجة مشفقة :

ـ هوْ هوْ ، ياجدتي! ياله من سنام هذا الذي حطّوه عليك! لكنّه ذو فائدة لك عند الركوع في الكنيسة . فلست بحاجة إلى الإنحناء الكثير للوصول الى الأرض!

ـ لئن كنت أصلح للركوع ، فأنت ياعزيزي تصلح لتعليق الكلاب عليك . فثمة شيء ما لكل واحد منّا!

وابتسمت العجوز بصرامة ، مثيرة استغراب كريستونيا بما كشفته من صف كامل لأسنان صغيرة سليمة .

ـ وأسنانك ، يالها من أسنان ، كسمك الكراكي! ألا تعطينني بعضاً منها ؟ ها أنذا في ريعان الشباب ، وليس لدي ما ألوك به .

ـ وماذا سيتبقّى لدي ، ياعزيزي ؟

ـ لسوف نعطيك طقماً من أسنان الخيل ، ياحبّوبة . ستموتين يوماً ما ، ولن يلقوا نظرة الى أسنانك في الآخرة . فليس القديسون تجّار خيل ، كما تعلمين .

فقال توميلين مبتسماً :«استمر في ذلك يا كريستونيا » ، وتسلّق الى داخل العربة .

ومشت العجوز وراء ستيبان إلى الحظيرة ، وتساءلت : «أي منها ؟ » فتنهد ستيبان قائلاً : «الدهماء » فوضعت العجوز عصاها على الأرض . وبحركة رجولية قويّة واثقة ، رفعت ساق الفرس المصابة . وتحسست بأصابعها الهزيلة المعقوفة رضفة الركبة بعناية ، فتحرّكت أذنا الفرس وجعلها الألم تتراجع على ساقيها الخلفيتين . وكشفت عن صف أسنانها البنّية .

ـ لا لا ، ليس هناك كسر ، أيها القوزاقي . اتركها هنا وسأشفيها .

ـ متأكّدة ياجدّتي ؟

ـ أأنا متأكدة ؟ لا أدري ياعزيزي . سأحاول أن أشفيها .

فلوّح ستيبان بيده ومضى الى العربة . فارتفع صوت العجوز وهي تراقبه بعينين ضيقتين :«هل ستتركها أم لا ؟ »

فأجاب :

ـ فلتبق هنا .

وقال كريستونيا هادراً بالضحك :

ـ ستشفيها لك . وحين تعود إليها لن تجد لديها أيّة ساق باقية ، فالبيطارة نفسها حدباء .

١٤

ـ آه ، لكم اتحرّق شوقاً إليه ، ياجدّتي العزيزة! ها أنا أرى نفسي تذوب . لم أعد أستطيع خياطة ثنيات لتنورتي بالسرعة الكافية . وجسمي

يزداد نحافة . كلّما يمر بجانب البيت أحس بقلبي يحترق . بودّي لو أرتمي على الأرض وألثم آثار أقدامه . لربّما استعمل شيئاً ما ليسحرني ؟ ساعديني ياعزيزتي . إنهم بصدد تزويجه... ساعديني ياعزيزتي... مهما يكن الثمن... لسوف أعطيك كل ما أملك ، فقط ساعديني!

ونظرت العجوز دروزديخا الى اكسينيا بعينين صافيتين داخل شبكة وجهها المجعّد ، هازة رأسها لدى سماعها القصّة المريرة .

- ومن هو هذا ؟

- ابن بانتلاي ميليخوف .

- التركي ، أليس كذلك ؟

- بلى .

وتمضغت العجوز لثتها عديمة الأسنان ، وترددت في جوابها :

- تعالي إليّ في بكرة الغد ، ياطفلتي ، حالما يطلع الفجر . سوف ننزل إلى الدون ، إلى الماء ، سوف نغسل عنك حنينك . وأحضري قليلاً من الملح معك... هكذا...

وتلفعت اكسينيا بشالها الأصفر ، ومضت ، وكتفاها متهدلتان ، خارجة خلال البوابة . وابتلع الليل هيكلها الداكن ، وكان الصوت الوحيد في الشارع صوت صندلها الذي تخط به على الأرض . ثمّ تلاشت خطواتها . ومن مكان ما في طرف القرية ، انبعثت جلبة عراك وغناء .

عند الفجر ، وقفت اكسينيا ، التي لم تعرف النوم طوال الليل ، تحت نافذة دروزديخا :

- جدّتي!

- من هناك ؟

- أنا اكسينيا . انهضي .

- سأرتدي ملابسي حالاً .

واتخذتا طريقهما خلل الدروب الخلفية إلى النهر . وعلى مقربة من

المرسى كانت محاور عربة مهجورة ملقاة وقد تشرّبت بالماء . وعند حافة الماء كان الرمل يحز أقدامهما ببرودة . وزحفت ، صاعدة من الدون ، ضبابة باردة رطبة .

وأخذت دروزديخا يد اكسينيا بيدها الهزيلة وقادتها الى الماء .

ـ أعطني الملح . ارسمي علامة الصليب باتجاه المشرق . فرسمت اكسينيا الصليب على نفسها ، وهي تحدّق في حنق باتجاه المشرق الوردي البهيج .

ـ خذي شيئاً من الماء براحتك واشربي .

وشربت اكسينيا ، مبللة كمّي قميصها ، وكعنكبوت أسود فجّت العجوز الأمواج المتلاطمة في تكاسل ، وجلست القرفصاء ، وجلست تهمس :

ـ أيتها التيارات القادمة من الأعماق... جسد محزون... وحش في القلب... حمى وحنين... باسم الصليب المقدّس ، باسم الأم الطاهرة المقدسة... عبد الرب... غريغوري .

تناهت هذه الكلمات إلى مسمع اكسينيا .

ونثرت دروزديخا بعض الملح على الرمل الندي عند قدميها وبعضاً منه في الماء ، ووضعت الباقي في صدر اكسينيا .

ـ رشّي بعض الماء على كتفك . أسرعي!

فعلت اكسينيا ذلك ، وحملقت بحزن وغضب في خدّي دروزديخا النحاسيين .

ـ أهذا كل شيء ؟

ـ نعم ، هذا كل شيء . اذهبي ونامي .

جرت اكسينيا ، مبهورة الأنفاس إلى الدار ، كانت الأبقار تخور في الفناء . وكانت داريا تسوق أبقارها لتلحق بقطيع القرية ، وعيناها نعستان متوردان ، وحاجباها مقوسان . فابتسمت حين رأت اكسينيا تجري مارة بها وقالت :

ـ هل نمت جيداً ، ياجارتي ؟
ـ الحمد لله...
ـ وأين كت في هذا الوقت الباكر ؟
ـ كنت في زيارة في القرية .

كانت نواقيس الكنيسة تدق داعية لصلاة الصبح ، وكان وقعها النحاسي يتكسّر إلى نثار من الأصوات . وفرقع مساعد راعي القرية بسوطه في الطريق الجانبي . فساقت اكسينيا بقراتها مسرعة إلى الخارج ، ثم حملت اللبن إلى الدار لتخضّه . وشمّرت كمّيها ومسحت يديها بصدريتها ، وصبّت اللبن في المخضّة ، وهي شاردة الذهن .

كان ثمّة ضجيج عجلات صاخب وزنخرة خيل في الشارع . فوضعت اكسينيا السطل ، وذهبت لتستطلع الأمر من الشبّاك الأمامي . كان ستيبان قادماً خلال البوابة ، ويده على رمانة سيفه ، وكان القوزاق الآخرون يجرون على خيلهم صوب ساحة القرية . جعدت اكسينيا صدريتها بأصابعها ، وجلست على المصطبة . ثمّة خطوات في السلّم... خطوات في الممر... خطوات عند الباب مباشرة...

وقف ستيبان على العتبة ، ضامراً نفوراً ، وقال :
ـ حسناً ؟

فتقدمت نحوه اكسينيا ، وجسمها الممتلىء يترنّح برمّته . وقالت ببطء :«اضربني» وأدارت إليه كتفها .
ـ حسناً ، يا اكسينيا ؟
ـ لن أكتمك . لقد أثمت . اضربني ، ياستيبان!

وضمّت رأسها بين كتفيها ، وانحنت الى الأسفل لتحمي بذراعيها بطنها فقط ، وصارت وجهاً لوجه معه . وحملقت عيناها دون أن تطرفا من محجريهما الداكنين في وجهها الأبكم الذي شوهه الخوف . ترنّح ستيبان وتخطّاها ، فانبعثت من قميصه غير المغسول رائحة العرق الرجولي ، وروائح

الطريق الحريفة ، ثمّ هوى على السرير دون أن ينتزع قبعته . واستلقى لحظة هناك ، ثمّ هزّ كتفيه ، وألقى عنه نطاق سيفه . وتدلّى شاربه الأشقر ، البارز المبروم في العادة ، وارتخت ذؤابتاه . فحدجته اكسينيا بطرف عينها ، دون أن تدير رأسها نحوه ، وكانت القشعريرة تجتاح بدنها بين لحظة وأخرى . ثم وضع ستيبان قدميه على طرف السرير ، فانزلق الوحل من جزمته . حدّق في السقف ، ولاعب شرابة سيفه الجلدية .

ـ الفطور جاهز ؟

ـ لا...

ـ هاتي شيئاً آكله .

رشف شيئاً من اللبن مبللاً شاربه . ومضغ الخبز متباطئاً . وكانت عضلات وجنتيه الوردية تتحرّك بانتظام . وقفت اكسينيا قرب الموقد تراقب بفزع لاهب أذني زوجها الغضروفيتين الصغيرتين ترتفعان وتنخفضان وهو يأكل .

نهض ستيبان من المائدة ورسم علامة الصليب عليه ، وطلب إليها باقتضاب :

ـ هيّا ياعزيزتي ، أخبريني بالأمر .

وبرأس منكّس ، نظفت اكسينيا المائدة ، ولم تنبس بشيء .

ـ أخبريني كيف انتظرت زوجك ، كيف صنت شرفه ، ها ؟

وهوت ضربة مريعة على رأسها ، فانتزعتها من الأرض ، وقذفتها شطر الباب . وارتطم ظهرها بعمود الباب ، فندّ عنها أنين بائس .

إن النساء ضعيفات الجسم ناعماته ، ولكنّ ستيبان بوسعه أن يصرع حتى رؤوس رجال الحرس الأقوياء الأشدّاء ، بضربة محكمة على الرأس ، فلعل الخوف هو الذي أنهض اكسينيا ، أو ربّما رغبة المرأة في الحياة ـ فأفاقت من الضربة ، واستراحت لحظة مستلقية ، ثمّ حبت زاحفة على الأربع .

كان ستيبان يشعل سيكارة وسط الغرفة ، فلم يرها تنهض على قدميها .

ألقى كيس تبغه على المنضدة ، غير أنّ اكسينيا كانت آنذاك قد صفقت الباب وراءها ، فاندفع خلفها يطاردها .

ركضت اكسينيا ، والدم يسيل من رأسها ، متجهة صوب السياج الذي يفصل فناءهما عن فناء آل ميليخوف . وأدركها ستيبان عند السياج ، فأهوى بيده السوداء على رأسها كالصقر ، ولفّ شعرها بأصابعه ، وجعل يجذبها ، حتّى طرحها أرضاً ، على رماد الفحم الذي كانت اكسينيا ترميه كل يوم بجانب السياج .

مر اليكسي شامل الأقطع بالسياج ، وألقى نظره رلى الداخل ، فطرفت عينه ، وانفرجت لحيته الكثّة الصغيرة عن ابتسامة :

ليس في الأمر غرابة أن زوجاً يسحق زوجته بجزمته بالفعل ، ويداه وراء ظهره ، إنّه لشيء طبيعي جدّاً أن يعاقب ستيبان زوجته الشرعية . وساور شامل الفضول في أن يتوقّف ، ليرى ما إذا كان سيضربها حتى الموت أو لا ، لكنّ ضميره أبى عليه ذلك . فهو ، على كل حال ، ليس بامرأة .

لو كنت تراقب ستيبان عن بعد ، لظننت أنّه يؤدّي رقصة قوزاقية . وكان هذا ما حسبه غريغوري بالفعل ، حينما شاهد ستيبان ، خلال النافذة ، يتواثب ، صاعداً هابطاً ، لكنّه أعاد النظر مرّة أخرى ، ومرق خارج الدار ، راكضاً صوب السياج على أصابع قدميه ، وهو يضم قبضتيه القويتين الخدرتين إلى صدره ، وتبعه بيوتر في جزمتيه الثقيلتين .

انطلق غريغوري ، كالطائر ، عبر السياج العالي ، وهجم على ستيبان من الخلف فترنّح ستيبان ، ثمّ استدار وتقدّم صوب غريغوري كالدب .

قاتل الأخوان ميليخوف باستبسال ، وانقضّا على ستيبان كما تنقض غربان الرمم على جثّة متفسخة . وحدث عدة مرات أن هوى غريغوري تحت قبضة ستيبان الصخرية ، فهو لم يكن نداً متكافئاً لعراك شديد المراس كستيبان ، لكنّ بيوتر القوي البنيان ، والخفيف الحركة استطاع أن يقف بثبات على قدميه ، وان كان ينحني تحت ضربات ستيبان مثل قصبة في مهب الريح .

تراجع ستيبان إلى درجات الباب ، وإحدى عينيه تومض لهباً والأخرى تكتسي لون الخوخ الفج .

في تلك الأثناء ، حدث أن جاء كريستونيا ليستعير رباط خيل من بيوتر ، ففرقهم .

ـ كفّوا عن ذلك ـ ولوّح بذراعيه ، ـ تفرقوا ، وإلا أبلغت الأتمان .

بصق بيوتر بحذر دماً ونصف سن في راحة يده ، ثمّ قال بصوت مبحوح : ـ تعال ياغريشا . سنظفر به في وقت آخر .

وجاء صوت ستيبان متوعداً من الدرج : ـ احرص على أن لا أظفر أنا بك!

ـ طيب ، طيب!

ـ لا «طيب» ولاهم يحزنون ، لسوف أقلع مصارينك!

ـ أجاد أنت أم هازل ؟

وجرى ستيبان نازلاً الدرجات ، فانطلق غريغوري لمواجهته ، لكن كريستونيا دفعه نحو البوابة ، وقال متوعداً :

ـ جرّب ، سوف أسلخ عنك جلدك!

منذ ذلك اليوم ، تطورت الكراهية بين آل ميليخوف وستيبان استاخوف حتى صارت عقدة مستحكمة . لكن غريغوري ميليخوف كتب له أن يحل تلك العقدة بعد عامين في بروسيا الشرقية قرب بلدة ستوليبين .

١٥

ـ قل لبيوتر أن يشد الفرس على العربة ويعد حصانه أيضاً .

فخرج غريغوري إلى الحوش . كان بيوتر يدفع عربة صغيرة من تحت طنف الحظيرة .

ـ يقول أبي أن عليك أن تشد الفرس على عربة وتعد حصانك أيضاً .

فقال بيوتر وهو يثبت العريش :

ـ أعرف ذلك دون أن يقول لي هو . لا حاجة إلى نصائحه .

كان بانتلاي بروكوفيتش جالساً يتم تناول حسائه وهو ينضح بالعرق ، وقد بدا وقوراً ، مثل راعي كنيسة أثناء القدّاس .

وكانت دونيا تراقب غريغوري بتيقّظ ، وهي تكتم تلألؤاً صبيانيّاً في موضع ما تحت الظلال المنعشة لأهدابها المقوّسة الطويلة . وبدت ايلينشنا ضخمة مهيبة في شال يوم الأحد الليموني ، ولاح في طرفي شفتيها قلق أمومي ، القت نظرة إلى غريغوري وقالت لزوجها العجوز :

ـ كفاك حشو بطنك ، يا بروكوفتش . من يراك يخال أنّك كنت تموت جوعاً .

ـ حتّى الطعام تمنعينه عنّي! يالك من امرأة نقوق!

ثم ظهر شارب بيوتر القمحي الطويل عند الباب .

ـ عربتك جاهزة ، لو سمحت!

فانفجرت دونيا ضاحكة وأخفت وجهها في كمها ، ومرت داريا عبر المطبخ متفحصة عريس المستقبل ، وحاجباها الرقيقان يتراقصان .

وكانت الخالة فاسيليسا الأرملة ابنة عم ايلينشنا ، ذاهبة معهم للخطبة . وكانت صاحبة همّة خبرت الحياة ، وعركت تجاربها ، وكانت أوّل من حطّ على العربة الصغيرة ، مديرة رأسها المدوّر ، متضاحكة وكاشفة عن أسنانها السود المعوجّة تحت ثنيات شفتيها .

فقال بانتلاي بروكوفيتش محذراً :

ـ لا تعرضي أسنانك ، يا فاسيليسا ، سوف تفسدين كل شيء . فأسنانك تبدو كمن أمضت سهرة صاخبة ، فليست بينها سن تستطيع أن تقف معتدلة .

ـ آه يا ابن العم ، أنا لست بالعروس المرتقبة .

ـ ربّما لا تكونين ، ومع ذلك فلا تضحكي . يا لها من أسنان... لونها

وحده يبعث في المرء الغثيان .

أصاب فاسيليسا الاستياء ، على أن بيوتر كان ، في تلك الأثناء ، قد فتح البوابة ، وسوى غريغوري الأعنّة الجلدية ، وقفز الى مقعد السائق . وجلس بانتلاي بروكوفيتش وايلينشنا الى الخلف ، وكأنهما عروسان جديدان .

وصاح بيوتر ، مرخياً الرسن :

ـ ألهبهما بالسوط!

فعضّ غريغوري شفتيه وانهال بالسوط على الحصان الذي تتحرك أذناه : «إياك أن تتشريك!» فشدّت الخيل على الأعنّة ثم انطلقت بسرعة .

وزعقت داريا : «حذار! سوف تنقلب!» ولكن العربة انحرفت بحدّة ، ومضت تتوثّب مقرقعة على عثرات الطريق .

ومال غريغوري جانباً ليستحث حصان بيوتر المتخلّف بسوطه . وأمسك أبوه لحيته بيده ، وكأنّه يخشى أن تنتشها الريح منه . وصاح بصوت مبحوح ، منحنياً فوق كتف غريغوري : «اضرب الفرس!» وألقى نظرات إلى الجانبين .

ومسحت ايلينشنا بكم قميصها المخرّم عينيها اللتين أدمعتهما الريح ، وطرفت إلى قميص غريغوري الأطلس الأزرق الذي كان يخنق ويتموّج على ظهره . وكان القوزاق يتنحّون عن الطريق ، ويقفون طويلاً محملقين وراءهم . وجرت الكلاب من البيوت تنبح بين حوافر الخيل ، على أن نباحها ضاع في قرقعة العجلات المؤطرة حديثاً .

لم يرحم غريغوري الخيل ولا بخل بالسوط ، ولم تمض عشر دقائق حتى خلفوا القرية وراءهم . وامتد على جانبي الطريق الطوق الأخضر للبساتين الأخيرة . وسرعان مالاح لهم بيت كورشونوف الكبير بسياجه الخشبي . جذب غريغوري الأعنّة ، فقطعت العربة نشيدها الحديدي في منتصفه ، وتوقفت عند البوابة المطلية والمنقوشة بحفر دقيق .

لبث غريغوري مع الخيل ، بينما مضى بانتلاي بروكوفتش يعرج صوب درجات الباب . ومخرت وراءه ايلينشنا حمراء الوجه وفاسيليسا المزمومة الشفتين تحف بهما خشخشة تنورتيهما . وتعجّل العجوز نفسه خشية أن يفقد الشجاعة التي استجمعها خلال الطريق ، وتعثّر بالعتبة العالية ، وصدم ساقه العرجاء ، فاستبد به الغيظ ، وتجهّم وجهه من الألم ، وضرب بقدمه مغتاظاً درجات العتبة المكنوسة جيداً .

دخل المطبخ هو وايلينشنا معاً تقريباً . كان يكره الوقوف إلى جانب زوجته ، إذ كانت أطول منه ، ولهذا تقدّمها خطوة ، ورسم علامة الصليب أمام أيقونة دكناء ، فيما كان ينزع قبعته .

ـ صحّة طيبة!

فأجاب رب البيت وهو ينهض من على المصطبة :«لله الحمد » كان عجوزاً أنمش قصير القامة .

واستطرد بانتلاي بروكوفيتش :

ـ جئناك ضيوفاً ، يا ميرون غريغورييفتش .

ـ الضيوف على الرحب والسعة دائماً . ماريا ، هاتي شيئاً يقعد عليه الزوار .

فمسحت زوجته العجوز ، ضامرة الصدر ، غباراً وهميّاً من على ثلاثة مقاعد ، ودفعتها إلى الضيوف . فجلس بانتلاي بروكوفتش على طرف أحدها مجففاً عرق جبينه بمنديله .

وابتدر قائلاً دون مقدمات : «جئناكم بمهمّة» وهنا جلست ايلينشنا وفاسيليسا أيضاً ، وهما تلملمان تنورتيهما .

وابتسم رب البيت :«على الرحب والسعة . أيّة مهمة هي ؟»

ودخل غريغوري ، ونظر حوله ثم قال :

ـ صحّة طيبة ـــ لله الحمد ـ أجابت زوجة رب البيت بصوت ممطوط . وحيّاه رب البيت بنفس التحيّة . وكست وجه ميرون غريغوريتش الأنمش

موجة من احمرار نحاسي ، فقد أدرك الآن موضوع الزيارة ، فأصدر إلى زوجته أمراً : «أدخلوا الخيل إلى الفناء ، وألقوا لها شيئاً من التبن» . فخرجت زوجته .

استأنف بانتلاي بروكوفتش كلامه ، فاتلاً لحيته الجعداء وشاداً قرط أذنه في سورة انفعاله :

ـ ليس لدينا سوى القليل مما نتحدّث به . لديك فتاة غير متزوجة ، ولدينا ابن . ألا نستطيع أن نصل الى ترتيب ما ؟ بودّنا أن نعرف ، أتعطيها لنا أم لا ؟ فلربّما نصبح أنسباء ؟

ـ من يدري ؟ ــ وحكّ ميرون غريغوريتش موضع الصلع في رأسه ، واستطرد : ــ يتعيّن عليّ أن أقول أننا لم نفكّر في تزويجها هذا الخريف . فثمّة عمل ملء ايدينا ، وهي ليست كبيرة السن . لقد سلخت في التو ربيعها الثامن عشر . هذا صحيح ، أليس كذلك ياماريا ؟

ـ صحيح .

فتدخلت فاسيليسا : «هذا أوان الزواج تماماً . فما أسرع ما تشيخ الفتاة!» ، وتململت على مقعدها ، وقد وخزتها المكنسة التي سرقتها من الممر ، وحشرتها تحت سترتها . فقد جرت التقاليد على أن الخاطبين الذين يسرقون مكنسة الفتاة لايرد لهم طلب .

وأجابت زوجة كورشونوف : «لقد جاءت عروض أخرى لابنتنا منذ بداية الربيع . لن توضع ابنتنا على الرف . لا نستطيع أن نشكو إلى الله الكريم... فابنتنا تستطيع القيام بكل شيء... سواء في الحقل أو في البيت» . فقاطع بانتلاي بروكوفتش ثرثرة المرأة قائلاً : «لو جاء رجل طيب ، يمكن أن تزوجوها» .

فحك رب البيت رأسه : «الزواج ليس بمشكلة . فباستطاعتنا أن نزوجها في أي وقت كان» .

فظن بانتلاي بروكوفيتش أن طلبه سيرفض ، وتملّكه الكدر .

ـ طيّب ، إنّ هذا يعود لك وحدك ، بالطبع . فللمرء حق الاختيار ، وفي مستطاعه أن يسعى حيث يشاء . إن كنت تبغي الحصول على ابن تاجر ، أو رجل من هذا القبيل ، فهذا بحث آخر ، ونحن نعذرك .

واذ كانت المفاوضات على وشك أن تنهار ، انفعل بانتلاي بروكوفيتش وصار وجهه أحمر كالبنجر ، بينما كانت أم الفتاة تقوق كدجاجة راقدة تحوم فوقها حدأة . غير أن فاسيليسا تدخلت في الوقت المناسب ، فصبّت فيضاً من الكلمات الهادئة الملطّفة ، كما يُصب الملح على الحروق ، وأفلحت في سد الثغرة :

ـ مهلاً ، مهلاً يا أعزائي! اذا أثير موضوع كهذا وجب أن يسوى كما ينبغي من أجل سعادة طفلتكم . فناتاليا ـ لن تجدوا مثيلة لها ولو بحثتم في وضح النهار! العمل يلتهب في يديها! أية شابة مجتهدة! أيه ربة بيت! أمّا جمالها ، فلكم أن تنظروا بأعينكم ، أيها الناس الطيبون... ـ وفتحت ذراعيها في تلويحة معطاءة ، متلفتة إلى بانتلاي بروكوفتش وايلينشنا العابسة ، واستطردت : ـ أمّا هو فزوج أهل لكل فتاة . كلّما أنظر إليه ، أحس بقلبي يدق حنيناً ، فما أشد شبهه بزوجي الراحل ، أمّا أسرته فهي مجدّة في العمل . سلوا أي إنسان في هذه الديار عن بروكوفتش ، فكل العالم يعرفه رجلاً شريفاً كريماً... بالله عليكم ، هل نحن نريد ضرراً لأطفالنا ؟

وانساب صوتها الناعم في أذني بانتلاي بروكوفتش مثل الشراب الحلو . كان يستمع إليها ويفكّر في نفسه معجباً بما تقول : «آه ، هذه الشيطانة ذلقة اللسان ، لها أسلوب في الكلام عجيب! من يقدر أن يبزها! باستطاعة بعض النساء أن يصعقن قوزاقياً بكلماتهن... كل ذلك من امرأة!» واستغرق في إعجابه بفاسيليسا التي جعلت الآن تصب المديح على الفتاة وعائلتها ، متوغلة في نسبها حتّى الجد الخامس .

ـ لا ريب ، أننا لا نريد ضرراً بابنتنا .

وقال رب البيت ملطّفاً ، وهو يبتسم :

ـ كل مافي الأمر هو أن الوقت لم يحن لتزويجها .

فاستأنف بانتلاي بروكوفتش كلامه ملحاً :

ـ ليس الوقت مبكّراً ، وحق الله ليس الوقت مبكّراً .

ونشجت ربّة البيت ، بين منافقة ومخلصة :

ـ عاجلاً أو آجلاً ، سيتعين علينا أن نفارقها .

ـ ادع ابنتك يا ميرون غريغوريفتش . لنراها .

ـ ناتاليا!

فظهرت الفتاة خجلى عند الباب ، تتشاغل أصابعها السمر بكشكش مئزرها . فشجعتها الأم مبتسمة خلال دموعها :

ـ ادخلي... ادخلي... إنها خجلى .

كان غريغوري جالساً بجنب صندوق كبير مزيّن برسوم زرقاء باهتة اللون فنظر إليها .

عينان رماديتان جريئتان تحت وشاح أسود مخرّم . وغمّازة ورديّة صغيرة في الخد الأسيل ، وابتسامة مكتومة خجلى على الشفتين . ثمّ حوّل غريغوري عينيه إلى يديها : كانتا كبيرتين . ترك العمل الشاق عليهما أثره . تحت البلوزة القصيرة الخضراء التي ضمّت جسدها الممتلىء ، برز نهداها الصغيران الصلبان صلابة نهود الصبايا ، بسذاجة واستكانة ، وبدت حلمتاهما الصغيرتان الناتئتان كزرين .

وما هي إلا لحظة ، حتى استوعبها غريغوري كلها بنظره ، من الرأس حتّى الساقين الطويلتين البديعتين . تأملها كما يفحص تاجر فرساً قبل الشراء ، وقال لنفسه : « لابأس بها » ، ثمّ ترك عينيه تلتقيان بعينيها . فبدت نظرتها الساذجة المخلصة ، والمرتبكة قليلاً ، كأنّها تقول : «ها أنا ذا ، بكل ما أنا عليه . فاحكم عليّ كما تشاء » . فأجاب غريغوري بعينيه وابتسامته : « رائعة! »

ـ حسناً ، حسبك هذا ـ وأشار لها أبوها أن تخرج . فيما كانت ناتاليا

تسد الباب وراءها ، نظرت إلى غريغوري دون أن تحاول إخفاء ابتسامتها أو فضولها .

استأنف كورشونوف كلامه من جديد ، بعد أن تبادل النظرات مع زوجته ، قائلاً :

ـ اسمع يا بانتلاي بروكوفتش . ابحثوا الأمر مجدّداً ، وسنبحثه نحن مع العائلة . وبعد ذلك سنقرر ما إذا كنّا سنعتبره إتفاقاً على الزواج أو لا .

وبينما كان بانتلاي بروكوفتش يهبط الدرج دسّ هذه الجملة :

ـ سنزوركم مرّة أخرى يوم الأحد القادم .

وتعمّد كورشونوف أن يظلّ صامتاً ، متظاهراً بأنّه لم يسمع .

١٦

لم يدرك ستيبان ، وهو يداري الألم والحقد في نفسه ، أنّه كان يحب اكسينيا حبّاً بائساً مقيتاً ، على الرغم من ماضيها والحياة التعسة التي يحياها معها ، إلا بعد ماعلم عن سلوكها من توميلين . كان يقضي لياليه في المعسكر مستلقياً في العربة ، يغطّيه معطفه السميك ، وذراعاه معقودتان خلف رأسه ، يفكّر بالصورة التي ستلقاه بها زوجته لدى عودته . كان يحسّ بأنّ عقرباً قد حلّت في صدره في محل قلبه . واذ رقد يفكّر بألف وسيلة للانتقام منها ، أحسّ بأسنانه كما لو رصّت بينها ذرات رمل ثقيلة . لقد خفف عراكه مع بيوتر من غلواء غضبه . وحينما وصل إلى داره كان متعبّاً جدّاً ، فلم يصب اكسينيا منه سوى عقاب يسير .

ومنذ يوم عودته ، حوّم شبح خفي على دار استاخوف ، فاكسينيا تمضي على أطراف أصابعها ، وتتكلّم همساً ، لكن ثمّة في عينيها ، اللتين ظللهما رماد الخوف ، قبساً من النار التي أضرمها غريغوري .

واذ جعل ستيبان يراقبها ، كان يتحسّس ذلك بشعوره لا بعينيه .

فيقاسي العذاب . وفي الليل ، وحينما كانت أسراب الذباب تنام في المطبخ على عوارض السقف ، واكسينيا قد سوت الفراش وشفتاها ترتعشان ، كان ستيبان يطبق على فمها بكفّه ذات العقد ويضربها ، ويطالبها بتفاصيل مخجلة عن علاقتها بغريغوري . فتتلوى اكسينيا ، وتشهق متلمسة الهواء فوق السرير الصلب الذي تنبعث منه رائحة جلد الخروف . فإذا أتعبه تعذيب جسمها الناعم اللدن كالعجين ، مرر يده على وجهها باحثاً عن الدموع ، فلا يجد سوى الجفاف في خدّيها المشتعلين ، وفكّيها يختلجان تحت أصابعه .

ـ هل ستخبرينني ؟

ـ كلا!

ـ سأقتلك!

ـ اقتلني ، اقتلني ، بحق المسيح . ستنتهي آلامي . هذه ليست حياة .

ويطحن ستيبان أسنانه ، ويلوي جلد ثديها الرقيق المبلل بالعرق ، فترتعد اكسينيا وتئن .

ويتساءل ستيبان هازلاً : «يؤلمك هذا ؟»

ـ أجل ، يؤلمني .

ـ وهل تعتقدين أن ذلك الأمر لم يؤلمني ؟

ويتقدّم الليل قبل أن يغلبه النعاس ، فينام متكوراً وأصابعه السوداء المتورمة تتحرك بلا انقطاع . وتنهض اكسينيا متكئة على مرفقها ، فتتأمّل وجه زوجها وقد جعله النوم وسيماً ، ثمّ تلقي برأسها على الوسادة من جديد ، وتهمس مع نفسها .

لم تعد ترى غريغوري إلا لماماً . وقد حدث مرّة أن التقت به قرب الدون ، وكان قد أورد الثيران ، وهمّ بصعود المنحدر وهو يلوّح بغصن في يده ويتأمّل قدميه . وكانت اكسينيا نازلة الى الدون حين رأته فأحسّت بنير الدلاء يبرد في يديها ، والدم الحار ينبض في صدغيها .

وحينما استعادت ذكرى ذلك اللقاء فيما بعد ، وجدت من الصعب عليها

إقناع نفسها بأن ذلك قد حدث فعلاً . لم يلحظها غريغوري إلا بعد أن كادت تعبره ، فرفع رأسه على صرير السطل الموصول ، وارتعش حاجباه ، وابتسم في غباء . فشخصت اكسينيا ببصرها عبر رأسه الى أمواج الدون الخضر ، وإلى أبعد منها حيث حافة الرأس الرملي المتوغّل في النهر . واجتاحها انفعال ملتهب اعتصر الدموع من عينيها .

ـ اكسينيا!

مشت بضع خطوات ثمّ توقّفت منكسة الرأس كمن يتوقّع صفعة ، فقال غريغوري دون أن يدير رأسه ، وهو يضرب بغصنه في حنق ثوراً متلكئاً :

ـ متى سيحش ستيبان الجويدار ؟

ـ إنّه يتهيّأ لذلك الآن .

ـ حين تودعينه ، اذهبي الى حديقة عبّاد الشمس العائدة لنا ، وسأوافيك هناك .

نزلت اكسينيا الى الدون ودلواها يصرّان . كان الزبد يتلوّى كالأفعى على امتداد الشاطىء ، مثل شريط أصفر يومض على طراف الموجة الاخضر . وكانت ثمّة طيور بيض تصيد الأسماك تحوم وتصيح فوق النهر ، وعلى سطح الماء تألقت سمكات صغيرات تألّق مطر فضّي . وفي الجانب الآخر ، وراء بياض الرأس الرملي ، شمخت ذروات رمادية لشجرات حور معمرات ، بعجرفة وتجهّم . وبينما كانت اكسينيا تغرف الماء ، أسقطت دلوها في النهر ، فرفعت تنورتها ، وخاضت في الماء إلى ركبتيها ، وراح الماء يدغدغ سمانتيها ، وللمرّة الأولى منذ عودة ستيبان ضحكت اكسينيا بهدوء وتردد .

والتفتت لتنظر إلى غريغوري . كان لم يزل يلوح بغصنه كأنّه يطرد الذباب ، وهو يرتقي المرتفع ببطء .

وبعينين تغشاهما الدموع ، رنت إلى ساقيه القويتين بحنان وهما تخطوان باعتداد . وكان سرواله الفضفاض المحشور في جوارب صوفية بيضاء ، يزهو بأشرطته القرمزيّة . وقد رفرفت على ظهره ، فوق عظم اللوح ،

قصاصة قميص مزّق حديثاً ، وبدا من الشق مثلّث من بشرته السمراء . فقبلت اكسينيا بعينيها هذه البقعة الصغيرة من الجسد الحبيب الذي كان لها ذات مرّة . وتساقطت الدموع على شفتيها الشاحبتين الباسمتين .

وضعت دلويها على الرمل لتعلقهما على النير ، ولاحظت آثار حذاء غريغوري . فنظرت خلسة حولها ، لم يكن ثمّة أحد على مرمى البصر سوى بعض الأولاد يستحمّون على مقربة من الرصيف البعيد . فجلست القرفصاء وغطّت أثر القدم براحتها ، ثمّ قامت ، وعلقت النير على كتفيها ، وأسرعت الى الدار مبتسمة لنفسها .

كانت الشمس تعبر السماء فوق القرية ، وقد أحاط بها ضباب خفيف . وامتد ، وراء القطيع المتجعّد من السحب البيضاء الصغيرة ، مرعى لازوردي ، بارد عميق . والحرارة خانقة مميتة فوق السقوف الحديدية المحرقة ، والشوارع المغبرة المهجورة ، وعلى الأقنية ذات العشب الأصفر اليابس .

كانت اكسينيا تمشي متمايلة والماء يطرطش من الدلوين متساقطاً على الأرض المتشققة . حينما اقتربت اكسينيا من درجات الباب ، كان ستيبان يشد الخيل الى آلة الحصاد ، وقد وضع على رأسه قبّعة قش عريضة . نظر الى اكسينيا وهو يعدل مشد الصدر على الفرس الناعسة وقال :« صبّي شيئاً من الماء في الإبريق » . فصبّت اكسينيا سطلاً من الماء في الإبريق فاكتوت أصابعها بالحافة الحديدية الحارة .

وقالت وهي تنظر الى ظهر زوجها العرق :« عليك أن تأخذ شيئاً من الثلج وإلاّ فسيصبح الماء دافئاً بعد قليل » . ـ اذهبّي واطلبي شيئاً من الثلج من آل ميليخوف » ـ ثم صرخ ستيبان مستدركاً :« لا ، لا تذهبي » .

ومضت اكسينيا لتسد البوابة . وأخفض ستيبان عينيه واختطف السوط .

ـ أين ذاهبة ؟

ـ لأسدّ البوابة .

ـ ارجعي ، ياعاهرة . قلت لك لا تذهبي .

واسرعت عائدة الى الدرجات ، وحاولت أن تعلّق النير على الحاجز غير أن يديها كانت ترتعشان بشدة ، فسقط النير مقعقعاً على الدرجات .

نشر ستيبان معطفه المشمّع على المقعد الأمامي ، ثمّ جلس وأمسك بالأعنّة .

ـ افتحي البوابة .

وبينما كانت تفعل ذلك ، غامرت بالسؤال :« متى ستعود ؟ »

ـ عند المساء . لقد اتفقت مع انيكوشكا على الحصاد . خذي الطعام إليه . سيخرج إلى الحقل بعد أن ينهي شغله عند الحداد .

وصرّت عجلات الحاصدة فيما كانت تحفر بساط التراب الرمادي . ومضت اكسينيا إلى داخل الدار ، ووقفت لحظة وهي تضع يديها على قلبها ، ثمّ ألقت عصابة على رأسها ، وجرت نازلة إلى النهر .

والتهبت الفكرة فجأة في ذهنها : « ولكن ، لنفرض أنّه عاد ؟ ما العمل اذن ؟ » وتوقفت كما لو رأت حفرة عميقة عند قدميها ، ونظرت إلى الخلف ثم أسرعت ، تكاد تركض على امتداد ضفّة النهر صوب المروج .

أسيجة . بقاع من الأرض مزروعة خضاراً . بحر أصفر من عبّاد الشمس يتحدّى الشمس بنظراته . اخضرار شاحب لنبات البطاطة . نساء آل شامل يعزقن حقل البطاطة ، مقوسات الظهور في ثياب وردية ، ومعازقهن ترتفع وتنخفض بحدّة على الأرض الرمادية . وحينما وصلت اكسينيا إلى بستان ميليخوف ، تلفتت حولها ، ثم رفعت السقّاطة الخشبية وفتحت البوابة . وتتبعت الممشى صوب الدغل الأخضر لسيقان عباد الشمس . وحشرت نفسها في وسط الدغل ، محنيّة الظهر ، وقد علق على وجهها لقاح النبات الذهبي ، ثمّ لملمت تنورتها واقتعدت الأرض الدغلاء .

راحت تنصت : ورن السكون في أذنيها . وانبعث من مكان ما فوقها طنين نحلة وحيدة . إن سيقان عبّاد الشمس تمتص الأرض في صمت .

ظلّت جالسة على هذه الحال حوالي نصف ساعة ، يعذبها الشك . هل سيأتي ؟ كانت على وشك أن تذهب ، وهي تسوّي عصابتها ، حينّما صرت البوابة صريراً ثقيلاً . وقع خطوات .

ـ اكسينيا!

ـ تعال من هنا .

ـ ها قد جئت إذن!

واقترب غريغوري ، والأوراق تخشخش عند مروره ، وجلس إلى جانبها . صمتا لحظة .

ـ ماهذا الذي على خدّك ؟

فمسحت اكسينيا بكمها الغبار الذهبي العطر .

ـ لا بد أنّه من عباد الشمس .

ـ هناك ، تحت عينك . أيضاً .

ومسحته عنها . التقت عيونهما . فأجهشت اكسينيا بالبكاء ، إجابة على تساؤل غريغوري الصامت .

ـ ماعدت أحتمل . فأنا ضائعة ياغريشا .

ـ ماذا يفعل بك ؟

فسحبت ياقة بلوزتها بعنف . وبدا نهداها الورديان ، الممتلئان كنهود الفتيات ، تغطيهما كدمات زرقاء محمرّة .

ـ ألا تعلم ؟ إنّه يضربني كل يوم . إنّه يمتص دمي... وأنت أيضاً... لوثتني كالكلبة ، ثم تركتني... إنكم جميعاً...

وزررت بلوزتها بأصابع مرتعشة ، ثم غشيها الخوف من أن يكون قد تكدّر ، فتطلعت إلى وجهه المشيح عنها .

قال غريغوري ببطء ، وهو يقضم نصلاً من الحشيش :

ـ اذن فأنت تحاولين إلقاء اللوم عليَ ؟

أثار صوته الهادىء غيظ اكسينيا فصرخت بضراوة :

ـ ألا تستحق اللوم ؟
ـ الكلب لا يواقع كلبة تُمانع .
أخفت اكسينيا وجهها في يديها ، إذ هوت عليها الإهانة مثل لطمة قويّة سديدة .
تجهّم غريغوري واختلس النظر إليها مخاوصاً . كانت ثمّة دمعة تتألق بين السبابة والوسطى من أصابعها . وتلألأ شعاع متكسّر من الشمس مغبرّ على الدمعة الشفافة ، وجفف أثرها الرطب على بشرتها .
لم يكن غريغوري ليحتمل الدموع ، فتململ نافذ الصبر ، ونفض نملة بنّية عن سروالة بقسوة ، ونظر إلى اكسينيا من جديد . لم تكن قد تحرّكت ، ولكن ثلاثة مسايل من الدموع كانت تتسابق هابطة على ظهر يدها .
ـ ماذا حدث ؟ هل جرحت شعورك ؟ اكسينيا! اسمعي! كفي... أريد أن أقول شيئاً .
انتزعت يديها من وجهها ، وقالت :
ـ لقد جئت إلى هنا لألتمس النصيحة . فلماذا تقول هذا الكلام ؟ إن الحال مريرة بما فيه الكفاية ، وأنت...
احمر وجه غريغوري وهو يفكّر : «لا تستحق هذه الإهانة» .
ـ اكسينيا... أنا لم أقصد ذلك ، فلا تتكدّري .
ـ أنا لم أجئك لأكون عالة عليك ، فلا تخف .
وفي تلك اللحظة ، كانت تعتقد حقّاً أنّها لم تأت لتكون عالة على غريغوري ، ولكنّها كانت قد حدّثت نفسها بغموض وهي تعدو بمحاذاة الدون : «سوف أقنعه بالكلام . لن يتزوّج . فمع من أعيش إذا لم أعش معه ؟» ثمّ تذكّرت ستيبان ، فهزّت رأسها بعناد لتطرد عنها الفكرة المباغتة .
وتساءل غريغوري : «إذن ، فحبّنا انتهى ؟» وانبطح على بطنه ، متكئاً

على مرفقه وهو يبصق أوراق زهرة وردية لدغل متسلّق ، كان يمضغها .
فقالت اكسينيا فزعة :
ـ أتقول : انتهى ؟ ـ وكررت القول بإصرار وهي تحاول النظر في عينيه :
ـ ماذا تعني ؟
كان فيها بصيص أبيض مزرق حينما أشاحهما عنها .
فاحت الأرض الجافة المتعبة بالغبار والشمس . وحفت الريح بين الأوراق الكبيرة الخضراء . وغابت الشمس لحظة ، وقد غلفتها سحابة عابرة وسقط ظل أغبش متموج على السهب ، على القرية ، على رأس اكسينيا الأسيان ، وعلى الكأس الوردي لزهرة الدغل المتسلّق .
أطلق غريغوري تأوهاً برماً ، وتمدّد على ظهره ، ضاغطاًعظمي اللوح على التربة الحارة .
وشرع يتكلّم متباطئاً :
ـ اسمعي يا اكسينيا . هذه ورطة عفنة بصورة ما... لقد كنت أفكّر...
وانبعث صرير عربة فوق بقعة الخضار مصحوباً بصوت امرأة تستحث :« هو...و...وه!... امضوا ياثيراني! »
وبدا النداء لاكسينيا قريباً جداً فانبطحت على الأرض . ورفع غريغوري رأسه وهمس :
ـ انزعي عصابة رأسك . إنها ظاهرة... وقد يروننا .
أزاحت عصابتها ، فلاعب النسيم اللاهب المتسلل خلال عبّاد الشمس خصلات الشعر على رقبة اكسينيا . وشيئاً فشيئاً تلاشى ضجيج العربة .
فاستأنف غريغوري كلامه من جديد : « حسناً ، إليك ما كنت أفكّر به » ثمّ أضاف متشجعاً :
ـ مافات فات . فيم نحاول إلقاء اللوم على أحدنا ؟ علينا أن نحيا بشكل من الأشكال .
واستمعت إليه اكسينيا في قلق وترقّب ، وهي تكسّر ساقاً من النبات

بيدها فيما كانت تنتظر . ثمّ نظرت إلى وجه غريغوري ، وتعقّبت في عينيه لمعاناً صارماً جاداً .

ـ كنت أفكّر في أن نضع نهاية لـ....

ترنحت اكسينيا . وانشبت أصابعها في الدغلة المتسلقة الخشنة ونفخت منخريها وهي تترقّب نهاية الجملة . ولسعت وجهها نار ضاربة من الرعب ونفاذ الصبر ، وجفّ حلقها . ظنّت أنّه سيقول«نضع نهاية لستيبان» ، ولكنّه لحس شفتيه اليابستين اللتين كانتا تعتملان بصعوبة ، وقال برماً :

ـ... أن نضع نهاية لهذه العلاقة . ها ؟

انتصبت اكسينيا ، ومضت صوب البوابة شاقة طريقها خلل رؤوس عباد الشمس الصفر المتمايلة . وصاح غريغوري بصوت مختنق : «اكسينيا!» وأجاب نداءه صرير البوابة الثقيل .

١٧

ما أن تمّ حصاد الجويدار ، وقبل أن يتيسر نقله الى المخازن ، نضج القمح . ففي الحقول الخصيبة وعلى السفوح ، حال لون الأوراق الجافة أصفر ، وتثنّت حتّى صارت أنابيب ، وييبست السيقان بعد أن أدّت ماعليها .

وانتشى الجميع بالحصاد الوفير ، فقد جاءت السنابل ممتلئة والحبّات ثقيلة كبيرة .

قرر بانتلاي بروكوفتش ـ بعد أن بحث الموضوع مع ايلينشنا ـ أن الزفاف سيتم ، إذا ما وافق آل كورشونوف على الخطبة ، في عيد المخلص الخريفي . ولم يكن قد زار آل كورشونوف بعد لمعرفة جوابهم ، فقبل كل شيء يجب أن يتم الحصاد ، ثمّ ينتظر حلول عطلة ما .

بدأ آل ميليخوف الحصاد ذات جمعة . جرت الحاصدة ثلاثة خيول .

أعد بانتلاي بـروكوفتش العربة لنقل الحصيد . ومضى بيوتـر وغريغوري إلى الحقول للحصاد .

سار غـريغوري واضعاً يده على المقعد الأمامي الذي جلس عليه أخوه . كان غـريغـوري مكتـئـبـاً ، واختلجت العضـلات مـا بين فكّه الأسفل وعظام وجنتيـه فاستـشف منها بيوتر علامة أكيدة على أنّ أخاه يتـميز غضباً وأنّه على استعداد للعراك ، ولكنّه شرع مع ذلك في معابثة أخيه وهو يبتسم من تحت شاربه القمحي .

ـ وحق الرب ، لقد أخبرتني بنفسها!

فتمتم غريغوري ، وهو يمضغ شعره من شاربه :

ـ حسناً ، وماذا لو أخبرتك ؟

ـ قالت :« بينما كنت عائدة من بستان الخضار ، سمعت أصواتاً من بقعة عبّاد الشمس في حدائق ميليخوف» .

ـ بيوتر ، كفّ عن هذا!

ـ أجل ، أصوات .« وتطلعت خلال السياج... »

وارتعش جفنا غريغوري :

ـ هل ستكف عن هذا ، أم لا ؟

ـ أنت صبي غريب الأطوار! دعني أكمل .

فتوعده غريغوري ، وهو يتراجع الى الخلف :

ـ إنني أحذّرك يابيوتر ، فسوف نتعارك بعد لحظة .

فرفع بيوتر حاجبيه ، واستدار في مقعده ليواجه غريغوري .

ـ «تطلّعت خلال السياج ، وهناك رأيتهـمـا ، العاشقين ، مستلقيين متعانقين!» هذا ما قالته . قلت : « من ؟ » فأجابت : « عجباً! هما اكسينيا وأخوك» . فقلت...

فالتقط غريغوري مذراة من قبضتها ، كانت ملقاة في مؤخرة الحاصدة ، وهجم على أخيه . فقذف بيوتر بالأعنّة ووثب عن مقعده . وجعل يزوغ أمام الخيل . وقال صائحاً :

ـ باه! ياللشيطان! لقد جن! باه! حسبكم أن تنظروا إليه...

فقذف غريغوري المذراة باتجاه أخيه ، وهو يكشّر عن أسنانه ، فجثا بيوتر على يديه وركبتيه ، وطارت المذراة فوقه ثمّ انغرست من أسفلها في الأرض الجافة الصلبة ، وهي تتذبذب رنّانة .

تجهّم وجه بيوتر وأمسك بأعنّة الخيل المستفزّة ، وأخذ يلعن ثائراً :

ـ كدت تقتلني ، ياخنزير!

ـ أجل ، وددت لو قتلتك!

ـ أنت أحمق ، شيطان مخبول . أنت ابن أبيك حقاً : تركي ابن تركي .

انتزع غريغوري المذراة من الأرض ، وجعل يمشي وراء الحاصدة . ثم أشار إليه بيوتر باصبعه قائلاً :

ـ تعال هنا . أعطني المذراة .

وحوّل الأعنّة إلى يده اليسرى ، وأمسك بالمذراة من أسنانها ، ثمّ سدّد بمقبضها ضربة على ظهر غريغوري الذي لم يتوقّع شيئاً . وقال في أسف ، وهو يراقب غريغوري الذي كان قد قفز بعيداً : «تستحق ضربة أشدّ» .

بعد لحظة أو لحظتين ، أشعلا سيكارتين ، ونظر الواحد إلى الآخر ، ثمّ انفجرا ضاحكين .

حينما هجم غريغوري على أخيه ، كانت زوجة كريستونيا تقود عربتها عائدة إلى البيت ، فرأتهما في تلك الحال . انتصبت على عربتها ، غير أنّها لم تتبين ماكان يحدث . إذ أن الحاصدة والخيل حجبتهما عنها . وما أن وصلت إلى شارع القرية حتّى صرخت منادية إحدى جاراتها :

ـ يا كليموفنا! اجري وأخبري بروكوفتش التركي بأن ولديه يتقاتلان بالمذاري على مقربة من رابية التتار . قولي له إن غريغوري ـ ياللشيطان! طعن بيوتر في جنبه بأسنان المذراة . فما كان من بيوتر إلا أن سدّد إليه... فسال دم كثير .

بدأ صوت بيوتر يبحّ من الصياح وراء الخيل المتعبة . فجعل يصفر بدلاً

من ذلك . وكان غريغوري يذري الحزم عن الحاصدة مسنداً قدمه التي سوّدها التراب على عارضة الحاصدة . وكانت الخيل ، والذباب ينهشها بضراوة ، تهزّ ذيولها وتجر الماكنة متثاقلة .

كان الناس يعملون على امتداد السهب كله حتّى خط الأفق الازرق وشفرات الماكنات تصلصل وتئز والسهب ترقطه حزم القمح ، وأخذت السناجب البرّية تقلّد السواق في صفيرهم ، فراحت تصفر من على الأكمات .

صاح بيوتر فوق ضجيج الماكنة وهو يلتفت إلى غريغوري : «شوطان آخران ، ثمّ نتوقّف لندخّن!» . فأومأ غريغوري برأسه اذ لم يكن بمستطاعه أن يفتح شفتيه اليابستين إلاّ بمشقّة . وقرّب قبضته من أسنان المذراة ليوفّر لنفسه سيطرة أفضل على الحزم الثقيلة ، وتنفّس بما يشبه التشنّج . وصار صدره المبلل بالعرق يحكّه ، وسال العرق من تحت قبعته على وجهه وأحرق عينيه كالصابون . وبعد أن أوقفا الخيل ، شربا ودخّنا .

قال بيوتر مظللاً عينه براحته : «ثمّة شخص ما راكب حصاناً يجري بسرعة كبيرة على الطريق» .

فحدّق غريغوري ، ورفع حاجبيه مستغرباً .

ـ يبدو وكأنّه أبي .

ـ أنت مجنون . أي حصان يمكن أن يركب ، اذا كانت كل الخيل هنا ؟

ـ إنّه هو .

ـ أنت مخطىء .

ـ إنّه هو ، وحقّ الله . أبي .

وبعد لحظة صار بالإمكان رؤية الحصان الجاري بسرعة والراكب ، فراوح بيوتر في دهشة قلقة :

ـ حقّاً ، إنّه أبي!

ـ لابد أن شيئاً ما وقع في الدار ــ عبّر بذلك غريغوري عن فكرة أقلقتهما معاً .

كبح بانتلاي بروكوفيتش حصانه ، وهو لم يزل على مبعدة مائة خطوة ، وصاح ملوّحاً بسوطه الجلدي فوق رأسه : «سأجلدكما ياولدي العاهرة»!»

ـ ماذا هناك ؟ ـ واستبدّت ببيوتر دهشة طاغية ، ودسّ نصف شاربه في فمه .

وقال غريغوري مبتسماً ، ومنتقلاً إلى الجانب الآخر من الحاصدة تحوّطاً .

ـ تعال إلى الجانب الآخر من الحاصدة تحوّطاً! والله ، سوف يجلدنا بذلك السوط . وإلى أن نصل إلى صلب الموضوع ، يكون قد انتزع مصارييننا من بطوننا!

وجاء الحصان المزبد يخب فوق القمح المحصود . وهزّ بانتلاي بروكوفيتش سوطه ، وقدماه تصطكّان على جنبي الحصان (فقد كان يركبه بلا سرج) وصاح :

ـ ماذا كنتما تفعلان هنا ، يا أبناء الشيطان ؟

فلوّح بيوتر بذراعيه ، وعيناه ترمقان السوط في خشية :

ـ كنّا نحصد .

ـ من الضارب بالمذراة ومن المضروب ؟ وفيم كان عراككما ؟

أدار غريغوري ظهره لأبيه ، وشرع يعد الغيمات همساً .

راوح بيوتر وتساءل وهو ينظر الى أبيه من أسفل الى أعلى وهو يطرف بعينيه :

ـ مابالك ؟ ايّه مذراة ؟ من كان يتعارك ؟

ـ كيف ؟ لقد جاءتني ، راكضة بنت الدجاجة تلك ، وهي تزعق : «لقد تضارب ولداك بالمذاري» . فما رأيك بهذا ؟

ها ؟ ـ هزّ بانتلاي بروكوفتش رأسه منفعلاً ، ثم أرخى الأعنّة وقفز عن الحصان اللاهث .

ـ اختطفت حصاناً من فيدكا سميشكين وجئت أجري . حسناً ؟
ـ من أخبرك بكل هذا ؟
ـ امرأة!
ـ كذبت يا أبي . لابد أنها كانت نائمة في عربتها وحلمت بهذه الحكاية .

فقال بانتلاي بروكوفتش بين صائح وصافر ، وهو يهز بلحيته :
ـ امرأة! عاهرة كليموف تلك! ياإلهي! سأجلد تلك المومس!
وأخذ يضرب الأرض بقدميه وهو يعرج بقدمه اليسرى .

ظل غريغوري يحدّج في الأرض وهو يختلج في ضحك مكتوم . ومسح بيوتر رأسه العرق ، وعيناه مثبتتان على أبيه .

لبث بانتلاي بروكوفتش يهتز انفعالاً الى أن برد قلبه ثمّ هدأ . فجلس على مقعد ماكنة الحصاد ، وحصد صفّين أو ثلاثة ثمّ امتطى حصانه ، وهو يشتم ، وركب عائداً إلى القرية في الطريق المغبر ولحق عربتين محملتين بالقمح وسبقهما . نسي سوطه على الأرض ، فالتقطه بيوتر وقلّبه بين يديه وهز رأسه قائلاً لأخيه :

ـ لقد تحاشينا مصيبة ، يافتى . فمع هذا السوط! كان بالإمكان أن يجعل منك عاجزاً ، أيها الأخ . فبوسع هذا أن يقطع رأسك عن بدنك كلّياً .

١٨

اشتهر آل كورشونوف بأنهم أغنى أسرة في قرية تتارسكي ، فلديهم أربعة عشر زوجاً من الثيران ، بالإضافة إلى الخيل والأفراس التي جيء بها من مزرعة جياد بروفالسك ، وخمس عشرة بقرة ، وماشية أخرى لاحصر لها ، وقطيع مكوّن من عدّة مئات من رؤوس الغنم . عدا ذلك كان ثمّة مايلفت النظر : كان بيتهم بغرفه الست وسقفه الحديدي يضاهي بيت التاجر

موخوف ، وقد سقفت مرافقه الخارجية بقرميد جديد زاه ، وبلغت مساحة حديقته ومرجه حوالي هكتارين . فما عسى المرء أن يطلب أكثر من ذلك ؟

ولهذا كان بانتلاي بروكوفتش خجلاً نوعاً ما ومتردداً في سرّه أثناء زيارته الأولى لآل كورشونوف خاطباً . كان باستطاعة آل كورشونوف أن يجدوا لابنتهم زوجاً أغنى بكثير من غريغوري . كان بانتلاي بروكوفتش يعلم هذا فيتوجّس خيفة من أن يقابل عرضه بالرفض ، فلم يكن يودّ أن يذهب سائلاً لدى كورشونوف المغرور . إلا أن ايلينشنا ظلّت تنخر فيه كما ينخر الصدأ بالحديد ، حتّى استطاعت أن تتغلّب على عناد الشيخ . وأخيراً ، قام بزيارة آل كورشونوف ، لاعناً في أعماقه غريغوري وايلينشنا والدنيا برمّتها .

والآن ، حان الوقت للذهاب إليهم لاستجلاء جوابهم ، سوى أنهم كانوا ينتظرون حلول يوم الأحد . وفي الوقت ذاته ، ثار تحت السقف الحديدي المطلي لبيت كورشونوف خلاف حاد . فقد صرخت ناتاليا لأمّها ، بعد رحيل آل ميليخوف ، قائلة :

ـ أنا أميل الى غريشا ، ولن أزف إلى سواه .

فردّ عليها أبوها : ـ وجدت لنفسها عريساً ، هذه البلهاء . ميزته الوحيدة هي أنّه أسود كالغجر . ياوردتي العزيزة ، إنني استطيع أن أجد لك زوجاً أفضل بكثير .

ـ أنا لا أريد سواه ، ياأبتي ، ـ وتوردت وجنتاها وشرعت تنتحب : ـ وإلا فيمكنك أن تأخذني إلى الدير .

فألقى أبوها بورقته الأخيرة :

ـ إنّه زير نساء يجري وراء زوجات الجنود . كل القرية تعرف ذلك .

ـ حسناً ، ليكن ذلك!

ـ حسناً ، فاذا كان رأيك «ليكن كذلك» ، فهو كذلك بالنسبة لي .

كانت ناتاليا ، وهي كبرى البنات ، أثيرة لدى أبيها ، فلم يجبرها على الزواج . وقد جاءتها عروض كثيرة للزواج ، بعضها من قرى بعيدة ، من

قوزاق أثرياء ، لكنّ ناتاليا لم تبد ميلاً لأي من الخاطبين المتقدمين ، ولم تجد جهودهم نفعاً .

على أن ميرون غريغوريتش كان يميل إلى غريغوري في أعماق قلبه ، لهمّته القوزاقية ولحبّه الزراعة والعمل الدؤوب . وكان قد جلب انتباهه من بين شباب القرية حينما فاز بالجائزة في سباق الخيل ، لكنّه اعتقد أن من المهانة أن يزوّج ابنته إلى رجل غير غني ، وذي سمعه سيئة .

وفي الليل ، راحت زوجته تهمس له ملاطفة يده النمشاء المشعرة :« إنّه فتى وسيم . وناتاليا متيمة به فعلاً . فتن قلبها » .

فأدار ميرون غريغوريتش ظهره إلى صدر زوجته الذاوي البارد ، ودمدم غاضباً :

ـ تنحّي عنّي ، أيتها الثرثارة! زوجيها من أبله ، ماذا يهمّني ؟ لقد أخذ الله منك عقلك .« وسيم! »

قالها مقلّداً لهجة زوجته ، واستطرد :

ـ هل تجنّين من وجهه محصولاً ؟

ـ ليست المحاصيل كل شيء في الدنيا...

ـ ما قيمة وسامته ؟ لو أن له مركزاً حسناً! يجب أن أعترف أنّه مما يحط من قدري أن أزوج ابنتي من الأتراك . يجب أن يكون الخطيب نداً لنا ـ وتململ ميرون غريغوريتش على السرير في اعتزاز .

وهمست زوجته وهي تتقرّب إلى ظهره وتلاطف يده بتودد :

ـ إنهم عائلة دؤوب وميسورة الحال .

ـ ايه ، الشيطان! تنحّي عنّي ، ألا تستطيعين ؟ أفسحي لي مجالاً صغيراً . فيم تتحسسين يدي كما لو كنت بقرة حبلى ؟ اعملي ماشئت بخصوص ناتاليا . زوجيها من فتاة قصيرة الشعر إن كان هذا يلائمك!

فتمتمت في أذنه الغزيرة الشعر :

ـ كان عليك أن تولي ابنتك بعض العطف! لاوزن للثروة في هذا المجال...

لكنّ ميرون غريغوريتش جعل يلبط برجله ، وألصق نفسه بالحائط وبدأ يشخر وكأنّه قد نام فعلاً .

حين جاء آل ميليخوف ليستطلعوا الرد ، وقع آل كورشونوف في حيرة . فقد وصلوا بعيد صلاة الصباح . وحينما وضعت الينيشنا قدمها على درجة العربة اوشكت أن تقلبها ، لكنّ بانتلاي بروكوفتش وثب نازلاً من مقعده مثل ديك صغير . رغم أنّه تعثّر ومشى مشية الفتى إلى البيت .

تأفف ميرون غريغوريتش وهو يتطلّع من النافذة :

ـ ها هم... أي شيطان جاء بهم إلينا اليوم .

ـ يا إلهي ، لم أكد أخرج من المطبخ ، ولم أجد الفرصة حتّى لاستبدال تنورتي اليومية .

ـ مظهرك حسن كما أنت . ليس ثمّة من يفكّر في الزواج منك . من عساه يريدك ، ياجرب الخيل!

ـ أنت وغد منذ ولدت! وها قد فقدت عقلك في كهولتك هذه!

ـ أمسكي لسانك يا امرأة!

فعنّفته زوجته وهي تتفحّصه أثناء مرور الزوار عبر الحوش :

ـ كنت تستطيع أن ترتدي قميصاً نظيفاً ، عظام ظهرك بارزة خلال هذا الذي ترتديه . عيب ، أيها الشيطان الهرم!

ـ لا عليك ، فهم سيعرفونني كما أنا . ولن يمانعوا حتى لو ارتديت الجنفاص!

صاح بانتلاي بروكوفتش وهو يتعثّر فوق عتبة الباب : « صحّة طيبة! » وما لبث أن خجل لارتفاع صوته ، وحاول أن يصلح الأمر فرسم علامة الصليب على نفسه مرتين أمام الأيقونة .

وأجاب ميرون غريغوريتش ، ناظراً اليه بعبوس : « طاب يومك! » .

ـ وهبنا الله طقساً حسناً .

ـ الحمد لله ، وسيستمر كذلك .

ـ ولهذا سيغدو الناس أيسر حالاً .

ـ صحيح .

ـ نـ...نـ... نعم .

ـ أحم .

ـ وهكذا جئنا ياميرون غريغوريتش لنعرف ما استقرّ عليه الرأي فيما بينكم... ما اذا كنّا سنعقد الزيجة أم لا ؟

وتقدّمت ربّة الدار مرحبة بهم ، وماسحة الأرضية بطرف تنورتـها المثنية الطويلة :«ادخلوا ، من فضلكم . اجلسوا ، رجاء » . فأجابت ايليينشنا : « لا تهتمّوا بنا أرجوكم » .

فجلست وثوبها يحف حولها . وأراح ميرون غريغوريتش مرفقيه على مشمّع المائدة الجديد ، ولاذ بالصمت . وانبعثت رائحة مزعجة من المطّاط الرطب ومن شيء آخر من المشمّع ، الذي كان مزيّناً في زواياه بصور القيصر والقيصرة السابقين ، وفي وسطه الأميرات الامبراطوريات الجليلات وعلى رؤوسهن قبعات بيض ، والقيصر نيقولاي الثاني ، منقّطاً ببراز الذباب .

قطع ميرون غريغوريتش حبل الصمت :

ـ حسناً... لقد قرّرنا أن نعطيكم ابنتنا . وهكذا سنصبح أقرباء إن استطعنا الاتفاق على الصداق .

وهنا ، اخرجت الينشنا من موضع ما في الأعماق المجهولة لسترتها اللماعة ذات الكمّين المنتفخين ، رغيفاً كبيراً من الخبز الأبيض ووضعته على المائدة .

ولسبب خفي أراد بانتلاي بروكوفتش أن يرسم علامة الصليب على نفسه ،الا أن أصابعة المخلبية المعقوفة ، وان اتخذت الوضع المناسب للعلامة وارتفعت الى نصف المسافة المطلوبة ، الا أن وضعها تغيّر على حين غرّة . وانزلق ابهامه الأسود الضخم ، خلافاً لرغبة صاحبه ، بين سبابته ووسطاه ، ومرق هذا العنقود الصفيق من الأصابع ، خلسة ، وراء ذيل معطفه الأزرق المفتوح ، وأخرج قنينة حمراء الفم .

نظر بانتلاي بروكوفتش ، وهو يطرف عينه بانفعال ، الى القنينة براحته الحافرية العريضة . واقترح :

ـ والآن ، يا اصدقائي الاعزاء ، سنقدّم صلاة لله ، ونشرب ونتحدّث عن طفلينا ، وعن اتفاق الزواج .

بعد ساعة من الزمن ، كان الرجلان يجلسان متقاربين بحيث اختلطت حلقات لحية ميليخوف السوداء كالقطران بخيوط لحية كورشونوف المنتصبة الحمراء . وانبعثت مع زفير بانتلاي بروكوفتش رائحة الخيار المخلل فيما كان يتناقش حول الشؤون المالية لاتفاقية الزواج . وشرع في همس مبحوح : «يا نسيبي العزيز» وكرّر : «يا نسيبي الأعز» رافعاً صوته الى درجة الصيّاح . ثمّ زأر : «يا نسيبي» مكشراً عن أنيابه الكبيرة المسطّحة . «إنّ مطاليبك أثقل بكثير مما أستطيع تحمّلها . تأمّل ، يانسيبي العزيز ، تأمّل كيف تحاول سلبي ، أولاً طماق وأخفاف . ثانياً ، معطف من الفراء . ثالثاً ، ثوبان صوفيّان ، رابعاً ، عصابة رأس حريرية . إن هذا يعني خراب بيتي!» ..

وبسط بانتلاي بروكوفتش ذراعيه على اتساعهما حتّى تفتّقت دروز معطفه . واحنى ميرون غريغوريتش رأسه وحدّق في المشمع الطافح بالفودكا المراقة والمخللات . وقرأ في النقوش المزركشة في الرأس «العائلة الملكية الروسية» . وخفض عينيه مسافة أخرى : «صاحب الجلالة الامبراطورية والملك ، الامبراطور نيقولاي...» ، وكانت ثمّة قشرة بطاطا تغطّي بقية الكتابة . ولم تكن قسمات الامبراطور واضحة من تحت قنينة الفودكا الفارغة . وحاول ميرون غريغوريتش وعيناه تطرفان بجلال ، أن يتبيّن بزّة الامبراطور الفاخرة ذات النطاق الأبيض ، لكنّها كانت مغطّاة بطبقة كثيفة من بذور الخيار اللزجة . أمّا الامبراطورة فكانت تشمخ في نظرتها بغرور ، وعلى رأسها قبعة عريضة الاطراف ، وقد احاطت بهاحلقة من بناتها الباهتات . وأحسّ ميرون غريغوريتش أنه قد أهين حتى كادت الدموع تطفر الى عينيه ، وقال في سرّه

مخاطباً الامبراطورة :«أنت تبدين فخورة الآن ، كأوزّة تطل من سلّة ، لكن حين سيتعيّن عليك تزويج بناتك ، سأطل أنا عليك ، وأرى كيف تتخبطين أنت» .

وطنّ بانتلاي بروكوفتش في أذنيه طنين نحلة سوداء كبيرة فرفع كورشونوف عينين تغشاهما الدموع ، وأنصت .

ـ لكي نقدّم هدية كهذه مقابل ابنتك ـ والآن نستطيع أن نقول ابنتنا ـ هذه الطماق والاخفاف ومعاطف الفراء ، سنضطر الى أن نسوق بقرة الى السوق ونبيعها .

فضرب ميرون غريغوريتش المائدة بقبضته وصاح :

ـ وهل تضن بها ؟

ـ ليس الأمر أن أضن بها...

ـ هل تضن بها ؟

ـ مهلاً ، أيّها النسيب!

ـ اذا كنت تضن بها... فليأخذك الشيطان!

ولوّح ميرون غريغوريتش بيده العرقة على المائدة فاسقط الاقداح على الأرض .

ـ إن ابنتك هي التي ستكد لقاءها .

ـ فليكن! ولكن عليك أن تقدّم الهدايا اللائقة ، والاّ فلن يكون هناك زواج!

فهز بانتلاي بروكوفتش رأسه :«بقرة تباع من حظيرتي!» وهزّ قرطه في اذنه لامعاً لمعاناً باهتاً .

ـ الصداق لا بد منه . إن لها صندوقاً من الملابس ، ولكن عليك أن تظهر الاحترام لي إن كنت قد وضعت عينك عليها . تلك هي عادتنا القوزاقية . تلك هي منذ القدم ، ونحن متمسكون بالتقاليد القديمة .

ـ سوف أظهر لك احترامي!

ـ أظهر احترامك!
ـ سأظهره!
ـ ثم دع الصبيين يعملان ويثريان . لقد عملنا ، وها نحن نعيش ميسورين كأي فرد من الناس ، فليفعلا الشيء نفسه!
وتشابكت لحيتا الرجلين في إيقاع ملوّن ، وقبّلا بعضهما ، شرع بانتلاي بروكوفتش يأكل خيارة منكمشة جف ماؤها ، وانتحب وقد جاشت نفسه بمشاعر متداخلة متضاربة .
كانت المرأتان جالستين على الصندوق وقد تشابكتا متعانقتين ، وكل منهما تصم أذن الأخرى بوقوقة صوتها . وقد التهب وجه إيلينشنا بحمرة كرزية ، بينما حال لون لوكينشنا أخضر بسبب الفودكا ، وصارت كالثمرة التي أذبلها الصقيع . قالت لوكينشنا :
ـ لن تجدي طفلة مثلها في أي مكان آخر في أرجاء العالم . ستكون مجدّة ومطيعة ، ولن تتفوّه بكلمة تعارضك .
فقاطعتها ايلينشنا ، مسندة خدها بيدها اليسرى ، وواضعة مرفقها الايسر في يدها اليمنى :
ـ يا عزيزتي ، هذا ماقلته له ، لا أدري كم من المرات ، ابن العاهرة هذا ، كان يستعد للخروج ، مساء ذلك الأحد ، واضعاً شيئاً من التبغ في كيسه ، قلت له : «متى ستتركها ، أيها الكافر الملعون ؟ إلام سأظل أتحمّل هذا العار في شيخوختي ؟ سيضع ستيبان حداً لعبثك الصبياني ، ذات يوم جميل!» .
في هذه الأثناء ، تطلّع ميتكا الى الغرفة خلال خصاص الباب ، وأوطأ منه تهامست أختا ناتاليا الصغريان ، بينما كانت ناتاليا نفسها جالسة في الغرفة الأبعد ، تمسح دموعها بكم قميصها الضيّق . كانت تخشى الحياة الجديدة التي تتفتح أمامها ، ويضنيها المجهول .
وفي الغرفة ، أفرغت قنينة فودكا ثالثة ، واتفق على لم شمل العروس والعريس في عيد المخلص الأوّل .

١٩

ظل بيت كورشونوف يطن كخلية نحل بجلبة الاستعدادات للزفاف ، فكانت الملابس الداخلية تخاط للعروس على عجل ، وناتاليا تجلس كل مساء لتحوك لعريسها القفازين ولفاف الرقبة التقليدي من شعر الماعز ، وتظل أمها منكبّة على ماكنة الخياطة حتى الغسق تساعد الخيّاطة المأجورة .

حين وصل ميتكا يصحبه أبوه وعمال الحقل ، عائدين من الحقول ، لم يتوقّف ليغتسل أو ينزع جزمة الحقل الثقيلة ،بل مضى ليجالس ناتاليا فقد كان يجد لذّة كبيرة في إغاظة أخته .

كان يتساءل باقتضاب وهو يشير الى اللفاف :

ـ تحوكين ؟

ـ نعم ، وماذا في ذلك ؟

ـ اقتلي نفسك بالحياكة ، بلهاء . إنّه سيحطّم فكك ، بدلاً من الإعراب عن امتنانه لك .

ـ لماذا ؟

ـ اوه ، أنا أعرف غريشا ، فهو صديقي . هذا دأبه ، فهو يعض دونما سبب .

ـ لا تهرف بالأكاذيب . تظن أنني لا أعرفه .

ـ لكنني أدرى به منك . فقد كنّا نذهب الى المدرسة سويّة .

ويفتعل ميتكا حسرة عميقة ، ويخفض نظره الى يديه المخرمشتين ويحني ظهره المديد .

ـ سوف تضيعين يا ناتاليا ، لو تزوجته . خير لك أن تبقي عانساً . ما الذي تجدينه فيه ، على أيه حال! إنّه قبيح الخلقة بما يكفي لإشاعة الذعر في حصان . وبليد أيضاً . حسبك أن تمعني النظر فيه قليلاً ، إنّه شخص قذر .

فتغضب ناتاليا ، وتحبس دموعها ، وتحني وجهاً بائساً فوق اللفاف .

ويستطرد ميتكا دونما رحمة : «والأدهى من ذلك أنّه مغرم ، ففيم تحرقين شبابك ؟ أنت حمقاء يا ناتاليا! أعرضي عنه! سأسرج الحصان وأذهب الى دارهم لأخبرهم... » .

ويأتي الجد غريشاكا لينقذ ناتاليا من ميتكا ، وهو يخط على الأرض بعصاه المعقّدة ، ويمسّد لحيته الصفراء الكالحة . ويغرز العصا في جنب ميتكا ويسأل : «ما تفعل هنا ، يا عديم النفع ، ها ؟» فيجيب ميتكا معتذراً : «جئت للزيارة ، يا جدّي» .

ـ جئت للزيارة ؟ حسناً ، وأنا آمرك بأن تخرج من هنا . الى الوراء عد!

ويرفع العجوز عصاه ويتقدّم صوب ميتكا على ساقيه الهزيلتين المرتعشتين .

لقد درج الجد غريشاكا على الأرض تسعة وستين عاماً . اشترك في الحملة ضد الأتراك عام ١٨٧٧ ، وكان مراسلاً تابعاً للجنرال كوركو ، لكنّه فقد حظوته لدى سيده فأعيد الى كتيبته . ومنح وسامي القديس غيورغي ومدالية القديس غيورغي لاستبساله في ميادين القتال في بليفنا وروشيتش . وهو يعيش الآن مع ابنه ، متمتعاً باحترام القرية الشامل لصفاء ذهنه وأمانته التي لا يرقى اليها الشك ، ولأريحيته ، وهو يقضي سنواته الباقيات في استعادة ذكرياته .

كان يجلس في الصيف من الفجر حتّى الغسق على المصطبة بالجنب من البيت ، محني الرأس ، يخط بعصاه على الأرض ، فيما تطوف في ذهنه صور غامضة وفتات من الأفكار ، وتتلألأ ومضات واهنة من الذكرى بين ظلال النسيان .

وكان رفرف قبعته المكسور يلقي ظلاً داكناً على عينيه المغمضتين مما يزيد الغضون على خدّيه عمقاً وكانت لحيته شيباء رمادية . والدم الأسود يجري متثاقلاً خلال أصابعه المقوّسة فوق عصاه وعروق يديه المنتفخة .

ومن عام الى عام كان دمه يبرد فيروح يتشكّى الى ناتاليا ، حفيدته الأثيرة :

ـ هذه الجوارب صوفية ، لكنّها لا تفي بالدفء . ويحسن بك أن تحوكي من الجوارب زوجاً لي ، يا طفلتي .

فتتضاحك ناتاليا قائلة : «لكننا في الصيف يا جدّي!» ، وتجلس الى جانبه على المصطبة ، وتنظر إلى أذنه المجعّدة الصفراء الكبيرة .

ـ ثمّ ماذا ، يا طفلتي ؟ نحن في الصيف ، ولكن دمي بارد كبرودة الأرض العميقة تحتنا!

نظرت ناتاليا الى شبكة العروق على يده ، والتمعت في ذهنها ذكرى يوم من أيام طفولتها . كانوا يحفرون بئراً في حوشهم ، وكانت ، وهي لما تزل صبيّة صغيرة ، تغرف الطين الرطب من الدلو وتصنع دمى ثقيلة وبقرات ذوات قرون مهشّمة . واستعادت بوضوح ذكرى ملمس الطين الثلجي الجامد ، المرفوع من عمق كبير . وجعلت ناتاليا تحدّق الآن خائفة في يدي جدّها المغطّاة بنمش الكهولة الاسمر طيني اللون . فقد بدا لها أن ما كان يسري في شرايينه كان تراباً طينياً أسود وليس دماً قرمزياً ناصعاً .

وتتساءل ناتاليا : «أخائف أنت من الموت ، يا جدّي ؟» .

فيلوي الشيخ رقبته الرقيقة المعقدة كأنّه يخلّصها من الياقة الصلبة لسترة بزته العسكريّة البالية ويهز شاربيه الاشهبين المخضوضرين ويجيبها ، والابتسامة تكشف عن أسنانه البيضاء ، وترتعش غضون صغيرة حول عينيه : «إنني أنتظر الموت كما أنتظر ضيفاً عزيزاً . لقد آن الآوان ، فقد عشت أيامي ، وخدمت قياصرتي ، وشربت كفايتي من الفودكا» .

فتمسّد ناتاليا على يد جدها وتتركه ، وهو لم يزل منحنياً ، محدودباً ، جالساً على المصطبة في بزته الرمادية المرقعة في مواضع كثيرة ، مخرمشاً الأرض بعصاه ، بينما تتلألأ شاراته الحمر اللامعة ، في حبور وفتور ، على ياقته الصلبة المنتصبة .

وقد استقبل نبأ زواج ناتاليا المقبل بهدوء ظاهر ، ولكنّه حزن في دخيلته وغضب . فقد كانت ناتاليا تنتقي له أفضل اللقم من المائدة وتعطيها له ، وكانت

تغسل أفرشته ، وتصلح وتحوك جواربه وبنطاله وقمصانه . وهكذا ، حينما سمع الشيخ بالنبأ ، ظل يوجّه اليها نظرات عابسة صارمة طوال يومين .

وجه السؤال الى ميرون غريغوريتش :

ـ آل ميليخوف قوزاق طيبون ، الراحل بروكوفي كان قوزاقياً طيباً . لكن كيف حال أحفاده ؟ ها ؟

فأجابه ميرون غريغوريتش متملصاً : «لابأس بهم» .

ـ غريغوري هذا فتى لا يحترم الأخرين . كنت قادماً من الكنيسة ، قبل أيام ، ومر بي دون تحيّة . لا يجد الشيوخ احتراماً كبيراً هذه الأيام...

فتسهم لوكينشنا بكلمة في صالح صهرها المقبل : «إنّه فتى طيب» .

ـ «طيب» ما تقولين ؟ اوه حسناً ، مادامت ناتاليا ميّالة اليه...

ولم يسهم غريشاكا في مفاوضات الزواج بشيء ذي بال ، فقد جاء من المطبخ ، وجلس الى المائدة لحظة أو لحظتين ، وبجهد جهيد شرب قدحاً من الفودكا ، وحينما شعر بها تلعب برأسه وأحس بدفء يسري في جسمه ، مضى خارجاً من جديد .

وطوال يومين ظل يراقب ناتاليا السعيدة المنفعلة ، في صمت ، ويمضغ طرفي شاربيه المخضوضرين ، ثم بدا أكثر لطفاً في موقفه ، وناداها :«ناتاليا . حسناً ، ياحفيدتي الصغيرة ، اذن فأنت سعيدة جداً ، ها ؟» فاعترفت له : «أنا لا أدرك كنه شعوري جيداً ، يا جدّي» .

ـ حسناً ، حسناً ، فليكن المسيح معك ، وليمنحك الرب بركته...

ثم سألها بمرارة :

ـ ألم يكن في مقدورك أن تنتظري حتى أموت ، أيتها الملعونة الصغيرة ، ستكون حياتي مريرة بدونك .

كان ميتكا يتسمّع لحديثهما في المطبخ ، فقال معقّباً :

ـ من المحتمل أن تعيش مائة سنة أخرى ، يا جدّي . فهل عليها أن تنتظر طيلة ذلك الوقت ؟ يا للماكر!

واستحال لون الشيخ أرجوانياً من الغضب ، فجعل يقرع الأرض بعصاه وقدميه صائحاً : «اخرج ، ابن القحبة! قلت اخرج! يا عفريت الشيطان! من طلب إليك أن تتسمّع ؟» .

فجرى ميتكا الى الحوش متضاحكاً . ظل العجوز منفعلاً مدّة طويلة بعد ذلك ، لاعناً ميتكا ، وكانت ساقاه ترتجفان عند الركبتين في جوربيه الصوفيين القصيرين .

كانت شقيقتا ناتاليا الصغيرتان ، ماريشا وهي في الثانية عشرة وكريبا ، وهي عفريتة في الثامنة من عمرها ، تنتظران الزفاف بنفاد صبر .

وشمل السرور المكتوم الأجراء الزراعيين الذين كان كورشونوف يستخدمهم على الدوام متوقعين وليمة فاخرة من سيدهم وعطلة لبضعة أيام . كان أحدهم وهو أوكراني طويل ، كالرافعة ، له اسم غريب «هت ـ بابا» ، يغرق في نوبة سكر وعربدة مرّة كل ستّة أشهر تقريباً ، فيسكر بكل ما لديه من ملابس وأجور . وبالرغم من أنّه أحس ببوادر تأجيل النوبة المألوفة منذ وقت مضى ، إلا أنّه أجبر نفسه على تأجيل الشروع بالسكر حتّى يوم الزفاف .

ولم يكن الأجير الزراعي الثاني ، وهو قوزاقي أسمر نحيف يسمّى ميخي ، قد اشتغل لدى كورشونوف إلا منذ مدّة قصيرة . وقد عمل أجيراً بعد أن أصابته كارثة حريق . وبسبب من صداقته لهت ـ بابا ، صار شيئاً فشيئاً مدمناً على الشراب . وكان ذا ولع كبير بالخيل . وحينما يكون سكراناً ، يشرع بالبكاء ، ويتبلل وجهه حاد القسمات عديم الحاجبين ، بالدموع ، فيسبب الازعاج لميرون غريغوريتش :

ـ سيدي! يا سيدي العزيز! حينما تزوّج ابنتك دعني أشترك في سباق الخيل لمناسبة الزفاف . سأريهم مهارتي في السوق . سأقودها خلال النار ولن تشتعل شعره واحدة من الخيل . فقد كانت لي خيل ذات يوم . آه...

وأمسى هت ـ بابا العابس المتجهّم متعلقاً بميخي ، لسبب أو لآخر ،

وجعل يسميه العذاب على الدوام بنفس النكتة القديمة حول اسم قريته الأصلية ، فيظل يضحك بلا انقطاع ، وبصوت أجش ، من نكتته التافهة المبتذلة ، ويضرب على ساقيه الطويلتين اليابستين . فينظر ميخي باشمئزاز الى وجه هت ـ بابا الحليق والى جوزة عنقه المرتجفة ويلعنه .

تحدّد موعد الزفاف في أوّل يوم بعد الصوم الكبير . لم تبق سوى ثلاثة أسابيع . وفي عيد صعود العذراء جاء غريغوري لزيارة عروسه المقبلة ، فجلس الى المائدة المستديرة في غرفة الاستقبال ، يتناول بذور عبّاد الشمس والبندق مع صويحبات العروس ، ثمّ همّ بالعودة الى داره ، فخرجت ناتاليا لتوديعه . وفي الحظيرة المسقفة ، حيث كان حصانه مربوطاً ، وقد أسرج بسرج جديد أنيق ، دسّت يدها في صدرها ، وقد احمرّت خجلاً ، وهي تتطلّع إليه بعينين تنطقان بالحب ، ثم دسّت في يده لفّة صغيرة تشع بدفء صدرها . وبهرها غريغوري ، وهو يأخذ الهديّة ، ببياض أسنانه الذئبية ، وتساءل :

ـ ما هذا ؟

ـ سترى... طرزت لك كيساً للتبغ .

فجذبها غريغوري إليه متردداً يريد أن يقبّلها ، لكنّها دفعته بقوّة في صدره بيديها ، وألقت رأسها الى الوراء ، وأدارت عينيها ، وجلة ، نحو نوافذ البيت .

ـ سيروننا!

ـ دعيهم!...

ـ انني خجلة!

فشرح غريغوري لها الأمر : «يحدث هذا في البداية حسب!» .

أمسكت ناتاليا بالأعنّة بينما امتطى حصانه ، فوضع قدمه في الركاب ، مقطّب الوجه ، جلس بارتياح على السرج ، ومضى خارجاً من الحوش . ففتحت له البوابة ، ووقفت تتبعه بنظرها مظللة عينيها براحة يدها . مال

غريغوري على سرجه الى اليسار ، على الطريقة الكالميكية ، ملوّحاً بسوطه في زهو . «لم يبق سوى أحد عشر يوماً آخر» ، حدثت ناتاليا نفسها ، وتنهدت وضحكت .

٢٠

تشق الحنطة لخضراء ذات الأوراق الحادة الأرض ، وتنمو ، وما أن تمضي بضعة أسابيع حتّى يصبح بمستطاع زاغ أن يحط فيها دون أن يلوح منه شيء . ويمتص القمح السوائل من التربة ويصعد النسغ الى السنبلة ، فتزهر ، وتتلفع السنابل بغبار ذهبي وتمتلئ الحبّة بعصير حليبي ، حلو ، معطار . ويخرج الفلاح الى السهب ، ويقف متأملاً ، فتمتلئ جوانحه بالفرح . وقد يأتي قطيع من الماشية ، ويدوس على القمح ، ويسحق الحبّة المثقلة فوق التراب . وتخلف الماشية ، حيثما ترقد ، بقعاً مستديرة من الحنطة المسحوقه ، فيملأ المشهد قلب الفلاح بالمرارة واليأس .

كذلك الحال مع اكسينيا . فقد داس غريغوري بصندله الخشن الثقيل ، على مشاعرها التي تنامت حتّى نضجت وغدت مثل حبّة ممتلئة . لقد لوّثها ، وسحقها ، واضرم فيها النار حتّى أمست رماداً ـ وكان هذا كل ما في الأمر .

بعد عودتها من حديقة عبّاد الشمس في بستان ميليخوف ، كان ثمّة فراغ ووحشة يتناميان في أعماقها ، مثل حقل مهجور غطّته أعشاب الاوز والنجيل . فمضت تلوك أطراف عصابتها ، وقد غصّ بلعومها بالبكاء . دخلت دارها ، وتهاوت على الأرض ، يخنقها الدمع والعذاب ، والفراغ الموحش الذي ألهب رأسها... ثم مرت الأزمة فقد غار الألم في قعر فؤادها وتعشش هناك .

وتعود الحنطة التي داستها الماشية فتسوى من جديد . وبالندى والشمس ، تستفيق السيقان المسحوقة ، منحنية ، في البدء ، كرجل ينوء

بحمل ثقيل جسيم ، ثمّ تنتصب رافعة رؤوسها وتتمايل في مهب الريح ، ويعود النهار نهاراً من جديد...

وحينما كانت اكسينيا تلاطف زوجها بعاطفة مشبوبة في الليل ، كان ثمّة رجل آخر يملك زمام أفكارها ، وتختلط الكراهية بحب عظيم في قلبها . كانت المرأة ترسم الخطط للإتيان بمنكر جديد وعار جديد . لقد عقدت العزم على انتزاع غريغوري من ناتاليا السعيدة ، التي لم تعرف طعماً لمرارة الحب أو حلاوته . واستلقت تفكّر في خططها ليلاً ، وعيناها الجافتان تطرفان في العتمات ، ورأس ستيبان الوسيم يرقد ، ثقيلاً ، على ذراعها اليمنى ، وقد مالت خصلته على جبينه . كان يتنفّس خلال شفتيه المواربتين ، وأصابعه السودالخشنة تستكن على صدر زوجته في إغفائه .

واستلقت اكسينيا تعمل فكرها وخططها ، لكن شيئاً واحداً قد عقدت عليه العزم الراسخ : ستنتزع غريغوري من أي إنسان آخر ، ستغمره بالحب ، وتمتلكه كما امتلكته في السابق . على أن في أعماق قلبها ألماً عميقاً ، مافتئ يلسعها ، كلسع النحلة .

وفي النهار ، كانت أكسينيا تغرق نفسها بالأعمال والواجبات المنزلية . وقد تصادف غريغوري من حين لآخر ، فيشحب وجهها ، ثم تشد باعتزاز جسدها الجميل الذي يتحرّق إليه بلهفة عارمة ، وتحدّق بتحد ومن غير ما حياء في متاهات عينيه السوداوين .

وبعد كل لقاء كان الحنين إليها يستبد بغريغوري . وصار يغضب بلا سبب ، وجعل يصب غيظه على دونيا وأمّه ، على أنّه غالباً ما كان يستل حسامه ، ويخرج الى الفناء الخلفي ، ويهوي به على الأغصان القويّة النابتة في الأرض ، حتّى يسبح في عرقه . وخلال أسبوع قطع منها كومة كبيرة . وأثار ذلك حنق بانتلاي بروكوفتش ، فراح يلعن :

ـ هذا الشيطان الخسيس ، لقد قطع ما يكفي لعمل سياجين . ياللفارس الملعون! رح الى الغابة ، إن كان عليك أن تهلك نفسك بالتقطيع . صبراً ، يا

فتاي! فستحين لك الفرصة ، حينما سيدعونك للخدمة العسكرية . وآنذاك ، سرعان ما تستنفد قواك!

٢١

أربع عربات مزينات في بهرج بهيج ، يجر كلاً منها زوج من الخيل ، ستذهب لإحضار العروس . ويتزاحم حشد من أهالي القرية في ملابس العيد حولها ، وهي واقفة في فناء آل ميليخوف .

كان بيوتر اشبين العريس ، وقد ارتدى سترة رسمية سوداء وبنطلوناً أزرق بأشرطة ، وربط ذراعه اليسرى بمنديلين أبيضين ، وثبّت تحت عذاريه القمحيين ابتسامة مزدرية . كان يقف دائماً الى جانب العريس . وقال لأخيه :

ـ لا تكن خجولاً ، يا غريغوري! ارفع رأسك مثل ديك ، ولا تعبس!

تتعالى أصوات في الحشد بالقرب من العربات :

ـ أين الاشبين ؟ حان الوقت لنذهب الى العريس!

ـ يا نسيب!

ـ ها ؟

ـ اجلس في العربة الثانية! هل تسمع ؟

ـ هي مريحة بلا مقاعد!

وكانت داريا ، الرشيقة اللدنة مثل غصن صفصاف ، ترتدي تنورة صوفية حمراء ، كلون توت العليق . واهتز قوسا حاجبيها المزججين ، ولكزت بيوتر :

ـ قل لأبيك أن الوقت قد حان لذهابنا ، فهم هناك في انتظارنا .

فتشاور بيوتر مع أبيه همساً ، ثمّ أصدر أمره :

ـ خذوا أماكنكم . في عربتي ، خمسة والعريس . يا انيكاي اجلس في مقعد الحوذي .

فتسلقوا الى العربات . وفتحت ايلينشنا البوابات ، متوردة الوجه مزهوة ، وتسابقت العربات الأربع ، واحدة إثر الأخرى ، في الشارع .

جلس بيوتر الى جانب غريغوري وراحت داريا تلوح ازاءهما بمنديل من الدانتيلا . وجعلت حفر الطريق ونتوءاته تقطع الأصوات التي انطلقت تردد إحدى الأغاني ، وتشكّلت صورة ملوّنة من الشرائط القرمزيّة لقبعات القوزاق ، والبزات والسترات الرسمية السوداء والزرقاء ، والأكمام المربوطة بالمناديل البيض ، وقوس قزح متناثر لعصابات النساء ، والتنورات الزاهية ، ومثار الغبار الرقيق .

كان أنيكاي ، جار ميليخوف وأحد اقربائهم ، يقود عربة العريس ، وقد مال الى الأمام فوق ذيول الخيل حتّى كاد أن يقع من على مقعده ، وفرقع سوطه وصفّر ، فجعلت الخيل العرقى تشد بمزيد من الجهد على الأعنّة المتوترة .

وزأر بيوتر :

ـ هيّا ، ازجرها ، ازجرها!

فغمز انيكاي الأمرد ، الشبيه بالخصي ، لغريغوري ، وجعّد وجهه الانثوي الأملط في ابتسامة خافتة ، وأطلق صفيراً واستحث الخيل بسوطه .

وهدر ايليا اوجوكين ، خال العريس ، وهو يحاول أن يسبقهم بالعربة الثانية :«افسح لي الطريق!» وتبين غريغوري وجه دونيا السعيد وراء ظهر خاله .

فصاح أنيكاي وهو يثب على قدميه ويطلق صفيراً نفّاذاً : «لا ، لن تسبقني!» ولفح الخيل حتّى انطلقت في جنون فصاحت داريا : «سوف تقع!» واحتضنت بذراعيها جزمة أنيكاي الجلدية الطويلة اللامعة . وصاح الخال ايليا من جانبهم : «حذار!» لكن صوته ضاع في هدير العجلات وقرقعتها .

أمّا العربتان الأخريان ، فقد سارتا جنباً الى جنب مثقلتين بنساء ورجال

يتصايحون . وكانت الخيل المزينة على ظهورها بأجلّة حمر وزرق ووردية ، وأزهار من ورق وشرائط مضفورة في نواصيها وأعرافها ، وأجراس بأعنتها ، تنهب الأرض على الطريق العاثر ، ناثرة ندفاً من الزبد ، والأجلّة المبللة ترفرف وتخفق في مهب الريح .

عند بوابة آل كورشونوف كان جمع من صبيان القرية في انتظار الموكب . فما أن رأوا الغبار المتصاعد من الطريق حتّى ركضوا الى الحوش زاعقين : «إنهم قادمون!» و«ها قد وصلوا!» ، وأحاطوا بهت ـ بابا الذي خرج تواً .

ـ فيم الزحام ؟ اغربوا ، أيها الشياطين الصغار . أي ضجيج هذا! أنا لا أقدر أن اسمع نفسي .

وتواثب الصغار حول سروال هت ـ بابا الفضفاض صارخين وهازئين به . فنظر هت ـ بابا الى الأطفال الهائجين ، ورأسه منحن كما لو كان يحدّق في بئر عميقة ، وحك بطنه المشدودة المستطيلة وعلى وجه ابتسامة سمحة .

وبلغت العربات البوابة وهي تقرقع ، فقاد بيوتر غريغوري الى درجات الباب ، وتبعهما الآخرون .

أغلق الباب مابين الممر والمطبخ . فطرقه بيوتر ، وترنّم : «يا سيدنا عيسى المسيح ، ارحمنا!» .

وجاء صوت من الجانب الآخر للباب : «آمين!» .

وكرّر بيوتر الكلمات والطرق ثلاثة مرّات ، وفي كل مرّة كان يتلقّى نفس الجواب .

ـ هل لنا أن ندخل ؟

ـ على الرحب والسعة .

وفتح الباب على مصراعيه . وحيّت بيوتر اشبينة ناتاليا ، ممثلة والديها ، وهي أرملة جميلة ، بانحناءة وابتسامة من شفتين رقيقتين حمراوين كتوت العليق ، وقالت له : «اشرب هذا في صحتك ، أيها الاشبين» ، وناولته

قدحاً من كفاس جديد عكر . فسوّى بيوتر عذاريه ، وكرع القدح عن آخره ، ثم حمحم وسط ضحك الجميع المكتوم : «يا له من شراب! فانتظري يا توتتي السوداء ، انتظري حتّى أرد اليك الفضل . لسوف أجعلك تدفعين ثمن هذا» .

قالت الاشبينة وهي تنحني وتبتسم في مكر : «معذرة» .

وبينما كان اشبين العريس واشبينة ناتاليا يتنافسان في مباراة من الملح ، جيء بثلاثة كؤوس لكل واحد من أقرباء العريس ، طبقاً لاتفاق الزواج .

أمّا ناتاليا ، التي ارتدت ثوب زفافها والخمار ، فقد جلست الى المائدة تحرسها شقيقتاها . وامسكت ماريشكا في يدها الممتدّة ، بشوبك* ، ولوّحت كريبا ، وفي عينيها حماس وتحد ، بسلّة تستعمل أثناء البذر . وانحنى بيوتر ، وقد بلله العرق وأسكرته الفودكا قليلاً ، وعرض عليهما في قدحه قطعة من ذات الخمسين كوبيكاً . غمزت الاشبينة لماريشكا فضربت المائدة بشوبكها :

ـ قليل! لن نبيع العروس!

وكرة أخرى ، قدّم لهما شيئاً من القطع الفضّية في قدحه . فزمجرت الشقيقتان : «لن ندعك تأخذها!» وأحاطتا بمرفقيهما ناتاليا منكسة الرأس .

ـ والآن ، ما معنى هذا ؟ ها نحن قد دفعنا المزيد .

فأمر ميرون غريغوريتش الفتاتين مبتسماً : «أقبلا أيتها البنتان!» وتقدّم من المائدة . وكان شعره الأحمر الملطّخ بالزبدة الذائبة تنبعث منه رائحة العرق والروث .

نهض أقارب العروس وأصدقاؤها من مقاعدهم حول المائدة ، وأفسحوا المكان للقادمين الجدد .

---

* الشوبك أو الشوبق : خشبة الخبّاز التي يسوّي بها الرغيف قبل الخبز . المترجمون

دفع بيوتر طرف منديل في يد غريغوري ، وقفز على مصطبة ، ثم قاده الى العروس حيث جلست تحت الأيقونات ، فأخذت ناتاليا المنديل من طرفهاالآخر في يدها الرطبة المضطربة .

وطقطقت الاسنان حول المائدة ، وجعل الضيوف يمزّقون الدجاجات المسلوقة بأيديهم إرباً إرباً ليمسحوها بعدئذ بشعورهم . وبينما كان انيكاي يلوك عظمة صدر ، جرى الدسم الاصفر على ذقنه الأمرد الى ياقته .

ورثى غريغوري لنفسه ، وهو يرى الى ملعقته وملعقة ناتاليا المعقودتين معاً بمنديل ، أولاً ، ثمّ الى الشعرية التي يتصاعد بخارها من الإناء . كان جائعاً الى حد كبير ، وأحس بمعدته تتضوّر .

أمّا داريا فقد كانت تأكل بشهية ، بينما بدا على الخال ايليا ، الذي جلس الى جانبها يمصمص ضلع خروف بتمهّل ، أنّه يهمس في أذنها بأشياء غير لائقة ، ذلك لأنها خاوصت عينيها ورفعت حاجبيها ، متوردة الوجه مقهقهة .

أكل الضيوف كثيراً وبشهيّة ، واختلط بخار العرق الرجالي النفّاذ برائحة النساء المعطرة الأكثر نفاذاً . وانبعثت من التنورات والسترات السود والشالات المحفوظة في صناديقها زمناً طويلاً ، رائحة النفتالين ورائحة أخرى ، ثقيلة وخانقة ، مثلما ينبعث من ملابس العجائز البالية .

نظر غريغوري من طرف عينه الى ناتاليا ، ولاحظ لأوّل مرة أن شفتها العليا كانت منتفخة ومتدلية على الشفة السفلى كما يتدلّى رفرف القبعة . ولاحظ أيضاً شامة بنيّة على خدّها الأيمن تحت عظم الوجنة ، وقد نبتت من الشامة شعرتان ذهبيتان ، ولسبب ما أثار ذلك نفوره . وتذكّر رقبة أكسينيا الهيفاء بخصلاتها الجعد الوبرية ، وانتابه شعور بأن أحداً ما ألقى في داخل ياقته حفنة من الأعشاب الشوكية التي تخز ظهره العرق . فارتعش جسمه ، وجعل يراقب الأخرين يمضغون ويلوكون ويتلمظون شفاههم ، وقد استبد به شعور خانق بالتعاسة .

وحينما انفضّوا عن المائدة جاء أحدهم ، ورائحة عصير الفاكهة المختمرة وحموضة خبز القمح تفوح من أنفاسه ، وصب قبضة من الدخن في ساق جزمته لكي تحميه من العين الشريرة .

وطوال طريق العودة الى بيته ظل الدخن يؤلم قدمه . كما ضايقته ياقة القميص الضيقة حد الاختناق . وجعل غريغوري يتمتم باللعنات مع نفسه في غضب يائس بارد ناجم عن مراسيم الزواج المقبضة للنفس .

٢٢

حينما وصلت الخيل إلى فناء آل ميليخوف ، كان التعب قد هدّها ، بالرغم من أنّها استراحت قليلاً لدى آل كورشونوف . وكانت أعنّتها ملطخة بالزبد ، لكنّ السواق السكارى ظلّوا يستحثّونها بلا رويّة .

واستقبل العجوز ميليخوف وزوجته الموكب . كان بانتلاي بروكوفتش يمسك بأيقونة ولحيته السوداء المشوبة بلون فضّي تتلألأ ، بينما وقفت زوجته الى جانبه ، وقد تصلبت شفتاها الرفيعتان .

وتحت وابل من ثمار حشيش الدينار وحبّات القمح ، تقدّم غريغوري وناتاليا نحوهما ليتقبّلا بركاتهما . وسالت دمعة على وجه بانتلاي بروكوفتش وهو يباركهما ، ثمّ عبس وتململ ، وقد ضايقه أن يشهد الآخرون ضعفه .

دخل العروسان إلى الدار . وانقضّت داريّا على دونيا الراكضة من المطبخ عند درجات العربة ، وقد احمرّت من الفودكا والرحلة والشمس ، تسألها :

ـ أين بيوتر ؟

ـ لم أره .

ـ عليه أن يذهب إلى القس في حين ليس له أثر ، عليه اللعنة!

وأخيراً عثرت على بيوتر متمدّداً في عربة ، يئن ، بعد أن كرع من

الفودكا أكثر مما ينبغي ، فانقضّت عليه كالحدأة : «لقد شربت أكثر مما ينبغي ، ياكافر! قم واجر إلى القس!»

فاحتج بيوتر ، وهو يمد يديه نحو القش وذرق الدجاج : «أغربي عنّي! أنا لا أعرفك . من أنت حتّى تتأمّري ؟»

فدفعت داريّا اصبعين في فمه ، والدموع في عينيها . وأمسكت بلسانه الهاذي ، وأعانته على أن يفيق ، فأربكه ذلك . ثمّ صبّت على رأسه دلواً من ماء البئر البارد ، ونشّفته ببطّانية خيل وأخذته الى القس .

وبعد ساعة وقف غريغوري إلى جانب ناتاليا (التي جعل ضوء الشموع وجهها جميلاً) في الكنيسة ، ممسكاً شمعه بيده ، وعيناه تجولان في سهوم فوق جدار من الناس المتهامسين حوله ، ومردّداً في نفسه هذه الكلمات التي لم تكن لتنأى عن ذهنه : «ها إنّك قد انتهيت» . ومن خلفه ، سعل بيوتر ذو الوجه المنتفخ . وفي مكان ما بين الرهط ، لحظ عيني دونيا متلألئتين ، وخيّل إليه أنّه ميّز وجوهاً أخرى . وسمع أصوات الجوقة المتنافرة وغناء الشمّاس الطنّان . كان تبلّد أحاسيسه يشلّه . ومشى وراء الأب فيساريون حول كرسي الكتاب ، متعثراً بكعبي جزمة القس المتآكلة ، وتوقّف حينما جذبه بيوتر برفق من طرفي سترته الرسمية . وجعل يحدّق في ألسنة لهب الشموع الصغيرة المتلألئة ، ويقاوم رغبة في الإغفاء تملّكته .

وقال الأب فيساريون لغريغوري وهو يحدّق في عينيه بلطف : «تبادلا الخاتمين!» فأطاعاه . وتساءل غريغوري في صمت حينما التقى نظره ببيوتر : «هل سنفرغ من هذا عمّا قريب ؟» ، ورفّت زاويتا فم بيوتر وهو يكتم ابتسامة : «عمّا قريب» . ثم قبّل غريغوري شفتي زوجته المبللتين ، عديمتي الطعم ، ثلاث مرّات ، واخذت تنبعث من الكنيسة رائحة الشموع المطفأة الكريهة ، وتزاحم الجمع نحو الباب .

خرج غريغوري ماسكاً يد ناتاليا الخشنة الكبيرة ، وخبط أحدهم قبعته على رأسه . وحملت نسمة دافئة من الجنوب رائحة نبات الشيح إلى

منخريه ، وانحدرت البرودة من السهب . تلوي البرق الأزرق وراء الدون ، وقدم المطر ، وتناهى إلى الأسماع عبر سور الكنيسة الأبيض وفوق همهمة الأصوات ، الرنين الرقيق الحفي للأجراس المدلاة من الخيل الجامحة .

٢٣

لم يصل آل كورشونوف الى دار آل ميليخوف إلا بعد مبارحة العروسين إلى الكنيسة . وكان بانتلاي بروكوفتش ، قبل ذلك ، قد خرج إلى البوابة عدّة مرات ليستطلع قدومهم ، لكن الطريق الرمادي المحدّد بخطوط من النباتات الشوكية كان مهجوراً تماماً .

وحوّل عينيه ناحية شاطىء الدون الآخر . كانت الغابة تكتسي لوناً ذهبياً وعيدان القصب الناضج تميل ، تعبى ، فوق البحيرة الصغيرة .

وثمة خمول الخريف الباكر ، المتّشح بالغسق ، يلف القرية والدون وحافة التلال الكلسية والغابة الكامنة في سديم ليلكي وراء النهر ، والسهب . وعند مفترق الطرق ، كانت الحدود الحادة للمصلى القائم على جانب الطريق بارزة إزاء صفحة السماء الزرقاء .

التقطت أذنا بانتلاي بروكوفتش صوتاً لا يكاد يسمع لعجلات تدور وكلاب تنبح . ثمّ دارت عربتان صغيرتان من ساحة القرية عبر الشارع ، وقد جلس في الأولى ميرون غريغوريتش وإلى جانبه زوجته يواجهها الجد غريشاكا في بزّة رسميّة جديدة وقد علّق على صدره وسام القدّيس غيورغي ومدالياته . وكان ميتكا يقود العربة ، جالساً باسترخاء على المقعد الأمامي دون أن يكلّف نفسه عناء التلويح بسوطه للخيل القويّة . وكان ميخي في العربة الثانية مائلاً إلى الخلف ، يجر الأعنّة محاولاً تقليل سرعة الخيل المندفعة . وكان وجهه الهزيل ، عديم الحاجبين ، قرمزياً ، والعرق يتصبب من تحت رفرف قبعته المكسور .

فتح بانتلاي بروكوفتش البوابة ، واندفعت العربتان إلى داخل الفناء . وانسابت ايلينشنا نازلة على درجات المدخل وطرف ثوبها يكنّس بقايا الوحل من الدرجات .

ـ مرحباً ، أيها الأقرباء الأعزاء! امنحوا دارنا المتواضعة شرف دخولكم .. وثنت خصرها السمين في انحناءة .

وفتح بانتلاي بروكوفتش ذراعيه ، ورأسه مائل الى جانب ، ورحّب بهم : ـ نحن ندعوكم الى الدخول!

وأمر أن تحل الخيل ، اتجه نحو والد كنته . ومسح ميرون غريغوريتش سرواله بيده ليزيل عنه الغبار . سلّم أحدهما على الآخر واتجها الى مدخل الدار . وتباطأ غريشاكا العجوز خلفهما ، وقد خضّته رحلة العربة غير المعتادة .

وألحّت ايلينشنا : «تفضّلوا ، تفضّلوا ، أيها الأعزاء!»

ـ نشكرك ، هانحن قادمون .

ـ كنّا ننتظركم . تفضّلوا . سآتي بمنفضة لتنظّف بها بزّتك . ما أكثر الغبار هذه الأيام ، حتّى لقد صرنا لا نتنفّس إلا بصعوبة .

ـ أجل ، حقّاً ، إنّها جافة جداً ... وهذا هو سبب الغبار... لاتزعجي نفسك يا عزيزتي ، سوف آتي بعد أن... .

وتراجع العجوز غريشاكا إلى مخزن الحبوب فالتجأ وراء ماكنة درس مطليّة .

فغمغم بانتلاي بروكوفتش ، موقفاً زوجته عند درجات العتبة :

ـ ألا تستطيعين أن تتركي العجوز وشأنه ، ياحمقاء . هو يريد أن يقضي حاجته وأنت تظلّين... أين عقلك ، ياامرأة!

فاحتجّت ايلينشنا في ارتباك :

ـ أنّى لي أن أعرف .

ـ كان ينبغي لك أنت أن تخمّني ذلك . لابأس خذي الضيوف إلى المائدة .

وأخذت أسرة العروس الى غرفة كبيرة ، حيث جلس إلى المائدة رهط من الضيوف نصف مخمورين . وسرعان ما عاد العروسان الجديدان من الكنيسة . وقد ملأ بانتلاي بروكوفتش الأقداح من قنينة هائلة ، والدموع تترقرق في عينيه :

ـ حسناً يا أقرباءنا الأعزّاء ، فلنشرب نخب طفلينا! لتمتلىء حياتهما بالطيبات ، كما امتلأت حياتنا . وليعيشا سعيدين متمتعين بأحسن عافية... .

وصبّوا قدحاً كبيراً من الفودكا للجد غريشاكا وأفلحوا في إفراغ نصفه في فمه ذي اللحية المتصوفة والنصف الآخر على ياقة بزّته الصلبة . وقرعت الأقداح . وجعل القوم يشربون دون أي نخب ، وهم يثيرون جلبة كجلبة السوق . وقام نيكيفور كولوفايدين ، وهو يمت إلى آل كورشونوف بصلة بعيدة وكان يجلس عند طرف المائدة الأقصى ، فرفع قدحه وزأر بالكلمات التقليدية : «مُر الطعم ، مُر!»* .

فتصايح الضيوف الجالسون حول المائدة وراءه : «مُر! مُر!» . وجاء الجواب من المطبخ المزدحم : «أوه ، مُر!» . فقبّل غريغوري بعبوس شفتي زوجته عديمتي الطعم ، وأجال في الغرفة نظرة طريدة ، لم ير سوى وجوه قرمزيّة محمومة ، ونظرات وابتسامات فظّة كدرة بفعل السكر ، وأفواه تلوك بشراهة ، ولعابها يسيل على خوان المائدة المطرّز حين بلغت الحفلة ذروتها .

وفتح كولوفايدين فمه متباعد الأسنان ، على سعته ، وقال :

ـ «مُر!» وانكمشت شارات خدمته الطويلة على كم بزة الحرس الزرقاء ، حين رفع قدحه .

ـ«مُر!» ، التقط الجميع الصرخة من جديد .

ونظر غريغوري الى فم كولوفايدين بكراهية ، ولاحظ لسانه القرمزي بين أسنانه حينما صرخ : «مُر!» .

---

* حسب التقاليد يتبادل العروسان القبلات حين يسمعان هذه الجملة . الناشر .

وتمتم بيوتر ، وقد رف شاربه المبلل بالفودكا : «تبادلا القبل ، أيها العروسان البليدان» . ومن المطبخ ، شرعت داريّا تغنّي وقد تورّد وجهها من السكر ، فالتقط الأغنية الآخرون ، وانتقل الغناء إلى الغرفة الكبيرة . واختلطت الأصوات ، لكن إرعاد كريستونيا علا فوق الجميع هازاً زجاجات النوافذ .

ـ يا للزفاف ، ايها الناس الطيبون!...

ـ ذق لحم الضأن هذا!

ـ أبعد مخلبك عنّي ، فزوجي ينظر إلينا!

ـ مُرا! مُرا!

ـ لا! لا أريد لحم ضأنك هذا . أفضّل شيئاً من السمك السلمون . أجل ، أحب ذلك... . إنّه دسم .

ـ بروشكا يا ابن العم ، لنشرب نخباً آخر!

ـ آه ، إن هذا يبعث الدفء في عصافير قلبك!

ـ يا سيمين غوردييتش!

ـ ها ؟

ـ ليأخذك الشيطان!

وفي المطبخ ، أنّت الأرض واهتزّت ، واصطكّت الكعوب ، وسقط قدح على الأرض ، ولكن صوت تحطّمه ضاع في الضجيج العام . ونظر غريغوري إلى المطبخ عبر رؤوس الجالسين إلى المائدة . وشرعت النساء يرقصن بمصاحبة الصيحات والصفير ، ورحن يهززن مؤخراتهن الضخمة ، فلم تكن بينهن نحيفة واحدة ، إذ كانت كل واحدة قد لبست خمس أو سبع تنورات معاً ، وجعلن يلوّحن بمناديلهن ، ويحرّكن مرافقهن أثناء الرقص .

وصل إلى المسامع صوت الاوكورديون . وشرع العازف يعزف لحن رقصة قوزاقية . وانطلقت صيحة : «حلقة! شكّلوا حلقة!» .

وتوسّل بيوتر ، دافعاً بطون النساء : «تراصفن قليلاً!» .

وأيقظ غريغوري نفسه ، وغمز لناتاليا :

ـ سيرقص بيوتر رقصة القوزاق . راقبيه .

ـ مع من ؟

ـ ألا ترين ؟ مع أمّك .

تحَضّرت ماريّا لوكينيشنا ، مسندة يديها إلى ردفيها ، ومنديلها بيدها اليسرى ، وتقدّم بيوتر بخطوات متبخترة ، وقفز بخفّة ومهارة ، ثمّ تراجع إلى مكانه . رفعت لوكينيشنا تنورتها ، كما لو أرادت أن تعبر بركة ماء ، والتقطت الإيقاع بأصابع قدمها ، ورقصت وسط هدير من الاستحسان ، مشمّرة ساقيها كما يفعل الرجال .

نثر عازف الاوكورديون رقرقة من النغمات الناعمة دفعت بيوتر الى الحركة ، ثمّ هبط صائحاً في وضع قرفصي ، وجعل يرقص بشكل دائري ، ضارباً رقبتي جزمته براحتي يديه ، وقاضماً طرف شاربه في زاوية فمه . وراح يحرّك قدميه إلى الداخل والخارج ، بسرعة كبيرة ، وتواثبت خصلته على جبينه ، إلا أنّها لم تستطع أن تلحق بوثبات قدميه .

وكان الحشد عند الباب قد حجب الرؤية عن غريغوري . فلم يعد يسمع سوى صيحات الضيوف السكارى وضربات الكعوب الحديدية ، مثل طقطقة لوح صنوبر محترق .

ثم رقص ميرون غريغوريتش مع ايلينشنا . كان يرقص بطريقة جدّية رزينة على عادته في أداء كل شيء . ووقف بانتلاي بروكوفتش فوق مقعد يراقبهما ، مدلياً ساقه العرجاء ومطقطقاً بلسانه . وتراقصت شفتاه وقرطه بدلاً من ساقيه .

والتقط الرقصة خبراؤها ، كما التقطها من لم يستطع أن يثني ساقيه بصورة لائقة . وانطلقت صيحات صوب الجميع :

ـ الهبوها!

ـ خطوات أقصر! آه ، يا!...
ـ ساقاه خفيفتان بما فيه الكفاية ، لكنّ مؤخرته تعيق حركته .
ـ آه ، امضي بها!
ـ إن جانبنا يربح .
ـ هيّا!
ـ تعبان ، أليس كذلك ؟ لسوف أكسر قنينة على رأسك إن لم ترقص!
كان الجد غريشاكا قد استبد به السكر كلّياً فاحتضن ظهر جاره العريض على المصطبة ، وطن في أذنه طنين البعوض :
ـ أية سنة ذهبت للخدمة العسكرية لأوّل مرة ؟
فأجابه جاره ، وهوعجوز منحني الظهر كشجرة بلوط عتيقة :
ـ ١٨٣٩ ، يابني!
فأصاخ غريشاكا السمع وهو يمسك بطرف أذنه : « متى ؟ »
ـ قلت لك ١٨٣٩ .
ـ ما اسمك ؟ في أي كتيبة خدمت ؟
ـ مكسيم بوكاتير يوف . كنت نائب عريف في كتيبة باكلانوف . أنا من قرية« الوهدة الحمراء » .
ـ أنت قريب لآل ميليخوف ؟
ـ ماذا ؟
ـ سألتك ، هل أنت قريب للعائلة ؟
ـ أي أي! أنا جد العريس ، من ناحية أمّه .
ـ قلت في كتيبة باكلانوف ؟
فنظر الشيخ إلى غريشاكا بعينين ذابلتين ، وهو يحاول عبثاً أن يمضغ قطعة من الخبز بلثّته عديمة الأسنان ، وهز رأسه بالإيجاب .
ـ إذن ، فلا بد أنك كنت في الحملة القفقاسية ؟
ـ أنا خدمت تحت أمرة باكلانوف نفسه ، رحمة الله عليه ، وساهمت

في غزو القفقاس . كان في كتيبتنا قوزاق بارزون . كانوا طوالاً كالحرس ، وإن لم يكونوا منتصبي القامة مثلهم . رجال ضخام ، طوال الأذرع ، عراض المناكب ، ليسوا كقوزاق هذه الأيام . هكذا كان رجالنا ، يابني! كان فخامة الجنرال الراحل يجلدني بنفسه...

ـ أمّا أنا فقد شهدت الحملة التركية ، هه ؟ أجل شهدتها .

ونفخ غريشاكا صدره الهزيل مجلجلاً بالميداليات .

ـ استولينا على قرية عند الفجر ، وعند الظهر أطلق البوقي الإنذار .

ـ نحن أيضاً تسنّى لنا أن نخدم قيصرنا . كنّا نقاتل بالقرب من روشيتش وكانت كتيبتنا ، كتيبة قوزاق الدون الثانية عشرة ، ملتحمة مع الأتراك .

ـ أطلق البوقي الإنذار... ـ استطرد بوكاتيريوف العجوز دون أن يصغي الى غريشاكا .

وقد بدأ غريشاكا يشعر بالضيق وهو يلوّح بيده مغضباً :

ـ أي نعم . يخدم الانكشاريون الأتراك قيصرهم ويضعون على رؤوسهم أكياساً بيضاء . ها ؟ أكياساً بيضاء على رؤوسهم .

ـ وأطلق البوقي الانذار ، وقلت لرفيقي : علينا أن نتراجع يا تيموفي ، ولكن علينا أن ننتزع تلك السجادة من الحائط أولاً سنلفّها لفّة... .

ـ لقد كوفئت بوسامين من أوسمة القديس غيورغي تقديراً لبطولتي في القتال . أسرت مقدّماً تركيّاً وهو حي .

وشرع الجد غريشاكا يبكي ويضرب بقبضته الذابلة على العمود الفقري لجاره . لكن الأخير غمس قطعة من الدجاج في مربّى الكرز بدلاً من الخردل ، وحدّق ببلاهة في خوان المائدة المتسخ ، ودمدم والطعام في فمه الخاسف : « حسبك أن تتأمّل أية خطيئة ساقتني إليها الروح الشريرة ، يا بني! » وحدقت عينا الشيخ بثبات على ثنيات الخوان البيضاء ، وكأنهما لا تنظران الى خوان غارق بالفودكا والحساء ، ولكن إلى الشعاب الثلجية في جبال القفقاس . « أنا

لم آخذ في حياتي شيئاً لا يخصّني ، استولينا على القرى الشركسية في كل بيت ثروة ، ولكنني لم أرد أن آخذ شيئاً لأن السرقة من أفعال الشيطان وهذه المرّة ما أن رأيت تلك السجادة ، حتّى قلت في نفسي : تصلح هذه مرشحة سرج جيدة .

ـ لقد رأيت تلك البقاع بنفسي . ورحلت الى بلاد عبر البحار أيضاً . ـ

وحاول غريشاكا أن ينظر في عيني جاره ، لكن المقلتين العميقتين كانتا مغلقتين بطبقة كثيفة شعثاء من شعر الحاجبين واللحية . كان يريد أن يستأثر باهتمام جاره لسماع ذروة قصّته ، فلجأ إلى المكر واندفع إلى وسطها دونّما مقدّمات :

«ويصدر الرئيس الأمر : «الى الأمام خبباً!» .

رفع قوزاقي كتيبة باكلانوف العجوز رأسه ، كما يفعل حصان الهجوم على صوت النفير ، وأسقط قبضته على المائدة هامساً : «أعدّوا الرماح! استلّوا السيوف ، يارجال باكلانوف!» واشتد صوته على حين غرة ، وتلامعت عيناه الذابلتان وأومضتا : «يارجال باكلانوف! ياللشطّار!» ، وزأر فاغراً فكّيه الأصفرين عديمي الأسنان : «اهجموا... . إلى الأمام!» .

وصوب الى غريشاكا نظرة فتية ذكيّة ، وترك الدموع متلألئة على لحيته تتساقط دون أن يمسحها بكمه المتسخ .

وتحمّس غريشاكا هو الآخر :

ـ أعطانا هذا الأمر ، ولوّح بسيفه . فاندفعنا مسرعين إلى الأمام وكان الأتراك متجمعين بهذه الصورة ـ ، ورسم مربعاً على خوان المائدة بإصبع مرتعشة ، ـ وكانوا يطلقون ناراً علينا . غرنا عليهم مرتين . وفي كل مرّة كانوا يردوننا إلى موضعنا . كلّما حاولنا ، انطلق فرسانهم من غابة صغيرة لتحمي جناحهم . ولهذا أصدر آمر رعيلنا الأمر وتحوّلنا باتجاههم ومضينا . سحقناهم بخيلنا . هزمناهم . أي فرسان في العالم يستطيعون الصمود أمام القوزاق ؟ فرّوا الى الغابة صائحين . رأيت ضابطهم أمامي مباشرة راكباً

حصاناً كميتاً . ضابط وسيم الطلعة ، كان له شاربان أسودان . نظر إليّ ملتفتاً إلى الوراء وسحب مسدّسه من جراب مربوط بسرجه . طاق! لكنّه أخطأني . همزت حصاني ولحقت به . كنت على وشك أن أشطره نصفين ، لكنني فكّرت فيما هو أفضل . فقد كان ، على أيّة حال ، إنساناً مثلي . فطوّقت خصره بذراعي الأيمن . فطار عن سرجه . ثم عض ذراعي ، لكنني أسرته رغم ذلك .

نظر غريشاكا في زهو المنتصر الى جاره ، لكن رأس الشيخ الكبير المدبب كان قد هوى على صدره ، وكان يشخر في دعة .

الجزء الثاني

١

يستطيع سيرغي بلاتونوفتش موخوف أن يتتبع سلالته إلى مدى بعيد .

أثناء حكم بطرس الأول ، كانت جنيبة شحن حكومية تمخر في الدون متجهة الى بحر آزوف بحمولة من البقسماط والبارود ، فهاجمها ليلاً قوزاق بلدة تشكوناكي القائمة على ضفّة الدون الاعلى ، وقتلوا حرّاسها الناعسين ، ونهبوا البقسماط والبارود وأغرقوا الجنيبة .

فأرسل القيصر جنوداً من فورونيج ، وأحرقوا بلدة تشكوناكي عن آخرها ، وهزموا القوزاق المذنبين بلا رحمة ، وعلّقوا ضابطهم وأربعين آخرين على مشانق عائمة أرسلت بجثثها المعلقة حدر الدون عبرة للقرى العاصية .

وبعد زهاء عشر سنوات بدأت البقعة ، التي شهدت بالأمس دخان المواقد يتصاعد من أكواخ تشكوناكي ، تعمر من جديد بالمستوطنين القوزاق وبأولئك الذين نجوا من المذبحة ، بدأت القصبة تتنامى من جديد وقد أحيطت بالأسوار . وفي الوقت نفسه أُرسل من فورونيج الى تشيكوناكي مخبر سرّي من وكلاء القيصر ، كان فلاحاً روسيّاً يدعى موخوف . واتجر هذا بمقابض السكاكين ، والتبغ ، وأحجار الصوّان والمتفرقات الأخرى اللازمة في

حياة القوزاق اليومية . وكان يشتري ويبيع الحاجات المسروقة ، ويسافر مرتين في العام إلى فورونيج ، متظاهراً بالسعي إلى استكمال بضائعه ، وهو يرمي إلى إبلاغ السلطات بأن القصبة كانت ، آنئذ ، هادئة وبأن القوزاق لم يكونوا بصدد تدبير أي اعتداء جديد .

من هذا الفلاح الروسي ، نيكيتا موخوف ، انحدرت عائلة التجار آل موخوف ، عمقت جذورهم في أرض القوزاق ، وتكاثروا وانتشروا في المنطقة مثل الدغل البري الصلب ، محافظين بإجلال على أوراق الاعتماد نصف المتعفنة التي منحها حاكم فورونيج الى سلفهم . وكان يمكن أن تكون هذه الأوراق محفوظة حتّى يومنا هذا لولا أنّ ناراً أتت عليها في حقتها الخشبية وراء الأيقونة أثناء حريق كبير وقع في حياة جد سيرغي موخوف . وقد سبق لهذا الموخوف أن ألقى بنفسه في هاوية الإفلاس بلعب الورق ، لكنّه شرع ينهض من كبوته مرة أخرى حينما أتت النارعلى كل شيء . وصار على سيرغي أن يبدأ من جديد وهو يملك القليل من المال . بعد أن دفن أباه المشلول ، بدأ شراء الريش وشعر الخنزير . وظل خمسة أعوام يعيش في بؤس ، يغش قوزاق المنطقة ويعتصر منهم كل كوبك . ثم قفز اسمه على حين غرّه من « سيريوجكا البائع المتجوّل » إلى « سيرغي بلاتونوفتش » وفتح حانوتاً صغيراً لبيع الخردوات ، وتزوّج من ابنة قس نصف مجنون ، وتلقى معها صداقاً كبيراً ، وأصبح صاحباً لمتجر الاقمشة . وقد شرع سيرغي بلاتونوفتش في تجارة الأقمشة في الوقت المناسب ، اذ كان القوزاق يهاجرون في ذلك الحين ، بناء على تعليمات من سلطات الجيش ، بكامل قراهم من الضفّة اليسرى للدون ، حيث الأرض رملية جدباء ، إلى الضفّة اليمنى ، وظهرت إلى الوجود أبنية حول قصبة كراسنوكتسكايا الفتية ، وانبعثت قرى جديدة على حدود الاقطاعات السابقة ، وعلى ضفاف أنهر « تشير »و« تشورنايا » و« فرولوفكا » ، وفوق وديان السهب وشعابه ، بجانب القرى الأوكرانية . وهكذا وجد هؤلاء القوزاق أن باستطاعتهم أن

يتبضعوا من حانوت سيرغي موخوف ، حيث تمتلىء رفوفه بأقمشة جذّابة في متناول أيديهم ، بدلاً من أن يقطعوا خمسين فرستا أو أكثر . ووسع سيرغي بلاتونوفتش أعماله ، كما يتوسّع أوكورديون كبير ، وجعل يتاجر بكل ماهو ضروري من حياة القرية البسيطة ـ كجلود الحيوانات ، والملح ، والنفط ، وشتّى السلع الرخيصة حتّى أنّه شرع بتجهيز الماكنات الزراعية ، فعرضت خارج الحانوت حاصدات ، وباذرات ، ومحاريث ، ودارسات ، في صف واحد ، تحفظها من قيظ الصيف حجب الحانوت الخضر باردة الظلال . من الصعب أن يعد المرء ما في حافظة نقود امرئ آخر ، ولكن يبدو أن تجارة سيرغي الماهر درّت عليه ربحاً كبيراً ، فأقام صومعة لخزن الحبوب في غضون ثلاث سنوات ، وبدأ في العام الذي تلا وفاة زوجته الأولى ببناء طاحونة بخاريّة . ووقعت القرية تتارسكي والقرى المجاورة شر وقعة في قبضته السمراء ذات الشعر الأسود الأملس المتباعد . ولم يعد ثمّة بيت غير مدين لسيرغي بلاتونوفتش فهذه قصاصة خضراء اللون ذات حافة برتقالية تفيد أن حاصدة قد بيعت بالدين إلى فلان ، وهذا جهاز عرس لابنة شخص آخر يشتريه من موخوف بالدين ، فقد حان ميعاد زواج البنت ، بيد أن الأسعار التي تدفعها صومعة الحبوب في باروмونوفو قد هبطت ، فيلجأ أبو العروس الى سيرغي بلاتونوفتش قائلاً : « ضع ثمن جهاز العروس على حسابي ، ياسيرغي بلاتونوفتش » وهكذا مضت الحال على هذا المنوال . واستخدم موخوف تسعة عمّال في الطاحونة ، وسبعة في الحانوت ، وأربعة خدم في البيت : أي كان ثمّة عشرون فماً يأكل خبز التاجر . وكان لديه طفلان من زوجته الأولى : البنت ليزا ، وولد أصغر منها بعامين ، هو فلاديمير الفاتر المزاج المصاب بسل الغدة اللمفية . أمّا زوجته الثانية ، آنا ، المخلوقة اليابسة ذات الأنف المدبب ، فكانت عاقراً ، وصبّت على الطفلين مزيجاً من حنان العاقر للأطفال وحقد العانس المتراكم (فهي لم تتزوّج إلا في الرابعة والثلاثين) وظهر الأثر السيئ لمزاجها العصبي عليهما ، ولم يعد أبوهما يعيرهما من الاهتمام أكثر

مما يعيره لعامل الاصطبل أو الطبّاخ ، فقدَ شغلته أعماله التجارية طيلة الوقت ، ونشأ الطفلان بلا رادع يردعهما ، ولم تبذل زوجته القاسية أي مسعى لتفهم الطفلين وإدراك حاجاتهما النفسية ، فقد أخذت أشغال المنزل الكثير من وقتها ، فترعرع الأخ والأخت غريبين عن بعضهما ، متباينين في الأخلاق ، وكأنّما لم تجمع بينهما أية رابطة فشب فلاديمير كئيباً ، خاملاً ، ذا نظرة خبيثة ونزوع إلى الجد ليس من سمات عمره . وعاشت ليزا في مجمع الخادمة والطاهية ، وكانت الأخيرة امرأة ماجنة ذات تجارب كثيرة جداً ولهذا أطلعت ليزا على الجانب الخفي من الحياة ، وهي لما تزل صغيرة . وأثارت فيها المرأتان فضولاً سيئاً فشبّت ليزا وحشية ، كما تشب زهرة الحب الصافي في الغابة ، بالرغم من أنّها لم تزل مراهقة خجولاً نحيلة .

مضت السنون المتباطئات .

وصار الكبير أكبر . وأينع الصغير .

وذات مساء نظر سيرغي موخوف إلى ابنته على مائدة الشاي . فأصابته الدهشة . ها قد أصبحت ليزا فتاة هيفاء وسيمة ، وكانت قد أتمّت في التو دراستها الثانوية . نظر إليها ، وارتجف في يده الصحن المملوء شاياً بلون العنبر .«ما أشد شبهها بأمها الراحلة! يا إلهي ، صورة طبق الأصل!» «ليزا أديري رأسك جانباً» لم يكن قد لاحظ في أي يوم مضى ذلك الشبه المذهل بين ابنته وأمها .

كان فلاديمير موخوف يتمشّى في فناء الطاحونة ، وهو الآن صبي في الصف الخامس ، نحيف الصدر ، يعلوه اصفرار المرض . وكان هو وأخته قد عادا مؤخراً لقضاء عطلتهما الصيفية ، فذهب هو كعادته ليلقي نظرة على الطاحونة ، ويتدافع بين المتزاحمين الذين يعلوهم الطحين ، وليستمع إلى الإرعاد الرتيب للدواليب المسننة ، وإلى فحيح الأحزمة الدوارة . كان مما يشبع غروره أن يستمع الى همهمة الاحترام من الزبائن القوزاق :

ـ هو ذا وريث السيد .

وصل فلاديمير إلى البوابة متلمساً طريقة بحذر بين العربات وأكوام الروث . ثمّ تذكّر أنه لم يذهب الى غرفة الماكنة ، فقفل راجعاً .

وعلى مقربة من صهريج الزيت المطلي باللون الأحمر ، عند مدخل غرفة الماكنة ، كان عامل الطاحونة تيموفي ، وقباني يكنّى بـ «الولد» ومساعدهم دافيد ذو أسنان بيضاء يعجنون قرصاً كبيراً من الطين بأقدامهم العارية ، وقد طويت سراويلهم الى مافوق الركبة .

وحيّاة القباني هازئاً : «آه! ... السيد!» .

ـ مرحباً!

ـ مرحباً يافلاديمير سيرغيفتش!

ـ ما الذي تفعلان ؟

فقال دافيد بابتسامة خبيثة جاراً قدميه من الكتلة المتماسكة التي فاحت منها رائحة الروث :

ـ نحن نعجن الطين . إن أباك ضنين بالروبلات ، فهو لا يستأجر النساء ليقمن بهذ العمل . ويجبرنا على العمل ـ وأضاف وهو ينقل قدميه مبقبقاً : ـ إن أباك بخيل ، أجل فهذه حقيقته .

فاحمر وجه فلاديمير مغضباً . وشعر بكراهية عارمة لدافيد ذي الابتسامة المستديمة واللهجة الساخرة ، وكره حتى أسنانه البيض .

ـ ماذا تعني بـ«بخيل» ؟

فأوضح دافيد مبتسماً :

ـ إنّه حقير بصورة فظيعة ، مستعد لأن يأكل غائطه لو كان ذلك يدر عليه مالاً .

فضحك«الولد» وتيموفي مستحسنين . وأحس فلاديمير بكل ما في الإهانة من قساوة . فحملق في دافيد ببرود وقال :

ـ أنت إذن... غير راض ؟

فأجاب دافيد :

ـ تعال إلى هذا الطين ، واعجنه بنفسك وستعرف أي أحمق يمكن أن يرضى به ؟ إن عملاً كهذا قد يفيد أباك نوعاً ما ويخلصه من بعض شحمه .

ومضى دافيد متمايلاً يدوس بقوة قرص الطين وهو يرفع قدميه عالياً ، وقد علت وجهه الآن ابتسامة مرحة . أمّا فلاديمير فقد نقّب مسبقاً في ذهنه عن رد مناسب ، وهو يتحسس منذ الآن حلاوة الانتقام . فقال متباطئاً :

ـ طيب! سأخبر بابا بأنّك غير راضٍ عن عملك .

ونظر من زاويه عينه إلى وجه الرجل ، وأدهشه الأثر الذي سببه فيه . اذ انثنت شفتا دافيد بابتسامة مغتصبة ، وغامت وجوه الأخرين . وواصل الثلاثة عجنهم بصمت بعض الوقت ، ثمّ انتزع دافيد عينيه من قدميه الموحلتين وقال بلهجة حانقة متملقة :

ـ كنت أمزح لا غير يا فولوديا .

ـ سأخبر بابا بما قلت .

ثمّ مضى فلاديمير مبتعداً ، وقد اغرورقت عيناه بدموع الألم من أجل أبيه ومن أجله ، وبسبب ابتسامة دافيد البائسة .

فصاح دافيد فزعاً : «فولوديا! فلاديمير سيرغيفتش! » وخطا خارجاً من الطين ، تاركاً سرواله ينزل على ساقيه الموحلتين .

توقّف فلاديمير وركض دافيد نحوه مبهور النفس .

ـ لا تخبر أباك . سامحني ، فأنا أحمق . صدقني والله ، أنا لم أقل ذلك عن نيّة مبيتة ، عن قصد .

فأجاب فلاديمير مقطباً : «حسناً لن أخبره» ومضى نحو البوابة . وانتصرت الشفقة في قلبه من أجل دافيد . وراح يمشي إلى جانب السور الأبيض متنفساً الصعداء . وتناهى إلى سمعه قرع المطرقة المرح من الكورة في زاوية فناء الطاحونة ، تارةً ناعماً خفيفاً حين تضرب الحديد ، وتارة رناناً قويّاً ، حين تنزل في ضربة مزدوجة على السندان .

ثمّ تناهى إلى سمعه صوت«الولد » العميق :

ـ لمَ أردت أن تقول ذلك ؟ لاتثر الروث حتّى لاتفوح رائحته الكريهة .

فقال فلاديمير في نفسه ساخطاً : «الخنزير! إذن فهو يجرؤ على الكلام... هل سأخبر أبي أم لا ؟» .

ونظر خلفه فرأى دافيد قد ارتسمت على وجهه ابتسامته المستديمة فقر قرار فلاديمير : «لسوف أخبره!» .

كانت ثمّة عربة ربط حصانها الى عمود خارج الحانوت ، وأطفال يهشون سرباً رمادياً من العصافير الخفّاقة من على اطفائية حريق . وانبعث من الشرفة الصوت الجهير الطنّان للتلميذ بوياريشكين ، وصوت آخر مشروخ أجش .

ارتقى فلاديمير درجات العتبة إلى البيت . وكانت أوراق الكروم البرّية تتمايل فوقه ، مرصعة الدرجات والشرفة ، متدلية طرّات مزبدة خضراً من رفارف السطح المنحوتة ذات الطلاء الأزرق .

كان بوياريشكين يهز رأسه الحليق ويخاطب المعلّم بالاندا ، وهو شاب ملتح رغم صغر سنّة :

ـ حينما أقرأ كتاباته أشعر بالعطف الشديد إزاء ذلك القطاع المتلاشي من المجتمع على الرغم من حقيقة كوني ابناً لقوزاقي كادح ، أي كارهاً ، بالسليقة ، لكل الطبقات المميّزة ، وحسبك أن تتصوّر ذلك . وأكاد أصبح ، أنا نفسي نبيلاً ومالكاً للأرض ، وإذ أفكّر في امرأتهم النموذجية . أشعر باللهفة إليها ، حتّى أنني احتضن مصالحهم في طيّات قلبي ، اللعنة! أجل ياصديقي ، ذلك ما يستطيع عبقري أن يفعله . إنّه يستطيع حتّى أن يبدّل عقيدتك .

فعبث بالاندا بشرابة حزامه الحريري ، وتفحّص التطريز الأحمر في طرف قميصه ، وهو يبتسم متهكماً ، وتمددت ليزا إلى الوراء على الكرسي الهزّاز ، إذ كان واضحاً أن الحديث لم يكن يلاقي أي هوى في نفسها . وجعلت عيناها ، اللتان تبدوان وكأنهما تبحثان أبداً عن شيء ما قد ضيعتاه ،

تحملقان ساهمتين في رأس بوياريشكين الأزرق المصاب بجرح من الموس .

أدّى فلاديمير انحناءة التحية لهم ومضى الى غرفة أبيه الخاصة ودق على الباب . كان سيرغي بلاتونوفتش جالساً على مقعد جلدي بارد ، يقلّب صفحات عدد حزيران لمجلة « روسكويه بوكاتستفو » . وكانت ثمّة مقطاعة ورق عظميّة مصفرة ، ملقاة عند قدميه .

ـ حسناً ، ماذا تريد ؟

فرفع فلاديمير كتفيه قليلاً وقوّم طيّات قميصه في عصبية ، وطفق يتكلّم متردّداً : « بينما كنت عائداً من الطاحونة » ، ثمّ تذكّر ابتسامة دافيد المتلامعة الساخرة ، فاستطرد بعزم ، شاخصاً الى كرش أبيه المنتفخ داخل صدريته المصنوعة من الحرير الهندي : « سمعت دافيد عامل الطاحونة يقول... » .

وأصغى سيرغي بلاتونوفتش بانتباه الى قصة ابنه ، ثم قال : « سأطرده . يمكنك أن تذهب » . ثم انحنى متأوهاً ليلتقط مقطاعة الورق .

في الأماسي ، اعتاد مثقفو القرية أن يجتمعوا في بيت سيرغي بلاتونوفتش . كان هناك بوياريشكين ، التلميذ في مدرسة موسكو التكنيكية ، وبالاندا ، المعلّم القميء الذي أكله الغرور والسل ، وخليلته المعلمة مارفا غيراسيموفنا ، ذات الوجه المستدير والقميص الداخلي الظاهر للعيان على الدوام بلا حياء ، والتي لايبدو عليها الكبر قط ، وهناك مأمور البريد ، وهو أعزب ، غريب الأطوار يفوح منه عطر رخيص ورائحة شمع الأختام ، ومن حين لآخر ، كان يأتي إليهم الملازم الأول الشاب يفغيني ليستنتسكي الذي أمضى عطلته في ضيعة أبيه . فتجلس الجماعة مساء تشرب الشاي في الشرفة ، وتتبادل حديثاً لاهدف له ، وحينما تسود فترة صمت يقوم أحد الضيوف فيدير حاكي رب البيت الثمين المطعّم .

وفي مناسبات نادرة ، أثناء الأعياد الكبرى ، كان سيرغي بلاتونوفتش تحدوه الرغبة في أن يبهر أبصارالأخرين فيدعو الضيوف ليتحفهم بالأنبذة

الغالية ، والكافيار الطازج المستورد من مدينة باتايسك لتلك المناسبة ، وأفخر المقبلات . وفيما عدا ذلك ، كان يعيش عيشة اعتدال واقتصاد . إلا أن الشيء الوحيد الذي لم يقتر فيه كان شراء الكتب ، فقد أحب القراءة ، وأراد أن يسبر غور الأشياء بعقله الذي كان سريع الالتقاط ، مثل نبات متسلّق .

أمّا شريكه ، يمليان كونستانتينوفتش اتيوبين ، وهو رجل أشقر الشعر ذو لحيه مدببة وعينين غائرتين ، فإنّه لم يكن يزور موخوف إلا لماماً . إذ كان متزوجاً من راهبة سابقة ، أنجبت له ثمانية أطفال في خمس عشرة سنة من عمر زواجهما ، ويقضي أغلب الوقت في بيته . وكان قد بدأ عمله كاتباً في الجيش ، فتفشت روح التعلّق والتذلل التي جلبها من هناك في عائلته أيضاً . فكان أطفاله يمشون على رؤوس أصابعهم في حضوره ، ويتكلمون همساً ، وكانوا يصطفون ، كل صباح بعد الاغتسال ، تحت صندوق الساعة الكبيرة الأسود المعلّق في غرفة الطعام ، وتقف أمهم وراءهم ، وما أن تطرق أسماعهم السعلة الجافة المنبعثة من غرفة النوم حتى يسرعوا في أصوات متنافرة بتلاوة « أبانا الذي » وصلوات أخر .

آنذاك ، يكون يمليان كونستانتينوفتش قد انهى ارتداء ملابسه فيبرز من غرفة النوم لحظة انتهاء الصلوات . ويضيّق عينيه الخضراوين الضئيلتين ويمد يده اللحيمة ، كما لو كان أسقفاً ، بينما يتقدّم صوبه الأطفال في صف واحد لتقبيلها ، ثمّ يقبّل كونستانتينوفتش زوجته في خدها ، ويسألها لاثغاً :

ـ بوليا ، هل الشاي جاهز ؟

ـ أجل ، يايمليان كونستانتينوفتش .

ـ صبّي لي شيئاً من الشاي القوي .

كان يمليان محاسب الحانوت . وكان يملأ الصفحات تحت العنوانين البارزين« الدائن » و« المدين » ، بخط زخرفي . وكان يقرأ نشرة« أخبار البورصة » ، مزيناً أنفه الضخم بعوينات ذهبية الإطار معلقة عليه دون أن يكون في حاجة إليها . وكان يعامل مستخدميه بأدب :

- إيفان بتروفتش ، من فضلك أر الزبون قماش توريدا .

أمّا قسيسا القرية ، الأب فيساريون والأب الفضيل بانكراتي ، فإنهما لم يكونا على وفاق مع سيرغي بلاتونوفتش . إذ كان لهما خصام طويل الأمد معه . ولم يكونا على وفاق مع بعضهما أيضاً .

فكان الأب بانكراتي الشكس الدساس ماهراً في خلق المتاعب لجيرانه . أمّا الأب الأرمل فيساريون ، ذو الخنة السفلسية التي تنم عن طبيعته الماجنة ، والذي عاش مع مدبرة منزل أوكرانية ، فقد نأى بنفسه عن الأخرين ، ولم يكن يحب الأب بانكراتي لغروره المفرط وطبعه الدساس .

كان للجميع ، فيما عدا بالاندا ، دور يمتلكونها . ويقع بيت موخوف ، ذو الجدران المصنوعة من ألواح الخشب المعقودة والطلاء الأزرق ، في ساحة القرية ، ويقرفص إزاءه تماماً ، في وسط الساحة ، حانوته ذو الباب الزجاجي واللافتة الباهتة : «متجر موخوف واتيوبين»

وتمتد لصق الحانوت سقيفة طويلة منخفضة ذات قبو ، وعلى مبعدة مائة خطوة يرتفع الحائط الطابوقي لفناء الكنيسة ، ثمّ الكنيسة نفسها بقبّتها التي تشبه بصلة خضراء ناضجة . وتأتي بعد الكنيسة حيطان المدرسة ، بيضاء نظيفة ، وذات جهامة رسمية ، ثمّ منزلان أنيقان ، أحدهما أزرق اللون ، صبغت أسيجته بطلاء أزرق ، يعود للأب بانكراتي ، والآخر بني اللون (لتفادي أي تشابه مع المنزل الأول) وله سياج حفرت عليه نقوش ، وشرفة واسعة ، ويشغله الأب فيساريون . ويليه بيت اتيوبين الغريب المظهر والمؤلف من طابقين ، ثمّ دائرة البريد ، ودور القوزاق المغطّاة بالقش والمسقوفة بالحديد ، وأخيراً تأتي مؤخرة الطاحونة المنحدرة وعلى سطحها ديوك من الصفيح الصدىء .

ويعيش سكان القرية خلف نوافذهم بصفاقات خارجية وداخلية مغلقة بالمزالج ، منقطعين عن بقية العالم ، وفي كل مساء ، إن لم تكن ثمّة زيارة

لجار ، فإن كل عائلة تقفل صفاقاتها ، وتطلق كلابها من سلاسلها في الأقنية ، ولا يعكّر الصمت إلا صوت اللسان الخشبي لمطرقة الحارس الليلي .

٢

حدث ذات يوم ، في أواخر آب ، أن التقى ميتكا كورشونوف بليزا ابنة موخوف عند النهر . وكان قد جذف لتوه عبر النهر من الجانب الآخر ، وشرع يربط قاربه حينما رأى زورقاً ذا لون بهيج يكشط سطح التيار وهو يتجه صوب المرسى من ناحية الجبل . وكان الذي يجذفه هو التلميذ بوياريشكين ، وقد تلألأ رأسه الحليق بالعرق ، وبرزت عروق جبهته وصدغيه .

في البدء ، لم يتبين ميتكا ليزا في الزورق فقد كانت على رأسها قبعة من القش ، ووجهها في الظل ، وكانت يداها الملفوحتان تضمّان الى صدرها باقة من زنابق الماء الصفر .

صاحت ، هازة رأسها صوب ميتكا :

ـ كورشونوف! لقد خدعتني .

ـ خدعتك ؟

ـ ألا تذكر ، فقد وعدت أن تأخذني لصيد السمك ؟

ألقى بويار يشكين المجذافين ، وأقام ظهره . وغرز الزورق مقدمته في الشاطىء محدثاً خشخشة .

ـ ألا تذكر ؟ ـ وتضاحكت ليزا وقفزت الى الشاطىء ، فقال ميتكا معتذراً وتقاطعت أنفاسه فيما تقدّمت الفتاة منه :

ـ لم يكن لي متسع من الوقت ، لكثرة أشغالي .

فقاطعهما بوياريشكين :

ـ لا ، هذا مستحيل . لقد نلت كفايتي ، يا يليزافيتا سرغييفنا أمتنع عن

القيام بهذه الخدمة! تصوّري مدى المسافة التي قطعناها فوق هذا الماء اللعين! امتلأت يداي نفطات* . هاتي أرضاً يابسة .

وغرس بوياريشكين قدماً حافية طويلة على الشاطىء الحصباوي ، ومسح جبهته برفرف قبعته المدرسية المدعوكة . ومن غير أن تجيبه ليزا مضت نحو ميتكا الذي صافح بحركة خرقاء يدها التي مدّتها اليه .

وسألته وهي تلقي برأسها الى الوراء وتضيّق حدقتيها :

ـ حسناً ، إذن متى نذهب للصيد ؟

ـ غداً ، إن شئت . لقد أنهينا درس الحبوب ، وصار لدي متسع من الوقت .

ـ لعلّك لاتخدعني هذه المرّة ؟

ـ لا ، لا أخدعك .

ـ هل ستأتي مبكّراً ؟

ـ عند الفجر .

ـ سأكون بانتظارك .

ـ سآتيك ، بشرفي سآتيك .

ـ لعلّك لم تنس النافذة ؟

ـ سأجد طريقي اليها . ـ وابتسم ميتكا .

ـ أتوقع أنني سأرحل عما قريب . وبودّي أن أذهب الى الصيد قبل ذلك .

وعبث ميتكا وهو صامت بمفتاح قفل القارب الصدئ ، وحدّق مباشرة في شفتيها .

تساءل بوياريشكين وهو يتفحّص قوقعة في راحته : « هل ستنتهين عمّا قريب ؟ » .

---

* مفردها نفطة وهي بثور ملأى بالماء تظهر على اليد بسبب العمل اليدوي . المترجمون .

ـ لحظة واحدة .
ولبثت ساكنة بعضاً من الوقت ، ثمّ تساءلت وهي تبتسم لسبب ما .
ـ لقد احتفلتم بزفاف أحد أفراد عائلتكم ، أليس كذلك ؟
ـ أجل ، زفاف أختي .
ـ ممن تزوّجت ؟
ودون أن تنتظر إجابته ، تبسّمت من جديد في غموض وعجالة ، وقالت : «تعال ، بالله عليك ، لاتنس!»
ومرة أخرى ، لسعته ابتسامتها ، كالشوكة ، تماماً كما لسعته في شرفة منزل موخوف .
ظل يراقبها حتّى بلغت الزورق . فدفعه بوياريشكين الى الماء مباعداً قدميه ، بينما تبسّمت ليزا عبر رأسه الى ميتكا ، الذي كان لايزال يعبث بالمفتاح ، وهزّت رأسها مودّعة .
وحينما ابتعد الزورق ، سمع ميتكا بوياريشكين يسألها بصوت خفيض : «من هذا الفتى ؟» .
ـ أحد معارفي .
ـ ليس شأناً من شؤون القلب ؟
ولم تبلغ إجابتها أذني ميتكا خلال صرير حلقتي المجذاف . ورأى بوياريشكين يرتمي الى الخلف ضاحكاً وهو يجذف ، لكنّه لم يستطع أن يرى وجه ليزا ، إذ كانت جالسة مديرة ظهرها له . وكان شريط قبعتها البنفسجي يتطاير خفيفاً مع النسيم ويلاطف منحدر كتفها العاري برقة متناهية أثارت نظرة ميتكا الغائمة .
لم يحدث أن استعد ميتكا لمناسبة صيد بمثل حماسة ذلك المساء وهو الذي نادراً ماكان يخرج للصيد بالعصا والخيط . فأعد قطعاً من الجل ، وغلى الذرة على النار في مزرعة الخضار ، ثم جدد الخيوط المهترئة بسرعة .
سأله ميخي الذي كان يراقبه :

ـ خذني معك ، يا ميتكا . لن تقدر أن تدبّر الصيد لوحدك .
ـ سأدبره .
فتأوه ميخي :
ـ لقد مضى زمن طويل منذ أن خرجنا معاً آخر مرة . كم تحدوني الرغبة في التمتع بسحب شبّوط يزن نصف بود* .
فقطب ميتكا وهو ينحني فوق عمود البخار الحار المتصاعد من القدر ، ولم يجب بشيء . وحينما انتهى من ذلك مضى الى البيت . كان الجد غريشاكا جالساً الى جانب النافذة ، وعلى أنفه عوينات مستديرة ذات إطار نحاسي ، وهو يقرأ في الانجيل .
وقال ميتكا متكئاً بظهره على اطار الباب : «جدّي!» .
فنظر اليه الشيخ من فوق عويناته :
ـ ها ؟
ـ أيقظني مع صياح الديك الأول .
ـ أين تقصد في هذا الوقت المبكّر ؟
ـ لصيد السمك .
كان الشيخ محبّاً للسمك ، لكنّه تظاهر بمعارضة مشروع ميتكا .
ـ قال أبوك يجب أن يُضرب القنب في الغد . وليس هناك مجال للتسكّع ولصيد السمك!
فتحرّك ميتكا عن الباب ولجأ الى المناورة .
ـ يستوي الأمر عندي . لقد أردت أن أقدّم لك وجبة فاخرة ، ولكن طالما كان علينا أن نضرب القنّب ، فلن أذهب .
فجفل الشيخ ونزع عويناته :
ـ قف . أين تراك ذاهباً ؟ سوف أكلّم والدك بالأمر . تستطيع أن

---

* بود مقياس وزن روسي قديم يساوي ١٦,٨كغ . الناشر .

تذهب . غداً الأربعاء ، وستكون قطعة من السمك المملح مناسبة . طيب ، سأوقظك . امض ، أيها الأحمق ، ماالذي يجعلك تبتسم ؟

وعند منتصف الليل ، هبط الشيخ ممسكاً بسرواله الكتّاني بيد وعصاه بالأخرى درجات المدخل متلمساً الطريق . وسرى مثل شبح مرتعش ، عبر الحوش صوب مخزن الحبوب ، فدلف إليه وراح يغرز عكازته في جسم ميتكا النائم . كانت رائحة الحبوب المدروسة حديثاً وذرق الفئران تختلط بالهواء العفن المفعم بنسيج العنكبوت لغرفة متروكة .

كان ميتكا نائماً على بساط بجانب مستودع القمح ، فلكزه غريشاكا بعصاه ، دون أن يستطيع إيقاظه لفترة من الوقت . شرع في البدء يلكزه برفق ، هامساً«ميتكا . ميتكا . هي ، ميتكا! هي يا سافل!» .

لكن ميتكا لم يزد على أن شخر وعقف ساقيه الى الأعلى . فأمسى غريشاكا أقل تحفظاً ، وراح يغرز العصا في بطن ميتكا . فأمسك ميتكا بطرف العصا وهو يتأوه واستيقظ فجأة .

استاء الشيخ : « ياله من نوم! نوم الحجر حقاً!» .

فتمتم ميتكا وسنان وهو يتلمّس جزمته : «هدوءاً ، يا جدّي . لا تطنطن!» .

اتخذ الفتى طريقه الى ساحة القرية . كانت الديوك قد شرعت بصياحها للمرّة الثانية . وبينما كان يمر بمنزل الأب فيساريون سمع ديكاً يخفق بجناحيه في خم الدجاج ، ويطلق صيحة قوية جديرة برئيس شمامسة الكنيسة ، بينما قوقأت الدجاجات مذعورات .

كان هناك حارس ليلي نائم على درجات عتبة الحانوت ، وأنفه مدسوس في دفء ياقته المصنوعة من جلد الغنم .

وصل ميتكا الى سور بيت موخوف ، فوضع عدة الصيد والسلة على الأرض ، وصعد درجات الشرفة على أطراف أصابعه كي لا يوقظ الكلاب . وراح يعالج سقاطة الباب الحديدية . كان الباب محكم الإغلاق . فتسلق

سياج الشرفة ومضى الى النافذة . كانت نصف مغلقة . ومن خلل الفرجة السوداء انبعثت رائحة عذبة لجسد فتاة نائم دافئ ، وفاح عطر ذكي غريب .

ـ يليزافيتا سيرغيفنا!

وخيّل لميتكا أن نداءه كان عالياً جداً . فانتظر . صمت سادر . فكّر ميتكا في نفسه وهو يمسك بإطار النافذة : «ماذا لو انني قد أخطأت النافذة ؟ ماذا لو أن موخوف نائم هنا ؟ ياللورطة! سيقتلني ببندقيته!» .

ـ يليزافيتا سيرغيفنا ، أتأتين للصيد ؟

وفكّر في نفسه من جديد : «اذا أخطأت النافذة حصلت على جزائي!» .

وقال متضايقاً :

ـ أتراك تنهضين ؟

ودس رأسه خلال فتحة النافذة .

فرن صوت خفيض مذعور في الظلام : «من هناك ؟» .

ـ هذا أنا ، كورشونوف . أتأتين للصيد ؟

ـ آه! لحظة فقط!

كانت هناك حركة في الداخل . بدا صوتها النعسان الدافىء كأنّه يفوح برائحة النعناع . ورأى ميتكا أن شيئا أبيض ذا حفيف يتحرّك في أرجاء الغرفة .

وقال لنفسه ورائحة غرفة النوم في منخريه : «انني أفضّل أن أنام معها على الخروج الى الصيد والجلوس في البرد» .

وبعد فترة ، ظهر وجهها الباسم عند النافذة مؤطراً بعصابة رأس بيضاء .

ـ سأخرج من هنا . اعطني يدك .

وبينما كان يساعدها على النزول ، نظرت في عينيه عن كثب .

ـ لم أتأخر عليك ، أليس كذلك ؟

ـ لا ضير ، فسنصل في الوقت المناسب .

وراحا ينزلان حدر الدون . دعكت عينيها المتورمتين من أثر النعاس بيد وردية .

ـ كنت نائمة نوماً بديعاً . وكان في مقدوري أن أظل نائمة . الوقت مبكّر للذهاب .

ـ سنصل في الوقت المناسب بالضبط .

ومضيا في أول زقاق يتفرع من الساحة متجهاً صوب النهر . وكان ماء النهرقد ارتفع خلال الليل فرفع القارب من موضعه العالي اليابس حيث ترك في المساء السابق ، وصار الآن يتمايل في الماء على مبعدة قليلة من الشاطىء .

فقالت متنهدة وهي تقيس المسافة الى القارب بعينيها :

ـ سيتعيّن عليّ أن أخلع حذائي .

فاقترح عليها ميتكا :

ـ دعيني أحملك .

ـ لا ، أفضّل أن أخلع حذائي .

ـ حملك أسهل .

فأجابت ، وكان ثمّة حرج في صوتها :

ـ أفضّل الا تفعل ذلك .

فاحتضن ميتكا ساقيها فيما فوق الركبتين ، بذراعه اليسرى ، ورفعها في يسر وخوّض في الماء . فتشبّثت ، بحركة لاإرادية ، بعمود رقبته الراسخ الأسمر ، وتضاحكت بنعومة عذبة .

لو لم يتعثّر ميتكا بحجركانت نساء القرية يستعملنه عند غسل الملابس ، لما كان هناك مجال لقبلة وجيزة عابرة . فأصدرت آهة وضغطت وجهها على شفتي ميتكا الصلبتين المتشققتين ، فتوقّف قبل القارب بخطوتين . وراح الماء يدوم فوق رقبتي جزمته مشيعاً البرودة في قدميه .

حل القارب ، ودفعة بقوّة عن الشاطئ ، ثمّ قفز اليه . وصار يجذف وهو واقف . وجعل الماء يحف تحت المؤخرة وينوح . ومضى القارب يناحر التيار

برقة ، ميمماً صوب الضفة المقابلة . وتقافزت عصي الصيد وطقطقت في قعر القارب .

وتساءلت وهي تلقي نظرة سريعة الى الخلف :

ـ أين تراك تأخذني ؟

ـ الى الجانب الآخر .

احتك بريم القارب بالشاطىء الرملي . وبلا استئذان ، التقط ميتكا الفتاة بذراعيه ، وحملها الى دغل من نبات الزعرور البرّي فجعلت تعض وجهه ، وتخمشه ، ثمّ ندّت عنها صرخة مكتومة أو صرختان ، ولمّا شعرت بقواها تخور ، بكت مغضبة ، ولكن بلا دموع...

عادا حوالي التاسعة . كانت السماءملفعة بغشاوة مخضبة صفراء ، وثمة نسيم قوي يتراقص فوق النهر ، معابثاً الأمواج . ومضى القارب يتراقص على الأمواج ، والرذاذ المزبد البارد يتلألأ على وجه ليزا الشاحب ويعلق بأهدابها وخصلات شعرها .

خاوصت عينيها الخابيتين بإعياء ، وهي تدعك بأصابعها وردة كانت قد سقطت في القارب . وكان ميتكا يجذف دون أن ينظر اليها . وعند قدميه استلقى شبّوط صغير وشلبة تفتّح فمها الجامد وتبحلق بعينين ارجوانيتين . ارتسم على وجه ميتكا تعبير اختلط فيه الاثم بالرضا والقلق .

قال لها وهو يدير القارب مع التيار :

ـ سآخذك الى مرسى سيمونوف . سيكون ذلك أقرب لك .

فهمست :

ـ لابأس .

وعلى امتداد الشاطئ المهجور ، كانت الاسيجة الصفصافية تتأوه مع الريح الحارة ، مضمّخة الهواء برائحة الدغل المحروق ، وتيجان عبّاد الشمس

الناضجة الثقيلة التي نقرتها العصافير ، قد تقوّست سيقانها كثيراً وصارت تنثر بذوراً وبرية على الأرض . وبدت أرض المروج زمرّدية بالحشيش الجديد النابت في أعقاب الحصاد . ومن بعيد كانت مهار الخيل تتواثب مرحة والريح الجنوبية الحارة تحمل صدى ضحك الأجراس المعقودة حول رقابها .

وبينما كانت ليزا تترك القارب ، التقط ميتكا سمكة ومدّها اليها قائلاً : « هاك ، خذي الصيد » .

فرقّت أهدابها في ذعر ، لكنّها أخذت السمكة .

ـ حسناً ، انني ذاهبة .

ـ طيّب .

وامسكت بغصن اسفندان علق ميتكا عليه السمكة من خياشيمها وتولّت عنه مبتئسة . لقد خلفت وراءها عند دغل الزعرور البرّي كل اعتدادها ومرحها السابقين .

ـ ليزا!

واستدارت ، وقطبت حاجبيها في ضيق واستغراب .

ـ ارجعي ، لحظة .

وحين اقتربت ، قال وقد ضاق ذرعاً بارتباكه :

ـ كنّا مهملين قليلاً . ثوبك من الخلف... عليه بقعة . صغيرة جداً .

وغمر وجهها ورقبتها احمرار حار . وبعد لحظة صمت ، نصحها ميتكا :

ـ عودي من الطريق الخلفية .

فقالت همساً وهي تنظر الى ميتكا في ندم وكراهية مفاجئة :

ـ سيتعيّن عليَ أن أعبر الساحة ، على أية حال... كم وددت أن أرتدي تنورتي السوداء .

فاقترح ميتكا ببساطة وقد دهش لمرأى الدموع تشرق في عينيها :

ـ دعيني أخضرها قليلاً بورقة شجرة .

... كحفيف نسمة صيفية هامسة ، طار النبأ في القرية : «قضى ميتكا كورشونوف ليلة بكاملها في الخارج مع ابنة سيرغي بلاتونوفتش» . تحدّثت عنه النساء وهن يسقن ماشيتهن للالتحاق بقطيع القرية في الصباح ، أو هنّ واقفات في الظل اليسير لرافعة البئر والغبار يدوم حولهن والماء يقطر من دلائهن ، أو هنّ يضربن غسيلهن على الصخور المستوية بجانب النهر .

ـ السبب هو أن أمها متوفّاة .

ـ وليس لأبيها لحظة فراغ ، أمّا زوجة أبيها فلا تبالي .

ـ يقول الحارس أنّه رأى رجلاً ينقر على الشبّاك الاخير في منتصف الليل . ظن بادئ الأمر أن شخصاً ما يحاول الانسلال الى البيت . وهرع ليتبين من هو ، وليناديَ الشرطي ، فوجد أنّه ميتكا .

ـ بنات هذه الأيام ، لاأدري الى أي مصير يسرن . ليأخذهن الشيطان!

ـ قال ميتكا لابني نيكيتا انه سيتزوجها .

ـ خير له أن يمسح مخاطه أولاً .

ـ يقولون أنّه أكرهها على ذلك .

ـ يا...

وانسابت الشائعات في شوارع القرية ، ملطخة اسم الفتاة كما يلطّخ قطران كثيف بوابة نظيفة...

ونزلت الشائعات على رأس موخوف الاشيب نفسه وسحقته على الأرض . ظل يومين لايذهب الى الحانوت أو الى الطاحونة .

ولم يصعد الى خدمه ، الذين يعيشون في الطابق الأسفل ، الاّ وقت الطعام . وفي اليوم الثالث ، أمر سيرغي بلاتونوفتش أن يشد جواده الرمادي الأرقط الى عربته الخفيفة ، ومضى بها الى القصبة ، وهو ينحني ، ساهماً ، للقوزاق الذين صادفوه في الطريق . ومضت وراءه عربة حديثة الدهان مرقت خارجة من الفناء يجرها حصانان ادهمان متوثّبان ، وهزّ يميليان ، الحوذي ، حرير الأعنّة الأزرق ، وهو يمصمص غليونه ، الذي أصبح ملازماً على الدوام

للحيته الشائبة ، وانطلق الحصانان الأدهمان يتواثبان في الشارع . وكان بالإمكان أن يرى المرء ليزا تجلس ، شاحبة الوجه ، أمام ظهر يميليان الجلمودي ، وحقيبة خفيفة بين يديها ، وابتسامة حزينة على فمها ، لوّحت بقفازها لفلاديمير وزوجة أبيها الواقفين عند البوابة . وصادف أن كان بانتلاي بروكوفتش يعرج خارجاً من الحانوت في تلك اللحظة ، فتوقّف وسأل البوّاب نيكيتا : «أين تذهب ابنة السيد ؟» فأجاب نيكيتا ، وهو يرضخ لإرادة الضعف الإنساني الساذج : «الى موسكو ، للدراسة» .

وفي اليوم التالي ، وقع حادث ظل زمناً طويلاً مدار الحديث عند النهر وتحت ظل رافعة البئر ، وحين تساق الماشية للرعي......

فقبيل حلول الليل (وكان قطيع القرية قد عاد من السهب توّاً) ذهب ميتكا لرؤية سيرغي بلاتونوفتش . وقد انتظر حتّى المساء لكي يتجنّب ملاقاة أي إنسان ، لأنّه لم يأت لمجرّد زيارة ، بل ليطلب يد ابنة موخوف ، ليزا .

لقد التقى بها أربع مرّات ، لاأكثر . وفي اللقاء الأخير جرى الحديث بينهما على هذه الصورة :

ـ ليزا هل تتزوجيني ؟

ـ هراء ؟

ـ سأرعاك ، سأحبّك . لدينا أناس يعملون بدلاً عنّا ، وستجلسين الى الشبّاك وتقرأين كتبك .

ـ أنت أحمق!

فاستاء ميتكا ولم يزد . وعاد الى البيت مبكّراً ذلك المساء ، وفي الصباح اذهل أباه قائلاً :

ـ أبي ، أعد العدّة لزواجي .

ـ لاتكن أحمق .

ـ صدّقني ياأبي ، لست مازحاً .

ـ مستعجل ، أليس كذلك ؟

ـ حان الوقت .

ـ بمن ابتليت... بمارفا المجنونة ؟

ـ ابعث بالخاطبين الى سيرغي بلاتونوفتش .

فوضع ميرون غريغوريتش بهدوء أدوات السكافة التي كان يصلح بها عناناً ، وزأر بالضحك .

ـ إنّك ذو مزاج مرح اليوم ، ياولدي .

لكن ميتكا أصر على رأيه ، فانفجر أبوه غاضباً :

ـ أيها الأحمق! إن لدى سيرغي بلاتونوفتش رأس مال يبلغ أكثر من مائة ألف روبل . إنّه تاجر ، فمن أنت ؟ اغرب عن وجهي ، والا جلدتك بهذا العنان .

ـ ونحن أيضاً لدينا أربعة عشر زوجاً من الثيران ، ولنا أرض انظر ما أكبرها . ثم أنّه ليس من أصل رفيع بينما نحن قوزاق .

فقال ميرون غريغوريتش باقتضاب ، اذ لم يكن يميل الى النقاش الطويل : «اغرب عن وجهي!» .

لم يجد ميتكا له مستمعاً متعاطفاً معه غير جده . واتجه العجوز الى ولده وهو يعرج وينقر بعصاه الارض .

ـ ها ؟

ـ لم تعارض ؟ مادام الولد مصرّاً على مانوى عليه...

ـ ياأبي ، أنت طفل كبير ، وحق الله أنّك كذلك . إن ميتكا غبي بما فيه الكفاية ، أمّا أنت ف...

ـ امسك لسانك! ـ وضرب العجوز الأرض بعصاه . ـ ألسنا أنداداً لهم ؟ ينبغي أن يعتبر زواج ابن قوزاقي من ابنته شرفاً له . إنّه سيرضخ ، وعن طيب خاطر أيضاً . فنحن معروفون في كل أنحاء الريف . لسنا فقراء بل نملك ثروة . اذهب واطلب يد ابنته ياميرون . ماالذي يمنعك ؟ وليعطنا طاحونته صداقاً . اطلب منه .

فزنخر ميرون غريغوريتش وخرج الى الفناء . وهكذا انتظر ميتكا حتّى حلول المساء ، ثمّ ذهب الى موخوف نفسه . كان يعلم بأن عناد أبيه مثل شجرة دردار راسخة الجذور قد تستطيع أن تحنيها ، ولكنّك لن تقدر أن تكسرها أبداً . فلا جدوى من المحاولة .

مضى يصفر الى أن وصل باب بيت موخوف الامامي ، ثم صار يتهيّب . تلكّأ قليلاً ، وأخيراً مضى عبر الفناء الى الباب الجانبي . وعلى درجات العتبة ، سأل خادمة تخشخش بمئزرها المنشّى : «هل السيد في البيت ؟» فأجابت : «يشرب الشاي . انتظر» .

وجلس ميتكا وراح ينتظر . أشعل سيكارة ، دخّنها ، وأطفأها بأصابعه المبللة باللعاب ، ثم سحق عقبها على الأرض .

خرج موخوف وهو يزيل فتات البسكويت من على صدريته . وحين رأى ميتكا ، تجهّم وجهه ، ولكنّه قال له : «ادخل» .

فدخل ميتكا الى غرفة موخوف الخاصة الباردة ، التي تنبعث منها رائحة التبغ والكتب ، وهو يشعر بأن الشجاعة التي أبداها حتّى ذلك الحين لم تكن إلا بالقدر الذي يتلاشى عند باب المكتب . مضى التاجر الى منضدته ، واستدار على عقبهِ بصرير : «حسناً ؟» . كانت أصابعه تخربش سطح المنضدة وراء ظهره .

ـ لقد جئت لأعرف... ـ وغاص ميتكا على الدبق البارد في عيني موخوف النفاذتين ، فاقشعر بدنه : ـ ربّما ستعطيني ليزا ؟

وتحالف اليأس ، والغضب ، والخوف ليملأ وجه ميتكا بحبّات العرق الصغيرة كالندى أيام الجدب .

ارتعش حاجب موخوف الأيسر ، وانثنت شفته العليا عن اللثة . واشرأب بعنقه وأمال جسمه برمّته الى الأمام .

ـ ماذا ؟ ماذ... .ذ... .ذا ؟ أيها الوغد! اخرج! سأجرّك الى الاتمان! ياابن العاهرة! ياوغد!

وبعث صياح موخوف الشجاعة في ميتكا ، فجعل يراقب الدم الرمادي المزرق يفيض من وجنتي موخوف .

ـ لا تعتبر ذلك إهانة . أنا لم أرد سوى أن أعوّض عمّا فعلت .

فرفع موخوف الى أعلى عينيه المنتفختين بالدمع والدم ، وألقى منفضة سكائر معدنية عند قدمي ميتكا ، قفزت من على الأرض وارتطمت بركبته . لكنّه تحمّل الألم برباطة جاش ، وفتح الباب بقوة ، وصاح مكشّراً عن أسنانه بغيظ وألم :

ـ كما تشاء ياسيرغي بلاتونوفتش ، كما تشاء ، لكنني عنيت ماقلت... لعمري من ذا يريدها الآن ؟ ظننت أنني سأستر عارها . أمّا الآن... . فحتّى الكلب لن يمس عظمة مقضومة .

انطلق موخوف في أعقاب ميتكا وهو يضغط منديلاً مدعوكاً على شفتيه ، وسد عليه الطريق الى الباب الرئيسي فجرى ميتكا صوب الفناء . وهنا لم يكن من السيد سوى أن غمز للحوذي يميليان ، وبينما كان ميتكا يعالج مزلاج البوابة الضخم ، انطلقت أربعة كلاب مطلقة الاسار تنبح من وراء زاوية مخزن الحبوب . وحينما وقع نظرها على الغريب ، اسرعت نحوه رأساً متوثّبة عبر الفناء المكنوس .

في عام ١٩١٠ ، عاد سيرغي بلاتونوفتش بزوج من الجراء السود ذات الشعر المجعّد ، من المعرض في نيجني نوفغورود . وخلال عام من الزمن شبّ هذان الجروان الاسودان الأجعدان ذوا الفم الكبير ، كما تشبّ العجول الحولية . كانا في البدء ، يتخاطفان تنورات النساء اللواتي يمررن بفناء موخوف ، ثم تعلّما جر النساء الى الأرض وعض سيقانهن ، ولم يأمر سيرغي بلاتونوفتش بتقييدهما بالسلاسل الا بعد أن قتلا عجل الأب بانكراتي وزوجاً من خنازير اتيوبين . أمّا الآن فلم يطلق الكلبين من قيودهما إلا أثناء الليل ، ومرّة كل ربيع للتناسل .

قبل أن يستطيع الالتفات كان أول الكلاب قد قفز الى كتفيه ، واسنانه

مغروسة في سترته . وتناهشته الكلاب السود المهتاجة وراحت تمزّقه ، فجعل ميتكا يصدّها عنه بضراوة محاولاً الحفاظ على توازنه . ورأى يميليان يختفي داخل المطبخ ، وغليونه ينثر الشرر ، وسمع الباب ينصفق وراءه .

وعند الدرجات ، وقف سيرغي بلاتونوفتش ، وظهر مسند على انبوب تصريف الماء ، وقد تقلّصت قبضتاه البيضاوان المشعرتان . أمّا ميتكا فقد ظل يتمايل ويترنّح حتّى استطاع أن يفتح البوابة ، جاراً خلفه ثلة الكلاب المزمجرة لاهبة الأنفاس وهي تتدافع على ساقيه النازفتين . فأمسك أحدها من بلعومه وخنقه . واستطاع قوزاق عابرون أن يطردوا البقية بشق الأنفس .

٣

انسجمت ناتاليا مع أهل زوجها خير انسجام . فقد ربّى أبوها أبناءه على العمل ، بالرغم من أنّه كان موسراً ويستخدم عمّالاً . وسرعان ماكسبت ناتاليا المجتهدة قلب والدي زوجها ، ومالت اليها الينيشنا منذ البداية ، وهي التي كانت في دخيلتها لا تحب كنّتها الكبرى ، داريا الشغوفة بالملابس .

وقد تدمدم على ناتاليا برقة ، وهي تشاغل نفسها في المطبخ واقفة على ساقيها الضخمتين : «نامي ، نامي أيتها الصغيرة! فيم تخرجين في هذا الوقت المبكّر ؟ عودي الى الى الفراش ، وسندبّر الأمور بدونك» .

وتعود ناتاليا ، التي استيقظت منذ الفجر لتعين الآخرين في المطبخ ، فتمضي الى حجرتها لتستأنف نومها .

حتّى بانتلاي بروكوفتش ، الصارم عادة فيما يتعلّق بشؤون المنزل ، كان يقول لزوجته : «اسمعي ، ياامرأة ، لا توقظي ناتاليا . فهي بدون ذلك تكدح بما فيه الكفاية وستذهب اليوم مع غريشا للحراثة . ولكن استعجلي داريا تلك . فهي امرأة كسول وسيئة ، تطلي وجهها وتزجج حاجبيها ، العاهرة» .

ـ لنجعل أعباءها خفيفة خلال العام الأول ـ وتنهدت ايلينشنا متذكرة حياتها التي قصمت ظهرها بالعمل المرهق .

بدأ غريغوري يألف وضع الزواج الجديد ، لكن ما أن مضى اسبوعان أو ثلاثة حتّى أدرك ، بخوف وحقد ، أنه لم يبرأ تماماً من حب اكسينيا . كان ثمّة شيء قد تخلّف في قلبه ، كالشوكة ، وما كان للألم أن يزول بسرعة ، والشعور ، الذي أزاحه في فورة الزواج بتلويحة لامبالية من يده ، كان شعوراً عميق الجذور . لقد ظنّ أنّه قادر على نسيانه ، لكنّه أبى أن يغيّبه النسيان ، وظل الجرح ينزف دماً . وحتّى قبل الزفاف ، سأله بيوتر وهما يدرسان الحبوب سويّة :

ـ ولكن ، ياغريشا ، ماذا عن اكسينيا ؟

ـ حسناً ، ماذا عنها ؟

ـ ألن تأسف لهجرها ؟

فأجاب غريغوري ضاحكاً : «سيلتقطها رجل آخر» .

فقال بيوتر وهو يقضم ذؤابة شاربه التي كان يلوكها : «طيب ، أنت أحسن العارفين» وأضاف : «قد تندم بعد زواجك» .

فأجاب غريغوري مازحاً : «يشيخ الغرام وتبرد الأجسام» .

لكن الأمور لم تجر على هذا النهج . فبينما كان يلاطف في الليالي زوجته كما يجب على زوج ، محاولاً أن يلهبها بحيويته الفتية هو ، لم يكن يلقى الا بروداً واستسلاماً مرتبكاً من جانبها . كانت ناتاليا تنفر من الملذات الجسدية ، فقد ورثت بعضاً من دم أمّها البارد البطيء ، وكان غريغوري يتنهّد كلّما يتذكّر شبق اكسينيا اللهّاب .

ـ لابد أن اباك ياناتاليا أحبل بك أمّك على الثلج . إنّ في جسمك من البرودة ما يكفي ويزيد .

واذا التقى باكسينيا ، تبسمت له بغموض وادلهمّ بؤبؤ عينها ، وعلقت كلماتها به كما يعلق الطين في قاع جدول .

ـ مرحباً ، غريشا! كيف هو الحب مع زوجتك الشابة ؟

فيجيبها غريغوري متملصاً : «لابأس» ، ويهرب من نظرتها المغازلة بأسرع مايستطيع .

صار واضحاً أن ستيبان قد سوّى خلافه مع زوجته ، فقد قلّ تردده على الحانة ، واقترح ذات مساء ، وهو يذري الحبوب على ساحة الدرس ، وذلك لأوّل مرّة منذ بدأت المشاكل : «لنغن أغنية ، يا اكسينيا!» فجلسا ، وظهراهما الى كومة من القمح المدروس المغبّر ، وبدأ ستيبان نشيداً عسكرياً ، واشتركت معه اكسينيا بملء صوتها الخفيض . غنيا معاً بصورة حسنة ، كما كانا يفعلان في السنين الأولى لحياتهما الزوجية ، حينما اعتادا أن يرجعا من الحقول ، تحت الذؤابة القرمزيّة لوهج الغروب ، فيجلس ستيبان على الحمولة يغنّي أغنية قديمة ، طويلة حزينة كذلك الطريق الموحش المهجور عبر السهب . فتلتقط اكسينيا اللحن ، ورأسها مستكين على الثنيات المنتفخة في صدر زوجها . وتمضي الخيل تجر العربة الصارة ، ويتراقص العريش صاعداً هابطاً . ومن بعيد يصغي شيوخ القرية الى الأغنية .

ـ إن لها صوتاً بديعاً ، زوجة ستيبان تلك .

ـ أي نعم ، غناء جميل .

ـ أي صوت هو صوت ستيبان ، صافٍ كالجرس .

وبينما كان الشيوخ يجلسون على المصطبات بالقرب من بيوتهم مراقبين الغروب القرمزي المغبر ، مضوا يتبادلون عبر الشارع تعليقاتهم حول الأغنية ، وأصلها وأولئك الذين أحبّوها من قبل .

سمع غريغوري الزوجين استاخوف يغنيان ، وبينما كان يدرس الحبوب (وساحتا درس الحبوب متلاصقتان) استطاع أن يرى اكسينيا معتدّة بنفسها كما كانت في السابق ، متظاهرة بالسعادة ، أو هكذا بدت الحال له .

لم يكن ستيبان يتبادل التحية مع آل ميليخوف . فظل يعمل في ساحة

الدرس مؤرجحاً كتفيه الجسيمين المتهدلين ، ملقياً لزوجته أحياناً تعليقاً هزليّاً ، فتستجيب له مبتسمة وعيناها السوداوان تومضان . وما فتئت تنورتها الخضراء تحوم أمام عيني غريغوري المغمضتين ، ورقبته تنثني بفعل قوة غريبة تدير رأسه في اتجاه فناء ستيبان . ولم يلاحظ أن ناتاليا ، التي كانت آنذاك تساعد بانتلاي بروكوفتش في نشر الحزم تمهيداً لدرسها ، كانت تقتنص كل رمقة نظر لاإرادية بنظرتها المتشوقة الغيور ، ولم ير بيوتر ، الذي كان يقود الخيل في ساحة الدرس وقد تجعّد وجهه بابتسامة صغيرة فيما كان يراقب أخاه .

وتأوهت الأرض تحت الثقل المرهق للدرّاسات الحجرية ، وحاول غريغوري ، أثناء هذا الضجيج أن يتلمّس ، في عقله نتف الأفكار التي انزلقت ، زائغة ، من مجال وعيه ، لكنّه لم يفلح .

من ساحات الدرس القريبة أو البعيدة انبعثت جلبة الدرس : صيحات سائقي الخيل ، صفير السياط ، وخشخشة الغرابيل ، واستلقت القرية تتشمّس في دفء أيلول المعتدل ، وقد أسمنها الحصاد ، وارتخت على امتداد الدون ، مثل ثعبان ملقى عبر الطريق . وفي كل فناء ، بسياجه المصنوع من أغصان الاسفندان ، وتحت كل سقف قوزاقي دارت حياة ، حافلة بالحلاوة والمرارة تدوم وتدوم منفردة ومنعزلة عن الآخرين . غريشاكا العجوز أصابه برد وكان يعاني من أسنانه ، وموخوف ينشب أظفاره في لحيته ، وقد سحقه عاره ، يبكي في وحدته ويصرف بأسنانه ، وستيبان يهدهد في قلبه حقده على غريغوري ويمزّق في نومه لحافه بأصابعه الحديدية ، وتجري ناتاليا الى السقيفة ، وترمي نفسها على كومة جل البقر تهتز وتتكوّر ، وهي تبكي سعادتها المدنّسة ، وكريستونيا الذي كان قد باع عجلاً في المعرض ، وصرف ثمنه على الشراب يعذّبه ضميره ، وغريغوري يتأوّه تحت عبء توجّس وألم متجدّد ، واكسينيا تغرق كراهيتها الأبدية لزوجها في دموعها كلّما لاطفته .

وكـان دافيـد قـد فـصل من الطاحـونة وصـار يجلس ، ليلة تلو ليلة ، مع«الولد » في مأوى سـائقي العـربات ، فـيـمـا كـان«الولد » يعلن ، وعـيناه الغاضبتان تومضان بالشرر :

ـ حسبك أن تنتظر! ستقطع رقابهم عمّا قريب . إن ثورة واحدة لم تكن كافية . انتظر حتّى تكون لنا ١٩٠٥ أخرى ، وآنئذ سنسوّي الحسـاب! ـ ويهز أصبعه الاندب متوعداً ، وبهزّة من كتفيه يصلح من وضع سترته الملقاة عليهما .

وتمر الأيام سراعاً على القرية ، والليالي ، وتنسـاب الاسابيع ، وتزحف الشهور ، وتولول الريح فوق التل منذرة بأنواء سيئة قادمة ، وينساب الدون ، الى البحر من غير ماا كتراث وقد صقلته زرقة الخريف المخضوضرة الرائقة .

٤

ذات أحد في أواخر تشرين الاول ، ركب فيدوت بودوفوسكوف عربته الى القصبة .

وأخذ معه ثماني من البط السمين وباعها في السوق ، فابتاع لزوجته شيئاً من القمـاش القطني المطبوع ، واذ همّ بالعودة (وكان يشـد مقود الرقبة وقد وضع قدماً على العجلة) تقدّم اليه غريب يبدو عليه أنّه ليس من تلك الديار .

حيّا فـيدوت واضـعاً يداً ملفوحة على حـافة قـبعتـه السوداء قـائلاً : « مرحباً » .

فقـال فـيـدوت : « مـرحـبـاً » وتمـهّـل مسـتـفـهـمـاً وهو يضيّق عينيه الكالميكيتين .

ـ من أين أنت ؟

ـ من قرية من القرى .

ـ وأي قرية تراها قريتك ؟

ـ تاتارسكي .

أخرج الغريب علبة سكائر فضّية من جيبه (وعلى غطائها نقش زورق) وقدّم سيكارة لفيدوت واستطرد يلقي أسئلته :

ـ وهل قريتك كبيرة ؟

ـ لا ، شكراً ، دخّنت واحدة تواً . قريتنا كبيرة جداً ثلاثمائة عائلة ، أو حوالي ذلك .

ـ وهل توجد فيها كنيسة ؟

ـ بلا ريب .

ـ وهل ثمّة حدّادون فيها ؟

ـ نعم ، يوجد محل حدادة .

ـ وهل هناك ورشة في الطاحونة ؟

شد فيدوت العنان الى لجام الحصان ، ونظر بريبة الى قبعة الرجل السوداء والى تجاعيد وجهه الأبيض العريض تحف به لحية سوداء قصيرة .

ـ ماذا تريد أن تعرف ؟

ـ أنا قادم للعيش في قريتكم . كنت للتو عند أتمان المنطقة . أعائد أنت لقريتك فارغ العربة ؟

ـ أي .

ـ هل تأخذني معك ؟ لست وحدي . فلي زوجتي وصندوقان كبيران .

ـ بوسعي أن آخذك .

وبعد أن اتفقا على الأجرة . ركبا الى فروسكا الخباز حيث نزل المسافر عنده ، واخذوا زوجة الرجل الشقراء النحيفة ، ووضعوا الصندوقين في الخلف ، وانطلقوا في رحلة العودة . وجعل فيدوت يلوي رأسه النحيل مستديراً من حين لآخر ، وهويطقطق بلسانه للحصان ويلسع بالأعنّة المضفورة ، كان الفضول يمزّقه . أمّا المسافران فقد جلسا وراءه هادئين ، وفي البدء طلب فيدوت سيكارة ، ثم تساءل :

ـ من أين أنت ؟

ـ من روستوف .

ـ واحد منهم .

ـ ماذا قلت ؟

ـ هل ولدت هناك ؟

ـ م... م... نعم .

وجعّد فيدوت خدّيه البرونزيين وشخص ببصره الى الأجمات البعيدة لحشيش السهب . وبدأ الطريق يرتفع ، وعلى مبعدة نصف فرست منه ، وفي الدغل الرمادي الاشمر عند قمة المرتفع ، شخصت عينا فيدوت المجربتان الى حركات رؤوس طيور الحباري التي لاتكاد ترى .

فتنهد مؤشراً باصبعه : «وا أسفاه ، ليست معي بندقية ، وإلا لمضيت لصيد الحباري . هاهي تتحرّك » .

فأجاب مسافره وهو يطرف بعينيه عن قصر نظر : «أنا لا أرى شيئاً » .

راقب فيدوت الحباري تهبط في وهدة ، ثمّ ثنى نفسه مستديراً ليتفحّص مسافريه عن كثب أكثر . كان الرجل متوسّط الطول ، إلا أنه نحيل ، وكان في عينيه المتقاربتين بريق دهاء ، وكثيراً ما كان يبتسم أثناء كلامه . أمّا زوجته فقد تلفّعت بشال محاك وغلبها النعاس فلم يستطع فيدوت أن يرى وجهها .

ـ ما الذي يدعوك الى الإقامة في قريتنا ؟

ـ انني ميكانيكي . وأنا أنوي فتح ورشة . واستطيع أن أقوم بأعمال النجارة أيضاً .

فحملق فيدوت مرتاباً في كفّي الرجل الضخمتين ، وأضاف الغريب لما لحظ نظرته : «أنا وكيل شركة« سنجر » لماكينات الخياطة ، أيضاً » .

فسأله فيدوت : «وما اسمك ؟ »

ـ شتوكمان .

ـ لست روسياً ، اذن ؟

ـ بلى ، أنا روسي . لكن جدّي كان لتوانياً بالمولد .

وسرعان ماعرف فيدوت أن أوسيب دافيدوفتش شتوكمان قد اشتغل في السابق في مصنع ، ثمّ في مكان ما في الكوبان* ، ثمّ في معامل سكّة الحديد الجنوبية الشرقية . واستدر فيدوت الفضولي عدداً كبيراً من الحقائق تتعلّق بحياة الغريب .

وبعد فترة من الزمن ، فتر الحديث . ثمّ أورد فيدوت حصانه العرق من نبع على جانب الطريق ، وبدأ ينعس من أثر الرحلة وخضّات العربة . ولم تبق إلا مسافة قصيرة حتّى يصلوا القرية . فلف فيدوت الأعنّة حول يده ، واضطجع وقدماه متدليتان . لكنّه لم يجد فرصة للنوم اذ سأله شتوكمان ، وهو يرتجّ ويتمايل مع حركة العربة :

ـ كيف هي الحياة في دياركم ؟

ـ ليست رديئة جداً . لابأس .

ـ والقوزاق عموماً ، هل هم راضون عن حياتهم ؟

ـ بعضهم راض ، وبعضهم غير راض . لن تستطيع أن ترضي كل الناس .

فقال الرجل موافقاً : « هذا صحيح » واستأنف اسئلته الماكرة المكنونة .

ـ تقول إنكم تعيشون عيشة طيبة ؟

ـ عيشة طيبة .

ـ لابد أن التدريب العسكري السنوي يزعجكم ؟ هه ؟

ـ التدريب العسكري ؟ لقد اعتدنا عليه . لاشيء يقلقك حينما تكون في الجيش .

ـ ولكن من الصعب عليكم ، وأنتم القوزاق ، أن تجهزوا كل عدتكم .

ـ صحيح ، اولاد الخنازير .

قال ذلك فيدوت بحماس مفاجىء ، ونظر قلقاً في زاوية عينيه الى المرأة ، فحوّلت عينيها عنه .

---

* الكوبان : إحدى المناطق القوزاقية . المترجمون

ـ إن سلطاتنا شرذمة دنيئة... . حينما ذهبت لأداء خدمتي العسكريّة بعت ثيراني واشتريت حصاناً ، ولكنهم رفضوه .

فقال الغريب في دهشة مفتعلة : « رفضوه ؟ »

ـ رفضوه بالمرة . قالوا أن سيقانه غير صالحة . ناقشتهم وحاولت كل ما في وسعي . قلت لهم : ـ« إن له سيقان جواد سباق لكن مشيته تشبه مشية الديك » . إلا أنهم لم يقبلوا به . إن هذا كفيل بخراب بيتك .

واستمر الحديث حاراً . وقفز فيدوت من العربة وشرع يتحدّث عن حياة القرية بانطلاق . فلعن أتمان القرية لطريقة تقسيمه الضيزى لأرض المروج ، وامتدح مجرى الأمور في بولنده حيث عسكرت كتيبته . ومضى شتوكمان يدخن سكائر خفيفة التبغ بمبسم سكائر عظمي ذي حلقات ، وهو يلقي نظرات سريعة حادة الى فيدوت من عينيه الضيقتين ويبتسم مراراً ، لكن اخدود التقطيب في جبهته المائلة البيضاء كان يتحرّك ببطء وثقل ، وكأن أفكاراً خفيّة تحرّكه .

وصلوا القرية في المساء المبكّر . وبناء على نصيحة من فيدوت ذهب شتوكمان الى الأرملة لوكيشكا واستأجر منها غرفتين .

وسألت النساء فيدوت فيما كان يصل بعربته الى بوابته : « من ذا الذي جئت به ؟ »

ـ وكيل .

ـ أي نوع من الوكلاء ؟

ـ أنتن حمقاوات ، هذه لعمري حقيقتكن ، قلت ، وكيل ، يبيع الماكينات . إنّه يهبها الى الجميلات ، أمّا لمن كان على شاكلتك ، أيتها العمة ماريا ، فإنّه يبيعها بثمن .

ـ انظر الى نفسك ، أيها الشيطان . إن خرطومك الكالميكي قبيح بما يكفي لبث الرعب في حصان!

فتملّص فيدوت قائلاً : « الكالميكيون والتتار كانوا أوّل من قدم الى السهب ، فلا تستهزئي بهم » . نزل الميكانيكي شتوكمان عند لوكيشكا

الحولاء ذات اللسان الطويل . ولم تكن الليلة تمضي حتّى كانت جميع ألسنة النساء في القرية تتلمّظ بالنبأ .

ـ هل سمعت الخبر ، ياجارتي ؟

ـ أي خبر ؟

ـ فيدوت الكالميكي جاء بأجنبي الى القرية .

ـ حقّاً ؟

ـ فليعنّي الله . إنّه يرتدي قبعة ، واسمه شتوبل أو شتوكال... .

ـ لعلّه من رجال الشرطة ؟

ـ لا ، إنّه جابي ضرائب .

ـ كلها أكاذيب ، ياعزيزتي . إنّه كاتب حسابات ، مثل ابن الأب بانكراتي تماماً .

ـ باشكا ، ياحمامتي ، اجري الى لوكيشكا واسأليها بهدوء «من ذا الذي ينزل لديك ياعمّتي ؟»

ـ اجري سريعاً ، ياعزيزتي!

في اليوم التالي ذهب شتوكمان الى اتمان القرية . فقلب فيدور مانيتسكوف ، الذي كان أتماناً للعام الثالث ، جواز مرور القادم الجديد مرة أخرى ، ثم سلّمه الى الكاتب الذي جعل يقلبه ، هو الآخر ، مرة أخرى ، تبادلا النظرات ، ثم هزّ الاتمان ، الذي كان رئيساً للعرفاء ذات يوم ، يده في حركة متعالية .

ـ بوسعك أن تقيم .

فانحنى القادم الجديد وغادر الغرفة . وبقي اسبوعاً لايطل بأنفه خارج منزل لوكيشكا ، مثلما ينزوي سنجاب بري في جحره . وكان بالإمكان سماع ضربات فأسه وهو يعد ورشة في المطبخ الخارجي الصيفي المتداعي . ثمّ تلاشى اهتمام النساء به ، الا الأطفال ، فقد كانوا يقضون النهار بطوله يسترقون النظر من على السياج ويراقبون الغريب بفضول غير متهيّب .

٥

قبل عيد الشفاعة بثلاثة أيام خرج غريغوري وزوجته في العربة الى السهب للحراثة . كان بانتلاي بروكوفتش متوعك الصحة ، فناء بكلكله على عصاه في الحوش ليودعهما وهو يئن من جراء ألم في ظهره .

ـ احرث الرقعتين الواقعتين على الجانب الآخر من الأرض المشاعة ، قرب«الأخدود الاحمر» ، ياغريشا .

فتساءل غريغوري في همس مبحوح ، إذ أصابه برد أثناء الصيد ، وقد لف بلعومة بقطعة قماش :

ـ طيّب وماذا عن الرقعة الواقعة الى جانب «ضفّة الصفصاف» ؟

ـ يمكن لهذه أن تنتظر الى مابعد العيد . سيكون لك ما يكفيك من العمل في الوقت الحاضر ، فلا تكن طمّاعاً .

ـ وهل سيأتي بيوتر لمساعدتي ؟

ـ إنّه ذاهب الى الطاحونة مع داريا . نريد أن ننتهي من الطحن قبل أن تتزاحم الجموع .

وهمست ايلينشنا وهي تضع الفطائر الطازجة في سترة ناتاليا :

ـ ربّما تريدين أن تصحبي دونيا معكما لتقود الثيران ؟

ـ اثنان يكفيان .

ـ طيب ياعزيزتي . ليكن المسيح في عونكما .

ومرت دونيا في طريقها الى الدون لشطف الملابس . وقوامها النحيف ينوء تحت الحمل الثقيل للغسيل المبلل ، وبينما كانت تمر صاحت على ناتاليا :

ـ ناتاليا ياعزيزتي ، هناك الكثير من نبات الحمّيض في«الأخدود الأحمر» . اقلعي بعضاً منه ، واجلبيه لنا .

ـ بالطبع .

فقال بانتلاي بروكوفتش وهو يهز عصاه نحو دونيا :

ـ هيّا ، امضي من هنا ، ياثرثارة!

سحبت ستة ثيران المحراث المقلوب خارج الفناء ، وهي تحفر الأرض التي تصلّبت من الجدب الخريفي . ومضى غريغوري يسير على امتداد جانب الطريق وهو يسعل ، ومافتىء يعدل منديل رقبته . ومشت ناتاليا الى جانبه ، وعلى ظهرها يتأرجح كيس وضع فيه طعام .

تلفّع السهب بسكون بلوري . وكانت التربة ، وراء الأرض المشاعة ، على الجانب الآخر من التل المحدودب ، لقد مشطتها المحاريث ، وكان السواق يصفرون ، ولكن على امتداد الطريق لم يكن ثمة سوى زرقة شهباء لنبات شيح قميء ، وبرسيم بري قضمته الأغنام ، تعلوه سماء باردة صافية مرنانة ، تتقاطع عليها خيوط متطايرة لنسيج عنكبوت متلامع .

وحين ابتعد الحارثان الماضيان الى السهب ، استعد بيوتر وداريا للذهاب الى الطاحونة . فغربل بيوتر الحنطة في مخزن الغلال ، وعبأتها داريا في زكائب حملتها الى العربة . وشدّ بانتلاي بروكوفتش الخيل مسوّياً الاعنّة باعتناء .

ـ هل ستبطىء كثيراً ؟

فأجاب بيوتر من المخزن : «ها أنا قادم» .

* * *

حينما وصلا الطاحونة وجدا الفناء مزدحماً بالعربات وكان القبّان محاطاً بجمع حاشد . فألقى بيوتر الأعنّة الى داريا وقفز من العربة . وسأل الولد ، القبّاني :

ـ هل سيأتي دوري عمّا قريب ؟

ـ سيأتي .

ـ دور من ، الآن ؟

ـ رقم ثمانية وثلاثين .

واستدار بيوتر ليأتي بزكائبه . وبينما كان يفعل ذلك سمع سباباً وراءه . ونبح صوت أجش مغضب : «أنت تستغرق في النوم أكثر مما يجب ، ثم تريد أن تسبق دورك . تنح ، ياخوخول* ، والا سألقنك درساً» .

وتبين بيوتر صوت ياكوف نعل الحصان** فتوقف لينصت . علا الصياح في غرفة القبّان . ثم انبعثت طقة لطمة حادة ، وإذا بأوكراني كهل ملتح يطير الى الخارج من خلال المدخل ، وقد خبطت قبعته على مؤخرة رأسه .

وصاح ممسكاً بخدّه : «لم هذا ؟»

ـ سألوي رقبتك!

ـ لكن ، اسمع... .

ـ ميكيفور ، النجدة!

أمّا ياكوف نعل الحصان ، وهو مدفعي قوي البنية . اكتسب كنيته هذه لما تركته رفسة حصان من أثر على وجهه ، فقد اندفع خارجاً من غرفة القبّان وهو يثني أكمامه الى الأعلى . وتبعه أوكراني طويل ، يرتدي قميصاً وردياً ، وهوى بضربة ثقيلة عليه . لكن ياكوف صمد على قدميه ، وصرخ :

ـ ايها الاخوان ، إنهم يضربون القوزاق!

فجاء عدد ضخم من القوزاق والاوكرانيين من الطاحونة يركضون من كل صوب الى الفناء المزدحم بالعربات . وبدأت معركة قرب المدخل الرئيسي ، فانخلع الباب تحت ضغط الأجسام المتقاتلة . وألقى بيوتر زكيبته عنه وانطلق بخفة صوب الطاحونة . ورأته داريا ، وهي منتصبة على العربة ، يندفع الى وسط المعركة ، دافعاً الآخرين جانباً . وتأوهت حين رأته يُحمل الى حائط

---

* خوخول ؛ اصطلاح يقال للأوكراني يراد بها الإهانه . المترجمون

** نعل الحصان ؛ كنية ياكوف ، كما أن«الولد» كنية دافيد . المترجمون

الطاحونة ويطرح أرضاً ويداس تحت الأقدام . وجاء ميتكا من حجرة الماكنة متوثباً حول الزاوية ملوّحاً بقضيب حديدي . وانطلق الاوكراني ، الذي ضرب ياكوف من الخلف خارجاً من الحشد المقاتل ، وكمه الوردي الممزّق يخفق وراءه كجناح طير مهيض . فانثنى على نفسه حتى لامست يداه الأرض وجرى الى أقرب العربات وانتزع محوراً منها كما لو كان عود ثقاب . وجلجلت صرخات مبحوحة فوق الفناء . صوت تهشيم . ضربات . أنين . زئير صياح مستديم .

وجاء الأخوان شوميلين الثلاثة راكضين من دارهم . وتعثرت قدم اليكسي الأقطع بزوج من الأعنّة كان ملقىً على الأرض ، فوقع ارضاً بالقرب من البوابة . ثم قفز واقفاً . ومضى ينط عبر محاور العربات المصفوفة ، ضاغطاً كمه الأيسر الخالي من الذراع على معدته . وانحنى أخوه مارتن ليدس ساق بنطلونه الذي خرج من جوربه الأبيض . وارتفع الصياح في الطاحونة بالغاً أوجه... وأطلق أحدهم صرخة علت فوق سقف الطاحونة مثل خيط عنكبوت في مهب الريح ، واستقام مارتن وراء أخيه .

وقفت داريا تراقب المعركة من العربة ، وهي تلهث وتعصر يديها ، ومن حولها كانت نسوة ينحن ويزعقن ، والخيل تنصب آذانها مضطربة ، والثيران تخور وتتدافع على العربات . ومر موخوف وهو يمشي الهوينا ، زاماً شفتيه ، شاحب الوجه ، وكرشه يتأرجح ، صاعداً هابطاً ، وكأن بيضة وضعت فوق صديريته . ورأت داريا الاوكراني ذا القميص الممزّق يهوي بالمحور على ميتكا كورشونوف بضربة قاصرة ، وفي اللحظات التالية كان هو نفسه قد تلقّى لكمة مسددة من قبضة اليكسي الحديدية طرحته أرضاً . ومرّت المشاهد أمام عيني داريا مثل نتف من سجادة ملوّنة . ثم رأت ميتكا الجاثي ، دون أن تأخذها الدهشة ، يحصد ساقي موخوف من تحته بالقضيب الحديدي ، ففرد موخوف ذراعيه وزحف ، مثل السرطان ، الى سقيفة القبّان حيث رفسته الأقدام وداست عليه... فضحكت داريا بصورة

هستيريّة حتّى تشرّخ القوسان الأسودان لحاجبيها المزججين . لكنّها توقفت فجأة حينما وقع نظرها على بيوتر . كان قد أفلح في الخروج مترنّحاً من بين الغوغاء المتدافعين الزاعقين ، وكان مستلقياً تحت عربة يبصق دماً . فهرعت اليه داريا صارخة . ومن القرية جاء القوزاق مسرعين يحملون العصي ، وكان أحدهم يلوح بعتلة في يده واتّسع القتال الى حد يفوق التصوّر ، فلم يعد مجرّد مشاجرة في حانة أو نزال القبضات الذي يقام في عيد المرفع بين القرى . فعند باب سقيفة القبّان تمدّد أوكراني يافع برأس مكسور في بركة من الدم ، تحرّكت قدماه ، وتدلّت على وجهه خصلات مدمّاة . لقد انتهى كما يبدو طريقه في هذه الأرض الزرقاء المرحة...

دفعوا الاوكرانيين مثل قطيع الأغنام الى سقيفة التفريغ . وكان ممكناً أن تتخذ الأمورشكلاً اسوأ لولا أن أوكرانيّاًعجوزاً خطرت له فكرة فمرق الى داخل السقيفة ، وجرّ عموداً ملتهباً من الأتون وجرى ناحية السقيفة حيث خزنت الحبوب : الف بود واكثر من الطحين . وانساب الدخان فوق كتفه مثل قماش الموسلين ، وشرر يكسفه ضوء النهار ، يتطاير حوله .

وصرخ ، وهو يرفع الشعلة المطقطقة صوب السقف المغطى بالقش : «سأحرقه! » .

تلكأ القوزاق ثم توقفوا . كانت ثمة ريح عاصفة جافة تهب من الشرق حاملة الدخان بعيدا عن سطح السقيفة صوب رهط الاوكرانيين . كان يكفي ان تندلع شرارة مناسبة واحدة في حلفاء السقف لتلتهم النار القرية عن آخرها...

ندت همهمة خفيضة عن القوزاق . وبدأ بعضهم يتراجع ناحية الطاحونة بينما صاح العجوز وهو يلوح بالشعلة فوق رأسه ويرسل نثارة من النار : «سأحرقه! سأحرقه اخرجو من الفناء! » .

كان ياكوف نعل الحصان ، الرجل الذي بدأ المعركة ، اول من غادر الفناء وعلى وجهه النديب رضات حمر مزرقة . وجرى القوزاق الآخرون وراءه

مسرعين . فأسرع الاوكرانيون بالقاء زكائبهم على عرباتهم وشدوا خيلهم وانطلقوا ينهبون أرض الفناء مبتعدين عن القرية وهم واقفون في عرباتهم ويلوحون بذوائب اعنتهم الجلدية حول رؤوسهم ويلفحون خيلهم بسياطهم في جنون .

انتصب اليكسي الاقطع وسط الفناء ، وكمه الفارغ المعقود يتوثب فوق بطنه الخاسف ، وعينه وخده يختلجان كعادتهما :

ـ الى الخيل ، أيها القوزاق!

ـ في أعقابهم!

ـ لن يبتعدوا!!

وتهيأ ميتكا كورشونوف ، ليندفع خارج الفناء . وسرت موجة اضطراب جديدة فوق حشد القوزاق المتجمعين حول الطاحونة . على ان شخصا غير مألوف يرتدي قبعة سوداء ظهر في تلك اللحظة من غرفة الماكنة وتقدم بخطى عجلى من الحشد ، ولم يلحظه أحد من قبل وقد ضاقت عيناه النفاذتان حتى غدتا خطين طويلين مرقا فوق الحشد فيما رفع يده وصاح :

ـ قفوا!!

فتسائل ياكوف مقطبا حاجبيه :

ـ من أنت ؟

ـ من أين ظهر ؟

ـ اضربوه!

ـ قفوا ، أيها القرويون!

ـ من أنت حتى تدعونا قرويين ، يا ذيلاً أبترا!

ـ يا للسافل!

ـ هذا الريفي القذر!

ـ لقنه درساً ، يا ياكوف .

ـ صحيح ، سود له عينه!

فابتسم الرجل بتواضع ، دون أن تبدو عليه بادرة خوف . خلع قبعته ومسح جبينه بحركة تنم عن منتهى البساطة . وجردت ابتسامة الاخرين من سلاحهم كلياً .

وتساءل وهو يشير بقبعته المطوية الى الدماء عند باب سقيفة القبان : «ماذا حدث ؟» .

فاجاب اليكسي ذو الذراع الواحدة بلهجة مسالمة ، وعينه وخده يختلجان : «كنا نضربهم» .

ـ ولكن لم ؟

فأوضح ياكوف نعل الحصان وهو يتقدم ماسحاً بذراعه كتلة من الدم عن أنفه :

ـ أرادوا تجاوز دورهم .

ـ أعطيناهم ما سوف يتذكروننا به .

ـ من المؤسف أننا لم نطاردهم... فليس في السهب ما يستطيعون إضرام النار فيه .

ـ أصابنا الذعر ، فما كان ليجرؤ على إضرام النار في السقف .

ـ بل كان سيفعل ذلك ، إذ كان متهوراً .

وقال افونكا اوزيروف مبتسما : «ان الخوخول قوم سيئو الطبع جداً» .

فلوح الرجل بقبعته في اتجاه اوزيروف : «ومن أنت ؟» .

بصق اوزيروف باحتقار من بين اسنانه المتباعدة ، وهو يراقب طيران البصاق ، وركز قدميه مباعداً بينهما :

ـ أنا قوزاقي . ولكن... من انت ، غجري ؟

ـ أنا وأنت كلانا روسيان .

فقال افونكا مقطعاً كلماته :

ـ أنت تكذب .

ـ ينحدر القوزاق من أصل روسي . أتعرف هذا ؟

ـ وأنا أقول لك إن القوزاق هم أبناء القوزاق .

فأوضح الرجل :

ـ منذ زمن بعيد ، هرب الاقنان من مالكي الارض واستوطنوا على امتداد الدون . ثم عرفوا باسم القوزاق .

فقال اليكسي في غيظ مكظوم وهو يشد على قبضته الثقيلة ويطرف تباعا : «اذهب الى حال سبيلك ، يا رجل!» .

ـ هذا الخنزير يريد أن يجعل منا فلاحين!

ـ من هو يا افاناسي ؟

ـ انه القادم الجديد الذي يسكن عند لوكيشكا الحولاء .

وهكذا مرت فرصة تعقب أثر الأوكرانيين . وتفرق القوزاق ، وهم يتناقشون حول المعركة بحماس .

* * *

وفي تلك الليلة . في السهب ، وعلى مبعدة حوالي ثمانية فرستات من القرية ، قال غريغوري لناتاليا بكآبة وهو يلف نفسه بفروته الشائكة الثخينة :

ـ أنت غريبة ، نوعاً ما! أنت كذلك القمر ، لا تبعثين البرودة ولا الدفء في الرجل . انا لا أحبك يا ناتاليا ، ويجب ألا تغضبي . أنا لم أرد إثارة الموضوع ، لكن هو ذا يطرح نفسه . نحن لا نستطيع ان نستمر على هذه الحال . انني حزين عليك . لقد بدا في الايام الأخيرة كما لو كنا نقترب من بعضنا أكثر من ذي قبل ، لكنني لا أستطيع تحسس اي شيء في قلبي . إنه فارغ تماماً . مثل هذا السهب...

تطلعت ناتاليا الى النجوم السارحة المنيعة ، والى عباءة الغيوم السارية فوقها والظليلة كالاشباح ، ولم تنبس بشيء . ومن مكان ما في الفلاة السوداء المائلة الى الزرقة ، في الأعالي ، تنادى سرب متأخر من طيور الغرانيق بأصوات مثل أجراس فضية صغيرة .

كان للعشب الذاوي رائحة كئيبة موات . وعلى رابية هناك خفق وهج خضيب من نار احد مضارب الحارثين...

استيقظ غريغوري قبيل الفجر . كانت فروته مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج . وكان السهب مختفياً تحت الزرقة العذراء باهتة الألق للثلج الجديد . وارتسمت ، على مقربة من الموضع الذي استلقى فيه غريغوري ، آثار واضحة لأقدام أرنب بري كان قد قفز على أول نثة ثلج .

٦

عندما كان القوزاقي يسافر بمفرده في الطريق الى ميليروفو ويلتقي بالاوكرانيين ، (وكانت القرى الآوكرانية تبدأ في قرية يابلونوفسكي السفلى وتمتد مسافة خمسة وسبعين فرستا حتى ميليروفو) ، كان عليه ان يفسح لهم الطريق وإلا هاجموه . هكذا جرت الحال منذ زمن بعيد . ولذلك اعتاد القوزاق أن يذهبوا بالعربات الى محطة القطار جماعات ، فلا يخشون عندئذ ملاقاة الاوكرانيين في السهب وتبادل السباب :

ـ أنت يا خوخول! افسح لنا الطريق! أتظن أنك تستطيع أن تحيا على أرض القوزاق ، ياخنزير ، ولا تدعهم يمرون!

ولم يكن الاوكرانيون ، الذين كانوا يضطرون لنقل حبوبهم بالعربات الى سايلو الحبوب في بارامونوفو على الدون ، في حال يحسدون عليها . اذ كانت المعارك تنشب لا لشيء إلا لأنهم «خوخول» ، ومتى ماكان الرجل «خوخول» صار من الواجب إشباعه ضرباً .

فمنذ عدة قرون ، بذرت يد ماهرة بذور الحقد الطائفي في أرض القوزاق ، وتعهدتها بعناية ، وأنتجت البذرة ثماراً كبيرة . وسالت الأرض بالدم المسفوك في هذه المعارك بين القوزاق والقادمين الجدد من أوكرانيا وروسيا .

بعد حوالي أسبوعين من معركة الطاجونة وصل الى القرية ضابط شرطة المنطقة يصحبه مفتش . كان شتوكمان أول من استجوب . فسأله المفتش ، وهو موظف شاب من نبلاء القوزاق ، فيما كان ينبش في حقيبته اليدوية :

ـ اين كنت تعيش قبل مجيئك هنا ؟

ـ في روستوف .

ـ لماذا سجنت عام ١٩٠٧ ؟

فانحدرت عينا شتوكمان عبر حقيبة المفتش ورأسه المنحني ذي مفرق الشعر المتقشر .

ـ للإخلال بالنظام .

ـ هِهم... اين كنت تعمل آنذاك ؟

ـ في ورشة السكة الحديد .

ـ أي عمل ؟

ـ ميكانيكي .

ـ لست يهودياً ، أليس كذلك ؟ أم يهودي متنصر ؟

ـ كلا . فأنا أعتقد...

ـ لا يهمني ما تعتقد . هل كنت في المنفى ؟

ـ نعم كنت .

رفع المفتش رأسه ، وعض شفتيه عديمتي الشارب كثيرتي البثور وقال :

ـ أنصحك بمغادرة هذه المنطقة ـ ثم أضاف قائلاً لنفسه : ـ سأقوم بهذه المهمة أنا نفسي على كل حال .

ـ لماذا ، أيها المفتش ؟

وكان الجواب سؤالاً آخر :

ـ ماذا قلت للقوزاق يوم معركة الطاحونة ؟

ـ حسناً...

ـ طيب ، يمكنك ان تذهب .

خرج شتوكمان الى شرفة بيت موخوف (اذ كانت السلطات تتخذ من بيت موخوف مقراً لها على الدوام) والقى نظرة سريعة على الأبواب المزدوجة المطلية ، وهز كتفيه .

٧

جاء الشتاء وئيداً . وذاب الثلج بعد عيد الشفاعة وأخرجت القطعان الى المراعي من جديد . وظلت ريح جنوبية تهب طوال أسبوع ، فأشاعت الدفء في الأرض ، وانبعث من خضرة متأخرة قميئة آخر وميض لامع في السهب .

واستمر الذوبان حتى عيد القديس ميخائيل ، ثم عاد الصقيع ، وسقط ثلج غزير ، وصار الصقيع يزداد قوة ، وطبقة الثلج سماكة يوماً بعد يوم وتركت أقدام الأرانب آثاراً متقاطعة على حقول الخضار الفارغة الى جانب الدون حيث تكوم الثلج حتى أعالي الأسيجة . وأصبحت الشوارع مقفرة .

علق الدخان ، المنبعث من الجل ، خفيضاً فوق القرية ، ومضت طيور الزاغ تنقر في كومات الرماد المبعثرة على جانب الطريق . وتلوى خلال القرية أثر الزحافات الناعم على شكل شريط أزرق رمادي باهت .

كان هناك اجتماع عقدته القرية لتنظيم توزيع الدغل وقطعه . فاحتشد القوزاق حول درجات عتبة إدارة القرية وهم في فرواتهم ومعاطفهم الثقيلة وجزماتهم اللبادية تصر في الثلج ، الى أن دفعهم البرد الى الداخل . وتجمع شيوخ القرية الوجهاء بلحاهم الفضية خلف المنضدة ، والى جانب الاتمان والكاتب . أما القوزاق الشبان ، ذوو اللحى المخالفة الألوان ، والحليقون ، فقد تحلقوا جماعات ، وجعل الواحد يتمتم للآخر من وراء ياقات معاطفهم الدافئة . وكان الكاتب يملأ الصفحة تلو الصفحة بكتابة متلاصقة ، فيما كان الاتمان يراقبه عبر كتفه ، وثمة طنين مكتوم يملأ الغرفة الباردة .

ـ كان العشب هذا العام...
ـ اي نعم ، عشب المروج جيد ، لكن عشب السهب كله برسيم .
ـ في الأيام الخوالي كانوا يرعون في السهب حتى حلول عيد الميلاد .
ـ كان ذلك حسناً بالنسبة للكالميكيين .
ندّ سعال مبحوح .
ـ إن للأتمان رقبة كرقبة الذئب ، سمينة بحيث لا يستطيع أن يدير رأسه .
ـ يطعم نفسه كالخنزير ، هذا الشيطان!
ـ أيها الجد ، تحاول أن تهزم الشتاء عنك ؟ يالها من فروة هذه التي عليك!
ـ آن الأوان لكي يبيع الغجري معطفه عما قريب .
ـ هل سمعت بحكاية الصبي الغجري الذي قضى ليلة في السهب دون ان يكون عليه غطاء سوى شبكة صيد ؟ وحينما بدأ البرد يزحف حول مصارينه ، استيقظ ، ودفع أصبعه في ثقب الشبكة وقال لأمه ـ «اذن فمن هنا يأتي التيار . ظننت أن الدنيا باردة» .
ـ أخشى أن تحل علينا بضعة أيام زلقة عما قريب .
ـ يحسن أن أنعل الثيران .
ـ كنت أقطع أشجار الصفصاف في «أخدود الشيطان» . شيء نفيس . هناك .
ـ زرر سروالك ، يا زاخار . لئن أصاب الصقيع... ما خلفه ، فستقذف بك زوجتك خارج الدار .
ـ ما هذا الذي أسمعه ، يا افدييتش ، من انك ستضع يدك على واحد من الثيران المشاعة ؟ »*

* الثيران المشاعة ، لعل المقصود بذلك ثيران السفاد وهي الثيران الأكثر فحولة التي تربى للتناسل . المترجمون

ـ قررت ألا أفعل ذلك . فتلك المرأة ، بارشا ، ستتعهده بعنايتها . قالت لي : «انني أرملة ، وكلما كثرت الثيران كثر المرح» . وأنا قلت لها : «حسناً ، لعله يضيف فرداً جديداً الى العائلة»...

ـ ها ـ ها ـ ها!

ـ والآن ، أيها السادة الشيوخ! ماذا عن قطع الخشب ؟ هدوءاً يا من هناك!

ـ قلت لها نعم ، لئن أضفته الى عائلتك فستحتاجين الى اشبين...

ـ قليلاً من الهدوء ، رجاء!

وبدأ الاجتماع . تلا الأتمان الأسماء ، وهو يعبث بعصاه الرسمية ويقطف خيوط الجليد المدلاة من لحيته بإصبعه الصغير ويتصاعد البخار منه . ومن حين لآخر كان الباب يصفق في مؤخرة الغرفة فينحشر الناس وسط سحائب من الهواء البارد . وتتناهى أصوات تمخط الأنوف .

وقال إيفان توميلين محاولاً أن يطغى بصياحه على صوت الاتمان : «لا يمكنك أن تحدد يوم الخميس لقطع الأخشاب!» ودعك أذنيه الأرجوانيتين ، مائلاً رأسه الذي انداحت عنه قبعة المدفعية الزرقاء .

ـ لم لا ؟

فصاح أحدهم :

ـ ستخلع أذنيك ، أيها المدفعي!

ـ سنخيط له أذني ثور!

ـ يوم الخميس سيخرج نصف القرية لجلب التبن . إن هذا لعمري أسلوب طيب لتنظيم الأمور...

ـ يمكنك أن تؤجل ذلك الى يوم الأحد!

ـ أيها السادة الشيوخ!

ـ ماذا ، الآن ؟

ـ حظاً سعيداً له!

وارتفعت صيحة استهزاء من الجمع .

فانحنى العجوز ماتفي كاشولين عبر المنضدة المتداعية ، ونعق هائجاً وهو يشير ناحية توميلين بعصاه الملساء المقتطعة من شجرة الردار .

ـ يستطيع التبن أن ينتظر! القرار لمجتمع القرية . إنك دائماً ضد جميع الآخرين . أنت أحمق صغير ، ياولدي! وهذا هو كل ما هناك!

فتدخل أليكسي الأقطع وخده المشوه يختلج وطرف بعينه ورفع رأسه بين الصفوف الخلفية ، قائلاً : « لا عقل لك تتباهى به ، على أية حال ، وأنت عجوز » .

منذ ست سنوات وهو يتخاصم مع كاشولين على قطعة من أرض ، وفي كل ربيع كان يضربه ضرباً موجعاً ، بالرغم من أن القطعة لم تكن بأية حال لتتسع الأرجحة قطة .

ـ صه ، يا ذا الوجه الهلامي!

فتهدده أليكسي :

ـ من المؤسف أنك أبعد من متناول يدي ، والا أدميت لك أنفك!

ـ آه ، يا أرعص الوجه يا أبتر!

ـ والآن ، كفى تنابزاً .

تعالوا الى الخارج إن كنتم تريدون تجربة قوتكم .

ـ كفى يا أليكسي . ألا ترى العجوز قد انتصب شعر رأسه ذعراً ، ستسقط عنه قبعته بعد دقيقة .

ـ ضعهما في زنزانة البوليس إن لم يسلكا سلوكاً حسناً .

وأنت المنضدة حينما هوى عليها الأتمان بقبضته .

ـ صه! سأنادي الحارس في الحال إن لم يعم السكوت . وبعد أن عادت الأمور الى نصابها ، أضاف :

ـ البدء في قطع الأخشاب فجر يوم الخميس .

ـ حسناً ، ما قولكم ، أيها السادة الشيوخ ؟

ـ حظاً سعيداً!

ـ على بركة الله!

ـ إنهم لا يصغون الى الشيوخ ، هذه الأيام!

ـ سوف يصغون ، على أية حال . أيظنون أنهم قادرون على اتيان ما يريدون ؟ فهذا الكساندر ، ابني ، حينما أعطيته حصته أراد أن يشرع بالعراك عليها ، وتجاسر عليّ بالضرب ، أي نعم . لكنني أعدت إليه صوابه . قلت له «سوف أذهب الى الاتمان والشيوخ في الحال ، وأجعلهم يجلدونك» . كان هذا كفيلاً بتهدئته .

ورفع أتمان القرية صوته ولوى رقبته ، إذ كانت ياقة بزته الصلبة تحز ذقنه .

ـ لقد حصلنا أيها السادة الشيوخ على أمر أتمان المنطقة ، على الشباب أن يذهبوا يوم السبت القادم الى دائرة أتمان المنطقة ، لأداء القسم . عليهم أن يكونوا هناك بعد الظهر .

كان بانتلاي بروكوفتش يقف عند أقرب نافذة الى الباب ، رافعاً ساقه العرجاء كطير الغرانيق ، والى جانبه كان ميرون غريغوريتش قاعداً على إفريز النافذة وهو يبتسم تحت لحيته الحمراء ، وكانت فروته مفتوحة . وأهدابه الشقر القصيرة يشوبها صقيع أبيض ، ونمشه الأسمر الكبير قد حال لونه رمادياً من أثر البرد . وتجمع قربهما شباب القوزاق يتغامزون ويبتسمون فيما بينهم ووقف وسط الجمع افدييتش سينيلين متمايلاً على أصابع قدميه . وكانت قبعته ، ذات السطح الأزرق وشرائط فضية مسرّحة الى الوراء فوق رأسه الأصلع الأملس ، ووجهه الذي لا يشيخ متورداً أبداً . كأنه تفاحة شتوية حمراء . كان افدييتش وبانتلاي بروكوفتش في سن واحدة .

كان افدييتش قد خدم في حرس الاتمان الخاص ، وعاد يحمل كنية «الكذوب» . وكان أول من اختير من القرية لكتيبة الاتمان* . كان في فتوته لا

---

* وهو الحرس القيصري . اذ كان الاتمان من ألقاب القيصر . المترجمون

يتميز عن الفتيان الآخرين سوى أن عقله كان غريب الأطوار توعاً ما ، فقد وقع له شيء غريب أثناء الخدمة الفعلية . ومنذ يوم عودته شرع في رواية قصص مذهلة عن خدمته في البلاط ومغامراته العجيبة في بطرسبرغ . وقد صدقه سامعوه المندهشون في البداية ، وهم يكرعون حكاياته بأفواه فاغرة ، ثم اكتشفوا أن افدييتش كان أكبر كذاب ولدته القرية في تاريخها ، وصاروا يضحكون منه صراحة . لكنه لم يكن ليستحيي (وإن كان أحمر الوجه دائماً بحيث لا يستطيع المرء أن يتبين إن كان أحمر خجلاً أم لا) ولم يتخل عن الكذب . وحينما تقدمت به السن صار يتضايق إذا ما انفضحت كذبة له ، فيلجأ الى استعمال قبضتيه . أما إذا ضحك سامعوه ولم يقولوا شيئاً توسع أكثر فأكثر في رواية قصصه .

أما من ناحية عمله في الحقل ، فقد كان قوزاقياً نشطاً مجدا ، يتصرف في كل الأمور بصورة معقولة ، وأحياناً بدهاء ، ولكن ما إن يعرج الموضوع على خدمته في الحرس حتى ينشر كل إمرئ ذراعيه ويقعد القرفصاء من الضحك .

وقف افدييتش وسط الجماعة متمايلاً وعلق ، وهو يجيل بصره في القوزاق المجتمعين ، بصوته الخفيض الغليظ قائلاً :

ـ بالمناسبة ، القوزاق في هذه الأيام ليسوا كما كانوا من قبل قط . ليسوا سوى روبيان قميء لا تكاد العين تراه . تستطيع أن تشق أياً منهم الى نصفين بمجرد أن تعطس عليه . لكنني... ـ بصق على الأرض وابتسم بازدراء ـ رأيت بعض هياكل عظمية لقوزاق ، ذات مرة . آه! كان القوزاق قوزاقاً في تلك الأيام!

فسأله انيكوشكا ذو الوجه الناعم وهو يلكز جاره :

ـ وأين نبشت تلك الهياكل العظمية ، يا افدييتش ؟

وقال بانتلاي بروكوفتش ، مجعداً أنفه وشاداً على قرطه :

«لا تبدأ برواية إحدى أكاذيبك ، يا افدييتش ويوم العيد المقدس على الأبواب» ، إذ لم يكن يحب عادة افدييتش في المبالغة .

فأجاب افدييتش برزانة ، وهو يحملق مستغربا في انيكوشكا الذي كان يرتعش كما لو أصابته حمى :

ـ ليس من طبيعتي الكذب ، أيها الأخ . رأيت تلك الهياكل حينما كنا نبني داراً لزوج أختي . اذ بينما كنا نحفر الأساس وصلنا الى قبر . لا بد ان مقبرة كانت هناك في الأيام الغوابر ، بجانب الكنيسة ، على ضفة الدون .

فتساءل بانتلاي بروكوفتش بلهجة تنم عن عدم رضى وهو يتهيأ للذهاب : «طيب وكيف كانت الهياكل ؟» .

فقال افدييتش ناشراً كل ذراعيه الشبيهتين بالمجرفة : «الاذرع ، بهذا الطول . الرأس بحجم القزان . كلامي صحيح كحقيقة وجودي حياً!» .

فاقترح ميرون وهو يقوم من افريز النافذة ويزرر فروته : «خير لك أن تخبر الشباب كيف قبضت على لص في سانت بطرسبرغ» .

فأجاب افدييتش وقد اعترته موجة مفاجئة من التواضع : «ليس هناك ما يستحق الرواية» .

ـ أخبرنا يا افدييتش!

ـ نرجوك يا افدييتش!

ـ شرفنا بحكايتك!

ـ حسناً ، كان الأمر كالآتي ، ـ ونظف افدييتش بلعومه وأخرج كيس تبغه من جيب بنطلونه . وأعاد قطعتي النقود النحاسيتين اللتين سقطتا من الكيس ، وصب قبضة من التبغ في راحته ، وأجال عيناً متألقة في سامعيه . ـ كان أحد الأوغاد قد فر من السجن . بحثوا عنه في كل أرجاء المنطقة . ولكن أتظنون أنهم استطاعوا أن يجدوه ؟ لا ، لم يقدروا . وباءت السلطات جميعاً بالفشل . حسناً ، ذات ليلة ، يدعوني ضابط الحرس بغتة ويقول : «اذهب الى القصر الامبراطوري . فالقيصر نفسه يدعوك» . فذهبت متهيباً . وقفت للامبراطور وقفة استعداد ، فإذا به يربت على كتفي ويقول : «اسمع يا إيفان افدييتش ، لقد فر وغد من مملكتنا . اعثر عليه ، حتى لو اضطررت

الى الوقـوف على رأسك في سـبـيل ذلك . ولا تـدعني أراك حـتى تـكون قـد أنجزت مهمتك!» فقلت له : «سمعاً وطاعة ، يا صاحب الجلالة الامبراطور!» اجل ، ياأولاد ، تلك كانت قضية عسيرة... وعلى ذلك أخذت ثلاثة من أحسن ما في اصطبلات القيصر من خيل ، وانطلقت . ـ تفحص افديبيتش رؤوس مستمعيه المطأطئة وهو يشعل سيكارة ، وانطلق هادراً وسط سحابة الدخان التي كانت تغلف وجهه وقد ازداد حماسه : ـ مضيت على صهوة الجواد طوال النهار ، طوال الليل ، حتى التقيت في اليوم الثالث بالوغد على مقربة من موسكو . اقتنصت ذلك الطير وقذفت به داخل عربتي ، وجررته عائداً الى سانت بطرسبرغ . وصلت في منتصف الليل ، وأنا مغمور بالوحل ، ذهبت مباشرة الى صاحب الجلالة الامبراطور نفسه . حاول كل أصناف الأمراء والكونتات أن يمنعوني ، لكنني مضيت ، أي نعم... طيب ، طرقت الباب . «هل لي أن أدخل ياصاحب الجلالة الامبراطور ؟» . «من أنت ؟» . «هو أنا ، إيفان افدييتش سينيلين» فسمعت ضجة في الغرفة ، وسمعت جلالته نفسه يصرخ : «ماريا فيودوروفنا! ماريا فيودوروفنا! انهضي بسرعة وأعدي سماورا ، فقد وصل إيفان افدييتش» .

انبعث زئير من الضحك من القوزاق السامعين ، وتوقف الكاتب في منتصف جملة ، وكان يقرأ آنذاك إعلاناً عن الماشية السائبة ، ومد الاتمان رقبته كأوزة ، وحملق مغضباً في المجمع المقهقه . غام وجه افدييتش ، وسحب بطرف قبعته ، وجالت عيناه بحيرة في الوجوه الماثلة أمامه ، وقال : «انتظروا لحظة!» .

ـ ها ـ ها ـ ها!

ـ أوه ، إنه سيميتنا!

ـ اواه يا افدييتش! اواه يا ابن الكلب!

ـ «أعدي سماوراً ، فقد وصل افدييتش!» ها ـ ها ـ ها!

بدأ الاجتماع ينفض . وارتفع صرير مستديم من الدرجات المتجمدة

لمنزل الإدارة . وعلى الثلج الذي وطأته الأقدام في الخارج ، كان ستيبان استاخوف وقوزاقي طويل القامة والساقين ، وهو صاحب الطاحونة الهوائية ، يتصارعان ليدفئا نفسيهما . فتحلق القوزاق حولهما يسدون لهما الإرشادات بجلبة وصياح .

ـ اطرحه أرضاً ، هذا الزنديق! اقلع أحشاءه ، ياستيبان!

وصاح كاشولين العجوز وهو يتواثب هنا وهناك كالعصفور : «لا تمسكه من هناك! أتظن أنك فطين!» وفي غمرة حماسة ، فاته ان يلحظ قطرة كبيرة لامعة ، تتدلى باستحياء من ذؤابة أنفه المزرق .

٨

حينما عاد بانتلاي بروكوفتش من الاجتماع ذهب في الحال الى الغرفة التي يشغلها هو وزوجته ، فايلينشنا متوعكة منذ بضعة أيام ، ويعكس وجهها المتورم كلالها وألمها . كانت مستلقية على فراش ريشي سميك وقد أسند ظهرها بوسادة لينتصب مستقيماً . وحينما سمعت وقع أقدام بنتلاي بروكوفتش أدارت رأسها نحوه ، فاستقرت عيناها على لحيته التي رطبتها أنفاسه ، وعلى شاربيه المتلبدين ، وغشيت نظرها قساوة صارت عادة ملازمة لها ، واختلج منخراها . لكن الشيخ لم تنبعث منه سوى رائحة الصقيع والفروة الحامزة ، فقالت لنفسها : «انه صاح اليوم» ، وهي تستشعر الرضا ووضعت على بطنها السمين إبرة الحياكة والجورب الذي لم تنجز حياكته .

ـ حسناً ، ماذا عن قطع الأخشاب ؟

ـ قرروا أن يبدأ يوم الخميس ـ ومسد شاربه ، وكرر وهو يجلس فوق صندوق الى جانب السرير : «في يوم الخميس صباحاً» ثم أضاف : «أتشعرين بأي تحسن ؟» .

غام وجه ايلينشنا وقالت :

ـ كالسابق . آلام قاتلة في كل مفاصلي .

استاء بانتلاي بروكوفتش وهو يرسم بعصاه دوائر واسعة على الأرض :

ـ قلت لك ألا تدخلي في الماء يا حمقاء . وفي الخريف أيضاً! كنت تعرفين ما سيصيبك . كان هناك العديد من النساء بوسعهن أن ينقعن ذلك القنب عليه اللعنة... على جميعه اللعنة! أواه يا رب!

ـ لم يكن بوسعي أن أدع القنب يتلف . لم يكن هناك نساء . فغريشا كان يحرث مع امرأته ، وبيوتر وداريا خرجا الى مكان ما .

فنفخ العجوز في كفيه المضمومتين على شكل قدح ، ومال على السرير .

ـ وكيف حال ناتاليا ؟

وحين أجابت ايلينشنا كان ثمة نبرة قلق في صوتها :

ـ لا أدري ما العمل . عادت تبكي من جديد قبل أيام . خرجت الى الفناء فوجدت أن أحدهم ترك باب المخزن مفتوحاً على مصراعيه . مضيت لأغلقه ، فوجدتها واقفة الى جانب مستودع الدخن . سألتها عما حدث ، بيد أنها قالت إنها تشعر بالصداع وحسب . أنا لا أستطيع أن أقف على الحقيقة منها .

ـ لعلها مريضة ؟

ـ كلا . سألتها . إما أنها أصيبت بالعين . أو اختلفت مع غريشا...

ـ لعله لم يستأنف علاقته بتلك المرأة بشكل من الأشكال ؟

فهتفت ايلينشنا وهي تلوح بذراعيها في ذعر :

ـ يا إلهي ، لا! ما هذا الذي تقول ؟ ماذا تظن ستيبان... أحمق ؟ كلا ، أنا لم ألاحظ شيئاً من هذا القبيل .

جلس العجوز الى زوجته قليلاً ، ثم خرج .

كان غريغوري في غرفته يسن صنارات الصيد بمبرد . وكانت ناتاليا تدهنها بشحم الخنزير وتلف كل واحدة منها في خرقة بعناية . وحينما مر

بانتلاي بروكوفتش بها وهو يعرج ، حدجها متفحصاً . كان خداها الشاحبان متوردين كورقة خريفية . لقد أمست أكثر نحولاً ، بصورة جلية ، خلال الشهر الأخير ، وكانت في عينيها نظرة بائسة لم يألفها من قبل ، فتمهل العجوز عند الباب ، وقال لنفسه فيما نظر وراءه الى رأس ناتاليا الناعم المنحني فوق المصطبة : « إنه يقتل البنت! » .

كان غريغوري جالساً على مقربة من الشباك ، وكانت ناصية شعره الشعثاء السوداء تهتز لكل شحذة مبرد .

صاح العجوز وقد قتم وجهه بسورة غضب مفاجىء : «دع هذا ، ليأخذ الشيطان روحك! » وشد على عصاه لكي لايضرب ابنه فاهتز غريغوري ورفع نظره مندهشاً .

ـ لدي سنّان آخران أشحذهما ، يا أبتاه .

ـ دعه ، قلت لك! استعد لقطع الأخشاب .

ـ حالاً .

ثم أضاف العجوز بلهجة أهدأ :

ـ الزحافات غير معدة مطلقاً ، وأنت جالس تسن الصنارات . ـ وتلكأ عند الباب إذ كان واضحاً أنه يريد أن يقول شيئاً آخر . لكنه خرج . وسمعه غريغوري ينفث بقية غضبه على بيوتر .

بينما غريغوري يرتدي معطفه سمع أباه يصيح في الحوش :

ـ ألم تروى الماشية بعد ، أيتها الكسول! ومن عبث بكومة التبن بجانب السياج ؟ ألم أقل ألا تمسوها ؟ ستأتون على كل التبن الجديد ، لعنة الله عليكم ، فماذا ستطعمون الثيران في الربيع أثناء الحراثة ؟

في يوم الخميس ، وقبل ساعتين من بزوغ الفجر ، أيقظت ايلينشنا داريا : «انهضي! حان وقت إشعال النار! » .

فجرت داريا في قميص نومها الى الموقد ، ووجدت بعض عيدان الثقاب ، وأشعلت واحدة .

استحث بيوتر زوجته ساعلاً وهو يشعل سيكارة : «تحركي!» فحمحمت داريا بامتعاض وهي لما تزل نصف مستيقظة : «لا يذهبون لإيقاظ ناتاليا تلك . يشفقون عليها بينما هي نائمة بلا حياء . هل ينبغي عليّ أن أقطع نفسي نصفين ؟» فنصحها بيوتر : «اذهبي وأيقظيها بنفسك» . لكن النصيحة كانت غير ضرورية ، إذ أن ناتاليا قد استيقظت سلفاً ، وخرجت لتحضر الوقود للنار وهي ترتدي بلوزتها .

فقالت عديلتها آمرة : «اجلبي بعض الحطيبات» .

وصاحت ايلينشنا بصوت مبحوح وهي تمشي في المطبخ ذهاباً وإياباً بمشقة : «أخبري دونيا أن تجلب الماء ، يا داريا ، أتسمعين ؟» .

وانبعثت من المطبخ رائحة حشائش الدينار الجديدة ، وعدة الخيل ودفء الأجسام البشرية . وتنقلت داريا هنا وهناك بجزمتها اللبادية . وهي تطقطق بالأواني ، ونهداها الصغيران يرتعشان تحت قميصها الوردي بأكمامه المشمرة ، إذ لم تفسد جسمها الحياة الزوجية ولا أذبلته . وكانت تبدو كفتاة يافعة ، طويلة ، هيفاء ، لدنة كعود الصفصاف . كانت تمشي هازة كتفيها ، وتضحك من صياح زوجها ، فيتكشف صف راسخ من الأسنان المتراصة تحت الحافة الرقيقة لشفتيها الشرهتين .

ودمدمت ايلينشنا بامتعاض : «كان عليك أن تجلبي خشباً للوقود قبل ليلة ، إذن لكانت قد جفت في الموقد» .

فأجابت داريا : «نسيت ياأماه . لا حيلة لي في ذلك» .

تنفس الفجر أثناء إعداد الطعام ، فأسرع بانتلاي بروكوفتش في إفطاره وهو ينفخ في العصيدة . وأكل غريغوري العابس ببطء واكتئاب ، وعضلات فكيه تختلج صاعدة هابطة ، وتسلى بيوتر ، دون أن يلاحظه أبوه ، بإغاظة دونيا التي كانت تعاني من وجع الأسنان وقد ربطت وجهها برباط .

كان صوت مزالق الزحافات يصل من الشارع . وكانت زحافات الثيران تمضي نازلة الى النهر في الفجر الرمادي . خرج غريغوري وبيوتر لشد الخيل

الى زحافتيهما . وفيما كان غريغوري خارجاً لف حول رقبته لفاحاً ناعماً ، وهو هدية عروسته قبل الزواج ، وكان يتنفس بنهم في الهواء الزمهرير الجاف . وطار غراب فوق الفناء مطلقاً صرخة قوية . وكان بالامكان سماع حفيف جناحيه الخافقين على مهل ، بصورة واضحة خلل السكون الصقيعي . راقب بيوتر طيرانه وعلق قائلاً : «يطير الى الجنوب ، الى الدفء» .

ومن وراء غيمة وردية صغيرة ، مرحة كابتسامة صبية ، تلألأت بخفوت شقفة صغيرة من القمر . وارتفع الدخان من المداخن ، أعمدة مستقيمة منطلقة من صوب النصل الذهبي المدبب ، النائي المنيع ، للقمر الأفل .

لم يكن النهر متجمداً تماماً قبالة دار ميليخوف . وعلى امتداد حافتي المجرى كان الجليد قوياً أخضر تحت الثلج المنجرف . وتحت الجليد تقبقب وتتفقأ الفقاقيع ، ولكن ماوراء الوسط حيث انسابت العيون بالقرب من الضفة اليسرى ، كانت ثمة ثغرة فاغرة فاها ، مرعبة داكنة وسط البياض المتآكل . وكان الماء مرقطاً بالبط البري الذي يقضي شتاءه هناك .

بدأ الطريق الى النهر من ميدان القرية . مضى بانتلاي بروكوفتش أولاً بالثورين الكبيرين تاركاً ولديه ليلحقا به فيما بعد . وعلى المنحدر ، عند تقاطع النهر ، لحق بيوتر وغريغوري بأنيكوشكا الذي كان يمشي الى جانب ثيرانه ، ومقبض فأس جديدة يبرز من زحافته ، وكان مرتدياً نطاقاً عريضاً أخضر ، بينما كانت زوجته القميئة المعلولة تمسك بالأعنة . صاح بيوتر عليه من بعيد :

ـ أيها الجار ، لا بد أنك أخذت امرأتك معك ؟

فابتسم انيكوشكا ، وهو يتوثب ليحتفظ بدفئه ، ومضى الى الأخوين .

ـ أخذتها لكي تدفئني

ـ لن تكسب منها دفئاً ، فهي هزيلة جداً .

ـ هذا صحيح . أنا أطعمها الشوفان ، ومع ذلك فهي لا تسمن!

وتساءل غريغوري قافزا من الزحافة :

ـ هل ستقطع الخشب في الموضع نفسه ؟
ـ أجل ، إذا أعطيتني سيكارة .
ـ لقد كنت طول عمرك تحب العيش على حساب الآخرين .
فقهقه انيكوشكا قائلاً ، مجهداً وجهه الأنثوي الحليق بابتسامة :
ـ أحلى الأشياء في الحياة مايسرق ويُستجدى .
ومضى الثلاثة معاً . كانت الغابة موشاة بالصقيع الناصع ، وذات بياض عذري . ركب انيكوشكا في المقدمة ضارباً بسوطه الأغصان فوقه فراحت بلورات الثلج المدببة تزخ على رأس زوجته .
فصاحت به وهي تنفض الثلج عنها : «لا تعبث ، أيها الشيطان!» .
فقال بيوتر ناصحاً ، وهو يحاول أن يوصل سوطه الى ما تحت بطن الثور ليستحث الخطى : «ألقها في الثلج» .
التقوا بستيبان استاخوف ، عند أحد منحنيات الطريق ، وهو يسوق ثورين مشدودين الى نير ، عائداً الى القرية . وكان النعلان الجلديان في جزمته اللبادية يصرفان على الثلج فيما كان يمشي بخطوات واسعة وخصلته المجعدة مدلاة تحت قبعة الفرو المائلة الى جانب كعنقود من العنب الأبيض .
صاح انيكوشكا ، أثناء مروره :
ـ هي ، ستيبان ، أضللت طريقك ؟
ـ اللعنة على ضلال الطريق! اصطدمت العربة بجذع شجرة فانشطر حديد الزحافة الى نصفين . ولذا يتعين عليَّ أن أعود .
وصب ستيبان سيلاً من السباب البذيء ، وضاقت عيناه الفاتحتان الشقيتان حينما مر بيوتر .
فسأله انيكوشكا متلفتاً : «خلفت زحافتك وراءك ؟»
فتجاهل ستيبان السؤال ملوحاً بيده ، ثم رفع سوطه على الثيران التي كانت تحيد عن الممشى ، ورمق غريغوري بنظرة طويلة حينما مر به . وعلى مبعدة قليلة وصلت الجماعة الى زحافة متروكة في وسط الطريق . وكانت

اكسينيا تقف الى جانبها ، تشخص ببصرها على امتداد الطريق في اتجاههم ، وهي تمسك طرف فروتها بيدها اليسرى .

فزأر انيكوشكا :

ـ تنحي عن الطريق وإلا سحقتك . ها ـ ها ، أنت التي تصلحين زوجة لي!

فتنحت اكسينيا جانباً وهي تبتسم ، واقتعدت فوق الزحافة المكسورة .

ـ ها هي زوجتك تجلس معك .

ـ أجل إنها تلتصق بي مثلما تلتصق شوكة بذيل خنزير ، والا لأوصلتك .

ـ شكراً جزيلاً ،

وحينما وصل بيوتر اليها ألقى نظرة سريعة الى الوراء نحو غريغوري .

أما غريغوري فكان يبتسم متردداً ، والاضطراب والترقب ظاهران في كل حركاته . حياها بيوتر وهو يمس قبعته بقفازه غير المصبع :

ـ أتمنى أن تكون صحتك طيبة ، أيتها الجارة .

ـ الحمد لله .

وسألها بيوتر :

– ماذا ، الزحافة مكسورة ؟

فأجابت ببطء دون أن تنظر الى بيوتر : «نعم ، إنها كذلك»

واستدارت صوب غريغوري وهي تنهض على قدميها وقالت حينما اقترب منها : «غريغوري بانتلاييفش ، لي كلمة معك» .

إستدار غريغوري إليها قائلاً لبيوتر :

ـ راقب ثيراني .

ـ ها ـ ضحك بيوتر ضحكة ذات مغزى ، ومضى وهو يعض على طرف شاربه المرير الطعم من دخان التبغ .

وقف الاثنان في صمت أحدهما قبالة الآخر . تلفتت اكسينيا حولها بقلق ثم أدارت عينيها الشفافتين السوداوين نحو وجه غريغوري من جديد .

كان الخجل والفرح يلتهبان في خديها وقد أيبسا شفتيها . وصارت أنفاسها شهقات حادة .

وعند أحد منحنيات الطريق ، اختفى بيوتر وانيكوشكا وراء جذوع البلوط البنية اللون . نظر غريغوري مباشرة في عيني اكسينيا ورأى فيهما شرارة داعبة جريئة .

وقالت بثبات :

ـ حسناً ياغريشا ، افعل ما تشاء ولكنني لا أستطيع الحياة بدونك ، ـ وضغطت شفتيها معاً منتظرة جوابه .

لم يجب غريغوري . كان الصمت مطبقاً على الغابة . ورن فراغ زجاجي في أذنيه . سطح الطريق اللامع الصقيل بفعل مزالق الزحافات ، خرقة السماء الرمادية ، الغابة ، خرساء ، وسنانة ، موات... وانبعثت صرخة مفاجئة لغراب قريب بدت كأنها أيقظت غريغوري من سباته الطارئ . فرفع رأسه وراقب الطير الأسود المزرق يخفق بجناحيه مودعاً مبتعداً في طيران صامت . وأصابته الدهشة حين سمع نفسه يقول : «سيصبح الجو دافئاً . إنه يطير صوب الدفء» . وبدا كأنه ينفض نفسه ، فضحك بصوت أجش . «حسناً» . وأدار عينيه الثملتين خلسة الى اكسينيا ، وفجأة جذبها إليه .

٩

في أمسيات الشتاء اعتادت جماعة صغيرة من القرويين أن تلتئم في غرفة شتوكمان بمنزل لوكيشكا . كان بينهم كريستونيا ، و«ولد» الطاحونة وقد تدلت سترة ملطخة بالدهان على كتفيه ، ودافيد دائم الابتسام (الذي أمضى حتى الآن ثلاثة أشهر في التسكع) ، ومشغل الماكنة ، إيفان كوتلياروف ، وأحياناً فيلكا الاسكافي ، ودائماً ميشا كوشيفوي وهو قوزاقي شاب لم يؤد بعد خدمته العسكرية النظامية

في البدء ، كانت الجماعة تلعب الورق . ثم أحضر شتوكمان عن غير طريق المصادفة كتاباً يضم شعراً لنيكراسوف . وبدأوا يقرأون الكتاب بصوت مسموع ، وأحبوه . ثم انتقلوا الى نيكيتين ، وقبل عيد الميلاد اقترح شتوكمان قراءة كتيب مثنى الزوايا ، غير مجلد . فنظر كوشيفوي باحتقار الى الصفحات المدهنة ، وكان قد تخرج من مدرسة الكنيسة وفي مقدوره أن يقرأ بصوت عال . وقال :

ـ تستطيع أن تصنع منه شعرية ، إنه مدهن جداً .

فزأر كريستونيا بالضحك ، وابتسم دافيد ابتسامة مشرقة لكن شتوكمان انتظر حتى خبا المرح ، ثم قال :

ـ إقرأه ، ياميشا . إنه ممتع . كله عن القوزاق .

فأمال كوشيفوي رأسه بذؤابته الشقراء فوق المنضدة وقرأ مقطّعاً الكلمات : «موجز تاريخ قوزاق الدون» ، ثم أجال بصره على الجميع مضيقاً عينيه في انتظار . وقال له إيفان الكسييفتش : «اقرأ» . وانكبوا على الكتاب ثلاث أمسيات ، يقرأون عن الحياة الطليقة في الماضي ، عن بوكاتشوف وستنكا رازين وكوندراتي بولافين وأخيراً وصلوا الى العصور المتأخرة . وصب المؤلف المجهول ازدراء على حياة القوزاق البائسة ، وسخر من السلطات والنظام القائم ، وحكومة القيصر ، ومن النظام القوزاقي نفسه الذي الذي جعل من القوزاق مسخرين تابعين للملوك . فسرت في السامعين موجة انفعال وجعلوا يتجادلون فيما بينهم . وتكلم كريستونيا بصوته الهادر ، ورأسه يلامس عمود السقف ، بينما جلس شتوكمان قرب الباب يدخن سيكارته بمبسم من العظم وعيناه تبتسمان .

انفجر كريستونيا :

ـ إنه على حق! كله صحيح!

ـ ليس ذنبنا إن ينزل هذا العار على القوزاق . ـ ونشر كوشيفوي ذراعيه في حيرة ، وجعد وجهه الوسيم ذا العينين الداكنتين . كان مكتنز البدن ،

عريض المنكبين والردفين ، يكاد يكون مربع الشكل . ومن قاعدة جسده الحديدية ارتفعت رقبة راسخة حمراء بلون الطابوق ، بدا عليها رأسه الصغير المهيب غريباً عما يحيط به ، بوجنتيه الناعمتين الانثويتين ، وفمه الصغير العنيد ، وعينيه الداكنتين تحت الواجهة الذهبية لشعره المجعد . أما مشغل الماكنة كوتلياروف ، وهو قوزاقي نحيل طويل ، فقد كان غارقاً حتى العظم في تقاليد القوزاق ، وكانت عيناه الجاحظتان المستديرتان تومضان وهو يدافع عن القوزاق في نقاش عنيف مع كريستونيا :

ـ أنت تميل الى الفلاح ، ياكريستونيا ، وليس لديك سوى قطرة واحدة من الدم القوزاقي مقابل دلو من الماء . لقد تزوجت أمك فلاحاً من فورونيج .

فهدر كريستونيا :

ـ أنت أحمق ، أحمق ، أيها الأخ! أنا أدافع عن الحقيقة .

فقال كوتلياروف متخابثاً :

ـ لم أكن في الحرس الملكي . فكل من هناك أحمق .

ـ وهناك أشخاص ميؤوس منهم ، في بقية الجيش ، أيضاً .

ـ صه يافلاح!

ـ أليس الفلاحون رجالاً بقدر ماأنت رجل ؟

ـ إنهم مصنوعون من قشور الأشجار ومحشوون بالدغل .

فقال كريستونيا ، ولهجته الجنوبية تبرز بقوة :

ـ حيمنا كنت في بطرسبرغ ، أيها الأخ ، رأيت أشياء عديدة . حدث ذات مرة أن كنا في نوبة حراسة في قصر القيصر ، من الداخل والخارج . اعتدنا أن نمضي على خيلنا حول القصر ، اثنين من هنا ، واثنين من هناك . وحين كنا نلتقي ، اعتدنا أن نسأل : «أكل شيء هادىء ، لا اضطراب في أي مكان ؟» ثم نمضي . لم يكن يسمح لنا بالتوقف والكلام . لقد اختارونا بسبب من ملامحنا . وحين كان علينا أن نأخذ نوبة حراستنا عند الأبواب

كانوا يختارون كل زوج منا بحيث يتشابهان في الوجه والقوام والشعر . حتى أن الحلاق اضطر ذات مرة أن يصبغ لحيتي بسبب هذه الحماقة . كان عليّ أن آخذ نوبة حراستي مع قوزاقي في سريتنا ، له لحية بلون الحصان الأحمر ، نوعاً ما . ليحل بي الطاعون إن كنت أدري من أين جاء بمثل تلك اللحية ، لابد أن ناراً لفحتها أو شيئاً من هذا القبيل . بحثوا في كل الكتيبة ولم يكن ثمة من يشبهه . وهكذا أرسلني آمر الرعيل الى الحلاق ليصبغ لي لحيتي وشاربي . ولما نظرت الى نفسي في المرآة فيما بعد ، كاد قلبي أن ينفطر . كنت أبدو كما كانت النار تلتهمني . صدقوني . كان لمس لحيتي كفيلاً بسلق أصابعي!

فقاطعه كوتلياروف :

ـ ها إنه يخرج عن الصدد ، هذا المهذار العتيق ، ولكن عم كنا نتكلم ؟

ـ عن الناس .

ـ طيب فأخبرنا عنهم . ماذا ، بحق الجحيم ، عسانا نريد من سماعك أن تتحدث عن لحيتك!

ـ حسناً ، وكما كنت على وشك أن أقول . كان عليّ ذات مرة أن آخذ نوبة حراسة خارج القصر . كنا راكبين ، أنا ورفيقي ، حينما جاء غوغاء من الطلاب يركضون من منعطف القصر . كانوا محتشدين كأنهم ذباب! وحالما رأونا زأروا : هاه! مرة أخرى : هاه! وقبل أن ندرك ما العمل أحاطوا بنا وسألنا أحدهم : « ماذا تفعلون ايها القوزاق ؟ » فقلت « نقوم بالحراسة ، وأنت أيها الفتى ، ارفع يدك عن الاعنة » ، وصفقت يدي على سيفي . فقال : « لا تسيء فهمي ، أيها القوزاقي ، فأنا أيضاً من منطقة كامنسكايا ، أدرس في الجامعة ، أو الجومعة » ، أو أي اسم تطلقون عليها . تهيأنا للمضي ، فإذا بأحدهم ، كان ذا أنف كبير يخرج قطعة من فئة العشرة روبلات ويقول : « اشربا نخب صحة والدي الميت » . ثم أخرج صورة من جيبه وقال : « انظر ، هو ذا أبي . خذها تذكاراً » . حسناً ، أخذناها ، لم نستطع أن نرفض . ثم ابتعدوا وزأروا من جديد هاه! واتجهوا نحو شارع

نيفسكي . وفي تلك اللحظة ، جاء ملازم أول خارجاً من بوابات القصر الخلفية على حصانه يصحبه رعيل من الرجال . صاح : « ماذا حدث ؟ » فأخبرته أن طلاباً قد أتوا وأحاطوا بنا وشرعوا يتحدثون الينا ، وإننا أردنا أن نضربهم بالسيف حسب التعليمات ، ولكن بما أنهم تركونا فقد مضينا في طريقنا . وحينما أنهينا واجبنا فيما بعد ، أخبرنا نائب العريف أننا قد حصلنا على عشرة روبلات ونريد أن نشرب بها في ذكرى الرجل العجوز ، وأريناه الصورة . وفي المساء ، جاء نائب العريف بشيء من الفودكا ، فقضينا وقتاً طيباً طيلة يومين . لكننا اكتشفنا فيما بعد أين كانت الخدعة . إذ تبين أن هذا الطالب ، هذا السافل ، كان قد أعطانا صورة أكبر مثير للاضطرابات في ألمانيا . صدقته وعلقت الصورة فوق سريري للذكرى . كانت له لحية شهباء ، ويبدو رجلاً معتبراً . وأغلب الظن أنه من التجار . لكن الملازم الأول حين رآها سأل : « من أين حصلت على هذه الصورة ، يا ابن الحلال ؟ » فاخبرته ، فإذا به يسبني ويلكمني على وجهي : « أتعرف من هذا ؟ إنه أتمانهم كارل . » . اللعنة ، لقد نسيت اسمه ، هيا ، ما كان اسمه ؟...

فقال شتوكمان مبتسماً : « كارل ماركس ؟ »

فصاح كريستونيا جذلاً :

ـ هو ذاك ، كارل ماركس . لقد سبب لي متاعب ، حقاً . كان حتى ولي العهد اليكسي ومعلموه قد اعتادوا أن يدخلوا غرفة الحرس . فكان من المحتمل أن يروها . ماذا كان يمكن أن يحدث ؟

فقهقه كوتلياروف :

ـ وتظل تمتدح الفلاحين ، كانوا سيشبعونك ضرباً .

ـ لكننا شربنا بالعشرة روبلات . ولو نخب كارل الملتحي ولكن شربنا!

فابتسم شتوكمان وهو يعبث بمبسم سيكارته وقال :

ـ يستحق الشرب نخبه .

فتساءل كوشيفوي :

ـ لماذا ، أي خير فعل ؟

ـ سأخبرك في مناسبة أخرى ، فالوقت متأخر الآن .

وأمسك شتوكمان المبسم بين أصابعه ، وقذف عقب السيكارة المطفأ بضربة من يده الأخرى .

بعد غربلة واختيار طويلين ، بدأت جماعة صغيرة قوامها عشرة قوزاق تجتمع بانتظام في ورشة شتوكمان . كان شتوكمان قلب الجماعة وروحها ، وراح يعمل بعناد في اتجاه هدف لم يدركه أحد غيره . كان ينخر في المدركات والمفاهيم البسيطة كما تنخر دودة في الخشب ، يبث النفور والكراهية ضد النظام القائم . ووجد نفسه في البداية يواجه فولاذ الشك البارد ، ولكن عزيمته لم تكن لتثبط فحتى الشك يمكن أن يزال .

١٠

على المنحدر الرملي للضفة اليسرى للدون تقع قصبة فيشنسكايا ، أقدم قصبة في الدون الأعلى . كانت في الأصل تدعى تشيكوناتسكي ، ثم نقلت الى موضع جديد بعد أن دمرت أثناء حكم بطرس الأول ، وسميت فيشنسكايا . وكانت في السابق همزة وصل مهمة على الطريق المائي العظيم بين فورونيج وآزوف .

مقابل فيشتسكايا ينحني الدون كقوس تتاري ، وينعطف بحدة إلى اليمين ، وإلى جانب قرية بازكي الصغيرة يعود فيستقيم في جلال وروعة ، حاملاً ماءه الأزرق المخضوضر مروراً بالشعب الطباشيرية للتلال القائمة على الضفة اليمنى ، ثم يمضي ، وعلى يمناه قرى متراصة ، وعلى يسراه قصبات متباعدة ، منحدراً نحو البحر ، نحو بحر آزوف الأزرق .

وفي اوست ــ خوبيرسكايا ، ينضم إليه رافده خوبر ، وفي أوست ـ مدفديتسكايا الرافد مدفيتسا ، ثم ينساب عميقاً غزيراً بين كثرة غير منتظمة من القرى والقصبات الكثيفة السكان ، تقع قصبة فيشنسكايا بين

كثبان رملية صفراء وهي مكان أجرد بائس لا بساتين فيه ، تقوم في ساحتها كنيسة قديمة ، رمادية من القدم ، وتمتد من الساحة ستة شوارع في خطوط موازية للنهر . وحيث ينحني الدون صوب بازكي تتفرع بحيرة بسعة الدون أيام الصيهود ، متوغلة في أجمة من شجر الحور . وينحدر طرف فيشنسكايا الى هذه البحيرة ، وفي ساحة أصغر تغطيها أشواك ناتئة ذهبية ، تقوم كنيسة ثانية ، ذات قباب خضر وسقف أخضر ينسجم مع اخضرار أشجار الحور في الجانب الآخر من البحيرة .

ويمتد وراء القرية ، شمالاً ، قفر زعفراني من الرمال ، ومزرعة صنوبر واطىء ، ومنخفضات ماؤها وردي بسبب من التربة الطينية الحمراء . وتنتثر هنا وهناك في الفلاة الرملية قرى كالواحات النادرة ، ومروج ونجيل صدىء من الصفصاف .

ذات يوم أحد في كانون الأول ، تجمع في الساحة خارج الكنيسة القديمة حشد كثيف قوامه خمسمائة شاب قوزاقي جاؤوا من جميع قرى المنطقة . انتهى القداس وأخذت الأجراس ترن ، وأصدر العريف الأقدم أمره ، وهو قوزاقي عجوز شجاع يحمل نياشين خدمة طويلة ، فانتظم الشباب صفين طويلين ملتويين . وتراكض العرفاء جيئة وذهاباً لتنظيم اصطفافهم .

وهدر العريف «مراتب!» ، ثم صاح وهو يحرك يده بصورة مبهمة : «تجمع في أربع!»

ثم دخل الاتمان الى فناء الكنيسة مرتدياً بزة المناسبة ومعطف ضباط جديد ، ومهمازاه يجلجلان ، يتبعه شرطي عسكري .

كان غريغوري ميليخوف واقفاً الى جانب ميتكا كورشونوف ، وسمعه يقول بصوت خافت :

ـ جزمتي تضغط على قدمي . لا أستطيع صبراً .

ـ أثبت ، انهم سيجعلونك اتماناً .

ـ سوف نمضي عما قريب .

وكما لو تأكد ظنه ، فقد ارتد العريف الأقدم خطوة أو خطوتين ، واستدارعلى عقبيه بحدة ، وصاح :

ـ الى اليمين ، در...

وصلت الى المسامع طقطقة أقدام خمسمئة شخص يستديرون بدفعة واحدة الى اليمين .

ـ الى الأمام ، سرا

ومضى الطابور خلال البوابة المفتوحة للكنيسة ، والتمعت القبعات وهي تخلع عن الرؤوس وتردد صدى وقع الأقدام في أنحاء الكنيسة حتى القبة .

لم يعر غريغوري أي اهتمام لكلمات يمين الولاء الذي تلاه القس . كان ينظر الى ميتكا كورشونوف الذي يحرك قدمه ووجهه يتلوى ألماً من جزمته الجديدة الضيقة . وأخذت ذراع غريغوري المرفوعة تخدر ، وخليط مؤلم من الأفكار يدور في ذهنه . وحينما وصل الى الصليب وقبل فضته ، تذكر أكسينيا ، وزوجته . وبفجاءة وميض البرق المتشعب ، لاحت له صورة الغابة ، وجذوعها وأغصانها البنية يغطيها زغب أبيض ، والبريق المخضل لعيني أكسينيا السوداوين تحت عصابة رأسها...

وحينما انتهى الاحتفال سيقوا الى الساحة ، واصطفوا من جديد ، تمخط العريف ومسح أصابعه خلسة ببطانة معطفه ، وخاطبهم :

ـ إنكم لم تعودوا صبية الآن ، لقد غدوتم قوزاقاً . لقد أقسمتم اليمين ، وعليكم أن تفهموا ما يعني ذلك ، لقد صرتم قوزاقاً وعليكم أن تحافظوا على شرفكم ، أن تطيعوا آباء كم وأمهاتكم وما الى ذلك . كنتم صبية ذات مرة ، وكان لكم هزلكم وألعابكم ـ أظن أنكم اعتدتم أن تلعبوا «الحاح»* في

---

* الحاح : مصطلح عراقي للعبة الاطفال التي يرفع فيها وتد خشبي صغير يوضع على الأرض بضربه بطرف عصا ، فإذا ماارتفع قليلاً ضرب بالعصا في الهواء . المترجمون

الدروب ـ لكن الآن عليكم أن تفكروا بخدمتكم العسكرية القادمة . وبعد عام من الزمن سيستدعونكم للجيش...

هنا تمخط العريف مرة أخرى ، ونفض يده لينظفها من المخاط ، وختم خطبته وهو يلبس قفازيه المصنوعين من فراء الأرنب :

ـ يجب على آبائكم وأمهاتكم أن يفكروا بإعداد تجهيزاتكم . يجب أن يزودوكم بحصان للجيش ، و ، ، والآن ، إذهبوا الى بيوتكم ، والله معكم ، يا أولادي .

بالقرب من الجسر انتظر غريغوري وميتكا بقية أولاد قريتهما ، وانطلقوا إليها سوية . عادوا سيراً على امتداد الدون . كان دخان مواقد الأكواخ ينعقد حزماً فوق قرية بازكي ، وكانت ثمة أجراس كنيسة تدق ضعيفة . وكان ميتكا يحجل وراء الآخرين متكئاً على عصا معقدة اقتطعها من سياج .

نصحه أحد الأولاد :

ـ اخلع جزمتك .

فأجاب ميتكا مترددا :

ـ ستصاب قدمي بضربة صقيع .

ـ تستطيع أن تظل بجوربك .

فجلس ميتكا على الثلج ونزع جزمته بجهد . ثم استأنف سيره ، وهو يخطو بتثاقل على قدمه المجوربة . وكان جوربه المحاك السميك يترك اثرا حادا على الثلج الهش .

تساءل اليكسي بيشنياك القميء :

ـ أي طريق سنسلك ؟

فاجاب غريغوري عن الجميع :

ـ على امتداد الدون .

ومضوا ، يتحدثون وأحدهم يدفع الاخر خارج الطريق أو يوقعه أرضاً ،

فيتكوم عليه الآخرون . وبين بازكي وكرومكوفسكي كان ميتكا أول من شخص ذئباً يعبر الدون .

ـ انظروا ، ياأولاد . ذاك ذئب !

فشرع القوزاق الشباب يصرخون ويزعقون . فابتعد الذئب ببطء ، ثم توقف في وضع جانبي ليس بعيداً عن الضفة المقابلة .

ـ أمسكه !

ـ حقاً !

ـ ليأخذك الشيطان !

ـ إنه ينظر اليك ، ياميتكا ، أنت تمشي في جوربك .

ـ يقف في وضع جانبي لأن رقبته لاتسمح له بالاستدارة !

ـ يالرقبته الغليظة !

ـ انظر ، هو ذا يذهب !

وقف الهيكل الرمادي منتصباً لحظة ، كما لو كان منحوتاً من حجر الصوان وذيله مرتفع ، ثم قفز قفزة عجلى وانسل مبتعدًا داخل الصفصاف المؤطر للشاطىء .

وصلوا القرية في الغسق . فاتخذ غريغوري طريقه على امتداد الجليد الى الممشى الصاعد الى داره .كانت ثمة زحافة مهملة في الفناء ، وكانت العصافير ترفرف على كومة من الدغل ملقاة على مقربة من السياج . واستشعر رائحة المنزل ، والهباب المحروق ، ورائحة الاصطبلات الوخمة .

صعد غريغوري درجات الدار ونظر الى الداخل خلال النافذة . كان المصباح المدلى ينشر ضوءاً اصفر باهتاً في المطبخ . وكان بيوتر واقفاً في الضوء وظهره الى النافذة . فنفض غريغوري الثلج من جزمته بالمقشة عند الباب ، ودلف الى المطبخ وسط عصفة من البخار .

ـ حسنا ، هاأنذا قد عدت . مساء الخير !

فأجاب بيوتر بلهجة مضطربة مستعجلة :

ـ لقد عدت بسرعة . أحسب أنك متجمد .

كان بانتلاي بروكوفتش جالسا ورأسه بين يديه ، ومرفقاه على ركبتيه . وكانت داريا تغزل على الدولاب الطنان وناتاليا تقف الى المائدة وظهرها الى غريغوري ، ولم تستدر لدى دخوله . وأجال غريغوري نظره في أرجاء المطبخ ثم ثبت عينيه على بيوتر . ونمّ وجه أخيه المترقب عن حدوث شيء سيء .

ـ هل أقسمت اليمين ؟

ـ نعم .

خلع غريغوري ملابسه ببطء ، محاولاً كسب الوقت وهو يقلب بسرعة في ذهنه كل الاحتمالات التي تكون قد أدت الى هذا الاستقبال البارد الصامت .

وخرجت ايلينشنا من غرفة الزوار بوجه يعبر عن قلقها .

وحدث غريغوري نفسه فيما هو يجلس الى المصطبة الى جانب أبيه : «إنها نتاليا !»

وقالت أمه لداريا وهي تشير بعينيها الى غريغوري : «أحضري له بعض العشاء» فتوقفت داريا عن أغنية غزلها ، ومضت الى الموقد وقوامها الفتي يتمايل عند الخصر وهي تحرك بكتفيها . كان الصمت مطبقاً على المطبخ ، لا يقطعه سوى تنفس ثقيل لعنزة ووليدها الجديد التي تتدفأ بالقرب من الموقد .

وبينما كان غريغوري يرتشف حساءه ، اختلس النظر الى ناتاليا بيد أنه لم يستطع أن يرى وجهها ، اذ كانت تجلس منحرفة عنه ، ورأسها محني على إبر حياكتها . وكان بانتلاي بروكوفتش أول من استفزه الصمت الشامل ليتكلم فتنحنح بافتعال ، وقال :

ـ إن ناتاليا تتحدث عن عودتها الى والديها .

ضغط غريغوري بيده على بعض فتات الخبز وكوره ، ولم يقل شيئاً .

فتساءل أبوه وشفته السفلى ترتعش ، وهذه أولى علامات النذير بانفجار جنوني مقبل :

ـ ولم هذا ؟

فأجاب غريغوري وهو ينهض ويرسم علامة الصليب عليه ، ثم ضيق عينيه وأبعد قصعته :

ـ لست أدري .

فرفع أبوه صوته :

ـ لكنني أدري!

فتدخلت ايلينشنا :

ـ لا تصرخ ، لاتصرخ!

ـ لكنني أدري!

وتقدم بيوتر من النافذة الى وسط الغرفة وقال :

ـ ليس هناك مايدعو للصراخ . الأمر متروك لها . إذا أرادت البقاء يمكنها أن تبقى ، وإذا لم ترد ، حسناً... فليكن الله معها!

ـ إنني لا ألومها . لا شك أنه عار وخطيئة أمام الله أن تترك زوجها ، لكنني لا ألومها . ليس الخطأ خطأها ، لكن خطأ ابن القحبة هذا .

وأشار الى غريغوري الذي كان متكئاً بظهره على الموقد .

فتساءل غريغوري :

ـ لمن أسأت ؟

ـ ألا تعرف ؟ ألا تعرف ، ياشيطان ؟

ـ كلا لا أعرف .

فقفز بانتلاي بروكوفتش ، قالباً المصطبة ، ومضى لصق غريغوري . وأسقطت ناتاليا جوربها ، وندّ صوت عن الابر الساقطة على الارض . وعلى الصوت نطت قطيطة من الموقد وبدأت تطبطب كرة الصوف باتجاه الصندوق ، وقد مال رأسها الى جانب وتقوس مخلبها .

وبدأ العجوز يتكلم مسيطراً على نفسه ومقطعاً كلماته :

ـ ما أريد أن أقوله لك هو : إذا لم تعش مع ناتاليا ، فبوسعك ان تجلو عن هذه الدار وتذهب حيثما تحملك قدماك . هذا ما أقوله لك . اذهب حيثما تحملك قدماك . ـ كرر العجوز ذلك في صوت هادىء ، عادي ، ثم استدار وعدّل المصطبة .

كانت دونيا جالسة على الفراش وعيناها المستديرتان المذعورتان تمرقان من واحد الى آخر .

وانبعث صوت غريغوري خاوياً في نبرته :

ـ إن ما أقوله ياأبتاه ، ليس لإثارة غضبك . أنا لم أتزوج باختياري ، أنت الذي زوجتني . أما بشأن ناتاليا فلست أقف في طريقها . تستطيع ان تذهب الى أبيها إذا شاءت .

ـ أخرج من هنا !

ـ سأفعل !

ـ اذهب الى الشيطان !

ـ انا ذاهب ، انا ذاهب ، لاتستعجل .

ومد غريغوري يده الى كم سترته الفرو ، الموضوعة على السرير ، وتوسع منخراه ، وكل بدنه يرتجف غضباً فائراً كأبيه تماماً . ففي عروقهما جرى ذات المزيج من الدم التركي والقوزاقي ، كان تشابههما في تلك اللحظة خارقاً للعادة .

وتأوهت ايلينشنا وهي تمسك بذراع غريغوري : «أين ذاهب ؟» لكنه دفعها عنه بقوة ، وأمسك بقبعته التي كانت تسقط عن السرير .

فأرعد العجوز دافعاً الباب على مصراعيه :

ـ دعيه يذهب ، هذا الخنزير الأثيم! دعيه يذهب ، عليه اللعنة! امض ، امض ، اخرج .

فجرى غريغوري الى درجات العتبة ، وكان آخر صوت سمعه ، بكاء ناتاليا المرتفع المتفجر .

أطبقت الليلة الزمهرية قبضتها على القرية ، وكان هناك ثلج إبري سقط من السماء السوداء ، وتشقق الجليد على الدون مرسلاً صدى كطلقات مدفع . ركض غريغوري لاهثاً خارج البوابة . وفي طرف القرية البعيد كانت الكلاب تنبح متنافرة ، ونقاط من الضوء صفر ، تشع خلال الغبش الصقيعي .

سار في الشارع بلا هدف . كان سواد نوافذ استاخوف يتلألأ في لمعان ماسي .

وتناهت الى سمعه صرخة ناتاليا اللهفى من البوابة : «غريشا!»

ـ اذهبي الى الجحيم ، لم أعد أحبك! ـ وصر غريغوري على أسنانه واستحث خطاه .

ـ عد ، ياغريشا!

ودلف ، متعثراً كالسكران ، في أول تقاطع طريق ، وتناهت إليه للمرة الأخيرة صرختها النائية الملتاعة :

ـ غريشا ، يا حبيبي...

اجتاز الساحة مسرعاً ، ثم توقف عند مفترق طريق ، مفكراً عند من يقضي الليلة . واستقر رأيه على ميشا كوشيفوي . كان يعيش مع أمه وأخته وأخويه الصغيرين في دار منفردة مسقوفة بالقش تقع الى جانب التل مباشرة . دخل غريغوري إلى حوشهم ونقر على النافذة الصغيرة...

ـ من هناك ؟

ـ هل ميشا هنا ؟

ـ نعم ، من يريده ؟

ـ أنا ، غريغوري ميليخوف .

وبعد لحظة فتح ميشا الباب وقد أوقظ من بداية نومه العميق :

ـ أهذا هو أنت ، غريشا ؟

ـ هو أنا .

ـ ماذا تريد في هذا الوقت من الليل ؟

ـ دعني أدخل ، وسنتحدث في الداخل .

وفي الممر ، أمسك غريغوري بمرفق ميشا ، وهمس وهو يلعن نفسه لأنه لم يستطع أن يجد الكلمات المناسبة :

ـ أريد أن أقضي الليلة عندك . لقد تعاركت مع أهلي . ألديك مكان لي ؟ أي مكان سيكون صالحاً .

ـ سنجد لك مكاناً . وعلام تعاركت ؟

ـ سأخبرك فيما بعد... أين الباب ؟ هنا ؟ أنا لا أستطيع أن أراه .

أعدوا فراشاً لغريغوري على المصطبة . فاستلقى ، ورأسه مدسوس تحت فروته لكي لا يسمع همس أم ميشا التي كانت تنام مع ابنتها في فراش واحد . ساءل نفسه عما عسى أن يحدث في البيت آنذاك ؟ هل ستعود ناتاليا الى أبيها أم لا ؟ حسناً ، لقد اتخذت الحياة منحى جديداً . أين عليه أن يذهب ؟ وجاءه الجواب سريعاً . سيستدعي أكسينيا في الغد ، ويذهب معها الى الكوبان ، بعيداً من هنا... بعيداً ، بعيداً جداً...

طافت أمام عيني غريغوري المغمضتين سهوب متموجة ، قرى ، قصبات مجهولة لا يشعر نحوها بحب . وراء التلال المتموجة ، وراء الدرب الرمادي الطويل ، تمتد أرض ذات سماوات زرق ، ترحب به ، أرض أسطورية ، مصحوبة بحب أكسينيا ، بكل عنفوانه المتمرد والمتفتح في وقت متأخر ، ليضفي عليها فتنة أشد .

أقض المستقبل المجهول مضجعه . وقبل أن يغفو في النهاية ، حاول جاهداً أن يتذكر ما كان يضايقه . كانت أفكاره ، وهو وسنان تنساب بسهولة ويسر ، كما ينساب زورق مع التيار ، ثم ترتطم فجأة بشيء ما ، كما يرتطم الزورق بضفة رملية ، فيتقلب من جنب الى جنب شاعراً بضغط على صدره وساءل نفسه . ترى ، ماكان ذلك الشيء الذي اعترض دربه ؟

استيقظ في الصباح وتذكر في الحال ماهو ـ إنه الخدمة العسكرية! كيف

يستطيع أن يرحل مع أكسينيا ؟ فثمة في الربيع معسكر التدريب ، وفي الخريف تجنيده في الجيش . ذلك هو العائق في دربه .

تناول بعض الإفطار ، ثم نادى ميشا إلى الممر ، وقال له :

ـ ميشا ، اذهب الى دار استاخوف من أجلي ، رجاء ؟ قل لاكسينيا أن توافيني عند الطاحونة الهوائية هذا المساء بعد حلول الظلام .

فقال ميشا متردداً :

ـ ولكن ماذا عن ستيبان ؟

ـ قل إنك جئت لأمر أو لآخر .

ـ حسناً ، سأذهب .

ـ أخبرها أن لا بد من المجيء .

ـ حسناً .

وفي المساء ، ذهب غريغوري الى الطاحونة وجلس هناك يدخن ، وهو يخبىء سيكارته بكمه ، كانت الريح تتعثر ، وراء الطاحونة بعيدان الذرة الذاوية . وخفقت خرقة ممزقة من الجنفاص على شراع الطاحونة الساكن المقيد . وبدا لغريغوري كأن طائراً كبيراً يرفرف فوقه ، دون أن يقوى على الطيران . لم تظهر أكسينيا . كانت الشمس قد غابت في المغرب بلون بنفسجي مذهب ذاو ، ومن الشرق شرعت الريح تهب منعشة . وكانت الظلمة تستبق القمر المضفور بين أوراق الصفصاف . وفوق الطاحونة ، كانت السماء المخضبة ، ذات الخطوط الزرق ، مظلمة كالموت . وحومت على القرية آخر أصوات النهار المليء بالعمل .

دخن ثلاث سكاير متوالية ، ودس العقب الأخير في الثلج الذي وطأته الأقدام ، وتفرس حوله بحقد وقلق . وبدت في الثلج آثار دكناء نصف مذابة لعربات مرت من هناك . لم يكن ثمة إنسان على مرمى البصر . قام ، وتمطى ، وتحرك صوب الضياء المتلألىء في نافذة ميشا الذي كان يدعوه إليه . وكان يتقدم ناحية الحوش ، وهو يصفر بين أسنانه ، فاذا به يصطدم

باكسينيا وجهاً لوجه . يبدو أنها كانت تجري أو كانت تمشي بسرعة ، إذ كانت مبهورة النفس ، تنبعث من فمها البارد المنعش نفحة من ريح الشتاء أو ربما رائحة عشب السهب النضر .

ـ انتظرت وانتظرت حتى ظننت أنك لن تأتي .

ـ كان عليَّ أن أتخلص من ستيبان .

ـ لقد تجمدت بسببك أيتها البائسة!

ـ أنا دافئة ، سأدفئك .

ونشرت معطفها المبطن بالصوف ، ولفت نفسها حول غريغوري كما يلتف نبات متسلق على شجرة بلوط .

ـ لماذا أرسلت إلي ؟

ـ ارفعي ذراعيك عني ، فقد يمر شخص من هنا .

ـ لعلك تعاركت مع أهلك ، أليس كذلك ؟

ـ لقد تركتهم . قضيت الليلة عند ميشا . وأنا الآن كلب ضال .

ـ وما الذي ستفعل الآن ؟

وأرخت اكسينيا ذراعيها ، وسحبت معطفها بإحكام وهي ترتعش برداً .

ـ لنذهب الى السياج ، ياغريشا . لا نستطيع أن نظل واقفين هنا في وسط الطريق .

وانعطفا عن الطريق ، واستند غريغوري الى سياج من الاسفندان ، صقيعي مطقطق ، وهو يشق طريقه في الثلج المكتوم .

ـ هل ذهبت ناتاليا الى أهلها أم لا ؟

ـ لاأعرف... وأتوقع أن تذهب . كيف يمكنها أن تبقى هناك ؟

ودس غريغوري يد اكسينيا المتجمدة في كم معطفه ، وقال وهو يعتصر رسغها النحيف :

ـ وماذا بشأننا ؟

ـ لاأدري ، ياعزيزي . الرأي ماترتأي .

ـ هل تتركين ستيبان ؟

ـ بلا آهة ندم . هذا المساء ، إن شئت .

ـ وسنجد عملاً في مكان ما ، وسوف نعيش بشكل من الأشكال .

ـ عسى أن يشدني الى عريش العربة ، مادمت معك ، ياغريشا . أرضى بأي شيء في سبيل أن أبقى معك .

وقفا متلاصقين ، يدفىء أحدهما الآخر . لم يشأ غريغوري أن يذهب ، كان يقف مواجهاً الريح ، ومنخراه يرتعشان ، وجفناه مطبقان وجعلت أكسينيا ، وجهها في ابطه ، تتنسم رائحة عرقه المألوفة المسكرة ، وعلى شفتيها الشرهتين بلا حياء ، ارتعشت ابتسامة جذلى بسعادة متحققة أخفتها عن عيني غريغوري .

وقال غريغوري وهو يغير موضع قبضته على رسغ اكسينيا الذي صار رطباً بالعرق تحت أصابعه :

ـ سأذهب في الغد لأرى موخوف . قد يستطيع أن يسند إليّ عملاً .

لم تتكلم اكسينيا أو ترفع وجهها . وانداحت الابتسامة من وجهها كريح تتبدد . وأضفى على عينيها المتسعتين القلق والخوف الكامنان فيهما ، صورة حيوان مذعور . وقالت لنفسها حينما تذكرت بأنها حبلى : «هل أخبره أم لا ؟» وقررت : «يجب أن أخبره» لكنها ، في الحال أبعدت الخاطر الفظيع وهي ترتعش خوفاً . فقد تحسست بغريزة المرأة بأن هذه ليست اللحظة المناسبة لإخباره ، وأدركت أنها قد تفقد غريغوري الى الأبد . وأدخلت في حسابها أنها غير متأكدة ما إذا كان الجنين المتوثب تحت فؤادها ابن غريغوري أو ستيبان ، فراوغت ضميرها ولم تخبره .

سألها غريغوري وهو يلف معطفه حولها : ـ لم ترتعشين ؟ أنت بردانة ؟

ـ قليلاً... ويجب أن أذهب ، ياغريشا . سيعود ستيبان ولا يجدني .

ـ أين ذهب ؟

ـ الى بيت انيكاي ليلعب الورق . أرغمته على ذلك .

وافترقا . وبقيت نفحة شفتيها المثيرة على شفتي غريغوري... نغمة الريح الشتائية ، أو ربما تلك الرائحة النائية التي تنبعث من العشب عقب زخة مطر ربيعية على السهب .

انعطفت اكسينيا في درب جانبي ، ومضت ، منحنية بشدة وهي تكاد تعدو . وبالقرب من بئر ، حيث كانت القطعان قد خلطت الوحل الخريفي ، تعثرت بارتباك وزلت قدمها فوق كتلة متجمدة ، فأحست بألم حاد في بطنها وتعلقت بالسياج . ثم تلاشى الألم ، لكن في جنبها كان ثمة شيء ما ، حي مختلج ، يدفر ، بغضب وقوة ، مرة تلو الأخرى .

١١

في الصباح التالي ، ذهب غريغوري ليرى موخوف . وكان موخوف قد عاد لتوه من الحانوت ، وكان يجلس مع اتيوبين في غرفة الطعام ، ذات الحيطان المغطاة بورق نفيس بلوطي اللون ، وهو يرتشف شاياً ثقيلاً ، بنفسجياً محمراً ترك غريغوري قبعته في الردهة ودخل .

ـ لي كلمة معك ، يا سيرغي بلاتونوفتش .

ـ اه ، ابن بانتلاي ميليخوف ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ ماذا تريد ؟

ـ جئت أسألك ان كنت تستطيع أن تسند لي عملاً .

وبينما كان غريغوري يتكلم ، صر الباب فادار رأسه ورأى ضابطاً شاباً يرتدي سترة عسكرية خاكية وعلى كتفه شارات ملازم أول وفي يده جريدة مطوية . وتبين غريغوري فيه ليستنتسكي الشاب الذي غلبه ميتكا كورشونوف في سباق الخيل في الصيف الماضي . فقدم موخوف كرسياً للضابط ، والتفت ثانية الى غريغوري ، وتساءل :

ـ هل جارت الدنيا على أبيك ليدفع ابنه للعمل ؟
ـ أنا لم أعد أعيش معه .
ـ تركته ؟
ـ نعم .
ـ حسناً ، كان بودي لو آخذك . انني أعرف أن عائلتك أناس مجدون لكنني أخشى أن ليس لدي أي عمل لك .
فتساءل ليستنتسكي جالساً وناظراً الى غريغوري :
ـ ماالأمر ؟
ـ هذا الفتى يبحث عن عمل .
فسأل الضابط وهو يحرك ملعقته في فنجانه :
ـ أتستطيع أن تعنى بالخيل ؟ أتستطيع أن تقودها مشدودة على العربة ؟
ـ أستطيع . فقد كنت أعنى بخيولنا الست .
ـ أريد حوذياً . ماهي شروطك ؟
ـ لاأطمع بالكثير .
ـ في هذه الحالة ، تعال الى والدي في ضيعتنا غداً . أتعرف البيت ؟
ـ أجل ، أعرف ذلك .
ـ حوالي اثني عشر فرسخاً من هنا . إذن ، تعال غداً صباحاً وسنسوي الأمر .
مضى غريغوري الى الباب . وفيما أدار المقبض ، تردد ، وقال :
ـ بودي أن أسر إليك بشيء فيما بيننا ، ياصاحب السعادة .
فتبع ليستنتسكي غريغوري خارجاً من الممر المعتم . كان ثمة ضياء وردي يترشح باهتاً خلال الزجاج الفينيسي في الباب المؤدي الى الشرفة .
ـ حسنا ، ماذا تريد ؟
ـ لست وحدي... . ـ واحمر وجه غريغوري بشدة ـ معي امرأة... . ربما تستطيع ان تجد شيئا تعمله ؟

فاستفهم ليستنتسكي مبتسماً ورافعاً حاجبيه اللذين صبغهما الضوء الوردي .

ـ زوجتك ؟

ـ زوجة شخص آخر... .

ـ اوه ، هكذا . حسناً ، سنجعلها طاهية للخدم . ولكن أين زوجها ؟

ـ هنا في القرية .

ـ إذن فقد سرقت زوجة رجل آخر ؟

ـ هي أرادت أن تأتي .

ـ قصة غرام! حسناً ، تعال غداً . تستطيع أن تذهب الآن .

وصل غريغوري الى ضيعة ياغودنويه حوالي الساعة الثامنة صباح اليوم التالي .

وكان الفناء الكبير محاطاً بحائط من طابوق متقشر تناثرت عليه مختلف البنايات . كان هناك جناح ذو سقف قرميدي ، سجل تاريخ ١٩١٠على قرميدة من لون آخر فيه ، وهناك جناح للخدم ، وحمام ، واصطبلات ، وبيت للدجاج وحظيرة للماشية ، ومخزن طويل للحبوب ومأوى للعربات . كان البيت واسعاً وقديماً ، وقد استقر وسط بستان . وراء البيت ارتفع جدار رمادي من أشجار الحور الجرد وصفصاف المروج ، تتأرجح من قممها البنية أعشاش زاغ فارغة .

ما أن دخل غريغوري الى الفناء حتى استقبله حشد من الكلاب السوداء القرمية* . وكانت ثمة كلبة عجوز ، دبقة العينين ، عرجاء أول من تشممته وتبعته مدلاة الرأس . وفي جناح الخدم كانت طباخة تتشاجر مع خادمة نمشاء شابة . وكان يجلس على عتبة الباب عجوز ريفي غليظ الشفتين ، تلفه سحابة من دخان التبغ . قادت الخادمة غريغوري الى البيت . وفاح البهو

* كلاب صيد روسية يؤتى بها من شبه جزيرة القرم . المترجمون

برائحة الكلاب والفراء الرطب . وعلى منضدة هناك كانت حقيبة بندقية ذات ماسورتين وحقيبة صيد ذات كشكش حريري أخضر تآكلت أطرافه .

قالت الخادمة لغريغوري خلال باب جانبي : «السيد الشاب يدعوك للدخول» .

فنظر غريغوري بقلق الى جزمته الموحلة ، ودخل . كان ليستنتسكي مستلقياً على سرير الى جانب النافذة . وكانت على اللحاف المحشو بريش البط القطبي ، علبة تحتوي تبغاً وأدوات تدخين . أعد الضابط سيكارة له ، وزرر ياقة قميصه الأبيض ، وقال :

ـ جئت قبل الموعد . انتظر فسيراك أبي هنا خلال دقيقة . وقف غريغوري بجانب الباب . وسرعان ما سمع وقع أقدام في غرفة الانتظار وصوتاً عميقاً يتساءل خلال الباب : «أنائم أنت ، يا يفغيني ؟»

ـ ادخل .

ودخل عجوز يرتدي حذاء لبادياً أسود قفقاسياً ، فرمقه غريغوري بنظرة جانبية . وسرعان ما اصطدم بالأنف المعقوف الأقنى ، والقوس الأبيض لشاربه ذي البقعة الصفراء تحت الأنف من أثر التبغ . كان ليستنتسكي العجوز طويلاً . عريض المنكبين . إلا أنه ضامر . كان يرتدي قمصلة طويلة من وبر الجمال ، تدلت في انسياب ، وياقتها تلتف كالأنشوطة على رقبته المجعدة السمراء . وكانت عيناه الذابلتان قريبتين إلى جسر أنفه .

ـ بابا ، ها هو الحوذي الذي حدثتك عنه . الفتى من عائلة محترمة .

فتساءل العجوز بصوت هادر :

ـ ابن من هو ؟

ـ ابن ميليخوف .

ـ أي ميليخوف .

ـ ابن بانتلاي ميليخوف .

ـ كنت أعرف بروكوفي . وأتذكر بانتلاي أيضاً . أعرج ، أليس كذلك ؟

فأجاب غريغوري ، وهو ينتصب كوتر .

ـ أجل ، يا صاحب المعالي .

واستعاد غريغوري حكايات أبيه عن الجنرال المتقاعد ليستنتسكي ، أحد أبطال الحرب الروسية التركية .

تساءل العجوز :

ـ لماذا تبحث عن عمل ؟

ـ أنا لا أعيش مع أبي ، يا صاحب المعالي .

ـ أي قوزاقي ستكون إذا أجرت نفسك للغير ؟ ألم يزودك أبوك بشيء حينما تركته ؟

ـ لا ، يا صاحب المعالي .

ـ هذا أمر آخر . تريد عملا لزوجتك كذلك ؟

صر سرير ليستنتسكي الشاب بقوة ، فنظر غريغوري باتجاهه ورأى الضابط يغمز له ، ويحرك رأسه بالإيجاب .

ـ هذا صحيح ، يا صاحب المعالي .

ـ بلا «معاليك» هذه ، أنا لا أحبها . ستكون أجرتكما ثمانية روبلات شهرياً ، ستطهو زوجتك الطعام للخدم والشغيلة الموسميين . أيرضيك هذا ؟

ـ نعم .

ـ انتقل الى هنا صباح الغد . ستشغلان جناح الحوذي السابق .

وسأل ليستنتسكي أباه ، وهو ينزل قدميه الضيقتين الى السجادة :

ـ كيف كان الصيد يوم أمس ؟

ـ بدأنا بمطاردة ثعلب وطاردناه الى الغابة ، لكنه كان عجوزاً واستطاع أن يخدع الكلاب .

ـ أما يزال كازبك يحجل ؟

ـ لا بد أن عظام قدمه قد انخلعت . هيا ، يفغيني ، الفطور سيبرد .

واستدار العجوز نحو غريغوري وطق أصابعه الهزيلة .

ـ عادة سر! كن هنا في الثامنة .

وخرج غريغوري . في الطرف البعيد لمخزن الحبوب ، كانت كلاب الصيد تتشمس على رقعة من الأرض عارية من الثلج . وجاءت الكلبة العجوز تخب نحو غريغوري ، فتشممته من الخلف وتبعته قليلاً ورأسها ما يزال مدلى بشكل يدعو للأسى ، ثم قفلت عائدة .

١٢

فرغت اكسينيا من المطبخ مبكرة . جرفت الجمر وأغلقت المدخنة وغسلت الصحون ، وألقت نظرة عجلى خلال الشباك المطل على الحوش . كان ستيبان يقف الى جانب كومة الخشب الملاصقة للسياج الذي يفصل حوشهم عن حوش ميليخوف ، وقد تدلت من زاوية شفتيه الصارمتين سيكارة دخنت الى النصف . كانت زاوية الحظيرة اليسرى قد تهدمت ، وكان يجب وضع عمودين متينين .

عملت اكسينيا ذلك الصباح ووجنتاها موردتان وفي عينيها بريق فتي . ولاحظ ستيبان التحول عليها ، ولم يستطع أثناء فطوره ، إلا أن يتساءل : «ماذا بك ؟»

فرجعت اكسينيا صداه ، متوردة الوجه «ماذا بي ؟»

ـ إن وجهك يتلامع وكأنك لطخته بالدهن .

ـ إنها حرارة النار .

وأشاحت وجهها عنه واختلست نظرة عبر الشباك لترى إن كانت أخت ميشا كوشيفوي قادمة .

لكن الفتاة لم تصل إلا عند الغروب . وكان الانتظار قد أمض اكسينيا ، فابتدرتها قائلة :

ـ أتريدينني ، يا ماشوتكا ؟

ـ تعالي لحظة .

كان ستيبان واقفاً أمام قطعة مرآة مثبتة على الموقد المبيض بالجبس يمشط خصلته وشاربه الكستنائي بمشط قصير مصنوع من قرن الثور . نظرت اكسينيا نحوه في قلق .

ـ أتريد أن تخرج ؟

لم يجب في الحال ، بل وضع المشط في جيب بنطلونه ، والتقط علبة ورق وكيس تبغه اللذين كانا ملقيين على حافة الموقد . ثم قال :

ـ أنا ذاهب الى انيكوشكا لبعض الوقت .

ـ ومتى بقيت في البيت ؟ أنت تقضي كل ليلة في لعب القمار ، وطوال الليل ، أيضاً . حتى صياح الديوك .

ـ حسناً ، لقد سمعت هذا الكلام من قبل .

ـ هل ستلعب البونثون من جديد ؟

ـ اوه ، كفى ، اكسينيا ، انظري ، ثمة من جاء ليراك .

فتراجعت اكسينيا الى الممر . حيتها ماشوتكا ذات الوجه الوردي وهي تبتسم .

ـ عاد غريشا .

ـ طيب ؟

ـ طلب مني أن أبلغك بالحضور الى منزلنا حالما يحل الظلام .

فأمسكت اكسينيا يد الفتاة وسحبتها صوب الباب الخارجي وقالت :

ـ على مهلك ، على مهلك ، ياعزيزتي! هل طلب أن تقولي شيئاً آخر ؟

ـ قال أن عليك أن تجمعي حوائجك ، وتأخذيها معك .

فألقت اكسينيا نظرة سريعة ناحية باب المطبخ وهي تلتهب وترتعد دون أن تستطيع تثبيت قدميها على الأرض .

ـ ياإلهي ، كيف يمكنني أن... بهذه السرعة ؟ طيب... اسمعي . أخبريه أنني سأحضر حالما أستطيع . ولكن أين سيلقاني ؟

ـ عليك أن تأتي الى منزلنا .

ـ أوه ، لا!

-حسناً ، سأخبره أن يخرج وينتظرك .

كان ستيبان قد ارتدى سترته حينما دخلت اكسينيا ، ومد جسمه الى مصباح متدل من السقف ليشعل سيكارته ، فسألها بين نفثتين من سيكارته :

ـ ماذا تريد ؟

ـ من ؟

ـ ابنة كوشيفوي .

– اوه ، جاءت تسألني أن أفصل لها تنورة .

اتجه ستيبان الى الباب وهو ينفض سيكارته . وقال فيما مضى خارجاً : «لا تنتظري رجوعي ونامي» .

جرت اكسينيا الى النافذة المغطاة بالجمد وجثت على ركبتيها أمام المصطبة . خشخشت أقدام ستيبان على الممشى المسحوق بالأقدام وهو يتجه الى البوابة . وحملت الريح شرارة من سيكارته وعادت بها الى النافذة . واختطفت اكسينيا نظرة في ضوء سيكارته الى قبعته الفرو ومخطط وجنته السمراء ، خلال دائرة على الزجاج ذاب عنها الجمد .

وبحركة محمومة أخرجت السترات والتنورات وعصابات الرأس ـ أي جهاز عرسها ـ من الصندوق الكبير وألقت بالجميع في شال واسع . وعبرت خلال المطبخ للمرة الأخيرة ، لاهثة ، متوحشة العينين ، ظهر شخص ما من بيت ميليخوف ليرى الماشية . فتريثت حتى تلاشى وقع أقدامه ، وقيدت الباب بالسلسلة ، ثم جرت هابطة الى الدون . ونفرت خصلات ملفوفة من شعرها من عصابة رأسها وجعلت تدغدغ وجنتها ، وبينما كانت تلمس دربها عبر أزقة جانبية نحو كوخ كوشيفوي ، ممسكة بصرة حوائجها ، اضمحلت قواها وصارت قدماها تشحطان ثقيلتين كالرصاص . كان غريغوري ينتظرها عند البوابة . أخذ الصرة ومضى بها نحو السهب ، صامتاً .

بعد ساحة درس الحبوب ، أبطأت اكسينيا خطاها وجذبت غريغوري وقالت : «انتظر لحظة» .

ـ لماذا ؟ سيتأخر القمر الليلة ، يجب أن نسرع .

ـ انتظر ، غريشا!

وتوقفت ، وهي تتلوى من الألم . فاستدار غريغوري نحوها .

ـ مابك ؟

ـ شيء ما... في أحشائي . لابد أنني رفعت شيئاً ثقيلاً .

لعقت شفتيها الجافتين ، وهي تضيق عينيها من الألم وكأنها ترى إبراً من النار ، وأطبقت يديها على بطنها . ووقفت لحظة ، مقوسة وبائسة ، ثم استأنفت سيرها وهي تدس شعرها تحت عصابتها .

ـ حالتي حسنة الآن ، هيا بنا .

ـ لم تسألي إلى أين أنا ماض بك . ربما أقودك الى أقرب منحدر لألقيك من فوقه .

ـ سيان لدي الآن . انتهت لعبتي .

وكان صوتها يرتعش بضحكة بائسة .

في تلك الليلة عاد ستيبان في منتصف الليل كعادته . ذهب بادىء الأمر الى الاصطبل ، وأعاد التبن المتناثر الى المعلف ، وحل مقود الحصان ، ثم مضى الى الدار . وقال في نفسه وهو يحل السلسلة : «لا بد أنها خرجت لتزجية المساء» . دخل المطبخ وأغلق الباب بإحكام ، وأشعل عود ثقاب . كان حظه في اللعب مؤاتياً ذلك المساء ، ولهذا كان هادئاً نعسان . أضاء المصباح ، وفغر فاه إزاء اضطراب المطبخ ، دون أن يخمن السبب . وبشيء من الاستغراب ، مضى الى حجرة كبيرة . كان الصندوق المفتوح متثائباً وأعماقه سوداً ، وعلى الأرض سترة عتيقة نسيتها اكسينيا في غمرة استعجالها . نزع ستيبان فروته عنه وركض الى المطبخ ليحضر الفانوس . حملق ببصره في أرجاء الغرفة ، وأخيراً أدرك ماحدث . ألقى الفانوس من

يده ، ومن غير أن يعي مايفعل ، انتزع سيفه من الحائط ، وضغط على مقبضه حتى انتفخت العروق في أصابعه ورفع على نصله سترة اكسينيا الزرقاء والصفراء ، وطوح بها في الهواء ، وبأرجحة قصيرة من سيفه شطرها نصفين أثناء سقوطها .

وفي غمرة حزنه الذئبي الذي أحال ملامحه رمادية ، متوحشة قذف شقتي السترة العتيقة الى السقف مرة بعد مرة ، والفولاذ الحاد يصفر وهو يمزقها في الهواء .

ثم مزق شرابة السيف وألقى به الى الزاوية ، ومضى الى المطبخ ، وجلس الى المائدة منكس الرأس ، وبأصابع حديدية مرتجفة جعل يخط على وجه المائدة المتسخ .

١٣

إن المتاعب لا تأتي فرادى أبداً . ففي الصباح الذي تلا رحيل غريغوري ، مزق ثور ميرون غريغوريتش الأصيل بقرنيه بلعوم أحسن فرس لديه ، بسبب من إهمال هيت ـ بابا . فهرع هذا راكضاً الى البيت ، شاحباً ، مذهولاً مرتعداً :

ـ مصيبة ، ياسيدي! الثور ، عليه اللعنة ، الثور الملعون...

فتساءل ميرون غريغوريتش فزعاً :

ـ طيب . ماذا عن الثور ؟

ـ قتل الفرس . نطحها...

فجرى ميرون غريغوريتش ، الى الفناء دون أن يكمل ارتداء ملابسه . كان ميتكا الى جوار البئر يضرب العجل ابن الخمس سنوات بعصا . وكان الثور منكس الرأس يجر جلد رقبته المتغضن على الثلج ، وهو يدفر الثلج باظلافه ناثراً مسحوقاً فضياً على ذيله المرفوع ، ولم يحاول أن يتحاشى

الضرب . كان يخور بين الفينة والفينة بصوت أبح قصير . ويركز قدميه الخلفيتين كما لو أنه سيقفز .

كان خواره على وشك أن يتحول الى زئير مدو . ضربه ميتكا على أنفه وجبينه ، وهو يسب طوال الوقت ، غير عابىء بميخي الذي كان يحاول جره الى الوراء من نطاقه .

ـ ابتعد ، يا ميتكا... لخاطر الله ، سيبقرك! ياسيدي . ماذا تنتظر ؟

ركض ميرون الى البئر . كانت الفرس واقفة الى جانب السياج ورأسها مدلى بشكل يستدعي الأسى وكان جنباها المعتمان بالعرق يرفعان ويهبطان ، والدم ينهمر من رقبتها على صدرها . وكان ظهرها الفاقع وجنباها يرتجف مسبباً رعشات قوية في حقوها

جرى ميرون غريغوريتش ليرى رقبتها ، كان ثمة جرح فاغر في رقبتها ، وردي اللون ، يسع يد إنسان ، ويكشف عن قصبتها الهوائية . أمسكها ميرون غريغوريتش من ناصيتها ورفع رأسها ، فثبتت الفرس عينيها البنفسجيتين اللامعتين في سيدها وكأنها تسأله في خرس : «ماذا بعد ؟» وصاح ميرون غريغوريتش وكأنه يرد على سؤالها : «اجر وقل لأحدهم أن يسلق شيئاً من لحاء البلوط . أسرع!»

فركض هيت ـ بابا ، وجوزة عنقه ترتجف في رقبته القذرة ، ليكشط بعض اللحاء من شجرة ، ومضى ميتكا صوب أبيه ، وإحدى عينيه مثبتة على الثور ، وهو يدور ويخور في أرجاء الفناء .

أمره أبوه : «أمسك الفرس من ناصيتها . ليركض شخص فيجلب خيطاً من القنب بسرعة! أم تراكم تريدون صفعة على وجوهكم ؟»

ربطوا الخيط بإحكام حول شفة الفرس العليا ، المخملية ذات الشعر القليل ، لكي لا تشعر بالألم .

وجاء غريشاكا العجوز يحجل . وجيء بمحلول ، بلون ثمر البلوط في طاس مصبوغ .

ـ دعوه يبرد . إنه شديد الحرارة ، أليس كذلك ؟ ميرون ، أتسمعني ؟

ـ ادخل ، يا أبتاه . سيصيبك البرد هنا .

ـ أقول لك دعه يبرد . أتريد أن تقتل الفرس ؟

غسلوا الجرح . وبأصابع متجمدة ، نظم ميرون غريغوريتش خيطاً من القنب الخام في إبرة للرتق ، ودرز الحواف ، بشكل نظيف ، وما كاد يخطو عدة خطوات مبتعداً من البئر حتى جاءت زوجته تعدو من البيت ، والذعر بارز على خديها المترهلين الشاحبين .

ودعته وانتحت به جانباً .

ـ ميرون ، ناتاليا هنا... آه ، ياربي!

فتساءل ميرون غريغوريتش شاحب الوجه :

ـ والآن ، ماذا حدث ؟

ـ إنه غريغوري... لقد ترك بيته!

ونشرت لوكينشنا ذراعيها كزاغ يتهيأ للطيران وصفقت يديها على تنورتها ، وانفجرت تعول :

ـ يالفضيحتنا أمام القرية كلها! ياإلهي ، أية نازلة! آه!...

وجد ميرون غريغوريتش ناتاليا واقفة وسط المطبخ ، وعليها شال ومعطف شتائي قصير ، وفي عينيها نبعت دمعتان ، وكان خداها متوردين بلون عميق .

قال أبوها معتداً وهو يجري الى الغرفة :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟ هل ضربك زوجك ؟ ألا تستطيعان العيش معاً!

ـ رحل!

وأنّت ناتاليا ، وهي تبلع دمعات جافة ، وترنحت وارتمت على ركبتيها أمام أبيها

ـ أبي ، حياتي تهدمت... أعدني إليك... غريغوري رحل مع تلك المرأة . . هجرني . أبي ، سحقني في التراب!

تمتمت بسرعة ، وهي تحدق في لحية أبيها الحمراء في الأعلى متضرعة .

ـ مهلاً ، مهلاً ، الآن...

ـ ليس ثمة لي ماأعيش من أجله هناك . أعدني إليك!

وزحفت على ركبتيها الى الصندوق وألقت رأسها على ذراعيها . وسرحت عصابتها عن رأسها فسقط شعرها الأسود السبط الأملس فوق أذنيها الشاحبتين ، والدموع في مثل هذه الحالات كالمطر في جدب أيار . ضغطت الأم رأس ابنتها على بطنها الخاسفة ، هامسة بكلمات أمومية حمقاء للتهدئة ، لكن ميرون غريغوريتش جرى هائجاً ، الى درجات العتبة ، وصاح :

ـ أعدوا زحافتين!

وكان ثمة ديك على الدرجات قد حط ، منكباً ، على ظهر دجاجة ، فطار على الصيحة وقفز مبتعداً ، وسار نحو مخزن الحبوب وهو يصيح في سخط .

ـ أعدوا زحافتين!

وجعل ميرون غريغوريتش يرفس مرة وأخرى على الدرابزين المنقوش لسلم الباب حتى هشمه بصورة بائسة . ولم يعد الى البيت الا بعد أن هرع هيت ـ بابا خارجاً من الاصطبلات بزوج من الخيل وهو يعدهما أثناء عدوه .

ركب ميتكا وهيت ـ بابا عربة الى آل ميليخوف لإحضار ما يخص ناتالي . وأطار هيت ـ بابا في شروده خنزيراً صغيراً في الطريق . وكان يقول لنفسه : «ربما سينسى السيد كل شيء حول الفرس ، وهو الآن مهتم بأمر ابنته» ، وأرخى العنان في بهجة ثم تجهم وجهه وتلوث شفته حين تغير مجرى أفكاره : «لكنه شيطان عجوز لن ينسى» . وحث الخيل بصياحه وحاول أن يصفع بسوطه أرق أجزاء بطن الحصان .

١٤

كان يفغيني ليستنتسكي يشغل رتبة ملازم أول في كتيبة حرس الاتمان الخاص . وحينما كبا أثناء سباق الموانع للضباط وكسرت ذراعه اليسرى ، أخذ إجازة طويلة بعد خروجه من المستشفى وذهب ليقيم مع أبيه مدة ستة أسابيع .

وكان الجنرال العجوز يعيش بمفرده في ياغودنويه ، وكان قد فقد زوجته أثناء ركوبها عربتهما في ضواحي وارشو في ثمانينات القرن التاسع عشر ، إذ لم تصبه الطلقات التي وجهت إليه ، إنما اخترقت العربة وصرعت زوجته والحوذي وبقي ليستنتسكي وابنه يفغيني ابن العامين على قيد الحياة . وسرعان ما اعتزل الجنرال منصبه بعد هذا الحادث . وهجر ضيعته في اقليم ساراتوف ، وكانت قد منحت لجده الأكبر مكافأة لخدماته أثناء حرب عام ١٨١٢ ، وانتقل الى ياغودنويه حيث عاش حياة متقشفة صارمة .

أرسل ابنه يفغيني الى الكلية العسكرية وهو في سن المراهقة ، وأشغل نفسه بشؤون المزرعة . فابتاع خيولاً أصائل من الاصطبلات الإمبراطورية ، وهجنها بأحسن الجياد المستوردة من انكلترا ومن اصطبلات بروفالسكي المشهورة ، وربى سلالة جديدة . وجعل يربي ماشية وقطعاناً على أرضه الخاصة وعلى الأرض التي اشتراها ، ويبذر الحبوب مستخدماً عمالاً أجراءويذهب للصيد مع كلابه في الخريف والشتاء ، ومن حين لآخر يغلق على نفسه القاعة البيضاء ويظل يشرب عدة أسابيع بلا انقطاع . وكان يكدره ألم في معدته ، فمنعه طبيبه منعاً باتاً من ابتلاع أي شيء صلب ، فكان عليه أن يمتص الخلاصة من طعامه مضغاً ، ثم يبصق الفضلات على طبق فضي يمسكه خادمه الخاص فينيامين الواقف الى جانبه دائماً .

وكان فينيامين فلاحاً أسمر متوسط الذكاء ، ذا شعر أسود غزير منفوش ، عمل في خدمة ليستنتسكي ست سنوات ، وفي البداية كان عليه

أن يقف فوق الجنرال وفي يده صحن فضي ، كان يشعر بالتقزز كلما رأى العجوز يبصق الطعام الممضوغ . لكنه اعتاد ذلك بمرور الزمن .

أما قاطنو الضيعة الآخرون فهم لوكيريا الطاهية ، وساشكا ، سائس الخيل الهرم ، والراعي تيخون وغريغوري الذي أخذ يشتغل حوذيا ، واكسينيا . ومنذ اليوم الأول ، لم تكن لوكيريا ذات الوجه المجدور التي بدت بعجيزتها الكبيرة مثل قرص من العجين المفروش ، لتسمح لاكسينيا بالاقتراب من الموقد .

ـ يمكنك أن تطبخي حينما يستخدم السيد عمالاً إضافيين في الصيف . أما الآن فأستطيع أن أدبر الأمور بنفسي .

انطلقت اكسينيا في عملها ، تغسل أرضيات البيت ثلاث مرات في الأسبوع ، وتطعم العدد الذي لا يحصى من الدواجن ، وتنظف بيت الدجاج . كانت تعمل دؤوبة ، وتحاول إرضاء الجميع ، بمن فيهم الطاهية ، أما غريغوري فكان يقضي جزءاً كبيراً من وقته مع السائس ساشكا ، في الاصطبلات الفسيحة المبنية من جذوع الخشب . وكان العجوز كتلة من الشعر الأشيب ، لكن الجميع ظلوا ينادونه بألفة : «ساشكا» . ولم يخاطبه أحد باسمه الكامل واسم أبيه كما يتطلب الاحترام . أما لقبه فربما ليستنتسكي العجوز نفسه ، الذي اشتغل ساشكا عنده أكثر من عشرين عاماً ، كان قد نسيه . وكان ساشكا قد عمل في شبابه حوذيا ، ولكن ما إن تقدمت به السن ووهت قواه وأمسى بصره ضعيفاً ، حتى صار سائساً . وهو الآن قصير القامة ، يغطي جسمه شعر أشيب مخضوضر (حتى شعر يديه كان أشيب) ، وله أنف قد فرطحته هراوة في شبابه ، وكانت له ابتسامة طفولية خالدة ، ناظراً الى العالم بعينين ساذجتين تطرفان على الدوام . وكان التعبير الملائكي المرتسم على وجهه يشوه أنفه المكسور وشفته السفلى المدلاة المشقوقة . حينما كان ساشكا في الجيش ، ثمل ذات مرة وأخذ جرعة من «الماء الملكي» بدلاً من الفودكا ، فلحم السائل المحرق شفته السفلى

بذقنه ، مخلفاً ندبة ملتوية ذات وهج وردي كما لو أن وحشاً مجهولاً لحس ذقن ساشكا بلسانه الرقيق اللاذع . كان ساشكا مغرماً بالفودكا ، فإذا انتشى راح يتبختر في أرجاء الحوش كما لو كان سيداً . فيدق قدمه على الأرض ويقف تحت نوافذ غرفة نوم ليستنتسكي العجوز ويصيح بصوت عال ، وفي تجهم وهو يحرك سبابته أمام أنفه :

ـ ميكولاي ليكسييتش*!

ـ ميكولاي ليكسييتش!

فإذا كان ليستنتسكي العجوز في غرفة نومه مصادفة أتى الى النافذة وأرعد صائحاً :

ـ أنت سكران ، يا عديم النفع!

فيشيل ساشكا بنطاله الى أعلى ، ويغمز ويبتسم في مكر . وتتراقص ابتسامة منحرفة عبرَ وجهه ، ومن عينه اليسرى المغمضة ، الى الندبة الوردية اللون الممتدة من زاوية فمه اليمنى ، كانت ابتسامة عوجاء الا أنها بهيجة .

ويهز إصبعه القذر النحيل متوعداً وهو يقفز في مكانه :

ـ ميكولاي ليكسييتش ، يا صاحب المعالي ، إنني أعرفك!

فيبتسم سيده مهدئاً ، وهو يفتل شاربه المتدلي بكل أصابعه الخمس التي بقعها النيكوتين :

ـ اذهب وأغرق سكرك في النوم!

فيضحك السائس ، وهو يتقدم حتى سكة السياج :

ـ لن تستطع أن تخدعني! ميكولاي ليكسيتش ، أنت وأنا ـ يعرف أحدنا الآخر كما تعرف السمكة الماء . أنت وأنا ، نحن أغنياء . وأي غنى! ـ وهنا ، يبسط ذراعيه على امتدادهما ليصور مقدار غناهما . ـ نحن ، كما يعرفنا الجميع ، في كل أرجاء منطقة الدون ، نحن... ـ ويمسي صوت ساشكا

---

* يقصد نيكولاي اليكسييتش . المترجمون

على حين غرة مستكيناً أسيان : ـ أنا وأنت ـ ياصاحب المعالي ، كل شيء حسن سوى أن لكلينا أنفاً متعفناً!

فيسأله سيده رافعاً شاربه ، وقد استحال وجهه قرمزياً من شدة الضحك :

ـ ولم ذلك ؟

فيقول ساشكا مقطعاً الكلمات ، وهو يطرف بعينه بسرعة ويلعق لعابه الذي ينزل على ندبته :

ـ بسبب الفودكا! لاتشرب ، ياميكولاي ليكسيييتش ، وإلا انتهينا الى الافلاس ـ أنت وأنا . سنضيع كل ما لدينا على الشراب!

ـ رح واشرب بهذه عن آخرها! ـ ويلقي إليه ليستنتسكي العجوز بقطعة من فئة العشرين كوبيكا ، فيلتقطها ساشكا ويخفيها في قبعته ، ويقول منتهداً :

ـ حسناً ، مع السلامة ، ياجنرال .

فيسأله سيده مبتسماً ، وهو يعرف ما سيلي ذلك :

ـ هل أوردت الخيل ؟

ـ آه ، أيها الشيطان القذر! ياابن الخنزير! ـ ويستحيل وجه ساشكا أزرق ، ويقرقع صوته مغضياً : ـ أينسى ساشكا أن يورد الخيل ؟ حتى لو كنت ميتاً ، سأزحف أتلمس سطلاً من الماء لأورد الخيل . ويتصور أنني...

ويمضي السائس مغتاظاً من اللوم الذي لا يستحقه ، وهو يصب اللعنات ملوحاً بقبضته . كان كل ما يفعله ساشكا يقابل بالغفران ، حتى إدمانه على الشرب وزوال الكلفة بينه وبين سيده . فقد كان سائساً لا يمكن الاستغناء عنه . وكان ينام في الاصطبل صيفاً وشتاءً ، في معلف فارغ . لم يكن أحد يضاهيه في عمله كان سائساً وبيطاراً للخيل معاً ، يجمع العقاقير لها في الربيع ، وينقب عن الجذور الطبية في السهب والوديان . وكانت حزم الأعشاب معلقة في أعالي جدران الاصطبل : فثمة الحزنبل لشفاء لهاث الخيل ، وحشيشة عين الحية كترياق لعضة الأفاعي السامة ، والورق الأسود

للحوافر ، وعشب صغير أبيض ينمو قرب جذور الصفصاف لعلاج القرح ، والعديد من العقاقير الأخرى التي لا يعرفها الا القليل من الناس يستعملها لعلاج جميع مايصيب الخيل من أوجاع وأمراض .

وفي الصيف والشتاء ، ثمة فوق المعلف الذي ينام فيه ساشكا رائحة نفاذة ذكية ، تدغدغ البلعوم ، معلقة كنسيج عنكبوت ذي غزل رقيق . وهناك قش مضغوط ، كاللوح في صلابته ، تغطيه مرشحة حصان ، ومعطف ساشكا الذي تفوح منه رائحة عرق الخيل ، اتخذهما حشية وفراشاً لسريره العاري ، وكان المعطف والفروة هما كل ما يملك العجوز من متاع الدنيا .

أما تيخون ، وهو قوزاقي بليد ضخم ، فقد كان يعيش مع لوكيريا ، ويضمر في دخليته غيرة عليها من ساشكا ، لا مبرر لها إطلاقاً . وكان يقود العجوز ، مرة كل شهر ، من زر قميصه المدهون الى ما وراء الفناء .

ـ أيها العجوز ، لا تحاول أن تستميل امرأتي .

فيغمز ساشكا غمزة ذات مغزى :

ـ إن ذلك يتوقف على...

فيرجوه تيخون :

ـ ابتعد عنها!

ـ إني أحبهن مجدورات ، أيها الصبي . لن أحتاج الى الفودكا إذا استطعت أن تهبني بنتاً مجدورة . كلما ازدادت بثور الجدري عليهن ازددن شغفاً بنا نحن معشر الرجال . أولاء السفيهات!

ـ يجدر أن تخجل من نفسك في سنّك هذه... عيب عليك... هذا وأنت رجل طيب : تعنى بالخيل ، وتعرف جميع الأسرار .

فأصر ساشكا :

ـ أنا قادر على كل أنواع التطبيب .

ـ ابتعد عنها ، ياجد . إنها لخطيئة .

ـ سأستحوذ على تلك اللوكيريا يوماً من الأيام ، أيها الصبي ،

وسأمتلكها ، يا ولدي . يمكنك أن تقول مع السلامة للوكيريا ، فإنني سأنتزعها منك . إنها مثل فطيرة الزبيب ، سوى أن الزبيب منتزع منها . إنها الصنف الذي اشتهيه!

فيقول تيخون متنهداً وهو يخرج بعض قطع النقود النحاسية من كيس النقود : «خذ هذه ، ولا تدعني أقبض عليك والا قتلتك!»

وهذا ما كان يحدث كل شهر .

كانت الحياة تبلى أوراقها في خدر ناعس في ياغودنويه . اذ كانت الضيعة تقع في واد ناء عن جميع الدروب المطروقة ، ومنذ الخريف تنقطع كافة المواصلات مع القرى المجاورة . وفي ليالي الشتاء تخرج قطعان الذئاب من مرابضها في الغابة لتشيع الفزع في الخيل بعوائها . وقد اعتاد تيخون أن يذهب الى المرج ليخيفها ببندقية سيده ذات الماسورتين ، فتظل لوكيريا ، وهي تلف عجيزتها الضخمة ببطانيتها الخشنة ، تنتظر مترقبة صوت الإطلاقات ، وعيناها الصغيرتان المختفيتان في وجنتيها المجدورتين المدهونتين تتطلعان في الظلام . وفي مثل تلك الأوقات ، اعتاد خيالها أن يجعل من تيخون القبيح الأصلع ، شاباً وسيماً جريئاً ، وحينما ينصفق باب جناح الخدم ويدخل تيخون في سحابة من البخار ، تفسح له المجال على السرير ، وتحتضن عشيرها المتجمد ، بدفء وهي تناغيه في وله .

وفي الصيف ، تظل ياغودنويه تطن بأصوات العمال الى وقت متأخر من الليل . فقد زرع السيد أربعين دسياتينا بشتى الحاصلات ، وكان يؤجر عمالاً لحصدها . ومن حين لآخر كان يفغيني يأتي صيفاً الى الضيعة ، وقد يروح يتمشى خلال البستان وعلى المروج ، فيصيبه الملل . وكان يقضي الصباح في صيد السمك في البركة . وكان ذا صدر ممتلىء متوسط الطول ، يصفف شعره على الطريقة القوزاقية فيجعل له خصلة على الجانب الأيمن لرأسه . أما سترته العسكرية فقد اتسقت عليه بشكل أنيق .

خلال الأيام الأولى من حياة غريغوري مع اكسينيا في الضيعة ، وكان يأتي في كثير من الأحيان يتردد على جناح السيد الشاب . كان فينيامين يأتي مبتسماً الى جناح الخدم ويقول لغريغوري ، وهو يحني رأسه الأشعث :

ـ السيد الابن يريدك ، ياغريغوري .

فكان غريغوري يذهب الى غرفة يفغيني ، ويقف عند الباب . فيشير السيد الى كرسي مبتسماً كاشفاً عن أسنانه النادرة العريضة ، ويجلس غريغوري على حافته تماماً .

ـ كيف تجد خيلنا ؟

ـ خيل جيدة . والأشهب بديع .

ـ عليك بتمرينه كثيراً ، ولكن لا تجعله يجري سريعاً .

ـ هذا ما أخبرني به الجد ساشكا .

ـ وماذا عن «همام» ؟

ـ الكميت ؟ إنه حصان بديع على أن نعله مقلقل ، وسيتعين عليَّ أن أبدله بنعل آخر .

ثم قال السيد الابن وهو يخاوص عينيه الرماديتين النفاذتين :

ـ عليك أن تذهب الى معسكر التدريب في أيار أليس كذلك ؟

ـ أجل .

ـ سأكلم الأتمان في ذلك . لن تضطر الى الذهاب .

ـ شكراً لك ، سيدي .

ران الصمت لحظة . فك السيد أزرار ياقة بزته وجعل يحك صدره الأنثوي الأبيض .

ـ ألا تخشى أن يأخذ اكسينيا زوجها منك ؟

ـ لقد تخلى عنها ، لن يستعيدها .

ـ وكيف تعرف ذلك ؟

ـ رأيت رجلاً من القرية قبل أيام حينما ذهبت الى هناك طلباً

للمسامير . أخبرني أن ستيبان يسرف بالشراب . ويقول إنه لم يعد يريد اكسينيا ، ويتصور أنه سيجد امرأة أخرى أكثر حرارة .

فعلق ليستنتسكي متفكراً ، وهو يحدق عبر رأس غريغوري وفي ابتسامته شيء من التهتك :

ـ اكسينيا امرأة جميلة .

فقال غريغوري موافقاً : « لا بأس بها » ، وغام وجهه .

أوشكت إجازة يفغيني على الانتهاء ، فلم يعد يحمل ذراعه على حمالة وصار بإمكانه أن يثنيها مثلما يشاء .

وفي خلال الأيام القليلة الأخيرة من بقائه ، كان يقضي وقتاً طويلاً في حجرة غريغوري . وكانت اكسينيا قد بيضت الحيطان القذرة وجلت أطر النافذة وحكت الأرضية بكسرة من الطابوق . فكان ثمة دفء وأناقة نسائيان في الحجرة الخالية البهيجة وكان الموقد يبث الدفء . وكان الضابط يختار لزيارته أوقاتاً يكون غريغوري خلالها مشغولاً بالخيل . فيذهب في بادىء الأمر الى المطبخ ، وسترته القصيرة الزرقاء ملقاة على كتفيه ، ويلبث يمازح لوكيريا دقيقة أو دقيقتين ، ثم يذهب الى الغرفة الأخرى ، فيجلس على مقعد بلا مسند بالقرب من الموقد محدباً كتفيه ، ويركز على اكسينيا نظرة مبتسمة بلا حياء . فتتحرج اكسينيا من وجوده ، وترتعش الحياكة في أصابعها .

ويسألها ، وهو ينفض دخان سيكارته حتى تمتلىء الغرفة بدخان أزرق :

ـ كيف حالك ياعزيزتي اكسينيا ؟

ـ حسناً جداً ، أشكرك .

وترفع اكسينيا عينيها فتلتقي بنظرة الملازم النفاذة الفاضحة رغبته في صمت ، ويستحيل لونها قرمزياً . فقد كانت نظرته تلك كريهة ومزعجة . وكانت تجيب على أسئلته بشكل غير مترابط ، متحاشية عينيه ومتحينة الفرصة لترك الحجرة .

ـ عليّ أن أذهب لأطعم البط ، الآن .

ـ لاداعي للعجلة . عندك متسع من الوقت .

وابتسم ، وارتجفت ساقاه في سروال ركوب الخيل الضيق ، ومضى في إلحافه عليها بالأسئلة التي تخص حياتها الماضية وهو يضرب على أوتار صوته العميق الذي يشبه صوت أبيه ، ويسعى الى استمالتها في مجون بعينيه الصافيتين كالبلور .

وحين دخل غريغوري ، انطفأت النار في عيني يفغيني نيكولايتش ، فقدم له سيكارة ، ومالبث أن ترك الغرفة . فسأل غريغوري بصوت أجش اكسينيا دون أن ينظر اليها :

ـ ماذا أراد ؟

ـ كيف لي أن أعرف ؟ ـ وإذ تذكرت نظرة الضابط ضحكت بافتعال وأضافت : ـ دخل وقعد ، هنا بلا سبب ، ياغريشا ـ وأرته كيف كان الضابط جالساً محدودب الظهر ، ـ قعد حتى استبد بي الضيق منه . وهز ركبته الحادة .

فضاقت عيني غريغوري غضباً :

ـ هل دعوته للدخول ؟

ـ وما حاجتي إليه ؟

ـ حاذري ، وإلا سأركله يوماً من أعلى السلم .

فحدقت اكسينيا في غريغوري بشفتين مبتسمتين ، دون أن تتبيّن ما إذا كان هازلاً أم جاداً .

١٥

انقضى الشتاء في الأسبوع الرابع من الصوم الكبير . وبدأت المياه الخالية من الجليد تطرز حوافي الدون ، واستحال لون الجليد الذائب من القمم رمادياً

وانتفخ كالاسفنج . وفي المساء ، كانت دمدمة خفيفة تُسمع من التلال ، تشير ـ كما كان الشيوخ يقولون ـ الى سقوط الصقيع أما الواقع فكان ذوبان الجليد على الأبواب . في الصباح يرن الهواء بفعل الصقيع الخفيف ، ولكن ما إن يحل الظهر حتى تصبح الأرض جرداء مبقعة ، وتنفذ الى الأنوف الرائحة الزكية لشهر آذار ولحاء أشجار الكرز المتجمد والقش المتعفن .

أعد ميرون غريغوريتش عدته للحراثة على مهله وهو يقضي الأيام المستطيلة في المأوى يشحذ أسنان المسالف ويصلح عجلات العربة . وكان غريشكا العجوز يصوم في الأسبوع الرابع من الصوم الكبير ، فيعود من الكنيسة ، أزرق من البرد ، ويشتكي لكنته لوكينشنا :

ـ إن ذلك القس يرهقني . لاخير فيه فهو بطيء في قداسه كمن يدفع عربة مليئة بالبيض .

ـ لو صمتَ خلال أسبوع الآلام لكنت أكثر حكمة . كان الجو أدفأ آنئذ .

فأجاب :

ـ نادي ناتاليا . سأجعلها تصنع لي زوجاً من الجوارب أكثر دفئاً .

كانت ناتاليا لا تزال تعيش على أمل أن يعود إليها غريغوري ، وكان قلبها يتشوق إليه وينتظر رجوعه ، غير آبهة لهمسة التحذير التي يسديها العقل الواعي ، فراحت تقضي لياليها في حنين مرهق ، متقلبة على فراشها ، وقد سحقها عار غير متوقع لم تكن تستحقه . وحلت بها مصيبة فوق مصيبتها الأولى ، فجعلت تنتظر مآلها في رعب بارد ، وهي تخفق في غرفة صباها كطير زقزاق جريح ملقى على درب غابة . فمنذ الأيام الأولى من عودتها ، بدأ أخوها ميتكا يرميها بنظرات غريبة ، وسألها ذات يوم وهو يمسك بها في سقيفة الباب :

ـ مازلت تواقة لغريشا ؟

ـ وما دخلك أنت ؟

ـ أريد أن أؤنسك .

ونظرت ناتاليا الى عينيه وأرعبها مارأت فيهما . إذ التمعت عينا ميتكا الخضراوان ، الشبيهتان بعيني القط ، وومضت فتحتاهما بلزوجة في ضوء السقيفة الخافت . فصفقت ناتاليا الباب ومضت الى غرفة جدها ، حيث وقفت فترة طويلة تتسمع الى ضربات قلبها العنيفة . وفي اليوم التالي جاءها ميتكا الى الفناء . كان يقلب تبناً جديداً للماشية ، وقد تدلت من شعره السبط وقبعته الفرو عيدان خضر من العشب . وكانت ناتاليا آنذاك تطرد الكلاب من معلف الخنازير .

ـ لا ترهقي نفسك ، يا ناتاليا...

فصرخت ، رافعة يديها لتحمي نفسها :

ـ سأخبر أبي .

ـ أنت بلهاء!

ـ لا تقترب ، أيها الوحش!

ـ لماذا تصيحين ؟

ـ ابتعد ياميتكا! سأذهب في الحال لأخبر أبي . كيف تجرؤ على النظر إليّ هكذا ؟ ألا تخجل ؟ أعجب أن الأرض لا تنشق وتبتلعك .

ـ إنها لا تنشق! ـ وضرب ميتكا الأرض بجزمته ليؤكد قوله ، ووضع يديه على خصره .

ـ لا تقترب مني ، ياميتكا!

ـ لن أفعل الآن ، لكنني سآتي في الليل . والله ، سآتي!

فتركت ناتاليا الفناء وهي ترتجف . وفي ذلك المساء اتخذت من الصندوق سريراً لها ، وأخذت أختها الصغرى لتنام معها . وظلت طوال الليل تتقلب باضطراب ، وعيناها الملتهبتان تحاولان اختراق الظلمة ، وأذناها مرهفتان لأصغر نأمة ، وهي متحفزة لتملأ البيت صراخاً . لكن شيئاً لم يمزق الصمت سوى شخير جدها النائم في الغرفة المجاورة ، ودمدمة تند من أختها بين حين وآخر .

ومضى عقد الأيام ينفرط مع ذلك الحزن المقيم الذي لا عزاء فيه ، والذي لا تعرفه الا النساء .

لم يكن ميتكا قد تغلب على الخزي الذي سببته له محاولة الزواج الأخيرة ، وصار مهموماً سيئ الطبع ، يخرج كل مساء ولا يعود الى البيت قبل الفجر إلا لماماً . أقام له علاقات مع نسوة غادر أزواجهن الى الجندية ، وذهب الى دار ستيبان استاخوف ليراهن بلعب الورق . وكان أبوه يراقب سلوكه ، إلا أنه لم يقل له شيئاً في ذلك الوقت .

قبيل عيد الفصح التقت ناتاليا ببانتلاي بروكوفتش خارج حانوت موخوف . فناداها :

ـ انتظري لحظة!

فتوقفت . وأحست بقلبها يغص بالحنين وهي ترى الى وجه حميها ، الذي يذكرها بغريغوري . سألها العجوز ، وهو يرمقها بنظرة سريعة في ارتباك ، كما لو كان هو نفسه قد اقترف إساءة ضدها :

ـ لم لا تأتين أحياناً لزيارتنا ، نحن العجوزين ؟ الزوجة تفتقدك... حسناً ، كيف حالك ؟

وأفاقت ناتاليا من اضطرابها وقالت :

ـ شكراً لك...

وبعد لحظة من التردد ، إذ أرادت أن تقول : «يا أبتاه!» أضافت :

ـ يا بانتلاي بروكوفتش ، لقد كنت مشغولة جداً في المنزل .

فهز العجوز رأسه بمرارة :

ـ إن ابننا غريشا... آه! خدعنا ، السافل . لكم كنا نعيش معاً على خير مايرام .

فأجابت ناتاليا متحشرجة وفي صوتها غصة :

ـ اوه ، ياأبتاه . أظن أن ذلك لم يكن مقدراً له إن يدوم .

فتململ بانتلاي بروكوفيتش حينما رأى عيني ناتاليا تمتلئان بالدموع ،

وهي تزم شفتيها محاولة حبس دموعها . وقال لها :

ـ مع السلامة ، ياعزيزتي ، لاتحزني عليه ، ابن العاهرة! إنه لا يستحق ظفراً من اصبعك الصغير . لعله سيعود . ليتني أراه ليتني أمسك به .

وابتعدت ناتاليا ورأسها غارق في صدرها . ووقف بانتلاي بركوفتش يحجل من قدم الى آخر وكأنه على وشك أن ينطلق راكضاً . وحينما انعطفت ناتاليا عند زاوية الشارع ، نظرت الى الخلف . كان العجوز يعرج عبر الساحة ، وهو يتكئ بتثاقل على عصاه .

١٦

عندما دنا الربيع قلّت الاجتماعات في ورشة شتوكمان ، إذ كان القرويون يتهيأون للعمل في الحقول ، فلم يأت من الطاحونة سوى ايفان اليكسيفتش الميكانيكي و«الولد» ، مصطحبين معهما دافيد . وفي خميس أسبوع الآلام اجتمعوا في الورشة في المساء الباكر . كان شتوكمان جالساً على منضدة البرادة يبرد حلقة فضية منحوتة من قطعة نقدية من فئة الخمسين كوبيكا . انسلت حزمة من أشعة الشمس الغاربة خلل النافذة ، تاركة بقعة غبراء من الضوء الوردي المصفار على الأرض . وتناول الميكانيكي كماشة وقلبها بيده وقال :

ـ منذ أيام ذهبت الى صاحب الطاحونة لأكلمه عن مكبس . أرى أنه لا معدى من أخذه الى ميليروفو ، فلا يمكننا إصلاحه هنا . إن به صدعاً هذا طوله .

وقاسه ايفان اليكسييفتش بخنصره .

فقال شتوكمان وهو ينثر غباراً فضياً رقيقاً يتطاير من القطعة النقدية التي يبردها :

ـ توجد ورشة في ميليروفو ، أليس كذلك ؟

ـ مصهر فولاذ . كان علي أن أقضي بضعة أيام هناك في العام الماضي .
ـ عمال كثيرون ؟
ـ أستطيع أن أقول أربعمائة أو نحو ذلك .
فتساءل شتوكمان بلهجة متأنية وهو يهز رأسه في اتساق مع حركاته :
ـ وكيف يبدون ؟
ـ إنهم في وضع حسن . ولكنهم ليسوا من جماعتك البروليتاريين ، إنهم حثالة .
فقال «الولد» الجالس الى جانب شتوكمان وشابكاً أصابعه القصيرة الغليظة تحت ركبته :
ـ ولم ذلك ؟
كان دافيد عامل الطاحونة يمشي ذهاباً وإياباً في الورشة بشعره الذي غدا أشهب بفعل نثار الطحين ، ويتسمع جذلاً الى خشخشة النشارة التي كان يحركها بجزمته . وتصور أنه كان يسير فوق هوة كستها طبقة كثيفة من أوراق قرمزية ، وكانت الأوراق اللينة تندعك تحت قدميه بخفة مختبئة تحت التربة الرطبة المرنة .
ـ لأنهم على أحسن حال . فلكل منهم بيته الصغير ، وزوجته ، وكل وسائل الراحة . ومعظمهم معمدانيون علاوة على ذلك . والأسطة نفسه هو الذي يعظهم ، ولكنهم ينهشون بعضهم بعضاً ، أما القذارة التي تعلوهم فهي من السمك بحيث من الصعب أن تكشطها بمعزقة .
فانبرى دافيد وقد انقض على الكلمة الغريبة :
ـ ومن يكون هؤلاء المعمدانيون ، يا ايفان اليكسييفتش ؟
ـ معمدانيون ؟ إنهم يعبدون الله على طريقتهم الخاصة . شيعة ما ، مثلهم كمثل «المؤمنين القدامى» .
وعلق «الولد» :
ـ الجنون فنون .

ثم واصل ايفان اليكسييتش حكايته :

ـ لقد ذهبت لرؤية سيرغي بلاتونوفتش ، كما قلت . ولكن أتيوبين كان هناك ، فطلب مني الانتظار في الممر . فجلست أنتظر وأستمع الى حديثهم عبر الباب . كان موخوف يقول ستندلع حرب ضد الألمان قريباً جداً ، لقد قرأ ذلك في كتاب . غير أن اتيوبين قال إنه لن تكون حرب بين المانيا وروسيا .

كان ايفان اليكسييتش يقلد لثغة اتيوبين بمهارة جعلت دافيد يطلق ضحكة قصيرة ، ولكنه توقف في الحال عندما لمح إمارات السخرية على وجه «الولد» .

ومضى ايفان اليكسييتش ينقل الحديث الذي سمعه :

ـ «لن تكون هناك حرب ضد المانيا ، لأن المانيا تقتات من حبوبنا» ثم سمعت صوتاً ثالثاً ، لم أميز صاحبه ، اتضح بعد ذلك ، إنه الضابط ، ابن العجوز ليستنتسكي . قال : «سوف تندلع حرب بين ألمانيا وفرنسا من أجل حقول الكروم ، ولكن لا علاقة لها بنا» .

فتساءل الميكانيكي وقد التفت الى شتوكمان :

ـ ماذا تظن يا اوسب دافيدوفتش ؟

فأجاب شتوكمان وهو يحدق بنظرة ثابتة في الحلقة التي أمسكتها يده المبسوطة :

ـ أنا لا أحسن النبوءات .

فقال «الولد» :

ـ سنجد أنفسنا في وسط المعمعة حالما يبدأونها . وسواء شئنا أم أبينا ، فسوف يجروننا اليها من شعورنا .

فقال شتوكمان وهو يتناول الكماشة من يد الميكانيكي برفق :

ـ سأحدثكم أيها الأولاد كيف هو الأمر...

وراح يتكلم بجد وهو يسعى لشرح المسألة بالتفصيل . واسترخى

«الولد » في جلسته على منضدة البرادة بينما فغر دافيد فاه مكشراً عن أسنانه الحادة . ولخص شتوكمان بأسلوبه المركز المشوق الصراع بين الدول الرأسمالية حول الأسواق والمستعمرات . وعندما فرغ من حديثه ، قال ايفان اليكسييفتش مغضباً :

ـ ولكن ما دخلنا نحن في ذلك ؟

فابتسم شتوكمان :

ـ سوف يصيب رؤوسكم الصداع جراء عربدة الآخرين .

وقال «الولد » متهكماً :

ـ لا تتكلم مثل الأطفال ، لعلك سمعت بهذا المثل : «عندما يتشاجر السادة ، ترتج نواصي الفلاحين » .

ـ أف!

قال ذلك ايفان اليكسييفتش مقطباً كمن يحاول اجتلاء كتلة هائلة مستعصية من الأفكار .

وتساءل دافيد :

ـ لماذا يتردد ليستنتسكي ذاك دائماً على موخوف ؟ أتراه يسعى وراء ابنته ؟ هاه ؟

فاعترض «الولد » بخبث :

ـ لقد كان لابن كوروشونوف اللعين شأن هناك من قبل .

فكرر دافيد :

ـ ألم تسمع ايفان اليكسييفتش ؟ لأيما غاية يتردد الضابط الى هناك ؟

فجفل ايفان اليكسييتش متسائلاً وكأنه لفح بسوط في قفا ركبتيه :

ـ ايه ؟ ماذا كنت تقول ؟

ـ لقد أخذته سنة من النوم! كنا نتكلم عن لستنتسكي .

ـ كان في طريقه الى المحطة . نعم ، وهاكم المزيد من الأخبار ، عندما خرجت من الدار شاهدت... من تظنون ؟ غريغوري ميليخوف! كان واقفاً في

الخارج وبيده سوط . قلت له «ماذا تفعل هنا يا غريغوري ؟» فأجاب «أوصل السيد ليستنتسكي الى محطة ميليروفو» .

وأوضح دافيد :

ـ إنه حوذي ليستنتسكي .

ـ يلتقط الفتات من موائد الأغنياء .

ـ إنك أشبه بكلب مربوط يا «ولد» ، تنبح على كل إنسان .

ثم فتر النقاش ، ونهض ايفان اليكسييتش ليغادر المحل .

فنهش «الولد» نهشة أخيرة :

ـ مستعجل للصلاة ؟

ـ إني أتعبد كثيراً كل يوم .

ورافق شتوكمان ضيوفه الى الباب ، ثم أغلق الورشة ودلف الى البيت .

كانت السماء في الليلة السابقة لأحد الفصح قد غشيتها كتل من الغيوم السود ، وبدأ المطر يتساقط . وأناخت عتمة رطبة على القرية . وعند الغسق بدأ الجليد على الدون يتصدع بأنين مضطرب طويل . واذ تراصت كتل الجليد المتكسر انطلقت من الماء أولى الطوافي . فتصدع الجليد دفعة واحدة على مدى أربعة فرستات ، وانجرف مع التيار . وتلاطمت الطوافي مع بعضها وارتطمت بالضفتين ، ومن بعيد كان ناقوس الكنيسة يقرع للصلاة بانتظام . وفي العطفة الأولى ، حيث ينحدر الدون الى اليسار ، تراكم الجليد ، وكان هدير الطوافي واحتكاكها يسمع في القرية . وفي ساحة الكنيسة التي انتشرت فيها البرك كان عدد من الفتيان مجتمعين ، وكان صوت الصلاة الخفيض يتناهى الى الأسماع خلل الأبواب المفتوحة . وسطعت الأنوار تتراقص اشعاعاتها على النوافذ المشبكة ، بينما كان الصبية يعابثون الفتيات الصائحات بصوت مكتوم ويقبلونهن ، ويتهامسون معهن بحكايات ماجنة .

وكان منزل قيم الكنسية مزدحماً بالقوزاق القادمين من شتى قرى المنطقة لحضور صلاة العيد . ونام الناس على المقاعد وعلى الأرض بعد أن

هدهم التعب والازدحام في الغرفة .

جلس الرجال على الدرجات المتداعية ، وهم يدخنون ويتحدثون عن الطقس ومحاصيل الشتاء .

ـ متى ستخرج جماعتك الى الحقول ؟

ـ ينبغي أن نبدأ في الأسبوع الأول بعد الفصح ، كما أحسب .

ـ هذا حسن . تربتكم رملية .

ـ نعم ، وفي الجهة القريبة من الأخدود يوجد مستنقع مالح .

ـ ستكسب الأرض كثيراً من الندى الآن .

ـ عندما حرثنا السنة الماضية كانت مثل الغضروف ، صلبة وجافة في كل مكان .

وصاح صوت عالي الدرجة من جهة المنزل :

ـ أين أنت يادونيا ؟

ومن باب باحة الكنيسة سمع صوت جهوري غليظ يجأر :

ـ خير مكان للقبل ، يا... اخرجوا من هنا ، أيها الصبية القذرون . يالها من بدعة!

فانبرى صوت راعش يقول عبر الظلام :

ـ ألا تستطيع أن تجد لنفسك رفيقة ؟ اذهب وقبل الكلبة في زريبتنا .

ـ كلبة ؟! سوف أعلمك .

ثم سمع وقع خافت لأقدام تهرول ، وحفيف تنورات .

وتساقط الماء من السقف بجرس بلوري ، وهدر ثانية الصوت البطيء اللزج كأنه التربة الطينية السوداء :

ـ كنت أسعى لشراء محراث بروخر ، كنت مستعداً لدفع اثني عشر روبلاً له ولكنه لا يرضى بها . ذلك الرجل لا يبيع الأشياء رخيصة...

يسمع من الدون حفيف وجلبة ، لكأنه غانية طروب قد خطرت بحلتها القشيبة وقوامها الذي يضاهي شجر الحور وخلّفت تنورتها حفيفاً مثيراً .

وفي منتصف الليل ، مر ميتكا مخبا على فرس حاسر الظهر في العتمة الدبقة متجهاً صوب الكنيسة . فأوثق العنان بعرف الفرس الجامح ، وصفعها على خاصرتها وأصاخ الى وقع الحوافر هنيهة ، ثم سوى حزامه ، ومضى الى الكنيسة . وعند المدخل رفع قبعته ، وأحنى رأسه بورع ، ونحى عن طريقه النساء ومضى الى المذبح . كان القوزاق محتشدين في كتلة سوداء الى اليسار ، والى اليمين كان ثمة حشد نسائي يزخر بالالوان . ووجد ميتكا أباه في الصف الأمامي ، فأمسك بمرفقه وهو على وشك أن يرسم علامة الصليب وهمس بأذنه :

ـ ابتي ، تعال الى الخارج لحظة واحدة .

وارتعش منخرا ميتكا ، فيما أفسح لنفسه المجال للخروج من الكنيسة بين ستار كثيف من خليط الروائح . وضاق بدخان الشمع المشتعل ، ورائحة أجساد النساء العرقة ، وروائح الملابس الكريهة النتنة التي لاتُرتدى إلا في أعياد الميلاد والفصح ، ورائحة الأحذية الرطبة ، والنفتالين ، ورياح البطون التي أجاعها الصيام .

وفي المدخل ضم ميتكا صدره الى كتف أبيه وقال : «ناتاليا تحتضر» .

١٧

عاد غريغوري في عيد أحد الشعانين من رحلته الى المحطة ، فوجد الثلوج قد تآكلها الذوبان ، وقد انقطع الطريق من يومين .

وفي إحدى القرى الأوكرانية على مبعدة خمسة وعشرين فرستا من المحطة كاد أن يفقد الحصانين وهو يعبر نهراً . لقد وصل القرية في المساء الباكر وكان الجليد في الليلة الفائتة قد تكسر وبدأ يتحرك ، وكان النهر الهادر المزبد بالماء الطيني الخابط يهدد الشوارع .

كان النزل الذي توقف عنده ليعلف الحصانين في ذهابه يقع على الجانب

الآخر من النهر . وكان من المحتمل أن يرتفع الماء أثناء الليل ، ولهذا قرر غريغوري عبوره دونما انتظار .

فساق العربة الى النقطة التي شق طريقه منها فوق الجليد عند الذهاب ، فوجد النهر قد طغى على ضفتيه . وكان جزء من سياج ونصف عجلة من عجلات العربات يدوران في دوامة عكرة في الوسط . وكانت هناك آثار حديثة لمزالق زحافات على الرمل الأجرد في الجرف . فكبح الحصانين اللذين كانا يرشحان من العرق ، وقفز مترجلاً ليتفحص الآثار عن كثب . كانت الآثار تتجه قليلاً الى اليسار عند حافة الماء وتختفي في مجرى النهر . قاس المسافة الى الجانب الآخر بعينيه : خمسون خطوة على أكبر تقدير . ثم عاد الى الحصانين ليتفحص العدة . وفي تلك اللحظة اقترب منه عجوز أوكراني قادم من أقرب كوخ وعلى رأسه قبعة من فرو الثعلب . فسأله غريغوري ، ملوحاً بعنانه نحو الماء الخابط الهادر :

ـ هل يوجد مكان صالح للعبور من هنا ؟

ـ بعض الناس عبر من هنا هذا الصباح .

ـ أهو عميق ؟

ـ كلا . ولكن قد يغمر عربتك .

فسحب غريغوري العنان ولوح بسوطه ، وجعل يحث الحصانين ويستفزهما بنبرات صارمة . فتحركا مرغمين ، وجعلا ينخران ويتشممان الماء . ولفح غريغوري الهواء بسوطه ، ورفع جسمه قليلاً من على المقعد .

نفر الكميت المربوط الى اليسار برأسه وسحب سيور الجلد على حين غفلة . والقى غريغوري بنظرة إلى قدميه ، فوجد الماء يدوم فوق مقدمة العربة . كان الحصانان في بادئ الأمر يخوضان الى ركبتيهما ، ولكن سرعان ما إرتفع التيار الى صدريهما . فحاول غريغوري أن ينكص بهما الى الوراء بيد أنهما لم يستجيبا للعنان وجعلا يسبحان . ودارت مؤخرة العربة بفعل التيار ، في حين كان الحصانان يبذلان جهدهما للإرتفاع برأسيهما عن

التيار . وجرت أمواج المياه فوق ظهريهما ، وأخذت العربة تتمايل ويسحبها التيار الى الخلف بقوة .

فصاح الأوكراني وهو يهرول على الضفة ويلوح بقبعته الفرو :

ـ آ... آ...

ومضى غريغوري يصرخ بغضب جامح ويحث الحصانين . كان الماءيزيد بدواماته خلف المركبة الغائرة . اصطدم المزلاقان بركام ناتىء من بقايا الجسر الذي اكتسحته المياه ، وانقلبت المركبة بسهولة عجيبة . فغطس رأس غريغوري في الحال وهو يتأوه ، ولكن العنان لم يفلت من يده . وفيما كانت المركبة تتأرجح راح الماء يجذبه من ساقيه وذيل فروته جذباً هيناً ويجعله يدور . أفلح في أن يمسك بمزلاق ، وترك العنان وأخذ يضع يداً فوق الأخرى لاهثاً ، متجهاً صوب عريش العربة وقد أوشك أن يمسك بنهايته الحديدية ، وأصابته رفسة في ركبته من الكميت الذي كان يقاوم التيار ، فمد غريغوري يديه ، وهو يغص بالماء ، وأمسك بأسارالعربة . ولم يجد نفسه الا وقد ابتعد عن الحصانين ، وارتخت قبضته . وكانت عضلات جسمه ترتعد من البرد ، ولكنه أفلح في الوصول الى رأس الحصان ، فسلط الحيوان عليه نظرة مجنونة مفعمة بالفزع من الموت ، تشع من عينيه الدمويتين .

وبين لحظة وأخرى كان يمسك بالعنان الجلدي اللزج ، ولكنه ظل يفلت من بين أصابعه ، وبطريقة ما استطاع أن يمسك به آخر الأمر . وعلى حين غرة وجد ساقيه تحكان القاع . اندفع الى الأمام بكل قواه يحث الحصانين بصراخه فأطاح به صدر الحصان وهو في طريقه الى الشاطىء خلل الماء الضحل .

جر الحصانان العربة من الماء بعنف وهما يدوسان عليه ، ثم وقفا على بعد بضع خطوات منه . وكان البخار يتصاعد منهما وهما يرتعشان وقد أضناهما التعب .

استوى غريغوري على قدميه ، وهو لا يكاد يشعر بالألم ، لقد لفه البرد

وكأنه وضع في عجينة ساخنة لاتحتمل . وكان يرتجف أكثر من الحصانين ، وأحس بضعف في ساقيه مثل رضيع لم يبلغ الفطام . واستعاد صوابه شيئاً فشيئاً ، فقلب العربة على مزلاقيها ، وساق الحصانين في عدو سريع ليبعث فيهما الدفء . وطار في شارع القرية وكأنه يغير على عدو ، وانعطف نحو أول بوابة مفتوحة دون أن يخفف من سرعته .

برهن المضيف على أريحية ، فقد أرسل ابنه ليعتني بالحصانين بينما ساعد هو غريغوري في خلع ملابسه . وبلهجة لا تتحمل الرفض طلب من زوجته أن تشعل الموقد . فتمدد غريغوري فوق الموقد بسروال رب المنزل فيما كانت ملابسه تجف . وبعد أن تناول عشاء من حساء الكرنب الخالي من اللحم استغرق في النوم .

ثم انطلق ثانية قبل الفجر بوقت طويل . لقد بقيت أمامه مسافة تربو على المائة والخمسة والثلاثين فرستاً ، لذا كانت لكل دقيقة قيمتها . وأمام ناظريه سهب ضاعت معالم طرقه بفعل فيضان الربيع ، وقد أحال الثلج الذائب كل وهدة صغيرة أو أخدود الى سيل متدفق هادر .

انهك الطريق الأجرد المعتم الحصانين . ومضى يسير على أديم تصلب بفعل صقيع الصباح الباكر ، حتى وصل قرية تبعد أربعة فرستات عن طريقه ، وتوقف عند مفترق طرق . كان العرق يتبخر من الحصانين ، وخلفه يلوح أثر مزلاقي العربة اللامع على الأرض . ترك العربة ثم انطلق ثانية ، ممتطياً صهوة جواد حاسر الظهر ويقود الجواد الآخر من عنانه . فبلغ ياغودنويه صباح عيد أحد الشعانين .

أنصت ليستنتسكي العجوز باهتمام الى وقائع رحلته ، وذهب ليرى الحصانين . كان ساشكا يقودهما جيئة وذهاباً في الساحة ، وينظر بغضب الى خواصرهما الغائرة .

سأله السيد :

ـ كيف هما ؟

فأجاب ساشكا دون أن يوقف الحصانين ويهز لحيته الشيباء :

ـ لا بأس .

ـ هل أنهكمهما ؟

ـ كلا . الكميت مصاب بحكة في صدره من احتكاك رقابيته ، ولكنها ليست ذات أهمية .

فأومأ ليستنتسكي بيده لغريغوري :

ـ اذهب لتستريح .

فذهب غريغوري الى غرفته ، ولكنه لم يسترح سوى ليلة واحدة . فقد دخل فينيامين الغرفة في الصباح التالي بقميص جديد من الساتان الأزرق ، ووجهه سمين متألق ، واستدعاه :

ـ السيد يريدك يا غريغوري في الحال .

كان الجنرال يتمشى في الصالة بخفين من اللباد . ولم يلتفت الا بعد أن تنحنح غريغوري مرتين مراوحاً قرب الباب :

ـ ماذا تريد ؟

ـ لقد أرسلت في طلبي .

ـ آه ، نعم! اذهب وأسرج الفرس وكريبيش . وقل للوكيريا الا تطعم الكلاب . فسوف نأخذها للصيد .

استدار غريغوري ليترك الغرفة . بيد أن سيده أوقفه هاتفاً :

ـ أسمعت ؟ وسوف تذهب أنت معي .

دست اكسينيا قطعة من الفطيرة في جيب غريغوري وتمتمت :

ـ إنه لا يدع المرء يتناول حتى طعامه ، فليأخذه الشيطان ، تلفع بلفافك على الأقل ياغريشا .

قاد غريغوري الحصانين المسرجين الى السياج ، وصفر للكلاب . وخرج ليستنتسكي مرتدياً سترة قصيرة زرقاء بنطاق جلدي مزخرف . وقد تدلت من ظهره قارورة معدنية موضوعة في حافظة من الفلين ، وخلفه سوط مدلى من يده مثل الحية .

أمسك غريغوري باللجام ودهش لما رأى ليستنتسكي العجوز ينهض بجسمه العظمي بسهولة على السرج . وأمر الجنرال باقتضاب ، وهو يمسك العنان بيد مقفزة :

ـ كن قريباً ورائي .

وامتطى غريغوري الجواد الفتي المضطرب الذي رفع رأسه الى الأعلى . لم يكن حافراه الخلفيان قد نعلا ، فكان يتزحلق ويقعي على مؤخرتيه كلما يطأ بقعاً من الجليد . أما الجنرال فقد استوى محدودباً ، ولكنه ثابت في سرجه فوق ظهر حصانه العريض . لحق غريغوري الجنرال وسأله :

ـ الى أين نذهب ؟

ـ الى وادي أولشانسكي ـ أجاب ذاك بصوت عميق .

كان الحصانان يخبان بخطى معتدلة . شد الجواد على اللجام وقوس رقبته القصيرة ، وازور نحو راكبه وحاول أن يعض ركبته . وعندما بلغا أعلى المرتفع ، حث ليستنتسكي فرسه على العدو السريع . فتبعت سلسلة كلاب الصيد غريغوري ، وكانت الكلبة السوداء تركض وقد لامس خطمها أسفل ذيل الجواد . فحاول الجواد أن يبلغها عندما أقعي الى الوراء بساقيه الخلفيتين ، غير أن الكلبة صدت عنه الى الخلف وصعدت الى غريغوري عندما التفت الى الوراء نظرات مستجدية كأنها امرأة عجوز .

بلغا وادي أولشانسكي ، بعد نصف ساعة . ومضى ليستنتسكي بين الأحراش على امتداد حافة المنحدر ، بينما انحدر غريغوري الى قاع الوادي المغسول بالمطر ، متحاشياً الحفر العديدة بحذر . وجعل ينظر الى الأعلى بين لحظة وأخرى ، فرأى هيئة ليستنتسكي الظاهرة بدقة من خلل الزرقة الفولاذية لغيضة بيلسان جرداء مضللة . وعندما انحنى العجوز الى الأمام ، ونهض على الركاب ، تجعدت من الخلف سترته الزرقاء ذات النطاق . كانت الكلاب تعدو على حافة الوادي في جماعة متراصة . اجتاز غريغوري حفرة عميقة ومال جسمه الى جانب .

وقال في ذات نفسه : «بوسعي أن أدبر حالي بسيكارة . سأطلق العنان وأتناول كيس تبغي» . ونزع قفازه وجعل يبحث عن ورق اللف .

ندت صرخة من الجانب الآخر للشفير كأنها طلقة مسدس :

ـ تعقبه!

رفع غريغوري رأسه بحدة الى الأعلى ، فرأى ليستنتسكي يخب صعد السفح ملوحاً بسوطه...

ـ تعقبه!

كان ثمة ذئب أغبر ساقط الشعر يعدو بسرعة خاطفة مارقاً عبر قعر الوادي الذي يتخلله أسل المستنقعات والقصب ، حتى ليكاد يلامس جسمه الأرض . وعندما نط عبر أحد الأخاديد ، توقف والتفت بسرعة ، فلمح الكلاب . كانت تتعقبه على هيئة حذوة الفرس لتقطع عليه طريق الغابة في نهاية الوادي .

وقفز الذئب بظفر الى تلة صغيرة واتجه صوب الغابة . ولكن الكلبة العجوز كانت تقطع عليه الطريق مضاعفة بأسها بخطوات قصيرة . وكان كلب آخر يدعى بالصقر ، وهو من أجود وأشرس الكلاب يتعقبه من الوراء . فتلكأ الذئب لحظة ، واختفى من بصر غريغوري عندما اجتاز غريغوري الوادي صعداً . وعندما أشرف ثانية على منظر لاحب من التلة كان الذئب قد ابتعد في السهب مندفعاً الى واد مجاور . واستطاع أن يرى الكلاب السوداء تعدو خلل الأعشاب الجافة خلف الذئب ، وليستنتسكي العجوز يستحث حصانه بعقب سوطه ملتفاً حول الوادي . وبدأت الكلاب تدرك الذئب عندما بلغ الوادي ، ولاح الصقر كخرقة ضاربة الى البياض مدلاة من حقوي الذئب .

هبت الصيحة على أذني غريغوري :

ـ تعقبه!

فهذب غريغوري بجواده باذلاً جهده بلا طائل ليرى ما يجري أمامه . كانت عيناه تسحان بالدموع ، وأذناه قد أصمهما عزيف الريح . لقد ألهبه

حماس الصيد . فانحنى على رقبة الجواد ، وطار يعدو عدواً جنونياً . وعندما بلغ الوادي ، لم ير الذئب ولا الكلاب . وبعد لحظة لحق به ليستنتسكي . وصاح وهو يكبح فرسه بشدة :

ـ أين ذهب ؟

ـ الى الوادي كما أعتقد .

ـ الحق به من اليسار . تعقبه!

ونخس العجوز خاصرتي الفرس ومضى نحو اليمين . هبط غريغوري في الوادي مشدأ عنانه ، صرخ وصعد الى الجانب الآخر من الوادي . فالحف على حصانه المتصبب عرقاً بالسوط والصياح ، وقطع مقدار فرست ونصف . فكانت التربة الرطبة اللزجة تتطاير تحت الحوافر وتلطمه على وجهه . انعطف الوادي الطويل الى اليمين وتشعب الى ثلاثة فروع ، ولما اجتاز غريغوري الفرع الأول لمح السلسلة الداكنة من الكلاب تطارد الذئب عبر السهب . كان الحيوان قد جويه من قلب الوادي المكتظ بأشجار البلوط والحور ، فاندفع الى وهدة يكتنفها دغل جاف ونبات شائك .

راح غريغوري يراقب الكلاب والطريدة وهو يستوي واقفاً على الركابين ويمسح بكمه الدموع من عينيه الملفوحتين بالريح . وأدرك وهو ينظر بين لحظة وأخرى صوب اليسار ، إنه في السهب القريب من قريته . وقطعة الأرض غير المستوية التي حرثها مع ناتاليا في الخريف ليست بعيدة . فقاد الجواد عن قصد عبر الأرض المحروثة ، وفتر حماسه للصيد ، عندما كان الحيوان يتعثر أثناء ذلك وتزل حوافره فوق الطين . وأخذ يحث الجواد المتعسر الأنفاس بلا حماس ، وينظر الى سيده ، ليرى إن كان ليستنتسكي يتلفت الى الخلف ، ثم مضى يخب على مهله .

وعلى مبعدة يسيرة استطاع أن يرى مضارب الحارثين المهجورة ، وأبعد من ذلك بقليل شاهد ثلاثة أزواج من الثيران تجر محراثاً فوق التربة المخملية الغضة .

« إنهم من قريتنا ، بلا شك . ولكنها أرض من ياترى ؟ إنها لانيكوشكا كما أعتقد » وخاوص غريغوري عينيه محاولاً تمييز الرجل الذي يتعقب المحراث . في تلك اللحظة سمع غريغوري صوت ليستنتسكي يصرخ :

ـ أمسكوه .

فرأى قوزاقيين اثنين يتركان المحراث ويهرعان ليقطعا الطريق على الذئب المندفع نحو الوهدة . كان أحدهما يرتدي قبعة مدببة ذات شريط أحمر ، وقد شد سيرها الى ذقنه ، يلوح بعصا حديدية . وعلى حين غرة أقعى الذئب في أخدود حراثة عميق . فقفز الصقر فوقه وهوى وقد انثنت قادمتاه تحته ، وحاولت الكلبة العجوز المقتفية أثره التوقف فجرفت قائمتاها الخلفيتان التربة الطينية المحروثة ، وتكومت على الذئب فاقدة توازنها . فجعل الحيوان الطريد يهز رأسه بعنف . فارتدت عنه الكلية . فحاقت كتلة الكلاب بالذئب ، وراحت جميعها تجرجر بالحيوان بضع خطوات على الأرض المحروثة . ترجل غريغوري من على جواده قبل سيده بنصف دقيقة . وجثا على ركبتيه ممسكاً بيده سكينة الصيد .

صاح القوزاقي ذو العصا الحديدية بصوت يعرفه غريغوري كل المعرفة : :

ـ هيا! من بلعومه! ـ وحط وهو يلهث لهاثاً شديداً الى جانب غريغوري ، وقبض على قادمتي الذئب بيد واحدة ، وهو يجر الكلب الذي تمكن من بطن الفريسة . وتحسس غريغوري قصبته الهوائية من تحت فرائه الخشن ، وحزه بالسكين .

فزعق ليستنتسكي العجوز المزرق الوجه وهو يهبط من السرج

ـ الكلاب! الكلاب! اطردها .

واستطاع غريغوري أن ينحني الكلاب بعد لأي ، ثم دنا من سيده .

على مقربة منهما كان ستيبان استاخوف واقفاً بقبعة شد سيرها الى ذقنه . كان يقلب العصا الحديدية بيديه وقد اختلج وجهه على نحو غريب .

التفت ليستنتسكي نحو ستيبان وقال :

ـ من أين أنت ، ياصاحبي ؟

فأجابه ستيبان بعد لحظة تلكؤ ، وقد اقترب خطوة نحو غريغوري :

ـ من تاتارسكي .

سأله ليستنتسكي :

ـ وما اسمك ؟

ـ استاخوف .

ـ ومتى تعود الى قريتك ؟

ـ الليلة .

فأشار ليستنتسكي بقدمه الى الذئب . كان فكا الحيوان يختلجان واهنين اختلاجة الموت ، وتشنجت الى الأعلى إحدى ساقيه الخلفيتين وارتفعت وقد علقت بها خصلة رمادية من الفرو . وقال :

ـ اجلب لنا الجثة . سوف أدفع لك .

ومسح العرق من وجهه الأرجواني بوشاحه ، واستدار ، وأنزل من كتفه السير الضيق المشدود الى القارورة .

مضى غريغوري الى جواده . وعندما وضع قدمه في الركاب ، رنا الى الخلف . فرأى ستيبان قادماً نحوه يختض بصورة لا إرادية ، وقد شد قبضته الضخمتين على صدره .

١٨

تجمعت النسوة مساء الجمعة الحزينة في دار بيلاغيا مايدانيكوفا المجاور لدار كورشونوف ، للمسامرة . وكان زوجها غافريلا قد كتب اليها من لودز يخبرها أنه يسعى للحصول على إجازة بمناسبة عيد الفصح . فبيضت بيلاغيا الجدران ورتبت الكوخ منذ الاثنين السابق لعيد الفصح ، ولبثت

تنتظر بترقب منذ يوم الخميس ، وتهرع الى الباب لتقف أمام السياج حاسرة الرأس شاحبة وقد بدت على وجهها امارات الحمل . وتتطلع الى الطريق واضعة كفها فوق عينيها علها ترى بعلها قادماً . كانت حاملاً من زوجها الشرعي الذي عاد من كتيبته في صيف العام الماضي وجلب معه قماشاً بولنديا هدية لها . وقضى معها أربع ليال ، وفي الخامسة سكر ، وجعل يسب بالبولندية والألمانية ، وجلس يغني والدموع تترقرق في مآقية ، أغنية قوزاقية قديمة عن بولندا ، تعود الى عام ١٨٣١ . جاء أصدقاؤه وأخوته لتوديعه وجلسوا معه يغنون ويشربون الفودكا قبل الغداء .

يقولون ان بولندا بلاد غنية جداً ،
لكننا وجدناها فقيرة كمن نزلت عليهم اللعنة .
وفي بولندا هذه يوجد نزل ،
نزل بولندي ، يعود لملك بولندا .
وفي هذا النزل كان ثلاثة فتيان يشربون ،
بروسي ، وبولندي ، وروسي من قوزاق الدون .
شرب البروسي الفودكا ودفع ما عليه .
وشرب البولندي الفودكا ودفع أكثر بقليل .
وشرب القوزاقي ، فعاد النزل فقيراً كما كان .
ثم جعل يتخطى فيسمع صليل مهمازيه
ورأت ساقية المقصف عينيه مسمرتين في عينيها .
«آه ، ياسيدتي العزيزة ، تعالي لتعيشي معي ،
تعالي لتعيشي معي في الدون الهادئ»
فالناس في الدون لا يحبون حياتكم ،
لا ينسجون ، لا يغزلون ، لا يبذرون ، لا يحصدون ،
لا يبذرون ، ولا يحصدون ، ولكنهم يرتدون ملابس أنيقة جداً »

وبعد الغذاء ودع غافريلا عائلته ومضى راكباً . وشرعت بيلاغيا من يومها ذاك ترقب بطنها .

شرحت لناتاليا كورشونوفا كيف حملت . وقالت : لقد شاهدت حلماً قبل وصول زوجي بيوم أو بيومين ، كنت أسير خلال المرج ، فرأيت بقرتنا العجوز قبالتي ، بقرتنا التي بعناها في الصيف الماضي . كانت تسير والحليب يقطر من حلمات ضرعها . فقلت في ذات نفسي «ياالهي ، أتراني لم أحسن حلبها» . وفي اليوم التالي جاءت دروزديخا العجوز تطلب حشيشة الدينار ، فقصصت عليها الحلم . فنصحتني بأن أقتطع قطعة من الشمع وألكها على هيئة كرة وآخذها وأدفنها في روث البقر ، لأن سوء الطالع كان مطلاً من النافذة . فهرعت لأفعل كما قالت . ولكني لم أجد الشمعة . لقد كانت لدي واحدة بالتأكيد ، ولابد أن الأطفال قد أخذوها ليصطادوا أباشبث . ثم جاء غافريلا ومعه المتاعب . وقبل ذلك كنت قد أمضيت ثلاثة أعوام بلا متاعب ، أما الآن فانظري الي! ـ ونخست بطنها المنتفخة .

وبرمت بيلاغيا من انتظار زوجها . لقد سئمت وحدتها ، ومن ثم دعت صديقاتها لزيارتها يوم الجمعة وقضاء الأمسية معها . وجاءت ناتاليا وبيدها جورب لم تنته بعد من حياكته ، ذلك أن الجد غريشكا اشتد عليه البرد عند حلول الربيع . وكانت مرحة على غير عادتها ، وضحكت أكثر مما ينبغي لدعابات الأخريات ، محاولة اخفاء اشتياقها لزوجها . وكانت بيلاغيا جالسة على الموقد وقد تدلت ساقاها العاريتان بعروقهما البنفسجية ، وجعلت تمازح فروسيا الشابة السليطة :

كيف ضربت زوجك يافروسيا ؟

ـ ألا تعرفين كيف ؟ على ظهره ، على رأسه ، وعلى أي مكان أستطيع أن أبلغه بيدي .

ـ لم أقصد ذلك ، انما كنت أتساءل كيف حصل ذلك .

فأجابت فروسيا برمة :

ـ لقد حصل وحسب .
فعلقت امرأة نحيلة طويلة قائلة بتأن :
ـ ولكن هل سيهدأ لسانك اذا ما كبست زوجك مع امرأة أخرى ؟
ـ حدثينا عن كل ذلك يافروسيا .
ـ ليس لدي ما أقوله...
ـ أوه ، هيا فكلنا هنا صديقات .
فتبسمت فروسيا قائلة وهي تتفل قشور عباد الشمس في كفها :
ـ حسناً ، لقد لاحظت نزواته منذ وقت طويل ، ثم أخبرتني إحداهن أنه كان يتردد على الطاحونة مع فاجرة تأتي من الجانب الآخر من الدون . فذهبت ووجدتهما في الطاحونة .
فقاطعتها المرأة الناحلة ملتفتة الى ناتاليا :
ـ هل من أخبار عن رجلك يا ناتاليا ؟
فأجابت هامسة :
ـ إنه في ياغودنويه .
ـ وهل تفكرين في العيش معه ؟
فتدخلت مضيفتهن :
ـ قد تفكر في ذلك ، ولكنه لا يفعل .
فأحست ناتاليا بالدم الحار يفور في وجهها . وأحنت رأسها فوق جوربها وجعلت تنظر الى النسوة من تحت أهدابها . واذ أيقنت أنها لا تستطيع أن تخفي عنهن حميا خجلها ، أسقطت كرة الصوف عن عمد وبارتباك فطن له الجميع . فتدحرجت من حضنها ثم انحنت وراحت تتلمس بأصابعها أرض الحجرة الباردة .
فنصحتها امرأة بنبرة رثاء ظاهر :
ـ ابصقي عليه ، أيتها المرأة! سوف تجدين لك نيراً آخر مادامت لك رقبة .

واختفت حيوية ناتاليا المصطنعة كما تتوارى الشرارة في الريح . وانتقل حديث النسوة الى الثرثرة والقال والقيل . ومضت ناتاليا تحيك بصمت . وأجبرت نفسها على الجلوس حتى انفرط عقد السامرات ، ثم ذهبت أخيراً الى البيت وفي ذهنها قرار لم يختمر تماماً . فقد دفعها الخزي من مصيرها المجهول الى خطوة أخرى . ذلك انها مازالت لا تريد أن تصدق أن غريغوري قد هجرها الى الأبد ، وهي مستعدة لأن تغفر له وتستعيده . لقد قررت أن ترسل له خطاباً بصورة خفية ، لتتأكد ما إذا كان قد هجرها الى الأبد أو أنه قد يغير رأيه . وعندما عادت الى البيت في ساعة متأخرة وجدت غريشاكا العجوز جالساً في غرفته الصغيرة يقرأ في نسخة قديمة بالية من الانجيل مجلدة بجلد مدهون . وكان أبوها في المطبخ يصلح شبكة لصيد الأسماك ويصغي الى قصة يرويها ميخاي عن جريمة قتل قديمة . وكانت والدتها قد أرقدت الطفلتين في الفراش ونامت على حافة الموقد ، وقد واجه عقبا قدميها المسودان الباب . فخلعت ناتاليا سترتها وجالت في الغرف دونما هدف .

وفي احدى أركان الغرفة الكبيرة كان ثمة كومة من القنب المعد للبذر ، وكان بالوسع سماع الفئران تتراكض وتصيء .

توقفت هنيهة في غرفة جدها بالقرب من طاولة صغيرة وهي تتفرس باكتئاب في كومة الكتب الدينية تحت الايقونات .

ـ جدي ، هل لديك شيء من الورق ؟

فتساءل الجد مقطب الجبين ناظراً اليها فوق النظارة : ـ أي صنف من الورق ؟

ـ ورق للكتابة .

فتلمس العجوز كتاباً للتراتيل وجر منه طبقة مدعوكة من الورق انبعث منها رائحة البخور القوية .

ـ وقلم ؟

ـ اسألي أباك . ابتعدي ياعزيزتي ، ولا تزعجيني .

وحصلت على عقب قلم من أبيها ، وجلست الى المنضدة تتصارع في ذهنها الأفكار التي سامتها العذاب ردحاً طويلاً من الزمن ، الأفكار التي أهاجت ألما يحذّر قلبها ويتأكله .

ومضت تكتب :

«غريغوري بانتلاييش !

قل لي كيف لي أن أعيش ، وهل ضاعت حياتي أم لا . لقد رحلت دون أن تقول لي كلمة واحدة . لم أقترف ذنباً بحقك ، ولقد لبثت انتظرك لكي تطلق أساري ، لكي تقول أنك رحلت الى غير رجعة ، ولكنك مضيت عنى وها أنت صامت لا تريم كالقبر .

ظننت أنك رحلت في لحظة انفعال ، وانتظرت عودتك ، ولكنني لا أريد أن أحشر نفسي بينكما . أن يسحق انسان واحد في الأرض خير من أن يسحق اثنان . ارحمني لآخر مرة واكتب . وسأعلم آنذاك ما هو مصيري ، فأنا الآن أقف في منتصف الطريق .

لا تغضب مني ، ياغربشا ، بحب المسيح .

ناتاليا»

وفي الصباح التالي ، وعدت هيت ـ بابا أن تعطيه فودكا وأقنعته بالشخوص الى ياغودنويه حاملاً الرسالة . فقاد هيت ـ بابا حصاناً الى ساحة درس الحبوب ، وقد استبد به ترقبه لنوبة السكر وانطلق على الحصان غير المسرج الى ياغودنويه دون أن يخبر سيده بذلك . كان يبدو أخرق فوق حصانه ، كأي غريب بين فرسان قوزاق . كان مرفقاه الممزقان يرتجان أثناء خببه . وكان أطفال القوزاق الذين يلعبون في الشارع يلاحقونه بصيحات السخرية :

ـ الاوكراني القذر !

ـ حاذر ألا تقع !

ـ كأنه كلب على سور !

وعاد عشية الليل ، وقد جلب معه ورقة زرقاء مما يلف به السكر القند ، وغمز لناتاليا وهو يخرج الورقة :

ـ كان الطريق فظيعاً . لقد رجني حتى كاد أن يخلع كبدي .

قرأت ناتاليا الجواب واستحال وجهها قاتماً . لقد نفذت الكلمات الأربع المخربشة على الورقة الى قلبها كأسنان حادة... .

«عيشي وحيدة . غريغوري ميليخوف» .

وبسرعة ، كما لو لم تكن لتثق بقواها ، مضت ناتاليا الى البيت وارتمت على سريرها . كانت أمها تشعل الموقد استعداداً لتلك الليلة ، لكي تطبخ في بكرة صباح أحد الفصح ولتكون كعكة العيد جاهزة في الوقت المناسب .

نادت على ناتاليا :

ـ ناتاليا تعالي ساعديني .

ـ ألم بي صداع ، ياماما . سأضطجع قليلاً .

فأطلت أمها برأسها خلال الباب وقالت :

ـ اشربي شيئاً من ماء الكامخ . وسيشفيك في الحال . فلعقت ناتاليا شفتيها بلسانها الجاف ولم تجب .

لبثت مستلقية حتى المساء ، ورأسها مغطى بشال صوفي دافئ وجسمها المكتوم يهتز بقشعريرة خفيفة . وكان ميرون غريغوريتش وغريشاكا على وشك أن يمضيا الى الكنيسة حينما نهضت وذهبت الى المطبخ . كانت حبات العرق تلمع على صدغيها تحت شعرها الناعم السبط وقد ترقرقت عيناها بغشاوة لزجة غير طبيعية .

وبينما كان ميرون غريغوريتش يشد أزراره الكثيرة على سرواله العريض رنا الى ابنته وقال :

ـ وقت غير مناسب لمرضك ، أيتها البنت . تعالي معنا الى القداس .

ـ اذهبوا ، وسآتي فيما بعد .

ـ لعلك ستأتين حينما نكون على أهبة الرجوع ؟

ـ لا ، سآتي حينما أتم ارتداء ملابسي .

فخرج الرجلان ، وتركا لوكينشنا وناتاليا في البيت . وجعلت ناتاليا في البيت تروح وتغدو على غير هدى بين الصندوق والسرير ، وتحملق بعينين شاردتين في كومة الملابس المبعثرة في الصندوق ، وتند عن شفتيها همهمة ، وتدور في ذهنها نفس الأفكار الموجعة . وظنت لوكينشنا أن ناتاليا لم تستطع أن تقرر أي لباس تلبس ، فاقترحت عليها بحنان أمومي : «ارتدى تنورتي الزرقاء ياعزيزتي . ستناسبك تماماً . أتريدين أن أحضرها لك ؟» .

لم يكن لدى ناتاليا ملابس جديدة لعيد الفصح ، وحين تذكرت لوكينشنا كيف كانت ابنتها قبل زواجها تحب في الأعياد أن ترتدي تنورتها الضيقة ذات اللون الأزرق الغامق ، الحت عليها أن تأخذها وهي تعزو قلقها الى حيرتها حول ما سترتديه .

ـ كلا ، سأمضي بهذه ! ـ واخرجت ناتاليا بعناية تنورتها الخضراء ، وتذكرت فجأة انها كانت ترتديها يوم زارها غريغوري أول مرة كعريسها المقبل ، وحين أخجلها بتلك القبلة الطائرة الأولى قرب مخزن الحبوب . وانكفأت على غطاء الصندوق المرفوع وهي تختض بالنشيج .

فصاحت أمها ضاربة يداً بيد :

ـ ناتاليا ، ما خطبك ؟

فخنقت ناتاليا رغبتها في العياط ، واستعادت سيطرتها على نفسها وأطلقت ضحكة غليظة متخشبة .

ـ لا أدري ما ألم بي اليوم... .

ـ آه ، ناتاليا ، لقد لاحظت... .

فصرخت بغيظ مفاجئ . وهي تدعك تنورتها الخضراء بأصابعها :

ـ حسناً ، وماذا لاحظت ، ياماما ؟

ـ أنت لا تستطيعين المضي على هذا المنوال ، أنت بحاجة الى زوج .

ـ كفاني ما لقيت من زوج واحد !

ومضت الى غرفتها ، وبسرعة عادت الى المطبخ مرتدية ملابسها ، نحيفة كالفتيات الصغيرات ، وعلى وجنتيها الشاحبتين تورد أسيان قاتم .

فقالت لها أمها :

ـ امضي قبلي ، فلست مستعدة بعد .

فدست ناتاليا منديلاً في كمها وخرجت ، وحملت الريح اليها هدير الجليد الطافي والمذاق الدبق لرطوبة الذوبان . ومضت رافعة تنورتها قليلاً بيدها اليسرى متلمسة طريقها عبر البرك الزرق اللؤلؤية حتى وصلت الكنيسة . وكانت خلال الطريق تحاول أن تستعيد هدوءها النسبي السابق بالتفكير في العيد ، وفي كل شيء بشكل مبهم وخاطف . غير أن أفكارها ارتدت بعناد الى قطعة الورق المخبأة في صدرها ، والى غريغوري والمرأة السعيدة التي كانت آنئذ تضحك منها ملء قلبها ، ولربما في اشفاق عليها... .

وحينما دلفت الى باحة الكنيسة اعترض طريقها بعض الفتيان ، فمالت عنهم وتناهى الهمس الى أذنها :

ـ من تكون ؟ أرأيتها ؟

ـ ناتاليا كورشونوفا .

ـ يقولون انها مفتوقة . ولهذا هجرها زوجها .

ـ غير صحيح . كانت تعبث مع حميها ، بانتلاي الأعرج .

ـ ها ، هكذا ! ولهذا هرب غريغوري من منزله ؟

ـ صحيح . وهي لا تزال على علاقتها ببانتلاي...

ووصلت الى سقيفة باب الكنيسة وهي تتعثر على حجارة الأرض الوعرة يتبعها الهمس الداعر القذر . وهأهأت الفتيات الواقفات في السقيفة حينما استدارت وغذت السير الى البوابة الأخرى . وهرعت الى البيت وهي تترنح كأنها ثملة . وعند بوابة الفناء جذبت نفساً سريعاً ثم دخلت تتعثر باذيال تنورتها وتعض على شفتيها حتى نز منهما الدم . وكان باب الحظيرة المفتوح فاغراً فاه عن سواد مظلم خلل العتمة البنفسجية . وبإرادة صلبة

استجمعت بقية قواها وركضت الى الباب وخطت مسرعة عبر العتبة . كانت الحظيرة باردة جافة ، تفوح منها رائحة الجلد في عدة الخيل والتبن الزنخ . وتلمست طريقها مترنحة الى إحدى الزوايا ، من غير إحساس أو تفكير ، يستحثها تشوق مظلم انشب مخلبه في روحها اليائسة المهانة . وهناك التقطت محشاً من مقبضه ، ورفعت الشفرة ـ وكانت حركاتها تنم عن ثقة واحكام ـ والقت برأسها الى الوراء ، وفي فورة جذلى من العزم ، فجائية ، شرطت بلعومها بنصله . فهوت كما لو ضربتها ضربة وصعقها ألم وحشي لهاب ، ولما أدركت على نحو مبهم أنها لم تنجز ماعزمت عليه كل الإنجاز ، تحاملت على الأربع ، ثم على ركبتيها . وبسرعة فكت أزرار سترتها بأصابع مرتعشة ، وقد أفزعها الدم المنهمر على صدرها ، وازاحت جانباً صدرها القوي النافر ، بيد وبالأخرى سددت رأس الشفرة . وزحفت على ركبتها نحو الحائط ، ودفعت عليه الطرف غير الحاد للشفرة . وألقت ذراعيها وراء رأسها ، ودفعت صدرها بثبات الى الأمام ، الى الأمام... وشعرت وسمعت بوضوح بالحسحسة المقززة ، التي تشبه حسحسة الكرنب ، وهي تنبعث من اللحم المتمزق ، وسرت موجة متزايدة من الألم الحاد على صدرها والى بلعومها ، غارزة إبراً تطن في أذنيها...

صر باب البيت . وتلمست لوكينشنا طريقها هابطة درجات الباب ومن برج الكنيسة انبعثت دقات ناقوسها المنتظمة . وكانت الطافيات الضخمة الجامحة تنحدر على الدون ، وينبعث منها هدير كاسح مستديم . وكان النهر الفياض ، الطلق الطروب ، يحمل أصفاده الجليدية بعيداً الى بحر آزوف .

١٩

تقدم ستيبان من غريغوري ، والتصق بخاصرة الحصان الحصان العرقة وقد أمسك بركابه .

ـ كيف حالك ، يا غريغوري ؟

ـ الحمد لله!

ـ فيم تفكر ؟ ها ؟

ـ فيم عساي أن أفكر ؟

ـ لقد انتزعت زوجة رجل آخر... أتقضي وطرك منها ؟

ـ دع الركاب .

ـ لا ترتعب! لن أضربك .

فاحمر وجه غريغوري وعلا صوته :

ـ لست خائفاً . أقلع عن هذا!

ـ لن أقاتلك اليوم . لا أريد... لكن تذكر كلماتي ياغريغوري ، لسوف أقتلك عاجلاً أم آجلاً .

ـ«سنرى!» كما يقول الأعمى!

ـ تذكر كلماتي جيداً . لقد أسأت اليّ . لقد خصيت حياتي كما يخصى خنزير . انظر هنالك...

ونشر يديه ، وراحتاه الخشنتان مبسوطتان الى أعلى . ـ أنا احرث ، ويعلم الله لأيما غاية . ألنا بحاجة الى ذلك لنفسي ؟

بوسعي أن أدبر حالي قليلاً ، وأقضي الشتاء بهذه الوسيلة . إنها الوحدة وحدها هي مايرهق كاهلي . لقد أسأت الي إساءة بالغة ، يا غريغوري .

ـ لا جدوى من شكواك اليّ . فالشيطان لا يفهم الجوعان .

فقال ستيبان موافقاً وهو يحدق في وجه غريغوري :

ـ هذا صحيح .

وعلى حين غرة انشق فمه عن ابتسامة صبيانية ساذجة ثنت زوايا عينيه الى شقوق صغيرة :

ـ إنني آسف لشيء واحد فقط ، أيها الفتى ، آسف جداً... أتذكر السنة الأخيرة ، قتال القرية في عيد المرفع ؟

ـ لا ، لا أذكر .

ـ يوم قتلوا قصار الأقمشة . وحين قاتل العزاب المتزوجين ، الا تتذكر ، هل تذكر كيف طاردتك ؟ كنت صغيراً وضعيفاً آنذاك ، كنبتة أسل خضراء بالقياس لي . تخليت عنك حينئذ ، ولو كنت قد ضربتك أثناء هربك ، لكنت قد شطرتك نصفين . عدوت بسرعة ، كأنك قطعة من المطاط . ولو كنت قد لطمتك بقوة على أضلاعك لما كنت اليوم حياً ترزق في هذه الدنيا .

ـ لا تجعل هذا يقلقك ، فلسوف ننازل بعضنا مرة أخرى .

ومسح ستيبان جبينه كمن يحاول أن يستذكر شيئاً ما . ونادى ليستنتسكي العجوز غريغوري وهو يقود حصانه من عنانه . ومشى ستيبان الى جانب الجواد وهو مايزال ممسكاً الركاب بيده . ولبث غريغوري يراقب كل حركة تبدر منه ، ولاحظ شارب ستيبان الكستنائي المتهدل ، والدغلة الكثيفة في ذقنه الذي لم يحلق منذ أجل بعيد ، والسير الجلدي المتشقق في قبعته العسكرية . كان وجهه حزيناً غريباً بصورة مذهلة ، وقد تركت مسارب العرق البيض آثارها عليه . وفيما كان غريغوري ينظر ، أحس وكأنه يشخص من قمة تل الى السهب البعيد الملفع بضباب ممطر . كان ثمة كلال وفراغ يغشيان قسمات ستيبان الذي تخلف وراء غريغوري دون كلمة وداع ، فمضى غريغوري بحصانه متمهلاً .

ـ انتظر قليلاً . وكيف... كيف حال اكسينيا ؟

فأجاب غريغوري وهو يضرب بسوطه كتلة من التراب من على جزمته :

ـ لا بأس .

ثم أوقف الجواد ونظر خلفه . كان ستيبان واقفاً وقدماه منفرجتان عن بعضهما كثيراً ، يلوك عوداً بين أسنانه . وأحس غريغوري على حين غرة بإشفاق عليه لاحد له ، وما هي الا لحظة حتى طغت الغيرة عليه . فصاح وهو يستدير على سرجه :

ـ إنها لا تفتقدك ، فلا تقلق ؟

ـ أهو كذلك ؟

وهوى غريغوري بسوطه على الجواد فيما بين أذنيه وابتعد يجري به دون أن يجيب .

٢٠

لم تبح اكسينيا بحملها لغريغوري الا في الشهر السادس ، حينما لم يعد في مقدورها أن تخفيه عنه . لقد ظلت صامتة طيلة ذلك الوقت لأنها كانت تخشى الا يصدق بأن الجنين الذي تحمله هو ابنه . كان تتريث كما لو تنتظر شيئاً وكان قلبها ينقبض من نوبات الأسى والرعب .

وخلال الأشهر الأولى كان الغثيان ينتابها من اللحم دون أن يلحظ غريغوري ، وحتى لو لحظة لما قدّر بواعثه .

واعتمل النبأ في سريرتها ذات مساء فأخبرته به ، وهي تتفرس قلقة في وجهه طيلة الوقت تتلمس أي تبدل في قسماته . غير أنه استدار نحو النافذة وتنحنح متضايقاً .

ـ لم تخبريني من قبل ؟

ـ كنت خائفة ، ياغريشا . ظننت أنك قد تلفظني...

فسأل وهو ينقر بأصابعه على ظهر السرير :

ـ أسيكون ذلك قريباً ؟

ـ بداية آب ، على ماأظن .

ـ أهو ابن ستيبان ؟

ـ كلا ، إنه ابنك!

ـ هكذا تزعمين ؟

ـ فلتقدر أنت بنفسك . إنه يوم قطع الأخشاب...

ـ لا تصطنعي الأشياء يااكسينيا! حتى لو كان ابن ستيبان ، فما عساك أن تفعلي ؟ إن ما أريد هو جواب صادق :

فجلست اكسينيا على المصطبة وهي تذرف دموعاً مغضبة ، وانفجرت في همس ضار :

ـ لقد عشت معه سنين عديدة ، ولم يحصل شيء أبداً! فكر بنفسك! إنني لم أكن امرأة عليلة... لابد أنه جاءني منك... وها إنك...

لم يتحدث غريغوري بأكثر من ذلك عن الموضوع . وطرأ على موقفه من اكسينيا خيط جديد من الترفع الحذر والشفقة المشوبة بشيء من السخرية ، فانطوت على نفسها لا تسأله معروفاً . وفي أشهر الصيف فقدت ملامحها الجميلة ، لكن الحمل لم يؤثر على قوامها البديع الا قليلاً ، فقد اخفى امتلاؤها العام وضعها الجديد ، وبالرغم مما بدا على وجهها من نحول فقد اكتسب جمالاً جديداً بعينيها المتألقتين بدفء . واستطاعت أن تدبر بسهولة عملها ، كطاهية ، لا سيما وان عدد العمال الذين استخدموا في الضيعة كان أقل من السابق .

صار ساشكا العجوز مولعاً باكسينيا ، ذلك الولع المتقلب الذي يميز الشيخوخة . ربما لأنها كانت ترعاه كما ترعى البنت أباها ، فكانت تغسل له أغطيته ، وترتق قمصانه وتمنحه لقماً سهلة المضغ على المائدة . وكان ساشكا حينما ينتهي من رعاية الخيل ، يذهب الى المطبخ ، ليجلب الماء ويعصد البطاطة للخنازير ، ويقوم بشتى الأعمال الصغيرة متوثباً حولها وملوحاً بيديه وهو يكشف عن لثته الجرداء ويقول :

ـ أنت تحسنين اليّ ، ولسوف أكافئك . سأفعل أي شيء من أجلك ، يا أكسينيا . لقد تلفت حياتي من غير امرأة تعنى بي ، كان القمل يلتهمني . لو احتجت الى أي شيء ، فما عليك الا أن تسأليني .

كان يفغيني نيكولاييفتش قد رتب أمر اعفاء حوذيه من معسكر التدريب الربيعي . فعمل غريغوري في الحش ، ومن حين لآخر كان يوصل ليستنتسكي العجوز بمركبة الى مركز المنطقة ، ويمضي بقية وقته مع سيده في صيد طيور الحباري . وبدأت الحياة السهلة الرضية تفسد طباعه ، فأمسى

كسولاً بديناً ، وبدا أكبر سناً من حقيقة عمره . وكان الشيء الوحيد الذي يسبب له القلق هو التفكير بخدمته العسكرية المقبلة ، فلم يكن لديه حصان ولا عدة ، ولم يكن ليأمل أن يحصل على أي شيء من أبيه . فجعل يدخر الأجر الذي يستلمه عن عمله وعمل اكسينيا ، حتى حرم نفسه التبغ آملاً أن يستطيع ابتياع حصان دون اضطراره الى الاستجداء من أبيه . وكان ليستنتسكي العجوز قد وعده خيراً كذلك . وسرعان ما تحقق هاجس غريغوري بأن أباه لن يعطيه شيئاً . ففي أواخر حزيران جاء بيوتر لزيارة أخيه ، وذكر في مجرى الحديث أن أباه لم يزل غاضباً كالسابق ، وإنه أعلن الا يساعده في الحصول على حصان ، وقال : «فليذهب الى القيادة المحلية ليحصل على حصان» .

فقال غريغوري :

ـ ليس ثمة مايدعوه للقلق ، فسأذهب لاداء خدمتي العسكرية على حصاني الخاص ، ـ وشدد على كلمة «الخاص» .

فسأله بيوتر مبتسماً وهو يلوك شاربه :

ـ وكيف ستحصل عليه ؟ هل ستشتغل راقصاً للحصول على ثمنه ؟

ـ سأرقص من أجله ، أو استجدي ، واذا لم أستطع الحصول عليه بهذه الوسيلة فسوف أسرقه .

ـ يا للفتى الشاطر!

فقال غريغوري بلهجة أكثر جدية :

ـ سأبتاع حصاناً بأجوري .

ومضى بيوتر في جلسته على درجات العتبة يسأل غريغوري عن عمله وطعامه وأجوره ، وهو يلوك شاربه ويهز رأسه استحساناً ، وبعد أن أتم استفساراته قال لأخيه وهو يستدير لينصرف :

ـ خير لك أن تعود ، فلا جدوى من عنادك . أتحسب أنك ستحصل على أجر أعلى بهذه الطريقة ؟

ـ لا ، لا أظن .

ـ أتنوي البقاء معها ؟

ـ مع من ؟

ـ مع هذه المرأة ؟

ـ أجل . ولم لا ؟

ـ أوه ، كنت أتساءل وحسب .

وبينما مضى غريغوري ليودع أخاه ، سأله أخيراً :

ـ وكيف الأحوال في البيت ؟

فتضاحك بيوتر فيما كان يحل فرسه من درابزين الدرجات ، وقال :

ـ لك بيوت بقدر ما للأرنب من جحور! كل شيء على مايرام . أمي تفتقدك . وقد حششنا ثلاثة أحمال من التبن .

وتفرس غريغوري بانفعال في الفرس العجوز التي كان يمتطيها أخوه :

ـ ألم تلد مهراً هذا العام ؟

ـ كلا ، أيها الأخ ، فهي عاقر . ولكن الكميت التي اشتريناها من كريستوينا ولدت .

ـ ووليدها .

ـ فحل جيد طويل الساق قوي الرسغ ، وذو صدر متين . وسيغدو جواداً جيداً .

فتنهد غريغوري ، وقال :

ـ إنني أفتقد القرية يا بيوتر . أفتقد الدون . فلست تجد ماء يجري هنا . إنه جحر موحش!

فأجاب بيوتر وهو يلقي بطنه على ظهر الفرس الهزيل :

ـ تعال زرنا .

ـ يوماً ما .

ـ حسناً . مع السلامة .

ـ رحلة طيبة .

وكان بيوتر قد ابتعد عن الفناء حينما تذكر شيئاً وصاح على غريغوري الذي كان لايزال واقفاً على الدرجات :

ـ ناتاليا... لقد نسيت... شيء فظيع...

لكن الريح التي كانت تحوم فوق الفناء مثل النسر حملت نهاية الجملة بعيداً عن أذني غريغوري . وتلفع بيوتر وفرسه بغبار مخملي ، فلوح غريغوري بيده ومضى الى الاصطبلات .

كان الصيف جافاً كالعظام . ثم سقط مطر قليل فنضج القمح مبكراً . وما إن تم خزن الذرة ، حتى نضج الشعير واصفر لونه ، فخرج غريغوري والعمال المياومون الأربعة لحصاده .

وكانت اكسينيا قد انهت عملها مبكرة ذلك اليوم فسألت غريغوري أن يصطحبها معه . وحاول أن يثنيها عن عزمها قائلاً :

ـ الأفضل أن تبقي في البيت فما الحاجة إليك هناك ؟

ولكنها ألحت وألقت العصابة على رأسها بسرعة ، وخرجت تعدو حتى لحقت بالعربة التي ركب فيها الرجال .

وقد وقع أثناء الحصاد الحادث الذي كانت تتطلع اليه اكسينيا بتلهف ونفاد صبر مشوب بالفرح ، والذي كان غريغوري يتوقعه بخوف مبهم . واذ شعرت بالأعراض ، ألقت عنها المجرفة واستلقت تحت كومة من حزم الشعير . وسرعان ما جاءها المخاض .

فتمددت متفلطحة على الأرض وهي تعض على لسانها المسود مر بها العمال وهم على آلة الحصاد عند المنعطف ، وحثوا الخيل صارخين . وصرخ بها أحدهم ، وهو شاب تعلو أنفه دملة متقيحة وقد امتلأ وجهه الأصفر بتجاعيد لا حصر لها بدت كحفر على الخشب :

ـ هي ، أنت! انهضي وإلا ذبت!

فأناب غريغوري أحد الرجال محله على الآلة وعبر إليها .

ـ ما الخبر ؟
فقالت بصوت مبحوح وشفتاها تلتويان بغير إرادتها :
ـ جاءني المخاض...
ـ قلت لك ألا تأتي ، يا قحبة الشيطان! ما عسانا أن نفعل الآن ؟
ـ لا تغضب مني ، يا غريشا!... آه!... آه... غريشا ، شد الحصان الى العربة . لابد أن أذهب الى البيت... كيف يمكنني ، هنا... والقوزاق .
وند عنها أنين حينما اعتصرها الألم مثل طوق حديدي .
فركض غريغوري ليأتي بالحصان الذي يرعى في منخفض على بعد قليل ، وحينما عاد بالعربة . كانت اكسينيا قد زحفت جانباً وحبت على أطرافها الأربع ، وألقت برأسها في كومة من الشعير المغبر ، وجعلت تبصق السنابل الشائكة التي كانت قد مضغتها في معاناتها . وركزت عينيها المتسعتين على غريغوري في غيبوبة ، وغرزت أسنانها في صدريتها المدعوكة كي لا يسمع العمال صراخها المريع النفاذ .
ورفعها غريغوري الى العربة وساق الحصان مسرعاً صوب الضيعة .
انبعث من اكسينيا صراخ فيما كان رأسها يرتطم بقاع العربة : «آه! لا تسرع... آه ، الموت! انك... ترجـ... ني» .
واعمل غريغوري السوط بصمت ، ولوح بالأعنة فوق رأسه دون أن ينظر الى الوراء ، حيث كان يزحف الى سمعه عويل مبحوح متقطع .
وجعلت اكسينيا تتوثب هنا وهناك في العربة المترنحة من جانب لآخر على الطريق غير المطروق ، والمليء بالعثرات ، وهي تضغط براحتيها على خديها ، وعيناها الجزعتان الجاحظتان تدوران في محجريهما بصورة وحشية . أبقى غريغوري الحصان على سرعته ، وقوس عريش العربة يتأرجح صاعداً هابطاً أمام عينيه ، حاجباً سحابة بيضاء ناصعة كانت تتدلى من السماء كأنها بلور مصقول . ومضت لحظة توقفت خلالها اكسينيا عن عويلها الصارخ ، فتعالت قرقعة العجلات ، ومضى رأسها يرتطم بشدة على خشبة

الأرضية . لم ينتبه غريغوري لصمتها في البداية ، لكنه عاد فنظر الى الخلف . كانت اكسينيا مستلقية ، وقد تشوه وجهها بصورة مرعبة ، وانضغط خدها بقوة ، على جانب بالعربة ، وفكاها يعتملان مثل سمكة ملقاة على الشاطئ . وكان العرق يسيل من جبينها الى محجري عينيها الغائرين . فرفع رأسها واضعاً تحته قبعته المدعوكة . فقالت وهي تنظر اليه بطرف عينيها :

ـ سأموت ، يا غريشا . وينتهي أمري!

فارتعش غريغوري ، وسرت قشعريرة باردة في جسده حتى أصابع قدميه . وراح ينقب دون جدوى عن كلمات تشجيع وطمأنينة . فالتوت شفتاه بقوة وانفجر : «كفى هراء ، أيتها الحمقاء!» ثم هز رأسه ، ومال الى الأمام وجعل يعصر قدميها المثنية : «اكسينيا يا حمامتي الصغيرة»...

خبا الألم وانجاب عن اكسينيا لحظة ، ثم عاودها بقوة مضاعفة . تقوس جسمها وإذ شعرت بشيء يمزق بطنها ، أرسلت صرخة مدوية مرعبة اخترقت أذني غريغوري . فألهب الحصان بسوطه في نوبه من جنون .

ثم تناهى إليه صوتها ضعيفاً واهناً فوق قرقعة العجلات :

غريشا .

فكبح جماح الحصان ، وأدار رأسه . كانت اكسينيا متمددة في بركة من الدم وذراعاها منشورتان ، وتحت تنورتها شيء حي يتململ ويصوص . فقفز غريغوري كالمجنون من العربة وكبا على مؤخرتها . وعندما حدق في فم اكسينيا اللاهث الملتهب استطاع أن يخمن هذه الكلمات أكثر مما سمعها :

ـ اقضم الحبل... اربطه بخيط... من قميصك .

وبأصابع مرتعشة مزق خصلاً من الخيوط من كم قميصه القطني ثم قضم حبل المشيمة ، وهو يغلق عينيه بقوة حتى آلمتاه ، وربط بعناية طرفه النازف بالخيط .

٢١

كانت ضيعة ياغودنويه ناتئة كالورم بجانب الوادي الفسيح الجاف . والريح تهب متغيرة الاتجاه ، من الشمال أو الجنوب ، وتطفو الشمس في بياض السماء الحائل الى الزرقة ، ويحل الخريف بحفيفه للأوراق الساقطة في أعقاب الصيف ، وينهال الشتاء بصقيعه وثلجه ، غير أن ياغودنويه تبقى في أحضان الملل الهامد . هكذا مرت الأيام ، واحداً تلو الآخر ، متشابهة كالتوائم ، والضيعة ترزح منقطعة عن العالم كعهدها .

ما فتىء البط الهامس الأسود ، تحيط بعيونه حلقات حمر كالعوينات ، يتهادى في أرجاء الفناء ، والدجاج الحبشي منتشراً كالمطر المنقوط ، والطواويس زاهية الريش تتصادح مبحوحة الصوت كالقطط فوق سطح الاسطبل ، كان الجنرال العجوز مولعاً بشتى أنواع الطيور ، حتى أنه يحتفظ بكركي كسيح . وفي شهر تشرين الثاني ، حين يتناهى اليه نداء الكراكي الخافت ، وهي طائرة نحو الجنوب ، يعتصر الكركي نياط نياط القلب بصيحات الحنين النحاسية الجرس . ولكنه لم يقو على الطيران ، فقد تدلى أحد جناحيه الى جنبه دونما نفع . وفيما كان الجنرال يقف الى النافذة ويرقب الطير وهو يمد عنقه ويقفز مرفرفاً على الأرض ، يقهقه فاغراً فمه الكبير تحت شاربه المتهدل الأشيب ، وكانت نبرة ضحكاته العميقة تتجاوب في القاعة الخاوية ذات الجدران البيض .

ومضى فينيامين شامخاً برأسه الأشعث كدأبه أبداً ، ينفق أياماً بطولها وحيداً في غرفة الانتظار يلعب الورق مع نفسه . وكان تيخون كعده يغار على خليلته ذات الوجه المجدور ، من ساشكا ، والعمال المياومين ، وغريغوري ، ورب البيت ، وحتى من الكركي الذي خصته لوكيريا بالرقة التي تفيض من قلبها الأرمل . وكان ساشكا العجوز يسكر بين آونة وأخرى ، فيستجدي قطعاً من فئة العشرين كوبيكا تحت نافذة ليستنتسكي .

وطوال الوقت الذي أمضاه غريغوري في ياغودنويه لم يقع سوى حادثين اشاعا الحركة في السبات الذي ينيخ بكلكله على حياة الضيعة الرتيبة الوسنانة : مولد طفلة اكسينيا ، وفقدان ذكر الأوز النفيس . وقد ألف سكان ياغودنويه الطفلة بسرعة ، وحين عثروا على ريش الأوز في المرج ، استنتجوا أن ثعلباً قد اختطفه ، ثم مالبثوا أن استكانوا من جديد الى حياتهم الوادعة .

كان رب البيت ، حين يستيقظ صباحاً ، يستدعي فينيامين ويسأله :

ـ هل رأيت حلماً في الليلة الماضية ؟

ـ ماذا ، طبعاً رأيت حلماً رائعاً .

فيأمره ليستنتسكي باقتضاب وهو يلف لنفسه سيكارة :

ـ قصه عليّ .

فيروي فينيامين الحلم . وإذا ما تبين ليستنتسكي أنه غير ماتع أو مرعب ، فإن الغضب ينتابه ، ويقول :

ـ أيها الأبله! إن الاحلام السخيفة تأود الحمقى .

وشرع فينيامين يلفق أحلاماً مرحة ماتعة . ولكن ذلك كان عليه عسيراً . فبدأ يختلق الأحلام قبل موعدها ببضعة أيام ، جالساً على صندوقه يخلط الورق ، وكان منتفشاً دهيناً كخدي لاعبه . وكانت عيناه تحدقان ساهمتين ، فيرهق ذهنه الى حد أنه لم يعد يرى أحلاماً حقيقية على الإطلاق . وحين كان يفيق في الصباح يجهد ذاكرته في محاولة استعادة ما رآه في الحلم ، ولكنه لا يرى إلا ظلاماً ، ظلاماً دامساً . إنه لم ير حلماً ، لم ير في نومه أي وجه .

وسرعان ما نضبت جعبة فينيامين من الأكاذيب الساذجة فصار الغضب ينتاب سيده حين يمسك به متلبساً بتكرار ما رواه :

ـ لقد رويت لي يوم الخميس الماضي ذلك الحلم حول الحصان ، لعنة الله عليك!

فيكذب فينيامين بهدوء :

ـ لقد رأيت الحلم ثانية ، يا نيكولاي اليكسييتش! إني صادق والله ، لقد رأيته ثانية .

وفي كانون الأول استدعي غريغوري الى إدارة المنطقة في فيشينسكايا . واستلم هناك مئة روبل لشراء حصان ، وطلب اليه أن يحضر الى مركز التجنيد في قرية مانكوفو بعد عيد الميلاد بيومين .

عاد الى ياغودنويه وقد انتابه اضطراب ملحوظ . كان عيد الميلاد على الأبواب ، ولم يكن لديه شيء جاهز . فاشترى حصاناً بمئة وأربعين روبلاً من المال الذي تسلمه من السلطات إضافة الى ما ادخره . وقد اصطحب ساشكا معه فاشتريا حصاناً لا بأس بمظهره ، كميتا ، له من العمر ست سنوات ، فيه عيب خفي . ومرر ساشكا العجوز أصابعه في ثنايا لحيته وقال :

ـ لن تحصل على واحد أرخص منه ، ثم إن السلطات لن ترى العيب فيه! فليس لديهم مهارة كافية .

وعاد غريغوري الى ياغودنويه على ظهر الحصان ، فعجم عوده . وعلى غير انتظار قدم بانتلاي بروكوفتش الى ياغودنويه قبل عيد الميلاد بأسبوع . لم يدخل عربته الى الفناء ، بل ربط حصانه والعربة قرب البوابة ، ثم ظلع الى جناح الخدم ، سالخاً بلورات الثلج عن لحيته التي تدلت كالخشبة السوداء فوق ياقة معطفه . وكان غريغوري يتطلع خلال الشباك صدفة فرأى والده قادماً . فارتبك واندهش :

ـ يا للعجب... إنه أبي!

ولأمر ما ، هرعت اكسينيا الى المهد ودثرت الطفلة . دخل بانتلاي بركوفيتش الغرفة آتياً معه بنفحة من الهواء البارد . ورفع قبعته الفرو ورسم إشارة الصليب على نفسه أمام الأيقونة ، ثم أجال بنظراته في أرجاء الغرفة ببطء :

ـ صحة طيبة!

فأجابه غريغوري وهو ينهض من المصطبة ويخطو الى وسط الغرفة قائلاً : «صباح الخير ، يا أبتي» . مد بانتلاي بركوفيتش الى غريغوري يداً باردة ، وجلس على حافة المصطبة وهو يلف نفسه بالفروة ، دون أن ينظر الى اكسينيا التي وقفت قرب المهد ساكنة لا تأتي حراكاً .

ـ هل تتهيأ للجندية ؟

ـ بالطبع .

ثم صمت بروكوفتش وهو يحدق في غريغوري بنظرات متفحصة .

ـ اخلع عنك ثيابك ، يا أبتي ، لابد أنك متجمد .

ـ لا يهم ذلك .

ـ سنعد السماور .

ـ شكراً لك ـ ثم حك العجوز بظفره بقعة وحل متيبسة من معطفه ، وأضاف : ـ جلبت تجهيزاتك : معطفين ، وسرجاً وسراويل ، ستجدها كلها هناك في الزحافة .

فخرج غريغوري وحمل كيسي التجهيزات من الزحافة . وحين عاد نهض أبوه من مقعده . وسأل ابنه :

ـ متى ترحل ؟

ـ في اليوم التالي لعيد الميلاد . أتذهب الأن ياأبتي ؟

ـ أود أن أعود مبكراً .

ثم ودع غريغوري ، وهو مايزال يتحاشى النظر الى اكسينيا ، ومضى صوب الباب . وفيما هو يرفع السقاطة أدار عينيه صوب المهد وقال :

ـ أمك تخصك بالسلام : إنها تلازم الفراش لألم في ساقيها ـ ثم صمت لحظة ، وقال بتثاقل : ـ سوف أرافقك الى مانكوفو . كن على استعداد حين آتي .

خرج وهو يدس يديه في قفازين دافئين منسوجين . كانت اكسينيا شاحبة من المذلة التي عانتها ، فلم تقل شيئاً . وراح غريغوري يقطع الغرفة

ذهاباً وإياباً ، وهو ينظر الى اكسينيا من زاوية عينيه فيما كان يمر بها ويطأ ألواحاً تصرّ تحت قدميه .

ويوم عيد الميلاد ساق غريغوري العربة بسيده الى فيشينسكايا . فحضر ليستنتسكي القداس ، وتناول طعام الإفطار مع ابنة عمه ، وهي من ملاكات المنطقة ، ثم أمر غريغوري أن يعد العربة لرحلة الإياب . فنهض غريغوري في الحال رغم أنه لم ينته من تناول حساء الكرنب ولحم الخنزير الدسم . ومضى الى الإسطبل ، وأخرج منه الحصان الرمادي الأرقط الخباب معلقاً به عنانه وشده الى الزحافة الخفيفة في عجلة .

كانت الريح تنخل ندف الثلج الناعمة المرنانة ، وكان زبد فضي يرسل هسيسه خلال الفناء وقد تدلى من الأشجار خلف السياج هداب هش من الثلج الأبيض . كانت الريح تنفض هذا الهداب ، فيتناثر ، ويعكس من نور الشمس تشكيلة ثرة من الألوان القزحية . وكانت الغربان المستبردة تلغط عالياً على السطح قرب المدخنة التي كان يتصاعد منها الدخان . وإذ أفزعها وقع الأقدام طارت وحامت فوق الدار كندف رمادية ، ثم اتجهت صوب الغرب ، صوب الكنيسة ، وهي ترى واضحة أمام سماء الصباح البنفسجية .

نادى غريغوري الخادمة التي جاءت الى درج البيت :

ـ أخبري السيد أننا على استعداد .

خرج ليستنتسكي واستقل المركبة ، وقد دفن عذاريه في ياقة معطفه المصنوع من فراء حيوان الراكون . ودثر غريغوري ساقيه وعدل فروة الذئب المبطنة بالمخمل . قال ليستنتسكي وهو يلقي نظرة الى الحصان :

ـ ابعث الدفء فيه .

جلس غريغوري مائلاً الى الوراء في مقعده ، ويداه تمسكان بقوة على الأعنة الراعشة ، يراقب حفر الطريق وهو يستعيد بقلق ذكرى تلك اللكمة التي لم تكن بالواهنة يوم كالها له سيده على الأذن بسبب هفوة في سياقه المركبة في أوائل الشتاء . وحين انحدرت المركبة شطر الدون ارخى

غريغوري العنان من قبضة يده ، ودلك بقفازه خديه المتيبسين من الريح الباردة اللاذعة .

بلغا ياغودنويه في غضون ساعتين . كان ليستنتسكي صامتاً طوال الرحلة ، وبين آونة وأخرى ، يربت على ظهر غريغوري بإصبعه إشارة له بالتوقف ريثما يلف لنفسه سيكارة ويشعلها مديراً ظهره عكس الريح . ولم يتوجه إليه بالسؤال إلا وهما يهبطان التل صوب البيت .

ـ صباح غد الباكر ؟

فالتفت غريغوري جانباً في مقعده ، وجر شفتيه المتجمدتين عن بعضهما بمشقة . كان لسانه المتخشب من البرد ، يبدو وكأنه قد تورم والتصق بظهر أسنانه ، واستطاع أخيراً أن يجيب :

ـ أجل .

ـ تسلمت كل نقودك ؟

ـ أجل .

ـ لا تقلق على زوجتك ، سوف تكون بخير معنا . كن جندياً حسناً ، لقد كان جدك قوزاقياً طيباً . وينبغي لك ـ ثم خفت صوت ليستنتسكي إذ أخفى وجهه من الريح تحت ياقة معطفه : ـ ينبغي لك أن تسلك سلوكاً يليق بجدك وأبيك . لقد نال أبوك الجائزة الأولى في ألعاب الفروسية في الاستعراض الامبراطوري ، أليس كذلك ؟

ـ أجل .

ـ حسناً إذن!

هكذا ختم الشيخ كلامه بنبرة شديدة في صوته ، فكأنه يحذر غريغوري ، ثم دفن رأسه ثانية في معطف الفرو .

سلم غريغوري الحصان الى ساشكا في الفناء ، وتوجه الى جناح الخدم فصاح ساشكا وراءه :

ـ لقد جاء أبوك ـ وغطى الحصان بشرشف .

وألفى غريغوري أباه جالساً الى المائدة يتناول مرق اللحم . وحين لمح غريغوري وجه والده المحمر قرر أن والده قد «شرب قليلاً» .

ـ ها قد عدت ، يا جندي ؟

فأجابه غريغوري : «لقد تجمدت أوصالي» . وصفق يديه والتفت الى اكسينيا ، وأردف : «فكي أزرار قلنسوتي ، أصابعي متخشبة جداً» .

فحمحم والده وهو لا يتوقف عن المضغ :

ـ لابد أن الريح كانت تعاكسك .

كان أبوه ، وقد بدا هذه المرة أرق مزاجاً ، يصدر الى اكسينيا أوامره وكأنه في بيته . قال لها : «لا تبخلي هكذا بالخبز ، اقطعي المزيد منه» .

وحين فرغ من طعامه ، نهض من المائدة وتوجه الى الباب ليدخن في الفناء . وحين مر بالمهد هزه مرة أو مرتين ، متظاهراً بأن هذا حدث عرضاً ، ثم دس رأسه تحت الغطاء وسأل : «هو قوازقي ؟» .

فأجابت اكسينيا عن غريغوري : «إنها بنت» ، ولما لاحظت عدم الرضى الذي ارتسم على وجه الشيخ ، أردفت على عجل :

ـ إنها صورة لغريشا!

تفحص بانتلاي بروكوفتش باهتمام ذلك الرأس الداكن الصغير الذي كان يبرز من بين الملابس ، ثم أعلن بلهجة لا تخلو من فخر : «إنها من دمنا!... هكذا إذن!» .

سأله غريغوري :

ـ كيف جئت يا أبتي ؟

ـ بالفرس وحصان بيوتر .

ـ كان يلزمك حصان واحد ، وبإمكاننا شد حصاني في الرحلة الى مانكوفو .

ـ ليذهب خفيف الحمل . أتدري ، إنه حصان ليس بالرديء .

ـ هل رأيته ؟

ـ أجل .

كانت فكرة واحدة تضايقهما معاً ، ولكنهما تحدثا في شتى الأمور التافهة . ولم تشاركهما اكسينيا الحديث بل لبثت جالسة على السرير حزينة مكتئبة وثدياها الممتلئان قد كبرا فشدا على قميصها . لقد ازدادت إثر ولادتها اكتنازاً بشكل ملحوظ ، ودبت عليها سيماء جديدة من الثقة والسعادة .

ولم يأووا الى مضاجعهم إلا في وقت متأخر ، وحين لاذت اكسينيا بجانب غريغوري بللت قميصه بدموعها وفيض الحليب الذي ينز من ثدييها .

ـ سأذوب أسى . ماذا أفعل بدونك ؟

فدمدم غريغوري :

ـ ستكونين بخير .

ـ الليالي الطوال... وتفيق الطفلة... فكر في ذلك فقط ، يا غريشا! أربع سنوات!

ـ يقال إن الجندية في غابر الأيام كانت تستغرق خمساً وعشرين سنة .

ـ ما شأني في غابر الأيام ؟

ـ اهدئي الآن ، كفاك ذلك!

ـ أقول تباً لخدمتك العسكرية . هي تفرق بيننا!

ـ سأعود في الإجازة .

ـ في الإجازة! ـ وأنّت اكسينيا ، وهي تشهق وتمسح أنفها بقميص نومها : ـ ستجري مياه كثيرة في الدون حتى ذلك الحين .

ـ كفاك نشيجاً! ما أشبهك بالمطر أيام الخريف ، إنه يرذّ على الدوام .

ـ ينبغي أن تكون في مكاني .

واستسلم غريغوري للنوم قبيل الفجر . ونهضت اكسينيا فأرضعت الطفلة ، واستلقت من جديد . واتكأت على مرفقيها ، وراحت تحدق في وجه

غريغوري ، بعين لا تطرف وهي تطيل نظرة الوداع فيه . وعادت بها الذاكرة الى الليلة التي حاولت فيها إقناعه بالهرب معها الى الكوبان ، كانت أشبه بتلك الليلة ، ما خلا قمراً كان يغمر الفناء خارج النافذة بنوره الأبيض . إنها أشبه بتلك الليلة ، وغريغوري مايزال هو نفسه ، ولكنه ليس كذلك تماماً . فإن وراءهما طريقاً طويلاً مهدته الأيام العابرة .

انقلب في فراشه ، وتمتم شيئاً حول قرية أولشانسكي ، ثم صمت . وحاولت أكسينيا أن تنام ، إلا أن أفكارها بددت النوم عنها ، كما تذرو الريح القش ، ورقدت حتى انبثاق الفجر تفكر بالكلمات المتقطعة التي فاه بها في نومه عن قرية أولشانسكي ، جاهدة أن تجد لها معنى . واستيقظ بانتلاي بروكوفتش حالماً بدأ ضوء النهار الوليد يزبد على النوافذ التي علاها الجمد .

ـ غريغوري انهض ، طلع النهار .

ركعت اكسينيا على السرير وارتدت تنورتها ، وشرعت تبحث عن الثقاب مدة طويلة وهي تتنهد .

وما إن تناولا الفطور ، وحزما متاعهما ، حتى كان الفجر قد انبلج تماماً ، وكان ضوء النهار يتموج بتلاوين زرقاء ، فبدت معالم الواح السياج السود واضحة ولاح سقف الاسطبل معتماً على صفحة السماء البنفسجية الغبشاء .

وذهب بانتلاي بروكوفتش ليشد حصانيه ، فيما انتزع غريغوري نفسه من قبلات اكسينيا المحمومة اليائسة وذهب ليودع ساشكا والخدم الآخرين .

دثرت اكسينيا طفلتها ، وأخرجتها معها للوداع الأخير . فلمس غريغوري جبين ابنته الندي بشفتيه لمسة خفيفة ، ثم ذهب الى حصانه . قال أبوه وهو يحث حصانيه :

ـ ادخل الى المركبة .

ـ كلا سأمتطي حصاني .

شد غريغوري حزام سرجه ببطء متعمد ، ثم امتطى الحصان ، ولمّ العنان في يده ، فلمست اكسينيا الركاب بيدها وراحت تردد :

ـ انتظر ، يا غريشا... هناك شيء أردت أن اقوله...

وقد حاولت أن تتذكر ذلك الشيء فجعدت حاجبيها وهي ترتجف مذهولة .

ـ حسناً ، وداعاً... اعتني بالطفلة... يجب أن أمضي ، انظري كم ابتعد أبي .

ـ انتظر يا أعز حبيب!

وأمسكت اكسينيا بيسراها الركاب الحديدي البارد كالثلج ، وشدت يمناها الطفلة الى صدرها ، ولم تبق لها يد طليقة تمسح بها الدموع المتدفقة من عينيها الواسعتين المحملقتين .

وجاء فينيامين الى درج الدار وقال :

ـ غريغوري ، السيد يريدك .

فأطلق غريغوري لعنة ، ثم لوح بسوطه ، واندفع خارج الفناء . فجرت اكسينيا وراءه ، متعثرة بالثلج المتكوم ورافعة عالياً قدميها بجزمتها اللبادية .

أدرك أباه على قمة التل . والتفت ينظر وراءه بحركة لا إرادية . كانت اكسينيا واقفة عند الباب ، والطفلة ما زالت مشدودة الى صدرها ، وطرف خمارها الأحمر يرفرف في الريح .

وسار على جواده بجانب مركبة أبيه . وبعد بضع لحظات أدار الشيخ ظهره الى حصانيه وسأله :

ـ إذن أنت لا تفكر بالعودة الى زوجتك ؟

ـ القصة القديمة نفسها ؟ لقد فرغنا منها .

ـ إذن فلن تعود .

ـ كلا ، لن أعود!
ـ ألم تسمع أنها حاولت قتل نفسها ؟
ـ بلى سمعت .
ـ من قال لك ؟
ـ ذهبت مع سيدي الى مركز المنطقة والتقيت هناك صدفة برجل من القرية .
ـ وأمام الله ؟
ـ لماذا ، يا أبتي ، على كل حال... لا جدوى من البكاء على الحليب المراق .
فغضب بانتلاي بروكوفتش :
ـ لا تقل لي قول الشياطين هذا . ما أقوله لك أقوله من أجلك .
ـ لدي طفلة تركتها ورائي ، فما جدوى الكلام ؟ ليس بوسعك أن تقحم الأخرى عليّ الآن...
ـ هل أنت واثق من أنك لا تقوم بتربية طفلة رجل آخر ؟
فامتقع وجه غريغوري ، لقد نكأ أبوه جرحاً متقيحاً . فمنذ أن ولدت الطفلة اعترى الشك المرير أفكاره ، فأخفاه عن اكسينيا وعن نفسه . ففي الليل ، واكسينيا نائمة ، كان يذهب الى المهد أكثر من مرة ليتفرس في الطفلة ، متلمساً تقاطيع وجهه في وجهها الأسمر الوردي ، ويعود الى فراشه والشك ذاته يراوده . كان ستيبان ذا بشرة كستنائية تكاد تشبه بشرة غريغوري ، فأنى له أن يعرف دم من ذاك الذي يجري في عروق الطفلة ؟ كان في بعض الأحيان يحسب أن الطفلة تشبهه ولكنه يراها ، في أحيان أخر شبيهة بستيبان الى حد مؤلم . لم يكن غريغوري يشعر إزاءها بعاطفة ، اللهم الا العداء حين يذكر اللحظات التي عاناها يوم عاد باكسينيا من السهب وهي تقاسي آلام المخاض . وذات مرة ، حينما كانت اكسينيا منهمكة في المطبخ كان عليه أن يغير حضائن الطفلة المبتلة . وفيما كان يقوم بذلك

أحس بعاطفة حادة ملتهبة فانحنى على المهد خلسة وعض بأسنانه على إصبع قدم الطفلة الصغير المتصلب الأحمر .

لقد نكأ أبوه الجرح دون رحمة ، فرد عليه غريغوري ، وراحته على قربوس السرج ، قائلاً بصوت مبحوح :

ـ أياً كان أبوها ، فإني لن أتخلى عنها .

فلوح بانتلاي بروكوفتش بسوطه على الحصانين دون أن يلتفت :

ـ لقد شوهت ناتاليا جمالها . إنها تميل برأسها الى أحد الجانبين وكأنها مشلولة . يبدو أنها قطعت وتر العضلة . فالتوت رقبتها .

ثم خلد الى الصمت . كان مزلاقا الزحافة يصران خلال الثلج ، وكانت حوافر حصان غريغوري تتكتك وهي تصطفق .

سأل غريغوري وهو يلتقط بعناية خاصة من عُرف حصانه شوكة :

ـ وكيف هي الآن ؟

ـ أبلت من الجرح بشكل أو بآخر . وقد لازمت الفراش طيلة أشهر سبعة . وفي أحد الثالوث حسبنا أنها ستلفظ أنفاسها . فجاء الأب بانكراتي لتلاوة الصلوات . ولكنها بدأت تتماثل للشفاء . لقد حاولت أن توجه الضربة بالمحش الى قلبها ، ولكن يدها ارتجفت ، فأخطأت القلب قليلاً . ولولا ذلك لقضت نحبها...

ـ لنسرع في هبوط التل!

قال غريغوري ذلك ، وهو ينهض في ركابيه ويعمل بسوطه ، فبدأ الحصان يخب مرسلاً بحوافره رشاشاً من الثلج على المركبة . وحين وصل بانتلاي بروكوفتش الى محاذاته قال :

ـ إننا سنتعهد ناتاليا . فالمرأة لا تريد العيش مع أهلها . وقد رأيتها قبل أيام وقلت لها أن تأتي إلينا .

لم يجب غريغوري بشيء . وسار حتى بلغا أول قرية دون أن يتبادلا كلمة واحدة ، ولم يعد أبوه الى الموضوع .

قطعا في ذلك اليوم سبعين فرستا . وبلغا مانكوفو مساء اليوم التالي عند الغسق (الأضواء مشتعلة في البيوت) .

سأل بانتلاي بروكوفتش أول مار في الشارع :

ـ في أي حي ينزل القادمون من فيشنسكايا ؟

ـ اذهب الى الشارع الكبير .

لقد وصلا الى البيت الذي نزل فيه خمسة مجندين مع آبائهم . سأل بانتلاي بروكوفتش وهو يقود الحصانين الى سقيفة الحظيرة :

ـ من أين جئتم ؟

جاء صوت عميق من الظلام مسمياً القرى التي جاؤوا منها .

تلمس غريغوري ظهر حصانه المتصبب عرقاً بعد أن نزع السرج منه ورد ضاحكاً رداً مازحاً عن السؤال الموجه اليه من أي قرية وصل .

وفي صباح اليوم التالي اصطحب اتمان المنطقة مجندي فيشنسكايا الى اللجنة الطبية . فرأى غريغوري فتيان قريته الآخرين . وفي الصباح مر ميتكا كورشونوف متوجهاً الى البئر وممسكاً بيده اليسرى قبعته المائلة الى جانب ، على ظهر كميت طويل مجهز بسرج وعدة جديدين مزركشين زركشة بهيجة ، دون أن يقول كلمة تحية لغريغوري الذي كان واقفاً على باب الجناح .

تعاقب الرجال يخلعون ملابسهم في الغرفة الباردة الخاصة بالإدارة المحلية المدنية . وضج الكتّاب العسكريون بالحركة هنا وهناك ، وهرول مساعد رئيس الشرطة ، ومر مساعد الاتمان المحلي مسرعاً بجزمة قصيرة من الجلد اللماع . وأحد أصابعه مزدان بخاتم ذي حجر أسود وكان له وجه أبيض بعينين سوداوين جميلتين .

تناهت اليهم من الغرفة الداخلية أوامر الأطباء ، ونتف من الحديث :

ـ واحد وستون .

ونق صوت مخضل بالخمر قرب الباب :

ـ بافل ايفانوفتش ، ناولني قلماً لا يمحى أثره .

ـ عرض الصدر...

ـ أجل ، من الواضح أنه وراثي...

ـ سجل السفلس...

ـ ارفع يديك . لست فتاة .

ـ بنية سليمة .

ـ ... ينقل العدوى الى القرية برمتها . يجب اتخاذ إجراءات خاصة . لقد أخبرت صاحب السعادة بالموضوع .

ـ بافل ايفانوفتش ، انظر الى جسد هذا الرجل . يا لها من بنية!

ـ آه!

خلع غريغوري ملابسه بجانب فتى أحمر الشعر من قرية أخرى . وخرج اليهما كاتب ، فعدل كتفيه بحيث تغضنت قمصلته عند الظهر ، ثم أصدر الى غريغوري والفتى الآخر أمراً مقتضباً بأن يدخلا غرفة الفحص . فهمس ذو الشعر الأحمر في ذعر وقد تورد وجهه وكان ينزع جوربه :

ـ هيا أسرع!

دخل غريغوري ، وقد تقلص جلده من البرد . وكان جسده الأسمر بلون البلوط . وقد أحس بالحرج وهو يخفض عينيه الى ساقيه المكسوين بالشعر . وكان يقف على الميزان في الزاوية فتى عار مربوع القامة . وكان أحدهم ، يظهر أنه مساعد الطبيب ، يدفع العيار الى الأمام والى الخلف ، ثم نادى بالرقم ، وأمره بالنزول .

تضايق غريغوري من إجراءات الفحص الطبية المهينة . لقد فحصه بالسماعة طبيب أشيب الرأس يرتدي سترة بيضاء وقَلَب طبيب أصغر سناً جفون عينيه ونظر الى لسانه وانشغل وراءه ثالث يرتدي نظارة ذات إطار قرني ، وكان يفرك يديه بكميه المطويين ، وأمره ضابط :

ـ على الميزان!

فخطا غريغوري على الكفة الباردة .

ـ خمسة بودات* ونصف .

فهتف الطبيب الأشيب ، وهو يدير غريغوري من ذراعه .

ـ م... ا... ذا ، إنه ليس طويل جداً .

فقال الطبيب الأصغر سناً متلعثماً :

ـ مدهش!

وسأل ضابط يجلس عند الطاولة بعجب :

ـ كم ؟

فأجابه الطبيب الأشيب ولا يزال حاجباه مرفوعين :

ـ خمسة بودات ونصف .

فاحنى قوميسار المنطقة العسكري رأسه الأسود الاملس نحو جاره على المنضدة سائلاً :

ـ مارأيك لو يُنسّب الى الحرس الخاص ؟

ـ إن له وجه قطّاع الطرق... إنه وحشي المنظر جداً .

ـ يا أنت ، استدر! ماتلك التي على ظهرك ؟

هكذا صاح ضابط تعلو كتفه شارة عقيد ، وهو يخبط إصبعه على المنضدة بفراغ صبر . فغمغم الطبيب الأشيب بشيء ما ، وأدار غريغوري ظهره الى المنضدة ، وهو يجاهد للسيطرة على جسمه المرتجف ، ثم أجاب :

ـ أصبت ببرد في الربيع . إنها بثرة .

وحين انتهى الفحص قرر الضباط الجالسون عند الطاولة أن غريغوري ينبغي أن يعين في كتيبة اعتيادية . فقيل له : «الكتيبة الثانية عشرة ، ياميليخوف . هل سمعت ؟» وفيما كان سائراً نحو الباب سمع همساً ينم عن اشمئزاز :

* البود : وحدة وزن روسية تعادل ١٦ كغ تقريباً . المترجمون

ـ هذا مستحيل . حسبك أن تتصور لو رأى الامبراطور وجهاً كهذا ؟ عيناه وحدهما...

ـ إنه هجين . من الشرق دون ريب .

ـ وجسده ليس نظيفاً . تلك البثور...

وتجمهر حوله رجال آخرون من قريته كانوا في انتظار دورهم :

ـ كيف كانت النتيجة ، يا غريشا ؟

ـ أي كتيبة ؟

ـ الحرس الخاص ، هاه ؟

ـ كم كان وزنك على الميزان ؟

وتواثب غريغوري على قدم واحدة وهو يرفع ساق بنطاله ، وقال غاضباً : «أف ، اذهبوا الى الجحيم! أي كتيبة ؟ الثانية عشرة» .

صاح الكاتب وهو يمد رأسه من الباب :

ـ كورشونوف ، ديمتري ، كارغين ايفان .

وأسرع غريغوري هابطاً الدرج وهو يحكم أزرار سترته .

كانت الريح الدافئة تعبق برطوبة ذوبان الجليد ، وكان الطريق أجرد من الثلج في بعض أجزائه والبخار يتصاعد منه . كانت الدجاجات المقوقئة ترفرف عبر الشارع ، والبط يخبط في بركة ، وتبدو أقدامه في الماء برتقالية وردية ، كأوراق الخريف التي قضى عليها الصقيع .

جرى فحص الخيل في اليوم التالي . صفت في الساحة صفاً طويلاً عند جدار الكنيسة . وانهمك الضباط رائحين غادين ، ومر بيطري ومساعده أمام صف الخيل الطويل . وكان اتمان فيشنسكايا يتراكض بين الميزان والمنضدة التي توسطت الساحة ، حيث تسجل نتائج الفحص . ومر ضابط من الانضباط العسكري ، وكان منهمكاً في الحديث مع رئيس شاب .

وحين جاء دور غريغوري قاد حصانه الى الميزان ، فقاس البيطري ومساعده كافة أجزاء بدن الحصان ، ثم وزناه . وقبل أن يساق الحصان من

على الميزان ، أمسكه البيطري من شفته العليا بمهارة ونظر الى أسنانه ، وتحسس عضلات صدره ، ومضت أصابعه القوية تتلمس جسم الحصان ، كالعنكبوت ، حتى وصلت الى سيقانه . ثم تحسس مفاصل الركبتين ، ودق على العصب واعتصر العظم فوق الثنية . وحين فرغ من فحصه تعداه ، ومئزره الأبيض يخفق في الريح وينشر رائحة حامض الكاربوليك .

رفض حصان غريغوري ، وثبت خطل آمال ساشكا . كان البيطري الخبير من الذكاء بحيث اكتشف العيب الخفي الذي تحدث عنه الشيخ ، وعقد غريغوري في الحال مشاورات منفعلة مع أبيه ، وما إن انقضت نصف ساعة حتى قاد حصان بيوتر الى الميزان ، فقبله البيطري دونما فحص تقريباً .

ثم عثر غريغوري على بقعة يابسة نوعاً ما ، فنشر مرشحة سرجه على الأرض ووضع عليها عدته ، وأمسك أبوه بالحصان ، وانصرف الى الحديث مع شيخ آخر جاء أيضاً ليودع ابنه .

ومر بهم جنرال مديد القامة أشيب الرأس ، يرتدي عباءة رمادية فاقعة وقبعة فضية استراخانية ، كان يعرج قليلاِ بقدمه اليسرى ملوحاً باليد بقفاز أبيض . فلكز بانتلاي بروكوفتش غريغوري ، من الخلف وهمس :

ـ اتمان المنطقة .

ـ كأنه جنرال .

إنه أمير اللواء ماكايف . إنه شيطان صارم .

وسار خلف الاتمان حشد من الضباط من مختلف الكتائب والبطاريات . وكان مقدم مدفعي عريض المنكبين والفخذين يتحادث بصوت مرتفع مع ضابط وسيم طويل من الحرس التابع لكتيبة الاتمان :

ـ ... يا للشيطان! أتدري ، كم كان الفارق كبيراً! قرية استونية ، وغالبية الناس هناك شقر ، ولكن تلك الفتاة ، ياللغرابة! أضف الى ذلك أنها لم تكن الوحيدة! قلبنا شتى الظنون حول الموضوع ، ثم علمنا أنه قبل عشرين عاماً... ـ ثم سار الضابطان مبتعدين عن المكان حيث كان غريغوري يرتب

عدته على مرشحة السرج فحملت اليه الريح الكلمات الختامية وسط ضجة من قهقهات الضابطين : ـ ... يبدو أن سرية من حرسكم كانت معسكرة في القرية .

وجرى من أمامهم كاتب وهو يزرر سترته بأصابع مرتجفة ملطخة بالحبر ، وكان معاون رئيس شرطة المنطقة يصيح وراءه بغضب :

ـ قلت لك ثلاث نسخ . لعنة الله عليك!

راح غريغوري يتطلع بفضول الى وجه الضباط والموظفين التي لم يألفها من قبل . وقد سمر أحد المساعدين نظرة ضجرة عليه . ثم أشاح بوجهه بعد أن التقت عيناه بعيني غريغوري باديتي الاهتمام . ومر بهم رئيس عجوز وهو يكاد يركض . وقد بدا الانفعال عليه لأمر ما ، وكان يعض على شفته العليا بأسنانه الصفر . فلحظ غريغوري عرقاً ينبض فوق حاجب الرئيس ذي اللون الزنجبيلي .

نشر غريغوري على مرشحة سرجه الجديدة السرج ذا الرمانة الخضراء ، وخرجيه الأمامي والخلفي ، ومعطفين عسكريين ، وبنطالين ، وقمصلة ، وجزمتين طويلتين ، وتبديلة من الملابس الداخلية ، وكيس البقسماط ، وعلبة من لحم البقر المقدد ، وأنواع أخرى من الطعام حسب المقادير المعينة .

وكان في خرجي السرج المفتوحين أربعة من نعال الخيل ، ومسامير ملفوفة بخرقة مزيتة ، ومحفظة فيها بضع إبر وخيط ، ومناشف .

ألقى الى عدته نظرة أخيرة ثم جلس القرفصاء ليزيل بكمه بعض الوحل عن طرفي شريط الحزم . وجاءت اللجنة العسكرية من طرف الساحة تسير ببطء أمام صفوف القوزاق المصطفين وراء مراشح السروج ، وكان الضباط والاتمان يتفحصون العدد عن كثب ، رافعين أذيال معاطفهم ذات الألوان الفاتحة فيما كانوا ينحنون للبحث في زكائب السروج ، ويمعنون النظر الى محتويات المحافظ ، ويقدرون وزن أكياس البقسماط بأيديهم .

قال قوزاقي شاب يقف بجانب غريغوري ، مشيراً الى آمر انضباط المنطقة العسكري :

ـ انظروا ، ياشباب الى ذلك الطويل هناك ، إنه يخمش مثل كلب وراء ابن عرس .

ـ الق نظرة واحدة الى الشيطان . إنه يقلب الكيس على بطنه!

ـ لابد أن هناك شيئاً ليس على مايرام ، والا لما فعل ذلك .

ـ إنه بالتأكيد يعد مسامير الحذاء .

ـ يا للشيطان!

وتلاشى الكلام تدريجياً مع اقتراب اللجنة . ولم يبق إلا بضعة رجال الى أن يأتي دور غريغوري . كان اتمان المنطقة يحمل قفازاً بيسراه ويهز يمناه ، دون أن يثنيها عند المرفق . اعتدل غريغوري في وقفته . وسعل أبوه من ورائه . وحملت الريح رائحة بول الخيل والثلج الذائب في الساحة . وبدت الشمس مغتمة ، كما يشعر الإنسان بعد نوبة سكر .

توقفت ثلة الضباط عند الرجل الواقف بجانب غريغوري ثم تقدموا واحداً فواحداً .

ـ لقبك ، واسمك ؟

ـ ميليخوف ، غريغوري .

والتقط ضابط الانضباط المعطف من حزامه ، وشم البطانة وعد الأزرار باستعجال وتقدم آخر على كتفه شارة نائب ضابط ، فتلمس قماش البنطالين الجيد بين أصابعه . وتوقف ثالث وراح ينبش في الخرجين ، منحنياً الى درجة قلبت ذيل معطفه على ظهره . وراح ضابط الانضباط يبحث بإبهامه وخنصره بحذر في الخرقة التي تحوي مسامير الحذاء وكأنه يخشى أن يلفاها حارة ، وعد المسامير هامساً .

قال بغضب وهو يجر طرف الخرقة :

ـ لماذا ثلاثة وعشرون مسماراً . وما هذا ؟

ـ كلا ، يا صاحب السعادة . أربعة وعشرون ـ ماذا ، هل أنا أعمى ؟

فأسرع غريغوري يقلب زاوية ملتفة من الخرقة فكشف عن المسمار الرابع

والعشرين ، وفيما كان غريغوري يفعل ذلك لمست أصابعه الخشنة السمر يد الضابط البيضاء كالسكر لمسة خفيفة ، فنتش الضابط يده وكأن أحداً قد وخزها ، ثم مسحها بطرف معطفه ، وهو يعبس بتقزز ، ثم ارتدى قفازه .

لاحظ غريغوري حركته فاعتدل في وقفته وهو يبتسم بحنق والتقت عيناهما ، فاحمر وجه الضابط ورفع صوته :

ـ ما كل هذا ، ما كل هذا ، أيها القوزاقي ؟ لماذا لم ترتب شرائط الحزم ؟ لماذا لم تعدل الشكيمة ؟ ومامعنى هذا ؟ أنت قوزاقي أم فلاح ؟ أين أبوك ؟

جر بانتلاي بروكوفتش عنان الحصان وخطا الى الأمام خطوة ضارباً الأرض بساقه العرجاء .

ـ ألا تعرف الأنظمة القوزاقية ؟

كان الضابط سيئ المزاج صباح ذلك اليوم بسبب خسارته في القمار فأفرغ جام غضبه على بانتلاي بروكوفتش .

ثم جاء اتمان المنطقة فهدأ الضابط . دس الاتمان رأس جزمته في حشية السرج ، ثم ند عنه فواق ، ومضى الى الرجل التالي وتفحص ضابط تجنيد الكتيبة التي نسب غريغوري اليها حاجياته كلها بما فيها محتويات المحفظة بشكل مؤدب ، ثم مضى الى الرجل التالي وهو يمشي القهقرى كي يقي من الريح الثقاب الذي أشعل منه سيكارته .

وفي اليوم التالي غادر القرية قطار من الشاحنات الحمر محمل بالخيل والقوزاق والعلف الى فورونيج .

وقف غريغوري في إحداها متكئاً بظهره الى طرف المعلف الخشبي وكانت تزحف عبر الباب المفتوح مناظر غريبة لأرض مستوية ، ودوم في المدى خيط غابة رقيق أزرق ، وكانت الخيل وراءه تلوك القش وتنقل ثقلها من حافر الى آخر ، وهي تحس بحركة القاع من تحتها . كانت الشاحنات تعج برائحة الشيح ، وعرق الخيل ، وذوبان الربيع ، وثمة غابة تلوح كالخيط في الأفق ، زرقاء كئيبة ومنيعة كنجم المساء خافت الوميض .

الجزء الثالث

١

كان يوماً ربيعياً دافئاً بهيجاً من أيام آذار عام ١٩١٤ حين عادت ناتاليا الى بيت حميها . كان بانتلاي يصلح سياج الاسفندان الذي كسره الثور ، بأغصان غزيرة الوبر بلون الحمام . وكانت القطرات تتساقط من بلورات الثلج الفضية المتدلية من السقوف . وتبدو آثار المسارب القديمة وكأنها لطخات قطران سود تحت حواشي السقوف .

وراحت شمس أشد توردا ودفئا منها في آذار تداعب التلال التي يذوب من عليها الجليد . وكانت الأرض منتفخة ، وبدا العشب المبكر كمعدن المالاكيت الأخضر على الرؤوس الطباشيرية الجرد الناتئة من التلال على الشاطىء .

تقدمت ناتاليا صوب حميها من الخلف ، وقد بدت أكثر نحافة واعتراها تغير كبير وأحنت رقبتها المائلة قليلاً وقد شوهها أثر الجرح .

ـ صحة طيبة ، يا أبتي!

فهتف بانتلاي في عجلة والعيدان تسقط من يده :

ـ ناتاليوشكا! مرحباً ياعزيزتي . مرحباً! لماذا لم تأتي لزيارتنا ؟ ادخلي . ستسر الوالدة لرؤيتك كل السرور .

ـ لقد جئت ، يا أبتي... ـ ثم مدت يدها وهي غير واثقة ، وأشاحت بوجهها .

وأضافت : ـ ما لم تطردوني ، فأنا أرغب في البقاء معكم على الدوام .
ـ لم لا تبقين ، يا عزيزتي ؟ أتراك غريبة عنا ؟ انظري ، لقد كتب عنك غريغوري في رسالته . طلب منا أن نسأل عنك .

دخلا المطبخ . وراح بانتلاي يطلع هنا وهناك . وقد تملكه انفعال طروب . وبكت ايلنشنا وهي تعانق ناتاليا وهمست قائلة ، وهي تتمخط :
ـ أنت بحاجة الى طفل . إن ذلك كان سيسحره . اجلسي ، سأجلب لك بعض الفطائر ، أليس كذلك ؟
ـ حفظك الله يا أمي... لقد جئت إليكم...

وجرت دونيا الى المطبخ راكضة ، متوردة الوجه باسمة ، واحتوت ناتاليا من ركبتها . وعاتبتها قائلة : « يالك من قليلة حياء! لقد نسيت كل شيء عنا » .

فصاح فيها أبوها بصرامة مصطنعة :
ـ كفاك ، أيتها الطائشة!

غمغمت ناتاليا وهي تنشر ذراعي دونيا وتنظر في عينيها :
ـ لشد ما كبرت .

وتحدث الكل معاً ، يقاطع بعضهم بعضاً . وأسندت ايلنشنا خدها براحة يدها ، وقد غمرها الأسى إذ تطلعت الى ناتاليا ، وقد تغيرت كثيراً عما عهدتها

أمسكت دونيا بيدي ناتاليا وسألتها قائلة :
ـ جئت لتقيمي ؟
ـ من يدري...

فقالت ايلنشنا بصورة حاسمة وهي تدفع طبقاً كبيراً من الفطائر عبر المائدة :
ـ ماذا ، في أي مكان آخر يمكن أن تعيش ؟ إنك ستبقين معنا .

جاءت ناتاليا الى أهل زوجها بعد تردد دام طويلاً . وكان أبوها قد رفض في بداية الأمر أن يسمح لها بالذهاب ، فقد صرخ في وجهها بحنق

حين اقترحت ذلك ، وجرب أن يقنعها بالعدول عن هذه الخطوة . ولكن شق عليها أن تنظر في وجوه أهلها ، فمنذ أن حاولت الانتحار وهي تشعر وكأنها غريبة بين أهلها . وكان بانتلاي ، من جهته ، يلحف عليها بالعودة طوال الوقت ، فمنذ أن ودع غريغوري الذاهب الى الجندية عقد العزم على إعادتها ومصالحة غريغوري معها .

ومنذ ذلك اليوم في آذار عاشت ناتاليا مع آل ميليخوف . كان بيوتر يقف منها موقفاً ودياً أخوياً ، ولم يبد على داريا الا قليل من عدم الرضا ، وكان مما يعوض عن نظراتها الشزر العارضة ولع دونيا بها وموقف العجوزين الأبوي منها .

وفي اليوم التالي لمجيء ناتاليا إليهم أمر بانتلاي دونيا أن تكتب الرسالة التالية الى غريغوري :

«تحية ، يا ولدنا العزيز ، غريغوري بانتلايفتش! نبعث إليك بانحناءة عميقة ، ونمنحك بركة أبوية من صميم قلب الوالد ومن أمك فاسيليسا ايلنشنا . إن أخاك بيوتر بانتلايفتش وزوجته داريا ماتفييفنا يبعثان تحياتهما لك بالعافية والرفاه ، وكذلك أختك دونيا وكل أهل البيت يحيونك ، لقد تسلمنا رسالتك المرسلة في خامس يوم من شهر شباط ، ونشكرك عليها من كل جوارحنا . أنت تقول أن الحصان تصطك ساقاه . ادهنهما ببعض السلاء ، وأنت تدري كيف تفعل ذلك ، ولا تنعل حافريه الخلفيين حيث لا زلق أو جليد أجرد . إن زوجتك ناتاليا ميرونوفنا تعيش الآن معنا ، وهي مرتاحة وبصحة جيدة . والدتك ترسل اليك بعضاً من الكرز المجفف ، وزوجا من الجوارب الصوفية ، وشيئاً من لحم الخنزير ، وأشياء أخرى . كلنا احياء بصحة جيدة . ولكن طفل داريا قد مات . قبل أيام سقفنا المأوى ، أنا وبيوتر ، وهو يأمرك بالعناية بحصانه والمحافظة على سلامته . لقد ولدت البقرات ويبدو أن الفرس ملقحة ، فقد عرضناها على

فحل من اسطبلات المنطقة . وننتظر ولادة مهرها في الأسبوع الخامس من الصوم الكبير . يسعدنا أن نسمع أخبار خدمتك العسكرية وأن الضباط راضوان عنك . فاخدم كما ينبغي . إن خدمة القيصر لا تذهب سدى . وناتاليا ستعيش معنا ، وعليك أن تفكر بالأمر جيداً . وثمة مشكلة أخرى ، لقد قضى ذئب على ثلاث شياه قبل الصوم الكبير ، والآن ، اعتن بصحتك في رعاية الله . لا تنس زوجتك ، هذا ما آمرك به . إنها امرأة طيبة وهي زوجتك الشرعية . لا تتعد الحدود ، واصغ الى ما يقوله والدك .

أبوك

العريف الأقدم بانتلاي ميليخوف»

كانت كتيبة غريغوري معسكرة في موقع صغير يدعى رازيفيلوفو على بعد أربعة فرستات عن الحدود الروسية النمساوية وكان نادراً ما يكتب الى أهله . وقد رد على الرسالة التي ذكرت أن ناتاليا تعيش معهم برسالة انتقى كلماتها بحذر ، والتمس أباه أن يحييها باسمه . ولم يلزم نفسه بشيء في كل رسائله التي كانت غامضة المعنى . وكان بانتلاي يطلب الى دونيا أو بيوتر أن يقرأها له عدة مرات ، ويتأمل الأفكار المستترة بين اسطرها . وقبل عيد الفصح بقليل كتب الى غريغوري يسأله ما إذا كان عازماً لدى عودته من الخدمة العسكرية أن يعيش مع زوجته أو مع اكسينيا كالسابق .

تلكأ غريغوري في جوابه . فلم يتلقوا منه إلا رسالة مقتضبة بعد أن انصرم أحد الثالوث . فقرأتها دونيا بسرعة ، وهي تبتلع نهاية الكلمات ، ووجد بانتلاي مشقة في تلمس بيت القصيد بين زحام التحايا والاستفسارات . وعالج غريغوري موضوع ناتاليا في نهاية الرسالة إذ قال :

«سألتني أن أقول لك ما إذا كنت سأعيش مع ناتاليا أم لا ، ها أنا أقول لك ، ياأبتي ، إن ما انفصم لا يمكن لك أن تربطه ثانية . كيف لي أن أتصالح مع ناتاليا ، وأنت نفسك تعلم أن لدي طفلة ، وليس في مقدوري أن

أعد بشيء ، وإنه لمما يؤلمني أن أتحدث في هذا الموضوع . قبل أيام القي القبض على رجل وهو يُهرّب بضائع عبر الحدود ، وقد التقينا به صدفة ، فقال إن الحرب مع النمسا ستندلع عما قريب ، وإن قيصرهم قدم الى الحدود ليعرف من أي موقع سيشنون الهجوم ، وأي أرض يستولي عليها . وإذا اندلعت الحرب فقد لا أبقى على قيد الحياة ، وليس في الامكان أن نقرر قبل ذلك شيئاً » .

* * *

اشتغلت ناتاليا بجد للعجوزين وعاشت يحدوها أمل مقيم في عودة زوجها . لم تكتب الى غريغوري رسالة قط ، إلا أن أحداً في العائلة لم يحن الى رسالة منه بمثل ما في حنينها إليها من ألم وشوق .

جرت الحياة في القرية وفق نظامها الذي لا محيد له ، فعاد القوزاق الذين أنهوا خدمتهم العسكرية الى أهليهم . وكان الكدح الممل أيام العمل يبتلع الوقت دون أن يشعر به أحد . والقرية أيام الآحاد تتدفق الى الكنيسة ، كل عائلة بسربها : القوزاق بقمصلاتهم وبنطالات الأعياد ، والنساء بتنورات ملونة طويلة تكنس الغبار ، وقمصان مطرزة منتفخة الأكمام .

تقف في ساحة القرية عربات خاوية ترفع عرائشها في الهواء ، وتتصاهل خيولها ، ويمر الناس من مختلف النحل ذهاباً وإياباً . وكان المستوطنون البلغار يبيعون الخضر عند مأوى عربات الحريق فيعرضونها صفوفاً طويلة ، وكان الأطفال من خلفهم يتراكضون عصابات ويحملقون في الجمال الّتي جردت من عددها فراحت تشرف على ساحة السوق بشموخ . وكان ثمة حشود من الرجال بقبعات ذوات شرائط حمر في كل مكان ونسوة ارتدين عصابات زاهية . وراحت الجمال ، وقد التمعت عيونها بلون أخضر هامد ، تجتر وهي ترتاح من عنائها المستديم على النواعير .

وكانت الطرقات تئن تحت وقع الأقدام ، والأغاني ، والرقصات على

أنغام الاوكورديونات ، فلا تتلاشى آخر الأصوات في ضواحي القرية الا في وقت متأخر من الليل .

كانت ناتاليا ، التي لا تخرج الى لقاءات المساء أبداً ، يسرها أن تجلس لتصغي الى حكايات دونيا الساذجة . وكانت هذه قد شبت دون أن يشعر أحد بذلك ، فغدت فتاة جميلة القوام ، مليحة الوجه بما يلائمها . وقد نضجت قبل أوانها كتفاحة مبكرة . وفي تلك السنة تناست صديقاتها اللائي تقدمنها في السن أنهن بلغن سن المراهقة قبلها ، فأدخلنها الى حلقتهن . وكانت دونيا سمراء متينة كأبيها .

وقد بلغت آنذاك الخامسة عشرة من عمرها ، وما زالت تقاطيع بدنها صبيانية خشنة ، وكانت خليطاً ساذجاً ، يكاد يبعث على الرثاء ، من الطفولة والشباب المتفتح ، وقد تنامى ثدياها وراحا يدفعان قميصها بشكل ملحوظ ، وصار كتفاها أعرض مما كانا عليه ، وكانت عيناها السوداوان ، بشقيهما الطويلين المائلين بعض الشيء ، تتقادحان خجلاً ودعابة . كانت تعود بعد أمسياتها فتقص على ناتاليا أسرارها البريئة :

ـ ناتاليا ، حمامتي ، أريد أن أخبرك شيئاً...

ـ حسناً ، هيا ، أخبرني!

ـ البارحة جلس ميشا كوشيفوي طوال المساء معي على الجذمة عند مخازن القرية .

ـ لماذا احمر وجهك ؟

ـ اوه ، لم يحمر وجهي!

ـ انظري في المرآة ، غدوت شعلة كبيرة .

ـ حسناً ، أنت السبب .

ـ لا بأس ، استمري ، لن أقول أي شيء .

فدلكت دونيا وجنتيها اللاهبتين براحتيها السمراوين ، وشدت أصابعها على صدغيها ، ورنت ضحكاتها الفتية بدون سبب :

ـ قال إني أشبه بزهرة لازوردية صغيرة .

ـ طيب ، استمري!

شجعتها ناتاليا ، وقد سرتها سعادة فتاة أخرى ، ناسية ماضيها وسعادتها المحطمة .

ـ قلت له : «لا تكذب ، يا ميشا!» فأقسم أن ذلك صحيح .

وأرسلت دونيا ضحكاتها تجلجل في أرجاء الغرفة هازة رأسها . وراحت جدائلها الفاحمة الغليظة تنزلق على كتفيها وظهرها كالعضايات .

ـ وأي شيء آخر قاله ؟

ـ رجاني أن أعطيه منديلي تذكاراً .

ـ وهل أعطيته ؟

ـ كلا . قلت له إنني لن أفعل ذلك ، قلت له : «اذهب واطلب من امرأتك» فقد شوهد مع كنة يروفي ، وهي امرأة سيئة تعبث مع الرجال . زوجها في الجيش .

ـ خير لك أن تبتعدي عنه .

فمضت في قصتها وهي تجاهد لإخفاء ابتسامة قفزت الى شفتها :

ـ سوف أفعل هذا! وبعد ذلك ، حين كنا ثلاثتنا عائدات الى البيت ، أنا وفتاتان أخريان ، لحق بنا الجد ميخي العجوز وهو سكران ، وصاح : «قبلنني ، ياعزيزاتي ، وسأدفع لكن كوبيكين عن كل قبلة» وهجم علينا فضربته نيورا على وجهه بعسلوج ، وهربنا .

كان الصيف جافاً . وبات الدون حيث يمر بالقرية ضحلاً ، وحينما كان التيار الصاخب ينطلق متدفقاً ، لم تبق سوى مخاضة ضحلة ، حتى صار بمقدور الثيران أن تعبر الى الضفة الأخرى دون أن تبلل ظهورها ، وأثناء الليل كانت ثمة رطوبة ثقيلة خانقة تنحدر على القرية من سلسلة التلال . فتملأ الريح هواءها بالعطر النفاذ للأعشاب الملفوحة . وكانت النباتات الجافة على السهب قد اضطرمت فيها النار ، فعلق فوق المنحدرات على

جانبي الدون ضباب ذو رائحة عليلة . وفي الليالي كانت السحب تتكاثف فوق النهر وتهدر السماء بقصف الرعد المنذر ، دون أن ينزل مطر لينعش التربة الجافة ، مع أن البرق كان يمزق صفحة السماء شظايا مهلهلة دكناء .

وكانت ثمة بومة تنعب من قبة الكنيسة ليلة اثر ليلة ، فتنفذ صرخاتها المرعبة فوق القرية ، وتطير البومة الى المقبرة لتنوح فوق أكمات القبور البنية اللون التي عشش عليها الحشيش .

يتنبأ الكهول وهم يستمعون للبومة تنعب من المقبرة : «هناك متاعب تختمر» .

ـ إن الحرب على الأبواب .

ـ لقد نعبت بومة كهذه قبل الحرب التركية .

ـ لعلها الهيضة من جديد .

ـ لا تتوقع خيراً حينما تطير من الكنيسة الى حيث يرقد الأموات . ـ ارحمنا يا نيكولاي العجائبي!

وكان مارتن ، أخو اليكسي مبتور اليد ، الذي يسكن قريباً من المقبرة ، قد اضطجع الى جانب سورها مترصداً البومة اللعينة ، لكن الطائر الغامض الذي لا يرى طار فوقه دون أن يحدث صوتاً ، وحط على الصليب في الطرف الآخر للمقبرة ومضى يرسل نعيبه المرعب فوق القرية الغافية ، فهدر مارتن سباباً مقذعاً ، وأطلق النار على بطن غيمة سوداء عالقة ، وقفل راجعاً . ولدى عودته الى البيت استقبلته زوجته بالتقريع ، وهي امرأة كثيرة الهواجس ، عليلة ، ولود كأنثى الأرنب . فقالت له :

ـ أنت أحمق ، أحمق ميؤوس منه! هل تدخل الطير في شؤونك ، ها ؟ ماذا تقول لو عاقبك الله ؟ ها أنا في شهري الأخير ، وقد لا ألد بسببك أنت .

ـ صه ، يا امرأة! ستكونين بخير ، فلا تخافي مطلقاً! ماذا يفعل ذلك الطير هنا ، يبث فينا جميعا رعدات باردات ؟ إنه يستنزل الويل علينا ، والعياذ بالله! لو انفجرت الحرب ، فسينتزعونني . حسبك أن تنظري الى هذا

الذراق الذي خلفته لي! ـ ولوح بيده صوب الزاوية حيث كان الأطفال نائمين وكان شخيرهم يمتزج مع صأصأة الفئران .

كان بانتلاي يتحدث مع الشيوخ في السوق ، فقال بوقار :

ـ كتب ابننا غريغوري يقول إن القيصر النمسوي قد قدم الى الحدود ، وأصدر أوامره لتحشيد جميع قواته في مكان واحد والزحف على موسكو وبطرسبرغ .

فاستعاد الشيوخ ذكريات الحروب الماضية وتبادلوا مخاوفهم . وقال أحدهم معترضاً :

ـ ولكن الحرب لن تنشب . انظروا الى الحاصل .

ـ لا دخل للحاصل بالحرب .

ـ هم الطلاب الذين يثيرون القلاقل ، على ما أتوقع .

ـ مهما يكن ، فسنكون نحن آخر من يسمع بها .

ـ مثلما كان في الحرب مع اليابان .

ـ وهل اشتريت الحصان لابنك ؟

ـ لاأريد أن أفعل قبل الأوان...

ـ إن هذا كله من أكاذيب!

ـ ولكن ضد من ستكون الحرب ؟

ـ ضد الأتراك . حول مشكلة البحر . لم يستطيعوا أن يتوصلوا الى اتفاق حول تقسيم البحر .

ـ وهل هذا أمر صعب ؟ ليقسموه قسمين ، كما نفعل نحن بأرض المروج .

وانقلب الحديث الى مزاح ، ثم انصرف الشيوخ الى أعمالهم .

كان عشب المرج الذي نما مبكراً ينتظر حشه . أما العشب الذابل فيما وراء الدون ، والذي لم يكن جزءاً من عشب السهب ، فقد كان ذاوياً لا رائحة له ، مع أن الأرض واحدة ، الا أن العصارات التي تمتصها الأعشاب

كانت متباينة . ففي السهب كانت التربة سوداء غنية وراسخة بحيث لا تترك القطعان عليها أثراً حينما تمر ، فكان العشب قوياً زكي الرائحة عالياً . لكن التربة على امتداد ضفتي الدون كانت رطبة متعفنة ، فنما عليها عشب هزيل قميء حتى أن الماشية لم تكن لتلتفت اليه أبداً .

كانت القرية تستعد لحش العشب : شحذ القوزاق مناجلهم وصنعوا المجارف ، أما النساء فنقعن الشراب المحلى للحصادين . وكان حش العشب على وشك أن يبدأ حينما وقعت حادثة هزت القرية من اقصاها الى أدناها . فقد وصل رئيس شرطة المنطقة يصحبه مفتش وضابط أسود الأسنان يرتدي بزة لم تر مثلها القرية من قبل . وأرسلوا في طلب اتمان القرية وجمعوا الشهود ثم مضوا مباشرة الى منزل لوكيشكا الحولاء . وساروا على ممشى جانب الشارع الذي يغمره ضياء الشمس ، واتمان القرية يهرول أمامهم مثل ديك صغير . كان المفتش يحمل بيده قبعته عليها الشارة الرسمية وسأل الاتمان ، وجزمته المتربة تصفق بقع ضياء الشمس :

ـ هل شتوكمان في المنزل ؟

ـ أجل ، يا صاحب السعادة .

ـ كيف يتكسب عيشه ؟

ـ إنه مجرد حرفي . يشتغل على منضدة عمل...

ـ ألم تلاحظ عليه أي شيء يجلب الشبهة ؟

ـ لا ، مطلقاً .

وفيما كان رئيس الشرطة يسير جعل يعتصر بثرة على جسر أنفه ويلهث داخل بزته السميكة . وكان الضابط الصغير ينظف أسنانه السود بقشة ويجعد عينيه المحمرتي الحوافي . ومد المفتش يده الى الأمام ليزيح الاتمان وواصل يسأله :

ـ هل يستقبل أي زوار ؟

ـ أجل ، يلعبون الورق أحياناً .

ـ من ؟

ـ عمال من الطاحونة في الغالب .

ـ من هم بالضبط ؟

ـ مشغل الماكنة ، والقباني ، عامل الدواسة دافيد ، وأحياناً بعض القوزاق الآخرين .

توقف المفتش ومسح بقبعته العرق على قصب أنفه وانتظر الضابط الذي كان تخلف وراءه . فقال له شيئاً ما ، وهو يلوي زراً في قمصلته ، ثم أشار الى الاتمان . فهرول هذا على أطراف أصابعه ، قاطعاً نفسه . واختلجت العروق المعقدة في رقبته وارتعشت .

ـ خذ اثنين من الحراس وألق القبض على الأشخاص الذين ذكرتهم . أحضرهم الى الإدارة ، سنكون هناك بعد دقيقة أو دقيقتين . أتفهم ؟

فشد الاتمان قامته حتى انتفخت عروقه فوق ياقته العالية ، وند عنه شيء مثل الغمغمة ، واستدار لينفذ التعليمات .

كان شتوكمان يجلس وظهره الى الباب وصدريته مفتوحة الأزرار ، وهو ينحت نموذجاً على قديدة من الخشب بمنشار رفيع .

ـ قم ، من فضلك . فأنت معتقل .

ـ لأي سبب ؟

ـ أتشغل غرفتين ؟

ـ نعم .

ـ سنفتشهما .

تعلق مهماز الضابط بممسحة الأرجل عند الباب . ومضى الى المنضدة والتقط أول كتاب وقعت عليه يده وهو مقطب الوجه .

ـ أريد مفتاح تلك الحقيبة .

ـ ما سبب زيارتكم هذه لي ؟

ـ سيتسنى الوقت للحديث معك فيما بعد . تعال هنا يا شاهد!

ونظرت زوجة شتوكمان خلال فرجة الباب من الغرفة الأخرى ، ثم ارتدت . فتبعها المفتش وكاتبه الى الغرفة الأخرى .

وسأل الضابط شتوكمان بهدوء وهو يمسك بكتاب أصفر الغلاف :

ـ ما هذا ؟

فأجاب شتوكمان هازا كتفيه :

ـ كتاب .

ـ بوسعك أن تحتفظ بحذلقتك الى فرصة أكثر ملائمة . أجب على السؤال كما ينبغي .

فمال شتوكمان بظهره على الموقد وهو يحاول كتمان ابتسامة هازئة . ونظر رئيس شرطة المنطقة الى الكتاب عبر كتف الضابط . ثم استدار الى شتوكمان :

ـ أتدرس في هذا ؟

فأجاب شتوكمان بجفاء وهو يفرق بمشط صغير لحيته السوداء الى خصلتين متساويتين :

ـ إنني مولع بالموضوع .

ـ هكذا!

وألقى الضابط نظرة في صفحات الكتاب ثم رماه على المنضدة . ونظر في كتاب آخر ، ثم نحاه جانباً . وإذ اتم قراءة غلاف الثالث ، التفت الى شتوكمان من جديد :

ـ أين تحتفظ ببقية هذا النمط من الأدب ؟

فخاوص شتوكمان إحدى عينيه كما لو يسدد ضربة نحو هدف ما ، وأجاب :

ـ أمامك كل ما لدي .

فرد الضابط ملوحاً بالكتاب عليه :

ـ أنت تكذب .

ـ انني أطالب...

ـ فتشوا الغرفتين!

ومضى رئيس الشرطة ، ممسكاً بقبضة سيفه ، الى الحقيبة حيث كان حارس قوزاقي مجدور ينبش في الملابس والمفارش وقد ظهر عليه الرعب مما كان يحدث .

وأخيراً استطاع شتوكمان أن يقول ، وهو يضيق عينيه ويصوبهما نحو جسر أنف الضابط :

ـ إنني أطالب بمعاملة مؤدبة .

ـ اسكت ، ياهذا!

قلب الرجال كل ما كان من الممكن تقليبه . ثم جرى التفتيش في الورشة أيضاً ، حتى أن رئيس الشرطة المتحمس نقر على الجدران بعقلات أصابعه .

وحينما انتهى التفتيش . اقتيد شتوكمان الى مكتب الإدارة . فسار في وسط الطريق أمام الحارس القوزاقي ، وقد دس إحدى يديه في طية معطفه القديم ، والأخرى تتأرجح ، وكأنه ينفض وحلاً عن أصابعه . ومشى الآخرون حذاء الأسيجة على الممشى المتلامع بضياء الشمس ، ومن جديد مضى المفتش يدوس على بقع ضياء الشمس بجزمته التي أضحت الآن خضراء من الحشيش . ولم يعد حاملاً قبعته في يده ، بل شبكها بإحكام فوق أذنيه الغضروفيتين .

كان شتوكمان آخر من استجوب بين المعتقلين . وحشر الباقون معاً في غرفة الانتظار يحرسهم قوزاق ، وقد تم استجوابهم سلفاً . وكانوا : ايفان اليكسييفتش ويداه مازالتا ملطختين بالزيت ، ودافيد البسام ، و«الولد» وقد القى سترته على كتفيه ، وميشا كوشيفوي .

سأل المفتش شتوكمان وهو ينبش في محفظة أوراقه :

ـ حينما استجوبتك حول مجزرة الطاحونة لم أخفيت حقيقة كونك عضواً في حزب العمال الاشتراكي ـ الديمقراطي الروسي ؟

كان شتوكمان واقفاً الى الجانب الآخر من الطاولة وحدق بصمت فوق رأس المحقق . فصرخ الأخير وقد أغاظه سكوت السجين :

ـ إن هذا ثابت لدينا . وستلقى جزاء مناسباً لفعلك .

ـ أرجوا أن تبدأ باستجوابك . ـ قال ذلك شتوكمان بلهجة ملول ، وإذ رأى مقعداً طلب السماح له بالجلوس . فلم يجب المفتش بل ألقى نظرة شرزاء الى شتوكمان فيما كان يجلس بهدوء .

ـ متى قدمت الى هنا ؟

ـ في العام الماضي .

ـ بناء على تعليمات من منظمتك ؟

ـ بدون أية تعليمات .

ـ منذ متى وأنت عضو في حزبك ؟

ـ عم تتحدث ؟

ـ أنا أسألك ، منذ متى وأنت عضو في حزب العمال الاشتراكي ـ الديمقراطي الروسي ؟

ـ أعتقد أن...

ـ أنا لا آبه بما تعتقد ، أجب على السؤال . فالانكار لا يجدي ، بل إنه خطر . ـ وسحب المفتش وثيقة من محفظته ودبسها على المنضدة بإبهامه .

ـ لدي هنا تقرير من روستوف يؤكد عضويتك في الحزب المذكور .

فأدار شتوكمان عينيه سريعاً نحو الوثيقة وركز عليها نظره لحظة ، ثم أجاب بثبات وهو يربت على ركبته :

ـ منذ ١٩٠٧ .

ـ هكذا! أتنكر أنك قد أرسلت الى هنا من قبل حزبك ؟

ـ نعم .

ـ إذن ، ما الذي أتى بك الى هنا ؟

ـ بدا لي أن المكان هنا يفتقر الى ميكانيكيين .

ـ ولكن لم اخترت هذه المنطقة بالذات ؟

ـ لنفس السبب .

ـ ألديك الآن ، أو هل لديك في أي وقت مضى ، اتصال بمنظمتك ، أثناء فترة إقامتك هنا ؟

ـ كلا .

ـ أيعرفون أنك قد قدمت هنا ؟

ـ أظن ذلك .

فبرى المفتش قلمه بمبراة ذات مقبض لؤلؤي ، ماطاً شفتيه الى الأمام ، وتحاشى النظر الى السجين .

ـ أتراسل أياً من أعضاء حزبك ؟

ـ كلا .

ـ إذن فما قولك بالرسالة التي اكتشفناها أثناء التفتيش ؟

ـ إنها من صديق ليس له أي ارتباط مهما كان نوعه بأي منظمة ثورية .

ـ هل تلقيت أية تعليمات من روستوف ؟

ـ كلا .

ـ لم كان عمال الطاحونة يجتمعون في حجرتك ؟

فهز شتوكمان كتفيه كالمندهش من غباء السؤال :

ـ اعتادوا المجيء في أماسي الشتاء لقضاء الوقت . كنا نلعب الورق...

فأضاف المفتش :

ـ وتقرأون الكتب التي يحرمها القانون ؟

ـ كلا . فقد كانوا جميعاً أميين تقريباً .

ـ مهما يكن . فمشغل ماكنة الطاحونة والآخرون كذلك لا ينكرون هذه الحقيقة .

ـ ذلك غير صحيح .

ـ يبدو أنك لاتتمتع بأبسط عناصر الادراك بأن... ـ وابتسم شتوكمان

لذلك ، فنسي المفتش ما كان سيقوله ، وانهى كلامه بغيظ مكتوم : ـ أنت ، ببساطة لا عقل لك . إنك تصر على الانكار الذي يضر بك . فمن الواضح جداً أنك قد أرسلت الى هنا من قبل حزبك لكي تمارس نشاطات مثبطة لهمم القوزاق ، لينقلبوا ضد الحكومة . أنا عاجز عن فهم ما يحدوك الى تمثيل لعبة التضليل هذه . فهي لا تستطيع أن تمحو ذنبك...

ـ كل هذه ظنون من جانبك . أتسمح لي بالتدخين ؟ شكراً . وهي ظنون لا أساس لها البتة .

ـ هل قرأت هذا الكتاب على العمال الذين زاروا حجرتك ؟ ـ ووضع المفتش يده على كتاب صغير وغطى عنوانه . لكن اسم «بليخانوف» كان ظاهراً فوق يده .

فأجاب شتوكمان : «كنا نقرأ شعراً» ونفث سيكارته وهو يشدد قبضته على المبسم العظمي بين أصابعه . في صباح اليوم التالي الماطر خرجت عربة البريد من القرية وقد جلس شتوكمان في مقعدها الخلفي يغالبه النعاس ، ولحيته مدفونة في ياقة معطفه . وعلى كلا جانبيه انحشر على المقعد قوزاقيان تسلح كل منهما بسيف . وكان أحدهما وهو مجدور الوجه مجعد الشعر ، يقبض بقوة على مرفق شتوكمان بأصابعه المعقدة ، ويرميه بنظرات جانبية متهيبة ، مبقياً يده الأخرى على قرابه المتآكل .

ومضت العربة تقرقع مسرعة في الشارع . وكانت ثمة امرأة صغيرة تقف بجانب فناء درس الحبوب العائد لآل ميليخوف ، ملفعة بشال ، تنتظر العربة وقد اسندت ظهورها الى سياج الاسفندان .

مرت العربة مسرعة ، فألقت المرأة الصغيرة نفسها وراءها وهي تضغط بيديها على صدرها .

ـ أوسيبَ أوسيب دافيدوفتش! أه ، ما عساني أن أفعل...

فحاول شتوكمان أن يلوح لها بيده ، لكن القوزاقي المجدور قفز وأمسك بذراعه ، وصاح بصوت متوحش أجش :

ـ اجلس والا مزقتك ارباً!

فللمرة الأولى في كل حياته البسيطة ، يرى رجلاً جرؤ على أن يعمل ضد القيصر نفسه .

٢

كان الطريق الطويل من مانكوفو الى بلدة رادزيفيونو الصغيرة قد تغلف في موضع وراء غريغوري بضباب رمادي لا يميز . حاول غريغوري بين الحين والحين أن يتذكر الطريق ، غير أنه لم يستطع سوى أن يستعيد صوراً باهتة لأبنية المحطات ، وعجلات القطار تفرقع تحت أرضية الشاحنات المرتجفة ، وروائح روث الخيل والعشب ، وخيوطاً لامتناهية من خطوط السكك الحديد تحتها ، والدخان المائج من الماكنة ، والوجه الملتحي لاحد أفراد الجندرمة الواقف على رصيف محطة فورونيز أو كييف . لا يدري بالضبط أيهما .

وفي المكان حيث نزلوا من القطار ، كانت ثمة حشود من الضباط ورجال حليقو الوجه في معاطف رمادية ، يتحدثون بلغة لم يستطع فهمها . استغرق إنزال الخيل وقتاً طويلاً . وحين فرغوا من ذلك أمر مساعد قائد القدمة* بامتطاء الخيول وقاد الثلاثمائة قوزاقي ، أو أكثر ، الى المستشفى البيطري ، حيث كان ينتظرهم اجراء طويل لفحص الخيل . ثم توزيع القطعات . لغط ضباط الصف وهم يغدون ويروحون هنا وهناك ، فتكوّن الرعيل الأول من خيل سمر فواتح ، والثاني من حمر وكميت ، والثالث من سمر غامقة . وألحق غريغوري بالرابع الذي اشتمل على خيل سمر وذهبية . وتكوّن الخامس كله من خيل شقر والسادس من خيل دهم . ووضعت الرعائل تحت أمرة رؤساء عرفاء ، وألحقوها بسرايا الخيالة المعسكرة في القرى والضياع القريبة .

---

* القدمة ـ ترتيب في اصطفاف القطعات في تقسيمات متوازية مع فراغ بين كل قسم وآخر . المترجمون

مرّ أمام غريغوري رئيس عرفاء متهتك ذو عينين منتفختين على حصانه وقد حمل شارات الخدمة الطويلة ، وسأله :

ـ من أي ناحية أنت ؟

ـ فيشنسكايا .

ـ هل أنت مقصوص الذيل ؟*

فضحك القوزاق القادمون من نواح أخرى ، وازدرد غريغوري الإهانة وهو صامت .

كان الطريق الذي اتخذه رعيل غريغوري يمضي بهم على امتداد الطريق العام . وفي البداية ، كانت خيل الدون ، التي لم تر طرقاً مرصوفة من قبل ، تخطو بحذر ، وكأنها تسير على نهر متجمد السطح ، وتنصب آذانها وتنخر ، ولكنها لم تلبث أن اعتادت الطريق ومضت حوافرها ذوات الحدوات الجديدة تطرق بأصوات حادة وهي تغذ السير . وكانت الأرض البولندية غير المألوفة تقطعها شرائح من الغابات غير الكثيفة . وكان النهار دافئاً معتماً ، وبدت الشمس الحائمة خلف ستار سميك من السحب غريبة غير مألوفة هي الأخرى .

كانت ضيعة رادزيفيلوفو تبعد عن المحطة أربعة فرستات تقريباً ، فوصلوا اليها في نصف الساعة . وقد سبقهم في الطريق مساعد قائد القدمة مع مرافقه وهما يخبان خبياً .

سأل قوزاقي شاب رئيس العرفاء وهو يشير الى ذؤابات الأشجار الجرد من الحديقة :

ـ أية قرية هذه ، أيها العم ؟

ـ أية قرية ؟ عليك أن تنسى قراك القوزاقية وأنت هنا ، ياأخي ، فلست في اقليم الدون .

* كان لكل ناحية كنية . وكان أهل فيشنسكايا يكنون بـ« الكلاب » . (ملاحظة المؤلف)

ـ فما هي إذن ، أيها العم ؟
ـ أنا ، عمك ؟ أي ابن أخ لي أنت! تلك ، ياأخي ، هي ضيعة الأميرة يوروسوفا ، وإن سريتنا الرابعة مقرها هنا .

حدق غريغوري ، وهو يمسد بقنوط على رقبة حصانه ، في البيت ذي الطابقين والبناء الأنيق ، والسياج الخشبي ، وفي النمط غير المألوف لأبنية الضيعة . ولكن حينما مروا بالبستان تهامست الأشجار الجرد بذات اللغة التي تتهامس بها الأشجار في بلاد الدون البعيدة .

تكشفت الحياة الآن للقوزاق عن أكثر جوانبها املالاً وإرهاقاً . وإذ كان الشباب محرومين من العمل فسرعان ما أضحوا صرعى الحنين الى وطنهم ، وراحوا يقضون وقت فراغهم في الكلام . وقد انزل رعيل غريغوري في جناح كبير من البيت ، سطحه من القرميد ، ليناموا على الواح خشبية تحت النوافذ . وفي الليل كان الورق الملصق على شروخ النافذة يبعث صوتاً في مهب النسيم كبوق راع بعيد ، وإذ كان غريغوري يتسمع اليه خلال شخير النائمين تتملكه رغبة قوية لا تقاوم في أن ينهض ويذهب الى الاصطبلات ، ويسرج حصانه ويمتطيه ويمضي عليه الى أن يصل قريته من جديد . وكان قلبه ينقبض بالحنين والأسى .

نفخ بوق النهوض في الخامسة ، وكان الواجب الأول في النهار تنظيف الخيل وحسها ، وفي خلال نصف الساعة الوجيزة التي تطعم خلالها الخيل سنحت الفرصة لتبادل حديث مشتت :

ـ هذه حياة جهنمية ، يا أولاد!
ـ أنا لا أستطيع تحملها .
ـ أما رئيس العرفاء! فأي خنزير! يجعلنا نغسل حوافر الخيل!
ـ إنهم يعدون الفطائر الآن في بيوتنا... جاء عيد المرفع .

ـ حسبي أن يكون لي مكان أُقبّل فيه فتاة وأحتضنها .

ـ رأيت حلماً ليلة البارحة ، يا أولاد . حلمت بأنني وأمي نحش العشب في المرج ، وكان أهل القرية متناثرين حولنا كما تتناثر أزهار الأقحوان على ساحة درس الحبوب . ـ قال ذلك بروخور زيكوف ، هو فتى هادئ له عينان وديعتان كالعجل :

ـ ولم نفعل سوى أن مضينا نحش ونحش... مما اشاع في نفسي الحبور .

ـ أراهن أن زوجتي تقول الآن : ترى ، ماذا يعمل زوجي نيكولاي الآن ؟

ـ هو ـ هو ـ ! أغلب الظن أنها تحاكك أباك الآن!

ـ ماهذا الكلام...

ـ ليس في العالم امرأة لا تحاول مع رجل آخر في غياب زوجها .

ـ وفيم القلق ؟ ليست المرأة جرة من اللبن . سنجد ما يكفينا منهن حينما نعود .

وهنا تدخل في الحديث يغور زاركوف غامزاً ومبتسماً ابتسامة ذات مغزى . وهو أكثر الرجال مرحاً ومجوناً في السرية ، ولم يكن ليشعر إزاء أي إنسان الا باحترام قليل وحياء أقل :

ـ هذا شيء أكيد : فلن يدع أبوك زوجتك وشأنها ، إنه كلب فحل لا يكل .

وأضاف كاسحاً سامعيه بنظرته المتلامعة :

ـ سأقص عليكم حكاية . كان هناك عجوز رعديد ظل يلاحق كنته ، لا يدعها ترتاح ، لكن ابنه كان يعترض طريقه دائماً . إذن ، ماذا يعمل العجوز ؟ في الليل ذهب الى الفناء وفتح البوابة ، فخرجت جميع الماشية . ثم قال لابنه : «ماذا فعلت ، ياكسول ويا كيت وكذا ؟ لماذا لم تسد البوابة ؟ انظر ، لقد هامت جميع الماشية في الخارج . اذهب وعد بها» . فقد ظن ، كما ترون ، أنه ما إن يذهب ابنه حتى يتسنى له قضاء وطره من كنته . على

أن الابن كان كسولاً ، فهمس لزوجته : «اذهبي أنت وأرجعيها» . وهكذا خرجت ، واستلقى هو هناك يستمع . فانسل الأب نازلاً من الموقد وزحف على يديه وركبتيه صوب السرير . لكن ابنه لم يكن بالرجل الأحمق ، فقد أخذ شوبكاً من الأرض ولبث ينتظر . وما إن زحف أبوه صاعداً الى السرير ووضع يده عليه حتى هوى عليه بضربة من شوبكه أصابت رأسه الأصلع في وسطه تماماً . وصاح : «ابتعد عني ، ولا تمضغ بطانيتي ، عليك اللعنة» . لقد كان لديهم في البيت عجل من عادته أن يمضغ الأشياء ، ولهذا تظاهر الابن أنه قد ضرب العجل . أما الأب فقد أفلح في العودة الى الموقد زاحفاً وتمدد هناك وهو يتحسس بإصبعه برفق التورم الذي كان بحجم بيضة أوزة . وأخيراً قال : «ايفان . ما الذي ضربت لتوك ؟» فأجاب إيفان : «العجل ، بالطبع» فقال العجوز وهو يكاد يبكي : «أي مزارع ستكون إن كان دأبك ضرب الماشية على هذا النحو ؟»

ـ أنت كذاب كبير! أف منك يا مجدور الوجه!

فصاح رئيس العرفاء وهو يدنو منهم :

ـ ماهذا ، هل أنتم في سوق ؟ تفرقوا!

فمضى القوزاق الى خيولهم يضحكون ويهزلون . وبعد تناول الشاي مضوا لإجراء التدريب الذي يتفنن رؤوساء العرفاء خلاله في الأوامر والسباب :

ـ شد بطنك ياخنزير!

ـ الى اليسار سر!

ـ ما هذه الوقفة يا ملعون!

وقف الضباط ، خلال التدريب ، يدخنون في جانب الفناء لا يتدخلون الا من حين لآخر . وحينما كان غريغوري ينظر الى الضباط المهذبين المتأنقين في معاطفهم الرمادية الجميلة وبزاتهم اللصيقة بأبدانهم ، ، خامره شعور بأن ثمة جداراً منيعا بينه وبينهم . إذ كانت حياتهم الرغدة المنتظمة ،

والمتميزة جداً ، والتي لم تكن لتشبه بأية حال حياة القوزاق ، تنساب بهدوء لا يكدرها الوحل أو القمل أو الخوف من قبضة رئيس العرفاء .

في اليوم الثالث لوصولهم الى الضيعة وقع حادث ترك أثراً أليماً في نفس غريغوري ، وفي نفوس جميع القوزاق الشباب . كانوا يتلقون التعليمات أثناء تدريب الخيالة ، وكان الحصان الذي يركبه بروخور زيكوف ، الفتى ذو العينين الوديعتين الذي طالما حلم بقريته القوزاقية النائية ، حيواناً نافراً متوحشاً ، وحدث أن رفس هذا الحصان رئيس العرفاء أثناء مروره . لم تكن الضربة قوية جداً ، أذ كشطت الجلد في ساق الحصان الأيسر ، وحسب ، ولكن رئيس العرفاء هوى بسوطه على وجه بروخور ، وصرخ وهو يندفع صوبه على حصانه :

ـ لماذا بحق الجحيم لا تتبين طريقك ، يا ابن القحبة! سوف أريك... سوف تقضي الأيام الثلاثة القادمة في الواجب!

وحدث أن شهد المنظر آمر السرية ، الا أنه أدار ظهره وهو يعابث عقدة سيفه بأصابعه ويتثاءب مللاً . ومسح بروخور ، وشفتاه ترتجفان ، خطا من الدم كان يسيل من وجنته المتورمة .

فنظر غريغوري الى الضباط ، وهو يجر حصانه الى الصف ، غير أنهم مضوا في حديثهم كما لوأن شيئاً أليماً لم يقع . وبعد ذلك بخمسة أيام ، أسقط غريغوري دلواً في البئر ، فانقض عليه رئيس العرفاء كالصقر ورفع قبضته .

ـ لا تلمسني . ـ قال ذلك غريغوري بصوت أجش وهو ينظر الى الماء المتماوج تحته .

ـ ماذا ؟ انزل الى البئر وأخرجه ، يا نغل! لسوف أحطم رأسك هذا!

فقال غريغوري ببطء دون أن يرفع رأسه :

ـ سأخرجه لكن لا تلمسني .

لو كان هناك أي قوزاقي الى جانب البئر ، لما تردد رئيس العرفاء لحظة في ضرب غريغوري ، لكنهم كانوا يسوسون خيولهم عندالسياج فلم يسمعوا ماكان دائراً . وتقدم رئيس العرفاء من غريغوري ، متلفتاً صوب

القوزاق ، وقد جنت عيناه بالهياج ، وقال في صوت كالفحيح :

ـ ماذا تظن نفسك ؟ كيف تجرؤ على مخاطبة رئيسك بهذه الصورة ؟

ـ لا تبحث عن المتاعب ، يا سيمون يغوروف .

ـ أتهددني ؟ سوف أ...

فقال غريغوري رافعاً رأسه من البئر :

ـ اسمع ، لئن ضربتني... فسأقتلك . أتفهم ؟

ففغر رئيس العرفاء فمه الشبيه بفم الشبوط ، منذهلاً ولكن لم يند عنه أي جواب . فقد فلتت فرصة العقاب . ولم يكن وجه غريغوري الداكن لينبئ بخير . واعترت رئيس العرفاء الحيرة ، فمشى مبتعداً عن البئر ، متزحلقاً في الوحل بالقرب من المزراب الذي كان يسيل فيه الماء الى أحواض خشبية ، وحينما أصبح على مبعدة ما استدار وهز قبضته ، وصاح :

ـ سوف أرفع تقريراً عنك الى آمر السرية . أجل سأرفع عنك تقريراً .

لأمر ما ، مع ذلك ، لم يرفع تقريره عن غريغوري . ولكنه شاكس غريغوري خلال أسبوعين وجعل يتسقط أخطاءه دائماً ويوكل اليه واجب الخفارة في غير دوره ويتحاشى أن تلتقي نظراتهما .

سحق نظام الحياة الموحش الرتيب نفسية القوزاق الشباب . كانوا يشتغلون بصورة مستديمة وحتى أفول الشمس يالتمرينات ، على الأقدام وعلى ظهور الخيل ويسوسون الخيل ويطعمونها . في الساعة العاشرة ، وبعد تلاوة وتوزيع الحرس ، كانوا يصفّونهم للصلاة ، رئيس العرفاء يرتل صلاة المولى وعيناه تجولان على المراتب الماثلة أمامه .

وفي كل صباح كانت الأمور تدور على المنوال ذاته كرّة أخرى ، وتمر الأيام متشابهة كما تتشابه حبات الحمص .

لم يكن في كل الضيعة سوى إمرأتين : زوجة الوكيل* العجوز وخادمته

---

* أي وكيل الضيعة . المترجمون

الشابة الجميلة ، فرانيا ، وهي فتاة بولندية . تثير إعجاب الجنود والضباط على السواء . وكانت كثيراً ما تجري من المنزل الى المطبخ حيث يعمل طباخ الجيش العجوز الذي لا حاجب له . فكانت الرعائل التي تتدرب في ساحة العرض تراقب كل حركة في تنورة الفتاة الرمادية أثناء هرولتها عبر الفناء ، وهم يتغامزون ويطلقون التنهدات المبالغ في علوها . وإذ كانت الفتاة تستشعر حملقة القوزاق والضباط ، راحت تسبح في جدول الشبق الذي انبعث من ثلاثمائة زوج من العيون ، ومضت تؤرجح ردفيها بشكل مثير فيما كانت تجري ذاهبة آتية بين المطبخ والمنزل ، تمنح الابتسام لكل رعيل بالتناوب ، وللضباط بصورة خاصة وبالرغم من أن الجميع ناضلوا لاجتذاب اهتمامها بهم ، إلا أن الشائعات ذهبت الى أن آمر السرية الأجعد الشعر وحده قد ظفر بها .

وذات يوم في مستهل الربيع ، كان غريغوري مكلفاً بالعمل في الاصطبلات فقضى معظم وقته في طرف واحد منها حيث شاع الهياج بين جياد الضباط لوجود فرس بينها . حان وقت الغذاء . وكان غريغوري قد أذاق حصان آمر السرية طعم السوط لتوه ، وشرع يعني بحصانه هو . فألقى هذا نظرة جانبية الى سيده ومضى يلوك التبن ، وقد رفع ساقه الخلفية المضروبة أثناء التدريب . وبينما كان غريغوري يصلح من وضع الرسن ، سمع صوت اصطراع وصرخة مكتومة ، انبعث من الزاوية الدكناء للطرف الآخر من الاصطبل . فانتابته دهشة من الصوت الغريب ، وهرع الى هناك عبر المعالف . وعلى حين غرة غشى على بصره ظلام لزج غطى على الممر فجأة وصفق أحدهم باب الاصطبل ، فسمع غريغوري صوتاً مكتوماً ينادي همساً :

ـ أسرعوا ، يا أولاد!

فأسرع غريغوري خطاه ، وصاح :

ـ من هنا... ؟

وفي اللحظة التالية إصطدم بعريف كان يتلمس طريقه الى الباب ،

فهمس هذا وهو يضع يده على كتف غريغوري : «أهذا أنت ، يا ميليخوف ؟» .

ـ قف! ماذا هناك ؟

فانفجر العريف في قهقهة آثمة وأمسك بكم غريغوري : «يا من... هناك ، أين ذاهب ؟» إذ كان غريغوري قد انتزع ذراعه ، وجرى ثم دفع الباب . كان ثمة في الفناء المهجور دجاجة مقصوصة الذيل ، لا تدري بما أعد الطباخ لها من خطط تتعلق بحساء الوكيل لليوم التالي ، فكانت تنبش في شيء من الروث باحثة عن موضع تضع فيه بيضتها .

أعشى الضياء غريغوري لحظة ، فظلل عينيه بيده واستدار وهو يسمع الى جلبة تتعالى في زاوية الاصطبل الدكناء . فجرى ناحية الصوت مضيقاً عينيه وإذا به يلقي زاركوف يزرر سرواله ويهز رأسه .

ـ ماذا بحق... ماذا تفعل هنا ؟

فهمس زاركوف وهو يطلق زفيراً كريهاً في وجه غريغوري : «أسرع إنه لشيء رائع... لقد جروا الفتاة فرانيا الى الداخل هنا... ومددوها!» وانقطعت قهقهته الخليعة فجأة حينما أطاح به غريغوري على حائط الاصطبل الخشبي . واعتادت عينا غريغوري الظلمة شيئاً فشيئاً وكان ثمة رعب فيهما وهو يعدو صوب الجلبة ، ووجد غريغوري في الزاوية حشداً من قوزاق الرعيل الأول . فشق طريقه بينهم بصمت . ورأى فرانيا راقدة على الأرض بلا حراك ، وقد لُفّ رأسها بمراشح الخيل ، وثوبها ممزق ومرفوع الى ما فوق ثدييها ، وساقاها الأبيضان وسط العتمة منفرجان بشكل داعر فظيع . وكان قوزاقي قد قام لتوه من فوقها ، وهو يبتسم ابتسامة معوجة ويتراجع ليفسح المجال لمن يليه ، فشق غريغوري طريقه خلال الحشد عائداً ، وركض الى الباب ينادي رئيس العرفاء . ولكن القوزاق الآخرين جروا خلفه وأمسكوا به عند الباب ، وسحبوه الى الوراء واضعين أيديهم على فمه فمزق قمصلة أحدهم من طرفها الى ياقتها وركل آخر على معدته ، ولكن الآخرين استطاعوا أن يشلوا

حركته . ومثلما فعلوا بفرانيا ، أوثقوا رأسه بمرشحة حصان وقيدوا يديه خلف ظهره ، ثم القوا به في معلف خال ، وهم صامتون لكيلا يشخصهم من أصواتهم ، وحاول أن يصيح ومرشحة الحصان تخنقه ، وجعل يرفس الفاصل في هياج . وكان يسمع الهمس يتناهى من الزاوية ، والباب يصر مع دخول القوزاق وخروجهم . ثم أطلق سراحه بعد عشرين دقيقة تقريباً . وكان رئيس العرفاء وقوزاقيان من رعيل آخر يقفون عند الباب .

قال له رئيس العرفاء ، وهو يطرف بعينه بشدة دون أن ينظر إليه :

ـ ما عليك إلا أن تقفل فمك!

وقال دوبوك مبتسماً ، وهو قوزاقي من رعيل آخر :

ـ لا تثرثر وإلا صلمنا أذنيك...

ثم رأى غريغوري قوزاقيين رفعا الكومة الساكنة التي كانت فرانيا ممدة عليها ، وقد انفرجت ساقاها بشكل متصلب تحت تنورتها ، وارتقيا معلفاً ودفعاها خلال فجوة في الحائط أحدثتها عارضة خشبية سائبة . كان الحائط يحاذي البستان . وفوق كل معلف نافذة صغيرة مسودة ، فتسلق بعض القوزاق فوق فواصل المعالف ليروا ماستفعله فرانيا ، بينما هرع آخرون خارج الاصطبلات . وتملك غريغوري فضول حيواني ، هو الآخر ، فأمسك بعارضة سقيفة ، وشد قامته الى احدى النوافذ ووجد مااعتمد عليه بقدميه وجعل ينظر من هناك . كانت عشرات من العيون تحملق خلال النوافذ الوسخة في الفتاة الراقدة تحت الجدار . كانت ممددة على ظهرها ، وساقاها يتقاطعان وينفرجان مثل شفرتي المقص ، وأصابعها تنبش في الثلج عند الجدار . لم يستطع غريغوري أن يرى وجهها لكنه سمع الأنفاس المكتومة للقوزاق الآخرين المتطلعين من النوافذ ، وخشخشة التبن الناعمة المريحة .

لبثت راقدة طويلاً ، وأخيراً همت على يديها وركبتها . وارتعشت ذراعاها ، تكادان لا تقويان على حملها . ورأى غريغوري ذلك بوضوح . ثم

قامت على قدميها وهي تترنح ، ومرت بعينيها على النوافذ بحملقة طويلة بطيئة ، وقد بدت شعثاء ، غريبة ، عدائية . ثم ابتعدت متأرجحة وهي تقبض بيد شجيرات زهر العسل وبالأخرى تتحسس الجدار .

فقفز غريغوري من الفاصل وحك بلعومه يخامره شعور بالاختناق الوشيك . وعند الباب قال له أحدهم ، لم يستطع حتى تذكره فيما بعد ، بلهجة قاطعة :

ـ لئن فهت بكلمة... قتلناك ، وحق المسيح!

وفي ساحة العرض لاحظ آمر السرية انقطاع أحد أزرار معطف غريغوري . فسأله :

ـ من كنت تصارع ؟ أي هندام يمكن أن تسمي هذا ؟

فنظر غريغوري الى الثقب الصغير المستدير الذي خلفه الزر المفقود ، وجاشت به الذكرى ، فأحس ، للمرة الاولى منذ فترة طويلة ، من الزمن بالرغبة في البكاء .

٣

انتشر فوق السهب هواء ساخن اصفر . وتعالى غبار أصفر من بحار القمح الناضج غير المحصود . واضحى معدن آلات الحصاد حاراً جداً بحيث لا تستطيع يد أن تلمسه . وصار النظر الى السماء الصفراء ـ المزرقة الملتهبة شيئاً موجعاً . وحيث انتهت حقول القمح ، بدأت حقول زعفرانية من البرسيم .

وانتقلت القرية عن بكارة أبيها الى السهب لقطع الذرة . وكانوا يختنقون بالحر والغبار الحريف ، ويرهقون الخيل وهي تجر الحاصدات . ومن حين لآخر ، كانت موجة من الهواء القادم من النهر تثير هبة من الغبار على السهب ، فتتغلف الشمس بغشاوة مخدرة .

وكان بيوتر قد شرب نصف دلو من الماء منذ الصباح الباكر حى الآن ، وهو يجرف القمح من ناحية الحاصدة . فما أن تمضي دقيقة على شربه السائل الدافىء الكريه حتى يجف ريقه من جديد . كان قميصه وسرواله مبللين كلهما ، والعرق يتصبب من وجهه ، وفي اذنيه رنين متواصل ، وكل كلمة يقولها تخربش بلعومه . وكانت داريا تجمع القمح حزماً ، وقد لفعَت رأسها ووجهها بعصابتها ، وفكت أزرار قميصها . وانحدرت حبات رمادية كبيرة من العرق بين نهديها الاغبشين . وكانت ناتاليا تقود الخيل ، وقد التهبت وجنتاها حتى صارتا بلون البنجر ، وادمعت الشمس المتوهجة عينيها . وكان بانتلاي يروح ويغدو بين حزم القمح ، وقميصه المبتل يلسع جسده . وبدت لحيته كسيل من دهن العربات الأسود الذائب ، ينساب فوق صدره .

صاح كريستونيا من عربة عابرة :

ـ جعلوك تعرق ؟

ـ مبتل عن آخري! ـومضى بانتلاي يعرج ، ماسحاً بطنه العِرق بذيل قميصه .

وصاحت داريا :

ـ بيوترا! لنتوقف .

ـ تريثي قليلاً ، سنفرغ من هذه المسافة .

ـ لننتظر حتى يبرد الجو . كفاية الى هذا الحد .

أوقفت ناتاليا الخيل ،وكان صدرها يلهث كما لو كانت هي التي تسحب الحاصدة . ومضت داريا نحوهما متلمسة طريقها في حذر بقدميها المحترقتين الداكنتين على الحنطة المحصودة .

ـ ليست بعيدة! ثلاثة فرستات أو نحوها ، لا غير!

ـ لو قمنا بغوصة واحدة فيها!

وبدأت ناتاليا تقول متنهدة :

ـ وحينما تصلين الى هناك وترجعين...

ـ لماذا ، بحق الشيطان ، علينا أن نمشي على أرجلنا! سنحل الخيل ونركبها .

فنظر بيوتر قلقاً الى أبيه الذي كان يربط حزمة ، ولوّح بيده .

ـ حسناً ، حلّوا الخيل .

فحلت داريا العدة وقفزت ببراعة على ظهر الفرس . وقادت ناتاليا حصانها الى الحاصدة ، وشفتاها المشققتان تبتسمان ، وحاولت أن تمتطيه من مقعد القيادة . فمضى اليها بيوتر وأعان ساقها على الصعود الى ظهر الحصان . ثم انطلقوا . ومضت داريا تخب في المقدمة ، وهي تركب حصانهاعلى الطريقة القوزاقية ، وقد شمرت تنورتها الى مافوق ركبتيها العاريتين ، واندفعت عصابتها الى ماوراء رأسها . ولم يستطع بيوتر أن يمنع نفسه من الصياح عليها :

ـ حاذري ألا يتقرّح ظهر الحصان!

فردت عليه داريا بصيحة غير مبالية :

ـ لا حاجة الى أن تقلق!

وبينما كانوا يعبرون طريق الحقل ، نظر بيوتر الى شماله فلاحظ غمامة صغيرة من الغبار تتحرك بسرعة على امتداد الطريق العام البعيد من القرية .

فعلق محدثاً ناتاليا ، وهو يخاوص عينيه :

ـ ثمّة خيّال قادم!

فأجابت ناتاليا دهشة :

ـ ومسرع ، أيضاً ! انظر الى الغبار!

ـ لعمري ، من عساه يكون! ـ ونادى بيوتر على زوجته : ـ داريا! شدي الزمام لحظة ، ودعينا نراقب ذلك الخيال!

هبطت غمامة الغبار في منخفض واختفت ، ثم ارتفعت من جديد على

الجانب الآخر . وصار الآن بالمستطاع رؤية شبح الخيال خلل الغبار . فلبث بيوتر يحدّق وراحته الوسخة على حافة قبعته القش .

ـ ليس من حصان يستطيع أن يتحمل هذا العدو مدة طويلة . لسوف يقتله! ـ وتجهّم وأبعد يده ، واجتاح وجهه تعبير قلق .

أصبح الآن بالامكان رؤية الخيال بجلاء تام . كان يركب حصاناً بسرعة جنونية ، ويده اليسرى تمسك بقبعته ، وفي يمناه علم أحمر صغير مغبر . مرق على الطريق على مقربة دانية منهم حتى ان بيوتر سمع انفاس الحصان اللاهثة . وصاح الرجل وهو يمر بهم :

ـ انذار!

وتطاير من الحصان نثار من زبد صابوني اصفر وتساقط على أثر حافره . وتابع بيوتر الخيال بعينيه . وانطبعت في ذاكرته نخرة الحصان القوية وصورة كفله ، مبتلاً ومتلألئاً كالفولاذ ، حينما رآه وهو يحدّق في الشبح المبتعد .

وتفرّس بيوتر ببلادة في الزبد المرتعش في الغبار ، وهو لمّا يزل عاجزاً عن ادراك طبيعة الكارثة التي حلّت بهم ، فثم أجال بصره في السهب المتموج المنحدر صوب القرية ، كان القوزاق يتراكضون من جميع الجهات فوق الصفوف الصفر لجذامة الحنطة ، متجهين صوب القرية ، وكانت ترى عبر السهب ، حتى النجد البعيد ، غمامات صغيرة من الغبار تنم عن فرسان مسرعين . وتحرّك قطار طويل من الغبار على الطريق المؤدي الى القرية . أما القوزاق الذين كانوا في قائمة الخدمة الفعلية ، فقد تركوا عملهم واخرجوا الخيل من الحاصدات وانطلقوا سراعاً الى القرية . وشاهد بيوتر كريستونيا يحل حصانه ، التابع لفصيله الحرس ، من عربة وينطلق عليه بسرعة جنونية ، وهو ينظر الى بيوتر عبر كتفه .

وقالت ناتاليا فيما يشبه العويل ، وهي تنظر الى بيوتر بذعر :

ـ «فيم كل ذلك ؟» . وحفزته نظرتها ، نظرة الأرنب الواقع في فخ ، فعاد

مسرعاً الى الحاصدة ، وقفز من حصانه قبل أن يتوقف ، وحشر ساقيه في بنطاله الذي خلعه أثناء العمل ، وانطلق ، ملوحاً بيده لأبيه ، ليضيف غمامة اخرى من الغبار الى تلك الغمامات التي تناثرت قبله فوق السهب المنبسط في وقدة القيظ .

٤

وفي ساحة القرية وجد حشداً رمادياً كثيفاً ، وقد ارتدى الكثيرون بزاتهم العسكرية وحملوا عدتهم . وكانت القبعات العسكرية الزرق لرجال كتيبة الاتمان ترتفع بمقدار رأس عن بقية القبعات ، مثل أوز هولندي بين دواجن الحقل الصغيرة .

كانت حانة القرية مغلقة . وكانت نظرة ضابط الارتباط العسكري كئيبة مثقلة بالهموم . واصطفت النساء اللواتي ارتدين ثياب الاعياد حذاء الاسيجة على امتداد الشارع . وكانت ثمة كلمة واحدة على كل شفة : «النفير» . والوجوه مأخوذة ، قلقة . وسرى القلق السائد الى الخيل ، فجعلت ترفس وتثب وتنخر غاضبة . وانتثرت في الساحة قنان فارغة وأوراق حلوى رخيصة ، وكانت غمامة من الغبار قد تعلقت في الجو منخفضة .

قاد بيوتر حصانه المسرج من عنانه . وعلى مقربة من سور الكنيسة وقف قوزاقي أسمر ضخم ، من كتيبة الاتمان ، يزرر بنطلونه الازرق ، وفمه ينفرج عن ابتسامة ناصعة الاسنان ، فيما كانت امرأة صغيرة قوية البنية ، زوجته أو حبيبته ، تتفجّر بوجهه :

ـ لسوف القنك درساً لذهابك مع تلك السفيهة!

كانت ثملة ، وقد انتثرت على شعرها الاشعث قشور بذور عباد الشمس ، وانهدلت عصابتها الزاهية ، فشد جندي الحرس نطاقه ، وانحنى ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة ، وساقاه طويلتان وطيات سرواله العريضة يمكن أن تمرر عجلاً حولياً دون أن يعصى فيها .

ـ ابتعدي عنّي ، ياماشكا .
ـ ياللوحش! يازير النساء!
ـ وماذا في ذلك ؟
ـ ياعديم الحياء!

وعلى مقربة منه كان رئيس عرفاء أحمر اللحية يناقش مدفعياً . وكان يؤكد له :

ـ لن يؤدي ذلك الى شيء ما! سوف نقضي هناك يوماً ، ثم نعود الى بيوتنا من جديد .
ـ ولكن لنفرض أن الحرب وقعت ؟
ـ ياه ، يا صديقي! أين هو البلد الذي يستطيع أن يصمد أمامنا ؟

وفي الحشد القريب يجري حديث لاترابط فيه وكان ثمة قوزاقي مسن وسيم يتجادل في حماس :

ـ لا مصلحة لنا فيها . فليقاتلوا هم فنحن لم نحصد قمحنا بعد .
ـ ياللمصيبة ! هانحن واقفون هنا ، بينما في الحصاد كل دقيقة لها وزنها!
ـ ستنفذ الماشية الى الحزم!
ـ قبل قليل فقط شرعنا في حصاد الشعير!
ـ يقولون ان القيصر النمسوي قد قتل .
ـ كلا ، ولي عهده .
ـ يا صديق من أي كتيبة أنت ؟
ـ ها! يا عزيزي ومن أين أنت ؟
ـ لكن الاتمان يقول إنهم استدعونا لمواجهة ما قد يحدث لا غير .
ـ انتهينا ، يا أولاد!
ـ سنة أخرى ، وأكون قد خرجت من وجبة الاحتياط الثالثة . ـ ماعساهم يريدون منك ، أيها الجد ؟
ـ لا عليك ، فما أن يشرعوا بتقتيل الرجال حتى يستدعوا الشيوخ ، أيضاً .

ـ الحانة مغلقة!

ـ وماذا ؟ في وسعنا أن نذهب الى منزل مارفوتكا ، ستبيعنا برميلاً!

ثم بدأ التفتيش . واقتاد ثلاثة من القوزاق رابعاً ، مضرجاً بالدم وفي حالة سكر تام ، الى إدارة القرية . فارتمى الى الخلف ، وشق قميصه ، وصاح وهو يجول بعينيه الصغيرتين :

ـ سأعلم الفلاحين! سأنال من دمهم! سيعلمون من هم قوزاق الدون!

فتضاحكت حلقة الرجال المحيطة به استحساناً :

ـ صحيح ، لقنهم درساً!

ـ لمَ قبضوا عليه ؟

ـ هاجم بعض الفلاحين!

ـ حسناً ، يستحقون ما فعل .

ـ سنريهم أكثر من هذا!

ـ ساهمت في قمعهم عام ١٩٠٥ . كان ذلك منظراً جديراً بالمشاهدة!

ـ ستنشب الحرب . وسيرسلوننا من جديد لقمعهم .

ـ كفى ما لاقينا . فليؤجروا لتلك المهمة ، أو فلتقم بها الشرطة . من العار علينا أن نفعل ذلك .

كان حانوت موخوف مكتظاً بالناس . وكان في وسطهم ايفان توميلين يناقش صاحبي الحانوت ، وهو سكران ، وموخوف يسعى لتهدئته . وكان شريكه اتيوبين قد ارتكن عند الباب . وقال متبرماً : «علام كل هذا ؟ في رأيي أن هذا انتهاك للحرمة! ياولد ، اجر في طلب الاتمان!»

ضغط توميلين بصدره على التاجر المتجهم ، وهو يمسح يديه المعروقتين ببنطاله ، وقال متهكماً :

ـ لقد عصرتنا وعصرتنا بالفائدة التي تفرضها علينا ، أيها الخنزير ، والآن طاش صوابك . سوف أحطم وجهك! أنت تنهب حقوقنا القوزاقية ، أيها الثعبان الغليظ!

كان اتمان القرية منهمكاً في صب سيل من الكلمات المهدئة لطمأنة القوزاق المحيطين به : «حرب ؟ كلا ، لن يكون هناك اية حرب . فقد قال سعادة آمر الانضباط العسكري أن النفير لم يكن الا من قبيل التمارين . لاحاجة للتطير» .

ـ حسناً! فلنعد الى الحقول فور عودتنا الى بيوتنا!

ـ وكيف لا! الحصاد لا ينتظر!

ـ ماذا يدور في خلد السلطات ؟ لديّ أكثر من مائة ديسياتين يتعيّن عليّ حصادها .

ـ تيموشكا! قل لأهلينا إننا سنعود غداً .

ـ يبدو أنهم علّقوا بيانا . لنذهب ونلقي نظرة عليه .

وهكذا ظلت الساحة دائبة الحركة والصخب بالحشود القلقة حتى ساعة متأخرة من الليل .

* * *

بعد أربعة أيام ، كانت الشاحنات الحمر للقطارات العسكرية تحمل كتائب وبطاريات القوزاق باتجاه الحدود الروسية ـ النمسوية .

ـ الحرب...

ومن المعالف انبعثت حمحمة الخيل ورائحة الروث الكريهة الرطبة .

وفي العربات دار نفس النمط من الحديث ، واغلب الأغاني من هذا النوع :

الدون يقظان يتململ ،
الدون الهادئ المسيحي .
اطاعة للنداء ،
نداء الملك ، يغذ الدون مسيرته .

في المحطات ، كان القوزاق يقابلون بنظرات فضولية عطوف . وكان الناس يحدقون بفضول في شرائط سروايل القوزاق ، وفي وجوههم التي لم تزل داكنة من أثر العمل الأخير في الحقول .

ـ الحرب...

وانطلقت صرخات الجرائد بالنبأ . وفي المحطات ، لوحت النساء بمناديلهن ، وابتسمن ، ونثرن السكاكر والحلوى . مرّة واحدة فقط ، قبيل أن يصل القطار فورونيج دس عامل سكك عجوز ، نصف سكران ، رأسه في الشاحنة حيث انحشر بيوتر ميليخوف مع ثلاثين قوزاقياً آخرين ، وتساءل :

ـ انتم ذاهبون ؟

فأجابه أحد القوزاق :

ـ نعم . ادخل وامض معنا ، ايها الجد .

فرد العجوز وهو يهز رأسه لائماً :

ـ يا ابني... ما أنتم إلا ثيران للذبح!

٥

خلال الاسبوع الرابع من حزيران ١٩١٤ ، نقلت هيئة اركان الفرقة كتيبة غريغوري ميليخوف الى مدينة روفنو لتشترك في المناورات . وكانت ثمة فرقتان من المشاة قد عسكرتا على مقربة من روفنو ، اضافة الى بعض وحدات الخيالة . وكان أن عسكرت السرية الرابعة في قرية فلاديسلافكا . وبعد اسبوعين ، وبينما كان غريغوري وقوزاق السرية الرابعة مضطجعين في خيامهم وقد هدت قواهم المناورات المستديمة دخل آخر السرية ، الرئيس بولوكو فينكوف على غفلة مسرعاً وعائدا من هيئة أركان الكتيبة على حصانه المغطّى بالزبد .

اضطرب القوزاق في الفناء فقال بروخور زيكوف متهكماً :

ـ «سنتحرك من جديد ، على ما أظن» . وأرهف سمعه ينتظر صوت البوق .

وغرز عريف الرعيل الابرة التي كان يرتق بها بنطلونه في بطانة قبعته ، وعلّق قائلاً :

ـ يبدو كذلك .

ـ لن يدعونا نرتاح لحظة .

ـ قال رئيس العرفاء : ان آمر اللواء سيزورنا .

في هذه اللحظة نفخ البوقي اشارة الانذار . فقفز القوزاق على اقدامهم .

وصاح بروخور وهو ينقب في جنون : «اين ولّى كيس تبغي ؟» .

ـ اسرجوا حصنكم!

وصاح غريغوري وهو يعدو الى الخارج :

ـ فليذهب كيسك الى الجحيم .

جرى رئيس العرفاء الى الفناء ، واتجه ناحية مرابط الخيل ماسكاً مقبض سيفه . وكانوا قد اسرجوا خيلهم خلال المهلة النظامية . وبينما كان غريغوري ينتزع أوتاد الخيام ، استطاع العريف أن يجمجم :

ـ انها الحرب هذه المرّة ، يابني!

ـ أنت تهزل!

ـ وحق الرب! لقد أخبرني رئيس العرفاء .

وانتظمت السرية في الشارع وعلى رأسها الآمر على صهوة حصان هائج . وحوّم ايعازه على رؤوس المراتب :

ـ ارتال ، اصطفاف!

وقرقعت الحوافر فيما مضت الخيل خارجة من القرية الى الطريق العام . ومن قرية مجاورة ظهرت للعيان السريتان الاولى والخامسة متجهتين على الخيل صوب المحطّة .

وفي اليوم التالي انزلت الكتيبة من القطار في محطة تبعد ، حوالي

خمسة وثلاثين فرستا عن الحدود النمسوية . كان الفجر ينسلخ من وراء أشجار البتولا في المحطة . وبدا الصباح مبشراً بتحسن .

ضجّت الماكنة وعجّت فوق خطوط السكك ، وتلألأت القضبان تحت دهان من الندى ، وهبطت الخيل من الشاحنات على الألواح الخشبية وهي تنخر . ومن وراء برج الماء تناهى خليط من الاصوات والاوامر .

وقاد قوزاق السرية الرابعة خيولهم من أعنتها عبر تقاطع السكك وبدت أصواتهم متطيرة في العتمة البنفسجية المتكسرة . وبزغت الوجوه وهياكل الخيل من الظلمة بشكل مبهم .

ـ أية سرية تلك ؟

ـ ومن أنت ؟ من أين أنت ؟

ـ سأريك من أنا! كيف تجرؤ على التحدث الى ضابط على هذا النحو ؟

ـ آسف ، يا صاحب السعادة ، لم أتبينكم .

ـ اذهب! اذهب!

ـ فيم تكاسلكم ؟ تحركوا . ها هو القطار قادم .

ـ أين رعيلكم الثالث ، يا رئيس العرفاء ؟

ـ سرية ، تراصفي!

همسات تتمتم في الرتل :

ـ اللعنة ، كيف نتراصف ونحن لم نعرف النوم منذ ليلتين .

ـ هات نفسا ، يا سيومكا ، لم أدخن سيكارة منذ البارحة .

ـ اذهب الى الجحيم...

ـ عض حزام سرجه ، هذا الشيطان .

ـ فقد حصاني نعلا من ساقه الامامية .

وعلى مبعدة قليلة ، كان الرعيل الرابع قد أوقف قليلاً لأن الرعيل الآخر اعترض طريقه . كانت أشباح الفرسان السود بارزة بوضوح قبالة صفحة السماء الرمادية الممزقة ، كما لو رسمت بحبر هندي . في كل صف أربعة

فرسان . تأرجحت رماحهم كعيدان عباد الشمس الجرد . ومن حين لآخر جلجل ركاب أو صرّ سرج .

ـ يا اخوان ، الى أين ذاهبون ؟

ـ الى الاشبين لحفلة التعميد!

ـ ها ـ ها ـ ها !

ـ صه! ماهذا الكلام الفارغ!

كان بروخور زيكوف راكباً الى جانب غريغوري ، حدّق بروخور في وجهه وهمس :

ـ ميليخوف ، لست خائفاً . أليس كذلك ؟

ـ ماالذي يدعو للخوف ؟

ـ قد نلتحم اليوم في المعركة .

ـ حسناً ، وما في ذلك ؟

فاعترف بروخور واصابعه تعبث بالأعنة الندية في عصبية :

ـ لكنني خائف . لم أنم طرفة عين طوال الليل .

ومرة أخرى تقدمت السرية ، وتحركت الخيل بخطى رتيبة . واهتزت الرماح وانسابت في ايقاع منتظم . فألقى غريغوري الاعنة ، وغفا . وبدا له أن الذي كان يتقدم على سيقانه الى الأمام بليونة ، فيؤرجحه على السرج ، لم يكن الحصان ، بل هو نفسه سائراً على طريق مظلم دافئ ، يمشي في يسر غريب ، وفي فرح لايقاوم ، ومضى بروخور يثرثر الى جانبه . لكن صوته اختلط بصرير السرج وقرقعة الحوافر ، فلم يكدر اغفاءته الهنية .

انعطفت السرية في طريق جانبي . وكان الصمت يرن في آذانهم ، والشوفان الناضج يتدلى على جانب الطريق ، ومن ذؤاباته يتبخر الندى . وحاولت الخيل أن تبلغ السنابل الخفيضة ، فكانت تجذب الاعنّة من أيدي راكبيها . زحف ضوء النهار اللطيف تحت جفني غريغوري المنتفخين من جراء الأرق . فرفع رأسه وسمع صوت بروخور الرتيب ، كأنه صرير عجلة في عربة .

أيقظه رعد قاصف شديد ، تماوج بغتة عبر حقول الشوفان .

ـ رمي مدافع!

كاد بروخورأن يصيح ، وغام الرعب بعينيه اللتين تشبهان عيني العجل ، فرفع غريغوري رأسه . كان أمامه المعطف الرمادي لعريف الرعيل ، يرتفع ويهبط في الوقت نفسه مع ظهر الحصان . وعلى كلا الجانبين امتدت حقول القمح غير المحصودة ، وتراقصت قبرة في السماء على علو عمود تلغراف . وهبت جميع السرية ، اذ سرى صوت الرمي خلالها سريان التيار الكهربائي . ودفع الرئيس بولوكوفنيكوف السرية الى عدو سريع ، وقد اثاره الرمي . وبعد مفترق طريق حيث قامت حانة مهجورة ، بدأوا يصادفون عربات اللاجئين ومرت بالقوزاق سرية من الفرسان المتألقين . وحدق قائدهم ، الذي كان يمتطي حصاناً أصيلاً أشقر ، في القوزاق باحتقار وهمز حصانه . ثم التقوا ببطارية من مدافع القوس جنحت في منخفض نقع موحل . كان الراكبون يلهبون خيولهم بالسياط ، بينما يعالج المدفعيون عجلات العربة . ومر مدفعي ضخم مجدور حاملاً ضمة الواح خشبية يبدو أنه انتزعها من سياج الحانة .

وبعد ذلك بقليل لحقوا بكتيبة من المشاة . كان الجنود يمشون مسرعين وقد لفت معاطفهم فوق ظهورهم . والتمعت الشمس على صحائف طعامهم المصقولة وانسابت من حرابهم . وقذف نائب عريف قميء نشط من السرية الاخيرة بكتلة من الطين الى غريغوري وقال :

ـ هاك ، تلقف! اقذف النمسويين بها!

فرد غريغوري :

ـ لا تتعابث ، أيها الجندب! ـ وفتت كتلة الطين أثناء طيرانها بسوطه .

ـ قولوا لهم « مرحباً » على لساننا ، أيها القوزاق!

ـ ستسنح لكم الفرصة لذلك بأنفسكم .

انطلق أحدهم في بداية الرتل يردد أغنية بذيئة ، وجعل جندي ذو ردفين انثويين سمينين يمشي الى جانب الرتل وظهره الى الأمام وهو يصفع

ربلتي ساقيه القصيرتين ، فضحك الضباط ، اذ كان الاحساس القوي بالخطر قد قربهم اكثر الى الجنود وصاروا أكثر تسامحاً .

ومنذ ذلك الحين اخذ الرتل يمر باستمرار بكتائب من المشاة تتزاحف مثل دود القز ، وبطاريات مدفعية ، وعربات شحن ، وعربات الصليب الأحمر ، وشاعت في الهواء الرائحة المميتة للمعركة الوشيكة الوقوع .

بعد ذلك بقليل ، وبينما كانت السرية الرابعة تدخل إحدى القرى ، لحق بها آمر الكتيبة ، العقيد كاليدين ممشوق القد ، يصحبه معاونه . وحينما مرّا بغريغوري وسمع الأخير يقول لكاليدين باضطراب : «هذه القرية ليست مؤشرة على الخريطة ، يا فاسيلي ماكسيموفتش وقد نجد أنفسنا في موقف حرج » .

لم يتبين غريغوري رد العقيد . وانطلق المساعد يهذب حتى لحق بهما . كان حصانه يعرج على ساقه الخلفية اليسرى ، ولاحظ غريغوري بصورة آلية خصائصة البديعة . وظهرت على البعد أكواخ قرية صغيرة راقدة تحت منحدر يسير . كانت الكتيبة تعدو عدواً سريعاً . وجعلت الخيل تعرق ومسح غريغوري براحة يده على رقبة حصانه التي صارت قاتمة ، والقى النظرات فيما حوله . والى الجانب الآخر من القرية كانت ثمة غابة ، وذؤابات أشجارها الخضر تخترق قبة السماء الزرقاء . ومن وراء الغابة اختلطت انفجارات قنابل المدفعية بقرقعة طلقات البنادق المتوالية . فنصبت الخيل آذانها . وعلى مسافة بعيدة حوم في السماء دخان المنثار المتفجر ، وسرت طلقات البنادق ببطء الى يمين الغابة ، تتلاشى حيناً ، وتتعالى حيناً .

أصاخ غريغوري السمع لكل صوت ، وقد استحالت أعصابه حزماً صغيرة من الاحاسيس المتوترة . وتململ بروخور زيكوف على سرجه ، وهو يتكلم بلا انقطاع .

ـ غريغوري ، تبدو هذه الطلقات تماماً مثل أطفال يقرقعون العصي على السياج ، أليس كذلك ؟

ـ صه ، ياعقعق!

دخلت السرية القرية . كان الجنود يتدافعون هنا وهناك في الأفنية . وكان سكان الأكواخ يحزمون أمتعتهم ليلوذوا بالفرار ، وقد انطبع الجزع والحيرة على وجوههم . واذ مر غريغوري لاحظ جنوداً يضرمون النار تحت سقف احدى الحظائر ، غير أن صاحبها ، وهو بيلوروسي طويل أشيب الشعر ، قد سحقته الكارثة المفاجئة ، مرّ بهم دون أن يبدي ادنى اهتمام . وشاهد غريغوري عائلة الرجل نفسه تحمّل عربة بوسائد حمر الأغطية ، وأثاث متداعٍ . وكان الرجل نفسه يحمل باعتناء اطار عجلة مكسوراً عديم النفع ، وربما مضت عليه سنوات وهو ملقى في الفناء .

وذهل غريغوري لغباء النساء اللواتي كن يكدسن على العربات مزهريات وايقونات ، ويتركن الحاجات الغالية والضرورية وراءهن في المنزل . وفي بطن الشارع ، تطاير الريش من حشية ريشية ، مثل عاصفة ثلجية ، وكانت ثمة رائحة حريفة في الهواء لهباب محترق وسراديب زنخة . وفي طرف القرية التقوا بيهودي يهرول ناحيتهم ، وقد تمزقت فتحة فمه الضيقة عن صرخة :

ـ أيها السيد القوزاقي ، أيها السيد القوزاقي! آه ، ياالهي!

وكان ثمة قوزاقي قصير القامة مدور الرأس يخب على حصانه أمامه ، ملوحاً بسوطه دون أن يبالي به اطلاقاً .

ـ قف! ـ صاح نقيب من السرية الثالثة على القوزاقي .

فانحنى القوزاقي على رمانة سرجه وانطلق في شارع جانبي .

ـ قف ، أيها الوغد . من ايه كتيبة أنت ؟

فالتصق رأس القوزاقي الحليق برقبة الحصان ، وانطلق بسرعة جنونية نحو سياج عال فأقعى حصانه ، ثم قفز برشاقة .

فقال العريف :

ـ ان الكتيبة التاسعة معسكرة هنا ، يا صاحب السعادة . تلك هي كتيبته .

ـ ليذهب الى الشيطان ـ وعبس النقيب ، واستدار الى اليهودي الذي كان يمسك بركابه ـ ماذ أخذ منك ؟

ـ أيها السيد الضابط... ساعتي ، أيها السيد الضابط . ـ وطرف اليهودي ، مديراً وجهه الوسيم ناحية الضباط المقبلين .

حرر النقيب الرِكاب بقدمه وشرع يتقدّم . وقال مبتسماً من وراء شاربه وهو يبتعد :

ـ على ايه حال كان الالمان سيأخذونها حينمايأتون .

وقف اليهودي حائراً وسط الطريق . واعتصر التشنج وجهه . وصاح آمر السرية بقسوة وهويرفع سوطه :

ـ تنح عن الطريق ، يا حسقيل أفندي .

مضت السرية الرابعة ، وسنابك الخيل تقرقع والأسرجة تصر . وسخر القوزاق من اليهودي التائه ، وتحدثوا فيما بينهم :

ـ لا معدى لمن كان على شاكلتنا من السرقة .

ـ كل شيء يلتصق بيد القوزاقي .

ـ دعهم يكونون أكثر حرصاً على حاجياتهم!

ـ ولد ماهر ، هو ذاك!

ـ قفز عبر السياج ، كأنه كلب صيد .

تخلف رئيس العرفاء كاركين وراء السرية ، وبمصاحبة ضحكات القوزاق خفض رمحه وصاح :

ـ أجر قبل أن أغرزه فيك...

ففغر اليهودي فاه في ذعر وجرى . فلحق به رئيس العرفاء وضربه بسوطه . ورأى غريغوري اليهودي يكبو ، ثم يستدير الى رئيس العرفاء وقد غطى وجهه براحتيه . كان الدم يتلألأ خلال أصابعه الهزيلة .

وقال ناشجاً :

ـ لماذا ؟

فصاح رئيس العرفاء وعيناه النفاذتان الشبيهتان بالازرار تتبسمان بلزوجة فيما مضى مبتعداً :

ـ لا تمش حافياً ، أيها الأحمق!

ووراء القرية ، كانت جماعة من جنود الهندسة تنجز بناء قنطرة عريضة عبر منخفض تغطيه الحلفاء وزنابق الماء الصفر . وعلى بعد قريب كانت سيارة تطن وتقرقع وسائقها يضج حولها . وفي مقعدها الخلفي جنرال قوي البنية ، أشيب الشعر ذو لحية اسبانية وخدين منتفخين ، بين جالس ومضطجع . فوقف العقيد كاليدين وآمر فوج الهندسة وقفة استعداد الى جانب السيارة . وزعق على المهندس ، وهو يقبض على سير محفظة خرائطه :

ـ لقد أمرت باتمام هذا العمل أمس . اسكت! كان عليك أن تجهز المواد سلفاً . اسكت! ـ وهدر من جديد ، مع أن الضابط لم يحاول أن يفتح شفتيه المرتجفتين ـ كيف تتوقع أن أعبر الى الجانب الآخر ؟ اجبني ، أيها الرقيب . كيف لي أن أعبر ؟

وكان يجلس الى يساره جنرال شاب أسود الشارب ، ويشعل عود ثقاب ليدخن سيكارا . وانحنى الرقيب المهندس الى الأمام وأشار الى الجانب من الجسر . وعند الجسر مضت السرية نازلة في المنخفض . وغاصت الخيل حتى ركبها في الوحل الأسود الحائل ، وتناثرت فوقهم من الجسر نشارة خشب رقيقة بيضاء .

عبرت السرية الحدود النمساوية عند الظهر . وقفزت الخيل عبر العمود الاسود ـ الابيض المكسور لنقطة الحدود . ومن اليمين انبعث قصف المدافع ، ومن بعيد لاحت السقوف القرميدية لمزرعة ماتحت أشعة الشمس العمودية . وجثمت بتثاقل فوق كل شيء غمامة من الغبار مرّة المذاق . وأصدر آمر الكتيبة أوامره بافراز دوريات الاستطلاع وارسالها الى الأمام . فأرسل الرعيل الثالث من السرية الرابعة تحت قيادة الملازم الاول سيمينوف ، وتخلفت الكتيبة في ضباب رمادي ، وقد قسمت الى سرايا .

وركبت مفرزة تتكون من عشرين قوزاقياً خيلها على الطريق المحفر ، مارة بالمزرعة .

قاد الملازم دورية الاستطلاع حوالي ثلاثة فرستات ثم توقف ليدرس خريطته فتجمع القوزاق في حلقة يدخنون . وترجل غريغوري عن حصانه ليرخي السرج ، لكن رئيس العرفاء صاح به :

ـ ماذا تظنك فاعلاً ؟ عد الى حصانك .

أشعل الملازم سيكارة ، ومسح منظاره باعتناء . كان هناك واد يمتد أمامهم في قيظ الظهيرة . والى يمينهم برزت خطوط متعرجة لغابة ما يخترقها خط الطريق ، وعلى مبعدة حوالي فرست ونصف ، كانت ثمة قرية صغيرة ، وبدت بالقرب منها ضفة نهير طينية متآكلة وصفحة ملساء . فحدّق الضابط بإمعان خلال منظارته ، متفحصاً السكون الميت في شوارع القرية ولكنها كانت مهجورة كمقبرة . كان شريط الماء الأزرق وحده يومئ متحديا .

أشار الضابط الى القرية بعينيه ، وقال :

ـ لا بد أن هذه كوروليوفكا .

اقترب رئيس العرفاء بحصانه ، ولم يجب ، لكن التعبير في وجهه أفصح عن قوله : أنت تعلم خيراً مني . أنا لا أعنى الا بالقضايا الصغرى .

ثم قال الضابط متردداً ، وهو يزيح منظاره عن عينيه ويتجهم كما لو كان يعاني المأ من أسنانه :

ـ سنذهب الى هناك .

ـ قد نلتقي بهم ، ياصاحب السعادة ؟

ـ سنكون حذرين . هيا بنا .

ظل بروخور زيكوف قريباً الى غريغوري . مضوا حذر الشارع المهجور في حذر . كانت كل نافذه توحي بكمين ، وكل باب حظيرة مفتوح يستثير احساساً بالوحشة ويبعث في الظهور رعشة مزعجة . وانجذبت كل العيون الى الاسيجة والحفر ، وكأن فيها مغناطيساً . ومضوا مثل وحوش كاسرة ،

مثل ذئاب تقترب من مساكن الناس في ليلة شتائية ـ لكن الشوارع كانت خالية . كان الصمت مذهلاً . ومن نافذة مفتوحة لأحد البيوت انبعث الصوت البريء لساعة تدق . كان وقع الضربات مثل طلقات مسدس ، ورأى غريغوري الضابط الراكب أمامه يرتعش وتنطلق يده الى مسدسه .

لم يكن في القرية كائن ما . وخاضت الدورية النهر حتى بلغ الماء بطون الخيل فغاصت فيه رضية وحاولت أن تشرب منه ، لكن فرسانها جروا الأعنة واستحثوها على المضي ، . وحدق غريغوري وهو ظمآن في الماء الكدر ، القريب والعزيز المنال . لقد جذبه اليه بصورة تكاد لا تقاوم . ولو كان ممكناً اذن لوثب من سرجه واستلقى بملابسه تحت همهمة التيار حتى يقشعر من البرد صدره وظهره العرقان .

ومن المرتفع الواقع وراء القرية شاهدوا بلدة بعيدة : مجموعة مربعة الشكل من المنازل ، أبنية من الطابوق ، حدائق ، وابراج كنائس ، مضى الضابط الى قمة التل ووضع منظاره على عينيه . ثم صاح واصابع يده اليسرى تتحرك بعصبية :

ـ هاهم .

فركب رئيس العرفاء الى القمة التي ألهبتها الشمس يتبعه القوزاق الآخرون فرادى ، وجعلوا يحدقون النظر ، فشاهدوا الرجال ـ الذين يبدون نقاطاً سوداء ـ يهرولون في الشوارع ، والعربات تسد الشوارع الجانبية . والخيالة يجرون رائحين غادين . واستطاع غريغوري وقد ضيق عينيه وجعل يحدّق من تحت راحته ، ان يميز لون البزات الرمادي غير المألوف . وكانت تمتد أمام البلدة خطوط سمر للخنادق التي حفرت تواً ، والرجال محتشدون حولها .

قال بروخور شاهقاً :

ـ ما أكثرهم .

وكان الآخرون صامتين ، وقد تملكهم جميعاً الاحساس ذاته . وتسمع

غريغوري الى ضربات قلبه المتوترة (كأن كائناً حياً صغيراً ثقيلاً يقفز في مكانه الايسر من صدره) وأدرك أن الشعور الذي استشعره عند مرأى هؤلاء الأجانب كان شيئاً مغايراً تماماً لما كان قد شعر به لدى مواجهة «العدو» أثناء المناورات .

قاد رئيس العرفاء القوزاق بسرعة عائداً بهم الى أسفل المرتفع وأمرهم بالترجل وارتفع الى القمة عائداً الى الملازم . ودون الملازم بعض الملاحظات بقلمه في دفتر ملاحظات الميدان ، ثم أشار الى غريغوري بإصبعه :

ـ ميليخوف .

ـ سيدي .

مضى غريغوري الى الضابط ، وقد تحجرت ساقاه بعد طول الركوب ، فناوله الضابط ورقة مطوية وقال :

ـ لديك أفضل حصان . سلم هذه الى آمر الكتيبة . اسرع .

فوضع غريغوري الورقة في جيب صدره وعاد الى حصانه وهو يدس سير قبعته تحت ذقنه فيما كان يمضي ، ولبث الضابط يراقبه حتى امتطى حصانه ثم نظر الى ساعة معصمه .

كانت الكتيبة قد بلغت قرية كوروليوفكا حينما وصل اليها غريغوري بالتقرير ، وبعد أن قرأه العقيد أصدر امره الى مساعده الذي انطلق الى السرية الاولى .

تدفقت السرية الرابعة خلال كوروليوفكا ، وانتشرت بسرعة وانتظام فوق الحقول الواقعة وراء القرية وكأنها في ساحة تدريب . ووصل الملازم سيميونوف مع رجاله .

واصطفت السرية مراتب وارجحت الخيل رؤوسها لتنفض عنها ذباب الخيل ، وكانت ثمة جلجلة متواصلة تنبعث من الألجمة .

وبدت قرقعة السرية الأولى المارة خلال القرية عنيفة في سكون الظهيرة .

ومضى النقيب بلكوفنيكوف على حصانه المتوثب الى مقدمة المراتب والقى يدا على عقدة السيف ، بينما جمع الاعنة باحكام في اليد الأخرى ، امسك غريغوري أنفاسه ولبث يترقب الايعاز . وانبعثت قرقعة سنابك من الجناح الايسر فيما كانت السرية الاولى تتخذ موقعها .

استل الضابط سيفه من غمده ، فتوهجت شفرته كضوء أزرق .

ـ سرية!

وأمال سيفه ذات اليمين ، ثم ذات الشمال ، وأخيراً خفضه أمامه ، ولبث يمسك به فوق اذني الحصان .«الى الأمام في سيل منتظم» ـ هكذا فهم غريغوري هذه الاشارة الصامتة .

ـ بالرماح ، تهيؤوا! استلوا السيوف! الى الهجوم... سر!

قال الضابط ذلك خطفاً واطلق العنان لحصانه .

وتأوهت الارض كليلة تحت الضغط الشديد لمئات الحوافر . وما كاد غريغوري ، وهو في الصف الأمامي ، يهيء رمحه استعداداً حتى انطلق حصانه ، وقد جرفة فيضان متلاطم من الخيل الآخرى ، ومضى يعدو بسرعة متناهية . وكان هيكل الضابط الآمر أمامه يتوثب صاعداً هابطاً ، وصورته بارزة ازاء خلفية الحقل الرمادية . وكان ثمة شق من الأرض المحروثة السوداء يندفع باتجاهه بشكل لا يقاوم . اطلقت السرية الاولى صيحة راعشة مائجة ، فالتقطها السرية الرابعة . بدا وكأن الخيل تطير فوق الأرض ترفع ارجلها عالياً ثم تنزلها وتستعجل الارض تحتها . واستطاع غريغوري أن يتبين صوت اطلاق النار البعيد خلال الصفير الهادر في أذنيه . وأزت الرصاصة الاولى على علو شاهق فوقهم ، لتشق قبة السماء الزجاجية . فضغط غريغوري محور رمحه الحار الى جنبه حتى آلمه وعرقت راحته . وجعله صفير الرصاص المتطاير يخفض رأسه على رقبة حصانة المبللة ، فنفذت الى منخريه رائحة عرق الحيوان الحريفة ، ورأى ، وكأنه ينظر من خلال زجاجة منظارة مضببة ، حوافي الخنادق البنية اللون ، ورجالات ببزات رمادية يهرعون هاربين الى

البلدة . وانطلقت رشاشة ترشق القوزاق بلا كلل بصلية نصف دائرية من الرصاص الصافر ، فصار الرصاص يثير كرات الغبار المتنفشة من أمامهم وتحت حوافر الخيل .

أن العضو الذي كان يزيد من سرعة جريان الدم في صدرغريغوري قبل الهجوم ، قد تحول الآن الى حجر ، ولم يكن ليستشعر سوى الرنين في أذنيه والالم في أصابع قدمه اليسرى . وتجمدت الأفكار التي أطاشها الذعر ، فأضحت كتلة ثقيلة داخل رأسه .

وكان الضابط الخيال لياخوفسكي أول من سقط من حصانه . فداسه بروخور .

نظر غريغوري وراءه ، فانطبع في ذاكرته كسرة مما رأى : كشر حصان بروخور عن اسنانه بعد أن قفز فوق الضابط الصريع ، وهوى على الأرض طاوياً رقبته . وانقذف بروخور من سرجه بدفعة قوية ومثلما تحفر ماسة على زجاج حفرت في ذاكرة غريغوري ولمدة طويلة لثة حصان بروخور الوردية المكشورة الاسنان وبروخور الراقد على بطنه وقد داسته حوافر حصان القوزاقي الذي يليه . لم يسمع غريغوري اية صرخة ، ولكنه أدرك من وجه بروخور بفمه المشوه وعينيه الشبيهتين بعيني العجل الجاحظتين من محجريهما أنه يصرخ حتماً بصورة وحشية . وهوى آخرون ، خيلاً وقوزاقاً . وحدق غريغوري أمامه ، خلال غشاوة الدموع ، التي استدرتها الريح من عينيه ، في الكتلة الرمادية الهائجة من النمساويين الهاربين من الخنادق .

اضحت السرية الآن متفرقة ومبعثرة اشتاتاً بعد أن كانت قد انطلقت من القرية في سيل منتظم . وبلغ الذين كانوا في الطليعة الخنادق ، وكان غريغوري بينهم ، أما الآخرون فقد كانوا يتلكؤون في المؤخرة .

واطلق نمساوي طويل أبيض الحاجبين ذو قبعة مسدولة فوق عينيه ، النار على غريغوري بصورة تكاد تكون أفقية . ولفحت حرارة الرصاصة خد غريغوري . فضرب برمحه ، وهو يجر الاعنّه بكل قوته في نفس الوقت .

كانت الضربة شديدة حتى أن نصف الرمح اخترق جسم النمساوي . ولم ينتزع غريغوري الرمح بالسرعة الكافية . فأحس بيده اختلاجة مرتعشة ، ورأى النمساوي يقبض على الرمح وينشب اظفاره فيه ، وقد تقوس الى الوراء تماماً حتى لم يعد يرى منه سوى ذؤابة ذقنه غير المحلوق . فأسقط غريغوري الرمح تحت ضغط جسم النمساوي وتلمس بأصابع خدرة مقبض سيفه .

فرّ النمساويون الى شوارع البلدة . ومضت خيل القوزاق تشب فوق بزاتهم الرمادية .

وفي اللحظة الأولى بعد أن أسقط غريغوري رمحه ، ادار حصانه ، دون أن يعرف لذلك سبباً ، فرأى رئيس العرفاء ماراً به وقد انفرجت شفتاه عن أسنانه المكشرة . ضرب غريغوري حصانه ببطن سيفه ، فمضى به في الشارع وقد قوس رقبته .

كان ثمة نمساوي آخر يجري حذاء السور الحديدي لإحدى الحدائق ، وهو يترنح بلا بندقية ويده متشبثة بقبعته . رأى غريغوري قفاء رأسه وياقة قمصلته المبللة . فلحق به ، ودوّم سيفه فوق رأسه وقد أهاجه جنون الموقف . كان النمساوي يجري لصق السور الحديدي على الجانب الأيسر ، فكان من العسير على غريغوري أن يصرعه بسيفه . لكنه مال فوق سرجه وأمسك سيفه بوضع مائل ، وهوى به على صدغ الرجل . وبدون أن تند عن النمساوي صرخة ، ضغط بيده على الجرح واستدار وظهره الى السور . فأجتازه غريغوري وهو يكبح حصانه ، ثم استدار ، ورجع يخب على حصانه . كان وجه النمساوي المربع المشوه بالذعر أسود كالحديد الصلب . وكانت ذراعاه مدلاتين على جانبيه ، وشفتاه الرماديتان ترتعشان . كان السيف قد هوى على صدغه بضربة مائلة وسلخ بشرته فتدلت فوق وجنتيه كخرقة قرمزية . وكان الدم يسيل على بزته .

التقت عينا غريغوري بعيني النمساوي المصعوقتين رعباً ، كان الرجل

يتهاوى ببطء على ركبتيه ، ينبعث من بلعومه انين مقرقر . فضيق غريغوري عينيه ، وهوى بسيفه . فشطرت الضربة قحف رأسه الى نصفين . فبسط الرجل ذراعيه وهوى ، وارتطمت جمجمته المهشمة بعنف على حجر الطريق . فشب حصان غريغوري وحمله الى وسط الشارع وهو ينخر .

انبعث من الشوارع صوت طلقات متفرقة . ومر بغريغوري حصان مزبد يحمل قوزاقياً ميتاً ، علقت احدى قدميه بالركاب ، والحصان يجرجر الجسد المهشم المرضوض فوق الحجارة . ولم ير غريغوري سوى الخط الاحمر على البنطلون والقمصلة الخضراء الممزقة وقد تكومت من الجر فوق رأسه .

أحس غريغوري برأسه ثقيلاً كالرصاص . فانزلق من على حصانه وهزّ رأسه بشدّة . ومرّ به قوزاق من السرية الثالثة يجرون خيولهم . وحمل رجل جريح على معطف . واقتيد جمع من الأسرى النمساويين خبباً . كان الرجال يهربون كقطيع رمادي متزاحم ، وجزمهم ذوات النعال الحديدية تقرقع باكتئاب على حجارة الشارع . فرأي غريغوري وجوههم مثل كتلة هلامية ، بلون الطين ، وتخلّى عن أعنّة حصانه ومضى لسبب ما الى الجندي النمساوي الذي صرعه . كان الرجل مستلقياً حيث هوى الى جانب نقش السور الزخرفي المصنوع من الحديد ، وقد انبسطت راحته السمراء القذرة كما لو كان يستجدي . القى غريغوري نظرة على وجهه ، فبدا صغيراً ، يكاد يكون طفولياً ، على الرغم من الشارب المتدلي وسيماء العذاب (أتراه من المعاناة البدنية أو من ماض مؤلم ؟) المرسوم على فمه الفظ المشوه .

ـ هي ، انت! ـ صاح بذلك ضابط قوزاقي غريب وهو يمضي على حصانه وسط الشارع .

رفع غريغوري بصره الى قبعته المغبرة ، ومضى متعثراً الى حصانه ، كانت خطاه ثقيلة مترنحة ، وكأنه ينوء بحمل على ظهره لا يحتمل . كان الاشمئزاز والذهول يسحقان روحه . أمسك بالركاب في يده ، لكنه لبث وقتاً طويلاً لا يستطيع أن يرفع اليه قدمه الثقيلة .

٦

قضت الوجبة الاولى من القوزاق الاحتياط من تتارسكي والقرى المجاورة الليلة الثانية غب رحيلهم في قرية صغيرة . وتجمع رجال الطرف الادنى لتتارسكي منفصلين عن رجال الطرف الاعلى ، ولهذا أوى بيوتر ميليخوف وانيكوشكا وكريستونيا وستيبان استاخوف وايفان توميلين وآخرون في بيت واحد . وكان القوزاق قد استلقوا للنوم ناشرين بطانياتهم في المطبخ والغرفة الامامية ، وكانوا يدخنون سيكارة الليل الأخيرة . وجلس رب الدار يجاذبهم اطراف الحديث ، وهو عجوز هرم طويل كان قد خدم في الحرب التركية .

ـ اذن ، فأنتم ماضون الى الحرب ، أيها الجنود ؟

ـ اجل أيها الجد ، ماضون الى الحرب .

ـ لن تكون مثلما كانت الحرب التركية ، لا ، لا أظن ذلك . فلديكم أسلحة مغايرة الآن!

فقبع توميلين مغضباً ، دون أن يعرف أحد ممن :

ـ ستكون مثلها تماماً . جهنمية كتلك تماماً . مثلما قتلوا الناس آنئذ ، سيكررون ذلك هذه المرة ، تماماً .

ـ هذا كلام أحمق ،ايها الشاب . ستكون حرباً من طراز مختلف .

فأيد ذلك كريستونيا ، متثائباً في كسل وهو يسحق سيكارة بظفره :

ـ ستكون مغايرة لاشك .

ـ سنقاتل بعض الشيء ـ وتثاءب بيوتر ميليخوف ، ورسم علامة الصليب على فمه ، وغطى رأسه بمعطفه الكبير .

فقال العجوز :

ـ اولادي ، اسألكم شيئاً واحداً . اسألكم جاداً ، ولكم أن تتذكروا ما أقول .

ازاح بيوترطرف معطفه وأرهف سمعه . استطرد العجوز يقول :

ـ تذكروا امرأ واحداً : اذا اردتم أن ترجعوا من الصراع المميت أحياء وتنجوا بجلودكم ، عليكم أن تراعوا قانون الانسانية .

فتساءل ستيبان مبتسماً في ريبة : «أى قانون ؟» . وكان قد استأنف الابتسام من جديد منذ أن سمع بالحرب فقد أيقظته الحرب ، وخفف من قلقه وألمه ماكان سائداً من قلق وألم .

ـ هوذا القانون : لاتأخذوا أمتعة غيركم . هذا اولاً . وبما انكم تخافون الله ، فلا تسيؤوا الى أيه امرأة . فهذا ثانياً وبعد ذلك ، عليكم أن تعرفوا ادعية معينة .

فتململ القوزاق ، وتكلموا جميعاً في وقت واحد :

ـ الارجح أننا سنفقد حاجياتنا قبل الحصول على حاجيات الآخرين!

ـ ولم علينا الا نمس ايه امرأة ؟ أنت لاتقدر ان ترغمها ، ولكن هب أنها كانت راغبة ؟

ـ من الصعب أن أحيا بلا امرأة .

ـ كن على ثقة من ذلك!

ـ ماذا عن الادعية ؟

فركز العجوز عليهم عينيه عابساً ، وأجاب :

ـ عليكم الا تمسوا امرأة . ابداً! إن لم تستطيعوا كبح جماح أنفسكم فسوف تفقدون رؤوسكم ، أو ستجرحون . ستندمون فيما بعد حيث لا ينفع ندم . سأتلو عليكم الأدعية . لقد خضت غمار الحرب التركية ، والموت يتعقبني كخرج السرج ، لكنني اجتزتها حياً بفضل هذه الأدعية .

ومضى الى الغرفة الاخرى ، وراح ينقب تحت الايقونة ثم عاد بقصاصة ورق بالية مخرقة وقال :

ـ انهضوا الآن واكتبوها! سترحلون من جديد قبل صياح الديك غداً ، أليس كذلك ؟

ونشر الورقة على المنضدة وسواها براحة يده وتركها . كان انيكوشكا

أول من نهض . وتلاعبت على وجهه الانثوي الناعم الظلال التي كان الضوء الخفّاق يلقيها عليه . وقعد الجميع الآ ستيبان ودوّنوا الادعية . ولف انيكوشكا الورقة التي استعملها وربطها الى خيط الصليب في صدره . فسخر منه ستيبان :

ـ تبني عشاً مريحاً للقمل ، لم يكن خيط الصليب ملائماً لتكاثره فتصنع له بيتاً ورقياً ممتازاً!

فقاطعه العجوز متجهماً :

ـ ايها الشاب ، اذا كنت لاتؤمن ، فأمسك لسانك! لا تكن حجر عثرة أمام الآخرين ولا تسخر من الايمان . إنها لخطيئة .

فابتسم ستيبان ، غير أنه لاذ بالصمت وسأل انيكوشكا العجوز اذ سعى الى تخفيف تجهمه :

ـ يتحدث الدعاء عن رماح الدببة واعواد السهام . فما معنى هذا ؟

ـ هذه الأدعية كتبت منذ زمن بعيد . فحصل عليها جدي الراحل من جده . في الأزمنة الغابرة قاتل الرجال بأعواد السهام ورماح الدببة .

كانت الأدعية التي دونها القوزاق ثلاثة ، وكان بمستطاع المرء ان يختار منها مايشاء .

دعاء ضد الأسلحة

فليباركنا الله . على الجبل صخرة بيضاء تشبه حصاناً . وكما لا ينفذ الماء في الصخرة ، فعسى ألا تنفذ الرصاصة أو السهم فيّ أنا عبد الرب ، أو في رفاقي ، أو في حصاني . وكما ترتد المطرقة عن السندان ، فلترتد الرصاصة عنّي . وكما يدور حجر الرحى ، فليدر السهم فلا يمسني . وكما تكون الشمس والقمر متألقين ، فلأكن أنا عبد الرب قوياً . خلف هذا الجبل توجد قلعة ، سأغلق هذه القلعة وأرمي المفتاح في البحر . سأضعه تحت الصخرة البيضاء المسماة« ألطور» لايمكن أن يراها سحرة أو ساحرات ، ولارهبان أو راهبات ، وكما أن مياه المحيط لاتنضب ،

وذرات الرمل الأصفر لايمكن أن تحصى ، فعسى الا أصاب ، أنا عبد الرب ، بأذى . باسم الأب ، والابن ، والروح القدس . آمين .

دعاء المعركة

يوجد محيط عظيم ، وفي هذا المحيط العظيم توجد صخرة بيضاء ، «ألطور» وعلى تلك الصخرة يوجد رجل صخري ذو قامة قوية . غطني ، أنا عبد الرب ، ورفاقي بالصخرة من الشرق الى الغرب ، ومن الأرض الى السماء . احمني من السيف والحسام الحادين ، من فيصل الفولاذ ومن رمح الدببة ، من الخنجر ، مسقياً وغير مسقي ، من السكين والفأس ، ومن قذائف المدفع ، من الطلقات المصنوعة من معدن الرصاص ، من الأسلحة الفتاكة ، من جميع السهام المذيلة بريش العقبان والبجع والاوز والرهو والغربان ، في جميع المعارك مع الأتراك ، وأهل القرم ، والنمساويين ، والتتار ، والليتوانيين ، والالمان ، والكالميكيين . ايها الآباء القديسون والجبروت السماوية ، احموني ، أنا عبد الرب . آمين .

الدعاء وقت الهجوم

أيها الحاكم الأعلى ، ويا أم الرب المقدسة ، وياسيدنا عيسى المسيح . بارك ياسيدي ، خادمك الداخل في المعركة ، ورفاقي الذين معي . لفهم بالسحاب ، واحمهم بصقيعك الحجري السماوي . ياديمتري سالونيكا القديس ، دافع عنّي ، أنا عبد الرب ، ورفاقي من كل الجهات الأربع . لاتدع الأشرار يطلقون الرصاص ، ولاأن يطعنوا بالرمح ولا أن يضربوا بالبلطة ، ولا أن يلطموا بأخمص البلط ، ولا أن يشجوا بالفأس ، ولا أن يقطعوا أو يطعنوا بالسيف ولا أن يخزوا أو يجرحوا بالسكين ، لا الكبير منهم ولا الصغير ، لا الاسمر ولا الأسود ، لا الزنديق منهم ولا الساحر ، ولا أي مشعوذ بالسحر . أمامي الآن كل شيء ، أنا عبد الرب ، اليتيم الفاني . في البحر ، في المحيط ، وعلى جزيرة«بويان» يقوم عمود حديدي ، يتكىء على عصاة حديدية ، وهو يأمر الحديد والفولاذ والرصاص والصفيح وكل

أنواع التـرباس : «رح ، ايهـا الحـديد الى أمك الارض بعيـداً عن عبـد الرب وعن رفـاقي وحصـاني . فـاذهبي يا أعـواد السـهـام الى الغـابـة ويا ايهـا الريش الى أمك الطير ، ويا غراء الى السمك» . احمني ، أناعبد الرب ، بدرع ذهبي ، من الحديد ومن الرصاص ، من قذيفة المدفع والعتاد ، من الرمح والسكين ، فعسى أن يكون جسدي أقوى من السلاح . آمين .

خبأ القوزاق الادعية تحت قمصانهم ، وعقدوها بالايقونات الصغيرة التي باركتهم امهاتهم بها ، وبالصرر الصغيرة التي تضم تراب أرضهم . لكن الموت اجتاح الجميع سواسية ، أولئك الذين لم يحملوا الأدعية والذين حملوها . وتعفنت جثثهم في حقول غاليسيا وبروسيا الشرقية ، في جبال الكربات ورومانيا ، وفي كل مكان خفق فيه اللهب الاحمر للحرب وانطبعت على ترابه آثار حوافر خيل القوزاق .

٧

جرت العـادة أن يجند قـوزاق القـصبـات العليـا من الـدون ، بمـا فيـهـا فييشنسكايا ، في كتيبتي القوزاق الحادية عشرة والثانية عشـرة وفي حرس الاتمان الخاص ، ولكن لسبب مانُسبَ قسم من وجبة١٩١٤ الى كتيبة قوزاق الدون الثـالثة التي كـانت تتـألف بصورة رئيسـيـة من قوزاق قـصبـة أوست ـ ميدفيدتسكايا . وبين هؤلاء كان ميتكا كورشونوف .

عسكرت كتيبة قوزاق الدون الثالثة في فيلنو مع بعض الوحدات من فرقة الخيـالة الثـالثة . وذات يوم من أيام حزيران خرجت مختلف السـرايا من المدينة لتتسلم مقراتها في الريف .

كان النهار مـعتمـاً الا أنه دافىء . وتجـمـعت السحب السـارية في السـمـاء

فأخفت الشمس وراءها . وكانت الكتيبة تسير وفق مسيرة الرتل ، وفرقة الكتيبة الموسيقية تجلجل في المقدمة ، بينما تجمع الضباط بقبعاتهم الصيفية الخفيفة وقمصلاتهم الخفيفة في المؤخرة ، وقد علتهم سحابة من دخان السكاير .

وعلى جانبي الطريق كان الفلاحون ونساؤهم اللابسات حللاً بهيجة يقطعون العشب ، ويتوقفون لدى مرور القوزاق ليتأملوا ارتالهم . وعرقت الخيل من الحر ، وظهر بين سيقانها زبد مصفر ، ولم يخفف من الحرارة ذلك النسيم الخفيف الهاب من الجنوب الشرقي ، بل زاد من شدة الحر اللاهب .

وكانوا قد قطعوا نصف المسافة تقريباً واشرفوا على قرية صغيرة حينما خب مهر صغير من وراء سياج ، واذ رأى الحشد الهائل من الخيل اطلق صهيلاً طويلاً وجاء يتوثب أمام السرية الخامسة . وكان ذيله الصغير ذو الشعر الكث مرفوعاً الى جانب واحد . وانتشر الغبار من حوافره البديعة على الحشيش المُداس . ومضى يتوثب حتى وصل الى الرعيل الاول ، ودس انفه بغباء في حقو جواد رئيس العرفاء ، فجمح الجواد ، لكنه أشفق على المهر كما يبدو ولم يرفسه .

صرخ رئيس العرفاء ملوحاً بسوطه : «تنح عن الطريق ، يامخبول!» وضحك القوزاق اذ سرهم المشهد المألوف الذي ذكرهم بالأهل والبيت . ثم حدث شيء غير متوقع . اذ جعل المهر يشق طريقه بين صفوف القوزاق ، فتبعثر الفصيل وفقد تنظيمه المنسق . وحرنت الخيل وامتنعت على راكبيها . انحشر المهر بينها وحاول أن يعض الحصان القريب منه .

وجاء آمر السرية يعدو على حصانه :

ـ ماالذي يجري هنا ؟

كانت الخيل تنخر وتلقي نظرات جانبيه على المهر الصغير الذي طاش صوابه ، بينما حاول القوزاق المتبسمون أن يبعدوه بسياطهم . وكان الرعيل قد شملته فوضى كاملة فيما كان الآخرون يضغطون عليه من الخلف ، وكان بالإمكان رؤية ضابط الرعيل الهائج منطلقاً من مؤخرة الرتل .

هدر آمر السرية وهو يدير حصانه صوب الحشد الحاشد :

ـ ما معنى كل هذا ؟

ـ انه مهر...

ـ حَلّ بيننا .

ـ من الصعب التخلص منه ، هذا الشيطان!

ـ الفحه بالسوط ، ولاتدلله!

وحاول القوزاق ، وهم يبتسمون بحيرة ، أن يشدوا اعنّتهم ويكبحوا جماح الخيل الهائجة .

ـ يا رئيس العرفاء! يا آمر السرية ، ماالذي يجري ، بحق الشيطان ؟ نظم رعائلك! لاينقصنا الا هذا!

وتنحى آمر السرية جانباً . وانزلق ساقا حصانه الخلفيتان في منخفض جانب الطريق . فجعل يهمز حتى تسلق الحصان حافة المنخفض الاخرى المغطاة بنبات رجل الاوز واقحوان أصفر . وعلى مبعدة من هناك كانت مجموعة الضباط قد توقفت . وكان رأس العقيد ملقى الى الوراء وهو يشرب من قارورة ، ويده تحط على حنو السرج بتحنان أبوي .

فرق رئيس العرفاء الرعيل وابعد المهر عن الطريق وهو يسب ويشتم هائجاً . ثم انتظم الرعيل من جديد وجعلت مائة وخمسون زوجاً من العيون تراقب رئيس العرفاء منتصباً على ركابيه فيما كان يطارد المهر . غير أن المهر ظل يحرن ويحاذي جواد رئيس العرفاء العملاق ، ويتوثب منفلتاً فلم يستطع رئيس العرفاء أن يصل بسوطه الى ظهره ، فكان سوطه لاينال غير ذيله الشبيه بالفرشاة ، والذي ما أن يهوي تحت لفح السوط حتى يرتفع في اللحظة التالية ويلوح في الريح بوقاحة .

كان جميع من في السرية يضحك ، بمن فيهم الضباط . حتى أن وجه الرئيس العبوس انثنى بما يشبه ابتسامة معقوفة .

كان ميتا كورشونوف في الصف الثالث من الرعيل القيادي الى جانب

ميخائيل ايفانكوف وكوزما كروتشكوف ، وكلاهما ينحدران من القصبات العليا للدون . وكان ايفانكوف صامتاً طول الوقت ، وهو رجل عريض المنكبين والوجه ، أما كروتشكوف ، الذي كان قوزاقياً مكوّر الكتفين ، مجدور الوجه قليلاً ويكنّى بـ«الجمل» ، فقد كان لايفتأ يشاكس ميتكا . وكان كروتشكوف هذا قوزاقياً« قديماً »اي قوزاقي في عامه الأخير من الخدمة العسكرية ، واستناداً الى قواعد الكتيبة غير المكتوبة ، كان يسهم مع كل القوزاق« القدامى » الاخرين في تعقب الفتيان واصدار الأوامر اليهم والحكم عليهم «بالجلد » لأي ذنب تافه . وكانت العقوبة المقررة لقوزاقي من وجبة ١٩١٣ ثلاث عشرة « جلدة » وللقوزاقي المجند في١٩١٤ اربع عشرة« جلدة » وكان العرفاء والضباط يشجعون هذا الاسلوب على أساس انه يعزز في القوزاقي الاحترام ، لا للرتبة حسب ، ولكن للسن أيضاً .

كان كروتشكوف ، الذي أضحى نائب عريف في المدة الأخيرة ، جالساً على سرجه محدودب الظهر ، كالطائر . وقد ضيق عينيه باتجاه غمامة رمادية منتفخة ، وسأل ميتكا وهو يحاكي لهجة آمر السرية ، النقيب بوبوف :

ـ آه... اخبـر...ر...رني ، يا كورشـونوف ، مـاذا لو .و...سـمي آمـر سري...ي .يتنا ؟

فأضفى ميتكا على لهجته سمة الاحترام وهو الذي طالما عرف مذاق السوط لعناده وكراهيته للطاعة .

ـ النقيب بوبوف ، يانائب العريف!

ـ ماذا ؟

ـ النقيب بوبوف!

ـ ليس هذا ما أريد معرفته . قل لي ماذا نسميه نحن القوزاق فيما بيننا ؟

فغمز ايفانكوف محذراً ميتكا وابتسم ابتسامة عريضة . تلفت ميتكا ورأى النقيب راكباً خلفهم تماماً .

ـ هيا اجبني!
ـ انه يدعى النقيب بوبوف ، يانائب العريف!
ـ اربع عشرة جلدة لك ، اجبني ، أيها الكلب!
ـ لا أعلم ، يانائب العريف .
فقال كروتشكوف ، متحدياً بصوته الطبيعي :
ـ حينما نصل الى المعسكر ، سأسلخ عنك جلدك ، أجب عن سؤالي!
ـ لا اعلم .
ـ الا تعلم الكنية التي نطلقها عليه ، ياوجه الفأر ؟
وتسمع ميتكا الى الخطو المتأني لحصان الرئيس وراءهم ولزم الصمت . فتجهم كروتشكوف متهيجاً وصاح :
ـ حسناً ؟
وانفجرت قهقهة مكتومة من الصفوف الخلفية . فلم يدرك كروتشكوف سبب الضحك وظن أن القوزاق يتضاحكون منه ، فزمجر قائلاً :
ـ حذار يا كورشونوف! سأعطيك خمسين من خير الجلدات حينما نبلغ المعسكر!
فهز ميتكا كتفيه باستخذاء وقال :
ـ الاوز الاسود .
ـ تلك هي .
ـ كروتشكوف! ـ جاء صوت من الخلف .
فجفل نائب العريف كروتشكوف ، القوزاقي« القديم » ، فوق سرجه واتخذ جلسة الاستعداد .
ـ ما لعبتك ، ايها الوغد ؟ انت ماذا تلقن هذا القوزاقي الشاب ؟
طرف كروتشكوف ، وغمرت خديه حمرة أرجوانية . وانبعث الضحك من الصفوف الخلفية .
ـ من ذا الذي علمته في العام الماضي ؟ على من كسرت هذا الظفر ؟ ـ

ومد النقيب ظفر خنصره الطويل المدبب تحت انف كروتشكوف ـ لاتدعني اسمع هذا ثانية ، قط ! اتفهم ، يارجل ؟

ـ اجل ، ياصاحب السعادة .

وانثنى النقيب عن الصف كي تمر السرية . اسرعت السريتان الرابعة والخامسة سيرهما فأمر النقيب سريته أن تسرع أيضاً .

سوى كروتشكوف سير كتفه وهو يتصبب عرقاً من الضحك :

ـ كان وراءنا . سمع كل شيء . لابد أنه خمن عم كنتما تتحدثان .

ـ كان عليك أن تغمز لي ، يابليد .

ـ لست بحاجة .

ـ لست بحاجة . ها ؟ أربع عشرة على العري .

لدى وصول الكتيبة الى هدفها ، وزعت السرايا على ضياع المنطقة . وكان القوزاق يقطعون البرسيم وعشب المروج لأصحاب الارض أثناء النهار ، وفي الليل يرعون خيلهم المقيدة في الحقول المخصصة لهم ، ويلعبون الورق ويروون القصص الى جانب دخان نيران المعسكر . وقد تقرر أن تقيم السرية السادسة في ضيعة كبيرة تعود لمالك أرض بولندي . فكان الضباط يشغلون المنزل ويلعبون الورق ويسكرون ويوجهون اهتمامهم الى ابنة الوكيل ، بينما نصب القوزاق خيمهم على مبعدة ثلاث فرستات من المنزل . وكان الوكيل يخرج كل صباح راكباً عربة خفيضة من المعسكر . وكان السيد الممتلىء الوقور ينزل من العربة ويحيي القوزاق بتلويحه لا تتغير من قبعته البيضاء ذات الذؤابة اللامعة .

كان القوزاق ينادون عليه : «تعال واقطع العشب معنا ، ايها السيد! فسينفض عنك ذلك بعض شحمك . خذ المحش واقطع وإلا سيشل جسمك» . فيبتسم الوكيل بفتور ، ويمسح رأسه الاصلع بمنديله ، ويمضي مع رئيس العرفاء ليحدد لهم القسم التالي من العشب الذي ينبغي قطعه .

وفي منتصف النهار يصل مطبخ الميدان . فيغتسل القوزاق ويذهبون لاستلام طعامهم .

كانوا يأكلون في صمت ولكنهم يكثرون الاحاديث في فترة الاستراحة القصيرة بعد الغداء .

ـ شيء عفن ، عشب هذه المنطقة . لا يقارن بالسهب .

ـ مع ذلك ، لا توجد حلفاء كثيرة .

ـ لقد اتموا الحش الآن في ديارنا .

ـ عما قريب سنتم أيضاً . هلال جديد بالأمس ، ستمطر .

ـ هذا البولندي عجوز لئيم . كان بمقدوره أن ينفحنا قنينة على اتعابنا .

ـ هو... هو! إنه قمين لنهب مذابح الكنيسة ان اراد قنينة لنفسه .

ـ يا أولاد ماالحكمة في أن المرء كلما زاد ماله ، زاد جشعه ، ها ؟

ـ سل القيصر عن ذلك .

ـ من رأى ابنة رب البيت ؟

ـ ماذا عنها ؟

ـ غانية يغطيها لحم كثير!

ـ آي...

ـ سألتهمها بكل حشاياها .

ـ لاأدري كم هو صحيح ، لكنهم يقولون بأنها تلقت عروضاً بالزواج من العائلة المالكة .

ـ لن ترضى قطعة لدنة مثلها برجل عادي ، أليس كذلك؟

ـ سمعت شائعة ، ياأولاد ، بأن استعراضاً فخماً ينتظرنا عمّاقريب .

ـ ماذا كنت اقول ، ان لم تجد قطة ما تفعله ، فإنها سوف...

ـ كفاية ، ياتاراس!

ـ أتراك تعطينا نفساً من سيكارتك ، ياولد ؟

ـ أنت مثل شحاذ في فناء الكنيسة .

ـ انظروا ، يااولاد ، إن مبسم فيدوت جيد لكن سيكارته لا تنفع .
ـ لقد دخنها واحالها رماداً .
ـ انظر ثانية ، يارجل ، انها لم تزل متوهجة كأمرأة .
وانبطحوا على بطونهم ، يدخنون . كانت ظهورهم العارية حمراء من لفح الشمس . في جوارهم كان خمسة قوزاق« قدامى » يستجوبون مجنداً مستجداً :
ـ من أين أنت ؟
ـ يلانسكايا .
ـ من مناجم الملح . ها ؟
ـ اجل .
ـ وكيف يجرون عربات الملح على دروبكم ؟
وعلى مبعدة قليلة ، كان كروتشكوف مستلقياً على مرشحة حصان ، وهو يفتل بفتور شاربه الخفيف حول اصبعه .
ـ بالخيل .
ـ وبأي شيء آخر ؟
ـ بالثيران .
ـ وعلى أي شيء يحملون السمك من القرم ؟ على صنف معين من الثيران ، على ظهورها سنامان وتأكل العوسج . ماذا تدعى ؟
ـ جمال .
ـ هاو ـ هاو ـ هاو!
ونهض كروتشكوف متكاسلاً وسار باتجاه المستجد المذنب ، وهو يحدب كتفيه الشبيهين بكتفي الجمل ، ويمد عنقه الأسمر الزعفراني بجوزته الكبيرة .
ـ احن ظهرك! ـ قال ذلك آمراً وهو ينزع نطاقه .
في غسق أمسية حارة من أماسي حزيران ، تحلق القوزاق حول نيران المعسكر وجعلوا يغنون :

سار قوزاقي الى أرض نائية
ممتطياً حصانه عبر السهل
وترك قريته الى الأبد

وينشج صوت صادح ، فضي الرنين ، وحزين ، بينما تعبر الأصوات الجهيرة عن حزن مخملي عميق :

لن يعود ثانية

وهنا يرتفع الصوت الصادح الى طبقة من الحزن أعلى :

عبثاً شخصت عروسه القوزاقية الشابة
صوب الشمال ، كل صباح ومساء
تنتظر ، يحدوها الأمل في أن حبيبها القوزاقي
سيرجع من الارض التي لن يرحل عنها .

وتبنت الأغنية أصوات عديدة ، وصارت قوية منعشة ، كالجعة البيتية .

لكن خلف التلال حيث يجثم الثلج عميقاً
وتنشرح حقول الجليد وتهب الزوابع
حيث تنحني متجهمة ، أشجار الصنوبر والشربين
ترقد عظام القوزاقي تحت الثلج

ومضت الاصوات تحكي قصة حياة القوزاقي البسيطة ، يدعمها الصوت الصادح بنبراته المرتعشة ، مثل قبرة حائمة فوق أرض نيسانية ، ذائبة الجليد :

وبينما رقد القوزاقي يلفظ أنفاسه الأخيرة

استصرخ وراح يتوسل
ان تكوم فوقه رابية على قبره

وتندمج الاصوات الجهيرة مع الصوت الصادح :

حيث تلوح الى الابد
شجرة بندق من أرض موطنه ، بأزهار زاهية

وحول نار معسكر أخرى ، كان الجمع أصغر والأغنية تنساب في نغم مغاير :

من بحر آزوف العاصف
تمخر السفن في الدون صعداً
لأن اتمانا شابا قد عاد
الى موطن أجداده

وحول نار ثالثة ، كان راوية السرية يغزل الحكايات وهو يسعل من الدخان . وكان القوزاق ينصتون باهتمام لا ينثني . الا في بعض الاحيان حين كان البطل يتخلص بمهارة من مكيدة تدبرها له الروح الشريرة ، فكانت يد أحدهم ، تتوهج بيضاء في ضوء النار ، وهي تنصفق على ساق جزمته ، أو يشهق صوت غليظ مبحوح باستحسان جذل . ثم تمضي نبرات الراوية المنسابة المتواصلة .

... بعد اسبوع من وصول الكتيبة الى مقرها الريفي ، ارسل آمر السرية في طلب الحدّاد ورئيس العرفاء .

ـ كيف حال الخيل ؟

ـ ليست سيئة جداً ، ياصاحب السعادة ، في حالة طيبة ،

فبرم النقيب شاربه الأسود الذي كان سبب كنيته وقال بصوته الصريري :

ـ آمر الكتيبة اصدر التعليمات لتبييض جميع الركائب والشكائم . سيجري استعراض امبراطوري للكتيبة . فليصقل كل شيء حتى يتوهج ، السروج وبقية العدة . على القوزاق أن يصبحوا مشهداً يسر العين . متى يمكنك أن تتم ذلك ؟

نظر رئيس العرفاء الى الحداد ، ونظر الحداد الى رئيس العرفاء . ثم نظرا معاً الى النقيب . واقترح رئيس العرفاء :

ـ مارأيكم بيوم الأحد ، ياصاحب السعادة ؟ ـ ولمس باصبعه باحترام ذؤابة شاربه المبيضة مما تناثر عليها من رماد .

فأضاف النقيب متوعداً : «احرص على أن يكون الاحد!» وصرفهما معاً .

بدأت الاستعدادات في نفس اليوم . وساهم ايفانكوف ابن حداد السرية ، وهو نفسه حداد ماهر ، في تبييض الركائب والشكائم . وقام القوزاق بحس خيلهم ، وتنظيف أعنتها ، وصقل النضاء والأجزاء المعدنية الأخرى من عدة الخيل بحجر الجلي . وما ان حلت نهاية الاسبوع حتى كانت الكتيبة تشع كقطعة نقود جديدة من فئة العشرين كوبيكا ، كان كل شيء يتألق من الصقل ، من حوافر الخيل الى وجوه القوزاق . وفي يوم السبت فتش الكتيبة آمرها وشكر الضباط والقوزاق على استعداداتهم الحماسية ومظهرهم الرائع .

مر الشريط اللازوردي لأيام تموز وتلاشى . كانت خيل القوزاق في أحسن حال ، سوى أن القوزاق أنفسهم كانوا برمين يقلقهم وسواس الحيرة . فلم تند همسة واحدة عن الاستعراض الامبراطوري . ومر الاسبوع في حديث لاينصرم واستعداد لاينتهي . ثم جاء أمر من الكتيبة ، كصاعقة من السماء ، يقضي بالعودة الى فيلنو .

بلغوا المدينة مساء . وسرعان ما صدر أمر ثان الى السرية . كان على الصناديق أن تجمع وتخزن في المستودع ، وأن تجري الاستعدادات لانتقال آخر محتمل .

ـ يا صاحب السعادة ، فيم كل هذا ؟

هكذا كان القوزاق يتلمسون الحقيقة من ضباطهم . وكان الضباط يهزون اكتافهم . لأنهم كانوا أنفسهم على استعداد لبذل الكثير في سبيل أن يعرفوا .

ـ لست أدري .

ـ هل ستجري مناورات في حضور جلالته ؟

ـ ليست لدى انسان فكرة عن الأمر ، بعد .

هكذا كانت أجوبة الضباط لما فيه سرور القوزاق . ولكن ، في التاسع عشر من تموز ، أفلح مراسل آمر الكتيبة أن يهمس في أذن صديق له وهو قوزاقي في السرية السادسة يعمل في الاصطبل :

ـ انها الحرب ، ياولدي!

ـ أنت تكذب!

ـ وحق الرب ، لكن اصمت ولا تفه بشيء!

وفي الصباح التالي صفت الكتيبة على هيئة سرايا خارج الثكنات ، في انتظار الآمر .

كان النقيب بوبوف يركب حصاناً بديعاً على رأس السرية السادسة ، ويده اليسرى تمسك بالعنان يغطيها قفاز ناصع البياض . وكان حصانه يمسح أنفه بعضلات صدره المفتولة ، وهو يقوس عنقه .

وجاء الآمر من وراء ركن بنايات الثكنة ممتطياً حصانه الى مقدمة الكتيبة ، وادار الحيوان جانباً . وسحب مساعد الآمر منديله ، وهو يمد خنصره بأناقة ، ليمسح أنفه ، ولكن الوقت لم يسمح له بإنجاز العملية . فقد قذف العقيد صوته في الصمت المتوتر :

ـ ايها القوزاق!

وحدث كل امرىء نفسه : «هاهي قادمة!» وأبقاهم التوتر مثل نابض فولاذي . وكان حصان ميتكا يراوح من حافر الى حافر ، فكان ميتكا يضرب

خاصرته بكعبه مغتاظاً . والى جانبه كان ايفانكوف ممتطياً حصانه بلا حراك ، وهو يستمع وفمه ذو الشفتين الشبيهتين بشفتي الأرنب فاغر الفم يكشف عن صف داكن من الأسنان غير المستوية . وكان كروتشكوف خلفه ، محدودب الظهر متجهماً . ثم لابين الذي كان يحرك أذنيه الغضروفتين كالحصان ، بينما كان بالمستطاع رؤية التخطيط المتعرج لجوزة عنق شيكولوف الحليقة النظيفة ، خلف لابين .

ـ المانيا أعلنت الحرب علينا...

وجرت همسة على امتداد الصفوف وكأن دفقة من الريح قد تموجت عبر حقل من الشوفان الناضج الكث السنابل . وشق الهمس صهيل حصان فاستدارت عيون جزعة وأفواه فاغرة باتجاه السرية الأولى حيث تجرأ الحيوان على الصهيل .

وقال العقيد مزيداً من الكلام . كان ينتقي الكلمات بتأن ، ساعياً لاستثارة الشعور بالعزة الوطنية . لكن الصورة التي تراءت للقوزاق الالف لم تكن لبيارق أجنبية حريرية تهوي تحت أقدامهم ، بل لحياتهم اليومية هم وقد حلت فيها البلبلة ، لزوجاتهم وأطفالهم وحبيباتهم ، وللحبوب التي لم تحصد ، وللقرى اليتيمة التي خيم عليها الغم .

«في غضون ساعتين سنركب القطار...» تلك الفكرة الوحيدة التي نفذت الى أذهانهم جميعاً .

وبكت زوجات الضباط في مناديلهن ، وكن متجمهرات على مسافة قريبة . وحمل الملازم خوبروف على ذراعيه تقريباً زوجته البولندية الشقراء الحامل وتفرق القوزاق متجهين الى مباني الثكنة .

سارت الكتيبة الى القطار ، تنشد . كانت أصوات القوزاق تطغى على الجوق الموسيقي ، فانكفأ هذا في صمت مرتبك . وكانت زوجات الضباط يركبن عربات مستأجرة ، وحشد ملون يتزاحم على الأرصفة ، وحوافر الخيل تثير سحابة من الغبار . وانطلق المنشد الرئيسي بأغنية قوزاقية مبتذلة وهو

يتضاحك من حزنه وحزن الآخرين ، نافضاً كتفه الأيسر بحيث تراقص سير كتفه الأزرق بصورة محمومة ، ومضى القوزاق بأغنيتهم الى شاحنات المحطة الحمر ، وهم يدغمون الكلمات ، الواحدة بالأخرى ، عن عمد ، فصارت شتائم مسموعة على وقع الحوافر المنعّلة حديثاً . وجرى الى المنشدين مساعد الآمر ، وقداكتسى وجهه لوناً ارجوانياً من الضحك والشعور بالحرج . وغمز المنشد الرئيسي متهكماً الى جميع النساء اللواتي كن يودعنهم ، ولم يكن الذي سال على خديه البرونزيتين الى طرفي شاربيه الاسودين عرقاً ، بل العصارة المُرّة لنبات الشيح .

وعلى الخط الحديدي ، اطلقت الماكنة خواراً محذراً مستعداً للسفر .

* * *

قطارات... قطارات... قطارات لاحصر لها .

على امتداد شرايين ، فوق خطوط السكك المتجهة صوب الحدود الغربية ، كانت روسيا الحائرة المائجة تضخ دمها المتسربل بمعاطف رمادية .

٨

في بلدة تورجوك الصغيرة وزعت الكتيبة الى سراياها الاعتيادية . وبناء على تعليمات هيئة أركان الفرقة وضعت السرية السادسة تحت أمرة فيلق المشاة الثالث ، وواصلت السفر الى بليكالييه حيث أقيمت نقاط الحراسة .

كانت الحدود ماتزال تحت حراسة قطعات التخوم ، وكانت وحدات جديدة من المشاة والمدفعية تنقل الى هناك . وفي السابع والعشرين من تموز أرسل آمر السرية في طلب رئيس العرفاء وقوزاقي يدعى استاخوف ، من الرعيل الاول . وعاد استاخوف الى الرعيل عند المغرب ، في اللحظة التي

كان فيها ميتكا كورشونوف عائداً بحصانه بعد ورده . فنادى عليه .
ـ أهذا أنت ، ياستاخوف ؟
ـ نعم ، هو أنا . أين كروتشكوف والاولاد ؟
ـ هناك في الكوخ .
ودلف استاخوف الى الكوخ ، وهو قوزاقي ضخم أسمر ، محاوصاً عينيه كأنه لم يقو على الرؤية . والى المنضدة كان شيكولكوف يخيط عناناً مقطوعاً على ضوء فانوس . وكان كروتشكوف واقفاً حذاء الموقد ويداه إلى ظهره وهو يغمز لايفانكوف ويومىء الى صاحب الكوخ البولندي الذي استلقى على سريره متورم الجسم بالحبن* .
كانت ثمة نكتة قد تبودلت بينهما ، وما فتئت وجنة ايفانكوف تهتز ضحكاً .
ـ غدا ، يا أولاد ، سنخرج مع انبلاج الصبح الى نقطة أمامية للحراسة .
سأل شيكولكوف ناظراً اليه وافلت من يديه قطعة جلد :
ـ الى أين ؟
ـ الى بلدة ليوبوف .
فتساءل ميتكا الذي دخل في تلك اللحظة ووضع الجرّة عند الباب :
ـ من سيذهب ؟
ـ شيكولكوف ، كروتشكوف ، رفاتشيف ، بوبوف ، وايفانكوف .
ـ وماذا عني ؟
ـ أنت تبقى هنا ، ياميتكا .
ـ طيب ، اذن فليأخذكم الشيطان جميعاً!
انتزع كروتشكوف نفسه من الموقد وسأل صاحب الكوخ المضيف ، وهو يشد نفسه حتى قرقعت عظامه :

---

* الحبن : مرض يصيب الجسم فيجتمع فيه سائل مائي . المترجمون

ـ كم يبعد هذا المكان ؟

ـ أربعة فرستات .

فقال استاخوف وهويجلس على مصطبة : «قريب جداً» وخلع جزمته . «أين أستطيع أن أعلق جوربي ليجف ؟» .

انطلقوا في الفجر . وعند طرف القرية كانت فتاة عارية القدمين تستقي الماء من البئر . فشد كروتشكوف عنان حصانه وقال لها :

ـ اسقيني ياعزيزتي!

غطست الفتاة في الوحل بقدميها العاريتين وهي ترفع تنورتها المغزولة في البيت . ومدت الدلو وعيناها الرماديتان تتبسمان وراء أهدابها الكثيفة . فشرب كروتشكوف وهو يمسك بالدلو الثقيل من طرفه ، ويده ترتجف من ثقله ، وتقطّر الماء وطشّ على الخطوط الحمر في بنطاله .

ـ ليحفظك المسيح ، ياذات العينين الرماديتين!

ـ ليحمد الرب!

وأخذت الدلو وخطت مبتعدة وهي تتلفت وتتبسم .

ـ فيم تتبسمين ؟ تعالي لنزهة على الحصان! ـ وتحرّك على سرجه كأنه حاول أن يخلي المكان لها .

فصاح استاخوف وهو يبتعد على حصانه : «تحرك ، لا تقف!»

وتبسم رفاتشيف لكروتشكوف :

ـ لاتستطيع أن تنتزع نظرك منها ، ها ؟

فقال كروتشكوف متضاحكاً : «ساقاها ورديتان كساقي حمامة» . والتفت الجميع ، كما لوصدر اليهم أمر بذلك .

ومالت الفتاة على البئر ، مظهرة مفرق ردفيها تحت تنورتها الضيقة والربلتين الورديتين لساقيها المنفرجتين .

وتنهد بوبوف : «آه لو استطعنا أن نتزوج فقط» .

فاقترح استاخوف : «هب انني زوّجتك بسوطي» .

ـ لن يجدي ذلك نفعاً...
ـ أنت متلهف الى الزواج بهذه الدرجة ، الست كذلك ؟
ـ سيتعين علينا أن نمسك به ونربطه كما نربط الثور .
ومضى القوزاق خبباً يتضاحكون فيما بينهم . وبعد أن ساروا سيراً متواصلاً بعض الوقت ، ارتفعوا ورأوا قرية ليوبوف الكبيرة تجثم على امتداد وادي أحد الأنهار . كانت الشمس ترتفع وراءهم . وعلى مقربة منهم صدحت قبرة بشدوة حنون فوق عمود برق .
وكان استاخوف قد عين مسؤولاً عن الجماعة لأنه كان قد أتم لتوه دورة آمري الحضائر ، فاختار آخر بيت في القرية ليكون نقطة مراقبتهم باعتباره أقرب موضع الى الحدود . وأطلع صاحب البيت القوزاق على سقيفة يستطيعون إيواء خيلهم فيها ، وكان بولندياً حليقاً أحنف الساقين ، يرتدي قبعة لبادية بيضاء . وكان هناك حقل برسيم أخضر وراء السقيفة . وانحدرت السفوح الى غابة قريبة ، وكان ثمة امتداد أبيض للحنطة يقطعه طريق امتدت وراءه حقول برسيم . تناوبوا المراقبة بالمنظارة من الحفرة القائمة وراء السقيفة ، بينما اضطجع الآخرون في السقيفة الباردة التي فاحت برائحة الحنطة المخزونة زمناً طويلاً ، والتبن المترب ، والفئران ، والشذى العفن الحلو بعض الشيء للأرض الرطبة .
واستراح ايفانكوف في ركن مظلم الى جانب محراث ونام حتى المساء . وعند المغرب جاءه كروتشكوف وقال له بمرح وهو يقرص جلد رقبته بأصابعه :
ـ تنام جيداً على زقوم الجيش ، أيها الخنزير! قم واذهب لمراقبة الألمان!
ـ كفاك تعابثاً ، يا كوزما!
ـ هيا ، قم!
ـ هلا كففت ! ها أنا ذا قائم . فتحامل على قدميه ، ووجهه محمر ومنتفخ ، وحرك رأسه من جانب الى آخر على عنقه القوي الذي شدّ رأسه بثبات الى كتفيه

العريضين وتنشق (إذ أصابه برد من الاضطجاع على الأرض الرطبة) ، وسوى حزم خرطوشه وخرج من السقيفة ، جارا بندقيته من حمالتها . وأخذ مكان شيكولكوف الذي كان يقوم بالمراقبة طوال فترة الظهيرة ، وسوى المنظارة وحدّق طويلاً في اتجاه الشمال الغربي ، صوب الغابة .

كان في مقدوره أن يرى حقل الحنطة الثلجي يتموج في الريح ، وفيضاً أحمر من ضياء الشمس يغسل الرأس الأخضر لغابة الشربين . وكان الأطفال يغطسون ويتصايحون في الجدول الذي امتد في حنوة زرقاء بديعة وراء القرية . وانطلق صوت امرأة هادر ينادي :

«ستاسيا ، ستاسيا! تعالي هنا!» أشعل شكولكوف سيكارة ، وقال فيما رجع الى السقيفة : «انظر الى الوهج في ذياك الغروب! سيهب علينا شيء من الرياح» .

فوافق ايفانكوف : «أحسب كذلك» .

وفي تلك الليلة ، ظلت الخيول واقفة غير مسرجة . وفي القرية أطفأت كل الأنوار وتلاشت الأصوات . وفي الصباح التالي ، نادى كروتشكوف على ايفانكوف من السقيفة :

ـ لنذهب الى القرية ؟

ـ لماذا ؟

ـ نستطيع أن نحصل على شيء نأكل وعلى كأس نشرب هناك .

فنظر ايفانكوف اليه في شك :

ـ نستطع ذلك ؟

ـ طبعاً نستطيع . سألت مضيفنا أنه هنالك في ذلك البيت . أترى السقف القرميدي ؟ ـ وأشار كروتشكوف باصبعه ذات الاظفر الأسود ،ـ لدى الحسقيل هناك جعه . لنذهب .

وانطلقا . فنادى استاخوف وراءهما :

ـ أين تراكما ذاهبين ؟

فأشاح كروتشكوف عنه وهو الذي يعلوه رتبة :

ـ سنعود عمّا قريب .

ـ عودا ، أيها الولدان!

ـ كفاك نباحاً!

انحنى لهما يهودي عجوز ذو جفنين مجعدين وسالفين طويلين وأدخلهما .

ـ ألديك أية جعة ؟

ـ لم يبق شيء ، أيها السيد القوزاقي .

ـ سنعطيك ثمنها .

ـ ياعيسى بن مريم ، هل يعقل أني... صدّق فيّ أيها السيد القوزاقي كيهودي شريف ، ليست لدي أية جعة!

ـ أنت تكذب أيها الحسقيل!

ـ أيها السيد القوزاقي ، إني أقول لك...

فقاطعه كروتشكوف مغتاظاً وهو يخرج كيس نقوده مهلهلاً من جيب بنطاله :

ـ اسمع يا أنت . هات بعض الجعة والا غضبت .

فضغط اليهودي على قطعة النقود بين ابهامه وخنصره ، وخفض جفنه الملتوي ومضى الى الممر . وعاد بعد دقيقة يحمل قنينة من الفودكا ، رطبة تعلق عليها قشور الشعير .

ـ وكنت تقول لنا ليس لديك أي شيء! أيها العجوز...!

ـ قلت ليس لدي أية جعة .

ـ هات لنا شيء نأكله .

ولطم كروتشكوف أسفل القنينة ليخرج السداد الفليني وصبّ لنفسه قدحاً من الفودكا . خرجا نصف ثملين . ومضى كروتشكوف يتراقص وهو يهز قبضته على النوافذ الخالية كعيون سود غائصة .

كان استاخوف يتثاءب في السقيفة . وكانت الخيل تجتر تبناً وراء الجدار .

مـر اليوم بلا عـمـل . وبعـد الظهـر أرسل بوبوف الى السـرية يحـمل تقريراً .

حل المساء . ثم جنّ الليل ، وسطع الهلال الأصفر في أعالي السماء .

من حين الى آخر كانت تفاحة ناضجة تحدث صوتاً عند وقوعها على أرض الحديقة خلف البيت . بينما كان ايفانكوف في نوبة حراسته سمع صوت خيل في شارع القرية ، فزحف خارج الحفرة ليستطلع الأمر ، لكن القمر كان قد تلفع بغيمة ، فلم يستطع أن يرى شيئاً خلال العتمة المنيعة . فمضى وأيقظ كروتشكوف الذي كان نائماً عند الباب .

ـ كوزما ! خيالة قادمون !انهض!

ـ من أي اتجاه ؟

ـ إنهم يدخلون القرية .

وخرجا . كانت قعقعة الحوافر تنبعث بجلاء من الشارع على بضعة مئات من الأمتار .

ـ لنذهب الى الحديقة . نستطيع هناك أن نسمع بوضوح أكثر .

ركضا عبر الكوخ الى الحديقة الخلفية الصغيرة ، وجثما حذاء السور . أصوات مكتومة . كان صرير السروج وجلجلة الركائب ينبعثان مقتربين . صار الآن بمقدورهما أن يتبينا الهيكل المعتم للخيالة راكبين في تشكيلة رباعية متوازية .

ـ من يسير هناك ؟

ـ وأجاب صوت بالروسية من الصف الأمامي :

ـ وماذا تريد ؟

ـ من يسـيـر هناك ؟ سـأطلق النار! ـ وقـعـقع كـروتشكوف بتـرباس بندقيته . فشد أحد الراكبين عنان حصانه وأداره باتجاه السور ، وقال :

ـ نحن حرس الحدود ، هل أنتم نقطة أمامية ؟
ـ نعم .
ـ من أي كتيبة ؟
ـ كتيبة القوزاق الثالثة...
وانبعث صوت ينادي من الظلمة :
ـ من تكلم هناك ، ياتريشين ؟
فأجاب الرجل :
ـ توجد نقطة أمامية من القوزاق معسكرة هنا ، ياصاحب السعادة .
وتقدم فارس ثان من السور .
ـ مرحباً أيها القوزاق!
فرد ايفانكوف باحتراس :
ـ مرحبا .
ـ هل كنتم هنا منذ زمن طويل ؟
ـ منذ البارحة .
وقدح الراكب الثاني عود ثقاب واشعل سيكاره . وعلى الوهج الخاطف استطاع كروتشكوف أن يتبين ضابطاً من حرس الحدود .
قال الضابط ، ساحباً نفساً :
ـ إن كتيبتنا تنسحب الآن . عليكم أن تدركوا بوضوح انكم ابعد نقطة أمامية . وقد يتقدم العدو غداً نحوكم .
وتساءل كروتشكوف واصبعه على الزناد :
ـ الى أين ذاهبون ، ياصاحب السعادة ؟
ـ إننا في طريقنا للحاق بسريتنا التي تبعد فرستين من هنا . هيا ، يا أولاد ، لنتحرك . حظاً سعيداً لكم ، ياقوزاق!
ـ حظاً سعيداً لكم .
وفي تلك اللحظة ازاحت الريح بلا رحمة نقاب السحاب عن القمر ،

وانسكب ضوء مصفر ميت على القرية ، والحدائق ، وسقف الكوخ المنحدر ، ومفرزة حرس الحدود الصاعدة على التل .

في الصباح التالي ذهب رفاتشيف الى السرية حاملاً تقريراً . فاتح استاخوف المزارع البولندي ، فوافق الرجل على السماح لهم بقطع البرسيم لخيلهم لقاء بعض النقود . وأثناء الليل ظلت الخيل واقفة مسرجة . وكان القوزاق قد افزعهم أنهم تُركوا الآن لمواجهة العدو . لم يكونوا قد عرفوا الشعور بالعزلة والوحدة طالما كانوا يدركون بأن ثمة حرساً للحدود أمامهم ، أما وقد علموا الان بأن الحدود مفتوحة ، فقد ترك ذلك النبأ فيهم أثراً بيناً .

ولم يكن مرج البولندي بعيداً عن السقيفة . فأرسل استاخوف كلاً من ايفانكوف وشيكولكوف لقطع البرسيم . وقادهما البولندي ذو القبعة من اللباد الابيض الى حصته ومضى شيكولكوف يحش ، بينما كان ايفانكوف يجرف العشب الرطب الثقيل معاً ويربط حزماً . وبينما كانوا منهمكين على ذلك النحو ، لاحظ استاخوف خلال المنظارة التي كان يحدق فيها على امتداد الطريق المؤدي الى الحدود ، صبياً يعدو عبر الحقول من الجنوب الغربي ، كان الصبي يجري هابطاً مثل أرنب برّي بنّي اللون ، وكان مايزال على مسافة ما ، حينما صاح ولوح بكم سترته الطويل ، وجرى إلى استاخوف مبهور النفس ، زائغ العينين وقال لاهثاً :

ـ أيها القوزاقي! أيها القوزاقي! الألمان! الألمان قادمون!

وأشار باصبعه . فأمسك استاخوف بالمنظارة إزاء عينيه ورأى جمعاً من الفرسان من بعد . وصاح دون أن يرفع منظارته :

ـ كروتشكوف!

فبرز كروتشكوف من السقيفة وهو يتلفت .

ـ أجر في طلب الاولاد! هناك دورية ألمانية قادمة!

وتسمع الى كروتشكوف ينطلق مبتعداً ، وصار الآن بامكانه أن يرى

بوضوح جماعة الفرسان تنساب على امتداد الخط المتعرج المخضوضر للأرض العشبية .

وصار بمستطاعه حتى أن يتبين اللون الأحمر لخيلهم ولون بزاتهم المشرب بالأزرق الغامق . كانوا أكثر من عشرين فارساً ، في كتلة متراصة ، قادمين من الجنوب الغربي ، بينما كان قدومهم متوقعاً من الشمال الغربي . عبروا الطريق ثم ساروا على امتداد الأخدود الذي يعلو الوادي عند القرية .

ومضى ايفانكوف يحشو كيس علفة بحزمة من العشب ، وهو يجر أنفاسه بصعوبة وقد لاح طرف لسانه بين شفتيه المزمومتين ، بينما كان البولندي أحنف القدمين واقفاً يجر أنفاسه من غليونه ، ويداه مدسوستان في حزامه . ومضى يحدق من تحت حافة قبعته في شيكولكوف الذي كان لايزال يحش العشب .

حمحم شكولكوف وهو يعمل بشدة بالمنجل الصغير كاللعبة :

ـ أتسمي هذا منجلاً ؟ أتحش أنت به ؟

فأجاب البولندي دون أن يخرج غليونه من فمه : «احش به» واخرج اصبعاً من حزامه .

ـ بمنجلك هذا يمكن أن تحش المرأة الشعر الزائد في موضع معين!

فوافقه البولندي : «ها ـ ها!»

وقهقه ايفانكوف . وكان على وشك أن يقول شيئاً ما ، لكنه ما أن تلفت حتى رأى كروتشكوف يجري عبر الحقل الوعر ، ويده على سيفه . واذ تقدم منهم ، صاح : «اتركا هذا!» فتساءل شكولكوف وهو يغرز رأس المنجل في الأرض : «الآن ، ماذا بعد ؟» «الألمان!» فقذف ايفانكوف حزمة العشب . وهرع البولندي نحو البيت مقوساً ظهره كأن الرصاص قد بدأ يئز فوق رأسه .

وما أن بلغوا السقيفة ووثبوا الى خيولهم حتى رأوا سرية من الجنود الروس تدخل القرية من ناحية بليكاليه . فجرى القوزاق لملاقاتهم . وأبلغ

استاخوف آمر السرية أن مفرزة ألمانية كانت تتخذ لها طريقاً حول القرية من جهة التل . فتفحص النقيب جزمته العفراء متجهماً ، وتساءل :

ـ كم عددهم ؟

ـ أكثر من عشرين .

ـ اقطعوا عليهم خط الرجعة ، وسنطلق نحن عليهم النار من هنا .

واستدار الى سريته ، وأصدر اليها أمراً بالاصطفاف ، وانطلق يقودهم في مسيرة سريعة .

وحين بلغ القوزاق التل كان الالمان قد أصبحوا بينهم وبين بلدة بليكالييه . كانوا يسيرون خبباً ، يقودهم ضابط يمتطي كميتاً معقوص الذيل .

أصدر استاخوف أمراً : «وراءهم! سنطاردهم حتى نقطتنا الامامية الثانية» .

وتخلف وراءهم حارس الحدود الخيال الذي انضم اليهم في القرية ، فصاخ استاخوف وهو يستدير على سرجه :

ـ ما الأمر ؟ تتركنا ، أيها الأخ ؟

فلّوح حارس الحدود بلا اكتراث ومضى نازلاً الي القرية متمهلاً . وانطلق القوزاق على خيولهم في خبب سريع . صارت البزات الزرق للخيالة الالمان واضحة للعيان . وكان هؤلاء قد لمحوا القوزاق يتبعونهم ، فمضوا يخبون باتجاه النقطة الامامية الروسية الثانية التي كانت معسكرة في ضيعة تبعد حوالي ثلاثة فرستات من قرية ليوبوف . وتضاءلت المسافة مابين الفريقين بصورة واضحة .

صاح استاخوف وهو يثب عن سرجه :

ـ سنطلق النار عليهم!

وأطلق القوزاق النار وقوفاً ، وقد عقدوا الاعنة على أذرعهم ، وشب حصان ايفاكوف على صوت الاطلاق فأوقعه أرضاً . ورأى وهو يسقط ، واحداً

من الالمـان يميل جانبا في البدء . ثم ينشر ذراعيه ، وينقلب عن سـرجه بغتـة . أما الآخـرون فلم يتـوقـفوا ولا حتى نزعـوا بنادقـهم ، بل مضـوا في طريقهم هذباً في تشكيلة مفتوحة . وكانت الأعلام فوق رماحهم ترفرف في الريح . وكان استاخوف أول من امتطى صهوة حصانه من جديد . وأعمل القوزاق سياطهم في الخيل . وانحرف الالمان الى اليسار ، ومر القوزاق الذين يتعقبونهم على مقربة من الخيال الصريع . وابعد ذلك ، جاءت أرض ريفية متموجة تتخللها شعاب ضحلة المياه . واذ كان الالمان يسيرون حذو الجانب الأبعد لكل شعب ، كان القوزاق يترجلون ويطلقون عليهم النار . وبالقرب من النقطة الامامية الثانية هوى الماني أخر . صاح كروتشكوف وهو يضع قدمه على الركاب : «سقط» .

وتمتم استاخوف وهو يحشو مشبكاً من الخرطوش في مخزن بندقيته باصابعه التي اصفرت من التبغ : «لابد أن قوزاقنا سيأتون بعد لحظة . تلك هي النقطة الأمامية الثانية» .

وانطلق الالمان في خبب متواصل . واذ مروا الى جانب الضيعة نظروا اليها ، ولكن الفضاء كان مقفراً . وكانت الشمس تلعق السقف القرميدي بشراهة . وعلموا فيما بعد أن النقطة الأمامية كانت قد سحبت في الليلة الماضية ، بعد أن اكتشفوا أن أسلاك البرق قد قطعت على بعد نصف فرست تقريباً .

واطلق استاخوف طلقة اخرى صوب الالمان وهو جالس على سرجه ، فاذا بأحدهم ، وكان متخلفاً قليلاً عن الآخرين ، يهز رأسه ويهمز حصانه .

وصاح استاخوف مستديراً نحو الآخرين من ورائه : «سنطاردهم الى النقطة الأمامية الاولى» . واذ استدار لاحظ ايفانكوف أن أنف استاخوف كان يتقشر وثمة قطعة من الجلد مدلاة من منخره .

وتســاءل قلقـاً ، وهو يصلح من وضع بندقـيـتـه على ظهـره : «لمَ لايستديرون ويدافعون عن أنفسهم ؟» فرد شيكولكوف وهو يلهث مثل حصان تمزقت رئتاه : «انتظر تر» .

انحدر الالمان داخل شعب دون أن يتلفتوا . واختفوا عن الأنظار . وعلى الجانب الآخر كانت هناك أرض محروثة ، وعلى هذا الجانب ، نجيل ودغل قليل . واوقف استاخوف حصانه وازاح قبعته الى الوراء ، ومسح بظهر يده حبات العرق . ونظر الى الآخرين ، وبصق وقال :

ـ ايفانكوف امض أنت لترى أين ذهبوا .

فلعق ايفانكوف شفتيه اليابستين في ظمأ ، وقد احمر وجهه وتبلل ظهره بالعرق ، وانطلق .

وتمتم كروتشكوف وهو يطرد ذباب الخيل بصوته :

ـ لهفي على سيكارة .

اندفع ايفانكوف الى الشعب مباشرة وقد انتصب على ركابيه يشخص ببصره عبر قرار الشعب . وفجأة رأى رؤوس الرماح المتموجة ، ثم ظهر الالمان ، كانوا قد اداروا خيلهم وعادوا يجرون صعداً على المرتقى يبتغون الهجوم . وكان الضابط في المقدمة ، وقد رفع سيفه بشكل غير طبيعي . وفي خلال الثواني التي قضاها ايفانكوف وهو يدير حصانه ، انطبعت في ذاكرته صورة الوجه الكئيب الحليق لذلك الضابط وجلسته البديعة على السرج . واعتصر قلبه رعد حوافر الخيل الالمانية . وتحسس في ظهره قشعريرة الموت القارصة بألم يكاد أن يكون حقيقياً . ومن غير أن يصرخ ، أدار حصانه وانطلق باتجاه الآخرين .

لم يتسن لاستاخوف أن يطوي كيس تبغه وحشره فأخطأ جيبه . حين رأى كروتشكوف الالمان يطاردون ايفانكوف ، انطلق قبل الآخرين مبتعداً . وكان خيالة الجناح الأيمن يجرون ليقطعوا الطريق على ايفانكوف ، وهم يقتربون منه بسرعة مذهلة . وكان ايفانكوف يلهب حصانه بالسوط ، وقشعريرات شائهة تجتاح وجهه ، وعيناه جاحظتان . في المقدمة كان استاخوف يجري ، منحنياً على قربوس السرج . ودوّم غبار بني على اثار الخيل .

«سيلحقون بي ، في اية لحظة الآن!» سيطرت هذه الفكرة المخدرة على ذهن ايفانكوف ، ولم يخطر بباله أن يظهر شيئاً من المقاومة . وكوّم جسمه الضخم حتى صار كالكرة ، ورأسه يلامس عرف الحصان .

لحق به ألماني ضخم أحمر الشعر وغرز رمحه في ظهره . فأصاب رأسه نطاق ايفانكوف الجلدي ونفذ مائلاً في جسمه لعمق يكاد يبلغ نصف فيرشوك* .

فصرخ بجنون ، وهو يمتشق سيفه : «ايها الاخوان ، ارجعوا!» وتفادى طعنة أخرى مصوبة الى جنبه . وضرب بسيفه على ظهر الماني سعى اليه من اليسار . وماهي الا لحظة ، حتى وجد نفسه مطوقاً . واصطدم حصان الماني ضخم بخاصرة حصانه حتى كاد يطرحه أرضاً ، ورأى ايفانكوف صورة قريبة لوجه عدو ، شوهاء فظيعة .

كان استاخوف أول من بلغ الجمع . ولكنه لم يلبث أن اضطر الى التراجع . فلوّح بسيفه وانثنى على سرجه كثعبان الماء ، وقد كشر عن أسنانه ، وغدا وجهه غريباً يحاكي الموتى . وكان ايفانكوف قد أصابه طرف سيف بجرح عبر رقبته . واطبق عليه خيال من اليسار ، وتلألأ في عينيه بريق الفولاذ المرعب ، فدافع بسيفه ، وصلصل الفولاذ بالفولاذ . ومن الخلف ، التصق رمح بسير كتفه ، وانغرز باصرار ، ممزقاً السير . وبدا وراء رأس حصانه وجه عرق محموم لألماني كهل أنمش ، كان يحاول أن يبلغ صدر ايفانكوف بسيفه . واذ وجد السيف لايطال ، قذفه ، وانتزع غدارته من بيت السرج الاصفر ، وقد تسمرت عيناه الطارفتان في وجه ايفانكوف ، لكنه لم يفلح في انتزاع غدارته ، اذ نال منه كروتشكوف برمح عبر حصانه ، فألقى الالماني بنفسه الى الوراء وهو يمزق بزته الزرقاء الغامضة على صدره متأوهاً في ذعر وذهول : «ماين غوت!»

---

* مقياس طول روسي قديم يساوي ٤ سنتمترات . الناشر

وأحاط بكروتشكوف ثمانية خيالة محاولين أسره حياً غير أنه شبّ بحصانه وقاتل حتى أفلحوا في اسقاط سيفه من يده . فنتش رمحاً من الماني ورفعه الى أعلى وكأنه في ساحة استعراض . واذ ردّ الالمان الى الوراء ، راحوا يذودون الرمح بسيوفهم . وتجمعوا معا على رقعة صغيرة من أرض طينية محروثة كالحة ، وهم يتدافعون ويترنحون في حومة القتال ، كما لو كانوا يهتزون في مهب الريح .

وراح القوزاق والالمان ـ وقد مسهم جنون الرعب ـ يطعنون ويضربون كل ما صادفهم في الطريق : من ظهور ، واذرع ، وخيل وأسلحة . وتدافعت الخيل في جنون الخوف من الموت . واذ استرجع ايفانكوف شيئاً من سيطرته على نفسه حاول عدة مرات أن يهوي على رأس ألماني طويل الوجه ، أشقر الشعر ، كان قد تعقبه باصرار ، لكن سيفه كان يهوي على خوذة الرجل فينزلق عنها .

وشق استاخوف طريقه خلال الحلقة وانطلق من اسارها والدم يسيل منه . وتبعه الضابط الالماني . فانتزع استاخوف بندقيته من على كتفه وأطلق النار عليه ، فأرداه قتيلاً على مدى الرمي الأفقي تقريباً . فكانت هذه نقطة التحول في القتال . فما أن فقد الالمان آمرهم ، وقد أصيبوا جميعاً بجراح ضربات طائشة ، حتى تفرقوا وتراجعوا . ولم يتبعهم القوزاق ، ولا أطلقوا النار عليهم ، بل عادوا مباشرة الى سريتهم في بليكالييه ، فيما انتشل الالمان رفيقاً جريحاً وهربوا باتجاه الحدود .

وبعد مسيرة نصف فرست تقريباً ترنح ايفانكوف على سرجه :

ـ أنا... سوف أقع...

وأوقف حصانه . غير أن استاخوف جر زمامه صائحاً : «تابع!» ومسح كروتشكوف الدم من وجهه تاركاً عليه أثاراً مدماة ، وتحسس صدره . كانت ثمة بقع قرمزية تبدو لزجة على قميصه .وعلى مبعدة من الضيعة حيث كانت النقطة الأمامية الثانية معسكرة ، اختلفت آراء الجماعة حول الطريق .

قال استاخوف مشيراً صوب المستنقع وغيضه خضراء لغابة حور رومي :
«الى اليمين!»

فأصر كروتشكوف : «كلا ، إلي الشمال!» .

وافترقوا . وصل استاخوف وايفانكوف الى مقر الكتيبة بعد كروتشكوف وشيكولكوف ، فوجدوا قوزاق سريتهم ، في انتظارهما عند طرف القرية . والقى ايفانكوف بالعنان ، ووثب من السرج ، ثم ترنّح وهوى . ووجدوا مشقة في انتزاع مقبض السيف من أصابعه المتصلبة عليه .

وبعد غضون ساعة من الزمن انطلقت كل السرية تقريباً الى حيث تمدد الضابط الالماني . فجرده القوزاق من جزمته وملابسه واسلحته وتجمهروا حوله لينظروا الى وجه الشاب الصريع العابس الاصفر . وأفلح أحدهم في الاستيلاء على ساعة الضابط ذات الغطاء الفضي ، وباعها في الحال الى عريف رعيله . ووجدوا في خرجه بضع أوراق نقدية ، ورسالة ، وخصلة من شعر أشقر في ظرف ، وصورة فتاة ذات فم بسام مزهو .

٩

تحولت هذه الحادثة بعد ذلك الى مأثرة بطولية . وحصل كروتشكوف ـ وهو الاثير لدى آمر السرية ـ على وسام القديس جيورجي . أما رفاقه فقد بقوا في الظل . وأرسل البطل الى مقر هيئة أركان الفرقة حيث عاش في بحبوحة الى نهاية الحرب ، ونال ثلاثة أوسمة أخرى لأن سيدات وضباطاً ذوي نفوذ جاؤوا اليه من موسكو وبطرسبورغ ليلقوا عليه نظرة . فتأوهت السيدات وتنهدن ، واتحفن قوزاقي الدون بالسكاير والحلوى الغالية . وكان في البداية ينزل عليهن كل لعنات الشياطين ، لكنه فيما بعد جعل من الأمر تجارة مربحة تحت التأثير العطوف للمتملقين الرسميين المتسربلين ببزات الضباط . كان يروي قصة«مأثرته» وهو يبالغ ويكذب دون أن يخزه

ضميره ، بينما يستبد بالسيدات الحبور فيحملقن باعجاب في الوجه اللصوصي المجدور للبطل القوزاقي . وكان الجميع مسرورين سعداء .

وزار القيصر مقر القيادة ، فأخذ كروتشكوف اليه ليراه . فتفحصه الامبراطور الوسنان كما لو كان حصاناً ، وطرف بجفنيه الغليظين ، وربت على كتف القوزاقي .

وعلق الامبراطور قائلاً : «يا للفتى القوزاقي الطيب!» ثم استدار الى حاشيته وطلب ماء معدنياً .

وغدت ناصية كروتشكوف تظهر دائماً في الصحف والمجلات . وظهرت سكاير تحمل صورة كروتشكوف . واهدى تجار نيجني ـ نوفغورد له حساماً مطلياً بالذهب .

أما بزة الضابط الالماني الذي قتله استاخوف فقد علقت على لوح من الخشب المعاكس ووضعها الجنرال فون رننكامف في سيارته وايفانكوف ومساعده يصحبانه لامساكها . ومضى بها أمام القطعات المستعرضة التي كانت بصدد الذهاب الى الجبهة ، وهو يلقي الخطب النارية المألوفة برطانته الرسمية .

ترى ، ماالذي حدث بالفعل ؟ كل مافي الأمر أن رجالاً ، لم يكونوا قد حذقوا فن التقتيل بأبناء جنسهم ، نزلوا ساحة الوغى ، وفي موجة الرعب القاتل التي غمرتهم هجموا ، وضربوا ، وافنى بعضهم بعضاً كالعميان ، مسببين أفدح الضرر ببعضهم وبخيلهم ، ثم عادوا وهربوا وقد أرعبتهم طلقة أصابت أحدهم . لقد ولوا الأدبار وأرواحهم مشوهة .

وسمي ذلك مأثرة بطولية .

١٠

لم تكن الجبهة قد غدت ـ بعد ـ تلك الحية الضخمة الطويلة التي آلت اليها فيما بعد . الا أن مناوشات الفرسان ومعاركهم قد حميت على امتداد

الحدود . وفي الأيام التي تلت اعلان الحرب مباشرة أطلقت القيادة الالمانية كشافة على هيئة مفارز قوية من الفرسان صارت تبث الرعب بين صفوف القطعات الروسية بتسللهم عبر نقاط الحدود والتجسس على الترتيبات العسكرية وعدد القوات . وكان الجيش الروسي الثامن متستراً بفرقة الخيالة الثانية عشرة تحت قيادة الجنرال كاليدين . وعلى جناحه الايسر كانت فرقة الخيالة الحادية عشرة قد تقدمت عبر الحدود النمساوية ، ولكن ما أن احتلت لاشنوف وبرودي حتى اضطرت الى التوقف حينما عززت الوحدات النمساوية بالخيالة المجريين . وقذفت الخيالة المجرية بنفسها على الوحدات الخيالة الروسية واضطرتها الى التراجع صوب برودي .

كان ثمة ألم داخلي ممض يعذب غريغوري ميليخوف منذ معركته الأولى . أصبح أنحف قواماً بشكل جلي ، وغالباً ماكانت تتراءى له ملامح وهيكل ذلك النمساوي الذي صرعه قرب السياج ، سواء كان ماشياً أو مستريحاً ، نائماً أو ناعساً . وعاش في نومه تجربة تلك المعركة الأولى ، مرة تلو المرة ، حتى لقد أحس باختلاج راعش في يده اليمنى ، حين تقبض على الرمح فكان يستيقظ ويطرد الحلم عنه بقوة ، وهو يظلل بيده عينيه المضيقتين الى حد الألم .

مضت الخيالة تدوس على القمح الناضج وتشوه الحقول بحوافر الخيل ، وبدا وكأن عاصفة صقيعية ماحقة قد اجتاحت غاليسيا . ووطئت جزم الجنود الثقيلة الطرق ، وخربشت سطحها المرصوف بالحصى وخبطت الوحل الخريفي .

وغدا وجه الأرض الكئيب مجدوراً بفعل القنابل ، وعلا الصدأ شظايا الفولاذ والحديد متشوقة لدم الانسان . وفي الليل كانت ومضات حمر تضيء الأفق ، وتلتهب القرى والمدن مثل برق الصيف . وفي آب - حين تنضج الفواكه وتغدو الحنطة جاهزة للحصاد - كانت السماء رمادية عابسة ، وكانت الأيام الصاحية النادرة خانقه شديدة القيظ .

كان شهر آب آفلاً الى زوال . واستحال لون الأوراق أصفر في البساتين ، وانتشر لون أرجواني حزين من سيقانها . وكانت الاشجار تبدو من بعد ، كما لو أصابتها جراح بليغة وسال منها نزيف قاتل .

وكان غريغوري يتفحص باهتمام التغييرات التي أصابت رفاقه . فقد عاد بروخور زيكوف من المستشفى يحمل أثار نعل الحصان على خده ، والألم والذهول يكمنان في زاويتي شفتيه . وصارت عيناه الشبيهتان بعيون العجل تطرفان أكثر من أي وقت مضى . أما يغور زاركوف فلم يضع فرصة لايلعن فيها ويسب ، وغدا أكثر مجوناً من قبل ، وجعل يثور على كل شيء تحت الشمس . وبدا على يميليان غروشيف أنه يحترق ، وهو قوزاقي دؤوب كفء من قرية غريغوري نفسها ، فقد حال لون وجهه داكناً ، وصار يضحك في غم وعصبية . وكان بالمستطاع ملاحظة التغييرات على كل وجه ، وكان كل واحد منهم يداري ويرعى في داخله بذور الأسى التي زرعتها الحرب .

سحبت الكتيبة من خط القتال لتستريح ثلاثة أيام ، وأكمل تعدادها بتعزيزات جلبت من الدون . وكان قوزاق سرية غريغوري على وشك أن يذهبوا ليستحموا في بحيرة قريبة حينما دخلت القرية قوة كبيرة من الخيالة قادمة من المحطة الواقعة على بعد ثلاثة فرستات تقريباً . وفي الوقت الذي بلغ الرجال سد البحيرة كانت القوة تهبط نازلة التل . حتى صار واضحاً أن القادمين هم القوزاق . كان بروخور زيكوف يخلع قميصه حينما رفع بصره وحدّق وصاح :

- إنهم قوزاق ، قوزاق الدون!

فشخص غريغوري الى الرتل الزاحف الى داخل الضيعة حيث تعسكر الكتيبة .

- احتياط ، على أكثر تقدير .

- يبدو أنها تعزيزات .

- هذه هي الوجبة الثانية كما أعتقد .

وصاح غروشيف : «انظروا يا أولاد ، ذلك بالتأكيد ستيبان استاخوف! هناك هو ، في الصف الثالث من المقدمة» . وأطلق ضحكة صارفة قصيرة .

ـ وذاك انيكوشكا .

ـ غريشا! ميليخوف! ذاك اخوك .ألا تراه ؟

ـ أراه .

عليك أن تسقيني بالفودكا لأنني أول من رآه .

فحدق غريغوري مخاوصاً عينيه ومحاولاً أن يتبين الحصان الذي كان يركبه بيوتر . وقال في نفسه وهو يحول نظره الى وجه أخيه : «لابد أن ابتاع حصاناً جديداً!» وكان وجهه قد لفحته الشمس بشدة ، وشاربه مقصوصاً وحاجباه قد حال لونهما بفعل شمس الصيف : لقد اعتراه تغير غريب منذ لقائهما الأخير . مضى غريغوري لملاقاته نازعاً قبعته ، وملوحاً بها بصورة آلية وتدفق وراءه القوزاق دون أن يتموا ارتداء ملابسهم ، وهم يدوسون على الأنصال الرقيقة المتكسرة لحشيشة الملائكة وشوك الارقطيون .

انحرفت المفرزة حول البستان داخله الضيعة ، يقودها نقيب متقدم في السن قوي البنية ، تعلو خطوط فمه الحليق الصارم قساوة متخشبة . وقال غريغوري في دخيلته : «شخص خبيث ابح الصوت!» وهو يبتسم لأخيه ويجول بعينيه في الوقت نفسه في قامة الرئيس المتينة وحصانه معقوف الأنف الذي يبدو أنه منحدر من صقع شرقي . وأمر النقيب السرية بصوت رفيع رنان ان توزع مراتب .

وصاح غريغوري مبتسماً واعتراه انفعال مسرور :

ـ مرحباً ، أيها الأخ!

ـ المجد لله! سنكون معاً . كيف حالك ؟

ـ لابأس .

ـ اذن ماتزال حياً ؟

ـ الى حد الآن .

ـ تحيات من العائلة .

ـ كيف حالهم جميعاً ؟

ـ لابأس .

وأراح بيوتر كفه على حصانه القوي ذي اللون المائل للحمرة ، ودار بكل جسمه على السرج ليتفحص غريغوري مبتسماً . ثم مضى واختفى وراء الصفوف المتدفقة من القوزاق الآخرين ، معروفين وغير معروفين .

ـ مرحبا ، ميليخوف! تحيات من القرية!

فتبسم غريغوري متبيناً ميخائيل كوشيفوي من خصلة شعره الذهبية ، وقال :

ـ اذن أنت تنضم الينا ؟

ـ صحيح . نحن كالدجاج يجري وراء الدخن .

ـ اذ نقرت فسرعان ماتنقر .

ـ مستحيل!

وقدّم يغور زاركوف من البحيرة وقد ارتدى قميصه فقط وهو يظلع على ساق واحدة ويحاول أن يدس الأخرى في بنطلونه أثناء ركضه .

ـ مرحباً ياأولاد!

ـ هي ، هذا زاركوف!

ـ مرحباً ، أيها الحصان! هل اضطروا الى حجلك اذن ؟

ـ كيف حال أمي ؟

ـ لاتزال حية . أرسلت لك حبها . لكننا لم نقبل أن نحمل هداياها لك . فحملنا ثقيل بما فيه الكفاية .

أنصت يغور الى الجواب وقد اكتسى وجهه تعبيراً جدياً غريباً ، ثم اقتعد الحشيش على عجيزته العارية ، مخفياً وجهه الخائب ومحاولاً بلا جدوى ادخال ساقه المرتعشة في بنطلونه .

وقف القـوزاق نصف عـراة وراء السـيـاج المـطلي بالـدهان الأزرق ، وفي الجانب الآخر كانت سـرية الاحتياط القادمة من الدون تتـدفق على امتداد الطريق المحفوف بأشجار الكستناء ، داخلة الى الفناء .

ـ مرحباً ياابن القرية!

ـ أهذا أنت ، الكساندر ؟

ـ أجل ، هو أنا .

ـ اندريان! كيف ، أيها الشيطان ذو الاذن المصلومة ، الا تعرفني ؟

ـ زوجتك ترسل حبها اليك ، أيها الجندي!

ـ ليحفظك المسيح .

ـ أين بوريس بيلوف ؟

ـ في أيه سرية كان ؟

ـ في الرابعة ، على ما أظن .

ـ من أي مكان هو ؟

ـ من ناحية فيشنسكايا ، من زاتون .

وانضم صوت ثالث الى الحديث المتشعب :

ـ ماذا تريد منه ؟

ـ لدي رسالة له ، هذا ما أريد .

ـ قتل قبل بضعة أيام ، في ريبرودي .

ـ حقاً ؟

ـ صدقني . رأيته بأم عـيني . رصاصة في الصدر ، تحت ثديـه الأيسـر تماماً .

ـ هل يوجد أحد من قرية كورونيا رتشكا ؟

ـ لا .

صفت السـرية في الفناء . وعـاد القوزاق الاخرون الى استحمـامهم ثم انضم اليـهم بعـد قليل القـادمـون الجدد . جلس غريغوري الى جـانب أخيـه .

وانبعثت من طين السدة الرطب المفتت رائحة فجة كريهة ، وكان الماء ذا لون أخضر لمّاع عند الحوافي . قصع غريغوري القمل في ثنايا ومدارز قميصه ، وقال لأخيه :

ـ بيوتر ، روحي تعبانة . اني كرجل تكفيه ضربة أخرى ليخر صريعاً . كأنني كنت بين شقي رحى ، لقد سحقوني ولفظوني .

كان صوته متكسراً ذبيحاً ، وامتدت تجعيدة دكناء منحرفة عبر جبهته(لم يلحظها بيوتر الا الآن ، وبشعور قلق) أضفت عليه طابعاً عجيباً من التغير والغرابة .

فتساءل بيوتر وهو يخلع قميصه كاشفاً عن جسم أبيض يلوح لفح الشمس خطا واضحاً على رقبته :

ـ لماذا ، ماخطبك ؟

فقال غريغوري باستعجال وقد غدا صوته قوياً في مرارته :

ـ الأمر هكذا : لقد جعلونا نحترب ، أسوأ من قطيع من الذئاب . الكراهية في كل مكان . وأحياناً أقول لنفسي إنني لو عضضت شخصاً لأصبته بالسعار .

ـ هل اضطررت أن... تقتل أحداً ؟

ـ أجل .

قالها غريغوري في شبه صياح وهو يعتصر قميصه ويرمي به عند قدميه . ثم يضغط على بلعومه بأصابعه كما لو كان يمنع كلمة تخنقه ، وأشاح بعينيه .

فاستحثه بيوتر متجنباً عيني أخيه :

ـ أخبرني .

ـ إن ضميري يزهق روحي . لقد غرزت رمحي في جسم رجل... في غمرة الهياج... ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، ولكن لِمَ قتلت الآخر... ؟

ـ حسناً ؟

ـ ليس الأمر«حسناً» . لقد قتلت رجلاً بلا سبب ، فيعذب نفسي ، ذاك الخنزير! إن هذا النغل لا يبارحني في أحلامي . هل كنت أنا الملوم ؟

ـ أنت لم تألف الأمر بعد ، ستتغلب على حالتك هذه . فتساءل غريغوري فجأة :

ـ هل ستمكثون مع سريتنا ؟

ـ لا ، فنحن تابعون للكتيبة السابعة والعشرين .

ـ حسبت أنكم جئتم لمساعدتنا .

ـ سوف تلحق سريتنا بفرقة مشاة . إننا نسعى للحاق بها . على أننا جئناكم ببعض البدلاء ، شرذمه من الشبان .

ـ حسناً ، لنستحم .

وخلع غريغوري بنطاله بسرعه ومضى الى حافة السدة ، ملفوح الجسم قوي البنية بالرغم من كتفيه المتهدلين ، وخطر في ذهن بيوتر أنه شاخ خلال فترة فراقهما . وغطس في الماء رافعاً يديه ، فانعقدت عليه موجة خضراء كبيرة ، ثم انحسرت متموجة عنه . ومضى يسبح صوب جماعة القوزاق المتصايحين في الوسط ، ويداه تلطمان الماء برفق ، وكتفاه تتحركان بتكاسل .

كان بيوتر بطيئاً في خلع الصليب والتعويذة المخاطة فيه عن رقبته . فدس الخيط تحت كومه ملابسه ، ونزل الى الماء بحذر وتهيب ، وبلل صدره وكتفيه ، ثم اندفع الى الأمام متأوهاً ، ومضى يسبح للحاق بغريغوري . واتجها صوب الضفة المقابلة ، وكانت رملية يغطيها الدغل . ورطبت الحركة في الماء غريغوري وهدأته ، فراح يتكلم بهدوء وبدون هياجه السابق . قال :

ـ لقد استبد بي الضيق حتى تركت القمل يأكلني! آه ليتني الآن في بيتنا ، فقط! لو أن لي جناحين ، لطرت الى هناك! لأختلس نظرة خاطفة وحسب! كيف حالهم جميعاً ؟

ـ إن ناتاليا تعيش معنا .

ـ كيف حال أبي وأمي ؟
ـ لابأس . لكن ناتاليا مافتئت تنتظرك . انها لاتزال تعتقد بأنك عائد اليها .
نخر غريغوري وبصق ماء دون أن يجيب . فأدار بيوترر رأسه وحاول أن ينظر في عيني أخيه .
ـ حبذا لو ترسل كلمة اليها في رسائلك . إن هذه المرأة لاتحيا الا من أجلك .
ـ ماذا ، أما تزال تريد أن تصل ما انقطع ؟
ـ إنها تحيا على الأمل... إنها امرأة طيبة . ومتزمتة كذلك لن تدع أحداً يتعابث معها!
ـ عليها أن تجد زوجاً .
ـ غريب أن يصدر هذا الكلام منك!
ـ لاغرابة فيه . هذا ما يجب أن تكون عليه الحال .
ـ حسناً ، هذا شأنك . لن أتدخل . ـ وكيف حال دونيا ؟
ـ غدت امرأة ، أيها الأخ! لقد كبرت كثيراً هذا العام حتى أنك لاتعرفها .
فقال غريغوري دهشاً ومبتهجاً بعض الشيء : ـ حقاً!
ـ وحق الرب! وعمّا قريب ستتزوج ، ولن يكون بمستطاعنا حتى أن نغمس عذارنا في الفودكا . أو قد نصبح في عداد القتلى ، عليهم اللعنة! ـ لا أسهل من ذلك!
واضطجعا على الرمل جنباً الى جنب يتشمسان في دفء الشمس الرفيق . ومرّ بهما ميشا كوشيفوي سابحاً :
ـ هيا ، ياغريغوري ، الى الماء .
ـ كلا أريد أن أرتاح .
وتساءل غريغوري وهو يدفن خنفساء في الرمل :
ـ كيف حال اكسينيا ؟
ـ رأيتها في القرية قبيل اندلاع الحرب .

ـ ماالذي كانت تفعله هناك ؟

ـ جاءت لتأخذ من زوجها بعض حوائجها .

فتنحنح غريغوري ودفن الخنفساء ملقياً عليها كومة رمل .

ـ هل حدثتها ؟

ـ تبادلنا بالتحية فقط . كانت تبدو في حال طيبة ، ومبتهجة . يبدو أنها تقضي وقتاً رضياً في الضيعة .

ـ وماذا عن ستيبان ؟

ـ أعطاها حوائجها بالفعل . كان سلوكه لائقاً الى حد كبير . لكن ، عليك أن تفتح عينيك! بلغني أنه أقسم حينما كان ثملاً أن يضع فيك رصاصة في أول معركة . لن يقدر أن يغفر لك .

ـ أعرف ذلك .

وأدار بيوتر وجهة الحديث : ـ ابتعت حصاناً جديداً لي .

ـ بعتم الثيران ؟

ـ بمئة وثمانين ، وكلفنا الحصان مائة وخمسين . وما هو بالرديء .

بالرديء . ـ وكيف حال المحصول ؟

ـ حسن . انتزعونا قبل أن نستطيع خزنه .

ومال الحديث وجهة شؤون منزلية ، وانجاب توتر المشاعر . وارتوى غريغوري بأنباء بيوتر عن البيت . وعاد برهه صغيرة يعيش هناك كما كان ، ذلك الفتى البسيط العنيد .

واقترح بيوتر نافضاً الرمل عن بطنه المبلل :

ـ طيب ، لنغطس غطسة أخرى ، ثم نرتدي ملابسنا . وكان الشعر على ظهره وذراعيه منفوشاً من البرد .

عادا الى الفناء مع جمع من القوزاق . ولحق بهما ستيبان استاخوف عند سياج البستان . وكان أثناء مشيه يمشط شعره الى الخلف تحت ذؤابة قبعته . واذ حاذى غريغوري قال :

ـ مرحباً ، أيها الصديق!

فرد غريغوري : «مرحباً!» وتوقف وتباطأ في مشيه واستدار نحوه وقد بدا على وجهه شعور بالحرج والاثم .

ـ لعلك لم تنسني ، أليس كذلك ؟

ـ كدت . ـ لكنني أتذكرك!

وابتسم ستيبان هازئاً ومضى ، واضعاً ذراعه حول كتف نائب عريف يمشي أمامه .

بعد غروب الشمس جاءت رسالة تلفونية من هيئة أركان الفرقة الى كتيبة غريغوري تأمرها بالعودة الى الجبهة . وتجمعت السرايا خلال خمس عشرة دقيقة ، وانطلقت ، وهي تنشد ، لكي تسد ثغرة في خط القتال احدثتها خيالة العدو .

وفيما كان غريغوري وبيوتر يتوادعان ، دس بيوتر ورقة مطوية في يد أخيه . فتساءل غريغري : ـ ماهذه ؟

ـ لقد استنسخت تعويذة لك . خذها...

ـ هل فيها أية فائدة ؟

ـ لاتسخر ، ياغريغوري!

ـ لست ساخراً .

ـ حسناً ، الى اللقاء أيها الأخ . لا تندفع في مقدمة الآخرين . إن للموت بهرجاً لذوي الدماء الحارة . صن نفسك .

ـ فما جدوى التعويذة اذن ؟

لوح بيوتر يده .

قضت السرايا زمناً ما دون أن تراعي اتخاذ أية احتياطات . ثم أصدر رؤساء العرفاء أوامر بمراعاة أقصى مايمكن من الهدوء ، وان تطفأ كل السكاير . وتطايرت فوق غابة بعيدة صواريخ الاشارة تزينها ذؤابات من دخان بنفسجي .

١١

دفـتـرمـذكـرات جلدي ، بني اللون ، صـغـيـر القطع . تآكلت زواياه وتمـزقت ، فلا بد أن زمناً طويلاً مضى عليه وهو في جيب صـاحبـه . وقد ملأت صفحاته كتابة مائلة مزخرفة نوعاً ما...

* * *

« ... مضى عليّ حين من الزمن وأنا أحس بهذا الدافع الذي يستحثني على تناول القلم والشـروع بالكتـابة . أود أن أبدأ مـايشـبـه «المـذكـرات المدرسية» . أبدأ بها ، قبل كل شيء .

حدث في شبـاط(لا أذكر التاريخ بالضبط) أن تعرفت عليهـا بواسطة جار لها ، طالب يدعى بويارشكين . صادفتهما خارج دار للسينمـا . وحينما قدمها بويارشكين . ، قال : «ان ليزا من ناحية فيشنسكايا ، كن لطيفاً معها يا تيموفي . فهي فتاة رائعة» .

واذكر أنني تمتمت بضع كلمات غير مترابطة وأخذت يدها الناعمة العرقة بيدي . وهكذا التقيت بليزافيتا موخوفا ، وقد أدركت في الحال أنها بنت ماجنة . ففي عيون اضرابها من النساء ما يكشف الستر عن الكثير . ولي أن أعـتـرف أن الانطبـاع الذي خلفـتـه لدي لم يكن انطبـاعـاً حسناً . ولربما كان السبب هو ذلك الدبق الذي تحسسته في يدها . اذ أنني لم أر في حياتي شخصاً تعرق يداه بمثل تلك الشدة . ثم كانت هناك عيناها ، جميلتان جداً في الواقع ويغشيـهمـا لون بندقي رائع ، ومع ذلك فهمـا لا تسران الناظر فيهما .

فـاسـيـا ، ياصـديقي العـزيز ، أشـعـر أنني أنمق أسلوبي في الكتـابة عامداً ، حتى أنني أخذت الجأ الى نقل الصور على نحو دقيق ، ذلك لأنه حين تصلك هذه المذكرات وأنت في سميبالاتنسك (فأنا أفكر في إرسالها

اليك بعد أن تؤول هذه القصة التي بدأتها مع يليزفيتا موخوفا الى النهاية) ستجد فيها متعة . أود أن تكون لك فكرة جلية عما حدث . سوف أعمد الى سرد الحوادث حسب تتابعها الزمني . حسناً ، وكما سبق أن قلت ، تعرفت بها ودلف ثلاثتنا لمشاهدة فلم عاطفي سخيف . ظل بوياريشكين ساكتاً طوال الفلم (اذ كان يعاني من ألم الأسنان ، أو«ألم الضرس» ، كما دعاه هو) ووجدت من ناحيتي صعوبة في خلق موضوع للحديث . واكتشفنا أننا كنّا في ديرة واحدة ، أي من قصبتين متجاورتين ، ولكن ما أن تبادلنا بعض الذكريات عن جمال الطبيعة في السهب وما الى ذلك حتى صمتنا . فخلدت أنا الى صمت عفوي ، اذ اصح التعبير ، وتقبلت هي نضوب الحديث دون أي مضض . وعلمت منها أنها طالبة طب في السنة الثانية . وأنها سليلة عائلة من التجار ، وأنها ولوع بالشاي القوي ونشوق* اسمولوف . ولك أن تتصور كم هي زهيدة هذه المعلومات لأمرىء يسعى الى معرفة كنه فتاة ذات عينين بندقيتي اللون . وحينما ودعناها عند موقف الترام طلبت مني أن أزورها . فدونت عنوانها . أحسب أنني سأعرج عليها في الثامن والعشرين من نيسان .

٢٩ نيسان

زرتها اليوم . قدمت لي شاياً وحلوى . انها ، في الواقع ، لا تخلو من شيء . حادة اللسان ، ذكية الى حد ما ، ولكنها متعلقة بنظرية ارتسيباشيف القائلة : «افعل مايحلو لك» وباستطاعتك أن تشم ذلك من مسافة فرست . عدت في وقت متأخر ، لففت سكائر وفكرت بأشياء لاعلاقة لها بها أبداً ، وبالنقود بوجه خاص ، أن بدلتي في حالة يرثى لها ، ولكن ليس لدي أي «رأسمال» . وعلى العموم ، فالأمور في غاية العفونة .

---

* النشوق ، أو السعوط : دقيق التبغ يدخل في الأنف فيعطس المرء . المترجمون

١ أيار

شهدت اليوم حادثاً على جانب من الأهمية . فبينما كنا نزجي الوقت في منتزه سوكولنيكي ببراءة مطلقة ، تورطنا في مشكلة . كانت الشرطة ومفرزة من القوزاق ، قوامها عشرون قوزاقياً تقريباً ، يفرقون اجتماعاً للعمال بمناسبة أول أيار . فهوى سكران بضربة من عصاه على أحد خيول القوزاق ، فما كان من القوزاقي الا أن أعمل به ضرباً بسوطه .(لست أدري لماذا يصر بعض الناس على اطلاق كلمة«عسلوج » على السوط ، في حين أن له هذه التسمية الفخمة ـ لم لانستعملها ؟) مضيت اليه وقررت أن أتدخل ، مدفوعاً بأنبل المشاعر ، صدقني . قلت للقوزاقي أنك فظ ، وأنك كذا وكيت ، فما كان منه الا أن استعد ليلفحني بسوطه ، لكنني قلت له مع شيء من رباطة الجأش أنني قوزاقي من قصبة كامنسكايا وبمقدوري أن اشبعه ضرباً . ثم تبين أن القوزاقي كان شاباً لطيفاً لم يكن قد قضى في الجيش زمناً طويلاً يجعله حاد الطباع . فأجاب بأنه من ناحية أوست ـ خوبر سكايا وأنه مشهود له بقوة بارعة ، وافترقنا في سلام . ولو كان قد شرع بمهاجمتي ، لاحتدم بيننا قتال ، ولأصابني شيء أسوأ من ذلك . إن تدخلي هذا يجب أن يفسر بواقع وجود ليزافيتا معنا ، وعندما أكون معها أجدني أندفع برغبة طفولية محض لاتيان «عمل بطولي» . وباستطاعتي بالفعل أن أرى نفسي أغدو ديكاً فتياً وأحس بعرف أحمر غير منظور يطلع تحت قبعتي... الى أين تراني سأنتهي!

٣أيار

الشيء الوحيد الذي استطيع أن أفعله في حالتي النفسية الراهنة هو السُكْر . ففوق كل شيء ، أنا لا أملك شروى نقير . وقد انشق بنطلوني على نحو بائس في أهم موضع(أى ، بصراحة ، عند ملتقى الفخذين) وأصبح مثل

بطيخة مشقوقة في الدون ، والأمل ضعيف في أن يحتمل الرتق . وهل يرجى خير من محاولة رتق بطيخة ؟ لقد زارني فولودكا سترجنيف . سوف أحضر المحاضرات غداً .

٧ أيار

وصلتني نقود من أبي . رسالته غضبى ، لكنني لا أحس بذرة من الخجل ، ماذا لو أن أبي عرف أن قواعد ابنه الأخلاقية تتحلل على هذا النحو..لقد اشتريت بدلة . ورباط عنقي الجديد يجذب انتباه حتى سائقي عربات الأجرة . وبعد حلاقة لدى أحسن حلاق في المدينة خرجت منه لامعاً أشبه ببائع في حانوت خردوات . وفي الشارع ابتسم لي شرطي . ياللوغد الماكر! بيني وبينه شيء مشترك في هذه الهيئة... ومنذ ثلاثة أشهر... ولكن ما فات فات... لمحت ليزا صدفة خلال نافذة الترام . فلوحت بقفازها وابتسمت . مارأيك بي ؟

٨ أيار

«أمام الحب ، لا تملك كل الأعمار الا أن تكون خاضعة...» . لازلت استطيع أن أرى فم زوج تاتيانا فاغراً باتجاهي مثل فوهة مدفع . واستبدت بي رغبة ، وأنا جالس على مقعدي في الصالة العليا ، أن أبصق فيه . وكلما أتذكر تلك العبارة ، وعلى الأخص «خاضعة» في نهايتها ، أحس بفكي يستحثني على التثاؤب ، لعلها رجفة عصبية .

ولكن المهم هنا هو أنني في عمري هذا ، عاشق ، رغم أن كتابة هذه الكلمة تجعل شعر رأسي يقف... زرت ليزا . بدأت معها بمقدمة طويلة براقة . فتظاهرت بأنها لم تفهم وحاولت أن تغير الموضوع . أتراني تسرعت ؟ فليأخذ الشيطان هذه البدلة الجديدة ، لقد اربكت عليّ الأمور . فحينما أنظر الى نفسي في المرأة أحس بأنني شخص لايقاوم . ها قد حان

الوقت اذن ! وفي اعتقادي أن النصر حليف التفكير الرياضي المباشر .

ان لم أفاتحها الآن ، فبعد شهرين يكون الأوان قد فات . سيكون بنطلوني قد تخلق ولن يصبح بإمكاني مفاتحتها بأي حال من الأحوال . واذ أنا أكتب اليك هذا ، أحس بفيض من الاعجاب بنفسي يغمرني . يالي من خليط رائع من أكرم الفضائل لأكرم الناس في عصرنا . فأمامك الآن عاطفة رقيقة ، لكنها نارية في الوقت نفسه ، «صوت العقل السليم»دونما حاجة لذكر حشد من الصفات المحببة الأخرى .

حسناً ، لم أقطع معها شوطاً أبعد من مقدمتي التمهيدية . اذ قاطعتنا صاحبة دارها ، التي استدعتها الى الخارج وسألتها قرضاً ، الا أنها رفضت رغم توفر النقود لديها . كنت متيقناً من ذلك ، وتصورت وجهها وهي ترفض الطلب بنبرة صوتها الصادقة وبذلك الاخلاص المتشرب في العينين البندقيتين . ولم أشأ ، بعد ذلك ، أن أتحدث عن الحب .

١٣ أيار

إنني عاشق بحق وحقيق . لا مجال لأي شك في ذلك . كل شيء ينبئني به . وسأفاتحها غداً . على أنني لم أحضر الكلام المناسب لدوري حتى الآن .

١٤ أيار

حدث الأمر على نحو غير متوقع بتاتاً . كان ثمة مطر ، زخ خفيف دافىء ، . كنّا نتمشى في شارع موخوفايا ، والريح تلفح الرصيف بالمطر . كنت أتحدث وهي صامته ، ورأسها مطأطأ وكأنها تقلب الرأي في شيء ما . وانداح خط من ماء المطر على حافة قبعتها وانساب على خدها . فبدت رائعة الجمال . وجرى الحوار بيننا كالآتي :

ـ يليزافيتا سيرغييفنا ، لقد بحت اليك بما أحس ، فالأمر متروك اليك الآن .

ـ يخالجني الشك في صدق أحاسيسك .

فهززت كتفي بحركة بلهاء وأجبت ببلادة بأنني مستعد لأن أقسم لها ، أو بشيء من هذا القبيل . فقالت :

ـ اسمع ، انك تتكلم وكأنك إحدى شخصيات تورغنيف* . لا تستطيع أن تجعل الأمر بشكل أبسط ؟ .

ـ ليس ثمة ما هو أبسط منه . أنا أحبك .

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ الرأي لك الآن .

ـ أتريدني أن أقول لك إنني أحبك أيضاً ؟

ـ أريدك أن تقولي شيئاً ما .

ـ القضية ، ياتيموفي ايفانوفتش... اوه ، كيف عساي أن أعبّر عنها ؟ إنني أميل اليك بعض الميل وحسب... أنت طويل القامة جداً .

فوعدتها قائلاً :

ـ وسيزداد طولي .

ـ ولكننا لايعرف أحدنا الآخر الا قليلاً . اننا...

ـ مع مر الوقت ستتوثق معرفتنا .

فمسحت خديها المبللين بيد وردية وقالت :

ـ حسناً ، فلنعش سوية . والزمان خير حكم . ولكن عليك أن تدعني أفسخ علاقتي السابقة أولاً .

فتساءلت :

ـ مع من ؟

ـ أنت لا تعرفه . طبيب ، اختصاصي بالأمراض التناسلية .

ـ متى ستتحررين منه ؟

---

* ايفان تورغينيف ، الأديب الروسي المعروف ، مؤلف «الآباء والبنون» و« آسيا » وغيرهما . المترجمون

ـ الجمعة ، كما آمل .

ـ هل سنعيش سوية ؟ اعني ، في شقة واحدة ؟

ـ نعم فإنني أعتقد أن هذه الطريقة هي الأفضل . عليك أنت أن تنتقل الى شقتي .

ـ لماذا ؟

ـ لدي غرفة مريحة جداً . نظيفة ، وصاحبة الدار امرأة لطيفة .

لم اثر أي اعتراض وافترقنا عند منعطف شارع تفرسكايا . وتبادلنا قبلة اثارت دهشة كبيرة لدى سيدة عابرة .

ترى ، ماذا يخبىء المستقبل لي ؟

٢٢ أيار

أعيش حياة ملؤها الحلاوة . على أن حياتي«الحلوة» غشيتها اليوم سحابة حينما أخبرتني ليزا أن علي أن أغير ملابسي الداخلية . لا شك في أن ملابسي الداخلية في حال تثير التقزز . ولكن أين النقود ، أين النقود ؟... . نحن نصرف من نقودي ، ولم يبق إلا القليل . سيتعين علي إيجاد عمل .

٢٤ أيار

قررت اليوم أن أبتاع لي شيئاً من الملابس الداخلية ، على أن ليزا فتحت لي باباً جديداً للصرف . فقد اجتاحتها فجأة رغبة لاتقاوم في تناول الغداء في مطعم جيد وشراء جوارب حريرية لها . تغدينا واشترينا الجوارب ، وانتابني اليأس . لن تكون لي ملابس داخلية!

٢٧ أيار

إنها تمتصني حتى الجفاف . فجسدي لم يعد أكثر من ساق جرداء لزهرة عباد الشمس . إنها ليست بامرأة ، إنما نار مدمرة!

٢ حزيران

استيقظنا اليوم في التاسعة . إن عادتي اللعينة في تمطية أصابع قدمي أدت الى النتائج التالية . جرت الغطاء فعرضت قدمي لفحص دقيق . ثم لخصت رأيها كالآتي : ـ«لك قدم مثل حافر حصان . وأسوأ! أما ذلك الشعر على أصابع قدمك ـ أوف!» وهزت كتفيها بتقزز محموم ، ودفنت رأسها تحت الغطاء واستدارت صوب الحائط .

أصابتني الحيرة . ودسست قدمي أخفيها عن الأنظار ، ولمست كتفها .

ـ ليزا!

ـ اتركني وشأني!

ـ ليزا ، هذا لامعنى له . فأنا لا أستطيع أن أغير شكل قدمي ، فلم أوص عليها ، كما تعلمين . أما من ناحية الانبات فليس لامرىء أن يعرف أين سينبت الشعر في المرة القادمة . إنه ينبت في كل مكان . أنت طالبة طب ، ويتعين عليك أن تكوني ملمة بقوانين الطبيعة .

استدارت . وكان ثمة وميض خبيث في عينيها البندقيتين :

ـ بالله عليك ، اشتر شيئاً من المسحوق المعطر . فقدماك تفوحان برائحة كريهة كجثث الموتى .

فأجبت بدافع العدالة بأن يديها تعرقان على الدوام . فلاذت بالصمت ، وخيمت على روحي سحابة عتماء ، اذا توخينا استعمال الكلمات الضخمة . الأمر ليس متعلقاً بالقدم والشعر... .

٤ حزيران

رحنا اليوم بنزهة في القارب في نهر موسكو . تذكرنا مرابع الدون . إن سلوك ليزا لا يليق بها . فهي لاتني تصب العبارات الجارحة على رأسي ، وهذه في بعض الأحيان شديدة القسوة . فلو أنني رددت عليها بالمثل لكان

معنى ذلك انفصام علاقتنا ، وهذا مالا أريده . وعلى الرغم من كل شيء فإنني أزداد تعلقاً بها يوماً بعد يوم . انها ، ببساطة ، فتاة مدللة ، بيد أنني أخشى أن لا يكون تأثيري عليها من القوة بحيث يؤدي الى أي تغيير جذري في طباعها . إنها فتاة منقلبة الأطوار . أضف الى ذلك أنها فتاة صغيرة خبرت أشياء لم يحدث أن تعرفت عليها أنا الا عن طريق السماع . وفي طريق العودة جذبتني الى صيدلية وابتاعت ، وعلى وجهها ابتسامة ما ، مسحوقاً معطراً وترهات اخرى .« إن هذا سيخفف من فوح الرائحة الكريهة » .

انحنيت لها باحترام وشكرتها .

شيء سخيف ، ولكن ما الحيلة ؟

٧ حزيران

ليس لها ، في الواقع سوى ذكاء ضئيل جداً ، ولكنها خبيرة بجميع القضايا الأخرى .

وفي كل ليلة ، وقبل الذهاب الى الفراش ، صرت أغسل قدمي بالماء الحار ، وأصب عليهما شيئاً من ماء الكولونيا ، وارشهما بمادة مقززة أخرى .

١٦ حزيران

إنها تغدو مستحيلة الاحتمال يوماً بعد يوم . انتابتها أمس نوبة من الهستيريا . إنه لشيء بالغ الصعوبة أن يعيش المرء مع امرأة كهذه .

١٨ حزيران

ليس ثمة تشابه في طباعنا وميولنا قط! حتى اللغة التي نتحدث بها لم تعد واحدة . الشيء الذي يربطنا هو السرير وحياة تافهة .

حدث هذا الصباح أن مضت الى جيبي لتأخذ نقوداً قبل الذهاب الى

الخباز فعثرت على دفتر المذكرات الصغير هذا . نظرت اليه ، وقالت :
ـ ما هذا الذي تحمله في جيبك ؟
فشعرت بالحمى تسري في أوصالي . هبها ألقت نظرة في داخله ؟ وانتابتني الدهشة حين وجدت نفسي أجيب بصوت طبيعي : «مجرد دفتر ملاحظات للحساب» .
فدسته في جيبي ثانية بلا أدنى اكتراث ، وخرجت . عليّ أن أكون أكثر حذراً . إن انطباعات مباشرة كهذه ليست بذات قيمة الا حينما يكون الشخص الآخر جاهلاً بها كل الجهل . إنها ستكون مصدر تسلية لصديقي فاسيا .

٢١ حزيران

إن ليزا تذهلني . هي في الحادية والعشرين . فمتى تسنى لها أن تغدو متحللة الى هذا الحد ؟أي نمط من العوائل عائلتها ؟ من كانت له يد في تنشئتها ؟ إن هذه الأسئلة تثير فيّ أقصى الاهتمام ، إنها جميلة بشكل مريع . وهي فخورة بقوامها الكامل . إنها تعبد نفسها ، وليس في العالم شيء يهمها غير ذلك ، لقد حاولت مراراً أن أبدأ معها حديثاً جدياً ، ولكن... . أن تقنع«مؤمناً قديماً» بعدم وجود الله أسهل من تعيد تربية ليزا .
لقد غدا العيش سوية أمراً مستحيلاً وسخيفاً . ومع ذلك فإنني أشعر بالتردد إزاء فصم العلاقة . ولا بد لي من الاقرار بأنني غدوت كلفا بها رغم كل شيء . لقد غدت جزءاً مني .

٢٤ حزيران

تبين أن غيظها له أسباب بسيطة . تبادلنا حديثاً مكشوفاً اليوم وأخبرتني بأنني لم استطع أن اشبع جسدها . لم يتم الانفصام بعد . لعل ذلك في غضون بضعة أيام .

٢٦ حزيران

إن ما نحتاج اليه هو جواد فحل! فحل بمعنى الكلمة!

٢٨ حزيران

يشق عليّ كثيراً أن أتخلى عنها . إني التصق بها التصاق القدم بالوحل . خرجنا اليوم الى تلال فورو بيوفي . جلست بجانب نافذة الفندق وترشحت الشمس من تحت السقف المزخرف على جعدات شعرها . إن لشعرها لون الذهب الخالص . ها أنا قد غدوت أنظم شعراً!

٤ تموز

تركت عملي ، اذ تركتني ليزا . شربت اليوم جعة مع سترزنيف . بالأمس شربنا الفودكا . افترقنا ، أنا وليزا ، كما يفترض في الناس المهذبين أن يفترقوا ، وبطريقة لائقة بلا منغصات . واليوم رأيتها في شارع دميتروفكا بصحبة شاب يرتدي جزمة راكبي السباق . استجابت لتحيتي بتحفظ . لعل الوقت قد حان لأن أتوقف عن كتابة هذه المذكرات ـ فقد نضب معينها .

٣٠ تموز

انني ملزم على ماكنت أتوقع تماماً بتناول القلم من جديد . هي الحرب . حماس بهيمي متفجر . كل أصحاب القبعات العالية يفوحون بالوطنية كالكلاب الميتة . الآخرون ساخطون ، غير أنني أشعر بالرضا . لقد أضناني الحنين الى... . «فردوسي المفقود» . طاف بي ليلة أمس حلم هادىء صغير عن ليزا . لقد خلفت فيّ أثراً عميقاً من التشوق . ليته يتجلى .

١ آب

لقد سئمت من كل هذا الضجيج والاضطراب . عاودني الحنين القديم . أنا امصه كمايمص طفل مصاصة .

٣ آب

مخرج من الأزمة! سوف أمضي الى الحرب . حماقة ؟ تماماً . شيء مخجل ؟
ولكن ماعساني أفعل غير ذلك ؟ واه على أي شيء له طعم مغاير! ومع ذلك ، فقبل عامين لم يكن لدي أي شعور بالتخمة كهذا . أم ترى أن الهرم بدأ يدب فيّ ؟

٧ آب

ها أنا أكتب في القطار . لقد تركنا فورونيج لتونا . وفي الغد سأكون بين أهلي . لقد اتخذت قراري . سوف أحارب من أجل «الدين والقيصر ، وأرض الاجداد » .

١٢ آب

يا للتوديع الحافل الذي شيعوني به . كَرّع الأتمان قدحاً أو قدحين ثم القى خطبة جياشة . واخبرته همساً ، بعد ذلك ، إنه أحمق . فصعق ، حتى أن خديه اخضر لونهما مهانة . ثم فح صوته بحقد : «أنا أيضاً أفهم في الأمر . عسى الا تكون واحداً من أولئك الذين اذقناهم لفح السوط عام ١٩٠٥ ، أليس كذلك ؟» فأجبت بأنني ، مع الأسف الشديد ، لست «واحداً من أولئك» . بكى أبي وحاول أن يقبلني وقطرة سائلة تتدلى من أرنبة أنفه . يالأبي العزيز المسكين! كان عليه أن يكون في مكاني . واقترحت عليه هازلاً

أن عليه أن يأتي معي ، فهتف مذهولاً : «ولكن ماذا عن شؤون الضيعة ؟» . غداً ، سأغادرهم ميمماً شطر المحطة .

١٣ آب

هنا وهناك ، حقول قمح غير محصود . سناجب أرضية على الاكمات . إن لها شبهاً عجيباً بالألمان الذين نراهم في الصور الرخيصة وقد انغرز فيهم رمح كوزما كروتشكوف . كان ياما كان ، ويوم كنت تلميذاً أدرس الرياضيات والعلوم الدقيقة الأخرى ، لم يمر في خاطري قط أنني سأعيش الى اليوم الذي أجد فيه نفسي«داعية وطنياً» . ما أن التحق بإحدى الكتائب حتى أتوجه بخطبة الى القوزاق .

٢٢ آب

في إحدى المحطات الواقعة على الخط الحديدي رأيت أول جماعة من الاسرى . كان ضابط نمساوي وسيم رياضي البنية يساق تحت الحراسة صوب بناية المحطة . وكان ثمة فتاتان تتمشيان على الرصيف ، فابتسمتا له . واستطاع أن يدبر لهما انحناءة أنيقة جداً دون أن يتوقف ، وأطار قبلة في الهواء صوبهما . كان ، حتى في أسره ، حليق الذقن ، مهذباً ، وجزمته البنية ملمعة . لبثت أراقبه وهو يمضي مبتعداً . شاب وسيم ، وجه لطيف ودود . لو صادفته في معركة ، لما ارتفعت ذراعك لضربه .

٢٤ آب

لا جنون ، لاجنون ،لاجنون… إن كافة الخطوط الحديدية مزدحمة بقطر من اللاجئين والوحدات العسكرية .

مر أول قطار طبي تواً . وحينما توقف قفز منه جندي فتي . وجهه معصوب . تحادثنا . كان قد جرح بقذيفة عنقودية . كان فرحاً الى حد كبير

لأن من المحتمل أن يعفى من أية خدمة عسكرية أخرى . كانت عينه تالفة . على أنه كان يضحك في الواقع .

٢٧ آب

أنا الآن في كتيبتي . وآمر الكتيبة شيخ لطيف جداً . قوزاقي من الدون الأسفل . إن بمقدور المرء أن يشم رائحة الدم هنا . والشائعات تسري بأننا سنكون في الخط الأمامي بعد غد . أنا في الرعيل الثالث من السرية الثالثة ـ قوزاق من ناحية قسطنطينوفسكايا . رهط تعس . ليس بينهم سوى ماجن ومغن واحد .

٢٨ آب

نحن في الطريق . واليوم ، ينبعث من هناك الكثير من الجلبة . أصوات كالرعد تقصف من بعيد . حتى أنني تشممت الهواء بحثاً عن المطر . بيد أن السماء كانت كالحرير الأزرق .

أمس ، صار حصاني أعرج ، فقد سحج ساقه في عجلة مطبخ الميدان . كل شيء جديد وغريب . لست أدري بم أبدأ وعم أكتب .

٣٠ آب

أمس لم يكن لدي وقت للكتابة . وها أنا الآن أكتب على السرج . ان الارتجاج يجعل قلمي يخط غرائب وعجائب . نحن ثلاثة ماضون على خيلنا مع عجلة علف لجلب العشب .

هاهم الاولاد يقومون بحزم الحمولة ، وأنا متمدد على بطني أدون تسجيلاً متأخراً لما حدث أمس . أمس ، العريف تولوكونيكوف (الذي يناديني باحتقار « أيها التلميذ » ، « لا اسمع يا أنت ، أيها التلميذ ، الا تستطيع أن ترى أن حدوة حصانك قد انخلعت ؟ ») ـ هذا العريف أرسل ستة منا للاستطلاع .

مضينا عبر قرية التهمتها النار عن آخرها . كان الجو شديد الحر . كانت الخيل تتصبب عرقاً ، وكذلك نحن . لا يجوز الزام القوزاق بارتداء السراويل الجوخ في الصيف . في حفرة خارج القرية رأيت أول جثة الماني . ملقى على ظهره وساقاه في الحفرة . التوت احدى ذراعيه تحته . بينما أطبقت الثانية على حافظة بندقية .لابندقية في أي مكان على مقربة منه . منظر مميت ، قشعريرة باردة تسري الآن في عمودي الفقري وأنا أفكر به... .

بدا وكأنه قد قعد وساقاه في الحفرة ، ثم تمدد على ظهره للاستراحة . بزة وخوذة رماديتان . باستطاعتك أن ترى البطانة الجلدية . لقد أصابني ذهول في هذه التجربة الاولى حتى صار من المستحيل عليّ الان تذكّر وجهه . لا شيء سوى النمل الكبير الأصفر يتزاحف فوق جبينه الأصفر وعينيه الجامدتين نصف المغمضتين . أما القوزاق فقد رسموا إشارة الصليب عليهم وهم يمرون بجانبه . نظرت الى بقعة الدم الصغيرة على الجانب الأيمن من بزته . لقد أصابته الرصاصة في جانبه الأيمن واخترقته . وبينما كنت أمر به لاحظت أن في الجانب الأيسر حيث خرجت الرصاصة من جسمه كانت البقعة الحمراء على بزته وكتلة الدم على الأرض أكبر بكثير ، والبزة ممزقة ارباً ارباً .

تركته والقشعريرة تخضني ، اذن ، هكذا يحدث الأمر... .

العريف الأقدم ، المكنّى« بالمزعج » ، حاول أن يستنهض مرحنا بأن راح يقص علينا حكاية بذيئة ، بيد أن شفتيه كانتا ترتعشان .

وبعد مسيرة نصف فرست تقريباً من القرية ، صادفنا معملاً مبقور البطن ، لم يبق منه سوى حيطان من الطابوق سودها الدخان عند القمة . خشينا ان نمضي باستقامة الطريق لأنه كان يمتد بمحاذاة هذا التل من الرماد ، فقررنا ان ندور حوله من الجانب الآخر . وما ان خرجنا عن الطريق حتى شرع أحدهم باطلاق الرصاص علينا من جهة المعمل .لقد كاد صوت تلك الطلقة الاولى أن يقلبني من على سرجي ، وإن كنت أشعر بالخجل من

الاقرار بذلك . قبضت على رمانة السرج ، وبحركة غريزية انحنيت وشددت على العنان . انطلقنا عائدين هذباً الى القرية مارين بالحفرة التي رقد فيها الالماني القتيل ، ولم نستعد صوابنا الا بعد أن خلفنا القرية وراءنا . ثم استدرنا وترجلنا . تركنا الخيل مع رجلين ، وشق أربعتنا الطريق عائدين الى تلك الحفرة . جثونا لنمضي خلالها . ومن بعيد وقع بصري على ساقي الالماني القتيل في جزمتهما الصفراء القصيرة ، مدلاتين فوق الحافة . وحينمامررت به قطعت نَفَسي ، كما لو كان نائماً أخشى إيقاظه . كان العشب تحته ندياً أخضر .

تمددنا في الحفرة ، وما أن مرت بضع دقائق حتى انطلق تسعة ألمان منح املي الحراب راكبين من وراء خرائب المعمل المهدوم . كان بمقدوري أن أشخص فيهم حاملي حراب من بزاتهم . صاح أحدهم ، ضابط حتماً ، بصوت غليظ ، فانطلقت المفرزة برمتها باتجاهنا .

هاهم الاولاد ينادون عليّ الآن لاذهب لمساعدتهم في تحميل العشب . يجب أن أمضي .

٣٠ آب

أريد أن أتم وصف كيف أطلقت الرصاص على رجل لأول مرة في حياتي . هجم حاملوا الحراب الالمان علينا ، ولا أزال أستطيع أن أرى تلكم البزات الخضر بلون السحالي وخوذهم المتلألئة التي تشبه الأجراس شكلاً ، ورماحهم والأعلام ترفرف في رؤوسها .

كانوا يمتطون خيلاً كمتاً غامقة اللون . ولسبب ما سرحت بنظري على حافة الحفرة ولاحظت خنفساء صغيرة زمردية . راح جرمها يكبر حتى بدت هائلة الحجم . وجعلت تشق طريقها ، وهي تهز أوراق الحشيش كالعملاق ، متجهة صوب مرفقي الذي كنت قد ركزته على فتات الطين الجاف للحافة . تسلقت كم قمصلتي وزحفت مسرعة نحو البندقية ، ومنها الى الحمالة .

/

كنت لا أزال اراقب رحلتها حينما تناهى اليّ صوت «المزعج»زاعقاً : «اطلق النار ، ماذا دهاك ؟!»

ركزت مرفقي بثبات أكثر ، وضيقت عيني اليسرى وشعرت بقلبي يتضخم حتى غدا هائلاً كتلك الخنفساء . وارتعشت موجهات بندقيتي ازاء بزة رمادية مخضوضرة .ضغطت على الزناد واستمعت الى نواح الرصاصة الطائر . والى جانبي اطلق«المزعج» ناره ، لا بد أن موجهاتي كانت خفيضة اكثر مما يجب ، ذلك لأن الرصاصة ارتدت عن الارض فأطارت قرمة من العشب وخلفت مشاراً من الغبار . تلك أول طلقة سددتها على رجل في حياتي . ثم افرغت مخزن العتاد دونما تصويب ، ودون أن أرى شيئاً أمامي . ولم ألق نظرة باتجاه الالمان الا حالما سحبت الزناد فلم الق استجابة . كانوا يسرعون عائدين على نفس النمط الأول ، والضابط في المؤخرة . كانوا تسعة كما من قبل . واستطعت أن أرى الكفل الاسمر الغامق لحصان الضابط والصفحة المعدنية في قمة خوذته ، خوذه حاملي الحراب .

٢ أيلول

في «الحرب والسلم» فقرة يتحدث فيها تولستوي عن الخط الفاصل بين الجيشين المتقاتلين ، خط المجهول الذي يبدو أنه يفصل بين الأموات والأحياء ، تمضي السرية التي يخدم فيها نيكولاي روستوف الى القتال ، ويرى روستوف دلك الخط بعيني بصيرته . انني أتذكر تلك الفقرة على وجه التخصيص بشكل حي هذا اليوم ، لأننا في فجر اليوم قمنا بهجوم على وحدة من الخيالة الالمانية الخفيفة . فمنذ غبشة الصباح كانت قواتهم ، تساندها المدفعية الممتازة ، تشيع القلق في صفوف مشاتنا . رأيت بعض رجالنا ـ كتيبتي المشاة ٢٤١و٢٧٣ ، على ما أظن ـ يلوذون بالفرار وقد استبد بهم الرعب . لقد انهارت معنوياتهم تماماً بعد أن دفعوا الى الهجوم من غير ما مدفعية تساندهم . وكانت نار العدو قد حصدت ثلث عددهم تقريباً ، وكانت

الخيالة الالمانية تطاردهم . ثم قذف بكتيبتنا في المعركة ، وكانت تقف في فسحة داخل احدى الغابات . هذا هو الحدث كما أتذكره .

غادرنا قرية تيشفيتشي بين الثانية والثالثة صباحاً . كان الفجر على وشك أن يطل ، والظلام دامساً ، وكان الهواء مفعماً برائحة الشوفان وابر الصنوبر . تقدمت الكتيبة على شكل سرايا . انحرفنا عن الطريق وصرنا نضرب عبر الحقول . وراحت الخيل تنخر وهي تنفض الندى الثقيل عن الشوفان بحوافرها .

كان البرد لاسعاً رغم معاطفنا . جعلوا الكتيبة تسير عبر الحقول وقتاً طويلاً ، ومرت ساعة قبل أن يقدم ضابط على حصانه ويسلم أمراً الى آمرالكتيبة . وتلا شيخنا الأمر علينا بنبرة برمة ، فاستدارت الكتيبة يميناً صوب الغابة . وانحشرت أرتالنا في الممرالضيق . كان القتال يدور في موضع ما الى اليسار . وأدركت من الأصوات ، أن عدداً كبيراً من البطاريات الالمانية تطلق النيران . وكان صوت الرمي يتذبذب في الهواء ، فخامرني شعور بأن كل الصنوبر الشذي فوق رؤوسنا تلتهمه النيران . ولم نكن لنفعل شيئاً غير الإنصات ، حتى مشرق الشمس . انطلق هتاف« هورا » ، هتاف مبتور مهلهل ، ثم خيم السكون يسحبه الطَرق الصافي للمدافع الرشاشة ، وفي تلك اللحظة كانت أفكاري تدور في دوامة ، كان الشيء الوحيد الذي أستطيع تذكره ـ واضحاً كل الوضوح والى حد الالم ـ هو وجوه مشاتنا وهم يتقدمون .

كنت أستطيع أن أرى بعين بصيرتي تلك الهياكل الرمادية الخرقاء ، بقبعاتهم العسكرية المسطحة ، وجزمهم القصيرة الغليظة وهي تضرب على الارض الخريفية ، وكنت أستطيع أن استمع الى ثرثرة المدافع الرشاشة الالمانية ، الحادة المبحوحة ، وقد شرعت تحيل هذه الأجسام البشرية العرقة الحية الى جثث .

كانت الكتيبتان قد حصد منهما الكثير ، فهرب الباقون تاركين

أسلحتهم وراءهم ، ثم أغارت كتيبة من الخيالة الالمانية الخفيفة عليهم . فخرجنا اليهم من جانبهم على مبعدة قليلة . وصدر أمر إلينا . فتشكلنا في الحال . ثم سمعت أمراً بارداً مقتضباً :

«الى الأمام!» . وبدا وكأنه يمنعنا عن التقدّم . كما تفعل الشكيمة بالحصان . ثم انطلقنا إلى الأمام كانت اذنا حصاني ملتصقتين تماماً على رأسه بحيث لم يكن أن ترفع باصابع اليد . ألقيت نظرة حولي ـ كان ورائي آمر الكتيبة وضابطان . أجل ، هو ذاك الخط الفاصل بين الأحياء والأموات . تلك هي ، لحظة الجنون الكبرى!

تخبط الخيالة الالمان واستداروا أمام عيني ، قام آمر سريتنا تشيرنتسوف بقتل فارس ألماني . ورأيت قوزاقياً من السرية السادسة يلحق بألماني ويعمل سيفه بجنون بكفل حصانه . وانثالت شرائط من الجلد عن السيف فيما كان يعلو ويهبط . كان شيئاً لا يصدق! لا اسم له! وفي طريق العودة رأيت الى وجه تشيرنتسوف ، راسخاً مرحاً ـ وكأنه جالس الى طاولة قمار ، لا على سرجه ،وقد قتل رجلاً لتوه ، سيصعد آمر السرية تشيرنتسوف في مدارج الرقي . إنه رجل كفوء!

٤ أيلول

نحن في فترة استراحة . يجري الآن استقدام الفرقة الرابعة للجيش الثاني الى الجبهة . نحن معسكرون في بلدة كوبيلينو الصغيرة . مرت هذا الصباح مسرعة عبر البلدة وحدات من فرقة الخيالة الحادية عشرة وقوزاق الاورال . مازال القتال مستمراً في الجبهة الغربية . هدير لا ينقطع . ذهبت بعد الغداء الى مستشفى الميدان . كانت عربات الجرحى قد وصلت لتوها . وكان حَمَلة النقالات يفرغون عربة كبيرة ويتضاحكون . مضيت اليهم . كان جندي مديد القامة ذو وجه مجدور قد هبط لتوه بمساعدة نفر وهو يتألم ويبتسم . قال ، موجهاً كلامه الي : «مارأيك بهذا أيها القوزاقي . لقد افرغوا

حملاً من الحمص في عجيزتي . إنها ملأى بنثار قذيفة عنقودية » . فسأله النفر إن كانت القذيفة قد انفجرت خلفه .«اللعنة على خلفي . كنت أتقدم مديراً ظهري الى الأمام» . خرجت ممرضة من أحد الأكواخ . رنوت اليها فشعرت بضعف بالغ حتى أنني اضطررت الى الاتكاء على عربة . كان لها شبه خارق بليزا . العينان نفسيهما ، الوجه البيضوي نفسه ، الأنف ، الشعر ، حتى صوتها كان مشابهاً . أم تراني كنت أتخيل الأشياء ؟ أحسب أنني ، الآن ، سأجد شبهاً لها في كل امرأة أصادفها .

٥ أيلول

نعمت الخيل بيوم كامل من الطعام في المعالف ، وها نحن بصدد المضي الى الجبهة من جديد . أنا حطام من الناحية البدنية . وها هو البوقي يطلق الايعاز بالركوب . هو ذا رجل بودي أن أضع رصاصة في رأسه! »

***

كان آمر السرية قد أرسل غريغوري ميليخوف يحمل رسالة الى مقر قيادة الكتيبة . وفيما كان سائراً على حصانه عبر المنطقة التي وقع فيها القتال الاخير لاحظ قوزاقياً ميتاً ممدداً على قارعة الطريق العام . كان مستلقياً برأسه الاجعد الاشقر قريباً من الطريق الذي حفرته السنابك . فترجل غريغوري وأمسك انفه (فقد كان الميت يفوح بجيفة التفسخ) ، وفتشه . فوجد دفتر المذكرات هذا في جيب سرواله ، وبقية قلم لا يمحي أثره ومحفظة نقود . ازاح سير العتاد ونظر الى الوجه البليل الشاحب الذي جعل يتفسخ . كان لون الصدغين وجسر الانف يحول الى سواد وعلى جبينه أخدود مائل معفر بالتراب وقد جمد هناك جمود الأموات .

غطى غريغوري الوجه بمنديل رقيق القماش وجده في جيب الميت ثم مضى على حصانه الى المقر ، كان يلقي بين الفينة والفينة نظرة الى الوراء...

وسلم دفتر المذكرات الى كُتّاب المقر الذين تجمعوا ليقرؤوه ويضحكوا من حياة هذا الرجل الوجيزة ورغباته الدنيوية .

١٢

خلال بداية شهر آب ، راحت فرقة الفرسان الحادية عشرة تستولي خطفاً على المدن ، واحدة إثر الاخرى ، وفي أواسط الشهر كانوا منتشرين حول بلدة كامينكا ـ سترو ميلو فو . وكان الجيش ، يأتي خلفهم ، ووحدات المشاة تتكتل في قطاعات ستراتيجية مهمة ، ووحدات القيادات وقطر الأمتعة تتجمع عند مفارق خطوط السكك الحديدية . وامتدت الجبهة من البلطيق كلفحة سوط مميتة . وفي مقر هيئة الاركان كان العمل يجري لاعداد هجوم كبير . كان الجنرالات يحدقون في خرائطهم ، والسعاة الفرسان يمرقون جيئة وذهاباً حاملين أوامر المعركة ، وكان مئات الالاف من الجنود يغذون السير نحو حتفهم .

افادت دوريات الاستطلاع أن قوات كبيرة من خيّالة العدو كانت تقترب من البلدة . وفي الغابات الواقعة على امتداد الطرق حدثت مناوشات بين مفارز القوزاق والحرس الأمامي للعدو .

منذ أن رأى غريغوري ميليخوف أخاه وهو يسعى لوضع حد لأفكاره المؤلمة ، ولاستعادة هدوئه الذهني السابق . بيد أن ذلك كان عبثاً . وفي التعزيزات الأخيرة التي جيء بها من وجبة الاحتياط الثالثة ، كان ثمة قوزاقي يدعى اليكسي اوريوبين قد جند في رعيل غريغوري . كان اوريوبين طويل القامة ، ظهره مقوس ، وفكه الاسفل عدائي المظهر ، وعذاراه كالميكيان متهدلان . كانت عيناه الجذلتان الجريئتان دائمتي الابتسام ، وكان أصلع الرأس خلا شعرات مفرقة حمر حول حوافي جمجمته حادة التقاطيع . وقد أطلقت عليه كنية «الاشعث» منذ اليوم الاول لوصوله .

بعد أن انتهى القتال حول بلدة برودي أعطيت الكتيبة يوماً للراحة . كان غريغوري واوريوبين ينزلان كوخاً واحداً ، وسرعان ما ضمهما حديث :

ـ اتعلم ، يا ميليخوف ، لا بد أنك مهلوس .

فتساءل غريغوري متجهماً :

ـ ماذا تعني : مهلوس ؟

فشرح له اوريوبين :

ـ أنت خامل ، كأنك مريض .

كانا يطعمان حصانيهما وقد توقفا يدخنان وظهراهما الى سياج متداع نما عليه الطحلب . كان ثمة فرسان يسيرون في الطريق في تشكيله رباعية ، وجثث الموتى مبعثرة هنا وهناك حذاء الاسيجة ، فقد نشب القتال في الشوارع أثناء انسحاب النمساويين ، وكانت رائحة أشياء محروقة تنبعث من خرائب معبد يهودي مبقور البطن . وفي زحمة الالوان الثرة للمساء المبكر بدت البلدة صورة هائلة واحدة للخراب والفراغ الموحش .

ـ أنا بخير ـ وبصق غريغوري دون أن ينظر الى الآخر .

ـ أنت تكذب! لي عينان أرى بهما!

ـ حسناً ، وما الذي باستطاعتك أن تراه ؟

ـ أنت خائف! تخاف الموت ؟

ـ انك أحمق! ـ قال ذلك غريغوري بازدراء ، وهو يحدق في أظافره بعينين ضيقتين .

فأستأنف اوريوبين استجوابه محدقاً في وجه غريغوري :

ـ قل لي ، هل قتلت أحداً ؟

ـ نعم ، وماذا في ذلك ؟

ـ هل يثقل ذلك على قلبك ؟

ـ يثقل على قلبي ؟

وابتسم غريغوري بمرارة .

فاستل اوريوبين حسامه من غمده ، وقال :

ـ اتريدني أن أطوح برأسك ؟

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ سأقتلك بلا انّه ندم . لا رحمة عندي .

كانت عينا اوريوبين تبتسمان ، ولكن غريغوري ادرك من صوته واختلاجة منخريه الوحشية أنه يعني ما يقول .

فقال غريغوري ، وهو يتفحص وجه اوريوبين عن كثب :

ـ أنت غريب الأطوار ، أنت متوحش .

ـ ياه ، إن قلبك مصنوع من ماء . اتعرف هذه الضربة ؟ انتبه!

وانتقى اوريوبين شجرة بتولا عجوزاً في السياج ، ويمم صوبها مباشرة ، وهو يقيس المسافة بنظرة . وتدلت دونما حراك ذراعاه الطويلتان القويتان برسغيهما العريضين بشكل خارق .

ـ انتبه!

ورفع حسامه ببطء ، وفجأة هوى به مائلاً بقوه فظيعة . فقطع الشجرة كلياً على علو اربعة ارشينات* من الأرض ، فهوت ، واغصانها تخبط على النافذة وتخمش حيطان الكوخ .

ـ أرأيت ذلك ؟ تعلّمه . كان هناك اتمان يدعى باكلانوف ، أسمعت به ؟ كانت شفرة حسامه مسقيه بالفضة . فكان رفعه ثقيلاً ولكنه كان يستطيع أن يشطر حصاناً به . هكذا!

استغرق غريغوري وقتاً طويلاً ليتعلم تكنيك هذه الضربة الجديدة .

ـ أنت قوي ، ولكنك بليد في استعمال سيفك . هذه هي الطريقة!

ومضى اوريوبين يعلمه ، هاوياً بحسامه على نحو مائل وبقوة هائلة . ـ اقتل الناس بقوة قلب! فالانسان رخو كالعجين ـ وسرت ابتسامة الى عينيه ـ

---

* مقياس طول روسي قديم يساوي ٠,٧١ متر . الناشر .

لا تفكر بالاسباب والنتائج . أنت قوزاقي ، مهمتك أن تقتل دون أسئلة . إن قَتْلك عدواً في معركة واجب مقدس . وكل رجل تقتله تكفر لك عن خطيئة عند الرب وكذلك عند قتلك لأفعى ولكن لا تقتل حيواناً الا عند الضرورة ، عجلاً أو غيره ولكن امحق الانسان! إنه كافر ، نجس . يسمم الاراضي ، وهو يعيش مثل نبات الفطر!

واذ اعترض غريغوري على كلامه ، قطب وجهه وخلد الى صمت عنيد .

لاحظ غريغوري مندهشاً ان جميع الخيول كانت تخاف اوريوبين فاذا ما اقترب منها نصبت آذانها وتجمعت معاً وكأن المتقدم منها حيوان لا انسان . وحدث ذات مرة أن كان على السرية أن تشن هجوماً على الاقدام في منطقة تغطيها الغابات والمستنقعات . فاقتيدت الخيول الى وهدة جانبية . وكان اوريوبين من بين الذين انتدبوا لهذا العمل ، الا أنه رفض ذلك رفضاً باتاً . فهاجمه عريف الرعيل : «اوريوبين لماذا بحق الشيطان لا تقود خيلك ؟ »

أجاب اوريوبين والتلألؤ المعهود يومض في عينيه : «إنها تخافني ، والله ، انها تخافني! »

لم يكن ليأخذ دوره في سوس الخيل قط . سوى أنه كان يعامل حصانه بلطف ، بيد أن غريغوري لاحظ أنه كلما اقترب من الحيوان مسبل اليدين كالعادة سرت رجفة في ظهر الحصان وراح يتململ قلقاً .

وسأله غريغوري ذات مرة : «قل لي ، لمَ تخافك الخيل ؟ » فأجاب ، هازاً كتفيه : «لا أدري . فأنا شفيق بها » .

ـ انها تعرف السكير فتخشاه ، ولكنك لا تسكر قط .

ـ عندي قلب قاس ، ويبدو انها تحس بذلك .

ـ ان لك قلب ذئب . أو لعل الذي لديك حجر وليس قلباً البتة .

ـ جائز! ـ رد بذلك اوريوبين موافقاً .

أرسل الرعيل الثالث في مهمة استطلاعية . اذ كان تشيكي هارب من الجيش النمساوي قد أخبر القائد الروسي في المساء السابق عن تحول في

موقف قوات العدو وعن نيته بشن هجوم مضاد ، فاستجدت الحاجة الى بث مراقبة دائمة على الطريق الذي يتعين على الكتائب المعادية أن تجتازه . ترك ضابط الرعيل أربعة قوزاق بصحبه العريف في طرف احدى الغابات ، واتجه هو بالباقين صوب بلدة تقع خلف المرتفع الآخر . وكان الذين تركوا مع العريف هم غريغوري ، واوريوبين ، وميشا كوشيفوي ، وقوزاقي آخر . اتخذوا موقعاً لهم بالقرب من مصلّى قديم .

اصدر العريف لهم أمراً بالترجل وطلب من كوشيفوي أن يقود الخيل الى ماوراء أجمة كثيفة من أشجار الصنوبر ويعنى بها .

استلقى القوزاق يدخنون بجانب صنوبرة ساقطة ، فيما راح العريف يراقب المدى خلل منظارته . ولبثوا هناك نصف ساعة يتبادلون جملاً كسلى . وكان يتناهى من مكان ما الى اليمين هدير رمي متواصل . وكان ثمة حقل من الجويدار غير المحصود على مبعدة بضع خطوات ، لم تعد سنابله تحمل حبوباً ، يتماوج في مهب الريح . فزحف غريغوري الى داخل الجويدار ، وانتقى بضع سنابل لم تزل محملة ، فقشرها ومضى يمضغ الحبوب .

قال العريف بصوت خفيض :

ـ لا بد أنهم نمساويون .

انتفض سيلانتييف : ـ أين ؟

ـ انظر الى اليمين .

خرجت ثلة من الفرسان من غابة بعيدة وتوقفت لتتفحص المنطقة المكشوفة ، ثم استأنفت عدوها باتجاه القوزاق .

صاح العريف : ـ ميليخوف!

زحف غريغوري الى شجر الصنوبر .

همس العريف بنبرة محمومة :

ـ لندعهم يقتربون ثم نَصْليهم بنارنا استعدوا ببنادقكم ، يا أولاد .

مضى الفرسان من غير عجلة متجهين الى اليمين . أما القوزاق الاربعة فكانوا منبطحين تحت الصنوبر صامتين وأنفاسهم محبوسة . تناهى الى مسامعهم صوت جهير يتكلم بالالمانية .

رفع غريغوري رأسه . كانوا ستة من الخيالة المجريين بقمصلاتهم الأنيقة المزركشة بالضفائر والشرائط البيض . وكان قائدهم يمتطي حصاناً أدهم ضخماً ويمسك بغدارته بين يديه ، وهو يضحك بهدوء .

وانطلق أمر العريف : «ارم!» فاندفعت رشقة الرصاص تتصادى خلل الاشجار .

وجاءت صيحة مذعورة من كوشيفوي من وراء أشجار الصنوبر : «ماذا حدث ؟ هوه ، أيها الشيطان! اهدأ في مكانك!» . وبدا صوته عالياً جداً . وهرع الخيالة هذباً الى داخل حقل الجويدار في تشكيلة أحادية . واطلق أحدهم ، وهو القائد ، طلقة في الهواء واقعى أخرهم ، وهو يتشبث برقبة الحصان ويمسك قبعته بيده اليسرى .

كان اوريوبين أول من وثب على قدميه . واسرع متعثراً خلل الجويدار وهو يرفع بندقيته مستعداً لاطلاق النار . وعلى مبعدة مائة خطوة تقريباً ، وجد حصاناً منطرحاً على الأرض يرفس وينافح ، وخيالاً مجرياً واقفاً الى جانبه يفرك ركبته التي اصيبت عند السقوط . هتف بشيء لاوريوبين ورفع يديه علامة الاستسلام وهو يحدق في رفاقه المتراجعين .

حدث كل هذا بسرعة كبيرة بحيث لم يتسن لغريغوري أن يستوعب ماكان يجري حينما عاد اوريوبين بالاسير .

صرخ اوريوبين بالمجري : «جرده!» وهو يجرده بفظاظة من سيفه .

فابتسم الاسير مذعوراً ، واسرع يتلمس نطاقاً سعيا لتسليم السيف بأسرع مايمكن . لكن يديه ارتعشتا ، ولم يستطع أن يفلح في حل المشبك . فعاونه غريغوري بحذر ، فشكره الخيال بابتسامة وايماءة من رأسه ، وكان فتى منتفخ الخدين تعلو زاوية شفتيه العليا شامة صغيرة . وبدا

سعيداً بتجريده من السلاح ، ثم نقب في جيبه باضطراب واخرج كيساً جلدياً ، وغمغم بشيء وقدم تبغاً للقوزاق .

ـ انه يعزمنا! ـ وابتسم العريف ومدّ يده باحثاً عن أوراق سكائره . وقهقه سيلانتييف قائلاً : «لندخن على حساب الغير» .

ولف القوزاق سكائر من تبغ الخيال ودخنوا . وسرعان ما صعد التبغ الاسود القوي الى رؤوسهم .

وتساءل العريف وهو يسحب نفساً شرهاً من سيكارته : «أين بندقيته ؟» .

فقال اوريوبين : «هي ذي» ، وكشف من وراء ظهره عن الحمالة الصفراء المخاطة . قال العريف :

ـ من الأفضل أن نأخذه الى السرية . فسوف يرغبون في سماع ماالديه . من منكم سيأخذه ، ياأولاد ؟ ـ ونحنح ومر عينيه على القوزاق .

فأسرع اوريوبين مجيباً : «أنا» .

ـ حسناً ، هيا!

وبدا على الاسير أنه أدرك ما كان ينتظره ، اذ أنه ابتسم ابتسامة شوهاء ، وأفرغ جيوبه ، وقدم للقوزاق شيئاً من الشيكولاته الطرية المتكسرة . وراح يتأتيء ، وهو يلوح بارتباك ، ويده ممدودة بالشكولاته : «روسين ابش... روسين... ناين اوستريش...»*

فسأله العريف : «هل من أسلحة لديك ؟ لا تقعقع هكذا ، فنحن لا نقدر أن نفهمك هل لديك مسدس ؟ طاق ـ طاق ؟» وسحب العريف زنادا خالياً . فهز الاسير رأسه نفياً .

وعرض عليهم أن يفتشوه عن طيب خاطر ، وخداه المنتفخان يرتعشان . والدم يسيل من خدشة على ركبته فمسحها بالمنديل وتمطق

* بالالمانية ما معناه : أنا مع روسيا... مع روسيا... لا مع النمسا . المترجمون

بالشفتين ودمدم بلا انقطاع ، وكان قد ترك قبعته بجانب حصانه الميت ، فسأل أن يسمح له بجلبها مع بطانيته ودفتر ملاحظاته حيث كان يحتفظ بتصاوير عائلته . وبذل العريف جهداً في محاولة فهمه غير أنه لوح بيده في النهاية يائساً وقال :

ـ هيا امض به!

فامتطى اوريوبين حصانه ، ثم أشار الى الاسير ، وهو يصلح من وضع بندقيته على ظهره . واذ استشعر المجري التشجيع من ابتسامة اوريوبين ، ابتسم هو الآخر وسار بجانب الحصان . وحاول أن يشيع الالفة بينهما فربت على ركبة اوريوبين ، غير أن القوزاقي أطاح بيده عن ركبته بفظاظه وشد العنان على حصانه .

ـ هيا امض . لا تجرب أيا من حيلك معي!

فابتعد الاسير عن الحصان كمن اقترف ذنباً ، وسار مكتئب الوجه ، وهو لا يني ينظر الى الوراء نحو القوزاق الاخرين ، وقد انتصب شعره الأشقر متألقاً على تاج رأسه . هكذا انطبعت صورته في ذاكرة غريغوري : بقمصلته الملقاة على كتفه ، وشعره الأشقر المنفوش ، ومشيته المتزنة الوثوق .

أصدر العريف أمراً : «ميليخوف ، اذهب وحل السرج عن الحصان!» وقذف من فمه آسفاً عقب سيكارته التي كان قد دخنها حتى احرقت أصابعه . فسار غريغوري الى الحيوان الطريح ، وازاح عنه السرج ، ولسبب مبهم التقط القبعة المطروحة على مسافة قريبة . فتشمم بطانتها وأحس برائحة الصابون الرخيص والعرق . وعاد يحمل عدة الحصان الى أجمه الاشجار وهو يمسك باعتناء بقبعة الخيال في يده اليسرى . فقرفص القوزاق على مؤخراتهم وراحوا ينقبون في خرج السرج متأملين الشكل الغريب للسرج .

ـ كان تبغه جيداً . كان علينا أن نطلب منه المزيد .

ـ نعم تبغه جيد .

وتأوه العريف وهو يستعيد طعم السيكاره وبلع ريقه .

ولم تكد تمضي بضع دقائق حتى ظهر رأس حصان من بين أشجار الصنوبر ، ثم جاء اوريوبين على حصانه . فهتف العريف وهو ينتفض مذهولاً :

ـ ماذا ، أين النمساوي ؟ لعلك لم تدعه يهرب ؟ فاقترب اوريوبين وهو يلوح بسوطه ، ثم ترجل ومط كتفيه . فتساءل العريف من جديد وهو يمضي اليه : «ماالذي صنعت بالنمساوي ؟»

فرد اوريوبين مزمجراً : «لقد حاول أن يهرب» .

ـ تركته يهرب ؟

ـ بلغنا ممراً مكشوفاً ، وأراد... . ولهذا قتلته . فصرخ غريغوري :

ـ أنت كذاب ! انك قتلته بدون أي سبب .

ـ علام تصرخ ؟ ماعلاقتك بذلك ؟ـ وسمرّ اوريوبين عينيه في وجه غريغوري .

ـ ماذا ؟

وكان غريغوري ينهض ببطء ، ويده المرتعشة تتلمس الأرض . فأجاب الآخر بصرامة :

ـ لا تتدخل بما لايجوز لك! أفهمت ؟

فنتش غريغوري بندقيته ورفعها . وراح اصبعه يرتعش وهو يتلمس طريقه الى الزناد ووجهه المكفهر يعتمل غضباً .

فهتف العريف متوعداً وهو يهرع اليه : «على مهلك!» ، وطوح بالبندقية قبل أن تنطلق ، فأطارت الرصاصة غصناً من أحد الاشجار وابتعدت تئز . فشهق كوشيفوي صائحاً : «ماالأمر ؟»

وتهدل فك سيلانتييف فقعد فاغر الفم .

دفع العريف غريغوري في صدره وانتزع البندقية من يديه ، فيما وقف اوريوبين دون أن يغير موضعه ، وقد باعد بين ساقيه ، ويده اليسرى على نطاقه .

ـ هيا ، اطلق النار من جديد!

ـ لسوف اقتلك! ـ واندفع غريغوري صوبه . فصاح العريف :

ـ مهلاً ، علام كل هذا ؟ أتريد أن تحاكم أمام محكمة عسكرية وتعدم ؟

ودفع غريغوري الى الوراء ، ثم وضع نفسه بين الرجلين وقد بسط ذراعيه .

ـ أنت تكذب ، لن تقتلني! ـ وابتسم اوريوبين .

ـ وبينما كانوا في طريق عودتهم ، كان غريغوري أول من رأى جثة الخيال ملقاة في الممر . فسار أمام الآخرين ، ثم كبح جماح حصانه الخائف وجعل يحدّق الى أسفل . كان الرجل ممدداً وذراعاه منشوران فوق الطحلب المخملي ، ووجهه الى أسفل ، وراحتاه الصفراوان كأوراق الخريف ، مبسوطتان الى أعلى . كانت ضربة فظيعة من الخلف قد شطرته نصفين من الكتف الى النطاق .

ـ شطره شطرين... . ـ غمغم العريف بذلك فيما كان يمر ناظراً بذعر الى شعر القتيل الاشقر المنفوش ، وقد مال جانباً عن الرأس الملتوي .

مر القوزاق على خيلهم صامتين الى مقر قيادة السرية . كانت ظلال المساء قد ادلهمت ، وثمة نسيم يصعّد غيمة سوداء رقيقة من الغرب . ومن مستنقع قريب انبعثت رائحة ثقيلة من أعشاب المستنقعات ومن الرطوبة الدبقة والعفونة . وهدر طائر الأنيس . ولم يكن يقطع الصمت الوسنان سوى جلجلة عدة الخيل ، وصليل السيوف على الركائب بين الحين والحين ، أو خشخشة مخاريط الصنوبر حين تهرسها حوافر الخيل . كان الألق المخضّب المدلهم للشمس الراحلة ينساب فوق جذوع الصنوبر خلال الممر . ظل اوريوبين يدخن بلا انقطاع ، وكان الشرر المتطاير من سيكارته يضيء أصابعه الغليظة بأظفارها المسودّة ، وهي تعتصر السيكارة عصراً .

طافت الغيمة فوق الغابة ، فادلهمّت الألوان الذاوية لظلال المساء وعمقت اساها الذي يعز عن الوصف .

١٣

بدأ في الصباح التالي هجوم على البلدة . كان المفروض أن يتقدم المشاة من ناحية الغابة عند الفجر ، يعززهم الفرسان من الجانبين ، فيما تقف وحدات أخرى من الفرسان احتياطاً . ولكن خطأ ارتكب في موضع ما ومن جهة ما ، فلم تصل كتيبتا المشاة في الوقت المحدد . فصدر أمر لكتيبة البنادق رقم ٢١١ بالعبور صوب الجناح الأيسر ، وفي أثناء حركة الالتفاف التي بدأتها كتيبة أخرى ، تعرضت الأولى لنيران صبتها عليها البطارية التابعة لها . فحصل اضطراب وبلبلة مهلكة قلبت الخطط ، وبات مصير الهجوم يتهدده الفشل ، إن لم يكن كارثة . وبينما كان المشاة ينقلون هنا وهناك والمدفعية تجرجر مدافعها من أحد المستنقعات حيث أرسلت بناء على أوامر صدرت من جهه ما ، هبط أمر بالتقدم على فرقة الفرسان الحادية عشرة . بيد أن الأرض التي أوقفوا فيها على أهبة الاستعداد كانت أرض غابات ومستنقعات ، فلم يكن بمستطاعهم ، والحالة هذه ، أن يشنوا هجوماً جبهوياً واسعاً ، وصار على القوزاق في بعض الأحيان أن يتقدموا رعائل . وكانت السريتان الرابعة والخامسة التابعتان للكتيبة الثانية عشرة قد وضعتا احتياطاً في الغابة ، فلم ينقض ربع ساعة على بدء التقدم العام حتى تناهت الى أسماعهم ضوضاء المعركة الهادرة القاصفة .

انطلق هتاف راعش مديد . ومن حين لآخر ، كان قوزاقي يتكلم .

ـ هذه منّا .

ـ لقد بدؤوا .

ـ أي صخب يبعثه ذلك المدفع الرشاش .

ـ يحصد أصحابنا ، على مايبدو .

ـ صمتوا ، ها ؟

ـ لا ، ليس هناك بعد .

ـ يعني سندخل المعمعان بعد قليل .

سيقت السريتان الى ممر في الغابة . فأحاطت بهما جذوع الصنوبر القوية وحجبتهما عن تتبع سير المعركة . مرت بهم سرية من المشاة تكاد تركض خبباً . وتوقف ضابط صف ، أنيق المظهر خفيف الحركة ، وصاح بصوت أجش في الصفوف الخلفية :

ـ نظام ، ايتها الصفوف!

ومضت السرية وعدتها تجلجل ، ثم اختفت في أجمة من أشجار الحور الرومي .

ومن بعيد ، تناهى ذلك الهتاف الراعش ، خافتاً خلال الاشجار ، ثم انقطع على حين غرة وخيم صمت عميق .

ـ لقد وصلوا هناك الآن .

ـ أي ، هم الآن في المعمعان... . يقتتلون .

أصاخ القوزاق السمع ، غير أنهم لم يستطيعوا أن يسمعوا أكثر من ذلك . فمن الجناح الأيمن ، كانت المدفعية النمساوية تقصف بقذائفها صوب القوات المهاجمة ، وكان القصف تتخلله لعلعة المدافع الرشاشة .

القى غريغوري نظرة على رعيله . كان القوزاق يتململون بعصبية ، والخيل لا يقر لها قرار وكأن ذباباً يضايقها . وكان اوريوبين قد علق قبعته على قربوس سرجه وراح يمسح رأسه الأصلع ، فيما كان ميشا كوشيفوي الى جانب غريغوري ينفث بقوة دخان تبغة المحلّى . كانت كل الأشياء من حوله متميزة وحقيقية أكثر مما هي في الواقع ، تماماً كما تبدو غبّ ليلة مؤرقة .

ابقيت السريتان في الاحتياط ثلاث ساعات . كان الرمي يتلاشى حيناً ، ويرتفع حيناً ، وهدرت طائرة من عل . وبعد بضع دورات على ارتفاع شاهق ، يممت صوب الشرق موغلة في الارتفاع ، وانتثرت على صفحة السماء الزرقاء نفثات بلون اللبن لقذائف متفجرة أطلقتها المدافع المضادة للطائرات .

نفذت كل عدة التبغ ، كان الرجال يتحرقون الى نتيجة ما حينما قدم قبيل الظهر مراسل يحمل تعليمات ، وهو يعدو هذبا على جواده . فقاد آمر السرية الرابعة رجاله في الحال الى احد الجوانب . وبدا لغريغوري انهم لايتقدمون ، بل يتراجعون . اما سريته هو فقد سارت خلال الغابة زهاء عشرين دقيقة ، وضوضاء المعركة تقترب منهم قليلا قليلا . وعلى مسافة غير بعيدة خلفهم كانت بطارية تطلق نيرانها سريعة ، فتشق القذائف طريقها خلال السماء المنيعة بهدير زاعق . وقد أدت ممرات الغابة الضيقة الى تشتيت نظام السرية ، فخرجت الى العراء بلا نظام وعلى مبعدة نصف فرست تقريبا كان فرسان مجريون يعملون السيوف برجال بطارية روسية .

فصاح الامر :

ـ سرية ، انتظم!

ولم يكن القوزاق قد نفذوا الى فحوى الامر تماما حتى انطلق الامر الثاني :

ـ سرية ، استلوا السيوف . هجوما الى الامام !

فومض بريق خاطف ازرق من السيوف . وانطلق القوزاق من الخبب الخفيف الى هذب سريع .

كان ستة فرسان مجريين منشغلين بخيل مدفع الميدان في الطرف الايمن للبطارية . وكان احدهم يجرجر شكائم خيل البطارية الهائجة ، واخر يضربها ببطن سيفه ، فيما كان الباقون المترجلون يدورون ويسحبون قضبان عجلات العربة . وكان ضابط يصدر أوامره من على فرس بنية قصيرة الذيل . واذ لمحوا الفرسان القوزاق ، قفزوا الى خيلهم .

ـ«اسرع ، فاسرع» ومضى غريغوري يستحث ايقاع حصانه المنطلق . وبينما هو في انطلاقه ، انزلقت احدى قدميه لحظة من ركابها ، فأحس بالقلق فوق سرجه وخالجه ذعر داخلي ، فانحنى وتلمس برأس قدمه الرِكاب

السائب . وحينما استرجع موضع قدمه ، صعد نظره فوجد نفسه أمام الجياد الستة لمدفع الميدان . كان الحارس المتقدّم ممدداً فوق رقبة الحيوان ، محتضنها ، وقد تناثر الدم والمخ على قميصه . فوطأ حصان غريغوري جثة المدفعي القتيل بحافره محدثاً خشخشة فظيعة . وكان اثنان آخران ممددين بجانب حافظة قذائف مقلوبة . وكان رابع قد هوى على عربة المدفع ، ووجهه الى اسفل . كان سيلانتييف أمام غريغوري مباشرة . وأطلق الضابط المجري النار ، برمية تكاد تكون أفقية ، فهوى القوزاقي ، ويداه تمسكان بالهواء وتحتضنانه . جر غريغوري عنان حصانه ، وحاول أن يغير على الضابط من جهة اليسار ، حيث يستطيع أن يستعمل سيفه بشكل أفضل ، بيد أن الضابط أدرك مناورته فأطلق عليه النار من تحت ذراعه . واذ وجد أن عتاد مسدسه قد نفذ ، استل سيفه . وأفلح في تجنب ثلاث ضربات قاصمة بمهارة المبارز الخبير . فصرّ غريغوري على أسنانه ، وانقض عليه بضربة رابعة وهو منتصب على ركابه . حصاناهما يعدوان الآن جنباً الى جنب تقريباً ، فاستطاع أن يلمح خد الضابط الحليق الداكن ورقم كتيبته المطرزعلى ياقته . وبحركة خادعة أفلح غريغوري في حرف انتباه الضابط ، ثم غير اتجاه ضربته وغرز نصل سيفه بين لوحي كتف المجري . ثم سدد ضربة ثانية على رقبته ، في أعلى العمود الفقري تماماً . فأسقط الضابط سيفه والعنان من يديه ، وقوّس ظهره كمن أصابته لسعة ، ثم انكفأ على قربوس سرجه ، واذ استشعر غريغوري راحة فظيعة لفحة بضربة على رأسه ، فرأى سيفه ينفذ الى العظم فوق اذنه .

ثم نزلت على غريغوري ضربة فظيعة من الخلف افقدته وعيه . وأحس مذاق الدم المالح المحروق في حلقه ، فأدرك انه يهوى ، ورأى الأرض الجرداء تتقدم نحوه من الجانب مدومة ، محومة في الجو . وحينما طاح على الأرض ، أعاده صوت السقوط العنيف الى وعيه لحظة . ففتح عينيه ، فتدفق الدم فيهما . ومرّت باذنيه قعقعة . وأنفاس خيل مجهدة . ثم فتح

عينيه للمرة الاخيرة ورأى منخري حصان ورديين مفتوحين ، وقدم انسان ما في ركاب . «النهاية!» انسلت الخاطرة المريحة خلل ذهنه ، كالافعى . وضج هدير ما ، ثم خيّم فراغ مظلم .

١٤

في بداية آب قرر يفغيني ليستنتسكي أن يقدم طلباً بنقله من كتيبة حرس الاتمان الخاص* الى أحد الكتائب القوزاقية الاعتيادية . فحرر طلبه الرسمي ، وبعد ثلاثة أسابيع جاءه أمر النقل المطلوب . وقبل أن يغادر بتروغراد كتب الى أبيه يقول :

«والدي . لقد قدمت طلباً بنقلي من كتيبة الاتمان الى الجيش النظامي . ولقد استلمت اليوم أمر نقلي ، وأنا راحل الى الجبهة للمثول أمام آمر الفيلق الثاني . لعلك ستندهش لقراري هذا ، غير أنني أود أن اشرح دوافعي اليه . لقد سئمت ما يحيط بي هنا . استعراضات ، حراسة ، واجبات خفارة ــ إن خدمتي في القصر توتّر أعصابي . وأنا برم بها . انني أريد عملاً حيّاًأو ـ كما تشاء ـ أعمالاً بطولية . أحسب أنه دم آل ليستنتسكي الذي بدأ يفصح عن نفسه عندي ، ذلك الدم الطاهر لاولئك الذين ضاعفوا ، منذ حرب ١٨١٢ ، أكاليل الغار على مجد السلاح الروسي . اني ذاهب الى الجبهة . أرجو أن تمنحني بركتك . رأيت الامبراطور في الاسبوع الماضي قبل أن يغادر مقرّه . انني أعبد هذا الرجل . كنت أقف للحراسة داخل القصر . وحينما مرّ بي ابتسم وقال بالانكليزية لرودزيانكو الذي كان بصحبته : «حرسي المجيد . سأضرب على يد فيلهلم** به» . انني أعبده ، كما تفعل صبية صغيرة . ولست خجلاً من الاعتراف بذلك ، رغم أنني قد تعديت

* المقصود الحرس الامبراطوري الخاص . المترجمون

** امبراطور النمسا آنئذ . المترجمون

الثامنة والعشرين من عمري . ان القيل والقال الذي يدور في القصر يسبب لي أفظع القلق ، فهو يلوث الاسم المجيد للامبراطور . انني لا اصدقه . لا أقدر أن أصدقه . لقد كدت أن أطلق الرصاص على النقيب كروموف قبل مدة لأنه تفوه أمامي بكلمات مستخفّة عن حضرة جلالتها الامبراطورية . كان ذلك شيئاً دنيئاً ، وقلت له أنه لا أحد يستطيع أن يهبط الى مستوى ذلك الدرك القذر الا من تجري في عروقه دماء العبيد . حدثت الواقعة أمام عدد آخر من الضباط . كنت عصبياً ، فأمسكت مسدسي وأوشكت أن أغرز رصاصة في ذلك الوضيع ، الا أن رفاقي انتزعوا المسدّس من يدي . إن حياتي يزداد بؤسها مع كل يوم أقضيه في هذه البالوعة . وانك لن تجد أي وطنية صميمة في صفوف كتائب الحرس ، وعلى الأخص بين الضباط ، ولا تحس ـ وإن كان النطق بذلك يرعبني ـ أنهم يشعرون بأي حب للعائلة المالكة . فما هؤلاء بالنبلاء ، انهم رعاع . وهذا هو السبب الحقيقي الذي دعاني لترك الكتيبة ، فليس بمستطاعي أن أعمل مع أناس لا احترمهم . وبعد ، فهذا هو كل مالدي تقريباً . ارجوك أن تغفر لي تشتت أفكاري ، فأنا في عجالة ، وعليّ أن أحزم حوائجي وارحل الى القومندان . حافظ على صحتك ، يابابا . سأكتب لك مطولاً من الجبهة» .

ولدك يفغيني»

كان القطار القاصد وارشو يترك بتروغراد في الثامنة مساءً . فاستأجر ليستنتسكي عربة ومضى بها الى المحطة . وامتدت خلفه بتروغراد في ألق من الضياء أزرق بلون الحمام . كانت المحطة شديدة الضوضاء مزدحمة بالناس ولا سيما العسكريين . جلب الحمال حقيبة ليستنتسكي ، واذ نفحه هذا شيئاً من النقود تمنى له سفره طيبة . نزع ليستنتسكي نطاق سيفه ومعطفه ، ثم نشر على المقعد لحافاً قفقاسياً حريرياً مزركشاً . وكان يجلس الى جانب النافذة قس له وجه الزهاد الناحل ، وقد نشر زاده على طاولة صغيرة . ومدّ يده بفطيرة الى فتاة سمراء البشرة ناحلة ترتدي بزة مدرسية

وتجلس في المقعد المقابل له ، وهو ينفض النثار من لحيته الشبيهة بالقنب .

ـ كلي شيئاً ، ياعزيزتي .

ـ لا ، شكراً لك .

ـ لاداعي للاستحياء ، إن فتاة على مثل جسمك بحاجة الى غذاء كثير .

ـ لا ، شكراً لك .

ـ تذوقي شيئاً من هذه الفطيرة اذن ، عسى أن تأخذ شيئاً من هذا ، ياسيدي ؟

مال ليستنتسكي رأسه الى أسفل لينظر اليه ، وتساءل :

ـ اتراك توجه الحديث الي ؟

ـ اي ، نعم ـ انبعثت من عيني القس الدكناوين نظرة نفاذة ، ولم تفتر سوى شفتيه الرفيعتين عن ابتسامة تحت شاربه الرفيع المتهدّل .

ـ لا ، شكراً لك . فلست أشتهي أي طعام الآن .

ـ خسارة . فما الاكل بخطيئة هل أنت في الجيش ؟

ـ نعم .

ـ عسى أن يعينك الله .

وبينما كان النور يغشى ليستنتسكي ، تناهى الى مسمعه صوت القس الرخو وكأنه قادم من مسافة بعيدة ، وخيّل اليه أنه يتسمّع الى صوت النقيب كروموف الشاكي يقول :

ـ أنت تعلم أي دخل بائس هذا الذي تحصل عليه عائلتي . ولهذا فإنني ماضٍ لأعمل قساً عسكريّاً للقطعات . فليس باستطاعة الشعب الروسي أن يحارب بلا إيمان . وكما لا يخفى عليك ، فالإيمان في تزايد ، عاماً بعد عام . ولاشك ، أن هناك من ينحرف عن الطريق القويم ، ولكن أولئك من بين المثقفين فقط ، أما الفلاحون فإنهم معتصمون بحبل الله .

لم يستطع صوت القس الخفيض أن ينفذ الى أبعد من ذلك في مدارك يفغيني وأخر ما يحسّه في اليقظة هو رائحة ذكية للدهن الذي كان يطلي به

السقف الخشبي وما يسمعه هو صيحة فيما وراء النافذة : «هذا من شأن قسم الأمتعة ، ليس من شأني!» ففكر للحظة خاطفة : «أى قسم للأمتعة ؟» ثم انقطع خيط ادراكه . فقد غمره نعاس لذيذ ، غب ليلتين مسهدتين . ولم يستيقظ الا بعد أن ابتعد القطار زهاء أربعين فرستا عن بتروغراد . كانت العجلات تقعقع بإيقاع رتيب ، والعربة تترنح وتتمايل ، وكان ثمة من يغنّي في مقصورة مجاورة ، والمصباح يلقي ظلالاً ليلكية مائلة .

كانت الكتيبة التي نسب اليها ليستنتسكي قد أصيبت بأضرار فادحة في المعارك الأخيرة ، وقد سحبت من الجبهة لتستكمل خيلها وتسد الخسائر البشرية . كان مقر هيئة أركان الكتيبة في قرية بيريزنياكي ، وهي مركز تجاري كبير . فغادر ليستنتسكي القطار عند موقف لا اسم له . وفي نفس المحطة انزل من القطارمستشفى ميدان . فاستفسر من الطبيب المسؤول عن وجهة المستشفى ، وعلم أن المستشفى كان قد نقل من الجبهة الجنوبية ـ الغربية ـ الى القطاع الذي تعمل فيه كتيبته . وتحدّث الطبيب الضخم ذو الوجه الاحمر عن رؤسائه بلهجة لاذعة ، وشتم ضباط أركان الفرقة ، وراح ينفس عن غضبه المحموم في أذني هذا الشخص الذي تعرّف عليه صدفه ، وهو يشد على لحيته طوال الوقت وعيناه تومضان من وراء نظارتيه المعلقتين على أنفه .

فقاطعه ليستنتسكي متسائلاً :

ـ هل تستطيع أن تأخذني الى بيريزنياكي ؟

ـ أجل ، اصعد الى العربة ، أيها الملازم ـ وجعل يدور الزر في معطف ليستنتسكي بلا كلفة ، واستأنف يقعقع بشكاواه من جديد : ـ حسبك أن تتصور فقط ، أيها الملازم . اننا قطعنا مائتي فرست داخل شاحنات للماشية لا لشيء الا لنتسكع هنا بلا عمل ، في حين أن معركة دموية تجري منذ يومين في القطاع الذي نقل منه مستشفانا . كان هناك المئات من الجرحى ممن هم في أمس الحاجة الى مساعدتنا!

وكرر الطبيب كلمتي« معركة دموية » بنبرة ملؤها الغيظ .

فتساءل الملازم مجاملاً : ـ كيف تفسّر مهزلة كهذه ؟

ـ كيف ؟ ـ ورفع الطبيب حاجبيه فوق نظارتيه متهكماً وانطلق هادراً : ـ فوضى ، هرجلة ، غباء هيئة اركان القيادة ـ ذاك هو السبب . أوغاد يحتلون المناصب العليا ويلوصون بكل شيء . عجزة ، يفتقرون حتى الى التفكير السليم . هل تتذكر مذكرات فرساييف عن الحرب الروسية ـ اليابانية ؟ حسناً ، فالحال مثل تلك الحال ، سوى أن سوءها قد تضاعف .

حياة ليستنتسكي ثم مضى الى العربات ، فيما كان الطبيب لايزال ينعب من ورائه :

ـ لسوف نخسر الحرب ، أيها الملازم . لقد خسرنا واحدة مع اليابانيين ، الا أننا لم نزدد عقلاً أبداً . فكل ما نستطيع فعله هو التباهي ، ولا شيء غيره .

ومضى يسير على امتداد السكك ، متجنباً الوقوع في برك صغيرة يغشيها غطاء من الزيت ثر الألوان ، وهو يهز رأسه في يأس .

كان الغسق ينشر أذياله حينما اقترب مستشفى الميدان من بيريزنياكي . وكانت الريح تعبث بجذامة الزرع الصفراء ، والسحب تتكاثف في الغرب ، فكانت كتلة بنفسجية دكناء في الأعالي ، ليلكية مضببة خفيفة الظلال في الاسافل . أما في الأواسط ، فقد انداحت جانباً كتلة السحب الشوهاء ، وتكومت مثلما تتكوم طافيات الجليد ازاء سد في النهر . ومن خلال فرجة بين الغيوم ، سال فيض برتقالي من أشعة الشمس ، لينشر نثاراً من الضوء ، ولينسج تحته طيفاً باخوسياً من الألوان .

كان ثمة حصان ميت ملقى في حفرة ممتدة على جانب الطريق . وكان النعل يلتمع في أحد حوافره ، التي طرحت الى أعلى بشكل عجيب . واذ كانت العربة تمر بالجثة مقعقعة ، القى ليستنتسكي نظرة عليها . أما الجندي الذي كان راكباً بصحبة ليستنتسكي فقد بصق على بطن الحصان الضخم وقال

موضحاً : «لابد انه كان ينهب الحبوب...» ثم صحح قوله بعد أن نظر الى الملازم : «يأكل أكثر مما يجب من الحبوب...» وأوشك أن يبصق ثانية ، الا أنه ابتلع البصقة ، تأدباً ، ومسح فمه بكمّه .«يرقد هناك ، ولا أحد تكلف نفسه عناء دفنه . أما الالمان فإنهم يختلفون عنّا» .

فصاح يفغيني بغضب هائج لا سبب له : «وماالذي تعرفه أنت ؟» . وكانت كراهيته لوجه الجندي البليد الموحي بالكبرياء والاستخفاف قد فاضت في تلك اللحظة وكان الرجل في الواقع ذابلاً كليلاً مثل حقل أجرد في شهر أيلول . ولم يكن ليختلف قط عن آلاف الجنود الفلاحين الذين كان يفغيني قد صادفهم في طريقه الى الجبهة . فقد بدا الذبول والتهدّل على الجميع ، والكلال يطل من أعينهم جميعاً ، شهباء ، زرقاء ، خضراء ، أو أي لون كانت ، وكانوا يذكرونه بشكل لجوج بقطع نقود نحاسية قديمة دارسة .

أجاب الجندي متمهلاً : «لقد عشت في المانيا ثلاث سنين قبل الحرب» . وكان صوته ينم عن نفس الكبرياء والاستخفاف الباديين على وجهه . واستأنف الجندي كلامه متكاسلاً ، وهو يلفح الحصان بالعنان المعقود : «اشتغلت في مصنع للسكاير في كونيكسبرغ» .

فهتف ليستنتسكي آمراً بصرامة : «امسك لسانك!»

والتفت ليحدّق في رأس الحصان وشعر ناصيته المتناثر فوق عينيه وصف أسنانه المكشوفة المصفرة بفعل الشمس .

كانت إحدى سيقانه قائمة ثم منحنية على شكل قوس ، وكان الحافر مشقوقاً شقاً صغيراً ، الا أنه كان ينبعث من الفجوة بصيص رمادي صقيل ، وكان بمقدور الملازم أن يدرك من ساق الحصان ورسغه البديع أنه كان حصاناً فتياً وأصيلاً .

ساروا على الطريق الوعر . الالوان في الغرب قد ذوت ، وهبّت ريح ففرقت شمل الغيوم . وازاءها كان ساق الحصان الميت قائماً مثل صليب

مكسـور على جانب الطريق . وحينمـا التفت يفـغيني الى الوراء ورنـا اليه ، سقطت على الحصان حزمة من الأشعة فجأة ، فازهر السـاق بشعره الأشقر تحت ضيـائها البرتقالي ، على غير ميـعاد ، كمـا يزهر فرع شجرة أجرد سحري في اسطورة من الاساطير .

وبينمـا كان مستشفى الميدان يمضي داخلاً بيريزنياكي مروا بقافلة من الجنود الجرحى . وكان بيلوروسي كهل ، وهو صاحب العربة الأولى ، يمشي على مقربة من رأس حصانه ، وعنانه القنّبي مجموع في يديه . وكان يرقد في العربة قوزاقي معصوب الرأس . كان متكئاً على مرفقه ، بيد أن عينيه كانتا مغمضتين بكلال فيما راح يمضغ الخبز ثم يبصقه خليطاً أسود . والى جانبه مدد جندي ، وقد تغضّن فوق ردفيه بنطلونه الممزق وتصلّب بالدم المتجمد . وكان يقذف سباباً مقذعاً دون أن يرفع رأسه . وأصاب ليستنتسكي الفزع بينما هو يتسمع لنبرات صوت هذا الجندي ، ذلك لأنها بدت كنبرة مؤمن يتمتم صلاته بحماس . وكان في العربة الثانية خمسة أو ستّة جنود يرقدون جنباً الى جنب . وكان أحدهم يروي حكاية ، وقد استبد به مرح محموم ، وعيناه مشعتان ملتهبتان بصورة غير طبيعية :

ـــ . يبدو أن سفيراً من لدن امبراطورهم جاء هنا وقدم عرضاً لاعلان السلم . والواقع أن الذي أخبرني بهذا رجل شريف . كل أملي أنه لم يكن ينسج لي حكاية ملفقة .

فاشترك في الحديث أحدهم بلهجة شكوك : «أحسبه كان كاذباً» ، وهو يهز رأسه الحليق الذي تعلوه ندب داء الخنازير الذي أصابه مؤخراً .

وعلّق ثالث برطانة أهل الفولغا الرقيقة : «ولكن ، من المحتمل أن يكون قد أتى هنا فعلاً» . كان هذا جالساً وظهره الى الخيل . وكان في العربة الخامسة ثلاثة قوزاق في جلسة مريحة .

وحينما مرّ بهم ليستنتسكي رنوا اليه بصمت دون أن تفصح وجوههم

الخشنة المعفرة عن أيما احترام للضابط . فحياهم الملازم : «طاب يومكم ، أيها القوزاق!»

فرد القوزاقي الوسيم ذو الشارب الفضي والحاجبين الكثيفين والجالس الى جانب السائق ، بلهجة خالية من الاهتمام : «طاب يومك ، ياصاحب السعادة» .

فاستمر ليستنتسكي ، محاولاً أن يميز الرقم المنقوش على سير كتف القوزاقي الازرق : «ومن أية كتيبة أنتم ؟»

ـ الثانية عشرة .

ـ وأين هي كتيبتكم الآن ؟

ـ لا ندري .

ـ حسناً ، أين جرحت ؟

ـ على مقربة من القرية... ليس بعيداً من هنا .

وتبادل القوزاق الهمس فيما بينهم ، ثم قفز أحدهم من العربة وهو يمسك يده المعصوبة عصباً غير محكم بيده السليمة ، وقال :

ـ لحظة ، ياصاحب السعادة ـ وخطا عبر الطريق ، عاري القدمين ، شديد الاعتناء بيده التي مزقها الرصاص وبدأت علائم الالتهاب تظهر على الجرح .

ـ لعلك من فيشينسكايا ، أليس كذلك ؟ لعلك ليستنتسكي ؟

ـ أجل ، هو أنا .

ـ ذاك ما حسبناه . هل لديك شيء ندخنه ، ياصاحب السعادة ؟ أعطنا شيئاً بحق المسيح ، فنحن نموت شوقاً الى نَفَس واحد من التبغ .

وجعل يسير بمحاذاة العربة ممسكاً بجانبها المطلي . فأخرج ليستنتسكي علبة سيكائره . فابتسم القوزاقي متوسلاً وقال : «اتستطيع أن تستغني عن دزينة منها ؟ فنحن ثلاثة ، كما ترى» .

فأفرغ ليستنتسكي محتويات علبته في راحة الرجل السمراء العريضة ، وسأله : «هل جرح الكثير من كتيبتكم ؟»

ـ ما يزيد عن العشرين .

ـ خسائر فادحة ؟

ـ قتل الكثير منّا . اشعل عود ثقاب لي ، ياصاحب السعادة . اشكرك جزيل الشكر . ـ واذ أشعل سيكارته ، تباطأ في السير وصاح : «ثلاثة قوزاق من تتارسكي ، بالقرب من ضيعتكم ، قتلوا ، واجهز على الكثير منّا ، نحن القوزاق» .

ثم لوح بيده ومضى ليلحق بالعربة . وعبثت الريح بقمصلته غير الممنطقة .

كان آمر كتيبة ليستنتسكي الجديدة قد اتخذ مقره في بيت قس . وعندما بلغوا الساحة ودّع ليستنتسكي الطبيب الذي تفضّل باعطائه مقعداً في عربة المستشفى ، ومضى يبحث عن مقر قيادة الكتيبة ، وهو ينفض الغبار عن بزته . ومرّ به رئيس عرفاء ذو لحية زاهية الاحمرار يقود حرساً ، ليستبدلهم بأخرين . فأدى التحية لليستنتسكي بلباقة ، ورد على استفساره ، بالاشارة الى بيت القس . كان المكان هادئاً ومتكاسلاً ، شأن كل مقرات هيئات الأركان البعيدة عن خط الجبهة : الكُتّاب منكبون فوق طاولة ، ونقيب كهل يتضاحك في لاقطة الصوت لتلفون ميدان ، والذباب يطن حول الشبابيك ، واجراس تلفونات بعيدة تئز كالبعوض . أخذ جندي ليستنتسكي الى الغرفة الخاصة بآمر الكتيبة . فالتقيا عند عتبتها بعقيد مديد القامة على ذقنه ندبة ، حيّاه بفتور وسمع كل ما قاله له يفغيني ودعاه بإيماءة للدخول الى الغرفة . واذ أغلق العقيد الباب مر بيده على شعره بحركة تنم عن ارهاق لا يوصف ، وقال بصوت رقيق رتيب :

ـ اعلمتني هيئة أركان اللواء أمس بأنك في الطريق الينا ، اجلس .

واستفسر من يفغيني عن خدمته السابقة ، وعن آخر الأخبار من العاصمة ، وتساءل عن الرحلة ، ولكنّه ، أثناء كل حديثهما القصير ، لم يحدث قط أن أرفع عينيه المرهقتين الى وجه ليستنتسكي .

فحدّث ليتستنكي نفسه مشفقاً وهو ينظر الى جبين الآمر العريض الذي كان يوحي بالذكاء : «لابد أنه قاسى أياماً عصيبة في الجبهة . ان عليه علائم ارهاق مميت» . ولكن العقيد حك جسر أنفه بمقبض سيفه وقال ، وكأنه يريد ازالة الوهم الذي خطر ببال ليستنتسكي :

ـ حسناً ، أيها الملازم ، يجب أن تتعرف على اخوانك الضباط . ارجو أن تعذرني ، فأنا لم أنم منذ ثلاث ليال متوالية . ففي هذا الجحر المميت ليس لدينا مانفعله سوى السُكرْ ولعب الورق .

فأدّى ليستنتسكي التحية ، واستدار نحو الباب ، مخفياً ازدراءه وراء ابتسامة . وخرج وهو يستعيد بامتعاض مقابلته الاولى هذه مع ضابطه الآمر ، ويسخر مما أوحى اليه من احترام مظهر العقيد المرهق والندبة في ذقنه .

١٥

أوكلت الى الفرقة مهمة شق الطريق عبر نهر ستير وضرب العدو في مؤخرته .

وفي غضون أيام قلائل ألفَ ليستنتسكي ضباط كتيبته وسرعان ما جرفه تيار المعركة فزايله شعور الدعة والرضى الذي كان قد تسلل الى نفسه .

تمت عملية اقتحام النهر على نحو رائع فحطمت الفرقة تجمعات كبيرة من قوى العدو على الجناح الأيسر منها ، ونفذت الى مؤخرة قوات العدو . وحاول النمساويون شن هجوم مضاد مستعينين بالخيالة المجريين ، الا أن بطاريات القوزاق اكتسحتهم بالمنشار ، فتقهقرت سرايا المجريين دونما نظام ، تمزقها نيران المدافع الرشاشة التي أحاطت بها ، وتتعقبها خيالة القوزاق .

شارك ليستنتسكي في الهجوم المضاد مع كتيبته . وخسر الرعيل الذي كان تحت امرته قوزاقياً واحداً ، وأصيب أربعة بجراح وقد سحق أحدهم

تحت حصانه الميت ، وكان شاباً معقوف الأنف . فمر الملازم به ، وهو بادي الهدوء ، جاهداً أن لا يسمع أنين القوزاقي الخفيض الأبح . كان مصاباً في كتفه ، وظل يتوسّل الى القوزاق المارين على خيلهم بقربه :

ـ لا تتركوني أيها الاخوان . خلصوني من الحصان ، يا اخوان... .

كان صوته المعذب يحمل نداءاته الخافتة الى أسماع القوزاق ، ولكنه لم يثر في قلوبهم الهائجة ذرة من الرحمة ، ولو كان عندهم شيء منها لسحقتها ارادتهم المحرمة عليهم أن يترجلوا . وسار الرعيل لخمس دقائق خبباً لكي يدعوا الخيل تستعيد أنفاسها . وكانت سرايا المجريين المتبعثرة ، على بعد نصف فرست ، في تقهقر عام ، وتظهر بينهم ، هنا وهناك ، بزات مشاة العدو ذات اللون الازرق الداكن . وانسلّت قافلة شحن نمساوية على سفح تل يودعها دخان القنابل المحموم من فوقها .

كانت احدى البطاريات تقصف القافلة من جهة اليسار ، فيهدر دويها الكئيب على الحقول ويتجاوب خلل الغابة .

أصدر المقدّم الذي يقود السرايا الثلاث أمره بالخبب فانطلقت في خبب غير سريع . فراحت الخيل تتمايل تحت فرسانها والزبد ينتشر من خواصرها على شكل أزهار وردية مصفرّة .

توقفت الكتيبة لتبيت ليلتها في قرية صغيرة . وانحشر الضباط الاثنا عشر في كوخ صغير . وكان قد أضناهم الإرهاق والجوع فاستسلموا للنوم . ولم يصلهم مطبخ الميدان حتى منتصف الليل تقريبا ، حين جاءهم حامل العلم تشوبوف بقدر من الحساء . وقد أيقظت الضباط الرائحة الطيبة ، وما أن مرّت دقائق حتّى شرعوا يأكلون بصمت ونهم ، ووجوههم ماتزال منتفخة من النوم ، ليعوضوا عن اليومين اللذين أنفقوهما في القتال . زال شعورهم بالنعاس بعد تلك الوجبة المتأخرة ، وجلسوا فوق عباءاتهم على القش يتجاذبون أطراف الحديث ويدخنون .

لوّح النقيب كالميكوف يديه بحدّه ، وهو ضابط ربعة ، كان وجهه

المدور فضلاً عن اسمه ، يحمل آثار أصله المنغولي ، قال موجهاً كلامه الى الملازم ترسينتيسيف :

ـ هذه الحرب لاتروق لي . لقد ولِدتُ بعد زماني بأربعة قرون . أتدري ، إنني لن أعيش لأرى نهاية هذه الحرب . ردّ عليه الملازم من تحت عباءته بصوت جهير :

ـ دعك من قراءة الفال!

ـ إنه ليس فالاً . بل نهايتي المكتوبة . أنا ممن يؤمنون بعودة الانسان الى أصله ، ولا يحتاجني أحد هنا ، حين كنّا اليوم عرضة للنار ارتجفت بجنون ، أنا لا أطيق قتالاً لا أرى فيه عدوّي وجهاً لوجه . إن الشعور الفظيع الذي يتملكني أشبه بالخوف . إنهم يطلقون النار عليك من بعد عدّة فرستات ، وأنت على حصانك كطير حباري يطارد على السهب .

قال الرئيس اتاما نتشوف ، وهو يلعق بقايا اللحم المعلب من على شاربيه الأحمرين المشذبين على الطريقة الانكليزية :

ـ رأيت مدفعاً نمساوياً في كوبالكا . هل رأى أحدكم مدفعاً من هذا النوع ، أيها السادة ؟

فجاءه جواب حماسي من حامل العلم تشوبوف الذي كان آنئذ قد أفرغ قدراً ثانياً من الحساء :

ـ صناعة رائعة! مسدداته ، وماكنته برمتها هي الكمال بعينه .

ـ لقد رأيته ، ولكن ليس لدي ما أقوله ، أنا جاهل كل الجهل في شؤون المدفعية . إنه لم يبد لي سوى مدفع كسائر المدافع له ماسورة كبيرة ، وهذا كل مافي الأمر .

استطرد كالميكوف ، ملتفتاً صوب ليستنتسكي :

ـ اني أغبط أولئك الذين حاربوا في الأيام الخوالي ، على الطريقة البدائية . فالكرّ على العدو في معركة مشرّفة ، وشطره بسيفك شطرين ، ذلك هو النمط من القتال الذي أفهمه . أما هذه الحرب فالشيطان وحده يعرف ماهي .

ـ لن يبقى للخيالة دور في حروب المستقبل .

ـ سوف تلغى تماماً .

ـ لا أعتقد .

ـ ليس ثمة شك في ذلك .

ـ ولكن ليس بوسعك أن تستبدل الرجال بالمكائن . أنت تبالغ كثيراً .

ـ أنا لا أعني الرجال ، بل الخيل . ستحل الدراجات البخارية أو السيارات محلها .

ـ لا أكاد أتصوّر شكل سرّية من السيارات!

فقاطعه كالميكوف منفعلاً :

ـ كل هذا هراء! وهم سخيف! ستظل الجيوش تستخدم الخيل لوقت طويل . لسنا ندري كيف ستجري الحرب بعد قرنين أو ثلاثة ، أمّا اليوم فإن الخيالة... .

ـ ماذا أنت فاعل بالخيالة اذا ماحفرت الخنادق على طول الجبهة ؟ أجبني!

ـ نقتحم بها الخنادق ، فنثب عبرها ، ونتعمق الى مؤخرة العدو ، تلك هي مهمة الخيالة .

ـ هراء .

ـ الزمن خير حكم .

ـ اخرسوا ، دعونا نأخذ قسطاً من النوم .

وصل النقاش الى نهايته ، وحلّ الشخير محلّه . استلقى ليستنتسكي على ظهره ، ورائحة القش اللذيذة ، الذي فرش عباءته عليه ، تنفذ الى أنفه . واستلقى كالميكوف بجانب يفغيني ، وهو يرسم علامة الصليب .

عليك أن تتحدث الى المتطوع بونتشوك . إنه في رعيلك ، وهو رجل يثير الاهتمام .

فسأله ليستنتسكي وهو يدير اليه ظهره :

ـ كيف ؟

إنه قوزاقي عاش في روسيا . سكن موسكو . إنه عامل اعتيادي . ولكنه مولع بأمور المكائن وهو حامل رشاش من الطراز الأول كذلك .

فاقترح ليستنتسكي قائلاً :

ـ دعنا ننام .

فأيده كالميكوف قائلاً : «ربما كان علينا أن نفعل ذلك» . وهو يفكّر بشكل آخر ، ثم تجهّم وقال محرجاً : «يجب أن تغفر لي جيفة قدمي ، أيها الملازم . إنني لم أغيّر جوربي منذ اسبوعين ، إنهما متعفنان من العرق تماماً... .رائحة كريهة حقّاً . عليّ أن أحصل على زوج من الجوارب من أحد الجنود » .

فغمغم ليستنتسكي وهو يغفو :

ـ لا عليك .

نسى ليستنتسكي اشارة كالميكوف الى بونتشوك تماماً ، ولكن الصدفة ساقته في اليوم التالي الى التعرف على هذا المتطوع . فقد أمره قائد الكتيبة أن يخرج عند الفجر على رأس دورية استطلاع ، وأن يجري اتصالاً ، إن أمكن ، مع كتيبة المشاة التي استمرّت على التقدّم في الجناح الأيسر . فذهب في عتمة الفجر يتعثر في أرجاء الحوش ، ويقع على أجسام القوزاق النائمين ، فوجد عريف الرعيل وقال له :

ـ أريد خمسة رجال يذهبون معي في مهمة استطلاع . دعهم يسرجون حصاني . اسرع! وفيما كان ينتظر حضور الرجال ، جاء الى باب الكوخ قوزاقي ربعة ، وقال :

ـ ياصاحب السعادة ، العريف يرفض السماح لي بالذهاب معك بحجة أنه ليس دوري . هل تسمح لي أن أذهب ؟

فسأل ليستنتسكي الرجل ، جاهداً أن يتبين وجهه في الظلام :

ـ هل ارتكبت شيئاً ؟ وتريد أن تبرر خطأك ؟

ـ لم أرتكب أي شيء .

فقال ليستنتسكي : «لا بأس . بوسعك أن تأتي» . وحين استدار القوزاقي ليذهب ، صاح في اثره :

ـ هاي! ارجع!

اقترب القوزاقي منه .

ـ قل للعريف... .

فقاطعه القوزاقي قائلاً :

ـ اسمي بونتشوك .

ـ متطوع ؟

ـ أجل .

وحين تدارك ليستنتسكي ارتباكه ، عدل اسلوب كلامه فقال : «حسناً ، يابونتشوك ، قل للعريف أن... . اوه ، لابأس سأقول له ذلك بنفسي» .

خفت عتمة الفجر حين خرج ليستنتسكي من القرية على رأس رجاله عبر الحراس والمراكز الأمامية . حين قطعوا بعض المسافة نادى قائلاً :

ـ أيها المتطوع بونتشوك .

ـ سيدي .

ـ اقترب بحصانك منّي ، من فضلك .

فقرب بونتشوك بمطيته الاعتيادية الى جانب حصان ليستنتسكي الأصيل . فسأله ليستنتسكي وهو يتملى صورته الجانبية :

ـ من أي قرية أنت ؟

ـ نوفوتشيركا سكايا .

ـ هل لي أن أعرف السبب الذي دعاك الى التطوع في الجيش ؟

فأجابه بونتشوك وعلى شفتيه أثر ضئيل من ابتسامة ، وفي عينيه الخضراوين نظره قاسية نفاذة مسمرة :

ـ بالتأكيد! إنني مولع بفن الحرب . أريد إتقانه .
ـ هناك مدارس حربية أسست لهذ الغرض .
ـ نعم .
ـ حسناً ، ما السبب اذن ؟
ـ أريد دراسته في التطبيق أولاً . وبوسعي أن أحصل على النظرية فيما بعد .
ـ ماذا كنت قبل اندلاع الحرب ؟
ـ كنت عاملاً .
ـ أين كنت تشتغل ؟
ـ في بطرسبورغ ، وروستوف ، وفي معمل السلاح في تولا . أنا أفكّر في طلب الانتقال الى مفرزة الرشاشات .
ـ هل تعرف أي شيء عن الرشاشات ؟
ـ بوسعي أن استعمل أنواع برتية ، ومادسن ، وماكسيم ، وهوتشكيس ، وفيكرس ، ولويس ، وبضعة أنواع أخرى .
ـ أو هو! سأقول لآمر الكتيبة كلمة حول ذلك!
ـ افعل ذلك من فضلك .

وصوب ليستنتسكي نظرة ثانية الى هيئة بونتشوك الربعة ، فذكرته بشجرة الدردار الفليني التي تنمو على ضفاف الدون . فلم يكن في الرجل مايثير الانتباه ، ولا يميزه عمن حوله من جموع الجنود القوزاق سوى فكيه المنطبقين بشدة ونظرته المتحدية المباشرة . كان لا يبتسم الا لماما ، بثنيات من شفتيه ، وحتى لو فعل ذلك فلم تكن عيناه تزدادان رقة بل تحتفظان بوميض خافت من اللامبالاة . كان بتحفظه البارد يشبه شجرة الدردار الفليني ، شجرة الصلابة الحديدية القاسية التي تنمو على التربة الدكناء الرخوة عند ضفاف الدون غير المعطاء .

سارا صامتين بعض الوقت . وأسند بونتشوك راحتيه الواسعتين على قربوس سرجه الأخضر المقشّر . وانتقى ليستنتسكي سيكاره ، ولمّا أشعلها

من ثقاب بونتشوك شمّ في يد الرجل رائحة عرق الخيل الراتنجية الحلوة . كان ظهر يده مكسواً بشعر بني كثيف ، فانتابت ليستنتسكي رغبة لا إرادية في أن يمسد عليه . ثم ابتلع دخان التبغ الحريف ، وقال :

ـ حين نصل الغابة ، ستذهب أنت وقوزاقي آخر في الطريق المؤدي الى اليسار . هل تراه ؟

ـ أجل .

ـ وإذا لم تصادف مشاتنا بعد أن تقطع نصف فرست ، عد أدراجك .

ـ حسناً جداً .

شرعوا يخبّون . كان عند منعطف الطريق المؤدي الى داخل الغابة أجمة من أشجار البتولا . وحين يتعداها المرء يرهق عينيه الصفار الكئيب لأشجار الصنوبرالقمينة ودق الشجر البرّي والشجيرات التي سحقتها قوافل الشحن النمساوية . كانت الأرض ، والى يمينهم ، ترتج بالمدافع البعيدة ، ولكن عند أجمة البتولا خيّم صمت لا يوصف . كانت الأرض تعبّ الندى الغزير ، والأعشاب ذات الظلال الوردية تطفح بالألوان الخريفية التي كانت تندب موتها الوشيك . توقف ليستنتسكي عند البتولا ، وأخرج منظارته وراح يتفحص المرتفع المائل وراء الغابة ، وقد حطّت نحلة على مقبض سيفه العسلي اللون . فعلق بونتشوك قائلاً بهدوء وعطف :

ـ يا للحمقاء !

فاستدار ليستنتسكي اليه ، قائلاً :

ـ من هي ؟

فأومأ بونتشوك الى النحلة بعينه ، فابتسم ليستنتسكي قائلاً :

ـ سوف يغدو عسلها مراً ألا تظن ذلك ؟

لم يأت الجواب من بونتشوك . فقد بدد الصمت صياح عقعق في ثنايا أكمة بعيدة من أشجار الصنوبر ، ومرقت رشقة من الرصاص خلال أشجار البتولا ، فأهوت غصناً على عنق حصان ليستنتسكي .

فاستداروا وعادوا الى القرية هذباً ، يستحثون خيلهم بالصياح والسياط . وراح الرشاش النمساوي يقذف بقية عتاده وراءهم .

بعد هذا اللقاء تعددت لقاءات ليستنتسكي مع المتطوع بونتشوك . وقد راعه كل مرّة ما يومض في عيني هذا الرجل من عزم لا يلين ، ولم يستطع أن يتوصل الى ما يكمن وراء هذا الغموض المغلق الذي يغشى وجه هذا الانسان غير الملفت النظر كثيراً . كان بونتشوك كلّما تحدّث اليه تحتبس بين شفتيه القويتين ابتسامة ، وقد خلق لدى ليستنتسكي انطباع من يطبّق قواعد محددة ليسلك سبيلاً ملتوياً . ثم نقل الى مفرزة رشاشات . وبعد أيام ، والكتيبة تنال قسطاً من الراحة ، خلف جبهة القتال ، لحق ليستنتسكي به اذ كان سائراً حذاء جدار لمأوى أتت النار عليه .

ـ آه ، المتطوع بونتشوك!

فأدار القوزاقي رأسه وأدّى التحيّة . فسأله ليستنتسكي :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

ـ الى آمر وحدتي .

ـ نحن إذن سائران في نفس الطريق .

ـ نعم .

سارا بصمت بعض الوقت في شارع القرية المهدّم . كان الناس يتجولون حول مرافق الأبنية القليلة التي مازالت سالمة ، ومرّ بهما خيّالة ، وكان ثمّة مطبخ ميدان يرسل الدخان في وسط الشارع وقد وقف صف طويل من القوزاق الى جانبه في انتظار أدوارهم ، وكان في الهواء رذاذ بارد .

سأل ليستنتسكي وهو يخاوص النظر الى بونتشوك الذي كان متخلفاً عنه قليلاً :

ـ حسناً ، هل تتعلم الآن فن الحرب ؟

ـ أجل إني أتعلمه .

ـ فسأل الملازم وهو ينظر الى يدي بونتشوك لأمرٍ ما :

ـ ماذا تنوي أن تفعل بعد الحرب ؟

أجاب بونتشوك مضيقاً عينيه :

ـ البعض يحصد ما يزرع... ولكنّي سأرى .

ـ كيف لي أن أفسّر هذه الملاحظة ؟

ـ أتعرف المثل القائل «من يزرع الريح يحصد العاصفة ؟» هكذا يكون الأمر .

ـ ولكن إذا وضعنا الأحاجي جانباً ؟

ـ المسألة واضحة كما هي . عفوك ، إني ذاهب من هنا صوب اليسار .

ثم رفع أصابعه الى قمة قبعته ، واستدار من الطريق فهزّ ليستنتسكي كتفيه ووقف يرسل النظرات وراءه .

سأل ليستنتسكي نفسه مغتاظاً وهو يدلف الى حفيرة* آمر السرية المعتنى بها : «أيحاول صاحبنا أن يبدو شخصاً غريب الأطوار ، أم أن في رأسه نحلة تطن ؟» .

١٦

استدعيت وجبتا الاحتياط الثانية والثالثة للخدمة سويّة . فبدت قرى الدون خاوية وكأن الجميع غادروها للحصد أو الحش في زحمة موسم الحصاد .

إلا أن الذي جناه القوزاق على امتداد الحدود عامئذ كان حصاداً مريراً ، فقد اقتفت المنية خطى القوزاق ، فناح العديد من زوجاتهم وهن حاسرات الرأس على من رحلوا عنهم : «آواه ، يا حبيبي ، ياعزيزي كيف سأعيش في هذه الدنيا من دونك ؟» وقد تهاوت رؤوس الأعزاء في كل مكان ، وأريقت

---

* الحفيرة ـ خندق مسقوف لوقاية وايواء الجنود في ميدان القتال . المترجمون

دماء القوزاق ، فرقدوا بعيون جامدة هامدين فيما كانت المدفعية تدوي باللحن الجنائزي ، في النمسا ، وفي بولندا ، وفي بروسيا... . فريح الشرق لم تعد تحمل الى مسامعهم نواح زوجاتهم وأمهاتهم .

لقد بارحت القرى نخبة القوزاق وهلكت وسط قمل وفظائع سوح القتال .

ذات يوم جميل من أيام أيلول تعلّق فوق تتارسكي خيط حليبي من ريق الشمس . وراحت الشمس الشاحبة تبتسم كالثكلى ، وكانت السماء المقطّبة ذات الزرقة العذرية صاحية شماء على نحو يثير النفور . وكانت الغابة عبر الدون تكتسي صفرة يرقانية ، فالحور خابي الألق ، والبلوط ينفض بين حين وآخر أوراقاً ذات أشكال هندسية ، إلا الحور الرومي فقد بقي أخضر مزوقاً يسرَّ بديمومة خضرته عين العقعق النفاذة .

تلقى بانتلاي بروكوفتش ذلك اليوم رسالة من الجيش المحارب . جاءت دونيا برسالة من البريد . وكان مأمور البريد العجوز ، حين ناولها الرسالة قد انحنى وهزّ هامته الصلعاء ونشر ذراعيه متضرعاً :

ـ اغفروا لي بحب الله . لقد فتحت الرسالة . أخبري أباك أنني فتحتها . كنت بحاجة ماسة الى معرفة كيف تسير الحرب... .اغفروا لي ، وأخبري بانتلاي بروكوفتش بما قلت .

كان بادي الاضطراب ، ولم يفطن الى بقعة الحبر على أنفه ، فخرج من مكتبه بصحبة دونيا . وهو يتمتم شيئاً غير مفهوم وقد ملأها القلق ، فقفلت راجعة الى البيت . وراحت تفتش عن الرسالة في صدرها لوقت طويل . فصرخ فيها بانتلاي بروكوفتش وهو يجز لحيته :

ـ عجلي!

وفيما أخرجت الرسالة قالت لاهثة :

ـ أعلمني مأمور البريد أنه قرأ الرسالة ، ويرجو أن لا تزعل منه .

ـ ليأخذه الشيطان! أهي من غريغوري ؟ ـ سألها العجوز ذلك ، وهو

يتنفس في وجهها منفعلاً ، وأضاف : ـ أمن غريغوري ؟ أم من بيوتر ؟
ـ كلا ، يا ابتي... . لا أعرف هذا الخط .

فصرخت الينشنا وهي تترنح بثقل نحو المصطبة : «اقرئيها!» .

كانت ساقاها تسببان لها في تلك الأيام متاعب جمّة . وهرعت ناتاليا الى الحوش ووقفت عند الموقد ، مائلة الرأس ، ومرفقاها يشدان على صدرها . واختلجت على شفتيها ابتسامة كشعاع الشمس كانت ماتزال ترقب من غريغوري رسالة أو أقل إشارة اليها في رسالة جزاء أمانتها وولاءها اللذين يشبهان أمانة الكلب وولاءه . وهمست ايلنتشنا :

ـ أين داريا ؟

فصرخ بانتلاي بروكوفتش : «اخرسي!» واردف مخاطباً دونيا«اقرئيها! »

«ينبغي أن أحيطكم علماً» هكذا بدأت الرسالة ، وتهاوت دونيا من على المصطبة ، حيث كانت جالسة ، وعاطت :

ـ أبتاه! أماه!... ويلاه ، ماما... . عزيزنا غريشا! : أواه ، أواه!... غريشا... . قتل .

كان ثمّة يعسوب يضطرب بين أوراق الجيرانيوم التي أوشكت على الذبول ، فراح يضرب على النافذة ويطن مهتاجاً . وفي الفناء كانت دجاجة تقوق رضيّة ، وتناهى خلال الباب المفتوح ضحك طفولي رنان .

سرت اختلاجة عبر وجه ناتاليا ، رغم أن شفتيها مازالتا تكتسيان بسمتها الراعشة . قام بانتلاي بروكوفتش على قدميه ، ورأسه يرتعش كالمشلول ، وراح يحملق الى دونيا بحيرة مخبولة . جاء في الكتاب :

ينبغي أن أحيطكم علماً أن ولدكم غريغوري بانتليفتش ميليخوف ، من قوزاق كتيبة الدون الثانية عشرة ، قد قتل في السادس عشر من أيلول قرب مدينة كامينكا ـ ستروميليو . لقد مات ابنكم ميتة الشجعان ، فأتمنى أن يكون ذلك

عزاءكم في خسارتكم هذه التي لاتعوّض . ستسلم حاجياته الشخصية الى أخيه ، بيوتر ميليخوف . وسيبقى حصانه في الكتيبة .

آمر السرّية الرابعة النقيب بولكو فنيكوف .
جيش الميدان ـ ١٨ أيلول ، ١٩١٤ .

اعترى بانتلاي بروكوفتش ، بعد تلقي هذه الرسالة ، ذبول مفاجىء ، كانت الشيخوخة تظهر عليه أكثر مع كل يوم حتى أخذت ذاكرته تخونه وفقد صفاء الذهن . كان يتجوّل هنا وهناك بظهر محني ، وقد علا وجهه ظل بلون الحديد ، وكان الوميض المحموم في عينيه ينم عن اجهاد في نفسه .

أخفى الرسالة تحت الأيقونة . وكان يذهب الى سقيفة الباب مرّات عديدة كل يوم ليومىء الى دونيا . وحين تدخل الدار يأمرها أن تأتيه بالرسالة لتقرأها له ، وهو يتطلع بوجل الى باب غرفة أمامية حيث تمضي زوجته أيام الحداد . كان يقول لدونيا ، وعينه تطرف بدهاء : «اقرئيها بهدوء ، وكأنك تقرئين لنفسك لكي لا تسمع الوالدة... والا...» . فتختنق دونيا بعبراتها ، وتقرأ الجملة الأولى ، وبانتلاي بروكوفتش جالس القرفصاء ، فيرفع يده السمراء الكبيرة التي تشبه الحافر ليقول :

ـ كفاية . أعرف البقية . خذي الرسالة واعيديها حيث كانت . هدوء والا فالوالدة... ـ ثم يغمز بعينه غمزة ناشزة ووجهه ملتو كلحاء شجرة محروق .

بدأ يشيب وأخذت شعرات الشيب الساطعة تبقع رأسه وتوخط لحيته بسرعة . وغدا كذلك شرها يزدرد طعامه ازدراداً دون أن يعتني بالنظافة حين يأكل .

مضت أيام تسعة على قداس الجنازة فدعا آل ميليخوف الأب فيساريون والأقارب الى وليمة في ذكرى القتيل غريغوري . وتناول بانتلاي بروكوفتش الطعام بعجالة وضراوة فتعلقت الشعرية في لحيته كالاهلة . وكانت ايلنشنا تراقبه منذ أيام بقلق ، فانفجرت باكية :

ـ مابك ياأب ؟

ـ هاه ؟

قال العجوزذلك جافلاً ، وهو يرفع عينيه العمشاوين من على صحنه . فلوحت الينتشنا يدها وادارت وجهها وهي تشد المنديل على عينيها .

فقالت داريا مغضبة وعيناها تتقادحان :

ـ أبي ، أنت تأكل وكأنك صُمت ثلاثة أيام .

ـ أنا آكل ؟... حسناً ، لن آكل .

هكذا رد بانتلاي بروكوفتش وقد تملكه الحرج . ثم أجال ناظريه حول المائدة ، وضم شفتيه وعقد مابين حاجبيه وخلد الى الصمت ، دون أن يجيب على أي سؤال . وحاول الأب فيساريون بعد أن فرغوا من الطعام أن يشجعه فقال :

ـ تشجع ، يابروكوفتش ! ماجدوى كل هذا الأسى ؟ لقد مات غريغوري ميتة مقدسة ، فلا تغضب الرب ، ياشيخ . لقد فاز ابنك بأكليل الشوك من أجل قيصره ووطنه . وها أنت ذا... إنها الخطيئة ، وإن الله لن يغفرها لك .

ـ هكذا بالضبط ، أيها الأب «لقد مات ميتة الشجعان» . ذلك ماكتبه آمر وحدته .

وبعد أن لثم الشيخ يد القديس ، اتكأ على عمود الباب ، وللمرة الاولى منذ وصول الرسالة ، اجهش في البكاء ، فراح جسده يختض بعنف .

ومنذ ذلك اليوم استعاد رباطه جأشه ، وأبلّ من مصابه قليلاً .

لعق كل منهم الجرح على طريقته : فحين سمعت ناتاليا دونيا تصرخ ان غريغوري قد مات هرعت الى الحوش : «ساقتل نفسي . انتهى كل شيء بالنسبة لي» . كانت هذه الفكرة تسوقها كالنار . فجعلت تقاوم بين ذراعي داريا ، ثم اغمي عليها ، فاستسلمت بارتياح . لقد اجل الإغماء ، على الأقل ، لحظة عودة الوعي ، حين تقفز الأحداث الى ذاكرتها بعنف . وأمضت اسبوعاً في ذهول مطلق . ثم افاقت الى عالم الواقع ، وقد تغيرت ، فغدت

أكثر هدوء عمّا كانت عليه ، تنهشها أنياب ضنى قتال... كانت جثة غير مرئية تحوم في أرجاء بيت ميليخوف ، فيعيش الاحياءفي لجّة رائحتها العفنة .

١٧

بعد مضي اثني عشر يوماً على نبأ وفاة غريغوري ، تلقى آل ميليخوف من بيوتر رسالتين دفعة واحدة . قرأتهما دونيا في دائرة البريد ، وجرت مسرعة الى البيت ، كقشة حملتها الرياح ، ثم ترنحت ووقفت متكئة على أحد الاسيجة . وقد أثارت في القرية بلبلة غير قليلة ، وأشاعت في البيت اضطراباً لايوصف . فقد نشجت واعولت وهي ماتزال على مبعدة :

ـ غريشا حي! عزيزنا على قيد الحياة! بيوتر كتب الرسالة . غريشا جرح ، ولكنه لم يمت وانه حي ، حي!

كتب بيوتر في رسالته المؤرخة في العشرين من أيلول :

«تحية ، يا أبوي العزيزين ، ينبغي أن أخبركما أن عزيزنا غريشا كاد يلفظ أنفاسه ، لكنّه الآن ، والحمد لله ، حي معافى ، كما نتمنّى لكما الصحة والرفاه ، بجاه الله . فقد اشتبكت كتيبته في معركة قرب مدينة كا مينكاـ ستروميلوفو ، ورأى قوزاق رعيله فارساً مجرياً يطعنه فهوى غريغوري الى الأرض من على حصانه ، ولم يدر أحد ماالذي حصل بعد ذلك ، وحين استفسرت منهم لم يستطيعوا أن يفيدوني بشيء . ولكنّي علمت من ميشا كوشيفوي بعدئذ ـ وهو جاء الى كتيبتنا في مهمة الاتصال ـ إن غريغوري بقي مطروحاً حتى الليل ، ولكنه ثاب الى وعيه أثناء الليل وشرع يزحف . وقد زحف مسترشداً بالنجوم ، وعثر على أحد ضباطنا وقد أصابته شظية في بطنه وساقه . فالتقطه وجرّه مسافة ستّة فرستات . وقد منح غريغوري جزاء ذلك وسام القديس غيورغي ، ورقي الى رتبة نائب عريف . لم يصب الا بخدوش في رأسه ، ولكنه سقط عن حصانه فاغمي عليه . وقد اخبرني ميشا انه عاد

الى الجبهة ثانية . ارجو الا تعيبوا عليّ هذا الخط ، فإني اكتب وأنا على السرج » .

وفي الرسالة الثانية طلب بيوتر من أهله أن يرسلوا له بعض الكرز المجفف من بستانهم ، واخبرهم الا ينسوه بل أن يكتبوا له اكثر مما يفعلون . وانحنى باللائمة على غريغوري في الرسالة نفسها ، لأنه لا يعني بحصانه العناية اللازمة ، ـ على حد أقوال القوزاق ـ وكان بيوتر غاضباً لأن الحصان يعود له في واقع الحال . ورجا اباه ان يكتب الى غريغوري ، وذكر انه ارسل من يقول له أن بيوتر سيلطمه لطمة تدمي أنفه إن لم يعن بالحصان ، رغم كونه يحمل وسام القديس غيورغي . واختتم رسالته بقائمة لا نهاية لها من التحيات . ولم يكن عسيراً أن يستشفوا من خلال السطور المغضنة التي بقعها المطرشعوراً بالمرارة والأسى . فمن الجلي أن بيوتر ، هو الآخر ، كان يجابه في الحرب وقتاً عصيباً .

كان مرأى بانتلاي بروكوفتش يبعث على الاشفاق . لقد دوخه الفرح ، فأمسك بكلتا الرسالتين في يده وخرج بهما الى القرية ، مستوقفاً كل من يستطيع القراءة ليحمله على تلاوة الرسالتين . لم يكن الخيلاء ، بل هو الفرح المتأخر ، الذي دفعه الى الزهو في شوارع القرية بكاملها .

ما إن يرفع يده حين يبلغ القارىء المتعثر تلك الفقرة التي وصف فيها مأثرة غريغوري ، فيقول : « اها! مارأيك بولدي غريشا ؟ إنه أول من نال وساماً في القرية » . كان يعلن ذلك بفخر ، ثم يأخذ الرسالتين بكل اهتمام ، فيدسهما في بطانة قبعتة ويمضي في البحث عن قارىء آخر .

حتى سيرغي موخوف ، الذي رأه من خلال نافذة دكانه ، خرج لملاقاته رافعاً قبعته :

ـ ادخل دقيقة . يابروكوفتش!

وحين دخلا ، شد على قبضة الشيخ بيده البيضاء المنتفخة ، وقال :

ـ حسناً ، اني اهنئك ، فلابد أنك فخور أن يكون لك ولد مثله . كنت أقرأ لتوّي عن مأثرته في الجرائد .

فجفت حنجرة بانتلاي بروكوفتش وشق عليه ابتلاع ريقه .

ـ هل أخذتها الجرائد ؟

ـ أجل ، لقد قرأتها لتوّي .

وانزل موخوف من على الرف علبة من أجود التبوغ التركية ، وافرغ بعض الحلوى الغالية في كيس دون أن يكلف نفسه عناء وزنها . ثم قال وهو يناول بانتلاي بروكوفتش التبغ والحلوى :

ـ حين ترسل رزمة الى غريغوري بانتلاي بروكوفتش ابعث اليه تحية مع هذه من عندي .

غمغم العجوز ، وهو يهبط درجات الدكان : «ياالهي! أي شرف هذا لغريشا! القرية برمتها تتحدث عنه . لقد عشت لارى...»ثم تمخّط ومسح الدموع من على خدّيه بكمّه ، وهو يقول في نفسه : «ها ان علائم الشيخوخة تظهر عليّ ، فما أسرع ما تدمع عيناي . آه يابانتلاي! ماذا فعلت بك الأيام ؟ كنت ذات يوم صلداً كحجر الصوان ، كان بوسعك أن تحمل على ظهرك ثمانية بودات وكأنها ريشة ، وها انت ذا . إن قضية غريشا قد هدّت حيلك بعض الشيء!»

وفيما كان يتطلع على امتداد الشارع ، ضاماً كيس الحلوى الى صدره ، عادت أفكاره ترفرف حول غريغوري كما يرفرف زقزاق فوق غيضه ، وجالت كلمات بيوتر في مخيلته . وفي تلك الاثناء كان كورشونوف حمو غريغوري مقبلاً في الطريق ، فنادى على بانتلاي :

ـ يابانتلاي توقف دقيقة!

لم يكن الرجلان قد التقيا منذ اعلان الحرب ، فقد فترت وتوترت العلاقة بينهما وغدت اضطرارية مذ غادر غريغوري بيت أهله . وكان ميرون غريغوريتش متكدراً من ناتاليا لأنها اذلّت نفسها لغريغوري ولأنها جعلت والدها يعاني ذلة مماثلة .

كان يلوم ناتاليا أمام عائلته قائلاً :

ـ يا للعاهرة المتجولة . لمَ لا تستطيع العيش مع عائلتها بدل الذهاب الى أهل زوجها ؟ لكأنهم يطعمونها خيراً منّا . ينبغي لوالدها ، جراء حمقها ، أن يتحمّل هذا الخزي فلا يقوى على رفع رأسه في القرية .

تقدّم ميرون غريغورفتش من بانتلاي بروكوفتش ومدّ اليه يده النمشاء :

ـ كيف حالك ؟

ـ الحمد لله... .

ـ كنت تتسوق ؟

فهز بانتلاي بروكوفتش رأسه ملوحاً بيده اليمنى وقال :

«هذه هدايا لبطلنا . لقد قرأ سيرغي بلاتونوفتش عن مأثرته في الجرائد فأهدى اليه بعض الحلوى والتبغ قال : «سلّم عليه وابعث له هذه الهدايا ننتظر منه المآثر في المستقبل أيضاً» . أتدري ، عيناه اغرورقتا بالدموع» . ومضى العجوز يتباهى ، مسمّراً نظراته في وجه ميرون غريغوريتش ، محاولاً أن يجتلي أثر كلماته .

تجمعت الظلال تحت أهداب ميرون غريغوريتش الشقراء ، مضيفة على محياه بسمة ساخرة ، فقال باقتضاب :

ـ هكذا!

ثم استدار ليعبر الشارع ، فهرع بانتلاي بروكوفتش وراءه ، فاتحاً الكيس وهو يهتز غضباً ، وقال له بنبرة حاقدة :

ـ هاك ، ذق هذه الشوكولاته ، إنها حلوة كالعسل . ذقها ، أنا أقدمها باسم ولدي . ليست حياتك حلوة جداً ، فبوسعك أن تأكل واحدة ، وقد ينال ابنك شرفاً كهذا في يوم من الأيام ، وقد لاينال شيئاً .

ـ لاتحشر نفسك في حياتي... أنا ادرى بها .

فانحنى بانتلاي بروكوفتش برقة مبالغ فيها ، وجرى أمام ميرون غريغورتيش واصابعه المعروقة تسلخ غلاف الشوكولاته الرقيق ، قائلاً :

ـ ذق واحدة على الأقل ، اعمل لي هذا المعروف .

فدفع ميرون غريغوريتش يده جانباً وقال :

ـ لسنا متعودين على الحلوى ، فهدايا الغرباء تؤذي أسناننا . لا يليق بك أن تستجدي الصدقات لولدك . إذا اضطرتك الحاجة يمكن أن تجيء الي . ابنتنا ناتاليا تأكل خبزكم . كان بوسعنا أن نعطيك شيئاً تواري به فقرك .

ـ لا أحد منّا استجدى صدقة في عائلتنا . فلا تكذب بلسان خشن ، يانسيب . أنت متباه جداً . اترى ابنتك أتت الينا لكونك ثرياً ؟

فقال ميرون غريغوريتش بلهجة متسلطة :

ـ مهلاً! لا داعي لشجارنا . أنا لم استوقفك للشجار . لدي أمر أود أن أحدثك به .

ـ ليس هناك أمر نتحدث به .

ـ أجل ، هناك . تعال .

أمسك بانتلاي بروكوفتش من كمه وجرّه الى زقاق فرعي . فسارا خارج القرية نحو السهب .

سأله بانتلاي بروكوفتش بلهجة أكثر هدوءاً ووداً : « حسناً ، ماالأمر ؟ » وخاوص بصره الى وجه ميرون غريغوريتش النمش فطوى ميرون غريغورتش ذيل معطفه الطويل تحته وجلس على حافة حفرة واخرج كيس تبغه العتيق .

ـ اتدري ، يابروكوفتش ، ان الشيطان وحده يعلم سبب هجومك عليّ كالديك المعارك . الحق أن الأمر غير لائق ، أليس كذلك ؟

ثم تحولت نبرة صوته فغدت خشنة جافة فيما استطرد : ـ أود أن أعلم الى متى يجعل ابنك من ناتاليا اضحوكة . قل لي!

ـ ينبغي أن تتوجه بالسؤال اليه ، لا الي .

ـ ليس عندي ما أسأل منه ، أنت رب البيت . وأنا اتحدث اليك .

اعتصر بانتلاي بروكوفتش الشوكولاته ، التي مازالت في يده ، فاندلق الخليط اللزق من بين أصابعه . ومسح راحة يده بطين الجرف الأسمر ، ثم شرع يلف سيكارة بصمت ، فاتحاً علبة التبغ التركي . وبعد أن أخذ منها نتفة ناولها الى ميرون غريغورتش . فأخذها ميرون غريغورتش دونما احجام ولف سيكارة من التبغ الذي أهداه موخوف بكل اريحيه . وتعلقت فوق رأسيهما غمامة بيضاء ثرة مزبدة ، وامتد نحوها خيط صاعد رقيق كان يتماوج في الريح .

آل النهار الى نهايته ، وتهدهد سكون أيلول بسلام وحلاوة لا توصفان . كانت السماء قد فقدت وهجها الصيفي الكامل ، فأمست زرقاء باهتة . وانتثرت في الحفرة أوراق تفاح أرجوانية زاهية ، الله وحده يدري من أين جاءت . واختفى الطريق على امتداد حافة التل المتماوجة وراح يومىء بلا طائل صوب الاصقاع المجهولة وراء الأفق الزمردي الغامض كالأحلام . وقد لازم الناس أكواخهم وحياتهم اليومية فراحوا يضنون الأنفس كدحاً ، ويستنزفون قواهم على ساحات درس الحبوب ، فاذا بالطريق درب مهجور ، يستبد به الحنين وينساب عبر الأفق صوب المجهول ، وجرت الريح عليه مثيرة الغبار .

قال ميرون غريغوريتش وهو ينفث سحابة من الدخان :

ـ هذا تبغ ضعيف . كالعشب .

فأيده بانتلاي بروكوفتش الى حد ما :

ـ ضعيف ، ولكنّه لطيف .

ثم رجاه ميرون غريغورتش بنبرة هادئة وهو يطفىء سيكارته :

ـ اعطني جواباً ، بانتلاي بروكوفتش .

ـ غريغوري لايأتي على ذكر الموضوع في رسالته . إنه الآن جريح .

ـ نعم بلغني ذلك .

ـ ماذا وراء ذلك ، لا أدري . قد يقتل ، ثم ماذا بعد ذلك ؟

فطرف ميرون غريغوريتش بعينيه شارد الفكر تعيساً :

ـ ولكن كيف يمكن استمرار الحال على هذا المنوال ؟ لاهي فتاة ، ولا هي زوجة ولا أرملة شريفة ، إنه لوضع معيب ، فلو كنت أعلم أن الأمور ستنتهي الى هذا المآل لما سمحت للخاطبين أن يتخطوا عتبة داري . آه ، بانتلاي... . بانتلاي... كل والد يأسى لطفلته . الدم أكثف من الماء... .

فرد عليه بانتلاي بروكوفتش بغيظ مكظوم :

ـ ماذا يمكن ان افعل ؟ اتظنني سعيدا بخروج ولدي من البيت ؟ هل جنيت من ذلك شيء ؟ يا للناس!

فأملى عليه ميرون غريغوريتش ، والتراب ينهال من تحت يديه الى الحفرة على وقع كلماته :

ـ اكتب اليه . دعه يقرر بشكل نهائي .

ـ ان له طفلة من تلك... .

فصاح كورشونوف ، وقد ازرق لونه : «وسيكون له طفل من هذه! هل يمكنك ان تعامل انسانا بهذا الشكل ؟هاه ؟ حاولت ان تقتل نفسها فصارت شوهاء بقية عمرها... . هل تريدون دفعها الى القبر ؟هاه... . يالقلبه ،يالقلبه... ـ كان صوت غريغوريتش كالفحيح ، وهو يمزق صدره بيد ، ويشد طرف معطف بانتلاي بروكوفتش باليد الاخرى ـ ام له قلب ذئب ؟

فند عن بانتلاي بروكوفتش صوت كالازيز واشاح بوجهه .

ـ المراة مخلصة له ، ولا حياة لها بدونه . اهي قن في خدمتكم ؟

فصاح بانتلاي بروكوفتش وهو ينهض من جرف الحفرة :

ـ هي اكثر من ابنة بالنسبة لنا!امسك لسانك! وافترقا دون وداع ، كل الى حال سبيله .

١٨

حين تنجرف الحياة عن مجراها الطبيعي تتشعب جداول متعددة . ومن العسير ان يتنبأ المرء اي جدول منها سيضم مسار حياته الملتوي الغدار . فحيث يترقرق اليوم ، كالنهير على ارض رملية ، تكاد لضحالته ترى قعره ، يجري في الغد ثرا طافحا... .

على حين غرة قررت ناتاليا ان تذهب الى اكسينيا ، في ياغودونويه ، وتسالها وتتضرع اليها ، ان تعيد غريغوري اليها . وقد خيل لناتاليا ، لسبب ما ، ان كل شيء يتوقف على اكسينيا ، وان كل ماعليها ان تفعله هو ان ترجوها فيعود اليها غريغوري ، ومعه يعود هناؤها السابق . ولم تترو لتعرف ما اذا كان ذلك ممكنا ، او كيف ستتلقى اكسينيا رجاءها هذا . ساقتها دوافع العقل الباطن ، فعمدت الى تنفيذ قرارها باسرع ما يمكن . وصلت في نهاية الشهر رسالة من غريغوري . وبعد ان خاطب اباه وامه بعث تحياته واحتراماته الى ناتاليا . ومهما يكن السبب الذي دفعه الى ذلك فإنه كان بمثابة الحافز الذي كانت ناتاليا تحتاجه ، فتأهبت للذهاب الى ياغودنويه يوم الأحد التالي .

سألتها دونيا فيما كانت تراقبها وهي تتملى ملامحها باهتمام في كسرة من مرآة :

ـ الى أين ذاهبة ، ياناتاليا ؟

ـ ذاهبة لزيارة أهلي .

كذبت ناتاليا ، فاحمر وجهها اذ ادركت للمرة الاولى انها معرضة نفسها لمهانة عظيمة ، وامتحان أخلاقي مريع . فاقترحت داريا قائلة :

ـ لم لا تخرجين معي في إحدى الامسيات ؟ تعالي هذا المساء ، الا تأتين ؟

ـ لا أدري ، لا أظن ذلك .

ـ يا للراهبة! دورنا يأتي فقط حينما يكون ازواجنا غائبين .

قالت داريا ذلك وغمزت بعينيها ، ثم انحنت لتتفحص الحاشية المطرزة لتنورتها الجديدة الزرقاء الفاتحة . لقد تغيرت داريا كثيراً منذ رحل بيوتر ، فبدا نفاذ الصبر في عينيها ، وفي حركاتها ومشيتها . فراحت تزيّن نفسها بعناية أشد أيام الآحاد ، ولا تعود الى البيت الا في ساعة متأخرة في المساء ، كئيبة العينين سيئة المزاج ، فتبث شكواها الى ناتاليا :

ـ فظيع ، فظيع حقاً! اخذوا من القرية كل القوزاق اللائقين ، ولم يتركوا فيها سوى الصبيان والشيوخ .

ـ حسناً ، وما الفرق بالنسبة لك ؟

ـ كيف ، لم يعد هناك أي شخص الهو معه مساء . ليتني أستطيع الذهاب يوماً الى الطاحونة لوحدي . فليس ثمة مسلاة لنا هنا بوجود حمينا .

ثم سألت ناتاليا بصراحة لوذعية : ـ كيف يسعك ، يا عزيزتي ، أن تصبري هذه المدّة الطويلة من دون قوزاقي ؟

فاحمر وجه ناتاليا وقالت :

ـ اخزاك الله! أليس لديك ضمير ؟

ـ الا تشعرين بأية شهوة ؟

ـ واضح أنك تشعرين بها .

فاحمر وجه داريا وارتعش قوسا حاجبيها وردت ضاحكة :

ـ بالطبع أشعر! لماذا يجب أن أخفي ذلك ؟ أنا على استعداد في اللحظة أن ابعث الحرارة حتى في شيخ عجوز واهيّجه! حسبك أن تتصوري ، لقد مضى شهران مذ رحل بيوتر .

ـ أنت تدخرين لنفسك الاحزان ، ياداريا .

ـ اخرسي ، أيتها العجوز الفاضلة! نحن نعرفكن ، أيتها الهادئات! أنتنّ لا تعترفن به .

ـ ليس لدي ما أعترف به .

فصوبت اليها داريا نظرة جانبية ساخرة ، ثمّ عضّت على شفتيها بأسنانها الصغيرة الشرسة وقالت :

ـ قبل أيام جلس بجانبي تيموفي ما نتسيف ، ابن الاتمان . جلس وهو يتصبب عرقاً . رأيته يخاف أن يبدأ . ثم دسّ يده تحت ذراعي بهدوء ، ويده ترتجف . لم أفعل شيئاً سوى الانتظار ، ولم انبس ببنت شفّة ، ولكن الغضب بدأ يتملكني . ليته كان شاباً ـ لكنّه مجرّد سافل صغير . كان عمره ستة عشر عاماً ولا أكثر من ذلك بيوم واحد . الا أن دمه يفور أيضاً . جلست صامتة ، ومضى هو يخمش بيده ويخمش ، ثم همس : «تعالي معي الى سقيفة المواشي في بيتنا» وحينذاك اتحفته بشيء!

ضحكت بمرح ، وارتعش حاجباها واندلق الضحك من عينيها نصف المغمضتين واردفت :

ـ أي درس علمته! قفزت ناهضة : «انت ، يا كذا وياكيت! أنت أيها الجرو الغبي! أتحسب نفسك قادراً على مراودتي بهذا الشكل ؟ متى بللت فراشك لآخر مرّة ؟» وجهت اليه كلاماً جميلاً .

تغير موقف داريا من ناتاليا في الاونة الاخيرة ، وغدت العلاقة بينهما بسيطة ودّية . لقد تلاشى النفور الذي استشعرته داريا ازاء المرأة الاصغر منها سنّاً فأخذت المرأتان ، المتباينتان في كل شيء ، تعيشان معاً عيشة ود .

فرغت ناتاليا من ارتداء ملابسها وخرجت . وادركتها داريا عند سقيفة الباب . فقالت :

ـ هل ستفتحين الباب لي هذه الليلة ؟

ـ اتصور أني سأقضي الليل عند أهلي .

فراحت داريا تحك أنفها بمشطها وهي مستغرقة بالتفكير ، ثمّ هزّت رأسها :

ـ آه ، حسناً ، لم يكن بودّي أن أطلب ذلك من دونيا ، ولكن لا أرى بدأ من ذلك .

اخبرت ناتاليا ايلنتشنا بأنها ذاهبة لزيارة أهلها ، ثم خرجت الى الشارع . كانت العربات تقرقع قادمة من ساحة السوق ، والقروريون عائدين من الكنيسة . انعطفت في زقاق جانبي وتسلقت التل على عجل . والتفتت عند القمة فنظرت خلفها . كانت القرية سابحة في نور الشمس ، والبيوت الصغيرة المطلية بالكلس تبهر العين ببياضها ، والشمس تنعكس على سقف الطاحونة المائل ، جاعلة صفائح الحديد تتوهج كذوب المعدن الخام .

١٩

كانت ياغودنويه قدخلت أيضاً من رجالها بسبب الحرب . ذهب فنيامين وتيخون ، فغدا المكان أكثر قفراً ، ومللاً ، وانعزالاً . وتولّت اكسينيا خدمة الجنرال بدل فنيامين ، وتولّت لوكيريا ذات العجيزة مهام المطبخ واطعام الدواجن . وكان ساشكا العجوز يعنى بالخيل والبستان . ولم يكن هناك سوى وجه جديد واحد ، هو قوزاقي عجوز يدعى نيكيتش استخدم حوذياً .

بذر ليستنتسكي العجوز عامئذ بذرا أقل ، وزوّد الجيش بحوالي عشرين حصان ركائب عسكرية ، فلم يبق للضيعة سوى جياد أصيلة وثلاثة جياد لجر العربة . وكان يمضي وقته في صيد الحباري والقنص بكلاب الصيد .

لم تتلق اكسينيا من غريغوري الا رسائل قليلة مقتضبة ، يخبرها أنه مازال بخير وهو يعاني مرارة التجربة . كان قد اشتد عوده ، والا فإنه لا يريد أن يخبرها بضعفه ، فقد عمد ألا تفلت منه أية شكوى من حياة الجندية التي ألفاها شاقة كئيبة . كانت ثمة نبرة فاترة في رسائلة ، وكأنّه كتبها شعوراً منه بالواجب . ولم يقل إلا في رسالة أخيرة : «كل وقتي في جبهات القتال ، لقد مللت الحرب وأنا أحمل الموت على ظهري» . وكان في كل رسائله يسأل عن ابنته ، ويطلب من اكسينيا أن تكتب له عنها : «اكتبي كيف حال ابنتي

وما هو مظهرها الآن ؟ رأيتها منذ أيام في منامي مرتدية فستاناً أحمر ومتكبرة» .

بدا على اكسينيا وكأنها تتحمل الفرقة بشجاعة . وقد أغدقت كل حبّها على طفلتها ، سيما بعد أن اقتنعت بأنها طفلته حقاً . لقد زودتها الحياة ببراهين لا تدحض : فتبدل شعرها الكستنائي واستحال أسود مجعّداً ، وغدت عيناها سوداوين مستطيلتين وحتّى ابتسامتها أصبحت تشابها ابتسامة غريغوري . ويزداد شبهها بأبيها يوماً بعد يوم . وبات بوسع اكسينيا أن ترى صورته في الطفلة بما لا يقبل الشك ، فازدادت عاطفتها نحوها عمقاً . ولم تعد تشيح عن المهد رأسها ، كما فعلت بعض الأحيان في السابق ، لأنها كانت تستشف في وجه الطفلة الغافي بعض ملامح ستيبان المقيتة .

على أن الأيام مضت متثاقلة ، وفي نهاية كل يوم تجثم على صدر اكسينيا مرارة كاوية . كان القلق على حياة محبوبها ينفذ في ذهنها كإبرة حادة ، فلا يبارحها نهاراً . كل ما اعتصر نفسها وحاولت أن تكبحه بإرادتها يعود فيقوّض كل السدود أثناء الليل ، فتتضوّروتتقلّب ، باكية دونما صوت ، وهي تعضّ على يدها ، كي لا توقظ الطفلة بنشيجها ، وقد بذلت وسعها لإغراق عذاب روحها بعذاب جسدها . وكانت تفرغ بقية دموعها على قماط طفلتها ، فتحدّث نفسها بسذاجتها الطفولية : «إنها طفلة غريشا ، لا بد أن يحس في صميمه كم أحن اليه» .

كانت اكسينيا تنهض صباحاً بعد ليالي مثل هذه وكأن أحداً قد أشبعها ضرباً لا رحمة فيه . كان الألم يبرّح كل جوارحها ، وتدق في عروقها مطارق فضيّة صغيرة لا تنقطع ، ويلوح الحزن في طرف شفتيها . وأضفت هذه الليالي الشيخوخة عليها .

ذات يوم أحد قدمت الفطور الى سيدها ، ثم خرجت الى الفناء وإذا كانت واقفة على عتبة الباب رأت امرأة تدنو من البوابة . كانت العينان تبدوان من تحت العصابة البيضاء مألوفتين بشكل غريب . فتحت المرأة

البوابة وولجت الفناء . وشحب وجه اكسينيا إذ عرفت ناتاليا ، ومضت اليها متمهلة . كانت طبقة كثيفة من الغبار قد استقرّت على حذاء ناتاليا . توقفت وقد تدلّت على جانبيها بلا حياة يداها الكبيرتان الخشنتان من الكدح ، وكانت تسحب أنفاسها بمشقّة ، وهي تحاول عبثاً أن تقيم رقبتها الشوهاء . فبدت وكأنها تنظر جانباً . قالت ، وهي تمرر لسانها الجاف فوق شفتيها : «جئت لأراكِ ، يا اكسينيا» .

القت اكسينيا نظرة خاطفة على نوافذ البيت وقادت ناتاليا بصمت الى داخل غرفتها فتبعتها ناتاليا . وبدا لأذني ناتاليا المصيختين بأن حفيف تنورة اكسينيا كان عالياً بشكل غير طبيعي : «أذناي ليستا على مايرام . لا بد أن ذلك بفعل الحرارة» . راحت هذه الفكرة المضطربة تعتمل في رأسها مع جملة من أفكار أخرى .

أغلقت اكسينيا الباب ، ثم وقفت في وسط الغرفة ويداها تحت وزرتهاوأخذت زمام المبادرة .

سألت اكسينيا بصوت واطىء أقرب الى الهمس :

ـ علام جئت ؟

فأجابت ناتاليا وهي تجول بعينيها في أرجاء الغرفة ببطء :

ـ أريد أن أشرب ماء .

انتظرت اكسينيا فشرعت ناتاليا في الكلام رافعة صوتها بمشقّة :

ـ لقد أخذت زوجي منّي... أعيدي لي غريغوري العزيز . حطمتِ حياتي . ألا ترين كيف...

فصرّت اكسينيا بأسنانها وتساقطت الكلمات من فمها متلاحقة كما تتساقط قطرات المطر المتباطئة على الحجر :

ـ أعيد زوجك ؟ أعيده ؟ ممن تطلبين ؟ لماذا جئت ؟ طلبك بعد فوات الأوان . بعد فوات الأوان!

دنت اكسينيا من ناتاليا وهي ترسل ضحكات كاوية تهزّ بدنها برمّته .

وراحت تهزأ بها وهي تصوّب النظرات الى غريمتها . هاهي واقفة ، تلك الزوجة الشرعية المهجورة ، ذليلة ، سحقتها التعاسة ، هي ذي المرأة التي حلّت بين اكسينيا وغريغوري ففرقت بينهما ، وأدمت قلب اكسينيا ألماً . ويوم كانت تضني نفسها بالشوق القتّال كانت الاخرى ، ناتاليا هذه ، تداعب غريغوري وتضحك منها دونما ريب ، تضحك منها هي العشيقة المهجورة . لهثت اكسينيا قائلة :

ـ وجئتِ تطلبين منّي أن أتخلّى عنه ؟ ايتها الأفعى الزاحفة ، أنت التي اغتصبت غريشا منّي لأول مرّة ! كنت تعرفين أنني أعاشره . لماذا تزوجته ؟ أنا استعدت ما يخصني . إنه ملكي ولي منه طفلة ، أما أنت ... .

وراحت تحدّق في عيني ناتاليا بمقت عاصف ، وفيما كانت تلوّح ذراعيها بجنون ، طفقت تصب حمماً جارفة من كلماتها :

ـ غريشا لي ، ولن اتخلّ عنه لأحد ! إنه لي ، لي! أتسمعين ؟... لي! اخرجي أيتها العاهرة الفاحشة ، أنت لست زوجته . أتريدين أن تسرقي من الطفلة أباها ؟ ولماذا لم تأتي قبل هذا ؟ ها ، لماذا لم تأتي ؟

مشت ناتاليا جانباً وجلست على المصطبة ، مسبلة رأسها مغطية وجهها بيديها :

ـ أنت تركت زوجك . لا تصرخي هكذا .

ـ لا زوج لي سوى غريشا . ليس لي في الدنيا أحد .

أحسّت اكسينيا بغيظ يلتهب في داخلها ولا يجد له منفذاً ، وراحت تحدّق في خصلة الشعر الأسود التي انسلّت من تحت عصابة ناتاليا ، وسألتها غاضبة :

ـ أهو بحاجة اليك ؟ انظري الى رقبتك الملتوية! أتحسبينه يحن اليك ؟ لقد هجرك وأنت سليمة ، فهل يمكن أن ينظر اليك وأنت شوهاء ؟ لن أتخلّى عن غريشا! ذلك كل ما عندي من قول . اخرجي! .

تنمرت اكسينيا في الذود عن عشها ، وفي الثأر لكل ما عانته في

الماضي . كان بوسعها أن تلاحظ أن ناتاليا مازالت تبدو مليحة رغم عنقها المعوج قليلاً . كان خدا وشفتا ناتاليا نضرتين ، لم تمتد اليهما يد الزمن ، أمّا هي فقد أحاطت الغضون عينيها ، وكل ذلك بسبب ناتاليا .

رفعت ناتاليا عينيها ، وقد دوخها الألم :

ـ أتظنين أنني كنت آمل أن استعيده بالرجاء ؟ فلهثت اكسينيا قائلة :

ـ اذاً لمَ اتيتِ ؟

ـ دفعني الشوق .

استيقظت طفلة اكسينيا على الأصوات فتلملمت في فراشها وشرعت تبكي . فرفعت الأم ابنتها ، وجلست ووجهها صوب النافذة . وحملقت ناتاليا بالطفلة وأوصالها ترتعش . واحتبست غصة يابسة في حنجرتها . كانت عينا غريغوري تطلان عليها من وجه الطفلة بفضول .

خرجت ناتاليا الى سقيفة الباب وهي تبكي وتترنح ، ولم تنهض اكسينيا لتودعها . وبعد دقيقة أو دقيقتين دخل عليها ساشكا الغرفة . وسألها ، ولابد أنه قد حزر :

ـ من تلك المرأة ؟

ـ واحدة من قريتنا .

قطعت ناتاليا في طريق عودتها مسافة ثلاثة فرستات تقريباً ، ثم رقدت تحت شجيرة شوك بريّة . كان الحنين قد هدّ حيلها فاستلقت ورأسها خلو من أي فكرة . ولم تغب عن مخيلتها صورة عيني غريغوري الكئيبتين وهما تطلان عليها من وجه الطفلة .

٢٠

انطبعت الليلة التي اعقبت المعركة في ذاكرة غريغوري انطباعاً عميقاً لا يمحوه الدهر . فغدا وكأنه ألم يعمي الأبصار . ثاب الى رشده قبيل الفجر ،

فتلملمت يداه على جذامات الزرع الواخزة ، وعلى أنينه من الألم الذي ملأ رأسه . ورفع يده بمشقة ، فجرها الى جبينه ، وتلمّس شعره المتلبد بدمه . وحين لامس اصبعه الجرح أحسّ وكأن جمرة حمراء قد وضعت عليه . ثم صرّ بأسنانه وانقلب على ظهره . كانت أوراق شجرة أذواها الزمهرير تحف فوق رأسه بجرسٍ بلوري أسيان . وبدت الأغصان السوداء واضحة المعالم على صفحة السماء ذات الزرقة العميقة ، وكانت ثمّة نجوم تومض من خلالها . شخص غريغوري اليها بعين لا تطرف ، فبدت له النجوم أشبه بثمار غريبة صفر مزرقّة تتدلى من الأغصان .

أدرك ما حل به ، فانتابه هلع لا مفر منه وشرع يزحف على أطرافه الأربعة وهو يصر بأسنانه . اشتدّت عليه وطأة الألم فجعلته يهوى ووجهه الى الأسفل . خيّل اليه أنه زاحف أبد الدهر ، فحمل نفسه على التطلّع الى وراء ، فإذا الشجرة التي كان يرقد تحتها فاقد الوعي ماثلة بسوادها على بعد خمسين خطوة تقريباً . وزحف مرة عبر جثة هامدة ، فأسند مرفقيه على بطن الرجل الميت الغائرة الصلدة . كان خائر القوى من كثرة مافقد من دم ، فجعل يبكي كالرضيع ، وراح يمضغ العشب الندي لكي لا يفقد وعيه . واستطاع أن ينهض على قدميه مستعيناً بصندوق مقلوب من صناديق القنابل ، فوقف يترنح وقتاً طويلاً ، ثم شرع يسير . وبدأت قواه تعاوده ، فمشى بخطى أشد ثباتاً ، واستطاع أن يسترشد بالدب الأكبر ، فيمم وجهه صوب الشرق .

وعند طرف الغابة أوقفته صرخة منذرة مباغتة :

ـ قف ، والا أطلقت النار!

سمع طقة مسدس ، فنظر باتجاه الصوت . كان ثمة رجل يتكأ على شجرة صنوبر .

ـ من أنت ؟

قالها غريغوري ، منصتاً لصوته وكأنه صوت رجل آخر .

ـ روسي ؟ يا الهي! تعال هنا!

وتهاوى الرجل المائل قرب الصنوبر على الأرض ، فتقدّم غريغوري نحوه :

ـ أنحن!

ـ لا أقدر .

ـ لمَ لا ؟

ـ سأقع فلا أستطيع النهوض ثانية ، أنا مصاب بجرح في رأسي .

ـ من أي كتيبة أنت ؟

ـ من كتيبة قوزاق الدون الثانية عشرة .

ـ ساعدني ، أيها القوزاقي!

فأجابه غريغوري ، وقد عرف من سيري كتفه أنه ضابط :

ـ سأقع ، ياصاحب السعادة .

ـ أعطني يدك على الأقل .

أعان غريغوري الضابط على النهوض ، ومضيا سويّة ولكن الضابط اشتد تعلقه بذراع غريغوري خطوة بعد أخرى . وفيما كانا يصعدان من وهدة ، أمسك الضابط غريغوري من كمّه وقال مصراً بأسنانه :

ـ اتركني ، ياقوزاقي . أصبت بجرح ... في معدتي تماماً .

كانت عيناه خابيتين وراء نظارته المعلقة على أنفه ، وجعل فمه الفاغر يلهث بأنفاس مبحوحة . ثم أغمي عليه ، بيد أن غريغوري جرّه معه ، فراح يهوي وينهض مرّة بعد أخرى . وقد ألقى حمله مرتين وتركه ، ولكنه في كل مرّة كان يعود فيرفعه ويمضي كالسائر في نومه .

وعند الساعة الحادية عشرة التقطتهما دورية وذهبت بهما الى مركز للتضميد .

انسل غريغوري من المركز في اليوم التالي مباشرة . وما أن بلغ الطريق حتى انتزع الضماد من على رأسه ، وسار يلوّح ضماده المضمّخ بالدم في يده وهو يتنفس الصعداء .

وحين ذهب الى مقر قيادة الكتيبة سأله آمر سريته بدهشة :

من أين أتيت ؟

ـ عدت الى الواجب ، ياصاحب السعادة .

وحين غادر آمر السرّية التقى بعريف فصيله .

ـ حصاني ... الكميت ، أين هو ؟

ـ إنه بخير ، يافتى . امسكنا به حالما فرغنا من النمساويين . ولكن ماذا حل بك ؟ لقد صلينا من أجلك ، كي تذهب الى الجنّة .

فقال غريغوري ، وهو يبتسم ابتسامة كالحة :

ـ كنتم على عجل . .

وجاء في الأمر الصادر عن كتيبته مايلي :

بالنظر لإنقاذ حياة آمر كتيبة الفرسان التاسعة ، المقدّم كوستاف كروزبرك ، على يد القوزاقي التابع لكتيبة قوزاق الدون الثانية عشرة ، غريغوري ميليخوف ، تقرر ترفيعه الى رتبة نائب عريف ، والإيصاء بمنحه وسام القديس غيورغي ، من الدرجة الرابعة .

كانت كتيبة غريغوري قد توقفت في كامينكا ستروميلوفو مدّة يومين ، وكانوا حينذاك على أهبة التقدّم ثانية . وعثر غريغوري على البيت الذي أوى اليه قوزاقي رعيله ، ثم ذهب ليرى حصانه . وافتقد منشفته وبعض ملابسه الداخلية من خرج سرجه . فاعترف ميشا كوشيفوي اعتراف المذنب قائلا :

ـ سرقت امام عيني ، ياغريغوري . نزل هنا حشد من المشاة ، وسرقوها .

ـ حسنا ، يمكن ان يحتفظوا بها ، عليهم اللعنة! اريد فقط ان اعصب راسي

ـ بوسعك أن تأخذ منشفتي .

دخل اوريوبين السقيفة ، حيث كانا واقفين . ، فمد لغريغوري يده وكأن شجارا لم يحدث بينهما قط .

ـ مرحبا ، ميليخوف! اذن ما زلت حيا!

ـ تقريبا .

ـ الدم ينزف من رأسك . امسح جبينك .

ـ سوف افعل ذلك في أوانه .

ـ دعنا نرى ما فعلوا بك .

ثم حمل غريغوري على ان يميل برأسه الى وراء ، وزنخر قائلا :

ـ لماذا سمحت لهم بقص شعرك ؟ يا لمنظرك! الأطباء لا ينفعونك دعني أداويك .

دون أن ينتظر موافقة غريغوري ، اخرج خرطوشة من حافظته ، ثم أفرغ البارود الاسود في راحه يده .

ـ ميشا ، آتني بنسيج عنكبوت .

كشط كوشيفوي برأس سيفه نسيج عنكبوت من أحد أعمدة السقف وناوله الى اوريوبين . ثم حفر اوريوبين بالسيف نفسه بعض التراب ، وبعد أن مزجه بنسيج العنكبوت والبارود مضغه بين أسنانه . ثم لبخ المزيج اللزج على الجرح النازف وابتسم اذ أعلن

ـ سيكون الآن على مايرام في غضون أيام ثلاثة . ولكن ها أنذا اعتني بك ، بينما كنت ستقتلني .

ـ شكراً لعنايتك بي ، ولكنّي لو قتلتك لقَلَّ خطيئة واحدة عدد ما يثقل ضميري من خطايا .

ـ يا لك من ساذج ، أيها الفتى .

ـ ربّما . كيف يبدو رأسي ؟

ـ هناك جرح لابأس به . انه شيء يذكرك بهم .

ـ سوف لا أنساهم .

ـ لن تستطيع أن تتساهم حتى لوشئت ، فالنمساويون لا يشحذون سيوفهم كما ينبغي ، لذلك ستبقى لديك ندبة بقية حياتك .

قال كوشيفوي باسماً :

ـ من حسن حظّك ، ياغريغوري ، ان الضربة انحرفت ، والا كنت ستوارى بتربة أجنبية .

ولوى غريغوري قبعته الممزقة الملطخة دماً بين يديه بحيرة ، اذ قال :

ـ ماذا عساني فاعلاً بقبعتي ؟

ـ ارمها . ستأكلها الكلاب .

وتناهت اليهم من باب الدار صيحة قائل :

ـ وصل الطعام ، اولاد . هلموا لاستلامه!

ترك القوزاق السقيفة ، وصهل وراءهم حصان غريغوري الكميت ، وهو يقلّب بياض عينيه .

فأومأ كوشيفوي الى الحصان وقال :

ـ كان يحن اليك ، ياغريغوري . لقد استغربت ذلك ، كان يصد عن الطعام ويصهل طوال الوقت .

فقال غريغوري بصوت متهدّج وقد أشاح بوجهه :

ـ حين كنت أزحف بقيت أناديه . كنت على ثقة أنه لن يتركني ، وكنت أعلم أنه لن يكون من السهل على غريب أن يمسكه .

ـ هذا صحيح . لم نستطع الامساك به الا بالانشوطة .

ـ إنه حصان طيب . حصان أخي بيوتر .

والتفت غريغوري ليخفي عينيه الدامعتين .

دخلوا الدار . كان يغور زاكوف نائماً في الغرفة الامامية على فراش ذي نوابض . كان ثمّة اضطراب لا يوصف يشهد بصمت على عجالة أهل البيت عندما رحلوا عنه . فثمة كسرات وأوان ، وأوراق ممزقة ، وكتب ، وسقط متاع ولعب أطفال ، وجزم عتيقة ، وطحين منثور ، كلها ممرغة على الأرض باضطراب .

كان يميليان كروشيف وبروخور زيكوف قد نظفا فسحة في وسط الغرفة ، وجلسا يتناولان غداءهما ، ولدى رؤية غريغوري ، كادت عينا بروخور الشبيهتان بعيني العجل تطفران من محجريه :

ـ غريشا! من أين نبعت ؟

ـ من الآخرة .

فصاح اوريوبين :

ـ اهرع واجلب له شيئاً من الطعام . لا تحملق به هكذا!

ـ لن يستغرق ذلك دقيقة . المطبخ عند المنعطف .

وهرول بروخور الى الباب ، يمضغ أثناء عدوه . وجلس غريغوري في مكانه بوهن . ثم قال : «لست أتذكّر متى أكلت آخر مرّة» . ثم ابتسم ابتسامة ذاوية وكأنّه يحس بالذنب .

كانت وحدات من الجيش الثالث تتحرك خلال المدينة ، فغصّت شوارعها الضيقة بالمشاة ، وعربات الشحن ، والخيالة ، وكانت مفارق الطرق مزدحمة ، والضوضاء تلج البيوت حتى وهي مغلقة الأبواب . وعاد بروخور على عجل بإناء من الحساء ومقلاة من الحنطة السوداء .

ـ أين أصب الطعام ؟

فالتقط كروشيف مبولة ، دون أن يعرف ماهي ، وقال : «اليك إناء ذا عروة» . فقال بروخور عابساً :

ـ إن اناءك هذا كريه الرائحة .

ـ لابأس عليك . افرغه وسنتقاسمه فيما بعد .

قلب زيكوف الاناء في الصحن فاندلقت العصيدة الدسمة الثخينة كتلة واحدة ، يحيط بها سوار من دهن عنبري . فراحوا يأكلون ويثرثرون . حكى لهم بروخور ، وهو يمسح باللعاب بقعة من على شريط سرواله :

ـ هناك بطارية تابعة لفوج جبلي من المدفعية الخيالة في جوارنا . إنهم

يطعمون الآن خيلهم وقد قرأ نائب ضابطهم في الجريدة أن حلفاء الالمان يتبعثرون .

غمغم اريوبين من فمه المملوء بالعصيدة :

ـ ليتك كنت هنا يا ميليخوف هذا الصباح . آمر الفرقة شكرنا بنفسه . استعرضنا ثم شكرنا على سحق الخيالة المجرية وإنقاذ البطارية . قال : «ايها القوزاق إن القيصر والوطن لن ينسياكم» .

وفيما هو يتحدّث ارتفع في الخارج صوت اطلاقة ثم اخرى . وطفق مدفع رشاش يلعلع . تناهى الى مسامعهم صوت يأمر : «اخرجوا!» فرمى القوزاق ملاعقهم وهرولوا الى الخارج . كانت ثمّة طائرة تحوم واطئة فوق الرؤوس بهدير يحمل النذير .

فصاح اوريوبين :

ـ انبطحوا تحت السياج . سيقذفون قنبلة بعد لحظة فهناك بطارية تأوي بجوارنا .

ـ ليذهب واحد ويوقظ يغور . سوف يقتل على فراشه الوثير!

ـ اخرجوا البنادق .

سدد اوريوبين مرماه بدقّة من على الدرجات وأطلق النار . وتراكض في الشارع جند وقد خفضوا رؤوسهم لسبب ما . وتناهى من الحوش المجاور صهيل الخيل وامر مقتضب . القى غريغوري نظرة عبر الحاجز فرأى المدفعيين يدخلون مدفعاً الى السقيفة على عجل . وخاوص عينيه من زرقة السماء الواخزة وشخص الى الطائر الهادر المنقض . وفي تلك اللحظة سقط منه شيء توهج في نور الشمس بشدة . وهز دوي ماحق الدار والقوزاق المنبطحين قرب الدرج ، وصهل في الحوش المجاور حصان في احتضاره . وهبّت عبر السياج موجة من دخان البارود الحريف .

صاح اوريوبين وهو يهرع هابطاً الدرج : «انبطح!» فقفز غريغوري وراءه ، والقيا بنفسيهما قرب السياج . وتوهج أحد جناحي الطائرة فيما

استدارت . وبلغهما صوت اطلاقات متقطعة في الشارع . كان غريغوري قد دس لتوه مشطاً جديداً من الخراطيش في مخزن بندقيته حين قذف به دوي ساحق مسافة بضع خطوات عن السياج . ولطمته لبدة من التراب على رأسه بقوة ، فملأت عينيه غباراً... .

انهضه اوريوبين على قدميه . وقد حال ألم حاد في العين اليسرى بين غريغوري والرؤية . ثم رفع جفنه الأيمن بمشقة فرأى أن نصف الدار قد تهدم . وتصاعد فوق حطام الآجر دخان وردي . زحف يغور زاكوف من تحت الدرجات . كان وجهه يصرخ برمته ، وعيناه تذرفان دمعاً دامياً وقد اندلقتا من محجريهما . دفن رأسه بين كتفيه ، ويصرخ دون أن يفتح شفتيه المزرقتين .

انجرّت وراءه احدى ساقيه ، مقطوعة عند الفخذ ، متعلقة بخيط من الجلد وشريط من سرواله المحروق ،أمّا الساق الأخرى فقد زالت تماماً . كان يزحف على يديه ببطء ، ومن شفتيه ينبعث صراخ رفيع يكاد يشبه صراخ الأطفال . ثم انقطع الصراخ ، وسقط على جنبه ، شاداً بوجهه على الأرض الصلدة القاسية التي تبعثر فوقها الطابوق والروث . ولم يحاول أحد أن يذهب اليه .

صاح غريغوري ويده ماتزال تضغط على عينه اليسرى :

ـ التقطوه!

تراكض رجال من المشاة داخل الحوش ، وتوقفت عند البوابة عربة ذات عجلتين يصحبها جنود التلفونات . وصاح بهم ضابط وهو يتعداهم هذباً على حصانه :

ـ استمروا في المعركة! لا تقفوا هناك ياشياطين!

وتقدمت امرأتان ورجل عجوز يرتدي معطفاً طويلاً أسود . وسرعان ماحفّ بزاركوف حشد صغير . واندفع غريغوري بينهم فرآه مايزال يتنفس وينشج بعنف ويرتعش رعشة شديدة . حبات كبيرة من العرق تبدت على جبينه الاصفر الموات .

ـ احملوه! هل أنتم ، رجال أم شاطين ؟

فزجر رجل من المشاة قائلاً :

ـ فيم عواؤك ؟ احملوه ، احملوه! ولكن الى أين يمكن أن نذهب به ؟ الا تراه يحتضر ؟

ـ ذهبت ساقاه كلتاهما!

ـ انظروا الى الدم! ما أكثره!

ـ أين هم حملة الناقلات ؟

ـ ماجدواهم!

ـ وما يزال على وعيه .

لمس اوريوبين غريغوري كتفه من الخلف ، وهمس قائلاً :

ـ لا تحرّكه ، تعال الى الجهة الاخرى وانظر .

ثم سحب غريغوري من كمه ، ودفع الحشد جانباً . القى غريغوري نظرة واحدة ، فأحنى منكبيه وأشاح بوجهه صوب البوابة . فتحت بطن زاكوف كانت الامعاء الوردية والزرقاء يتصاعد منها البخار . كانت الكومة المتشابكة ملقاة على الرمل والروث ، وتنتفخ ، والى جانبها يد الرجل المحتضر تهرش الارض .

اقترح أحدهم قائلاً :

ـ غطوا وجهه .

وفجأة رفع زاكوف نفسه على يديه ، وأمال رأسه الى الخلف حتى تدلّى من بين عظمي اللوح ، وصاح بصوت مبحوح لا يشبه صوت البشر :

ـ اخواني ، اقتلوني... اقتلوني! ... لماذا تقفون متفرجين ؟... اواه... اواه اخواني ، اقتلوني!

٢١

تمايلت عربة القطار برفق وكانت ضربات عجلاتها تبعث في النفس نعاساً مهدهداً . وانسابت من الفانوس حزمة صفراء من النور . ما أحلى أن

يتمدد المرء بطوله ، وقد خلع جزمتيه ، لتحظى قدماه براحتهما ، فيخلي المسؤولية جانباً ، ويدرك الآ خطر يتهدد حياته ، وان الموت بعيد عنه . وثمّة متعة خاصة أن ينصت الى ثرثرة العجلات المتغيرة ، فمع كل دورة ، ومع كل جرّة من جرات القاطرة ، تتناءى جبهة القتال عنه . ورقد غريغوري يصغي ويلوي أصابع قدميه العاريتين ، فينعم كل بدنه بالملابس الجديدة النظيفة . واستولى عليه شعور من نزع عن نفسه جلداً قذراً وانطلق يلج الى عالم جديد وهو نظيف تمام النظافة .

ولم يكن يقطع عليه هناءه الرائق الهادىء سوى ألم في عينه اليسرى . كان يتلاشى بين أونة وأخرى ، ليعود فجأة ، فيضرم عينه ويحمل الدمع على الانسياب من تحت ضمادته . كان طبيب يهودي شاب قد فحص عينه في مستشفى الميدان وكتب شيئاً على قصاصة ورق وقال له :

ـ ينبغي لك أن ترحل من هنا . إن حالة عينك سيئة للغاية .

ـ هل سأفقدها ، يادكتور ؟

فابتسم الطبيب وقد أحسّ بالرعب البادي في صوت غريغوري ، وقال له مبتسماً برقّة : «ماالذي يدعوك الى هذا الظن ؟ ولكن يجب أن تعالجها ، وربّما دعت الضرورة الى اجراء عملية . سنرسلك الى بتروغراد أو موسكو » .

ـ شكراً جزيلاً .

ـ لا تخف ، ستكون عينك على مايرام .

وربت على كتف غريغوري وقاده الى الممر بلطف . وحين استدار ، شمّر عن ساعديه تأهباً لاجراء عملية .

وبعد انتظار طويل ، الفى غريغوري نفسه في قطار خاص بالمرضى . واستلقى طيلة أيام ، يهنأ بنعمة الطمأنينة . وقد بذلت القاطرة العتيقة كل قواها لجر الصف الطويل من العربات .

دنوا من موسكو ، فبلغوها ليلاً . ونقل ذوو الحالات الخطرة على الناقلات ، أما الذين يستطيعون السير فقد جمعوا على الرصيف . ونادى

الطبيب المرافق للقطار باسم غريغوري وسلمه الى احدى الممرضات وأخبرها أين يجب أن يذهب .

ـ أمعك أمتعة ؟

ـ أية امتعة تحسبين القوزاقي يملك ؟ معطف وحقيبة ميدان ، وهذا كل شيء .

ـ اتبعني .

قادته الممرضه الى خارج المحطة ، ولباسها يحف وهي تعدل شعرها تحت عصابتها . وراح غريغوري يسير بخطى غير واثقة وراءها . ثم اكتريا عربة . لقد خلف هدير المدينة الكبيرة ، وصخب اجراس الترام ، والوهج الازرق المنبعث من المصابيح الكهربائية ، شعوراً بالانسحاق لديه . فاتكأ على مسند العربة وراح ينظر بفضول الى الشوارع المزدحمة رغم أن الليلة قد حلّت ، وكان غريباً لديه أن يشعر بالدفء المثير لجسد امرأة تجلس الى جانبه . كان الخريف قد حل في موسكو . وكانت أوراق الاشجار على جانبي الشوارع تومض وميضاً أصفر في ضوء المصابيح ، وأنفاس الليل تحمل رطوبة باردة كعهدها في الخريف . وانحرفا في وسط المدينة الى شارع فرعي مهجور . وراحت حوافر الخيل تصفق أحجار الشارع ، وتمايل الحوذي على مقعده المرتفع بسترته الطويلة الزرقاء وهو يلوّح لفرسه بطرف العنان . وتناهى اليه صفير قاطرات بعيدة . فقال غريغوري في نفسه وقد وخزه الحنين : «ربّما تحرّك قطار لتوّه صوب الدون» .

سألته الممرضة قائلة :

ـ أتشعر بالنعاس ؟

ـ كلا .

ـ سنصل عمّا قريب .

استدار الحوذي : ـ ماذا تريدين ؟

ـ اسرع!

التمع ماء بركة من وراء قضبان حديدية التماع الزيت ، ولمح غريغوري مرسى تسوّره القضبان وقد ربط اليه قارب . وكان الهواء مفعماً برائحة الرطوبة .

قال غريغوري في نفسه شارد الذهن : «انهم هنا يحبسون حتى الماء وراء القضبان ، ليس الامر كالدون...» وخشخشت اوراق الشجر تحت دواليب العربة المطاطية .

توقفا خارج منزل ذي ثلاثة طوابق ، فقفز غريغوري نازلاً . وقالت الممرضة وهي تنحني صوبه :

ـ اعطني يدك .

فأمسك يدها الغضة بيده ، واعانها على النزول . فقالت وهي تدق الجرس وتضحك بهدوء :

ـ إن فيك رائحة عرق الجندية .

فرد عليها غريغوري بغضب مكبوت :

ـ ينبغي أن تعيشي هناك بعض الوقت . يا ممرضة ، وحينئذ سينبعث منك نتن آخر .

فتح الباب حاجب ، فارتقيا سلما ذا سوار ذهبي الطلاء الى الطابق الثاني فدقّت الممرضة الجرس ففتحت لهما الباب امرأة برداء أبيض . فجلس غريغوري ازاء طاولة مستديرة فيما همست الممرضة شيئاً الى امرأة فسجلت كلماتها .

وظهرت من أبواب الغرف الممتدّة على جانبي الممر الضيق وجوه عليها عوينات من شتّى الالوان .

طلبت امراة أن ينزع غريغوري معطفه فأخذه منه خادم يرتدي ملابس بيضاء هو الآخر وقاده الى الحمام .

ـ اخلع ملابسك .

ـ علام ؟

ـ ينبغي أن تستحم .

وفيما كان غريغوري يخلع ملابسه ، ويجيل النظرات الدهشة في الحمام ، بنوافذه ذوات الزجاج المغبّش ، ملأ الخادم الحوض بالماء ، وقاس الحرارة ، ثم طلب اليه النزول فيه . فغمغم غريغوري في حيرة وهو يرفع ساقه السمراء لينزلها في الحوض :

ـ هذا الحوض لا يجديني .

ساعده الخادم على غسل بدنه كلّه ، ثم أعطاه منشفه ، وقمصاناً ، وخفّاً منزلياً ، ومعطفاً رمادي اللون ذا حزام . فسأله غريغوري مستغرباً :

ـ ماذا عن ملابسي ؟

ـ سترتدي هذه مادمت هنا . وستعاد ملابسك حين تغادر المستشفى .

وحين مر غريغوري بمرآة جدارية لم يعرف نفسه . فقد بدا ممشوق القامة ، داكن المحيا ، على خدّيه بقع قرمزية وبعض الشعر على شاربيه وذقنه ، وقد ارتدى معطفاً منزلياً ، وخصلات شعره تتدلّى من تحت عصابة الضماد ، ولم يبق الا شبه طفيف بينه وبين غريغوري ميليخوف السابق . فابتسم ابتسامة ضامرة وهو يقول في نفسه : «لقد غدوت أصغز سنّاً» .

قال الخادم :

ـ الردهة السادسة ، الباب الثالث الى اليمين .

وفيما دخل غريغوري الردهة الواسعة البيضاء كاد قسيس يرتدي قميص المستشفى ونظارات داكنة ، أن ينهض . وقال مجاملاً ، وهو يقدم الى غريغوري كرسيّاً :

ـ آه ، جار لي ؟ يسعدني لقاؤك ، سيؤنس أحدنا الآخر . أنا من زارايسك .

وبعد دقائق قليلة فتحت الباب ممرضة بدينة لها وجه كبير لا جمال فيه . ثم قالت بصوت خفيض كأنه ينبعث من صدرها :

ـ ميليخوف ، نريد أن نلقي نظرة على عينك . ثم وقفت جانباً لتفسح له الطريق .

٢٢

قررت قيادة الجيش أن تشن بالفرسان هجوماً واسع النطاق على الجبهة الجنوبية الغربية بغية اقتحام خطوط العدو وتخريب خطوط مواصلاته ، واشاعة البلبلة في قواته بهجمات مباغتة على مؤخرته . وكانت القيادة تعلق على هذه الخطّة آمالاً كباراً ، فحشدت قوى كبيرة من الفرسان في المنطقة ، وكانت من بينها كتيبة يفغيني ليستنتسكي . وقد حدد الثامن والعشرون من آب موعداً للهجوم ، غير أن عاصفة من المطر أدّت الى تأجيله الى اليوم التالي .

وفي الصباح الباكر انتشرت الفرقة على رقعة واسعة تأهباً للهجوم .

وشن المشاة هجوماً مصطنعاً على بعد ثمانية فرستات بغية اجتذاب نيران العدو . وأرسل كذلك جانب من إحدى فرق الخيالة باتجاه آخر للتضليل .

لم يبد أمام كتيبة ليستنتسكي أي أثر للعدو . وكان بوسع يفغيني أن يرى على بعد فرست تقريباً صفوف خنادق العدو المهجورة ، ومن ورائها حقول الجويدار تتماوج في ضباب الصباح الباكر المائل الى الزرقة تتلاعب به الريح . لا بد أن العدو لمس بوادر الهجوم ، وتراجع خلال الليل نحو ستة فرستات ولم يترك وراءه سوى مكامن الرشاشات لمضايقة المشاة .

بزغت الشمس من وراء سحب مدلهمّة ، واكتنف الوادي برمّته ضباب أصفر حليبي ، وصدرت الأوامر للبدء في الهجوم ، فزحفت الكتائب . وقد بعثت ألوف الحوافر دوياً هادراً بدا وكأنّه صادر عن جوف الارض . وجر ليستنتسكي عنان جواده كي يحول بينه والهذاب . قطعوا فرستا فاقتربت طلائع القوات المهاجمة من الحقول . كان الجويدار يعلو الى خصر الرجل بطوله وقد تشابك بأعشاب ونباتات متسلقة مما جعل تقدّم الخيالة غاية في المشقة . ومن أمامهم كانت ذؤابات الجويدار الصفر ماتزال تتماوج . ومن

خلفهم انطرحت على الأرض مهروسة بحوافر الخيل . وبعد أربعة فرستات من هذه المسيرة بدأت الخيل تتعثر وتتصبب عرقاً ، ولكنهم لم يقعوا للعدو على أثر . والقى ليستنتسكي الى آمر سرّيته نظرة فألفى وجه النقيب في سيماء القنوط التام .

استنزفت ستّة فرستات من هذه المسيرة قوى الخيل ، فتهاوى بعضها تحت فرسانها ، وتعثّر أشدّها قوه وهي تبذل كل ما في طاقتها لتواصل التقدّم . وعند ذاك بدأت رشاشات النمساويين عملها ، فأمطرتها وابلاً من الرصاص . واصلتهم البنادق رشقات من نارها . وكانت كتيبة من حملة الرماح أول من تخاذل وتراجع ، ثم تمزّق شمل كتيبة قوزاقية . فقد لفح رجالها وابل من رصاص الرشاشات والمدافع واشاع فيهم الذعر وحملهم على الهزيمة . وانتهى ذلك الهجوم الواسع النطاق الى هزيمة تامة ، جراء الاهمال الاجرامي الذي أبدته القيادة العليا . وقد فقدت بعض الكتائب نصف تعدادها من الرجال والخيل . ووقع مابين قتيل وجريح اربعمائة قوزاقي وستّة عشر ضابطاً في كتيبة ليستنتسكي وحدها .

وكان حصان ليستنتسكي قد صرع من تحته ، وأصيب هو بجراح في رأسه وساقه ، فقفز رئيس عرفاء من على حصانه والتقطه والقاه على قربوس سرجه وعاد يهذب به .

التقط رئيس أركان الفرقة العقيد الركن كولفاتشيف بضع صور فوتوغرافية للمعركة ، وعرضها بعدئذ على بعض الضباط فكان تشيرفاكوف وهو ملازم جريح أول من هوى بقبضة يده على وجهه وانفجر باكياً . ثم جاء بعض القوزاق ومزقوا كولفاتشيف ارباً ، ومثلوا بجثته ، ثم القوا بها آخر الأمر في حفرة على قارعة الطريق . وهكذا انتهى ذلك الهجوم المشين .

ومن احدى مستشفيات وارشو اخبر يفغيني اباه انه منح اجازة ، وانّه قادم الى ياغودنويه . فأوصد العجوز عليه باب حجرته ولم يخرج ثانية الا في اليوم التالي ووجهه عابس متجهم . فأمر نيكيتيتش الحوذي أن يشد الحصان

الخباب الى عربة خفيفة ، ثم تناول طعام الفطور ، وذهب الى فيشنسكايا .
ومن هناك حول لابنه اربعمائة روبل برقياً ، وأرسل اليه رسالة مقتضبة :

«يسعدني جداً ، ياولدي العزيز ، أنّك تعمّدت* في النار . فسوح القتال هي المكان اللائق بالنبلاء لا القصور . إنّك لأشرف وأذكى من أن تحتمل التذلل براحة ضمير ، ولم يفعل ذلك أي فرد من عائلتنا قط . من جراء ذلك فقد جدك حظوته ومات في ياغودنويه غير آمل أو منتظر فضل الامبراطور . اعتن بنفسك ، يا يفغيني واستعد صحتك ، تذكّر أنّك كل ماعندي في هذه الدنيا . عمّتك تبلّغك حبها . إنها بصحة جيدة . أمّا أنا ، فليس ثمّة ما أخبرك به ، فأنت تعلم كيف أعيش . ترى كيف يمكن أن تؤول الأمور في الجبهة الى هذا الحال ؟ أمن المعقول أن تخلو بلادنا من أناس ذوي فطنة ؟ لست أصدّق أخبار الصحف . إنها أكاذيب برمتّها ، كعهدي بها في السنين الخوالي . أثمّة احتمال أن نخسر هذه الحملة يا يفغيني ؟ إنني انتظرك في البيت بفارغ الصبر» .

والحق ، لم يكن في حياة ليستنتسكي الشيخ ما يكتب عنه ، فقد مضت متثاقلة كالسابق دون أن يطرأ عليها تغيير ، الا أن تكاليف اليد العاملة قد تصاعدت ، وشحّت الكحول . كان رب البيت يشرب أكثر من عادته ، فازداد طبعه حدّة ومشاكسة . وذات يوم استدعى اكسينيا وتبرّم قائلاً :

ـ إنك لا تولين واجباتك عناية . لماذا كان فطور الأمس بارداً ؟ ولماذا لم تنظّفي الأقداح كما ينبغي ؟ اذ حدث ذلك مرّة ثانية سأستغني عن خدمتك ، فاهمة ؟ أنا لا أطيق الاهمال . أتسمعين ؟ ولوّح بيده في تهيّج .

زمّت اكسينيا شفتيها ثم انفجرت باكية :

ـ نيكولاي اليكسييفتش! طفلتي مريضة . دعني اعتني بها بعض الوقت . أنا لا أستطيع تركها .

---

* من التعميد : أول أسرار الدين المسيحي وباب النصرانية . وهي غسل الصبي وغيره بالماء باسم الأب والابن والروح القدس . المترجمون

ـ مابال الطفلة ؟

ـ يبدو عليها الاختناق .

ـ ماذا ؟ الحمّى القرمزية ؟ لماذا لم تنطقي من قبل ، أيتها الحمقاء ؟ اسرعي واخبري نيكيتين أن يذهب بالعربة الى فيشنسكايا لاحضار الطبيب . اسرعي!

فهرعت اكسينيا خارجة ، والعجوز يزمجر وراءها بصوته الجهوري العميق :

ـ أنت يا حمقاء النساء ، يا حمقاء!

جاء نيكيتتش بالطبيب صباح اليوم التالي ففحص الطفلة المغشية المحمومة ، وذهب الى السيد مباشرة دون أن يلتفت الى ضراعة اكسينيا ، فاستقبله الشيخ في غرفة الانتظار دون أن يصافحه . وسأل الطبيب ، وهو يرد على تحيّته بإيماءة لا تنم عن اهتمام :

ـ حسناً ، مابال الطفلة ؟

ـ الحمّى القرمزية ، ياصاحب السعادة!

ـ هل ستشفى ، أهناك أمل ؟

ـ الأمل ضئيل جداً . انها تحتضر . إنها صغيرة السن .

فقال الشيخ وقد احمر وجهه : «أنت أيها الأحمق! علام درست الطب ؟ اشفها!» ثم صفق الباب بوجه الطبيب وراح يقطع الصالة جيئة ورواحاً .

طرقت اكسينيا الباب ودخلت :

ـ يريد الطبيب خيلاً تقله الى فيشنسكايا .

فاستدار الشيخ على عقبيه وصاح ، وهو يهز قبضته العظيمة :

ـ قولي له انك بليد العقل! اخبريه أنه لن يبارح هذا المكان حتى تتعافى الطفلة . اعطيه حجرة وأطعميه واسقيه ما شاء . ولكنّه لن يذهب .

وخطا الى النافذة ، ونقر عليها بأصابعه ، ثم التفت الى صورة لابنه

وهوطفل بين ذراعي مربيته ، فخطا الى الوراء خطوتين وراح يتفرّس في الصورة ، وكأنّه لا يستطيع معرفة الطفل .

حين انتاب طفلة اكسينيا المرض تملكها الاعتقاد بأن الله يعاقبها لاساءتها الى ناتاليا . وفقدت توازنها تحت وطأة الاشفاق على حياة الطفلة ، فراحت تجول على غير هدى ، ولم تستطع القيام بعمل .« يقيناً أن الله لن يأخذها الى جواره » كانت هذه الخاطرة المحمومة لا تني تطرق رأسها ، فلم تسلّم ، وحاولت بكل جوارحها ألا تسلّم ، بأن الطفلة ستموت ، فراحت تتضرع الى الله بجنون ، تسأله رحمة أخيرة ليحفظ حياة الطفلة .

لكن الحمّى أخذت بخناق الروح الصغيرة ، فرقدت البنت على ظهرها ، وانبعثت الأنفاس من حنجرتها الوارمة بشهقات قصيرة مبحوحة . ظل الطبيب يفحصها اربع مرات كل يوم ، وكل مساء كان يقف طويلاً يدخّن على عتبة جناح الخدم وهو شاخص بنظره الى النثار البارد لنجوم الخريف .

ومكثت اكسينيا طوال الليل جاثية الى جانب السرير . كانت حشرجة الطفلة المقرقرة تعتصر قلبها . همست الشفتان الصغيرتان اليابستان :

ـ ماما...

فأنّت الأم :

ـ صغيرتي . بنيتي الصغيرة ، زهرتي ، لا تذهبي ، ياتانيا . انظري ، ياحلوتي ، افتحي عينيك الصغيرتين ، عودي . ياحبيبتي ياسوداء العينين! لماذا ، ربّاه ؟ ...

ومن حين لآخر كانت الطفلة تفتح أجفانها الملتهبة فتند من عينيها المحمرتين ومضة حيرى ، فتتشبث الأم بالنظرة بنهم ، فتبدو البنت كالمنطوية على نفسها . وقد انتابها الحنين والاذعان .

ماتت البنت بين ذراعي أمها ، فقد انفغر فمها الصغير للمرة الاخيرة واختلج جسدها . وانكفأ الرأس الصغير على ذراع الأم ، وراحت العينان الميليخوفيتان الصغيرتان تحدّقان بنظرة مأخوذة اسيانه .

حفر ساشكا العجوز قبراً صغيراً تحت شجرة حور شائخة على ضفّة البحيرة ، وحمل التابوت الى القبر وواراه بعجالة غير مألوفة ، ثم انتظر في صبر ريثما تنهض اكسينيا من الربوة الطينية . وحين عيل صبره ، تمخّط بعنف ومضى الى الاسطبل . واخرج من المعلف قنينة من ماء الكولونيا وابريقاً من الكحول المعدوم . فمزج الشرابين في قنينة ، وتمتم وهو يرفع المزيج الى الضوء :

ـ في ذكراها! لتفتح مملكة السماء للصغيرة أبوابها! لقد مات الملاك .

وعبّ من الشراب ثم هز رأسه بعنف وهو يغرز أسنانه في الطماطة المخللة ، ثم حدّق في القنينة برقّة ، وقال :

ـ لا تنسيني ، ياعزيزتي ، أمّا أنا فلن أنساك قط!

ثم أجهش باكياً . بعد ثلاثة أسابيع بعث يفغيني ليستنتسكي برقية يقول فيها أنه قادم الى أهله ، فأرسلت عربة تجرها ثلاثة خيول لكي تلقاه في المحطة ، وكان كل من في الضيعة على أحر من الجمر في انتظاره . وقد ذبحت الديكة الرومية والاوز ، ونحر ساشكا العجوز خروفاً . كانت الاستعدادات قمينة بحفلة راقصة ضخمة . وصل السيد الشاب ليلاً . كان ثمّة مطر بارد يساقط ، وفوانيس الفناء تلقي على البرك أشعة عابرة صغيرة . توقفت الخيل عند درجات الباب وأجراسها تجلجل . فألقى يفغيني المبتسم عباءته الوثيرة الى ساشكا وخطا وهو يظلع قليلاً صعد الدرج بانفعال . وهرع أبوه يلقاه ، مطيحاً بالكراسي في طريقه .

اعدّت اكسينيا مائدة العشاء في غرفة الطعام ، ثم ذهبت تدعوهما الى العشاء . وحين تطلعت خلال ثقب المفتاح رأت الشيخ يعانق ابنه ويقبله على كتفيه ، واللحم المترهل يرتعش على رقبته . انتظرت بضع دقائق ، ثم نظرت ثانية . كان يفغيني هذه المرة يركع على ركبتيه أمام خارطة كبيرة منشورة على الأرض ، والشيخ يدق على مسند الكرسي بعقل أصابعه ، وينفث من غليونه سحباً من الدخان ، ويهدر ساخطاً :

ـ الكسييف ؟ لا يمكن ذلك! لا أصدّق ذلك .

كان يفغيني يرد عليه بهدوء وهو يمرر اصابعه على الخارطة ليقنعه .

فأجاب الشيخ بصوت رصين عميق : « إن القائد العام ، والحالة هذه ، على خطأ . افتقار كلي للبصيرة . اسمع ، يفغيني ، سأورد لك مثلاً مشابهاً من الحرب الروسية اليابانية . دعني! دعني! »

طرقت اكسينيا الباب ، وتردد صوت الشيخ :

ـ ماذا ؟ العشاء جاهز ؟ نذهب حالاً .

فخرج الشيخ منتعشاً مرحاً ، تشع عيناه بوميض الشباب . وشرب مع ابنه قنينة شراب معتّق منذ عام ١٨٧٩ . وقد اشتد باكسينيا الشعور بالوحدة فيما كانت تخدمهما فترى البشر في محياهما... كان يعذبها حنين لم تبلله الدموع . فقد أرادت أن تبكي بعد موت طفلتها ، بيد أن الدموع لم تؤاتها . كانت الغصّة تتصاعد الى حلقها غير أن عينيها بقيتا جافتين ، فتضاعفت وطأة الحزن الخانق عليها . امست كثيرة النوم ، تنشد العزاء في سباتها ، الا أن نداء الطفلة كان يتناهى اليها حتى في نومها . فيخيل اليها أن الطفلة نائمة الى جوارها ، فتنقلب يدها تتحسس على الفراش وهمسة« ماما ماما » ترن في أذنيها . فتجيب بشفتين مثلجتين :

« أي حبيبتي » . وكانت حتّى في ضوء النهار المزعج تتصور أن الطفلة ازاء ركبتيها ، فتفيق على نفسها ويدها ممتدة تداعب شعرها الأجعد .

جلس يفغيني بعد عودته بأيام ثلاث يسامر ساشكا العجوز في الاسطبل ، الى وقت متأخر من المساء ، منصتاً الى حكاياته الساذجة عن الحياة الطليقة التي عاشها القوزاق في الأيام الخوالي ، ثم بارحه في بداية الساعة التاسعة . وكانت ثمة ريح شديدة تهب عبر الحوش ، والوحل يخشخش تحت قدميه . ومضى هلال أصفر العذارين يتواثب خلال السحب ، فنظر يفغيني على ضوئه الى الساعة ، ثم عرج الى جناح الخدم . توقف عند الدرج فأشعل سيكارة ولبث يفكّر برهة ، ثم هز كتفيه وارتقى السلم بعزم .

ورفع المزلاج حاذراً ، ثم فتح الباب ومضى الى غرفة اكسينيا وأشعل عود ثقاب .

تساءلت وهي تجر الغطاء حولها :

ـ من هناك ؟

ـ أنا ، لا غير .

ـ سأرتدي ملابسي في الحال .

ـ لا تزعجي نفسك . لن أبقى الا لحظة أو لحظتين . القى معطفه وجلس على حافة السرير .

ـ اذن ، فقد ماتت ابنتك الصغيرة .

فهتفت اكسينيا مرددة : أجل ، ماتت... .

ـ يبدو عليك تغير ملحوظ . بوسعي أن أخمّن ما يعنيه فقدان الطفلة عندك . ولكن احسبك تعذبين نفسك دونما طائل ، فليس بإمكانك أن تعيديها . ما زلت شابة تستطيعين انجاب الاطفال . شدّي حيلك ، اصبري ثم أنك على أية حال ، لم تفقدي كل شيء ، مازالت الحياة برمتها أمامك .

شد على يدها ، راح يربت عليها ملاطفاً متسلطاً في آن واحد ، وهو يلعب بأوتار صوته الواطئة . ثم خفض صوته فغدا همساً ، وحين سمع بكاء اكسينيا الكظيم ، شرع يلثم خديها وعينيها الخضلتين .

ما أسرع ما يستجيب قلب المرأة للرقة والعاطفة . كان اليأس قد أثقل عليها ، فلم تدرك ماهي فاعلة حين استسلمت له بكل عواطفها الجياشة التي طال عليها الرقاد . ولكنها ثابت الى رشدها حين همدت موجة النشوة العارمة الساحقة ، فصرخت بحدة ، وفقدت كل معاني الصواب أو الحياء فاندفعت راكضة الى سقيفة الباب وهي شبه عارية ، لا يسترها سوى قميصها . وهرع يفغيني يخرج في اثرها ، تاركاً الباب مفتوحاً ، يرتدي معطفه أثناء سيره . وفيما كان يرتقي السلم الى شرفة المنزل تبسم راضياً مسروراً . شمله الشعور بالمرح . وحين آوى الى فراشه ، راح يدلك صدره

اللدن المكتنز ، وهو يقول في نفسه : «إن ما أتيته معيب يناقض الأخلاق ، من وجهة نظر الرجل الشريف . غريغوري... لقد سلبت جاري ، وعلى كل حال ، فقد عرضت حياتي للخطر في جبهة القتال . فلو أن الرصاصة مالت الى اليمين قليلاً لاخترقت رأسي ، وترتب عليّ الآن أن أكون طعاماً للديدان . على المرء أن يحيا هذه الأيام بعواطفه كيفما اتفق . إن بوسعي أن أفعل أي شيء » . وقد راعة برهه مايدور في أفكاره ، بيد أن الخيال عاد به ثانية الى لحظة الهجوم ، وكيف أنه رفع نفسه من على حصانه الميت ليهوى ثانية ، وقد أصابه الرصاص . وفيما كان يغفو قرر أن« غداً نفكّر في هذا ، أما الآن فإلى النوم» .

وصباح اليوم التالي ، حين وجد نفسه منفرداً واكسينيا في غرفة الطعام ، دنا منها ، وعلى محياه ابتسامة مذنبة ، ولكنها التصقت بالجدار ، ومدّت ذراعيها ، فألهبته بهمسها الخانق :

ـ ابتعد عنّي ، ايها الشيطان!

ولكن الحياة تملي على الانسان شرائعها التي لم يسنها مخلوق . فما أن مضت ثلاثة أيام ، حتّى ذهب يفغيني ثانية الى اكسينيا ليلاً ، فلم تصدّه .

٢٣

كانت ثمّة حديقة صغيرة ملحقة بمستشفى العيون . وفي ضواحي موسكو عديد من هذه الحدائق المشذبة غير الجذابة حيث لا تجد العين ما يزيح عنها وطأه المدينة الحجرية الثقيلة ، وحين يتطلع المرء الى هذه الحدائق تعود ذاكرته بألم أشد الى طلاقة الغابات الفطرية . وقد خيّم الخريف على حديقة المستشفى فعلت ممراتها أوراق برتقالية وبرونزية ، وسحق زمهرير الصبح الازهار واغرق رقع الحشيش بأخضر مائي . كان المرضى في الأيام الصاحية يجوبون الممرات ، فينصتون الى أجراس كنائس

موسكو الورعة . وحين يسوء الطقس(وكانت أغلب الأيام عامئذ كذلك) فإنهم يتجولون من ردهة الى أخرى أو يستلقون على سررهم صامتين ، يبعثون السأم في نفوسهم ونفوس الأخرين .

وكان المرضى المدنيون يشكلون غالبية نزلاء المستشفى ، وقد افردت ردهة للجنود الجرحى ، وكانوا خمسة : يان فاريكيس ، وهو لاتيفي مديد القامة ، أزرق العينين ، له لحية عريضة ، وإيفان فروبلفسكي ، وهو فارس وسيم من مقاطعة فلاديمير ، وحامل بندقية من سيبيريا يدعى كوسيخ ، وجندي قميء أصفر لا يقر له قرار ، يدعى بوردين ، وغريغوري . وفي أواخر أيلول أضيف اليهم رجل آخر .

كانوا يتناولون شاي المساء حين سمعوا رنين جرس متواصل ، فأطل غريغوري الى الممر . كان ثلاثة أشخاص قد دخلوا الصالة : ممرضة ، ورجل يرتدي معطفاً قفقاسياً طويلاًيمسك بثالث من تحت ابطيه . ودلت قمصلة الجندي الوسخة ، وقد علت صدرها لطخ سود من الدم ، على أنه جاء من المحطة لتوه . وقد أجريت له عملية في المساء ذاته . وبعد أن أدخلوه صالة العمليات ببضع دقائق ، سمع المرضى الاخرون صوت غناء مكتوم . كان يغنّي ويرسل شتائم مبهمة وهو واقع تحت تأثير الكلوروفورم فيما كان الجراح يزيل بقايا احدى عينيه التي مزقتها شظية قذيفة . وجيء به اثر العملية الى الردهة . وحين زال عنه أثر الكلورفورم ، أخبر الاخرين أنه جرح في الجبهة الالمانية ، وأن اسمه كارانجا ، وأنّه حامل رشاشة أوكراني من مقاطعة تشرنيكوف . وقد اقام مع غريغوري ، الذي يجاوره السرير ، صداقة خاصة ، فكانا بعد التفتيش كل مساء يتسامران وقتاً طويلاً بصوت خفيض .

افتتح حديثه الأول قائلاً :

ـ حسناً ، أيها القوزاقي ، كيف تجري الأمور ؟

ـ عفنة .

ـ هل ستفقد عينك ؟

ـ أنا اتلقى حقنات الابر .

ـ كم تلقيت منها ؟

ـ ثماني عشرة ، حتى الان .

ـ هل توجعك ؟

ـ كلا ، أنا اجدها ممتعة .

ـ التمس منهم ان يقلعوا لك عينك .

ـ علام ؟ لا يجوز أن يكون الجميع عوراً .

ـ صحيح .

كان جار غريغوري المغل الحاقد لا يرضيه شيء . كان يشتم الحكومة ، والحرب ، وحظه ، وطعام المستشفى ، والطباخ والاطباء ، وكل مايأتي على لسانه .

ـ علام حاربنا ، إنا وأنت ؟ هذا ما أريد أن أعرف .

ـ لنفس السبب الذي حارب لأجله كل الاخرين .

ـ هاه ! أنت أحمق! عليّ أن أجتر الأمر ثانية من أوله الى أخره ! اننا نحارب من أجل البرجوازية ألا ترى ذلك ؟ ومن هم البرجوازيون ؟ إنهم طيور على الفاكهة .

وراح يفسّر لغريغوري تلك الكلمات الصعبة ذاراً على أقواله فلفلاً من الشتائم . وكان غريغوري يقاطعه قائلاً : «لا تسرع في كلامك هذا . لا استطيع أن أفهم رطانتك الاوكرانية . تكلم ببطء أكثر» .

ـ لست سريع الكلام هكذا يابني . اتحسب انك تقاتل من أجل القيصر ؟ ولكن ما القيصر ؟ انه نهّاب ، والقيصرة عاهرة ، وكلاهما عبء على كواهلنا . الا تفهم ؟ ان صاحب المعمل يشرب الفودكا ، أما الجندي فيقصع القمل . إن صاحب المعمل يجني الارباح ، اما العامل فيعيش عرياناً . هذا هو النظام الذي لدينا . واصل خدمتك ، أيها القوزاقي ، واصل . ستنال وساماً آخر ، وساماً جيداً ، مصنوعاً من خشب البلوط .

كان يتحدث بالاوكرانية ، ولكنه ، في مناسبات نادرة ، حين ينفعل ، كان يتحول الى الروسية الصافية ويغدق عليها سباباً جمّاً .

راح يكشف لغريغوري ، يوماً بعد يوم ، حقائق كان يجهلها ، موضحاً له الأسباب الحقيقية للحرب ، ساخراً مرّ السخرية من الحكومة الاتوقراطية . وقد حاول غريغوري أن يعترض عليه ، بيد أن كارانجا كان يسكته بأسئلة بسيطة ، قاتلة في بساطتها ، فلا يجد بدأ من الموافقة .

وافظع مافي الأمر ، أن غريغوري أخذ يعتقد أن كارانجا على حق ، وأنه عاجز عن معارضته لأنه لا يملك ما يعترض عليه به . وادرك بشعور من الرعب أن الاوكراني الذكي الحانق يقوّض ببطء وعزم كل أرائه السابقة عن القيصر ، والوطن ، وواجبه العسكري كقوزاقي .

وخلال الشهر الذي أعقب مجيء الاوكراني ، أمسى البناء الذي كانت ترتكز عليه أفكار غريغوري حطاماً ينبعث منه الدخان ، وكانت العفونة قد شاعت فيه قبل ذلك ، حيث تأكلته قروح الشعور بعبث الحرب ووحشيتها ، ولم يكن يعوزه الا رجه واحدة كي يتقوّض ذلك البنيان . وقد أتت الرجة ، فاستيقظ ذهن غريغوري الساذج الطيب . كان يتخبّط بحثاً عن مخرج له ، عن حل لعقدته ، وقد سرّه أن يعثر على ذلك في أجوبة كارانجا .

نهض غريغوري في هزيع متأخر لاحدى الليالي وأيقظ كارانجا . وجلس على حافة سرير الاوكراني . كان ينساب خلال النافذة ضوء مخضوضر من قمر أيلول . وبدا خدّا كارانجا داكنين من كثرة الغضون ، وكان محجرا عينيه الاسودان يومضان . ثم تثاءب ودثّر ساقية بالبطانية .

ـ لماذا لم تنم ؟

فأجاب غريغوري :

ـ لا أستطيع النوم . أوضح لي هذا الأمر فحسب . الحرب تفيد البعض وتضر الأخرين ، أليس كذلك ؟

فتثاءب الاوكراني قائلاً :

ـ حسناً ؟

فهمس غريغوري وهو يتأجج غضباً : «مهلاً! أنت تقول أنك تساق الى حتفك لمصلحة الاغنياء . ولكن مابال أفراد الشعب ؟ أليس ثمة من يوقظهم ، من يستطيع الذهاب اليهم ليقول : اخواني ، من أجل هذا تموتون ؟ » .

ـ من يستطيع ذلك ؟ قل لي ؟ لنفرض أنك قمت بذلك . ها نحن اولاء نتهامس كالاوز بين القصب ، ولكن ما أن ترفع عقيرتك بالصياح ، حتى يهيئوا لك رصاصة . إن الشعب غارق في جهله . وستوقظه الحرب . فالرعد تتبعه العواصف .

ـ ولكن ما عسانا فاعلين بشأنها ؟ قل لي ، يا أفعى! لقد أيقظت قلبي .

ـ وماذا يقول لك قلبك ؟

فاعترف غريغوري قائلاً :

ـ لا أستطيع أن أفهم ما يقول .

ـ إن من يدفعني الى شفا الهاوية سوف يقع هو فيها . يجب ألا نخشى أن ندير بنادقنا الى صدورهم . علينا أن نقتل الذين يسوقون الشعب الى الجحيم . ـ ثم رفع كارانجا جسمه قليلاً على فراشه ، ومد يديه ، وهو يصر بأسنانه : ـ ستطغى موجة عارمة تودي بهم جميعاً .

ـ أنت تعتقد اذن أن كل شيء ينبغي أن يقلب رأساً على عقب ، أليس كذلك ؟

ـ أجل ، يجب أن نرمي الحكومة جانباً مثل خرقة بالية . ينبغي أن نجتز صوف الاسياد ، فقد طال عهدهم بتقتيل الناس .

ـ وماذا تراك فاعلاً بالحرب حين تحصل على الحكومة الجديدة ؟ سنمضي في الاحتراب ، وإن لم نفعل ذلك نحن ، فإن أطفالنا سوف يفعلون ذلك . أنّى لك اجتثاث الحروب . وما فتىء الناس يقتتلون منذ عصور ؟

ـ هذا صحيح ، لقد استمرت الحرب منذ الازل ، وستستمر حتى نكنس الحكم الفاسد . ولكن حين تصبح كل الحكومات بيد العمال فإنها ستكف عن

الاحتراب . هذا ما ينبغي أن نفعله . وسوف يتحقق لنا ذلك ، وليوارهم الشيطان جميعاً! سوف يكون ذلك . فحين يقيم الالمان ، والفرنسيون ، والاخرون كلهم ، حكومات العمال والفلاحين ، علام نتحارب حينذاك ؟ لتزل الحدود ، ليزل الغضب! حياة حلوة واحدة في أرجاء الدنيا بأسرها . آه!...

وتنهد كارانجا ، ثم ابتسم حالماً وهو يفتل طرفي عذاريه ، وعينه الوحيدة تومض :

ـ غريشا ، اني على استعداد لأن أريق دمي قطرة اثر قطرة كي ترى عيني ذلك اليوم . قلبي يلتهب .

وامتد بهما الحديث حتى مطلع الفجر . وحين لاحت الظلال الرمادية استسلم غريغوري الى رقاد مضطرب .

أيقظه في الصباح صوت كلام ونحيب . كان ايفان فروبلفسكي مستلقياً على وجهه يبكي في فراشه ، وقد وقفت من حوله الممرضة ويان فاركيس وكوسيخ . فزمجر بوردين ، مخرجاً رأسه من تحت أغطيه للفراش :

ـ علام يعول ؟

فأجابه كوسيخ بنبرة فيها من الضغينة أكثر مما فيها من شفقة .

ـ كسر عينه . اخرجها لتوه من القدح فسقطت على الأرض .

كان الماني متجنّس بالجنسية الروسية ، يبيع العيون الصناعية ، قد دفعه شعوره الوطني الى تزويد الجيش بمنتجاته مجاناً . وفي اليوم السابق كانوا قد ركّبوا لفروبلفسكي عيناً زجاجية صنعت بمهارة جعلتها تبدو بزرقة عينه الحقيقية تماماً . كانت صناعتها من الكمال بحيث يعجز الفاحص المتمعن أن يميّز العين الحقيقية من المقلّدة ، فظل فروبلفسكي بسببها ضاحكاً جذلاً كالطفل .

وقد قال بلهجة أهل الفولغا المتراخية :

ـ سأرجع الى أهلي ، واحصل على اية فتاة أريد . سأتزوج ، وبعدئذ سأعترف بأن عيني زجاجية .

فقهقة بوردين قائلاً :

ـ يا للشيطان ! سيفعل ذلك .

واذا بالحادث يقع ، وها هو الفتى الوسيم سيرجع الى قريتـه أعور العين أشوه . فواساه غريغوري قائلاً :

ـ سيعطونك عيناً جديدة ، لا تتعب .

فرفع فروبلفسكي وجهـه المبتل بالدمع من على الوسادة ، كاشفاً عن محجره الخاوي :

ـ كلا ، لن يعطوني . لقد كلفت تلك العين ثلاثمئة روبل . لن يعطوني عيناً جديدة قط .

فقال كوسيخ باعجاب وحماس :

ـ يالها من عين! كم كانت دقيقة الصنع!

وبعد الفطور ذهب فروبلفسكي الى حانوت الالماني بصحبة الممرضة ، فأعطاه عيناً جديدة . وهتف فروبلفسكي ، وقد جنّ فرحاً :

ـ عجباً ، الالمان أفضل من الروس! إن تاجراً روسياً لن ينفحك كوبيكاً ، ولكن هذا أعطاني عيناً جديدة دون أن ينبس بشيء .

انقضى شهر أيلول . ومضت الأيام متثاقلة لا نهاية لها ، يملؤها سأم مميت . ففي الساعة التاسعة صباح كل يوم يقدّم الشاي للمرضى مع شريحتين شفافتين بائستين من الخبز ، وفص من الزبدة بحجم ظفر الاصبع . وكان الجوع لا يفارقهم حتى بعد تناول الغداء . ثم يشربون الشاي في المساء ثانية ، فيرتشفون معه الماء البارد لمجرد التنويع . وقد تغير مرضى الردهة العسكرية (هكذا أصبح المرضى يسمون ردهة الجنود الجرحى) . فرحل السيبيري أولاً ، ثم أعقبه اللاتيفي . ثم صرف غريغوري في أواخر تشرين الأول .

فحص جرّاح المستشفى عينيه وقرر أن بصرهما بحالة مرضية . ولكنه نقل الى مستشفى آخر نظراً لأن جرح رأسه انفتح على غير انتظار وأخذ يتقيح قليلاً . وقال غريغوري وهو يودّع كارانجا :

ـ أترانا نلتقي ثانية ؟

ـ الجبلان لا يلتقيان ، ولكن... .

ـ حسناً ياجار ، اشكرك لتبصرتي . وبوسعي الآن أن أرى . واصبحت حاقداً .

ـ حين تعود الى كتيبتك أنقل للقوزاق الاخرين ماقلته لك .

ـ سأفعل ذلك .

ـ وإذا صادف أن جئت الى منطقة تشيرنيكوف في قرية كوروخوفكا أسأل عن الحداد اندريه كارانجا ، وسأكون مسروراً لرؤيتك . الى اللقاء ، يافتى .

تعانقا . ولبث في ذاكرة غريغوري طويلاً صورة الاوكراني بعينه العوراء ، والخطوط اللطيفة تمتد من فمه عبر خديه المصفرين .

امضى غريغوري في المستشفى الثاني عشرة أيام . وقد راحت تراود ذهنه قرارات لما تتخذ شكلها النهائي بعد . كانت تعاليم كارانجا الثورية تعتمل في دخيلته . فلم يتحدث الى جيرانه في الردهة الا لماماً ، واتسمت كل حركاته بشيء من الاضطراب والحذر .

واعتبره رئيس الاطباء «رجلاً قلقاً» حين القى الى وجهه غير الروسي نظرة عاجلة أثناء الفحص الأول .

وقد انتابت غريغوري الحمى في الايام القليلة الاولى ، فلزم فراشه ولبث ينصت الى طنين يدوي في اذنيه .

ثم طرأ حادث .

قدم شخص مرموق ، من أفراد العائلة الامبراطورية ، لزيارة المستشفى . وقد أبلغ الاطباء والممرضات بالنبأ صباحاً ، فراحوا يتراكضون هنا وهناك كالفئران في مخزن تلتهمة النيران . فغيروا ملابس الجرحى وبدلوا أغطية الاسرّة قبل أوانها . وقد بلغ الامر بأحد الاطباء أن حاول تلقين المرضى كيف يجيبون على أسئلة شخصية مرموقة ، وكيفية التحدّث اليها .

وسرت عدوى القلق الى المرضى كذلك ، فشرع بعضهم يتحدث همساً قبل حلول موعد الزيارة بوقت طويل .

وارتفع عند الظهر صوت بوق سيارة ، فمرّ الشخص المرموق عبر بوابة المستشفى يرافقه العدد المألوف من الموظفين والضباط . وقد أكدّ أحد المرضى لزملائه بعد ذلك ، وكان رجلاً مرحاً مضحكاً ، أن علم الصليب الاحمر المعلق خارج المستشفى أخذ يرفرف خافقاً على حين غرة لحظة دخول الزوار المرموقين رغم صفاء الطقس وركود الهواء على غير عادته ، كما أن الرجل الانيق بخصلات شعره الجميلة المرسوم على رقعة حلاق في الجانب الآخر من الشارع قد انحنى مطأطناً بالفعل . طاف الوجيه المرموق بالردهات ، موجهاً الأسئلة السخيفة المعهودة التي تناسب مركزه ومقامه . فأجاب المرضى ، وعيونهم تحملق أكثر من اللازم ، وفق تعليمات الطبيب المساعد : « تماماً ، يا صاحب السمو الامبراطوري » و« لا ، ابدا ، ياصاحب السمو الامبراطوري » . وكان رئيس المستشفى يعقب على أجوبتهم وهو يتلوى كحية العشب حين تخزقها المذراة ، كان منظره يثير الاشفاق حتى لدى من ينظر اليه من بعيد . وقد وزع الامير ايقونات صغيرة على الجنود . ثم اندفع حشد البزات المتألقة وموج العطور الفواحة الثمينة نحو غريغوري . كان واقفاً بجانب سريره ، طويل اللحية ، هزيل البدن ، محموم العينين . وقد فضحت انفعاله تلك الاختلاجة الطفيفة البادية على البشرة السمراء التي تعلو عظمي وجنتيه .

كان يقول في سريرة أفكاره : « هاهم اولاء! هاهم الذين يتلهون بسوقنا من قرانا ودفعنا الى الهلاك . آه! يا للخنازير! عليهم اللعنة! ها هو القمل العالق بظهورنا . أمن اجلهم وطئنا قمح الآخرين بخيلنا وقتلنا الغرباء ؟

أمن أجلهم زحفت فوق جذامات القمح باكياً ؟ والذعر الذي حل بنا ؟ لقد انتزعونا من عوائلنا وساموا الجوع في الثكنات . اثقلت تلك الأفكار اللاهبة رأسه وارتعشت شفتاه حنقاً : « انظر الى وجوههم السمينة اللماعة! لو كان الأمر بيدي لارسلتكم الى هناك ، عليكم اللعنة ، لأضعنكم على الخيل ، والبنادق على

ظهوركم ، واحملكم بالقمل ، واطعمكم خبزاً متعفناً ولحماً مدوداً! »

راحت عينا غريغوري الضجرتان تنخران ضباط الحاشية ذوي الوجوه الناعمة ، ثم استقرنا على خدي الامير المتهدلين .

تكلف رئيس المستشفى بالابتسام وهو يشير الى غريغوري ويقول : « من قوزاق الدون ، إنه يحمل وسام القديس غيورغي » . وقد أوحت نبرات صوته وكأنّه هو الذي نال الوسام . فسأل الأمير ، وقد تأهّب لاعطاء الأيقونة :

ـ من أي منطقة ؟

ـ من فينشسكايا ، ياصاحب السمو الامبراطوري .

ـ كيف نلت الوسام ؟

لاح السأم والتخمة في عيني الامير الصافيتين الخاويتين . وقد تكلّف رفع حاجبه الايسر لكي يضفي على وجهه المزيد من سيماء العظمة . احس غريغوري بالبرد لحظة واعتمل في داخله احساس ممزق . كان يستشعر احساساً كهذا وهو ينطلق صوب المعركة . فالتوت شفتاه واختلجتا دون ارادته :

ـ عفوك... انني بحاجة ماسة الى أن ـ ياصاحب السمو ـ إنها حاجة صغيرة فحسب .

ثم ترنّح غريغوري ، وكأن ظهره قد قصم . وأشار الى تحت السرير .

ازداد حاجب الامير ارتفاعاً ، والتفت ، وقد انفرجت شفتاه دهشة ، صوب جنرال أشيب ، يقف بجانبه فسأله شيئاً بالانكليزية ، واعترى أفراد الحاشية حرج لا تكاد العين تلمسه . فقد مس ضابط طويل القامة ، يحمل شارات كتف مقصّبة ، عينه بيده ذات القفاز الأبيض ، وطأطأ ثان رأسه ، والتفت ثالث الى جاره بنظره مستفهمة . وتبسّم الجنرال الاشيب باحترام ، ورد على صاحب السمو الامبراطوري بالانكليزية ، وقد سر صاحب السمو أن يدس الأيقونة في يد غريغوري ، وينعم عليه بشرف لا يدانى حين لمسه من الكتف .

ولما بارح الضيوف هوى غريغوري على سريره ، فدفن رأسه في وسادته ، ورقد بضع دقائق ، وكتفاه يهتزان ، ولم يكن بالوسع أن يتبين

المرء ما اذا كان يبكي أم يضحك . ثم نهض جاف العينين . وقد استدعى الى غرفة رئيس المستشفى في الحال .

بادره الطبيب وهو يدعك بأصابعة لحيته التي تحاكي بلونها الفأر :

ـ أيها الجلف الفظ!

فرد غريغوري ، وهو يخطو نحو الطبيب : «لست جلفاً ، ياخنزير! إني لم أرك في الجبهة» . ثم استعاد زمام نفسه ، فقال بهدوء : «ارسلني الى أهلي» .

تقهقر الطبيب خلف مكتبه وهو يقول بلطف : «سنرسلك! بوسعك أن تذهب الى الشيطان!» .

خرج غريغوري وشفتاه تختلجان ابتساماً ، وعيناه تشعان بريقاً . وقد حرم من طعامه ثلاثة أيام لسلوكه الفظيع ، الذي لا يغتفر ، في حضرة الأمير . ولكن رفاقه في الردهة مدوه بالطعام . فضلاً عن الطبّاخ ذي القلب الرقيق الذي كان مصاباً بالفتق .

٢٤

في مساء الرابع من تشرين الثاني بلغ غريغوري أول قرية من قرى منطقته وهو في طريقه من المحطّة . لم تكن ياغودنويه لتبعد عن تلك القرية الا بضعة فرستات . وبينما هو سائر في الشارع كان الفتيان ينشدون أغنية قوزاقية قديمة تحت ظلال الصفصاف على الشاطىء .

ينطلق القوزاق على الخيل بسيوف وهاجه...

اعترت الرجفة قلبه ، وتحجرت عيناه اذ راح يصغي الى تلك الكلمات المألوفة وظلت الأغنية تلاحقه وهو سائر عبر القرية يتنسم بنهم رائحة الدخان المتصاعدة من المداخن .

«وأنا الآخر كنت أنشد هذه الأغنية ، ولكن صوتي قد ذهب الآن ، وحالت

الحياة دون أن أتم أغنيتي . ها أنا ماضٍ للعيش مع زوجة رجل آخر ، لاركن لي ، لابيت لي ، كأنني ذئب» هذا مادار في خلده ، وهو سائر بخطى متواصلة كليلة ، يبتسم بمرارة من حياته التي كانت ملتوية على نحو غريب .

وارتقى التل خارجاً من القرية ، ثم التفت من على قمته لينظر خلفه ، كان الضوء الاصفر ينبعث خلال النافذة من نافوس معلّق في آخر منزل وأبصر في الضوء امرأة كهلة تجلس الى دولاب غزل...

مضى سائراً خلال العشب الرطب المتجمد على حافة الطريق . وبات ليلته في قرية صغيرة ، ثم استأنف رحلته حالما أطل الصباح . بلغ ياغودويه عند المساء ، فقفز عبر السياج ومر قرب الاسطبل ، فاستوقفه سعال ساشكا ، فصاح :

ـ هل أنت نائم ، أيها الجد ساشكا ؟

ـ مهلاً ؟ أنا أعرف الصوت . من هذا ؟

خرج ساشكا ، وهو يلقي معطفه العتيق حول كتفيه :

ـ يا أباءنا القديسين... غريشا! من أين اتيت بحق الشيطان ؟

وتعانقا . ثم قال ساشكا وهو يصعد الى وجه غريغوري :

ـ ادخل ودخّن سيكارة .

ـ كلا ، ليس الآن . سآتي غداً . أنا... .

ـ قلت لك ، ادخل .

فدخل غريغوري وراءه على مضض ، وجلس على المقعد الخشبي ريثما ينتهي العجوز من نوبة سعاله .

ـ حسناً أيها الجد ، أنت ماتزال حياً ، اذن . ماتزال تدب على الأرض ؟

ـ آه أنا كحجر الصوان لا يبليني شيء .

ـ وكيف حال اكسينيا ؟

ـ اكسينيا ؟ الحمد لله ، إنها على مايرام .

وسعل العجوز بعنف فعرف غريغوري أنه يصنع السعال لاخفاء حرجه .

ـ أين دفنتم تانيا ؟

ـ في البستان تحت شجرة حور .
ـ حسناً ، حدّثني بكل ماعندك من أخبار .
ـ إن سعالي يسبب لي متاعب جمة ياغريشا .
ـ حسناً ؟
ـ إننا جميعاً على قيد الحياة وبصحة جيدة . وإن السيد يفرط في الشراب بجنون ، ياللأحمق .
ـ كيف حال اكسينيا ؟
ـ إنها وصيفة البيت الآن . هلا دخّنت . جرّب تبغي من الدرجة الأولى .
ـ لا أريد أن أدخّن . تكلّم ، والا ذهبت! أشعر... . ـ واستدار غريغوري بقوة فصرّ المقعد من تحته . ـ اشعر أنك تخفي عنّي شيئاً ، كحجر تحت معطفك . ارم به!
ـ وسأرمي به! لا أقدر على السكوت ، يا غريشا ، سيكون معيباً .
فقال غريغوري «قل لي ، اذن» . والقى يده على كتف العجوز برقّة . وانتظر حانياً ظهره .
فصاح ساشكا على حين غرّة بصوت فظ حاد :
ـ كنت تربّي حية . كنت تطعم ثعباناً . إنها تعبث مع يفغيني .
وانساب خيط من اللعاب اللزج حدر ذقن العجوز الدي تعلوه الندبة ، فمسحه وجفف يده على سرواله .
ـ أحقّاً ما تقول ؟
ـ لقد رأيته بأم عيني . إنه يذهب اليها كل ليلة . أظنّه معها الآن .
ـ هكذا الأمر اذن!
طقطق غريغروري عقل أصابعه ، وجلس مدّة طويلة محدودب الظهر وعضلات وجهه تختلج .
وكان في أذنيه طنين هائل رنان .
قال ساشكا :
ـ المرأة كالقطة تتودد الى كل من يداعبها . لاتثق بهن ، ولا توليهن ثقتك .

لف ساشكا سيكارة ودسّها في يد غريغوري قائلاً : «دخّن!» .

جر غريغوري نفسين أو ثلاثة من السيكارة ثم أطفأها بين اصابعه وخرج دونما كلمة . توقف عند نافذة جناح الخدم ، وهو يلهث بشدّة ، وقد رفع يده عدّة مرات ليطرق بها ، ولكنّها كانت تنكفىء في كل مرة ، وكأنها قد نحيت بضربة . وحين طرق النافذة آخر الأمر ربت عليها بأصابعه في البداية ، الا أن صبره نفذ فأهوى بثقله على الحائط وراح يضرب النافذة بجمع يديه ، فجعل الاطار يرن مع الضربات ، ونو ر الليل الأزرق يتلامع مع الزجاج .

فظهر وجه اكسينيا المرتعب في النافذة هنيهة ، ثم فتحت الباب فندّت عنها صرخة خافتة . احتضنها وهو يرى الى عينيها .

ـ طرقت بشدّة فأرعبتني . كنت نائمة . لم أكن أتوقع مجيئك ياعزيزي .

ـ أنا متجمّد الأوصال .

احسّت اكسينيا جسمه الهائل يرتجف بعنف رغم أن يديه ساختنان كالملتهبتين .

وأحدثت جلبة لاداعي لها ، فأشعلت المصباح ، وتراكضت في أرجاء الغرفة وعلى كتفيها الأبيضين المكتنزتين شال ازغب وأخيراً اشعلت النار في الموقد .

ـ لم أتوقّع مجيئك . لم تكتب لي منذ زمن طويل . حسبت أنك لن تعود . هل تسلمت آخر رسائلي ؟ كنت سأرسل لك رزمة ، ولكنني آليت التريث علّني اتسلّم منك رسالة...

كانت تخاوص النظر الى غريغوري وقد تجمّدت ابتسامة على شفتيها الحمراوين .

جلس غريغوري على المصطبة دون أن يخلع معطفه ، كان خدّاه غير الحليقين يضطرمان ، وقد انحجبت عيناه المسبلتان بياقة معطفة . ثم شرع يفك أزرار الياقة ، ولكنّه تململ فجأة ليتحسس كيس تبغة . وراح يبحث في جيوبه عن ورقة . ومر بعينيه على وجه اكسينيا بشوق لاحد له .

لقد ازدادت حسناً شيطانياً أثناء غيابه . كان رأسها الجميل شامخاً بمهابة لاعهد له بها ، ولم يبق على سابق حاله سوى عينيها وجعدات شعرها الوبري الكبيرة . لكن هذا الجمال العارم الساحق لم يعد ملك يده . كيف له أن يستحوذ عليه ، وهي خليلة ابن صاحب الضيعة ؟

- إنك في مظهرك أشبه بوصيفة بيت منك بخادمة .

فألقت اليه نظرة وجلة ثم تضاحكت غصباً .

جر غريغوري صرته وراءه ، ومضى نحو الباب .

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

ـ لكي أدخّن .

ـ قليت لك بعض البيض .

ـ لن أتأخّر .

فتح غريغوري الصرّة على الدرج واخرج من باطنها عصابة رأس منقوشة باليد وقد لفّت بعناية في قميص نظيف ، . كان قد ابتاعها من تاجر يهودي في جيتومير لقاء روبلين ، وقد حافظ عليها كما يحافظ على حدقة عينيه ، كان يخرجها أحياناً ويمتع ناظريه بوفرة الوانها القزحية ، ويستبق مذاق الفرحة التي ستغمر اكسينيا وهي تنشر العصابة أمامها . يالها من هدية تعيسة! أبوسعه أن ينافس بهدايا ابن ملاك ثري ؟ ومزّق العصابة ارباً ثم دسّها تحت الدرج وهو يكبح نوبة من البكاء الجاف . ثم القى الصرة على المصطبة في المجاز وعاد الى الغرفة .

- اجلس ، وسأنزع عنك جزمتك ، ياغريشا .

وراحت تشد حذاء غريغوري العسكري الثقيل بيدين بيضاويين طلقتا العمل الشاق منذ حين . ثم جثت عند ركبتيه تبكي بصمت لوقت طويل . فتركها غريغوري تبكي ما شاءت ثم سألها قائلاً :

ـ ما خطبك ؟ الا تسرّك رؤيتي ؟

وحين هجع الى فراشه استسلم للنوم بسرعة ، وخرجت اكسينيا الى

الدرج وليس عليها سوى قميصها . وقفت في مهب الريح الباردة النفاذة ، وذراعاها يعانقان العمود الرطب ، وراحت تصغي الى مرثاة الجنائز ترتلها ريح الشمال العاصفة ، ولبثت على حالها تلك حتى مطلع الفجر .

وفي الصباح ، القى غريغوري معطفه على كتفه ومضى نحو الدار . كان الشيخ واقفاً على الدرجات وقد ارتدى سترة من الفرو وقبعة استراخانية صفراء .

ـ عجباً! هو ذا حامل وسام القديس غيورغي! ولكنّك غدوت رجلاً ، ياصاحبي!

ثم حيّا غريغوري ومد له يده .

ـ هل ستبقى طويلاً ؟

ـ اسبوعين ، ياصاحب السعادة .

ـ لقد دفنّا ابنتك ، واأسفاه . واأسفاه... .

لبث غريغوري صامتاً . ثم خرج يفغيني وهو يلبس قفازه .

ـ ماذا ، هذا غريغوري ، من أين قدمت ؟

اسودّت الدنيا في عيني غريغوري ولكنّه تبسّم قائلاً :

ـ عدت من موسكو ، بإجازة .

ـ لقد جرحت عينك ، أليس كذلك ؟ سمعت بهذا . لقد غدا فتى رائعاً أليس كذلك يابابا ؟

وأومأ الى غريغوري ثم استدار نحو الاسطبل منادياً الحوذي :

ـ الحصان ، يا نيكيتيتش!

فاتم نيكيتيتش الرزين شد الحصان بالعربة الخفيفة ، ثم قاد الحصان الاشهب الخبباب الى الدرجات ، وهو يحدّج غريغوري بنظرة عدائية . وخشخشت الأرض المتجمدة تحت عجلات العربة . فالتفت غريغوري صوب يفغيني بابتسامة متوددة وقال بلهجة فيها رجاء :

ـ ياصاحب السعادة ، دعني أسوق مركبتك بحق الأيام الخوالي .

فقال يفغيني في نفسه ، «يا للفتى المسكين ، إنه لايدري» . وابتسم

راضياً ، والتمعت عيناه من وراء نظارتيه المعلقتين على أنفه . ثم قال :

ـ لابأس ، اصعد .

فقال ليستنتسكي الشيخ ، وهو يبتسم متلطفاً :

ـ ماذا ، لم تكد تصل ، وها أنت ذا ستترك زوجتك الشابة . ألم تفتقدها ؟

ضحك غريغوري قائلاً :

ـ ليست الزوجة دباً . إنها لن تهرب الى الغابة .

اعتلى مقعد السائق ودس السوط تحته ثم لمَّ الأعنّة في يده .

ـ آه ، سأمتعك بسياقة ، يا يفغيني نيكولايفتش!

ـ سق جيداً ، وسأنفحك بقشيش .

ـ ألم أنل مافيه الكفاية لكي أشعر بالامتنان ... انني ممتن لك لإطعامك ... اكسينيا... لإعطائها كسرة... .

انقطع صوت غريغوري فجأة ، فاشاع شك غامض مزعج اضطراباً في نفس الملازم : «أمن المؤكّد أنه لايعرف طبعاً لا! كيف يسعه ؟» ثم اتكأ في مقعده واشعل سيكارة .

ونادى ليستنتسكي الشيخ وراءهما قائلاً :

ـ لاتتأخر .

وتطاير مثار الثلج من تحت العجلات كالأبر .

جر غريغوري على فم الحصان بالعنان واستحثّه الى اقصى سرعته . ولم تمض خمس عشرة دقيقة حتى اجتازوا الربوة ، وما أن بلغا أول وهدة ، حتى قفز غريغوري الى الأرض ، وسحب السوط من تحت المقعد .

فقال الملازم عابساً :

ـ ما الأمر ؟

ـ سأريك!

لوّح غريغوري سوطه وانزله بقوة مريعه على وجه الملازم . ثم أمسك السوط من مجلدته ، وراح يضرب الضابط بمقبضه على وجهه وذراعيه دون

أن يتيح له وقتاً للنهوض . وقد أصابت ليستنتسكي شظية من زجاج عويناته فوق حاجبيه ، فانساب الى عينه خيط من الدم . وقد غطى أول الأمر ، وجهه بيديه ، غير أن الضربات تعاقبت عليه بسرعة متزايدة ، فوثب على قدميه ، وقد شوّه الدم والهياج وجهه ، فحاول أن يذود عن نفسه ، بيد أن غريغوري تراجع وشل ذراع الضابط بضربة على معصمه .

ـ هذه من أجل اكسينيا! وهذه من أجلي! من أجل اكسينيا! واخرى من أجل اكسينيا! من أجلي .

راح السوط يصفر والضربات تتعاقب بصوت طامس وأخيراً طرح غريغوري يفغيني على نتوءات الطريق الوعرة ، وراح يدحرجه على الأرض ، وهو يركله بوحشية بكعب حذائه المغطّى بالحديد .

وحين لم تعد فيه قوّة تساعد على المضي ، اعتلى مقعد العربة وعاد ينهب الأرض نهباً وهو يكاد ينهك قوى الحصان . وترك العربة عند البوابة وامسك بالسوط ، واندفع الى جناح الخدم متعثراً بأذيال معطفه المفتوح .

وحين اصطفق الباب وانفتح تلفتت اكسينيا حولها .

ـ يا أفعى! ياعاهرة!

وصفر السوط فالتف حول وجهها .

اندفع غريغوري الى الحوش وهو يلهث ناشداً الهواء ، ثم غادر الضيعة دون أن يلتفت الى تساؤلات ساشكا . وحين قطع مسافة بضعة فرستات ادركته اكسينيا . فمضت تسير الى جانبه صامتة . وهي تلهث بشدّة ، وتجر كمه بين حين وآخر . وعند مفترق الطريق ، وقرب المصلى البني المثبت على جانبه ، قالت له بصوت غريب ناء :

ـ غريشا ، اغفر لي!

فكشّر عن أسنانه ، واحنى كتفيه ، وهو يرفع ياقة معطفه وترك اكسينيا واقفة عند المصلى ، ولم يلتفت مرة ، ولم ير يدها ممدودة اليه .

وحين بلغ قمّة التل المطل على تتارسكي وجد أنه مايزال ممسكاً

السوط ، فألقى به جانباً ، وانحدر الى القرية . والتصقت وجوه الناس بزجاج النوافذ وقد أخذتهم الدهشة لرؤيته ، وانحنت النسوة تحية له وهو يمر بهن .

وعند بوابة حوش بيته ، هرعت حسناء ، ضامرة القد ، سوداء العينين ، لتلقاه ، فالتفّت ذراعيها حول عنقه ودفنت رأسها في صدره . فضم غريغوري خديها بين يديه ورفع رأسها فوجد أنها دونيا .

تناهى الى سمعه صرير الدرجات الذي كان مألوفاً لديه الى حد الإيلام ، ثم وجد نفسه في سقيفة الباب . وجرت أمه العجوز اليه بخطوات سريعة كالفتاة ، فبللت ياقة معطفه بدموعها ، واحتضنت ابنها وشدته اليها ، وهي تتمتم بأشياء لارابطة بينها بلغة الأمومة التي لا يسع المرء أن يعبّر عنها بالكلمات ، وكانت ناتاليا واقفة عند الباب ، متشبثة به مخافة السقوط ، وقد ارتسمت على وجهها الشاحب ابتسامة معذبة . واذ أصابتها نظرة غريغوري الخاطفة الشاردة ، كادت تهوي الى الأرض...

* * *

وحين أوى بانتلاي بروكوفيتش وزوجته الى فراشهما تلك الليلة لكز زوجته في ضلوعها وهمس :

ـ اذهبي بهدوء وانظري ان كانا مضطجعين معاً أم لا ؟

ـ لقد أعددت فراشهما على السرير .

ـ ولكن اذهبي ، وانظري ، انظري!

نهضت ايلنتشنا واسترقت النظر خلال شق الباب المؤدي الى غرفة .

ـ انهما سوية .

فنشج الشيخ وهو ينهض على مرفقيه ويرسم على نفسه اشارة الصليب .

ـ الحمد لله! الحمد لله!

ميخائيل شولوخوف

نوبل 1965

ولد في قرية فيوشينسكايا في بلاد القوقاز 1905 .

.لم يكمل شولوخوف دراسته الابتدائية

عاش الفترة من 1918 وحتى 1924 في أقليمه

حيث كانت المنطقة تحت سيطرة الجيش الابيض

.الذي اراد ان يطيح بثورة البلاشفة

في 1924 سافر إلى موسكو ليجرب مختلف الاعمال

.ويمارس حظه في الكتابة والنشر والتعرف على الاوساط الادبية

بعد عامين اي في عام 1926 عاد الى موطنه الاصلي

.ولم يفارقه حتى مماته

.وفي نفس العام ظهرت مجموعته الاولى قصص الدون وقصة سهب لازوريف

انضم إلى الحزب الشيوعي السوفيتي عام 1932

. وفي عام 1934 أصبح عضوا في اتحاد الكتاب

كتب روايته الدون الهادئ في الفترة ما بين 1928 - 1940

فقد صدر الجزء الأول من الرواية عام 1928

.وانتظر القراء 12 عاما ليكمل شولوخوف روايته الملحمية

وتوفي في 21 فيفري 1984

علي مولا


ISBN 978-9933-407-05-6

1965

مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

2



ترجمة

علي الشوك.أمجد حسين . غانم حمدون

مراجعة : غائب طعمة فرمان

علي مولا



الدون الهادئ

١٩٦٥

مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

(المجلد الثاني)

ترجمة

علي الشوك . أمجد حسين . غانم حمدون

مراجعة: غائب طعمة فرمان



مكتبة نوبل



اسم المـــؤلف : ميخائيل شولوخوف
عنوان الكتــاب : الدون الهادئ ـ ٢
ترجـــمـــــة : علي الشوك/أمجد حسين/غانم حمدون
مـــراجـــعـــة : غائب طعمة فرمان
النــاشـــــر : دار المدى للثقافة والنشر
المجمع الثقافي/ أبو ظبي
الطبـعـة الأولى : ١٩٩٨

Author : Mikhail Sholokhov
Title : The Silent Don /2
Translator: A. Al-Shuk/
A.Hussein\ G. Hamdoun
Al- Mada : P. C.
Cultural Foundation
First Edition 1998

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا – دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ – ٧٧٧٦٨٦٤ – فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت – لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ – ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ – ٩٦١١

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة – أبو ظبي
ص .ب : ٢٣٨٠
تلفون : ٢١٥٣٠٠

Al Mada : Publishing Company F.K.A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box . : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or
7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

Cultural Foundation
U.A.E. Abu Dhabi
P.O.Box: 2380
Tel. 215300

الجزء الرابع

١

١٩١٦ . تشرين أول . مساء ، مطر ورياح ، غابات ، خنادق على مشارف مستنقع تظلله أشجار الحور . شبكات من الأسلاك الشائكة في المقدمة . وحل متجمد في الخنادق . صفيحة برج المراقبة الندية تسطع بحديدها الكامد . أضواء هنا وهناك في الحفائر .

في مدخل إحدى حفائر الضباط توقف هنيهة ضابط قصير القامة ، وانزلقت أصابعه المبتلة فوق أزرار معطفه . ثمّ حلها بعجالة ، ونفض الماء عن ياقته ، ومسح حذاءه بكومة من القش المداس فوق الوحل في المدخل ، وعندئذ فقط دفع الباب ، وانحنى ، ثم دخل الحفيرة .

والتمع على وجهه شريط زيتي من الضوء الأصفر ينساب من مصباح كيروسين صغير . فنهض ضابط يرتدي سترة مفتوحة من على سرير خشبي ، ومسّد على شعره الأشيب الأشعث وتساءل متثائباً :

ـ تمطر ؟

فأجابه الزائر :

ـ نعم ، ـ وخلع معطفه ، وعلّقه مع قبعته المبتلة على مسمار عند مدخل الباب . وأضاف :

ـ أنتم في دفء هنا . تدفئون الهواء بأنفسكم .

ـ أشعلنا الموقد قبل قليل . ولكن المشكلة هي أن الماء ينز من القاع . وسوف يكتسحنا المطر ، عليه اللعنة . مارأيك يا بونتشوك ؟

انحنى بونتشوك ، ثم قرفص أمام الموقد وقال وهو يفرك يديه :

ـ ضعوا بعض الألواح على الأرض . إن حفيرتنا جافة مريحة ، حتى ليسعنا أن نسير حفاة الأقدام . أين هو لستنتسكسي ؟

ـ نائم .

ـ هل نام طويلاً ؟

ـ لقد عاد من جولة حول مراكز الحراسة ورقد في الحال .

ـ هل هناك بأس في إيقاظه ؟

ـ لابأس ، فسوف نلعب شوطاً من الشطرنج .

ـ ونضا بونتشوك المطر عن حاجبيه الكثين بسبابته ، دون أن يرفع رأسه ، وطفق ينادي بصوت هادىء :

ـ يفغيني نيقولا يفتش!

قال الضابط أشيب الشعر متنهداً : « يبدو أنّه مستغرق في النوم » .

ـ ثم أردف بونتشوك منادياً من جديد : « يفغيني نيقولا يفتش! »

فنهض لستنتسكي مستنداً على مرفقه وقال :

ـ حسناً ؟

ـ أتلعب شوطاً من الشطرنج ؟

ـ أنزل يفغيني ساقيه من على السرير وراح يدلك صدره السمين بشدة براحة يده الناعمة البيضاء .

وعند اقتراب الشوط الأول من نهايته ، دخل ضابطان من السرّية الخامسة ، هما الرئيس كالميكوف والملازم تشوبوف . هتف كالميكوف وهو يجتاز العتبة :

ـ عندي خبر لكم! الكتيبة قد تسحب .

فندّت عن الضابط الأشيب الشعر الرئيس ميركولوف ابتسامة شك وقال :

ـ أين سمعت بذلك ؟

ـ ألا تصدقني أيها العم بيوتر ؟

ـ إذا أردت الحقيقة ، لا .

ـ أخبرنا آمر البطارية لتوه هاتفياً . أمّا كيف يدري ؟ بسيط! لم يمضِ على عودته من قيادة الفرقة إلا يوم واحد .

وقال تشوبوف وفي صوته رنّة طرب :

ـ الاستحمام شيء رائع ، ـ وطبطب على ردفيه كمن يفرك جلده بأغصان من شجر البتولا .

فعقب ميركولوف مبتسماً :

ـ لم يبقَ علينا إلا أن نضع المرجل هنا ، فلدينا ماء وافر .

وهمهم كالميكوف وهو ينظر إلى الجدران الخشبية والأرض الموحلة :

ـ مكانكم رطب ، أيها السادة ، رطب جداً .

ـ ذلك إننا إلى جوار المستنقع تماماً .

فتدخل بونتشوك :

ـ احمدوا الرب لوجودكم عند المستنقع تنعمون بالراحة كما لو كنتم في حضن المسيح . في المناطق الأخرى يخوضون المعارك ، أمّا هنا فلا نطلق النار سوى مرة في الاسبوع .

ـ القتال خير من التعفّن هنا في هذا الجحر .

ـ إنهم لا يحتفظون بالقوزاق ليبيدوهم في المعارك . لماذا تحاول أن تبدو ساذجاً أيها المنافق ؟

ـ إذاً ، فيم يحتفظون بنا ، في رأيك ؟

ـ ستلعب الحكومة في اللحظة المناسبة لعبتها القديمة لتصون نفسها على حساب القوزاق .

فلوّح كالميكوف بيده :

ـ لا تتكلم إلا هرطقة .

ـ هرطقة ؟ لماذا ؟

ـ لأنها كذلك .

ـ هذا هراء يا كالميكوف . لا تستطيع أن تنكر الحقيقة .

ـ أي ضرب من الحقيقة...

ـ ماذا ، الجميع يعرفون أنها الحقيقة . فلمَ تتجاهل أنت ؟!

فهتف تشوبوف :

ـ انتبهوا أيها السادة الضباط!

وانحنى على الطريقة المسرحية ، وأشار إلى بونتشوك قائلاً :

ـ سيبدأ الآن نائب الضابط بونتشوك بتفسير أحلام الاشتراكيين الديمقراطيين!

فندّت عن بو نتشوك ابتسامة ساخرة ، وقال وهو يقابل عيني تشوبوف بنظراته الصارمة :

ـ أتراك تحاول تمثيل دور المهرّج ؟ حسناً ، كما تشاء . كلٌّ وسجيته . ولكنني أقول أننا لم نشهد حرباً منذ منتصف السنة الماضية . فمنذ بدأت حرب الخنادق ، وزّعت الكتائب القوزاقية في مناطق منزوية ، وأبقوهم في الحفظ والإيداع إلى أن تحين الفرصة .

فسأله لستنتسكي فيما هو يجمع بيادق الشطرنج :

ـ وماذا بعد ذلك ؟

ـ ومن ثم ، حينما يشيع التذمّر في الجبهة ـ وذلك أمر لا مفر منه ، لأن الجنود بدؤوا يسأمون الحرب ، كما يظهر ذلك من تزايد فرارهم من الجيش ـ سوف تستعين الحكومة بالقوزاق لاخماد حركات التمرّد . فهي تمسك بالقوزاق كحجر في يدها . وفي اللحظة المناسبة ستحاول القضاء على بوادر الثورة بذلك الحجر .

فاعترضه لستنتسكي :

ـ ألا ترى أنك تسرح في خيالك ياصاحبي العزيز ؟ إن افتراضاتك مهزوزة نوعاً ما... فقبل كل شيء ، يستحيل التكهّن بسير الحوادث . كيف يتسنّى لك أن تتنبأ بهذه الاضطرابات وما اليها ؟ ولكن لنفترض شيئاً آخر : الحلفاء سيسحقون الألمان وتنتهي الحرب نهاية رائعة ، فأي دور ستنسبه للقوزاق ؟

فارتسمت على فم بونتشوك ابتسامة جافة وقال :

ـ لا يبدو أنها ستنتهي في الوقت الحالي ، ناهيك عن نهاية رائعة .

ـ أطالوها...

وأكّد بونتشوك :

ـ ولن نرى نهايتها ، إن صح التعبير .

ثم سأله كالميكوف :

ـ متى عدت من إجازتك ؟

ـ يوم أمس الأول .

وفغر بونتشوك فاه ، ونفث كرة من الدخان ثم رمى عقب سيكارته .

ـ أين قضيتها ؟

ـ في بتروغراد* .

ـ حسناً ، ما هي أخبار العاصمة ؟ العاصمة تهدر ؟ آه ، يا للشيطان ، إني لأهب أي شيء مقابل أسبوع واحد أقضيه ، على قصره ، في بتروغراد!

فقال بونتشوك وهو يزن كلماته بعناية :

ـ ولكنك لن تجد سوى القليل مما يسرّك . فثمة عوز في الخبز . وفي أحياء العمال يخيّم الجوع ، والتذمّر ، ويتعالى الهياج .

فجال ميركولوف ببصره وقال متسائلاً :

ـ لن نخرج من الحرب سعداء . ماذا ترون أيها السادة ؟

أجاب بونتشوك :

---

* اسم بيتربورغ في أعوام ١٩١٤-١٩٢٤ (لينينغراد حالياً) . المعرب

ـ لقد تمخّضت الحرب الروسية ـ اليابانية عن ثورة ١٩٠٥ ، وسوف تتمخض هذه الحرب عن ثورة جديدة ، وليس ذلك وحسب ، بل وعن حرب أهلية .

فأتى لستنتسكي بحركة غير واضحة كأنه يوشك أن يقاطعه ، ثم نهض وجعل يتخطّى ذهاباً وإياباً وهو بادي التجهّم . وقال بصوت تنمّ نبرته عن غيظ مكتوم :

ـ إنني أستغرب وجود شخص كهذا الرجل بيننا نحن الضباط .

ثم أشار إلى بونتشوك المقوّس الظهر وأضاف :

ـ إنني أستغرب ، لأنني حتى هذا اليوم لم أستطع معرفة موقفه من وطنه ومن الحرب... فذات مرّة كان يتكلّم بصورة غامضة جداً ، ومع هذا فقد كان جليّاً من كلامه أنّه يريد أن تلحق بنا الهزيمة . أتراني على صواب يا بونتشوك ؟

ـ أفضل أن تلحق بنا الهزيمة .

ـ ولكن لماذا ؟ في رأيي ، رغبتك في اندحار وطنك خيانة عظمى بغض النظر عن آرائك السياسية . إنها لا تشرّف أي رجل ذي كرامة .

فتدخّل مير كولوف :

ـ هل تذكر كيف كانت الكتلة البلشفية للحزب الاشتراكي الديمقراطي في مجلس الدوما* تحرّض ضد الحكومة ، بالشكل الذي يساعد على هزيمة البلاد ؟

فسأله لستنتسكي :

ـ هل تشاركهم آراءهم يا بونشوك ؟

ـ لئن قلت أنني إلى جانب اندحارنا فمن الواضح أنني أعني ذلك بالضبط . ومن الخطل بالنسبة لي كعضو في حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي أن لا أشارك رفاقي أعضاء الحزب في مجلس الدوما

* مجلس النواب الروسي القيصري . المترجمون

آراءهم . ويدهشني جداً يا يفغيني نيقولايفتش أن تكون جاهلاً بالسياسة إلى هذه الدرجة رغم ثقافتك .

ـ أنا قبل كل شيء جندي وهبت حياتي للملكية . إن مجرّد منظر «الرفاق الاشتراكيين» يثير فيّ النفور .

فقال بونتشوك في دخيلة نفسه : «أولاً وقبل كل شيء أنت بليد ، ثم انك حيوان عسكري مغرور» ، ثم كتم ابتسامته .

ـ لا اله إلا الله...

وقال ميركولوف كمن يعتذر :

ـ في الجيش ، يجد المرء نفسه في وضع شاذ . وقد وضعنا أنفسنا جميعاً بمنأى عن السياسة ، لا علاقة لنا بهذا الأمر .

جلس الرئيس كالميكوف وراح يمسّد ذراعيه المتدليين ، وقد تألقت عيناه المغوليتان الصارمتان . واستلقى تشوبوف على سرير ، وراح يحدّق في لوحة مثبتة في الحائط كان قد رسمها ميركولوف . وهي صورة امرأة شبه عارية لها وجه مريم المجدلية ، افتر ثغرها عن ابتسامة ساجية شهوانية وهي تنظر إلى ثدييها العاريين . وقد أزاحت إحدى الحلمتين السمراوين بإصبعين من كفها الأيسر ، وافترق خنصرها إلى الوراء بحذر . وتحت جفنيها نصف المسبلين ظل يلطّفه وهج عينيها الدافىء ، وقد حمل كتف ارتفع قليلاً إلى الأعلى قميصها المنزلق ، وارتمى ظل باهت في المنخفضين تحت الترقوتين . وكان ثمة رقة طبيعية فياضة وصدق لا كلفة فيه في وضعيتها ، وكانت ملامحها ذات جمال غريب جعل تشوبوف يبتسم رغماً عنه ، مأخوذاً بمهارة التخطيط ، وكان يشرد بذهنه عن سياق الحديث كلّياً .

هتف وهو ينتزع عينيه عن الرسم :

ـ جميل!

ولكن ملاحظته جاءت في لحظة غير مناسبة ، ذلك أن بونتشوك كان يقول :

ـ أستطيع أن أؤكد لكم أن القيصرية سوف يقضى عليها .

فخزر لستنتسكي بونتشوك ، ثم التفت إلى تشوبوف ، وقد افترّت شفتاه عن ابتسامة لاذعة ، وهو يلف سيكارة .

وهتف كالميكوف :

ـ بونتشوك! لحظة يا لستنتسكي! اسمع يا بونتشوك! لنفترض أن هذه الحرب ستؤول إلى حرب أهلية . وماذا بعد ذلك ؟ سوف تطيحون بالملكية . ولكن أي نوع من الحكومات تنوون تشكيلها بديلاً ؟

ـ حكومة الطبقة العاملة .

ـ برلماناً تعني ؟

فابتسم بونتشوك :

ـ أكثر من ذلك .

ـ حسناً ، وماذا أيضاً ؟

ـ دكتاتورية العمال .

ـ الآن أدركنا الحقيقة! ولكن المثقفين ، والفلاحين ؟ أي دور سيلعبون ؟

ـ سيتبعنا الفلاحون ، وكذلك جزء من المثقفين العاقلين . أما الآخرون... أما ما سنفعله مع الآخرين... فهكذا!

وبحركة خفيفة برم ورقة بيده ، ثم هزّها في الهواء وقال وهو يخرج كلماته من بين أسنانه :

ـ هذا ما سوف نفعله!

فقال لستنتسكي ساخراً :

ـ إنكم تحلقون عالياً .

فرد عليه بونتشوك قائلاً :

ـ ونحط عالياً .

ـ خير لكم أن تنشروا القش مسبقاً .

فقال كالميكوف :

ـ لماذا بحق الشيطان تطوعت في الجبهة ، وشققت طريقك إلى رتبة ضابط ؟ كيف يتماشى ذلك مع معتقداتك ؟ عجيب! هاك رجلاً ضد الحرب ، ضد تقتيل ، ماذا تسميهم ، إخوانه الطبقيين ، ومع ذلك فهو... ضابط .

وصفق رقبتي جزمته وراح يضحك من صميم قلبه .

وتساءل لستنتسكي :

ـ كم عاملاً ألمانياً أفنيت برشاشك ؟

فأخرج بونتشوك إضمامة كبيرة من الورق من جيب معطفه وجعل يفتش فيها ، وكان واقفاً وظهره إلى لستنتسكي . ثم تقدّم نحو الطاولة ونشر جريدة صفراء من أثر القدم وسوّى تجعداتها بيده الضليعة الكبيرة ، وقال :

ـ كم عاملاً ألمانياً أفنيت ؟ سؤال... يُسأل . لقد تطوعت لأنني كنت سأجند بأية حال من الأحوال . وأحسب أن الخبرة التي تعلمتها هنا في الخندق ستكون ذات نفع فيما بعد... فيما بعد . إصغ إلى هذا .

ثم جعل يقرأ كلمات لينين :

«لنأخذ الجيش العصري . إنه أحد الأمثلة الحسنة للتنظيم . إن هذا التنظيم جيد لأنه مرن ، وقابل في الوقت ذاته على منح ملايين الناس إرادة واحدة . واليوم تعيش هذه الملايين في بيوتها في مختلف أرجاء البلاد ، ولكن ما إن يصدر أمر بالتعبئة ، حتى يتجمعوا في المراكز المعينة . وفيما هم اليوم يرقدون في الخنادق ، وقد يقضون فيها الشهور بطولها ، تراهم غداً يساقون لشن هجوم في وضعية أخرى . وإذ يحققون في يوم ما معجزات وهم بمأمن من الرصاص والقنابل ، تراهم في يوم آخر يحققون المعجزات في قتال مكشوف . وفيما تزرع اليوم قطعاتهم الأمامية الألغام تحت الأرض ، تراهم غداً يتقدمون عشرات الفراسخ وفق إرشادات الطيارين المحلّقين فوق الأرض . وعندما تسعى الملايين وراء هدف ما ، تغذيه إرادة واحدة ، فإنها تغير أشكال علاقاتها الاجتماعية وفعالياتها وتغيّر مواضع وأساليب نشاطاتها ، وتغير أدواتها وأسلحتها بتغير الظروف ووفق متطلبات النضال ـ ذلكم هو التنظيم .

إن الشيء ذاته ، ينطبق على صراع الطبقة العاملة مع البرجوازية . ولكن اليوم لا يوجد وضع ثوري... »

فقاطعه تشوبوف :

ـ ولكن ماذا تعني بـ « الوضع » ؟

فتطلع إليه بونتشوك وكأنه قد أوقظ لتوه ، وجعل يحك جبينه الناتىء ، بعقلة إبهامه ، محاولاً استيعاب السؤال :

ـ قلت : ، ماذا تعني بـ « الوضع » ؟

فقال بونتشوك وقد افتر ثغره عن ابتسامة طفولية ساذجة :

ـ أما معنى الكلمة فأفهمه ، ولكن يصعب عليَ تفسيره...

وكان غريباً أن يند وجهه الكبير العبوس عن هذه البسمة . إذ كانت أشبه بأرنب صغير فضّي مرق عبر حقل خريفي كئيب غسلته الأمطار ، فهو يلعب وينط ويقفز .

ـ الوضع هو الحالة ، هو اجتماع ظروف معينة . هل أنا على صواب ؟

فأتى لستنتسكي بحركة غامضة من رأسه وقال : « واصل قراءتك » .

« ولكن اليوم لا يوجد وضع ثوري ، لأن الظروف التي تحرّك الجماهير أو ترفع من مستوى كفاحها ليست موجودة . أنتم اليوم تعطون ورقة انتخابية ـ خذوها . تعلموا التنظيم كي تستطيعوا أن تستخدموه كسلاح ضد أعدائكم لا كوسيلة للحصول على وظائف برلمانية هانئة لمن يتشبثون بمقاعدهم خشية الذهاب إلى السجن . وغداً ستؤخذ منكم الورقة الانتخابية ، وسوف تعطون بندقية ومدفعاً سريع الاطلاق صنع وفق آخر ما توصّل إليه الفن الهندسي ـ خذوا هذا السلاح الذي أعد للموت والدمار ، ولا تكترثوا بالعاطفيين المتباكين الذين يخافون الحرب ، فهناك في العالم بقايا كثيرة يجب أن يأتي عليها الحديد والنار كيما يتم تحرير الطبقة العاملة ، وإذا ما تنامى الحقد واليأس عند الجماهير وعندما يحل وضع ثوري ، استعدوا لإيجاد تنظيم جديد واستعملوا هذه الأسلحة الصالحة للموت والدمار ضد حكومتكم وبرجوازيتكم... » .

وقوطع بونتشوك بطرق على الباب ودخول رئيس عرفاء السرية الخامسة :

ـ يا صاحب السعادة ، ـ والتفت إلى كالميكوف وأردف :

ـ هناك مراسل من قيادة الكتيبة .

فارتدى كالميكوف وتشوبوف معطفيهما وخرجا . وجلس ميركولوف يرسم وهو يصفر ، وواصل لستنتسكي سيره ذهاباً وإياباً في الحفيره ، وهو يعبث بشاربه بأصابعه ، مستغرقاً في تفكير عميق . وبعد قليل خرج بونتشوك مودّعاً هو الآخر وشقّ طريقه خلل وحل الخنادق الزلق ، وقد أمسكت يسراه بطرفي ياقته سويّة ويمناه تشد المعطف إلى الأسفل ، وكانت الريح تعصف خلل الخندق الضيق عابثة بالرفوف ، عازفة مدوية ، وفي ظلام دامس اكتسى وجهه بابتسامة غامضه ، وعندما بلغ حفيرته كان قد تبلل بالمطر ثانية ، وتشبّع برائحة أوراق الحور المتفسخة . كان آمر مفرزة الرشاشات نائماً ، ولمّا يزل وجهه الأسمر ذو الشوارب السوداء يحمل آثار ثلاث ليال قضاها بلا نوم يلعب الورق . فراح بونتشوك يفتش في حقيبته التي احتفظ بها منذ كان جندياً ، وجمع كومة من الأوراق قرب الباب ، ثم أضرم فيها النار ، ووضع علبتي لحم مقدد وبضع حفنات من طلقات المسدس في جيبه ، ثم خرج ثانية . وتسللت الريح من الباب الذي يفتح بين لحظة وأخرى ، فنثرت رماد الأوراق المحترقة ، وأطفأت المصباح المدخّن .

بعد رحيل بونتشوك ظل لستنتسكي يتخطى ذهاباً وإياباً بعض الوقت صامتاً لايرين ، ثم مضى صوب الطاولة . كان ميركولوف لما يزل يرسم محنياً رأسه إلى جانب ، ومن تحت رأس قلمه المبريّ الذي رسم ظلالاً خفيفة كان وجه بونتشوك يبدو محدّقاً من على الورقة المربعة البيضاء ، وهو يكتسي ابتسامته الجافة المعهودة .

فعلق ميركولوف مبعداً عنه يده الممسكة بالرسم وهو يلتفت إلى لستنتسكي :

ـ لديه وجه شخصية قوية!

فسأله يفغيني :

ـ حسناً ، مارأيك ؟

فأجاب ميركولوف وقد فطن إلى دلالة السؤال :

ـ الشيطان يدري! إنه شاب غريب . لقد أفصح الآن عن خبيئته كلياً ، في حين لم أكن أعرف قبل ذلك كيف أستجلي كنه لغزه . إنه ليتمتع بشعبية واسعة بين القوزاق ، ولا سيما بين رماة الرشاشات . هل لاحظت ذلك ؟

فأجابه لستنتسكي بصورة مبهمة بعض الشيء :

ـ نـ... نعم .

ـ إن رماة الرشاشات بلاشفة عن بكرة أبيهم . لقد أفلح في كسبهم . ما في ذلك شك . وقد دهشتُ لأنه كشف عن أوراقه اليوم . ترى فيم فعل ذلك ؟ والله ، قال هذا الكلام عمداً! فهو يدري أنه ليس بيننا من يشاطره أفكاره ، ولكنه مع هذا أوقع نفسه بلسانه بمثل هذه السهولة ، ليس هو من سريعي التهيج ، ومع ذلك فإنه رجل خطر .

وأبعد مير كولوف عنه صورة بونتشوك ، وطفق ينزع ملابسه وهو ما يزال يفكر في تصرف بونتشوك الغريب . وعلق جوربيه الرطبين فوق الموقد ، وملأ ساعته ، ثم استلقى بعد أن دخن سيكارة . وسرعان ما أخذته سنة من النوم . وجلس لستنتسكي على المقعد الذي أخلاه ميركولوف قبل ربع ساعة ، وعلى الصفحة الأخرى من صورة بونتشوك كتب بخط واسع وهو يحطم رأس قلمه المبريّ :

« يا صاحب السعادة ،

لقد ثبتتْ الآن تماماً الشكوك التي أبلغتها إليكم من قبل . ففي حديث جرى اليوم مع ضابط كتيبتنا « كان حاضراً فيما عداي ، الرئيس كالميكوف والملازم تشوبوف من الفصيل الخامس ، والرئيس ميركولوف من الفصيل الثالث » أفصح نائب الضابط بونتشوك ، لأسباب يجب أن أعترف أنني لا

أدركها تماماً ، عن مهماته التي ينفذها وفق معتقداته السياسية ، وحسب تعليمات حزبه على مايبدو ، وقد كان معه عدد من المنشورات الممنوعة . وتلا علينا ، على سبيل المثال ، اقتباساً من صحيفة «الشيوعي» الممنوعة والتي تطبع في جنيف . يتضح من ذلك أن نائب الضابط بونتشوك يمارس نشاطاً سرياً في كتيبتنا (الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنه التحق بكتيبتنا متطوعاً لهذا السبب) وقد كان رماة الرشاشات أول هدف له . لقد أثبط عزائمهم . وصار نفوذه الخطر على معنوية الكتيبة واضحاً للعيان ، فقد حصلت حالات من التمرد على الأوامر ، كما سبق وأخبرت الشعبة الخاصة بذلك .

وقد عاد فوراً من إجازته (في بتروغراد) حاملاً معه كمية كبيرة من النشرات الهدامة . وهو الآن يثابر من أجل أن يواصل عمله بنشاط مضاعف .

وعلى ضوء ما أوردته آنفاً فقد توصلت إلى ما يأتي : ١ ـ إن جرم نائب الضابط بونتشوك قد ثبت كلياً (وسوف يدعم الضباط الذين حضروا النقاش ، كلامي مقسمين) ؛ ٢ ـ بغية وقف نشاطه الثوري ، لا بد من القاء القبض عليه في الحال وإحالته إلى محكمة الميدان العسكرية ؛ ٣ ـ يجب حل مفرزة رماة الرشاشات في الحال ، فيطرد الخطرون ويرسل الآخرون إلى المؤخرة أو يوزعون على الكتائب الآخرى .

«اسمحوا لي أن أؤكد لكم رغبتي المخلصة في خدمة بلادي والملكية . لقد أرسلت نسخة من هذه الرسالة إلى س . كورب» .

الرئيس يفغيني لستنتسكي
قطاع رقم ٧ ، ٢٠ تشرين الأول ، ١٩١٦

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي أرسل لستنتسكي تقريره بواسطة أحد المراسلين إلى قيادة الفرقة ، وخرج بعد الفطور من الحفيرة . وخلف متراس الخندق الزلق خيم ضباب خفيف فوق المستنقع ، وقد تدلى كالخرق العالقة

بالأسلاك الشائكة . وكانت قاع الخندق تعلوها طبقة من الوحل يبلغ سمكها زهاء البوصة . وكان ثمة مسارب بنية تقطر من فتح المتراس . وكان القوزاق بمعاطفهم المبللة والملطخة بالطين يغلون قدور الشاي على صفيحة مقتطعة من المدافع ، وقد قرفصوا على أعقابهم يدخنون ، وأسندوا بنادقهم إلى جدران الخندق .

وصرخ لستنتسكي بحقد فيما هو يقترب من أول مجموعة من القوزاق الجالسين حول النار الخانقة :

ـ كم مرة أبلغتم بعدم إشعال النار على الصفيحة ؟ ألا تفهمون ، أيها الخنازير ؟

فنهض اثنان منهم كرهاً ، وبقي الآخرون جالسين يدخنون ، وقد التأمت أذيال معاطفهم تحتهم . وأجاب قوزاقي أسمر ملتحٍ تدلى قرط فضّي من أذنه ، فيما هو يلقي بقبضة من الحطب القشاش تحت القدر :

ـ يسرنا أن نستغني عن الصفيحة . ولكن كيف يتسنى لنا أن نشعل النار بدونها ، ياصاحب السعادة ؟ انظر كم من الماء والوحل هنا!

ـ اسحب تلك الصفيحة حالاً!

فتساءل قوزاقي ذو وجه عريض مجدور ، متجهماً دون أن ينظر إلى الضابط :

ـ ماذا ، هل علينا أن نبقى هنا جائعين ؟ أهكذا يكون الأمر ؟

ـ قلت لكم اسحبوا تلك الصفيحة! ـ وركل يفغيني بمقدمة حذائه الحطب القشاش المشتعل من تحت القدر .

فسكب القوزاقي الملتحي ذو القرط الفضي الماء الحار من القدر ودمدم وهو يبتسم بغضب وارتباك :

ـ لقد تناولنا شاينا أيها الأولاد...

وحملق القوزاق بصمت في ظل الرئيس بعد أن ابتعد عنهم . وتقادح الشرر في عيني القوزاقي الملتحي :

ـ أساءنا ، ابن الكلبة!

وأطلق قوزاقي آخر آهة طويلة ثم علق بندقيته على كتفه .

ولحق ميركولوف بلستنتسكي في القطاع الذي يشغله الرعيل الرابع . جاء يلهث بشدة ، وسترته الجديدة المصنوعة من الجلد تخشخش ، وكان نفسه يفوح برائحة التبغ المحلّي . انتحى بيفغيني جانباً وقال على عجل :

ـ هل بلغك الخبر ؟ لقد فرّ بونتشوك الليلة الماضية .

ـ بونتشوك ؟ ما... ذا ؟

ـ فرّ... هل فهمت ؟ لقد أخبرني قائد مفرزة رماة الرشاشات الذي يشاركه حفيرته بأنه لم يعد مذ غادرنا . لابد أنه ذهب في سبيله حالما غادر حفيرتنا . هذا هو الأمر .

وقف لستنتسكي يمسح نظارتيه طويلاً وهو يضيّق عينيه .

فقال ميركولوف وهو يحدق في وجهه مستفهماً :

ـ يبدو أنك مضطرب بعض الشيء ؟

ـ أنا ؟ هل فقدت صوابك ؟ علام أضطرب ؟ لقد فوجئت بالنبأ ليس إلاّ .

٢

في صباح اليوم التالي جاء رئيس العرفاء إلى ملجأ لستنتسكي وقد بدا على محياه قلق وارتباك ، وأخبره بعد كثير من الهمهمة والهأهأة :

ـ يا صاحب السعادة ، لقد وجد القوزاق ، صباح اليوم ، هذه الأوراق في الخنادق . إنه لأمر محرج بعض الشيء... فرأيت من الأفضل أن أرفع الأمر إليك... وإلا فقد نقع في ورطة...

فسأله لستنتسكي وهو ينهض من على سريره :

ـ أية أوراق ؟

فأعطاه رئيس العرفاء بضعة مناشير مدعوكة مطبوعة على ورقة رخيصة

بالآلة الطابعة بأحرف مقروءة واضحة . وقرأ لستنتسكي دفعة واحدة :

ياعمال العالم ، ا تحدوا!

أيها الرفاق الجنود ،

عامان مرا على هذه الحرب اللعينة . عامان مرا والعفن يتآكلكم دفاعاً عن مصالح الآخرين . عامان مرا ودماء عمال وفلاحي جميع البلدان تراق . مئات الألوف من القتلى والجرحى ، مئات الألوف من الأرامل واليتامى - تلك هي حصيلة هذه المجزرة . من أجل من تحاربون ؟ عن أية مصالح تدافعون ؟ لقد أرسلت الحكومة القيصرية ملايين الجنود إلى خط النار لكي تستولي على بلاد جديدة ، وتضطهد شعوب تلك البلاد كما يُضطهد فعلاً البولنديون المضطهدون وأبناء القوميات الأخرى .

إن صناعيي العالم لايستطيعون أن يتقاسموا الأسواق التي يصرفون فيها إنتاج معاملهم ومصانعهم بصورة سلمية ، أن يتقاسموا الأرباح ، إنما يفعلون ذلك عن طريق الحروب ، أما أنتم ، معشر القوم الجهلة فتلاقون حتفكم في الصراع من أجل مصالحهم ، وتقتلون الكادحين أمثالكم .

كفى سفكاً لدماء إخوانكم! استيقظوا أيها الكادحون! ليس عدوكم الجندي الألماني أو النمساوي الذي أعموا بصيرته مثلكم ، إنه قيصركم ، والصناعيون والملاكون في بلادكم . أديروا بنادقكم إليهم . تآخوا مع الجنود الألمان والنمساويين . مدوا أيديكم إلى بعضكم البعض عبر الأسلاك الشائكة التي تفصل فيما بينكم كالسوائم . أنتم أخوة في العمل ، ولما تزل آثار الكدح الدامية في أيديكم ، ليس لديكم ما تتقاسمونه . تسقط الأوتوقراطية! تسقط الحرب الاستعمارية! تحيا وحدة الكادحين في العالم أجمع!

قرأ لستنتسكي السطور الأخيرة لاهثاً . وقال في دخيلته وقد استبد به حقد أعمى وانثالت عليه الهواجس :«لقد بدأت الآن! » وأبلغ آمر الكتيبة

بالخبر في الحال بواسطة التلفون ، قائلاً له :

ـ بماذا تأمرون في هذا الخصوص ياصاحب السعادة ؟

ـ اصطحب معك رئيس العرفاء وضباط الرعائل وأجر تفتيشاً واسعاً في الحال . فتش كل واحد . ولا تستثن الضباط . وسوف أسأل قيادة الفرقة اليوم عن موعد سحب الكتيبة . اتصل بي في الحال عندما تعثر على شيء أثناء التفتيش .

ـ أعتقد أن رماة الرشاشات هم الذين قاموا بذلك .

ـ هل ترى ذلك ؟ سآمر القائد في الحال ليقوم بتفتيش القوزاق . مع السلامة!

وجمع لستنتسكي ضباط الرعائل في حفيرته ، وأخبرهم بأمر قائد الكتيبة . فهتف ميركولوف مغتاظاً :

ـ يا للفظاعة! هل يتعين علينا أن يفتّش بعضنا بعضاً ؟

وبادر ملازم شاب قائلاً :

ـ دورك أولاً يا لستنتسكي .

ـ كلا ، سنختار برمي النرد .

ـ بل حسب الحروف الأبجدية .

فقاطعهم لستنتسكي :

ـ دعوا المزاح جانباً أيها السادة . لاشك أن العجوز قد تجاوز الحد ، إن ضباط كتيبتنا هم بمثل إخلاص زوجة يوليوس قيصر . ولم يكن بيننا سوى نائب الضابط بونتشوك ، وقد فرّ . ولكن يجب أن نفتش القوزاق ، فليحضر أحدكم رئيس العرفاء .

ودخل رئيس العرفاء ، وهو قوزاقي كهل يحمل ثلاثة من أوسمة القديس غيورغي . وتنحنح وراح يجيل بصره بين الضباط .

فسأله يفغيني :

ـ من هي العناصر المشبوهه في السرية ؟ من تعتقد أن من الممكن أن يوزع هذه المناشير ؟

فأجاب الرجل بثقة :

ـ لا أحد في سريتنا ، ياصاحب السعادة .

ـ ولكن المناشير وجدت في قطاعنا . هل كان أحد رجال السرايا الأخرى في خنادقنا ؟

ـ كلا ، ياسيدي .

ـ فقال ميركولوف وهو يلوح بيده ويستدير نحو الباب :

ـ سنذهب ونفتش الجميع دون استثناء .

وبدأ التفتيش . كانت وجوه القوزاق تفصح عن كل ألوان الهواجس . فقد كان بعضهم مقطباً من شدة دهشتهم ، ونظر الآخرون بتوجس إلى الضباط ، في حين ضحك الآخرون عندما كان الضباط ينقبون في حاجياتهم البائسة .

وعلق عريف بادي الذكاء :

ـ عم تبحثون ؟ هل نشل شيء ما ؟ ربما رأيناه في مكان ما .

وكاد التفتيش أن لا يسفر عن نتيجة ، لولا أنهم عثروا على نسخة مدعوكة من المنشور في جيب واحد من القوزاق للسرية الأولى ، فسأله ميركولوف وفي عينيه خوف ساخر :

ـ هل قرأته ؟

فابتسم القوزاقي دون أن يرفع عينيه المسبلتين وقال :

ـ التقطته للف السجاير .

فصرخ لستنتسكي بهياج :

ـ علام تكشّر عن أسنانك ؟ ـ وخطا نحو الرجل وقد استحال لونه أزرق . وطرفت أهدابه الذهبية القصيرة بعصبية تحت نظارتيه .

ولاح الجد على وجه القوزاقي ، وتلاشت البسمة وكأن ريحاً قد بددتها . وتكلم الرجل بلهجة عالية أليمة ، غضوب بعض الشيء :

ـ اسمح لي ، يا صاحب السعادة . فأنا لا أكاد أعرف القراءة . لقد

التقطته لأنني لا أملك ورقاً للسكائر . التبغ موجود ، ولكن الورقة انتهت . وقد وجدت هذا ملقى ، ولهذا التقطته .

فبصق لستنتسكي ومضى لسبيله ، وتبعه بقية الضباط .

وفي اليوم التالي سحبت الكتيبة وعسكرت على بعد عشرة فراسخ خلف خط الجبهة . وأوقف اثنان من مفرزة رماة الرشاشات وأحيلا إلى المحكمة العسكرية ، ونقل آخرون إلى الكتائب الاحتياطية ، وأرسل البعض إلى الكتائب الأخرى التابعة للفرقة القوزاقية الثانية . وبعد استراحة دامت بضعة أيام أخذت الكتيبة تمارس حياة منظمة نسبياً . فاغتسل القوزاق ونظفوا أنفسهم جيداً ، بل طفقوا يحلقون ، دون أن يلجؤوا إلى الطريقة التي دأبوا عليها في الخنادق . وهي أن يحرقوا لحاهم بالنار ، وعندما يبدأ اللهب يحرق وجوههم ، يضعون عليها منشفة مبللة ويمسحون الشعر المحترق . وقد سميت هذه الطريقة « كي الخنازير » منذ أن سأل حلاق الجيش أحد زبائنه : « هل أكويك كي الخنازير ، أم بطريقة أخرى ؟ » .

وأخلدت الكتيبة إلى الراحة ، ولاح على القوزاق مرح وانشراح ظاهريان . غير أن لستنتسكي والضباط الآخرين كانوا يعلمون أن هذا المزاج لم يكن سوى نزوة سطحية زائلة ، كيوم صحو في تشرين الثاني . فما إن كانت تسري أية شائعة حول العودة إلى الجبهة حتى تتغير الملامح ، ويبلغ التذمر والتوتر ، والمشاكسة أقصاها . وقد تسرب إليهم السأم والتوتر المميتان فخلفا لديهم حالة من التبلد والتحلل . ولكن لستنتسكي أدرك جيداً كيف يكون المرء فظيعاً عندما يسعى من أجل غاية وقد استبد به مثل هذا الشعور .

ففي عام ١٩١٥ شاهد سرية من الجنود ترسل خمس مرات إلى القتال ، وبالرغم من أنهم تكبدوا خسائر مريعة فقد كانوا يتلقون المرة تلو الأخرى الأوامر لاستئناف الهجوم . وأخيراً انسحبت فلول السرية من القطاع اعتباطاً ومضت شطر المؤخرة . وقد أمرت سرية لستنتسكي بإيقافها ، ولكن عندما

انتشر القوزاق في سلسلة بغية إيقاف الحركة ، أطلق هؤلاء الجنود النار ، ولم يكن قد تبقى منهم سوى ستين شخصاً . وقد لاحظ لستنتسكي الشجاعة اليائسة الطائشة التي أبداها هؤلاء الستون في الذود عن أنفسهم ، عندما أسقط في يدهم ووقعوا تحت طائلة سيوف القوزاق ، وهم يواجهون الموت ، والفناء ، آخذين في الحسبان أن الموت واحد مهما تعددت أسبابه .

وإذ جالت بذهن لستنتسكي ذكرى هذا الحادث المريع ، راح يدرس بلهفة وجوه القوزاق من جديد ، متفكراً فيما إذا كانوا سينقلبون هم أيضاً ، على أعقابهم ، ويتراجعون ، خشية الموت ليس إلا ، وعندما رأى إلى نظراتهم النكدة التعبى أقر في دخيلته أنهم لا ريب فاعلون .

ولقد تغير القوزاق بصورة جذرية منذ الأيام الأولى للحرب . حتى أغانيهم تغيرت وباتت من نمط جديد ، لقد ولدت مع الحرب ، لتعبر عن أسى قاتم .

وكان إذا مر في الأماسي بسقيفة المصنع الفسيحة التي كانت سريته تعسكر فيها ، فما أكثر ما يستمع إلى أغنية حزينة لهفى إلى حد لا يوصف . كانت تغنيها ثلاثة أو أربعة أصوات . وفوق هذه الأصوات العميقة كان يرتفع تينور جميل وهو يتزايد قوةً ويرتعش ويرن بنبرته الصافية والنادرة .

ويقف لستنتسكي ليرهف السمع ، فلشد ما يهزه حزن الأغنية البسيط ، لكأن في قلبه وتراً يتجاوب مع ضرباته المتزايدة ، وكانت نبرة الصوت الخفيضة تجس الوتر ، فترسل فيه ذبذبة أليمة . ويقف لستنتسكي على مبعدة قليلة ، يرنو إلى وهج المساء الخريفي ، ويحس بالدموع تندي عينه .

ولم يسمع لستنتسكي طوال الوقت الذي استراحت فيه الكتيبةكلمات قوية منفعلة لأغنية قوزاقية قديمة سوى مرة واحدة . كان عائداً فيها من نزهته المسائية المعتادة ، وفيما كان ماراً بالسقيفة بلغ سمعه ضحك صخاب وأصوات أنصاف سكارى . فقدر أن عريف الإعاشة الذي أرسل إلى القرية لإحضار الأرزاق ، جاء ببعض العرق المصنوع في البيت وأولم القوزاق . هاهم الآن

يتشاجرون ويصخبون لأمر أو لآخر . وسمع صفيرهم الحاد الوحشي ولحن الأغنية القوي وهو مايزال بعيداً عنهم بعض الشيء .

ثم دوى إلى الأعلى صفير راعش مديد ، وسرعان ما طمسه هدير ما لا يقل عن ثلاثين صوتاً .

ولا بد أن أحد الشبان كان يرقص على الألواح الخشبية ويطلق صفيراً متقطعاً يصم الآذان ، وقد طغى الغناء على إيقاع كعبيه .

وابتسم لستنتسكي رغماً عنه ، وحاول أن يتجاوب بخطوه مع إيقاع الأغنية . « لا أظن أن المشاة يحنون إلى بيوتهم مثل حنين القوزاق » ، ولكن المنطق أكد له أن المشاة لا يختلفون عنهم في شيء . ومع هذا فإن الإقامة الإجبارية في الخنادق كانت أكثر إيلاماً للقوزاق ، لأن طبيعة عملهم في الخدمة عودتهم على الحركة الدائبة . ولكنهم زجوا طوال عامين في ترقب الوقت في محاولات عقيمة من أجل الزحف . وكان الجيش أضعف من أي وقت مضى . إن ما يحتاج إليه هو يد قوية ، ونجاح مدوّ ، وخطوة كبيرة إلى الأمام من شأنها أن تبعث فيه الحركة . ولا شك أن ثمة مراحل في التاريخ ، مراحل من الحرب الطويلة الأمد ، تتخاذل فيها معنوية أكثر الجنود نظاماً وولاءً . وحتى سوفوروف مرّ بالتجربة... بيد أن القوزاق يثبتون ، وحتى لو أصابهم الوهن ، فسيكونون آخر من يفعل ذلك... إنهم أمة صغيرة بحد ذاتها ، هواة حرب بحكم العادة ، وليسوا من رعاع العمال أو الفلاحين .

وكأنما كان المقصود عدم خداعه ، فقد بدأ الصوت المجهد ينشد أغنية ثانية . فتلقفها القوزاق الآخرون ، ومرة أخرى سمع لستنتسكي حنين القوزاق ينصبّ غناءً :

الضابط الشاب يبتهل إلى الله .

والقوزاقي الشاب يرجوه العودة إلى أهله :

« أوه ، أيها الضابط الشاب ،

دعني أذهب إلى أهلي ،

دعني أذهب إلى أهلي ،
إلى أبي ،
إلى أبي وأمي ،
إلى أبي وأمي ،
وإلى زوجتي الفتية » .

* * *

بلغ بونتشوك مدينة تجارية كبيرة تقع في منطقة خط الجبهة ، في مساء اليوم الرابع بعد فراره من الجبهة . كانت الأضواء تسطع من النوافذ . وكان الزمهرير قد كسا البرك بطبقة رقيقة من الجليد ، وبين حين وآخر يسمع خطو السابلة من بعيد . وكان بونتشوك ينصت بانتباه وهو يتلمس طريقه خلال الشوارع الخلفية ، متحاشياً الشوارع العامة المضاءة . وعند دخوله المدينة كاد أن يلتقي دورية ، ولذلك مضى في سبيله بحذر الذئب ، يمشي لصق الأسيجة ، وقد وضع يده اليمنى في جيب معطفه المتسخ إلى درجة لاتصدّق ـ ذلك أنه أمضى النهار دافناً نفسه في كومة من القش .

وكانت ثمة قاعدة عسكرية مرابطة في المدينة ، قد عسكرت هناك عدة وحدات ، ولذلك لم يرفع بونتشوك قبضته عن العقب المدبب لمسدسه الذي كان يحمله في جيب معطفه ، لعلمه أنه معرّض على الدوام لخطر مصادفة دورية .

وفي الطرف الآخر من المدينة أخذ بونتشوك يتخطى جيئة وذهاباً في شارع جانبي مهجور ، ويتفحص المداخل ويدرس معالم كل الدور الحقيرة . وبعد حوالي العشرين دقيقة دنا من بيت صغير وضيع في أحد الأركان ، وعاين من خصاص الصفاقتين ، ثم فتح البوابة بعزم وهو يبتسم مع نفسه . وكانت قد أجابت على طرقته امرأة كهلة تلتفع بشال :

ـ هل يسكن بوريس إيفانوفيتش هنا ؟
ـ نعم ، تفضّل بالدخول .

ـ فدخل بونتشوك إلى المجاز ماراً بها . وصرّ المزلاج خلفه بهدوء .
كان ثمة رجل كهل يرتدي ملابس عسكرية جالساً أمام طاولة في غرفة خفيضة السقف ينيرها مصباح زيتي صغير .

قلص العسكري عينيه ، وهو يمعن النظر في بونتشوك . فنهض وبسط ذراعيه له بسرور مكتوم :

ـ من أين جئت ؟

ـ من الجبهة .

ـ بالله ؟

وتردد بونتشوك ، ثم ابتسم ، وقال برقة وهو يجس بطرف اصبعه النطاق العسكري للرجل :

ـ هل لديك غرفة ؟

ـ أجل ، بكل تأكيد . تعال هنا .

وقاد بونتشوك إلى غرفة أصغر من غرفته ، وقدم له كرسياً في العتمة ، وأسدل الستار على النافذة بعد أن أغلق الباب المؤدي إلى الغرفة الأخرى وقال :

ـ هل انتهيت ؟

ـ نعم .

ـ كيف الأمور هناك ؟

ـ كل شيء جاهز .

ـ جماعة يعتمد عليهم ؟

ـ جداً .

الأفضل أن تخلع عنك أشياءك ، ثم نواصل حديثنا .

أعطني معطفك . وسآتي لك بشيء لتغتسل به .

وبينما كان بونتشوك يغتسل فوق طست نحاسي مخضوضر ، مسد الرجل ذو البزة الرسمية على شعره القصير وراح يتكلم بصوت هادىء مكدود :

ـ إنهم أقوى منا بكثير في الوقت الحالي . ينبغي لقوانا أن تنمو ، ونبسط نفوذنا ، ونعمل دونما توقف موضحين الأسباب الحقيقية للحرب . إن قوانا تنمو والحق يقال . إن كل ما يخسرونه ينتقل إلينا حتماً . فبديهي أن الرجل الراشد أقوى من الصبي ، بيد أنه عندما يشيخ ويترهل جسمه يستطيع الفتى أن يتغلب عليه بسهوله . ولكننا لا نجابه ترهّل الشيخوخة فحسب ، بل الشلل المستشري في الجسم بكامله .

ولما فرغ بونتشوك من الاغتسال ، قال وهو يمسح وجهه بمنشفة خشنة :

ـ قبل أن أترك الجيش ، كشفت النقاب عن معتقداتي للضباط . كان ذلك أدعى إلى الهزل كما ترى... ولكنهم سيهزون رماة الرشاشات بكل تأكيد ، ولعل واحداً أو اثنين من الأولاد سيحالان إلى المحكمة العسكرية ، بيد أنه ليس هناك دليل ، فماذا عساهم أن يقولوا ؟ آمل أن يفرقوهم بين وحدات مختلفة ، فلسوف يكون ذلك في مصلحتنا ، دعهم يبذروا البذرة لنا . إن لنا أصحاباً طيبين بينهم ، أشداء مثل حجر الصوان!

ـ لقد تسلمت رسالة من ستيبان . يطلب فيها من له إلمام بالقضايا العسكرية . ستذهب أنت ، ولكن ماذا عن الأوراق الشخصية ؟ هل ستتدبر أمرها ؟

فسأله بونتشوك : ـ في أية مهمة ؟ ـ ووقف على طرف أصابعه ليعلق المنشفة على المسمار .

ـ تدرب فتياننا ، ـ ابتسم مضيفه وأردف ـ ألا تكبر إطلاقاً ؟

فأجابه بونتشوك :

ـ لا حاجة . ولا سيما بالنسبة لرجل في وضعي . يجب علي أن أكون بحجم السنفه* كيلا يراني أحد .

---

* السنفة : قشر وعاء بعض النباتات كالبازلاء والفول وغير ذلك .

ولبثا يتحدثان حتى انبلج الصبح في المشرق . وفي اليوم التالي ، ترك بونتشوك المدينة صوب المحطة ، وكانت ملامحه قد تغيرت بحيث لم يعد التعرف عليه يسيراً بفضل الملابس الجديدة والتنكّر ، وقد تزوّد بمجموعة من الوثائق تحمل اسم الجندي نيقولاي أوخفاتوف من كتيبة أورشانسكي رقم ٤٤١ ، الذي سرح من الجيش بعد أن أصيب بجرح في صدره .

٣

كان « الجيش الخاص » يسيطر على المنطقة الواقعة بين فلاديمير ـ فولينسكي وكوفل . (كان « الجيش الخاص » يحمل في الواقع رقم١٣ ، ولكن حتى الجنرالات ذوي الرتب العالية كانوا يتطيرون من هذا الرقم ، ولهذا سمي بـ« الجيش الخاص ») . وفي أواخر أيلول ، عام ١٩١٦ ، أعدت الخطط والموقعة المناسبة للزحف في هذه المنطقة بالقرب من قرية سفينوخي ، ومهد الطريق بعمليات المدفعية .

وقد حشدت قوى كبيرة لا تعد ولا تحصى من المدفعية في هذه المنطقة . وطوال تسعة أيام ظلت مئات الآلاف من القنابل من مختلف العيارات تدك المنطقة التي يحميها خطان من الخنادق الألمانية . وعندما اشتد رمي القنابل منذ اليوم الأول للقصف ، انسحب الألمان من خطهم الأول ، دون أن يتركوا أحداً وراءهم خلا الراصدين . وبعد بضعة أيام تخلوا عن خطهم الثاني وتراجعوا إلى خط ثالث .

وفي اليوم العاشر بدأت وحدات من فيلق رماة البنادق التركستاني بالتقدم . كانوا يطبقون الطريقة الفرنسية في الهجوم على شكل موجات . لقد انطلقت ست عشرة موجة من الخنادق الروسية . كان المد الرمادي للجموع البشرية يتدفق إلى الأمام مدوماً متقلصاً ، يموج حول تلال شاحبة من حطام الأسلاك الشائكة الفظيعة . ومن الجانب الألماني ، خلف جذوع أشجار الحور

المتفحمة وكثبان الرمال المحدودبة ، كان زئير النار المستمر ينطلق مدوياً لهاباً . وبين حين وآخر يسمع هدير مدافع بطارية خلل الطنين ، ثم يغرق كل شيء في موجة عارمة من الضجيج ، ترافقها لعلعة طامسة ، إنما عنيفة ، من نيران الرشاشات الالمانية .

ـ غوغوغو ـ و ـ و ـ... غوك! غاك! بو ـ و ـ و ـ !

ـ ترا ـ ا ـ ا ـ ررا ـ تا ـ تا ـ تا ـ! ـ اطلقت أصوات الرشاشات الألمانية الرهيبة المجنونة .

وفي منطقة عرضها فرسخ ، جلدت الأرض الرملية الشوهاء بزوابع سود من الانفجارات ، واندفعت الأمواج المغيرة ، مزبدة ، منطلقة من حفائر القنابل ، زاحفة إلى الأمام .

وأسرع فأسرع كانت تتدفق داكنة شظايا القنابل المتفجرة ، وكان المثار الأسود للقنابل المتفجرة يتطاير باستمرار على شكل دفقات ، وتلفح نيران الرشاشات الأرض لفحاً متعاظماً . وكانت الرعائل المغيرة تُحصد حتى قبل أن تبلغ الأسلاك . ولم تصل إلى الموانع سوى الموجات الثلاث الأخيرة من مجموع ست عشرة ، ولم يكادوا يبلغوا الحواجز المقامة من الاسلاك الملفوفة والأعمدة المسفوعة حتى اصطدموا بها وانكفؤوا إلى الوراء زرافات ووحداناً .

لقد أزهقت أرواح ما ينوف على تسعة آلاف نسمة في ذلك اليوم على التربة الرملية الكالحة قرب قرية سفينوخي .

ثم استؤنف الهجوم بعد ساعتين . وتقدمت وحدات من الفرقتين الثانية والثالثة من صنف رماة البنادق التركستاني . وفي الجناح الأيسر اصطفت وحدات من فرقة المشاة الثالثة والخمسين ولواء رماة البنادق السيبيري ٣٠٧ على طول امتداد خنادق المواصلات . ومن الجناح الأيمن تحركت سرايا من فرقة رماة القنابل اليدوية الثالثة .

تسلم آمر الفيلق الثلاثين التابع للجيش الخاص ، الفريق غافريلوف ، أوامر من مقر القيادة تقضي بتحويل فرقتين أخريين إلى منطقة سفينوخا . وفي

المساء سحبت الكتائب التابعة للفرقة الثمانين وهي : تشيمبارسكي ٣٢٠ ، وبوغولما٣١٩ ، وتشيرنويارسك ٣١٨ ، من مواقعها واستعيض عنها بالمشاة اللاتفيين ووحدات جديدة من المتطوعين المحليين . ومع أن العملية جرت في الليل ، فإن إحدى الكتائب كانت قد تحركت بصورة تظاهرية في الليلة الفائتة بالاتجاه المعاكس ، ولم تتسلم الأمر بالرجوع إلا بعد أن قطعت مسافة اثني عشر فرسخاً طوال خط الجبهة . ومن ثم سارت الكتائب في الاتجاه ذاته إنما اتبعت مسالك مختلفة .

وكانت كتيبة تشيرنويارسك الثامنة عشرة بعد الثلاثمائة قد عسكرت في مدينة صغيرة تقع على نهر ستوخود قبل أن يتم نقلها . وفي الصباح ، بعد المسيرة الأولى ، انتشرت الكتيبة في غابة في حفائر مهجورة ، ولبثت هنا أربعة أيام تتلقى دروساً في الهجوم على الطريقة الفرنسية ، التي تقضي بالتقدّم بأنصاف سرايا بدلاً من الأفواج . وطلب من رماة القنابل اليدوية قطع الأسلاك الشائكة بأقصى ما يستطاع من السرعة وقاموا بتمرينات إضافية في رمي القنابل اليدوية من جديد . ثم استأنفوا مسيرتهم ثانية ، وظلوا يسيرون ثلاثة أيام في الغابات ، خلال ممراتها ، في مسالك الأحراش غير الممهدة التي تحمل آثار عجلات المدافع . وكان ثمة ندف من ضباب خفيف تدفعه الرياح ، يحيط بقمم أشجار الصنوبر ، وينساب خلل الفجوات محوماً كالحدأة فوق خضرة المستنقعات الضاربة إلى الزرقة والمتصاعد منها البخار . وكان المطر يتساقط رذاذاً بلا انقطاع ، فتبلل الرجال كلياً وبرموا . وبعد ثلاثة أيام بلغوا منطقة الهجوم غير البعيدة عن قريتي بوريك الكبيرة والصغيرة ، واستراحوا يوماً ، استعداداً لرحلة الموت .

وفي الوقت ذاته كانت سرية قوزاقية خاصة ترافق أركان حرب الفرقة الثمانين تمضي شطر ساحة المعركة القريبة . وكان من بين جنود هذه السرية قوزاق الاحتياط الثالث من قرية تاتارسكي ، وكان الرعيل الثاني مؤلفاً منهم بصورة كلية ، وكان بينهم أخوا اليكسي شامل ذي الذراع الواحدة ، مارتين

وبروخور ، ومأمور الماكنة السابق إيفان اليكسييفتش ، وأفونكا أوزيروف الأفلج ، والأتمان السابق مانيتسكوف ، وغافريلا ليخوفيدوف ، الذي كان حياة السرية وروحها ، وكثيرون غيرهم . وكان ليخوفيدوف قوزاقياً ذا مظهر فظ اشتهر بتحمله الضربات التي طالما يتلقاها دونما احتجاج من أمه البالغة السبعين من عمرها وزوجته ، وهي امرأة لا تلين لها قناة رغم أنها لاتتمتع بجمال عظيم .

وفي الصباح الباكر من اليوم الثالث من تشرين الأول دخلت السرية قرية بوريك الصغيرة في الوقت الذي كانت السرية الأولى التابعة لكتيبة تشير نويارسك ٣١٨ على أهبة مغادرتها . كان الجنود يخرجون من الأكواخ المهجورة المتداعية مهرولين الواحد إثر الآخر في الشارع .

وكان ثمة نائب عريف شاب أدكن البشرة واقفاً قرب الفصيل الرئيسي . كان يخرج قطعة حلوى من حافظة الخريطة ويزيل عنها الغلاف وسرعان ما تلطخت زوايا شفتيه الورديتين النضرتين بالشوكولاته . وحينما سار بمحاذاة الطابور أخذ معطفه الملطخ بالطين يتأرجح بين ساقيه مثل إلية الخروف . وتقدم القوزاق من الجانب الأيسر من الشارع . وكان إيفان اليكسييفتش ، مأمور الماكنة ، في الصف الجانبي من صفوف الرعيل الثاني . كان يسير وعيناه مسمرتان إلى الأرض ، محاولاً تجنب البرك . فناداه أحدهم من صفوف المشاة ، فأدار رأسه وجال ببصره بين الجنود .

ـ إيفان الكسييفتش! صديقي القديم...

وتخلف جندي قميء عن فصيله وأخذ يركض ركض البطة ، تجاهه ، ملقياً بندقيته من الخلف على كتفه . غير أن الحمالة انزلقت فراح العقب يحتك بصفيحة طعامه .

ـ ألا تعرفني ؟ أتراك نسيتني بمثل هذه السرعة ؟

وبعد لأي عرف إيفان اليكسييفتش الجندي القميء ، الذي غطت حلقه وذقنه لحية خشنة رمادية بلون الدخان ، إنه الولد .

ـ من أين نبعت ؟
ـ هكذا... أنا في الخدمة...
ـ في أي كتيبة ؟
ـ في هذه الكتيبة ، تشيرنوبارسك ٣١٨ . ولم يدر في خلدي أن ألتقي بأحد من أصدقائي القدامى هنا .
وابتسم إيفان اليكسييفتش بسرور ولهفة ، وهو ما يزال يمسك يد الولد الصغيرة القذرة بقبضته الناتئة . وأسرع الولد ليلحق بخطوه السريع ، مشرئباً بنظراته إلى عيني إيفان ، بينما كانت نظرات عينيه الصغيرتين الحانقتين المتقاربتين ندية حنوناً غير متوقعة .
ـ نحن مقبلون على الهجوم .
ـ ونحن كذلك .
ـ حسناً ، كيف تسير معك الأمور يا إيفان الكسييفيتش ؟
ـ ليس ثمة ما يستحق الذكر .
ـ وكذلك بالنسبة لي . فلم أخرج من الخندق منذ عام ١٩١٤ . ولم يكن لدي بيت أو عائلة . ولكن علي أن أقاتل لمصلحة الغير...ولا يعلم الا الله كيف ولماذا...
ــ هل تذكر شتوكمان ؟ لقد كان رجلاً طيباً ، صاحبنا أوسب دافيدوفيتش! لو كان معنا لكشف لنا عن جلية الأمر .
لقد كان رجلاً بحق ، رجلاً عليماً...
وهتف الولد وهو يلوح بقبضته الصغيرة ويجعد وجه الأهلب الصغير بابتسامة :
ـ هل تذكره! إني لأذكره أكثر من أبي نفسه .
إذ لم أكن لأبالي بأبي... أتعلم عن مصيره شيئاً ؟
فتأوه إيفان أليكسييفيتش وقال :
ــ إنه في سيبيريا... أرسلوه للسجن هناك .

فتساءل الولد وهو يتواثب إلى جانب صديقه الطويل تواثب الطائر الصغير ، وقد انتصبت اذنه الثعلبية :

ـ ماذا ؟

ـ هو في السجن . وأغلب ظني أنه في عداد الأموات الآن .

وواصل الولد سيره برهة دون أن ينبس ببنت شفه ، وهو ينظر حيناً إلى الخلف حيث تتجمع سريته ، وحيناً يحدق إلى الأعلى في ذقن إيفان والغمازة المستديرة تحت شفته السفلى تماماً . وقال وهو يخلص يده من يدي إيفان الباردتين :

ـ وداعاً! لا أعتقد أننا سنلتقي مرة ثانية .

ورفع القوزاقي قبعته بيده اليسرى ، وانحنى ، وأحاط كتفي الولد الهزيلين بذراعه ، وقبل أحدهما الآخر بحراره ، وكأنما يفترقان إلى الأبد ، ثم انسحب الولد . وسرعان ما غاص رأسه في صدره ، ولم يظهر سوى أعلى أذنيه الورديتين فوق معطفه الرمادي . وعاد وهو يتعثر بخطاه مطأطئ الهامة .

خرج إيفان أليكسييفتش من الصف ، وجعل ينادي بصوت راعش :

ـ أيها الأخ! ياعزيزي! كنت حانقاً... كنت صلباً ، أليس كذلك! هل تذكر ؟ كنت رجلاً قوياً...إيه ؟

فأدار الولد وجهه المبلل بالدموع الذي شاخ بسببها في الحال ، وضرب بقبضته على صدره الأسمر الهزيل الناتىء من خلال معطفه المفتوح وياقة قميصه الممزقة ، وصاح :

ـ كنت كذلك! كنت شديد البأس! بيد أنهم سحقوني... لقد ساقوا الحصان العجوز إلى الموت!

وهتف بشيء آخر ، بيد أن سرية القوزاق انعطفت إلى شارع جانبي ، ولم يعد إيفان أليكسييفتش يراه .

وسأله بروخور شامل الذي كان يسير خلفه :

ـ كان ذلك الولد ، أليس كذلك ؟

فأجابه إيفان أليكسييفتش باكتئاب وقد ارتعشت شفتاه فيما هو يمد يده إلى حمالة بندقيته .

ـ إنه رجل بحق .

عندما خرج القوزاق من القرية بدأوا يصادفون جرحى ، فرادى وأزواجاً في بادىء الأمر ، فمجاميع ، فحشوداً كاملة .

كانت عدة عربات تزحف ببطء ملأى إلى حد الطفح بمصابين في حالات خطيرة . وكانت الخيل التي تسحب العربات هزيلة هزالاً مريعاً . وكانت ظهورها العجفاء تحمل آثار السياط التي تلفحها باستمرار ، وفي بعض المواضع كانت العظام تلوح خلل الجراح ببقايا الوبر الملتصق بها هنا وهناك . كانت تجر العربات بصعوبة ، وهي تترنح وتنفخ ، وخطومها المزبدة تكاد تلامس الوحل . وبين آونة وأخرى تتوقف إحداها ، فتخفق خاصرتاها الغائرتان في وهن ، ويتدلى رأسها في قنوط . ولكن ضربة السوط كانت تحركها من مكانها ، فتجرجر أقدامها ثانية ، متأرجحة ذات اليمين وذات الشمال . وكان الجرحى متعلقين بالعربات من جميع جهاتها ، يجرجرون أنفسهم طوال الطريق .

سأل آمر السرية جندياً كان يبدو أكثر لطفاً من الآخرين :

ـ من أي كتيبة أنت ؟

ـ من فيلق تركستان ، الفرقة الثالثة .

ـ هل جرحت اليوم ؟

فأشاح الجندي عنه دون أن يجيبه .

وانعطفت السرية القوزاقية عن الطريق ودلفت إلى الغابة القريبة . وكانت سرايا المشاة التابعة لتشرنويارسك ٣١٨ قد تركت القرية ودرجت في أثرها .ومن بعيد ، في السماء الشاحبة العتماء تدلت نقطة رمادية ضاربة إلى الصفرة لمنطاد ألماني .

ـ انظروا ، أيها الأولاد ، ثمة معجزة لكم!

ـ كأنه سجق .

ـ إذا فمن هناك يراقب هذا النغل حركات قطعاتنا .

ـ هل تعتقدون أنه ارتفع إلى هذا العلو لغير ما هدف ؟

ـ واه ، ما أعلاه!

ـ حتى القذيفة لا تبلغه!

ولحقت سرية المشاة الأولى التابعة لتشيرنويارسك بالقوزاق في الغابة . ولبثوا سوية تحت الصنوبر المدرار حتى المساء .

وكان المطر ينفذ إلى ما تحت ياقاتهم ويسيل على ظهورهم ، وقد منعوا من اضرام النار ، وعلى أيه حال كان من المتعذر إشعالها في المطر . وإذا كان الغسق يسدل أستاره اقتيدوا إلى خندق مواصلات يكاد لا يعلو هامة الرجل ، وقد غمرته المياه ، وانبعثت منه رائحة الوحل ومخاريط الصنوبر الندية ورائحة المطر الطرية كالمخمل .

وجلس القوزاق على أعقابهم وقد رفعوا أسافل معاطفهم إلى الأعلى ، وطفقوا يدخنون ويتجاذبون أطراف حديث فاتر كئيب . وتقاسم جنود الرعيل الثاني جعالتهم من التبغ التي تسلموها قبل المسيرة وتجمّعوا سوية حول عريف رعيلهم . وكان هذا جالساً على بكرة أسلاك مهجورة ، يتحدث عن الجنرال كوبيلو فسكي ، الذي قتل يوم الاثنين الأسبق ، حيث كان يخدم في لوائه أيام السلم . ولم يتسن له أن يتم قصته فقد أصدر آمر الرعيل أمراً فهب القوزاق وهم يجرون بشرهٍ من سكائرهم نفساً أخيراً حتى ولو أدى ذلك إلى احتراق أصابعهم . وا قتيدت السرية من الخندق ثانية خلل غابة الصنوبر المعتمة . وواصلوا مسيرتهم محاولين تشجيع بعضهم البعض بحمية . وراح أحدهم يصفر .

ثم بلغوا صفاً طويلاً من الجثث في مسلك صغير . كانت الجثث ممدة كتفاً لكتف ، في أوضاع مختلفة ، معظمها رهيبة ومعيبة . وكان يقف في حراستها جندي متسلح ببندقية وقد تدلى من نطاقه قناع الغاز . وقد هرست

الأرض الرطبة بمئات الأحذية وعجلات العربات . وإذ اقترب القوزاق من الجثث ، بلغتهم رائحة الجيفة المقرفة الثقيلة المنبعثة منها . وأمر القائد السرية بالتوقف ، وذهب مع ضباط الرعيل إلى الجندي ، ووقف يكلمه بعض الوقت . أما القوزاق فقد خرجوا عن الصف وتقدموا نحو الجثث ، رافعين قبعاتهم وهم ينظرون إلى القتلى وقد انتابهم ذلك الشعور الخفي من الرهبة والفضول ، الذي ينتاب كل الأحياء إزاء سر الموت . كانت تلك جثث ضباط ، وقد أحصى القوزاق سبعة وأربعين منهم . كان معظمهم شباناً تتراوح أعمارهم بين العشرين والخامسة والعشرين ، كما تدل عليهم سيماؤهم . ولم يكن بينهم سوى كهل واحدفي أقصى اليمين ، وقد كان يحمل شارة النقيب . وكان فمه فاغراً ينم في أعماقه عن أصداء مكبوتة لصرخته الأخيرة ، وقد تهدل فوق فمه عذاران أسودان كثان ، وتجهم حاجباه العريضان على وجهه الشاحب الذي علاه شحوب الموتى . وكان بعض الموتى يرتدون سترات جلدية ملطخة بالوحل ، في حين كان الآخرون يرتدون المعاطف ، . وكان اثنان منهم أو ثلاثة حاسري الرأس . أمعن القوزاق النظر في جثة أحد الملازمين ، وقد بدا وسيماً حتى بعد موته . كان مستلقياً على ظهره ، وقد ضم يده اليسرى إلى صدره بشدة ، وانبسطت يمناه إلى الخارج وقد أمسكت مسدساً بقبضة أبدية . ويبدو أن أحداً قد حاول انتزاع السلاح من يده ــ فثمة خدش في معصمه الباهت المتين ـ غير أن الحديد كان قد التحم بيده ، وما كان بالوسع فصلهما .

وكانت قبعته قد انداحت إلى الوراء على شعره الكتاني الأجعد . وكان خده لصيقاً بالأرض وكأنه يداعبها ، وشفتاه البرتقاليتان الضاربتان إلى الزرقة مزمومتين بذهول وكآبة . أما الذي كان على يمينه فقد انكفأ على وجهه ، وتكور معطفه على ظهره وقد تمزقت سيوره الخلفية تكشف عن ساقين قويتين متوترتي العضلات ترتديان سروالاً خاكياً وجزمتين قصيرتين من جلد كروم ، وقد مال الكعبان إلى جهة واحدة . كان بلا قبعة ، وقد فقد قحف جمجمته ،

فلقد طوحت به شظية قذيفة وكان ثمة ماء من آثار المطر وردي اللون يسطع في قحف دماغه الفارغ الذي تؤطره بقايا شعر ندي .

وإلى جواره يرقد ضابط بدون وجه ، قصير مكتنز يرتدي سترة جلدية مفتوحة وقمصلة ممزقة . وكان شدقه الأسفل يستقر بشكل شائه على صدره العاري ، وتحت شعر رأسه التمعت بقايا جبينه الضيقة البيضاء وقد احترق جلدها والتف حتى استحال إلى مايشبه الأنابيب الصغيرة . وبين الجبهة والحنك لم يكن ثمة سوى قطع من العظام وهريس ثخين قرمزي حائل إلى السواد .

وخلف هذه تجمعت بلا عناية أوصال أطراف ، وآثار معطف . وساق مهشمة حيث يكون الرأس . ثم يليه شاب فتي ممتلىء الشفتين ذو وجه بيضوي طفولي . اكتسح صدره وابل من رصاص الرشاش ، وكان معطفه مثقوباً من أربعة مواضع ، وقد لاحت آثارالقطن المحترق خلل الثقوب . وهمهم إيفان اليكسييفتش بأسنانه المصطكة :

-«من... من تراه كان ينادي ساعة احتضاره ؟ أمه ؟ » - وابتعد بقوة يتعثر كالأعمى .

عاد القوزاق مسرعين إلى أماكنهم ، وهم يرسمون شارات الصليب ، دون أن يلتفتوا إلى الوراء ، ولاذوا بصمتٍ طويل وهم يتابعون مسيرهم خلال المسالك الضيقة ، متعجلين الابتعاد عن ذكرى ما شاهدوه . وبعد فترة توقفت السرية قرب شبكة كبيرة من الحفائر المهجورة . ودخل الضابط إحدى الحفائر مع رسول رافقهم من كتيبة تشيرنويارسك .

أمسك أفونكا أوزيروف الأفلج بذراع إيفان أليكسييفتش وهمس :

- ذلك الولد... الأخير... أحسب أنّه لم يقبّل فتاة في حياته... ولكنهم قتلوه . هل هذا معقول ؟

فقاطعة زاخار كوروليف :

- ترى أين لاقوا هذا المصير ؟

فقال بورشيف بعد وقفة :

ـ حدث ذلك أثناء الهجوم . أخبرني بذلك الجندي الذي كان بحراسة هذه الجثث .

ووقف الرجال للاستراحة . وخيم الظلام على الغابة . وكانت الريح تسوق الغيوم ، وتمزقها ندفاً فتظهر نجوم تلتمع في البعيد مثل الليلاك .

وأثناء ذلك جمع الآمر الضباط في الحفيرة ، وصرف الرسول ، وفتح الإضمامة على ضوء عقب شمعة ، وقرأ مضمونها :

في فجر الثالث من تشرين الأول استعمل الألمان الغازات الخانقة ضد الفوج الثالث التابع لكتيبة ٢٥٦ واستولوا على الخط الأول من خنادقنا . آمركم بالانتقال الى الخط الثاني من الخنادق ، وبعد الاتصال بالفوج الأول التابع لكتيبة تشيرنوبيارسك ٣١٨ ، خذوا مواضعكم في الخط واستعدوا لشنّ هجوم مضاد على العدو واكتساحه من الخط الأول في هذه الليلة بالذات . وستكون في جناحكم الأيمن سريتان من الفوج الثاني وفوج من كتيبة فاناغوريسك التابعة لفرقة رماة القنابل اليدوية الثالثة .

وراح الضباط يناقشون الموقف ويدخنون . ثم تحركت السرية .

وفيما كان القوزاق يستريحون قرب الحفائر ، سار الفوج الأول من كتيبة تشيرنوبيارسك في المقدمة . وبلغوا الجسر القائم فوق نهر ستوخود . وكانت تحرسه خفيرة قوية من رماة الرشاشات لاحدى كتائب رماة القنابل اليدوية . وشرح رئيس العرفاء الموقف لآمر الفوج وانقسم الفوج إلى عدة سرايا بعد عبور الجسر : ذهبت سريتان شطر اليمين ، وواحدة شطر اليسار ، وبقيت الرابعة احتياطاً .

ثم تقدمت السرايا في خط عريض . وكانت أرض الغابة الخفيفة مخددة بالانفجارات . وراح الرجال يطؤون الأرض حذرين ، ويتحسسونها بأقدامهم ، وبين حين وآخر يسقط أحدهم فيهمس ببعض الشتائم . وكان الولد في أقصى ميمنة السرية ، كان السادس من آخر الطابور الطويل .

واجتازه ضابطان يتحدثان بلهجة خافتة . كان صوت آمر السرية الجهير الرخيم يتشكى قائلاً :

ـ لقد انفتح جرحي القديم من جديد . اللعنة على ذلك النتوء . لقد تعثرت به في الظلام ، فانفجر الجرح ولم أعد أقوى على المسير . أخشى أن أضطر إلى الرجوع .

وتوقف الصوت الجهير لحظة ليعود فيسمع ثانية خفوتاً من بعيد : « خذ أنت قيادة نصف السرية الأول . وسيأخذ بوغدانوف النصف الثاني ، أما أنا...فوالله لا أستطيع المضي . سأضطر إلى الرجوع . »

فتصدى له الملازم الثاني بيليكوف بصوته الصادح الأجش :

ـ من المدهش أن جراحك القديمة تعاود الانفتاح في بدء كل معركة!

فرفع آمر السرية صوته قائلاً :

ـ كيف تجرؤ على قول ذلك يا ملازم ثاني!

ـ أوه ، دعك من هذا . بوسعك الذهاب إذا شئت .

وفيما كان الولد يصغي إلى وقع أقدامه وأقدام الآخرين ، تناهت إليه خشخشة الدغل من خلفه فأدرك أن آمر السرية كان قد اندفع إلى المؤخرة . وبعد دقيقة بلغت سمعه همهمة بيليكوف فيما كان يذهب إلى جناح السرية الأيسر مع رئيس العرفاء :

ـ لقد تنسموا رائحة الخطر ، أولئك الخنازير! وكلما استجد القتال ، انتابهم المرض أو هاجت عليهم جروحهم .

أما أنت ، أيها الملازم الغر فينبغي عليك أن تقوم بمهمة القيادة...

يا لهم من أوباش! ليتني أستطيع... ـ ويسمون أنفسهم جنوداً!...

وتوقفت الأصوات فجأة ولم يسمع الولد سوى بقبقة قدميه وصرخة ترن في أذنيه . وهمس شخص فجأة إلى يساره :

ـ ايه! أيها الجار!

ـ ماذا ؟

ـ هل أنت على ما يرام ؟

فقال الولد :

ـ الحمد لله...

وما لبث أن تعثر وراح يتزحلق إلى الخلف في حفرة قنبلة مليئة بالمياه .

وسمع من في يساره يقول :

ـ الدنيا مظلمة ، عليها اللعنة!

وواصلا السير بعض الوقت ، لايرى أحدهما الآخر ، ثم همس بغتة نفس الصوت ذي الفحيح في أذن الولد تماماً :

ـ فلنذهب سوية . وحينذاك لن يكون الأمر مخيفاً...

وواصلا السير في صمت ، وهما يطآن بجزمتيهما المثقلتين بالماء الأرض الزلقة بحذر . وفجأة بزغ قمر أقرن مبقع من وراء السحب ، يقاوم أمواج الضباب كالقارب ، ثم ظهر في سماء صافية ، فصب سيلاً من الضياء الخافت . والتمعت على ضوئه أبر الصنوبر الندية وأومضت ، وبدا وكأن عبير الزهور المخروطية قد زاد شذاه وأنفاس التربة الندية قد ازدادت برودة .

ألقى الولد نظره على جاره ، الذي توقف فجأة وجعل يهز رأسه كما لو كان أصيب بضربة . وتنفس وقال :

ـ انظر!

كان ثمة رجل يقف تحت شجرة صنوبر على بعد ثلاث خطوات منهما ، وقد باعد بين ساقيه .

ـ رجل! ـ كان الولد هو الذي همس بهذه الكلمة ، أو هكذا خيل إليه على الأقل .

وصرخ رفيقه وهو يتناول بندقيته من على كتفه في الحال :

ـ من هناك ؟ من هناك ؟ سوف أطلق النار!

كان الشبح الواقف تحت الصنوبرة لائذاً بصمت لايرين ، وقد تدلى رأسه جانباً كما تتدلى زهرة عباد الشمس على ساقها .

فقال الولد منتفضاً : ـ إنه نائم!

وتقدم إلى الأمام مجبراً نفسه على الضحك ، وسرت القشعريرة في جسمه .

ومضيا شطر الشبح القائم . وشد الولد قامته وجعل يحملق ، ثم وخز زميله الشبح الرمادي الجامد بأخمص بندقيته . وقال مازحاً :

ـ أنت ، يا صبي! أخذتك سنة من النوم ، يا صاحبي ؟ يا خُشاش!

وتوقف ثم صرخ ثم تراجع إلى الوراء : ـ انها جثة!

واصطكت أسنان الولد ، وقفز إلى الوراء ، وتهاوى الشبح كالشجرة حيث كان يقف . وعندما أدارا وجه الجثه إلى الآعلى وتبينا أن الصنوبرة كانت بمثابة ملجأً أخيراً لهذا الجندي المتسمم بالغاز ، وهو من الكتيبة ٢٥٦ ، حين كان يحاول النجاة بلاجدوى من الموت الذي حل في رئتيه . فتى طويل عريض المنكبين ، رقد وقد ارتمى رأسه إلى الوراء ، وتلطخ وجهه بالطين عند سقوطه ، وكانت عيناه جاحظتين أحرقهما الغاز ، وبرز لسانه لحيماً منتفخاً من بين أسنانه مثل قطعة من الخشب المصقول الأسود .

همس رفيق الولد وهو يمسك بيده :

ـ تعال ، تعال بربك! دعه يرقد هناك!

وبعد بضع خطوات شهدا جثة أخرى ، ثم أخرى فأخرى . كان الجنود المسممون متكدسين في بعض الأماكن أكداساً ، وقد مات بعضهم وهم جالسون على مؤخراتهم ، وكان آخرون على الأربع ، أشبه بحيوانات ترعى ، وفي مدخل خندق المواصلات المؤدي إلى الخط الثاني من الخنادق رقد رجل ملتئماً مثل الكرة ، وقد دس قبضته المقضومة بين أسنانه من شدة الألم . أسرع الولد ورفيقه ليلحقا بطابورهما ، ولكنهما فقدا أثره في الظلام ، ثم لم يلبثاً أن وجدا نفسيهما في المقدمة . وبعد أن تجولا بعض الوقت قفزا في أخدود مظلم لخنادق تتوغل في الظلام .

واقترح رفيق الولدمتردداً :

ـ لنفتش الحفائر ، فلعلنا نجد شيئاً نأكله .

ـ حسناً .

ـ اذهب أنت إلى اليمين ، وسأتجه إلى اليسار . سنبحث ريثما يأتي الآخرون .

وأشعل الولد ثقاباً وخطا خلال مدخل أول حفيرة واجهها .

ولكنه انطلق خارجاً من جديد كما لو أن عتلة قذفت به ، فقد كانت في الداخل جثتان متقاطعتان ترقد احداهما فوق الاخرى . فتش ثلاث حفائر دون أن يحظى بنتيجة ، ورفع باباً رابعاً ، وما أن سمع صوتاً رناناً يتحدث بالألمانية قائلاً : *Wer ist das? حتى كاد يتهاوى .

فقفز الولد إلى الوراء في سكون ، وبدنه يرتجف .

وتساءل الألماني وهو يخطو خارج الحفيرة ويصلح وضع معطفه على كتفيه بلا اكتراث :

ـ **Das bist du, Otto? Weshalb bist du so spat gekommen?

فصرخ الولد بخشونة وقد امسك ببندقيته استعداداً .

ـ ارفع يديك! ارفعهما إلى الأعلى! استسلم!

فرفع الألماني يديه ببطء ، وقد صعقه الذهول ، والتفت جانباً ، وثبت نظره في نصل الحربة اللامع المصوب اليه .

وسقط معطفه من على كتفيه ، كاشفاً عن قمصلته العسكرية الرمادية المخضوضرة ، والمتجعدة من تحت ابطيه ، وارتجفت فوق رأسه يداه الكبيرتان وهما يدا عامل كادح ، وارتعشت أصابعه كأنها تلامس أوتاراً غير مرئية . وقف الولد دون أن يغير وضعه ، محدقاً في قامة الألماني الطويلة القوية ، والأزرار المعدنية لقمصلته ، وجزمته الصغيره ، وقبعته التي لا قمة لها والمائلة قليلاًإلى أحد الجانبين . واهتز كأنه قد جرد من معطفه ، وهو يغير

---

* من هذا ؟ ـ بالألمانية في الأصل .

** أهذا أنت يا أوتو ؟ لِمَ تأخرتَ طوال هذا الوقت ؟ ـ بالألمانية في الأصل .

وضعه فجأة ، وند عنه صوت محشرج مقتضب ، لاهو بالسعال ولا هو بالنشيج ، وخطا نحو الالماني . ثم قال بصوت أجوف متكسر :

ـ اهرب! اهرب ، أيها الالماني! لست أضمر لك حقداً! لن أطلق النار!

وأسند بندقيته على جدار الخندق ، ومد يده إلى يد الالماني اليمنى وهو يقف على أطراف أصابعه . فطمأنت حركته الواثقة الرجل الذي أنزل يديه وأصغى بانتباه إلى اللهجة غير المعهودة في صوت الروسي .

وبلا تردد مد الولد له يده الصلبة التي أرهقها العمل الشاق وشد على أصابع الألماني الباردة الرخوة . ثم رفع الكف . وسقط ضوء القمر عليها فأظهر تقرنات الجلد القديمة السمراء .

وقال الولد وهو يرتجف كأنه محموم :

ـ أنا عامل . لماذا أقتلك ؟ أهرب!

ودفع كتف الالماني بيده اليمنى برفق ، وأشار إلى الغابة السوداء وقال :

ـ أهرب ، أيها الأحمق! سيصل رجالنا عما قريب...

وقف الالماني يحدق في يد الولد الممتدة ، وجسده مائل إلى الامام قليلاً ، وأذناه مرهفتان لادراك معنى الكلمات البعيدة عن فهمه . وظل واقفاً على هذا النحو برهة من الوقت ، وقد التقت عيناه بعيني الولد ، ثم ارتعشت شفتاه عن ابتسامة فرحة على حين غرة ، وتراجع خطوة إلى الوراء ومد ذراعيه ، وشد على يدي الولد وهزهما ، وهو يبتسم باضطراب ويحدق في عيني الروسي :

- Du entlässt mich?.. O, jetzt hab ich verstanden! Du bist ein russischer Arbeiter? Sozial-Demokrat, wie ich? So? O! O! Das ist wie im Traum... Mein Bruder, wie kann ich vergessen? Ich finde keine Worte. Nur du bist ein wunderbarer wagender Junge... Ich... *

---

* ـ هل ستدعني أذهب ؟ أوه ، انني أفهم الآن . . أنت عامل روسي ؟ سوشال ـ ديموكرات مثلي ؟ نعم . . يا له من حلم! كيف أستطيع أن أنسى ، يا أخي ؟ ان الكلمات تخونني . . ولكنك فتى طيب شجاع . . ـ بالالمانية في الأصل .

التقط الولد من غمار السيل الذي يغلي بالكلمات كلمتي « سوشال ديموكرات » المألوفتين :

ـ أجل ، انني سوشال ديموكرات . لقد صدق ظنك . والآن ، اهرب...! وداعاً ، أيها الأخ . هات يدك .

وقفا ينظران في عيني بعضهما ، وكل منهما يفهم الآخر بالبديهة ، البافاري حسن الهندام والجندي الروسي القصير .

ومن الغابة جاءت أصوات الطوابير الروسية المقتربة . وهمس الألماني :

- In den zukünftigen Klassenkämpfen werden wir in denselben Schützengräben sein, nicht wahr, Genosse?*

ثم وثب إلى المتراس وكأنه حيوان رمادي كبير .

وبعد قليل أقبل طابور الجنود الروس ، وفي مقدمتهم فرقة استكشاف تشيكية مع ضابطها . وكادوا جميعاً أن يطلقوا النار على الجندي ، وهو يزحف خارجاً من الحفيرة . فصاح بهلع وهو يضم رغيفاً من الخبز الأسود إلى صدره ، إذ رأى ماسورة بندقية مصوبة اليه :

ـ انني روسي ، الا ترون ؟

وقفز نائب الضابط فوق الخندق بعد أن تبين الولد ، وضربه بخشونه على ظهره بعقب بندقيته :

ـ سأحطمك ، سأجدع لك أنفك! أين كنت ؟

فانتفض الولد وهو يعرج ، وكأن الضربة لم تعط مفعولهاالمقصود منه . فقد أذهل نائب الضابط ، وهو يترنح إلى الأمام إذ أجابه بلهجة سموح على غير عادته :

ـ لقد سبقناكم . لا تكن فظاً بهذا الشكل .

ـ كفاك تسكعاً! تارةً في المؤخرة ، وتارة في المقدمة .

* « في الصراع الطبقي المقبل سوف نكون في خندق واحد ، أليس كذلك أيها الرفيق ؟ » ـ بالألمانية في الأصل .

ألا تفهم الأوامر ؟ لست مستجداً ، أليس كذلك ؟
وسأله بعد وقفه :
ـ هل لديك شيء من التبغ ؟
ـ انه رطب .
ـ هات بعض الشيء .

وأولع نائب الضابط سيكارة ومضى إلى مؤخرة الفصيل . وقبل الفجر تماماً التقت فرقة الاستكشاف التشيكية بمركز مراقبة ألماني . فمزق الألمان السكون بوابل من الرصاص . وأطلقوا دفعتين أخريين في فترتين متساويتين . وحلق كشاف قرمزي فوق الخنادق ، فدوت الأصوات ، ولم يعد بريق الكشاف الارجواني يخبو حتى فتحت المدفعية الألمانية نيرانها . وتناهى صوت القنابل المتفجر على مبعدة كبيرة من القوات الروسية ، من مكان ما بجوار نهر ستوخود .

وما أن أطلقت أول رصاصة حتى انبطحت السرية التي كانت تسير وراء التشيكيين بما يقرب من مائة خطوة . كان ضوء الكشاف قد سكب وميضاً أحمر فوق الأرض ، وعلى ضوئه رأى الولد الجنود يزحفون كالنمل بين الأجمات والاشجار ، وما عادوا يحاذرون من الطين ، بل التصقوا به يلتمسون الحماية . وزحف الرجال نحو كل اخدود ، واختفوا وراء كل أكمة صغيرة من التراب ، ودسوا رؤوسهم في كل حفرة صغيرة . ومع ذلك ، فعندما اغرقتهم نار الرشاش المنطلقة من الغابة بضراوة ، كسيل شهر أيار ، أذعنوا ، وزحفوا عائدين ، وقد دفنوا رؤوسهم بين أكتافهم ، وهم ملتصقون بالأرض مثل الزواحف ، يتحركون دون أن يثنوا ذراعاً أو ساقاً ، ويزحفون كالحيات تاركين وراءهم آثاراً في الوحل . وقفز بعضهم على أقدامهم وأخذوا يركضون . ومزقت رصاصات دم ـ دم واخترقت الغابة لاطمة الزهور المخروطية مفتتة أشجار الصنوبر الى شظايا ممزقة الأرض وهي تفح كالأفاعي .

فقد سبعة عشر رجلاً من نصف السرية الأول التابع لكتيبة تشيرنويارسك

عندما وصلت الخط الثاني من الخنادق للمرة الثانية . وعلى مبعدة قليلة من ذلك كان قوزاق السرية الخاصة محتشدين أيضاً . كانوا قد تقدموا إلى يمين نصف سرية تشيرنويارسك ، وتحركوا بحذر ، وكان بوسعهم أن يباغتوا الالمان ويجتاحوا نقاطهم الأمامية . ولكن عندما فتحت هذه النقاط الأمامية النار على التشيكيين ، استعد الالمان على امتداد القطاع . فأطلقوا النار كيفما اتفق ، وقتلوا قوزاقيين وجرحوا آخر .

فعاد القوزاق بالجريح والقتيلين . وأخذوا يتحدثون فيما هم يصطفون :

ـ يجب دفنهما .

ـ غيرنا سيفعل ذلك .

ـ إن الاحياء أحق بالاهتمام . أما الموتى فليسوا بحاجة إلى شيء .

وفي غضون نصف ساعة هبط أمر آخر من أركان الكتيبة : «بعد التمهيد بالمدفعية ، آمر كتيبة تشير نويارسك وسرية القوزاق الخاصة باستئناف الهجوم على العدو وطرده من خط الخنادق الأول» .

دام التمهيد الخفيف بالمدفعية حتى الظهر . واستراح القوزاق والمشاة في حفائرهم ، بعد أن أقاموا الحراسة . وفي الظهيرة شرعوا يتقدمون . وأعلن هدير المدفعية عن هجوم جديد من القطاع الرئيسي على يسارهم . كان الروس يزحفون على طول الجبهة بكاملها .

تقدم القوزاق في خط متقطع مالبث أن اتصل من اليسار بكتيبة تشيرنويارسك ، ولم تكد تلوح قمم المتاريس حتى أطلق الألمان عاصفة من النار . وهرعت السرية إلى الأمام دونما صياح ، وانبطح رجالها على الأرض ، وأفرغوا بنادقهم وهرولوا من جديد . وعلى بعد خمسين خطوة من خنادق العدو ، استلقوا على الأرض ، ولبثوا . وبدأوا الآن يطلقون النار دون أن يرفعوا رؤوسهم . كان الألمان قد وضعوا شبكة من الأسلاك على طول الخنادق . ورمى أفونكا أوزيروف قنبلتين يدويتين فوقعتا وراء الأسلاك . ولما رفع نفسه ليرمي الأخرى أصابته طلقة في جانبه الأيسر وخرجت أسفل عموده الفقري .

وشاهد ايفان اليكسيفتش الذي كان مستلقياً إلى جانبه ، أوفنكا يخبط برجليه بوهن ، ثم مالبث أن رقد بلا حراك . وقتل بروخور شامل أخو اليكسي ذي الذراع الواحدة ، وكان الأتمان السابق مانتسكوف ثالث القتلى ، وبعد لحظة قتل يفلانتي كالينين ذو الساق المقوسة ، وقد كان راقداً إلى جوار شامل .

في غضون نصف ساعة فقد الرعيل الثاني ثمانية رجال . لقد قتل الرئيس الذي كان يقود السرية ، كما سقط ضابطا الرعيل ، وزحف القوزاق عائدين بعد أن فقدوا قيادتهم . وعندما خرجوا من منطقة النار ، تجمعوا في مكان واحد فوجدوا أنهم فقدوا نصف عددهم . ثم انسحب رجال تشير نويارسك هم الآخرون . أما خسائر الفوج الأول فقد كانت أكبر ، ومع هذا فقد جاء أمر جديد من قيادة الكتيبة :«استأنفوا الهجوم في الحال ، يجب أن تطردوا العدو من خط الخنادق الأول بأي ثمن . وان نجاح العملية بكاملها يتوقف على استعادتنا مواقعنا السابقة» .

وانتشرت السرية في خط دقيق وتقدمت من جديد . وتحت نار الالمان المبيدة انبطحوا على الأرض على بعد مئة خطوة من الخنادق . ومن جديد أخذ عدد الجنود يتضاءل ، ويلتصق الرجال المذعورون بالأرض لا يجرؤون على تحريك رؤوسهم أو رفعها ، وقد تبلدوا رعباً من الموت .

ووشيك المساء جفل جنود نصف السرية الثاني التابع لكتيبة تشير نو يارسك وراحوا يهرولون . وبلغ أسماع القوزاق صوت يصيح «قطع علينا خط الرجعة! » فنهضوا ورجعوا القهقرى متعثرين ، شاقين طريقهم خلال الأجمات ، وكانوا يتساقطون ، ويلقون بأسلحتهم . وسقط إيفان اليكسييفتش تحت صنوبرة اقتلعتها احدى القنابل ، بعد أن بلغ مكاناً أميناً ، وراح يستعيد أنفاسه ، وما لبث أن شاهد غافريلا ليخوفيدوف قادماً نحوه . كان يترنح كالسكران ، وعيناه مسمرتان إلى الأرض ، وكانت إحدى ذراعيه تخبط في الهواء ، في حين بدت الاخرى وكأنها منشغلة بإزاحة خيط عنكبوت غير مرئي عن وجهه . ولم يكن يحمل بندقية ولاسيفاً ، وقد اخضل شعر رأسه البني

الغامق السبط بالعرق والتصق على جبهته . وقفز متعثراً شطر إيفان أليكسييفيتش متدوراً فسحة صغيرة في الغابة . وتوقف وهو ينظر إلى الأرض بحول . كانت ركبتاه ترتجفان وقد انحنتا قليلاً ، ولاح لإيفان أليكسييفتش وكأنه على أهبة الوثوب في الهواء .

ـ هكذا ، اذاً... بدا ايفان أليكسييفتش محاولاً أن يقول شيئاً ، بيد أن قشعريرة ما قد خطفت وجه ليخوفيدوف .

مهلاً! ـ صرخ ليخوفيدوف على حين غرة ، وجلس القرفصاء وهو ينشر أصابعه وينظر حواليه بحذر وأضاف : ـ اسمع ، سأغني لك أغنية . لقد حلق طير الله ولحق ببوم وقال لها :

خبريني ، خبريني ، ياسيدتي البوم ،
من هو أكبر الطيور ، وأحسنها مقاماً ؟
النسر هو القيصر ،
والحدأة مقدم ،
وصقر الفئران رئيس ،
وذوو المناقير الطويلة هم رجال الاورال ،
والحمام هم جنود الحرس ،
والزرازير هم الكالميكيون ،
والعقاعق هم الغجر ،
والشقاريق* هم الحرس الخاص ،
وأمّا البط الرمادي فهم المشاة .

فقال ايفان أليكسييفتش وقد غشيه الشحوب :
ـ اسمعني! ماذا بك يا ليخوفيدوف ؟ هل أنت مريض ؟

---

* الشقاريق : جمع طير الشقرق . المترجمون

فقال ليخوفيدوف وقد استحال وجهه أرجوانياً :

ـ صه!

وعاد إلى أغنيته الغريبه ، وهو يزم شفتيه الزرقاوين فتفتران عن ابتسامة فارغة .

ووثب ايفان أليكسييفتش على قدميه وقال :

ـ هنا ، دعنا نعود الى السرية ، والا فسوف يختطفنا الالمان! ألا تسمعني ؟

فانتزع ليخوفيدوف يده بعيداً ، وراح يغني ، ولعاب حار يسيل من فمه .

ثم غير صوته فجأه ، وطفق يغني غناءً أجش . لم يكن غناء ، بل عواء متعالياً أشبه بعواء الذئب ينبعث من فمه المكشر عن أسنانه . والتمع اللعاب على أسنانه الحادة الطويلة . فحدق ايفان أليكسييفتش مرعوباً في عيني الرجل الشاردتين في جنون ، وفي رأسه ذي الشعر المتلبد وأذنيه الشبيهتين بالشمع ، ذلك الرجل الذي كان صديقه قبل بضع ساعات . وعوى ليخوفيدوف بأغنية قوزاقية قديمة بشيء من المرارة والأسى :

عالياً تقرع طبول المجد ،
وعبر الدانوب يذهب القوزاق ،
قد ألحقوا الهزيمة بأتراك السلطان
وحرروا كل المسيحيين من سطوته .

فهتف ايفان أليكسييفتش وقد رأى مارتن شامل يعرج عن مسافة قصيرة منه .

ـ مارتن! مارتن ، تعال هنا!

فاقترب مارتن متكئاً على بندقيته .

وأشار ايفان أليكسييفتش إلى المجنون بعينه :

ـ أعني في ارجاعه . انظر ماذا حدث ؟ لقد كان ذلك أكثر مما يحتمل . فقد صعد الدم إلى رأسه .

وضمد شامل ساقة الجريحة بكم قميصه الداخلي . ثم أمسك بذراع ليخوفيدوف دون أن ينظر إليه ، وأمسك إيفان أليكسييفتش بالاخرى ومضيا . وما لبث صراخ ليخوفيدوف أن وهن . فتجهم شامل متألماً لذلك وتوسل إليه بالكف عن الصراخ . وقال متضرعاً :

ـ لا تحدث ضجيجاً كهذا! كف ، بحق المسيح . لقد روحت عن نفسك . كف الآن!

ولكن المجنون استمر على غنائه وحاول أن يفلت من القوزاقيين . وكان بين لحظة وأخرى يضغط على صدغيه بيديه ، ويطحن أسنانه ، ويلقي برأسه وقد ارتعش شدقه إلى أحد الجانبين وهو في سورة من الجنون .

٤

كان هناك قتال عنيف على بعد أربعين فرسخاً أسفل نهر الستوخود . فقد استمر هدير المدفعية أسبوعين بلا انقطاع . وفي الليل كانت السماء البنفسجية القصية تمزقها أشعة الكشافات التي تنثر أضواء قزحية ، فتبعث قلقاً مبهماً في هؤلاء الذين كانوا يرقبون عن بعد لهب الحرب وانفجاراتها .

في هذه الأثناء كانت الكتيبة القوزاقية١٢ تحتل قطاعاً ضحلاً مقفراً . وفي النهار كانوا يطلقون النار بين آن وآخر على النمساويين المتحصنين في الخنادق الضحلة قبالتهم . وفي الليل ، ينامون أو يلعبون الورق وقد لاذوا بالمستنقع عن أعين الأعداء . وكان الحراس فقط هم الذين يرقبون انفجارات الضوء البرتقالية الباهتة حيث كان القتال تدور رحاه أسفل النهر .

في إحدى هذه الليالي الشديدة القر الباعثة على الخدر حينما كانت الومضات البعيدة تخفق بوضوح أكثر من المعتاد على صفحة السماء ، غادر غريغوري ميليخوف حفيرته ، واتخذ طريقه في خندق مواصلات إلى الغابة التي تقع خلف الخنادق وكأنها فرشاة رمادية فوق الجمجمة السوداء لهضبة

منخفضة ، وألقى بنفسه على الأرض الرحيبة العبقة ، كان الهواء خانقاً صعب الاحتمال في الحفيرة ، وخيم دخان تبغ بني كبطانية خلقة فوق المنضدة التي كان ثمانية من القوزاق متحلقين حولها يلعبون الورق . في حين كان النسيم في الغابة على قمة الهضبة يهب عليلاً كأن أجنحة طيور عابرة خفية تذروه . وهبت من الحشائش التي قرصها الزمهرير رائحة تبعث على الحزن . وخيم الظلام فوق الغابة التي اجتثتها القنابل ، وكانت نيران نجم الثريا الداخنة تلتهب في السماء ، ورقد الدب الأكبر على أحد أجنحة المجرة كعربة مقلوبة عريشها مرفوع ، وفي الشمال تلألأ النجم القطبي بنور ثابت باهت .

رفع غريغوري بصره يتأمل النجمة ، فوخز ضوؤها الثلجي ، المعتم ، عينيه مما جعل الدمع البارد يطفر من تحت أهدابه .

وانثالت على ذهنه ذكريات الماضي كله حية أمامه . فتذكر الليلة التي ذهب فيها إلى أكسينيا في ياغودنويه . تذكرها بألم حاد ، وظهرت أمامه ملامح وجهها العزيزة والبعيدة في الوقت ذاته غير واضحة المعالم . وازداد وجيب قلبه عندما حاول أن يتذكر ذلك الوجه كما رآه آخر مرة ، وقد شوهه الألم ، وعلامة السوط الزرقاء على خدها . غير أن ذاكرته أصرت على أن تطالعه بوجه آخر ، يميل قليلاً إلى أحد الجانبين ، ويبتسم بنشوة . ومرة أخرى أدارت أكسينيا وجهها بخبث وهيام ، وهي تنظر اليه بعينين سوداوين ناريتين ، وشفتاها القرمزيتان تهمسان بشيء عاطفي يعز وصفه ، ثم حولت عينيها ورأسها ببطء بعيداً عنه ، ورأى الخصلتين المخمليتين على جيدها الأسمر... ولشد ما كان يحب تقبيلهما حينذاك!

وسرت في جسم غريغوري رعدة ، فقد خيل إليه لحظة أنه يستطيع حتى أن يستاف شذى شعر أكسينيا المسكر الجميل ، واتسع منخراه . ولكن لا! إنه شذى الأوراق المتساقطة المثير . وتلاشى طيف وجه أكسينيا وزال . وأغمض عينيه ، ووضع كفه على سطح الأرض الخشن ، ورقد وراح يحدق دون

أن يطرف ، فيما وراء الصنوبر المتكسر ، في النجم القطبي المعلق كفراشة زرقاء في طيران ساكن .

وضببت ذكريات أخرى ملامح أكسينيا . وتذكر الأسابيع التي قضاها في تاتارسكويه مع عائلته بعد انفصاله عن أكسينيا ، وعناق ناتاليا الشره العاتي ، خلال الليالي ، كأنها كانت تحاول التعويض عن تثلجها الخفر السابق ، وأثناء النهار ، عناية عائلته به التي قاربت العبادة ، والتبجيل الذي لاقى به القرويون فارسهم الأول من فرسان القديس غيورغي . وكان غريغوري يلاقي في كل مكان ، حتى في منزله ، نظرات جانبية مندهشة مفعمة بالاحترام . كانوا يحدقون فيه كأنهم لا يستطيعون أن يصدقوا أن هذا هو غريغوري نفسه الذي كان فتى ممراحاً عنيداً . وكان الرجال المتقدمون في السن يتحدثون إليه كند لهم ، ويرفعون قبعاتهم حينما كانوا يصادفونه ، وكانت الفتيات والنسوة يتطلعن باعجاب صريح إلى قامته الجميلة المحدودبة قليلاً والوسام ذي الشريط المخطط المعلق على صدره . ولاحظ مبلغ زهو أبيه به حينما كانا يسيران معاً في طريقهما إلى الكنيسة أو إلى الساحة .

وغمره تدريجياً هذا السم الخبيث من الملق والاحترام والاعجاب ، وأزال من وعيه الحقيقة التي غرسها فيه كارانجا . لقد عاد غريغوري إلى تاتارسكويه رجلاً ، ورجع إلى الجبهة رجلاً آخر . لقد طغت تقاليده القوزاقية ، التي رضعها مع حليب أمه وأخلص لها طوال حياته ، على الحقيقة الانسانية العظمى .

ـ كنت أعلم أنك ستكون قوزاقياً جيداً يا غريغوري ـ هكذا قال له العجوز بانتلاي ، وقد كان ثملاً بعض الشيء ، وهو يمسد لحيته التي يختلط فيها اللون الأسود بالفضي ، حينما كانا يفترقان ، وأضاف : ـ لقد حملتك وأنت في الشهر الثاني عشر من عمرك إلى الفناء ، وأجلستك على جواد حاسر الظهر ، كما هي العادة القوزاقية القديمة الطيبة . هل تذكرين أيتها الوالدة ؟ وأنت ، وأنت أيها الشيطان الصغير ، أمسكت بالجواد من عرفه بيديك الصغيرتين ، فقلت بيني وبين نفسي حينذاك أنك ستغدو قوزاقياً بحق ، وهكذا كنت .

وعاد غريغوري إلى الجبهة قوزاقياً حقاً . ورغم أن ذهنه لم يزل ينفر من سخافة الحرب وعقمها ، فقد ظل أميناً لتقاليده القوزاقية .

وفي أيار ١٩١٥ كانت الكتيبة الالمانية الحديدية الثالثة عشرة قد تقدمت على مرج بهيج الخضرة بالقرب من قرية أولخوفتشيك . وكانت المدافع الرشاشة تتنادى مثل الجنادب . بينما ظل مدفع رشاش ثقيل من السرية الروسية المعسكرة ازاء الجدول يلعلع بقوة . وكانت الكتيبة القوزاقية الثانية عشرة قد تحملت وطأة الهجوم الالماني . وفيما كان غريغوري يركض إلى الامام وهو في خط القوزاق ، التفت إلى الوراء فرأى جرم الشمس المنصهر في سماء الظهيرة ، وشمساً أخرى في الجدول الذي تعلوه شجيرات الصفصاف بزهورها الزغباء الصفراء . ووراء الجدول ، وراء أشجار الحور ، اختبأ ماسكو الجياد القوزاقية ، والى الامام كان الخط الالماني ، والبريق الاصفر المنبعث من تسور الخوذ النحاسية المنقوشة . وتلاعبت الريح بدخان الطلقات الذي يشبه دخان خشب الشيح .

كان غريغوري يطلق ناره على مهله ، وهو يسدد بعناية ، ويصغي بين فترات الاطلاق إلى آمر الرعيل وهو يعلن عن مدى الرمي . وبحذر أزاح يعسوباً استقر على كمه . ثم جاء الهجوم... فضرب غريغوري بأخمص بندقيته ملازماً ألمانياً طويلاً وأطاح به ، وأسر ثلاثة ، وأجبرهم على الجري صوب الجدول باطلاقه النار فوق رؤوسهم .

وفي تموز ١٩١٥ قرب رافا ـ روسكايا ، استعاد مع رعيل قوزاقي بطارية كان النمساويون قد استولوا عليها . وكان اثناء تلك المعركة قد شق طريقه إلى مؤخرة العدو وفتح النار عليهم من مدفع رشاش خفيف ، فأجبر النمساويين المتقدمين على الفرار . ثم ، عندما مروا ببيانيتس أسر ضابطاً بديناً ، وألقاه على قربوس سرجه كما لو كان خروفاً ، وكان يتحسس طوال الطريق الرائحة الكريهة لجسد أسيره السمين الذي ظل يرشح عرقاً ويرتجف هلعاً .

وفيما كان غريغوري يرقد على سفح التل ، تذكر بوجه خاص حادثاً

واحداً كان قد قابل فيه عدوه اللدود ستيبان أستاخوف . كانت الكتيبة الثانية عشرة قد انسحبت من الجبهة وتقهقرت الى بروسيا الشرقية . وكانت الجياد القوزاقية قد وطأت الحقول الالمانية المتسقة ، وأضرم القوزاق النار في بيوت الالمان . وارتفع دخان أحمر طوال الطريق الذي قطعوه ، وقد استحالت الجدران المحترقة والسقوف القرميدية إلى رماد . وبالقرب من بلدة ستوليبين انضمت الكتيبة في هجوم كانت تشنه كتيبة قوزاق الدون السابعة والعشرون . فألقى غريغوري نظرة عابرة لأخيه النحيف ، ولستيبان الحليق ، وقوزاق آخرين من قريته . وفي أثناء المعركة حاقت الهزيمة بالكتيبتين وأحاط بهما الالمان . وحينما كانت السرايا الإثنتا عشرة تلقي بنفسها واحدة بعد الاخرى في الهجوم لتشق طوق العدو ، رأى غريغوري ستيبان يقفز عن الحصان الذي قتل تحته ويدور حوله كالمصروع . فأمسك غريغوري بعنان جواده ، وقد ألهبه عزم مفرح مفاجىء ، وحينما مرقت آخر سرية هذباً تكاد خيلها أن تدوس ستيبان ، اندفع صوبه وهتف :

ـ امسك بركاب سرجي!

فأمسك ستيبان بسير الركاب ، وجرى مسافة نصف فرسخ الى جانب جواد غريغوري ، وهو يتضرع إليه لاهثاً فاغراً فاه : «لا تجر سريعاً ، ليس بمثل هذه السرعة ، من أجل المسيح!» .

وأفلحا في المرور من الثغرة التي فتحت خلال الطوق الالماني .ولم يكن يفصلهما أكثر من مئة متر عن الغابة التي تراجعت اليها سراياهم عندما اخترقت رصاصة ساق ستيبان وانكفأ على رأسه . ونزعت الريح القبعة من رأس غريغوري فانثال شعره على عينيه . ونظر حواليه وهو يرفعه إلى الوراء ، فرأى ستيبان يعرج نحو شجيره ، ويخلع قبعته القوزاقية ، ويجلس ، وبعجالة يفك أزرار سرواله بأشرطته القوزاقية القرمزية . ولكن الالمان جاءوا من وراء التل مسرعين . فأدرك غريغوري أن ستيبان كان يريد الحياة بكل جوارحه ، ولهذا أخذ يخلع سرواله ، فهو يعلم أن الالمان لن يرحموا القوزاق إن ظفروا

بهم . واستدار غريغوري بحصانه مستجيباً لنداء وجدانه وعدا راجعاً صوب الشجيرة ، وقفز والحصان يجري .

ـ اعتلِ حصاني!

ما كان غريغوري لينسى النظرة الصارمة لعيني ستيبان وهو يعينه على الركوب ، ثم جرى بجانبه ، ممسكاً بركاب سرج الحصان الذي كان يتصبب عرقاً . وعلى صفير وابل من الرصاص فوق رأسيهما ، ومن خلفهما انطلق صوت الطلقات مثل انفلاع كؤوس الاكاسيا الناضجة .

وحينما بلغا الغابة هبط ستيبان من فوق السرج ، وقد بدا وجهه أبيض متغضناً من الألم ، وراح يعرج مبتعداً . كان الدم يسيح داخل جزمته اليمنى ، ومع كل خطوة يطفر من كعبه المقطوع سيل دقيق بلون الكرز الاحمر . واستند إلى جزع بلوطة وارفة ، وأومأ إلى غريغوري .

وقال وغريغوري يتقدم منه :

ـ إن جزمتي ملأى بالدم .

ولاذ غريغوري بصمت ، وهو يشيح النظر .

ـ غريشا! حينما قمنا بالهجوم اليوم... أتسمع ، ياغريغوري ؟ـ قال ستيبان وهو يحاول النظر في عينيه . ـ حينما قمنا بالهجوم اليوم اطلقت عليك النار ثلاث مرات من الخلف... ولكن لم يكتب لي أن أقتلك .

والتقت عيونهما . وتألق بؤبؤا ستيبان الشاقبان في محجريهما الغائرين بشكل لا يحتمل . وراح يتكلم وهو لا يكاد يحرك شفتيه :

ـ لقد أنقذت حياتي... شكراً... ولكني لا أستطيع أن أغفر لك ما فعلت بأكسينيا... لا استطيع أن أحمّل نفسي على...لا تجبرني يا غريغوري...

فأجاب غريغوري :

ـ لن أجبرك . وافترقا عدوين كما كانا .

وبعد... في أيار اخترقت الكتيبة مع القطعات الاخرى لجيش بروسيلوف ، الجبهة في لوتسك ، وجالت في مؤخرة العدو تسدد الضربات وتتلقى أمثالها .

وقرب لفوف تولى غريغوري قيادة سريته من تلقاء نفسه وأسر مدفع حصار نمساوي وجنوده . وذات ليلة ، بعد ذلك بما يقرب من الشهر سبح عبر نهر البوغ ليحتل « موضع قدم » في الجانب الآخر . ولقد أخذ حارساً على حين غرة ، فتصارع الالماني البدين المتين وغريغوري وهو نصف عارٍ في الظلام مدة طويلة قبل أن يستطيع غريغوري أن يوثقه .

وابتسم غريغوري لمّا تذكر الواقعة .

ما أكثر الوقائع التي حدثت خلال المعارك القريبة والقديمة!

كان غريغوري يدافع عن شرفه القوزاقي بثبات ، منتهزاً كل فرصة لإظهار بطولات طائشة ، مجازفاً بحياته في مغامرات متهورة ، كان يغير ملابسه ويتوغل في مؤخرة العدو ، ويستولي على مراكزه الامامية دون أن يسفح دماً ، ويشعر أن التوجع على الآخرين الذي كان قد أمضّه في الأيام الاولى من الحرب ولّى إلى الأبد . وأصبح قلبه فظاً غليظاً كمستنقع ملح أيام الجفاف ، وكما لا يمتص المستنقع المالح الماء ، كذلك هو قلب غريغري فإنه لم يكن ليتشرب الرحمة . فلقد عبث بحياته وحياة الآخرين باستخفاف وعدم اكتراث ، وغمر نفسه بالمجد . فنال أربعة أوسمة من طراز القديس غيورغي ، وأربع ميداليات . وفي الاستعراضات الطارئة كان يقف إلى جانب بيرق السرية المفعمة بدخان البارود من معارك لا تحصى . ولكنه أدرك أنه لم يعد يعرف الضحك كما كان في الأيام السالفة ، وأدرك أن عينيه قد غارتا وأن عظام وجنتيه قد برزت بحدة ، وأدرك أنه لو قبل طفلاً فلن يستطيع أن ينظر طويلاً في عينيه البريئتين الصافيتين . وأدرك فداحة الثمن الذي دفعه مقابل أوسمته وميدالياته .

رقد على سفح التل ، وقد طويت أطراف معطفه تحته ، مستنداً على مرفقه الأيسر ، وقد أطلق العنان لذاكرته لتستعيد الماضي ، ومن بين الأفكار المتزاحمة انضفر حادث بعيد يعود إلى أيام طفولته مثل خيط ناعم أزرق ، ولبرهة ركز وعيه عليه بحزن وشغف . ثم ما لبث أن عاد إلى حاضره . وفي

الخنادق النمساوية كان شخص ما يعزف على الماندولين بمهارة . وانسابت الالحان الرقيقة التي حملتها الريح عبر نهر ستوخود ، منتشرة بخفة فوق الأرض التي كثيراً ماغسلتها دماء البشر . وفي السماء توهجت النجوم ، ولكن الظلام كان يزداد عمقاً ، وكان ضباب منتصف الليل مخيماً فوق المستنقع .
دخن سيكارتين على التتابع ، وأمر أصابعه بشيء من الاعزاز فوق حمالة بندقيته ، ثم نهض من الأرض المعطاء وعاد إلى الخنادق .

حينما دخل غيوغوري حفيرته وجد الرجال ما يزالون يلعبون الورق ، فألقى بنفسه على فراشه ، وجرب مرة أخرى أن يطوف في مسالك الذكريات التي تقادم عليها الزمن ، إلا أن النوم غشيه حتى قبل أن ينقلب . وفي نومه حلم بالسهب الجاف المترامي ، وبزهرات الخلد الوردية ، وبآثار حوافر الخيل العارية من النعال بين السعتر البنفسجي الأشعث.. وكان السهب خالياً يلفه سكون رهيب ، كان يمشي فوق الارض الرملية الصلبة ، ولكنه لم يكن يسمع وقع خطواته ، فأرعبه ذلك.. واستيقظ لحظة ورفع رأسه وهو مبعوج الخدين بسبب وضعيته غير المريحة ، يلوك بشفتيه كجواد فاجأه عبير عشب غير مألوف . ثم لفه النوم ثانية ، دون أن تكدره الأحلام .

واستيقظ في النهار التالي وبين جوانحه حنين مبهم يتآكله . وسأله تشوباتي :

ـ لماذا تبدو شكساً اليوم ؟ هل حلمت بأهلك في الليلة السابقة ؟

ـ لقد حزرت . حلمت بالسهب... إن روحي ممزقة شر ممزق... بودي أن أعود إلى أهلي . فلقد ضقت ذرعاً بخدمة القيصر .

فابتسم تشوباتي متلطفاً لقد عاش دائماً في حفيرة واحدة مع غيوغوري ، وأولاه الاحترام الذي يشعر به حيوان قوي تجاه آخر . ولم يقع بينهما أي عراك منذ شجارهما عام ١٩١٤ ، وكان تأثير تشوباتي يبدو واضحاً في طباع غريغوري ونفسيته التي تغيرت . وقد خففت الحرب كثيراً من نظرة تشوباتي . لقد تحول ببطء ولكن بلا حدة ضد الحرب . وجعل يتكلم كثيراً

عن الجنرالات والالمان القابعين في قصر القيصر . وقد قال ذات مرة مدمدماً :
ـ لا تأمل خيراً من هذه الحرب مادامت القيصرة نفسها تسري في عروقها الدماء الالمانية . ولو وجدت الفرصة سانحة ، لربما باعتنا إلى العدو...

وذات يوم حاول غريغوري أن يشرح له تعاليم كارانجا ، بيد أن تشوباتي لم يكن ليتقبل شيئاً منها .

وقال بابتسامة ماكرة وهو يربت على صلعته :

ـ الأغنية لا بأس بها ، غير أن الصوت مبحوح بعض الشيء . ولطالما يردد ميشاكوشيفوي مثل هذا القول ، هو الآخر ، كديك على حائط . لا جدوى من هذه الثورات ، لاشيء سوى الضرر . أنت تذكر أن ما نحتاجه نحن القوزاق هو قيصر قوي ، واحد مثل نيقولاي نيقولاييفيتش * . ليس بيننا وبين الفلاحين شيء مشترك . فلا تصلح الأوزة رفيقة للخنزير . الفلاحون يريدون الاستيلاء على الأرض ، ويريد العمال أجوراً أعلى . ولكن ماذا سيقدمون لنا ؟ الأرض ، وعندنا منها شيء كثير . ماذا عسانا نريد أكثر من ذلك ؟ إن قيصرنا لا نفع فيه ، ولافائدة من إنكار هذه الحقيقة! لقد كان أبوه أقوى منه ، بيد أن هذا سينتظر حتى تدق الثورة الباب كما فعلت في عام ١٩٠٥ ، وحينئذ سنتدحرج إلى الجحيم جميعاً . ولن نربح شيئاً من ذلك ، وإذا أطاحوا بالقيصر ، سددوا ضرباتهم الينا . سيعمدون في البدء إلى إثارة الحزازات القديمة . ثم يبدأون بعد ذلك بانتزاع أراضينا وإعطائها للفلاحين . علينا أن نظل على حذر .

فقطب غريغوري :

ـ إن أفكارك تسير على نمط واحد لا يتغير .

ـ هذا هراء ياولد . فأنت ماتزال غراً ، ولم ترَ الدنيا بعد . ولكن انتظر قليلاً حتى ترى من منا على صواب .

---

* نيقولاي نيقولاييفتش (١٨٥٦ ـ ١٩٢٩) كبير الأمراء . عمّ القيصر نيقولاي الثاني (القيصر الروسي الأخير) وقائد القوات الروسية المسلحة في الحرب العالمية الأولى . هرب الى الخارج عام ١٩١٩ ، ثم أصبح بمعونة رانكل وأغلبية الملكيين . أحد المطالبين بالعرش الروسي . توفي في باريس .

وكان النقاش ينتهي عند ذلك عادة ، ويلوذ غريغوري بالصمت ، ويحاول تشوباتي تغيير الحديث إلى موضوع آخر .

في ذلك اليوم تورط غريغوري بحادث مزعج . ففي الظهيرة توقف مطبخ الميدان في الجانب الأقصى من التل كالعادة . وتزاحم القوزاق في خندق المواصلات وهم في طريقهم إلى المطبخ . ذهب ميشا كوشيفوي لتسلم طعام الرعيل الثالث ، وعاد يحمل الأواني المعدنية التي يتصاعد منها البخار على عصا طويلة . ولم يكد يدخل الحفيرة حتى صاح :

ـ هذا مستحيل ، أيها الأخوة! هل نحن كلاب ، أم ماذا ؟

فتساءل تشوباتي :

ـ ما الأمر ؟

فقال كوشيفوي ساخطاً :

ـ إنهم يطعموننا من لحم متعفن ، ـ ووضع الأواني المعدنية على فراش ، وهو يلقي برأسه ذي الشعر الذهبي إلى الوراء ، واقترح وهو ينظر جانباً إلى تشوباتي :

ـ شمّ بنفسك مدى نتانة الحساء!

وانحنى تشوباتي فوق صحنه فاتسع منخراه . وأجفل وقطب وجهه . وتجهّم كوشيفوي هو الآخر ، وارتعش منخراه في محاكاة لاإرادية لتشوباتي ، وأكّد الأخير :

ـ اللحم فاسد .

ودفع الصحن في نفور ، ونظر إلى غريغوري . فنهض غريغوري من على سريره ، وانحنى بأنفه المعقوف فوق الحساء ، ثم انتزع نفسه بعيداً . وبحركة متكاسلة ركل أقرب صحن برجله وألقى به على الأرض . فسأله تشوباتي بتردد :

ـ لماذا فعلت ذلك ؟

فأشار غريغوري إلى السائل الموحل المراق على الأرض وقال :

ـ ألا ترى لماذا ؟ انظر! هل أنت أعمى ؟ ماهذا ؟

ـ اليكم! ديدان! يا أمي العجوز! ولم أرها! ذاك غداء لذيذ لك . ليس هو بحساء كرنب ، بل شعرية . ديدان بدلاً من حواصل الطيور!

كانت ثمة ديدان مسلوقة بيضاء ترقد ملتوية على قطعة لحم أشبه بالقرميدة على الأرض المبقعة بالدسم . وجعل كوشيفوي يعد... وهو يهمس لامر ما :

ـ واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة...

وساد الصمت لحظة . وبصق غريغوري من بين أسنانه . ثم استل كوشيفوي سيفه وقال :

ـ سنلقي القبض على هذا الحساء ونبلغ عنه آمر السرية .

فوافق تشوباتي وهو يفصل الحربة من بندقيته :

ـ نعم الرأي! سوف نأخذ الحساء ، وأنت يا غريغوري ، احمِ المؤخرة وأعدّ التقرير .

وحمل تشوباتي وكوشيفوي قدر الحساء على حربة ، واستلا سيفهما . وتبعهما غريغوري ، وفيما هم يسيرون خلال الخنادق تجمع صف من القوزاق الفضوليين في موجة رمادية خضراء وتبعوهم .

ـ ماذا هناك ؟

ـ إنذار ؟

ـ لعله شيء يتعلق بالسلم ؟

ـ هه ، سلم! خير لك أن تحظى بشيء تأكله أولاً .

ـ لقد ألقوا القبض على حسائهم . فيه ديدان

وتوقف كوشيفوي خارج حفيرة الضابط . وانحنى غريغوري ودخل« مغارة الثعلب » ، وهو يمسك قبعته بيده اليسرى .

وزجر تشوباتي قوزاقياً كان يدفعه من الخلف :

ـ لا تزحمني!

وبعد لحظة خرج آمر السرية ، وهو يزرر معطفه وينظر بدهشة إلى غريغوري ، الذي كان آخر من خرج من الحفيرة ، وجال الضابط بعينيه في القوزاق المتجمعين :

ـ ما الخبر أيها الأولاد ؟

فتقدم غريغوري نحوه وأجاب :

ـ لقد أحضرنا أسيراً .

ـ أي أسير ؟

فأشار إلى وعاء الحساء عند قدمي تشوباتي وقال :

ـ ذاك... هو الأسير... شمّ ما يقدّم لقوزاقك من طعام .

فارتفع حاجباه بحدة ، ورقا وانبسطا إلى الجانبين . وتفحص آمر السرية التعابير البادية على وجه غريغوري بانتباه ، ثم نظر مقطباً إلى الوعاء . وصاح ميشا كوشيفوي بعنف :

ـ لقد بدأوا يطعموننا خيلاً ميتة .

ـ لنغير عريف الإعاشة!

ـ أفعى!...

ـ عليه اللعنة!

وتعالت صيحات أخرى :

ـ إنه يحشو بطنه بحساء الكلى... في حين يعج حساؤنا بالديدان!

وانتظر الضابط حتى خفت هدير الأصوات ، ثم قال بتجهم :

ـ كفى! لقد قلتم مافيه الكفاية! سأغير عريف الإعاشة اليوم . وسأعين لجنة للتحقيق في أعماله . إذا لم يكن اللحم صالحاً...

ـ قدمه لمحكمة عسكرية! ـ جاءت الصيحة من الخلف ، وغرق صوت الضابط في عاصفة جديدة من الصيحات .

كان لا بد من تغيير عريف الإعاشة أثناء مسيرة الكتيبة . وبعد أن ألقى القوزاق المتمردون القبض على الحساء وأحضروه أمام آمر السرية بساعات

قليلة ، وصل الأمر بالانسحاب من الجبهة والزحف بمسيرة اضطرارية إلى رومانيا . وفي المساء استبدل القوزاق بقناصة سيبيريين . وما أن حلّ اليوم التالي حتى امتطى رجال الكتيبة خيلهم في قرية رينفيتشي ومضوا إلى سبيلهم .

لقد أرسلت تشكيلات عسكرية فورية لدعم الرومانيين الذين كانوا يعانون الهزيمة تلو الهزيمة . وأدرك القوزاق ذلك في اليوم الأول ، عندما كان ضباط الاسكان الذين أرسلوا في المقدمة مساءً إلى القرية التي كان من المقرر أن تقضي فيها الكتيبة الليلة ، قد عادوا بأنباء تفيد بأنهم لم يجدوا أماكن يأوون إليها . فقد كانت القرية مكتظة بالمشاة ورجال المدفعية الذين كانوا هم الآخرون يزحفون إلى الحدود الرومانية ، لذلك اضطرتّ الكتيبة إلى قطع ثمانية فراسخ أخرى لإيجاد مأوى .

استغرقت المسيرة سبعة عشر يوماً ، وكانت الخيل قد انهكها نقص العلف . ولم يعثروا على طعام في تلك الأرض الخراب الواقعة خلف الجبهة مباشرة ، وكان السكان قد لاذوا بالفرار إلى داخل البلاد أو اختبأوا في الغابات . وكشف أبواب الأكواخ المفتوحة عن جدران كئيبة عارية . ومن حين لآخر كان القوزاق يصادفون قروياً بائساً مذعوراً في شارع مهجور ، ولكنه ما أن يرى الجنود حتى يسارع إلى إخفاء نفسه . وإذ أجهدهم المسير المتواصل ، وتجمدت أوصالهم ، واحتد طبعهم بسبب كل ما كان عليهم هم وعلى جيادهم أن يعانوه ، أخذوا ينزعون سقوف القش من المباني . وفي القرى التي سلمت من النهب ، لم يترددوا في سرقة كل ماعثروا عليه من طعام حقير ، دون أن يردعهم وعيد ضباطهم .

وغير بعيد من الحدود الرومانية أفلح تشوباتي في سرقة شيء من الشعير من مخزن في إحدى القرى الميسورة الحال . فضبطه المالك أثناء الحادث . غير أنه طرح البيسارابي الكهل المسالم أرضاً ، وحمل الشعير إلى حصانه . فوجده ضابط الرعيل يملأ مخلاة جواده ويربت بأصابع مرتجفة

على خاصرتي الحيوان الغائرتين .

ـ أوريوبين! سلم ذلك الشعير ، أيها الخنزير! هل تريد أن تعدم رمياً بالرصاص ؟

فرمق تشوباتي* الضابط بنظرة جانبية مكظومة وألقى بقبعته على الأرض . ولأول مرة طوال حياته في الكتيبة أطلق صرخة تمزّق الفؤاد :

ـ قدمني إلى محكمة عسكرية! أطلق النار عليّ! اقتلني في الحال ، ولكني لن اتخلى عن الشعير... هل ينبغي لحصاني أن يموت جوعاً ، ها ؟ لن أسلم الشعير ، ولا حبة واحدة!

وتمسك بعصبية تارة برأسه ، وطوراً بعرف حصانه الذي كان يمضغ الشعير بنهم ، ثم بسيفه...

وقف الضابط دون أن يجيب ، وهو ينظر إلى خاصرتي الحصان البالغتي الهزال ، ويهز رأسه . وأخيراً قال وفي صوته نبرة من الحيرة :

ـ لماذا تعطي حصانك الحبّ وهو ما يزال تعباً ؟

ـ كلا ، لقد استراح الآن ، ـ أجابه تشوباتي بما يقرب من الهمس وهو يلتقط الحبات التي سقطت على الأرض ويعيدها إلى المخلاة .

* * *

وصلت الكتيبة إلى موقعها الجديد في أوائل تشرين الثاني . كانت الرياح تعوي فوق جبال ترانسلفانيا ، وقد تجمع في الوديان ضباب شديد البرودة ، وكانت تنبعث من الغابات التي لفحها الصقيع المبكر رائحة أبر الصنوبر ، وكثيراً ما كانت ترى آثار الحيوانات على الثلج الهش المبكر . وكانت الذئاب والأيائل والماعز ، وقد أرعبتها الحرب ، تهجر كهوفها الموحشة وتتجه إلى داخل البلاد .

---

* تشوباتي هو لقب القوزاقي أوريوبين . المعرب .

وفي السابع من تشرين الأول حاولت الكتيبة أن تقتحم المرتفع رقم ٣٢٠ . وكان النمساويون قد استولوا في الليلة السابقة على الخنادق ، وفي صباح يوم الهجوم استبدلوا بسكسونيين جيء بهم تواً من الجبهة الفرنسية . وتقدم القوزاق مترجلين يتسلقون المرتفعات الصخرية التي تكسوها طبقة رقيقة من الثلج ، فكانت الأحجار الصغيرة تتدحرج إلى أسفل ، وكانوا يثيرون غباراً جليدياً رقيقاً . وابتسم غريغوري ابتسامة بلهاء محتشمة فيما كان يحث خطوه ، وقال محدثاً أوريوبين :

ـ أشعر بشيء من القلق هذا الصباح... كما لو كنت أذهب إلى المعركة للمرة الأولى .

ـ غريب أمرك... ـ أجاب أوريوبين حاملاً بندقيته القديمة وهو يمص الثلج من على شاربيه .

وتقدم القوزاق صعداً بتشكيلة غير منتظمة . لم تطلق أية طلقة . كانت خنادق الأعداء يكتنفها سكون ينذر بالشر .

وخلف المتاريس كان ثمة ملازم سكسوني له وجه أحمر لفحه الطقس وقد انسلخ جلد أنفه يقف منتصباً ويطلق صيحات مرحة :

- Kameraden! Wir haben die Blaumäntel oft genug gedroschen! Da wollen wir's auch diesen einpfeffern, was es heibt mit uns'n Hühnchen zu rupfen! Ausharren! Schiebt noch nicht. *

وحث القوزاق خطوهم . كانت الأرض الحجرية غير المتراصة تتفتت تحت أقدامهم . وكان غريغوري يبتسم باضطراب ، وهو يثني أطراف قلنسوته المائلة . وبدا أنفه المقوس وخداه الغائران وعذاراه الأسودان شيئاً أزرق مصفراً والتمعت عيناه بكلال تحت حاجبيه المعفرين بالثلج مثل كسرتين من فحم الأنثراسيت . تركته الطمأنينة المعتادة . وحاول أن يجنب نفسه هاجس

* ـ أيها الأصدقاء! كنا نقتل ذوي المعاطف الزرقاء هؤلاء مرات عديدة! ولنريهم نجوم الضحى مرة أخرى! كونوا صامدين! لا تطلقوا النار قبل صدور الأمر! بالألمانية في الأصل .

الخوف اللعين الذي عاوده على غير انتظار . فقال لأوريوبين وهو يضيق عينيه ويحول نظرته القلقة إلى حوافي الخنادق التي يعلوها الثلج :

ـ إنهم محافظون على هدوئهم . فهم يريدون منا أن نقترب منهم . ولكني خائف ولست أخجل من البوح بذلك . ماذا لو درنا على أعقابنا ـ وهربنا ؟

فسأله تشوباتي مغتاظاً :

ـ فيم نواحك هذا اليوم ؟ الأمر أشبه بلعب الورق . فمتى مافقدت الثقة بنفسك انتهى أمرك . إن وجهك شاحب ياغريشا . فإما أن تكون مريضاً أو... سوف تصاب اليوم . انظر! هل شاهدت ذلك ؟

وكان قد استوى ألماني يرتدي سترة قصيرة وخوذة مدببة فجأة بكامل قامته فوق الخنادق ، ثم مالبث أن اختفى ثانية .

وعلى يسار غريغوري كان قوزاقي أشقر وسيم ما ينفك يلبس ويخلع قفازيه فيما هو يسير . كان يكرر هذه الحركة باستمرار ، ماداً ساقيه ومتكلفاً التنحنح بصوتٍ عالٍ .« أشبه بشخص يسير بمفرده في الليل ويتنحنح ليبعث الثقة في نفسه » ،ـ قال غريغوري ذلك في سريرته . والى أبعد من ذلك استطاع أن يرى وجنة العريف ماكساييف النمشاء ، يتلوه يميليان غروشيف ، ممسكاً ببندقيته وقد ثبت فيها الحربة في حالة الاستعداد . وتذكر غريغوري أن يميليان كان قد سرق قبل بضعة أيام كيس ذرة من روماني ، واستعمل هذه الحربة في فتح قفل غرفة المخزن .

وكان ميشا كوشيفوي يسير إلى جانب ماكساييف تقريباً . كان يدخن بشدة ويتمخط من حين لآخر ، ويمسح أصابعه بمعطفه .

فقال ماكساييف :

ـ بودي أن أشرب شيئاً .

وقال كوشيفوي متشكياً :

ـ إن جزمتي تؤلمني ، يايميليان .

ولكن غروشيف قاطعه بصرامة :

ـ دعنا من جزمتك . فبعد لحظة سينهال علينا الألمان بوابل من رصاص المدافع الرشاشة .

وناشت أول دفقة من طلقات العدو غريغوري ، فسقط على الأرض وهو يئن . وحاول أن يتناول حافظة الإسعافات الأولية من حقيبتة ، الا أن الدم الحار المتدفق من مرفقه داخل كمه قد هد من قواه . ورقد على الأرض ولاذ برأسه وراء صخرة كبيرة ، ولعق زغب الثلج بلسانه الملتهب ، وتلقف ملهوفاً من شدة العطش الغبار الثلجي الهش بشفتيه المرتجفتين . وأصغى بخوف ورعدة غير اعتياديين ، إلى قعقعة البنادق الحادة الجافة ورعد المدافع المتواصل . ورفع رأسه فرأى قوزاق سريته يهرولون عائدين أسفل المنحدر ، وهم يتزحلقون ويتساقطون ، ويطلقون النار على غير هدى . ولكنه بدافع من خوف غريب لا يوصف استوى على قدميه ، واندفع راكضاً إلى الأسفل شطر سياج غابة الصنوبر المنثلم الذي كانت الكتيبة قد انطلقت منه في هجومها . وأدرك غريغوري غروشيف الذي كان يجرجر خلفه ضابط رعيل جريحاً أسفل المنحدر الحاد ، وكان الضابط يترنح مثل السكران مستنداً إلى كتف غروشيف ، وهو يتفل بقعاً سوداء من الدم . وتدفقت السرية نحو الغابة كالسيول . وعلى المنحدرات الرمادية خلفها رقدت أكوام رمادية صغيرة من الموتى ، وزحف الجرحى إلى أسفل دون مساعدة ، تلفحهم نيران المدافع الرشاشة العنيفة .

وولج غريغوري الغابة متكئاً على ذراع ميشا كوشيفوي . كان الرصاص يتقافز على الأرض المنحدرة ومن ميسرة الالمان كان مدفع رشاش ينثر برداً دقيقاً يرسل رنيناً أشبه بأصوات أحجار تلقي بها يد قوية على سطح جليدي خفيف لنهر متجمد .

وصاح تشوباتي بما يشبه الجذل :

ـ إنهم يسلقوننا سلقاً!

واتكأ على جذع صنوبرة أحمر ، وراح يطلق النار بفتور على الألمان المتدفقين فوق حافة الخنادق .

وصاح كوشيفوي منتزعاً ذراعه من غريغوري :

ـ يجب أن نعلّم الحمقى . الناس خنازير ، بل أسوأ! حين ينزفون كل دمائهم ، يدركون لأي سبب قتلوا!

فتجهم تشوباتي :

ـ فيم تهذي ؟

ـ لو كنت ذكياً لكان بوسعك أن تفهم بنفسك . ولكن ماذا عسى أن يفهم الأحمق ؟ لاشيء يجعله...

فسأله تشوباتي :

ـ هل تذكر قسمك ؟ هل أقسمت أم لا ؟

وجثا كوشيفوي على ركبتيه ، بدلاً من أن يجيب ، وجرف بعض الثلج بيدين مرتعشتين ، وابتلعه بشراهة ، وهو يرتجف ويسعل .

٥

دارت شمس الخريف فوق تاتارسكي عبر سماء حرثتها غيوم رمادية متموجة . وفي الأعالي كان نسيم رقيق يسوق السحب ببطء نحو الغرب ، وفوق القرية ، فوق سهل وادي الدون الحالك الخضرة ، فوق الغابات العارية ، كانت الريح تهب بقوة تحني هامات الصفصاف والحور ، وتعبث بصفحة الدون ، وتطارد أسراباً من الأوراق القرمزية في الشوارع . وفي ساحة درس الحبوب العائدة لخريستونيا نثرت الريح حزمة من قش القمح لم يحسن شدها ، وانتزعت أعلاها ، وأطارت حافتها الخفيفة . واختطفت فجأة حملاً ذهبياً من القش كما لو كان على مذراة ، وحملته إلى الفناء في الخارج ، فتطاير دوامات عبر الشوارع ، ونثرته بأريحية فوق الطريق الخالي ، ثم ألقت بالحزمة المنتثرة آخرالأمر فوق سطح بيت ستيبان أستاخوف . وخرجت زوجة خريستونيا تعدو إلى الباحة دون أن تضع عليها شالها ، ووقفت برهة من

الوقت ترقب الريح التي كانت تصول وتجول في ساحة الدرس ، ثم عادت من حيث أتت .

لقد خلفت سنوات الحرب الثلاث أثاراً بينة على القرية .فإذ حرمت البيوت من أذرع رجالها ، غارت أسقف الحظائر ، وعم الاهمال باحات الدور ، وترك الخراب التدريجي آثاره في كل مكان . ولم يكن لدى زوجة خريستونيا من يعينها سوى ابنها البالغ تسع سنوات من العمر . ولم تكن زوجة أنيكوشكا تصلح لشأن من شؤون الحقل أبداً ، وبسبب وحدتها راحت تولي مظهرها اهتماماً مضاعفاً ، وتزين نفسها ، ولمّا لم يكن عدد القوزاق اليافعين كافياً ، فقد رضيت بصبيان من سن الرابعة عشرة ونحو ذلك . وكانت بوابتها الخشبية التي لطخها أحدهم بالقطران بسخاء ذات مرة ، ماتزال تحمل آثار ذلك مصداقاً لتلك الأقاويل . وكان بيت ستيبان استاخوف قد هجر كلياً ، وغطى صاحبه النوافذ بالألواح ، وتهاوى السقف ونما عليه نبات الأرقطيون ، وتراكم الصدأ على قفل الباب ، وكانت الماشية الضالة تتسكع خلال البوابة المفتوحة ، باحثة عن مأوى يحميها من غائلة الحر والمطر في الفناء الذي غطته الأعشاب والأدغال .

وكاد جدار بيت إيفان توميلين أن يتهاوى على الشارع ، لولاأن عموداً متشعباً كالشوكة قام على اسناده . ويبدو أن القدر كان يأخذ ثأره منه لما هدم من بيوت روسية وألمانية حين كان مصوب مدفع .

كذلك كان الحال في شوارع وأزقة القرية كلها . وفي طرفها الأدنى لم يحتفظ سوى بيت وساحة بانتلاي بروكوفيتش ميليخوف بمظهرها العادي ، وقد بدا كل شيء هناك سالماً ومتسقاً ، على أن واقع الحال لم يكن كذلك . فلقد سقط الديكان الحديديان من سطح مخزن الحبوب ، وقد تآكلهما الزمن ، ومال مخزن الحبوب إلى أحد الجانبين ، وبوسع العين المتفحصة أن تكتشف علامات أخرى للإهمال . إذ لم يكن بإمكان الرجل العجوز أن يتدبر كل شيء . وكان بذاره يقل شيئاً فشيئاً . أما الخسائر الاخرى فهي لا تعد ولا

تحصى . وبقيت عائلة ميليخوف وحدها دون أن تفقد من أفرادها أحداً . فلكي تعوض ناتاليا عن غياب بيوتر وغيوغوري ، أنجبت توأمين في خريف السنة الماضية .

وقد أظهرت براعة كافية في إرضاء كل من بانتلاي وايلينشنا بإنجابها بنتاً وولداً . على أن حمل ناتاليا لم يكن يسيراً ، فقد أمضت أياماً كاملة لم تستطع فيها المشي إلا بمشقة ، بسبب آلام ساقيها الشديدة ، وكانت تترنح مجرجرة قدميها الواحدة وراء الأخرى . ولكنها تحملت الألم برباطة جأش ، فلم ينعكس أبداً على وجهها النحيل الأسمر ، إنما السعيد . ولم تكن إيلينشنا لتفطن إلى آلامها إلا عندما يطفح صدغاها بحبات العرق ساعة يشتد بها الألم ، فتطلب منها أن تستلقي لتستريح .

وذات يوم لطيف من أيام أيلول شعرت ناتاليا بدنو ساعة الوضع ، فتأهبت للخروج من البيت . فسألتها إيلينشنا :

- إلى أين تذهبين ؟

- إلى المرج . سأسرج البقر .

وسارت مسرعة إلى ماوراء القرية ، وهي تئن وتضع يدها تحت بطنها ، وشقت طريقها إلى أجمة من الشوك البري ، ورقدت . كان الغسق قد أرخى سدوله عندما عادت إلى البيت من الطرق الجانبية ، تحمل توأمين في ستار من الجنفاص .

فصاحت إيليشنا عندما استطاعت أن تنطق بشيء :

- يا عزيزتي! أيتها البائسة الصغيرة! ما كل هذا! وأين كنت ؟

فأجابتها ناتاليا الشاحبة الوجه :

- لقد شعرت بالخجل ، ولهذا خرجت... لم أكن أحب أن...أمام أبي... إنني نظيفة يا أمي ، وقد غسلتهما . خذيهما .

وهرعت دونيا لإحضار قابلة ، وشغلت داريا نفسها بتبطين غربال بالقماش . فصاحت بها إيلينشنا وهي تضحك وتبكي من الفرح :

ـ داريا ، القي بذلك الغربال جانباً ، هل هما قطتان حتى تريدي وضعهما في غربال ؟ يا إلهي! إنهما اثنان! يا إلهي ، أحدهما ولد! ناتاليا ، عزيزتي... أعدوا لها الفراش!

وحينما سمع بانتلاي أن كنته قد أنجبت توأمين فتح ذراعيه على اتساعهما في دهشة ،ثم بكى جذلاً وجعل يمسد على لحيته . ولغير ما سبب ظاهر صاح في القابلة وهي تقترب :

ـ كلا ، أيتها المهذارة العجوز! ـ ولوح بقبضته أمام أنف العجوز : ـ أنت كاذبة! إن سلالة ميليخوف لن تنقرض بمثل هذه السرعة! لقد أنجبت كنتي قوزاقياً وبنتاً . أنعم بها من كنة! أيها الرب ، ياالهي! كيف يمكنني أن أردّ لها مثل هذا الجميل ؟ » .

وشد ما كان ذلك العام معطاء ، فلقد أنجبت البقرة توأمين ، وفي عيد القديس ميخائيل أنجبت النعاج توائم ، والماعز... وأخذ بانتلاي يعلل ذلك مع نفسه وقد أدهشته المصادفات :

« هذا عام بشائر ، وعطاء أيضاً! فكل شيء ينجب توائم! يالها من محاصيل تدر علينا . بخ! بخ! » .

وظلت ناتاليا ترضع طفليها اثني عشر شهراً . ثم فطمتهما في أيلول ، ولكنها لم تسترد صحتها إلا في نهاية الخريف .

والتمعت أسنانها مثل الحليب في وجهها المضني ، وكانت عيناها اللتان لاحتا واسعتين بصورة غير طبيعية بسبب هزالها ، تتألقان ببريق دافئ . وكرست حياتها كلها للطفلين وأصبحت تهمل نفسها وتقضي كل وقت فراغها معهما ، تغسلهما وتقمطهما ، وتخيط لهما الثياب ، وكثيراً ما كانت ترفعهما من المهد ، وهي جالسة على السرير مدلية احدى ساقيها ، وبحركة من كتفيها تخرج ثدييها الممتلئين الكبيرين وكأنهما شمامتان صفراوان ، وترضعهما كليهما في وقت واحد .

فكانت إيلينشنا تقول وهي تربت على سيقان حفيديها الصغيرة الممتلئة :

ـ لقد امتصا منك مافيه الكفاية . انك تطعمينهما كثيراً جداً .

وكان بانتلاي يتدخل بغيرة فظة :

ـ ارضعيهما! ولا تحتفظي بالحليب! فنحن لا نريده لعمل الزبدة!

وكانت الحياة خلال هذه السنوات تعاني انحساراً بطيئاً كمياه الدون غب الفيضان . كانت الأيام كئيبة مضنية ، تمضي في لغط متواصل ، في عمل ، في أشياء صغيرة ، في أفراح صغيرة وقلق متواصل على أولئك الذين ذهبوا إلى الحرب . وكانت تصل من بيوتر وغريغوري رسائل نادرة في مظاريف متسخة ملطخة بأختام البريد . وقد وقعت رسالة غريغوري الأخيرة بيد شخص آخر ، وكان نصفها مشطوباً بعناية بحبر بنفسجي ، وقد وضعت بالحبر علامة غير مفهومة على هامش الورقة الرمادية . وكان بيوتر يكتب أكثر من غريغوري ، وفي رسائله إلى داريا كان يهددها ويناشدها أن تكف عن عبثها . فقد بلغت سمعه ، على ما يبدو ، شائعات عن حياة زوجته المعيبه . وكان غريغوري يرسل إلى أهله مع خطاباته نقوداً ، رواتبه والمكافآت المالية التي يستلمها مع الأوسمة . وكان يعد بالمجيء إلى البيت خلال فترة إجازته ، غير أنه لم يأتِ . سار الأخوان في طريقين مختلفين كل الاختلاف . فقد أثقلت الحرب بكلكلها على غريغوري ، وزال تورد وجهه مخلفاً يرقاناً أصفر . ولم يكن يتوقع أن يعيش حتى نهاية الحرب .

أما بيوتر فقد ارتقى سلم المناصب بسرعة وسهولة ، وشق طريقه بما يقع موقع الرضى في نفس آمر سريته ، فقد منح وسامين ، وفي خريف عام ١٩١٦عين رئيس عرفاء ، وأخذ يتحدث الآن في رسائله عن سعيه لدخول مدرسة الضباط . وأرسل في الصيف إلى أهله مع انيكوشكا الذي حصل على إجازة خوذة ومعطفاً لضابط الماني ، وصورته الفوتوغرافية . وكان وجهه الذي يطل بخيلاء من الصورة الرمادية يبدو متقدماً في السن ، وشارباه الكتانيان مبرومان إلى الأعلى ، وتحت أنفه الأفطس انفرجت تكشيرته المعهودة بين شفتيه العنيدتين . كانت الحياة تبتسم لبيوتر ، وقد أبهجته الحرب لأنها فتحت

أمامه آفاقاً جديدة . ولولاها لما استطاع ، وهو القوزاقي البسيط ، أن يحلم بمنصب ضابط ، وبحياة أخرى أحلى . ولم يكن ليكدر صفو آمال بيوترسوى جانب واحد من حياته ، فقد كانت الشائعات القبيحة تحوم في القرية حول زوجته . فبعد أن عاد ستيبان أستاخوف إلى الكتيبة من إجازته التي تمتع بها في خريف ١٩١٦ ، تباهى أمام سريته بأكملها ، بالأيام الماتعة التي قضاها مع زوجة بيوتر . ولم يكن بيوتر ليصدق تلك القصص ، فادلهمّ وجهه وابتسم قائلاً :

ـ ان ستيبان كذّاب! إنه يحاول أن يطعن بي بسبب ما فعله غريغوري .

بيد أنه ذات يوم بينما كان ستيبان خارجاً من حفيرته ، أسقط عمداً أو سهواً منديلاً مطرزاً من الدانتيلا . فالتقطه بيوتر ، وقد كان خلفه مباشرة ، وعرف في الحال أنه من عمل زوجته . فشبّت العداوة مرة أخرى بينهما . وجعل بيوتر يتربص به الدوائر ، وحام الموت حول ستيبان . ولو كان بمستطاع بيوتر ، لصرع ستيبان على شاطىء الدفينا وقد ترك على رأسه أثراً من رصاصته .

ولكن حدث بعد وقت قصير أن خرج ستيبان في دورية للاستيلاء على نقطة أمامية ألمانية . ولم يعد بعدها . وقال القوزاق الذين كانوا معه أن أحد الجنود الالمان سمعهم يقطعون الاسلاك الشائكة ، فألقى قنبلة يدوية . واستطاع القوزاق إدراكه وقد أرداه ستيبان على الأرض بقبضته ، بيد أن حارساً مساعداً له أطلق النار ، فسقط ستيبان . وطعن القوزاق الحارس الثاني بالحراب ، وسحبوا الالماني الذي صرعته ضربه ستيبان ، وحاولوا أن يرفعوا ستيبان أيضاً . ولكنه كان ثقيلاً جداً فاضطروا الى تركه .

فأخذ ستيبان يتوسل : «اخواني ، لا تتركوني أموت! أيها الرفاق! لماذا تتركوني ؟ »

ولكن وابلاً من رصاص الرشاش تناثر خلال الأسلاك الشائكة ، فزحف القوزاق مبتعدين ، صاح ستيبان في أعقابهم« أيها الاخوان! » ولكن ماجدوى

ذلك ؟ ينبغي أن تنجو بجلدك قبل الآخرين . وعندما سمع بيوتر بمصير ستيبان شعر بالراحة ، وكأنه لبخ قرحة مؤلمة بالمرهم ، ولكنه عقد العزم على هدر دم داريا عندما يحصل على إجازة . فليس هو مثل ستيبان! انه لن يقبل بذلك! وفكر في قتلها ، ولكنه رفض الفكرة في الحال . « أقتل العاهرة ، وأدمر كل حياتي بسببها ؟ وأتعفن في السجن ، وأفقد كل ما سعيت من أجله ، أفقد كل شيء ؟ » وقرر أن يضربها فقط ، ولكن بشكل يشفيها من كل رغبة في رفع ذيلها ثانية! « ولسوف أقلع عينها ، تلك الأفعى ، حينذاك لن ينظر اليها إنسان ما! » هكذا فكر فيما كان جالساً في الخندق غير بعيد عن شاطىء نهر دفينا الطيني المنحدر .

وانقض الخريف على الاشجار والعشب ، وأحالها صقيع الصباح قاتمة ، وبردت الأرض ، واحلولكت ليالي الخريف واستطالت . وفي الخنادق كان القوزاق يمارسون أعمالهم المرهقة ، ويطلقون النار على الالمان ، ويناقشون رؤساء عرفائهم حول الحصول على ملابس دافئة ، ولم يتيسر لهم طعام كاف ، غير أنه لم يكف أحدهم عن التفكير في أهليهم في الدون بعيداً عن هذه الأرض الغريبة العزوف .

وفي ذلك الخريف عوّضت داريا عن كل حياتها الجائعة المفتقرة إلى زوج . وذات صباح استيقظ بانتلاي بروكوفييفتش قبل بقية أعضاء الأسرة كعادته ، وخرج إلى الفناء . فأمسك برأسه وقد أذهله مارأى . كان مصراعا البوابة قد خلعا ، وألقي بهما في وسط الطريق . كانت هذه إهانة ، عاراً! فأعاد العجوز البوابة في الحال إلى مكانها ، وبعد الفطور استدعى داريا إلى الخارج في المطبخ الصيفي . ولم يدر الآخرون قط ما تحدثا به ، غير أن دونيا شاهدت داريا بعد بضع دقائق تعدو خارجة من المطبخ شعثاء الشعر منتحبة ، وقد تهدلت عصابتها . واذ مرت بدونيا هزت كتفيها وارتعش قوسا حاجبيها في وجهها الغضوب المبلل بالدموع .

وفحت من بين شفتيها المتورمتين :

ـ اصطبر ، أيها الشيطان العجوز! سأرد لك ذلك!

ولاحظت دونيا أن قميصها كان ممزقاً من الخلف ، وقد بدت كدمة زرقاء على كتفيها العاريتين . وجرت صاعدة الدرج ودلفت إلى البيت ، بينما أقبل بانتلاي يعرج من المطبخ الصيفي ويبدو عليه الشر كالشيطان ، وهو يجدل عناناً جلدياً جديداً أثناء سيره . وسمعت دونيا أباها يقول :

ـ كان ينبغي أن أقسو معك أكثر من ذلك ، أيتها الفاجرة ، أيتها العاهرة!

وعاد النظام إلى البيت وسارت داريا بضعة أيام أهدأ من الماء ، وأرخى من الحشيش ، فكانت تأوي إلى الفراش كل ليلة قبل أي شخص ، وتبتسم ببرود لنظرات ناتاليا العطوف ، وهي تهز كتفيها وترفع حاجبيها كمن تقول : « حسناً ، سوف نرى! » وفي اليوم الرابع ، وقع حادث لم يعلم به سوى داريا والعجوز بانتلاي . ومضت داريا بعد ذلك تضحك بانتصار ، فيما ظل العجوز مرتبكاً اسبوعاً بكامله ، وزرياً كقط مذنب . ولم يخبر زوجته بما حدث ، وحتى عند الاعتراف احتفظ بالحادث وبأفكاره الخاطئة سراً عن الأب فيساريون .

وكان هذا ماحدث . كان بانتلاي واثقاً من توبة داريا التامة ، فقال لزوجته إيلينشنا :

ـ لا ترحمي داريا! شددي عليها بالعمل . فلن تخطىء مادامت تعمل ، فهذه المهرة الجميلة العاهرة لا تبالي بشيء الا بنزواتها الليلية .

وأشغل هو بنفسه داريا في تنظيف ساحة درس الحبوب وجمع الحطب في الفناء الخلفي . وساعدها في إخلاء سقيفة التبن . وبعد ذلك في أصيل ذلك اليوم فكّر في نقل ماكنة التذرية من مخزن الحبوب إلى سقيفة التبن ، واستدعى كنته لمساعدته .

وخرجت داريا ومرّت من ساحة درس الحبوب إلى المخزن وهي تصلح عصابتها وتنفض التبن الذي تسلل إلى ماتحت ياقة سترتها . وذهب بانتلاي في المقدمة ، وكان مرتدياً سترة مبطنة بالصوف وسروالاً خلقاً لعمل النهار . كانت الساحة خالية . فدونيا منهمكة في مساعدة أمها في غزل صوف الخريف ، وناتاليا تعدّ العجين لخبز الصباح . وكانت شمس الغروب تسطع فيما وراء

القرية . والناقوس يقرع لصلاة المساء . وتعلقت سحابة صغيرة بلون التوت البري بلاحراك في قبة السماء الصافية ، وهبطت الغربان في عقد سود على الأغصان الرمادية الجرد لأشجار الحور وراء الدون . وفي سكون المساء الأجوف كان كل صوت حاداً ومتميزاً . وجاءت من حظيرة الماشية الرائحة القوية المنبعثة من الروث المتبخر والتبن . وحمل بانتلاي وداريا ماكنة التذرية ذات اللون الأحمر الباهت إلى سقيفة التبن ، ووضعاها في ركن . وجمع بعض التبن المتساقط واستدار ليخرج . فنادت داريا في همسة خفيضة :

ـ أبي!

فعاد إلى آلة التذرية قائلاً وهو لا يشتبه في كنته بشيء معيب :

ـ ما الخبر ؟

وقفت داريا مواجهة اياه وقميصها مفكك الأزرار ، وقد دفعت ذراعيها إلى الوراء لتصلح شعرها . وتساقط شعاع قرمزي من شمس المغيب على رقبتها من خصاص الحائط :

ـ هنا ، يا أبي ، لدي شيء لك... تعال وانظر .

قالت ذلك وهي تميل جانباً وتسترق النظر متلصصة إلى الباب المفتوح عبر كتف العجوز . فتقدّم نحوها . وفجأة التقت بذراعيها عليه وطوقت عنقه وشبكت أصابعها ، وخطت إلى الخلف وهي تجره وراءها وتهمس :

ـ هنا ، يا أبي... هنا . فالمكان أكثر طراوة .

فتساءل بانتلاي جافلاً :

ـ ماذا دهاك ؟

وحاول تخليص نفسه من ذراعيها وهو يلوي رأسه من جانب لآخر ، ولكنها سحبت رأسه نحو وجهها بمزيد من القوة ، وهي تتنفس بحرارة في لحيته وتتضاحك وتهمس .

ـ إليكِ عني أيتها العاهرة ؟ ـ وجاهد العجوز وهو يحس ببطن كنته ملتصقاً به تماماً . وراحت تشد عليه أكثر فأكثر ، وارتمت إلى الخلف وجرته إلى

الأسفل ، وهو فوقها .

ـ يا للشيطان! لقد فقدت صوابك! إليك عني! فلهثت داريا :

ـ ألا تريد ؟

وفتحت ذراعيها ، ودفعت العجوز من صدره وقالت :

ـ أو لعلك لا تستطيع ؟ اذاً ، فلا تحاسبني! هل تسمع ؟

وانتصبت على قدميها ، وأصلحت تنورتها بسرعة ، ونفضت التبن عن ظهرها وصاحت في وجه العجوز الغضبان :

ـ لماذا ضربتني ذلك اليوم ؟ هل أنا امرأة عجوز ؟

ألم تكن كذلك عندما كنت فتياً ؟ زوجي! لم اره منذ عام! فماذا عساي أفعل... أضاجع كلباً ؟ ربما كان ذلك أمراً هيناً عليك يا أعرج! هنا ، خذ هذا!

وأتت بحركة معيبة ، ثم اتجهت شطر الباب وحاجباها يتراقصان . وتفحصت ملابسها عند الباب مرة أخرى بمزيد من العناية ، وأزالت الغبار عن سترتها وعصابتها ، وقالت دون أن تنظر إلى الخلف شطر بانتلاي :

ـ لا يمكنني أن أحيا بغير ذلك ، إنني بحاجة إلى قوزاقي ، وان لم تكن بك رغبة... فسأجد بنفسي واحداً ، وعليك أن تغلق أنت فمك!

وذهبت مسرعة إلى باب سقيفة التبن وردفاها يترجرجان ، واختفت دون أن تلقي نظرة إلى الوراء ، بينما ظل بانتلاي بروكوفيتش واقفاً إزاء التذرية ، وهو يلوك لحيته ويجول ببصره كالمخطىء حول سقيفة التبن . «لعلها كانت مصيبة على كل حال ؟ لعله كان من الأفضل أن أخطىء معها ؟» قال ذلك في دخيلته متحيراً وقد أذهله ماحدث .

٦

في تشرين الثاني أطبق الصقيع ، وسقط ثلج مبكر ، وعند المنحنى ، في الطرف الأعلى من القرية تجمد الدون . ومن حين لآخر كان شخص يخاطر

فوق الجليد ذي الزرقة التي تحاكي الحمام ويعبر إلى الجانب الأقصى . وإلى أبعد من ذلك ، لم تكن سوى حافتي النهر مغطاتين بطبقة رقيقة من الجليد ، وكان التيار يجري مدوماً في الوسط ، وتتواثب الأمواج الخضراء بقممها الرمادية . وفي الغديرأسفل «الضفة السوداء» كان السمك القرموط قد مضى عليه زمن مذ غطس في سبات شتائي إلى عمق يبلغ سبعين قدماً . ورقد الشبوط الزئبقي قريباً . وسمك الكراكي وحده يثابر ضد التيار ويندفع عبر الأماكن الضحلة وهو يطارد السمك الصغير . ورقد سمك القرش فوق الحصباء ، وكان الصيادون ينتظرون صقيعاً شديداً كي يصطادوا السمك بالخطاطيف .

في تشرين الثاني تلقت عائلة ميليخوف رسالة من غريغوري ، بعث بها من رومانيا يقول فيها أنه قد جرح في القتال الأول : فقد هشمت رصاصة عظم ذراعه الأيسر ، لهذا اعيد إلى اقليمه ، إلى قرية كامينسكايا ريثما يلتئم الجرح . وحلت مصيبة أخرى بعائلة ميليخوف في أعقاب هذا الخبر : فمنذ ثمانية عشر شهراً وبانتلاي بروكوفيتش بحاجة إلى النقود ، وكان قد اقترض مئة روبل من سيرغي موخوف ، وأعطاه صك رهن كضمان . وفي الصيف استدعي العجوز إلى حانوت موخوف وسئل عما إذا كان في نيته أن يدفع المبلغ أم لا بينما كان صاحب الحانوت يحدّق في لحية بانتلاي بروكوفيتش من خلال نظارته الذهبية . فجالت نظرة بانتلاي بروكوفيتش مشتتة حول الرفوف نصف الفارغة والمناضد اللامعة ، وقال متردداً :

ـ انتظر قليلاً ، أمهلني كي أبحث قليلاً ، وسأردها لك .

بيد أن العجوز لم يستطع «البحث» . فلقد كان المحصول ضئيلاً ولم تكن الماشية تستحق البيع . وفجأة ، وكما يسقط الثلج في حزيران ، جاء مأمور المحكمة إلى مكتب ادارة القرية ، وأرسل في طلب بانتلاي بروكوفيتش وقال له بالحرف الواحد :

ـ ضع مئة روبل .

ورقد كتاب رسمي مطوّل على طاولة مفتش البوليس ولم يكن بوسع

بانتلاي بروكوفيتش سوى أن يصغي فيما كان المفتش يقرأ :

قرار قضائي

بأمر من صاحب الجلالة الامبراطورية ، صدر في اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الأول عام ١٩١٦ ، استمعت أنا ، الحاكم المدني للدائرة السابعة لإقليم الدونيتس ، إلى دعوى التاجر سيرغي موخوف المقامة ضد العريف بانتلاي بروكوفيتش ميليخوف حول مئة روبل استحقّت وفق صك الرهن لأمر التاجر موخوف . واستناداً إلى المواد ٨١ ، ١٠٠ ، ١٢٩ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ، من القانون قضيت بما هو آت :

على العريف بانتلاي ميليخوف أن يدفع للتاجر سيرغي موخوف المئة روبل المثبتة في صك الرهن الموقع في ٢١ حزيران ١٩١٥ ، مضافاً اليها ثلاثة روبلات عن المصاريف . صدر الحكم غياباً ، وهو ليس قطعياً .

وبموجب الفقرة الثالثة من المادة ١٥٦ من القانون المدني ، أصبح هذا الأمر ذا مفعول قانوني وسيوضع موضع التنفيذ في الحال .

ان الحاكم المدني للدائرة السابعة لاقليم الدونيتس يأمر بتفويض من صاحب الجلالة الامبراطورية بما يلي :

على جميع الأفراد والمؤسسات ذات العلاقة تنفيذ الحكم الآنف الذكر طبقاً لأحكام القانون . وينبغي أن ينال الضابط المسؤول عن تنفيذ قرار المحكمة العون من لدن جميع السلطات العسكرية والشرطة المحلية عند أداء واجبه .

وعندما سمع بانتلاي بروكوفيتش بالحكم طلب السماح له بالذهاب إلى داره ، واعداً بإحضار النقود في اليوم نفسه .

ولكنه ذهب مباشره إلى دار كورشونوف . والتقى في الساحة بأليكسي شامل ذي الذراع الواحدة فحياه هذا قائلاً :

ـ كيف حالك يابانتلاي ؟

ـ الحمد لله!

ـ اذاهبٌ بعيداً ؟

ـ إلى أبي زوجة الابن ، في مهمة .

ـ أوه ؟ ستجدهم في مرح . ألا تعرف ؟ سمعت أن ابنهم ميتكا عاد من الجبهة .

ـ هكذا ؟

فأجابه شامل وهو يطرف بعينيه وخده :

ـ هكذا قيل لي .

وأخرج كيس تبغه وأضاف :

ـ هاك نفساً أيها العم ، من ورقي وتبغك .

وأشعل بانتلاي سيكارة ، ولبث يسائل نفسه أيذهب لرؤية كورشونوف أم لا . وأخيراً قرر أن يذهب ، وسار يعرج . فصاح شامل وراءه :

ـ لقد نال ميتكا وساماً هو الآخر . إنه يحاول أن يلحق بولديك . أصبح لدينا في القرية من الأوسمة مثلما في الأشجار من عصافير .

ومضى بانتلاي بروكوفيتش متأنياً حتى طرف القرية ، ثم نظر من نافذة بيت كورشونوف ، وذهب إلى فتحة البوابة . فالتقى بميرون نفسه . كان وجه العجوز الأنمش يشع بهجة .

فسأله كورشونوف وهو يعقد ذراعه بذراع بانتلاي :

ـ أسمعت بفرحتنا ؟

ـ لقد أخبرني أليكسي شامل لتوه وأنا في طريقي إليك . ولكنني جئت لأمر آخر...

ـ لنرجئه! هيا ادخل البيت وقابل الفتى . كنا نشرب بعض الشيء ، نخب فرحتنا . ان زوجتي تحتفظ بقنينة لمثل هذه المناسبة المباركة .

فابتسم بانتلاي بروكوفيتش ورفع منخريه :

ـ لا حاجة بك إلى اخباري . فقد شممت الرائحة من بعيد .

ودفع ميرون الباب ، وتنحّى جانباً ليدع بانتلاي يدخل . واجتاز العتبة واستقر نظره في الحال على ميتكا الذي كان يجلس وراء المائدة عند الأيقونة . فصاح الجد غريشاكا والدموع تترقرق في عينيه ، وهو يحتضن كتف ميتكا :

ـ ها هو ، فتانا الجندي!

ـ أهنئك بعودة سعيدة ، أيها القوزاقي!

وأخذ بانتلاي بروكوفيتش يد ميتكا الطويلة في يده وتراجع خطوة إلى الوراء ، وهو يجيل فيه النظر باندهاش . فسأله ميتكا بصوتٍ أجش ، وعلى وجهه ابتسامة :

ـ حسناً ، فيم تحدّق ؟

ـ لا استطيع أن أقاوم النظر ، إنني مندهش للغاية . رأيتك وغريغوري تذهبان في وقت واحد ، وقد كنتما طفلين . والآن حسبك أن تنظر إلى نفسك! قوزاقي أصيل ، وتصلح لكتيبة الأتمان .

ونظرت لوكينشنا إلى ميتكا بعينين مغرورقتين بالدموع ، وهي تحاول في الوقت نفسه أن تصب الفودكا في قدح . وتركتها تسيل من فوق الحافة ، دون أن تلحظ ما تفعل . فصاح بها ميرون :

ـ أنت أيتها الخرقاء! ماذا أنت فاعلة ، تبددين الخمرة الجيدة!

ـ نخب صحتكم ، ونخب صحتك يا ميتكا ، بمناسبة عودتك السعيدة!

وأجال بانتلاي عينيه ببياضهما الحائل إلى الزرقة واحتسى قدح الفودكا الكبير وأهدابه تطرف ، دون أن يتوقف لحظة ليجر نفساً . ومسح شفتيه وعذاريه بيده ببطء ، وثبّت عينيه في قعر القدح ، والقى برأسه إلى الوراء ، وصبّ قطرة يتيمة من الفودكا في فمه المفتوح ، وحينذاك فقط أخذ نفساً وقضم قضمة من خيارة مخللة ، وقد طرفت عيناه بغبطة . وصبّت له لوكينشنا قدحاً آخر ، وسرعان مالعبت برأسه الخمرة وراح ميتكا يراقبه وهو يبتسم . وأخذت عيناه الشبيهتان بعيني القط تضيعان تارة حتى تغدوا شقين أخضرين ، وتتسعان داكنتين تارةً أخرى .

لم يكن هناك شك في أن الفتى قد تغير كثيراً خلال سنوات غيابه . فلم يبق في هذا القوزاقي المفتول العضلات ذي العذارين الأسودين ، أي شيء تقريباً من ذلك الشاب الرشيق الذي كان قد رحل لأداء الخدمة قبل ثلاث سنوات . لقد كبر كثيراً ، واتسعت كتفاه ، ولا ريب أن وزنه لم يكن بأقل من خمسة بودات . وقد ازداد وجهه وصوته خشونة ، وبدا أكبر من سنّه . ولم تبق سوى العينين كما كانتا ، مضطربتين قلقتين كعهدهما . وكانت أمه تغرق في ضوئهما ، وهي تبكي وتضحك ، وتمسّد بيدها المتغضنة شعر ابنها القصير الخشن وجبينه الأبيض الضيق .

قال بانتلاي بروكوفيتش وهو يبتسم ثملاً :

ـ اذاً فقد نلت الوسام ؟

فقطب ميتكا :

ـ ومن من القوزاق لم ينل وساماً الآن ؟ لقد نال كروتشكوف ثلاثة أوسمة لمجرد تردده على مقر القيادة .

فتعجل غريشاكا العجوز التدخل قائلاً :

ـ إنه مزهو . انه يشبهني بالضبط ، ذلك الشيطان . فهو لن يحني هامته للآخرين .

فأجاب بانتلاي بصرامة :

ـ إنهم لا يمنحونهم الأوسمة من أجل ذلك .

ولكن ميرون جره إلى غرفة أخرى ، وأجلسه على صندوق وقال له :

ـ كيف حال ناتاليا والحفيدين ؟ الكل أحياء ومتعافون ؟ حمداً لله! لقد قلت أنك جئت بمهمة ، أليس كذلك ؟ ماهي ؟ تكلم ، وإلا فسوف نشرب ثانية ولن يكون في وسعك الكلام .

فتوسل إليه بانتلاي بلهجة ذليلة ثملة بطيئة :

ـ أعطني نقوداً! بحق الاله! ساعدني ، والا قضت عليَ تلك... مشكلة النقود هذه .

فقاطعه ميرون :

ـ كم ؟

ـ مئة .

ـ مئة ماذا ؟

ـ مئة روبل .

ـ حسناً ، قل هكذا ، اذن .

وراح كورشونوف ينبش في الصندوق ، ثم أخرج منديلاً قذراً ، وحلّ عقدته ، وعدّ عشر ورقات من فئة العشرة روبلات .

ـ شكراً لك يا ميرون غريغورييفتش ، لقد أنقذتنا من البؤس!

ـ كلا ، لا تشكرني . حينما يكون الأمر متعلقاً بلحمنا ودمنا .

قضى ميتكا خمسة أيام في قريته . كان يقضي لياليه مع زوجة انيكوشكا ، وهو يرثي لحاجة المرأة المريرة ، وبالأخص لها ، كزوجة بسيطة ومطيعة . وكان يقضي النهار متجولاً بين أقاربه وأصدقائه . كان يترنح في الطرقات ، لا يرتدي سوى قمصلة خاكية خفيفة فقط ، وقد انداحت قبعته قليلاً إلى الوراء ، مباهياً بقدرته على تحمل البرد . وذات مساء أطل على عائلة ميليخوف ، وحمل معه إلى المطبخ الذي يفيض حرارة شذى الصقيع ورائحة الجندي الحريفة التي لا تنسى ، وجلس يتحدّث عن الحرب ، وأخبار القرية ، ثم ضيّق عينيه الخضراوين وهو ينظر إلى داريا ونهض لينصرف ، فرفت جوارح داريا كلهب شمعة ، عندما أصفقت الباب خلفه ، وزمّت شفتيها ، وكانت على وشك أن ترتدي عصابتها ، غير أن إيلينشنا سألتها :

ـ إلى أين تذهبين يا داريا ؟

ـ أود أن أخرج .

ـ سآتي معك .

وجلس بانتلاي دون أن يرفع رأسه ، كأنما لم يسمع السؤال والرد ، وذهبت داريا شطر الباب مارّة أمامه ، وجفناها منسدلان فوق الوميض الذئبي

في عينيها ، وحماتها تهتز من ثقلها وراءها . كان ميتكا يتنحنح ويعبث بالبوابة بقدميه واستدار على صوت مزلاج الباب ليعود إلى درجات العتبة . فصاحت ايلينشنا بخبث :

ـ أهذا أنت يا ميتكا ؟ لعلك لم تضل طريقك في فنائنا ؟ أحكم سد البوابة خلفك ، وإلاّ فستظل تصفق طوال الليل في هذه الريح .

فأجاب ميتكا بلهجة مغمومة :

ـ كلا ، لم أضلّ طريقي . سأحكم سد البوابة .

وحث سيره عبر الشارع صوب فناء بيت أنيكوشكا .

عاش ميتكا حياة لاهية كالطير ، فاليوم خمر وغداً أمر . ولم يكن اهتمامه بالجندية كبيراً ، فبالرغم من أن لديه قلباً جسوراً لا يفزع فما كان ليترك عاداته اللاهية ويسعى وراء المجد .

كان سجل حياته العسكرية بعيداً عن أن يكون سجلاً حسناً . فقد سيق مرتين إلى محكمة عسكرية ، مرة لاغتصاب امرأة بولندية الأصل روسية الجنسية ، وأخرى بسبب السرقة . وخلال سنوات الحرب الثلاث تلقى عقوبات لا تحصى ، وكادت المحكمة العسكرية ذات مرة أن تحكم عليه في إحدى المناسبات بالإعدام رمياً بالرصاص . ولكنه استطاع بطريقة ما أن يخلّص نفسه ، ورغم أنه كان من أردأ النماذج في الكتيبة ، إلا أن القوزاق أحبوه لطباعه البشوشة الممراحة ، ولأغانيه الفاسقة ، وللطافة معشره وصراحته ، بينما أحبه الضباط لشقاوته . كان ميتكا يجوس الأرض بقدمين خفيفتين أشبه بأقدام الذئب ، والبسمة لا تفارق محياه : كان فيه الكثير من طباع الذئب ، في مشيته ، في النظرة المسبلة لعينيه الخضراوين بالحدقتين الحادتين ، وحتى في الطريقة التي يدير بها رأسه . ولم يكن بمستطاع ميتكا أن يدير رقبته فقد أصيبت بجراح من شظية قذيفة . وكان عليه أن يستدير بكامل جسمه اذا اراد أن ينظر إلى الخلف . كانت العضلات منعقدة بصورة متقاربة على عظامه العريضة . وكان خفيفاً ومقتصداً في حركاته ،

وكانت صحته وقواه تفوح بالغلظة والخشونة كما تفوح أرض سوداء طيبة في وادٍ غب حرثها . كانت الحياة بالنسبة لميتكا بسيطة ومباشرة ، تمتد بعيداً أمامه مثل أخدود الحرث ، وقد سار عليه كالسيد المطلق . وكذلك كانت أفكاره بدائية ومباشرة . فإذا كنت جائعاً تستطيع بل يتحتّم عليك أن تسرق ، حتى من رفاقك ، وكان ميتكا يسرق عندما يجوع . واذا بليت جزمتك فإن أبسط شيء في العالم هو أن تأخذ زوجاً من أسير ألماني . وإذا تلقيت عقاباً فيجب أن تكفّر بشكل ما عن جريمتك ، وكان ميتكا يكفر عن جرائمه ، وذلك بأن يخرج ليعود بحراس ألمان نصف مخنوقين ، وينبري للتطوع في القيام بأخطر المهام . وفي عام ١٩١٥ أسر وكاد أن يقطّع إرباً إرباً ، ولكنه في الليلة ذاتها مزق أظافره في فتح سقف العلية وهرب ، والتقط في طريقه شيئاً من عدة عربة كتذكار . وبمثل هذه الأساليب كان ميتكا يخرج بنتائج طيبة .

في اليوم السادس لبقائه مع أهله رافقه أبوه ميرون إلى محطة ميليروفو ، ووقف هذا يرقبه عندما أخذ صف العربات الخضر يقرقع مبتعداً ، وهو يحفر بسوطه الخبث المنثور عند سكة الحديد دون أن يرفع عينيه المغرورقتين بالدموع . وبكت لوكينشنا على ابنها ، وسعل غريشاكا العجوز وتمخّط بيده ، ثم مسح كفه بذيل قفطانه القذر . وبكت زوجة أنيكوشكا وهي تذكر جسم ميتكا القوي ، وعناقه المحموم ، وتعاني من السيلان الذي أصابها به .

وشابك الزمن الأيام كما تشابك الريح عرف حصان . وقبيل عيد الميلاد بدأ ذوبان ثلج غير متوقّع ، وانهمر المطر أياماً بطولها ، وتدفقت المياه من التلال حدر الشعاب الجافة ، واخضوضر الكلأ وألواح الكلس الطحلبية فوق المرتفعات الجرد ، وازبدت حافتا الدون ، واستحال الجليد أزرق باهتاً وانتفش ، وانبعث من الأرض الجرداء ، السوداء شذى حلو يعز عن الوصف . وبقبقت المياه في آثارالعجلات على الطريق العام . وتثاءبت الأخاديد الطينية

وراء القرية عن مزالق جديدة . وحملت الريح الجنوبية رائحة الأعشاب المتعفنة الثقيلة ، وفي الظهيرة تلمع في الأفق ظلال رقراقة زرقاء بلون الحمام ، وكأن الموسم ربيع . وفي القرية تكونت برك رقراقة حول أكوام من الرماد الملقى أمام الأسوار . وذاب الجليد عن الأرض حول حزم الأعشاب في ساحات درس الحبوب ، وكانت رائحة القش الرطب الحلوة تلذع أنوف المارة . وفي النهار تنساب مياه قطرانية على الأفاريز من سقوف القش التي تتدلى منها ذؤابات الجليد ، وكانت العقاعق تثرثر بلا انقطاع على الأسوار ، ويتمشى ثور القرية في فناء ميرون كورشونوف ويبعث خواراً مستبقاً حياة الربيع الرخوة وراح ينطح السور بقرنيه ، ويحك صدره الأملس بمحراث قديم نخره السوس ، ويحفر الجليد الذائب المتفتت .

وانفجر الدون في اليوم التالي لعيد الميلاد . وتدفق الجليد وسط التيار في هدير وزئير هائلين . وارتطمت الطافيات بالضفتين مثل أسماك ضخمة وسنى . وعلى مهب الريح الجنوبية القوية وراء الدون أحنت أشجار الحور هاماتها وراحت ترفرف كأنها تولي الادبار وهي في مكانها لا تريم .

وشيك حلول المساء بدأت الريح ترسل زئيراً فوق التل ، وكانت طيور الزاغ تحوم وتنعق فوق ساحة القرية ، وجرى خنزير خريستونيا قرب فناء ميليخوف وبين فكيه قبضة من الدريس فقرر بانتلاي أن الربيع قد توارى من جديد ، وأن برداً قد يسقط في الغداة . وفي المساء تغير اتجاه الريح إلى الشرق ، وغطى صقيع رقيق البرك التي خربتها مياه الذوبان بطبقة بلورية من الجليد . وفي الصباح كانت الريح تهب من موسكو ، واشتد الزمهرير مرة أخرى . لقد عاد الشتاء من جديد . وفي وسط الدون فقط كانت الطافيات تسبح طبقات بيضاء هائلة ، ودخنت الأرض الجرداء ببخار الصقيع .

وبعد عيد الميلاد بقليل أخبر كاتب القرية بانتلاي في اجتماع أنه رأى غريغوري في كامنسكايا ، وقد طلب منه أن يخبر والديه أنه سيأتي قريباً لزيارتهما .

٧

خبر سيرغي موخوف بيديه الصغيرتين السمراوين المشعرتين كل مفارقات الحياة . فهي تارة تبتسم له ، وتارة تتسلط عليه كما يتسلط حجر على رقبة غريق . لقد عرك الكثير . ومرت على سيرغي بلاتونوفيتش مصاعب جمة خلال حياته . فقبل زمن طويل ، وهو لما يزل يومئذ يدير مخزن الحبوب ، كان قد اشترى حبوباً من القوزاق بسعر التراب ، ثم اضطر بعد ذلك إلى نقل أربعة آلاف بود من الحبوب المحترقة العديمة الجدوى خارج القرية وأغرقها في النهر ، وعاودته ذكرى عام ١٩٠٥ أيضاً ، يوم أفرغ واحد من أهالي القرية طلقات بندقية باتجاهه في ليلة خريفية معتمة . ولكن موخوف جمع من حصيلة خساراته وأرباحه ستين ألف روبل وأودعها في مصرف فولغا ـ كاما ، آخذاً في الحسبان أن أيام القلاقل دانية ، كان يتوقع أياماً سوداً ، وقد صدق ظنه .

ففي كانون الثاني عام ١٩١٧ قال له بالاندا المعلم الذي كان يعالج سكرات الموت البطيء لداء السل بلهجة آسفة :

ـ إن الثورة قاب قوسين منا ، ولكنني أموت بمرض سخيف تافه . إنه لمن المؤسف ياسيرغي بلاتونوفيتش ، من المؤسف حقاً أن لا يحيا المرء ليرى حافظة نقودك تقلب على بطانتها ، وأنت تلوذ بالفرار من عشك الرغيد .

ـ وما الداعي للأسف ؟

ـ وكيف لا ؟ إن من دواعي سروري ، على كل حال ، هو أن أرى الخراب يحل بكل شيء .

فقال له سيرغي بلاتونوفيتش وهو يكتم غيظه :

ـ أخشى أن لا يتحقق أملك ياصاحبي . فلسوف تموت قبل أن يحل ذلك اليوم .

وفي كانون الثاني كانت أصداء أحاديث المدينة عن راسبوتين وعائلة

القيصر ماتزال تدور في قرى الدون . وفي أوائل آذر انقضت أنباء الاطاحة بالحكم المطلق على سيرغي بلاتونوفيتش كالصاعقة .

أما القوزاق فقد استقبلوا الخبر بقلق وترقب . وفي ذلك اليوم تحلق القوزاق شيوخاً وشباناً حول حانوت موخوف المغلق . وكان أتمان القرية الجديد سولداتوف وهو قوزاقي ذو شارب أحمر وعين حولاء ، قد زلزله النبأ ، ولم يكد يسهم في الأحاديث التي كانت تدور بحماس خارج الحانوت ، بل جعل ينظر إلى القوزاق بعين حولاء مضطربة ويهتف بين حين وآخر بلهجة حائرة :

ـ حسناً . لقد وقعنا في حيص بيص! فماذا ترانا فاعلين بعد ذلك ؟

ولما رأى موخوف الحشد خارج الحانوت ، قرر أن يخرج ويتكلم مع الشيوخ ، فارتدى سترته المبطنة بفرو الراكون* وخرج من الباب الأمامي لداره ، متكئاً على عصاه التي نقشت عليها حروف اسمه بفضة رخيصة . وكانت الضوضاء تخيم على الحاشدين .

فسأله ماتفي كاشولين وهو يبتسم بلهفة بدت على أثرها تجمدات صغيرة حول أنفه المدرار :

ـ حسناً ياموخوف ، أنت رجل مثقف ، أخبرنا نحن الجهلة عما سيحدث بعد الآن .

وعندما انحنى موخوف رفع الشيوخ قبعاتهم تجلة ، وتنحوا إلى الخلف ليفسحوا له الطريق ليتوسط الجمع . وابتدرهم قائلاً :

ـ سوف نعيش بلا قيصر...

فجعل الشيوخ يتكلمون كلهم في آن واحد...

ـ ولكن كيف ، بلا قيصر ؟

ـ لقد عاش آباؤنا وأجدادنا تحت ظل القياصرة . والآن لم يعد القيصر ضرورياً .

---

* حيوان لبون يشبه الهر ذو فرو ناعم يكثر وجوده في أميركا الشمالية . المترجمون

ـ لو طاح الرأس ، كفت الأطراف عن الحياة!
ماشكل الحكومة القادمة ؟
ـ أفصح يا سيرغي بلاتونوفيتش! انطق ، فلا داعي للخوف منا .
وعلق أفدييتش مبتسماً :
ـ لعله لايدري هو الآخر .
فنظر سيرغي بلاتونوفيتش إلى نعاله المطاطية ببلادة ، وقال وكأنه يتفل الكلمات بألم :
ـ إن مجلس الدوما هو الذي سيحكم . سوف تكون عندنا جمهورية .
ـ إذا هذا هو ما آل اليه حالنا ، اللعنة عليها! ومضى أفيدييتش يقول :
ـ إني لأذكر الآن كيف كنا نخدم صاحب الجلالة الراحل الاسكندر الثاني...
فقاطعه القوزاقي العجوز بوغاتيريوف الجهم ، بفظاظة :
ـ لقد حكيت لنا ذلك سابقاً! لاتخرج عن الموضوع .
ـ لكأنها نهاية القوزاق ؟
ـ وإذا استمرت الاضرابات ، فلن يمضي وقت طويل حتى يدخل الألمان سانت بطرسبرغ .
ـ لو طبقوا المساواة التي يدعون اليها ، فسيجعلوننا متساوين مع الفلاحين .
ـ يعني ينتزعون منا أرضنا ، ها ؟
فجال سيرغي بلاتونوفيتش ببصره بين وجوه الشيوخ القلقة مفتعلاً ابتسامة وقد اعتراه شعور بالهم والمرارة . وكعادته فرق لحيته الرمادية ، وراح يتكلم دون أن يعلم أحد على من هو غاضب :
ـ هاأنتم ترون الآن ، أيها القوزاق ، إلى أين مضوا بروسيا! إنهم سيساوونكم مع الفلاحين ، ويجردونكم من امتيازاتكم ، وسوف ينبشون مالاقوه من اضطهاد في السابق . إن أياماً سوداً ستحل... والأمر يتوقف على

من تقع بأيديهم الحكومة ، وإلا فنحن مقبلون على كارثة مطبقة .

فهز بوغاتيريوف رأسه ، وحدج موخوف خلال حاجبيه الكثين بنظرة غير واثقة وقال :

ـ إن بقينا أحياء فسنرى! إنك قلق على شؤونك الخاصة يا سيرغي بلاتونوفيتش ، وما أدراك لعل أحوالنا ستتحسن .

فتساءل موخوف مغتاظاً :

ـ كيف ستتحسن أحوالكم ؟

ـ لعل الحكومة الجديدة تضع حداً للحرب . إن ذلك ممكن ، أليس كذلك ؟

فلوح موخوف بيده ودلف إلى بيته بمشية رجل شاخ قبل الأوان ، قلقاً على الأمور المالية ، والطاحونة ، وتجارته المتردية ، ثم تذكر أن يليزافيتا في موسكو الآن وأن فلاديمير على وشك العودة إلى القرية من نوفوتشيركاسك . إن لهفته الفاترة على أولاده لم تشغله عن تفكيره القلق المضطرب . وإذ بلغ سقيفة الباب انتابه شعور بأن الحياة ادلهمت من حوله على حين غرة ، وأخذت تراود روحه وساوس مؤلمة . وأحس بطعم الصدأ في فمه فالتفت إلى حيث الشيوخ ، وبصق عبر الدرابزين . ودلف من الشرفة إلى غرفته .

التقت آنا ايفانوفا بزوجها في غرفة الطعام . وقالت وهي تحدج وجهه بنظراتها اللامبالية الباردة المعهودة :

ـ هل تريد شيئاً تأكله قبل الشاي ؟

فأشاح عنها باشمئزاز قائلاً :

ـ أوه ، كلا! أي مذاق للطعام هنا ؟

أحس بمثل طعم الصدأ في حلقه ، وبثقل وفراغ في رأسه .

ـ لقد وصلت رسالة من ليزا .

ودلفت آنا ايفانوفا تجرجر خطاها إلى غرفة النوم ، مثقلة بواجباتها البيتية تلك هي عادتها منذ اليوم الأول من زواجها ، وجاءت برسالة مفتوحة .

«لاأحسبها الا فتاة طائشة فارغة الرأس» ، ـ فكر سيرغي بلاتونوفيتش في ابنته لأول مرة في حياته ، وقد تجعد أنفه إذ بلغته رائحة العطر المنبعثة من المظروف السميك ، ثم قرأ الرسالة على عجل ، وتوقف قليلاً عند لفظة «مزاج» ، متفكراً فيها ، باحثاً عن معانيها الخفية . وفي خاتمة الرسالة طلبت ليزا بعض المال . وعاود ذهن سيرغي بلاتونوفيتش ذلك الشعور الحاد بالفراغ الذي لا يبارح رأسه وهو يأتي على نهاية الرسالة . وعلى حين غرة أحس برغبة في البكاء الخافت . لقد مثلت أمامه حياته بكل عقمها .

وفكر في نفسه : «إنها غريبة عني ، وأنا غريب عنها . فهي لا تتذكر بنوتها لي إلا عندما تحتاج المال . الفويجرة القذرة ، وعشاقها... ومع هذا فعندما كانت طفلة ، فقد كانت شقراء وعزيزة على قلبي... يالهي! كم تبدلت الأمور! لقد بقيت أحمق حتى شيخوختي . كان يخيل لي أن حياتي سائرة نحو الأفضل ، ولكني في الواقع وحيد كالمعبد المهجور . لقد كسبت مالي بطرق مشبوهة ، ولكن المرء لايستطيع الحصول عليه بوسائل نظيفة ، لقد اعتصرت جيوب الآخرين ، وقترت وهاهي الثورة على الأبواب وغداً قد يطردني خدمي أنفسهم من بيتي فيذهب مالي هباء! وولداي! إن فلاديمير أحمق... وأين هو المغزى في هذه الحياة ؟ عبث كلها ، والله أعلم...» .

وعلى نحو مبهم اقترنت هذه الأفكار بحادثة وقعت في طاحونته . لقد أحدث زبون قوزاقي ضجة لادعائه أنه أبخس الكيل ، فرفض دفع الأجرة . فأخرج الهياج سيرغي بلاتونوفيتش من غرفة الماكنة ليرى ماذا حدث . وعندما سمع القصة ، أمر الوزان أن لايسلمه الطحين . فسحب القوزاقي القميء النحيف كيس الطحين من نهايته ، بينما ظل أحد عمال الطاحونة زافار ، وهو شاب مكتنز له صدر كالبرميل ، يجرجر طرفه الآخر . وحين دفعه القوزاقي رفع زافار ذراعه وهوى على صدغه بلكمة من قبضته القوية . فوقع القوزاقي القميء ، ثم نهض على قدميه مترنحاً وقد بان على صدغه الأيسر أثر الكدمة . وتقدم خطوة من سيرغي بلاتونوفيتش ، وقال وهو ينشج :

ـ خذ طحيني عسى أن تغص به!

ومضى لسبيله وكتفاه ترتعشان .

لم يكن هناك من سبب واضح يجعل سيرغي بلاتونوفيتش يستعيد في ذهنه ذكرى هذا الحادث ومضاعفاته! كيف قصدته زوجة القوزاقي القميء وطالبته بالطحين ، وكيف اعتصرت الدموع من عينيها لتكسب عطف الزبائن الآخرين .

ـ ماهذه المعاملة ، أيها المؤمنون ؟ كيف يحق له أن يتصرف هذا التصرف ؟ أرجع لنا طحيننا!

فقال زافارا ساخراً :

ـ اذهبي إلى سبيلك أيتها العمة ، اذهبي بهدوء وإلا جززت لك شعرك .

وكان مزعجاً وأليماً أن يرى القباني الولد ، وهو واهن ضئيل كالقوزاقي نفسه ، يثب على زافار ليتلقى منه ضربات لارحمة فيها ، مما حدا به أن يترك عمله في الطاحونة نهائياً . لقد مر كل ذلك بذهن موخوف فيما كان يطوي الرسالة ويتطلع إلى الأمام بعينين شاردتين .

وقضى بقية يومه وهو يعاني ألماً وكآبة مريرين .

وكان نومه قلقاً تلك الليلة ، فقد ظل يتقلب تحت وطأة أفكار مشتتة وأحلام غريبة ولم يغرق في النوم إلا بعد منتصف الليل . وعندما سمع في الصباح التالي بأن يفغيني لستنتسكي قد عاد من الجبهة إلى أهله قرر الشخوص إلى ياغودنويه ليقف على حقيقة الوضع ، ويريح فكره من مرارة هواجسه المتعاظمة . فربط يميليان الفرس بالزحافة الصغيرة ، ماصاً غليونه ، وأقل سيده إلى ياغودنويه .

كان قرص الشمس يزداد ألقاً فوق القرية كمشمشة صفراء ، والغيوم تتلاشى من فوقها وتحتها مثل خيوط من الدخان . وكان الهواء الزمهرير القارس مشبعاً برائحة فاكهية عبقة . وكان الجليد في الطريق يتكسر تحت حوافر الفرس ، وتذرو الريح البخار الذي يخرج من منخري الحيوان فيستقر

على عرفها . فأغفى موخوف في مقعده وقد خدره البرد وهو يترنح ويتحكك بمسند الزحافة المفروش بالبساط . ولاح في ساحة القرية جمع من القوزاق متلفعين بفروات سود ، وأسراب من النساء ، متسربلات بمعاطف مبطنة محشوة بفرو القندس .

كان المعلم بالاندا واقفاً وسط الجمع ، ممسكاً بمنديله عند شفتيه الحائلتين إلى الخضرة ، وعلى عروة سترته شريط أحمر . وكان في عينيه اضطرام محموم وهو يتكلم :

ـ ... لقد قضي على الحكم المطلق اللعين . ولن يرسل أبناؤكم بعد الآن ليخمدوا نضال العمال بالسياط . لقد انتهت خدمتكم المخزية لذلك القيصر مصاص الدماء . إن المجلس التأسيسي سيحكم روسيا الحرة الجديدة . لسوف تبنى حياة جديدة ، حياة مشرقة .

وخلفه كانت خليلته تمسك بذيل معطفه وتهمس متضرعة :

ـ حسبك ، ياميتا! ألست تدرك أن ذلك يؤذيك ؟ سوف تبصق دماً ثانية يا ميتا!

كان القوزاق ينصتون إلى بالاندا ويتنحنحون حرجاً ويكتمون ابتساماتهم ، ولكنهم لم يدعوه ينهي كلامه . فلقد قاطعه صوت جهير حنون انطلق من بين الجمهور :

ـ أجل ، إنها ستكون حياة سعيدة ، كما يبدو ، ولكنك لن تعيش لتشهدها ، ياصاحبي المسكين! اذهب إلى البيت الآن ، فالطقس شديد البرودة!

فأنهى بالاندا كلامه بسرعة ، ومضى مهموماً .

بلغ موخوف ياغودنويه ظهراً ، وقاد يميليان الفرس من لجامها إلى المعالف المصنوعة من الصفصاف في الاسطبل ، ورفع السرج عنها ورمى على ظهرها مرشحة بعد أن هبط سيده من الزحافة وأخذ يبحث تحت فروته عن منديل . فالتقى في أسفل الدرجات كلباً كبيراً سلوقياً أبلق معترضاً طريق

الرجل الغريب ، يتثاءب ماداً قائمتيه الطويلتين ، فيما نهضت في أثره بكسل الكلاب الأخرى المستلقية حول الدرجات كأكوام سوداء .

فتراجع سيرغي بلاتونوفيتش إلى الخلف بخوف مرتقياً الدرجات وقد أذهله عددها .

كانت ردهة الانتظار الجيدة الإضاءة تفوح منها رائحة الكلاب والخل . وقد علق على زوج من قرن الأيل موضوع فوق صندوق ، قبعة فراء لضابط قوزاقي ، وقلنسوة عليها شرابة فضية . وبرنس قوزاقي . وعندما وقع بصر سيرغي بلاتونوفيتش عليه ، خيل اليه لحظة أن شبحاً طويلاً أسود أشعث محدودب الكتفين كان متسلطاً عليه . وقدمت امرأة ممتلئة ذات عينين سوداوين من الغرفة المجاورة ، ورمقت موخوف بنظرة متفحصة وهو يخلع معطفه ، وسألته دون أن تغير الملامح الجدية لوجهها الأسمر الجذاب :

ـ جئت في طلب نيكولاي أليكسيينفتش ؟ سوف أخبره .

لقد وجد سيرغي بلاتونوفيتش صعوبة في معرفة اكسينيا من هيئتها الممتلئة الجميلة هذه . ولكنها عرفته في الحال ، وزمت شفتيها اللتين تحاكيان الكرز بحمرتهما ، وبحركة خفيفة من ذراعها الناعمة العارية شدت قوامها بصورة غير طبيعية . ثم دخلت الصالة دونما استئذان وأوصدت الباب خلفها وبعد دقيقة أو اثنتين خرجت ثانية ، يتبعها لستنتسكي العجوز وقال متلطفاً وهو يبتسم ابتسامة وقوراً :

ـ آه ، السيد التاجر! ما الذي جاء بك إلى هنا ؟ تفضل بالدخول... ووقف جانباً ودعا ضيفه إلى الصالة باشارة من يده وانحنى سيرغي بلاتونوفيتش بالطريقة التي اتقنها منذ زمن طويل في أداء التحية لمن هم أعلى منه مرتبة اجتماعية ، ودخل . فتقدم نحوه يفغيني لستنتيسكي ليستقبله مخاوصاً عينيه من وراء عويناته .

ـ إنني مسرور ياعزيزي سيرغي بلاتونوفيتش! كيف حالك ؟ أحق أن الكبر نال منك ؟

ـ لا ، والله ، يايفغيني نيقولا ييفتش! أنا لا أزال أتوقع أن أعيش بعدك . ولكن كيف أنت ؟ أسالم معافى ؟ وأخذ يفغيني موخوف بذراعه وقد افترت شفته عن ابتسامة كشفت عن التلبيسات الذهبية لأسنانه ، وسار به نحو كرسي . وجلسا أمام طاولة صغيرة يتبادلان المزاح ويبحثان في وجه كل منهما عن إمارات التغير التي طرأت عليهما منذ لقائهما الأخير . وطلب لستنتسكي العجوز من أكسينيا أن تحضر الشاي ، ثم تقدم ووقف إزاء موخوف والغليون المقوس بين أسنانه ويده الهزيلة مستندة إلى الطاولة ، وقال :

ـ كيف تجري الأمور معك في القرية ؟ هل سمعت بـ... الأخبار السارة ؟

فصعد موخوف نظره إلى طيات في عنق وذقن الجنرال المحلوقة بعناية ، وتنهد قائلاً :

ـ كيف يفوت المرء سماع ذلك ؟

فسحب الجنرال العجوز نفساً عميقاً من غليونه وارتعشت جوزة عنقه ، وقال :

ـ إلى أي مصير أسود آلت الأمور! لقد تنبأت بذلك منذ اليوم الأول من الحرب . حسناً... لقد كتب على الملكية أن تزول . تذكرت في هذه اللحظة ميرز كوفسكي . هل تذكر يايفغيني ؟ روايته « بطرس الأول وأليكسي » . لقد قال ولي العرش أليكسي لأبيه بعد أن عذب :« ستتحمل ذريتك مغبة إهراق دمي... » .

وأردف موخوف بانفعال :

ـ ليست لدينا أية معلومات حقيقية عماحدث .

وتململ في كرسيه وأشعل لفافة ، ومضى يقول :

ـ لم نر جريدة منذ أسبوع . وعندما سمعت بأن يفغيني نيكولاييفتش عاد إلى أهله في إجازة ، قررت الشخوص إليه لأقف على حقيقة ماحدث وماذا ينتظرنا بعد ذلك .

وتلاشت البسمة من وجه يفغيني الحليق تدريجياً ، وأجاب :

ـ أحداث مريعة... فلقد تفكك الجنود تماماً . إنهم لايريدون المضي في القتال ، لقد تعبوا منه . ولم يكن لدينا هذا العام جنود بمعنى الكلمة ، والحق يقال . لقد أصبحوا زمراً إجرامية ، وحوشاً لارادع لها . أما أبي... فليس بوسعه أن يستوعب ذلك . لايستطيع أن يدرك إلى أية درجة بلغت فوضى الجيش... فالجنود يتخلون عن مواقعهم اعتباطاً ، ويقتلون ضباطهم ، ويسلبون ويفتكون بالمدنيين... إن عصيان الأوامر العسكرية بات اليوم من الحوادث اليومية .

ونفث لستنتسكي العجوز غمامة من دخان التبغ ، وقال :

ـ السمكة تجيف من رأسها .

وقطب يفغيني حاجبيه وارتعش أحد جفنيه باضطراب وقال :

ـ أنا لاأقول ذلك ، لاأقول... فالجيفة تدب في الجيش من أسفل ، لقد أفسده البلاشفة . وحتى الفرق القوزاقية ولا سيما تلك التي على تماس شديد بالمشاة ، لايعتمد عليها من الناحية المعنوية ، ثمة ملل فظيع وحنين جارف يدفعانهم للعودة إلى أهليهم... وهناك البلاشفة...

وانفجر موخوف ، غير قادر أن يسيطر على نفسه أكثر من ذلك :

ـ ماذا يريدون ؟

فقال لستنتسكي ضاحكاً :

ـ أوه... يريدون... ذلك أسوأ من جراثيم الكوليرا . أسوأ من ناحية سهولة الالتصاق والتغلغل في لب الجنود . أعني أفكارهم بالطبع . وليس هناك من محجر صحي يعزل المرء عنها . ولاشك أن هناك رجالاً أذكياء جداً وموهوبين بين البلاشفة . لقد تهيأ لي أن ألتقي ببعضهم ولكن قسماً منم مهووسون ، لا أكثر .

ثم أضاف بلهجة مفاجئة بادية الغضب :

ـ ولكن الأغلبية الساحقة لاتمكن السيطرة عليها ، حيوانات لاأخلاق لها . لاتعنيهم روح التعاليم البلشفية ، بل السعي وراء السلب والخلاص من

الجبهة ليس إلا . إن دافعهم الرئيسي هو أن يمسكوا بزمام السلطة بأيديهم ، ويضعوا حداً للحرب «الاستعمارية» ، كما يسمونها ، بأي شرط كان ، ولو بصلح منفرد ، ومن ثم يسلمون الأراضي إلى الفلاحين ، والمعامل إلى العمال . بالطبع إن هذا حلم طوبائي بقدر ماهو سخيف ، ولكنهم بمثل هذه الأساليب البدائية أفلحوا في كسب الجنود .

كان لستنتسكي يكبح جماح غضبه ويلوي مبسم سيكارته العاجي بأصابعه أثناء كلامه . وكان موخوف يصغي اليه ، وقد انحنى بكامل جسمه للأمام كمن يريد الوثوب من كرسيه .

ثم تمشى لستنتسكي العجوز ذهاباً وإياباً في الصالة ، متخطياً بجزمته السوداء اللبادية ، يلوك بعذاريه الأشيبين المائلين إلى الخضرة .

ومضى يفغيني يقول كيف أنه اضطر إلى الهرب من كتيبته حتى قبل أن تندلع الثورة خوفاً من انتقام القوزاق ، وروى سير الأحداث التي شهدها في بطرسبورغ . ولاذا بالصمت بعض الوقت . وبعد ذلك سأل لستنتسكي العجوز فجأة وهو ينظر إلى أنف موخوف :

ـ حسناً ، هل تشتري المهر الأشهب الذي ضربت عنه صفحاً في الخريف ؟

فقطب موخوف معبساً ولوح بيده بحركة قانطة وقال :

ـ كيف تستطيع الكلام عن مثل هذه الأمور في مثل هذا الظرف يانيكولاي أليكسييفتش ؟

وفي هذه الأثناء كان يميليان سائق موخوف يدفئ نفسه ويشرب الشاي في جناح للخدم ، ويمسح خديه الشبيهين بالشوندر بمنديل أحمر ، ويروي أخبار القرية وكانت أكسينيا واقفة وصدرها إزاء السرير ذي الخشب المحفور ، وقد التفعت بشال من الوبر .

وقالت متسائلة :

ـ أحسب أن بيتنا قد تهدم الآن ؟

فأجاب يميليان متمهلاً :

ـ كلا ، لماذا يتهدم ؟

ـ وجيراننا ، آل ميلخوف ، كيف حالهم ؟

ـ إنهم بخير .

ـ ألم يعد بيوتر إلى أهله في إجازة ؟

ـ لم أسمع بذلك ؟

ـ وغريغوري ؟

ـ غريغوري عاد إلى أهله بعد عيد رأس السنة . وقد أنجبت له زوجته توأمين في العام الماضي . غريغوري... عاد... بسبب جرحه .

ـ جرح ؟

ـ نعم ، في ذراعه ، لقد ملأت الجروح جسمه في كل مكان مثل كلب غب معركة . ولست أدري فيما إذا نال مزيداً من النياشين أو الجروح .

فسألته أكسينيا :

ـ وكيف يبدو الآن... . أعني غريشا ؟

وسعلت لتخفي نشيجاً جافاً ، وحاولت أن تجعل صوتها المرتعش طبيعياً .

ـ كما كان ، بأنفه المقوس وسحنته السمراء ، تركي ابن تركي كما تعرفين .

ـ لست أعني ذلك... ولكن هل يبدو أكبر سناً ؟ هل شاخ ؟

ـ وكيف لي أن أعرف ؟ ربما شاخ قليلاً . لقد أنجبت زوجته توأمين . لذا فلايمكن أن يكون قد شاخ كثيراً .

وقالت أكسينيا وهي ترتجف :

ـ ماأبرد هذا البيت!

ثم خرجت .

وصب يميليان قدحه الثامن من الشاي وعاينها وهي تذهب وزنخر قائلاً :

قملة نتنة سامة ليس لها مثيل . لم يمض وقت طويل يوم كانت تتسكع بالقرية بصندل الفلاحات ، وهاهي اليوم تبدو أشبه بسيدة . « ماأبرد هذا البيت! » ياه ، أنت أيتها السيدة السافلة لقد ولدت أمك قحبة ، أجل! أنا لا أحتمل مثلها من النساء . لو كنت كذلك لأطرت صوابهن...! « ماأبرد هذا البيت! » الحية الرقطاء! ياه!

لقد بلغ استياؤه إلى حد أنه لم يستطع الفراغ من احتساء قدحه الثامن من الشاي ، فنهض ورسم إشارة الصليب ، ثم خرج وهو ينظر بغطرسة حواليه وينثر تراب الأرض المشمعة بجزمته عن عمد وكان طوال طريق العودة عابساً كسيده . وانصب جام غضبه على الفرس ، فجعل يلفح فخذيها الخلفيين بنهاية السوط بصورة معيبة ، ويمطرها بألوان السباب . وخلافاً لعادته ، لم يبادل سيده كلمة واحدة . وكذلك خلد سيرغي بلاتونوفيتش إلى صمت راعب .

٨

كان اللواء الأول من إحدى فرق المشاة الاحتياطية في الجهة الجنوبية الغربية ، وكتيبة قوزاق الدون السابعة والعشرون الملحقة به قد سحبا من الجبهة قبل اندلاع ثورة شباط ، بغية ارسالهما إلى بتروغراد لاخماد حركات العصيان التي انفجرت هناك . ونقل اللواء إلى المؤخرة ، وقد جهز بمعدات شتائية جديدة ، وأطعم جيداً ليوم واحد ، ثم سفّر بالقطار على جناح السرعة . ولكن الحوادث كانت تجرى أسرع من الكتائب المتجهة إلى مينسك ، وعشية يوم الرحيل كانت الشائعات المتواترة تفيد أن الامبراطور وقع تعهداً بتنازله عن العرش في مقر القائد العام للقوات المسلحة .

وأوعز للواء بالعودة في منتصف الطريق . وفي محطة رازغون أمرت كتيبة القوزاق السابعة والعشرون بالنزول من القطار . كانت الخطوط قد سدت بقطر أخرى ، وكان ثمة جنود يتسكعون على الرصيف . تزين معاطفهم شرائط

حمر ، وعلى أكتافهم بنادق جديدة حسنة الصنع من النمط الروسي ولكنها مصنوعة في انكلترا وكان كثير منهم ينظرون بقلق ووجل إلى القوزاق الذين اصطفوا في سرايا .

وكان النهار الماطر يدنو من نهايته ، والماء ينساب من سقوف بناية المحطة . وكانت البرك المغطاة ببقع نفطية والمنتشرة على طول الطريق تعكس ظلال فروة السماء الرمادية . وكانت القاطرات أثناء مناوراتها تبعث هديراً خفيضاً متهدجاً . وخلف مخزن البضائع قابلت كتيبة الخيالة آمر اللواء . كان البخار يتصاعد من سيقان الأفراس المبتلة حتى حجولها . وكانت الغربان قابعة دونما وجل وراء الطابور ، تنقر وتنكت كتل الروث البرتقالية اللون .

اتجه آمر اللواء ممتطياً فرساً أدهم يصحبه آمر الكتيبة ، نحو القوزاق ، ثم أوقف حصانه ، وراح يحدق النظر في السرايا ، ثم ألقى خطاباً وهو يتلكأ ويتلعثم في غمرة انتقائه للكلمات :

ـ أيها القوزاق! لقد... ها... سقط عرش الامبراطور نيكولاي الثاني بإرادة الشعب . وانتقلت الحكومة إلى أيدي اللجنة المؤقتة لمجلس الدوما . لذا يجب على الجيش ، وأنتم من الجيش ، أن يتلقى... ها... هذه الأخبار بهدوء... أن واجب القوزاق هو أن يدافعوا عن وطنهم من الهجمات و... ها... كما يقال... من الأعداء والأجانب وسوف ننأى بأنفسنا عن العصيان الذي حصل الآن ، ونتركه للمدنيين ليختاروا الأسلوب الذي على ضوئه يتم تشكيل حكومة جديدة . يجب أن نقف بعيداً عن ذلك! لأن الحرب والسياسة بالنسبة للجيش... ها... لا يلتقيان . وعندما تهتز... ها... الأسس ، يجب أن نكون بصلابة... ـ وهنا تلكأ آمر اللواء العجوز الضيق الأفق الذي لم يألف القاء الخطب ، لينتقي كلمات مناسبة ، وحاجباه تتحركان في عجز مؤلم على وجهه الدهني ، فيما كانت الفرقة تنتظر بفارغ الصبر ـ ها... بصلابة الفولاذ . إن من واجبكم العسكري القوزاقي أن تطيعوا ضباطكم .وسوف نقاتل العدو بنفس البسالة السابقة ، بينما هناك في المؤخرة « وأتى بحركة غامضة إلى الخلف » نترك لمجلس

الدوما أن يقرر مستقبل البلاد . وعندما ننتهي من الحرب سوف نسهم في الحياة الداخلية للبلاد ، ولكننا في الوقت الحاضر... يجب أن لا ، ولا يمكن أن نخون الجيش... يجب أن لا تدخل السياسة إلى الجيش .

وبقي القوزاق بضعة أيام في المحطة ، يقدمون الولاء للحكومة المؤقتة ، ويحضرون الاجتماعات ، ويختلطون في كثير من الأحيان مع رجال من نفس ديرتهم ، ولكنهم ظلوا مبتعدين عن الجنود الذين تعج بهم المحطة . وكانوا يتناقشون فيما بينهم حول الخطب التي يستمعون اليها في الاجتماعات ، ويمحصون بحذر الكلمات التي يرتابون فيها ، حتى يتوصلوا جميعهم بهذه الطريقة أو تلك إلى النتيجة التالية ، وهي أنه لو توفرت حرية الآن ، لكان معنى ذلك نهاية الحرب ، وبات من الصعب على الضباط أن يكافحوا هذا الاعتقاد ، وأن يتمسكوا بالادعاء القائل أن روسيا ملزمة على مواصلة القتال حتى النهاية .

لقد تركت الحيرة التي شاعت في القيادة العليا للجيش بعد الانقلاب ، أثراً خطيراً على المراتب الدنيا ، وبدا لقيادة الفرقة وكأنها نسيت كلياً أن اللواء جانح عن السكة في منتصف طريق بتروغراد ، لقد أكل الجنود جراية الأيام الثمانية التي زودوا بها ، ثم انتشروا في القرى المجاورة ، وظهرت المشروبات الروحية للبيع بشكل غريب ، وبات منظر الجنود والضباط السكارى مألوفاً .

وتجمع القوزاق في عرباتهم متحللين من أداء واجباتهم اليومية ، ينتظرون الرحيل إلى الدون... وكانت الشائعة حول تسريح وجبة الاحتياط الثانية قوية . وأهملوا العناية بخيلهم ، وكانوا يقضون سحابة النهار في ساحات الأسواق يتجرون بالبطانيات الألمانية ، والحراب ، والمناشير والأجربة من الجلد والتبغ والمعاطف التي جاؤوا بها من الخنادق .

وعندما بلغ الكتيبة أمر يدعوها بالعودة إلى الجبهة قوبل ذلك بتبرم مكشوف . أما السرية الثانية فقد رفضت الذهاب بصورة قاطعة ، ورفض

القوزاق شد القاطرة بالشاحنات . ولكن آمر الكتيبة هدد بتجريدهم من السلاح ، فكفوا عن الهياج رويداً رويداً ، وبينما كان الركب يسير ببطء نحو الجبهة ، كان النقاش يجرى بحدة في كل عربة .

ــ ماذا تسمون هذا أيها الأخوان ؟ حرية ؟ لقد نلتم حريتكم ، ولكن حينما يكون الأمر متعلقاً بالحرب فإن عليكم أن تهرقوا دماءكم ثانية!

ـ إنه الاضطهاد القديم يعود بكل مافيه مرة أخرى!

ـ ترى لماذا تخلصنا من القيصر اذاً ؟

ــ الحال الآن كما كانت أيام القيصر تماماً!

ـ السروال القديم نفسه ، سوى أن الأزرار من الخلف .

ـ حق ما تقول .

ـ ترى كم سيطول هذا بنا ؟

ـ هذه هي السنة الثالثة وليس معنا سوى بنادقنا نضاجعها .

وفي أحد مفارق السكك الحديد تدفق القوزاق من العربات وكأنهم كانوا على اتفاق سابق ، وعقدوا اجتماعاً غير آبهين بوعود الآمر ووعيده . وبذل القومندان ومدير المحطة العجوز جهودهما الباطلة . وركضا ذهاباً وإياباً من بين الصفوف الرمادية المرصوصة من القوزاق وهما يتوسلان اليهم بالعودة إلى عرباتهم بغية اخلاء الخط . وأصغى القوزاق بانتباه كبير للكلمتين اللتين القاهما عريف ، والجندي مانجولوف القصير والمكتنز من القوزاق . وقد لاقى الأخير صعوبة في ايجاد متنفس لمشاعره الغضبى :

ــ أيها القوزاق! لا يمكن أن تجري الأمور على هذه الحال! لقد أفسدوا كل شيء من جديد! وهم يريدون أن يستغفلونا! فإذا كانت هناك ثورة ، وإذا كان الشعب كله قد أعطي حريته ، فعليهم أن يوقفوا الحرب ، لأن الشعب والقوزاق لا يريدون الحرب! فهل أنا على صواب ؟

ـ أنت على صواب!

ــ لقد سئمناها!

ـ لم تعد سراويلنا تثبت فوق أردافنا! كيف يمكننا المضي إلى الحرب ؟
ـ فلتسقط الحرب! ولنعد إلى ديارنا .
ـ افصلوا القاطرة! هيا ، يا أولاد!

وصاح مانجولوف باذلاً جهده ليعلو صوته فوق آلاف الحناجر :

ـ أيها القوزاق! انتظروا لحظة! أيها القوزاق! أيها الاخوة! أنتم أيها الشياطين! عليكم اللعنة!... تمهلوا! أيها الاخوة! اصطبروا ولا تمسوا القاطرة . لسنا في حاجة اليها وإنما هنا لأجل أن نضع حداً لهذه المهزلة . ليرينا صاحب السعادة آمر الكتيبة الكتاب ، لنرى فيما إذا كانوا حقاً يريدوننا في الجبهة ، أم أنها ليست سوى واحدة من حيلهم الصغيرة .

ولم يركب القوزاق العربات الا بعد أن تلا آمر الكتيبة الذي كانت شفتاه ترتعشان ، وكاد يفقد زمام نفسه ، بصوت عالٍ البرقية الواردة من قيادة الفرقة التي تأمر الكتيبة بالذهاب إلى الجبهة .

وكان ستة من تاتارسكي في عربة واحدة وهم من الكتيبة السابعة والعشرين : بيوتر ميليخوف ، ونيكولاي كوشيفوي « وهو عم ميشا » ، وأنيكوشكا ، وفيدوت بودو فسكوف ، وميركولوف« وهو قوزاقي يشبه الغجر ، ذو لحية مجعدة سوداء وعينين وهاجتين بلون البندق » ، ومكسيم غريبازنوف ، وهو قوزاقي مرح متحلل عرف قبل الحرب في مناطق الدون كسارق خيل لا يهاب أحداً .

وكانت ريح هوجاء تنفذ خلال العربة ، والخيل واقفة أمام معالف صنعت على عجل ، وعلى ظهورها المراشح ، وكانت ثمة حطبة رطبة ترسل دخاناً فوق تلة من التراب المتجمد في قاع العربة . ويجري الدخان الحريف باتجاه خصاص الباب .

والقوزاق جلسوا على سروجهم متحلقين حول النار ، يجففون لفافات أرجلهم . وكان بودفسكوف يدفىء قدميه العاريتين المعروقتين بالنار ، وقد شعت ابتسامة هانئة من زاوية وجهه الكالميكي الناتىء .

وكان غريازنوف يخيط نعل حذائه المفتوق حتى نهايته تقريباً بخيط مشمع . وبصوت جعله الدخان أجش قال دون أن يوجه كلامه إلى أحد :

عندما كنت صبياً كنت أتسلق فوق الموقد أيام الشتاء ، وكانت جدتي « عمرها أكثر من مائة عام في ذلك الحين » تفلّي رأسي بأصابعها بحثاً عن القمل ، وتقول لي : « يا صغيري مكسيم ، ياحبيبي! في سالف الأيام لم تكن حياة الناس مثلها اليوم ، كانوا يحيون حياة مرفهة حياة طبيعية ، ولم تكن لديهم هموم . ولكنك يا طفلي الصغير ستعيش لترى زماناً تغطي فيه الأسلاك كل الأرض . وتطير في الهواء طيور لها أنوف من حديد وتنقر الناس كما ينقر الغراب الأسحم البطيخة الحمراء .

وسيحل بالناس الجوع والطاعون وسيثور الأخ على أخيه ، والابن على أبيه وسيبقى من البشر ما يبقى من العشب بعد الحريق .

وتوقف غريازنوف لحظة ، ثم أردف : « حسناً ، لقد حصل كل ما حدثني به . فلقد اخترعوا التلغراف ، وتلك هي الأسلاك . والطيور الحديدية هي الطائرة . وسوف تحل مجاعة ، أجل . ولم يزرع أهلي سوى نصف أرضهم خلال هذه السنين ، وكذلك هي الحال في كل مكان . ولم يبق في القرى الا الشيوخ والصغار وإن أجدب الموسم مرة عمّت المجاعة »

وعقب بيوتر ميليخوف متسائلاً وهو يضع شيئاً من الحطب في النار :

ـ ولكن ثورة الأخ على أخيه... حكاية بعيدة نسبياً ، أليس كذلك ؟

ـــ انتظر قليلاً ، وسترى الناس يقبلون على ذلك أيضاً! وتدخل بودوفيسكوف قائلاً :

ـ وإذا لم يكن هناك من قائد ، فسوف تحل الفوضى ويحارب الأخ أخاه .

ـ ربما كان علينا أن نقضي عليهم ، أولئك الشياطين .

فقال كوشيفوي ضاحكاً :

ـ لنفرغ من الألمان أولاً .

ـ لا بأس . سنقاتل فترة أخرى .

وتغضن وجه أنيكوشكا الأمرد عن سيماء ينم عن رعب مصطنع ، وهتف :

ـ وإلى متى نبقى نحارب بحق قيصرتنا ذات الساقين المشعرتين ؟

وقال كوشيفوي يقلده :

ـ إلى أن تنمو لك لحية يا خصي .

وانفجر القوم ضاحكين ، واضطرب حال أنيكوشكا . ولكنّ غريازنوف انفجر من بينهم دون أن يتوقعه أحد :

ـ كلا ، حسبنا مانلناه! لقد نلنا كفايتنا! فهانحن هنا الآن في أسوأ حال ، والبؤس يلفنا ، والقمل يأكلنا ، وأهلونا في ديارهم يهلكون ، فلو جرحت أحدهم لما سالت منهم قطرة دم .

فتساءل بيوتر بلهجة لاذعة ، وهو يلوك عذاريه :

ـ ولماذا تجأر ؟

فأجاب ميركولوف نيابة عن غريازنوف مخفياً ابتسامته تحت لحيته المجعدة :

ـ هل لا تدري لماذا ؟ ألا تدري ماذا يحتاج القوزاقي ، وإلى مايتوق ؟... أنت تعرف القضية ، فقد يسوق الراعي القطيع أحياناً إلى المرعى ، وإذا كانت الشمس قد جففت الندى من العشب فالماشية على خير حال ، ولكن ما أن تتوسط الشمس السماء ، حتى يبدأ ذباب الدواب يطن ويعض . وتلك هي الحال هنا ، ـ والتفت ليواجه بيوتر ، وأردف وهو ينظر إلى القوزاق بعينيه الماكرتين ـ والآن ، أيها السيد رئيس العرفاء ، لقد بدأت الماشية تجأر وترفس . ولاشك أنك تعرف ذلك! لاحاجة بك إلى التكبر! لقد سقت الثيران بنفسك... أنت تعرف كيف يحصل ذلك . فإذ يرمي أحد العجول بذيله فوق ظهره ويروح يطارد ، لايلبث القطيع أن يجري في أثره ويهرع الراعي ليوقفه ، ولكنه يتدفق كالفيضان ، مثلما تدفقنا على الألمان طوفاناً قرب نيزفينسكايا . وحسبك أن تحاول إيقافهم عند حدهم! » .

ـ ومامعنى كل ذلك ؟
ولم يجب ميركولوف في الحال . إنما لف خصلة من لحيته حول اصبعه وجرها بشدة ، ثم قال بجد ودون أية ابتسامة :
ـ لقد مضى أكثر من عامين ونحن نحارب... ذلك صحيح ، أليس كذلك ؟ وها قد مضت ثلاث سنوات تقريباً مذ ساقونا إلى الخنادق ، لأي غرض ، لماذا ؟ لا أحد يعرف . وهذا هو ماحدا بي إلى القول أن أمثال غريازنوف أو ميليخوف سيهربون من الجبهة إن عاجلاً أو آجلاً ، ثم تتبعهم الكتيبة ، وبعد الكتيبة ، الجيش... لقد نلنا الكفاية .
ـ إذاً ذلك ما تريد أن تتوصل اليه!
ـ أجل ، ذلك! فما أنا بالأعمى ، إنني أرى أن كل شيء معلق بشعرة وما أن يهتف أحدهم «شوه! » حتى يتساقط كل شيء أوصالاً كما يتهاوى معطف متهرئ عن الكتفين .
فقال له بودفيسكوف :
ـ على مهلك . تذكر أن بيوتر رئيس عرفاء .
فانفجر بيوتر :
أنا لم أسبب أية متاعب لأي من رفاقي .
ـ حسناً ، لا تغضب . فأنا أمزح لاغير . فبدا على بودفيسكوف الحرج ، ولوى أصابع قدمه العارية العريضة ، ثم نهض ومضى صوب الخيل .
وكان جمع من القوزاق من القرى الأخرى يتكلمون بصوت خفيض في ركن من العربة حيث بالات الدريس المضغوط .
ثم انطلقوا يغنون في الحال وبدأ عليموف ، وهو قوزاقي من تشير ، بأغنية مرحة ، غير أن أحدهم قد صفعه على ظهره وجأر بصوت أجش :
ـ دعك عن هذا!
ودعاهم كوشيفوي إلى النار . وراحوا يطعمون اللهب بقطع من الخشب اقتطعت من سياج المحطة ، والتمع وهج أغنية في دفء النار :

إن جواد الحرب لينتظر ، وهو محمل للمعركة .
عند باب الكنيسة حيث يصلي سيده .
وغزيرة هي الدموع التي تذرفها الأم والحفيد
والزوجة الفتية الجميلة .
ولكن عندما يسير القوزاقي إلى الأمام
في عدته الحربية
تمسك زوجته بركاب السرج
ويمسك ابن أخته بالرمح...

ومن العربة المجاورة انفجر آكورديون متحشرج منشج عن رقصة قوزاقية . وراحت جزمات الجنود تدق على القاع الخشبي بلا رحمة ولعلع صوت أجش بهذه الكلمات :

ياللحياة الملأى بالهموم
فنير القيصيرية ثقيل لايطاق
يحز رقاب القوزاق الأخيار
فلا يستطيع أحد أن يجر نفساً من الهواء .
لقد خاطب بوغاتشوف* أهالي الدون :
« يامعشر الفقراء اتبعوني
هيا ، ياقوزاق ، يا أتمانات القوزاق... »

وضج صوت آخر بإزاء الأول بلعلعة عالية الدرجة :

خدمنا القيصر بكل إخلاص

---

* يميليان بوغاتشوف : كان قائدا للقوزاق والفلاحين ضد القيصر في حرب الفلاحين ١٧٧٢ ـ ١٧٧٥ . المترجمون

وهانحن نتوق إلى زوجاتنا في بيوتنا
ولم نعد نتوق إلى الصبايا
ولكننا وجدنا للقيصر...*

وتوقف القوزاق عن الغناء وراحوا ينصتون إلى الدوي الصخاب الذي أخذ يتصاعد من العربة المجاورة ويطرفون بعيونهم ويكشرون عن أسنانهم معجبين . ولم يستطع بيوتر ميليخوف السيطرة على نفسه فانفجر ضاحكاً :

- ياللشياطين!

والتمعت عينا ميركيلوف البنيتان المتألقتان بوميض أصفر ، ووثب على قدميه ، والتقط الإيقاع وطفق ينقر بسرعة بطرف جزمته ثم ضرب الأرض بقدمه على حين غرة ، وانهمك في رقصة سريعة وثابة ، يقعي ويشمر بساقيه ويدور حول نفسه . ومضى ، كل يقوم بدوره ، مشيعاً الدفء في بدنه بهذه الحركات . وكان صوت الأكورديون قد تلاشى منذ فترة طويلة في العربة المجاورة ، وانطلقت أصوات مبحوحة تتقاذف السباب المقذع . ولكن القوزاق استمروا في رقصهم الذي أرعب الخيل ، ولم يتوقفوا إلا عندما قام أنيكوشكا المنفعل المضطرب بقذفة مذهلة وقع بعدها على النار ، فرفعوه وهم يضحكون ، وعلى ضوء عقب شمعة أخذوا يفحصون سرواله الجديد الذي احترق كلياً من القفا ، وذيل سترته المبطنة المشعوطة .

ونصحه ميركولوف مشفقاً :

- اخلعه!

- هل أنت مخبول أيها الغجري ؟ ماذا سأرتدي ؟

وراح ميركولوف ينقب في خرج سرجه . فسحب قميص امرأة داخلياً طويلاً من الكتان . ثم أشعلوا النار ثانية . وأمسك ميركولوف بالقميص من

---

* حذفت في الاصل . ولكن كلمة - بغايا - تكمل القافية وهو المقصود - المترجمون

حمالتيه الرفيعتين عند الكتف وقال وهو يغص بالضحك :

ـ أوه ، أوه! لقد سرقته من حبل غسيل في إحدى المحطات ، ظناً مني بأنه ينفع لفافاً للرجلين . ولكنني لم أشأ أن أمزقه . بوسعك أن تأخذه!

واضطر أنيكوشكا إلى ارتداء القميص وهو يسب ويلعن ، فتعالت لقهقهات صخابة بشكل جعل الرؤوس تتراءى من أبواب الشاحنات الأخرى وصيحات الغبطة تهتف في الظلام :

ـ ماذا لديكم أيها الحصن ؟

ـ علام جئيركم ؟

ـ لماذا تقهقهون ؟

ـ هل وجدتم شيئاً ظريفاً ، أيها الأغبياء ؟

وفي المحطة التالية استدعوا لاعب الأكورديون ، وهرع القوزاق من لشاحنات الأخرى ، وقد حطموا المعالف ودفعوا الخيل إلى الجدار . وراح أنيكوشكا يرقص بقميصه الأبيض ، الذي لابد وأنه كان يعود إلى امرأة كبيرة الجرم لأنه كان طويلاً جداً عليه ، ويدور في حلقة صغيرة حتى سقط من الإعياء وصيحات وقهقهات القوزاق تؤجج انفعاله .

ولكن النجوم فوق بيلوروسيا المضرجة بالدماء كانت تنتحب حزينة . والظلام القاتم قد انتشر بسرعة في رحاب الليلة المتثائبة . هبت الريح خفيفة فوق الأرض ، مشبعة برائحة الأوراق المتساقطة المرة ، وبالطين الندي ، وثلوج آذار .

٩

وفي غضون أربع وعشرين ساعة أصبحت الكتيبة مرة أخرى قريبة من الجبهة . وتوقف قطار النقل عند مفرق للسكك الحديد . وأصدر رؤساء العرفاء الأوامر بالنزول من القطار . واقتيدت الخيل بسرعة عبر ألواح خشبية إلى

الأرض وأسرجت ، وانهمك القوزاق يروحون ويغدون باحثين عن حوائجهم المنسية ، وألقيت حزم متآكلة من القش فوق الرمل الندي .

ونادى مراسل من قيادة الكتيبة بيوتر ميليخوف وهو ماض في طريقه :

ـ يريدك الآمر في المحطة .

فأصلح بيوتر من وضع السير على معطفه ومضى متمهلاً شطر المحطة وقال لأنيكوشكا الذي كان يتمشى قرب الخيل :

ـ اعتني بحصاني يا أنيكوشكا .

وتبعه أنيكوشكا ببصره وهو صامت ، وقد بدا عليه القلق ممتزجاً بأمارات السأم الاعتيادية التي ترتسم على وجهه العابس .

وبينما كان بيوتر يمضي في طريقه وينظر إلى جزمته الملطخة بالوحل ويتساءل لماذا أرسل في طلبه آمر الكتيبة ، لفت نظره رهط صغير تجمع في نهاية المحطة عند صهريج الماء الدافئ . واتجه شطرهم وأخذ يصغي إلى حديثهم . كان حوالي عشرين جندياً محيطين بقوزاقي طويل ذي شعر أحمر في وقفة مرتبكة مرتعبة وقد أعطى ظهره للصهريج . وحملق بيوتر في وجهه الملتحي ، وفي الرقم ٥٢ على شريطي العريف الأزرقين وتأكد له أنه سبق أن رأى الرجل في مكان ما .

وانبرى أحد جنود المشاة المتطوعين وهو ذو وجه ذكي أنمش ، يسأله بخبث :

ـ كيف دبرتها مع أنك عريف أيضاً ؟

فتساءل بيوتر بفضول وقد أمسك بكتف رجل يقف أمامه :

ـ ماالأمر ؟

فالتفت الجندي نحوه وأجاب بغير اهتمام :

ـ لقد أمسكوا بهارب من الخدمة... واحد من جماعتك القوزاق .

وحاول بيوتر أن يتذكرأين رأى القوزاقي الأصهب الحاجبين والشاربين . ولم يجب الأسير على أسئلة المتطوع الملحاحة ، بل ظل يجرع ماء دافئاً من

ـوز نحاسي صنع من غلاف قنبلة مدفع ، ويمضع خبز جودار يابساً مبللاً
ـالماء . كانت عيناه الواسعتان الجاحظتان تضيقان عندما يمضغ ويزدرد
ـلقمة ، ويرتعش حاجباه كلما نظر حواليه . وقف إلى جانبه جندي كهل بدين
ـحرسه ببندقية مشرعة الحربة . وانتهى القوزاقي من شرابه ، وألقى بنظره
ـمتعب على الجنود الذين يتفحصونه بلا تكلف . وعلى حين غفلة تصلبت
ـيناه الطفوليتان الزرقاوان ، وبلع ريقه بسرعة ولحس شفتيه وصرخ بصوت
ـافر عميق أجش :

ـ هل أنا حيوان ؟ الا تدعون رجلاً يأكل ، أيها الخنازير ؟ اللعنة عليكم ،
ـلم تروا رجلاً من قبل ؟

فانفجر الجنود في هدير من الضحك ، بيد أنّه ما أن سمع بيوتر الكلمات
ـلأولى ، كما يحدث غالباً ، حتى تذكر اسم الرجل ، وكيف اشترى هو وأبوه
ـنه ثوراً عمره ثلاث سنوات في معرض يلانسكايا السنوى قبل الحرب .
ـهتف وهو يشق طريقه بين الجمع :

ـ فومين! ياكوف!

فوضع الرجل الكوز على الصهريج بحركة بلهاء مرتبكة ، وحدج بيوتر
ـعينين مرتبكتين باسمتين ، وأجاب وهو يمضغ :

ـ أنا لا أعرفك يا أخ .

ـ أنت من روبيبجين ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، وأنت من يلانسكايا ، هه ؟

ـ كلا ، من فييشنسكايا . ولكني أعرفك جيداً . لقد بعت لي ولأبي ثوراً
ـي السوق قبل خمس سنوات .

وحاول فومين الذي لم تزايله بسمته الطفولية المرتبكة أن يتذكر . ولكنه
ـال بأسف ظاهر :

ـ كلا ، لقد نسيت ذلك . لا أستطيع أن أتذكرك .

ـ كنت في الكتيبة الثانية والخمسين ؟

ـ نعم .
ـ هل هربت ؟ كيف استطعت ، أيها الأخ ؟
وخلع فومين قبعته الفرو ، وراح يبحث في كيس مهترئ . ثم انحنى ووضع قبعته ببطء تحت إبطه ، وقصّ ورقة من إحدى زواياها ، وبعد ذلك حدج بيوتر بنظرة صارمة تتألق بلزوجة .وقال بفظاظة :
ـ لم أعد أطيق المزيد ، يا أخي .
وتنحنح بيوتر وقد وخزته نظرة الرجل وجعل يعض عذاريه الأصفرين . وتنهد الحارس ورفع بندقيته وقال :
ـ حسناً ، انته من كلامك وإلا فستصيبني المتاعب بسببك . تعال أيها العم .
ودفع فومين الكوز في الحال في خرجه ، وودع بيوتر بنظرة من عينين مشيحتين ومضى يخط أرجله مثل الدب برفقة حارسه صوب دائرة قومندان المحطة .
ووجد بيوتر آمر الكتيبة مع آمر السريتين منكبين فوق طاولة كانت يوماً ما مقصفاً من الدرجة الأولى . فقطب العقيد عينين مغضبتين تعبتين وقال :
ـ لقد تركتنا ننتظر يا ميليخوف .
ثم اصغى بيوتر إلى التعليمات التي تقضي بأن تكون سريته تحت تصرف هيئة أركان الفرقة ، وأن من الضروري جداً أن يراقب القوزاق جيداً ، ويخبر آمر السرية بأي تبدل ملحوظ يطرأ على موقفهم . فحدج بيوتر في وجه العقيد دون أن يطرف له جفن وأصغى بانتباه ، بيد أن عيني فومين المتألقتين اللزجتين ، وعبارته الهادئة « لم أعد أطيق المزيد ، يا أخي » لم تبرح ذاكرته .
وغادر صالة المحطة الدافئة وعاد إلى سريته ، كانت عربات الفوج من الدرجة الثانية واقفة هنا ، في المحطة . حينما تقدم من شاحنته شاهد رهطاً من القوزاق متجمعين حول حداد السرية . فنسي في الحال فومين ومحادثته ،

وحث خطاه آملاً أن يحدث الحداد ليصنع نعلاً جديداً لحصانه ، ومثلت أمام ناظريه المتاعب والهموم اليومية الصغيرة . ولكنها سرعان ما تلاشت . فقد قدمت امرأة من خلف الشاحنة ترتدي شالاً أبيض من وبر المعز وكان لباسها يختلف عن لباس النساء الأخريات في هذه المنطقة . فلفتت هيئتها الغريبة نظر بيوتر وكأنها مألوفة عنده . والتفتت المرأة بوجهها في الحال نحوه ، وحثت خطاها باتجاهه ، كانت ثمة حركة مترنحة خفيفة في كتفيها وجسدها الأهيف اليافع . وبالرغم من أنها لم تكن قريبة بحيث يسهل تمييز تقاطيعها ، فقد عرف بيوتر أنها زوجته من مشيتها التي تتميز بحركة الردفين الخفيفة . فأحس بدغدغة مريحة تنفذ إلى قلبه . كان فرحه عظيماً لأنه غير متوقع . ومضى ليقابلها متعمداً التمهل في خطواته كي لا يخاله الآخرون مسروراً على نحو كبير بهذه المناسبة . وعانق داريا بوقار ، وقبلها القبلات الثلاث التقليدية ، وأراد أن يسألهاعن شيء ما . ولكن اضطرابه الداخلي العميق طفح إلى الخارج ، فارتعشت شفتاه ، وافتقد صوته . على أنه شرق أخيراً :

ـ لم أكن أتوقعك...

وصفقت داريا بيديها وقالت :

ـ يا عزيزي! كم تبدلت! تكاد تبدو غريباً! لقد جئت لزيارتك ، كما ترى . لم يكن الأهل ليسمحوا لي بالمجيء .

ولكني قلت لا بد لي من الذهاب لأرى حبيبي .

نطقت بهذه الكلمات متهدجة ، والتصقت بزوجها وأخذت تتملاه بعينين نديتين ، وراحت ثلة القوزاق المتحلقة حول الشاحنات تحملق فيهما ، وتجأر وتغمز :

ـ هاقد تمت سعادة بيوتر!

ـ ذئبتي العجوز لن تأتي لزيارتي!

ـ لابد أنها قد حظيت بعشرة رجال في غيابك .

ـ لعله يشفق بنا ، نحن المساكين ، ويعير زوجته إلى السرية ذات ليلة .
ـ هيا بنا يا فتيتي ، فلست أتحمل النظر اليهما!
ونسي بيوتر في تلك اللحظة أنه عقد العزم على معاقبة زوجته بلا رحمة ، فراح يداعبها أمام الناس وخبط قوسي حاجبيها من شدة فرحه باصبعه الضخم الملطخ بآثار التبغ ، ونسيت داريا هي الأخرى أنها قبل ليلتين فقط نامت في شاحنة مع جراح بيطري من الفرسان كان في طريقه من خاركوف ليلحق بكتيبته .
لقد كان لدى الجراح شاربان أسودان كثان بشكل عجيب .
ولكن ذلك كان قبل ليلتين ، أما الآن فقد عانقت زوجها بدموع الفرح الخالص وهي تنظر اليه بعينين صافيتين وفيتين .

١٠

عندما عاد يفغيني لستنسكي من اجازته لم يتصل بكتيبته القديمة التي اضطر إلى الهرب منها بصورة غير مشرفة قبل ثورة شباط ، ولكنه ذهب مباشرة إلى قيادة الفرقة . فدبّر رئيس الأركان ، وهو جنرال شاب من نبلاء قوزاق الدون المعروفين ، عن طيب خاطر ، نقله إلى كتيبة قوزاق الدون الرابعة عشرة .
وأخبر لستنسكي بعد أن أخذه إلى غرفة خاصة :
ـ أنا أدري أنك ستجد صعوبة في العمل في محيطك السابق أيها الرئيس . فالقوزاق يضمرون لك العداء ، واسمك مقيت عندهم ، فمن الحكمة والحالة هذه أن تلتحق بالكتيبة الرابعة عشرة ، أن الضباط هناك إناس طيبون جداً ، كما أن القوزاق هناك ممن يعتمد عليهم ، فهم أكثر استكانة . ومعظمهم من القصبات الجنوبية ، ستجد الحال أخف وطأة . أو لست ابن الجنرال لستنسكي ؟

وتوقف رئيس هيئة الأركان ثم استأنف كلامه بعد أن رد لستنسكي بالايجاب .

ـ أما من جهتي ، فأستطيع أن أقول لك أننا نعتز بالضباط من أمثالك . فالنفاق منتشر حتى بين صفوف الضباط هذه الأيام . واختتم رئيس هيئة الأركان حديثه بمرارة : ــ وليس هناك أسهل من أن يغير المرء عقيدته ، أو حتى أن يخدم عقيدتين في وقت معاً .

وسر لستنسكي بالنقل ، وسافر في اليوم نفسه إلى دفينسك حيث معسكر الكتيبة الرابعة عشر ، وقدم نفسه لآمر الكتيبة بيقادوروف ، وسرته صحة كلمات رئيس الأركان : فأكثرية الضباط ملكيين ، أما القوزاق ، وجلهم من المؤمنين القدامى ، فلم تكن لديهم نزعات ثورية . لقد أقسموا يمين الولاء للحكومة المؤقتة على مضض كبير منهم ، دون أن يفهموا أو يرغبوا في فهم الحوادث الملتهبة التي تمور من حولهم . وانتخب المداهنون والمسالمون من القوزاق إلى لجان الكتائب والسرايا . فتنفس لستنسكي الصعداء لوضعه الجديد .

ولم يصادف سوى ضابطين كانا يعملان معه سابقاً في كتيبة الحرس وقد أبقيا نفسيهما بمعزل عن الحوادث ، أما الباقون فقد كانوا متحدين متجانسين على نحو خارق ، ويتكلمون جهاراً حول اعادة الملكية .

وكانت الكتيبة قد عسكرت في دفينسك نحو شهرين ، وغدت وحدة عسكرية متراصة الصفوف ، حسنة التدريب ، قد نالت قسطها من الراحة . وكانت السرايا في السابق قد ألحقت بفرق المشاة وجابت مناطق الجبهة من ريغا حتى دفينسك ، بيد أن يداً حريصة جمعتها سوية في نيسان ، وباتت الكتيبة الآن على أهبة الاستعداد لكل طارئ . وتحت رقابة الضباط الدقيقة ، كان القوزاق يمضون أيامهم بالتدريب ، ويطعمون جيادهم جيداً ، ويحيون حياة بليدة زاهدة ، بعيدة عن كل المؤثرات الخارجية . ولم تتردد بينهم سوى بضع شائعات غامضة عن الهدف الحقيقي لكتيبتهم ، أما الضباط فقد كانوا

يتكلمون جهاراً عن نواياهم ، تقودهم أيد تقاة ، نحو إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء في مستقبل ليس ببعيد .

وكانت الجبهة على مقربة منهم ، وعلى مبعدة قريبة شطر الغرب كانت الجيوش تلهث في حمى مميتة ، حيث كان ثمة نقص في المؤن والعتاد . وكانت أيد لاتحصى ترتفع مطالبة بكلمة «السلام» السحرية ، وكان موقف الجيش مبهماً تجاه رئيس حكومة الجمهورية المؤقتة كيرنسكي ، وقد تكبد خسائر فادحة في هجوم حزيران نتيجة لنداءات كيرنسكي الهستيرية الملحاحة .

وماجت صفوف الجيش بغضب بلغ أشده وراح يفور كالماء المتدفق في النبع... أما في دفينسك فقد كان القوزاق يعيشون بسلام وهدوء ، وقد أتى النسيان على المآسي التي تجرعوها في جبهة القتال . وأما الضباط فقد كانوا يعقدون اجتماعاتهم باستمرار ويحيون حياة رافهة ، ويتحدثون عن مستقبل روسيا بحماس .

هكذا كان الحال حتى أوائل تموز . وفي اليوم الثالث منه صدر أمر بالتقدم دون التفريط بأية لحظة . فتحركت الكتيبة نحو بتروغراد . وفي اليوم السابع كانت حوافر خيل القوزاق تقعقع فوق شوارع العاصمة المرصوفة .

وأقامت الكتيبة بمنازل في حي نيفسكي ، وقد خصصت لسرية لستنسكي عمارة تجارية شاغرة . وكان مدبرو ثورة الردة ينتظرون القوزاق بلهفة ونفاد صبر ، وكانت عناية سلطات المدينة بتنظيم المساكن المعدة لهم شاهداً بليغاً على ذلك . كانت الجدران تلمع بالدهان الحديث ، وتسطع الأرضية النظيفة ، وتنبعث رائحة خشب الصنوبر من الأسرة الجديدة ، وكان المقام في الطابق السفلي الوضيء مريحاً إلى حد ما . وتفحص لستنسكي المساكن بعناية والتقطيبة بادية عليه من تحت نظارتيه وانتهى إلى أنه ليس بالوسع الحصول على مكان أفضل منه . وإذ أحس بالارتياح لما رأى ، استدار نحو الباب المؤدي الى الباحة برفقة ممثل الادارة المحلية القصير الحسن

الهندام الذي أنيطت به مهمة استقبال القوزاق .

ولكن حادثاً مزعجاً قد حصل هنا . فبينما كان يمسك أكرة الباب ، رأى صورة ، محفورة على الجدار بآلة حادة ، لرأس كلب ومكنسة* . ولا شك أن بعض العمال الذين أصلحوا العمارة يعرفون دلالة هذه الصورة . فتساءل لستنسكي مقطباً حاجبه :

ـ ماهذا ؟

فشهق ممثل الادارة المحلية عندما نظر إلى الرسم بعينيه الحادتين الشبيهتين بعيني الفأر . وهجم الدم إلى رأسه حتى لاحت ياقة قميصه الصلبة وردية .

ـ أستميحك العذر أيها الرئيس ، أن يدأ أثيمة...

ـ أرجو أن يكون هذا الشعار قد رسم دون علمك .

ـ طبعاً ، وإلا فماذا تعتقد ؟ وهل يمكن أن يكون إلا ذلك ؟ إنها دسيسة بلشفية ، دبّرها أحد السفلة . وسوف آمر في الحال بطلاء الجدار ثانية . ياللشيطان! لشد مايؤسفني أن يحدث هذا الشيء ، صدقني ، إنني أشعر بالخجل حينما أرى الناس يصلون الى هذه الدرجة من الدناءة .

وانتاب لستنسكي شعور صادق بالأسف لهذا المواطن القلق خائر النفس . وقال بهدوء بعد أن خفف من نظرته الباردة القاسية :

ـ إن الفنان الذي رسم هذه الصورة لم يصب الهدف . ذلك أن القوزاق لايعرفون تاريخ روسيا بشكل كاف ، ولكن هذا لا يعني أننا ينبغي أن نشجع مثل هذا الموقف منا...

وحاول الممثل أن يكشط الصورة بأظفره المصقول ، فانتثر الغبار الأبيض عندما اشرأب مستوياً على أصابع قدميه ليبلغ الصورة ، فتلطخ معطفه الانكليزي

---

* كانت صورة الكلب والمكنسة تلصق بسروج أوبريشنيكي قائد قوات ايفان الرهيب المسلحة السيئة الصيت التي عرفت بوحشيتها ، كرمز يفيد أن هذه القوات ستنشب أنيابها في أعداء القيصر وتكنسهم . المترجمون

الفاخر . وكان لستنسكي يلمع نظارتيه ويبتسم ، ولكن شعوراً مريراً كان يتآكله في الداخل .

« هكذا إذاً يستقبلوننا ، ذلك هو الوجه الآخر من المدالية . ولكن هل تنظر الينا روسيا بأجمعها نظرتها إلى أوبريشنيكي ؟ » .

قال ذلك في دخيلته فيما كان يعبر الباحة شطر الاسطبل ، ويصغي دونما التفات إلى ثرثرة ممثل الادارة المحلية ، الذي كان يتبعه في عجلة .

كانت أشعة الشمس تسقط مائلة على بئر الباحة العريضة العميقة . واشرأب الناس في نوافذهم يراقبون جمع القوزاق في الأسفل . وتجمع القوزاق وهم يقفون أو يجلسون القرفصاء في فيء الجدران بعد أن قادوا جيادهم إلى الاسطبل .

وسألهم لستنسكي :

ـ لِمَ لاتذهبون إلى أماكنكم ياأولاد ؟

ـ لم يزل الوقت مبكراً لذلك ، أيها الرئيس .

ـ سرعان ماسنشبع منها .

ـ سنذهب عندما نسوق الخيل إلى الاسطبل .

وبعد أن فتش لستنسكي المستودع المخصص للاسطبل ، استدار نحو ممثل الادارة المحلية وقال بلهجة صارمة محاولاً استعادة خصومته السابقة معه :

ـ توصل إلى اتفاق مع المسؤولين عن مثل هذه الأمور وتدبر الأمر . فاننا بحاجة إلى باب آخر لهذا الاسطبل . إن ثلاثة أبواب لمئة وعشرين حصاناً ليست كافية . فإذا ما تلقينا إنذاراً فسوف يستغرق منا نصف ساعة لإخراج الجياد . ولاأدري كيف أن هذا لم يؤخذ بالحسبان من قبل . لابد أن أخبر آمر الكتيبة بذلك .

وبعد أن تلقى لستنسكي تأكيداً بأن بابين وليس باباً واحداً سوف يقامان حالاً ، شكر الممثل باقتضاب على ماتحمل من مشقة ، وعين

مراسلين ، وارتقى السلم إلى الغرفات المعدة وقتياً لضباط فرقة المشاة .

ثم ارتقى السلم الخلفي ، وهو يفك أزرار بزته ويمسح العرق من تحت مقدمة قبعته ، وقد سره ماشعر به من رطوبة الغرفة المريحة . ولم يكن في مأوى الضباط خلا الرئيس أتارشجيكوف . فسأله لستنسكي :

ـ أين الآخرون ؟

ورمى بنفسه على فراش عسكري ومد ساقيه بكلال دون أن ينزع جزمته المتربة .

ـ لقد ذهبوا ليشاهدوا بتروغراد .

ـ ولم لم تذهب أنت ؟

ـ أوه ، لست أعتقد أن مشاهدة المدينة حال الوصول أمر يستحق العناء ، كنت أقرأ عما حدث هنا قبل بضعة أيام . أنه لأمر ماتع!

واستلقى لستنسكي صامتاً لايرين ، وقد أحس برطوبة العرق الباردة تدغدغ جلده اذ هي تأخذ بالبرود . لقد هدت الرحلة من قواه ، ولم يجد في نفسه الرغبة لينهض ويستحم .

ولكنه نهض أخيراً مقاوماً كسله ، ونادى مراسله . فخلع ثيابه واستحم استحماماً كاملاً ، وهو يزنخر جذلاً ، ويمسح رقبته اللحمية التي لفحتها الشمس ، بمنشفة وبرية .

وقال ناصحاً أتارشجيكوف :

ـ اغتسل يافانيا ، فالاستحمام يأتي بالمعجزات... حسناً ، ماذا في الصحف ؟

ـ أجل ، ربما اغتسلت . لابأس به ، كما تقول ؟

ماذا في الصحف ؟ وصف لتظاهرات البلاشفة ، واجراءات الحكومة ، اقرأها!

كان الاستحمام قد انعش لستنتسكي ، وعندما هم بتناول الصحيفة دعي لمقابلة آمر الكتيبة . فنهض من سريره دونما حماس وارتدى قمصلة نظيفة

انّما مدعوكة ، وتمنطق بسيفه وخرج إلى شارع نيفسكي .

اجتاز الشارع ، واستدار الى الوراء لينظر الى العمارة التي تقيم فيها السرية . لم يكن منظرها من الخارج ليختلف عن الأخريات ، فهي عمارة من خمس طبقات واجهتها من حجر خشن رمادي اللون ، تقع بين صف من العمارات الأخرى المماثلة . وسار في الشارع وهو يشعل لفافة . كان ثمة زحام شديد يطفح بقبعات رجالية من القش ، قبعات أخرى من شتى الأصناف ، وقبعات نسائية بسيطة ولكنها أنيقة . وبين آونة وأخرى تظهر القبعة الديمقراطية الخضراء لواحد من العسكريين غارقة في طوفان الألوان .

وكان النسيم المنعش العليل يهب من البحر ، فتصدّه العمارات فينتشر أنفاساً واهنة والغيوم تمخر إلى الجنوب في السماء البنفسجية الحائلة إلى زرقة بلون الفولاذ ، وقد كانت كتلها الحليبية البيضاء مسننة الأطراف حادتها . وكان ثمة احتباس هواء يخيم على المدينة حاملاً تباشير الغيث . وقد خالط الهواء رائحة الاسفلت الدافئ ، ودخان البترول ، والبحر القريب ، وشميم العطور الخفيف ، وكل ما تعبق به المدن الكبرى من روائح .

ولاحظ لستنتسكي وهو يمشي وئيداً في الشارع ويدخن ، نظرات الاحترام التي يطالعه بها السابلة . وكان في بادىء الأمر قد أحس بالحرج بسبب قمصلته المدعوكة وقبعته المتسخة ، ولكنه أيقن أن رجلاً قادماً من الجبهة لا ينبغي أن يشعر بالخجل من مظهره ، ولا سيما إذا كان قد بارح القطار لتوه .

وعكست مظلات الحوانيت والمقاهي على الرصيف ظلالاً زيتونية صفراء متثائبة . وكانت الريح تنفخ المظلات الحائلة اللون وتعبث بها ، فتتراقص الظلال وتزوغ من أرجل السابلة .

وقد كان شارع نيفسكي مزدحماً بالناس رغم أن الوقت كان ظهراً . ولكن لستنتسكي ، وقد غدا خلال الحرب لا يألف المدن ، راح يعب بسرور وارتياح ضجيج الأصوات يخالطها الضحك وأبواق السيارات ، ونداءات باعة

لصحف . وإذ ألف هذا الزحام من الناس المتنعمين ، حسني الهندام وهو يشعر بأنه أحد منهم ، لم يسعه إلا أن يقول في ذات نفسه :« كم أنتم هانئون ، كم أنتم سعداء مرحون الآن! كلكم : يامعشر التجار والصيارفة ، والموظفين ،والملاكين ، وذوي الدم الأزرق!

ولكن كيف كان شعوركم قبل ثلاثة أيام فقط ، عندما تدفق الغوغاء والجند في تيار منصهر في هذا الشارع بالذات ؟ انني والحق يقال سعيد بكم ، وغير سعيد . ولست أعرف كيف أبتهج لرفاهكم... »

وجرب أن يحلل مشاعره المختلطة ، ويوجد سبباً لذلك ، فلم يصعب عليه أن يدرك أنه كان يفكر ويشعر بمثل هذا لأن القتال وكل ما مر به قد نأى به عن مثل هذا الحشد من الرجال والنساء الناعمين براحة البال .

وتساءل مع نفسه عندما التقت عيناه بعيني شاب متورد الخدين ممتلئ الجسم :« مابال هذا مثلاً ؟ لمَ لا يكون في الجبهة ؟ أحسب أنه ابن لصاحب معمل أو تاجر ميسور الحال ، فتخلص من الخدمة العسكرية ، يا للسافل! أتراه يقوم بواجبه على الجبهة الداخلية ؟ ماذا يهمه من الوطن مادام « يعمل في المؤخرة » ويعيش من خيرات الأرض ، ويحب أن يحظى بنسائه في راحة بال . »

ثم تساءل : « ولكنك في أي جانب على كل حال ؟ » وأجاب باسماً : « لماذا ، أنا بالطبع مع هؤلاء ، فثمة شيء مني فيهم وأنا نفسي واحد منهم . وكل ماهو حسن وسيء في طبقتي يوجد إلى هذا الحد أو ذاك فيّ ، وربما كان جسمي أكثر نحافة بقليل من ذلك الخنزير اللحيم ، وربما كنت أعي الأمور بدقة أكثر منه ، وهذا هو سر إخلاصي وذهابي إلى الجبهة بدلاً من « العمل في المؤخرة » . وربما لهذا السبب رميت بنفسي على الثلج في هذا الشتاء في موغيليف وبكيت مثل الأطفال عندما رأيت الامبراطور المخلوع يترك مقر القيادة ، عندما رأيت شفتيه الباهتتين وقد ألقى بيده العاجزة بشكل لا يوصف على طية معطفة... أنا صادق في عدم تقبّلي

للثورة . أنا لا أستطيع تقبّلها . إن قلبي وعقلي يرفضانها . وسوف أكرس حياتي للماضي ،

سأكرسها دونما تلكؤ ، أو بعبارة أخرى كالجندي... ولكن هل يوجد الكثير ممن يفعلون الشيء ذاته ؟ » .

واعتراه الشحوب عندما تذكر بجلاء مثير ذات أصيل ساطع متأخر في شباط ، بيت الحاكم في موغيليف ، وأحد سياجات الحديد المزركشة بالصقيع ، والأرض المكسوة بالثلج ، ووهج أشعة الشمس الوردية ، عندما كانت تغيب وراء غلالة من الضباب... وفي الجانب الآخر من الدنيبر كانت السماء لازوردية ، قرمزية ، ذهبية متألقة... وكان كل شيء في الأفق أثيرياً لدرجة تبعث الألم في نفوس الناظرين ، وكان قد تجمع قرب البوابة حشد صغير من مقر القيادة العامة والمدنيين وظهرت سيارة ليموزين وكان بالوسع أن يرى ، خلال النافذة ، البارون فريدريك والقيصر متكئ في مقعده إلى الخلف ، كان وجه القيصر رمادياً تخالطه ظلال بنفسجية ، وقد ارتدى القبعة السوداء المصنوعة من فراء الضأن التي يستعملها الحرس القوزاق ، وقد انداحت فوق جبهته الشاحبة .

كاد لستنسكي أن يجتاز الحشد الذي كان يرسل نظرات الدهشة وراءه ، ولكنه رأى يد القيصر تخفض من طرف قبعته السوداء عندما رد على التحية ، وسمع ثرثرة السيارة ، ولاحظ الصمت المهيمن الذي ودع الحشد به امبراطورهم الأخير .

وارتقى ببطء سلم البيت الذي تقطنه هيئة أركان الكتيبة .

كانت وجنتاه ماتزالان ترتعشان وعيناه حمراوين منتفختين مغرورقتين بالدموع . ودخّن في صالة الطابق الثاني لفافتين على التوالي ، ثم مسح نظارتيه ، وارتقى السلم شطر الطابق الثالث حيث تقيم القيادة ، قافزاً درجتين في آن واحد .

نشر آمر اللواء خريطة بتروغراد أمامه ، وأشار إلى منطقة الدوائر

حكومية التي ينبغي لفصيل لستنسكي أن يحرسها .

وشخصت العمارات واحدة واحدة ، وأخبره بأدق التفاصيل حول تنظيم وقت وتوزيع الأدوار على الحرس . وختم كلامه قائلاً :

ـ في قصر الشتاء ، كيرنسكي...

فدمدم لستنسكي بعنف وقد بدا عليه شحوب موات :

ـ ولا كلمة عن كيرنسكي!

ـ يجب أن تسيطر على نفسك يا يفغيني لستنسكي .

ـ أرجوك أيها العقيد...

ـ ولكن ياعزيزي...

ـ أرجوك!

ـ أعصابك...

وسأله لستنسكي وهو يجر أنفاسه بمشقة :

ـ هل علي أن أرسل دوريتنا باتجاه مصانع بوتيلوف في الحال ؟

وعضّ العقيد على شفتيه ، وابتسم ، وهز كتفيه مجيباً :

ـ في الحال! ويجب أن يقودهم آمر الرعيل .

فاستدار لستنسكي وخرج ، وقد سحقته ذكرى كل ما جابهه ، وحديثه مع العقيد . ورأى في الخارج عند الباب الرئيسي تماماً دورية من كتيبة قوزاق الدون الرابعة ، وقد تدلت من شكيمة جواد الضابط أزهار ذابلة يابسة ، وافتر ثغر الرجل ذي الشاربين الكتانيين عما يشبه الابتسامة .

وهتف سيد كهل منفعل وهو ينزل من الرصيف ويرفع قبعته :

مرحى لمنقذي وطننا!

فحياه الضابط مجاملة ، وخبّت الدورية ماضية في طريقها . ونظر لستنسكي إلى وجه المدني المتحمس ، الرطب الشفتين الذي حيا القوزاق وإلى ربطته الزاهية المشدودة بعناية ، وقطب جبينه ، ومضى مسترخي الكتفين شطر الممر المؤدي إلى مسكن سريته .

١١

لقي تعيين الجنرال كورنيلوف قائداً للقوات المسلحة لجبهة الجنوب الغربي تأييداً حاراً من لدن ضباط كتيبة القوزاق الرابعة عشرة ، وطفقوا يتحدثون عنه بإكبار واحترام كرجل حديدي الطبع . وقادر بلاشك على انقاذ البلاد من الفوضى التي أغرقتها فيها الحكومة المؤقتة .

وكان لستنسكي قد رحب بهذا التعيين بصورة خاصة . وعن طريق ضباط السرية الذين كانوا دونه بالرتبة ، والقوزاق الذين يركن اليهم حاول أن يتبين وقع هذا التعيين في نفوس المراتب الدنيا ، ولكن ماحصل عليه من معلومات لم يدخل إلى نفسه سروراً كثيراً . ذلك أن القوزاق كانوا بين صامت أو مجيب بفتور :

ـ لا تعني شيئاً بالنسبة لنا .

ـ من يدري من أي شاكلة هو ؟

ـ إذا حاول تحقيق السلام ، فلاشك أنه...

ـ لن نحصل على أي شيء من ترقيته هذه .

وخلال بضعة أيام دارت شائعات عنود بين الضباط الذين كانوا يخالطون أوساطاً أوسع من السكان المدنيين والعسكريين الذين يتوقف عليها مصير الجيش وضمان استمرار الحرب ، وقيل أن كيرنسكي كان يخشى كورنيلوف ، وربما حاول استبداله بجنرال أكثر طاعة وذكرت أسماء الجنرالات المشهورة في الأوساط العسكرية .

ومن ثم فإن مرسوم الحكومة في ١٩ تمور القاضي بتعيين كورنيلوف قائداً أعلى ، جاء مفاجأة كبيرة . وبعد هذا مباشرة أخبرهم الرئيس أتارشجيكوف وهو ذو معارف كثيرين في اللجنة العليا لتحالف الضباط مستشهداً بمصادر موثوق بها ، بأن كورنيلوف أصر في تقريره للحكومة المؤقتة على اتخاذ الإجراءات الضرورية التالية :

تأسيس محاكم عسكرية في جميع أنحاء البلاد ، تشمل صلاحياتها القوات المسلحة في المؤخرة والسكان المدنيين ، مع صلاحيات اصدار عقوبة الاعدام ، وإعادة صلاحيات الضباط إلى كبار الضباط ، والحد من فعاليات لجان الجنود ، وغير ذلك ، وفي مساء اليوم ذاته ، ناقش لستنسكي ضباط الكتيبة الآخرين وطرح عليهم هذا السؤال بصورة مباشرة وحادة : إلى أي جانب هم ؟

وقال وهو يكبح انفعاله :

ـ أيها السادة! نحن نعيش كعائلة واحدة ، ويعرف بعضنا البعض جيداً ، ومع هذا فما يزال هناك عدد من المسائل الهامة لم يبت فيها بعد . والآن وقد بات الصدام المكشوف بين القيادة العليا والحكومة وشيكا ، يجب أن نحسم مسألة أي من الجانبين نقف معه ، فلنتكلم كرفاق.لانخفي شيئاً عن بعضنا .

كان أول من أجاب على دعوته الرئيس أتارشجيكوف :

ـ أنا مستعد لإراقة دمي ودماء الآخرين أيضاً من أجل الجنرال كورنيلوف . فهو رجل في منتهى الاخلاص ، وهو الوحيد الذي يستطيع أن يجعل روسيا تقف على قدميها . انظروا إلى مافعله حتى الآن بالجيش ، فبفضله أطلقت أيدي القواد إلى حد ما ، بينما كان وضع الجيش قبل ذلك في دوامة من لجان متواصلة ، وجمعيات ، وفرار من الخدمة ، وهل هناك من داع للنقاش حول ذلك ؟ إن كل رجل محترم سيؤيد كورنيلوف!

لقد تكلم بحرارة ، وعندما فرغ من كلامه جال ببصره في جمع الضباط ، ونقر سيكارته على علبته متحدياً ، كان لأتارشجيكوف ساقان نحيلتان بصورة غير اعتيادية ، وصدر ، وكتفان عريضان بما لا يتفق ونحافة ساقيه ، وعلى الجفن الأسفل لعينه اليمنى ثمة شامة بنية كبيرة . وهي تحول دون أن ينطبق الجفن الأعلى تماماً ، وكان هذا يوحي لأول وهلة بأن عينيه كانتا تنمان على الدوام عن سخرية مترقبة مستهينة بالآخرين ،

ـ لئن كان علينا أن نختار بين البلاشفة ، وكيرنسكي ، وكورنيلوف ، فلاشك أننا مع كورنيلوف .

ـ من الصعب معرفة مايريده كورنيلوف : هل هو إعادة النظام ، أم إعادة شيء آخر...

ـ ليس هذا بجواب على السؤال الهام! مم تخشون ، اعادة الملكية ؟

ـ أنا لاأخشى ذلك ، بل على العكس .

ـ حسناً ، إذا ، عم تتجادلون .

ـ أيها السادة!

كان المتكلم الأخير دولغوف الذي رفع حديثاً من رئيس عرفاء إلى نائب ضابط لخدماته الممتازة . ومضى يتكلم بلهجة قوية راسخة :

ـ فيم الخصام حولها ؟ فلننقلها صراحة أننا نحن القوزاق يجب أن نتشبث بالجنرال كورنيلوف كما يتشبث الطفل بأذيال أمه . لنقل هذا بكل صراحة وبلا مراوغة . أما إذا أعرضنا عنه ، فسوف ينتهي أمرنا ، إن روسيا ستجرفنا كما يجرف الروث . الموقف واضح حيثما يذهب ، نذهب نحن .

فقال أتارشجيكوف ، وهو يربت على ظهر دولغوف بلطف :

ـ ذلكم هو بالضبط! وسمر عينيه الضاحكتين على لستنسكي الذي كان يبتسم ويسوي طيات بنطاله بقلق ، ورفع صوته قائلاً :

ـ والآن أيها السادة! هل نحن مع كورنيلوف ، أم لا ؟

ـ ماذا ، بالطبع نحن معه .

ـ لقد حلّ دولغوف العقدة العويصة بضربة واحدة .

ـ كل الضباط معه!

ـ نحن ، عزيزنا لافرغيورغيفييش ، القوزاقي والبطل ، المجد له!

وشرب الضباط شايهم . وهم يضحكون ويقرعون الأقداح .

وزال الجو المترتر الذي خيم عليهم ، ودار الحديث عن حوادث الأيام القليلة الماضية .

قال دولغوف متحيراً :

ـ كلنا وراء القائد العام ، ولكن القوزاق مبلبلو الأفكار بعض الشيء .

فتساءل لستنسكي :

ـ من أية ناحية هم «مبلبلو الأفكار» ؟

ـ ماذا ، إنهم شاردو الفكر ، وهذا هو كل مافي الأمر . فالخنازير يريدون أن يعودوا الى بيوتهم لزوجاتهم . لقد سئموا حياتهم الشاقة .

وصرح الملازم تشيرنوقوتوف ضارباً الطاولة بقبضته :

ـ إن من صلب عملنا أن نجر القوزاق وراءنا . وهذا هو واجبنا نحن الضباط ولذلك بالذات نرتدي كتافياتنا .

ـ يجب أن يوضح للقوزاق بأناة أي جانب ينبغي أن يختاروا .

ونقر لستنسكي القدح بملعقته ، وقال على مهل حين نال انتباههم .

ـ أرجو أن تتذكروا أيها السادة أن عملكم في هذه اللحظة ينحصر في ايضاح الأمور الراهنة على حقيقتها للقوزاق ، كما يقول أتارشجيكوف . يجب أن نبعد القوزاق عن تأثير اللجان . وهذا يتطلب تبدلاً في طباعنا ، تبدلاً لايقل عما ترتب على معظمنا أن يعانوه منذ انتفاضة شباط إن لم يكن أكبر . ففي السابق ، في ١٩١٦ مثلاً ، كنت أستطيع أن أجد قوزاقياً وأجازف بتلقي رصاصة منه في ظهري في المعركة التالية . ولكن وجب علينا أن نعاملهم غير هذه المعاملة منذ ثورة شباط ، لأنني إذ ضربت أحد الحمقى قتلني البقية في الحال هنا في الخنادق ، دون أن ينتظروا فرصة مناسبة ، أما الآن فقد تغير الوضع من جديد ، يجب علينا الآن ، ـ وأكد لستنسكي على الكلمة ، ـ أن نتآخى مع القوزاق ، لأن كل شيء يتوقف على ذلك . ـ وأردف مؤكداً : هل تعرفون ماذا يحدث الآن في الكتيبتين الأولى والرابعة ؟

ـ شيء مريع!

ـ تماماً ، وذلك لأن ضباطهم استمروا على وضع الحواجز القديمة بينهم وبين القوزاق ، فوقع القوزاق نتيجة لذلك تحت تأثير البلاشفة ، كلهم تقريباً ، وأصبح ٩٠ بالمئة منهم بلاشفة . وليس من شك بعد هذا أننا لن نقوى على

تجنب العواقب الوخيمة المقبلة . وقد كان الثالث والخامس من تموز* انذاراً قاسياً لكل من لا يعي... أما أن نحارب مع كورنيلوف ضد قوات الديموقراطية الثورية ، أو أن البلاشفة سيقومون بثورة أخرى بعد أن اكتنزوا قواهم ووسعوا نفوذهم ، انهم يأخذون نفساً الآن ، ويعززون قواهم ، أما نحن فماضون في وضعنا المتراخي ، كيف يمكن أن تدع الأمور تأخذ هذا المجرى ؟ إننا بحاجة إلى قوزاق مخلصين في الانتفاضة المقبلة .

- إننا بدون القوزاق لاأكثر من صفر على اليسار - قال دولغوف متنهداً .

- هذا صحيح يا لستنسكي .

- صحيح جدا!

- إن روسيا على حافة القبر...

- هل تعتقدون أننا لاندرك ذلك ؟ نعم ، ندركه ، ولكننا في زمن نعجز فيه عن فعل أي شيء .

إن المرسوم رقم ١** «وأكوبنايا برافدا»*** يبذران بذورهما . وصاح أتارشجيكوف :

- ولهذا فنحن نمتع أبصارنا بالنظر إلى البراعم بدلاً من أن نسحقها تحت أقدامنا أو نضرم النار فيها!

- كلا ، لانمتع بها أبصارنا ، إنما نحن عاجزون ليس إلا!

- كذب ، أيها الضابط! إننا مقصرون!

- ليس كذلك!

- برهن اذا!

- هدوءاً ، أيها السادة!

---

* تظاهرات جماهيرية مسلحة قام بها العمال والجنود والبحارة في بتروغراد ضد الحكومة المؤقتة . المترجمون

** المرسوم رقم ١ (في آذار ١٩١٧) الصادر تحت ضغط جماهير الشعب الثوريين عن اللجنة التنفيذية لسوفييت بتروغراد أوجد تنظيمات انتخابية بين الجيش . أخذت على عاتقها مراقبة أعمال ضباط روسيا القيصرية .

*** «أوكوبنايا برافدا» (حقيقة الخنادق) جريدة يومية بلشفية أسست عام ١٩١٧ .

ـ لقد دمرت الجريدة «برافدا» ، ولكن كيرنسكي يستيقظ بعد فوات الأوان...

ـ ما هذا... أنحن في السوق ؟ لن نتوصل إلى نتيجة بهذا الشكل!

وشيئاً فشيئاً خفت الصخب ، ورجاهم أحد آمري السرايا الذي كان يصغي إلى لستنسكي بانتباه كبير ، وقال بهدوء :

ـ اقترح أن نفسح المجال للرئيس لستنسكي لينتهي من حديثه .

ـ استمر .

وواصل لستنسكي كلامه وهو يدلك ركبتيه النحيلتين بيديه :

ـ أقول عندما يحين الكفاح... أعني الحرب الأهلية ـ وقد بدأت الآن أدرك أنها آتية لاريب . ـ سنحتاج قوزاقاً يركن إليهم . لذا يجب أن نكافح من أجل أن نصرفهم عن اللجان التي تجنح بهم نحو البلاشفة . وتلك ضرورة حيوية! وينبغي أن تتذكروا أنه إذا حدثت اضطرابات جديدة سيطلق قوزاق الكتيبتين الأولى والرابعة النار على ضباطهم...

ـ هذا صحيح ، فلن يحجموا عن ذلك .

ـ ... ومن تجربتهم ، المرة كل المرارة ، يجب أن نستفيد ينبغي شنق نصف قوزاق الكتيبتين الأولى والرابعة ، فانهم لم يعودوا قوزاقاً والحق يقال ، ربما ترتب علينا أن نتخلص منهم جميعاً... يجب أن ينظف الحقل من الأعشاب السامة! ويجب أن نجنب قوزاقنا من الأخطاء التي قد يدفعون ثمنها في المستقبل .

وبعد لستنسكي انبرى أحد آمري السرايا ، وهو ضابط كهل خدم في الكتيبة تسعة أعوام وقد جرح أربع مرات في الحرب ، وراح يتكلم عن صعوبة الخدمة في الكتائب القوزاقية قبل الحرب .

فقد استبقى الضباط القوزاق في المؤخرة ، محرومين من مسرات الحياة ، وكانت ترقيتهم تجري بطيئة ، وكانت رتبة العقيد بالنسبة لمعظم الضباط النظاميين أعلى ما يستطيعون الطموح اليه ، وهذا كان في رأيه سبب الفتور في

موقف القواد القوزاق أيام الاطاحة بالقيصر . ومع هذا فمن الضروري بمكان تأييد كورنيلوف بأي ثمن ، وتعزيز الصلة الوثيقة به عن طريق مجلس تحالف الجيوش القوزاقية والهيئة العليا لتحالف الضباط ، وأنهى كلامه قائلاً :

ـ فليكن كورنيلوف دكتاتوراً! إن في ذلك انقاذاً للقوزاق .

وربما سيكون وضعنا معه أفضل من عهد القيصر .

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير ، وخيم الليل على المدينة بغلالة بيضاء من السحاب ، وخلف النافذة كان الطرف المستدق الداكن لبرج مبنى وزارة البحرية يشع وسط فيض أصفر من الضياء .

ظل الضباط يتحدثون حتى مطلع الفجر . وتقرر أن تلقى محاضرات على القوزاق ثلاث مرات في الأسبوع تتناول مواضيع سياسية . وأن يشغل ضباط الرعائل الجنود يومياً بالألعاب الرياضية والقراءة ، بغية ملء أوقات الفراغ وإبعاد القوزاق عن جو السياسة الذي يشيع روح التذمر . وأنشدوا قبل أن ينفرقوا : «الدون يقظ وهائج ، الدون المسيحي الهادئ» . وفرغوا من سماورهم العاشر فيما كانت الأنخاب تقترح بدعابة وسط قرع الكؤوس . وقبل النهاية قال أتارشجيكوف بعد تفاهم مهموس مع دولغوف :

ـ والآن ، كحلاوة ، دعونا نستضيفكم حسب التقاليد بالأغنية القوزاقية القديمة . هدوءاً ، رجاء! وقد يكون من الأفضل أن نفتح النافذة ، فالجو ثقيل هنا .

واجتمع صوتان ، صوت دولغوف ذو النبرة الغليظة الخشنة وصوت أتارشجيكوف الصادح على غير عادته ، وكانا في البداية مترددين ، غير أنهما صدحا أخيراً بأغنية فائقة الجمال :

... ولكنه شموخ ، دوننا الهادئ ،

أبونا الدون ،

لم يطأطئ مرة لكافر ، ولم يستشر موسكو كيف تكون الحياة .

أما الأتراك ، فقد استقبلهم بحد السيوف

على مر العصور ،
وعاما تلو عام كانت أمنا ، سهوب الدون تحارب
العدى بسيول متلاطمة
وتذود عن العذراء البتول وتصون حمى الديار
ذلك من أجل حرية الدون الشموخ...

كان أتارشجيكوف جالساً وقد عقد أصابعه على ركبتيه ، يغني دون توقف وكان وجهه صارماً على غير عادته ، وقد لاحظ لستنتسكي دمعة لامعة تسيل على خده عند نهاية الأغنية .

وبعد أن خرج ضباط السرايا الآمرون ، جلس أتارشجيكوف على سرير لستنسكي ، وهمس وهو يعبث بحمالة بنطلونه حائلة الزرقة على صدره العريض :

ـ هل تدري ، يايفغيني... أنا موله بالدون إلى حد الجنون ، وبنمط الحياة القوزاقية العريقة ، العريقة جداً ، أنا أحب قومي القوزاق ، والنساء القوزاقيات ، أحبهم جميعاً! أحس بحاجة إلى البكاء عندما أشم شيح السهوب... وعندما تتفتح أزهار عباد الشمس ، وعندما يعبق الهواء بشذى الكروم المغسولة بالمطر ، أحب ذلك بكل جوارحي... أنت تفهم... ولكنني أتساءل : ألسنا نضلل هؤلاء القوزاق بكل هذا ؟ أهذا هو السبيل الذي نريد أن يسلكوه ؟

فسأله لستنسكي بحذر :

ـ ماذا تقصد ؟

ولاحت رقبة أتارشجيكوف التي لفحتها الشمس ، ناعمة فتية وبريئة ازاء ياقته البيضاء . وتدلى جفنه الأزرق بشكل غريب على شامته السمراء وتوهجت عينه نصف المغمضة بلزوجة في الظلام .

ـ إني أتساءل فيما إذا كان هذا خيراً للقوزاق ؟

ـ وإذا لم يكن كذلك ، فما هو الأفضل ؟

ـ لست أدري... ولكنهم لماذا ينصرفون عنا من تلقاء أنفسهم ؟ يبدو أن الثورة قد قسمتنا إلى خراف وماعز ، وكأن مصالحنا قد تميزت .

وشرع لستنسكي يقول بعناية :

ـ ألا ترى ؟ أن ثمة فرقاً في ادراك الحوادث . ان لدينا ثقافة عالية ، ونستطيع أن نقدر الموقف بدقة ، ولكن كل شيء بالنسبة لهم بدائي وبسيط ، ويحشو البلاشفة رؤوسهم باستمرار بأن الحرب يجب أن تنتهي ، أو تتحول بالأحرى إلى حرب أهلية .

ويحرضون القوزاق علينا . ولما كان القوزاق تعبين ، ولما كانت فيهم نزعة حيوانية ، وليس لديهم مالدينا منه ، من ذلك الادراك العميق لواجبهم ومسؤوليتهم نحو أرض أجدادهم ، فمن البديهي أن يصبحوا تربة خصبة لهذه المعتقدات ، وعلى كل حال ، ماذا تعني حقاً أرض الأجداد بالنسبة للقوزاق ؟ إنها في أحسن الأحوال فكرة مجردة . وهم يقولون لأنفسهم إن « منطقة الدون بعيدة عن الجبهة ، ولن يبلغها الألمان » . تلك هي المسألة بجوهرها . يجب أن نشرح لهم العواقب التي تنجم عن تحويل الحرب إلى حرب أهلية .

وشعر يفغيني أثناء كلامه ، بأن كلماته لم تصب مرماها ، وأن أتارشجيكوف بدأ ينكمش على نفسه كالمحار في صدفته . وهذا ماحدث . فعندما انتهى ، دمدم الرجل بشيء غير مسموع ، ثم ظل جالساً وقتاً طويلاً لايحير كلاماً ، وعبثاً حاول لستنسكي أن يتبين مجرى الأفكار التي كانت تراوده . وقال في نفسه نادماً : « كان ينبغي أن أدعه يفصح عن خبيئته حتى النهاية... » .

وتمنى له أتارشجيكوف ليلة سعيدة ، ومضى إلى سريره دونما كلمة أخرى . لقد نشد باخلاص أن يتبادل الآراء ، ورفع طرفاً من ستار الأسرار ، ذلك الستار الأسود الذي يحجب به الانسان نفسه عن الآخرين ثم أسدله ثانية .

واستلقى لستنسكي وأخذ يدخن بعض الوقت ، مضطرباً حانقاً لأنه لم

يستطع الوصول إلى السر الذي كان يقلق صديقه . وفيما كان بحدق بشدة في الظلمة المخملية الرمادية ، تذكر أكسينيا فجأة وأيام اجازته التي ملأتها سعادة . وأحس بالنعاس وقد أسكره تحول مجرى أفكاره ونتف الذكريات العارضة لعلاقاته مع النساء اللواتي عاشرهن في حياته في شتى المناسبات .

١٢

كان في سرية لستنسكي قوزاقي ، يدعي ايفان لاغوتين ، وهو أول من انتخب للجنة العسكرية الثورية للكتيبة . وحتى وصول الكتيبة إلى بتروغراد لم يظهر عليه مايميزه بأي شكل من الأشكال ، إلا أنه في نهاية تموز أخبر ضابط الرعيل ، يفغيني أن لاغوتين كان قد اعتاد حضور الشعبة العسكرية لمندوبي شغيلة وجنود سوفييت بتروغراد ، وكان كثيراً مايرى يتكلم مع القوزاق الآخرين في الرعيل وقد ترك تأثيراً سيئاً فيهم . فقد وقع حادثان من رفض القيام بمهمة الحراسة والدورية ، وعزاهما ضابط الرعيل لتأثير لاغوتين .

فرأى لستنسكي أن عليه أن يعرف المزيد عن الرجل ، ويقف على حقيقة تفكيره . وقد يكون من العبث والتسرع استجواب القوزاقي مباشرة ، لذلك آثر التريث . وسرعان ماسنحت المناسبة لذلك . فبعد بضع ليال أنيطت برعيل لاغوتين مهمة الدورية في الشوارع المحيطة بمصنع بوتيلوف ، أخبر لستنتسكي ضابط الرعيل بأنه سيتعهد مسؤوليتها هذه المرة . وأمر مراسله بإعداد حصانه الأدهم .

كان له حصانان ، «تحوطا» ، كما كان يقول . وارتدى بدلته بمساعدة جندي ، وذهب إلى الباحة .

كان الرعيل قد امتطى الخيل . ولبث ينتظر فقاده إلى الخارج ، ومضوا في سبيلهم وقد اجتازوا عدة شوارع خلال العتمة الضبابية .

وتلكأ لستنتسكي عن عمد إلى الخلف ، ونادى لاغوتين . فاستدار

الرجل بفرسه ومضى نحو الرئيس وهو يحدجه بنظرة مستفهمة .

سأله لستنتسكي :

ـ حسناً ، ماهي آخر أنباء اللجنة ؟

ـ لا شيء يذكر الآن .

ـ من أين أنت يالاغوتين ؟

ـ من محافظة بوكانوفسكي .

ـ والقرية ؟

ـ متياكين .

وصار جواداهما يسيران سوية . وأخذ لستنتسكي على ضوء مصابيح الشارع يتفحص وجه القوزاقي الملتحي . وبانت خصلة ناعمة من شعره من تحت القبعة ، ونمت لحية على هيئة مقشة على ذقنه المكتنز ، وقبعت عيناه الذكيتان بله الماكرتين بعيداً تحت حاجبيه المقوسين .

«اعتيادي جداً في مظهره الخارجي ، بسيط ، ولكن أي شيء هو قلبه ؟ لعله يمقتني كما يمقت كل مايقترن بالنظام المباد...» .

قال لستنتسكي ذلك في سريرته . ولسبب ما استبدت به الرغبة فجأة لمعرفة ماضي لاغوتين .

ـ هل أنت متزوج ؟

ـ نعم ، لي زوجة وطفلان .

ـ ومزرعة ؟

فأجاب لاغوتين بلهجة هازئة تنم عن رثاء :

ـ مزرعة ؟ نحن نعيش من اليد إلى الفم ، وحياتنا كدح وكفاح .

وتوقف لحظة ، ثم أضاف بلهجة صارمة .

ـ أرضنا رملية .

كان لستنتسكي قد مر راكباً ذات مرة خلال بوكانوفسكي . فعادت ذاكرته بجلاء إلى ذلك المكان المنعزل البعيد تحده من الجنوب مروج مستوية

لارجاء فيها ، ويطوقه نهر الخوبر المعرج المتقلب . وتذكر السديم الأخضر للأشجار المثمرة التي كان يشاهدها من رابية تبعد عشرين فرسخاً ، وقد تجللها برج الكنيسة الأبيض المهترئ .

وتحسر لاغوتين قائلاً :

ـ أجل ، إن تربتنا رملية جداً .

ـ أحسب أنك تود العودة إلى أهلك .

ـ بالطبع ياسيدي . لاشك أنني أحب العودة حالما أستطيع . لقد تحملنا الكثير خلال هذه الحرب .

ـ أخشى أنك لن تعود في القريب ياولدي .

ـ أعتقد أننا سنعود .

ـ ولكن الحرب لما تنته .

فأجاب القوزاقي باصرار :

ـ سوف تنتهي قريباً . وسوف نعود إلى أهلينا وشيكاً .

ـ سنحارب بعضنا أولاً . ألا ترى ذلك ؟

وأجاب لاغوتين بعد لحظة دون أن يرفع عينه عن قربوس سرجه :

ـ من ترانا سنحارب إذاً ؟

ـ هناك الكثيرون ممن نحاربهم... ربما البلاشفة . وصمت لاغوتين ثانية وكأنها أغفى على وقع حوافر الخيل الرتيبة والراقصة . ثم أجاب متمهلاً :

ـ ليس لدينا خصام معهم .

ـ لكن ماذا عن الأرض ؟

هناك أرض كافية للجميع .

ـ هل تعرف ماذا يبغي البلاشفة ؟

ـ لقد سمعت بعض الشيء...

حسناً إذاً ، ماذا علينا أن نفعل إذا ماهاجمنا البلاشفة ليستولوا على أرضنا ويستعبدوا القوزاق ؟ لقد كنت تقاتل الألمان دفاعاً عن روسيا ، أليس كذلك ؟

ـ الألمان يختلفون .

ـ والبلاشفة ؟

فقال لاغوتين :

ـ حسناً ، يا سيدي ، ولاشك أنه قرر شيئاً فرفع عينيه وحاول أن يظفر بعيني لستنتسكي ، ثم أضاف : لن يأخذ البلاشفة ما أملك من قطعة أرض . فليس لدي سوى حصة واحدة . وليست بهم حاجة اليها... ولكن... . أرجو أن لا تزعل ، أليس كذلك... ؟ فوالدك مثلاً ، يملك عشرة آلاف دسياتين...

ـ ليس عشرة بل أربعة...

ـ حسناً ، فلتكن أربعة . إنها ليست قطعة صغيرة ، أليس كذلك ؟ وماهو وجه الحق في ذلك ؟ وهناك عدد مثل أبيك في جميع أنحاء روسيا . والآن حكّم نفسك يا سيدي ، ماذا على كل فم أن ينال ؟ أنت تريد أن تأكل وكل إنسان آخر أيضاً . لعلك تعرف قصة الغجري الذي ظن أنه إذا لم يطعم مهرته فسوف تتعود على الاستغناء عن الطعام . حسناً ، لقد اعتادت على ذلك تسعة أيام ، ولكنها في اليوم العاشر ماتت... وفي عهد القيصر كانت الأمور لاتجري على مايرام . وكان الفقراء في وضع لايحسدون عليه . لقد أعطوا أباك أربعة آلاف نصيبه من الكعكة ، ولكنه لايستطيع أن يأكل طعام رجلين منا نحن بسطاء الناس . مسكين هو الشعب . إن البلاشفة هم في الطريق السوي ، وأنت تتكلم عن القتال...

كان لستنتسكي يصغي اليه بانفعال يحاول أن يخفيه . وعند النهاية أدرك أنه عاجز عن رد حجته بحجة ذات وزن . وأدرك أن منطق القوزاقي البسيط ، البسيط للغاية ، قد شد على خناقه . ولكن لستنتسكي ارتبك واغتاظ ليقينه الراسخ العميق بخطئه :

ـ ما أنت على أي حال ، بلشفي ؟

فأجاب لاغوتين هازئاً :

ـ التسمية لا تقدم ولا تؤخر... فليست المسألة مسألة اسم ، بل الحق .

أن مايريد الناس هو الحقيقة ، ، ولكنها كانت دائماً تدفن ويهال عليها التراب . ثم يقولون إنها جثة هامدة منذ أمد طويل .

ـ إذا ، هكذا حشا البلاشفة دماغك . ولم تضيّع وقتك في صحبتهم سدى .

ـ آه ، أيها الرئيس ، إن الحياة نفسها هي التي علمتنا نحن الصابرين أما البلاشفة فهم يشعلون الفتيلة ليس إلا .

فقاطعه لستنتسكي :

ـ اترك هذه الحكايات ، لامكان هنا للمزاح! ثم أردف بغضب شديد :

ـ أجبني! كنت تتكلم قبل لحظة عن أرض والدي وعن أراضي الملاكين بصورة عامة ، ولكن تلك ملكية خاصة . إذا كان لديك قميصان ولم يكن لدي حتى واحد ، فيتعين حسب منطقك أن أنتزع واحداً منك ؟

ولم يستطع يفغيني رؤية وجه القوزاقي ، ولكنه قدّر من نبرة صوته أنه كان يبتسم .

ـ سأتنازل عن قميصي الزائد من تلقاء نفسي . وفي الجبهة لم أعط قميصاً زائداً فحسب ، بل وآخر قميص كان عليّ ، ثم لبست معطفي على جلدي العاري . ولكني لم أسمع برجل تنازل عن أرضه .

ورفع لستنتسكي صوته :

ـ ماذا دهاك ، هل بك جوع للأرض ؟ أليس لديك ما يكفيك الآن ؟

وراح لاغوتين يلهث غاضباً ، وقال وهو يكاد يصيح :

ـ أتظن أنني أفكر في نفسي فقط ؟ لقد كنا في بولندا... كيف يعيش الناس هناك ؟ أشاهدت ذلك أم لا ؟ وكيف يعيش الفلاحون حولنا في الدون ؟ لقد شاهدت ذلك ؟ وحسب ذلك أن يجعل دم المرء يفور! هل تظن أنني لا أرثي لحالهم ؟ ربما نزفت قلبي من أجل البولنديين ، مفكراً في مزق الأرض المرة التي يضطرون إلى أن يعتاشوا عليها .

وكان يفغيني على وشك أن يأتي بجواب لاذع ، بيد أنه فوجيء بصرخة« امسكوا به! » جاءت من جهة العمارات الرمادية المضاءة في مصنع

بوتيلوف . وتبعتها قعقعة حوافر وصوت اطلاقة . ففرقع لستنتسكي بسوطه وعدا بفرسه .

لقد عاد هو ولاغوتين جنباً إلى جنب فألفيا الرعيل قد توقف وتجمع في مفترق الطرق . كان هناك عدة قوزاق يقعقعون بسيوفهم مترجلين عن خيولهم ، وفي وسط الحلقة رجل يقاوم .

وهجم لستنتسكي ، دافعاً حصانه وسط الحشد ، وصاح :

ـ ماذا حدث ؟

ـ كان هذا النغل يرمي الحجارة .

ـ ضرب واحداً منّا وهرب .

ـ أضربه يا أرجانوف!

ـ يا وغد!... تريد أن تقتل واحداً منّا ؟...

كان عريف الرعيل أرجانوف مائلاً من سرجه وممسكاً برجل قميء يرتدي قميصاً روسياً أسود ، من ياقته ، بينما كان ثلاثة قوزاق مترجلين قد أوثقوا يديه خلف ظهره .

فصاح لستنتسكي بالرجل وهو مستشيط الغضب :

ـ من أنت ؟

ورفع الأسير رأسه بوجهه الشاحب ، ولكن شفتيه بقيتا مزمومتين على بعضهما بشدة . وأعاد يفغيني سؤاله :

ـ من أنت ؟ كنت ترمي الحجر ، أنت يا حثالة الناس! لن تتكلم ، ها ؟ أرجانوف...

وقفز أرجانوف من سرجه ، وأطلق ياقة الأسير من يده ، ولطمه على وجهه ، ثم أوعز لستنتسكي وهو يستدير بفرسه :

ـ أضربوه!

فألقى ثلاثة أو أربعة من القوزاق المترجلين بالرجل الموثوق على الأرض ولوّحوا بسياطهم . فقذف لاغوتين بنفسه من السرج وهرول نحو

لستنتسكي . وطوق ركبة لستنتسكي بأصابعه المرتجفة وصاح :

ـ أيها الرئيس... ماذا أنت فاعل ؟ أيها الرئيس! لا يمكن أن تفعل ذلك! إنه رجل... ماذا أنت فاعل ؟

ولكن يفغيني حث جواده دون أن يجيب . وهرع لاغوتين إلى القوزاق ، وطوق أرجانوف من خصره وحاول أن يجره بعيداً .

غير أن العريف قاوم مدمدماً :

ـ دعك عن هذا! دعك! هل عليه أن يرمي الحجارة ونقف مكتوفي الأيدي ؟ اتركني! خير لك أن تتركني!

وانحنى أحد القوزاق بعد أن سحب البندقية من كتفه ، وضرب جسد الرجل الناعم بأخمصها . وانسلت صرخة وحشية خفيفة عبر الطريق . وأعقبها صمت لبضع ثوان ، ثم ارتفع الصوت ثانية ، ولكنه فتي ومختنق يختلج بالألم هذه المرة ويدمدم بعد كل ضربة بعبارات مقتضبة يزخر بها :

ـ خنازير! أعداء... الثورة! أضربوا! أو... وه! وتوالت الضربات بقسوة .

فهرول لاغوتين إلى لستنتسكي ، وتشبث بركبته وراح يخمش السرج بأظافره ، ويقول متهدجاً :

ـ دعه يذهب!

ـ ابتعد!

ـ أيها الرئيس... لستنتسكي! ألا تسمعني... ؟ سوف تسأل عن ذلك!

ـ أبصق عليك! ـ فح لستنتسكي همساً واتجه حصانه إلى لاغوتين .

والتفت لاغوتين وهرول نحو القوزاق الواقفين بعيداً عن الجمع المحيط بالرجل ، وصرخ :

ـ اخواني! أنا عضو في اللجنة الثورية... آمركم بإنقاذ ذلك الرجل من الموت...! سوف تكونون مسؤولين عن ذلك! لقد ولى الماضي الآن!

وأطار الحقد الأعمى صواب لستنتسكي . فضرب حصانه بسوطه بين أذنيه وغدا نحو لاغوتين ، وسدد مسدده الأسود المدهون جيداً بوجه القوزاقي ، وزأر :

ـ صه ، أيها الخائن! بلشفي! سأطلق عليك النار! ولكنه سيطر على نفسه بصعوبة ، ورفع اصبعه عن الزناد ، واستدار بحصانه على ساقيه الخلفيتين ومضى .

وبعد بضع دقائق مضى في أثره القوزاق الثلاثة .

وسحب أرجانوف ولابين الأسير بين فرسيهما ، وكان ثوب الرجل المبلل بالدم ملتصقاً بجسمه ، وراح يترنح واهناً وقدماه تجرجران فوق البلاط ، فيما كان القوزاقيان يسندانه تحت ابطيهما . وتدلى رأسه المدمى مسترخيا بين كتفيه المرتفعين ، وقد كاد أن يهرس وجهه . وعدا القوزاقي الثالث مسافة ما . ورأى في زاوية شارع سائق عربة ، فخبّ نحوه واقفاً في ركابه . وضرب جزمته بسوطه معبراً للرجل عن أمر مقتضب ، وباستجابة ذليلة هرع سائق العربة نحو القوزاقيين ووقف في منتصف الشارع .

وفي الصباح التالي استيقظ لستنسكي وهو يشعربأنه اقترف في الأمس خطأ عظيماً يصعب إصلاحه . وعض شفتيه وقطب جبينه عندما تذكر مشهد الليلة الماضية ، وكل ما جرى بينه وبين لاغوتين . وعندما كان يرتدي ملابسه رأى أنه من الأفضل أن يترك لاغوتين لحاله في الوقت الحاضر ، ليتجنب تدهور علاقته مع لجنة الكتيبة . وأن من سداد الرأي أن ينتظر حتى ينسى الحادثة قوزاق الرعيل الآخرون ، ليزيحه بعد ذلك بهدوء .

« إذاً هكذا يكون التآخي مع القوزاق » ، ـ قال ذلك في سريرته بسخرية مريرة ولم يستطع أن ينفض عنه أثر الحادث المزعج أياماً عديدة .

وذات يوم مشمس جميل من أيام آب الباكرة ذهب لستنسكي وأتارشيجيكوف إلى المدينة . ومنذ حديثهما الذي أعقب اجتماع الضباط لم يحدث بينهما ما يزيل الشك الذي شاب علاقتهما .

فقد كتم أتارشيجيكوف آراءه ، وكلما حاول لستنسكي أن يستدرجه إلى الحديث ، تسربل بالستار المحكم الذي يرتديه معظم الناس عادة في الحفاظ على ملامحهم الأصيلة من عيون الآخرين .

وكان يلوح للستنسكي دائماً أن الناس في معاملاتهم مع زملائهم يخفون تحت نظرهم الخارجي الملامح الأخرى التي لا يكشفون عنها مطلقاً في بعض الأحيان . وكان يعتقد جازماً بأنه متى ما أزيح هذا القناع الخارجي ، ظهرت للعيان حقيقة الانسان العارية الحقة غير المزيفة . وكانت تحدوه على الدوام رغبة جامحة لمعرفة ماذا يكمن وراء هذه الواجهات ، الخشنة ، العنود ، الجريئة ، المتكبرة ، البشوش الفرحة ، التي يحتمي وراءها الناس . وهو الآن عندما يفكر في أتارشيجيكوف ، لا يسعه إلا أن يستنتج أن أتار شيجيكوف في كفاحه لإيجاد مخر ج للخصومات التي قسمت مختلف قطاعات البلاد ، كان يسعى لربط القوزاق بمطامح البلاشفة . وهذا الافتراض أدى به إلى أن يوقف محاولاته في أن يوطّد صداقته مع أتار شيجيكوف .

كانا يتجولان في شارع نيفسكي ، ويتبادلان ملاحظات عرضية . واقترح لستنتسكي مشيراً بعينه إلى أحد المطاعم :

ـ فلنذهب ونتناول بعض الطعام .

ووافق الآخر قائلاً :

ـ لا بأس!

ودخلا المطعم وظلا واقفين ينظران حواليهما حائرين . كانت جميع الموائد محجوزة . فهم أتار شيجيكوف بالخروج ، بيد أن سيداً أنيقاً بديناً كان جالساً مع سيدتين تتفرسان في الضابطين بإمعان ، نهض من مائدته قرب النافذة وتقدم نحوهما وهو يرفع قبعته بلطف .

ـ أرجو المعذرة هل تتفضلان بأخذ مائدتنا ؟ إننا على أهبة الخروج .

وابتسم ، فكشف عن نقص في أسنانه ، وأشار اليهما بالمرور ، وقال :

ـ أنا مسرور لتقديم خدمة للضباط . أنتم فخر الوطن .

ونهضت السيدتان اللتان كانت جالستين أمام المائدة . إحداهما ، طويلة وسمراء ، كانت تصفف شعرها ، والأخرى ، أصغر بقليل ، كانت تعبث بمظلتها ، وشكر الضابطان السيد على صنيعه وتقدما نحو النافذة .

وخلال الستار المسدل كانت أشعة الشمس الحارة تنغرز في غطاء المائدة وكأنها إبر صفراء . وطغت رائحة الطبيخ على شذى الورد الرقيق الموضوع على المائدة . وطلب لستنتسكي شربة الشوندر المثلجة ، وجلس متفكراً يعبث بغصن من الرشاد الأصفر الفاتح ، تناوله من المزهرية . ومسح أتارشيجيكوف العرق من جبهته بمنديله . وكانت عيناه التعبتان الواهنتان تطرفان باستمرار ، وتنظران إلى أشعة الشمس التي تتراقص على ساق المائدة المجاورة . ولم يكادا يفرغان من وجبتهما حتى دخل المطعم ضابطان يتكلمان بصوت مرتفع . وبينما كان الأول يبحث عن مائدة خالية أدار وجهه الذي لفحته الشمس بإتجاه لستنتسكي ، فالتمعت عيناه السوداوان من الفرح ، وهتف :

ـ ماذا ، إنه لستنتسكي!

وتقدم نحوه بخطوات واثقة غير مترددة ، وقد التمعت أسنانه البيضاء بياض الثلج تحت شاربيه السوداوين .

وفي الحال عرف لستنتسكي الرئيس كالميكوف ورفيقه تشوبوف . فتصافحا بحرارة . وقال يغفيني بعد أن قدمهما لأتارشيجيكوف :

ـ أية صدفة جاءت بكما إلى هنا ؟

فأجاب كالميكوف وهو يفتل شاربيه متطلعاً إلى ماحوله :

ـ كنا في مهمة سوف أخبرك بعدئذ . ولكن قبل ذلك أخبرنا عن نفسك . كيف وجدت الحياة في الكتيبة الرابعة عشرة ؟

...وتركوا المطعم سوية ، وتخلف لستنتسكي وكالميكوف وراء الآخرين ، وعاجا في أول منعطف طريق وبعد نصف ساعة مضيا سوية نحو مكان هادىء في المدينة ، وهما يتكلمان بصوت إلى الهمس أقرب ويأخذان حذرهما .

قال كالميكوف ليفغيني :

ـ لقد استبقي فيلقنا الثالث احتياطاً في الجبهة الرومانية . وقبل حوالي

عشرة أيام تلقيت أمراً من آمر الكتيبة ، بتسليم سريتي لضابط آخر ، والذهاب مع تشوبوف لنضع أنفسنا تحت إمرة قيادة الفرقة . حسناً! ذهبنا إلى قيادة الفرقة . وهناك أعلمنا سراً أن علينا أن نقدم أنفسنا إلى الجنرال غريموف . فذهبنا إلى مقر قيادة الجيش . ونظر إلى كريموف ، وحسب المعلومات التي توفرت لديه عن نوع الضابطين المرسلين إليه ، قال لي بصراحة : « إن الحكومة بأيدي رجال يسيرون بالبلاد عن عمد نحو الهاوية . إن الفئة التي على رأس الحكومة يجب أن تستبدل . ومن المحتمل أن تعزل الحكومة المؤقتة وتقام محلها الدكتاتورية العسكرية » وذكر كورنيلوف كمرشح منتظر ، ثم طلب مني أن أذهب إلى بتروغراد ، لأضع نفسي تحت تصرف اللجنة المركزية لتحالف الضباط . وقد تجمع الآن في المدينة بضع مئات من الضباط الذين يركن إليهم . وتستطيع أن تحزر أي دور سنلعب . كما أن اللجنة المركزية لتحالف الضباط على اتصال وثيق بمجلسنا ، مجلس تحالف القوات القوزاقية ، وتوزع كتائب صدامية على ملتقى الخطوط وفي الفرق » .

ـ وماذا سيترتب وراء ذلك ؟ ماذا تعتقد ؟

ـ غريب أمرك!... ولكن هل تريد أن تقول أنك ، أنت الذي تعيش هنا ، تجهل الوضع ؟ لا شك أنه سيحصل انقلاب ، وسيستولي كورنيلوف على الحكم . إن الجيش برمته معه ،ونحن نعتقد أن هناك قوتين متعادلتين : البلاشفة وكورنيلوف . أما كيرنسكي فهو بين رحى الطاحونة . وسوف يسحقه هذا أوذاك . دعه ينم في مخدع القيصرة .ـ صمت كالميكوف برهة ثم قال وهو يعابث شرابة سيفه : ـ انه خليفة لساعة واحدة . وبالطبع نحن الضباط كالبيادق على رقعة الشطرنج ، لانعرف إلى أين سيحركنا اللاعب . فأنا مثلا ، لا أفهم كل ما يحدث في مقر القيادة . ولكني اعرف ان بين الجنرالات : كورنيلوف ، لوكومسكي ، رومانوفسكي ، كريموف ، دينكين ، كاليدين ، تفاهماً سرياً .

وسأله لستنتسكي وهو يحث خطاه :

ـ ولكن الجيش... ؟ هل سيتبع الجيش بكامله كورنيلوف ؟
ـ الجنود لن يفعلوا ذلك بالطبع . ولكن علينا أن نقودهم .
ـ هل تدري ، أن كيرنسكي يحاول أن يعزل قائد القوات المسلحة تحت ضغط اليسار ؟
ـ لن يجرؤ . فغداً سيركع على ركبتيه . لقد عبرت اللجنة المركزية لتحالف الضباط عن رأيها بصورة نهائية حول هذه المسألة .
وقال لستنتسكي وهو يبتسم :
ـ أمس استقبل وفداً من مجلس تحالف القوات القوزاقية . وأخبروه أن القوزاق لا يمكن أن يفكروا مجرد تفكير في عزل كورنيلوف . وهل تدري بماذا أجابهم ؟ قال : « إنها اشاعة ليس إلا... وليس لدى الحكومة المؤقتة أي ميل لاتخاذ خطوات من هذا القبيل » ، ـ محاولاً تطمين الجمهور وفي الوقت نفسه يهش مثل المومس إلى مندوبي السوفييت .
وأخرج كالميكوف من جيبه مفكرة ضباط وقرأ البرقية بصوت عالٍ :
ـ إن مؤتمر الرجال الاجتماعيين ، يرحب بك ، أيها القائد الأعلى للجيش الروسي . ويعلن المؤتمر أنه يعتبر أي محاولة من شأنها أن تقوّض من سلطتك في الجيش وفي روسيا عملاً اجرامياً ، وهو يضم صوته إلى الضباط ، وفرسان القديس غيورغي ، والقوزاق . وفي ساعة الامتحان الرهيبة هذه يشخص كل المتنورين الروس اليك بأبصارهم بأمل وايمان . فليكن الله في عونك في تحملك المسؤولية العظمى لاعادة بناء جيش جبار وانقاذ روسيا! ـ التوقيع ، « رودزيانكو » . هل يكفيك هذا ؟ ان ابعاد كورنيلوف لن يكون ذا موضوع...ولكن هل شاهدته عندما وصل إلى المدينة أمس ؟
ـ لم أعد من تسارسكويه سيلو الآ ليلة أمس .
وابتسم كالكيكوف فافتر عن صف من أسنان ولثة وردية سليمة . وتغضنت عيناه الحادتان وتجعّد جفناهما جعدات صغيرة في الزاويتين :
ـ كان منظراً كلاسيكياً! فقد كان حرسه سرية التركمانيين . وكان في

كل سيارة رشاش . وكانوا جميعاً راكبين صوب قصر الشتاء ، حيث كان كيرنسكي . انه لانذار لالبس فيه! هاـ ها ـ ها!... كان ينبغي أن ترى وجوه أولئك التركمانيين بقبعاتهم الطويلة من الفرو! إن منظرهم لجميل!

وعاد الضابطان إلى مركز المدينة ، ثم ودّعا بعضهما . وقال كالميكوف وهو يصافحه :

ـ يجب ألا نبتعد عن بعضنا يا يفغيني . فنحن مقبلون على أوقات عصيبة! ثبت قدمك على الأرض والا فسوف تضيع .

وبعد ان افترق عنه لستنتسكي صاح كالميكوف في أثره :

ـ أوه ، نسيت أن أخبرك ، هل تذكر ميركولوف ؟ صاحبنا الفنان ؟

ـ نعم ؟

ـ لقد قتل في أيار .

ـ مستحيل!

ـ كان مجرد حادثة . لا يمكنك أن ترى ميتة أسخف منها . لقد انفجرت قنبلة يدوية في يدي كشاف ونسفت ذراعي الرجل من مرفقيه . وكل ما عثرنا عليه من ميركولوف الذي كان واقفاً إلى جانبه هو جزء من أحشائه ومنظار ميدان . لقد ابتعد عنه الموت ثلاث سنوات...

وهتف بشيء آخر ، غير أن الريح أثارت الغبار الرمادي فلم تبلغ مسمع لستنتسكي غير مقاطع شاردة . ولوح يفغيني بيده وحث خطاه ، وهو يلتفت بين الحين والآخر إلى الوراء .

١٣

في السادس من آب ، تسلم الجنرال لوكومسكي رئيس هيئة أركان القيادة العليا أمراً بواسطة الجنرال رومانوفسكي الجنرال الأول لهيئة أركان الحرب ، يقضي بتحشيد فيلق الخيالة الثالث والفرقة القوزاقية الملحقة به ، في منطقة

نيفل ـ نوفيه سوكو لنيكي ـ فيليكييه لوكي . وتساءل لوكومسكي مندهشاً :

ـ لماذا نرسلهم إلى تلك المنطقة بالذات ؟ لقد استبقيت هذه الوحدات احتياطاً في الجبهة الرومانية .

ـ لست أدري أيها الجنرال . لقد بلّغت الأمر تماماً كما تسلمته من قائد القوات المسلحة .

ـ متى تسلمته ؟

ـ أمس . استدعاني قائد القوات المسلحة إلى غرفته وأمرني بتوجيه هذا الأمر اليك هذا الصباح .

وتوقف رومانوفسكي الذي يتخطى قرب النافذة ، أمام خارطة استراتيجية كبيرة لأوربا الوسطى شغلت نصف أحد جدران غرفة لوكومسكي ، وتفحصها بانتباه مفرط والتفت قائلاً :

ـ لمَ لا تسأله ؟ انه في غرفته الآن .

والتقط لوكومسكي الورقة ، ودفع كرسيه إلى الوراء ومشى نحو الباب بخطوات راسخة يتميز بها كل عسكري بدين كبير السن .

وقرب الباب عندما أفسح المجال لرومانوفسكي قال مواصلاً سلسلة تفكيره على ما يظهر :

ـ أجل ، صحيح .

وخرج للتو من غرفة كورنيلوف عقيد مديد القامة طويل الساقين لم يعرفه لوكومسكي . وتراجع إلى الخلف باحترام ليفسح المجال للوكومسكي وواصل سيره شطر الممر وهو يعرج بشكل واضح ، ويرتعش كتفاه بشكل مضحك ومخيف بتأثير صدمة القنابل كما يبدو .

كان كورنيلوف منحنياً بعض الشيء إلى الأمام فوق منضدته ، ويداه ممتدتان إلى الخارج ، ويتكلم إلى ضابط كهل أمامه :

ـ... لا يمكن الأن نتوقعها . هل تفهمني ؟ أرجو أن تخبرني عن وصولك إلى بسكوف . والآن يمكنك أن تخرج .

وانتظر كورنيلوف حتى سد الباب خلف الضابط ، وجلس بخفة ونشاط ، وسحب كرسياً للوكومسكي ، وسأله :

ـ هل أعطاك رومانوفسكي تعليماتي حول نقل فيلق الخيالة الثالث ؟

ـ نعم ، لقد جئت لأتحدث معك بشأنها . لماذا اخترت تلك المنطقة لتحشيد الفيلق ؟

وتفحص لوكومسكي وجه كورنيلوف الأسمر باهتمام . كان غامضاً وهادئاً مثل وجوه الآسيويين ، وكانت الخطوط التي يتميز بها وجهه تحدد الوجنتين من الأنف إلى الفم الغليظ المغطّى قليلاً بشاربين متدليين . ولم تلطف من قسمات وجهه القاسية سوى خصلة من الشعر تدلت بشكل صبياني فوق جبينه .

واحتوى كورنيلوف ذقنه براحة يده العجفاء الصغيرة ، وطرف بعينيه المنغوليتين المتألقتين ، وقال وقد لمس لوكومسكي بيده من ركبته :

ـ لا أريد أن أحشد الخيالة بشكل خاص خلف الجبهة الشمالية ، بل أريد أن أجعلها في منطقة يمكن نقلها منها بسهولة إلى الجبهة الشمالية أو الغربية . وفي رأيي أن المنطقة التي اخترتها تلبي هذه الحاجة وغيرها تلبية تامة . هل ترى غير ذلك ؟ ماذا ؟

وأتى لوكومسكي بحركة غامضة من كتفيه :

ـ ليس هناك ما يدعوك للقلق على الجبهة الغربية . من الأفضل تحشيد الخيالة في منطقة بسكوف .

وردد كورنيلوف :

ـ بسكوف ؟

وانحنى إلى الأمام ، وقطب وجهه فتقلصت شفته السفلى الشاحبة النحيفة ، وهز رأسه وأضاف :

ـ كلا ، ان منطقة بسكوف لا تصلح .

ووضع لوكومسكي يديه على ذراعي كرسيه بحركة شيخ تنم عن تعب ، وقال وهو يختار الكلمات بعناية :

ـ سوف أصدر الأوامر الضرورية في الحال يا لافرغيورغيفتش ، ولكن لديّ شعوراً بأنك أخفيت شيئاً لم تذكره..ان المنطقة التي اخترتها صالحة جداً لتحشيد الخيالة عند ضرورة نقلها إلى بتروغراد أو موسكو ، غير أن الجبهة الشمالية لا تصلح لمثل هذا التحشيد لأن نقل الخيالة سيكون أمراًصعباً جداً . ولكنك اذا ما وزعت قواك بهذه الطريقة ، فقد أخفيت شيئاً لم تفصح به ، فاني ألتمس منك امّا أن ترسلني إلى الجبهة أو تخبرني بكل ما في ذهنك . فلا يستطيع رئيس أركان حرب أن يحافظ على مركزه دون أن يتمتع بكامل الثقة من لدن رئيسه .

كان كورنيلوف قد أحنى رأسه وهو يصغي بانتباه ، وخطفت عيناه الحادتان توردأ خفيفاً ينم عن الانفعال الذي انفجر مثل الطفح في وجه لوكومسكي الهادئ في العادة . ثم تأمل بضع لحظات وأجاب :

ـ أنت على حق . فهناك اعتبارات معينه لم أبحثها معك بعد... أرجوك أن تصدر الأوامر بنقل الخيالةكما أوصيت واستدع في الحال قائدها الجنرال كريموف إلى مقر القيادة . وسوف نبحث الموضوع أنا وأنت بالتفصيل عند عودتي من بتروغراد . صدقني يا الكسندرسيرغيييفتش ، لست أرغب في إخفاء شيء عنك .

وشد كورنيلوف على الكلمة الأخيرة « عنك » والتفت فجأة على صوت طرقة استئذان .

ـ ادخل .

ودخل الغرفة فونفيزين مساعد قوميسارية هيئة الأركان العامة ، ومعه جنرال ربعة ذو شعر كتاني . فنهض لوكومسكي وفي طريقه إلى الخارج سمع كورنيلوف يجيب على سؤال فونفيزين بحدة :

ـ ليس لديّ وقت لإعادة النظر في قضية الجنرال ملر... ماذا... ؟نعم ، أنا راحل...

وعندما عاد لوكومسكي إلى غرفته وقف طويلاً أمام النافذة . وراح

يمشط لحيته الشهباء بأصابعه وينظر ، وهو شارد ، إلى الريح تعابث قمم أشجار الكستناء وتتماوج خلل الحشائش المتمايلة التي تألقت بضوء الشمس .

وبعد ساعة تسلم فيلق الخيالة الثالث أمراً من القائد الأعلى لرئاسة أركان الحرب بالاستعداد للانتقال . وفي اليوم نفسه أرسلت برقية شفرية إلى الجنرال كريموف ، الذي رفض بطلب من كورنيلوف تعيينه قائداً للجيش الحادي عشر ، تدعوه للشخوص في الحال إلى مقر القيادة العليا .

وفي التاسع من آب سافر كورنيلوف في قطار خاص إلى بتروغراد ، تحرسه سرية من التركمانيين .

وترددت الشائعات في اليوم التالي في مقر القيادة حول إعفاء القائد الأعلى من منصبه أو حتى اعتقاله ، غير أن كورنيلوف عاد إلى موغيليف في صبيحة اليوم الحادي عشر .

ولدى وصوله استدعى لوكومسكي في الحال . وقرأ البرقيات والبلاغات ، وعدل بعناية ردن كمه الناصع البياض الذي يحيط بأناقة برسغه الزيتوني وتحسس ياقته ، ففضحت حركاته السريعة انفعاله غير المألوف . وقال بهدوء :

ـ نستطيع الآن استئناف حديثنا المنقطع . ولابأس في أن نعود إلى ذكر الاعتبارات التي دفعتني إلى نقل الفيلق الثالث باتجاه بتروغراد والتي لم نناقشها حى الآن . أنت تذكر أنه في الثالث من آب ، عندما كنت في بتروغراد في اجتماع مجلس الوزراء حذرني كيرنسكي وسافنكوف بأن لا أتناول أية مسألة من مسائل الدفاع الهامة لأنه ، كما يقولان ، يوجد أشخاص لا يركن اليهم بين الوزراء . وعندما أقدم ، أنا القائد الأعلى للقوات المسلحة ، تقريراً للحكومة ، لا أستطيع الكلام عن الخطط العسكرية لأنه لا يوجد ضمان بأن ما أقوله لن يصبح معروفاً في غضون بضعة أيام لدى القيادة العليا الالمانية! فهل هذه حكومة ؟ وهل يسعني ، بعد ذلك ، الاعتقاد بأن حكومة كهذه قادرة على انقاذ الوطن ؟

وسار كورنيلوف شطر الباب بخطوات سريعة ثابتة ، وأدار المفتاح في المزلاج ، وجعل يتمشى ذهاباً وإياباً أمام منضدته ويقول :

ـ انها لحقيقة مرّة ومؤلمة أن تحكم هذه البلاد حشرات كهذه! ارادة ضعيفة ، وشخصية مفتقدة ، وعجز في الذكاء ، وتردد ، وحتى خيانة ، تلك هي المقومات التي تميز أعمال هذه «الحكومة» اذا جاز تسميتها بذلك . وبالتعاطف المستمر لأشخاص مثل تشيرنوف* وغيره ، سيزيح البلاشفة كيرنسكي... ذلك هو ، يا الكسندر سير غييفتش وضع روسيا . على أني أروم انقاذ بلادنا من الانتفاضات المقبلة إيماناً بالمبادىء التي نتمسك بها كلانا . وغرضي الرئيسي من نقل فيلق الخيالة الثالث هو أن نتمكن من استقدامه ، في حالة انطلاق البلاشفة ، إلى بتروغراد في نهاية آب لنصفّي الحساب هناك بصورة نهائية مع خونة الوطن . وسوف أعهد بالقيادة المباشرة لهذه العملية للجنرال كريموف ، وأنا واثق أنه إذا ما تطلب الأمر ، فلن يتردد في شنق أي مندوب عن سوفييتات الجنود والعمال . أما الحكومة المؤقتة... فسوف نرى ما نفعله بشأنها . انني لا أبقي شيئاً لنفسي... علينا إنقاذ روسيا ، بأي ثمن!

وتوقف كورنيلوف أمام لوكومسكي وسأله فجأة :

ـ هل تشاركني رأيي ، وهو أن اجراءات كهذه هي وحدها الكفيلة بضمان مستقبل البلاد والجيش ؟ وهل ستقف إلى جانبي حتى النهاية ؟

ونهض لوكومسكي وصافح يد كورنيلوف الحارة العجفاء بثبات وعاطفة عميقة :

ـ إني أشاركك الرأي تماماً! وأنا معك حتى النهاية . يجب أن نتبصر بالموضوع ، ونزن كل شيء ، ومن ثم نضرب ضربتنا . فاعهد لي بهذه المهمة يالافر جيورغيفتش .

---

* زعيم حزب الاشتراكيين ـ الثوريين . المعرب

ـ لقد أعددت أنا الخطة العامة . وسوف يوضح التفاصيل العقيد ليبيديف روجينكو . أنت مغمور بالأعمال ، يا الكسندر سيرغييفتش . صدقني ، سوف يتوفر الوقت الكافي لمناقشة كل شيء واجراء التعديلات الضرورية عند الحاجة .

وخلال الأيام القليلة التالية مارست هيئة أركان القيادة نشاطاً محموماً . كان ضباط لفحت وجوههم الشمس وعلا الغبار بدلاتهم الخاكية يتوافدون كل يوم من مختلف وحدات خط الجبهة على دار الحاكم في موغيليف ليقدموا خدماتهم ، وممثلون عن تحالف الضباط وتحالف القوزاق ببزات عسكرية مهيبة ، ورسل قادمون من جهة كاليدين الذي عين أتماناً لجيش قوزاق الدون .

وتوافد مدنيون من مختلف الفئات ، أشخاص يريدون مخلصين مساعدة كورنيلوف . وثمة نسور تشم من بعيد رائحة الدماء المسفوكة وتتطلع إلى الأيدي القوية التي سيقيض لها فتح شرايين البلاد ، توافدت على موغيليف طمعاً بالفريسة . وعرف رجال أمثال زافويكو وعلاء الدين بعلاقتهما الوثيقة بالقائد الأعلى . وتهامس الناس في مقر القيادة العامة وفي مقر قيادة جيش قوزاق الدون بأن كورنيلوف كان يثق بجماعته كثيراً ، وقد وقع تحت تأثير عناصر مغامرة ، وفي الوقت نفسه كانت الفكرة السائدة بين دوائر واسعة من الضباط أن كورنيلوف هو رمز وراية البعث الروسية القديمة التي انهارت في شباط ١٩١٧ . وتحت هذه الراية تدفق من جميع الأطراف دعاة العهد القديم المتحمسون .

وفي الثالث عشر من آب توجه كورنيلوف إلى موسكو لحضور مؤتمر الدولة .

كان نهاراً حاراً تظلله بعض الغيوم . والسماء تسطع بزرقة حائلة تشبه لون الالمنيوم . وعالياً فوق سمت الرأس تدلت غيمة عاصفة كأنها الجزء يؤطرها الليلك . وفي الحقول ، وعلى القطار الذي يقعقع فوق السكة ، والغابات

التي زينها التآكل ، وفوق غابة أشجار البتولا الزاهية وفوق التربة التي اكتست بألوان الخريف المبكر الحزينة ، الشبيهة بحزن الأرملة ، تساقطت مزن خفيفة مائلة تعكس ألوان قوس قزح .

وكان القطار يترك ذيلاً من الدخان خلفه في المسافات البعيدة . وكان جنرال قصير ببزته الخاكية وعلى صدره وسام القديس غيورغي يقف عند النافذة المفتوحة . وقد أخرج رأسه من النافذة وأغمض عينيه المنغوليتين الفاحمتين نصف إغماضة ، فرطبت قطرات المطر الندية وجهه المعرض للشمس باستمرار وشاربيه السوداوين المتهدلين ، وعبثت الريح بخصلة شعره التي تدلت بشكل صبياني فوق جبهته .

١٤

قدم الكابتن لستنتسكي إلى موسكو قبل وصول كورنيلوف بيوم ، ومعه وثائق هامة أودعه إياها مجلس تحالف القوات القوزاقية في بتروغراد . وعندما سلم الحقيبة إلى قيادة كتيبة القوزاق المرابطة في موسكو علم أن من المنتظر أن يصل كورنيلوف في اليوم التالي .

وفي ظهر اليوم التالي كان لستنتسكي في المحطة لاستقبال القائد العام للقوات المسلحة . لقد تجمّع حشد كبير من الناس ، معظمهم عسكريون ، في غرفات الانتظار والمقاصف . واصطف حرس الشرف الذي جيء به من الأكاديمية العسكرية على رصيف المحطة ، واصطف فوج الدائيات النسائية الموسكوفي في الخارج .

ووصل قطار كورنيلوف حوالي الساعة الثالثة .

فران على الجمهور صمت مهيب . ودوى صوت جوقة موسيقية فطغى على وقع الأقدام . وهاج الجمهور ، وهجم بجنون إلى الرصيف ، جارفاً لستنتسكي معه . وحين شقّ طريقه خارج هذه الموجة رأى صفين من

التركمانيين يقفان أمام عربة القائد العام للقوات المسلحة . فعكس جانب العربة الساطع الطلاء اللون الأحمر الزاهي لخلعهم الطويلة . وشاهد لستنتسكي كورنيلوف يترجل من القطار بصحبة عدد من الضباط ، ويفتش حرس الشرف ، ويقابل وفوداً من تحالف فرسان القديس غيورغي وتحالف ضباط الجيش والبحرية ، ومجلس تحالف القوات القوزاقية .

ومن بين الذين قدموا إلى رئيس أركان الجيش عرف لستنتسكي أتمان الدون كاليدين والجنرال زايونتشكوفسكي ، وقدم الضباط المحيطون بكورنيلوف المستقبلين الآخرين :

ـ كسلاكوف ، وكيل وزير المواصلات .

ـ رودنيف محافظ مدينة موسكو .

ـ الامير تروبتسكوي رئيس المستشارين للشؤون الخارجية في مقر القيادة

ـ عضو المجلس الاستشاري موسين ـ بوشكين .

ـ الملحق العسكري الفرنسي العقيد كايو .

ـ الأمير غولتسين .

ثم همست الأصوات الخاضعة باحترام « الأمير مانسيريف... »

وعندما اقترب كورنيلوف أمطر بالورود ترميها نساء أنيقات اللباس واقفات في نهاية الرصيف . وعلقت زهرة قرنفل بشريط سترته .

وقد نفضها بيده بحركة محرجة مرتبكة . وطفق ضابط كهل ملتح من الأورال ، يتلو التحيات متلعثماً باسم كتائب القوزاق الاثنتي عشرة ، ولكن لستنتسكي لم يسمع ما قاله ، لأن الحشد دفعه إلى الجدار وكاد أن ينكسر مقبض سيفه . وبعد الكلمة التي ألقاها عضو مجلس الدولة روديتشف ، تحرك كورنيلوف ، بعد أن أخلى الطريق له ضباط متلازمو الأيدي . ولكن الجمهور اكتسحهم بعيداً . وامتدت عشرات الأيدي إلى كورنيلوف . وحومت حوله امرأة بدينة شعثاء وحاولت أن تضغط شفتيها بكمه . وفي مدخل المحطة رفع

كورنيلوف من كتفيه وحمل إلى الخارج وسط موجة من الهتاف . وبدفعة قوية من الكتف أفلح لستنتسكي في إزاحة كهل ، وأمسك بإحدى ساقي كورنيلوف ، ووضعها على كتفه . وتحرك إلى الأمام قليلاً وهو يلهث من شدة الانفعال والجهد الذي يبذله لتثبيت قدميه دون أن يشعر بالثقل ، وقد أصمّه هدير المتجمعين ودوي الجوقة الموسيقية . وفي مدخل المحطة سوّى بدلته بسرعة بعد أن تجعدت تحت حزامه في الجلبة . وهبطوا الدرجات ومضوا إلى الساحة كان الجمهور في المقدمة ، ثم مراتب الجنود بملابسهم الخضر ، ثم سرية خيّالة قوزاقية . ووضع لستنتسكي يده فوق قمة قبعته ، وطرف بعينيه المغرورقتين بالدموع وحاول أن يسيطر على اضطراب شفتيه . وبعد ذلك علقت في ذاكرته صورة مضطربة من ضربات آلات التصوير ، وجنون المتجمهرين ، ومسيرة طلاب الكلية العسكرية المهيبة ، وجرم الجنرال كورنيلوف الصغير الممشوق بعينيه الزائغتين الفاحمتي السواد ووجهه المنغولي وهو يستعرض المسيرة .

* * *

وفي اليوم التالي عاد لستنتسكي إلى بتروغراد . وتسلق سريره العالي في مقصورته ، واستلقى فوق معطفه وجعل يدخن ويفكّر في كورنيلوف :

«لقد هرب من العدو مخاطراً بحياته ، لكأنه أدرك أن البلاد بأمس الحاجة إليه . وأي وجه! كأنه منحوت من الصخر ، ولا ينم عن شيء زائد أو طبيعي...وخلقه كذلك . كل شيء يجب أن يكون واضحاً بالنسبة له ، محسوباً بجميع تفاصيله . وعندما يحين الوقت فسوف يقودنا . ياللغرابة ، فأنا لا أعرفه .

أهو ملكي ؟ ملكي دستوري... ليتنا كنّا جميعاً واثقين من أنفسنا مثله» .

وفي الوقت ذاته تقريباً ، خلال فترة استراحة جلسة مؤتمر ولاية موسكو ، كان جنرالان ، أحدهما قصير ذو وجه منغولي ، والآخر بدين علا

رأسه المربع شعر كثيف قصير ، يتخطيان ذهاباً واياباً في ممرات المسرح الكبير* ، ويتحدثان بهدوء .

ـ هل يضمن هذا البند من التصريح إلغاء اللجان في الجيش ؟

ـ نعم .

ـ إن الجبهة الموحدة والتضامن التام لاغنى عنهما اطلاقاً . وما لم تنفذ الاجراءات التي أشرت اليها فلن يكون ثمة خلاص . فالجيش لاقدرة له على القتال . ان جيشاً كهذا لا يمكن أن يحقق النصر ، بل انه لن يستطيع الوقوف بوجه أي هجوم ذي شأن . فقد أشاعت الدعاية البلشفية التحلل بين الفرق . وهنا ، في المؤخرة ؟ ألست ترى كيف يقاوم العمال كل محاولة لتنفيذ الاجراءات التي تكبح من جماحهم ؟ اضرابات وتظاهرات! إن على أعضاء المؤتمر أن يذهبوا مشياً على الأقدام... فيا لها من فضيحة! ان عسكرة المؤخرة ، واقامة نظام قمعي شديد ، واستئصال البلاشفة بلا رحمة ، تلك هي مهامنا الآنية . فهل أستطيع الاعتماد على مساندتك في المستقبل ، أيها الجنرال كاليدين ؟

ـ انني معك بصورة مطلقة .

ـ كنت واثقاً من ذلك . شكراً . أنت ترى كيف تكتفي الحكومة بأنصاف الحلول والعبارات الرنانة ، عندما نكون بحاجة إلى اجراءات حازمة شديدة . فهم يتكلمون عن الضرب على أولئك الذين حاولوا ، مثل ثوار أيام تموز ، تهديد سلطة الشعب ، يتكلمون عن ضربهم بالنار والحديد . أما نحن الجنود فقد اعتدنا على العمل أولاً ثم الكلام بعد ذلك . بينما هم يفعلون العكس . حسنا... سوف يأتي الزمن الذي يذوقون فيه ثمار أنصاف حلولهم . ولكني لا أرغب أن أشاطر في هذه اللعبة غير المشرّفة . سأبقى نصيراً للكفاح المكشوف . أنا لست مراوغاً .

---

* مسرح بولشوي في موسكو . المترجمون

وتوقف كورنيلوف ، وسوّى أحد أزرار بدلة كاليدين ، وقال وهو يتهته بانفعال :

ـ لقد أبعدوا فوهة البندقية ، ولكنهم الآن يخافون ديمقراطيتهم الثورية ويطلبون مني نقل القوات التي يركن اليها قرب العاصمة ، بالرغم من أنهم في الوقت نفسه يخشون من اتخاذ أية إجراءات حقيقية بأنفسهم . خطوة إلى الأمام ، خطوة إلى الوراء... اننا لن نستطيع كسب تنازلات من الحكومة الا بالتوحيد الكامل لقواتنا وبالضغط المعنوي القوي . والا... فسوف نرى . ولن أتردد في ترك الجبهة مفتوحة . فليردهم الالمان إلى صوابهم!

ـ لقد بحثت المسألة مع الجنرال دوتوف ، ان لك كل السند من القوزاق . وما علينا سوى الاتفاق على تدابير أخرى .

ـ سوف أكون بانتظارك والآخرين في غرفتي بعد الدورة . كيف هو الوضع في الدون ؟

وغطس كاليدين ذقنه المربع الحليق الصقيل في صدره ، وأجاب وهو ينظر إلى الأرض ساهماً وشفتاه تحت شاربيه الكثين ترتجفان :

ـ لم تعد لدي ثقتي السابقة بالقوزاق . ومن الصعب التكهن بالوضع في هذه اللحظة . إن المساومة ضرورية ، ولا بد أن يذعن القوزاق بعض الشيء إلى الغرباء* ليضمنوا مساندتهم من جديد . وقد اخذنا بعض الخطوات في هذا الاتجاه ، ولكني لا استطيع ضمان نجاحها . وأخشى أن اصطراع المصالح بين القوزاق والغرباء قد يؤدي إلى انفجار . الأرض... جميع أفكارهم تتركز حول ذلك في الوقت الحاضر .

ـ يجب أن تكون لديك فرق قوزاقية يعتمد عليها على أهبة الاستعداد لحمايتك . وعندما أعود إلى مقر القيادة وأتحدث إلى الجنرال لوكومسكي سوف نجد وسيلة ما لارسال عدد من الكتائب من الجبهة إلى الدون .

---

* أطلق هذا الاسم على من هم ليسوا بقوزاق ولكنهم يعيشون في مناطق متاخمة للقوزاق .

ـ اذا استطعت فسوف تجعلني كثير الامتنان لك .

ـ حسناً اذاً ، سنبحث هذا المساء مسألة تعاوننا في المستقبل . انني أعتقد اعتقاداً جازماً بالنجاح الكامل في تنفيذ خطتنا . ولكن الحظ غانية لعوب ، أيها الجنرال ، فاذا ادارت الي ظهرها برغم كل شيء ، فهل أطمئن إلى أنك ستأويني في الدون ؟

وابتسم كاليدين لأول مرة خلال الحديث ، وقال :

ـ لن آويك فحسب ، بل أذود عنك . ان القوزاق مشهورون بإكرامهم الضيف .

وبعد ساعة أعلن كاليدين ، أتمان قوزاق الدون ، في اجتماع يخيم عليه صمت مهيب بيان الكتائب القوزاقية الاثنتي عشرة التاريخي . ومثل خيط العنكبوت الأسود ، خيّم خطر مؤامرة كبرى على الدون ، والكوبان ، والتيريك ، والأورال ، والأوسورى ، في جميع أنحاء أراضي القوزاق من أقصاها إلى أقصاها ، ومن قرية لأخرى .

١٥

على مبعدة فرسخ من خرائب قرية صغيرة أتت عليها نيران المدفعية أثناء هجوم حزيران ، يمتد منعرج خنادق مريع عبر احدى الغابات . وكان القطاع المحاذي للغابة تحرسه سرية خاصة من خيّالة القوزاق .

ويمتد خلفهم ، وراء أجمة أشجار الحور والبتولا الصغيرة ، مستنقع فحم طيني صدىء ، بدأ تنقيبه قبل الحرب ، وتتألق زاهية ثمار التوت البري القرمزية من شجيرات أزهار الكلب . والى اليمين ، خلف نتوء بارز في الغابة ، يمتد طريق مرصوف بالحصباء حفرته القنابل ، وهو بقايا مسالك لم تنل منها الحرب بعد . وفي أطراف الغابة نما أيك ناعس عليه آثار الرصاص ، وجذوع متفحمة تكومت باهمال . ويرى من هنا طين المتاريس البني الفاتح ، وتمتد

الخنادق كالتجاعيد عبر الحقول المكشوفة المترامية الأبعاد . وخلف ذلك ، كان المستنقع بخرائب مناجم الفحم القديمة ، والطريق الخرب شاهدين بليغين على الحياة والعمل المهجور ، وفي نهاية الغابة لاحت الأرض صورة كئيبة مريرة للعيان .

وذات يوم ذهب ايفان أليكسييفتش الميكانيكي السابق في طاحونة موخوف إلى البلدة المجاورة حيث تقيم عربات نقل معدات السرّية ، ولم يعد حتى المساء الباكر . وتوجه إلى حفيرته فاصطدم بزاخار كوروليوف . وكان زاخار يركض تقريباً ويلوح بذراعيه بلا هدف ويحتك سيفه بالأكياس الرملية . فتنحّى إيفان اليكسييفتش جانباً ليدعه يمر ، ولكن زاخار أمسك به من أحد أزرار قمصلته ، وهمس في أذنه وهو يحملق بعينيه المصابتين باليرقان .

ـ هل سمعت ؟ المشاة الذين عن يميننا راحلون . لعلهم يتركون الجبهة مفتوحة ؟

فتدلت لحية زاخار السوداء كالحديد بشكل مضطرب ، ونمّت عيناه عن حنين عارم .

ـ ماذا تعني بـ « يتركون الجبهة مفتوحة » ؟

ـ انهم راحلون ، ولست أدري لماذا .

ـ ربما استبدلوا بغيرهم . فلنذهب إلى ضابط الرعيل ونسأله .

واستدار زاخار ، وذهب إلى حفيرة ضابط الرعيل ، وهو يتعثر وينزلق على الأرض اللزجة .

بيد أن السرية استبدلت بعد ساعة بالمشاة ، وسارت باتجاه المدينة ، وفي الصباح التالي امتطوا صهوات جيادهم ومضوا إلى المؤخرة في مسيرة اضطرارية .

كان ثمة مطر خفيف يتساقط ، وكانت أشجار البتولا تنحني بكآبة . وولج الطريق غابة ، وكان مشبعاً بشذى الرطوبة ورائحة الأوراق المتساقطة البالية ، وأخذت الخيل تزنخر وتحث خطاها . وكانت أوراد الحب الصافي

تتدلى عناقيدها ذات الحبات الوردية ، والتيجان المزبدة للبرسيم الأبيض تشع ببياض عجيب .

ونثرت الريح قطرات مطر كبيرة تساقطت من الاشجار على الفرسان . فتلطخت معاطفهم وقبعاتهم ببقع سود مبللة كما لو رشت باطلاقات . وطفا دخان التبغ وانساب فوق الصفوف .

ـ انهم يأخذون بخناقنا ويقذفون بنا من مكان إلى آخر .

ـ ألم تنالوا الكفاية من الخنادق ؟

ـ ولكن إلى أين تراهم ذاهبين بنا ؟

ـ إلى موقع جديد ،كما أحسب .

ـ لا يبدو ذلك .

ـ هيّا يا أولادي ، فلندخّن وننس همومنا .

ـ اني احمل همومي في حقائب سرجي .

ـ هل نستطيع انشاد أغنية ، أيها الرئيس ؟

ـ هل قال نعم ؟... ابدأ يا أرخيب!

كان القوزاق من الجبهة إلى ديارهم عائدين ،

وعلى اكتافهم كتافيات

وعلى صدورهم ميداليات...

وطفت الأصوات المخضلة الرطبة واهنة فوق الغابة ثم تلاشت . واستوى زاخاركوروليوف ، الذي كان راكباً في صف ايفان الكسييفتش ، قائماً على ركابه وهتف :

ـ أنتم أيها الناعبون! أهكذا يكون الانشاد ؟ انكم لا تصلحون الا للكدية في أبواب الكنائس!

ـ أنشد أنت اذاً .

ـ رقبته قصيرة جداً ، لا تكاد تخرج صوتاً .

ـ تخاف ها ؟

وقبض كوروليوف يده على لحيته المقمّلة السوداء وأغمض عينيه لحظة ، ثم لوّح بعِنانه وشجاعة ، وانطلق ينشد أغنية حماسية .

وكأن السرية قد استيقظت عند سماع المقطع الأول ، فتلقفت النغم بحماس ، وعلا هدير الأغنية في الغابة الندية .

واجتازوا المستنقع حتى نهايته يغنون ، فرحين بخلاصهم من « مقبرة الذئاب » كما كانوا يسمّون الخنادق . وفي مساء اليوم نفسه استقلّوا قطاراً مضى بهم نحو بسكوف . ولم يعرفوا إلا في وقت متأخر أن السرية قد نقلت مع بقية قطاعات فيلق الخيالة الثالث ، إلى بتروغراد للقضاء على التمردات التي اندلعت ثمة . وخفت الكلام في العربات ، وخيّم صمت كئيب . ولكن أحدهم وهو بورشوف طويل القامة أعرب عن شعورهم العام قائلاً :

ـ من المقلاة...

وفي أول موقف ذهب ايفان الكسييفتش ، الذي أصبح منذ آذار الرئيس الدائم للجنة السرية ، ذهب إلى آمر السرية وقال له :

ـ ان القوزاق قلقون أيها الرئيس .

وحدّق في النونة الغائرة في ذقن ايفان ، وأجاب وهو يبتسم :

ـ أنا قلق أيضاً يا صديقي .

ـ إلى أين يمضون بنا ؟

ـ إلى بتروغراد!

ـ للقضاء على الانتفاضات ؟

ـ حسناً ، لا أحسبك تظن أننا ذاهبون لمساعدة المتمردين ، أليس كذلك ؟

ـ لا هذا ولا ذاك .

ـ وكالعادة ، فهم لا يستفسرون عن آرائنا .

ـ ولكن القوزاق...

وقاطعه الضابط غاضباً :

ـ ماذا عن القوزاق ؟ أنا أعرف شخصياً ماذا يفكّر القوزاق . هل تعتقد أن

هذه المهمة تعجبني ؟ خذ هذه واقرأها على مسامع السرية . وفي اللحظة التالية سوف أتكلم إلى القوزاق .

وسلمه الآمر برقية مطوية ، وجعل يأكل لحم بقر مشحم من علبة وقد عبّرت تقطيبته عن نفور واضح من مذاقه .

وعاد ايفان اليكسييفتش إلى عربته حاملاً البرقية بحذر في يده ، وكأنها جمرة ملتهبة :« أدع القوزاق من العربات الأخرى » .

وبدأ القطار يتحرك ، بيد أن عدداً من القوزاق قفزوا إلى عربة ايفان حتى بلغ عددهم حوالي الثلاثين .

قال لهم ايفان :

ـ لقد أعطاني الآمر برقية لأتلوها عليكم .

ـ فلنصغ إلى ماتقوله!

ـ اقرأ ، لا تثرثر!

ـ عن السلم ؟

ـ هدوءاً!

ووسط صمت موات قرأ عالياً بيان القائد العام كورنيلوف . ثم تلقفت الأيدي المبتلة بالعرق البرقية ومررتها على الجميع :

أنا ، القائد العام للقوات المسلحة كورنيلوف ، أعلن أمام الأمة برمتها بأن واجبي العسكري ، وولائي كمواطن لروسيا الحرة ، وحبّي العظيم للبلد قد دفعني في هذه اللحظات الحاسمة التي تقرر مصير أرض الجدود إلى رفض تنفيذ قرارات الحكومة المؤقتة ، ومن ثم احتفاظنا بالقيادة العليا للجيش والأسطول . واذ يساندني في هذا الموقف قواد جميع الجبهات ، أعلن للشعب الروسي أجمع بأنني أفضّل الموت على تنحيتي من مركزي .

ان الابن البار للشعب الروسي سيظل أبداً مستعداً للموت وهو يؤدي واجبه ويضحي بحياته من أجل أرض أجداده .

وفي هذه اللحظات الرهيبة حقاً من حياة أرض أجدادنا ، حيث ، يكاد الطريق إلى مشارف عاصمتينا* أن يكون مفتوحاً أمام تقدّم عدونا المنتصر ، تنسى الحكومة المؤقتة قضية استقلال البلاد الرئيسية ، وتخيف الشعب بثورة ردّة وهمية ، تغذيها هي بعجزها عن الحكم وضعفها وترددها .

انني لست أرفض الدفاع عن الحريات العظمى لشعبي ولمستقبله العظيم ، وأنا ابنه البار الذي وهب حياته في خدمته . بيد أن هذا المستقبل يقع اليوم بين أيدي عديمي الإراده . إن عدواً وقحاً يعشش في صفوفنا وكأنه في بيته ، ويجلب الدمار عن طريق الرشوة والخيانة ، لا لقضية الحرية فحسب ، بل لكيان الشعب الروسي بالذات . تيقظ أيها الشعب الروسي ، وانظر إلى الهاوية السحيقة التي ينحدر اليها وطننا .

وتجنباً لما يحل من اضطرابات ، وحقناً للدم الروسي ، وبغض النظر عن التهم المتبادلة وكل ما جرى لي من اهانة ومذلة على يدهم ، أتوجه إلى الحكومة المؤقتة وأقول :« تعالوا اليّ في مقر القيادة ، حيث تصان حريتكم وسلامتكم بكلمة الشرف التي أتعهد بها ، لتعملوا معي على ايجاد وتنظيم خطة للدفاع الوطني من شأنها أن تصون الحرية وتقود الأمة الروسية نحو المستقبل العظيم الجديد بشعب حر وجبار .

الجنرال كورنيلوف

وفي المحطة التالية توقف القطار بعض الوقت . وتجمع القوزاق خارج شاحناتهم وأخذوا يتحدثون عن برقية كورنيلوف وأخرى من كيرنسكي تلاها آمر السرية ، تتهم كورنيلوف بالخيانة ومعاداة الثورة . وناقش القوزاق الموقف في حيرة ، وسرت البلبلة بين صفوف الضباط أيضاً .

قال مارتن شامل شاكياً :

ـ لقد اختلط عليّ الأمر تماماً . لا يعلم الا الشيطان أيهما المخطىء .

---

* المقصود هنا بتروغراد وموسكو . المترجمون

ـ كلاهما يريد الانقضاض على صاحبه ، أما نحن فعلينا أن نتحمل العواقب .

ـ كلاهما يريد أن يكون في السلطة .

ـ السادة يتعاركون ، والقوزاق يتراجفون .

ـ والدوامة تدور... مصيبة!

وتقدّم رهط من القوزاق نحو ايفان اليكسييفتش وقالوا له :

ـ اذهب إلى الآمر واسأله عما يجب أن نفعل .

وذهبوا جميعاً إلى آمر السرية ، فوجدوا الضباط مجتمعين في شاحنته . ودخل ايفان اليكسييفتش :

ـ أيها الرئيس ، يتساءل القوزاق ما ينبغي أن يفعلوا .

ـ سأخرج اليكم بعد دقيقة .

ولبثت السرية بكاملها تنتظر عند الشاحنة الأخيرة ، ثم التحق الآمر بالمتجمهرين وشق طريقه إلى وسطهم ، ورفع يده قائلاً :

ـ نحن لا نخضع لكيرنسكي بل إلى القائد العام ورؤسائنا المباشرين . أليس هذا صحيحاً ؟ ومن ثم فعلينا أن ننفذ دون نقاش أوامر قائدنا الأعلى ونواصل المضي إلى بتروغراد . ومهما يكن الأمر فلسوف نكتشف الخبر اليقين حينما نصل محطة دنو ، حيث سنلتقي بقائد فرقة الدون الأعلى . ولهذا أطلب منكم ألا يستبد بكم القلق ، فهذا هو شأن زماننا الذي نحيا فيه .

ومضى الآمر يتكلم طويلاً عن واجب الجندي ، والوطنية ، والثورة ، محاولاً تهدئة القوزاق ، ويراوغ في الإجابه على أسئلتهم . وقد تحقق له ما أراد . وبينما كان يتكلم إلى القوزاق شدت قاطرة بالقطار(ولم يعلم القوزاق أن ضابطين من سريتهم قد عجلا في رحيلهم بتهديد مدير المحطة بالمسدسات) وتفرق الرجال إلى شاحناتهم .

ووصل القطار العسكري محطة دنو بعد يوم . وفي المساء توقف ثانية ريثما يمر قطار آخر يقل كتيبتي الأوسوري والداغستان .

وجر قطار القوزاق إلى خط جانبي . وتناهت اليهم أصوات غليظة ، وأنين أنغام المزمار وألحان غير مألوفة من شاحنة الداغستانيين وهي تجرجر عجلاتها بعيداً ، وكان يسطع هنا وهناك ضياء في العتمة الخالية .

وفي منتصف الليل تحرك القطار ثانية ، وكانت الماكنة الصغيرة قد وقفت طويلاً عند مضخة الماء والشرارات تتساقط من مشعلها ، وقد مال السائق بجسمه خارج غرفته يدخن سيكاره ، كمن ينتظر شيئاً . وأخرج قوزاقي رأسه في أقرب شاحنة وهتف :

ـ هيا يا ايفان تحرّك والا فسنطلق النار!

فبصق السائق سيكارته ، وحدق فيها اذ هوت خلال العتمة ، ثم تنحنح وقال :

ـ لا تستطيع أن تطلق النار على كل انسان ، ـ ثم ابتعد عن النافذة .

وبعد بضع دقائق تحركت القاطرة بشكل مفاجىء فأحدثت رجّة في المعدات وارتفعت قعقعة حوافر الخيل وهي تحاول أن تحافظ على الموازنة داخل الشاحنات . وانسل القطار حذو مضخة الماء وبضع نوافذ مضاءة وأشجار البتولا القاتمة . وأطعم القوزاق خيلهم وناموا أو جلسوا عند الأبواب المواربة ، يدخنون ويتطلعون إلى السماء ويفكرون .

واستلقى ايفان اليكسييفتش بجانب كوروليوف ينظر خلال خصاص الباب إلى النجوم العابرة . ظل طوال اليوم السابق يفكر في الموقف ، فتوصل إلى قرار راسخ يقضي بمنع السرية من الاستمرار في المضي شطر بتروغراد بكل مالديه من قوة . وفيما هو راقد ، راح يفكّر بأفضل طريقه يقنع بها القوزاق برأيه .

وكان قد أدرك حتى قبل بيان كورنيلوف أن طريق القوزاق هو غير الطريق الذي رسمه القائد العام ، ومع هذا فقد أنبأته سليقته بأنه ليس من صالحهم أيضاً أن يدافعوا عن كيرنسكي . ومضى يقلب المسألة في ذهنه المرة تلو المرة ، فعقد العزم على أن يحول دون وصول السرية إلى بتروغراد ، فاذا

كان لا بد من صدام مع جبهة ما ، فيجب أن يكون ذلك مع كورنيلوف ، ولكن ليس لصالح كيرنسكي ، ولا لصالح حكومته ، بل لمن ينبغي أن يأتي بعده ، وكان على ثقة كبيرة بأن الحكومة الحقة التي يريدها لن تأتي الا بعد زوال كيرنسكي ، لقد كان أثناء الصيف في القطاع العسكري للجنة الحزب التنفيذية في بتروغراد ، التي أرسلته اليها السرية للمشورة حول خصام حصل مع آمر السرية . وهناك شاهد عمل اللجنة ، وتكلم مع عدد من الرفاق البلاشفة ، وقال في نفسه : «دع هذا الهيكل العظمي يتجلبب بلحم عمالنا ، فتحصل من ثم على حكومة! وحتى لو مت يا ايفان ، فعليك أن تتشبث بذلك ، تتشبث به كما يتعلق طفل بصدر أمه! »

وإذ كان مستلقياً على جلّ حصانه ، راح يفكّر مرة بعد مرة وقلبه مفعم بعاطفة حارةغير مألوفة تجاه الرجل الذي كان أول من وجد بهدى قيادته طريقه الجديد الشاق . وبينما كان يفكر فيما ينبغي أن يقوله للقوزاق في الغداة ، تذكّر ما قاله شتوكمان عن القوزاق وأعاده مع نفسه بقناعة : «إن القوزاق محافظون حتى العظم ، ولا تنس أنك عندما تحاول إقناع واحد منهم حول حقيقة الأفكار البلشفية ، يجب أن تتصرف بحذر ، وروية ، وتكيّف نفسك وفقاً لمتطلبات الموقف . ففي البداية سيزدرونك مثلما ازدريتني أنت وميشا كوشيفوي ، ولكن لا تدع ذلك يقلقك . اعمل بدأب وعناد ، فالنجاح حليفنا في النهاية » .

وقدر لايفان أنه سيواجه من القوزاق بعض المعارضة اذا ما حاول اقناعهم بعدم الانضواء تحت لواء كورنيلوف ، ولكنه عندما بدأ يتكلّم في الصباح مع زملائه في الشاحنة ، ويقترح عليهم بأن يطالبوا بعودتهم إلى الجبهة لا أن يذهبوا إلى بتروغراد ليحاربوا اخوانهم ، وافقه القوزاق عن طيب خاطر وكانوا على أتم الاستعداد لرفض مواصلة الرحيل ، كان زاخار كوروليوف وقوزاقي يدعى توريلين أقرب إلى ايفان في وجه نظرهما ، فأمضيا نهارهما يتنقلان من شاحنة إلى اخرى ، ويتحدثان إلى الآخرين . وقرب المساء . بينما كان القطار

يمر ببطء خلال محطة صغيرة ، قفز نائب عريف من الرعيل الثالث إلى شاحنة ايفان ، وهتف بوجهه بانفعال :

ـ سوف تترك السرية القطار في أول موقف . أي رئيس لجنة أنت إن كنت تجهل ما يريده القوزاق ؟ نحن لن نمضي أبعد من هذا! ان الضباط يضعون الانشوطة حول رقابنا ، وأنت أشبه بأطرش في زفّة . ألأجل هذا انتخبناك ؟ لماذا تضحك ؟

ـ فأجابه ايفان باسماً :

ـ كان يجب أن تقول ذلك منذ زمن بعيد .

وفي موقف كان أول من قفز من الشاحنة ، وذهب إلى مدير المحطة يصحبه توريلين .

ـ لا ترسل قطارناخطوة أخرى . سوف نترك القطار هنا .

فتساءل الرجل مذهولاً :

ـ ماذا ؟ لدي تعليمات تقضي بإرسالكم...

فقاطعه توريلين بغلظه :

ـ اخرس!

ثم ذهبا إلى لجنة المحطة وأوضحا الموقف للرئيس ، وهو تلغرافي ذو شعر أرجواني وجرم متين . وبعد بضع دقائق حوّل سائق القاطرة القطار إلى خط جانبي عن طيب خاطر .

وهرع القوزاق لوضع الالواح الخشبية بين الشاحنات والرصيف وأخرجوا جيادهم . ووقف ايفان إلى جانب القاطرة يمسح العرق من وجهه الضاحك ، وقد باعد بين ساقيه . فجاء آمر السرية مهرولاً نحوه :

ـ ماذا أنت فاعل ؟ أنت تدري أن ذلك...

فقاطعه ايفان :

ـ أدري ، ولكن هدىء أعصابك أنت ، أيها الرئيس .

وأردف بوضوح وقد شحب وجهه :

ـ لقد أشبعتنا صياحاً ، يافتى . أما الآن فسنقوم نحن باصدار الأوامر .

ـ إن القائد العام ، كورنيلوف ،...

تأتأ الضابط بذلك ، وقد استحال لونه أزرق . بيد أن ايفان راح يحدّق بقوة في جزمته المنغرسة في رمل الخط الحديد ، ونصح الرئيس وهو يلوح بيده بارتياح :

ـ علق قائدك العام حول رقبتك بدلاً من الصليب ، أمّا نحن فلسنا بحاجة اليه .

واستدار الضابط على عقبيه وهرول إلى عربته .

وبعد ساعة مضت السرية خبباً تاركة المحطة باتجاه الجنوب الغربي وليس في صحبتهم ضابط واحد ولكنهم ساروا على أتم نظام .

وكان ايفان اليكسييفتش في مقدمة الرعيل الأول مع رماة الرشاشات ، يقودهم بمعية توريلين الربعة مساعداً له .

وتلمسوا طريقم بصعوبة مسترشدين بالخارطة التي غنموها من القائد ، وبلغوا قرية غوريلويه لقضاء الليلة . وفي اجتماع عام قرروا أن يعودوا إلى الجبهة ، ويحاربوا كل من يعترض سبيلهم .

وقيد القوزاق الخيل وعينوا الحرس ، ثم استلقوا بانتظار الفجر ، ولم يوقدوا ناراً وكان واضحاً أن معظمهم كان منقبض النفس ، وقد استلقوا دون أن يتبادلوا أحاديثهم ودعاباتهم المألوفة ، كاتمين ما يدور بخلدهم عن بعضهم البعض .

قال ايفان في نفسه جاداً وهو ينكمش تحت معطفه :« ماذا لو غيروا رأيهم وعادوا لإعلان خضوعهم ؟ » وتقدّم نحوه توريلين وكأن الخاطرة قد تناهت اليه .

ـ هل أنت نائم يا ايفان ؟

ـ لم أنم بعد .

وقرفص توريلين بجانبه وهمس وهو يشعل سيكاره :

ـ ان القوزاق قلقون... لقد فعلوا فعلتهم وبدأوا الآن يتخوفون . لقد زججنا أنفسنا في ورطة . مارأيك ؟

فأجابه ايفان بهدوء :

ـ سوف نرى . أنت لست خائفاً ، أليس كذلك ؟

فحك توريلين رأسه وابتسم ابتسامة شوهاء :

ـ انني خائف والحق يقال . في البداية لم أكن كذلك ، ولكنني الآن خائف بعض الشيء .

ـ لا أظنك قوي المراس ، أليس كذلك ؟

ـ ان لديهم سطوة كبيرة ، ياايفان .

ولم يحر كلاهما جواباً . وانطفأت أنوار القرية . ومن مكان ما من مستنقع الصفصاف علا صوت ذكر بط ، فهمهم توريلين قائلاً : ـ ينادي انثاه ـ وعاد إلى صمته ثانيه .

أسدل الليل سكونه المهيب على المروج . واخضل الحشيش بالندى . وهب نسيم يحمل إلى انوف القوزاق روائح مختلطة تنبعث من حشائش المستنقع والنباتات العفنية ، والتربة الموحلة والأعشاب المبتلة بالندى . وبين آونة وأخرى يجلجل قيد أحد الخيل ، أو يسمع زخير أو زنخرة كلما استلقى حيوان ، ويعود الصمت الناعس ثانية ، ثم يتناهى نداء ذكر البط الوحشي من بعيد ، وجواب انثاه من مسافة أقرب . وحفيف خاطف لأجنحة غير منظورة يخترق الظلمات . ليل ، سكون ، رطوبة المرج الضبابية ، ومن الغرب في النظير* تصاعدت غمامة كبيرة بلون البنفسج القاتم . وفي السمت ، فوق أراضي بسكوف العريقة ، ترتسم المجرّة درباً نارياً فسيحاً أشبه بتذكار خالد .

وفي الفجر انطلقت السرية ثانية . ومرت خلال قرية غوريلويه تتبعها ببطء أحداق النساء والأطفال الذين يسوقون الماشية إلى المرعى . وارتقت

---

* النظير ـ نقطة في القبة الزرقاء للسماء على خط عمودي من المراقب وهي تقابل السمت . المترجمون

مرتفعاً صبغته أشعة الفجر بلون القرميد الأحمر . والتفت توريلين صدفة إلى الوراء ، فنخس ركاب ايفان بقدمه وقال :

ـ انظر إلى الوراء! هناك رجال يتعقبوننا على الجياد .

فتطلع ايفان إلى الوراء صوب القرية ، ورأى ثلاثة فرسان يهذبون بجيادهم وسط غيمة من الغبار الوردي المتطاير . فهتف آمراً :

ـ سرية ، قف!

وبمثل ماعرف القوزاق به من سرعة ، صفّوا أنفسهم في مربع رمادي اللون ، وعندما بلغ الفرسان مسافة تربو على نصف فرسخ خفضوا سرعتهم وأخذوا يسيرون خبباً . وأخرج أحدهم ، وهو ضابط قوزاقي ، منديلاً أبيض ولوّح به فوق رأسه . فحدّق القوزاق بأبصارهم في الفرسان المتقدمين . كان الضابط القوزاقي يرتدي قمصلة خاكية وهو يتقدم فارسين آخريين يرتديان ملابس شركسية .

وعدا نحوهم ايفان بفرسه وسألهم :

ـ ماذا تبتغون منّا ؟

فقال له الضابط وهو يؤدي التحية :

ـ جئنا لنتفاوض . من تولى أمرة السرية ؟

ـ أنا .

فقال الضابط وهو يشير بعينيه إلى الشركسيين :

ـ أنا مفوض من لدن فرقة قوزاق الدون الأعلى ، وهذان الضابطان هما ممثلان عن الفرقة المحلية .

وسحب عنان فرسه وهو يمسد رقبة حصانه المتصبب عرقاً وأردف قائلاً :

ـ اذا كنت راغباً في الشروع بمناقشة الموضوع ، فأصدر أمراً للسرية بالترجل . فعلي أن أبلغكم بالتعليمات الشفهية الصادرة من قائد الفرقة اللواء غريكوف .

وترجل القوزاق ، والممثلون كذلك . وشقّوا طريقهم إلى وسط الحشد . فأفسحت السرية لهم المكان وشكّلوا حلقة صغيرة . وتكلم الضابط القوزاقي أولاً :

ـ ايها القوزاق! لقد جئنا لكي نقنعكم بأن تعيدوا النظر فيما تفعلون وتتجنبوا العواقب الوخيمة لعملكم . فقد تناهى إلى علم قيادة الفرقة أمس أنكم استجبتم لتحريضات اجرامية قام بها البعض ، وتركتم شاحناتكم اعتباطاً ، فأرسلنا اليوم لننصحكم بالعودة حالاً إلى المحطة . لقد احتل جنود الفرقة المحلية وقوات الخيالة الأخرى بتروغراد أمس ، وقد تسلمنا برقية بهذا الشأن اليوم . ودخل حرسنا الأمامي المدينة ، واحتل الأبنية الحكومية ، والمصارف ، ودائرة التلغراف ، ومراكز التلفون وجميع النقاط الحساسة . وقد هربت الحكومة المؤقتة وقضي عليها . فتبينوا أيها القوزاق! إن لم تخضعوا إلى أوامر قائد الفرقة ، فسوف ترسل قوات مسلحة ضدكم . وسوف يعتبر تصرفكم خيانة ، وتمرداً على التزاماتكم العسكرية . وليس من سبيل إلى حقن الدماء الا باستسلامكم دون قيد أو شرط .

وعندما كان الممثلون الضباط قد اقتربوا منهم ، أدرك ايفان اليكسيفيتش أنه ليس من الممكن تجنب الدخول في نقاش معهم ، لأن ذلك لن يعطي سوى نتائج معاكسة لما يريد . وفكّر برهة من الوقت ثم أمر السرية بالترجل وغمز بعينه لتوريلين واقترب شيئاً فشيئاً من الضباط . ووقف القوزاق وهم منكسرو الخاطر مكتئبو الوجوه ، ينصتون بانتباه إلى كلمات الضابط ، وقد أخذ بعضهم يتهامس فيما بينهم . زاخار كوروليوف بلحيته السوداء الطافية على صدره مثل الحديد المنصهر ، كان يبتسم مذهولاً ، وبورشجيف يعبث بسوطه ويخاوص النظر ، ونائب العريف بشنيشنيكوف الذي اقترح ترك القطار في أول مكان ، ظل يحدّق إلى الأمام في الضابط فاغراً فاه ، ومارتن شامل يحكّ وجنتيه بكفّه القذرة ، ومن ورائه يبدو وجه قوزاقي آخر مصفر ، وكراسنيكوف ، وهو حامل رشاش ، مقطباً كمن يتوقع شيئاً ، وتوريلين يلهث

بنفسه ، وأوبنيزوف الأنمش يدفع قبعته إلى مؤخرة رأسه ويحرك رقبته كثور ينوء تحت نير . ووقف جنود الرعيل الثاني بكاملهم دون أن يرفعوا رؤوسهم ، كأنهم يؤدون الصلاة ، ولم يحر الجميع كلاماً ، بل ظلت الأنفاس اللافحة تسمع من الحشد المتراصف . كانت الوجوه تختلج بمخاوف ساورت نفوسهم جميعاً .

وأدرك ايفان أن القوزاق كانوا على وشك الاذعان . ولن تمضي بضع دقائق أخرى حتى يستطيع هذا الضابط ذو اللسان اللبق أن يستميلهم إلى جانبه ، ينبغي أن ينقشع الانطباع الذي تركه في نفوسهم بأي ثمن . ورفع ايفان يده ، وأجال النظر في الجميع بعينين متسعتين يخالطهما بياض غريب ، وهتف :

ـ ايها الاخوان! مهلاً!

والتفت إلى الضابط وسأله :

ـ هل جئت بالبرقية معك ؟

ـ فسأله الرئيس مندهشاً :

ـ أية برقية ؟

ـ البرقية التي تقول ان بتروغراد قد تم احتلالها .

ـ البرقية... بالطبع لا . ماذا تبتغي من البرقية ؟

ـ آه! اذا فهو لا يحتفظ بالبرقية!

وتنفست السرية بكاملها الصعداء . ورفع الكثير من القوزاق رؤوسهم ، وتشبثت عيونهم بإيفان وكلهم رجاء . فهتف بازدراء وثقة رافعاً صوته الأجش مستأثراً بانتباههم :

ـ تقول انها ليست معك ، ثم تريد منّا أن نصدقك على ذلك ؟ كلا ، لا تستطيع خداعنا!

وهدرت السرية بلهجة واحدة :

ـ إنها خدعة!

ووضع الضابط يده على صدره علامة الاقناع ، وقال :

ـ لم ترسل البرقية اليّ شخصياً ، أيها القوزاق!

ولكنهم لم يصغوا اليه . فشعر ايفان بأنه استعاد ثقة السرية وكسب مشاعرهم من جديد ، وقال بصوت حازم وكأنه يقطع الزجاج بالماس :

ـ وحتى لو كانت عندك ، فان سبيلنا هو غير سبيلكم .

نحن لا نريد أن نحارب قومنا! ولن نسير ضد الشعب . كلا! لم نعد حمقى . ولن نذهب لنقيم حكومة من الجنرالات . هذا كل مافي الأمر!

وهتف القوزاق باستحسان :«لقد أعطاهم إياها!» «هذا صحيح يا ايفان!» «اطردهم!» «في بتروغراد توجد ثلاثة أفواج قوزاقية لكنهم لا يريدون أن يحاربوا الشعب!» «ليغربوا عن وجوهنا!» .

ونظر ايفان إلى المبعوثين . كان الضابط القوزاقي ينتظر بصبر فارغ وقد زمّ شفتيه بقوة ، والى خلفه يقف الآخران كتفاً لكتف .

كان أحدهما ، وهو شاب من الأنغش ، معقود الذراعين ، وقد تألقت عيناه اللوزيتان المائلتان ، أمّا الآخر ، فهو كهل أشيب الشعر أوسيتاني . كانت يده حاطة بارتخاء على مقبض سيفه ، وكان يجول ببصره بين القوزاق قلقاً ساخراً . وكان ايفان على وشك أن ينهي النقاش ، غير أن الضابط القوزاقي استبقه بعد أن تهامس مع الأنغشي ، وصرخ بصوت جهير :

ـ ياقوزاق الدون! هل تسمحون لممثل الفرقة المحلية بالكلام ؟

وتقدّم الأنغشي إلى الامام بجزمته الخالية من المهاميز دون أن ينتظر الاذن بالكلام ، وهو يعبث بعصبية بحزامه الرفيع المرصّع بالفضّة :

ـ أيها الأخوة القوزاق! علام هذه الضجة ؟ أنتم لا تريدون الجنرال كورنيلوف ؟ هل تريدون حرباً ؟ حسناً . لسوف نحاربكم . نحن لسنا خائفين! لسنا خائفين اطلاقاً! سوف نمحقكم اليوم . فثمة كتيبتان من ورائنا! ها!

كان قد بدأ كلامه بهدوء مصطنع ، ولكنه عندما مضى في حديثه أخذ

يصب كلماته بانفعال زائد ، واختلطت عبارات من لغته الأصلية بكلمات روسية ، ركيكة ، وأردف :

ـ ذاك هو القوزاقي الذي يفسدكم! انه بلشفي ، وأنتم تتبعونه! هكذا! ألست على صواب ؟ ألقوا القبض عليه! جردوه من السلاح!

وأشار بتحد إلى ايفان ، وجال بعينه في دائرة المجتمعين ، ملوحاً بيديه دون هدف ، وقد ارتج جسمه انفعالاً واحمر وجهه المكفهر . أمّا زميله فقد حافظ على هدوء ثلجي ، وراح الضابط القوزاقي يعبث بشرابة سيفه ، وخيم الصمت ثانية على القوزاق ، وعاودهم القلق والارتباك . وحملق ايفان في الضابط الأنغشي ، في أسنانه التي تلتمع مثل أسنان الحيوان ، وفي خيط رمادي من العرق ينحدر على صدغه الأيسر ، وآلمه أنه ترك الموقف ينزلق في حين كان بمقدوره أن يحسم النقاش بكلمة واحدة ويواصل مسيرته على رأس القوزاق ، بيد أن توريلين أنقذ الموقف . فقد وثب إلى وسط الحلقة ملوحاً بيديه بانفعال ، وهدر وهو يشق قميصه :

ـ أيتها الأفاعي الزاحفة! يا أبالسة...! يا خنازير...! يتملقونكم مثل الزانيات ، وأنتم ترهفون اليهم آذانكم! لسوف يسوقكم الضباط حيث يشاؤون . ماذا أنتم فاعلون ؟ ماذا أنتم فاعلون ؟ يجب الاجهاز عليهم ، وأنتم واقفون تنصتون إليهم! اقطعوا رؤوسهم ، اهدروا دماءهم! انهم يقومون بتطويقنا الآن فيما أنتم تجعجعون . وسوف يحصدوننا بالرشاشات! ولن يطول بكم الاجتماع اذا ما بدأت تلعلع! إنهم يرمون بالجزة على عيونكم حتى يصل جنودهم . ها ، وتسمون أنفسكم بعد ذلك قوزاقاً! ما أنتم الا جمع من النسوان!

وهدر ايفان بصوت رهيب : « الى الجياد! » .

فانفجرت صرخته مثل القنبلة بين الحشد . واطلق القوزاق صوب جيادهم . ولم تمض دقيقة حتى انتظمت السرية ثانية رعائل .

وصرخ الرئيس :« مهلاً! أيها القوزاق! » .

فسحب ايفان بندقيته على كتفه ، ووضع اصبعه بثبات على زنادها ، وهتف :

ـ لقد انتهى الكلام! واذا كان علينا أن نتكلم معك الآن فبهذه اللغة!

ولوح ببندقيتة بما يفيد ذلك .

وتحرّك ركبهم رحيلاً في أثر رعيل ، والتفتوا إلى الخلف ، فرأوا المبعوثين يمتطون جيادهم ويتذاكرون فيما بينهم . كان الأنغشي يناقش بشدة ، ويرفع يده بين الآونة والأخرى ، ويلوح كم قميصه الحريري ناصعاً كالثلج ، وعندما التفت ايفان للمرة الأخيرة لمح هذا الشريط الحريري البراق . وفجأة لاح أمام ناظريه صدر الدون الذي لفحته الرياح ، وأمواجه الخضر المزبدة ، وجناح أبيض لنورس ينساب فوق رؤوس الأمواج .

١٦

في التاسع والعشرين من آب علم كورنيلوف من البرقيات التي تلقاها من كريموف بأن محاولة إسقاط الحكومة بواسطة القوات المسلحة قد باءت بالفشل .

وفي الساعة الثانية بعد الظهر قدم إلى مقر القيادة ضابط مراسل يحمل رسائل من كريموف . وبعد أن تحدث معه كورنيلوف وقتاً طويلاً ، استدعى الجنرال رومافسكي . وقال وهو يدعك ورقة بعصبية :

ـ انهيار مطبق! لقد خسرت ورقتنا . فلن يستطيع كريموف أن يأتي بقواته إلى بتروغراد في الوقت المطلوب وستضيع عليناالفرصة . إن الشيء الذي بدا سهل التحقيق اعترضته آلاف العراقيل... الفشل المحتم . انظر إلى حركة القطارات العسكرية!

ونشر خاطرة تشير إلى تقدم فيلق الخيالة الذي يقوده كريموف والفرقة القوقازية نحو بتروغراد ، ومرقت عبر وجهه المتعب اختلاجة سريعة ، وأردف :

ـ انهم عمال السكك الأوغاد الذين يضعون أمامنا العراقيل في كل خطوة . وقد فاتهم أننا متى نجحنا لسوف أعلق واحداً من كل عشرة منهم على الفور . اقرأ تقرير كريموف .

وبينما طفق رومانوفسكي يقرأ التقرير ، ممسداً وجهه المنتفخ بيد ضخمة ، جعل كورنيلوف يحرر بسرعة :

نوفوتشيركاسك
الى اتمان قوزاق الدون
اليكسي ماكسيموفيتش كاليدين

لقد تناهى إلى علمي فحوى برقيتك إلى الحكومة المؤقتة . إن القوزاق الأماجد قد نفد صبرهم في صراعهم العقيم مع الأرذال والخونة . ، وهم إذ يرون البلاد قد شارفت على دمار محقق ، فقد باتوا على أهبة الاستعداد وسلاحهم بأيديهم للدفاع عن حياة وحرية أرض الأجداد التي نمت واتسعت بعرقهم ودمائهم . سوف نقلل من اتصالاتنا لفترة ما . أرجو منك أن تنسق أعمالك معي ، كما تملي عليك وطنيتك وشرفك القوزاقيان ، ٦٥٨ . ١٩١٧/٨/٢٩ .

الجنرال كورنيلوف

وانتهى من الكتابة وطلب من رومانوفسكي ارسال البرقية في الحال .

ـ هل تريد مني أن أرسل إلى الأمير باغراتيون برقية ثانية توصية بمواصلة الرحلة في مسيرة عسكرية .

ـ نعم ، أرسل .

وتوقف رومانوفسكي لحظة ، ثم قال بلهجة المتأمل :

ـ ليس هناك داع في رأيي للتشاؤم . أنت مخطئ في استباقك الحوادث...

كان كورنيلوف قد مد يده ليخطف فراشه حومت حول رأسه .

وراحت أصابعه تنقبض وتنفتح ، وبدا وجهه متوتراً بعض الشيء وقد نم

عن ترقب . واندفعت الفراشة إلى النافذة بعد أن اربكتها حركة الهواء من حولها ، ولكن كورنيلوف استطاع أن يمسك بها ، ثم رمى بنفسه على كرسيه إلى الوراء وتنفس الصعداء .

وكان رومانوفسكي ينتظر الإجابة على ملاحظته ، بيد أن كورنيلوف استجاب له بابتسامة قاتمة شاردة .

ـ لقد رأيت حلماً في الليلة الماضية . حلمت أنني قائد لواء في إحدى فرق حملة البنادق ، أقود هجوماً في الكربات . وقد توقفت هيئة أركاننا عند مزرعة على الطريق ، وتقدم نحونا أوكراني حسن الهندام ، جاء ليحيينا ، وقدم لي لبناً لأشربه ، وقال لي بألمانية لاشائبة فيها وهو ينزع قبعته البيضاء المصنوعة من اللباد :

«اشرب أيها الجنرال! إن لهذا اللبن خصائص صحية رائعة»

ولاح لي في حلمي أنني شربت اللبن ولم أشعر بالدهشة عندما وجدت الأوكراني يربت بلا تكلف على كتفي ، ثم مضينا نحو الجبال ولم تعد تبدو مثل جبال الكربات ، ولكن في مكان ما في أفغانستان ، عبر ممر أشبه بطريق الماعز... نعم ، هو ذاك . طريق الماعز ، وكانت الحصباء والصخور البنية تنهار من تحت أقدامنا ، وفي الأسفل ، وفي قرار الأخدود شاهدنا منظراً طبيعياً من مناظر الجنوب الرائعة يتألق بأشعة الشمس الفضية...» .

وهبت نسمة خلل النافذة المفتوحة وعبثت بأوراق مكتبه . وحومت نظرة كورنيلوف الضبابية الغامضة في مكان ما وراء الدنيبر ، فوق المرتفعات القائمة والمروج ذات الخضرة النحاسية .

وشاركه رومانوفسكي النظر ، ثم جر آهة واهنة وأدار عينيه إلى صفحة الدنيبر الزجاجية الهادئة التي تشبه المايكا ، وإلى الحقول الضبابية التي كساها الخريف الماكر غلالة خلابة ناعمة .

١٧

توزعت مختلف قطع الجيش التي أرسلها كورنيلوف لاحتلال بتروغراد على شبكة واسعة من ثمانية خطوط حديدية صوب الشمال الغربي ، وضجت جميع المحطات الرئيسية وحتى المواقف الثانوية والخطوط الجانبية بالقطر العسكرية البطيئة . ولم تعد الكتائب تخضع للنفوذ الأدبي للقيادة العليا ، كما فقدت السرايا المبعثرة الصلة مع بعضها ، وازدادت البلبلة بتغير التعليمات أثناء السير ، والأوامر غير المتناسقة ، مما غذى القلق والتوتر المتفشيين بين الجنود .

كانت قوات كورنيلوف تتحرك ببطء نحو بتروغراد مواجهة مقاومة عنيدة من عمال السكك ومتخطية الصعوبات تلو الصعوبات .

وفي الشاحنات الحمرالصغيرة ، تجمع قوزاق جياع من جميع مناطق القوزاق ورجال القبائل القوقازية التي تشكل الفرقة المحلية ، إلى جانب جيادهم الجائعة أيضاً ، وكانت القطر تقف ساعات بطولها في المحطات بانتظار الإرسال . ، فينطلق الرجال من الشاحنات ويتدفقون إلى غرف الانتظار أو يتجمعون فوق الخطوط الحديدية ويأتون على كل ماخلفته القطر السابقة ، ويسلبون السكان خلسة ، وينهبون مخازن الطعام .

خطوط سراويل القوزاق الصفر والحمر ، وقمصلات الجنود الخيالة الأنيقة وسترات الجبليين الطويلة الضيقة عند الخصر... حلل زاهية الألوان لم يسبق لتلك الربوع الشمالية المتواضعة أن رأت مثلها .

وسوية مع الكتائب الأخرى التي تشكل فرقة قوزاق الدون الأولى ، مضت الكتيبة التي كان يخدم فيها يفغيني لستنتسكي سابقاً ، إلى بتروغراد على خط ريفيل ـ فيزنبورغ نارفا الحديدي .

وقد وصلت نارفا سريتان من الفرقة الخامسة بعد ظهر الثامن والعشرين من آب . وعلم الآمر أن مواصلة السفر مستحيلة تلك الليلة لأن الخطوط وراء

نارفا قد دمرت . فأرسلت ثلة من راصفي العوارض إلى الموضع ، وإذا ما استطاعت تصليح الخط في وقت مبكر فسوف يرسل القطار في الصباح الباكر . وكان القائد مضطراً إلى تقبل ذلك الحل . وارتقى عربته وهو يلعن ، وأخبر بقية الضباط بالنبأ ، ثم جلس يشرب الشاي .

كانت السماء ملبدة بالغيوم ، والريح تهب قاسية عنيفة من الخليج الفنلندي . وعلى الخطوط الحديدية والشاحنات تجمع القوزاق يتحدثون بأصوات خافتة ، بينما كانت الخيول تضرب الأرض الخشبية بحوافرها منفعلة مضطربة بصفارات القاطرات . وفي مؤخرة القطار انطلق صوت قوزاقي فتي يغني ، لا أحد يدري لمن كان يشكو همومه في العتمة :

وداعاً ياشوارع المدينة والحواضر
وداعاً ياقريتي العزيزة
وداعاً ياحبيبتي الصغيرة الفاتنة
وداعاً ياوردتي اللازوردية .
وذات مرة استلقيت من الغسق حتى الفجر
على ذراع حبيبتي الجميلة
ولكني اليوم من الغسق حتى الفجر
أقف وفي يدي بندقية

وظهر رجل من وراء بناية المخزن الرمادية . ثم وقف ، وراح يصغي إلى الأغنية ، ويتطلع إلى الطريق الذي تتلمع على صفحته هنا وهناك بقع من الضوء الأصفر ، ويمم بثقة صوب الشاحنات .

وكان لخطواته صدى مجوف في مسامع النائمين ، ولكنه تلاشى عندما سار في الممر الرملي بين خطوط السكك . ومر حول الشاحنة الأخيرة ، فتوقف القوزاقي الواقف عند بابها عن الغناء وناداه صائحاً :

ـ من ذاك ؟

فأجابه الرجل مكرهاً دونما أن يتوقف :

ـ من تتوقع ؟

ـ وعمّ تبحث في الليل ؟ سنسلخ جلودكم ياشذاذ الآفاق! واستمر الرجل في مشيه حتى بلغ منتصف القطار ، ومد رأسه في باب شاحنة ، وسأل :

ـ أية سرية أنتم ؟

فقال أحدهم هازلاً في الظلام :

ـ نحن سجناء!

ـ كلا ، أنا أقول جاداً .

السرية الثانية .

ـ وأين الرعيل الرابع ؟

ـ الشاحنة السادسة من الأمام .

ـ كان ثلاثة قوزاق أحدهم مقرفص والآخران واقفان ، يدخنون عند باب الشاحنة السادسة . حدقوا بصمت في الرجل المتقدم نحوهم .

ـ مرحباً ، أيها القوزاق!

فأجاب واحد منهم وهو يحملق في وجه القادم الجديد :

ـ مرحباً .

ـ هل نيكيتا دوغين على قيد الحياة ؟ هل هو هنا ؟ فأجابه الرجل المقرفص :

ـ إنه أنا

واستوى على قدميه ، وداس سيجارته بعقب حذائه ، وأردف :

ـ ولكني لاأعرفك . من أنت ؟ ومن أين ؟

ومد وجهه الملتحي إلى الأمام ليتفحص الغريب الذي يرتدي معطفاً وقبعة عسكرية مدعوكة . فهتف فجأة في استغراب :

ـ ايليا! بونتشوك! من أين نبعت بحق الشيطان ، ياولدي العجوز ؟

وشد على يد بونتشوك المشعرة بيده الخشنة ، وانحنى عليه وقال بشيء من الهدوء :

ـ هؤلاء أصحابنا لا تخش شيئاً . كيف أتيت إلى هنا ؟ قل لي ، عليك لعنة الشيطان!

وصافح بونتشوك القوزاقيين الآخرين وأجاب بصوت غليظ مجهد ، كأنه صوت حديد لا جرس له :

ـ جئت من بتروغراد ، وكنت أبحث عنك في كل مكان . إن ثمة مهمات أمامنا . وعلينا أن نتحدث في الأمر . لقد سرني أن أجدك حياً أيها الأخ .

وابتسم ، فالتمعت أسنانه ناصعة في وجهه الأشهب العريض ذي الحاجبين الكبيرين ، وتألقت عيناه عن سرور مكتوم .

وتساءل القوزاقي الملتحي مستغرباً :

ـ تريد أن تحدثنا إذاً ، ولاتترفع عنا ، وأنت ضابط ؟ شكراً ياولدي ايليا ، بارك الله فيك ، فنحن لم نذق طعم المعاملة الطيبة . ـ كانت في صوته نبرة تنم عن مزاج ممراح . فأجابه بونتشوك بلهجة ودية مماثلة :

ـ حسبك مزاحاً الآن! لقد نمت لك لحية تصل إلى حزامك ومازلت تعبث!

ـ بوسعي أن أحلق لحيتي في الحال ، ولكن قل لي ماذا يجري في بتروغراد . هل بدأت الانتفاضات ؟

واقترح بونتشوك :

ـ فلنذهب إلى الداخل .

وارتقيا إلى الشاحنة ، ونخس دوغين أحدهم بقدمه ، وهمس :

ـ انهضوا ، يا أولاد! لقد وصل ضيف نافع اسرعوا!

تحركوا .

فتململ القوزاق ونهضوا . وامتدت يدان ضخمتان تنبعث منهما رائحة التبغ وعرق الخيل ، إلى وجه بونتشوك تتحسسانه باهتمام في الظلام ، وصاحا صاحبهما :

ـ بونتشوك ؟

ـ صحيح . وهل أنت تشيكوماسوف ؟

ـ نعم ، انني مسرور بلقائك أيها الصديق . هل أذهب وأحضر أولاد الرعيل الثالث ؟

ـ فكرة معقولة .

وجاء الرعيل الثالث كله تقريباً ، ماعدا اثنين لبثا مع الخيل . وتقدّم القوزاق نحو بونتشوك ومدوا اليه أيديهم القوية الخشنة ، منحنين عليه ، متفحصين وجهه الكبير والحزين بعض الشيء على ضوء الفانوس . وكانت ثمة نبرة رفاقية دافئة متماثلة في تحياتهم جميعاً .

وضجت الشاحنة بالرجال وأصبح الجو خانقاً . وتراقصت بقع الضياء على الجدران المصفحة ، وترنحت الظلال المشوهة وانتشرت ، وشع الفانوس بنور زيتي خلل الدخان .

وأعدوا له مقعداً قبالة الفانوس ، وتجمعوا حوله ، وقد قرفص القريبون منه على أعقاب أقدامهم ، ووقف الآخرون في حلقة مكتظة وتنحنح دوغين ، وقال :

ـ لقد تسلمنا رسالتك قبل أيام يا ايليا ، ولكننا كنّا نرغب في رؤياك واستشارتك فيما ينبغي أن نفعله ، إنهم يرسلوننا إلى بتروغراد .

ـ انها على هذه الشاكلة يا ايليا .

قال ذلك قوزاقي واقف قرب الباب . وقد تدلى قرط من شحمة أذنه المتغضنة ، وهو الشخص الذي أهانه لستنتسكي ذات مرة بمنعه من غلي الماء على الصاج ، وأردف :

ـ لقد جاءنا شتى المحرضين وحاولوا أن يقنعونا بعدم المضي إلى بتروغراد ، يطلبون منّا إن لا نحارب بعضنا وما إلى ذلك . وكنّا نصغي اليهم ، ولكننا لا نثق بهم كثيراً ، فهم ليسوا من قومنا . فقد يضعوننا في مأزق خطر دون أن ندرك ذلك . وإذا ما رفضنا الذهاب إلى بتروغراد فسوف يرسل كورنيلوف فرقته القوقازية ضدنا ، مما سيؤدي إلى إراقة الدماء أيضاً . ولكنّك قوزاقي مثلنا ، ونحن نثق بك أكثر من غيرك ، ونحن ممتنون لك لأنك كتبت

لنا وأرسلت الينا صحفاً... وفي الواقع ، كان الورق يعوزنا للف السجاير .

فقاطعه آخر مغضباً :

ـ بماذا تهرف يا ذا الرأس المتحجر ؟ أنت لا تجيد القراءة ، ومع ذلك تتكلم عنها . ولكننا لسنا جميعاً مثلك . لكأنما استعملنا الجرائد للسجاير فقط!

ـ كنا نقرأها من ألفها حتى يائها يا ايليا .

ـ يا لك من شيطان كذوب!

ـ « يعوزنا للف السجاير » يا له من أسلوب ظريف!

وحاول القوزاقي ذو القرط أن يستدرك ، وقال :

ـ كلا ، لم أعن ذلك أيها الأولاد . طبيعي أنا نقرأها أولاً...

ـ هل قرأتها أنت ؟

ـ لم يتسن لي أن أتعلم القراءة . ولكن ما أعنيه هو أننا نقرأها سوية ، ثم نستعملها للسجاير...

وابتسم بونتشوك ابتسامة مقتضبة وهو يحدق في القوزاق ووجد صعوبة في الكلام وهو جالس ، فنهض ، وأدار ظهره للفانوس وراح يتكلم بهدوء وهمة .

ـ ليس لديكم ماتفعلونه في بتروغراد . ولم تحصل هناك أية انتفاضة ولكن هل تعرفون لماذا يرسلونكم إلى هناك ؟ كي تطيحوا بالحكومة المؤقتة ومن يقودكم ؟ الجنرال القيصري كورنيلوف . وماذا يبتغي بعد أن يزيح كرنسكي ؟ أن يأخذ مكانه . استمعوا أيها القوزاق! إنهم يريدون أن يزيحوا النير الخشبي عن رقابكم ؟ ليضعوا آخر حديدياً مكانه! يجب أن تختاروا أهون الشرين . أليس كذلك ؟ فكروا في ذلك مع أنفسكم : ففي أيام القيصر كانوا يلطمون وجوهكم ويستخدمونكم في الحرب . وفي أيام كيرنسكي ماانفكوا يريدون منكم أن تحاربوا ، ولكنهم لن يستطيعوا أن يلوحوا بقبضاتهم أمام وجوهكم . ولكنكم ستجدون وضعاً مغايراً بعد زوال كيرنسكي ، عندما يتولى

البلاشفة زمام السلطة فالبلاشفة لا يريدون الحرب ومتى ما جاؤوا إلى الحكم حل السلام في الحال . أنا لست إلى جانب كيرنسكي فليأخذه الشيطان ، فإنهم كما يقال مُسحوا بمسحة واحدة!

وابتسم ، ثم مسح العرق عن جبينه بيده ، وواصل :

ـ ولكني أهيب بكم أن لا تريقوا دم العمال . وإذا استولى كورنيلوف على السلطة فسوف تخوض روسيا بدماء العمال حتى الركبة ، وسوف يكون من الصعب انتزاع السلطة من يده وإيداعها إلى الكادحين .

وظهر قوزاقي قصير يشبه بونتشوك في بدانته من الصفوف الخلفية وقال :

ـ انتظر لحظة يا ايليا .

وتنحنح الرجل وفرك يديه الطويلتين اللتين تشبهان جذور بلوطة قديمة غسلها المطر ، ونظر إلى بونتشوك بعينين ضاحكتين بمثل خضرة الأوراق اليانعة ولزوجتها وأضاف متسائلاً :

ـ لقد ذكرت شيئاً عن النير . ترى ما شكل النير الذي سيضعه البلاشفة على رقابنا ؟

ـ ماذا ، هل ستضعون أنتم أنفسكم نيراً على رقابكم ؟

ـ ماذا تعني ب« تضعون نيراً على رقابنا » ؟

ـ حسناً ، من سيأتي إلى الحكم في عهد البلاشفة ، أنت إذا انتخبوك ، أو دوغين أو هذا الولد الكبير ، سوف تكون حكومة منتخبة ، حكومة السوفييت فهمت ؟

ـ ولكن من سيكون على رأسها ؟

ـ ذاك الذي ينتخب . وإذا اختاروك فسوف تكون أنت على رأسها .

ـ هل هذا صحيح أم أنك تمزح يا ايليا ؟

وضحك القوزاق وجعلوا يتكلمون جميعهم في آن واحد وحتى الحارس الذي أنيطت به حراسة الباب ترك مكانه لحظة ليشاركهم .

ـ ولكن ماذا سيفعلون بالأرض ؟
ـ ألن يأخذوها منا ؟
ـ هل سينهون الحرب ؟ ربما كان مجرد كلام لنقترع لهم ؟
ـ قل لنا الحقيقة . نحن في ظلام هنا .
ـ لا يستطيع المرء أن يصدق الغرباء . وثمة أقاويل كثيرة تحوم حولنا...
ـ أمس جاء بحار ينتحب على كيرنسكي ، فلطمناه على رأسه وطردناه من الشاحنة . فصرخ الأحمق في وجوهنا قائلاً : « إيه ياأعداء الثورة! » .
ـ نحن لا نعرف ماذا تعني كلماتهم الطويلة .

وتلفت بونتشوك يمنة ويسرة متفحصاً القوزاق بعينيه ، وانتظر حتى هدؤوا . لقد زال شعوره الأول من عدم الثقة بنجاحه في مسعاه ، وتيقن أنه مهما حدث فسوف يتوقف القطار في نارفا لأنه يعرف أمزجة القوزاق . فعندما تطوع في اليوم السابق أمام لجنة الحزب لمنطقة بتروغراد لعمل الدعاية بين مفارز فرقة الدون الأعلى التي كانت تقترب من بتروغراد ، كان واثقاً من النجاح ، ولكنه عندما وصل نارفا ساورته الشكوك . كان يدرك أن عليه أن يتحدث إلى القوزاق باللغة التي يفهمونها ، وكان يخشى أنه قد لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً ، لأنه مذ غادر الجبهة منذ تسعة أشهر لم يختلط بغير العمال ، واستوعب في الحال وبصورة تامة عاداتهم وأساليبهم في الكلام . كان يحس وهو يتحدث اليهم أن كلمة واحدة تكفي للتعبير عن مقصده ، ولكن الأمر ليس كذلك هنا مع أبناء القوزاق ، فهو بحاجة إلى لغة كاد أن ينساها ، لغة الأرض السوداء ، وبحاجة إلى مرونة تحاكي مرونة السحلية وإلى حجة إقناع قوية . فلم يكن إذكاء اللهيب كافياً ، فهنا ينبغي أن تبقى النار تصطلي لتأتي على الخوف المزمن من الجهر بالتمرد ، وتهدم أسوار الجهل ، وتزرع الشعور في نفوس القوزاق بأنهم على صواب ، وتقودهم إلى الأمام .

ولكنه في بادئ كلامه مع القوزاق أحس بتلكؤ وتصنع في صوته ، كما لو كان هو نفسه يصغي إلى كلماته الباهتة وهاله مالمسه من ضعف في حجته ،

وأخذ يعذب نفسه ويعصر ذهنه عله يتفتق عن كلمات كبيرة ، كلمات ذات وزن يمكن أن تقتحم الحواجز وتقنع الآخرين . ولكن شفتيه لم تتمخضا إلا عن كلمات فارغة أشبه بفقاعات الصابون ، بينمت كانت تصطخب في ذهنه أفكار شاردة عقيمة ، وكان العرق يتصبب منه بشدة ، كان يتنفس بصعوبة ، ومضى يحدث نفسه «لقد ائتمنت على هذه المهمة الكبيرة ، وها أنا ذا أحطمها بنفسي . لا أستطيع رصف الكلمات... ماذا دهاني ؟ كان بوسع رجل آخر أن يتكلم أحسن مني ألف مرة . أوه إلى الجحيم ، يا لي من أبله! » .

وانتشله القوزاقي الذي سأله عن النير ، من عيه ذاك ، فهيأ الكلام الذي أعقب إجابته فرصة ليلم شتات فكره وأحس بدفق غير اعتيادي من القوة والغنى في اختيار كلمات ماضية واضحة بتارة . وتشجع ، وكتم انفعاله خلف مظهر ينم عن هدوء ، وإذ انهالت عليه الأسئلة عنيفة ثقيلة ، راح يدير النقاش كفارس ذلل حصاناً جامحاً .

ـ أخبرنا لماذا كان المجلس التأسيسي سيئاً ؟

وانهمر وابل الأسئلة : «لينينكم ، ألم يرسله الألمان إلى هنا ، أليس كذلك ؟... » . « كلا » . « إذاً من أين جئتم به ؟ » . «هل جئت يابونتشوك من تلقاء نفسك أم أنهم أرسلوك . » . «لمن سيعطون أرض القوزاق ؟ » . « ولماذا كانت الحياة تعيسة تحت ظل القيصر ؟ » . « أوليس المناشفة مع الشعب كذلك ؟ » . «لدينا مجلس عسكري خاص بنا وحكومة شعبية . ترى ما حاجتنا للسوفيات ؟ » .

لقد عالج الأسئة واحداً فواحداً . وانفض الاجتماع الصغير بعد منتصف الليل ، بعد أن تقرر دعوة السريتين لاجتماع عام في الصباح . وقضى بونتشوك الليلة في الشاحنة ، وأبدى تشيكاماسوف استعداده ليشاركه بطانياته . وعندما رسم القوزاقي علامة الصليب ، واضطجع ، نبه بونتشوك قائلاً :

ـ يبدو أنه لا يهمك المكان الذي تنام فيه... ولكن أرجو أن تعذرنا ، فقد

صرنا طعاماً للقمل . فلا تتكدر إذا ما لسعك . لقد سئمنا وضعنا حتى تركناه ينمو فيغدو بحجم بيض البط...

وتوقف لحظة ، ثم سأل بونتشوك بصوت خفيض :

ـ إلى أي قوم ينتسب لينين يا بونتشوك ؟ أعني أين ولد ، وأين ترعرع ؟

ـ لينين ؟ انه روسي .

ـ كلا ؟ .

ـ بالتأكيد ، روسي .

فقال تشيكا ماسوف بلهجة متعالية :

ـ كلا ، أيها الأخ ، أنت مخطىء في هذا! يبدو أنك لا تعرف عنه الكثير . هل تعرف من هو ؟ انه من دمنا . من قوزاق الدون ، وقد ولد في منطقة سالسكي ، قصبة فيليكوكنا جيسكايا... هل تفهم ؟ ويقال أنه كان مدفعياً في الجيش . ووجهه يليق بذلك : فهو يشبه القوزاق الجنوبيين ـ بعظام وجنتيه الكبيرة وعينيه .

ـ أين سمعت ذلك ؟

ـ سمعت القوزاق يتحدثون في ذلك مراراً فيما بينهم .

ـ كلا ، يا تشيكاماسوف . إنه روسي ، وقد ولد في مقاطعة سمبرسك* .

ـ لا أصدقك ، للسبب البسيط التالي . خذ بوغاتشوف ، ألم يكن قوزاقياً ؟ وستنكا رازين ؟ ويرماك تيموفييفيتش ؟ تلك هي المسألة! ليس هناك رجل قاد الناس الفقراء ضد القيصر إلا وكان قوزاقياً . وتقول أنت عنه أنه من مقاطعة سمبرسك . إنني أخجل عند سماع مثل هذا الكلام ، يا ايليا...

وتساءل بونتشوك وهو يبتسم :

---

* المدينة أوليانوفسك حالياً . المعرب

ـ إذاً ، فهم يقولون إنه قوزاقي ؟

ـ نعم ، وهو قوزاقي بالفعل ، سوى أنه لايقول ذلك الآن . وحالما أرى وجهه سأتيقن من ذلك .

وأشعل تشيكاماسوف سيجارة ونفث دخان تبغ خام حريف في وجه بونتشوك . وتنحنح متفكراً :

ـ لاشك أنه شيء مدهش ، وقد تشاجرنا حتى كدنا نتضارب من أجل ذلك . ولكن كما ترى ، لو كان لينين قوزاقياً مثلنا ، وأحد رجال المدفعية ، فمن أين جاءته المعرفة ؟ حسناً ، يقال أن الألمان قد أسروه في بداية الحرب ، فتعلم كل ذلك هناك ، ولكنهم تخوفوا عندما حرض عمالهم على الثورة وكسب مثقفيهم «انقشع عنا ، ياذا الرأس الكبير! » هكذا قال له الألمان . «انقشع إلى شعبك ، بحق المسيح ، فأنت تسبب لنا من المتاعب ما لم يكون بمقدورنا ايقافها » . وهكذا أرسلوه إلى روسيا لأنهم كانوا يخشون أن يحمل عمالهم على الثورة . آها! إنه لشديد المراس ، أيها الأخ!

نطق تشيكاماسوف الكلمات الأخيرة مباهياً ، وضحك جذلاً في الظلام وأضاف :

ـ لم يسبق لك أن رأيته أليس كذلك ؟ كلا ؟ شيء مؤسف . يقال أن له رأساً ضخماً ، وسعل وزفر من منخريه لولباً رمادياً من الدخان وأردف :

ـ ينبغي أن تلد الأمهات المزيد من أمثاله . سوف يطيح بأكثر من قيصر! كلا ، يا ايليا ، لا تحاول أن تناقشني . لينين قوزاقي . ولماذا تريد أن تشكك في ذلك ؟ إن رجالاً كأولاء لم تتمخض عنهم مقاطعة سمبرسك .

لبث بونتشوك صامتاً ، والبسمة على محياه . وقد طال به الوقت دون أن ينام ، فقد زحف القمل عليه ، ناشراً حكة حادة موجعة تحت قميصة . وتثاءب تشيكاماسوف وشرع يحك جنبه ، وقد طرد عنه النعاس صهيل حصان هائج . فظل يتقلب على جنبيه ولما أدرك والغيظ مستبد به أنه يقظ كل اليقظة ، جعل يفكر في اجتماع الغد . وحاول أن يتصور أي شكل ستتخذ مقاومة الضباط

وابتسم متجهماً . «لعلهم سيهربون إذا ما قاومهم القوزاق بصورة إجماعية ، ولكن من يدري . أيحسن بي أن أتكلم مع لجنة الحامية من باب الاحتياط » .
ولأمر ما تذكر حادثة وقعت في هجوم ١٩١٥ ، وكما لو سره أن تجد طريقها إلى ذاكرته ثانية ، شرع ذهنه يستجمع بالحاف شتات الذكرى : الوجوه والهيئة البشعة لجنود قتلى من روس وألمان ، نتف من كلام ، وآثار مشاهد الطبيعة أتى عليها الزمن وحال لونها ، وخواطر لم تجد من يعبر عنها ، وأصداء خافتة لقذف المدافع ولعلعة الرشاشات المعهودة وثرثرة أحزمتها ، وصداح الأنغام الجميلة حتى الألم ، ومعالم باهتة لفم امرأة أحبها ذات مرة ، ومرة أخرى آثار الحرب : الموتى ، الأكمات الواطئة حيث يدفن الجنود سوية...

وجلس وقال ، أولعله فكر في نفسه... «سأظل أحمل هذه الذكريات حتى الممات ، وكذلك سيحملها كل الذين عاشوا أيامها . لقد شوهت حياتنا كلها ، وحلت عليها اللعنة! تباً لهم...! تباً لهم! حتى الموت لايكفي لغسل جرائمهم» .

ثم تذكر لوشا الفتاة التي لها من العمر اثنتا عشرة سنة ، وهي ابنة صديق له كان عامل تعدين قتل في الحرب . كانا يعملان معاً في تولا . فذات مساء بينما كان يسير في أحد الشوارع وجد الفتاة ـ وهي طفلة نحيلة خرقاء ـ جالسة على مصطبة ، تدخن سيجارة وقد مدت ساقيها بوقاحة إلى الأمام . وكان وجهها ذليلاً ، وعيناها كليلتين ، وشفتاها المطليتان اللتان تخفيان مرارة في زاويتهما كانتا ناضجتين قبل الأوان . «ألا تعرفني أيها العم ؟» ـ قالت ذلك بصوت أجش وبابتسامة المحترفات ، ونهضت . ثم أجهشت ببكاء يائس كالأطفال ، حانية رأسها لاصقة إياه بساعد بونتشوك .

فصر على أسنانه وأنّ ، وكاد أن يختنق من الحقد الذي ملأ قلبه . وكان يدلك صدره الأشعر طويلاً ، وشفتاه ترتجفان وجلس يغلي صدره ، كأنما كان الحقد يغلي فيه مثل الحمم الساخنة ، يثقل عليه نفسه ويسبب له ألماً وخازاً تحت قلبه .

ولم يعاوده النوم إلا قبيل الصباح . وفي الفجر ذهب إلى لجنة عمال السكك وقد بدا أصفر مرهقاً أكثر من ذي قبل ، وأقنعهم بعدم إرسال القطار الذي يقل الجنود القوزاق إلى نارفا ، ثم بحث عن لجنة الحامية ليضمن مساندتها .

وعاد إلى القطار في الساعة الثامنة وهو يحس بجميع خلجاته برودة الصباح وقد عراه شعور غامض بالفرح لنجاحه المحتمل في مسعاه ، ولأشعة الشمس المتساقطة على سقف المخزن الصدئ ، ولصوت امرأة رقيق موسيقي . وكانت زخة ثرة من المطر قد تساقطت في الهزيع الأخير من الليل ، وكانت أرض الخطوط الحديدية الرطبة وقد خددتها آثار مسارب صغيرة ، وانبعثت منها رائحة ندية ولم تزل حفر قطرات المطر على سطحها ، وكأنها آثار جدري .

وفيما هو يدور حول الشاحنات اتجه نحوه ضابط يرتدي معطفاً وجزمة ملطخة بالطين . وتوقف كالميكوف وقد شع من عينيه السوداوين المائلتين برود ظاهر .

ـ النائب الضابط بونتشوك ؟ الا تزال مطلق السراح ؟ أعذرني فلن أقدم لك يدي...

وزم شفتيه بقوة وحشر يديه في جيبه . فأجاب بونتشوك هازئاً :

ـ لقد تعجلت بالكلام ، فلم يكن لديّ ميل لأن أمدّ لك يدي .

ـ ماذا تفعل هنا ؟ تنجو بجلدك ؟ أم...جئت من بتروغراد ؟ أنت لست مبعوثاً من الصديق كيرنسكي ؟

ـ أهذا استجواب ؟ .

انه محض فضول مشروع عن مصير هارب كان يوماً زميلاً .فهزّ بونتشوك كتفيه ، وقال مبتسماً :

ـ أستطيع أن أؤكد لك ، أنني لم آت مبعوثاً من كيرنسكي .

وتطلع كالميكوف إلى قامة بونتشوك المحدودبة بعض الشيء بنظرة رثاء وازدراء ، وقال :

ـ ولكنكم متحدون بالتأكيد كالأحبة الآن أمام الخطر . وعلى كل حال ، من وما أنت ؟ لا شارات على كتفيك ، وترتدي معطف جنود ، تاجر سياسة جوّال ؟ هل أنا مصيب فيما أقول ؟

واستدار على عقبيه ومضى دون أن ينتظر الجواب .

ووجد بونتشوك دوغين ينتظره في الشاحنة .

ـ أين كنت ؟ لقد بدأ الاجتماع .

ـ ماذا ؟ هل بدأ ؟

ـ نعم . لقد عاد هذا الصباح آمر سريتنا كالميكوف من بتروغراد ، ودعا القوزاق للاجتماع . وقد ذهب قبل لحظة ليتحدث إليهم .

ولبث بونتشوك بضع دقائق ليعرف متى أرسل كالميكوف إلى بتروغراد... فأخبره دوغين بأنه كان غائباً منذ شهر .

« أحد أعداء الثورة ، ارسله كورنيلوف إلى بتروغراد بحجة دراسة فن القصف ، ولا بد أنه من أتباعه المخلصين » ـ قال ذلك في نفسه فيما كان يسير مع دوغين نحو الاجتماع .

وخلف الحانوت كانت حلقة خاكية كثيفة من قمصلات القوزاق ومعاطفهم . وفي الوسط وقف كالميكوف على برميل مقلوب وقد أحاط به عدد من الضباط ، يصيح بعزم وقوة :

ـ ... نسير نحو نتيجة مظفرة . وهم يثقون بنا ، وسوف نكون عند حسن ظنهم ، وها أنذا أتلو عليكم برقية من الجنرال كورنيلوف .

وبسرعة لا مبرر لها أخرج ورقة مدعوكة من جيب قمصلته وهمس في اذن قومندان القطار .

وجاء بونتشوك ودوغين واختلطا بالقوزاق . وشرع كالميكوف يقرأ بطريقة تعبيرية لا تخلو من حماس :

ـ أعزائي القوزاق ، أيها الاصدقاء! أليس على جماجم أسلافكم ترامت رقعة الأمة الروسية ، وأصبحت روسيا أمة عظيمة بفضل بسالتكم الجبارة ،

ومآثركم المجيدة ، وتضحياتكم وبطولاتكم ؟ أنتم يا أبناء الدون الهادئ الأحرار ، ومحاربي الكوبان نهرنا الجميل ، ويا أبناء التيريك الثائر ، ويا نسور الأورال ، وأورنبرغ ، واستراخان ، وسميريتشنك ، وسهوب سيبيريا وجبالها . وعبير البيكال القصية ، والآمور والأوسوري ، لقد رفعتم على الدوام شرف ومجد راياتكم ، ان الأرض الروسية مليئة بالاساطير والأعمال البطولية لآبائكم وأجدادكم . وقد دنت الساعة لتهرعوا إلى انقاذ تربة وطنكم .

انني أتهم الحكومة المؤقتة بالتذبذب ، وعدم الأهلية وعدم القابلية على الحكم ، وبالسماح للألمان بالسيطرة على شؤون البلاد الداخلية ، كما حدث في حادث انفجار قازان ، حيث أصاب الخراب حوالي مليون قنبلة و١٢,٠٠٠ مدفع رشاش . كما أنني أتهم أعضاء معينين في الحكومة بالخيانة ، وبوسعي البرهنة على ذلك . فعندما حضرت اجتماعاً وزارياً في قصر الشتاء* في الثالث من آب ، أخبرني رئيس الوزراء كيرنسكي وسافنكوف بألا أفصح عن كل ما اريد لوجود أناس غير مخلصين بين أعضاء الحكومة . واضح اذا أن حكومة كهذه تقود البلاد إلى الدمار ، وأن حكومة كهذه لا يمكن أن تكون موضع ثقة ، ومن مثل هذه الحكومة لايمكن أن تنتظر روسيا الشقية الخلاص... . ولهذا السبب ، عندما طلبت الحكومة المؤقتة مني ، استرضاء للأعداء ، أن أستقيل من منصب القائد العام للقوات المسلحة ، رأيت أنا ، القوزاقي المخلص لشرفه وضميره ، أن أرفض هذا الطلب ، مؤثراً الموت في ساح المعركة على العار وخيانة الوطن الأم . أيها القوزاق ، يا فرسان الأرض الروسية! قطعتم على أنفسكم وعداً أن تهبّوا معي للدفاع عن الوطن الأم عندما أجد ضرورة لذلك ؟ ان تلك الساعة قد دقّت . ذلك أن أرض الأجداد على شفا الهاوية! ولن أرضخ لأوامر الحكومة المؤقتة ، ولأجل أن أنقذ روسيا الحرة ، سوف أقاوم الحكومة ومستشاريها عديمي

* قصر القياصرة الروس في بتربورغ (لينينغراد حالياً) .

الشعور بالمسؤولية الذين يبيعون البلاد . صونوا أيها القوزاق الشرف والعزّة ، وبرهنوا على بطولة شعبكم التي لا ضريب لها ، لتنقذوا الوطن والحرية التي حققتها الثورة ، أطيعوني ونفذوا أوامري! اتبعوني! ٢٨آب ١٩١٧ . القائد العام للقوات المسلحة

الجنرال كورنيلوف

وتريث كالميكوف وهو يطوي الورقة ، ثم هتف :

ـ ان عملاء البلاشفة وكيرنسكي يعيقون حركة قطعاتنا على الخطوط الحديدية . لقد تسلمنا تعليمات من قائد القوات المسلحة تقضي بالذهاب إلى بتروغراد على ظهور الجياد متى ما أصبح من الصعوبة بمكان السفر عن طريق السكك الحديد . وسوف نبدأ رحلتنا اليوم . استعدوا لمغادرة القطار .

واندفع بونتشوك إلى وسط الحلقة وهو يشق طريقه بصعوبة خلل الحشد ، ورفع صوته جهيراً دون أن يقترب من جمع الضباط :

ـ أيها الرفاق القوزاق! لقد أرسلني اليكم عمال وجنود بتروغراد . ان ضباطكم يقودونكم لمحاربة اخوانكم ، لقهر الثورة . فاذا أردتم أن تهاجموا الشعب ، واذا اردتم أن تعيدوا الملكية ، فاتبعوهم! ولكن عمال وجنود بتروغراد ينتظرون منكم ان لا تفعلوا فعلة قابيل . وهم يبعثون اليكم تحياتهم الاخوية الحارة ، ويأملون أن يجدوا فيكم حلفاء لا أعداء...

ولم يسمح له بالاستمرار . صخب لغط يعز عن الوصف ، وكادت عاصفة الهتافات أن تطيح بكالميكوف من على البرميل .

ولكنه خطا نحو بونتشوك ، ثم تراجع بضع خطوت واستدار نحو القوزاق :

ـ أيها القوزاق! لقد فر نائب الضابط بونتشوك من الجبهة في العام الماضي ، وأنتم تعرفون ذلك . فهل يسعنا أن نصغي إلى هذا الجبان الخائن ؟

وطغى على صوته جئير العقيد سوكين ، آمر السرية السادسة :

ـ القوا القبض على هذا الوغد! كنّا نريق دماءنا بينما كان يختبئ في المؤخرة! القوا عليه القبض!
ـ انتظر لحظة أنت والقاؤك القبض!
ـ دعوه يتكلم!
ـ لا تكمّ فم غيرك! ليقل هو رأيه!
ـ القوا القبض عليه!
ـ نحن لا نريد هاربين من الجيش!
ـ هيا ، يا بونتشوك! تكلّم!
ـ فليسقطوا!!
ـ أعطهم درساً يا بونتشوك ، أعطهم درساً! أصبحت شجى في حلوقهم!
وارتفعت جوقة من الأصوات المتضاربة بين القوزاق . واعتلى البرميل قوزاقي حاسر الرأس مديد القامة ، وهو عضو في لجنة الكتيبة الثورية .
وبكلمات نارية طلب من القوزاق ألا يطيعوا أوامر الجنرال كورنيلوف ، خائن الثورة ، وتكلم عن النتائج الوخيمة لمحاربة الشعب . وفي خاتمة حديثه التفت إلى بونتشوك ، وصاح :
ـ وأنت أيها الرفيق ، لا تظن أننا نزدريك كما يفعل الضباط . نحن مسرورون لرؤيتك ، ونحترم فيك ممثلاً للشعب ، ولأنك لم تبصق على القوزاق عندما كنت ضابطاً ، بل كنت معهم كالأخ . ولم نسمع منك كلمة فظة مطلقاً ، ولا تعتقد أننا ، نحن الجهلة ، لا نقدّر المعاملة الطيبة . فحتى القطيع يفهم الكلمة الطيبة ، فكيف بنا نحن بني البشر . اننا نرحب بك ، ونرجو منك أن تخبر عمال بتروغراد أننا لن نرفع يداً ضدهم .
وعلا هدير من هتافات مثل قرع الطبول . ارتفع عالياً ، ثم خفت ببطء ، وتلاشى .
وقفز كالميكوف ثانية إلى البرميل ، وراح يترنّح بقوامه الوسيم نحو القوزاق ويشمّر بيديه . وجعل يتكلّم وهو شاحب يلهث عن مجد وشرف

الدون ، وعن رسالة القوزاق التاريخية ، وعن الدم الذي أراقوه ضباطاً وجنوداً .

وأعقب كالميكوف قوزاقي له شعر حائل اللون . ولكن صياح الجمهور طغى على تهجّمه المحموم على بونتشوك ، وسحبوه من على البرميل . وفي الحال قفز تشكا ماسوف . ونعق وهو يلوح بكلتا يديه إلى الأسفل كمن يحطب جذعاً :

ــ لن نذهب! لن نترك القطار! يقول كالميكوف ان القوزاق وعدوا بمساعدة كورنيلوف ، ولكن من طلب منّا هذا الشيء ؟ اننا لم نعد كورنيلوف بشيء! ان ضباط تحالف القوزاق هم الذين اعطوا الوعود . لقد هز الجنرال كريموف ذيله ، اذا فليساعده هو .

وتواثب الخطباء واحداً بعد الآخر على البرميل . وكان بونتشوك واقفاً محني الرأس ، يعلو الاصفرار المرضي وجنتيه والدماء تضج في عروق وجهه ورقبته . كان الجو مكهرباً . كان محض تسرع طفيف كفيلاً بأن يتمخّض عن اراقة دماء . ولكن جنود الحراسة جاؤوا دفعة واحدة ، فترك الضباط القوزاق الاجتماع .

وبعد نصف ساعة هرع دوغين مهرولاً إلى بونتشوك :

ـ ماذا نفعل يا ايليا ؟ ان كالميكوف يعد شيئاً ما . لقد أفرغوا المدافع الرشاشة ، وأوفدوا رسولاً على ظهر جواد إلى مكان ما .

ـ هيا! اجمع عشرين قوزاقياً أو ما اليهم . اسرع!

وازاء عربة الضباط كان كالميكوف وثلاثة ضباط أخرين يحملون الخيل مدافع رشاشة . فتقدم نحوهم بونتشوك بخطى سريعة ، ونظر إلى القوزاق خلفه ، ومدّ يده إلى جيب معطفه ، وسحب مسدساً جديداً معتنى بتنظيفه من النوع الذي يحمله الضباط ، وصاح :

ـ كالميكوف ، أنت رهن الاعتقال! ارفع يديك...

ووثب كالميكوف بعيداً عن الحصان ، وانحنى ليسحب مسدسه من بيته . الا أن طلقة مرقت فوق رأسه ، وكرر بونتشوك بصوت ثقيل ينذر بالسوء :

ـ ارفع يديك!

وارتفع زناد مسدسه ببطء إلى وضعية نصب نصفي . فراقبه كالميكوف بعينين ضيقتين ، ورفع يديه ببطء مرتعش الأصابع .

وسلم الضباط أسلحتهم مرغمين .

وتساءل نائب ضابط شاب من حملة الرشاشات باحترام :

ـ هل يجب أن نسلّم سيوفنا ؟

ـ نعم .

وأنزل القوزاق الحمولة عن الخيل وجاءوا بالرشاشات إلى داخل الشاحنة .

وقال بونتشوك لدوغين :

ـ ضع على هؤلاء حراسة . أما أنت يا تشكاماسوف ، فألق القبض على الضباط الآخرين وآت بهم إلى هنا ، وسآخذ أنا ودوغين كالميكوف إلى لجنة الحامية الثورية . أيها الكابتن كالميكوف ، أخط إلى الأمام رجاء!

ـ عمل بارع... بارع! ـ قال أحد الضباط بنبرة اعجاب ، وهو يقفز إلى الشاحنة ويرى إلى بونتشوك ودوغين وكالميكوف وهم يسيرون .

ـ ايها السادة! ياللعار ، أيها السادة! لقدتصرفنا مثل الأطفال! فلم يفكّر أحد في اطلاق النار على ذلك النذل! كان ينبغي أن نلقنه درساً عندما رفع مسدسه بوجه كالميكوف ، فينتهي كل شيء .

قال ذلك العقيد سوكين وهو ينظر إلى بقية الضباط ساخطاً ، ثم راح يبحث عن سيكارة في علبته بأصابع مرتجفة .

وألمح ضابط شاب من حملة الرشاشات معتذراً :

ـ كان هناك منهم رعيل بأكمله ، بوسعهم إبادتنا .

وأشعل الضباط السكاير بصمت ، وراحوا يتبادلون النظرات بين آنٍ وآخر . لقد أذهلتهم السرعة التي تصرف بها بونتشوك .

ولبضع خطوات مشى كالميكوف دونما كلام ، ولكنّه كان يعض ذؤابة شاربه السوداء . والتهبت وجنته اليسرى البارزة العظم وكأنها قد صفعت وكان المارة يتوقفون ويحدّقون دهشين ويتهامسون مع بعضهم . وكانت سماء ذلك المساء غائمة فوق المدينة . ورقدت أوراق البتولا التي جردها آب المارق مثل سبيكة حمراء على صفحة الطرق . وكانت الغربان تحوم حول قبة الكنيسة الخضراء . وخلف المحطة ، خلف الحقول المعتمة ، هبط المساء بارداً ، ولم تزل تُرى صوب الجنوب غيوم بيضاء ـ رمادية ، ممزقة ، تندفع من نارفا إلى بسكوف ولوغا . وعبر الحدود غير المنظورة ، زحف الليل بظلاله .

وعند المحطة استدار كالميكوف وبصق في وجه بونتشوك ، وقال :

ـ نذل...

وزاغ بونتشوك عن البصاق ، ورفع حاجبيه . واستحثته أصابعه ليمسك المسدس . ولكنه كبح جماح نفسه وأمر الضابط باقتضاب أن يواصل المشي .

واستأنف كالميكوف السير وهو يصب لعناته ويرسل سيلاً من السباب . ويتوقف بين حينٍ وآخر ثم يلتفت نحو بونتشوك ويصرخ :

ـ أنت خائن! وسوف تدفع ثمن ذلك!

وكان بونتشوك يستحثه مراراً وتكراراً قائلاً :

ـ هيا! رجاء...

ويقف كالميكوف مرة أخرى ويكوّر قبضتيه ، ويهدر مثل الحصان الجامح . ثم اقتربا من صهريج الماء . وصرخ كالميكوف وهو يطحن بأسنانه :

ـ لستم حزباً ، بل عصابة من حثالة المجتمع . من هم قادتكم ؟ هيئة الأركان الالمانية! بلاشفة... ها ها! هجناء! ان حزبكم يمكن أن يُشترى مثلما تشترى العاهرات . أوغاد! أوغاد ينبغي إبادتهم...! لقد خنتم أرض الآباء! لو كان بمقدوري لعلقتكم على شجرة واحدة... . ولكن الوقت سيحين . لم يبع

لينينكم روسيا بثلاثين ماركاً المانياً ، بل أخذ مليوناً كاملاً ، لا أقل... وأخفى نفسه... يا له من مجرم!

وهتف بونتشوك في الحال وهو يلهث بكلماته :

ـ قف عند الحائط!

فبدا الاضطراب على دوغين :

ـ ايليا! بونتشوك! انتظر لحظة! ماذا أنت فاعل ؟ قف!

ولاح وجه بونتشوك أزرق شوهه الغيظ ، ووثب على كالميكوف وصفعه بقوة على صدغه . وداس على القبعة التي طارت من على رأس الضابط ، وسحب الأسير نحو جدار صهريج الماء الآجري القاتم .

ـ قف!

وهدر كالميكوف وهو يقاومه :

ـ ماذا ستفعل... ؟ أنت... لن تجرؤ... هل تجرؤ على ضربي!

وعندما التصق ظهره بالحائط ، استقام ، وأدرك كل شيء في الحال .

ـ إذاً ، فسوف تقتلني!

وخطا خطوة إلى الأمام ، وفتح أزرار معطفه بخفّة .

ـ ارمِ ، يالبن الخنزير! ارمِ...! وانظر كيف يموت الضباط الروس...! أنا أقف بوجه الموت...

وأصابته الطلقة في فمه ، وتردد صدى الإطلاقة حول صهريج الماء وخمش كالميكوف رأسه بيده اليسرى ، وترنّح ، ثم سقط . وقوّس ظهره ، وبصق أسناناً ملوثة بالدم على صدره ، ولعق شفتيه بلسانه ، ولم يكد يلمس ظهره الأرض الندية حتى أطلق عليه بونتشوك ثانية . فتشنجت أوصال كالميكوف وارتعشت ، وانحنى على جنبه ، ثم سقط رأسه على صدره كالطير الوسنان ، وشهق .

ابتعد بونتشوف . فلحق به دوغين .

ـ ايليا... لماذا أطلقت عليه النار يا بونتشوك ؟

فامسك بونتشوك بكتفيه ، وسمّر عينيه بعيني القوزاقي ، وقال بلهجة رقيقة هادئة بشكل غريب :

ـ إمّا نحن أو هم! وليس هناك طريق وسط . الدم بالدم . فهمت ؟ ان أشخاصاً مثل كالميكوف ينبغي أن يزاحوا ، يسحقوا كالأفاعي . كما يجب أن يرمى أولئك الذين يتوجعون عليهم .

أفهمت ؟ علام تتوجع ؟ اجمع شتات نفسك! كن صلباً! ولو كنّا بيد كالميكوف القذرة ، لكان قد رمانا دون أن يرفع السيكارة من فمه ، وأنت... . انما أنت طفل لا يعرف غير البكاء!

بيد أن دوغين هزّ رأسه واصطكت أسنانه ، وفقدت قدماه ، في جزمتهما المتسخة ، حاسة الاتجاه .

وسارا في الشارع المهجور دونما كلام . والتفت بونتشوك إلى الوراء . كانت الغيوم الداكنة السائرة صوب الشرق تزيد واطئة في السماء ، ومن خلال فجوة بين السحاب أطل القمر شاحباً مغسولاً بالمطر كأنه عين محولة خضراء ، وفي زاوية وقف جندي وامرأة على كتفيها شال أبيض ملتصقين مع بعضهما . كان الجندي يعانق المرأة ويسحبها اليه ، ويسرّ لها بشيء . ولكنها دفعته من صدره بيديها وابتعدت برأسها عنه وهمهمت بنبرة مختنقة :« لا أصدّقك! لا أصدّقك! » ثم انطلقت من شفتيها ضحكة فتية ناعمة .

١٨

في الحادي والثلاثين من آب أطلق الجنرال كريموف الرصاص على نفسه حين استدعاه كيرنسكي إلى بتروغراد .

ثم أخذ ممثلو وحدات جيش كريموف وقوادها يتوافدون على قصر الشتاء ليعلنوا ولاءهم . وأحنى الرجال الذين كانوا إلى وقت قريب ماضين للانتفاض على الحكومة المؤقتة هاماتهم ومسحوا أذيالهم أمام كيرنسكي ، مؤكدين له

ولاءهم التام . وكان جيش كريموف يعالج سكرات الموت بعد أن تحطمت معنوياته . وكانت بعض القطعات ماتزال تزحف على بتروغراد بفعل الاستمرارية ليس الا ، ولكن لم يبق للحركة أي هدف بعد ، لأن تمرّد كورنيلوف كان في رمقه الأخير ، وقد همد أوار الانفجار الرجعي ، وأصبح حاكم البلاد الوقتي ـ والحق أنه لم يعد لين الملمس ـ يتبختر كنابليون ، ويتكلم في اجتماعات الحكومة عن « اشاعة الاستقرار السياسي في جميع أنحاء روسيا » .

وقبل انتحار كريموف بيوم عيّن الجنرال أليكسييف قائداً للقوات المسلحة . ولكن أليكسييف الذي يعرف كيف يحسب للأمور حسابها ، رفض في البدء رفضاً باتاً المنصب الذي عيّن له ، ادراكاً منه لطبيعة مركزه المواربة ، غير أنه وافق بعد ذلك بدافع وحيد ، هو رغبته في تخفيف عقوبة كورنيلوف والذين اشتركوا معه بشكل من الأشكال في تنظيم عصيانه المعادي للحكومة . واتصل اليكسييف بكورنيلوف اتصالاً هاتفياً مباشراً في مقرّه ، ليطمئن من موقف القائد السابق إزاء تعيينه ووصوله الوشيك . وقد استطالت المفاوضات متقطعة بين حينٍ وآخر ، حتى ساعة متأخرة من الليل .

وفي اليوم نفسه عقد كورنيلوف مؤتمراً لضباط أركانه ومساعديه . فكانت الأكثرية إلى جانب مواصلة الحركة .

والتفت كورنيلوف إلى لوكومسكي الذي ظل صامتاً خلال النقاش :

ـ هل ستدلي برأيك يا ألكسندر سيرغييفتش ؟

فأوضح لوكومسكي بعبارات متحفظة ولكنها جازمة ، أنه ضد استمرار الكفاح من أجل السلطة . فقاطعة كورنيلوف بحدّة :

ـ الاستسلام اذاً ؟

فهز لوكومسكي كتفيه ، وقال :

ـ ان الظروف تفصح عن نفسها .

واستمر النقاش نصف ساعة أخرى . كان كورنيلوف خلال ذلك صامتاً وهو يبذل جهداً جهيداً للسيطرة على نفسه . ثم فضّ الاجتماع واستدعى

لوكومسكي بعد ساعة . وقال له :

ـ أنت على حق يا ألكسندر سيرغييفتش .

وطق أصابعه وقال بلهجة مهمومة وهو ينظر جانباً بعين مدلهمّة كليلة :

ـ ان الاستمرار في المقاومة ضرب من الجنون والاجرام .

وجلس ينقر على المنضدة بأصابعه وبدا وكأنه يصغي إلى شيء ما ـ ربّما إلى أفكاره الشاردة كالفئران ـ وتساءل :

ـ متى يصل أليكسييف ؟

ـ غداً .

وفي اليوم الأول من أيلول وصل أليكسييف إلى مقر القيادة .

وفي مساء اليوم نفسه اعتقل كورنيلوف ، ولوكومسكي ، وررومانوفسكي حسب تعليمات الحكومة المؤقتة .

وقبل أن يرسل القادة المعتقلون الى فندق متروبول ، ليوضعوا تحت الحراسة هناك ، أجرى ألكسييف مقابلة شخصية مع كورنيلوف دامت عشرين دقيقة . ثم غادر الغرفة ، هو يهتز من أعماقه ، ويكاد لا يسيطر على نفسه . وعندما حاول رومانوفسكي أن يواجه كورنيلوف اعترضته زوجة الأخير قائلة :

ـ آسفة ، فلقد طلب منّي ألا أسمح لأي انسان بالدخول مطلقاً .

فألقى رومانوفسكي إلى وجهها نظرة خاطفة وعاد على عقبيه ، يطرف بانفعال بعينيه .

وفي اليوم التالي في بيرديتشيف ألقي القبض على القائد العام للجبهة الجنوبية الغربية الجنرال دينكين ، مع الجنرالات ماركوف ، وفانوفسكي ، وأرديلي .

وهكذا في بيخوفو ، في ثانوية البنات النبيلات ، انتهى تمرّد كورنيلوف نهاية غير مظفرة ، كما شاء لها التاريخ . ولكنها تمخضت عن تمرد جديد ، ذلك أن البوادر الأولى لخطط الحرب الأهلية القادمة والهجوم الموسّع على الثورة كانت قد أعدّت في الواقع في « أيام كورنيلوف » .

١٩

في صباح يوم باكر من أيام أكتوبر الأخيرة تسلم الرئيس لستنتسكي تعليمات من آمر الكتيبة تقضي بأن يمضي بسريته مشياً على الأقدام إلى ساحة قصر الشتاء . فأصدر الأوامر اللازمة لرئيس العرفاء ، وارتدى ملابسه على عجل . واستيقظ الضباط الآخرون وهم يتثاءبون ويلعنون ويسألون :

ـ ما سبب ذلك ؟

ـ البلاشفة!...

ـ ايها السادة! من أخذ خراطيشي ؟

ـ إلى أين ننطلق ؟

ـ هل تسمعون ؟ يطلقون النار!

ـ من يطلق النار ، عليك اللعنة! هذه هلوسة ، لا غير!

وذهبوا إلى الباحة . ثم انتظمت السرّية في هيئة رعائل . وقادهم لستنتسكي في مسيرة سريعة إلى الشارع . كان شارع نيفسكي مهجوراً . وكانت تتناهى إلى الاسماع اطلاقات من بعيد بين الحين والآخر . وكانت سيارة مسلحة تدور حول ساحة قصر الشتاء ، وكان طلاب الكلية العسكرية في الحراسة . وخيّم على الشوارع صمت صحراوي . وعند أبواب القصر التقى القوزاق بمفرزة من طلاب الكلية العسكرية وضباط السرّية القوزاقية الرابعة . وانتحى أحدهم ، وهو آمر السرية ، بلستنتسكي جانباً وقال له :

ـ هل جئت بكامل أفراد السرية معك ؟

ـ نعم ، ولِمَ ؟

ـ لقد رفضت السرايا الثانية والخامسة والسادسة المجيء ، ولكننا جئنا بمفرزة الرشاشات معنا . كيف حال قوزاقك ؟

فأتى لستنتسكي بحركة مقتضبة من يده وقال :

ـ لا يركن إليهم! ولكن ماذا عن الكتيبتين الأولى والرابعة ؟

ـ ليستا هنا . لن تأتيا . أنت تدري أن من المتوقع أن يقوم البلاشفة بهجوم اليوم . الشيطان يدري ماذا ينتظرنا .

وتأوه باكتئاب وأضاف :

ـ ليتني كنت الآن في الدون بعيداً عن كل هذا...

وقاد لستنتسكي سريته إلى باحة القصر . وكوّم القوزاق أسلحتهم وأخذوا يتجولون في الساحة الفسيحة ، في حين تجمّع الضباط في أحد الأركان يدخنون ويتحدثون .

وبعد ساعة وصلت كتيبة من طلاب الكلية العسكرية وفوج النساء . وأخذ طلاب الكلية العسكرية مواقعهم مع رشاشاتهم في ممر القصر . واحتشدت النساء في الباحة . وتجمّع القوزاق حولهن وجعلوا يطلقون نكات نابية ، وصفع عريف احدى النساء على ظهرها وقال :

ـ انك تصلحين لانجاب الأطفال ، يا خالة ، وليس للتدخل في شؤون الرجال .

فردّت عليه «الخالة» الصدوف بصوت عميق :

ـ احبل أنت بالأطفال!

فقال توكوفنوف وهو من المؤمنين القدامى ، وذو كلف بالجنس اللطيف ، ممازحاً النساء المجندات :

ـ ايه يا بنات ، ما لكنّ وهذا .

ـ هنّ بحاجة إلى سلخ جلودهن ، العاهرات!

ـ ما أروعهن من جنود!

ـ لماذا لا يبقين في بيوتهن ، يعملن شيئاً أفضل من هذا ؟

ـ هن من الأمام يماثلن الجنود ، أمّا من الخلف فهنّ أشبه بقديس ، أو بشيء آخر لا يعلمه الا الشيطان ، يثرن فيك الرغبة لبصاق!

ـ أنت أيتها المغوارة! هزي عجزك قليلاً وإلا هززته لك!

وقهقه القوزاق عالياً . ولكن أمزجتهم المرحة تبخرت عند اقتراب

الظهيرة . وتوزعت النساء فصائل ، وحُصّنت الأبواب بجذوع كبيرة من خشب الصنوبر . وكانت تقودهن امرأة ضخمة ذات جرم رجولي ، تحمل ميدالية القديس غيورغي على معطفها الذي يناسبها . وأخذت السيارة المسلحة تدور حول الساحة أكثر من ذي قبل ، ونقل تلامذة الكلية العسكرية صناديق ملأى بالخراطيش وأحزمة الرشاشات .

ـ حسناً ، أيها الفتية ، لقد زُجّ بنا في المعمعان .

ـ الجو يوحي بالقتال .

ـ علام جاؤوا بك إلى هنا إذاً ؟ لتنشب ظفرك بالنساء ؟

وتجمع حول لاغوتين رهط من الرجال من منطقته يتحدثون عن شيء ما . واختفى الضباط ، ولم يبق في الباحة غير القوزاق والنساء . وكان ثمة عدد من الرشاشات المهجورة قائماً عند البوابات . وقد التمعت دروعها الندية .

وبدأت السماء ترذّ عند الغروب . وشرع القوزاق يتذمرون لأنهم تركوا بلا طعام .

ـ أين لستنتسكي ؟

ـ انه في القصر ولن يدعنا طلاب الكلية العسكرية ندخل إلى هناك .

ـ يحسن بنا أن نرسل أحدهم ليأتي بمطبخ الميدان .

وأرسل رجلان . وقد نصحهما لاغوتين قائلاً :

ـ لا تأخذا بندقيتيكما خشية أن ينتزعوهما منكما .

وانتظر القوزاق بضع ساعات أخر ، دون أن يبدو أثر لمطبخ الميدان ولا الرسولين . واتضح فيما بعد أن المطبخ قد أعاده على أعقابه جنود كتيبة أخرى . وعندما حلّ الغسق استلقى فوج النساء المتجمّع أمام الأبواب ، في خط طويل خلف الجذوع ، ورحن يطلقن النار عبر الساحة . ولم يسهم القوزاق في هذا ، بل جلسوا يدخنون وقد اشتد بهم السأم . وأخيراً جمع لاغوتين السرية أمام الحائط ، وخاطب الجمع وهو يراقب نوافذ القصر متوجساً :

ـ اليكم حقيقة الموقف ، أيها القوزاق! لا معنى لبقائنا هنا . يجب أن نذهب وإلا فسوف نكابد خسارة بلا مبرر . سوف ينسفون القصر ، وأين سيكون مصيرنا بعد ذلك ؟ لقد اختفى الضباط عن الأنظار... وهل يتحتّم علينا أن نبقى هنا لنموت ؟ لنعد إلى أهلينا . علام نحك ظهورنا بهذا الحائط ؟ وأمّا بشأن الحكومة المؤقتة... . فأي خير حققته لنا ؟ ما رأيكم أيها القوزاق ؟

ـ اذا خرجنا من الباحة فسوف يرمينا البلاشفة برشاشاتهم .

ـ سوف يريقون دماءنا .

ـ لماذا يريقون دماءنا ؟

ـ فكر في ذلك بنفسك .

ـ كلا ، فلنبق هنا حتى النهاية .

ـ نحن هنا كالخراف تنتظر القصّاب في الحظيرة .

ـ افعلوا ما تشاءون ، أمّا رعيلنا فإنه سوف يخرج .

ـ ونحن ذاهبون أيضاً!

ـ ارسلوا رجالاً إلى البلاشفة . ليتركونا وشأننا ونتركهم وشأنهم .

وجاء قوزاق السريتين الأولى والرابعة وانضموا إلى الاجتماع ،

وبعد فترة وجيزة من النقاش خرج من الباب ثلاثة قوزاق ، واحد من كل سرية . ثم عادوا بعد فترة وبرفقتهم ثلاثة بحارة . ووثب البحارة فوق متراس الجذوع وحثوا الخطو عبر الباحة . ثم التحقوا بالقوزاق فرحّبوا بهم . واندفع أحدهم وسط الحشد ، وهو بحار شاب وسيم له عذاران أسودان ، وقد كان معطفه مفتوحاً وقبعته منداحة إلى الوراء

ـ أيها الرفاق القوزاق! لقد جئنا ، نحن ممثلي الاسطول البلطيقي الثوري ، لنعرض عليكم مغادرة قصر الشتاء . فيم تدافعون عن حكومة برجوازية عدوة لكم ؟ فليدافع عنهم أبناؤهم البرجوازيون ، طلاب الكلية العسكرية! لم يأت جندي واحد ليدافع عن الحكومة المؤقتة ، وقد انضم إلى صفوفنا اخوتكم من

الكتيبتين الأولى والرابعة . ليقف كل من يريد الذهاب معنا ، إلى اليسار .

وتقدم عريف من السرية الأولى إلى الأمام وقال :

ـ انتظر لحظة . أيها الأخ! سوف نذهب عن طيب خاطر ، ولكن ماذا لو بدأ البلاشفة بإطلاق النار علينا ؟

ـ أيها الرفاق! باسم لجنة بتروغراد العسكرية الثورية نعدكم بأنكم ستغادرون المكان بأمان تام . ولن يمس أحد بسوء .

وتقدّم بحار أخر بدين مجدور الوجه ووقف مع رفيقه ذي العذارين السوداوين . وتفحص القوزاق وهو يحرك ببطء رقبته الغليظة ، التي تشبه رقبة الثور ، ثم ضرب قميصه المنتفخ المزرر باحكام بقبضة كفه وقال :

ـ سوف نذهب نحن معكم! لا لزوم لوساوسكم يا أولاد ، فلسنا أعداءكم ، وليس شغيلة بتروغراد أعداء لكم . ان أعداءكم هم أولئك...

وأشار بإبهامه صوب القصر وكشّر بابتسامة عن أسنان متراصة حادة . وانتابت القوزاق موجة تردد . واقترب عدد من أفراد الفوج النسائي ووقفن ينصتن هنيهة ، ثم عدن إلى البوابات ، فهتف في أثرهن قوزاقي ملتح :

ـ أنتن أيتها النسوة ، ألا تأتين معنا ؟

وقال لاغوتين بثبات :

ـ احملوا بنادقكم وتحركوا .

فتناول القوزاق أسلحتهم واصطفوا . وسأل أحد حاملي الرشاشات البحار ذا العذارين الأسودين :

ـ هل نأخذ الرشاشات معنا ؟

ـ نعم ، لا تتركوها لطلاب الكلية العسكرية .

وفي اللحظة التي كان القوزاق على وشك مغادرة الساحة ، ظهر ضباطهم ، فوقفوا متأملين يحدقون في البحارة . وبدأت السرايا تسير في طريقها إلى الخارج ، فسارت مفرزة الرشاشات مع أسلحتها في المقدمة . وعلا صرير العجلات فوق البلاط الندي .

وذهب البحار ذو السترة مع الرعيل الأمامي للسرية الأولى . فشمّر قوزاقي طويل أشقر الحاجبين عن ذراعيه وقال بلهجة يشوبها الشعور بالإثم :

ـ أنت لا تعتقد أننا أردنا الذهاب ضد الشعب أيها الأخ ، أليس كذلك ؟ لقد جاءوا بنا إلى هنا خدعة ، ولو علمنا لما جئنا .

وهز رأسه بقوة ، وأضاف :

ـ صدقني ، لما جئنا! والله شهيد على ما أقول!

واتخذت السرية الرابعة موقعها في المؤخرة ، وتوقف القوزاق عند البوابة ، حيث تجمع الفوج النسائي بكامله في كتلة متراصة .

وتسلق قوزاقي ممتلىء الجسم المتاريس ، وهتف قائلاً وهو يهز اصبعه المتسخ بحركة دالة على محاولة الإقناع :

ـ انصتن اليّ أنتن! نحن خارجون ، ولكنكن باقيات هنا لحماقتكن النسائية . حسناً اذاً ، اياكن والغدر! اذا شرعتن بإطلاق النار علينا من الخلف فسوف نعود ونجعل منكن لحماً مفروماً .

أواضح هذا ؟ حسناً اذاً إلى اللقاء .

ثم قفز من على المتراس وهرول ليلحق برعيله ، متلفتاً بين الحين والآخر إلى الوراء . ولم يكد القوزاق يصلون وسط الساحة حتى التفت واحد منهم إلى الوراء وصرخ بانفعال :

ـ انظروا أيها الأولاد! هناك ضابط يركض وراءنا!

وأدار عديد من الرجال رؤوسهم . كان ضابط مديد القامة يهرول عبر الساحة ، ممسكاً بقبعته ، ويلوح بيده :

ـ انه أتارشيجوف من السرية الثالثة .

ـ من ؟

ـ طويل القامة ذو الشامة على جفنه .

ـ اذاً فهو يريد المجيء معنا .

ـ انه شاب طيب!

كان أتار شيجيكوف يركض مسرعاً وراء السرية ، وقد اختلج وجهه بابتسامة . فلوّح القوزاق بأيديهم وضحكوا .

ـ هرول أيها الرئيس! أسرع!

وانبعث من أبواب القصر صوت اطلاقة وحيدة جافة . فبسط أتار شيجيكوف يديه ، وتعثر ، ثم سقط على ظهره ، وجعل يخبط بساقيه ، ويحاول النهوض . وكما لو تلقت السرية أمراً ، استدارت وواجهت القصر . وصوب حاملو الرشاشات رشاشاتهم نحو البوابات فتعالت لعلعة أشرطة الخراطيش . ولكن أحداً لم يلح خلف جذوع الصنوبر . لعل الاطلاقة افلحت في ابعاد الضباط والنساء الذين كانوا محتشدين هناك قبل دقيقة . ثم سرعان ما اصطفت السرية من جديد وسارت إلى الخارج بخطوات سريعة .

ولحق بهم قوزاقيان من الرعيل الأخير كانا قد رجعا إلى أتار شيجيكوف ، وهتف أحدهم بصوت عال لتسمعه السرية بكاملها :

ـ لقد أصابوه تحت الكتف الأيسر . لقد قضي عليه! وراحت خطوات القوزاق ترن بثبات وقوة ، وأصدر البحار ذو العذارين الأسودين الأمر التالي :

ـ إلى اليسار در... عادة سر!

فمضوا مبتعدين يجرون المدافع الرشاشة ، تاركين القصر قابعاً يلفه الصمت .

٢٠

كان خريفاً دافئاً يتخلله مطر . وكانت الشمس الشاحبة قليلاً ما تظهر فوق بيخوفو ، المدينة الصغيرة . وفي اكتوبر شرعت الطيور بالهجرة نحو الجنوب . وحتى في المساء كانت صرخات الكراكي الصاخبة الحزينة تضج فوق الأرض الباردة السوداء . كانت الأسراب المهاجرة تنزح عجلى هرباً من الزمهرير المقبل ، ومن رياح الشمال العاتية العالية .

لبث الجنرالات الذين اعتقلوا في بيخوفو لارتباطهم بقضية كورنيلوف

ستة أسابيع في انتظار المحاكمة . كانت حياتهم في السجن قد استقرّت بشكل من الأشكال ، واتخذت نمطاً خاصاً بها وان لم تكن اعتيادية بكل معنى الكلمة . فبعد الافطار يخرج الجنرالات للتمشي ، وعند عودتهم ينصرفون لقراءة بريدهم ، ويستقبلون أقرباءهم ومعارفهم ، ثم يتغدون ، وبعد ساعة من السكون المطبق يذهبون الى غرفاتهم ليعمل كل منهم على انفراد ، وفي المساء يجتمعون عادة في غرفة كورنيلوف ، حيث يتحادثون ويتناقشون حتى وقت متأخر من الليل .

كانوا يقضون حياة مريحة نسبياً في ثانوية البنات النبيلات التي اتخذت سجناً لهم .

وكان يحرس البناية من الخارج رجال من فوج القديس غيورغي ، ومن الداخل رجال من التركمانيين وبالرغم من أن الحراسة كانت تحد من حرية السجناء إلى حد ما ، فقد وضعت بشكل يسهل معه للسجناءالهرب بأمان ، متى شاءوا ذلك . وطوال فترة انتقالهم كانوا على اتصال حر بالعالم الخارجي ، وراحوا يمارسون ضغطهم على الأوساط البرجوازية وهم يطالبون بالتحقيق والمحاكمة بأسرع وقت ممكن ، ويخفون معالم مؤامرتهم ، ويرسلون جواسيسهم ليتبينوا أمزجة الضباط ويعدوا العدة لهربهم عندما يتأزم الحال .

ورغبة من كورنيلوف للحفاظ على ولاء التركمانيين في حراسته ، اتصل بكاليدين الذي أرسل في الحال بطلب من كورنيلوف عدة شاحنات محملة بالحبوب إلى عوائل التركمانيين الجائعة في تركستان .

وبغية الحصول على مساعدة لعوائل الضباط الذين ساندوا كورنيلوف في محاولته الاستيلاء على الحكم ، بعث كورنيلوف برسالة شديدة اللهجة إلى أصحاب المصارف المتنفذين في موسكو وبتروغراد ، فوزع أصحاب المصارف في الحال منحاً بلغ مجموعها عشرات الآلاف من الروبلات خشية افتضاح أسرارهم المحرجة . وبقي كورنيلوف على اتصال دائب مع كاليدين حتى

تشرين الثاني ، وفي رسالة مطولة أرسلها إلى كاليدين في أواسط تشرين الأول سأله عن الحالة في الدون وكيف سيتقبله القوزاق . وكان جواب كاليدين مشجعاً .

ولكن ثورة اكتوبر زلزلت الأرض تحت أقدام الجنرالات المعتقلين في بيخوفو . وفي اليوم التالي أوفد الرسل إلى شتى الاتجاهات . وبعد اسبوع تردد صدى القلق على مصائر السجناء في الرسالة التي بعث بها كاليدين إلى دوخونين الذي نصب نفسه قائداً عاماً ، تتضمن طلباً ملحفاً بإطلاق سراح كورنيلوف وبطانته بكفالة . وقد أرسل طلب مماثل إلى مقر القيادة من تحالف القوزاق واللجنة الرئيسية لتحالف ضباط الجيش والبحرية . ولكن دوخونين تردد في إجابة الطلب .

وفي الأول من تشرين الثاني وجه اليه كورنيلوف رسالة . وقد عكست مطالعة دوخونين على تلك الرسالة مدى العجز الذي آلت إليه القيادة العليا ، ذلك لأنها فقدت كل سيطرة فعليه لها على الجيش وراحت تقضي أواخر أيامها في حالة من الشلل التام .

ياصاحب المعالي ، نيكولاي نيكولاييفتش!

لقد وضعك القدر في ظرف يتطلب منك أن تدير دفة الحوادث التي تنذر بخراب البلاد بسبب من تردد واهمال القواد الكبار بصورة رئيسية .

وقد حان الوقت بالنسبة لرجل مثلك لأن يقدم على مجازفة كبرى أو أن يستقيل ، وإلا فإن تبعات خراب البلاد والعار المتأتي من انهيار الجيش سيقع على عاتقك .

على ضوء المعلومات القليلة المتيسرة المتوفرة لدي ، فإن الوضع يبدو خطيراً ، ولكنه لا يزال غير ميؤوس منه تماماً . على أنه سيؤول إلى هذا المصير ، اذا ماتركت مقر القيادة يستولي عليه البلاشفة أو اذا اعترفت بسلطتهم طواعية .

ان فوج القديس غيورغي الذي أوشكت الدعاية أن تحطّم معنويته ، وكتيبة

التركمانيين التي حل بها الضعف ، هاتان الوحدتان اللتان هما تحت تصرفك ، لا تتمتعان قط بأية قوة تذكر .

واستباقاً لحوادث المستقبل التي قد تتطور ، أرى من الضرورة أن تتخذ اجراءات من شأنها أن توجد ظروفاً ملائمة لضمان استمرار الكفاح ضد الفوضى التي توشك أن تطبق علينا ، بالإضافة الى ضمان سلامة مقر القيادة العامة .

وأرى أن تكون هذه الاجراءات على النحو التالي :

١ ـ ينبغي نقل كتيبة تشيكوسلوفاكية وكتيبة من الأوهلان البولونيين في الحال إلى موغيليف .

حاشية من دوخونين . لا تعتقد القيادة أن هاتين الكتيبتين يمكن الاعتماد عليهما كل الاعتماد . فقد كانت من أوائل الكتائب التي قبلت بالهدنة مع البلاشفة .

٢ـ ينبغي أن تحتل أورشا ، وسمولنسك ، وزلوبين ، وغوميل ، وحدات من القطعات البولونية تساندها المدفعية التي تسحب من بطاريات الجبهة القوزاقية .

حاشية . لقد جيء بفرقة الكوبان الثانية ولواء من قوزاق استراخان لاحتلال أورشا وسمولنسك . أمّا سحب كتيبة من الفرقة البولونية الأولى من بيخوفو فهو أمر غير مرغوب فيه اذ أن ذلك قد يتهدد سلامة السجناء .

وأما وحدات الفرقة الأولى فهي ضعيفة إلى درجة كبيرة ولا يمكن اعتبارها قوة حقيقية . وقد اتخذت الفيالق البولونية موقفاً واضحاً بعدم التدخل في شؤون روسيا الداخلية .

٣ـ ينبغي تحشيد جميع وحدات القطعات التشكيلية وكتيبة كورنيلوف ، مع واحدة أو اثنتين من الفرق القوزاقية التي يركن اليها ، على طول خط أورشا ـ موجيليف ـ زالوبين بحجة نقلها إلى بتروغراد أو موسكو .

حاشية . القوزاق يعارضون محاربة البلاشفة بشكل قاطع .

٤ ـ ينبغي تحشيد كل المدرعات البريطانية والبلجيكية في المنطقة ذاتها ويعهد بها للضباط فقط .

٥ ـ ينبغي أن تقام مستودعات تخزن فيها البنادق ، والعتاد ، والرشاشات ،

والأسلحة الاوتوماتيكية والقنابل ووضعها تحت حراسة جيدة في موجيليف ونقطة أخرى في موقع قريب ، لتوزيعها على الضباط والمتطوعين الذين لا بد أن يتجمعوا في هذه المنطقة .

حاشية . قد يؤدي هذا إلى افراط .

٦ـ ينبغي تنظيم صلات موثوقة وعقد اتفاقات دقيقة مع أتمانات الدون ، وجيوش التيرسك والكوبان ، واللجنتين التشيكية والبولندية . لقد هب القوزاق بعزم لإعادة النظام في البلاد ، أما بالنسبة للبولنديين والتشيكيين فإن مسألة المحافظة على النظام لها علاقة كبيرة بكيانهم بالذات .

* * *

ومع كل يوم كانت الأنباء تنذر بخطر أشد ، وكان القلق يتفاقم في بيخوفو نفسها . وكان مريدو كورنيلوف ، الذين يطالبون بإطلاق سراح الجنرالات يتوافدون جيئة وذهاباً بين موغيليف ، وبيخوفو في سيارتهم . وقد عمد تحالف القوزاق إلى التهديدات المقنعة .

واستمر تردد دوخونين تحت ضغط الحوادث . وفي الثامن عشر من تشرين الثاني أصدر أمراً يقضي بنقل المعتقلين إلى الدون ، ولكنه سرعان ماعدل عن رأيه .

وفي الصباح التالي اتجهت سيارة ملطخة بالطين نحو المدخل الرئيسي لسجن ثانوية بيخوفو . وفتح السائق الباب بخضوع ، فخرج من السيارة ضابط كهل حسن الهيئة . وكانت الأوراق التي قدمها إلى ضباط الحراسة تحمل اسم العقيد الركن كوسونسكي .

ـ أنا من القيادة العامة . لدي رسالة خاصة للجنرال كورنيلوف . أين أجد القومندان ؟

وقاد القومندان ـ وهو المقدم أرغهارت من كتيبة التركمانيين ـ الزائر في الحال إلى كورنيلوف . فقدم كوسونسكي نفسه واصطنع لهجة تنم عن شيء من الخطورة :

ـ بعد أربع ساعات ستستسلم موغيليف إلى البلاشفة دونما مقاومة . وقد أمرني الجنرال دوخونين أن أخبرك بأن على جميع المعتقلين أن يغادروا بيخوفو في الحال .

وبعد أن سأل كورنيلوف كورسونسكي عن الوضع في موغيليف ، استدعى المقدّم أرغهارت . وقال وقد اتكأ بأصابع يده اليسرى على حافة الطاولة :

ـ أطلق سراح الجنرالات في الحال . يجب أن يستعد التركمانيون للرحيل في منتصف هذه الليلة .

أما أنا فسوف أرافق الكتيبة .

وظلت المنافخ تشهق وتتنهد النهار كله في كورة الكتيبة ، ويتوهج الفحم متورد الحمرة ، وتصطفق المطارق فتصهل الخيل بشدة أمام السنادين . كان التركمانيون ينعلون الحوافر الأربعة لجميع الخيل ، ويصلحون سروجها ، وينظفون بنادقهم ويهيئونها .

وخلال النهار غادر الجنرالات السجن فرادى . وفي منتصف الليل الساعة التي فيها تسعى الذئاب ، وحين كانت البلدة الريفية تطفىء أنوارها وتغط في سبات عميق ، خرج رجال على صهوات جيادهم وانحدروا من باحة المدرسة الثانوية في تشكيلة ثلاثية ، وقد انتصبت أشباحهم السود كرسم منحوت على صفحة السماء ذات الزرقة الفولاذية . وسرى الخيالة بقبعات عالية من الصوف أنزلوها فوق عيونهم ، وقد التفعت وجوههم السمر اللامعة بقلنسواتهم ، ساروا منحنين على سروجهم مثل طيور سود كبيرة انتفش ريشها .

وفي وسط الصف استوى كورنيلوف بكتفيه المتهدلين على حصان نشيط حذاء آمر الكتيبة العقيد كوغيلغين . وبين آونة وأخرى كان ينكمش وجهه كلما لفحته الريح الباردة التي تهب في شوارع البلدات ، ويضيّق شقّي عينيه الصغيرتين محدّقاً في السماء الثلجية التي تتلألأ فيها النجوم .

وكان وقع حوافر الخيل الحديثة النعال يدق على الأرض برفق عبر الشوارع ، ثم تلاشى عند ضواحي القرية .

٢١

مضى يومان على كتيبة القوزاق الثانية وهي تتراجع . كانت تقاتل طوال الطريق ، وهي ماضية في تراجعها البطيء .

وكانت قوافل الشحن التي تنقل أمتعة الجيشين الروسي والروماني تزحف فوق الطرقات المرتفعة غير المعبدة . وقد أطبقت الفرق النمساوية والالمانية الموحدة على الجيوش المتقهقرة بحركة التفاف واسعة ، وحاولت احكام الطوق .

وذات مساء شاع نبأ يفيد بأن الكتيبة الثانية عشرة واللواء الروماني الذي يليها مهدّدان بالتطويق . وعند غروب الشمس طرد العدو الرومانيين من قرية هوفينيسكي وتقدم إلى المرتفع « ٤٨٠ » الذي يحدّ العبور الى غولشكي . وفي الليل تلقت الكتيبة الثانية عشرة التي تعززها بطارية من فرق الجبليين ، أمراً يقضي بإشغال مواقع لحماية المؤخرة في القسم الأسفل من وادي غولشكي . وبعد أن نظمت الكتيبة الحراسة أعدّت العدة لمواجهة العدو الزاحف .

وفي الليلة ذاتها أرسل إلى موضع أمامي خفي ميشا كوشيفوي وآخر ، وهو فتى بدين قصير القامة من قرية تاتارسكي يدعي أليكسي بشنياك . فكمنا في حفرة قريبة من بئر مهملة ، ولبثا يعبّان هواء بارداً لطيفاً . وبين آونة وأخرى كان سرب من الأوز البري يمرق في السماء الغائمة ، يدلل عن طيرانه بصرخات ملهوفة . وهمس ميشا بهدوء في أذن صاحبه وقد أثار سخطه الأمر بمنع التدخين :

ـ إنها لحياة غريبة ، يا اليكسي! يتخبط فيها الناس كالعميان ، يلتقون

ويفترقون ، وفي بعض الأحيان يدوس احدهم الآخر... وها أنت تعيش على حافة الموت ، وتقول لنفسك لم كل ذلك . أنا لا أعتقد أن هناك شيئاً في العالم أفظع من روح الآخرين ، افعل ماشئت ، ولكنك لا تستطيع أن تسبر غورها...

ها أنذا مستلق بجانبك ، ولست أدري ماذا يدور في ذهنك ،ولم يسبق لي معرفة شيء من هذا ، كما أنني أجهل أي نمط من الحياة عشت ، ولا أنت تعرف مثل هذا الشيء عنّي... ربما رمت قتلك الآن ، وها أنت ذا تعطيني البسقماطة دون أن تكون لديك أية فكرة عما يدور في خلدي... . ان الناس لا يعرفون الكثير عن أنفسهم . في الصيف كنت في المستشفى وعلى السرير المجاور لي كان يرقد جندي من موسكو . وكان يسألني طوال الوقت كيف يحيا القوزاق ، ولا يعلم الا الله ماذا كان يسألني أيضاً . فهم يعتقدون أن القوزاق لا يعرفون سوى السياط ويحسبون القوزاق وحوشاً ، يضمون بين جوانحهم زجاجة الفودكا بدلاً من الروح ، ومع هذا فنحن رجال مثلهم ، لا نختلف عنهم في كلفنا بالنساء والفتيات ، ونحن نبكي همومنا ، ولكننا لا نغتبط لسعادة الأخرين . ماذا تقول يا اليكسي ؟ صرت أنا متعطشاً للحياة ، وعندما أفطن إلى عدد النساء الجميلات في العالم يوجعني قلبي... لقد أصبح لدي شعور تجاه النساء من الرقة بحيث يسعني أن أحبهن جميعاً حتى الألم... وبوسعي أن أضاجعهن جميعاً ، طويلات ، قصيرات ، نحيفات بدينات .

ولكن أي نمط بديع من الحياة رسموه لنا ؟ فهم يلصقونك بامرأة واحدة وعليك أن تلازمها حتى الموت . ترى كيف ينتظرون منّا أن لا نملّها ؟ وفوق كل هذا وذاك نراهم يعلنون الحرب...

فقال بشنياك ماكراً :

ـ لم يشبعوك ضرباً ، أيها الثور!

واستلقى كوشيفوي على ظهره ولاذ بالصمت ، محدقاً في السماء وهو يبتسم حالماً ويداه تداعبان الأرض الباردة السادرة في سكونها .

وقبل أن ينتهي واجبهما بساعة باغتهما الألمان . وأفلح بشيناك باطلاق

رصاصة ، ثم خر ساقطاً وهو يطحن أسنانه منطوياً على نفسه من شدة الألم . فقد نفذت حربة ألمانية في أحشائه ، واخترقت مثانته وارتجت عندما اصطدمت بعموده الفقري ، وأطاح بكوشيفوي أخمص بندقية . ثم حمله جندي ضخم على ظهره مسافة نصف فرسخ . وخيّل لميشا أنه قد غصّ بدمه ، ولكنه عندما استرجع نفسه واستعاد قواه ، لم يجد صعوبة في الإفلات من على ظهر الالماني ، فأطلقوا النار في أثره دفعة واحدة . الا أن الظلام والدغل ساعداه على النجاة .

وبعد أن أوقف التراجع وخلصت القوات الروسية ـ الرومانية نفسها من حركة التطويق ، سحبت الكتيبة الثانية عشرة إلى المؤخرة ، إلى اليسار من موقعها ببضعة فراسخ ، وصدرت الأوامر بقطع الطرقات ، ووضع حراسة عليها للحيلولة دون تسلل الفارين ، واطلاق النار عليهم اذا اقتضى الأمر وارسال كل من يُلقى عليه القبض إلى مقر قيادة الفرقة تحت الحراسة .

وكان ميشا كوشيفوي بين الأوائل ممن أرسلوا إلى نقاط المراقبة . فترك هو وثلاثة قوزاق آخرين القرية في الصباح واتخذوا مواقعهم حسب أمر العريف ، عند طرف حقل ذرة على مقربة من الطريق العام . وكان يمتد الطريق بمحاذاة غابة وينتهي في وادٍ دائري كثير الزرع . وراحوا يتناوبون على المراقبة . وعند الظهر شاهدوا مجموعة تضم حوالي العشرة جنود تسير في الطريق باتجاههم . ومن البديهي انهم يبتغون السير بمحاذاة القرية التي تلوح خلف تل ولمّا بلغوا الغابة توقفوا وأشعلوا سكائرهم ، ولا بد أنهم كانوا يتناقشون حول الطريق ، اذا انعطفوا الى اليسار فجأة .

فسأل كوشيفوي زميله وهو ينهض من حقل الذرة :

ـ هل نناديهم ؟

ـ اطلق فوق رؤوسهم .

ـ انتم ياأولاد! قفوا!

وسمع الجنود النداء كانوا آنذاك على بعد حوالي مئة خطوة من القوزاق

فتوقفوا لحظة ثم عادوا فتحركوا ببطء فصرخ أحد القوزاق قفوا! ثم اطلق رصاصة في الفضاء .

وهرولوا وبنادقهم مسددة بوضع أفقي ليلحقوا بالجنود الذين كانوا يسيرون ببطء .وصاح كوليتشيف العريف القوقازي المسؤول عن نقطة المراقبة :

ـ لماذا لم تتوقفوا بحق الشيطان! من أين جئتم ؟ وأين أنتم ذاهبون ؟ أرونا أوراقكم!

فتوقف الجنود وأنزل ثلاثة منهم بنادقهم وانحنى أحدهم وأعاد شد السلك الذي يربط الكعب بحذائه . كانوا جميعاً خلقي الثياب قذرين إلى درجة فظيعة ويبدو أنهم باتوا الليل على أدغال الغابة فثمة بقايا كثيرة من الأشواك بنية اللون على معاطفهم .

وكان اثنان منهم يرتديان قبعتين صيفيتين أما الآخرون فقبعات رمادية متسخة من الفرو تركت أغطية الأذن غير معقودة عليها والريح تعبث بخيوطها ، وصرخ جندي محدودب طويل وهو رئيسهم كما يبدو بصوت غضوب وقد ارتعشت وجنتاه الغائرتان :

ـ ماذاتريدون ؟ هل اذيناكم ؟ علام تتعقبوننا ؟

فقاطعة العريف متصنعاً لهجة صارمة :

ـ أوراقكمَ .

فأخرج جندي ذو عينين زرقاوين وبشرة بحمرة القرميد المشوي حديثاً ، قنبلة يدوية من جيبه ولوح بها في وجه العريف والتفت إلى رفاقه وقال بلهجة ياروسلافية* سريعة :

ـ تلك هي أوراقي يا اخواني! تلك هي! إنها اجازة مفتوحة أستعملها في كل أيام السنة حذار إذاً! فمتى ما رميتها لن يتسنى جمع المزق فيما بعد .

---

* مدينة في روسيا الوسطى ياروسلافل .

فهمتموني ؟ هل فهمتموني ؟ أهذا واضح ؟

فقطب العريف ونخسه في صدره وقال :

ـ لا تعبث! تحاول اخافتنا فقد شبعنا خوفاً . أنتم فارون ، وعليكم أن تعودوا معنا إلى القيادة فهم يتوقون إلى رؤية أمثالكم هناك .

وتبادل الرجال النظرات وأنزلوا بنادقهم وجال أحدهم ، وهونحيل ذو شعر أسود يبدو أنه عامل منجم ، ببصره بين القوزاق فرداً فرداً وهمس :

ـ سوف نذيقكم طعم الحرية ، قسماً بالله! انقشعوا بحق الله سوف أجعل الطلقة تخترق أول من يقترب مني!...

ولوح الجندي ذو العينين الزرقاوين بقنبلته اليدوية فوق رأسه ، وخرق الرجل الطويل المحنيّ الواقف في المقدمة معطف العريف بحربته الصدئة وهتف عامل المنجم بكلمة سباب ولوح بعقب بندقيته في وجه ميشا كوشيفوي فارتعشت اصبع كوشيفوي على زناد بندقيته وأمسك أحد القوزاق جندياً قميئاً من ياقة معطفه وجره منبسط الذراع وهو ينظر مضطرباً إلى الوراء صوب الآخرين خشية أن تناله ضربة من الوراء .

كانت الأوراق اليابسة تخشخش على سيقان الذرة ، وخلف الوادي الدائري يلوح خط متماوج أزرق من التلال وفي المرعى القريب من القرية تسرح بقرات حمر وحملت الريح غباراً ثلجياً استحال دوامات خلف الغابة وكانت أيام اكتوبر البطيئة طافحة بسكون وسنان ، وأطل على الريف المشمس هدوء وصمت جليلان .

غير أن هناك رجالاً على قارعة الطريق يتخبطون في حومة من غضب لامبرر له مستعدين لهدر دمائهم على التربة الخصيبة التي رطبها المطر .

على أن العواطف كانت قد هدأت بعض الشيء وطفق الجنود والقوزاق يتكلمون بهدوء .

قال كوشيفوي ساخطاً :

ـ لم يمض على سحبنا من الجبهة سوى ثلاثة أيام ، ولم نهرب إلى

المؤخرة! بينما أنتم تفرون ، يجب أن تخجلوا من أنفسكم! تتركون رفاقكم! من سيدافع عن الجبهة ؟ لقد طعن رفيقي بالحربة وهو بجانبي ، تقولون أننا لم نذق الحرب! ذوقوها كما ذقناها!

فقاطعه قوزاقي آخر :

ـ فيم الكلام ؟ هيا إلى القيادة ولا داعي إلى الجدل . فقال الجندي الذي يشبه عمال المناجم مهدداً :

ـ تنحوا عن الطريق أيها القوزاق! وإلا رميناكم والله نرميكم!

فنشر العريف يديه قانطاً :

ـ لا نستطيع أن نفعل ذلك أيها الأخ! اقتلنا إذا شئت ، ولكن النتيجة واحدة وهي أنكم لن تمروا ، فسريتنا معسكرة في القرية هناك...

وجعل الجندي المحني الطويل يهدد تارة ويروغ تارة أخرى ، ويتوسل مرة أخرى متخضعاً . وفي الأخير ، انحنى إلى الأسفل ، وسحب قنينة مجدولة بالقشّ من حقيبته القذرة وغمز لكوشيفوي وهمس :

ـ سنعطيكم دراهم أيها القوزاق ، انظروا... فودكا ألمانية... وسنجمع أشياء أخرى . دعونا نمر ، حباً بالمسيح . فلدينا أطفال في بيوتنا ، ولاشك أنكم تقدرون ذلك بأنفسكم... لقد أُنهِكت قوانا ونلنا أكثر مما نتحمل... كم علينا أن نتحمل ذلك ؟ رباه! يقيناً أنكم لن تحولوا دون مرورنا .

وسحب كيسه بسرعة من ساق جزمته ، وأخرج منه ورقتين مدعوكتين من الروبلات الكيرنسكية ، وراح يدسهما بإلحاح في يد كوشيفوي وقال :

ـ خذهما! خذهما! بحق الإله...! لا تهتم... فسوف ندبر حالنا على نحو ما . إن النقود لاقيمة لها... بوسعنا أن ندبر حالنا بدونها . خذها! سوف نحصل على المزيد منها .

فتراجع كوشيفوي وقد وخزه الخجل ، مبقياً يده خلف ظهره وهو يهز رأسه ، وتوردت وجنتاه بالدم والتمع الدمع في عينه وقال في نفسه :« لقد جننتني ميتة بشنياك تلك! وها أنا أحاول أسر هؤلاء الرجال ، مع أنني ضد

الحرب . بأي حق أفعل ذلك ؟ ماذا أنا فاعل هنا ؟ وأي خنزير وضيع أنا »

ومضى إلى العريف ، وتنحى به جانباً ، وقال وهو يشيح بعينيه :

ـ لم لا ندعهم يذهبون ؟ ماذا تقول ؟ دعهم يذهبون ، بحق الله! !

وغارت عينا العريف كمن يقوم بعمل مخجل ، وقال :

ـ دعهم يذهبون... وإلا فما عسانا نفعل بهم ؟ فسرعان ما سنقدم نحن على فعل الشيء نفسه... لماذا نخفي الحقيقة ؟ والتفت إلى الجنود وصرخ مغضباً :

ـ أنتم أيها الحثالة! نحن نعاملكم بأدب وبكل احترام ، وأنتم تقدمون لنا المال! فهل تحسبوننا معوزين ؟

وازرق لونه وأردف صارخاً :

ـ أخفوا أكياسكم ، وإلا سقناكم إلى القيادة!

وتنحى القوزاق جانباً . واستأنف الجنود سيرهم . فالتفت كوشيفوي صوب شوارع القرية المهجورة البعيدة وصاح في أثر الفارين المتراجعين :

ـ أنتم! أمهار الخيل! إلى أين أنتم سائرون في وضح النهار ؟ هناك غابة في هذه الناحية التجئوا إليها خلال النهار ، ثم واصلوا سيركم في الليل . وإلا فسوف تلاقون نقطة مراقبة أخرى ، وسوف يقبضون عليكم!

فتلفت الجنود حواليهم متحيرين ، ثم انطلقوا مثل الذئاب في خط رمادي أغبر شطر غابة الحور .

* * *

في بداية تشرين الثاني بدأت الشائعات حول الإنقلاب في بتروغراد تصل أسماع القطعات القوزاقية . وقد أكد المراسلون في القيادة الذين هم أكثر علماً بالأخبار من غيرهم ، بأن الحكومة المؤقتة قد هربت إلى أمريكا ، كما قالوا أن كيرنسكي قد أسره البحارة وحلقوا شعره بدرجة صفر ، وسخموه بالقطران مثل المومس وجرجروه طوال يومين في شوارع بتروغراد .

وبعد ذلك عندما وصلت الأنباء الرسمية حول سقوط الحكومة المؤقتة وانتقال الحكم إلى العمال والفلاحين ، لزم القوزاق الصمت احتراساً . وكان الكثيرون فرحين أملاً بأن تنتهي الحرب .

ولكن الشائعات حول مسيرة فيلق الخيالة الثالث مع كيرنسكي والجنرال كراسنوف إلى بتروغراد ، وتقدم كاليدين من الجنوب مع الكتائب القوزاقية التي قد افلح في سحبها سلفاً إلى الدون ، زرعت الرعب في نفوسهم .

وتمزقت الجبهة شذر مذر ، وفي تشرين الأول أخذ الجنود يفرون جماعات متفرقة غير منظمة ، وعند نهاية تشرين الثاني انسحبت سرايا وكتائب بكاملها من مواقعها وكانت تحمل أحياناً معدات خفيفة ليس إلا ، ولكنها في الغالب تأخذ أمتعة الكتيبة معها ، ويقتحم الجنود المخازن عنوة ويطلقون النار على ضباطهم ويسلبون كل من يصادفونه ، عائدين إلى أهليهم كالسيل الجارف .

وأصبحت مهمة الكتيبة الثانية عشرة في ايقاف الفارين غير ذات معنى في الظروف الجديدة وبعد أن زجت في الجبهة ثانية في محاولة عقيمة لسد الفجوات والثغرات التي تركها المشاة عندما هجروا قطاعاتهم ، سحبت ثانية في كانون الأول ، إلى أقرب محطة ، حيث شحنوا جميع أمتعة الكتيبة ، ومدافعها الرشاشة ، والذخيرة الاحتياطية والخيل ، في الشاحنات وانطلقوا إلى قلب روسيا التي أنهكها القتال .

وسارت القطارات العسكرية التي تحمل الكتيبة الثانية عشرة إلى الدون عبر أوكرانيا وليس بعيداً عن زنامنكا حاول الحرس الأحمر البلشفي تجريدهم من السلاح . واستغرقت المفاوضات نصف ساعة . لقد طلب كوشيفوي وخمسة قوزاق آخرين ، وهم رؤساء لجان السرايا الثورية ، السماح لهم بالمرور مع سلاحهم فسألهم أعضاء سوفييت المحطة :

ـ ما حاجتكم بالسلاح ؟

فأجاب كوشيفوي نيابة عن الجميع :

ـ نستعمله في القضاء على برجوازيتنا وجنرالاتنا! ولقطع ذنب كاليدين!

واعترض القوزاق أيضاً :

ـ لن نسلم أسلحتنا ، فهي تعود إلى الجيش .

وسمح للقطارات بمواصلة سيرها•وفي كريمنتشوغ جرت محاولة أخرى لتجريدهم من السلاح . ولم يسمح لهم بالمرور إلا بعدأن نصب حملة الرشاشات القوزاق رشاشاتهم في أبواب الشاحنات المفتوحة وصوبوها نحو المحطة ، وانتشر جنود احدى السرايا على طول الخطوط مستعدين للقتال ، وقرب يكاترينوسلاف جردت الكتيبة من بعض سلاحها ومن غير أن يحصل تبادل إطلاق النار مع مفرزة الحرس الأحمر ، وصودرت الرشاشات ، وأكثر من مئة صندوق من الذخيرة ، وجهاز مخابرة الميدان وعدة بكرات من الأسلاك وقد رفض القوزاق الاستجابة إلى الاقتراح الذي يقضي بتوقيف ضباطهم . ولم يفقدوا أثناء الرحلة سوى ضابط واحد ، وهو مساعد الآمر ، وقد حكم عليه القوزاق أنفسهم بالموت ، ونفذ الحكم أوريوبين وبحار من الحرس الأحمر .

ففي السابع عشر من كانون الأول ، وشيك المساء في محطة سينلنيكوفو أمسك القوزاق بمساعد الآمر وسحبوه خارج القطار .

وسأل البحار ذو الأسنان المتباعدة وهو يحمل مسدساً من طراز ماوزر وبندقية يابانية والمرح باد عليه :

ـ أهذا هو الذي خان القوزاق ؟

فأجاب أوريوبين لاهثاً :

ـ هل تعتقد أننا لانعرف وجهه ؟ أي نعم ، هو بعينه! فحملق المساعد وهو رئيس شاب ، حواليه مثل حيوان وقع في شرك ماسحاً شعره بيده العرقة ، ولم يشعر بالبرد الذي لفح وجنتيه أو بألم الضربة التي تلقاها بأخمص البندقية وسار به أوريوبين والبحار مبتعدين عن القطار .

وفحّ أوريوبين قائلاً :

ـ إن الشياطين أمثاله يجعلون الناس يثورون وهو ممن سببوا هذه الثورة... آها ، لاترتجف كثيراً ياعزيزي ، وإلا تفككت أوصالك .

ثم رفع قبعته ورسم شارة الصليب ، وصاح :

ـ انتبه أيها الرئيس!

وقال البحار وهو يلعب بمسدسه ، وقد انفرجت شفتاه عن تكشيرة خبيثة ولمعت أسنانه البيضاء :

ـ مستعد ؟

ـ نعم .

ورسم أوريوبين شارة الصليب ثانية ، ونظر جانباً إلى البحار الذي أخر قدماً إلى الوراء مهدفاً ، وكشر عن ابتسامة وأطلق عليه النار قبله .

وعلى مقربة من تشابلين انجرت الكتيبة بصورة عفوية إلى معركة اندلعت بين الفوضويين والأوكرانيين ، فخسروا ثلاثة رجال من القوزاق وشقوا طريقهم بالقوة ، بعد أن لاقوا صعوبة في اخلاء الخطوط التي كانت تشغلها قطارات عسكرية تحمل فرقة من حملة البنادق .

وبعد ثلاثة أيام ترك القطار القسم الأول من الكتيبة في محطة ميليروفو ، أما القسم الآخر فقد تأخر في لوغانسك وأفلت نصفهم وامتطوا جيادهم إلى بيوتهم من المحطة رأساً ، أما الآخرون فقد ساروا إلى قرية كارغين بنظام ، وفي اليوم التالي أخذوا يتجرون بتحفياتهم وبالخيل التي غنموها من النمساويين وتقاسموا أموال الكتيبة ومعداتها .

وانطلق كوشيفوي والقوزاق الآخرون من أهالي قرية تاتارسكي إلى بيوتهم في المساء وارتقوا تلاً ، حيث تقع في سفحه على ضفتي نهر تشير المتعرجتين البيضاوين بلون الثلج ، قرية كارغين أجمل قرى الدون الأعلى ، وكان الدخان يتصاعد نفثات متجعدة من مدخنة الطاحونة البخارية ، وتجمع حشد أسود من الناس في الساحة ، وكان الناقوس يقرع لصلاة المساء وخلف منحدرات كارغين كانت تلوح قمم أشجار الصفصاف المحيطة بقرية

كليموفسكي . ووراء زرقة الشيح المترامية في الأفق الملتفع بالثلج ، نشرت أشعة الشمس الغاربة في السماء خيوطاً أرجوانية متألقة .

ومر الثمانية عشر فارساً برابية تحتضن ثلاثاً من أشجار التفاح البرية وعرّجوا خبباً بسرعة صرّت لها سروجهم ، صوب الشمال الشرقي وكان الليل القر قابعاً مثل اللص خلف قمم التلال وكان القوزاق يستحثون جيادهم بين آونة وأخرى لتمضي بهم في هذب سريع وقد لفوا وجوههم بقلنسواتهم . وكانت سنابك الخيل توقع على الأرض الصلدة برنين يكاد يثير الألم وهي تنساب وراءهم إلى الجنوب ، وعلى جانبي الطريق تنكشط قشرة الجليد بفعل الذوبان الحديث ، وتعلق بين الحشائش وتسطع في ضوء القمر مثل ذوب من نار .

وراح القوزاق يستحثون خيلهم وقد ران عليهم الصمت ، وانساب الطريق من ورائهم صوب الجنوب . وتلفع الشرق بغاية . بانت آثار الأرانب البرية الدقيقة على الثلج على جانب الطريق .

وعالياً فوق السهب تحزمت السماء بالمجرة كأنها نطاق قوزاقي مرصع بالفضة .

الجزء الخامس

١

بدأ القوزاق في أواخر خريف عام ١٩١٧ بالعودة إلى أهليهم من الجبهة فعاد خريستونيا الذي بدا عليه كبر واضح وكذلك ثلاثة آخرون ممن خدموا في الكتيبة الثانية والخمسين وعاد أنيكوشكا الأمرد ، والمدفعي ايفان توميلين وياكوف الملقب بنعل الحصان وفي أثرهم جاء مارتن شامل وايفان أليكسيفتش ، وزاخار كاورليوف وبورشيف الطويل الفظ ، أحيلوا جميعهم إلى الاحتياط ، وفي كانون الأول وصل ميتكا كورشونوف على غير انتظار ، وبعد ذلك بأسبوع وصلت جماعة برمتها من القوزاق الذين خدموا في الكتيبة الثانية عشرة : ميشا كوشيفوي ، وبروخور زيكوف ويبيفان ماكسايف وأندريه كاشولين ويغور سينيلين وقد عاد فيدوت بودوفسكوف الذي كان قد انفصل عن كتيبته من فورونيج رأساً على ظهر جواد بديع أشهب اللون داكن كان قد غنمه من ضابط نمساوي وروى بعد ذلك مراراً كيف شق طريقه بين قرى مقاطعة فورونيج وهي تمور بالثورة وكيف أفلت من تحت أنوف مفارز الحرس الأحمر معتمداً على سرعة جواده .

ووصل بعدئذ ميركولوف وبيوتر ميليخوف ، ونيقولاي كوشيفوي الذين هربوا من الكتيبة السابعة والعشرين المتبلشفة . وهم الذين جاؤوا بخبر

التحاق غريغوري ميليخوف بالبلاشفة وبقائه في كامينسكايا وكان قبل ذلك في كتيبة الاحتياط الثانية ، وقد خلفوا وراءهم كذلك مكسيم غريازنوف سارق الخيل الجريء الذي مال إلى البلاشفة في تلك الأيام الحافلة بكل جديد وطمعاً في الحصول على عيش رغيد ، وقيل أن مكسيم حصل على حصان لامثيل لقبحه ولا لقوته ، وإن خطاً من الشعر الفضي يمتد على طول ظهره وأنه لم يكن حصاناً عالي الهامة ، ولكنه طويل البنية أحمر كالبقرة ولم يتحدثوا عن غريغوري كثيراً . الواضح أنهم لم يرغبوا في الحديث عنه لعلمهم أنه اتخذ طريقاً غير طريق أهل القرية وربما فارقهم إلى الأبد .

لقد ملأ الفرح البيوت التي عاد إليها القوزاق أرباباً أو ضيوفاً طال انتظارهم وشدد هذا الابتهاج ، بشكل قاس لارحمة فيه ، من وطأة الأسى العميق في نفوس أولئك الذين فقدوا أقاربهم وأعزاءهم إلى الأبد . لقد افتقد العديد من القوزاق منتشرين فوق حقول غاليسيا وبوكوفينا وبروسيا الشرقية وجبال الكربات ، ورومانيا ـ بقيت جثثهم ملقاة لتجيف بينا دوّت فوقهم المدافع تنشد مرثاتهم وقد علت روابي المقابر المشتركة أدغال طويلة ، ينهال عليها المطر ويحف بها الثلج تحمله الرياح . ومهما ركضت نسوة القوزاق الحاسرات إلى منعطفات شارع القرية ليحدقن في الأبعاد وقد ظللن عيونهن ، فلن يبصرن يوماً أحباءهن عائدين على ظهور الجياد . ومهما انسابت الأدمع من عيونهن المتورمة الذاوية ، فليس بمستطاعهن إزالة الآلام . ومهما بكين في أيام الذكرى والاحتفال فلن تحمل ريح الشرق صرخاتهن إلى غاليسيا وبروسيا الشرقية ، إلى الروابي الغائرة حيث مقابرهم المشتركة!...

وكما ينبت العشب على القبور يطغى الزمن على الأحزان . وكما تذرو الرياح آثار من رحلوا ، كذلك يذرو الزمن ، من نفوس أولئك الذين انتظروا عودة أحبائهم عبثاً ، ذكرياتهم وآلامهم الدامية ، أولئك الذين سيدوم بهم الانتظار عبثاً ، فقصيرة هي حياة الإنسان . وليس لأي منا عمر يكفيه...

كانت زوجة بروخور شامل تضرب رأسها على الأرض الصلدة وتنهش

أرض بيتها وهي ترى إلى أخ زوجها يلاطف زوجته الحبلى أو يعطي الهدايا إلى أولاده ويدللهم . كانت تتلوى وتزحف على يديها وركبتيها : يحف بها أطفالها الصغار كقطيع من الغنم ، يتصارخون إذ يشهدون أمهم وقد اتسعت مآقيهم ذعراً .

إيه عزيزة قلبي ، مزقي آخر قمصانك! جزي شعرك الذي غدا رهيفاً جراء حياتك الشاقة التي لا تعرف البهجة ، عضي على شفتيك حتى تسيل الدماء اعصري يديك اللتين خدشهما الكدح ، دقي جسدك على عتبة بيتك الخاوي! فبيتك يفتقد سيده ، وزوجك راح ، وأطفالك أمسوا يتامى ، وتذكري أن أحداً لن يلاطفك أو يداعب أيتامك ، إن أحداً لن يشد رأسك إلى صدره ليلاً إذ تدلفين إلى الفراش وقد أضناك العناء ، وأن أحداً لن يقول لك كما قال لك ذات مرة : «لا تقلقي ياأنسكا ، سنتدبر الأمر بشكل ما!» إنك لن تحصلي على زوج جديد ، فقد ذبل عودك وشاخ من الكدح والجزع والأطفال . لن يكون هناك أب لأطفالك شبه العراة . وعليك أن تؤدي بنفسك كل أعمال الحراثة والتمهيد وتلهثي من فرط الإرهاق . سيكون من واجبك أن ترفعي بالمذراة حزم القمح من الحاصدة إلى العربة ، وحين ترفعين حزم القمح الثقيلة بالمذراة ستشعرين أن شيئاً يتمزق في أحشائك . وبعدها ستتضورين ألماً وستنزفين الدم تحت أسمالك .

بكت أم الكسي بيشنياك مر الدموع وهي تقلب ملابس ولدها الداخلية القديمة وتشمها ، ولم تستطع شم أثر لعرقه ، إلاّ في طيات قميصه الأخير الذي عاد به ميشا كوشيفوي ، ودفنت العجوز رأسها في القميص وراحت تهز جسدها وتنتحب حزناً فطرزت دموعها ذلك القماش القطني المتسخ .

لقد تيتمت عوائل مانيتسكوف ، وأوزيروف ، وكالينين ، وليخوفيدوف ، وكثير غيرها من عوائل القوزاق .

أما ستيبان أستاخوف فلم يبكه أحد إذا لم يكن لديه من يبكيه فقد ظل بيته الموصد بالألواح ، المتصدع الأظلم حتى في الصيف ، خاوياً على عروشه ،

فأكسينيا تعيش في ياغودنويه ، لايصل القرية من أخبارها إلا النزر اليسير ، ولم تطأ قدمها أرض القرية ، ولعلها لم تجد رغبة في ذلك .

عاد قوزاق المناطق العليا من الدون إلى أهليهم زرافات وما أن حل كانون الأول حتى عاد الجميع تقريباً إلى قراهم في منطقة فيشينكسايا فكانت جماعات من الفرسان يتراواح عدد كل فريق منها بين العشرة والأربعين ، يمرون ليلاً ونهاراً بتاتارسكي في طريقهم إلى الضفة اليسرى من الدون .

وكان الشيوخ يخرجون إليهم يسألونهم :

ـ من أين أنتم ، أيها الجنود ؟

فتأتيهم الأجوبة على هذا النحو ؟

ـ من نهر تشورنايا ، من زيموفنايا ، من دوبوفكا ، من غورخوفسكايا .

ـ فيسألهم الشيوخ بخبث : ـ هل انتهيتم من القتال ، إذاً ؟

ويبتسم بعض الفرسان ، الهادئين ذوي المشاعر الرقيقة ، ويقولون :

ـ لقد نلنا الكفاية ، ياابتي! أجل لقد انتهينا .

أما المتهورون الحانقون منهم فكانوا يشتمون الشيوخ وينصحونهم قائلين : «اذهبوا وجربوها أنتم! ماالداعي لكل هذه الأسئلة ؟ ماأكثر الفضوليين بينكم » .

كانت الحرب الأهلية قد اندلعت في أواخر الشتاء قرب نوفوتشيركاسك ولكن صمت المقابر ظل مخيماً على قرى مناطق الدون العليا ولم تحتدم سوى خلافات داخلية خفية تجري داخل البيوت ، وتطفو بعض الأحيان إلى خارجها فلم يستطع الشيوخ أن يكونوا على وفاق مع القوزاق العائدين من جبهة القتال .

ولم يعرف أهل القرى شيئاً عن الحرب التي اندلعت قرب عاصمة إقليم الدون إلا عن طريق الإشاعات وإذ استعصت على مداركهم الاتجاهات السياسية المختلفة التي برزت يومئذ إلى الوجود لم يكن أمامهم سوى أن يرهفوا آذانهم ويترقبوا الأحداث .

وانسابت الحياة وادعة في قرية تاتارسكي حتى شهر كانون الثاني . وقد

استكان القوزاق العائدون من الجبهة إلى الراحة في بيوتهم مع زوجاتهم فأكلوا حتى الشبع ولم يدر في خلدهم أن على عتبات بيوتهم مصائب وأعباء جديدة أمر من تلك التي تجرعوها أيام الحرب .

٢

في كانون الثاني عام ١٩١٧ رقي غريغوري ميليخوف إلى رتبة نائب ضابط تقديراً لخدماته البارزة في سوح القتال ، وقد نسب آمر رعيل في كتيبة الإحتياط الثانية . وعاد إلى أهله في شهر أيلول التالي بإجازة إثر إصابته بالتهاب الرئتين فأمضى ستة أسابيع بين أهله ، ثم قررت اللجنة الطبية المحلية أنه قد أبل من مرضه فأعيد إلى كتيبته . وبعد ثورة أكتوبر* رقي إلى مرتبة آمر سرية .

وفي حوالي ذلك الوقت طرأ عى آرائه تغير ملموس جراء ما دار حوله من أحداث وبتأثير من الملازم يفيم ايزفارين أحد ضباط كتيبته .

كان غريغوري قد تعرف على إيزفارين يوم عودته من الإجازة وصار بعد ذلك يلتقي به كثيراً أثناء الواجب وبعده وقد وقع تحت تأثيره دون أن يشعر بذلك كان يفيم ايزفارين ابناً لقوزاقي ثري وقد درس في كلية نوفوتشيركاسك العسكرية ومن الكلية التحق رأساً بكتيبة قوزاق الدون العاشرة في الجبهة ، وخدم فيها زهاء عام فنال كما يحلو له أن يقول « وسام صليب القديس غيورغي وأربع عشرة شظية من قنبلة يدوية في أجزاء مناسبة وغير مناسبة من جسمه » وقد نقل من ثم إلى كتيبة الاحتياط الثانية .

كان ايزفارين رجلاً فائق المقدرة كثير الموهبة نال من الثقافة قسطاً أوفر

---

* ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر الذي يصادف الخامس والعشرين من تشرين الأول (أكتوبر) حسب التقويم القديم عام ١٩١٧. المترجمون

بكثير مما يناله الضابط القوزاقي الاعتيادي وكان شديد الحماس لأن تنال بلاد القوزاق استقلالها الذاتي وقد أيقظته ثورة شباط البرجوازية وأتاحت له فرص التقدم فاتصل بحلقات الانفصاليين القوزاق ، وقام بدعاية بارعة في سبيل الحكم الذاتي الناجز لمنطقة الدون ومن أجل اقامة حكومة كالتي حكمت في الدون من قبل أن تستولي القيصرية على القوزاق . كان حسن الإلمام بالتاريخ ، شديد الحماس مع صفاء في البصيرة ورزانة في التفكير ، فكان يرسم ببيانه الأخاذ صورة حياة المستقبل الحرة التي سينعم بها قوزاق الدون حين تكون لهم حكومتهم ، حين يخلو الاقليم من أي روسي . ويومذاك يقف القوزاق حرساً على امتداد حدود بلادهم ، فيكون بوسعهم أن يخاطبوا أوكرانيا وروسيا الكبرى مخاطبة الند للند ، دونما حاجة إلى رفع القبعة إجلالاً ، وأن يقيموا صلات التجارة والتبادل معهما ، لقد استحوذ ايزفارين على ألباب القوزاق البسطاء والضباط الذين لم ينالوا قسطاً وافراً من الثقافة ، ووقع غريغوري كذلك تحت سحره . وفي بادئ الأمر كان يحتدم بينهما الجدال ، ولكن غريغوري ، وهو أشبه بالأمي ، لم يكن ندا لمقابله ، فكان ايزفارين ينتصر دوما في صولات الجدال دونما مشقة . وكانت المناقشة تجري عادة في ركن من أركان الثكنة ، فيأخذ المستمعون على الدوام جانب ايزفارين . كان يبهرهم بحججه وبالصور التي يرسمها لحياة الاستقلال المترتقب ، وذلك ما يتجاوب بشكل خاص مع أعمق المشاعر الصميمية للقوزاق الموسرين في الدون الأسفل .

كان غريغوري يسأله :

ـ ولكن كيف يسعنا أن نعيش بدون روسيا ، وليس لدينا غير القمح ؟

فيوضح ايزفارين له الأمر بطول أناة :

أنا لا أفكر بالاستقلال والعزلة التامة لمنطقة الدون وحدها .

سنعيش سوية مع الكوبان ، والتيريك ، وأهالي مرتفعات القوقاز على أساس فيدرالي ، أي اتحادي . القوقاز غني بمعادنه ، وبوسعك أن تجد كل شيء هناك .

ـ والفحم كذلك ؟
ـ ان حوض الدونيتس لا يبعد أكثر من مرمى حجر .
ـ ولكنه يعود لروسيا .
ـ ان عائديته ، وفي أي حدود يقع ، لأمر متنازع عليه . ولكن حتى اذا ذهب حوض الدونيتس إلى روسيا فاننا لانخسر كثيراً .

فحلفنا الفيدرالي لن يرتكز على الصناعة . نحن بلد زراعي ، وسوف نموّن صناعتنا الصغيرة ، والحالة هذه ، بفحم نشتريه من روسيا . وليس الفحم وحده . ثمة أشياء كثيرة أخرى ينبغي لنا أن نشتريها من روسيا : الخشب ، المعادن ، الحاجيات المصنوعة وما إليها ، وفي مقابل ذلك سنزودهم بالقمح والبترول الجيدين .

ـ وماذا نربح من انفصالنا ؟

ـ ذلك أمر بسيط! قبل كل شيء ، سنتحرر من حمايتهم السياسية . سنعيد النظام الذى قضى عليه قياصرة روسيا ، ونطرد جميع الدخلاء . وفي غضون عشرة أعوام ستزداد ثروتنا عشرة أضعاف وذلك باستيرادنا المكائن التي ترفع مستوى زراعتنا ، فالأرض أرضنا . لقد اغتسلت بدماء آبائنا وأخصبت بسماد عظامهم ، ولكن أربعمائة عام مضت ونحن خاضعون لروسيا ، ندافع عن مصالحها دون اهتمام بحالنا . ان لدينا منفذاً على البحر . وسيكون عندنا جيش محارب قوي . ولن تستطيع أوكرانيا أوحتى روسيا أن تعتدي على استقلالنا .

كان ايزفارين مثال القوزاقي بقوامه المتوسط ، وهيئته الوسيمة ومنكبيه العريضين . وكان ذا شعر أجعد بلون الهرطمان قبل نضوجه ، ووجه أسمر ، وجبين منحدر ، ولم تلوح الشمس سوى وجنتيه وحوالي حاجبيه الحائلين . كان صوته صداحاً عالياً حسن النغمة ، ومن عادته لدى الكلام أن يرفع حاجبه الأيسر فجأة ويجعد أنفه الصغير المعقوف ، فيبدو وكأنه يتشمم شيئاً . وكان يتميز بين ضباط كتيبته بمشيته النشطة ، وانتصاب قامته اعتداداً بالنفس ،

ونظرة عينيه البنيتين الصريحة . وكان القوزاق يكنّون له احتراماً صادقاً ربما فاق احترامهم لآمر الكتيبة ذاته .

دارت بين ايزفارين وغريغوري أحاديث طويلة فشعر غريغوري بالأرض ترتخي تحت قدميه كرّة أخرى ومر بتجربة مثيلة لتلك التي عاناها في مستشفى العيون في موسكو حين التقى بغرانجا .

وحدث بعد ثورة أكتوبر بقليل أن دار بينه وبين ايزفارين حديث طويل . وكانت تتمزقه نوازع متناقضة ، فسأل الملازم باحتراس عن رأيه في البلاشفة .

ـ قل لي ، يفيم ايفانتش ، هل تعتقد أن البلاشفة على حق أم لا ؟

فأجابه ايزفارين رافعاً حاجبه مجعداً أنفه بهزل :

ـ هل البلاشفة على حق ؟ ـ ها ـ ها! انك ، يا بني ، أشبه بالطفل الوليد . ان للبلاشفة برنامجهم ، وخططهم ، وآمالهم ، انهم على حق ، من وجهة نظرهم هم ، كما أننا على حق من وجهة نظرنا نحن . أتعرف الاسم الحقيقي للحزب البلشفي ؟ لا تعرف ؟ حسناً ، انه حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي ، أفهمت ؟ العمال! انهم الآن يغازلون الفلاحين والقوزاق ، لكن الطبقة العاملة هي قاعدتهم . انهم يحررون العمال ، ولكنهم ربما يجلبون شر العبودية للفلاحين . ففي واقع الحياة لا يحدث مطلقاً أن يتساوى نصيب الجميع . اذا تغلب البلاشفة فذلك خير للعمال وشر للآخرين . واذا عاد النظام الملكي فذلك خير لمالكي الأرض ومن لف لفهم وشر لغيرهم ، اننا لا نريد هذا ولا ذاك . اننا بحاجة إلى نظام خاص بنا ولكننا بحاجة قبل كل شيء إلى التخلص من حماتنا سواء كانوا كورنيلوف ، أم كيرنسكي ، أم لينين . فبوسعنا العيش في أرضنا بدونهم . فلينجنا الربّ من شر أصدقائنا وسوف نتدبر أمر أعدائنا بأنفسنا .

ـ ولكنك تعلم... أن غالبية القوزاق يميلون إلى البلاشفة ؟

ـ غريشا ، يا صاحبي ، أفهم هذا ، فهو أمر جوهري . في الوقت الراهن يتفق اتجاه البلاشفة . هذا صحيح ، ولكن أتدري لماذا ؟ السبب هو أن

البلاشفة يطمحون إلى السلام ، إلى السلام الفوري ، وفي هذه اللحظة يحس القوزاق بوطأة الحرب ها هنا .

وصفع رقبته السمراء صفعة رنانة ، وصاح ، وهو يعدل حاجبه المرفوع تهكّماً :

ـ ولهذا يتبلشف القوزاق بعض الشيء ويسايرون البلاشفة ولكن... حالما تنتهي الحرب ويمد البلاشفة يدهم للاستحواذ على ممتلكات القوزاق يفترق طريقاهما! ذلك أمر أساسي ، وحتمية تاريخية . فثمة هوة لا قرار لها بين أسلوب القوزاق في المعيشة وبين الاشتراكية ، وهى غاية الثورة البلشفية! حسناً ، ما قولك في ذلك ؟

فغمغم غريغوري قائلاً :

ـ أقول انني لا أفهم شيئاً . إن من العسير عليّ أن أتبين رأس الشيء من ذنبه . إنني تائه لكأنني نهب عاصفة ثلجية في السهب .

ـ ولن تخرج اذا بقيت على هذه الحال . فسترغمك الحياة ذاتها على ادراك الأمور ، وستدفع بك إلى هذا الجانب أو ذاك .

دار هذا الحديث في أواخر تشرين الأول . وفي تشرين الثاني صادف لغريغوري أن يلتقي بقوزاقي آخر لعب دوراً كبيراً في تاريخ الثورة على الدون . التقى غريغوري بفيودور بودتيلكوف ، فاستعاد قلب غريغوري من جديد الحقيقة السابقة بعد شيء من التردد .

كان المطر يرذ يومها منذ الظهيرة ، وقد صفا الجو عند المساء فقرر غريغوري أن يزور دروزدوف ، وهو نائب عريف في الكتيبة الثامنة والعشرين ، من أهل منطقته . وبعد ربع ساعة كان يمسح قدميه على الحصير عند باب دروزدوف . وكان عند دروزدوف زائر : قوزاقي عظيم الجرم على كتفيه شرائط رئيس عرفاء في بطارية الحرس ، وكان يجلس على سرير سفرى وظهره ازاء النافذة وحوله أزهار فيكوس نحلية وأثاث مهترئ . كان يجلس محني الظهر وقد انفرجت ساقاه بسروالهما الأسود بينا استقرت يداه

الكبيرتان المشعرتان على ركبتيه العريضتين . وكانت قمصلته من الضيق بحيث بدت على وشك التمزق عند صدره . وعلى صرير الباب أدار رقبته القصيرة ، وحدق صوب غريغوري ببرود ، ثم أخفى ضوء عينيه البارد في مجاهل محجريهما الضيقين ، تحت أجفانهما الغليظة .

ـ أود أن تعرفا بعضكما! غريغوري ، أقدم اليك بودتيلكوف من أوست خوبرسكايا ، تكاد تجاورنا داره .

تصافح الاثنان بصمت ، ثم جلس غريغوري .

ابتسم غريغوري لمضيفه وقال :

ـ لقد لطخت الأرضية بحذائي ، آسف .

ـ لا عليك . سوف تقوم صاحبة البيت بتنظيفه... هل لك ببعض الشاي ؟

وكان دروزدوف قميئاً نشطاً كالسحلية ، فدق على السماور بظفر اصبعه الأصفر من الدخان ، وأردف بأسف :

ـ عليك أن تشربه بارداً .

ـ لا أريد ، دعك منه .

ثم قدم غريغوري سيكارة إلى بودتيلكوف فأعمل الأخير أصابعه الحمر الكبيرة بالعلبة المرصوصة بالسكائر وغمغم قائلاً : « عليها اللعنة ، لا أستطيع أن أمسكها على أية حال » . وأخيراً استطاع أن يخرج سيكارة ، ثم رفع عينيه الباسمتين (وقد زاد ضيقهما الآن) إلى وجه غريغوري فاستلطف طبيعته السمحة وسأله : « من أية قرية أنت ؟ » .

ـ ولدت في كوتوفسكي ، لكني كنت أعيش مؤخراً في أوست كلينوفسكي . أحسبك سمعت بكرتوفسكي ؟

كان يخاطب غريغوري دونما اهتمام تارة بالرسميات وتارة أخرى بصيغة مفرد ويتحدث بحرية وذات مرة وضع يده الثقيلة على كتف غريغوري .

كانت آثار الجدري الخفيفة تبدو على وجه بودتيلكوف العريض الحليق . وكان عذاراه مفتولين باحكام ، وشعره المبلل والممشط بعناية لصيقاً بأذنيه

الصغيرتين . وقد علت حاجبه الأيسر خصلة من شعره . كان محياه قمينا بأن يسر الناظر لولا أنفه الكبير المتجه إلى أعلى . ولم يبد على عينيه ، لأول وهلة ، أيّما شيء غريب ، ولكن حين نظر غريغوري إليهما ملياً كاد أن يلمس ثقلهما الرصاصي . كانتا صغيرتين ، أشبه بكرتين من الرصاص تلتمعان خلال شقيهما الضيقين وكأنهما تومضان من كوّتين ، لتسمّرا النظر في نقطة واحدة بإصرار لا يكل .

راح غريغوري يتملى هذا الرجل بفضول ، ولاحظ أن فيه ظاهرة خاصة ، فهو لا يكاد يطرف عينيه . كان وهو يتكلم يثبت نظرته الجادة على صاحبه ، أو ينتقل بها من شيء إلى شيء ، لكنما أهدابه الكثة الحائلة تبقى مسبلة لاحراك فيها . لم يكن ليسبل جفنيه المنتفخين الا من حين لآخر . ثم لا يلبث أن يرفعهما بغتة ليصوب بتلكما العينين الخرزيتين .

قال غريغوري مفتتحاً الحديث :

ـ هاكما نقطة جديرة بالاهتمام ، أخويّ ، سوف تنتهي الحرب وسنبدأ الحياة على نمط جديد . ستكون لأوكرانيا حكومتها الخاصة ، وسيحكم الدون مجلس القوزاق العسكري .

فصحح بودتيلكوف قوله بهدوء :

ـ تعني الأتمان كاليدين .

ـ سيان ، وما الفرق ؟

فقال بودتيلكوف موافقاً :

ـ أوه ، ليس ثمة فرق .

وبدأ غريغوري يشرح حجة ايزفارين ، وقد استبد به الفضول لرؤية ما تحدثه هذه الآراء من رد فعل لدى دروزدوف وهذا العظيم الجرم من بطارية الحرس . قال :

ـ لقد قلنا لأمنا روسيا : وداعاً . ستكون لدينا حكومتنا الخاصة ونمط معيشة خاص . ليخرج الأوكرانيون من أرض القوزاق . سوف نعيّن حرساً

للحدود ونحول بين الدخلاء وبلادنا . سوف نعيش كما عاش أجدادنا في الأيام الخوالي . أعتقد أن الثورة جاءت لصالحنا . ما رأيك ، يا دروزدوف ؟

فابتسم دروزدوف ابتسامة ماكرة وتململ قائلاً :

ـ طبعاً سيكون ذلك أفضل بالنسبة إلينا . لقد سلبنا الفلاحون قوانا ، وماكان بالوسع أن نحيا في ظلهم . ثم ان جميع الاتمانات كانوا من الألمان! فون تاوبه ، فون كرابه ، والشيطان يعلم اسماء الآخرين . لقد منحوا أرضنا لكل ضباط الأركان هؤلاء . أما الآن فسيكون بمقدورنا أن نتنفس على أية حال .

فقال بودتيكوف بهدوء دون أن يوجه السؤال إلى شخص معين :

ـ ولكن هل توافق روسيا على ذلك ؟

فأجابه غريغوري مطمئناً :

ـ أحسب أنها سترغم على قبول ذلك .

ـ على أية حال ، سيبقى الامر على ما هو تماماً ، الحساء القديم نفسه سوى أنه مخفف أكثر من السابق .

ـ كيف تفسر الأمور هكذا ؟

ـ طبعاً سيكون الأمر كذلك .

وشرع بودتيلكوف ينقل عينيه الخرزيتين بسرعة أشد ثم رمى غريغوري بنظرة ثقيلة وأضاف :

ـ سيظل الأتمانات يجرون على منوالهم السابق فى اضطهاد الشعب الذي يتعين عليه أن يكد . ستمثل أمام واحد من أصحاب السعادة وسيضربك على الخرطوم . حياة جميلة ، حقاً . أفضل منها أن تعلق حجر الطاحونة على رقبتك وترمي بنفسك في النهر .

فنهض غريغوري وراح يمشي في الغرفة الصغيرة جيئة وذهاباً . ثم توقف أمام بودتيلكوف وسأله :

ـ فماذا علينا أن نفعل اذاً ؟

ـ علينا أن نتم المهمة!

ـ أية مهمة ؟

ـ حين تشرع بالحراثة عليك شق الأرض إلى النهاية . وحين تخلع القيصر والمعادين للثورة عليك تسليم الحكم إلى الشعب . وأما قصة الأيام الخوالي تلك فهي حديث خرافة . ففى الأيام الغابرة كان القياصرة يضطهدوننا ، ولئن لم يعد القياصرة يضطهدوننا الآن ، فسوف يضطهدنا آخرون غيرهم .

ـ اذاً ما هو سبيلك للخروج من المأزق ، يابودتيلكوف ؟

ومرة أخرى راحت عيناه الخرزيتان تجولان هنا وهناك ، تتنسمان منفذاً في تلك الغرفة الصغيرة التي ضاقت بما فيها .

ـ حكومة شعبية ، منتخبة . وان وقعنا في قبضة الجنرالات فالحرب آتية من جديد ، ولا أرانا بحاجة اليها . ليتنا نستطيع اقامة حكومة شعبية في جميع انحاء العالم فلا يضطهد الشعب أو يساق إلى الحروب! ولكن ماذا عندنا الآن ؟ انك إن قلبت السروال العتيق على بطانته فلن تتوارى ثقوبه .

وضرب بودتيلكوف ركبتيه ضربة داوية ، وافتر فمه عن ابتسامة صارمة كاشفاً عن صف مرصوص من أسنان صغيرة بيضاء وأردف :

ـ خير لنا أن نبتعد عن الايام الخوالي ، لكيلا يشدوا السرج علينا وتمسي حياتنا أسوأ منها أيام القيصر .

ـ ومن الذي سيحكمنا ؟

فأجاب بودتيلكوف بحمية متزايدة :

ـ سنحكم أنفسنا ، ستكون لنا حكومتنا نحن . ليرخوا حزام سرجنا قليلاً ، أما كاليدين وأمثاله فبوسعنا نحن ان نلقي بهم من على ظهورنا في الحال .

وقف غريغوري ازاء النافذة المضببة وطفق يحدق إلى الشارع . والى الاطفال وهم يلعبون ، والسقوف الندية للبيوت المقابلة ، والأغصان الرمادية الباهتة لشجرة حور تقوم وراء السياج ، ولم يعد ينصت إلى النقاش الدائر بين بودتيلكوف ودروزدوف . كان يجاهد متألماً لكيما يتبين ضوء النهار خلال

الأفكار التى اختلطت عليه فأثقلت كاهله ، ولكيما يتوصل إلى قرار ما .

ولبث هناك زهاء عشر دقائق يخط باصبعه على الزجاج الأحرف الأولى لبعض الأسماء . وكانت شمس المغيب الشتائي المبكر ، تتوهج وراء سقف البيت الواطىء المقابل . وكان قرص الشمس يبدو حاطاً على تسنيمة* السقف الصدئ وكأنه على وشك التدحرج في هذا الاتجاه أو ذاك . واندفعت من حديقة البلدة إلى الشارع أوراق مخشخشة متلاحقة ، وعصفت خلال البلدة ريح قادمة من أوكرانيا ولوغانسك ما لبثت أن اشتدت .

٣

غدت مدنية نوفوتشيركاسك محط أنظار كافة الهاربين من الثورة البلشفية . وتدفق إلى مناطق الدون السفلى جنرالات بارزون كان في يدهم ذات يوم مصير الجيوش الروسية المتدهورة ، جاؤوا يحدوهم الأمل في العثور على التأييد لدى رجعيي قوزاق الدون ، وليتخذوا الدون قاعدة للهجوم على روسيا السوفييتية . وفي الثاني من تشرين الثاني وصل الجنرال ألكسييف إلى المدينة . وبعد أن أجرى مداولات مع كاليدين شمر عن ساعد العمل لتنظيم مفارز من المتطوعين .

وتألف العمود الفقري لجيش المتطوعين العتيد من الضباط الذين فروا من الشمال وطلاب الكليات العسكرية ، والطلبة ، والجند الذين فقدوا ارتباطهم الطبقي ، ومن أنشط القوزاق المعادين للثورة ، ورجال يسعون وراء المغامرات والأجرة العالية ولو كانت بروبلات كيرنسكي .

وفي أواخر تشرين الثاني ، حين كان لدى ألكسييف أكثر من ألف رجل في مفارزه ، قدم الجنرالات لوكومسكي ، ماركوف وايرديلي .

* أعلى السقف الذى على شاكلة الجملون .

وفي السادس من كانون الأول وصل المدينة كورنيلوف نفسه الذى ترك في الطريق حرسه التركماني وبلغ حدود الدون متنكراً . وكان كاليدين قد أفلح آنذاك في سحب كتائب القوزاق كلها تقريباً من الجبهات الرومانية والنمساوية الألمانية ، فوزعها على امتداد خطوط السكك الحديد الرئيسية في اقليم الدون . بيد أن القوزاق ، الذين أرهقتهم أعوام الحرب الثلاثة فعادوا من الجبهة يحملون روحاً ثورية ، لم يبدوا رغبة شديدة لقتال البلاشفة . ولم يبق فى الكتائب سوى أقل من ثلث أفرادها ، اذ كانت نار المواقد في منازلهم تدعوهم إليها بإلحاح . ولم تكن على الأرض قوة بوسعها أن تحول بين القوزاق وزحفهم التلقائي نحو قراهم . ولم يبق فى بتروغراد من كتائب القوزاق الا ثلاث ، وحتى هذه لم تمكث هناك طويلاً . ثمة وحدات لم تكن موضع ثقة فحاول كاليدين اعادة النظر في تشكيلاتها ، أو عزلها باحاطتها بأشد قطعاته اخلاصاً .

وفي أواخر تشرين الثاني ، حين قام كاليدين بأول محاولة لارسال عدد من مفارز الجبهة لمهاجمة روستف الثورية ، أبى القوزاق أن ينفذوا الأمر ، وعادوا القهقرى دون أن يتقدموا إلا مسافة قصيرة . بيد أن التنظيم المتطور الواسع لتدعيم الفرق المشتتة بدأ يعطي ثماره . وما ان حل السابع والعشرون من تشرين الثاني حتى أصبح تحت امرة كاليدين عدد من مفارز المتطوعين المخلصين ، واستطاع أن يستعير بعض القوات من ألكسييف ، الذي كان آنذاك قد جمع بضعة أفواج .

وما ان حل الثاني من كانون الأول حتى أطبقت قوات الحرس الأبيض على روستوف وحين وصلها كرنيلوف غدت المدينة المركز التنظيمي لجيش المتطوعين . وترك كاليدين وشأنه ، فوزع وحدات القوزاق على امتداد حدود الاقليم حتى تساريتسين وأطراف مقاطعة ساراتوف . إلا أنه استخدم مفارز من الضباط والانصار لتنفيذ أشد مهامه خطورة ، فلم يكن بوسع الحكومة العسكرية الهزيلة أن تركن في تنفيذ المهام الآنية إلا إلى هذه الوحدات .

وأرسلت المفارز المجندة حديثاً لاخماد حركة عمال المناجم في الدونيتسك . وشرع الرئيس تشيرنتسوف بالعمل في منطقة ماكاييف حيث كانت ثمة وحدات من كتيبة القوزاق النظامية الثامنة والخمسين .

وقد شكلت في نوفوتشيركاسك مختلف المفارز والأرهاط الحربية تحت قيادة سيميليتوف وغريكوف ، وفي الشمال جمع الضباط والأنصار لتشكيل ما دعيت بمفارز « ستينكا رازين »* الا أن طوابير من الحرس الأحمر كانت تتقدم صوب المقاطعة من اتجاهات ثلاثة .

واستمر جمع القوات في خاركوف وفوروينج لتوجيه ضربة إلى أعداء الثورة في منطقة الدون . علت السحب الدون وتكاثفت وادلهمت . وبدأت رياح أوكرانيا تحمل دوي المدافع الذي رافق الاشتباكات الأولى .

٤

كانت ثمة غمامات منتفشة بيضاء مصفرة ، تنساب على مهل فوق نوفوتشيركاسك . وتعلقت في السماء فوق قبة الكاتدرائية اللامعة غمامة رمادية متجعدة كالعِهن المنفوش ، وقد تدلى ذنبها الطويل بلون فضي متورد .

لم تكن الشمس ساطعة عند شروقها ولكن نوافذ قصر الأتمان كانت تتوهج بأشعتها توهجاً قوياً . وكانت سقوف المنازل الحديدية المائلة تلتمع ، وتمثال يرماك** البرونزي مايزال مبللاً بمطر اليوم السابق ، رافعاً تاج سيبيريا .

سار فصيل من مشاة القوزاق صعداً إلى تل كريشنسكي ، وراحت أشعة

---

* ستيبان (ستينكا) رازين (١٦٣٠ ـ ١٦٧١) وهو الأتمان القوزاقي وزعيم الحرب الفلاحية (١٦٧٠ ـ ١٦٧١) . المعرب

** يرماك (توفي عام ١٥٨٥) وهو الأتمان الذى بدأ بقواته القوزاقية بفتح سيبيريا وانضمامها إلى روسيا . كان يتمتع بشعبية واسعة وأصبح ، وهو على قيد الحياة . بطلاً لقصائد وأغان شعبية كثيرة . المعرب

الشمس تتراقص مرحة على حراب بنادقهم . وكانت مشية القوزاق منتظمة لا يكاد وقعها يحدث الا صوتاً ضئيلاً لا يعكر صفو ذلك الصباح البلوري الذي لم يسمع فيه من صوت آخر سوى خطوات عابر سبيل يمر بين الفينة والفينة أو قعقعة عربة من عربات الدروزكي .

وصل صباح ذلك اليوم ايليا بونتشوك إلى نوفوتشيركاسك بقطار موسكو . وكان آخر من غادر عربة القطار لامّاً أطراف معطفه القديم شاعراً بالارتباك في ملابسه المدنية .

وكان ثمة دركي وفتاتان يتمشون ذهاباً اياباً على الرصيف وهما تتضاحكان لشيء ما . خرج بونتشوك إلى المدينة ، متأبطاً حقيبته الرخيصة الرثة . ولم يكد يصادف أيّما مخلوق في طريقه رغم أنه قطع المدينة من أدناها إلى أقصاها . وبعد أن سار نصف ساعة توقف أمام دار صغيرة خربة ، لم تمسسها يد الترميم لسنوات عديدة ، فعبثت بها يد الدهر ، وتهدل السقف ، وانحنت جدرانها ، وتدلت صفاقاتها الخشبية ، واحولت نوافذها . وحين فتح بونتشوك البوابة ألقى نظرة عجلى منفعلة على الدار وفنائها الصغير ، ثم أسرع مرتقياً الدرج .

صادفه صندوق معبأ بسقط المتاع يحتل نصف الممر الضيق . وقد ارتطمت ركبته بحافة الصندوق في الظلام ولكنه فتح الباب دون أن يشعر بالألم . ولم يكن ثمة أحد في الغرفة الأولى الواطئة . فذهب صوب الثانية ، وتوقف عند العتبة وقد أفعمته رائحة مألوفة جداً ينفرد بها هذا البيت ، ورأسه يدور . واستوعبت عيناه الغرفة برمتها : الايقونات بأطرها الثقيلة في الركن ، والسرير ، المائدة التي تعلوها المرآة الصغيرة المنقطة ، بضعة تصاوير ، عدد من الكراسي المخلخلة ، ماكنة الخياطة وسماور قديم فوق الموقد . فألقى حقيبة ملابسه وراح يحدق في أرجاء المطبخ وقد اشتد خفقان قلبه على حين غرة . وكان على الموقد المرتفع المطلي بالاخضر سيماء الترحاب ، وأطلت قطة عجوز رقطاء من وراء ستارة قطنية زرقاء ، تومض عيناها بما يشبه فضول

البشر ، فلابد أنها لم تألف الزوار . وكان ثمة صحون وسخة مبعثرة على المائدة ، وعلى مقعد تركت كرة من الصوف وأربعة إبر لماعة تحمل جورباً لما تتم حياكته .

ان ثمانية أعوام بطولها لم تغيّر شيئاً . لكأنه لم يغادر البيت إلا قبل يوم . وهرع خارجاً إلى الدرج . فظهرت عجوز محنية الظهر من باب سقيفة في أقصى الفناء . «أمي! ولكن أتراها هي ؟ أهي أمي ؟» واندفع يلقاها بشفتين مرتعشتين نازعاً قبعته وهو يركض .

تساءلت العجوز جفلة وهي تظلل عينيها براحة يدها :

ـ من تريد ؟

فانفجرت الكلمات مبحوحة في حنجرة بونتشوك :

ـ أماه! ألا تعرفينني ؟

ومضى نحوها متعثراً ، فشاهدها تترنح من وقع صرخته ، وكأن ضربة سددت إليها . وحاولت أن تركض ولكن لم تسعفها قواها ، فتقدمت بخطوات صغيرة وكأنها تكافح ريحاً هوجاء . واحتواها بين ذراعيه ، وراح يقبل وجهها المتغضن وعينيها ، اللتين غشيهما الخوف والفرح ، بينما كانت عيناه تطرفان بلا ارادة .

وراحت العجوز تهمس :

ـ ايليا! اليوشا! يا ولدي الصغير! لم أعرفك... رباه من أين جئت ؟ ـ وهي تحاول ان تعدل قامتها لتقف على قدميها الضعيفتين المرتجفتين .

دخلا البيت ، وخلع معطفه المستعار وهو يتنفس الصعداء ، ثم جلس ازاء المائدة .

ـ لم يدر في خلدي أبداً أنني سأراك ثانية وأنت على قيد الحياة... مضت سنوات كثيرة... يا عزيزي... كيف أستطيع معرفتك ، لقد نما جسمك كثيراً ، وصرت تبدو أكبر سناً .

فسألها باسماً :

ـ حسناً ، وكيف حالك ، يا أمي ؟

كان جوابها متقطعاً ، وهي تنتقل هنا وهناك ، تعد المائدة ، وتضع الفحم فى السماور . وكانت تهرع إلى ابنها ، المرة تلو المرة ، بدموعها المنهمرة لتمسد رأسه وتشده إليها وهي تمسح خديها المبللين وتلطخهما بالفحم الأسود . ثم غلت الماء وغسلت رأسه بنفسها ، وأخرجت له من أسفل الصندوق بعض الملابس الداخلية النظيفة التي اصفر لونها من فرط القدم ، ثم قدمت إلى ضيفها العزيز وجبة طعام وجلست حتى منتصف الليل ، وقد سمرت فيه عينيها ، تسأله عن حاله وتهز رأسها بحزن .

كانت الساعة الثانية قد دقت في كنيسة مجاورة حين رقد بونتشوك لينام . وقد استغرق فى النوم حالاً ، ورأى في نومه أنه عاد من جديد تلميذاً في مدرسة الصنائع وقد أنهكه التعب جراء اللعب فأغفا فوق كتبه ، بينا فتحت أمه باب المطبخ وسألته بصرامة : «ايليا ، هل حفظت دروسك ليوم غد ؟» كان نائماً وقد تسمرت على محياه ابتسامة تطفح بالهناء .

ذهبت أمه اليه أكثر من مرة خلال الليل لتسوي غطاء بطانيته ووسادته ، وتقبل جبينه السمح بخصلة من شعره الشقراء تدلت عليه ثم تخرج ثانية بهدوء .

أمضى في بيته يوماً واحداً فقط . وفي الصباح جاءه رفيق يرتدي معطفاً عسكرياً وقبعة جديدة من الخاكي وتحادث معه بصوت خافت ، وبعد أن غادره الرجل ، تنقل هنا وهناك منهمكاً فى اعداد حقيبته ووضع فيها الملابس الداخلية التي غلتها له والدته ، وارتدى معطفه الذي لا يلائمه . ثم ودع أمه وداعاً عاجلاً ، بعد أن وعد بزيارتها فى غضون شهر .

ـ أين أنت ذاهب الآن ، يا ايليا ؟

ـ إلى روستوف ، أماه ، إلى روستوف ، سوف أعود عما قريب... لا تحزني ، أماه... لا تحزني .

قال لها ذلك مشجعاً . فأسرعت تنزع صليباً صغيراً من حول عنقها ، وبينا

هى تقبل ابنها أنزلت الخيط حول رأسه وسوته حول رقبته بأصابع مرتعشة ، ثم همست :

ـ احمل هذا ، ايليا . احمه ونجه أيها القديس نيقولاي ، احفظه بجناحيك فهو كل ما عندي فى هذه الدنيا .

وفيما كانت تعانقه بكل حرارة ، لم تقو على كبح جماح نفسها فارتعشت زاويتا شفتيها وتهدلت بمرارة . وكمثل مطر الربيع تساقطت دموعها الدافئة ، واحدة اثر واحدة ، على يد بونتشوك المكسوة بالشعر . ثم فكّ يديها عن رقبته وهرول إلى خارج البيت بوجه مكفهر محزون .

* * *

كانت محطة روستوف تعج بحشد تزاحم كالقطيع ، وقد تراكمت على الأرض حتى الكاحل أعقاب السكائر وقشور بذور عباد الشمس . ووقف جنود من حامية المدينة فى ساحة المحطة يبيعون المعدات والتبغ والحاجيات التي سرقوها . وكان يضج ويموج أمامه حشد حاشد من شتى الأقوام كالذي يشاهده المرء في مرفأ من مرافئ الجنوب . وشق بونتشوك طريقه خلال الحشد إلى غرفة لجنة الحزب وارتقى السلم الى الطابق الأول . فاعترض سبيله جندي من الحرس الأحمر ببندقية من طراز ياباني . وكانت حربتها عريضة قصيرة .

ـ ماذا تريد ، أيها الرفيق ؟

ـ أريد الرفيق أبرمسون . أهو هنا ؟

ـ الغرفة الثالثة الى اليسار .

فتح بونتشوك باب الغرفة المقصودة ، فوجد رجلاً قصير القامة أسود الشعر كبير الأنف يتحدث إلى عامل من عمال السكة الحديد . كانت يسراه تحت ياقة سترته ويمناه تلوح فى الهواء بانتظام . وكان الرجل ذو الشعر الأسود يقول :

ـ ما هذا بالعمل المرضي! ليس ذلك بتنظيم! اذا سارت الدعاية على هذا

المنوال فإنك تحصل على عكس النتيجة التي نريدها تماماً .

وكانت نظرة الشعور القلق بالذنب البادية على وجه عامل السكة الحديد تدل على أنه يريد قول شيء يبرر به عمله ، الا أن الرجل الآخر لم يدعه يفتح فاه . ومن الواضح أنه كان منفعلاً أشد الانفعال اذ كان يصرخ :

ـ أزح ميتشنيكو من العمل فوراً! لا يمكن احتمال ذلك! لا يمكننا السماح بما يجرى بينكم . سوف يترتب على فيرخوتسكي أن يمثل من أجل ذلك أمام المحكمة الثورية . هل تم إلقاء القبض عليه ؟ أجل ؟ سأصر على رميه بالرصاص! ـ وحين أنهى كلامه القاسي هذا ، أدار وجهه الغاضب صوب بونتشوك ، قبل أن يسيطر على نفسه تماماً ، وسأله بحدة : ـ ماذا تريد ؟

ـ هل أنت أبرامسون ؟

ـ نعم .

فناوله بونتشوك وثائق ورسالة من أحد الرفاق المسؤولين في بتروغراد وجلس على طنف النافذة . فقرأ أبرامسون الرسالة بعناية ويبدو أنه ندم لما أبدى من خشونة فابتسم لبونتشوك ابتسامة كئيبة ، وقال :

ـ انتظر قليلاً ، سنتحادث بعد لحظة أو لحظتين .

ثم صرف عامل السكك وخرج ، ليعود مع ضابط حليق الوجه متين البنية من الجيش النظامي يحمل على فكه أثر ضربة بالسيف .

ـ إليك عضواً من أعضاء لجنتنا العسكرية الثورية . وأنت ، أيها الرفيق... آسف ، نسيت اسمك .

ـ بونتشوك .

ـ أنت من حملة الرشاشات ، أليس كذلك ؟

ـ بلى .

ـ أنت ضالتنا المنشودة .

قال ذلك وابتسم فتورد أثر الجرح بطوله ، من أذنه حتى نهاية فكه . ثم قال أبرامسون سائلاً :

ـ هل تستطيع أن تنظم لنا مفارز حملة رشاشات بين العمال المنتمين إلى الحرس الأحمر ؟ بأسرع ما يمكن ؟

ـ سوف أحاول . انها مسألة وقت .

فقال العسكري مائلاً نحو بونتشوك وعلى ثغره ابتسامة أمل :

ـ حسناً ، كم من الوقت تحتاج ؟ أسبوعاً... اثنين ، ثلاثة ؟

ـ بضعة أيام .

ـ عظيم .

وفرك أبرامسون جبينه ، ثم قال بكدر واضح :

ـ ان مفارز حامية المدينة واهنة العزيمة ، وليس بالوسع الاعتماد عليها ، كما هي الحال فى كل مكان ، على ما أظن ، أيها الرفيق بونتشوك . ان محط آمالنا هنا هم العمال . والبحارة كذلك ، أمّا الجنود... ولهذا السبب نريد حملة رشاشات من جماعتنا . ـ ثم أمسك لحيته السوداء ، وقال سائلاً : « كيف تتصور وضع تجهيزاتنا ؟ حسناً ، سنتدبر ذلك . هل تيسر لك ما تأكله هذا اليوم ؟ لا ، بالطبع لا » .

«لا بد أنه ذاق طعم الحرمان في حياته ، فهو يستطيع أن يحكم من أول نظرة ما إذا كان المرء متخماً أم جائعاً ، ولا بد أنه عانى الكثير من المتاعب أو الرعب ليجمع في رأسه كل هذا الشيب» . هذا ما دار في نفس بونتشوك وقد تملكه حنان مفاجئ ، وهو يرى الى بقعة الشيب التي كانت تسطع على رأس ابرامسون الأسود كالخنفساء . وظل بونتشوك يفكر بأبرامسون وهو ذاهب إلى غرفته بصحبة أحد الأدلاء : « إنه رجل طيب ، بلشفي حقيقي! صارم ، ولكنه يحمل طيبة وانسانية فى أعماقه . إنه لا يتردد فى اصدار حكم الإعدام على مخرب ما ، ومع ذلك فهو يهتم بحاجات رفاقه» .

وكان مايزال متأثراً بالانطباع الدافئ الذي تكون لديه في ذلك اللقاء حين وصل إلى منزل أبرامسون ، فسلم ربة البيت رسالة من عنده وتناول بعض

العشاء ، ثم استلقى ليستريح على السرير فى الغرفة الصغيرة الملأى بالكتب . وسرعان ما أخذته سنة من النوم .

٥

فى الأيام الأربعة التالية ، شغل بونتشوك منذ الصباح الباكر حتى الليل ، بالعمال الذين أرسلتهم اليه لجنة الحزب . كان مجموعهم ستة عشر رجلاً ، وكانت حرفهم أيام السلم مختلفة جداً ، وكذلك تباينت أعمارهم وتعددت مللهم . كان بينهم عاملا ميناء هما خفليتشكو الأوكراني ، وميخاليدي اليوناني المتجنس بالروسية ، ومنضد حروف المطبعة ستيبانوف ، وثمانية من عمال التعدين ، وزيلينكوف عامل في مناجم بارامونوف ، وغيفوركيانتس خباز أرمني بادي الهزال . وألماني متجنس بالروسية وهو ميكانيكي ماهر يدعى ريبيندر ، وعاملان من معامل السكة الحديد . ثم وصلت الرسالة السابعة عشرة إلى بونتشوك بيد امرأة ترتدي معطفاً عسكرياً محشواً وجزمة كبيرة جداً لا تناسبها . وحين تناول الرسالة المختومة ، سألها قائلاً

ـ هل تستطيعين أن تمري بمقر الأركان فى طريق عودتك ؟ فابتسمت محرجة وسوّت خصلة غزيرة من شعرها تدلت من تحت عصابة رأسها ، ثم أجابت بارتباك :

ـ لقد أرسلوني اليك... ـ ثم تغلبت على ارتباكها الطارئ ، وأضافت : ـ ... كحاملة رشاش .

فاحمر وجه بونتشوك ، وقال :

ـ هل جن جنونهم ؟ أينبغي لي أن أشكل فوجاً نسائياً ؟ أرجو المعذرة ، ولكن هذا عمل لا يناسبك ، انه شاق ويتطلب قوة الرجال . كلا ، لا أستطيع قبولك .

ثم فض الرسالة ، وهو مايزال عابساً ، ومر على محتوياتها بعجالة . ان

كتاب التجنيد نفسه لا يعدو أن يقول ان عضو الحزب آنا بوغودكو قد نسبت إلى صنف الرشاشات ، لكن أبرامسون كان قد أرفق الكتاب برسالة قرأها بونتشوك مرات عديدة جاء فيه :

عزيزي الرفيق بونتشوك :

نبعث إليك رفيقاً طيباً في شخص آنا بوغودكو . لقد أذعنّا لطلبها الملحاح ونأمل أن تجعل منها حاملة رشاش محاربة . انني أعرف الفتاة . وبوسعي أن أزكيها بحرارة .انها عاملة جليلة النفع ، واني لأرجوك أن تنتبه إلى أمر واحد : انها فتاة ملتهبة المشاعر ذات مزاج حاد بعض الشيء فهي ماتزال غراً (فهي لم تستطع أن تتخطى شبابها) ، امنعها من اتيان الأعمال الطائشة ، واعتن بها .

ان نواة مفرزتك ستتألف ، بدون شك ، من عمال التعدين الثمانية . ومن بين هؤلاء أول اهتماماً خاصاً ببوغوفوي فهو رفيق قدير مخلص للثورة . ان مفرزتك حملة الرشاشات ، أممية في تكوينها ، وذلك أمر حسن يزيد من قدرتها على القتال . عجل في التمرين ، فقد بلغنا أن كاليدين يعد العدة لمهاجمتنا .

مع تحيات رفاقية

أبرامسون

تفرس بونتشوك في الفتاة الماثلة أمامه ، ولم يستطع أن يتبين معالم وجهها فقد أخفته عتمة القبو الذي أعطى له مثابة المقر . ثم قال بلا مجاملة :

ـ أوه حسناً! اذا كانت هذه مشيئتك أنت... وبما أن أبرامسون يرجو ذلك ، فبوسعك البقاء .

* * *

واحتشدوا حول المدفع الرشاش ، وخيموا عليه كالعنقود مستندين إلى

ظهور بعضهم البعض وراحوا يرقبونه بعيون متلهفة فيما كانت يدا بونتشوك تفصلان أجزاءه . ثم أعاد تركيبه ، وهو يشرح طبيعة كل جزء ، ويبين لهم كيفية استعماله ، وحشوه وتصويبه ، وتثبيت المحرك والمدى . ثم علمهم كيف يحمون أنفسهم من نار العدو ، مشيراً الى ضرورة نصب المدفع على موقع مناسب ووضع شريط العتاد بصورة صحيحة .

وقد تعلم السبعة عشر كلهم بسرعة ، باستثناء الخباز غيفوركيانتس . فمهما حاول بونتشوك أن يعلمه لم يستطع أن يتذكر شيئا ، وطار صوابه ، وهو يغمغم مرتبكاً :

ـ لماذا أخطئ ؟ آه... انني لأحمق... هذه القطعة ينبغي أن تكون هناك... ولكنها مع ذلك ليست في محلها! ـ ثم صرخ يائسا : ـ لماذا ؟

ـ اليك السبب! ـ حاكاه في ذلك بوغوفوي وهو رجل أسمر ، ترك البارود آثاراً زرقاء على جبينه وخديه . وأردف : ـ انك لا تستيطع تركيبه لأنك مغفل . إليك ما ينبغي أن تفعل . ـ فوضع الجزء في محله الصحيح بكل ثقة وأردف : ـ منذ صباي كنت مولعاً بالأمور العسكرية . ـ ثم أشار إلى الآثار الزرقاء على وجهه وسط ضحك الجميع . ـ لقد حاولت أن اصنع مدفعاً ، ولكنه انفجر ، فنلت أسوأ عاقبة ، ولهذا السبب ترونني الآن ماهراً .

وكان هو فعلاً أول من أتقن فن استعمال المدفع الرشاش .

ولم يتخلف سوى غيفوركيانتس ، فكان صوته المتوجع الحانق يتردد على الدوام :

ـ أخطأت ثانية ، ولكن لماذا ؟ لست أدري!

ـ يا لك من حمار! ليس في ناخيتشيفان الا حمار واحد مثله!

قال ذلك ميخاليدي بغضب ، وأيده الألماني المتحفظ ريبندر قائلاً :

ـ انه أحمق بشكل لا مثيل له .

وقال خفيليتشكو مازحاً :

ـ ان هذا العمل لا يشبه عجن العجين .

فابتسم الجميع ابتسامة رضية . بيد أن ستيبانوف صاح متكدراً وقد أحمر وجهه :

ـ يجب أن تعلموا رفيقكم لا أن تضحكوا منه!

وقد أيده في ذلك كروتوغوروف ، وهو عامل ضخم الهامة طويل الأطراف جاحظ العينين من معامل السكك الحديد ، قال :

ـ تقفون ضاحكين هناك ، أيها الحمقى ، فتؤخرون العمل! أيها الرفيق بونتشوك ، درب تماثيلك الشمعية هذه ، أو اطردها! ان الثورة في خطر وهم يقفون ضاحكين!

ثم لوح قبضة يده الشبيهة بالمطرقة الكبيرة .

استفسرت آنا بوغودكو عن كل شيء باهتمام بالغ . كانت ترهق بونتشوك ، وتعتّ كميه ، ولم تتزحزح عن جانب المدفع الرشاش . وكانت تلحف عليه بالأسئلة رافعة إلى عينيه برجاء عينيها السودوابين الوامضتين :

ـ ماذا يحدث لو أن الماء تجمد في خزان الماء ؟... ما هو الميل اللازم لريح شديدة ؟

كان يشعر بالارتباك في محضرها ، فغدا يتشدد معها ، فيسلك حيالها سلوكاً بالغ الفتور . ولكن شعوراً جياشاً غريباً كان ينتابه حين تدلف إلى قبوه في تمام السابعة صباح كل يوم ، وقد أخفت يديها في كمي سترتها ، وهي تجر خطاها في جزمتها العسكرية الكبيرة .

كانت أقصر منه قليلاً ، لها الجسد القوي البدين تلك البدانة التي تتميز بها العاملات اللواتي يتمتعن بصحة جيدة ، وربما اتصف كتفاها بشيء من الاستدارة ، وربما افتقرت إلى الجمال ، لولا عيناها الواسعتان الأخاذتان اللتان تضفيان على محياها برمته جمالاً غريباً .

ولم تكد تسنح له فرصة لإمعان النظر فيها ، في الأيام الأربعة الأولى . كان القبو رديء الانارة ، وحتى لو تيسر لديه الوقت لينعم النظر في وجهها فما كان ليستمرئ ذلك . وفي مساء اليوم الخامس غادرا القبو سوية . كانت

تسير أمامه ، ولكنها حين وقفت عند الدرجة الأخيرة والتفتت لتسأله عن شيء ما ، شهق بونتشوك شهقة صامتة حين رآها في ضوء الغروب . وقفت تنتظر الجواب ، وقد أمالت رأسها قليلاً ، وسمرت عينيها فيه ، وهى تدفع شعرها إلى الوراء بيدها . غير أنه لم يسمع سؤالها . ومضى يرتقي السلم على مهل ، وقد تملكه احساس رقيق إلى حد الألم . ووجدت صعوبة فى ترتيب شعرها ثانية دون أن تخلع عصابة رأسها ، وقد ارتعش منخراها الورديان رعشة طفيفة جراء انهماكها . وكانت معالم فمها قوية لا تخلو من رقة صبيانية . وبدا على شفتها العليا المرفوعة زغب ناعم لاح داكناً على أديم بشرتها . فأحنى رأسه وكأنه يتلقى ضربة وقال مازحاً على نحو مسرحي :

ـ آنا بوغودكو ، يا حاملة الرشاش رقم ٢ ، انك جميلة مثل السعادة التي يرفل بها البعض .

ـ هراء! ـ أيها الرفيق بونتشوك! سألتك عن موعد ذهابنا غدا للتمرين على الرمي .

وأضفت عليها ابتسامتها مزيداً من البساطة والالفة والقرب .

وتوقف بجانبها يسرح نظرة ساهمة في الشارع حيث كانت الشمس جانحة تغمر كل الأشياء بغشاوة زرقاء . ثم أجابها بصوت خافت :

ـ التمرين على الرمي ؟ غداً . في أي اتجاه تذهبين ؟ أين تقيمين ؟

فذكرت اسم شارع صغير في أطراف المدينة . وذهبا معاً .

وعند أحد مفترقات الطرق أدركهما بوغوفوي ، وقال :

ـ بونتشوك ، متى نجتمع غداً ؟

فأوضح بونتشوك وهم سائرون أنهم سيلتقون فى الساعة الثامنة غداً فى غابة تيخايا . وسيأتي اثنان من الآخرين بمدفع رشاش في عربة . ورافقهما بوغوفوي مسافة قليلة ثم ودعهما .

واستمر بونتشوك وآنا يسيران بعض الوقت دونما كلام . وأخيراً رمقته بنظرة جانبية وقالت سائلة : ـ هل أنت قوزاقي ؟

ـ أجل .
ـ وهل كنت ضابطاً ؟
ـ لا ، أبداً .
ـ من أي منطقة أنت ؟
ـ من نوفوتشيركاسك .
ـ هل مضى عليك وقت طويل في روستوف ؟
ـ بضعة أيام .
ـ وقبل ذلك ؟
ـ كنت في بتروغراد .
ـ متى انضممت إلى الحزب ؟
ـ في عام ١٩١٣ .
ـ وأين عائلتك ؟
ـ في نوفوتشيركاسك ، ـ قال ذلك على عجل ومد يده متوسلاً : ـ قفي قليلاً ودعيني الآن أقوم ببعض الأسئلة . هل ولدت في روستوف ؟
ـ لقد ولدت في مقاطعة يكاترينوسلاف ، ولكني أقمت هنا منذ أمد قريب .
ـ هل أنت أوكرانية ؟
فترددت برهة ، ثم أجابت بحزم :
ـ كلا .
ـ يهودية ؟
ـ نعم ، ولكن كيف عرفت ؟ هل أتكلم كما يفعل اليهود ؟
ـ كلا .
ـ إذاً ، كيف حزرت أني يهودية ؟
فقصر خطواته في محاولة لتنسيقها مع خطواتها ، وأجاب :
ـ أذنك ، شكل أذنيك ، وعينيك . والا فليس فيك ما ينم قليلاً عن

قوميتك . ـ ثم صفن برهة ، وأردف : ـ إنه لأمر حسن أنك معنا .

فسألته بلهفة :

ـ لماذا ؟

ـ حسناً ، ان لليهود سمعة معينة . وأعرف أن كثيراً من العمال يعتقدون بصحة هذا ـ وأنا كما ترين عامل أيضاً ـ إن اليهود يصدرون الأوامر ولايعرضون أنفسهم للنار . ليس ذلك صحيحاً . وإنك ستبرهنين بشكل رائع على أن ذلك ليس صحيحاً

ـ هل درست في مكان ما ؟

ـ أجل ، لقد تركت المدرسة الثانوية في العام الماضي . من أين حصلت على ثقافتك ؟ أسألك هذا لأن حديثك يظهر بأنك من اصل غير عمالي .

ـ لقد قرأت الكثير .

ومضيا يسيران على مهل . وقد عمدت إلى اختيار طريق أطول إلى بيتها ، وبعد أن أخبرته شيئاً يسيراً عن نفسها ، شرعت تسأله عن هجوم كورنيلوف ، وعن موقف عمال بتروغراد ، وعن ثورة أكتوبر .

ووصل سمعهما من مكان ما في المرفأ اطلاق بندقية ، ثم مزق الصمت مدفع رشاش . فبادرت إلى السؤال :

ـ ما نوع ذلك الرشاش ؟

ـ لويس .

ـ ما مقدار ما استهلكه شريط العتاد ؟

لم يجب على سؤالها . فقد كان يتأمل باعجاب الضوء البرتقالي الكشاف ترسله سفينة صيد راسية إلى سماء المغرب الملتهبة .

تجولا فى أرجاء المدينة الخاوية قرابة الثلاث ساعات ، وافترقا في النهاية عند بوابة المنزل الذى تقيم فيه .

وعاد إلى بيته مفعماً بالغبطة والرضى .

ـ انها رفيقة رائعة ، وفتاة ذكية! ،حسناً فعلتُ بالحديث معها . لقد

غدوت خشن الطباع خلال الأعوام الأخيرة . لا بد أن تكون للمرء صلات ودية مع الناس ، والا غدا جافاً كالخبز العسكري .

كان ذلك يدور في خلده وهو يخادع نفسه عن عمد .

وجد أبرامسون قد عاد لتوه من اللجنة العسكرية الثورية ، فشرع يسأل بونتشوك عن تدريب مفرزة حملة الرشاشات ، ثم سأله عن آنا :

ـ كيف الحال معها ؟ اذا كانت غير لائقة فبوسعنا أن نجد لها عملاً آخر بسهولة .

فاجابه بونتشوك بهلع :

ـ آه ، كلا! انها فتاة جد قديرة .

وأحس رغبة لا تقاوم للمضي في الحديث عنها ، ولم يستطع كبح هذه الرغبة الا بجهد عظيم من ارادته .

٦

في ظهر الخامس والعشرين من تشرين الثاني شرع كاليدين يدفع قواته في الهجوم على روستوف . فتقدمت صفوف قليلة من مفارز ضباط الكسييف على امتداد السكة الحديد ، تساندهم من الجناح الأيمن قوة أكبرمن طلاب الكلية العسكرية ، ومن الجناح الأيسر مفرزة المتطوعين التابعة لبوبوف ، وتواثبت أشباحهم مثل خلق رمادية داخل خندق ، ثم تزاحفت خارجة وانتظمت صفوفها من جديد .

وكان صف الحرس الأحمر المنتشر على أطراف مدينة ناخيتشيفان قلقاً لا يقر له قرار وكان بعض العمال ، وكثير منهم يحمل بندقية لأول مرة في حياته ، يحسون بالخوف ويزحفون ، هنا وهناك ، بمعاطفهم السود ، لايكترثون بوحل الخريف ، وكان بعضهم يرفع الرأس ويحدق بالأشباح الصغيرة النائية للجنود البيض المتقدمين .

وكان بونتشوك في ذلك الصف ، راكعاً بجانب مدفعه الرشاش ، والمنظار على عينيه . وكان في اليوم السابق قد غيّر معطفه المدني المزعج ، فأصبح يشعر بالراحة والسكينة في معطفه العسكري .

فتح الرجال النار دون انتظار لاشارة الآمر : كان السكوت متوتراً حين دوّت الطلقة الأولى ، أرسل بونتشوك اللعنات ، ثم قفز على قدميه ، وصرخ :

ـ أوقفوا النار!

ولكن صرخته غرقت في خضم الطلقات ، فتخلى عن محاولته ، وأمر بوغوفوي أن يفتح النار بالمدفع الرشاش ، جاهداً أن يسمع صوته فوق دوي الطلقات . فألصق بوغوفوي وجهه الباسم الرمادي بمغلاق المدفع الرشاش ثم لفّ اصبعه حول الزناد . فنفذت إلى أذن بونتشوك لعلعة المدفع الرشاش المألوفة . وحدق صوب العدو ليتبين دقة التصويب ، ثم هرول على امتداد الصف نحو المدافع الرشاشة الأخرى .

ـ ارم!

ـ حسناً! ها ـ ها ـ ها ـ ها!

هكذا دوى صوت خفيليتشكو ، وهو يلتفت اليه بوجه مرتعب وسعيد في آن واحد .

ولم يكن الفتيان العاملون حول المدفع الرشاش الثالث من المركز موضع اعتماد تام ، فهرول بونتشوك اليهم . وتوقف في منتصف الطريق ، واذ انحنى ، شرع يحدق في عدسات المنظار المضببة . واستطاع أن يرى أجسادهم الرمادية المتزاحمة تتحرك عن بعد ، وقد وصل سمعه صوت رميهم المستمر . فارتمى على الأرض ، ورأى ، وهو منبطح ، أن مدى المدفع الرشاش الثالث لم يكن دقيقاً ، فصاح وهو ويزحف على الخط :

ـ أخفضوه ، أيها الشياطين!

كانت الطلقات تصفر واطئة فوقه بشكل خطر . كان العدو يرمي بدقة من يقوم بالتمرين . كانت فوهة المدفع الثالث مائلة بزاوية تبعث على الضحك ،

وقد ارتمى الرجال حوله على بطونهم .

وكان ميخاليدي اليوناني يطلق النار دون توقف ، فيبدد عتاده . وكان بقربه ستيبانوف مرتعباً ، وخلفه أحد عمال السكة الحديد وقد غاص برأسه إلى الأرض ، وحدّب ظهره كالسلحفاة .

فدفع بونتشوك ميخاليدي جانباً ، وسدد المدفع تسديداً بعيداً محكماً . وحين بدأت الطلقات تندفع منه ثانية كان لها أثرها الفوري . فقد ولت الأدبار حدر التل ثلة من طلاب الكلية العسكرية ، كانت تتقدم نحوهم جرياً ، تاركة وراءها أحد الطلبة على الأرض الطينية .

وسلمهم بونتشوك المدفع ، وعاد إلى مدفعه ، فوجد بوغوفوي راقداً على جنبه ، وهو يقذف اللعنات ويعصب جرحاً في الجزء اللحمي من ساقه ، وكانت آثار البارود تبدو بشكل أوضح على وجهه الشاحب .

وهتف أحد رجال الحرس الأحمر زنجبيلي الشعر وهو يجثو على ركبتيه بجانبه :

ـ واصل الرمي ، أنت أيها الشيطان! ألا تراهم يتقدمون ؟

كانت صفوف مفرزة الضباط تتقدم عبر المنحدر بنسق محكم .

حل ريبيندر محل بوغوفوي وشرع يرمي بمهارة دون أن يبدد عتاده أو يتعرض للانفعال .

وجاء غيفوركيانتس من الجناح الأيسر ينط كالأرنب ، منبطحاً اثر كل رمية تمر فوق رأسه ، متوجعاً صارخاً :

ـ لا أستطيع... لا أستطيع... لقد استعصى! أصابه العطب!

فهرع بونتشوك راكضاً على امتداد الصف الى المدفع المعطوب .

وقبل أن يبلغه بمسافة قصيرة رأى آنا بجانبه وقد جثت على ركبتيها ، وراحت تحدق من تحت راحة يدها في صف العدو المتقدم وهي تبعد خصلة من شعرها تدلت على عينيها .

فهتف بها ، وقد ادلهم وجهه خوفاً عليها :

ـ انبطحي! انبطحي ، اني آمرك!

فرمقته بنظرة خاطفة ولبثت راكعة فأوشكت لعنات ثقيلة كالصخر أن تنطلق من شفيته . ثم هرع يركض إليها ودفعها إلى الأرض بعنف .

ورقد كروتوغوروف يحمحم وراء درعه ، وتمتم لبونتشوك قائلاً :

ـ لقد أصابه العطب! لا يعمل! ـ وتلفت باحثاً عن غيفوركيانتس ، وانفجر صارخاً :

ـ لقد هرب الآن ، لعنة الله عليه! لقد زعزعني بأنينه... انه لا يدع الانسان يعمل!

وجاء غيفوركيانتس ، زاحفاً متلوياً كالثعبان ، وقد علق الوحل بلحيته الشعثاء السوداء ، فحدق كروتوغوروف فيه برهة ، ثم صرخ بأعلى من دوي الرصاص :

ـ ماذا صنعت بأحزمة العتاد ؟ أيها الحيوان! أبعده عني ، يا بونتشوك ، وإلا سأقتله!

وفيما كان بونتشوك يفحص الرشاش أصابت الدرع طلقة شديدة ، فسحب يده وكأن النار قد لسعتها . ثم أصلح المدفع ، وأصلى رجال الكسييف المغيرين بالرصاص فأرغمهم على الانبطاح . ثم انسحب بعيداً ، وهو يبحث عن وقاء .

اقتربت صفوف العدو . ورأى بونتشوك ، والمنظار على عينيه ، سير المتطوعين فهم لا ينبطحون الا نادراً . واشتدت نارهم . وقد أصيب ثلاثة من رجال الحرس الأحمر ، فأخذ رفاقهم بنادقهم وعتادهم : فليس للأموات من حاجة إلى السلاح... لقد أصيب شاب من الحرس الأحمر برصاصة أمام عيني آنا وبونتشوك وهما راقدان بجانب مدفع كروتوغوروف .

فتلوى وتوجّع ، رافساً الأرض ، وأخيراً رفع نفسه فوق الأرض بيديه ثم سعل وشهق للمرة الاخيرة . وحدج بونتشوك آنا بنظرة من طرف عينه . اعتراها رعب كانت تحدق دون طرفة عين بساقي الفتى المتوفى ولفاف الخرق

يحيط بهما ، فلم تنتبه لصياح كروتوغوروف :

ـ شريط... شريط...! أيتها الفتاة ، أعطيني شريطاً جديداً!

وبحركة التفاف بعيد المدى اضطرت قوات كاليدين صفوف الحرس الأحمر على التراجع . فشرعت المعاطف السود للعمال ، ومعاطف الحرس الأحمر العسكرية تتسرب الى شوراع الضواحي .

وقد سقط المدفع الرشاش القائم في أقصى الجناح الأيمن فى يد البيض ، اذ أصاب أحد طلاب الكلية العسكرية ميخاليدي اليوناني بطلقة وأرداه قتيلاً . وطُعن حامل رشاش ثانٍ بالحراب ، ولم يستطع النجاة سوى منضد الحروف ستيبانوف .

وتوقف التراجع حينما شرعت القذائف الأولى تنطلق من سفن الصيد الحمر في المرفأ .

صرخ رجل ، وهو يركض إلى أمام ، وقد عرفه بونتشوك عضواً فى اللجنة الثورية :

ـ اصطفاف!... اتبعوني!...

تردد الحرس الأحمر ، ثم استداروا ، وتقدموا هاجمين .

وكان بونتشوك قد لمّ حوله كلاً من آنا ، وكرتوغوروف ، وغيفوركيانتس .

ومر بهم ثلاثة من الحرس الأحمر . كان أحدهم يدخن ، والاخر حاملاً بندقيته بحيث كان ترباسها يرتطم بركبته ، وكان ثالثهم يتفحص أذيال معطفه المتسخ باهتمام . وكانت ثمة ابتسامة مرتبكة تلوح في ذؤابتي شاربيه ، لكأنه غير ذاهب لمواجهة الموت بل عائد الي بيته بصحبة أصدقائه من وليمة شراب ، يتفحص سترته ليقدر درجة العقوبة التى يتوجسها من زوجته الشكسة . وأشار كروتوغوروف ، على حين غرة الى سياج بعيد تجمع خلفه عدد من الناس بملابسهم الرمادية ، وصاح :

ـ هناك هم!

فربض بونتشوك كالدب وأدار الماسورة صوبهم . وانطلقت لعلعة المدفع الرشاش فسدت آنا أذنيها . وجلست ورأت الحركة تتلاشى خلف السياج . وبعد برهة ، فتح البيض ناراً محكمة التسديد ، فتطاير الرصاص فوقهم ، ناخراً في لوحة المساء المضببة ثقوباً لا تراها العين . وجلجل الشريط وهو يمر عبر المدفع الرشاش كالطبل الصغير . وتصارخت فوق رؤوسهم القذائف التى أطلقها بحارة أسطول البحر الأسود من الميناء . وكان للطلقات المنفردة دوي عال لدن . وكان صرير القذائف الداوي فوق الرؤوس يصم الآذان . وشاهدت آنا رجلاً ضخماً من الحرس الأحمر ، بقبعة من جلد الخراف ، وشاربين مشذبين على الطراز الانكليزي ، ينحني دون ارادة مع كل قذيفة تمر فوق رأسه . وكان يصيح :

ـ لقنهم درساً يا سيمون ، لقنهم درساً!

وكان البحارة قد أحكموا التسديد ، فأصلوهم ناراً مركزة .

وكان منثار القنابل المتفجرة يحيق بجماعات مبعثرة من قوات كاليدين المتقهقرة . وقد انفجرت احدى القذائف فوق جماعة منهم مباشرة فنثر عمودالانفجار البني أولئك الرجال شذر مذر .

فزلقت آنا منظارها ، وتأوهت ، حاجبة عينيها الهلعتين بيديها المتسختين . وانتاب حنجرتها تشنج مر . فصاح بونتشوك بها :

ـ ما الأمر ؟

فصكّت على أسنانها وزاغت عيناها المتسعتان :

ـ لا أستطيع...

فدوى في أذنيها صوته الآمر المهيمن :

ـ تشجعي! أنت... أنا ، أتسمعينني ؟ أتسمعينني ؟ لا تفعلي ذلك! لا تفعلي...

كان بعض رجال العدو قد تجمع في الجناح الأيمن ، في الوادي وعلى سفوح أحد التلال . وقد اكتشف بونتشوك أمرهم ، فهرول بمدفعه الرشاش

إلى نقطة ملائمة وفتح النار على الوادي .

وكان مدفع ريبندر يطلق بدفعات قصيرة .

وانبعث من بعد عشرين خطوة تقريباً صوت أجش غاضب :

ـ نقالة! أليس هناك نقالة ؟... نقالة!

وأطلق ضابط مشاة صيحة مستطيلة :

ـ سددوا المرمى!

ـ فصيل ، ارم!

وقبيل المغرب شرعت بلورات الثلج الأولى تدوم نازلة إلى الأرض القاسية . وان هي الا ساعة حتى غطى الثلج الندي اللزج الحقل برمته وأكوام الموتى السوداء الموحلة . فما كان من قوات كاليدين إلا أن تنسحب .

أمضى بونتشوك تلك الليلة الثلجية في موقع المدفع الرشاش . وكان كروتوغوروف قد لف حول رأسه مرشحة فرس سميكة وجدها في مكان ما ، وراح يمضغ قطعة لحم مطاطية ، وهو يبصق ويلعن . وكان غيفوركيانتس قد تكوم في مدخل أحد البيوت ومضى يدفئ يديه الزرقاوين فوق سيكارته . وجلس بونتشوك فوق صندوق عتاد ، مدثراً آنا المرتجفة بمعطفة وانتزع يديها من فوق عينيها وقبلهما . وقد نبست شفتاه بعسر بعض الكلمات الرقيقة التي لم يتعودها .

ـ كفى ، كفى ، كيف بوسعك أن تتأثري هكذا ؟...

كنت شديدة المراس فيما مضى... آنا ، اصغي ، سيطري على نفسك! آنا... عزيزتي... سوف تعتادين على ذلك . لئن منعك الكبرياء من الانسحاب فلا بد أنك من طينة أخرى ليس بوسعك أن تنظري إلى الموتى ، هكذا . لا تدعي أفكارك تذهب في هذا الاتجاه! سيطري عليها . هل رأيت طبيعة المرأة تنتصر فيك رغم ما قلته .

لبثت آنا صامتة . ومن يديها تفوح رائحة أرض الخريف ودفء المرأة .

وتوشحت السماء بثوب ناعم هش من الثلج المتساقط . واكتنف الصمت الناعس الفناء ، والحقول ، والمدينة الهامدة .

٧

دام القتال ستة أيام في روستوف وضواحيها . وكانت المعارك تدور في الشوارع ومفترق الطرقات . وقد سلّم الحرس الأحمر المحطة مرتين ، وطرد العدو منها مرتين أخريين . ولم يأسر أي من الطرفين أحداً خلال الأيام الستة تلك .

وأصيل ذات يوم كان بونتشوك وآنا يجتازان محطة قطار البضائع ، فشاهدا اثنين من الحرس الأحمر يطلقان النار على ضابط أسير . فقال بونتشوك بلهجة أقرب الى التحدي لآنا التي أشاحت بوجهها :

ـ هذا طبيعي! يجب أن يقتلوا ، ويبادوا دونما رحمة . فهم لم يرحمونا ، ولن نطلبها منهم . فلماذا نرحمهم ؟ يجب أن تجرف هذه القذارة من الأرض . ليس هناك مجال للعواطف الرقيقة حينما يتعرض مصير الثورة للخطر . ان هذين العاملين على صواب!

وفي اليوم الثالث من المعركة ألم به مرض . ولكنه تملك نفسه طوال يوم بأكمله ، وهو يحس بغثيان متزايد موصول وبوهن في كل مفاصله . وكان رأسه يطن ، وقد بدا له ثقيلاً لا يحتمل .

وغادرت المدينة مفرزتا الحرس الأحمر اللتان استنفدتا قواهما في فجر الثاني من كانون الأول . وكان بونتشوك يتمايل خلف عربة تحمل جرحى ورشاشاً ، مستنداً الى آنا وكروتوغوروف . كان يجرجر جسده الواهن بصعوبة فائقة ، رافعاً قدميه الثقيلتين كالحديد ، أشبه بسائر في نومه . وكان يري عيني آنا القلقتين وكأنهما نائيتان عنه ويستمع الى صوتها يقول :

ـ اصعد إلى العربة يا ايليا...أتسمعني ؟ هل تعي ما أقول ؟ أقول لك اصعد ، أنت مريض .

ولكنه لم يع كلماتها ، ولم يك يدري أن المصيبة قد حلّت به ، ووقع صريع التيفوس . وكانت الأصوات المألوفة وغير المألوفة تنقر على الغطاء الخارجي لوعيه ، دون أن تنفذ إلى داخله ، وفي مكان ما في البعيد القاصي التمعت عينا آنا السوداوان قلقتين يائستين ، وتموجت لحية كروتوغوروف بأشكال شائهة .

وأمسك بونتشوك برأسه ، وشد بيديه الكبيرتين على وجهه الملتهب . وأحس كأن الدم يسيل من عينيه ، والعالم كله لا حدود له ولا قرار ، وقد حالت دونه ستارة غير منظورة ، وجعل ينساب ويميد تحت قدميه . وفى بحران هذيانه راح خياله يناجي رؤى غريبة كل الغرابة . وكان يتوقف بين حين وآخر . ويقاوم كروتوغوروف الذي راح يحاول جهده أن يضعه فى العربة . وصرخ بغلظة وهو ينتزع يده من قبضة آنا :

كلا! انتظر!... من أنت ؟... أين آنا ؟ أعطني قليلاً من التراب... ودمّر هؤلاء... آمرك أن تصوب الرشاش عليهم... انتظر! انها حارة جداً!

ورفعوه عنوة ووضعوه في العربة . وبعد لحظة استطاع أن يشم خليطاً من شتى الروائح الحريفة ، وجاهد أن يستعيد زمام نفسه والخوف يستبد ، دون أن يفلح فى ذلك . وأطبق عليه فراغ أصم أسود ، وفي الأعالي تراقصت أمام عينيه الشمس الملتهبة في الزرقة اللازوردية ، وارتعاشات ووهج لبريق أرجواني .

٨

كانت خيوط الثلج تتساقط من أفاريز السطوح وقد علق بها التبن ورافق تكسرها رنين بلوري . وفي القرية انجلى الذوبان عن غدران وبقع من الأرض الجرداء . وتسكّعت الماشية في الشوارع تشمشم بخياشيمها ، وهي لما تزل تلتفع بأردية الشتاء ، وزقزقت العصافير كما لو كان الفصل ربيعاً ، وهي تنقر في أكوام الدغل في الأفنية . وكان مارتن شامل يطارد عبر الساحة حصاناً

أشهب ناعم الملمس هرب من اصطبله . وقد ارتفع ذيله المنسدر إلى الأعلى ، وعبثت الريح بعرفه الأشعث ، وجمح وجعل ينشر كتل الثلج نصف الذائبة بحوافره ، وحام حول الساحة ، ثم توقف عند جدار الكنيسة ، وأخذ يشمشم الآجر . وأغرى سيده بالاقتراب منه ونظر شزراً بعين بنفسجية إلى اللجام وقد أمسك به في يده ، ثم جمح من جديد وجرى هائجاً .

وغمر كانون الثاني الأرض بأيام دافئة غائمة . وترقب القوزاق الدون متوقعين فيضاناً مبكراً ، ووقف ميرون غريغوريفتش في فنائه الخلفي طويلاً ينظر إلى الثلج بعيداً في الحقول ، والى خضرة الدون الرمادية الجليدية ، وقال في دخيلته : « سوف يفيض علينا هذا العام كما فعل في العام الفائت . ثلج ، ثلج ، ولا شيء غير الثلج! لابد أنه سيثقل على أمنا الأرض بكلكله » .

وكان ميتكا ينظف حظيرة الماشية مرتدياً قمصلته الخاكية . وقد التصقت قبعته الفرو البيضاء بمؤخرة رأسه بأعجوبة . وتدلى شعره السبط المبلل بالعرق على حاجبه ، فأعاده إلى الوراء بقفا يده الوسخة التي تفوح منها رائحة الروث . وكان ثمة ماعز منتفش يململ في مكانه عند البوابة ، وهو يضرب بحوافره زبل البهائم المتجمد أكواماً . وثمة حمل أكبر من أمه يحاول أن يرضع من ضرعها ، ولكنها أحنت رأسها وطردته عنها . وكان ثمة كبش أسود ذو قرن دائري يحك جسمه بمحراث .

وأقعى سلوقي كبير مبقع بالأحمر المصفر على كسرة من الجليد الذائب قرب باب مخزن الحبوب المطلية بالطين . وتدلت الشباك وحبال صيد الأسماك على الجدران الخارجية تحت الأفاريز ، وكان غريشاكا العجوز يقف هناك يتكئ على عكازه وينظر اليها ، كان يفكر على ما يظهر بالربيع القادم وفي العمل لاصلاح الشباك .

ذهب ميرون غريغوريفتش إلى ساحة درس الحبوب ، وبعين حريصة قدر كمية التبن التي مازالت باقية . وأخذ يجرف بعض عيدان الذرة التي نثرها الماعز ، وبلغت سمعه أصوات غير مألوفة ، فألقى بالمجرفة على الكومة وذهب

الى الفناء .

كان ميتكا واقفاً يلف سيكارة ، وقد باعد بين قدميه ، وأمسك بكيس تبغه باصبعين ، وهو ثر التطريز أهدته اياه حبيبة له من احدى القرى . وكان خريستونيا وايفان أليكسييفتش واقفين معه… وايفان اليكسييفتش مستنداً إلى السياج ينقب في جيوب سرواله المبطنة ، وقد لاحت على وجهه النظيف الحليق أمارات الكدر : لقد نسي شيئاً ما على ما يظهر . فقال خريستونيا :

ـ هل قضيت ليلة هانئة يا ميرون غريغوريفتش ؟

ـ لله الحمد!

ـ تعال ودخن معنا .

ـ ليحفظكم المسيح . لقد فرغت الآن من تدخين سيكارة .

وصافح ميرون غريغوريفتش القوزاق ، ورفع قبعته ذات الرأس الأحمر ، ومسد شعره الأشعث الأشيب وقال مبتسماً :

ـ وما عساكم تريدون منا اليوم أيها الاخوان ؟

ونظر اليه خريستونيا من الأعلى إلى الأسفل ، دون أن يجبيه في الحال . ومر بلسانه الكبير الخشن كلسان الثور متباطئاً على قصاصة من الورق ، وأجاب بعد أن لف السيكارة :

ـ لدينا شغل مع ميتكا .

ومر غريشاكا الجد متثاقلاً ، وهو يحمل شبكة صيد على ذراعه المنبسطة . فرفع ايفان وخريستونيا قبعتيهما وحيياه ووضع الشبكة على الدرجات ثم قفل عائداً وتساءل :

ـ فيم أنتم مقيمون في بيوتكم ، أيها الجنود ؟ أتراكم تقضون وقتاً بالغ المتعة مع زوجاتكم ؟

فتساءل خريستونيا :

ـ لماذا ؟

ـ أسكت ، خريستونيا! لا تقل لي انك لا تدري!

فأقسم خريستونيا :

ـ الله يشهد ، أنني لا أدري! وحق الصليب أنا لا أدري! أيها الجد!

ـ جاء رجل قبل أيام من فورونيج ، وهو تاجر ، صديق لسيرغي بلاتونوفتش موخوف أو قريبه أو ما إلى ذلك . لست أعرف بالضبط . حسناً ، جاء وقال ان جنوداً غرباء ، أولاء البلاشفة ، هم في تشيرتكوف . سوف تشن روسيا الحرب علينا ، بينما أنتم لابدون في بيوتكم! وأنت ، الآخر ، أنت أيها الشيطان الصغير... هل تسمعني ، يا ميتكا ؟ أليس لديك شيء تقوله ؟ ما رأيك ؟

فابتسم ايفان اليكسييفتش : ـ لا رأي لنا اطلاقاً!

فقال غريشكا العجوز وقد امتلأ غيظاً :

ـ هذا هو العار بعينه ، أن لا يكون لكم رأي! سوف يوقعونكم في الشرك مثل طير الحجل! سيأخذكم الفلاحون أسرى ويهشمون خطومكم!

فتبسم ميرون غريغوريفتش بتأدب . وحك خريستونيا يده بخديه اللذين لم يحلقا منذ وقت طويل . ووقف ايفان اليكسييفتش يدخن وينظر إلى ميتكا . وتطايرت شرارات من عيني ميتكا الشبيهتين بعيني القط ، وكان من المستحيل أن يعرف المرء فيما اذا كانت عيناه الخضراوان تانك تضحكان أم تشعان حقداً لا يكبح .

وبعد أن تحدث ايفان اليكسييفتش وخريستونيا بعض الوقت تركا ميرون غريغوريفتش ، واستدعيا ميتكا إلى البوابة الصغيرة . وسأله ايفان اليكسييفتش بحدة :

ـ لماذا لم تحضر الاجتماع البارحة ؟

ـ لم يكن لديَّ وقت .

ـ ولكن كان لديك الوقت للذهاب إلى بيت ميليخوف!

وأتى ميتكا بحركة من رأسه فانزلقت قبعته إلى الأسفل فوق جبهته ، وقال وقد كظم غيظه :

ـ لم أحضر ، وهذا كل ما في الأمر . ماذا يمكن أن يقال ؟

ـ كل رجال القرية العائدين من الجبهة كانوا هناك ما عداك وبيوتر ميليخوف . لقد قررنا ارسال مندوبين الى قرية كامنسكايا . فسوف يعقد فيها مؤتمر لرجال الجبهة فى العاشر من كانون الثاني . وقد أجرينا القرعة فتقرر أن نذهب أنا ، وخريستونيا ، وأنت .

فأعلن ميتكا جازماً :

ـ أنا لن أذهب .

فعبس خريستونيا وجره من زر قمصلته .

ـ ما هي لعبتك ؟ هل تريد أن تبتعد عن رفاقك ؟ أو لا يناسبك ذلك ؟

فقال ايفان اليكسييفتش :

ـ انه وبيوتر ميليخوف يدان فى قفاز واحد .

وتلمس كمّ معطف خريستونيا وأضاف وقد استحال لونه شاحباً بصورة ملحوظة :

ـ هيا . ليس لدينا شيء نفعله هنا . اذاً ، فأنت لن تذهب يا ميتكا ؟

ـ كلا! لقد قلت كلا ، وأنا أعني كلا .

فأمال خرريستونيا رأسه جانباً وقال :

ـ الى اللقاء اذاً . وحظاً سعيداً لك .

وبسط ميتكا يده وودعه متفادياً النظر بعينيه ، ثم استدار ويمم وجهه شطر الدار فدمدم ايفان اليكسييفتش وقد ارتعش منخراه : « يا للوغد! » ثم كرر بصوت عال وهو يخرز ظهر ميتكا العريض : « يا للثعبان الوغد! » .

وفي طريقهما إلى البيت أخبرا بعضاً من رجال الجبهة أن ميتكا قد رفض الذهاب ، وأنهما سيذهبان كلاهما إلى المؤتمر في اليوم التالي .

وغادرا تاتارسكي في فجر الثامن من كانون الثاني . وقد تطوع ياكوف الملقب نعل الحصان بنقلهما إلى كامينسكايا . فسار بهما فرساه بخفة خارج القرية صعد المنحدر . وكان الذوبان قد عرى الطريق ، وحيث كان الثلج قد

زال ، أخذ مزلاقا الزحافة يلتصقان بالطين وظلت الزحافة تترجرج في طريقها ، والفرسان يشدان بجهد جهيد على السيور . وكان القوزاق يسيرون خلف الزحافة . وكان ياكوف يحث خطوه طوال الطريق فتقرش جزمتاه قشرة الجليد الرقيقة ، وقد ألهب وجهه نسيم الصباح الصقيعي . الا أن الندبة البيضوية بقيت على خده زرقاء ميتة . وكان خريستونيا يلهث صاعداً التل فوق الثلج المتصلب وهو يسير على جانب الطريق ، ويشهق بشدة من أثر الغاز السام الألماني الذي أصاب رئتيه فى دونبو عام ١٩١٦ .

وفي أعلى التل اشتد لسع الهواء وعصف الريح . وظل القوزاق صامتين . وغطى ايفان اليكسييفتش وجهه بياقة فروته . واقتربوا من غابة ، يتجه فيها الطريق شطر قمة رابية . وتدفقت الريح أمواجاً خلل الغابة . وكانت جذوع أشجار البلوط المتقرنة تكسوها بطبقات من اللحاء الأخضر الذهبي الصدئ . وراح عقعق يثرثر من بعيد ، ثم ما لبث أن رفرف بجناحيه عبر الطريق . لقد حادت به الريح عن اتجاهه ، فراح يخفق بجناحيه بعنف مائلاً إلى أحد الجانبين ، وقد انتفش ريشه المتلبد .

والتفت ياكوف الذى لم ينبس ببنت شفة مذ غادر القرية ، إلى ايفان اليكسييفتش وقال متروياً ، وهو يفصح ، على ما يظهر ، عن أفكاره التي ظل يقلبها في ذهنه منذ فترة :

ـ حاولا فى المؤتمر أن تجعلا الأمور تسير بحيث لا تكون هناك حرب . فلن يكون ثمة متطوعون للحرب .

فأكد خريستونيا : « طبعا » ، ـ وهو يتعقب العقعق بغبطة فى طيرانه الطليق ، ويقارن في ذهنه بين حياة الطير السعيدة الخالية من االهموم وحياة الانسان .

بلغوا كامنسكايا أصيل العاشر من الشهر . كانت جموع القوزاق تأخذ طريقها خلل الشوراع صوب مركز المدينة . وكان الحماس يلحظ في كل مكان . وذهب ايفان وخريستونيا إلى نزل غريغوري ميليخوف ، ولكنهما

علما أنه لم يكن هناك . لقد أخبرتهما صاحبة المنزل ، وهي امرأة شقراء مكتنزة بأنه ذهب إلى المؤتمر .

ـ وأين هو هذا المؤتمر ؟ ـ سألها خريستونيا .

ـ لعله في الادارة أو في مبنى البريد ـ أجابت المرأة وصفقت الباب بوجهيهما .

وعند وصولهما وجدا الموتمر قد باشر أعماله . ولم تتسع الغرفة ذات النوافذ العديدة لجميع المندوبين ، وقد احتشد كثير من القوزاق على الدرجات ، وفى الممرات ، وفى الغرف الملاصقة . وقال خريستونيا لايفان بما يشبه الزحير وهو يشق طريقه بمرفقيه :

ـ ابق ورائي!

وتبعه ايفان خلال الفتحة الضيقة التى مهدها .

وعندما كادا أن يبلغا الغرفة التي انعقد فيها المؤتمر وجد خريستونيا أمامه قد سده قوزاقى تفصح عنه لهجته عن كونه من الدون الأسفل . فانتهره قائلاً :

ـ مهلك يا فتى .

ـ دعنا نمر .

ـ بامكانك أن تقف هنا . فليس ثمة متسع في الداخل .

ـ دعنا ندخل أيها البعوضة ، والاّ قصمت ظهرك! واندفع خريستونيا ، ونحّى القوزاقي جانباً بسهولة ، ودخل الغرفة .

وسرت همهمة من الاعجاب والدهشة فى الحشد المتجمع حول الباب . وابتسم القوزاق ورنوا الى خريستونيا بنظرات احترام لا ارادية ، فقد كان يعلو هاماتهم برأسه .

ووجدا غريغوري ازاء الحائط في المؤخرة ، كان مقرفصاً على مؤخرته ، يدخن ويتحدث مع مندوب آخر . وعند مرأى ابني قريته ارتعش عذاراه الفاحمان المتهدلان عن ابتسامة .

ـ ماذا ، أية ريح عصفت بكما الى هنا ؟ مرحباً يا ايفان اليكسييفتش!
وكيف حالك أيها العم خريستونيا ؟

فأجابه خريستونيا ضاحكاً ، وهو يضم كف غريغوري بكامله بقبضته الكبيرة :

ـ لا بأس .

ـ وكيف هي أحوال عائلتي ؟

ـ حسناً . لقد بعثوا بتحياتهم . وطلب أبوك منك الشخوص إليهم لزيارتهم .

ـ وكيف حال بيوتر ؟

فابتسم ايفان اليكسييفتش بغير لباقة :

ـ بيوتر... بيوتر... لا يختلط معنا .

ـ أدري . وناتاليا ؟ والطفلان ؟ هل صادف أن رأيتهما ؟

ـ الكل على ما يرام ، وهم يبلغونك تحياتهم . وأبوك مستاء .

وكان خريستونيا ينظر الى الزمرة الجالسة وراء الطاولة على المنصة ، أثناء كلامه . ورغم أنه كان في المؤخرة فقد كان بوسعه أن يرى خيراً من أي شخص آخر . وظل غريغوري يمطرهما بالأسئلة ، مستفيداً من برهة توقف أثناء الجلسة . فراح ايفان أليكسييفتش يحدثه عن أخبار القرية ، وقص عليه باقتضاب عن اجتماع رجال الجبهة الذين أرسلوهما إلى كامينسكايا ، بيد أن امرءاً جالساً أمام الطاولة هتف قائلاً :

ـ أيها القوزاق ، سيتكلم الآن مندوب عن عمال المناجم . يرجى الاصغاء اليه باهتمام ، والمحافظة على النظام .

ومستد رجل متوسط الطول شعره الأشقر إلى الوراء وشرع يتكلم . فتلاشت همهمة الأصوات في الحال .

وشعر غريغوري والقوزاق الآخرون بعمق ايمان عامل المنجم من الكلمات الأولى لخطابه العاطفي المشبوب . لقد تكلم عن السياسة المارقة لكاليدين

الذي كان يسوق القوزاق إلى الحرب ضد عمال وفلاحي روسيا ، وعن المصالح المشتركة للقوزاق والعمال ، وعن أهداف البلاشفة ، الذين يشنون نضالاً ضد أعداء الثورة من القوزاق .

ـ اننا نمد أيدينا إلى القوزاق الكادحين ، ونأمل أننا فى غمرة نضالنا ضد عصابات الحرس الأبيض سنجد حلفاء أمناء بين قوزاقي الجبهة . لقد أراق العمال والقوزاق دماءهم سوية في جبهات الحرب القيصرية . وفي الحرب ضد البرجوازية التي يدافع عنها كاليدين يجب أن نقف سوية أيضاً . ولسوف نقف سوية! سوف نخوض القتال كتفاً لكتف ضد أولئك الذين استعبدوا الكادحين قروناً ، ـ دوى صوت الرجل القوي العالي .

وهمس خريستونيا منشرح الخاطر : «لقد أجاد ، ابن العاهرة!» ، ـ وعصر مرفق غريغوري بشدة جعلته يقطب من الألم .

وأخذ ايفان اليكسييفتش يهمهم مراراً وتكراراً فيما كان يصغي وفمه نصف مفتوح : «انه على حق! ايه ، انه لعلى حق!» .

وعندما فرغ مندوب عمال المناجم من كلامه ، نهض عامل منجم مديد القامة ، يتأرجح مثل شجرة الدردار في مهب الريح ، واستوى بكامل طوله ، وجال ببصره فوق بحر العيون الماثل أمامه ، وتمهل حتى تخفت الضوضاء . وكان يبدو قوياً ومتيناً كأنه حبل مراكب . وكانت مسامات وجهه ملأى بهباب دقيق من غبار الفحم ، ولم يكن لعينيه الغائرتين الباهتتين أي لون في ظلمة الأرض الأبدية ، نفس بريق الفحم . وهز رأسه قصير الشعر ، ورفع ثم خفض قبضتيه الململمتين كمن يضرب بالمعول .

ـ من الذي شرّع عقوبة الاعدام ضد الجنود في الجبهة ؟ كورنيلوف! من الذي يساعد كاليدين في خنقنا ؟ كورنيلوف! وجعل يسرع فى قوله ويغص بكلماته :

ـ أيها القوزاق! أيها الأخوة ، أيها الأخوة! أيها الأخوة! إلى أي جانب ستنضمون ؟ ان كاليدين يريد منا أن نشرب دماء أخوتنا . كلا! لن نفعل ذلك أبداً . وسوف نسحقهم! سوف نغرقهم في البحر!...

وكشر خريستونيا عن أسنانه ووسّع شدقتيه وقال : ـ يا له من ابن عاهرة! ـ ثم رفع يديه وقهقه دون أن يقوى على مقاومة نفسه ، وأضاف : ـ هكذا يكون الكلام . لقنهم درساً!

فهتف ايفان اليكسييفتش متهيباً :

ـ اخرس يا خريستونيا ، ماذا دهاك ؟ فسوف يركلونك خارج القاعة!

ولفح لاغوتين ـ وهو قوزاقي من بوكانوفسكي ، والرئيس الأول لشعبة القوزاق التابعة للجنة المركزية لمجلس السوفييت ـ لفح القوزاق بكلمات لاهبة ، غير مترابطة ولكنها أثّرت بهم في الصميم .

ثم تكلم الرئيس بودتيلكوف ، وتبعه شادينكو ، وهو رجل وسيم ذو شاربين انكليزيين صغيرين .

وتساءل خريستونيا مشيراً بمخلبه الكبير :

ـ من ذلك ؟

ـ شادينكو ، قائد بلشفي .

ـ وذاك ؟

ـ ماندلشتام .

ـ من أي الديار هو ؟

ـ من موسكو .

ـ ومن هم أولئك ؟ ـ وأشار خريستونيا إلى زمرة من مندوبي فورونيج .

ـ أوه ، اخرس قليلاً يا خريستونيا .

ـ يا إلهي ، ألا يجدر بي أن أعرفهم ؟ هيا ، قل لي ، من هو ذلك الرجل الطويل الجالس جوار بودتيلكوف ؟

ـ كريفوشليكوف ، من قرية غورباتوف . وجماعتنا خلفه ، كودينوف ، ودونيتسكوف .

ـ سؤال آخر لا غير . من هو ذلك الرجل ؟ كلا ، ليس ذاك ، انما الشخص الذي في النهاية ، ذو الخصلة المتدلية على ناصيته .

ـ يليسييف . كلا ، لست أدري من أي الديار هو .

واذ اكتفى خريستونيا بذلك ، لاذ بصمت وأنصت إلى كل متكلم بانتباه زائد وكان أول من يسمع من بين مئات الأصوات بهديره العميق «حق ما تقول!» .

وبعد المتكلمين الآخرين ، وقف مندوب عن الكتيبة الرابعة والأربعين . وأمضى وقتاً طويلاً في اخراج عباراته المرتبكة ، كان يأتي بكلمة كأنها الجذوة الملتهبة ، ثم يتوقف وينشق بأنفه . ولكن القوزاق كانوا ينصتون إليه بتعاطف كبير ، ولا يقاطعونه إلا بهتافات التأييد بين الحين والآخر . ويبدو أن كلماته كانت تلقى استجابة عميقة من لدنهم .

ـ أيها الأخوة! إن على مؤتمرنا أن يتناول هذه القضية الخطيرة بشكل لا يعود بالعار على شعبنا وبحيث يمكن أن ينتهي كل شيء بصورة هادئة وحسنة . ان ما أعنيه هو أننا يجب أن نجد مخرجاً بدون حرب دموية . لقد مضى علينا ، كما ترون ، ثلاث سنوات ونصف مدفونين في الخنادق ، ، واذا أجبرنا على مواصلة القتال ، فسوف يتعرض القوزاق إلى الهلاك...

ـ هذا صحيح!

ـ نحن لا نريد الحرب .

ـ يجب أن نبحث ذلك مع البلاشفة والمجلس العسكري .

ـ يجب أن نحسمها سوية ، وليس كيفما اتفق .

وهوى الرئيس بودتيلكوف على الطاولة بقبضته ، فتلاشى الهدير . وواصل مندوب الكتيبة الرابعة والأربعين كلامه ، وهو ينتف لحيته القصيرة :

ـ يجب أن نبعث بمندوبين إلى نوفوتشيركاسك ونطلب من المتطوعين والأنصار أن يرحلوا من هنا . وليس للبلاشفة ما يعملونه هنا هم الآخرون . اننا نستطيع أن نسوي الحساب مع أعداء الشغيلة بأنفسنا . نحن لا نحتاج إلى مساعدة الآخرين ، ومتى ما كنا بحاجة إليها فسوف نطلب منهم أن يمدونا بيد المعونة .

ـ ان هذا الضرب من الكلام لن يجدي فتيلاً!

ـ انه على صواب!

ـ انتظر قليلاً . أى صواب فيه ؟ هب أنهم حصرونا فى زاوية ، من أين سنحصل على المعونة حينذاك ؟

ـ علينا أن نشكل حكومة من عندنا .

ـ قول أيسر من فعل!

وأعقب لاغوتين مندوب الكتيبة الرابعة والأربعين بخطاب ناري جريء . وقوطع في كثير من الأحيان بالصيحات . ثم عرض اقتراح يقضي بتأجيل الاجتماع عشر دقائق ، بيد أنه ما ان حصل الصمت حتى هتف بودتيلكوف بجمهور القوزاق الهائج :

ـ أيها الاخوة القوزاق! ان عدو الكادحين ليس نائماً ، فى حين نتجادل هنا نحن . اننا جميعاً نريد أن يشبع الذئاب وتبقى الخراف سليمة ، ولكن هذا هو غير ما يريده كاليدين . لقد استولينا على نسخة من أمر وقّعه هو يقضي بتكليف كل الذين يسهمون الآن في هذا المؤتمر وها أنا أقرأه عليكم .

وحينما قرأ الأمر سرت موجة من الهياج بين المندوبين ، وازداد الصخب أكثر من السابق .

ـ نتكلم كثيراً غير أننا نفعل قليلاً!...

ـ اسكتوا!

ـ لماذا يسكتون ؟ دعوهم يتكلمون!

ـ لوبوف ، يا لوبوف! ألق كلمة!

ـ مهلاً!

ـ أما كاليدين فهو ليس بالغبي!

كان غريغوري يصغي بصمت ، ويحدق في الرؤوس المتأرجحة ، والأذرع الملوحة للمجتمعين . ولم يستطع أن يتحمل أكثر من ذلك فى آخر الأمر ، فصرخ وقد وقف على رؤوس أصابعه :

ـ هدوءاً ، أيها الشياطين! هل نحن في سوق ؟ دعوا بودتيلكوف يتكلم!
وأمسك ايفان اليكسييفتش بتلابيب أحد المندوبين وجعل يناقشه .
وجأر خريستونيا راداً على زميل له من كتيبته :
ـ ينبغي لنا أن نكون يقظين! لا تحدثني بهذا الكلام الفارغ! ألا ترى أننا لسنا أقوياء بما فيه الكفاية حتى نندفع بمفردنا!
وأخيراً خبا هدير الأصوات ـ كما لو أن الريح مرت على حقل من القمح ـ ومن المنصة مزقت نبرات كريفوشليكوف الأنثوية الصمت :
ـ يسقط كاليدين! تعيش اللجنة الثورية القوزاقية!
وزخر المتجمهرون . وتعالت هتافات التأييد معاً في جوقة لافحة ثقيلة من الصخب . ولبث كريفوشليكوف واقفاً ويده مرفوعة إلى الأعلى . كانت أصابعه ترتعش قليلاً مثل أوراق الحور .
ولم يكد الهدير الذي يصم الآذان يخبو حتى صاح بصوته ذى النبرة العالية الرنانة قائلاً :
ـ أقترح انتخاب لجنة ثورية عسكرية قوزاقية من بين المندوبين الحاضرين ، وأن يعهد إليها مواصلة النضال ضد كاليدين وتنظي...
ومزقت الهواء صرخة استحسان «آـ آـ آ» كأنها قذيفة متفجرة ، أهالت قشوراً من الصبغ الأبيض من السقف .
وشرع المجتمعون في الحال ينتخبون أعضاء اللجنة . واستمر قطاع صغير من القوزاق يقوده مندوب الكتيبة الرابعة والأربعين وآخرون ، يطالبون بحل سلمي للخلاف مع حكومة كاليدين .
بيد أن الأكثرية لم تعد تعضدهم . فلقد أثار حفيظة القوزاق أمر كاليدين القاضي بالقاء القبض عليهم ، فطلبوا مقاومته بصورة فعالة .
واستدعي غريغوري فى الحال إلى قيادة الكتيبة فلم يبق حتى نهاية الانتخاب . وسأل خريستونيا وايفان أليكسييفتش فيما هو يستعد للخروج :
ـ عندما ينتهي الاجتماع تعالا إلى غرفتي . أود أن أعرف من انتخب .

وذهب ايفان اليكسييفتش بعد الغروب . وأخبر غريغوري وهو واقف على العتبة قائلاً :

ـ الرئيس بودتيلكوف ، والسكرتير كريفوشليكوف .

ـ والأعضاء ؟

ـ ايفان لاغوتين وخريستونيا ، ومناييف ، وكودينوف وآخرون .

فسأله غريغوري :

ـ ولكن أين هو خريستونيا ؟

ـ ذهب مع آخرين لالقاء القبض على سلطات كامنسكايا . وقد صار جمرة حتى أنك لو بصقت عليه لفار البصاق على ناره .

ولم يعد خريستونيا إلاّ عند الفجر ووقف في الغرفة يتنفس بصعوبة ويتمتم بشيء ما بصوت خفيض . ولاحظ غريغوري وهو يشعل المصباح أن وجهه كان مدمى وأن خدشة اطلاقة قد سرت عبر قصبته .

فانتفض غريغوري وفتح حقيبة الاسعافات الأولية العائدة له وقال :

ـ من فعل ذلك بك ؟ هل أعصبها لك ؟ تمهل لحظة ، سآتي بضمادة .

فلعلع خريستونيا :

ـ سيبرأ الجرح من تلقاء نفسه ، كما يبرأ الكلب . لقد أطلق الآمر العسكري علي النار من مسدسه . كنا نتقدم سوية إلى الباب الأمامي كما يفعل الضيوف . ولكنه ابتدرنا بالقتال . وقد جرح قوزاقياً آخر أيضاً . وأردت أن أنزع عنه روحه لأرى ماذا تشبه روح الضابط ، غير أن القوزاق الآخرين لم يدعوني... كنت أود أن أمسك روحه بيدي . أجل ، كنت أود ذلك!

٩

بعد مؤتمر كامينسكايا بيوم ، كانت كتيبة قوزاق الدون العاشرة ، التي أرسلها كاليدين لتلقي القبض على جميع أعضاء المؤتمر وتجرد أشد الفرق

القوزاقية ثورية من سلاحها ، قد وصلت كامينسكايا ، وتركت القطار لحظة انعقاد الاجتماع فى المحطة . وكان بودتيلكوف على الرصيف . كان يقول :

ـ أيها الآباء ، والأخوة ، أنا لست عضواً فى أي حزب ولست بلشفياً . انما أكافح من أجل شيء واحد فقط : من أجل العدالة ، ، ومن أجل السعادة والاتحاد الأخوي بين جميع العمال ، كيلا يكون هناك اضطهاد ، ولا كولاك* ، ولا برجوازيون وأناس أثرياء ، كيما يعيش كل انسان حراً وحسب ارادته... ويحاول البلاشفة أن يحققوا ذلك ، وهم يناضلون من أجله . ان البلاشفة عمال ، ناس كادحون مثلنا نحن القوزاق . ولا يختلف العمال البلاشفة عنا ، سوى أنهم أكثر وعياً واتحاداً منا . فقد كنا نحن سادرين في الظلام ، فيما هم ، فى المدن ، تعلموا أن يفهموا الحياة أحسن منا . ومن هنا فان ما ينجم عن ذلك هو أنني بلشفي رغم أنني لست منتمياً إلى الحزب البلشفي .

كان القوزاق الذين وصلوا حديثاً ، وهم رجال ذوو بنية قوية ، ومعظمهم جنود مختاورن ، قد احتشدوا حول الاجتماع ، واختلطوا برجال من كتائب أخرى . وسرعان ما أثرت خميرة الدعاية الفعالة التي بدأ أنصار البلاشفة يبثونها بينهم ، فحينما دعاهم آمر الكتيبة لتنفيذ أمر كاليدين رفضوا .

وكانت كامنيسكايا فى هذه الأثناء تضج بالنشاط ، فقد أرسلت مفارز من القوزاق حشدت على عجل إلى الخارج لاحتلال المحطات ، وعجل بارسال قطر عسكرية . وجرى انتخاب قادة جدد للمفارز . وتسلل بعض القوزاق الراغبين في تجنب الحرب بهدوء خارج المدينة ، فى حين كان المندبون المتأخرون القادمون من مختلف القرى ما يزالون يتوافدون . ولم يسبق لشوارع كامينسكايا أن شهدت حركة ناشطة كهذه على الاطلاق .

فى الثالث عشر من كانون الثاني وصل إلى المدينة وفد من الحرس الأبيض لحكومة الدون ليفتح باب المضاوضات برئاسة آغييف فقوبل بحشد

---

* كولاك ـ فلاح غني يستغل عمل الغير .

كبير في المحطة ، وسارت حامية من القوزاق من كتيبة حرس الأتمان بالوفد إلى بناية البريد حيث قضت فيها اللجنة الثورية العسكرية معظم الليلة في جلسة مع وفد الحكومة .

كان سبعة عشر ممثلاً عن اللجنة الثورية العسكرية حاضراً . ووجّه بودتيلكوف رداً عنيفاً على خطاب آغييف الذي يتهم اللجنة الثورية العسكرية بخيانة الدون والتعاون مع البلاشفة . وأعقبه كريفوشليكوف ولاغوتين . وقوطع خطاب العقيد كوشناريف بهتافات القوزاق المحتشدين فى الممر . وطالب أحد رماة الرشاشات باسم القوزاق الثوريين بالقاء القبض على الوفد الحكومي .

وفشل المؤتمر في الوصول إلى تسوية ، وحوالى الساعة الثانية صباحاً ، بعد أن صار من الجلي عدم الوصول إلى اتفاق ، اقترح أحد أعضاء الوفد بأن على اللجنة الثورية العسكرية أن ترسل وفداً إلى نوفوتشيركاسك ، للوصول إلى حل نهائي بشأن حكومة المستقبل . فأقر الاقتراح .

ورحل وفد حكومة الدون ، وتوجه ممثلو اللجنة الثورية العسكرية في الحال بعده شطر نوفوتشيركاسك . وكان بودتيلكوف على رأسهم...واستبقى ضباط كتيبة الأتمان الذين قد ألقي القبض عليهم فى كامينسكايا ، رهائن .

١٠

كانت عاصفة ثلجية ترعد خارج نوافذ العربة . وتتجمع كتل الثلج التى حملتها الرياح فوق أسوار الثلج المتقوسة . وكانت مقاصير السكك ، وأعمدة التلغراف ، ورتابة السهب الثلجية الموحشة غير المتناهية تنسل بعيداً إلى الشمال .

جلس بودتيلكوف ازاء النافذة ، وقد ارتدى سترة جلدية جديدة . وجلس قبالته كريفوشليكوف ، وهو نحيف ضيق المنكبين كالصبيان وقد

استند بمرفقيه على المنضدة . كان ثمة قلق وترقب في عينيه الصافيتين الصبيانيتين . وكان لاغوتين يمشط لحيته الشقراء الخفيفة . وكان مينابيف ، وهو قوزاقي جسيم ، يدفئ يديه على أنابيب الحرارة ويتململ غير مرتاح فى مقعدة . واستقلى غولوفاتشوف وسكاتشكوف على السريرين العلويين يتحدثان بهدوء .

وعلت نافذة المقصورة غشاوة من الضباب بفعل دخان التبغ والبرد . ولم يكن أعضاء الوفد يشعرون بالثقة فى نجاح مهمتهم إلى نوفوتشيركاسك . ولم يتحدثوا الآ لماماً ، وخيّم عليهم صمت ثقيل . وأخيراً عبر بودتيلكوف عن الشعور الذي كان يتملكهم جميعاً :

ـ لن نخرج بنتيجة منها . فلن نتفق على شيء .

فأيده لاغوتين :

ـ أي ، إنه ضياع وقت .

ثم خيم عليهم الصمت ثانية . ولوى بودتيلكوف معصمه بصورة ايقاعية ، كمن يدخل مكوكاً فى شبكة ويخرجه . وراح ينظر بين آونة وأخرى إلى سترته ، متملياً لمعان الجلد . ولما كانوا يقتربون من نوفوتشيركاسك ، بسط مينابيف الخارطة ونظر الى الدون المبتعد عن المدينة عريضاً زاخراً وشرع يروي لهم قائلاً :

ـ فى الأيام السالفة عندما كان قوزاق كتيبة الأتمان ينهون الخدمة العسكرية كانوا يعدون العدة للعودة إلى بيوتهم . كانوا يحمّلون القطار بصناديقهم وجيادهم وحوائجهم ، ثم ينطلق بهم إلى ديارهم ، وبالقرب من فورونيج ، حيث يمر الخط الحديد عبر الدون للمرة الأولى ، يخفف السائق سرعة القاطرة ، ويسير بأبطأ ما يستطيع من سرعة... فقد كان يدري بما سيعقب . وما ان يبلغ القطار الجسر...يا أجدادي! يا له من منظر! حتى يطير صواب القوزاق : « الدون! الدون! الدون الهادئ! أبونا ، نهرنا! له المجد » . ـ وتتطاير القبعات والقمصلات العتيقة ، والسراويل ، والقمصان ، وأشياء أخرى

يشهد الله عليها ، عبر النافذة فوق الجسر إلى الماء! كانوا يقدمون الهدايا إلى الدون عند عودتهم من الخدمة . وعندما يصادف أن تنظر إلى الماء أحياناً ، ترى قبعات الأتمان الزرق تجري طافية مثل الأوز والزهور... لقد كانت تلك عادة قديمة جداً .

وخفف القطار السرعة ، ثم توقف أخيراً . ونهض القوزاق وقال كريفوشليكوف بابتسامة نافرة وهو يشدّ حزام معطفه :

ـ حسناً ، ها قد وصلنا!

فقال سكاتشكوف محاولاً المزاح :

ـ لا أحسبهم ناشرين الأعلام لنا!

وفتح الباب رئيس مديد القامة دون أن يطرقه ، ودخل المقصورة . وتفحّص أعضاء الوفد بعينين عدائيتين ، قال بفظاظة متعمدة :

ـ لقد كلفت بمرافقتكم . أرجو أن تغادروا العربة بالسرعة الممكنة ، أيها السادة البلاشفة . فلا أستطيع أن أضمن الجمهور و... سلامتكم .

وثبت عينيه على بودتيلكوف ، أو بالحري على سترته وهي سترة ضابط جلدية ، ثم صاح بلهجة عدائية مكشوفة قائلاً :

ـ أخرجوا ، بسرعة!

وحينما خرجوا هتف ضابط ذو عذراين طويلين ، واقف على الرصيف وسط الحشد :

ـ أولئك هم ، الخنازير ، خونة القوزاق!

فشحب وجه بودتيلكوف ونظر وراء إلى كريفوشليكوف بعينين مضطربتين . فتبسم كريفوشليكوف وهمس :

ـ «لن نستقبل بكلمات استحسان واطراء ، بل بعواء حقود فاجر» ، ألا تعرف ذلك ، يا فيودور ؟

وقرر بودتيلكوف أن يردّ بابتسامة رغم أنه لم يسمع الكلمات الأخيرة . ورافق الوفد حرس قوي من الضباط . وصاحبهم جمهور محموم إلى باب

مقر الحكومة تماماً يطالب بشنقهم في الحال . ولم تأتهم الاهانات من الضباط والتلامذة العسكريين فحسب ، بل من نساء متأنقات وطلاب أيضاً .

فالتفت لاغوتين إلى أحد الضباط المرافقين وقال والحنق باد عليه :

ـ ان هذه لفضيحة مقصودة ، انها لكذلك!

فحدجه الأخير بنظرة حقود ، وفحّ قائلاً :

ـ أشكر ربك أنك مازلت حياً . لو كانت لديّ سلطة عليك... اللعنة عليك ، أنت أيها الجيفة...

وكبحت جماحه خزرة معنفة من ضابط آخر ، أصغر منه .

وهمس سكاتشكوف إلى غولوفاتشوف عندما وجد فرصة سانحة :

ـ أية ورطة!

ـ يبدو كما لو أنهم يقودوننا إلى المشنقة .

لم تكن قاعة المحكمة الاقليمية واسعة بما فيه الكفاية لتسوعب كل الحشد الذي تجمع . ووصل أعضاء الحكومة بينما كان أعضاء الوفد يجلسون في جانب واحد أمام الطاولة كما أوعز بذلك الملازم .

واقترب من المائدة كاليدين منحنياً بعض الشيء بخطوات ذئبية راسخة ، يرافقه بوغايفسكي . وسحب كرسيه إلى الوراء وجلس ، ثم وضع قبعته التي تزينها شارة الضابط على الطاولة بهدوء ، ومسّد شعره الى الوراء وزرر جيب قمصلته الجانبي . ثم مال إلى بوغايفسكي الذي كان يهمس له بشئ ما . وكانت كل حركة ونأمة يأتي بها تعبّر عن ثقة راسخة وقوة بالغة . كانت كل حركاته تنم عن رجل تذوق السلطة واكتسب في غضون سنوات عديدة هيبة وتصرف ومشية تميزه على الآخرين . فى حين بدا بوغايفسكي ، وهو ذو هيئة قميئة بالمقارنة مع كاليدين ذي الشخصية المهيبة ، أكثر انفعالاً أمام المفاوضات الوشيكة . كان يهمس ، وبالكاد يحرك شفتيه ، وكانت عيناه الضيقتان الحادتان تتألقان خلف نظاريته . قد فضحت عصبيته حركات يديه القلقة ، فتارة يصلح ياقته ، وأخرى يتحسس ذقنه القوى ، ثم مايلبث أن يرفع

حاجبيه الأشعثين . وجلس بقية وفد الحكومة الى جانبي كاليدين ، وكان بعضهم يزورون كامينسكايا ، وهم : كاريف ، سفيتوزاروف ، أولانوف وآغييف .

وسمع بودتيلكوف بوغايفسكي يهمس بشيء ما لكاليدين . ثم نظر الجنرال بحدة إلى بودتيلكوف المقابل له وقال : «أعتقد أننا نستطيع المباشرة» .

فتبسم بودتيلكوف ، وجعل يتكلم بصوت جلي ، ذاكراً أسباب مجيء الوفد . وتناول كريفوشليكوف الانذار الذي أعدته اللجنة الثورية العسكرية ونشره على الطاولة ، غير أن كاليدين دفعه بحركة من يده البيضاء ، وقال بلهجة راسخة :

ـ لا حاجة لتبذير الوقت بأن يدرس الوثيقة كل عضو من أعضاء الحكومة على انفراد . أرجو تلاوة انذاركم . ثم نناقشه بعد ذلك .

فأوعز بودتيلكوف قائلاً :

ـ اقرأه .

وشد نفسه باعتداد ، بيد أنه كان واضحاً أنه ، شأن بقية الوفد ، شعر بالحاجة إلى التزام جانب الحذر .

واستوى كريفوشليكوف واقفاً . وانساب صوته النسوي الرفيع وسحب في هواء القاعة المزدحمة :

ـ «ابتداءً من العاشر من كانون الثاني عام ١٩١٨ ، تنتقل السلطات على الوحدات العسكرية في اقليم الدون من الأتمان إلى اللجنة العسكرية الثورية لقوزاق الدون . وتسرّح وتجرّد من السلاح جميع الوحدات العسكرية التي تعمل ضد الجيش الثوري في الخامس عشر من كانون الثاني ، وكذلك جميع أرهاط المتطوعين ، والكليات العسكرية ، ومدراس خدمة العلم . ويرحل جميع أعضاء المنظمات الآنفة الذكر الذين هم من غير سكنة اقليم الدون إلى أماكن سكنهم الدائم .

ملاحظة : يجب تسليم السلاح ، والمعدات ، والملابس العسكرية إلى قوميسار اللجنة العسكرية الثورية ، الذى سيصدر رخصاً بمغادرة نوفوتشيركاسك .

وسوف تحتل القوات القوزاقية مدينة نوفوتشيركاسك حسب أمر اللجنة العسكرية الثورية . وتعتبر أوراق اعتماد مجلس الجيش القوزاقي باطلة ابتداءً من الخامس عشر من كانون الثاني .

وعلى حكومة الدون أن تسحب جميع رجال البوليس المتخذين مواقعهم في مصانع ومناجم اقليم الدون .

وحقناً للدماء يجب على الحكومة أن تعلن لجميع قرى ومقاطعات اقليم الدون أنها استقالت من تلقاء ذاتها وانها ستنقل السلطة في الحال إلى اللجنة العسكرية الثورية القوزاقية . إلى حين تشكيل حكومة دائمة من الكادحين فى الاقليم» .

ولم يكد يخفت صوته حتى سأله كاليدين بصوت عال :

ـ أية وحدات عسكرية منحتكم السلطة لإصدار هذا الانذار ؟

فتبادل بودتيلكوف النظرات مع كريفو شليكوف ، وشرع يعدد بصوت عال :

ـ حرس الأتمان ، الحرس القوزاقي ، البطارية السادسة ، الكتيبة الرابعة والأربعون ، البطارية الثانية والثلاثون ، السرية الخاصة الرابعة عشرة... ـ وكان يثني اصبعاً من يده اليسرى كلما أتى على ذكر وحدة ، وتتعالى من القاعة قهقهات استهزاء مكتومة . فعبس بودتيلكوف ، ووضع يديه المكسوتين بشعر أشقر على المائدة ورفع صوته : ـ الكتيبة الثامنة والعشرون . البطارية الثامنة والعشرون ، البطارية الثانية عشرة ، الكتيبة الثانية عشرة...

وهمس له لاغوتين بصوت خفيض :

ـ الكتيبة التاسعة والعشرون .

وأردف بودتيلكوف :

ـ ... الكتيبة التاسعة والعشرون ، البطارية الثالثة عشرة ، سرية كامنيسكايا المحلية ، الكتيبة العاشرة ، ، الكتيبة السابعة والعشرون ، فوج المشاة الثاني ، الاحتياطي الثاني ، الكتيبة الثامنة ، الكتيبة الرابعة عشرة .

وعندما فرغ سأله كاليدين بضعة أسئلة غير هامة ، ثم مال إلى الأمام على الطاولة ، وتفرس في بودتيلكوف وسأله :

ـ هل تعترفون بسلطة مجلس مفوضي الشعب ؟

وأتى بودتيلكوف على قدح من الماء ، وأعاد وضع الدورق على الصحن ، ومسح عذاريه بكمه ، ثم أجاب :

ـ لا يستطيع الاجابة على ذلك الاّ الشعب بأكمله .

وتدخل كريفوشليكوف ، خشية أن يفوه بودتيلكوف الساذج بأكثر مما ينبغي فقال :

ـ ان القوزاق لن يقبلوا بأية حكومة يوجد فيها ممثلون عن حزب الحرية الشعبي* . اننا قوزاق ، وينبغي أن تكون حكومتنا حكومة قوزاقية من عندنا .

ـ كيف يتسنى لنا أن نفسر هذا القول في الوقت الذي يكون اليهود وأمثالهم على رأس المجلس ؟

ـ لقد وضعت روسيا ثقتها بهم ، وسوف نوليهم نحن ثقتنا .

ـ هل ستنشئون علاقات معهم ؟

ـ نعم .

وزخر بودتيلكوف مستحسناً ، وأيد كريفوشليكوف :

ـ اننا لا نهتم بالأشخاص ، إن ما يهمنا هو الفكرة .

وسأل أحد أعضاء الحكومة بلهجة بريئة :

ـ هل يعمل مجلس مفوّضي الشعب لصالح الشعب ؟

وحامت نظرة بودتيلكوف المتفحصة بطيئاً حوله . وتناول قنينة الماء وهو

---

* الديمقراطيون . أو الكاديت . كما كان يسمى حزب الكاديت المعادي للثورة .

يبتسم ، وصب قدحاً آخر وشربه بسرعة . كان شديد العطش ، وكأن ناراً حامية كانت تصطلي في أحشائه . ونقر كاليدين بأصابعه على الطاولة وسأله مستفهماً :

ـ ما الذي يجمع بينكم وبين البلاشفة ؟

ـ اننا نريد أن يكون للقوزاق حكم ذاتي في اقليم الدون .

ـ نعم ، ولكنك تعرف جيداً أنه سيصار إلى تأليف مجلس عسكري جديد في الرابع من شباط . وسوف يعاد انتخاب الأعضاء . فهل توافقون على سلطة مشتركة ؟

فرفع بودتيلكوف عينيه ، وأجاب بحزم :

ـ كلا! اننا سنملي ارادتنا عليكم مادمتم تمثلون الأقلية .

ـ ولكن ذلك سيكون قسراً!

ـ أجل .

وحوّل بوغايفسكي عينيه من بود تيلكوف إلى كريفوشليكوف وسأله :

ـ هل تعترف بالمجلس العسكري ؟

فهز بودتيلكوف كتفيه قائلاً :

ـ إلى حد ما فقط... سوف تعقد اللجنة العسكرية الاقليمية مؤتمراً لممثلي الشعب . سوف تعمل تحت اشراف القوات المسلحة . واذا لم يرضنا المؤتمر فلن نعترف به .

فرفع كاليدين حاجبيه وقال :

ـ ومن سيكون الحكم في هذه المسألة ؟

ورمى بودتيلكوف برأسه بزهو إلى الوراء فصرّت سترته الجلدية فيما استند إلى ظهر كرسيه المنقوش ، وقال :

ـ الشعب!

وبعد فترة قصيرة نهض كاليدين للكلام . فتلاشت الضوضاء فى القاعة ، وانبعث صوته ، بنبراته الخفيضة الكامدة كمود الخريف ، واضحاً فى السكون :

ـ ان الحكومة لاتستطيع أن تتخلى عن سلطاتها بناءً على طلب اللجنة الثورية العسكرية . لقد انتخب الحكومة سكان الدون ، ، وهم وحدهم ، لا الفئات الخاصة ، يستطيعون أن يطالبوا بالتخلي عن السلطة . أما أنتم فآلات صماء بيد البلاشفة . إنكم تعملون وفق مشيئة عملاء الألمان دون أن تدركوا المسؤولية الجسيمة التي تحملون أنفسكم بها ازاء القوزاق . أنصحكم بأن تعيدوا النظر في الموضوع ، لأنكم ستجلبون لوطنكم شقاء عظيماً باصطدامكم مع الحكومة التى تمثل ارادة مجموع السكان . أما أنا فلن أتشبث بمركزي . انما سيدعي المجلس الكبير لجيش قوزاق الدون للاجتماع ، وسوف يقرر هو مصير البلاد . ولكن يجب أن أبقى في منصبي حتى موعد اجتماعه . وللمرة الأخيرة أنصحكم باعادة النظر بموقفكم .

ثم خطب بعده أعضاءالحكومة من القوزاق وغير القوزاق . وألقى بوسيه الاشتراكي الثوري ، خطبة طويلة حشرت بضمانات مغرية .

وقاطعه هتاف من لاغوتين :

ـ ان مطلبنا هو أن تسلموا السلطة إلى اللجنة الثورية العسكرية! ما الذي تنتظرونه اذا كانت حكومة الدون تروم حلاً سلمياً للمسألة...

فتبسم بوغايفسكي :

ـ وهذا يعني ؟...

ـ إن عليكم أن تعترفوا للملأ أن سلطتكم قد انتقلت إلى اللجنة الثورية . وليس بمقدورنا أن ننتظر أسبوعين آخرين ريثما يلتئم مجلسكم! ان الشعب جياش الغضب كما تعهدونه .

وألقى عضو حكومي آخر خطاباً ملتوياً ، ومع ذلك فقد نشد عضو آخر تسوية مستحيلة .

وأصغى بودتيلكوف اليهما بزعل . وعندما ألقى بنظرة خاطفة إلى مساعديه ، لاحظ أن لاغوتين كان شاحباً وعابساً ، وكريفوشليكوف قد ثبت عينيه على المائدة ، وغولوفاتشوف يتفجر ليقول شيئاً ما . وحانت اللحظة التي

كان كريفوشليكوف يترقبها فهمس بهدوء :

ـ أعطهم درساً!

وبدا على بودتيلكوف أنه كان ينتظر هذه المناسبة . فدفع كرسيه إلى الوراء وشرع يتكلم بتوتر ، ويتهته بانفعال ، ويبحث عن كلمات من شأنها أن تزيل كل الشكوك :

ــ انكم تخطئون الحساب في كل ذلك! فلئن كانت الحكومة العسكرية يركن إليها ، لتنازلت عن كل مطالبنا عن طيب خاطر . بيد أن الشعب لا يثق بها! ولسنا نحن ، بل أنتم تبدؤون الحرب الأهلية . لماذا تأوون هؤلاء الجنرالات الهاربين في أرض القوزاق ؟ لذلك يهجم البلاشفة على دوننا الهادىء . اننا لن نذعن لكم . ولن نسمح بذلك! ان الحقائق إلى جانبنا . لا أصدق ان الحكومة العسكرية ستنقذ الدون! أي اجراء اتخذتم ضد الوحدات التي تأبى اطاعتكم ؟... آها ، لقد أسقط في يدكم! لماذا ترسلون متطوعيكم ضد عمال المناجم ؟ قل لي ، أي ضمان هناك في أن الحكومة العسكرية ستتجنب الحرب الأهلية ؟ آها ، ليس لديكم شيء تقولونه بهذا الشأن! ان الشعب وقوزاق الجبهة إلى جانبنا!

ومرقت ضحكة خلال القاعة مثل عزيف الريح ، وتناهى إلى الأسماع صياح غضوب ضد بودتيلكوف . فالتفت بوجهه المحتقن تجاههم ، وهتف دون ان يكتم غضبه المرير :

ـ أنتم تضحكون الآن ، ولكنكم سرعان ما ستذرفون الدموع! ـ والتفت ثانية إلى كاليدين ، وثبت فيه عينيه الخرزيتين وأردف :

ـ اننا نطلب منكم أن تسلموا الحكم الينا نحن ممثلي الشعب الكادح ، وتبعدوا جميع البرجوازيين وجيش المتطوعين... ويجب أن تستقيل حكومتكم أيضاً .

فأحنى كاليدين رأسه بتعب وقال :

ـ ليست لديَّ نية في ترك نوفوتشيركاسك .

وبعد فترة قصيرة استأنف الجلسة متكلم حكومي آخر :

ـ ان مفارز الحرس الأحمر تتقدم نحو الدون لتقضى على القوزاق! لقد دمروا روسيا بحكمهم المخبول وهم يريدون أن يفعلوا المثل هنا! لم يحدث أبداً في التاريخ أن تحكم البلاد جيداً طغمة من المدعين أو تعمل لصالح الشعب . لقد أعماكم جنون الآخرين وتريدون أن تجردونا من السلطة وتفتحوا الأبواب على مصاريعها للبلاشفة . ولكننا لن نسمح لكم بذلك!

فتقحم بودتيلكوف قائلاً :

ـ سلموا السلطة إلى اللجنة الثورية ، وسيوقف الحرس الأحمر هجومه .

وافسح كاليدين المجال إلى فرد من جمهور المستمعين وهو الضابط الرئيس شاين . فنهض من بين الصفوف وعلى صدره أربعة أوسمة من طراز القديس غيورغي . وأصلح قمصلته كأنه في استعراض ثم اندفع وكأنه يغير بجواده ، وجعل ينبح وقد أسبل ذراعه وكأنه يضرب بسيفه :

ـ فيم نصغي لهم ، أيها القوزاق! ان سبيل البلاشفة هو غير سبيلنا! ان خونة الدون والقوزاق وحدهم يستطيعون أن يتحدثوا عن تسليم السلطة إلى السوفييتات ويحثوا القوزاق على الانضمام إلى البلاشفة! ـ وانحنى إلى الأمام وهتف مؤشراً صوب بودتيلكوف بالذات : ـ هل تعني ما تقول ، يا بودتيلكوف ، ان الدون سيتبع شخصاً أمياً نصف متعلم مثلك ، كما يخيل لك ؟ لن تحصل على أتباع لك الا من شذاذ الآفاق القوزاق والذين قد تركوا ديارهم وذويهم . وحتى هؤلاء سيثوبون إلى رشدهم ، يا ولدي ، ويشنقونك لقاء ذلك!

واتجهت إليه رؤوس المجتمعين كما تتجه أوراد عبّاد الشمس نحو الشمس ، وتعالى زعيق الاستحسان . وعاد شاين إلى مقعده . فانحنى فوقه ضابط مديد القامة يرتدي معطفاً ملموماً قصيراً على كتفه شارة مقدم وربّت على ظهره . فتجمع الضباط حوله . ولعلع صوت نسائي بنبرة هستيرية :

ـ شكراً لك يا شاين! شكراً!

ونعب صوت جهير فتي متصنع من المقصورة ، مرفعاً رتبة الرئيس في الحال :

ـ مرحى لك أيها الرئيس الأول شاين! ألف مرحى! واستمر خطباء الحكومة وقتاً طويلاً يحاولون اقناع قوزاق اللجنة الثورية حديثة التكوين . وغدا الهواء أزرق ثقيلاً من جراء دخان التبغ . وكانت الشمس وراء النوافذ تقترب من نهاية مسيرتها النهارية . والتصقت أغصان شجر الشوح المتجمدة بالألواح الزجاجية الخارجية . وكان بوسع الناس الجالسين على عتبات النوافذ أن يسمعوا صلاة الغروب تنشد ، وهديراً أجش كصفير قاطرات المحطة يطغى على عزيف الريح .

ولم يستطع لاغوتين أخيراً أن يتحمل أكثر من ذلك . فالتفت إلى كاليدين وقال مقاطعاً أحد الخطباء :

ـ اتخذوا قراراً : لقد حان الوقت لإنهاء ذلك!

فهمس بوغايفسكي بلهجة كاوية :

ـ لا تنفعل يا لاغوتين! اشرب قدح ماء . انه شيء خطر على أرباب العائلة وغير قابلين لجمع الشمل أن ينفعلوا . هذا إلى أنه لا يحسن مقاطعة الخطباء ، فليس هذا مجلس سوفييتات!

ورد عليه لاغوتين بشدة هو الآخر ، ولكن جميع الأعين اتجهت صوب كاليدين من جديد . اذ كان ما يزال يلعب لعبته السياسية باعتداده المعهود ، ازاء أجوبة بودتيلكوف الساذجة لكنها الثابتة ثبات الدرع .

ـ لقد قلت اننا اذا سلمنا السلطة لكم فسوف يكف البلاشفة عن شن هجومهم على الدون . ولكن هذا رأيك ليس الآ . أمّا ماذا سيعمل البلاشفة عندما يبلغون الدون ، فلسنا ندري .

ـ ان اللجنة الثورية على ثقة من أن البلاشفة سوف يحققون ما قلته . جرِّبوا ذلك . سلموا السلطة لنا ، واطردوا المتطوعين من الدون وسوف ترون ان البلاشفة سينهون الحرب .

وبعد لحظة نهض كاليدين . كان خطابه قد أعد مسبقاً ، وكان قد أمر تشيرنتسوف بتحشيد القوات للتقدم نحو محطة ليخايا المجاورة . ولكنه كان يراوغ كسباً للوقت ، ثم أنهى المؤتمر باقتراح مماطل :

ـ ستنظر حكومة الدون في مقترحات اللجنة الثورية ، وسوف تقدم جوابها خطياً في الساعة العاشرة من صباح الغد .

١١

نص الجواب الذي سلمته الحكومة العسكرية القوزاقية إلى وفد اللجنة الثورية في الصباح التالي على ما يأتي :

لقد تدارست الحكومة العسكرية القوزاقية لجيش قوزاق الدون مطاليب اللجنة الثورية العسكرية القوزاقية التي تقدم بها مفوضو اللجنة باسم حرس الأتمان ، والحرس القوزاقي ، والكتائب : الرابعة والأربعين والثامنة والعشرين والتاسعة والعشرين ، والوحدات : العاشرة والسابعة والعشرين والثالثة والعشرين والثامنة العائدة للاحتياطي الثاني والكتيبة الثالثة والأربعين ، والسرية المستقلة الرابعة عشرة والبطاريات السادسة والثانية والثلاثين والثامنة والعشرين والثانية عشرة والثالثة عشرة ، وفوج المشاة الثاني ، وسرية كامينسكايا ، وعليه فان الحكومة العسكرية القوزاقية تعلن أن الحكومة تمثل جميع السكان القوزاق في الاقليم . وليس لها الحق ، كحكومة انتخبها السكان ، في التخلي عن سلطاتها ريثما يصار إلى تأليف مجلس جديد .

ان الحكومة العسكرية القوزاقية لجيش قوزاق الدون ترى من الضرورة حل المجلس السابق واجراء انتخابات جديدة لمفوضي كل من النواحي ووحدات الجيش . ان المجلس الجديد ، المنتخب بحرية (بحرية كاملة عن طريق التصويت) من قبل السكان القوزاق على أساس الانتخاب السري المتساوي المباشر ، سوف يجتمع في مدينة نوفوتشيركاسك في الرابع (حسب التقويم القديم) من شباط ١٩١٨ ، وهو يجتمع في الوقت نفسه مع مؤتمر جميع السكان من غير القوزاق .

والمجلس وحده ، وهو المؤسسة الشرعية التي أعادتها الثورة والتي تمثل سكان المنطقة من القوزاق ، له الحق في تنحية الحكومة العسكرية القوزاقية من الحكم وانتخاب حكومة جديدة . وسوف يتدارس هذا المجلس في الوقت نفسه مسألة سيطرة الوحدات العسكرية وفيما ينبغي أو لا ينبغي وجود وحدات من المتطوعين للدفاع عن سلطة الحكومة . أما بشأن تشكيل جيش المتطوعين وفعالياته ، فان الحكومة الائتلافية الحالية قد اتخذت قراراً يقضي بوضع جيش المتطوعين تحت السيطرة المشتركة للحكومة واللجنة العسكرية الاقليمية .

وبصدد مسألة سحب البوليس من منطقة المناجم الذي زعم أن الحكومة العسكرية القوزاقية قد أرسلته إلى هناك ، فان الحكومة تعلن أن هذه المسألة ستحال إلى المجلس في الرابع من شباط .

وتعلن الحكومة أن السكان المحليين هم وحدهم الذين يحق لهم أن يسهموا في تنظيم شؤون حياتهم المحلية ، ومن ثم فانها حسب ارادة المجلس ترى من الضروري ان تعارض بكل الوسائل تغلغل المفارز البلشفية المسلحة إلى الاقليم الذي تريد أن تفرض نمط حياتها عليه . ان على الأهالي وحدهم أن ينظموا نمط حياتهم .

ان الحكومة لا تريد حرباً أهلية ، انها تسعى في كل خطواتها للتوصّل الى حل سلمي . ولهذا السبب اقترحت أن تسهم اللجنة الثورية العسكرية في وفد مشترك يبعث إلى القوات البلشفية .

وترى الحكومة أنّ حرباً أهلية لا تنشب الاّ اذا سمح لقوات غريبة بالدخول إلى الاقليم ، ذلك ان الحكومة لا تقوم الاّ بالدفاع عن أرض الدون ، وهي ليست بصدد الاعداد لأي عمل عدواني ، كما أنها لاتريد فرض ارادتها على بقية انحاء روسيا ، وعليه فهي لا ترغب بأن تفرض أية جماعة غريبة ارادتها على الدون .

وستؤمن الحكومة حرية كاملة في الانتخابات في النواحي ووحدات الجيش ، وسيكون بوسع كل مواطن الادلاء بصوته حسب رغبته ، وأن يبدي وجهة نظره عن طريق انتخابات المجلس العسكري القوزاقي .

ويجب ان تشكل لجان من المندوبين من مختلف الوحدات لتتدارس حاجات

القوزاق في جميع الفرق .

وتوعز الحكومة العسكرية القوزاقية لجيش قوزاق الدون إلى سائر الوحدات التي أرسلت مندوبين إلى اللجنة الثورية العسكرية باستئناف واجبهم الاعتيادي في الدفاع عن اقليم الدون .

وترى الحكومة العسكرية القوزاقية لجيش قوزاق الدون أن من غير المعقول أن تعمل بعض وحداتها ضد الحكومة ، فتزج الدون الهادىء في حرب لا تبقي ولا تذر .

ويجب أن تحل اللجنة الثورية العسكرية من لدن الوحدات التي انتخبتها ، وينبغي أن تبعث جميع الوحدات ، بديلاً عنها ، بممثلين إلى اللجنة العسكرية الاقليمية القائمة ، التي تمثل جميع الوحدات العسكرية في الاقليم .

وتطالب الحكومة العسكرية القوزاقية . باطلاق سراح جميع الأشخاص الذين أوقفتهم اللجنة الثورية العسكرية على الفور ، وبغية اشاعة الحياة الاعتيادية في الاقليم يجب السماح للادارة باستئناف أعمالها .

ولما كانت اللجنة الثورية العسكرية لا تمثل الآ عدداً غير ذي شأن من الوحدات القوزاقية ، فليس لها الحق أن تتحدث باسم جميع الوحدات ، ناهيكم عن المطالبة باسم القوزاق جميعاً .

وتعتبر الحكومة العسكرية القوزاقية أنه من غير الجائز مطلقاً للجنة أن تنشىء علاقات مع مجلس مفوضي الشعب ، وتتسلم منه المساعدات المالية ، لأن ذلك من شأنه أن يبسط نفوذ مجلس مفوضي الشعب في اقليم الدون ، علماً بأن مجلس القوزاق ومؤتمر السكان من غير القوزاق في سائر أنحاء الاقليم قد قررا رفض سلطة السوفييتات ، كما فعلت القوات الأوكرانية ، والسيبيرية ، والقفقاسية ، وسائر القوات القوزاقية بلا استثناء .

رئيس الحكومة العسكرية القوزاقية ، نائب
أتمان الجيش القوزاقي م .بوغايفسكي
أمراء جيش قوزاق الدون يلاتونتسيف .
بولياكوف ، ميلنيكوف .

انضم لاغوتين وسكاتشكوف ممثلين عن لجنة كامينسكايا الثورية إلى الوفد الذي أرسلته حكومة الدون إلى تاغانروغ ليتفاوض مع ممثلي سلطة السوفييتات . وكان بودتيلكوف وأعضاء اللجنة الآخرون قد احتجزوا موقتاً في نوفوتشيركاسك ، بينما كانت قوات كاليدين تحت أمرة تشيرنتسوف ، التي تنتظم بضع مئات من حملة الحراب ، وبطارية ثقيلة ومدفعين خفيفين مركبين على عربة سكك ، قد احتلت محطتي زفيريفو وليخايا بسرعة ، وتركت فيهما قوة صغيرة للحماية ، وواصلت تقدمها شطر كامينسكايا ، واحتلت تلك الناحية في السابع عشر من كانون الثاني . وبعد بضع ساعات من احتلال كامينسكايا وردت أنباء تفيد أن مفارز الجيش الأحمر برئاسة سابلين قد طردت قوات الحماية من زفيريفو وليخايا . فكرّ تشيرنتسوف بقواته . وبهجوم جبهوي خاطف اكتسح مفرزة موسكو الثالثة ، ووجه ضربة قاصمة لمفرزة خاركوف ورمى بالحرس الأحمر إلى مواقعهم الأصلية .

وبعد أن استعاد تشيرنتسوف زمام الأمر في جبهة ليخايا ، أخذ المبادرة وعاد إلى كامينسكايا ، وفي التاسع عشر من كانون الثاني تسلم امدادات من نوفوتشيركاسك ، وصمم في اليوم الثاني على التقدم شطر غلوبوكايا .

وتقرر في مجلس حرب القيام بالاستيلاء على غلوبوكايا بحركة التفاف واسعة . وقد تردد تشيرنتسوف في التقدم على السكك الحديد خشية من مجابهة مقاومة عنيفة من وحدات لجنة كامينسكايا الثورية وامدادات الحرس الأحمر التي أرسلت من تشيرتكوف .

وبدأت حركة الالتفاف تلك الليلة ، وكان تشيرنتسوف يقودها بنفسه .

وبلغوا غلوبوكايا قبل الفجر . فغير الرتل تشكيلاته بخفة وانتشر على هيئة صف . وأعطى تشيرنتسوف أوامره الأخيرة ، ثم ترجل ، وأوعز بصوت أجش ، وهو يمط ساقيه ، إلى آمر احدى السرايا قائلاً :

ـ بلا رحمة ولا شفقة أيها الرئيس . فهمت ؟

وخشخشت جزمتاه فوق الثلج ، ودفع قبعته الاستراخانية الرمادية إلى

أحد الجانبين ليحك بقفازه أذناً وردية . وكان ثمة دائرة قاتمة الزرقة تحت عينيه المتألقتين . وكانت شفتاه مزمومتين من شدة البرد ، كما كان شارباه القصيران مفضضين بالصقيع .

ووثب على سرجه بعد أن نال شيئا من الدفء ، وعدل طيات سترته العسكرية القصيرة ، وحثّ كميته بعد أن تناول العنان وهو يفتر عن ابتسامة رصينة واثقة وقال :

ـ فلنبدأ!

١٢

قبيل انعقاد مؤتمر قوزاقيي خط الجبهة في كامينسكايا هرب صديق غريغوري الرئيس أزفارين من كتيبته . كان قد زار غريغوري في اللية السابقة لرحيله وألمح له بغموض بالخطوة التي أزمع تنفيذها .

ـ اني أجد من الصعب عليَّ أن أخدم في الكتيبة في الوضع الراهن . فالقوزاق يتأرجحون بين نقيضين ، البلاشفة والنظام الملكي السابق . ولا أحد يريد مساندة حكومة كاليدين ، لأنه على أقل تقدير يتصرف كطفل بيده لعبة جديدة . ان من نريده هو رجل حازم ثابت العزم يضع الغرباء في أماكنهم اللائقة بهم . ولكنني أعتقد أنه من الأفضل أن نساند كاليدين في الوقت الحالي ، والاّ فسوف نخسر اللعبة كلياً . ـ وتساءل بعد برهة صمت أشعل خلالها سيكارة : ـ أحسب أنك اعتنقت عقيدة الحمر ؟

فأجابه غريغوري :

ـ تقريباً .

ـ عن ايمان ؟ أم مثل غولوبوف ، تريد أن تحظى بشعبية بين القوزاق ؟

ـ لست بحاجة إلى الشعبية . أنا أبحث عن مخرج بنفسي .

ـ انك تضرب في حديد بارد ، ولا أخالك قد وجدت سبيل الخلاص .

ـ سوف نرى...

ـ أخشى أن نلتقي كأعداء يا غريغوري .

فتبسم غريغوري :

ـ ان المرء لا يعرف حتى أصدقاءه في ساح المعركة . ولبث أزفارين يتكلم بعض الوقت ، ثم خرج . واختفى في الصباح التالي كما يتوارى الحجر في الماء .

وفي يوم انعقاد المؤتمر جاء لزيارة غريغوري أحد أفراد الحرس القوزاقي من مقاطعة فيشينسكايا . كان غريغوري ينظف ويزيت مسدسه . لقد جاء جندي الحراسة الذي كان في السابق يخدم في كتيبة ليستنتسكي ويعرف أن ليستنتسكي قد أخذ صاحبة غريغوري منه ليخبره أنه شاهد الضابط السابق في المحطة . ومع ذلك فلم يأت على ذكر الموضوع الاّ قبيل مغادرته ، فقال عرضاً :

ـ لقد رأيت بالصدفة صديقاً لك في المحطة اليوم يا غريغوري .

ـ من ؟

ـ ليستنتسكي . هل تعرفه ؟

فسأله غريغوري بحدة :

ـ متى رأيته آخر مرة ؟

ـ قبل حوالي الساعة .

وجلس غريغوري ، وقد اعتصر الألم القديم قلبه كأن ذئباً أنشب فيه مخلبه ولم يعد يحس بالحقد الضاري ذاته تجاه عدوه ، ولكنه يدري أنه لو صادف والتقيا ، اذا ما اندلعت الحرب الأهلية ، فسوف تراق بينهما الدماء . لقد جعله هذا النبأ المفاجئ عن ليستنتسكي يدرك أن جرحه القديم لما يندمل بعد ، ان محض لمسة من شأنها أن تجعله ينزف من جديد . لا شك أن طعم الانتقام حلو لدى غريغوري لما اقترفه ليستنتسكي من جرم مرير بحقه ، فلم يترك له من حياته السابقة سوى قشرتها ، فغدت ملهوفة تاعسة ظمأى بعد أن كانت تزخر بسعادة مشبوبة طافحة .

ولاذ بالصمت بعض الوقت ، ثم قال عندما أحس بالحميا تنجاب عن وجنتيه :

ـ أتحسب أنه سيأتي إلى هنا ؟

ـ لا أظن ذلك ، . لعله في طريقه إلى نوفوتشيركاسك .

ـ حسناً .

وقال الحارس شيئاً آخر عن المؤتمر ، ونقل له آخر أنباء الكتيبة ثم رحل . ولم يستطع غريغوري في الأيام التي تلت أن يطفئ نيران الألم الذي تأجج في دخيلته . وغشيته حالة من الذهول ، وعاودته ذكرى أكسينيا أكثر من ذي قبل فجلبت المرارة إلى طعم فمه وأحالت قلبه كالصخر . وفكر في ناتاليا والطفلين بيد ان ما كان يبعث فيه ذلك من فرح قد ذوى وعفى عليه الزمن . كان قلبه أسير أكسينيا وما برح يحس باللوعة العارمة الخانقة عليها .

حينما شن تشيرنتسوف هجومه ، كان على القوات الثورية أن تخلي كامينسكايا على عجل . وتحشدت سرايا القوزاق التي هجرها العديد من أفرادها في القطار ، وقد اختلط حابلها بنابلها ، تاركة كل ما ثقل حمله . وبدا للعيان افتقار التنظيم ، والقيادة الحازمة التي من شأنها أن تحشد وتنظم قواتهم الكبيرة حقاً . وأثناء تلك الأيام برز من بين الأمراء المنتخبين رئيس أول يدعى غولوبوف . فتسلم قيادة الكتيبة القوزاقية السابعة والعشرين الثورية واستعاد النظام من جديد بصرامة . وقد أطاعه القوزاق عن ثقة تامة ، معترفين بسجاياه التي افتقرت اليها الكتيبة : مقدرته على سبكها في وحدة متماسكة ، وعلى تعيين الواجبات ، وعلى تسلم مهام القيادة . وأثناء الجلاء صاح هذا الضابط ذو الوجنتين الورديتين المكتنزتين ملوحاً بسيفه في القوزاق الذين كانوا بطيئين في شحن العربات :

ـ ماذا دهاكم ؟ هل تؤدون لعبة الاختفاء والطراد* ؟ اللعنة عليكم . هيا

* لعلها تقابل الاستغماية المصرية . المترجمون

انهضوا بواجبكم! انى آمركم باسم الثورة ان تطيعوا في الحال... ماذا ؟ من هو ذلك الديماغوغي ؟ لسوف أطلق النار عليه ، ذلك السافل! صه... انك مخرب وجاسوس معاد للثورة ، ولست برفيق!

وقد استجاب له القوزاق بالفعل . حتى أن كثيرين منهم أحبوا أساليبه المتغطرسة ، فما برحوا يتوقون إلى الماضي . وفي الأيام السالفة كان خير القادة في نظر القوزاق هم أشدهم فظاظة .

انسحبت مفارز اللجنة الثورية العسكرية إلى غلوبوكايا . وانتقلت القيادة الفعلية إلى يد غولوبوف . وفي أقل من يومين أعاد تنظيم القوات المبعثرة واتخذ الخطوات اللازمة للدفاع عن غلوبوكايا . وكان غريغوري ميليخوف قد عين بناءً على طلبه آمر مفرزة تشتمل على سريتين من كتيبة احتياط وسرية من الحرس .

وفي غسق العشرين من كانون الثاني خرج غريغوري ليستطلع المراكز الأمامية . وعلى أبواب القرية التقى ببودتيلكوف . فعرفه بودتيلكوف :

ـ أهذا أنت يا ميليخوف ؟

ـ نعم .

ـ أين ذاهب ؟

ـ أفتش المراكز الأمامية . هل مضى على رجوعك من تشيركاسك زمن طويل ؟ كيف سارت الأمور ؟

فقطب بودتيلكوف :

ـ لا تستطيع أن تكون مسالماً مع أناس هم أعداء ألداء للشعب . أرأيت إلى الحيلة التي اتبعوها ؟ يتفاوضون... وأثناء ذلك كانوا يدفعون بتشيرنستوف إلى الأمام . يا لكاليدين من خنزير ، ايه ؟ حسناً ، لقد أدركني الوقت . يجب ان أعود إلى مقر القيادة .

وترك غريغوري بعجالة وحث خطاه .

لقد طرأ على موقفه من غريغوري ومعارفه الآخرين من القوزاق تبدل

واضح حتى قبل أن ينتخب رئيساً للجنة الثورية ، فشابت صوته نبرة من التعالي والغطرسة . لقد لعب التسلط برأس القوزاقي البسيط .

رفع غريغوري ياقة معطفه وسار مسرع الخطى . وكان الليل ينذر بصقيع ، وهب نسيم خفيف من الشرق . كانت السماء صافية . وخشخش الثلج تحت قدميه . وتعالى القمر وئيداً ، يعرج ، مثل كسيح يرتقى سلماً . وغشيت السهب خلف المنازل ضبابة بنفسيجة قاتمة . كانت تلك ساعة المساء حين تنمحي كل الخطوط ، والألوان ، والأبعاد ، وحيث ما تزال بقايا النهار مشتبكة بأحابيل الليل وحيث يلوح كل شيء رجراجاً على غير حقيقته . وحتى الروائح تكون لها في مثل هذه الساعة أطياف خادعة .

عاد إلى مقره بعد أن قام بالجولة . وأعدّ مضيفه ، وهو مستخدم في السكك الحديد ، السماور وجلس أمام الطاولة .

ـ هل ستشنون هجوماً ؟

ـ لست أدري .

ـ أم أنكم ستنتظرونهم هنا ؟

ـ سوف نرى .

ـ حسناً ما تفعلون . فلست أعتقد أن لكم من العدة ما تهاجمون بها ، ولذا يحسن الانتظار . لقد خضت غمار الحرب الألمانية كجندي استحكام ، لذلك فأنا أعرف الاستراتيجية التعبوية جيداً . ان قواتكم صغيرة ، أليس كذلك ؟

وحاول غريغوري أن يتجنب هذا الحديث الذي لا يرتاح اليه ، فقال :

ـ ستكفينا .

غير أن الرجل ظل يصب سيلاً دافقاً من الاسئلة ، محوماً حول الطاولة ، هارشاً بطنه النحيل من تحت صدريته .

ـ كثير من المدفعية ؟ مدافع شتى ؟

فأجابه غريغوري بغضب بارد :

ـ لقد كنت في الجيش ، ألست تعرف واجب الجندي ؟

ثم قلب عينيه بعنف فجفل الرجل إلى الوراء ، وأردف :

ـ بأي حق تسأل عن عدد قطعاتنا ، وخططنا ؟ لسوف ألقي القبض عليك وأستجوبك...

فشحب وجه الرجل وكاد أن يغص من الارتباك :

ـ يا إلهي... أيها الضابط! عزيزي... كان ذلك حماقة مني... حماقة . اغفر لي! ـ دمدم صاحب البيت وهو يتوسل ويتضرع فاغراً فاه الأدرد .

وصادف أن تطلع غريغوري إلى الرجل أثناء شرب الشاي ، فرآه يرف بعينيه كمن يصادف بريقاً ، وعندما فتح عينيه ثانية بدت نظرتهما عطوفاً حتى الوله . لقد كانت زوجته وابنتاه اليافعتان يتكلمن همساً ، وأوى غريغوري إلى غرفته دون أن يفرغ من قدحه الثاني .

وبعد فترة وجيزة عاد ستة قوزاق من كتيبة الاحتياط الثانية ، الذين كانوا هم الآخرون مقيمين في المنزل ، وجلسوا يشربون الشاي ، ويتحدثون بصخب . كان غريغوري نصف نائم ، بيد أنه التقط نتفاً من حديثهم . كان واحد منهم وهو ضابط رعيل بخماتشوف من قرية لوغانسكايا يروى حادثاً وقع في النهار :

ـ كنت هناك حينما حصل ذلك . لقد جاء ثلاثة عمال من غورلوفكا من المنجم رقم ١١ وذكروا أنهم قد جمعوا قوة ، ولكنهم لا يملكون اي سلاح . وهكذا فقد طلبوا منا أن نعطيهم ما كان بوسعنا أن نقتصده . فقال لهم أحد أعضاء اللجنة... لقد سمعته بنفسي .

ورفع المحدث صوته استجابة لسؤال خافت :

ـ « اذهبوا واطلبوا من سابلين يا رفاق ، فليس لدينا هنا أي شي! » . ولكن كيف لا نملك أي شيء ؟ فأنا أدري أن لدينا احتياطاً من البنادق . ليس ذلك بيت القصيد . لقد كان يغار من تدخّل الشعب البسيط في...

فصاح آخر : ـ صحيح جداً! تعطيهم سلاحاً وقد يحاربون أولا يحاربون .

ولكنهم ما أن تثار مشكلة الأرض حتى يضعوا أيديهم عليها .

فزخر ثالث :

ـ اننا نعرف طباعهم!

ونقر المحدث الأول بملعقته على قدحه بترو ، وأجاب في الحال متمهلاً في كلماته :

ـ كلا ، ان مثل هذا الشيء لن يجدي . ان البلاشفة سيلاقوننا في منتصف الطريق من أجل مجموع الشعب ، ولكننا لسنا بلاشفة حقيقيين . ان كل ما نبتغيه هو أن نطرد كاليدين ، ثم نشرع...

فعقّب على ذلك بيقين صوت عالي النبرة يكاد ان يكون صوت صبي :

ـ ولكن انظر هنا يا ولدي! ألا ترى أنه ليس لدينا ما نتنازل عنه ؟ لربما نحصل عند توزيع الأراضي على ديسياتين ونصف من الأرض الصالحة وأمّا البقية فلا تصلح لشيء . إذاً فماذا سنمنحهم ؟

ـ لن يأخذوا أي شيء منك ، ولكن يوجد آخرون لديهم أرض أكثر مما ينبغي .

ـ وماذا عن أرض الجيش القوزاقي ؟

ـ كلا ، شكراً لك كثيراً! هل علينا أن نستغني عما نمتلكه ثم نشحذ من أراضي غيرنا ؟ يا لها من فكرة رائعة!

ـ سنحتاج أرض الجيش لأنفسنا .

ـ بالطبع .

ـ لقد أصابكم الجشع!

ـ اللعنة على الجشع!

ـ لعل بعضهم سيفكر في ترحيل قوزاقنا من الدون الأعلى . فليس لديهم هناك غير الرمال .

ـ صحيح جداً .

ـ ولكن ليس من واجبنا أن نفعل ذلك .

ـ ان قطرة من الفودكا قد تنفع .
ـ قبل مدة ، أيها الأولاد ، هجموا على مخازن الشراب .
وقد غرق أحدهم في دن من الكحول .
ـ ان شيئاً من الشراب يسعفني الآن ، شيئاً يبعث الدفء في أوصالي .
وسمع غريغوري وهو يغفو القوزاق الذين افترشوا الأرض ليبيتوا ليلتهم يتجادلون حول الأرض وكيف ينبغي ان توزع .
وأوقظهم قبل انبلاج الفجر صوت اطلاقة خارج النافذة تماماً ؛ ووثب القوزاق واقفين . فارتدى غريغوري قمصلته ، وتناول معطفه وتخبطت ذراعه في كمه ، وارتدى جزمته وهو يركض . ولعلعت الطلقات في الشارع . ومرت عربة تقعقع . وهتف أحدهم بفزع خارج الباب :
ـ إلى السلاح!... إلى السلاح!...
لقد أجبرت قوات تشيرنتسوف النقاط الأمامية على التراجع وتدفقت الي المدينة . وانطلق الخيالة في العتمة السهبية الرمادية . ومرق المشاة خلال الشوارع فراحت تضج بأصوات أحديتهم . ونصب رشاش في أحد الأركان . واصطف عبره زهاء ثلاثين قوزاقياً . وتوافد المزيد منهم وقعقعت الترباسات فيما هي يحشون الخراطيش في مغاليق البنادق . وفي الشارع المجاور كان صوت مرنان يعطي الأوامر :
ـ السرية الثالثة ، انتبه! من ذلك الذي خرج عن الصف ؟ استـ... عد! رماة الرشاش إلى اليمين در! هل أنتم مستعدون ؟ سرية...
ومرت بهم عربة تهدر تجرها خيل مسرعة ، وكان السواق يلوحون بسياطهم . وشرعت الرشاشات تلعلع عن كثب . وفي الشارع التالي انقلب مطبخ الميدان أثناء فراره الهلوع وقد اشتبكت احدى عجلاته بأحد أعمدة سياج . فهدر صوت مرتعب موات :
ـ أنت أيها الشيطان الأعمى! أما كان بوسعك أن تراه!
وبعد لأي استطاع غريغوري أن يلم شتات سريته ثم انطلقوا شطر

المحطة . فوجدوا القوزاق يتراجعون كالموج المتلاطم .

أمسك غريغوري ببندقية أحد المتقدمين وقال :

ـ أين ذاهبون ؟

فانتزع القوزاقي بندقيته وقال :

ـ إليك عني! اليك عني! أيها الخنزير! ماذا دهاك ؟ ألا ترى أننا نتراجع ؟

ـ انهم أقوى منا بكثير!

ـ لا شيء يقوى على ايقافهم .

وتعالى صياح أصوات أخرى :

ـ إلى أين ؟ أين ينبغي ان نذهب ؟ قرية ملليرسكايا في أية جهة ؟

وقرب مستودع البضائع في أقصى المحطة حاول غريغوري أن يوزع جنود سريته في تشكيلة انتشار ، غير أن موجة جديدة من القوزاق الهاربين اكتسحتهم جانباً . وما لبثت سرية غريغوري القوزاقية أن اختلطت بالحشد وهربت معه ناكصة إلى الشوارع .

فزأر غريغوري وهو يختض من الغضب :

ـ قفوا! توقفوا والاّ فسأطلق النار!

ولكنهم لم يعيروه أذنا صاغية . وأمطر الشارع بوابل من رصاص الرشاش . فانبطح القوزاق على الطريق لحظة ، وزحفوا مقتربين من الجدران ، ثم هربوا إلى المنعطفات الجانبية .

وهتف ضابط رعيل فيما هو يمر ركضاً وينظر في عيني غريغوري :

ـ لن نوقفهم الآن يا ميليخوف!

فتبعه غريغوري وهو يصر بأسنانه .

وانتهى الفزع الذي استبد بالقوزاق إلى هزيمة تامة عشوائية من غلوبوكايا ، فتركوا معظم المعدات وراءهم . ولم يكن من الممكن لم شمل السرايا وزجها في هجوم مضاد الآ عند انبلاج الفجر .

هرول غولوبوف مزرق الوجه يتصبب عرقاً وقد ارتدى سترة من الفرو ،

أمام صفوف كتيبته السابعة والعشرين ، وهتف بصوت معدني :
ـ تحركوا! ليس هذا وقت الهجوع! تقدموا ، تقدموا!

وصفت البطارية الرابعة عشرة في موقعها وفصلت الخيل عن عدتها ، وقف الآمر على صندوق ذخيرة وجعل يتطلع خلل منظارته .

بدأت المعركة في السادسة ، فانطلقت قوات القوزاق والحرس الاحمر ، من فورونيج مجتمعة في كتلة هائلة ، فبدت كأنها تطرز الارض الثلجية بالسواد . وهبت ريح زمهرير من الشرق .

ومن تحت الغيوم التي ساقتها الرياح انحسر الفجر عن حمرة بلون النجيع . وأرسل غريغوري نصف سرية الأتمان لتحمي البطارية الرابعة عشرة ، وشن هجوماً بالبقية .

انفجرت القذيفة الأولى على مبعدة يسيرة من طلائع قوات تشيرنتسوف . وتطاير نثار الانفجار البرتقالي المزرق إلى الأعلى .

وأطلقت قذيفة اخرى . ثم تلتها لحظة هدوء زادت من توترها نيران البنادق ، فدوى صدى بعيد اثر انفجار القذيفة . ثم بدأت القذائف تتفجر قرب خطوط العدو . فقال غريغوري في دخيلته بشعور من الارتياح وهو يضيق عينيه أمام الريح : «لقد أحكمنا مدى الرمي! » .

وفي الميمنة كانت سرايا الكتيبة الرابعة والأربعين . وكان غولوبوف يقود كتيبته في الوسط . وغريغوري إلى ميسرته . وفي المؤخرة كانت مفارز الحرس الأحمر تحمى الجناح الأيسر . وقد زودت سرية غريغوري بثلاثة رشاشات . وأشرف آمرهم ، وهو بدين من الحرس الأحمر ذو وجه كئيب ويدين مشعرتين عريضتين ، على اطلاق النار ببراعة ، شالاً محاولات العدو لشن الهجوم . ولهث طوال الوقت لصق الرشاشات وهو يتقدم مع قوزاق سرية الاتمان الزاحفين . وكانت إلى جانبه امرأة مكتنزة ترتدي معطف جنود . وحينما مر غريغوري بصف القوزاق قال في نفسه مغضباً : «يا له من زير نساء! لا يستطيع التخلي عن امرأته حتى في المعركة! كان ينبغي أن يأتي

بأطفاله وفراشه الريش معه أيضاً!» .

واقترب منه آمر مفرزة الرشاشات ، وهو يصلح وضع حزام المسدس على صدره .

ـ أنت آمر هذه المفرزة ؟

ـ نعم .

ـ سأوجه سداً من النار أمام نصف سرية الاتمان ، فالعدو يحول دون تقدمهم .

فاستحسن غريغوري الفكرة قائلاً : «حسناً!» ـ والتفت على اثر صرخة انطلقت من اتجاه الرشاش الذي هدأ لحظة وسمع رامي رشاش ملتحياً يزأر بضراوة :

ـ بونتشوك! سوف ينصهر الرشاش! لا نستطيع المضي على هذا المنوال!

وكانت المرأة بمعطف الجنود جاثية إلى جانبه . وتألقت عيناها السوداوان تحت عصابتها ، فذكرت غريغوري بأكسينيا ، فتطلع اليها لحظة باشتياق ، مبهور النفس .

وفي الظهيرة جاء مراسل من لدن غولوبوف ومعه تعليمات لغريغوري تقضي بسحب سريتيه من موقعهما وتطويق ميمنة العدو ، على أن يقوم بذلك بصورة غير ملحوظة قدر المستطاع . كان عليه أن يغير على جناح العدو حالما تشن القوات الرئيسية الهجوم الحاسم . وسحب غريغوري في الحال سريتيه ، وبعد أن أوعز لهم بامتطاء الخيل ، قادهم بطريق دائري قرابة عشرين فرسخاً في وادٍ ضحل . كانت الخيل تتعثر وتغوص في الثلج العميق ، الذي يصل أحياناً إلى بطونها . وأنصت غريغوري إلى صوت اطلاق النار وعاين ساعته بقلق ، وهي غنيمة استحوذ عليها من معصم ضابط ألماني ميت في رومانيا . وقد استعان بالبوصلة لمعرفة الطريق ، ولكنه رغم ذلك انحرف إلى اليسار أكثر من اللازم . ثم ظهروا في حقل مكشوف على كثيب فسيح . كان العرق يتبخر من أديم الجياد والبلل يسحّ من أوراكها . وأوعز غريغوري بالترجل ، وكان أول

من تسلق الكثيب . وتركت الخيل في الوادي . وتبعه القوزاق مخوضين صعد المرتفع الثلجي . والتفت الى الخلف ، فرأى ما ينوف على السرية من القوزاق منتشرين فوق المرتفع الثلجي فأحس بمزيد من القوة والثقة . فقد كانت غريزة الشعور بالجماعة تستبد به في كل معركة ، شأن غيره من الرجال .

وألم بالموقف في نظرة واحدة ، فأدرك أنه قد تأخر نصف ساعة على الاقل لانه لم يأخذ بعين الاعتبار صعوبات الطريق . كان غولوبوف قد أوشك أن يقطع على قوات تشيرنتسوف خط الرجعة بمناورة استراتيجية جريئة ، مرسلاً مفارز تطويق من كلا الجانبين . وطفق الآن يسدد الضربات على مقدمتهم . وكانت اطلاقات البنادق تلعلع مثل الحب في مقلاة ، ومزقت قذيفة صفوف العدو المرتبكة ، وتساقطت القنابل مدرارة .

هتف غريغوري :

ـ إلى الأمام!

وهجم بمفرزته على الجناح . كان القوزاق يتقدمون كما لو كانوا في استعراض بيد أن رامي رشاش بارعاً من جيش تشيرنتسوف أمطرهم بوابل من الرصاص بصورة متقنة جعلتهم يجدون في الانبطاح على الأرض ملاذاً بعد أن خسروا ثلاثة منهم .

وفي الأصيل الباكر أصيب غريغوري بطلقة فوق ركبته تماماً . فجعل يصر بأسنانه وقد أحس بألم لاهب وغثيان مألوف ناجم عن النزيف . وزحف خارج الخط وقفز على قدميه ، وهز رأسه ، وجعل يهرف بعض الشيء بتأثير الصدمة وكان الألم على أشده لأن الرصاصة لم تخرج . اذ كانت ، حين أصابته قد فقدت زخمها وبعد أن اخترقت معطفه وسرواله وجلده استقرت هامدة ، في عضلاته . وحال الألم المبرح دون حركته ، فرقد مرة اخرى . وفيما استلقى هناك عاودت ذهنه ذكرى هجوم الكتيبة الثانية عشرة في جبال ترانسلفانيا في رومانيا ، يوم جرح في ذراعه : أوريوبين ووجه ميشا كوشيفوي المكفهر غضباً ويميليان غروشيف وهو يجر الرئيس الأول الجريح حدر التل .

وتولى مساعد غريغوري قيادة السرايا وأوعز لقوزاقيين بالعودة بغريغوري إلى ماسكي الجياد . وحينما أجلساه على حصانه أشارا إليه بحنو باد أن يضمد الجرح ولم يكد غريغوري يستوي على سرجه حتى ترجل ، ونزع سرواله وضمّد جرحه النازف المتهيج بعجالة وقد قطب اذ سرت رعدة في جسمه العرق ثم مضى على صهوة جواد برفقة مراسله ، عائدين من نفس الطريق الدائري في الوادي ، إلى الموقع الذي انطلق منه قبل بضع ساعات الهجوم المضاد وجعل يتطلع وهو وسنان نعس ، إلى آثار حوافز الخيل على الثلج ، ومعالم الوادي المألوفة ، وسرعان ما بدت له الأحداث الجارية على سفح التل بعيدة وقليلة الأهمية .

واستمر اطلاق النيران من البنادق بجنون ، ونشطت بطارية العدو الثقيلة ؛ ومن حين لآخر كان يلوح على نيران الرشاشات أنها تكتب بخط منقوط غير منظور نتيجة المعركة .

قطع غريغوري حوالي ثلاثة فراسخ خلال الوادي . وبدأ التعب ينال من الجوادين جراء مسيرتهما الشاقة .

فهمهم غريغوري لمراسله : ـ اتجه شطر العراء! ـ واستدار بحصانه وصعدا سفح الوادي الثلجي .

فرأيا في البعيد جثث الموتى المبعثرة راقدة وكأنها غربان سوداء حاطة . وفي خط الأفق كان حصان يهرب بلا فارس . ورأى غريغوري ان قوات العدو الرئيسية التي قل عددها كثيراً انطلقت من ساحة المعركة وهي تتراجع متجهة إلى غلوبوكويه . ورمّح غريغوري حصانه ؛ كانت تلوح في البعيد جماعات القوزاق الصغيرة المبعثرة . وعندما مضى غريغوري نحو أقرب جماعة منهم تبين غولوبوف . كان الآمر مستوياً على سرجه . وكانت سترته المصنوعة من جلد الخراف مفتوحة ، وقبعته الفرو منداحة إلى أحد الجانبين ، وحاجباه مبللين بالعرق ، صاح بصوت أجش وهو يبرم عذاريه الشبيهين بعذاري رئيس عرفاء :

ـ ميليخوف ، أحسنتَ! ماذا ، هل جرحت ؟ اللعنة على الشيطان! هل عظمك سالم ؟

وانفجر باسماً دون أن ينتظر جواباً ، وأردف :

ـ لقد مزقناهم شر ممزق! لقد مزقنا مفرزة الضباط بحيث لن يكون بمقدورهم أن يلموا شعثهم من جديد .

وطلب غريغوري منه سيكارة . وكان القوزاق والحرس الأحمر يتدفقون على السهب وجاء قوزاقي مسرعاً على صهوة جواده بين جمع حاشد في البعيد .

وصاح وهو لما يزل على مسافة ما :

ـ لقد أسرنا أربعين رجلاً ، يا غولوبوف! أربعين ضابطاً ، وتشيرنتسوف أيضاً!

ـ تكذب ؟!

قال ذلك غولوبوف واستدار بلهفة على سرجه ، وانطلق نحو الأسرى ، وهو يعمل بسوطه بلا رحمة على جواده المحجل .

ولبث غريغوري برهة ، ثم انطلق في أثره خبباً .

كان يقوم بحراسة رهط الضباط الأسرى ركب من ثلاثين قوزاقياً . وكان تشيرنتسوف يحث خطوه في مقدمة الآخرين . وكان قد رمى بمعطفه الفرو حين حاول الهرب من المطاردين ، ولم يبق عليه سوى سترة جلدية خفيفة فقط . وكانت الشارة منتزعة من كتفه الأيسر ، وكان ثمة كدم حديث فوق عينه اليسرى ينزف . كان يسير حثيثاً وبثبات . وقد أضفت قبعته المصنوعة من جلد الحمل والمنداحة إلى أحد الجانبين على مظهره اللاابالية والمرح . ولم يلح على وجهه المتورد الوجنتين أي ظل من الهلع . وكان جلياً أنه لم يحلق منذ أيام ، فلقد كسا وجنتيه وذقنه شعر أشقر نامٍ . وألقى بنظرة خاطفة قاسية على القوزاق الذين يركضون نحوه ، وعلت حاجبيه تقطيبة مرة حقود . وأشعل عود ثقاب وأشعل السيكارة التي تدلت من إحدى زاويتي شفتيه الرصينتين .

كان معظم الضباط شباناً ، خلا واحداً أو اثنين وخط شعرهما الشيب . وقد تأخر عنهم واحد مصاب بجرح في ساقه ، وكان قوزاقي صغير مجدور ، كبير الرأس يسوقه بعقب البندقية . والى جانب تشيرنتسوف تقريباً كان ثمة رئيس أول طويل وسيم . وكان اثنان آخران يسيران يداً بيد ، مبتسمين ، وخلفهما كان تلميذ عسكري بدين أجعد الشعر حاسر الرأس . وضابط آخر كان قد رمى بمعطف جنود على كتفيه دونما عناية . وكان هناك آخر حاسر الرأس ، ولكنه يرتدي قلنسوة ضابط حمراء أنزلت إلى الأسفل فوق عينيه السوداوين الجميلتين جمال عيون النساء .

كان غولوبوف خلفهم . فتوقف وهتف للحارس القوزاقي :

ـ اسمعوا! سوف تكونون مسؤولين عن حماية هولاء الأسرى وفق أقسى ما شهدته العهود الثورية العسكرية من أنظمة . واحرصوا على أن يصلوا مقر القيادة دون أن يصابوا بأذى .

واستدعى قوزاقياً خيالاً ، ودوّن ملاحظة وأمره أن يسلمها الى بودتيلكوف . ثم التفت إلى غريغوري وسأله :

ـ هل أنت ذاهب إلى هيئة الأركان ، يا ميليخوف ؟

وبعد أن تلقى رداً ايجابياً ، اقترب منه وقال :

ـ أخبر بودتيلكوف أنني سأكون مسؤولاً عن تشيرنتسوف . مفهوم ؟ حسناً ، اذهب اذاً .

وتخطى غريغوري جمع الأسرى ومضى شطر مقر اللجنة الثورية ، الذي كان قد نزل على مقربة من قرية صغيرة . فوجد بودتيلكوف يتخطى ذهاباً واياباً أمام عربة رشاشات بعجلات متجمدة ورشاش مغطى بجوخ أخضر ، محاطة بضباط أركان ، ومرافقين ، ومراسلين . وكان مينابيف وبودتيلكوف قد عادا للتو من ساحة المعركة . كان مينابيف جالساً على مقعد السائق ، يلوك قطعة من خبز أبيض متجمد بشهيّة . وانتحى غريغوري ببودتيلكوف وقال له :

ـ سوف يكون الأسرى هنا بعد برهة . هل تسلمت رسالة غولوبوف ؟

فلوح بودتيلكوف بسوطه بقوة ، وخفض عينيه الغائرتين واحمر وجهه انفعالاً ، وقال :

ـ اللعنة على غولوبوف! ان طلبه لطريف! سوف يتعهد تشيرنتسوف ، أليس كذلك ؟ يتعهد ذلك المعادي للثورة وقاطع الطريق! أبداً! لن أسلمه! ان أفضل شيء هو أن ترميهم جميعاً بالرصاص ، وخلاص!

ـ لقد قال غولوبوف انه سيكون مسؤولاً عنه .

ـ انني لن أتركه! لقد قلت هذا ، وأنا أعني ما أقول . هذا كل ما في الأمر! لسوف يحاكم أمام محكمة ثورية وسوف يتم تنفيذ الحكم في الحال ، عبرة للآخرين! هل تدري... ـ وجعل يتكلم بنبرة أهدأ ، متفحصاً حشد الأسرى المتقدمين ـ هل تدري كم سبب من اراقة الدماء ؟ كم بحاراً ؟... كم عامل منجم قتل ؟ ـ ومرة اخرى قلب عينيه وقال متهتها مغضباً : ـ لن أتركه حياً!

ورفع غريغوري هو الآخر صوته وقال :

ـ ليس هناك ما يدعو إلى الصياح! ـ كان يرتعش في دخيلته كما لو كان بودتيلكوف قد عداه بسورته . وأضاف : ـ ان لديك العديد من القضاة هنا! اذهب اليهم اذاً! ـ وأشار إلى الوراء اتجاه ساحة المعركة ومنخراه يرتعشان ، وأردف : ـ هناك كثيرون من أمثالك يريدون تصفية الحساب مع الأسرى!

وابتعد بودتيلكوف ، وهو يشد قبضته على سوطه ، وصاح من بعيد :

ـ لقد كنت هناك! لا تحسب أنني أحتمي بهذه العربة لأنجو بجلدي . اغلق فمك أنت يا ميليخوف! مفهوم ؟ مع من تتكلم ؟ دعك من أساليب الضباط التي تتمسك بها! ان اللجنة الثورية هي التي ستحكم وليس أي...

واستدار غريغوري بحصانه نحوه ، وقفز من على سرجه ، ناسياً جرحه في هذه اللحظة . ولكنه انثنى على نفسه من شدة الألم وسقط على رأسه . وتدفق الدم من ساقه مبقبقاً . ونهض لوحده ، وجر نفسه على نحو ما إلى العربة ، وارتمى على النابض الخلفي .

وآنذاك قدم الأسرى . وانضم رجال الحرس إلى المراسلين والقوزاق الذين كانوا يقومون بحراسة القيادة . ولم تك نار المعركة قد خفتت بعد بينهما ، وتلامعت عيونهم بغضب وحدة فيما كانوا يتبادلون الآراء حول المعركة الأخيرة .

ومضى بودتيلكوف نحو الأسرى وهو يطأ الثلج العميق بقوة . وراح تشيرنتسوف الذي كان ما يزال يتقدمهم بعض المسافة ، يحدق فيه بعينيه القانطتين الصافيتين ، لقد ضاقتا ازدراء ، وكان يستند إلى الوراء على ساقه اليسرى دونما اكتراث ، ويعض شفته السفلى المتوردة بأسنان بيض قوية . وتقدم منه بودتيلكوف وجهاً لوجه وهو يختض بعنف ويحدق إلى أسفل في الثلج المحفر . ورفع عينيه ، فتلاحمت حملقته مع نظرة تشيرنتسوف المستخفة الجريئة ، فغمرتها بما تحمله من كراهية وحقد . وقال بصوت مختنق خفيض ، وهو يخطو خطوة إلى الوراء :

ـ اذاً فقد قبضنا عليك ، أيها الخنزير! ـ وخددت وجنتيه ابتسامة قاتمة مصعرة كما لو اصابته ضربة سيف . فاندفعت الكلمات من بين أسنان تشيرنتسوف كالبصاق :

ـ يا خائن القوزاق! يا كلب! يا غدار!

فهز بودتيلكوف رأسه وكأنه يتحاشى صفعة ، واحتقن وجهه ، وفغر فاه ناشداً الهواء .

وما تلا ذلك حدث بسرعة مدهشة . اندفع تشيرنتسوف نحو بودتيلكوف ، مكشراً عن أسنانه ، شاحب الوجه ، وقبضتاه مشدودتان إلى صدره ، وقد مال جسمه بكامله الى الأمام . وانهالت من شفتيه المرتعشتين كلمات مبهمة مصحوبة باللعنات . ولم يسمع سوى بودتيلكوف الذي جعل يتراجع إلى الوراء على مهل .

ثم رفع تشيرنتسوف صوته فجأة بحيث تناهت الكلمات إلى أسماع الأسرى والحراس وضباط الأركان :

ـ سيأتي دوركم... أنت تعرف ذلك!
فلهث بودتيلكوف بصوت مختنق ، متحسساً قبضة سيفه :
ـ أنت...

ثم خيّم صوت فجائي . وخشخش الثلج بصوت مسموع تحت أقدام ميناييف وكريفوشليكوف وقوزاق آخرين ألقوا بأنفسهم صوب بودتيلكوف . بيد أنه كان أسرع من أن يدركوه . فلقد استل سيفه من غمده وهو يستدير بكامل جسمه إلى اليمين مقرفصاً ، ثم ألقى بنفسه بقوة إلى الامام وأنزل السيف بضربة هائلة على رأس تشيرنتسوف .

ورأى غريغوري الضابط يرتعد ويرفع يده اليسرى ليتقي الضربة ، ورأى السيف يبتر معصمه كما لو كان ورقة ، ويهوي على رأسه المرتمي إلى الوراء . فسقطت قبعته المصنوعة من جلد الحمل ، أولاً ، ثم هوى تشيرنتسوف ببطء مثل ساق ذرة بتر من أسفله ، وقد التوى فمه بصورة شوهاء ، وأزورت عيناه ألماً ، وعلت وجهه تقطيبة وكأنه يواجه بريقاً .

وعندما هوى الضابط ، انقضّ عليه بودتيلكوف ثانية ، ثم استدار وابتعد عنه بخطوات متثاقلة متعبة ، وهو يمسح سيفه الملطخ بالدم . والتفت إلى الحراس وصاح بصوت مكدود وهو يتعثر بالعربة :

ـ اقتلوهم... اللعنة عليهم! عن بكرة أبيهم! نحن لا نأخذ أسرى! فالعداء للشعب راسخ في قلوبهم ، في دمائهم!

ولعلع الرصاص بشكل محموم . فاستدار الضباط وحاولوا الهرب بحشد متخبط متدافع . وجرى الملازم ذو العينين النسويتين الجميلتين والقلنسوة الحمراء ، ويداه مشدودتان إلى رأسه . وأصابته رصاصة فقفز عالياً وكأنه يروم طفر حاجز . ثم سقط ولم ينهض ثانية . وهوى قوزاقيان على الرئيس الطويل . فأمسك بحدي السيفين ، وتدفق الدم من يديه المجروحتين وسال على كمه . وجعل يصرخ مثل الطفل ، وسقط على ركبتيه ، ثم على ظهره ، ثم تدحرج رأسه على الثلج ، ولم يلح من وجهه سوى عينين ملتهبتين وفم أدكن

مزقته صرخة . وبقي السيفان المتطايران يعيثان بوجهه ، بفمه ، ولكنه ظل يزعق بصوت أوهنه الألم والفزع . ثم ركله قوزاقي آخر وقضى عليه برصاصة . وكاد التلميذ العسكري ذو الشعر الأجعد أن يفلت من الحلقة ، بيد أن واحداً من قوزاق الاتمان أدركه وهوى عليه . وسدد هذا الأخير اطلاقة إلى ظهر ضابط يعدو وسترته تتطاير في الهواء . فجثا الضابط وجعل يهرش صدره ، حتى قضى . وقتل في الحال ضابط رئيس أشهب العشر ، وحفر حفرة عميقة بقدميه في الثلج وهو يودع الحياة ، وكان بالامكان أن يستمر على رفسه كما يفعل حصان جامح مربوط ، لو لم يشفق عليه القوزاق ويضعوا حداً لألمه .

كان غريغوري قد جرجر نفسه من العربة ، حالما بدأت المجزرة ، وجعل يعرج بخفة نحو بودتيلكوف مسمراً عينيه الملتهبتين فيه . الآ أن مينايف طوقه من خلف ، ولوى ذراعيه ، واستل المسدس من يده ، وحملق في عينيه بنظرة بليدة ، وقال لاهثاً :

ـ وماذا كنت تتوقع ؟

١٣

كانت الهضبة المتشحة بالثلج ، والمتألقة في وهج الشمس وزرقة السماء الصاحية ، بيضاء تلتمع كالسكر . وعلى سفحها ترقد قرية متناثرة البيوت أشبه بلحاف مرقع . الى اليمين استقرت قرى صغيرة ومرابع زرقاء لجاليات ألمانية . والى الشرق نهض تل تمزقه الاخاديد . وفوق ناصيته سياج من أعمدة التلغراف . كان النهار صحواً زمهريراً على غير العادة . وأحاطت بالشمس سدائم قزحية الظلال . وكانت الريح تهب من الشمال ، وتثير غبار الثلج من السهب . ولكن المدى المكسو بالثلج كان واضحاً حتى الأفق ، خلا الشرق وحده ، حيث خيم ضباب بنفسجي فوق السهب عند التقاء التل بالسماء .

كان بانتلاي بروكوفتش قد شخص إلى ميليروفو ليصطحب غريغوري إلى القرية . لقد قرر أن لا يتوقف عند القرية ، بل يواصل مسيرته إلى كاشارا ليقضي الليلة فيها . كان قد انطلق من تاتارسكى بعد استلامه برقية من غريغوري ، فوجد ابنه بانتظاره في نزل . وكان غريغوري بعد أن جرح في غلوبوكايا ، قد أمضى أسبوعاً في عربة مستشفى ميدان مسافرة إلى ميليروفو . ثم قرر العودة إلى أهله عندما التأم جرح ساقه بعض الشيء . وقد قاد قوزاق القرية حصانه اليه . ذهب تتوزعه أحاسيس هي مزيج من التبرم والسرور : تبرم لأنه ترك كتيبته في أوج الكفاح من أجل السلطة في الدون ، وسرور لأنه سوف يرى أهله وقريته ثانية . وكتم اللهفة لرؤية أكسينيا حتى عن نفسه ، بيد أنه لم يكن بوسعه الا أن يفكر بها .

وقد داخله شعور بالغربة عند التقائه بأبيه . وكان بانتلاي بروكوفيتش (بعد الذي أسره به بيوتر) ينظر إلى غريغوري باكتئاب ، وقد نمت عيناه عن برم وقلق . وفي المساء ، وهما بالمحطة ، راح يستفهم بالتفصيل من غريغوري عن الاحداث الجارية في منطقة الدون ، ويبدو ان اجابات ابنه لم تقع في نفسه موقع الرضا . فجعل يلوك بلحيته التي دبّ فيها المشيب ، ويحدج في جزمته اللبادية ويزنخر . وقد أحجم في البداية عن الجدال ، غير أنه بدافع من حميته الغضبى في الدفاع عن كاليدين ، طلب من ابنه ان يغلق فمه كعادته في الأيام السالفة ، حتى أنه راح يضرب الأرض برجله العرجاء .

ـ لا تحاول أن تفرض علي آراءك! لقد جاء كاليدين إلى تاتارسكى في الخريف . وقد عقدنا اجتماعاً في الساحة ، واعتلى هو طاولة وراح يتكلم مع الشيوخ ، وكالانجيل تنبأ أن الفلاحين سيأتون وسوف تندلع الحرب ، وما لم نقرر ما ينبغي أن نفعله فسيجردوننا من كل شيء ويشرعون بالاقامة في أرضنا . وكان قد أدرك منذ ذلك الحين أن الحرب ستندلع . وماذا تقولون في ذلك يا أبناء العاهرات ؟ هل يعلم هو أقل مما تعلمون ؟ جنرال مثقف مثله ، وهو الذي قاد الجيش ، أتحسبون أنه يعلم أقل منكم ؟ ولكن الرجال في

كامينسكايا لغاطون غير مثقفين مثلك ، يبثون القلق بين الناس . وبودتيلكوفكم هذا! من هو ؟ رئيس عرفاء ؟ آها! رجل بمثل رتبتي . ذلك ما آل اليه أمرنا!

وراح غريغوري يناقشه دونما حماس . فقد كان يدرك مسبقاً موقف أبيه . وها قد برز في الأمر عنصر جديد : فلم يكن بوسعه أن ينسى موت تشيرنتسوف ومذبحة الضباط الأسرى دون محاكمة ، أو يغفر فعلة المتسببين .

كان الحصانان يجران الزحافة طوال الطريق بسهولة . وكان جواد غريغوري المسرج مربوطاً إلى الخلف . وكانت القرى والمرابع المألوفة لديه تطالعه طوال الطريق . وكان غريغوري طوال طريقه إلى قريته يفكر بلا ترابط ولا هدف في الأحداث الراهنة ، ويحاول جهده أن يشخص بعض معالم المستقبل . بيد أن ذهنه لم يشخص إلى ما هو أكثر من الاستجمام في البيت . « سأنعم ببعض الراحة عندما أعود ، ويكون جرحي قد التأم ، ومن ثم... » وقال وكأنه يهز كتفيه . « سوف نرى ، فالزمن كفيل بإجلاء الأمور » .

كانت الهموم التي سببتها الحرب قد سحقته . وود لو يدير ظهره إلى العالم الكريه الذي استعصى عليه فهمه . كان كل شيء مضى معقداً متناقضاً . وكان من العسير تبين السبيل السوي ، فقد مادت الأرض تحت قدميه وكأنه واقف في مستنقع ، وتشعب الطريق أمامه مسالك شتى وزايله الاحساس بالثقة من أنه قد اختار السبيل السوي . وكان قد مال إلى جانب البلاشفة ، وجر آخرين وراءه ، ثم ما لبثت رغبته أن فترت ، وسرت البرودة إلى قلبه . « ترى هل كان أزفارين على صواب اذاً ؟ ومن عسانا نثق به ؟ » . ولكنه عندما فكر أنه سرعان ما سيحين الوقت لاستعمال المجاريف والعربات في الربيع ، ونسج معالف الصفصاف ، وحينما تكون الارض جرداء وجافة سيكون بوسعه أن ينطلق إلى السهب ، وتمسك يداه الملهوفتان إلى العمل بقبضة المحراث ، ويشعر به ينبض ويرتج كشيء حي ، عندما تذكر أنه سيتنسم عما قريب

الشذى العبق للعشب النامي والتربة ذات الشميم الندي التي عزقتها سكة المحراث والتي ما تزال تفوح منها رائحة الثلج الذائب ، غمر قلبه الدفء . وتاق إلى تنظيف زريبة الماشية ، وتجميع القش ، واستياف شميم نبات البرسيم الذابل ، وحشيش الأرائك ، ورائحة الروث الحريفة . وأحس برغبة إلى السلام والدعة ، وهكذا أعربت عيناه القاسيتان عن سرور خفي عندما تطلع إلى السهب ، والجياد ، والى ظهر أبيه . وذكره كل ذلك بحياته السابقة التي يكاد يلفها النسيان : الرائحة المنبعثة من فروة أبيه ، المظهر الأليف للحصانين غير المحسوسين ، وصياح ديك في مزرعة . لقد بدت الحياة هنا ، في هذا المنتجع ، حلوة وثرة تبعث في النفس الخدر .

بلغا تاتارسكى وشيك المساء في اليوم التالي . وراح غريغوري يتطلع إلى الدون من التل : هناك كانت الغياض تلفها فروة قاتمة من القصب ، وهناك كانت أشجار الحور الذابلة ، غير أن المعبر على الدون لم يعد حيث كان بالأمس . القرية ، الحقول وبيوتها ، الكنيسة ، الساحة... وحينما ثبت عينيه على منزله اندفع الدم إلى رأسه ، وغمره طوفان من الذكريات . ولاحت مغرفة البئر في الفناء كأنها تومىء اليه بذراعها المرفوعة المصنوعة من الصفصاف :

وقال له بانتلاي مبتسماً وهو يلتفت اليه :

- ألا تتوجع عيناك لهذا المنظر ؟

فأجاب غريغوري دون أن يحاول إخفاء مشاعره :

- بلى... وأي توجع!

وتنهد العجوز يملؤه شعور الرضا وقال :

- ما أحب البيت في عين صاحبه!

ويمم سيره إلى وسط القرية . وجرى الحصانان بخفة حدر التل ، وانزلقت الزحافة على الطريق ، تتواثب من عثرة إلى عثرة . وعلى الرغم من أن غريغوري قد فطن إلى قصد أبيه ، الا أنه بادره بالسؤال :

- علام تسوق خلال القرية ؟ اتجه شطر شارعك .

فالتفت بانتلاي بعينه وقال مبتسماً خلل لحيته :

ـ شهدتُ ابني الاثنين يذهبان إلى الحرب كقوزاق أنفار ، ولكنهما شقا طريقهما إلى مراتب الضباط . ألا تعتقد أن من حقي أن أفخر بالمرور بابني خلال القرية ؟ فلينظروا وليملأهم الحسد! انه بلسم لفؤادي يا ولدي .

وفي الشارع الرئيسي صاح بالحصانين ، ومال بجسمه إلى خارج العربة وهوى بسوطه على خاصرتيهما ، واذ أدرك الحصانان أنهما صارا قريبين من البيت ، جريا بخفة وحيوية كأن المئة والأربعين فرسخاً التي قطعاها لم تنل منهما شيئاً . وانحنى لهما المارة من القوزاق ، وجعلت النسوة يحدقن من تحت راحات أيديهن من الأفنية والنوافذ ، وتفرق الدجاج يقوقي في الطريق . وجرى كل شيء على ما يرام .

وشقا طريقهما خلل الساحة . وتطلع جواد غريغوري بنظرة جانبية إلى حصان آخر مربوط إلى سياج موخوف ، فزنخر ، وشمخ برأسه . ولاح لهما منظر أقصى القرية وسقف منزل استاخوف . الا أن حادثاً ما قد وقع لهما في أول ملتقى طريق . اذ ان خنزيراً صغيراً كان يجري عبر الطريق ، فقد صوابه ووقع تحت حوافر الحصانين ، وتدحرج ، وجعل يقبع ويزحر محاولاً النهوض بظهره الكسير . فصاح بانتلاي بروكوفيتش وهو يذيق الخنزير طعم سوطه :

ـ فليأخذك الشيطان!

وكان الخنزير لسوء الحظ ملك أنيوتكا أرملة افونكا أوزيرف ، وهي امرأة شكسة اللسان . فهرعت من حوشها وراحت تصب سيلاً من اللعنات جعلت بانتلاي بروكوفيتش يكبح بالحصانين ويستدير في مقعده . ثم صاح :

ـ امسكي لسانك أيتها الحمقاء! فيم زعيقك ؟ سوف نعوضك عن خنزيرك الأجرب .

فراحت تصرخ ملوحة بيديها :

ـ أنتَ يا روح الشر!... أيها الشيطان! أنت نفسك الأجرب . أنت أيها السلوقي الأعرج! لسوف أشتكي عليك عند الأتمان في الحال! وسوف أعلمك

كيف تسحق حيوان أرملة مسكينة!

واذ سمع بانتلاي بروكوفيتش ما فيه الكفاية ، نق وقد استحال لونه أزرق :

ـ يا لفمك القذر!

فردّت عليه المرأة بعنف :

ـ أيها التركي اللعين!

ورفع بانتلاي صوته : ـ أيتها العاهرة ، يا ابنة مئة شيطانة!

ولكن أنيوتكا أوزيروفا لم تكن أبداً لتعوزها سلاطة اللسان . فجعلت تغوق مثل العقعق :

ـ أجنبي! قواد! لصّ! من سرق مجرفة ؟ من يسعى وراء المغيبات ؟*

ورد عليها العجوز :

ـ سألقنك درساً بهذا السوط ، أيتها المومس! اغلقي فمك!

ولكن أنيوتكا نطقت بشيء بلغ من البذاءة درجة جعلت بانتلاي بروكوفيتش الذي رأى وسمع الكثير في حياته ، يحمر من الحرج ، وراح العرق يتصبب منه .

ـ امضِ! لماذا تكلمها ؟ ـ قال غريغوري ذلك مغضباً حين شرع حشد يتجمع وينصت باهتمام إلى هذا التبادل العارض بالتحايا بين ميليخوف العجوز والأرملة الشريفة أوزيروفا .

فقال بانتلاي بروكوفيتش :

ـ يا له من لسان! يطول بزوج من الأعنة! ـ وبصق بانخذال ، ولفح الحصانين بالسوط وكأنه يسعى لدهس أنيوتكا أيضاً .

وعندما بلغا المنعطف التالي التفت حوله بحذر ، وقال بألم :

ـ ما أقذع شتائمها... أية شيطانة! فلتنتفخي وتنفجري ، أيتها القحبة

* الزوجات اللواتي يغيب أزواجهن . المترجمون

السمينة! كان ينبغي أن تسحق كما سحق خنزيرها! ان هذه القحبة تستطيع أن تسلخ لحمك من عظمك بلسانها!

وأخذت صفاقات منزلهم الزرق تدنو منهما بسرعة . وفتح البوابة بيوتر حاسر الرأس مرتدياً ثوباً بلا حزام . ولاح وميض لعصابة بيضاء ، ثم هرعت دونيا تنزل الدرجات متألقة العينين :

وقبّل بيوتر أخاه وتطلع إلى عيني غريغوري :

ـ هل أنت سالم غانم ؟

ـ أصبت بجرح .

ـ أين ؟

ـ قرب غلوبوكايا .

ـ أي حاجة لوجودك هناك ؟ كان ينبغي أن تعود إلى البيت منذ زمن .

وصافح غريغوري بحرارة وود ، ثم سلّمه إلى دونيا . فطوق غريغوري كتفي أخته المكتملين وقبلها من شفتيها وعينيها ، ثم خطا إلى الوراء مندهشاً .

ـ عجباً ، دونيا ، الشيطان نفسه ما كان يستطيع أن يتعرف عليك ؟! أي فتاة غدوتِ ، كنت أحسب أنك ستكونين دميمة قبيحة .

وهم بأن يقرصها غير أن دونيا حالت دون ذلك بقولها :

ـ حذار ، حذار ، ياأخي! ـ وجرت بعيداً وهي تبتسم مثل ابتسامة غريغوري التي تتكشف عن أسنان ناصعة .

وجاءت ايلينشنا بالطفلين تحملهما على ذراعيها ، وهرعت ناتاليا تجري أمامها . كانت زوجة غريغوري قد تفتحت وحسنت بصورة مدهشة . وكان شعرها الأسود البراق الذي سواه المشط ناعماً ، والتأم في عقصة كبيرة من الخلف ، قد زين وجهها المتورد الفرح . والتصقت بغريغوري وجعلت تتمسح بشفتيها على وجنتيه وعذاريه عدة مرات بارتباك ، ونتشت ابنها من ذراعي ايلينشنا ، ورفعته أمام زوجها . وقالت بزهو وسرور :

ـ انظر أي ولد لطيف لديك!

ودفعتها ايلينشنا جانباً بانفعال :

ـ دعيني ألقي نظرة على ولدي أنا!

وأمسكت برأس غريغوري ، وقبلت جبينه ، ومسّدت وجهه بيدها الخشنة ، وهي تبكي من شدة الانفعال والفرح .

ـ وهذه بنتك يا غريشا! هاك خذها!

ووضعت ناتاليا البنت المتدثرة بشال في ذراع غريغوري الأخرى ، ولم يدر من شدة انفعاله إلى أيهم ينظر : ناتاليا ، أو أمه ، أم طفليه . وكان الطفل بعينيه الشكستين وحاجبيه الأجعدين ، قد صب في قالب آل ميليخوف : نفس العينين المستطيلتين السوداوين ، بله الحزينتين ، والبياضين الجاحظين الأزرقين ، وخط الحاجبين العريض ، والبشرة السمراء . ودس بكفه الصغيرة المتسخة في فمه وحدج أباه بعناد ونفور . ولم ير غريغوري سوى عيني ابنته الصغيرتين السوداوين اليقظتين ، فقد كانت بقية وجهها ملفعة بشال .

وخطا نحو الدرجات وهو يحملهما على ذراعيه ، بيد أن حرقة ألم سرت في ساقه . وتبسم بزهو وخجل وقال :

ـ خذيهما يا ناتاليا ، والا عجزت عن ارتقاء الدرجات .

كانت داريا واقفة وسط المطبخ ، تصفف شعرها ، ثم تبسمت وتقدمت نحو غريغوري متبخترة ، وأغمضت عينيها الضاحكتين وضغطت شفتيها النديتين الدافئتين على شفتيه :

ورفعت قوسي حاجبيها النحيفين بمجون وقالت :

ـ ان في مذاقك طعم التبغ!

ـ دعني ألقي نظرة أخرى عليك ، يا حبيبي ، يا ولدي!

فتبسم غريغوري وجعل قلبه يخزه عندما وضع خده على كتف أمه .

وفي الفناء كان بانتلاي بروكوفيتش بقبعته المجللة بالأحمر وحزامه الأحمر يعرج حول الزحافة ، ويفك عدة الجوادين . وكان بيوتر قد قاد جواد

غريغوري إلى الاسطبل ، وحمل سرجه إلى البيت . وطفق يقول شيئاً لدونيا التي رفعت صفيحة برافين من الزحافة .

خلع غريغوري فروته ومعطفه وعلقهما على حافة السرير ، ثم مشط شعره وجلس على مصطبة ونادى ولده :

ـ تعالَ اليَّ يا ميشا! ماذا ، ألست تعرفني ؟

فراح الطفل يحجل اتجاهه وكفه ما تزال في فمه ، ولكنه توقف عند المائدة . وتطلعت أمه اليه بزهو ووله وهي ازاء الموقد . وانحنت وهمست بشيء في أذن ابنتها ، ودفعتها برفق إلى الأمام :

ـ اذهبي!

ورفعهما غريغوري سوية ، وأجلسهما على ركبتيه وجعل يخاطبهما :

ـ ألا تعرفانني أيتها البندقتان ؟ بوليا ، ألا تعرفين أباك ؟

فقال الولد وقد شعر بمزيد من الثقة لوجود أخته معه :

ـ أنت لست أبانا .

ـ من أنا اذاً ؟

ـ واحد من القوزاق .

فأطلق غريغوري ضحكة عالية :

ـ هكذا اذاً! فأين هو أبوكما ؟

فقالت البنت في ثقة :

ـ انه في الجيش .

كانت أنشط الاثنين . وتدخلت ايلينشنا متصنعة الغضب ، وهي تبتسم لغريغوري :

ـ هذا صحيح أيها الطفلان ، لقناه درساً ، فقد كان بعيداً طوال هذه السنوات الثلاث ويظن الآن أن كل شخص ينبغي أن يعرفه بعد أن عاد آخر الأمر إلى البيت! حتى زوجتك سوف تهجرك عما قريب! فقد كنا نبحث عن رجل لها!

والتفت غريغوري إلى زوجته وقال مازحاً :

ـ ما معنى هذا يا ناتاليا ؟

فاحمرت وجنتاها خجلاً ، ولكنها سيطرت على ارتباكها ، وتقدمت نحوه وجلست إلى جانبه . وجعلت تتشربه بعينيها الطافحتين بالسعادة ، وتمسد ذراعه الجافة السمراء بيدها الخشنة الدافئة .

قالت ايلينشنا :

ـ داريا ، أعدي المائدة!

فضحكت داريا واستدارت على طريقتها الممراحة تجاه الموقد وقالت :

ـ ان له زوجة!

لقد كانت كعهدها رشيقة أنيقة . كان جورباها الصوفيان البنفسجيان ملتصقين بشدة على ساقيها الجميلتين ، وكان حذاؤها يلائم قدميها وكأنهما قد صنعا له . وكانت تنورتها ذات الكشكش ، الحمراء بلون توت العليق يشدها زنار ضيق ، وصدريتها مطرزة ناصعة البياض . وحول غريغوري عينيه إلى زوجته ، ولاحظ انها قد تغيرت بعض الشيء . لقد زينت نفسها بمناسبة عودته إلى البيت : بلوزة من الساتان الازرق بكمين من الدانتيلا مشدودين عند المعصمين أبرزت جمال قوامها وارتفعت فوق ثدييها الكبيرين اللدنين ، وتنورة زرقاء ذات حاشية مطرزة مجعدة تشد على خصرها . وتطلع غريغوري إلى ساقيها الجميلتين المكتنزتين ، وبطنها المشدود وعجيزتها الكبيرة ، وكأنها عجيزة فرس موفورة الغذاء ، وقال في نفسه : «بوسع المرء أن يتبين القوزاقية من بين مئات النساء . فهي ترتدي الملابس لتظهر كل شيء ولسان حالها يقول : «انظر اذا شئت ، والا فلا!» ولكنك لا تستطيع أن تتبين الخلف من القدام للمرأة الفلاحة ، انها تبدو كما لو ارتدت كيساً...» .

فأحست ايلينشنا بنظرته ، وقالت مباهية :

ـ انظر كيف ترتدي زوجات الضباط بيننا نحن القوزاق! انهن يستطعن أن يضاهين نساء المدينة!

فقاطعتها داريا :

ـ كيف تستطيعين أن تقولي ذلك يا أمي ؟ أين نحن من بنات المدينة جمالاً! أنا نادمة على أن أحد قرطي مكسور ، رغم انهما لا قيمة لهما ، ـ قالت كلماتها الأخيرة بمرارة .

وضع غريغوري ذراعه على ظهر زوجته العريض وقال لنفسه لأول مرة : «انها لجميلة ، وبوسع كل انسان أن يرى ذلك . فكيف كانت تعيش بدوني ؟ أحسب أن القوزاق كانوا يجرون وراءها وربما جرت هي وراء واحد منهم . هب أنها فعلت ذلك!» . وعند هذه الفكرة غير المتوقعة وجب قلبه بعنف ، وأخذ يمعن النظر في وجهها المتورد ، الذي يشع بدهان الخيار نضارة ، فتوردت وجنتا ناتاليا تحت نظرته المتفحصة ، وهمست وهي تكبت خجلها :

ـ فيم تنظر اليَّ هكذا ؟ أكنت مشتاقاً اليَّ ؟

ـ ماذا ، بالطبع!

وطرد عن ذهنه خاطرته المزعجة ، ولكنه أحس لحظة بعداء غامض لزوجته لا يكاد يعي معناه .

ودخل بنانتلاي بروكوفيتش يتنحنح ، ورسم اشارة الصليب أمام الايقونة ، وقال وكأنه يقوقيء :

ـ حسناً ، أتمنى لكم مرة أخرى صحة طيبة!

فقالت ايلينشنا وهي تحدث جلبة بالملاعق :

ـ لله الحمد يا رجل! هل تجمدت أوصالك ؟ لقد كنا بانتظارك . والحساء دافئ .

وفك المنديل الأحمر من رقبته وهو يدبدب بجزمتيه اللباديتين ، ثم نزع فروته ، ونفض قطرات الماء المتجمدة على لحيته وعذاريه ، وجلس جوار غريغوري وقال :

ـ لقد تجمدت بكليتي ، ولكننا كنا دافئين بما فيه الكفاية عند مرورنا بالقرية . فقد دهسنا خنزير أنيوتكا أوزيروفا . أمّا كيف جاءت تركض ، تلك

العاهرة! كيف راحت تعربد! «سألقنك درساً» و«أنت كيت وكيت وكذا» و«أنت سرقت مجرفاً!» . الشيطان يعرف أي مجرف ؟!

ذكر كل الصفات التي أطلقتها عليه أنيوتكا ، مغفلاً اشارتها إلى كلمة «قواد» فقط . فضحك غريغوري وجلس أمام المائدة . وأنهى بانتلاي بروكوفيتش كلامه بحدة ليبرر موقفه في نظر ابنه :

ـ لولا أن غريغوري كان معي لأذقتها طعم السوط ، فلم يكن ذلك بالظرف المناسب .

وفتح بيوتر الباب ودخلت دونيا تقود عجلاً لطيفاً بمقود . وهتف بيوتر وهو يدفع العجل برجله مغتبطاً :

ـ سوف نتناول فطائر بالقشطة في عيد الباعوثة .

وبعد العشاء ، فتح غريغوري حقيبته العسكرية وراح يوزع .

ـ هذا لك يا أمي ، ـ قال ذلك وهو يقدم لها شالاً دافئاً .

فتناولت ايلينشنا الشال ونشرته على كتفيها منفعلة متوردة الوجنتين مثل الفتيات الشابات . وأمضت وقتاً طويلا تزهو بنفسها أمام المرآة حتى أن بانتلاي بروكوفيتش ثارت حفيظته فصاح :

ـ أيتها الحيزبون الشمطاء ، تختالين أمام المرآة! باه!

ـ وهذه لك يا أبتي ، ـ قال غريغوري متعجلاً ، وهو يزيح الغلاف عن قبعة قوزاقية جيدة ذات جبهة عالية وشريط أحمر متوهج .

فأجابه بلهجة متذمرة ناظراً حوله كأنه يخشى أن يأخذ أحدهم هدية ابنه :

ـ أطال الله عمرك! لقد كنت بحاجة إلى قبعة جديدة . ولم يوجد أي منها في الحانوت طوال العام الفائت ، ولم يطب لي الذهاب إلى الكنيسة بقبعتي القديمة . فهي لا تصلح الا فزاعة للغربان ، ولكنني واظبت على ارتدائها .

واستدار ليذهب أمام المرآة ليرى كيف تبدو عليه ، غير أنه لمح عيني ايلينشنا ، فدار فجأة على عقبيه وراح يعرج تجاه السماور . ووقف أمامه

ليجرب قبعته ، حانياً قمتها بحبور إلى أحد الجانبين . فالتفتت اليه ايلينشنا :
ـ ماذا تفعل هناك أيها الأحمق العجوز ؟
فرد عليها بانتلاي :
ـ يا الهي ، أية امرأة حمقاء أنت! ان هذا سماور ، وليس مرآة .
ثم قدم غريغوري لزوجته قطعة من القماش الصوفي تصلح تنورة ، وتلقى طفلاه أوقية من بسكويت العسل ، وداريا زوجاً من الأقراط الفضية ، ودونيا شيئاً يصلح كبلوز ، وبيوتر سكاير وتبغاً ، وفيما راحت النسوة يثرثرن حول هداياهن ، تخطر بانتلاي في المطبخ كأنه أمير رافع صدره .
ـ هاك قوزاقياً رائعاً من كتيبة الحرس! نال جوائز أيضاً! نال الجائزة الأولى في الاستعراض الامبراطوري . سرجاً بجميع معداته! هوذا أنا!...
ونظر بيوتر وهو يقضم شاربيه القمحيين إلى أبيه باعجاب . وتبسم غريغوري ، ثم أشعل الرجال السكاير ، وقال له بانتلاي وهو ينظر خلال النافذة بقلق :
ـ قص على بيوتر ماذا يحدث هناك ، قبل أن يشرع الاقارب والجيران بالمجيء .
فلوح غريغوري بيده :
ـ انهم يتقاتلون .
فسأله بيوتر في الحال وهو يعتدل في جلسته :
ـ أين هم البلاشفة الآن ؟
ـ قادمون من ثلاثة اتجاهات ، من تيخوريتسكايا ، ومن تاغانروغ ، ومن فورونيج .
ـ حسناً ، وما هو موقف لجنتك الثورية من ذلك ؟ لماذا يدعونهم يأتون إلى ديارنا ؟ لقد عاد خريستونيا واليكسييفتش وقصا لنا مختلف أفانين اللغو ، ولكنني لا أصدقهما . ان الأمر على غير ما يقولان .
ـ ان اللجنة الثورية لا حول لها . والقوزاق يفرّون إلى أهليهم .

ـ وهذا هو سبب جنوح الوضع إلى جانب السوفييت ؟
ـ بلا شك .
ولاذ بيوتر بالصمت فيما نفخ على سيكارته ، ثم ألقى نظرة صريحة على أخيه :
ـ والى أي جانب تقف أنت ؟
ـ انني أنشد حكومة سوفيتية .
فانفجر بانتلاي بروكوفيتش مثل البارود :
ـ الأحمق! أفهمه أنت يا بيوتر!
فابتسم بيوتر وربت على كتف أخيه ، وقال :
ـ انه جامح مثل حصان غير مذلّل . هن يستطيع أحد أن يفهمه ، يا أبتي ؟
فاستبد الغضب بغريغوري :
ـ ليس هناك من شيء يقال لي! فأنا لست أعمى . ترى ماذا يقول رجال الجبهة في القرية ؟
ـ ما شأن رجال الجبهة معنا ؟ ألم تدرك إلى الآن مدى حماقة خريستونيا ؟ ماذا عساه يفهم ؟ ان الناس جميعهم تائهون ، ولا يدرون أي سبيل يسلكون . ـ وعض بيوتر شاربه وأردف : ـ انتظر لترى ماذا سيحدث في الربيع ، أي حينما تبدأ المشاكل... في الجبهة لعبنا دور البلاشفة ، أما الآن فقد حان الوقت للرجوع إلى صوابنا . «اننا لا نبتغي الاستيلاء على ما يخص الآخرين ، ولكن عليكم ألا تمستوا ما يخصنا » ـ ذلك ما يتعين على القوزاق أن يقولوه لكل من يأتي إلى هنا للنهب . ان ما يحدث في كامينسكايا لهو عمل شنيع . لقد فتحوا قلوبهم للبلاشفة وسوف يقتبسون نظامهم .
وقال أبوه :
ـ أعد النظر يا غريغوري . أنت لست أحمق! ويجب أن تفهم هذا : القوزاقي هو قوزاقي دائماً . اننا لن نرضى بأن تحكمنا زمرة من الفلاحين

الروس الحقيرين . وهل تدري ماذا يقول الغرباء الآن ؟ يجب ان توزع الأرض كلها سواسية بين الجميع . فماذا تقول في هذا ؟

ـ سنعطي أرضاً لأولئك الغرباء الذين كانوا يعيشون في الدون منذ سنين .

ففرقع بانتلاي بروكوفيتش اصبعيه تحت أنف غريغوري المعقوف بصوت مرتفع وقال :

ـ ولا بوصة!

كان ثمة وقع خطوات على الدرجات في الخارج ، ثم دخل أنيكوشكا ، وخريستونيا ، وايفان توميلين مرتدين قبعات من جلد الأرانب طويلة بصورة مضحكة . وهدر خريستونيا :

ـ مرحباً يا غريغوري! ما رأيك يا بانتلاي بروكوفتش بشراب لنحتفل بقدومه ؟

فجفل العجل الوسنان عند الموقد على أثر صيحته ، وجعل يترنح على سيقانه التي مازالت واهنة وينظر بعينين سوداوين مرتبكتين إلى القادمين . وقذف لشدة فزعه شريطاً من البول على الأرض . فأوقفته دونيا بربتة على ظهره ، ومسحت البركة ووضعت اناء قذراً تحت الحيوان . وقالت ايلينشنا مغضبة :

ـ لقد أفزعت العجل ، أيها الطبل!

وصافح غريغوري القوزاق ودعاهم إلى الجلوس . وسرعان ما وفد قوزاق آخرون من طرف القرية الآخر . كانوا يدخنون كثيراً أثناء حديثهم بحيث أن المصباح بدأ يخفق والعجل يختنق .

ولعنت ايلينشنا الضيوف وهي تطردهم في منتصف الليل :

ـ لتصبكم الحمى! اذهبوا إلى الفناء ودخنوا يا مداخن! انقشعوا ، انقشعوا! فلم يذق ولدنا غريغوري طعم الراحة حتى الآن منذ سفرته . انقشعوا بحق الله!

١٤

كان غريغوري آخر من استيقظ في الصباح التالي . لقد أيقظته زقزقة العصافير ، وكأنها في عز الربيع على الأفاريز وخارج أطر النوافذ . وانسرب ضوء الشمس الذهبي خلل خصاص الصفاقات الخشبية . وكان ناقوس الكنيسة يدق لصلاة الصبح ، فتذكر أنه يوم الأحد . ولم تكن ناتاليا بجانبه ، بيد أن الفراش الريش ما يزال يحتفظ بحرارة جسدها . فلا بد أنها استيقظت قبل قليل . فناداها :

ـ ناتاليا!

فدخلت دونيا :

ـ ماذا تريد يا أخي ؟

ـ افتحي النافذة ونادي ناتاليا . ماذا تفعل ؟

ـ انها تساعد أمي . سوف تأتي بعد قليل .

ودلفت ناتاليا وهي تضيق حدقتي عينيها جراء ضوء الغرفة . وفاحت من يديها رائحة العجين الطازج . فطوقها دون أن ينهض ، وضحك عندما تذكر الليلة .

ـ هل تأخرت في النوم ؟

وتبسمت وتوردت وجنتاها وهي تخفي رأسها في صدر غريغوري وقالت :

ـ آه ـ هه! لقد استنزفت الليلة... قواي .

وساعدته في تضميد جرحه ، ثم أخرجت خير بناطيله من الصندوق وقالت :

ـ هل سترتدي قمصلة الضباط مع الأوسمة ؟

فقال لها جزعاً :

ـ كلا ، لماذا ؟

ولكنها أصرّت :

ـ البسها بالله عليك! ان الوالد سيسر بذلك . لماذا نلتها اذا كنت ستتركها في الصندوق ؟

ورضخ إلى توسّلاتها . ونهض ، واستعار موسى الحلاقة من أخيه ، وحلق ، ثم غسل وجهه ورقبته . سأله بيوتر :

ـ هل حلقت قفا رقبتك ؟

ـ أوه ، اللعنة على الشيطان! لقد نسيت!

ـ حسناً ، اجلس وسوف أقوم بذلك .

وكوت رغوة الصابون الباردة رقبته . ورأى في المرآة أخاه يعمل بالموسى ولسانه متهدل من احدى زاويتي فمه كما هو الحال في طفولته .

قال بيوتر مبتسماً :

ـ رقبتك هزلت ، مثل ثور بعد الحراثة .

ـ لن تتوقع أن يسمن المرء من زقوم الجيش .

ارتدى غريغوري قمصلته بشارات النائب الضابط وصف حاشد بالأوسمة ، وعندما تطلع في المرآة المضببة لم يتبين نفسه الا بصعوبة : كان الذي يطالعه ضابط نحيل طويل ، أسمر كالغجري .

فقال له بيوتر بانشراح دون أن يظهر أدنى أثر من الحسد في صوته وهو يتأمل أخاه اعجاباً :

ـ لكأنك عقيد!

فأطربت الكلمات غريغوري بالرغم منه ، ومضى شطر المطبخ ، وتطلعت إليه داريا معجبة ، فيما هتفت دونيا :

ـ بفو! كم تبدو عظيماً!

وهنا لم تقو ايلينشنا على حبس دموعها . فأجابت على مزاح دونيا وهي تمسح دموعها بستار متسخ :

ـ هل لديك أولاد مثله ، يا سفيهة! ان لديّ ولدين وقد شقا طريقهما في الحياة .

أما ناتاليا فلم تحول عينيها النديتين المولهتين عن زوجها اطلاقاً . ورمى غريغوري معطفه على كتفيه وخرج إلى الفناء . ولاقى صعوبة في النزول على الدرجات بسبب ساقه الجريحة . « سأضطر إلى استعمال العصا » . قال ذلك في دخيلته وهو يتشبث بالحاجز . لقد أخرجت الرصاصة في ميليروفو ، غير أن فتحة الجرح قد قلصت الجلد كثيراً فلم يكن بمقدوره أن يثني ساقه بصورة طبعيية .

كانت القطة تتشمس على افريز جدار البيت . وكان الثلج يذوب فيتجمع ماؤه عند الدرجات . وأخذ غريغوري يجيل بصره حول الفناء بتمعن وحبور . فعند الدرجات تماماً يستوي عمود ثبتت في قمته عجلة . لقد كان هناك مذ كان طفلاً ، كانت النسوة يستعملنه . في المساء كن يقفن في أعلى الدرجات ويضعن أواني الحليب عليه ، وأثناء النهار القدور والآنية المنزلية لتجف . ولفتت نظره بعض التغييرات في الفناء : لقد طلي باب مخزن الحبوب بالطين الأحمر بدلاً من الدهان ، وأعيد تسقيف السقيفة بقش الجويدار وهو لما يزل أصفر بعد ، وبدت كومة الأوتاد أصغر من عهده بها ، ولربما استعمل بعضها في اصلاح السياج . وعلا قبو المؤونة الأرضي رماد أزرق ، وكان ثمة ديك أسخم كالزاغ تحيط به عدة دجاجات صغيرات واقفاً فوقه رافعاً احدى ساقيه وكأنه بردان . واستقرت أدوات الحقل تحت السقيفة بمنجى من جو الشتاء ، وقد برزت الأطر الجانبية للعربات مثل الأضلاع والتمعت بعض الأجزاء المعدنية للالة الحاصدة في أشعة الشمس التي انسلت خلل ثقب في السقف . وكان ثمة أوز مقرفص على كومة من الروث حذاء الاسطبل ، وقد شزر ذكر أوز هولندي ذو عرف ، غريغوري بكبرياء عندما مر يعرج .

وبعد ان تفرّج على كل هذه الثروات عاد إلى المنزل ، وفاحت من المطبخ رائحة طيبة من الزبدة الساخنة والخبز الحار . كانت دونيا تنظف بعض التفاح المخلل على صفيحة مزخرفة فألقى نظرة عليه وسألها بلهفة مفاجئة :

ـ هل من بطيخ مملح ؟

فقالت ايلينشنا منادية :

ـ انزلي يا ناتاليا وأتي له بشيء منه .

وعاد بانتلاي بروكوفيتش من الكنيسة . وقسم الرقاقة تسعة أقسام (وقد ترك القسم الناقص في الكنيسة) ، لكل فرد من أفراد العائلة ، ووزعها على المائدة . ثم جلسوا يفطرون . وكان بيوتر هو الآخر قد تأنق لهذه المناسبة ، وقد دهن شاربيه بشيء ما ، وجلس جوار غريغوري ، وقبالتهما جلست داريا توازن نفسها على حافة مقعد . وقد انسكبت على وجهها الوردي المتألق حزمة من أشعة الشمس ، فضيقت حدقتي عينيها وخفضت بامتعاض القوسين الأسودين لحاجبيها المشعين . وأطعمت ناتاليا الطفلين قرعاً مشوياً ، وهي تبتسم بين الحين والآخر كلما تطلعت إلى غريغوري . وجلست دونيا إلى جانب أبيها ، بينما اتخذت ايلينشنا مقعدها في آخر المائدة قرب الموقد .

تناولوا وجبة شهية كعهدهم أيام الأعياد . وقد أعقبت حساء الكرنب مع لحم الضأن ، شعرية من صنع البيت ، ثم تلا ذلك لحم الضأن ، ودجاجة ، ومرق كراع الخروف ، وبطاطا مقلية ، وعصيدة ذرة بالزبدة ، وشعرية بالكرز المجفف ، وفطائر بالقشطة الخاثرة ، وبطيخ مملح . ولم ينهض غريغوري بعد هذه الوجبة الثقيلة الا بصعوبة . فاستلقى على السرير بعد ان رسم اشارة الصليب وهو يتنفس بمشقة . ولم يزل بانتلاي منكباً على عصيدته ، وقد عمل فيها حفرة بعد أن سطحها ، وكانوا يسمونها «بالبئر» ، وصب الزبدة السائلة المضمخة بالعنبر فيها ، ثم طفق يتناول العصيدة الدسمة بملاعق متتالية . وجلس بيوتر الذي يحب الأطفال كثيراً ، يطعم ميشا ملاطفاً إياه ويلطخ وجنتي الطفل وأنفه باللبن الحامض .

ـ لا تكن سخيفاً يا عم!

ـ لم لا ؟

ـ لماذا تفعل ذلك ؟

ـ لِمَ لا ؟
ـ سأخبر أمي .
ـ ولِمَ ؟

والتمعت عينا ميشا الميليخوفيتان الشكستان بغضب وترقرق الدمع فيهما من الغيظ . ومسح أنفه بكفه وجعل يصرخ وقد يئس من إقناع بيوتر بالكلام اللطيف :

ـ لا تفعل ذلك ، يا غبي! يا أحمق!

ولم يكن من بيوتر إلا أن انفجر ضاحكاً ، ومضى يطعم ابن أخيه من جديد ، ويدس ملء ملعقة تارة في فمه وأخرى في أنفه . فاعترضته ايلينشنا قائلة :

ـ أنت أشبه بالطفل!

وجلست دونيا إلى جانب غريغوري وقالت له :

ـ إن بيوتر ما هو إلا أحمق كبير ليس إلا! إنه يسعى دائماً وراء ألاعيب جديدة . قبل أيام خرج مع ميشا إلى الفناء ، وكان الولد يلح على الخروج ، فسأله : « عمي ، هل بإمكاني أن أتبول عند الدرجات ؟ » ولكن بيوتر قال له : « كلا ، يجب ألا تفعل ذلك . اذهب أبعد منها بقليل » فجرى ميشا بعض المسافة وقال « هنا ؟ » . « كلا ، كلا ، اجر إلى مخزن الحبوب » . ومن مخزن الحبوب أرسله إلى الاسطبل ، ومن الاسطبل إلى ساحة درس الحبوب . لقد ترك الولد المسكين يجري ويجري حتى فعلها في سرواله . ولم يكن من ناتاليا إلى أن تنقض عليه!

ورنّ صوت ميشا الناعم مثل الجرس :

ـ دعني أطعم نفسي!

فرفض ذلك بيوتر بحركة مازحة من عذاريه :

ـ أوه كلا ، يا ولدي . سوف أطعمك أنا .
ـ سأطعم نفسي بيدي .

كان غريغوري يستمع إلى بيوتر وميشا مبتسماً ، ولف لنفسه سيكارة . ثم تقدم نحوه أبوه . وأسر له :

ـ أفكر في الذهاب إلى فيشينسكايا اليوم .

ـ لماذا ؟

وتجشأ بانتلاي بروكوفيتش وقال وهو يمسد لحيته :

ـ لديّ بعض الشغل مع السراج ، كنت قد تركت عنده نيرين ليصلحهما .

ـ هل ستعود اليوم ؟

ـ بالطبع . سأكون هنا في المساء .

وبعد فترة استراحة ، أسرج العجوز الفرس ، التي عميت ذلك العام ، وشد إليها عريش الزحافة ، ثم انطلق بها . وبلغ فيشينسكايا في غضون ساعتين أو نحوهما . ومضى إلى دائرة البريد ، ثم إلى السراج وأخذ النيرين . ثم مضى قاصداً أحد معارفه القدماء وهو عرّابه يعيش جوار الكنيسة الجديدة . فألح عليه الرجل ، وهو مضياف كريم ، بالبقاء حتى العشاء . وسأله وهو يصب شيئاً ما في قدح :

ـ كنت في دائرة البريد ؟

فأجاب بانتلاي بروكوفيتش بالايجاب وهو يحدق بدهشة في القنينة ويتشمم الهواء مثل سلوقي يسعى في أثر حيوان .

ـ إذاً ، فقد سمعت بالخبر ؟

ـ الخبر ؟ كلا ، لم أسمع شيئاً . ما هو ؟

ـ كاليدين ، أليكسي ماكسيموفيتش كاليدين ، قد انتقل إلى جوار ربه .

فاستحال وجه بانتلاي أخضر بشكل ملحوظ ، وقال وقد نسي القنينة المشتبه فيها ورائحتها : « ماذا تقول ؟ » ، ورمى بنفسه إلى الوراء في كرسيه . فقال له مضيفه وهو يطرف مكتئباً :

ـ لقد وصلنا الخبر بواسطة التلغراف بأنه أطلق النار على نفسه قبل بضعة أيام في نوفوتشيركاسك ، وهو الذي كان الجنرال الكفؤ الوحيد في كل

الإقليم . يا لشهامة الرجل! لم يكن ليسمح بأي عار يحل بالقوقاز!

فسأله بانتلاي بشرود ، وهو يبعد القدح الذي قدم إليه :

ـ مهلاً! وما الذي سيحدث بعد الآن ؟

ـ الله أعلم . إن أياماً سوداً ستأتي . فالمرء لا يطلق الرصاص على نفسه في الأوقات الطيبة .

ـ ما الذي دعاه إلى ذلك ؟

فقال مضيفه ، وهو رجل متين البنية ، ملوحاً بيده في غضب :

ـ لقد تخلى عنه رجال خط الجبهة ، وأفسحوا الطريق للبلاشفة بالمجيء إلى الإقليم ، وهكذا انتهى أتماننا . إني أشك في العثور على رجل مثله . من سيحمينا ؟ لقد شكلت لجنة ثورية أو ما إليها في كامينسكايا ، مع قوزاق من خط الجبهة مشتركين فيها . وهنا... هل تناهى إلى سمعك ؟ لقد جاء أمر من كامينسكايا يقضي بالتخلص من الاتمانات وانتخاب اللجان الثورية بديلاً عنهم . وبدأ الفلاحون يرفعون رؤوسهم . وأولئك النجارون والحدادون والساعون وراء الوظائف كلهم... محتشدين في فيشينسكايا مثل البرغش في المرج .

لبث بانتلاي بروكوفيتش حانياً رأسه الأشيب وقتاً طويلاً . وعندما صعد نظره بدت عليه الصرامة والقسوة :

ـ ما هذا الذي عندك في القنينة ؟

ـ كحول . جاء به قريب لي من القفقاز .

ـ حسناً ، صبه يا صديقي . فلنشرب نخب ذكرى أتماننا الراحل . عسى أن تفتح ملكوت السماوات أبوابها له!

وشربا . وأحضرت ابنة رب المنزل الطعام ، وهي فتاة طويلة نمشاء . وتطلع بانتلاي إلى الفرس التي ملت الوقوف أمام الزحافة ، غير أن المضيف أكد له قائلاً : « لا تقلق على الفرس . سوف أرى فيما إذا أطعمت ورويت » .

وسرعان ما نسي بانتلاي بروكوفيتش فرسه وكل شيء في الدنيا جراء

الحديث المحتدم وبتأثير القنينة . وراح يتحدث بكلام لا رابط له عن غريغوري ، وخاض نقاشاً مع مضيفه الثمل ، وظل يناقشه ولكنه نسي بالضبط موضوع الحديث . وكان المساء قد حل عندما نهض على قدميه ، وعقد العزم على التوجه إلى البيت متجاهلاً الدعوة لتمضية الليل هنا . فشد ابن صديقه الفرس إلى الزحافة ، وساعده عرابه في الصعود إليها . ورأى صديقه أن يرافقه إلى خارج القرية . فرقدا سوية في قعر الزحافة وقد شبكا أذرعهما حول بعضهما البعض . وعلقت زحافتهما في بادئ الأمر بمحور البوابة ، ثم راحت تعلق بكل شيء ناتئ حتى بلغا السهب . وهناك تفجرت الدموع من عيني عرابه وسقط بلا عمد من الزحافة . ولبث راكعاً على الأربع وقتاً طويلاً ، وهو يلعن ، عاجزاً عن النهوض على قدميه . ولفح بانتلاي الفرس بالسوط ليحثها على الجري ، ولم يعد يرى صديقه يزحف في الطريق وأنفه منغرس في الثلج ، ويتوسل قائلاً وهو يضحك بصوت أجش باد عليه الحبور :

ـ كف عن الدغدغة... أرجوك أن تكف عن الدغدغة!

وانطلقت الفرس في جري أعمى يحثها السوط على ذلك . وسرعان ما مال سيدها إلى الوراء وارتمى رأسه على جدار العربة وقد غلبه خدر الشراب ، ولفه الصمت . وصادف أن سقط العنان تحته ، فمضت الفرس تسير سيراً وئيداً على غير هدى . وحادت في أول مفرق عن الطريق السوي وسارت باتجاه قرية صغيرة . وبعد بضع دقائق ضلت هذا الطريق أيضاً . واتجهت شطر السهب الطلق ، وجنحت في مسار ثلجي عميق عند غابة ، وانزلقت في حفرة . وعثرت الزحافة بشجيرة ، فتوقفت . وأيقظت الهزة العجوز لحظة . فرفع رأسه وجعل يصيح بصوت أجش : « دي... أيتها الشيطانة... » ثم ما لبث أن رقد من جديد .

تحركت الفرس واجتازت الغابة دونما أذى ، وشقت طريقها بنجاح حدر ضفة الدون واتجهت صوب القرية التالية تجذبها رائحة الدخان الذي ساقته الريح الشرقية .

وعلى مبعدة نصف فرسخ من القرية أو نحوه ثمة فجوة بالقرب من ضفة النهر اليسرى . وحول الفجوة تنبع عيون من الضفة الرملية ، ولا يتجمد الماء هنا بتاتاً ، حتى في عز الشتاء ، إنما يركد في بركة عريضة نصف دائرية . ويحيد الطريق المحاذي للنهر عن الفجوة بحذر ، مستديراً استدارة حادة إلى أحد الجانبين . وفي أيام الربيع عندما تصب مياه الحقول في طوفان هائل خلال الفجوة إلى الدون ، تنشأ فيها دوامَة هادرة . ويرقد سمك الشبوط طوال الصيف في الأعماق قرب أكوام الخشب الذي تجرفه المياه من الضفة .

وقادت الفرس العجوز خطواتها العمياء نحو حافة البركة اليسرى . وعندما كانت على بعد حوالي خمسين خطوة انقلب بانتلاي وفتح عينيه قليلاً . ومن عتمة السماء تطلعت إليه النجوم التي تحكي الكرز الفج الأخضر المائل إلى الصفرة . «الليل...» همهم بذلك ساهماً وجرّ الأعنة بقوة . وصاح في الفرس :

ـ الآن! سوف ألقنك درساً ، أيتها الشيطانة العمياء!

وانطلقت الفرس تهذب . وبلغت منخريها رائحة الماء القريب . وجعلت ترهف أذنيها ، وتلتفت بعينها العمياء اتجاه سيدها في ارتباك . وعلى حين غرة بلغ أذنيها صوت ارتطام الماء المدوم . فاستدارت إلى أحد الجانبين وهي تزنخر بوحشية ، وحاولت التراجع . وخشخش الجليد نصف الذائب عند حافة البركة تحت حوافرها بصوت خافت ، وتكسرت حافة الثلج . فأطلقت زنخرة تنم عن هلع مميت . وقاومت برجليها الخلفيتين بكل قواها ، بيد أن قائمتيها كانتا قد انزلقتا في الماء ، وراح الجليد الرقيق يتكسر تحت حافريها الخلفيين . وانزلق بها الجليد منشرخاً مقرقعاً . وإذ ابتلعت البركة الفرس ، راحت ترفس بإحدى ساقيها الخلفيتين وهي تعاني سكرات الموت ، فضربت عريش الزحافة . وفي تلك اللحظة بالضبط ، هجس بانتلاي أن الأمر ليس على ما يرام فقفز من الزحافة وكبا إلى الوراء ورأى ظهر الزحافة يرتفع ، كاشفاً عن

المزلاقين اللماعين فيما غطست المقدمة تحت ثقل الفرس ، ثم ما لبثت أن انزلقت بعيداً في الأعماق الخضر القاتمة . وأطلق الماء المختلط بكسر الثلج ، خريراً خافتاً وأرسل موجة كادت أن تبلغ قدميه . ولكنه انكفأ إلى الوراء بخفة عجيبة ووثب على قدميه ، وجعل يزأر :

ـ النجدة أيها الناس الطيبون! إننا غارقون!

وطار من رأسه الشراب وكأنه قد طرق بمطرقة ، وجرى نحو البركة . كان الجليد المتكسر حديثاً ذا لمعان شديد . وساقت الريح قطع الجليد فوق البركة الداكنة نصف الدائرية ، وهزت الأمواج أعرافها الخضر ودمدمت . وخيم حوله صمت القبور . وكانت أنوار القرية القصية تعكس ضوءاً أصفر خلل العتمة . وتوهجت النجوم تتراقص في مخمل السماء مثل حبات قمح كبيرة خرجت لتوها من المذراة . وأثار النسيم الثلج من الحقل ، فتطاير هباباً ذا حفيف ، وتساقط في أعماق البركة الداكنة . ثم تصاعد البخار من البركة بعض الشيء وما لبثت أن عادت داكنة مفزعة خادعة .

أدرك بانتلاي أن الصياح بات الآن عقيماً لا يجدي فتيلاً . وتطلع حواليه ، ففطن إلى أين أدى به ثمله الأخرق ، وجعل يرتعد مغضباً على نفسه وعلى ما حدث . وكان سوطه لما يزل بيده . فقد قفز به من الحافة . وأخذ يلفح ظهره بالسوط وهو يلعن ، ولكنه لم يشعر بأيما ألم ، لأن فروته السميكة خففت من وطأة الضربات ، وبدا من غير المعقول أن يخلع فروته لمجرد الاستمتاع بالضرب . ولكنه جز لحيته ملء قبضته من الشعر ، وجعل يحصي في ذهنه خسارته : المشتريات التي فقدها ، ثم الفرس ، والزحافة ، والنيرين ، وراح يلعن بجنون ثم تقدم أقرب فأقرب نحو البركة .

وقال بصوت منتحب مرتجف ، موجهاً كلامه إلى الفرس الغارقة : «أيتها الشيطانة العمياء... أيتها القحبة! أغرقت نفسك وكدت أن تغرقيني معك! أين مضت بك الروح الشريرة ؟ سوف يسرجك الشياطين ويسوقونك ، ولكن لن يكون لديهم ما يسوقونك به! هاك ، خذي السوط أيضاً! » ولوح بالسوط ذي

اللون الكرزي بيأس حول رأسه ورمى به وسط البركة .

فلطم السوط الماء وفتح فيه ثغرة ، ثم اختفى في الأعماق .

١٥

بعد النصر الذي أحرزه كاليدين على القوات القوزاقية الثورية ، هرعت اللجنة الثورية العسكرية لمنطقة الدون التي أجبرت على الفرار إلى ميليروفو ، إلى إرسال البيان التالي إلى قائد العمليات القائمة ضد كاليدين ورادا ـ المجلس الأوكراني المعادي للثورة .

خاركوف ، ١٩ كانون الثاني ١٩١٨ . من لوغانسك ، رقم ٤٤٩ . الساعة ٢٠ : ١٨ .

تلتمس اللجنة الثورية لقوزاق الدون أن ترفعوا القرار التالي إلى مجلس قوميسارية الشعب في بتروغراد .

بناءً على قرار مؤتمر رجال خط الجبهة الذي انعقد في كامينسكايا ، قررت اللجنة الثورية العسكرية القوزاقية ما يلي :

١ ـ ان اللجنة التنفيذية المركزية لسوفييتات مفوضي القوزاق والفلاحين والجنود والعمال ومجلس قوميسارية الشعب المنتخب من قبلها يجب الاعتراف بهما كسلطة حاكمة مركزية لجمهورية روسيا السوفييتية .

٢ ـ أن ينشئ مجلس سوفييتات مفوضي القوزاق والجنود والعمال في اقليم الدون ، حكومة محلية .

ملاحظة : ان مسألة الأرض في اقليم الدون ينبغي ان تحل من قبل هذا المجلس ذاته .

اثر تسلم هذا البيان ، أرسلت مفارز من الحرس الأحمر لمساعدة قوات اللجنة الثورية وكنتيجة لذلك قضى على قوات العقيد تشيرنتسوف وأصبح وضع القوات الثورية في منجى من الخطر . وانتقلت المبادأة إلى أيدي اللجنة

الثورية . وبعد احتلال زفيريفو وليخايا شنت مفارز الحرس الأحمر بقيادة سابلين وبتروف ، تدعمها رعائل قوزاقية تابعة للجنة الثورية ، هجوماً وأجبرت أعداءها على التراجع إلى نوفوتشيركاسك .

على أنه حدث على مشارف تاغانروغ أن انهزمت قوات سيفرس أمام مفارز المتطوعين التي يقودها العقيد كوتيبوف ، فخسرت مدفعاً ، و٢٤ رشاشاً ، وسيارة مدرعة . وفي اليوم الذي انهزمت قوات سيفرس وأجبرت على التقهقر هب العمال في معامل البلطيق في تاغانروغ ، وطردوا طلبة الكلية العسكرية من المدينة .

ثم استجمع سيفرس قواته ، وشن هجوماً أجبر المتطوعين على التقهقر باتجاه تاغانروغ . وكان جلياً أن النجاح حليف الجيوش السوفييتية . فقد أحاطت بالبيض وبقية باقية من مفارز كاليدين من ثلاث جهات . وفي الثامن والعشرين من كانون الثاني أرسل كورنيلوف برقية إلى كاليدين يخبره فيها أن جيش المتطوعين كان يخلي روستوف ويتحرك صوب الكوبان .

وفي التاسعة قبل ظهر التاسع والعشرين عقدت جلسة استثنائية لحكومة الدون في قصر الأتمان . كان كاليدين آخر من حضر . فغطس مغموماً في كرسي وجر كومة من الوثائق إليه . كان وجهه شاحباً ذابلاً لطول سهاده ، وكانت ثمة ظلال زرق تحت عينيه القاتمتين الذاويتين ، وقد صبغت غشاوة من الذبول وجهه الكليل بالصفرة . تلا متمهلاً برقية كورنيلوف ، وتقارير أمراء الوحدات الذين كانوا يتلقون ضربات الجيش الأحمر شمالي نوفوتشيركاسك . وقال بكلال وهو يسوي رزمة من البرقيات باعتناء براحته العريضة البيضاء ، دون أن يرفع جفنيه الداكنين المنتفخين :

ـ ان جيش المتطوعين يتراجع ، وليس لدينا سوى ١٤٧ حربة ندافع بها عن الاقليم ونوفوتشيركاسك .

وطرف جفنه الأيسر ، وارتعشت زاويتا شفتيه المزمومتين بشدة . وأردف رافعاً صوته :

ـ ان وضعنا لا رجاء فيه . والأهالي لا يمكن أن نرتجي منهم العون ، فهم معادون لنا . وليست لدينا قوات ، ولم تعد المقاومة تجدي فتيلاً . فأنا لا أريد خسائر لا داعي لها ، ولا دماء تراق دونما جدوى . لذا أقترح أن نستقيل ونسلم السلطة إلى غيرنا . ومن جهتي أنا ، فانى أقدم استقالتي كأتمان لجيش قوزاق الدون .

وعدل بوغايفسكي ، الذي كان ينظر خارج النافذة ، نظارتيه وقال دون أن يدير رأسه :

ـ وأنا أقدم استقالتي أيضاً .

ـ من البديهي أن تستقيل الحكومة بمجوعها . بيد أن المسألة هي : إلى من نسلم السلطة ؟

فأجاب كاليدين بجفاف :

ـ الي مجلس دوما المدينة .

فقال كاريف عضو الحكومة متردداً :

ـ يجب أن نعلن ذلك بصورة رسمية .

وخيم صمت ثقيل بعض الوقت . وبدا صباح كانون الثاني الكئيب كليلاً وراء زجاج النوافذ المضببة . وغلف المدينة وشاح من الضباب والصقيع الأشيب ولاذت بصمت حالم . ولم يكن بوسع الاذن ان ترهف لنبض الحياة العادي . فقد طغى هزيم طلقات المدافع (صدى القتال قرب قرية سولين) على كل الأصوات وخيم فوق المدينة نذيراً غامضاً مبهماً .

وفي الخارج ، كانت الزيغان تنعب بحدة وغلظة . وقد حومت حول القبة البيضاء وكأنها تحوم حول فطيسة . وكسا ساحة الكاتدرائية ثلج جديد ليلاكي الظلال . وبين حين وآخر يمر عبرها شخص ما أو زلاجات وتخلف من آن لآخر آثاراً قاتمة خلفها . وهنا اقترح بوغايفسكي مبدأ الصمت المتوتر أن يصار إلى اصدار وثيقة تقضي بتسليم السلطة إلى مجلس دوما المدينة :

ـ يجب أن نجتمع سوية مع أعضاء مجلس الدوما حول هذه القضية .

ـ ما هو أنسب وقت للجميع ؟

ـ فيما بعد ، حوالي الرابعة . وشرع أعضاء الحكومة يبحثون مسألة تسليم السلطة وموعد الاجتماع ، وكأنما سرهم أن يقطع حبل الصمت الثقيل . أمّا كاليدين فقد لاذ بالصمت ، وجعل ينقر الطاولة بأظفاره ببطء رتيب . ولاحت الكآبة والغشاوة على عينيه من تحت حاجبيه الأشعثين . وأحال القلق المطبق ، والنفور والاجهاد ، نظرته ، ثقيلة كريهة .

وكان أحد أعضاء الحكومة يتجادل مع زميل له بذلاقة لسان . فقاطعهما كاليدين بغيظ مكتوم :

ـ أوجزا أيها السيدان ، فالوقت قد أدركنا . فما كان لروسيا أن تهلك لولا اللغو الزائد . انني أعلن عن استراحة أمدها نصف ساعة . فتدارسوا الأمر فيما بينكم و... دعونا نفرغ منه بالسرعة الممكنة .

ثم انسحب إلى شقته ، وتجمع الآخرون جماعات صغيرة وراحوا يتناقشون بهدوء . وأشار أحدهم إلى أن كاليدين كان يبدو عليه المرض . فتناهت الى بوغايفسكي الذي كان واقفاً قرب النافذة ، الكلمات المهموسة التالية :

ـ ان الانتحار بالنسبة لرجل مثله هو المخرج الوحيد .

فانتفض بوغايفسكي وسار مسرع الخطى شطر شقة كاليدين . وعاد بعد قليل يصحبه الأتمان . لقد قررا أن يعقدا اجتماعاً مشتركاً مع مجلس دوما المدينة في الساعة الرابعة بغية تسليم الوثيقة التي أقروها رسمياً والتي تقضي باعتزال الحكم . ثم نهض كاليدين . وتبعه الآخرون . وحينما كان كاليدين يودع أحد أعضاء الحكومة المسنين ، لاحظ يانوف يهمس لكاريف ، فقال :

ـ ماذا هناك ؟

فارتبك يانوف ، وقال :

ـ ان أعضاء الحكومة ـ من غير القوزاق ـ يطالبون بتكاليف سفرهم ٠-

فقطّب كاليدين وأجاب بخشونة :

ـ ليست لديَّ نقود... لقد سئمت كل شيء .

فأشار بوغايفسكي الذي كان يتسمع إلى الحوار ، إلى يانوف فيما كانا يتركان المحل :

ـ تعال إلى غرفتي . وقل لسفيتوزاروف أن ينتظر في الردهة .

وتركا المحل في الحال بعد كاليدين الذي ابتعد مسرع الخطى مهدل الكتفين . وسلم بوغايفسكي في غرفته يانوف صرة من النقود :

ـ هذه أربعة عشر ألفاً . أعطها لأولئك الناس .

وأخذ سفيتوزاروف الذي كان ينتظر يانوف في الردهة ، النقود وشكره ويمم وجهه شطر الباب . وفي اللحظة التي كان يانوف يتناول معطفه من البواب ، تناهت إلى سمعه جلبة على السلم ، فتطلع إلى الخلف . كان مولدافسكي مرافق كاليدين يجري حدر السلم ويصيح :

ـ ايتوا بطبيب! أسرعوا!

فرمى يانوف بمعطفه وهرع اليه . وأحاط المرافق القائم بالحراسة والمراسلون المتجمعون في الردهة بمولدافسكي . وصاح يانوف شاحب الوجه :

ـ ماذا جرى ؟

ـ لقد أطلق كاليدين النار على نفسه ، ـ وسقط مولدافسكي ينشج على الدرابزين .

وهرع بوغايفسكي . كانت شفتاه ترتعدان كأن به قشعريرة :

ـ ماذا حدث ؟ ماذا ؟

وهجم الحشد على السلم وخيم عليه صوت خطوات الناس الهاربين المرتب والعالي . كان بوغاييفسكي يزدرد ريقه بتشنج ، ويلهث ناشداً الهواء . وكان أول من بلغ الباب واقتحمه . وجرى عبر غرفة الانتظار إلى المكتب . فألفى الباب بين المكتب والغرفة الصغيرة التي تلاصقه مشرعاً . كان ثمة دخان رمادي حريف تنبعث منه رائحة البارود ، عالقاً في الهواء .

وتناهى صوت زوجة كاليدين متكسراً ، مريعاً ، غريباً :

ـ أواه ، أواه! آ... آه! أليوشا! عزيزي!

وجرى بوغاييفسكي إلى الغرفة وهو يفك ياقته وكأنها تشد على خناقه . كان كاريف محدودباً فوق النافذة ، وقد شدت أصابعه على أكرتها المذهبة . كان عظما اللوح يتشنجان تحت سترته ، وبين لحظة وأخرى تند عنه رعدة عنيفة . وهز بوغايفسكي نواح أجوف لرجل يافع أشبه بعويل الحيوان .

كان كاليدين راقداً على ظهره فوق سرير عسكري ، وقد طويت يداه على صدره . واتجه رأسه إلى الجدار قليلاً . وكان ثمة تباين شديد بين غطاء الوسادة الأبيض والزرقة الرطبة لجبهته ووجنته المستقرة عليها . وكانت عيناه نصف مغمضتين كمن يحلم في يقظته ، وزاويتا فمه الصارم مزمومتين بشكل ينم عن الألم . كانت زوجته تتضور عند قدميه . وكان صوتها ضارياً يصم الآذان . وعلى السرير استقر مسدس من طراز كولت . وكان ثمة خط رقيق أحمر قاتم يسيل تحت القميص ، إلى جانب المسدس .

كانت هناك سترة معلقة بعناية على ظهر كرسي . وثمة ساعة يدوية موضوعة على الطاولة .

وركع بوغايفسكي على ركبتيه مترنحاً ، وشد أذنه على صدر كاليدين الناعم الحار . فشم رائحة العرق الرجالية شديدة الحموضة . كان قلب كاليدين ساكناً لا يريم . وراح بوغايفسكي الذي استحال كل كيانه في تلك اللحظة حاسة سمع ، ينصت يائساً ، غير أن كل ما تناهى اليه هو التكتكة المتواصلة للساعة اليدوية الموضوعة على الطاولة ، والنشيج المختنق المبحوح لزوجة الأتمان المتوفي ، ونعيب الزيغان الحزين المشؤوم .

١٦

كانت عينا آنا السوداوان المتألقتان بالدموع والفرح أول ما طالع نظرة بونتشوك بعد أن استرد وعيه .

مضت عليه ثلاثة أسابيع وهو في حالة هذيان . ثلاثة اسابيع وهو يجول في عالم آخر ، عالم حالم غير منظور . ولكن وعيه عاد اليه وشيك المساء في الرابع والعشرين من كانون الأول . وراح يتطلع إلى آنا بعينين ضبابيتين جادتين محاولاً تذكر كل ما كان مقترناً بها ، ولكنه لم يفلح الا قليلاً . لقد كان الكثير من ماضيه القريب ما يزال غائراً حروناً في أعماق ذاكرته .

ـ أعطيني ماء... ـ تناهى صوته إلى سمعه وكأنه قادم من بعيد ، فتبسم لذلك . وتقدمت آنا اليه مسرعة ، وكانت دخيلتها تنطق بابتسامة خفيفة . وقالت له :

ـ دعني أسقيك من يدي .

ثم نحّت يده الكليلة التي مدها لتناول القدح . فشرب وهو يرتعش من الجهد الذي بذله عند رفع رأسه ، ثم هوى بكلال على الوسادة... ورقد يتطلع إلى الجدار ، تحدوه الرغبة لأن يقول شيئاً ما . غير أن ضعفه تغلب عليه ، فأخذته سنة من النوم .

وعندما استيقظ كانت عينا آنا القلقتان هما اللتان التقتا بعينيه مرة اخرى ، ثم التفت إلى ضوء المصباح الزعفراني ، والدائرة البيضاء التي يعكسها على ألواح السقف العارية .

ـ آنا ، تعاليْ هنا!

اقتربت وتناولت يده . كانت مصافحته ضعيفة واهنة .

قالت :

ـ كيف تشعر ؟

ـ كأن لساني يعود إلى شخص آخر ، ورأسي كذلك ، وكذلك ساقي ، وأشعر كأن عمري مئتا عام .

كان يفوه بكل كلمة بعناية . ثم تساءل بعد برهة صمت :

ـ هل أصابني التيفوس ؟

ـ نعم .

وجالت عيناه في الغرفة ، ثم سألها بنبرة خافتة :

ـ أين نحن ؟

ـ في تسارتسين .

ـ وأنت... كيف حصل ان جئت إلى هنا ؟

ـ لقد بقيت معك . ـ وتعجلت لتضيف وكأنها تبرر ما فعلت أو تحاول أن تتحاشى ما قد يجول في ذهنه من أفكار لم يفصح عنها .

ـ ما كان لنا أن نتركك بأيدي غرباء . وهكذا طلب مني أبرامسون ، ورفاق اللجنة أن أعتني بك... وها أنت ، تراني أقوم بتمريضك على غير ما كان في الحسبان . فشكرها بنظرة وحركة واهنة من يده .

ـ وكروتوغوروف ؟

ـ ذهب إلى لوغانسك .

ـ وغيفوركيانتس ؟

ـ انه... مات بداء التيفوس .

ولاذ كلاهما بالصمت ، وكأنهما يفعلان ذلك اجلالاً لذكرى الميت . ولكنها قالت بهدوء :

ـ كنت أخاف عليك . فقد كان مرضك شديد الوطأة .

ـ وبوغوفوي ؟

ـ لقد فقدت اتصالي بهم جميعاً . بعضهم ذهب إلى كامينسكايا . ولكن ألا يضرك الكلام ؟ وهل لك في تناول الحليب ؟

فهز بونتشوك رأسه . وواصل أسئلته وهو يحرك لسانه بصعوبة :

ـ أبرامسون ؟

ـ ذهب إلى فورونيج منذ أسبوع .

وانقلب على جنبه بصعوبة ، ودار رأسه وهجم الدم بألم إلى عينيه . وأحس براحة يدها الباردة على حاجبه ، ففتح عينيه . سؤال واحد كان يعذبه : لقد كان فاقد الوعي ، فمن الذي تولى أمر حاجاته . أتراها هي التي قامت

بذلك ؟ واصطبغت وجنتاه بحمرة خفيفة ، ثم سألها :

ـ هل كان عليك أن تعني بي وحدك ؟

ـ نعم .

ثم استدار إلى الحائط وهمس :

ـ حرام عليهم ، على هؤلاء الجرذان أن يتركوا كل ذلك عليك...

لقد أصابه صمم طفيف من مضاعفات مرضه . بيد أن الطبيب الذي أرسلته لجنة الحزب في تساريتسين قال لآنا انه لا يمكن علاج ذلك الا بعد أن يبل من المرض تماماً . وأخذت صحته تتحسن ببطء . وصارت له شهية تحاكي شهية الذئاب ، ولكن آنا كانت تقسط طعامه بصرامة . وتشاجرا أكثر من مرة حول هذا الموضوع . فقد كان يقول :

ـ اعطيني مزيداً من الحليب .

ـ لن أعطيك .

ـ أرجوك... اعطيني مزيداً . هل تريدين أن أموت جوعاً ؟

ـ ايليا ، أنت تدري أنه لا ينبغي عليّ أن أعطيك أكثر من الكمية المقررة .

ولن يكون منه الا أن يلوذ بصمت جريح ، ويدير وجهه إلى الحائط ، ويتنهد ويضرب عن الكلام . وما كان لها أن تستسلم رغم معاناتها بسبب عطفها عليه . ثم يلتفت بعد برهة ، ويتوسل اليها ووجهه غائم وقد بدا أكثر شقاء :

ـ هل لي بشيء من الكرنب المخلل ؟ أرجوك ، يا عزيزتي آنا... اسمعي... انها ليست سوى خرافات الأطباء من أن ذلك يؤذيني .

واذ يجابه دائماً برفض قاطع ، يسعى أحياناً الى مسها بكلمات فظة جارحة :

ـ ليس لديك حق في أن تجعلي مني ألعوبة بهذا الشكل . أنت امرأة لا قلب لك ولا شعور . لقد بدأت أمقتك .

ولا يسعها ضبط عواطفها فتقول :

ـ ذلك هو خير مكافأة استطيع أن أنالها مقابل ما قمت به من السهر عليك .

ـ لم أطلب منك البقاء معي . وليس من العدل أن تسيئي اليَّ بذلك . انّما أنت تستغلين مركزك . حسناً! لا تعطيني أي شيء . دعيني أمت غير مأسوف عليَّ!

فترتعش شفتاها ، الا أنها تسيطر على نفسها ، تتحمل كل ذلك بأناة . ولكنها لاحظت مرة ، بعد أن تشاجرا حول زيادة كمية العشاء ، وقلبها يعصرها ، الدموع تترقرق في مآقيه . فقالت :

ـ ماذا ، انك لطفل بمعنى الكلمة!

وجرت إلى المطبخ لتأتي بصحن مليء بالفطائر . وقالت له وهي تدس بفطيرة في يديه بأصابع مرتجفة :

ـ كلْ ، كلْ ، يا عزيزي ايليا . ولا تغضب بعد الآن . هذه أخرى لذيذة .

وحاول بونتشوك أن يرفض وهو يعاني بشدة . ولكنه لم يستطع المقاومة ، فمسح دموعه ، واستوى في جلسته ثم تناول الفطيرة . وانزلقت ابتسامة على وجهه المتلحي النحيل ، وقال لها وهو ينشد المغفرة بعينيه :

ـ انني أسوأ من الطفل . ألا ترين ، كنت على وشك أن أبكي...

وتطلعت إلى رقبته الشديدة الهزال ، والى صدره الغائر الذي لا لحم عليه خلال ياقة قميصه المفتوحة ، والى ذراعيه الهزيلين . فقبلت جبينه الاصفر الجاف لأول مرة ببساطة وتحنان يهزها احساس عميق بالحب والشفقة .

لم يكن يقوى على الحركة في الغرفة دونما مساعدة الا بعد أسبوعين . وكانت ساقاه العنكبوتيتان تتهاويان تحته ، فكأن عليه أن يتعلم المشي .

قال : «انظري آنا ، أستطيع أن أمشي» . وجرب أن يتحرك بمزيد من السرعة . غير أن ساقيه لم تقويا على تحمل ثقل جسمه ، فانزلقت الأرض من

تحت قدميه . واذ اضطر إلى الاتكاء على أول شيء يصادفه ، تبسم مثل رجل عجوز ، فتجعدت بشرة وجنتيه الشفافتين . وأطلق ضحكة صغيرة ناعبة ، ثم عاد فارتمى على فراشه واهن القوى .

كانت حجرتاهما على مقربة من المرسى . وكان بوسعهما أن يشاهدا من النافذة مدى الفولغا الثلجي ، والغابات تنبسط من ورائه في نصف دائرة قاتمة ، والمعالم المتماوجة للحقول البعيدة . وكانت آنا تقف عند النافذة في كثير من الأحيان ، تطيل التفكير في التبدل الغريب الحاد الذي طرأ على حياتها . فلقد قارب مرض بونتشوك بينهما كثيراً على نحو غريب .

في البدء ، بعد رحلة طويلة مضنية قطعاها حتى وصلا إلى تساريتسين ، كانت حياتها شاقة مرة تستدر الدموع . ولم يسبق لها مطلقاً أن اضطرت إلى الاطلاع على كثب وبشكل مكشوف على الجانب الخفي من الحياة مع الانسان الذي تحبه . كانت تصك على أسنانها كلما غيرت ملابسه الداخلية ، وفلت رأسه المحموم من القمل ، وتنافح من أجل رفع جسمه الثقيل ، وتسترق النظر برعدة ونفور إلى جسده الرجالي العاري الموهون والى اهابه الذي كان يضم حياته الغالية التي تكاد أن تخبو تحته . وقد انتفض كل شيء فيها ونفر ، غير أن القذارة الخارجية لم تستطع أن تقضي على عواطفها الصادقة العميقة . فتحت تأثيرها القوي تعلمت كيف تتغلب على آلامها ونفورها . وهكذا لم يبق عندها سوى العطف وحب عميق كالبئر يموج ويطفح بالمشاعر .

حدث أن سألها بونتشوك ذات مرة :

ـ أحسب أنني أثير فيك الاشمئزاز بعد كل هذا... أليس كذلك ؟

ـ كان امتحاناً .

ـ لأي شيء ؟ لضبط النفس ؟

ـ كلا . لعواطفي .

فأشاح بوجهه ، ولوقت طويل ظل عاجزاً عن ايقاف شفتيه من

الارتعاش . لم يعودا ثانية إلى الموضوع ، فما كان للكمات الا أن تبدو تافهة باهتة اللون .

وفي منتصف كانون الثاني سافرا إلى فورونيج .

١٧

وصل بونتشوك وآنا فورونيج مساء السادس عشر من كانون الثاني . ولبثا يومين فيها ، ثم لما علما أن لجنة الدون الثورية وقواتها الوفية قد أزاحتها جيوش تشيرنتسوف من كامينسكايا تبعاها إلى ميليروفو .

كانت ميليروفو تزخر بالحياة وتضج بالناس . ولم يبق فيها بونتشوك سوى بضع ساعات ، سافر بعدها إلى غلوبوكايا بأول قطار . وفي اليوم التالي تولى من جديد أمرة مفرزة رماة الرشاشات ، وفي الصباح الذي تلاه اشترك في المعركة التي انتهت بهزيمة قوات تشيرنتسوف .

وبعد أن قُضي على تشيرنتسوف ، كان على بونتشوك أن يفارق آنا على نحو غير مرتقب . فذات صباح جاءت تجري من مقر هيئة الأركان منفعلة حزينة بعض الشيء :

ـ هل تدري أن أبرامسون موجود هنا ؟ انه يريد أن يراك بصورة ملحة . ولديَّ أخبار أخرى... سوف أرحل اليوم .

فسألها مذهولاً :

ـ إلى أين ؟

ـ أنا وأبرامسون وعدد آخر من الرفاق سنذهب إلى لوغانسك للدعاية .

فقال بفتور :

ـ اذا فأنت تهجرين مفرزتنا ؟

فضحكت ودست وجهها المتورد على صدره .

ـ اعترف! فأنت لا تحزن لأنني سأرحل عن المفرزة ، بل لأنني سأرحل

عنك! ولكنها لن تدوم طويلاً . وأنا واثقة من أنني سأكون ذات شأن في ذلك العمل أكبر من عملي معك . فأنا أصلح للدعاية أكثر مني للرشاشات ، ـ ورمقته بنظرة خبيثة وأضافت : ـ حتى وان كنتُ تحت أمرة قائد محنك مثل بونتشوك .

وجاء أبرامسون بعد ذلك بقليل . كان نشطاً كالعادة ، يتدفق حيوية ، ولا يعرف معنى للراحة . وكانت الخصلة البيضاء تلتمع كالعهن بين سواد شعره الذي يحاكي القطران . وقد سر كل السرور لرؤية بونتشوك .

ـ عدت ثانية ؟ حسناً . ستعود آنا معنا . ـ وضيق عينيه بخبث ، وأردف : ـ لا اعتراض من جانبك ؟ أبداً! حسناً . كنت أتساءل فقط لأنني اعتقدت أن المودة قد توثقت بينكما في تساريتسين ، أليس كذلك ؟

فندت عن بونتشوك ابتسامة عابسة مجهدة :

ـ لا أستطيع أن أخفي أسفي لمفارقتها .

ـ أنت متأسف ؟ حسناً ، ذلك شيء... آنا ، هل سمعت ؟

وجعل يتخطى ذهاباً واياباً في الغرفة ، متناولاً رواية علاها الغبار من خلف صندوق ، ثم انتفض ويمم صوب الباب . ـ هل ستكونين مستعدة بعد قليل يا آنا ؟

فأجابته من وراء الستارة حيث كانت تغير ملابسها :

ـ اذهب أنت ، وسوف آتي بعد دقيقة .

وعندما خرجت ظهرت بقمصلة الجنود الخاكية محزمة بنطاق جلدي ، وقد برز الجيبان قليلاً فوق ثدييها ، وكانت تنورتها القديمة السوداء مرقعة في بعض المواضع ولكنها نظيفة . وكانت قد غسلت شعرها حديثاً ، فانتفش وأفلت من عقصته . وارتدت معطفها وشدت الحزام ، وتساءلت بلهجة فقدت حيويتها السابقة فبدت كئيبة كسيرة : ـ هل ستشترك في الهجوم اليوم ؟

ـ ولِمَ لا ، بالطبع! هل تتوقعينني أن أقعد دونما عمل ؟

ـ انني أتساءل فقط... اسمع ، لتكونن حذراً . ستفعل ذلك من أجلي ،

أليس كذلك ؟ تركت لك زوجاً اضافياً من الجوارب الصوفية . احذر من البرد ، واجهد أن تحافظ على جفاف قدميك . سأكتب لك من لوغانسك .

وتلاشى الألق من عينيها فجأة . واعترفت وهي تودعه قائلة :

ـ ها أنت ترى كم يؤلمني أن أرحل عنك . عندما اقترح أبرامسون علي الذهاب إلى لوغانسك سرني ذلك ، ولكنني سأشعر بالوحدة بدونك . وهذا دليل آخر على أن العواطف تعترض سبيلنا في الوقت الحالي ، انها تشد المرء شداً... حسناً ، وداعاً على أية حال .

كانت باردة عند الوادع ، مكرهة عليه ، ولكنه أدرك أنها كانت تخشى أن تتراجع عن قرارها .

ووقف عند الباب ليودعها . وابتعدت مسرعة الخطى ، تهز كتفيها في ارتباك دون أن تتلفت حواليها . وأراد أن يناديها لتعود غير أنه كان قد لاحظ بريقاً ندياً في عينيها حينما ودعته للمرة الأخيرة ، فكتم رغبته ، وهتف بحماس ظاهري :

ـ آمل أن أراك في روستوف . اعتني بنفسك يا آنا!

فتطلعت عبر كتفها ، ثم أسرعت خطواتها .

أحس بونتشوك فجأة بوحدة قاتلة بعد رحليها . فانثنى إلى البيت ، ولكنه فر منه في الحال ثانية ، وكأن قد شب به حريق... فكل شيء هناك كان يتحدث عنها . كل شيء يحتفظ بشذاها : المنديل المنسي ، حافظة الجنود ، الكوز النحاسي ، وكل ما لمسته يداها .

ظل يجول في القصبة حتى المساء ، وهو يعاني قلقاً غريباً ، واحساساً بأن شيأ ما قد انقطع عنه . ولم يستطع أن يألف وضعه الجديد . وصار يحدق شارداً في وجوه الحرس الأحمر والقوزاق ، فيتبين البعض ويتبينه العديدون منهم . وأوقفه قوزاقي كان معه في الجيش أثناء الحرب . فألح عليه الرجل بالذهاب إلى بيته ودعاه لينضم إلى حلقة لعب الورق مع عدد من الحرس الأحمر البحارة . كانوا يلطمون الورق على المنضدة ، ويخشخشون بروبلات

كيرنسكي الورقية . ويتشاتمون ويتصايحون دونما انقطاع ، وقد لفعتهم غمامة من دخان التبغ . فتاق بوتتشوك إلى الهواء ، وخرج . وقد انتشله من حالته هذه اشتراكه في هجوم شنّ بعد ساعة .

١٨

بعد موت كاليدين دُعي مجلس عسكري في التاسع والعشرين من كانون الثاني للاجتماع في نوفوتشيركاسك حيث تقرر تعيين الجنرال نازاروف أتمانا للاقليم . ولم يحضر الاجتماع سوى بضعة مندوبين ، وجلهم من قصبات المناطق الجنوبية . واذ شعر نازاروف باسناد هذا المجلس الناقص ، دعا إلى تجنيد جميع القوزاق من سن الثامنة عشرة حتى الخمسين . بيد أن استجابة القوزاق كانت فاترة ، رغم الوعيد وارسال المفارز المسلحة إلى القرى لتنفيذ الأمر بالقوة .

ومنذ اليوم الذي مارس فيه المجلس الناقص عمله تحركت كتيبة قوزاق الدون السادسة تحت قيادة العقيد تاتسين إلى نوفوتشيركاسك من الجبهة الرومانية بعد أن شقت طريقها خلل حلقة من القوات البلشفية . كانت قد عوملت معاملة قاسية في مواضع مختلفة في طريقها من يكاتير ينوسلاف ولكنها بالرغم من ذلك وصلت بكل قواها وجميع ضباطها تقريباً .

وقد أقيم للكتيبة استقبال رسمي . وبعد صلاة الشكر التي أقيمت في ساحة الكاتدرائية ، شكر الجنرال نازاروف القوزاق لمحافظتهم على ضبطهم العسكري الجيد ولجلبهم أسلحتهم للدفاع عن الدون .

ولم يمض وقت طويل حتى أرسلت الكتيبة إلى الجبهة ، ثم وصلت الأخبار المثيرة إلى نوفوتشيركاسك أن الكتيبة قد انسحبت بصورة اعتباطية من مواقعها ورفضت حماية جيش الحكومة وذلك لوقوعها تحت تأثير الدعاية البلشفية .

وكانت الخطوات التي اتخذها المجلس ضعيفة . فقد شعر الجميع أن الصراع ضد البلاشفة أمر مقضي عليه بالفشل . وكان نازاروف ، وهو جنرال فعّال نشيط ، أثناء دورات المجلس يجلس ورأسه بين يديه وكأنه قد تاه في تأملاته الحزينة .

كانت الآمال الأخيرة تتداعى مثل خشب نخره السوس . فقد صار هدير المدفعية يسمع حول تيخوريتسكايا . وأشيع أن قوات القوزاق الحمر تحت قيادة الملازم أفتونوموف كانت تتقدم نحو روستوف من تساريتسين .

وقد انسحبت مفرزة الحرس الأبيض بقيادة الرئيس تشيرنوف إلى روستوف ، تحت النيران التي انصبت عليها من جهتين ، وقرر كورنيلوف التراجع في التاسع من شباط ادراكاً منه أن البقاء في المدينة يعرّضه إلى الخطر .

وكان العمال في منطقة تيميرنك طوال اليوم يقنصون دوريات الضباط المعادية في المحطة .

ووشيك المساء شق طابور طويل طريقه خارج روستوف ، وسار متثاقلاً فوق الثلج نصف الذائب . وكانت ترى بين الحين والآخر معاطف طلاب ، غير أن معظمهم كانوا يرتدون بزات ضباط ، وكان يقود الفصائل رؤساء وعقداء . وبين المراتب كان طلاب الكلية العسكرية وضباط من مختلف الرتب من الملازمين حتى العقداء . وخلف العديد من عربات قافلة المتاع تأتي حشود من اللاجئين : كهول ، ورجال أنيقون يرتدون معاطف وأخفافاً ، ونساء يرتدين أحذية عالية الكعوب وهي يتحركن فوق الثلج العميق بصعوبة .

ومع احدى سرايا الجنود سار الرئيس ليستنتسكي . والى جانبه في الطابور كان يسير ضابط نظامي انيق هو الرئيس الركن ستاروبيلسكي ، وبتشاغوف ملازم أول وحدة سوفوروف لرماة القنابل اليدوية ، والمقدم لوفيتشيف ، وهو هرم عديم الأسنان ملفع بشيء رمادي محمر مثل ثعلب عجوز .

تجمعت ظلال المساء . وكان الهواء قارساً بعض الشيء . وهبت ريح نسيم مالحة بليلة من ثغر الدون . كان ليستنتسكي يوسع خطاه بثبات بحكم العادة فوق الثلج المسحوق ، ويحدق في وجوه الذين لحقوا بالسرية .

ومر بجانب الطريق الرئيس نيزينتسيف وعقيد الحرس كوتيبوف ، آمر كتيبة بريوبراجينسكي السابق ، وقد تطايرت سترته وانداحت قبعته إلى الوراء . فنادى لوفيتشيف نيزينتسيف .

أدار كوتيبوف رأسه ، وهو صاحب وجه ضخم يشبه وجه الثور وعينين سوداوين متباعدتين ولحية قصّت قصاً عريضاً . والتفت نيزينتسيف هو الآخر وراح يرمق عبر كتفه باتجاه الصيحة .

- أوعز للسرية الأولى أن تحث خطاها! والا فسوف نتجمد . ها قد تبللت أقدامنا ونحن نسير على هذا النحو البطيء .

فهدر ستاروبيلسكي :

- يا لها من شناعة!

فلم يحر نيزينتسيف جواباً بل واصل سيره ومضى يناقش كوتيبوف . وبعد قليل أدركهم الجنرال أليكسييف . ومضت العربة وسط هبة ثلة أثارته حوافر جوادين أدهمين ليني الاهاب . كان الكسييف جالساً بصوة جانبية على المقعد ممسكاً بياقته بيده اليسرى اتقاء البرد وتتبع الضباط وجهه المألوف بنظراتهم وهم يتسمون . وقد برز شارباه وحاجباه بلونها الأبيض من وجهه الأحمر الذي ألهبته الريح .

ولاحت برك صفر هنا وهناك على الطريق الذي ناء بثقل المارين . وكان المضي عسيراً ، فقد تسرب البلل داخل الجزمات . وأصغى ليستنتسكي أثناء سيره إلى حوار الرجال أمامه . كان ضابط يرتدي سترة فرو وقبعة قوزاقية اعتيادية مصنوعة من جلد الخراف يقول :

- هل شاهدته أيها الملازم ؟ رودزيانكو رئيس مجلس دوما الدولة ، وهو رجل مسن ، مضطر إلى السير على قدميه...

ـ ان روسيا تسير إلى هاوية الجلجلة* .

فقال أحدهم هازئاً من خلال نحنحته :

ـ حقاً انها لجلجلة... مع فارق واحد ، هو أن أمامنا طريقاً ثلجياً بارداً إلى حد اللعنة بدلاً من الطريق الصخري .

ـ هل يعرف أحدكم أين سنقضي الليلة أيها السادة ؟

ـ في يكاترينودار .

ـ نعم ، فقد قمنا بمسيرة كهذه في بروسيا ، كما أذكر...

ـ كيف سيستقبلنا الكوبان ؟... ماذا ؟... أجل ، ان الأمور ستكون مغايرة هناك بلا شك .

وسأل الملازم غولوفاتشيوف ليستنتسكي :

ـ هل لديك ما يمكن تدخينه ؟

ونزع الرجل قفازه الخشن وتناول السيكارة التي قدمها يفغيني ، وشكره ، وتمخط بيده كما يفعل الجنود ، ثم مسح أصابعه بذيل معطفه . فقال له المقدم لوفيتشيف وهو يبتسم متهكماً :

ـ انك تكتسب عادات ديمقراطية أيها الملازم ، أليس كذلك ؟

ـ لا معدى للمرء من ذلك ، فليس هناك من سبيل آخر . ماذا تفعل أنت ؟ هل أفلحت في الابقاء على دزينة من المناديل ؟

ولم يجبه المقدم . كان ثمة خيوط ثلجية خضر متعلقة بشاربيه الأشيبين المحمرين . وكان يزنخر بين الحين والآخر ، ويقطب من شدة البرد الذي نفذ إلى داخل معطفه الخفيف .

« ورود روسيا! » ـ قال ليستنتسكي ذلك في دخيلته وهو يتطلع بحنان شديد إلى أفراد الطابور الذي يمضي متعرجاً على امتداد الطريق .

ومر فريق من الفرسان مسرعين يتوسطهم كورنيلوف على صهوة جواد

---

* الجلجلة : الجبل الذي صعد اليه المسيح حاملاً صليبه . المترجمون

طويل . كان بقبعته البيضاء المصنوعة من جلد الحمل ومعطفه الأخضر الفاقع القصير ذي الجيوب الجانبية المائلة يهتز بين المراتب . وتبعه هتاف جهير أطلقته حناجر أمراء السرايا .

ـ لولا عائلتي لما كنت أهتم بهذا... ـ قال المقدم لوفيتشيف ذلك ثم سعل سعلة متعبة ونظر إلى ليستنتسكي من زاوية عينيه وكأنه ينشد عطفه ، وأردف : ـ لقد خلفت عائلتي ورائي في سمولنسك . زوجتي وابنتي . لقد بلغتْ السابعة عشرة في عيد رأس السنة الماضي . ماذا تقول في ذلك أيها الرئيس ؟

ـ هم... م... م...

ـ ألديك أنت أيضاً عائلة ؟ هل أنت من نوفوتشيركاسك ؟

ـ كلا ، أنا من اقليم الدون . ان والدي هناك .

ومضى لوفيتشيف يقول :

ـ كيف ستدبران أمرهما بدوني ، لا أستطيع أن أتصور...

بيد أنه قوطع بصوت ستاروبيلسكي المنفعل :

ـ كلنا خلفنا عوائلنا وراءنا . أنا لا أفهم لماذا تستمر على عويلك أيها المقدم . أي ناس أنتم! ما ان غادرتم روستوف حتى...

وصاح أحدهم من المراتب الخلفية :

ـ أهذا أنت يا ستاروبيلسكي ؟ ألم تكن في المعركة في تاغانروغ ؟

فاستدار ستاروبيلسكي وافتر وجهه الغاضب عن ابتسامة كئيبة وقال :

ـ آً ، فلاديمير غيورغيفتش ، كيف حصل أن التحقت بفوجنا ؟ نقلت ، ايه ؟ حفيظة من أثرت ؟ لا بأس... كنت تسأل عن تاغانروغ... نعم ، لقد كنت... لماذا ؟ بالضبط... لقد قتل! .

وعنّت على بال ليستنتسكي ، وهو ينصت إلى الحوار ساهماً ، ذكرى رحيله عن ياغودنويه ، وأبيه ، وأكسينيا . واستبد به شعور بالحنين مباغت . ومضى يجر خطاه ، ويرنو إلى ماسورات البنادق والحراب المتراقصة أمامه ،

والى القبعات الفرو ، والقبعات المدببة والقلنسوات المتجاوبة في حركتها مع ايقاع السير ، وراح يفكر في ذات نفسه :

«ان كل واحد من هؤلاء الأحياء المنبوذين الذين يعدون خمسة آلاف هو مثلي ، ولشد ما يضمره كل منا في قلبه من حقد وغضب لا حد لهما . لقد ألقى بنا الخنازير خارج روسيا ، ويحسبون أنهم سيقضون علينا هنا . ولكننا مع هذا سنرى كورنيلوف يقودنا إلى موسكو» .

وفي تلك اللحظة تذكر وصول كورنيلوف إلى موسكو وراح يفكر مسروراً في ذلك اليوم .

وعلى مبعدة إلى الوراء ، في مؤخرة الطابور كانت ثمة بطارية . وكانت الخيل تزنخر وعربات المدافع تقعقع ، وقد بلغت منخري ليستنتسكي رائحة عرقها فجعلته الرائحة المثيرة المألوفة يلتفت إلى الوراء ، فراح السائق الأمامي ، وهو نائب عريف شاب ، ينظر اليه ويبتسم بلا تكلف .

* * *

في الحادي عشر من آذار تجمع جيش المتطوعين في منطقة أولغنسكايا على مبعدة بضعة فراسخ جنوبي - شرقي روستوف . وقد أرجأ كورنيلوف كل حركة أخرى ، لأنه كان ينتظر وصول الجنرال بوبوف الأتمان الجديد الذي عين لجيش قوزاق الدون ، والذي كان قد تراجع من نوفوتشيركاسك إلى السهوب نحو الجهة الشرقية من الدون مع قوة قوامها ألف وستمائة رجل ، وخمسة مدافع ميدان وأربعون رشاشاً .

ذهب بوبوف يصحبه رئيس أركان حربه سيدورين ومرافق قوزاقي على ظهور الجياد إلى أولغنسكايا في صباح اليوم الثالث عشر . وأوقف حصانه في الساحة مقابل البيت الذي يشغله كورنيلوف ، وأمسك بقربوس سرجه ، ثم رفع ساقه عن السرج بصعوبة . وساعده مراسل ، وهو قوزاقي شاب ذو خصلة سحماء ، ووجه أسمر وعينين حادتين حدّة الزقزاق . ورمى بوبوف اليه العنان

وسار بتؤدة ووقار نحو سقيفة الباب ، يتبعه سيدورين وضباط آخرون . وساق المراسلان الخيل خلل بوابة جانبية إلى الفناء . وبينما وضع أحدهما ، وهو خيال كهل أحنف الساقين ، مخالي* علف الدواب ، ذهب الشاب ذو الشعر الأسود والعينين اللتين تحاكيان الزقزاق ليتعرف على الطاهية . كان يعيرها ببعض الكلام ، بينما كانت الفتاة وهي صبية متوردة تشد عصابتها بغنج وترتدي خفين كبيرين في قدميها العاريتين ، تأخذ طريقها مارة به ، وتواثبت ضاحكة فوق بركة إلى مخزن الحبوب .

دلف بوبوف الكهل الوقور إلى المنزل . وأعطى معطفه في الصالة إلى مراسل كفء نشيط ، وعلق سوطه وراح يتمخط مدة طويلة بصخب . وقادة المراسل مع سيدورين إلى قاعة الاستقبال .

كان الجنرالات الذين استدعوا لحضور المؤتمر مجتمعين . كان كورنيلوف يجلس أمام طاولة ومرفقاه على خارطة نشرت فوقها ، والى يمينه كان اليكسييف ، منتصباً ، نحيفاً ، حسن الحلاقة ، وقد اشتعل شعره شيباً . وكان دينيكين وقد التمعت عيناه الشاقبتان يسرّ إلى رومانوفسكي بشيء ما . ولوكومسكي ، الشبيه بدينيكين نوعاً ما ، يتخطى في الغرفة وهو ينتف لحيته . ووقف ماركوف أمام النافذة يتطلع إلى الفناء ، كان يراقب المراسلين وهما يعنيان بالخيل ويغازلان الطاهية .

حيا القادمان الجديدان الجنرالات المجتمعين وسارا إلى الطاولة وسألهما أليكسييف بضعة أسئلة ثانوية حول رحلتهما والجلاء عن نوفوتشيركاسك . ودخل كوتيبوف يصحبه عدد من الضابط المحاربين الذين دعاهم كورنيلوف إلى المؤتمر .

ثبت كورنيلوف بصره في بوبوف الذي اتخذ لنفسه مقعداً أمام الطاولة بهدوء ، وسأله :

---

* جمع مخلاة وهي ما يوضع به من علف . المترجمون

ـ أخبرنا أيها الجنرال بعدد قواتك .

ـ ألف وخمسمائة سيف ، وبطارية ، وأربعون رشاشاً بمعداتها .

ـ أنت ملم بالظروف التي أقسرت جيش المتطوعين على الجلاء عن روستوف . لقد عقدنا مؤتمراً البارحة ، واتخذنا قراراً بالسير نحو الكوبان ، باتجاه يكاترينودار ، حيث تنشط هناك بالفعل مفارز المتطوعين . سوف نسلك هذا الطريق ، ـ ومر برأس قلمه الثالم فوق الخارطة ، واستأنف يقول متعجلاً : ـ وسوف نستميل قوزاق الكوبان أثناء مسيرتنا ، ونقضي على مفارز الحرس الأحمر القليلة الواهنة غير المنظمة التي قد تحاول اعتراض سبيلنا . ـ وتابع عيني بوبوف في نظرتهما الجانبية الضيقة وأضاف : ـ ونقترح عليك أن تلتحق وقواتك بجيش المتطوعين وتسير معنا شطر يكاترينودار . فليس من صالحنا أن نبعثر قواتنا .

فأعلن بوبوف باصرار وحدة :

ـ لا أستطيع فعل ذلك .

انحنى أليكسييف قليلاً باتجاهه وقال :

ـ لِمَ لا ، اذا جاز لي أن أسأل ؟

ـ لأنني لا أستطيع أن أهجر اقليم الدون وأرتدّ إلى الكوبان . اننا في حمى الدون من الشمال وسوف نترقب الحوادث في السهب . ونحن لا نتوقع حركات فعالة من جانب العدو ، لأن الجليد سيذوب عما قريب ، وسوف يكون من المستحيل ارسال المدفعية وحتى الخيالة عبر الدون . ومن المنطقة التي اخترناها ، والوافرة بالكلأ والمؤونة ، نستطيع أن ننظم حركات أنصار في أي لحظة وبأي اتجاه .

كان يرد على حجج كورنيلوف بصورة مؤثرة ، ثم توقف ليأخذ نفساً ، غير أنه هز رأسه بعناد عندما رأى كورنيلوف على وشك أن يتكلم :

ـ دعني أنتهي . بالاضافة إلى ما سبق ، هناك عامل هام جداً ، وينبغي علينا نحن في القيادة العليا أن نحسب له الحساب . انه موقف قوزاقنا . ـ

وبسط يداً ناعمة بيضاء انغرست بعمق في لحم سبابتها حلقة ذهبية ، وواصل حديثه رافعاً صوته بعض الشيء : ـ فاذا ما تراجعنا إلى الكوبان فثمة خطر من تشتت مفارزنا . وقد يرفض القوزاق الذهاب . ويجب أن لا ننسى أن أثبت جنودي وأقواهم هم من القوزاق ، وهم لا يمكن الركون اليهم قطعاً كما... كما يركن إلى رجالكم ، مثلاً . انهم لا يدركون . انهم ببساطة يرفضون الذهاب . وأنا لا أستطيع أن أجازف بخسارة جنودي كلهم . ـ شد على الكلمات ثم قاطع كورنيلوف مرة أخرى : ـ يجب أن تعذرني . ها قد أخبرتك عن قرارنا وينبغي أن أؤكد لك أننا لسنا في وضع يسمح لنا بتغييره . ولا ريب أنه ليس من صالحنا أن نجزىء قوانا ، بيد أنه يوجد مخرج واحد لهذه المشكلة . لذلك أقترح أنه لو أخذنا ما قلته بنظر الاعتبار ، فسوف يكون أكثر سداداً لجيش المتطوعين ألا يتراجعوا إلى الكوبان ، إنما ينضمون إلى قطعات الدون في السهب وراء الدون . وسوف يكون بوسعه أن يستريح هناك ويستجمع قواه وسوف يعزز في الربيع بمتطوعين جدد من روسيا...

ـ كلا! ـ هكذا هتف كورنيلوف الذي كان أمس يفضل التراجع إلى السهوب فيما وراء الدون والذي وقف مع رأي أليكسييف على طرفي نقيض . وأضاف : ـ ليس هناك من معنى في الذهاب إلى السهب . ان لدينا ستة آلاف رجل تقريباً...

ـ اذا كانت المؤونة هي ما يشغل بالك ، فبوسعي أن أؤكد لك ، يا صاحب المعالي ، أنه لا توجد هناك منطقة فيها من المؤونة أكثر مما في السهب الذي يقع عبر الدون . هذا إلى أنك تستطيع الحصول على الجياد من الاسطبلات الخاصة هناك لتضع بعضاً من جيشك على ظهور الخيل... ومن ثم ستتوفر لك فرصة أفضل لحرب الحركات . ينبغي أن تكون لك خيالة ، وجيش المتطوعين يفتقر اليها في الوقت الحالي .

فنظر اليه كورنيلوف ، الذي كان ذلك اليوم مستجيباً إلى أليكسييف أكثر من المعتاد ، وبدا عليه بوضوح أنه لا يدري أي سبيل يسلك ، وأنه ينشد

العون من غيره . ثم حظي اليكسييف بانتباه زائد من المستمعين . وقد عبّر الجنرال العجوز عن نفسه بايجاز إلى جانب الشخوص إلى يكاترينودار ، كعادته في البت بالمسائل بسرعة ووضوح تام . وأنهى حديثه قائلاً :

ـ سيكون من السهل علينا أن نخترق حلقة البلاشفة في ذلك الاتجاه ، وأن نضم قوانا إلى الوحدات التي تعمل هناك . وتساءل لوكومسكي بحذر :

ـ واذا أخفقنا ؟

فعض اليكسييف على شفتيه ومرر اصبعه فوق الخارطة وقال :

ـ حتى لو أخفقنا ، فسوف يبقى لدينا مجال التراجع إلى جبال القفقاس حيث نفرق الجيش هناك .

وأيده رومانوفسكي . وتكلم ماركوف بضع كلمات مثيرة . وقد بدا أنه ليس هناك ما يقال ضد حجج اليكسييف الراجحة ، غير أن كلمات لوكومسكي وازنت بين كفتي الميزان .

قال هوه ينتقي كلماته بتريث وحذر :

ـ انني أويد اقتراح الجنرال بوبوف . ذلك أن المسيرة إلى الكوبان سترافقها صعوبات جمة لا يمكن تقديرها من هنا . فقبل كل شيء ، سيلزمنا أن نجتاز خطوط السكك الحديد مرتين...

وتبعت العيون كلها اتجاه اصبعه وهو يتحرك عبر الخارطة . ومضى لوكومسكي يقول بعناد :

ـ ولن يخفق البلاشفة في الترحيب بنا بالشكل المناسب . فسوف يستخدمون قاطرات مدرعة . ولدينا قوافل شحن ثقيلة وعدد كبير من الجرحى الذين لا يمكن تركهم وراءنا . ان ذلك كله سيكون عبئاً عظيماً على الجيش ويعرقل تقدمه السريع . هذا إلى أنني لا أستطيع أن أكون على استعداد للاعتقاد بأن قوزاق الكوبان يكنون لنا الود . لئن أخذنا ، على سبيل المثال ، قوزاق الدون الذين يفترض بهم انهم لا يرتاحون إلى حكم البلاشفة فعلينا أن نضاعف يقظتنا وأن ننظر إلى مثل هذه الشائعات بكثير من الشك . ان قوزاق

الكوبان يعانون من التراخوما البلشفية ذاتها التي نشرها الجيش الروسي السابق . وربما قابلونا بالعداء . وأخيراً ، أرى لزاماً علي أن أعيد القول ، ان رأيي هو أن علينا أن نيمم وجهنا شطر الشرق ، شطر السهوب ، ومتى ما استجمعنا قوانا ، فسوف نهدد البلاشفة من هناك .

إلا أن كورنيلوف ، تدعمه أكثرية جنرالاته ، تمسك بقراره القاضي بالسير خلال طريق زائغة شطر الكوبان ، وجمع الخيل لوحدات الخيالة . ثم ارفضّ المؤتمر . وتبادل كورنيلوف بضع كلمات مع بوبوف ، وودعه ببرود ، وذهب الى غرفته ، يتبعه أليكسييف . وخرج العقيد سيدورين إلى سقيفة الباب وصاح بحماس على مرافقه :

ـ الجياد!

وقدم اليه ملازم شاب وهو قوزاقي أشقر ، يمسك بسيفه وهو يطفر البرك . ووقف عند العتبة السفلى ، وتساءل بهمس :

ـ حسناً ، ما هو القرار أيها العقيد ؟

فأجابه سيدورين بصوت خفيض لا يخلو من فرح :

ـ قرار لا بأس به! لقد رفضنا الذهاب إلى الكوبان . وسنرحل في الحال . هل أنت مستعد يا أزفارين ؟

ـ نعم . وسيأتون بالخيل .

وأحضر المراسلان الجياد . كان ذو الخصلة السوداء وعيني الزقزاق يغمز لصاحبه ويقول وهو يزنخر ضاحكاً :

ـ انها لطيفة ، أليس كذلك ؟

فكشر الأكبر سناً وقال بتحفظ :

ـ لطيفة كفرس مصابة بالقوباء* .

ـ وقد تستدعيك إلى غرفتها مع ذلك ، هه ؟

---

* القوباء : داء في الجسد يتقشر منه الجلد . المترجمون

ـ دعكما من ذلك ، يا ابني آوي . فنحن في الصوم الكبير .

امتطى أزفارين ، صديق غريغوري ميليخوف القديم ، صهوة جواده الأخرق ذي الخطم الأبيض وأصدر الأمر بالسير صوب الشارع .

وهبط بوبوف وسيدورين الدرجات الأمامية ، يصحبهما بعض الجنرالات . وأمسك أحد جنود الحرس حصان الجنرال بوبوف وساعده على ادخال قدمه في الركاب . ثم لوح بوبوف بسوطه القوزاقي البسيط ، وخب بفرسه ، وكان إلى ورائه سيدورين ، والضباط الآخرون والقوزاق ، واقفين على ركائبهم ومنحنين إلى الأمام قليلاً . وحينما وصل جيش المتطوعين ميتشيتينسكايا بعد مسيرة يومين ، تسلم كورنيلوف تقارير جديدة عن السهوب الشرقية . ولم تكن مشجعة . فاستدعى كورنيلوف أمراء وحدات القتال وأعلن عن عزمه على الشخوص شطر الكوبان .

وأوفد رسولاً إلى بوبوف يدعوه للمرة الثانية بتوحيد القوات . ولكن الجواب كان عينه . لقد رفض بوبوف بأدب وبرود ، مفيداً أن قراره لا يمكن أن يطرأ عليه تغيير وأنه سيبقى في الوقت الراهن في المنطقة الشرقية من الدون .

١٩

كانت مفرزة غولوبوف قد أرسلت بإيعاز من اللجنة الثورية لاحتلال نوفوتشيركاسك بحركة التفاف واسعة ، وقد ذهب بونتشوك معها . وكان غولوبوف يقود المفرزة بخطى حثيثة ، ممتطياً صهوة جواده في مقدمتها لافحاً حصانه بالحاف . وفي المساء بلغوا احدى القصبات ، وبعد أن أراحوا خيلهم قليلاً ، واصلوا مسيرتهم ثانية في الليل القاتم الخالي من النجوم ، والطريق المغطى بالجليد يتكسر تحت حوافر خيلهم ، وتبلج الفجر حينما كانوا يمرون بقصبة أخرى . وكانت الشوارع لما تزل خالية بعد ، ولكن قرب الساحة كان قوزاقي عجوز يكسر الجليد في حوض ازاء بئر . فتقدم منه غولوبوف ، فيما

توقفت المفرزة . وحياً الآمر القوزاقي :

ـ مرحباً يا أبتي .

فرفع الرجل يداً ترتدي قفازاً ببطء إلى قبعته الفرو ، وأجاب بنبرة غير ودية :

ـ أسعدت صباحاً .

ـ حسناً ، أيها الجد ، هل ذهب قوزاقيوكم إلى نوفوتشيركاسك ؟ وهل هناك تعبئة في قريتكم ؟

التقط العجوز فأسه بعجالة واختفى وراء بوابة فنائه دونما جواب .

فهتف غولوبوف « الى الأمام سر! » وامتطى جواده وهو يلعن .

وفي اليوم ذاته كان مجلس الجيش يتهيأ لاخلاء نوفوتشيركاسك . وقد سحب أتمان الميدان الذي عين حديثاً لجيش قوزاق الدون وهو الجنرال بوبوف ، القوات المسلحة للتو من المدينة ونقل كل المقدّرات العسكرية . فدخلت خيالة غولوبوف نوفوتشيركاسك دونما مقاومة على عكس ما توقعت . وجرى غولوبوف نفسه بصحبة مفرزة كبيرة من القوزاق إلى مقر قيادة المجلس . كان هناك حشد من نظارة فاغرين أفواههم متجمعين عند البوابة ، وكان ثمة ساعٍ ينتظر مع حصان الجنرال نازاروف المسرج .

قفز بونتشوك عن حصانه ووضع يده على رشاشه . وهرول مع غولوبوف وقوزاق آخرين إلى المنزل . وعند صوت اصطفاق الباب أثناء فتحه ، خطفت وجوه المندوبين المتجمعين في القاعة الفسيحة وشحب لونها أمام القادمين .

أمر غولوبوف بنبرة متوترة وكأنه في ساحة استعراض : « قفوا! » وأوسع خطاه نحو رأس الطاولة محاطاً بالقوزاق ، وقد تعثر لعجالته . ونهض أعضاء المجلس محدثين ضوضاء بكراسيهم اثر الصيحة الآمرة ، خلا نازاروف فقد بقي جالساً .

قال الجنرال بصوت غضوب :

ـ كيف تجرؤون على مقاطعة جلسة مجلس الجيش ؟

ـ أنتم رهن التوقيف! سكوتاً! ـ وازرق وجه غولوبوف ، ثم جرى نحو نازاروف ، ونزع الشارات من بزة الجنرال العسكرية ، وزأر بغلظة :

ـ لقد قلت انهض! خذوه! مع من أتكلم ؟ يا كبير العساكر!

وكان بونتشوك قد وضع رشاشه عند الباب . فتكأكأ أعضاء المجلس على بعضهم البعض مثل الخراف . وجر القوزاق نازاروف ، ورئيس المجلس فولوشينوف ذا الوجه الأخضر من الخوف ، وكثيرين آخرين ، أمام بونتشوك . وتبعهم غولوبوف قرمزي الوجه ، وسيفه يقعقع . فتشبث أحد أعضاء المجلس بكمه :

ـ أين تريدون الذهاب بنا ، أيها العقيد ، يا سيدي ؟

وحشر آخر رأسه فوق كتف غولوبوف :

ـ هل نحن أحرار ؟

فصاح بهما الآمر وهو يدفعهما عنه : «اذهبا إلى الشيطان! ـ ولما بلغ بونتشوك التفت اليهم وقال وهو يضرب الأرض بقدمه : ـ انقشعوا إلى الجحيم ! ليس لي الوقت لانشغل بكم! حسناً ، ماذا تنتظرون ؟» ـ ورجع صوته الملتاح* صداه في القاعة بعض الوقت .

صرم بونتشوك الليلة في بيت أمه . وفي اليوم التالي وردت أخبار تقول ان روستوف قد تم احتلالها بقوات سيفيرس . فاستحصل في الحال اذناً من غولوبوف بالذهاب إلى روستوف ، وشخص اليها بعد ان امتطى حصانه في الصباح التالي .

وبعد وصوله إلى روستوف ، عمل طوال يومين في مقر هيئة الأركان ، وزار دوائر اللجنة الثورية . بيد أنه لم يجد أبرامسون ولا آنا . وكانت قد تشكلت محكمة ثورية في مقر القيادة لتجري محاكمة مستعجلة للأسرى من الحرس الأبيض . فعمل بونتشوك طوال يوم في المحكمة ، واشترك في

* الملتاح : المتغير من الشمس أو من السفر . المترجمون

الاغارات ، ثم ذهب في اليوم التالي إلى اللجنة الثورية مرة أخرى دون كبير رجاء . ولكنه ما ان هم بارتقاء السلم حتى تناهى اليه صوت آنا من غرفة في الطابق الأعلى ، فاندفع الدم إلى قلبه عندما سمع ضحكتها . وتمهل في خطاه ، ثم فتح الباب .

كانت الغرفة التي تعود إلى القومندان في السابق ، تعج بالدخان . وكان ثمة رجل يرتدي مطعفاً عديم الأزرار يكتب على طاولة نسائية صغيرة ، وقد تجمع حوله جنود ومدنيون بفرواتهم ومعاطفهم وهم يدخنون ويتحادثون . ورأى آنا واقفة أمام النافذة وظهرها إلى الباب . وكان أبرامسون قاعداً على عتبة النافذة ويداه معقودتان على ركبتيه ، وقد وقف إلى جانبه واحد من رجال الحرس الأحمر طويل ذو أمارات لاتفية . كان الرجل يمسك سيكارة ويتكلم وخنصره منتصبة ، ولا بد أنه كان يروي حادثاً مضحكاً ، ذلك أن آنا كانت قد ألقت برأسها إلى الوراء من شدة الضحك ، وتجعد وجه أبرامسون الضاحك ، والتمعت تقاطيع الجندي الأحمر البارزة عن ذكاء حاد وحانق قليلاً .

فتقدم بونتشوك ووضع يده على كتف آنا :

ـ مرحباً يا آنا!

فالتفتت ، وهجم الدم على وجهها وطفا حتى ترقوتيها ، وترقرقت الدموع في عينيها . وراحت تتلعثم دون أن ترفع عينيها :

ـ من أين قدمت ؟ أنظر ، يا أبرامسون! انه يبدو مثل عملة جديدة ، وقد كنتَ قلقاً عليه!

واستدارت ومشت صوب الباب غير قادرة على السيطرة على انفعالها .

وشد بونتشوك على يد أبرامسون الحارة ، وتبادل بضع كلمات معه ، ثم مضى نحو آنا ، وقد اكتسى وجهه بابتسامة حمقاء جذلة للغاية ، تاركاً سؤالاً سأله أبرامسون دون جواب (بل لم يدرك معناه) . وإذ استعادت السيطرة على نفسها رحبت به بابتسامة ، ولكنها كانت متكدرة بعض الشيء من ارتباكها . وسألته :

ـ حسناً ، وكيف أنت ؟ متى وصلت ؟ هل جئت من نوفوتشيركاسك ؟ وهل كنت في مفرزة غولوبوف ؟ وما عندك من أخبار ؟

فأجاب على أسئلتها دون أن يحوّل نظرته الكئيبة المثبتة في وجهها .

واقترحت عليه قائلة :

ـ فلنذهب دقيقة إلى الخارج .

وعندما استدارا ليخرجا قال لهما أبرامسون :

ـ ستعودان قريباً ؟ لديَّ عمل لك ، أيها الرفيق بونتشوك . فكرنا في الاستفادة منك .

ـ سأعود بعد ساعة .

وفي الشارع جعلت آنا تحدق في عيني بونتشوك ، ولوحت بيدها مغضبة :

ـ ايليا ، ايليا ، لكم فقدت السيطرة على نفسي! تماماً مثل فتاة صغيرة! كان ذلك بسبب من عدم توقعي رؤيتك ، وبسبب من علاقتنا غير الواضحة مع بعضنا أيضاً . والحق يا بونتشوك ، ما هي علاقتي بك ؟ أهي علاقة مخطوبين عابثين ؟ هل تدري ، سألني أبرامسون في لوغانسك ذات مرة : «هل تعيشين مع بونتشوك ؟» فأنكرت ، ولكنه رجل كثير الملاحظة ويرى ما يحدث أمام عينيه . ولم يقل شيئاً ، ولكنني أستطيع أن أرى من نظراته أنه لم يصدقني .

ـ ولكن حدثيني بكل شيء عن نفسك .

ـ آه ، شد ما كان عملنا رائعاً في لوغانسك! لقد جمعنا قوة من مائتين واحدى عشرة حربة . وقمنا بفعاليات تنظيمية وسياسية... ولكني لا أستطيع أن أحدثك عن كل ذلك بكلمتين! ولم أشف بعد من الصدمة التي سببها وصولك غير المنتظر . أين تراك... أين تراك تقضي الليلة ؟

ـ في منزل... أحد الرفاق ، ـ قال ذلك كذباً وهو يتلعثم ، لأنه كان يقضي لياليه في مقر هيئة الأركان .

ـ ستنتقل إلى منزلنا هذا اليوم! هل تذكر أين أقطن ؟ لقد أوصلتني مرة إلى البيت .

ـ سأجده . ولكن... ألا يزحمكم وجودي نوعاً ما ؟

ـ لا تكن أحمق! انك لن تزحم أحداً ، وعلى أية حال فالأمر غير جدير بالنقاش .

وفي العشاء جمع حاجياته في حقيبته العسكرية الواسعة ، وذهب إلى الشارع في الضاحية حيث تسكن آنا . وعلى عتبة بيت آجري صغير التقى امرأة عجوزاً . كان لملامحها شبه قليل بآنا ، فلديها نفس البريق الأسود المزرق في عينيها وأنف مقوس بعض الشيء . انما بشرتها الترابية المخددة وفمها الغائر فضحا عمرها .

سألته :

ـ هل أنت بونتشوك ؟

ـ نعم .

ـ تفضل أدخل ، رجاء . ابنتي حدثتني عنك .

قادته إلى غرفة صغيرة ، وأرشدته أين يضع أشياءه ، وأشارت إلى الغرفة باصبع قوّسها الروماتيزم :

ـ هنا سيكون منامك . وذاك سريرك .

كانت تتكلم برطانة يهودية واضحة . وكانت تعيش معها في المنزل صبية شديدة النحول لها عينان داكنتان مثل آنا .

وبعد برهة من الزمن جاءت آنا نفسها ، جالبة الحياة والنشاط معها :

ـ هل جاء أحد ؟ هل قدم بونتشوك ؟

أجابتها أمها باللغة البيدية* ، فأسرعت آنا بخطوات راسخة إلى باب غرفة بونتشوك :

---

* اللغة التي يتكلمها اليهود في بعض أقطار أوروبا ، وهي قريبة إلى الألمانية . المترجمون

ـ هل لي أن أدخل ؟
ـ أجل ، أجل ، ـ ونهض من على الكرسي وتقدم للقائها .
ـ حسناً ، هل كل شيء على ما يرام ؟
وجالت ببصرها فيه بنظرة رضية بشوش ، وسألته :
ـ هل تناولت شيئاً من الطعام ؟ تعال الى الغرفة الأخرى .
وقادته من كمه إلى الغرفة الأكبر وقالت :
ـ أمي ، هذا رفيقي ، ـ وتبسمت . ـ كوني طيبة معه ، أرجوك .

وفي المساء فرقعت اطلاقات فوق روستوف مثل سنف** نبات الأكاسيا الناضج . بين حين وآخر يلعلع رشاش ، ثم يتلاشى الصوت ، ويغلف الليل ، ليل شباط المعتم الجميل ، الشوارع ويلفها في صمته الجليل . وظل بونتشوك وآنا جالسين حتى وقت متأخر في غرفته الصغيرة المعني بترتيبها كثيراً . قالت له :

ـ كنت أعيش هنا مع أختي الصغيرة . أنت ترى أية حياة متواضعة نحياها... تماماً مثل الراهبات ، اذ لا توجد حتى الصور الرخيصة أو الصور الفوتوغرافية ، أو ما يفيد بأني كنت تلميذة في الثانوية .

سألها :
ـ كيف كنتم تدبرون المعيشة ؟
فأجابت بلهجة لا تخلو من الاعتزاز :
ـ كنت أعمل في مصنع وأعطي دروساً .
ـ والآن ؟
ـ أمي تخيط . هما الاثنتان لا تحتاجان الاّ إلى اليسير .

وحدثها عن تفاصيل احتلال نوفوتشيركاسك ، والمعارك التي اشترك فيها مذ غادرته . وأعطته هي نبذة عن عملها في لوغانسك وتاغانروغ . وعندما

** السنف : قشر وعاء النبات اذا أكل الحب الذي فيه . كالبازلاء والباقلاء وما اليها . المترجمون

أطفأت أمها الضوء في غرفتها ، في الساعة الحادية عشرة ، تمنت له ليلة سعيدة وتركته .

٢٠

نسب لبونتشوك عمل في المحكمة الثورية الملحقة بلجنة الدون الثورية . ومضى رئيس المحكمة وهو طويل ذو وجنتين غائرتين ، وعينين مسهدتين من العمل والسهر المتواصلين ، مع بونتشوك إلى نافذة غرفته . وقال له وهو يمسك بساعته اليدوية (فقد كان متأخراً حضور مؤتمر) :

ـ متى انضممت الى الحزب ؟ آها . طيب! حسناً ، سوف تكون قومندانتا . أرسلنا الليلة الفائتة قومندانتا السابق إلى جوار كاليدين ، لأنه كان يرتشي . لم يكن سوى رجل سادي ، كان خنزيراً بهيماً ، ونحن لا نريد مثل هذا النمط في صفوفنا . ما كنا نقوم به عمل قذر ، ولكن يجب علينا أن نعي مسؤوليتنا كلها تجاه الحزب . هل تفهم جيداً ما أقول ؟ ـ قال ذلك بمزيد من التأكيد ، واستمر : ـ يجب أن نحافظ على انسانيتنا . اننا نقضي على أرواح المعادين للثورة لأسباب ضرورية ، ولكن يجب أن لا نجعل من هذا العمل سركاً . هل تفهمني ؟ طيب ، هذا شيء حسن . والآن اذهب ومارس عملك .

وفي الليلة ذاتها أطلق بونتشوك ، بصفته مسؤولاً عن فصيل من الحرس الأحمر ، النار على خمسة من معادي الثورة ، بعد أن مضى بهم على مبعدة ثلاثة فراسخ خارج المدينة . اثنان منهما قوزاقيان ، والبقية من أهالي روستوف . وبعد ذلك في كل ليلة تقريباً كانوا يسوقون المحكومين بالاعدام خارج المدينة في سيارة حمل ، وتعد قبور مستعجلة ، يحفرها بعض جنود الحرس الأحمر والمحكومين جنباً إلى جنب . ثم يصف بونتشوك فصيله ، ويعطي الأمر برنة معدنية في صوته :

ـ على أعداء الثورة... ـ ثم يلوح بمسدسه : ـ أطلقوا النار!

ولم يمضِ أسبوع من هذا العمل حتى ذوى وازداد جهامة ، وكأنه ميت . وغارت عيناه ، وبات جفناه اللذان يطرفان بعصبية لا يقويان على اخفاء بريقهما البارد الحائر . وكانت آنا تراه في المساء فقط ، لأنها كانت تعمل في اللجنة الثورية وتعود إلى البيت متأخرة . ولكنها كانت تنتظره دائماً حتى تنبىء الطرقة المألوفة على النافذة عن وصوله .

وذات أمسية عاد بعد منتصف الليل كالعادة . وفتحت الباب وقالت :

ـ هل تتناول بعض العشاء ؟

فلم يجب ، بل مضى إلى غرفته ، يتعثر ثملاً . وألقى بنفسه ، كما هو ، بمعطفه ، وجزمته وقبعته ، على سريره . فذهبت إليه آنا وجعلت تحدق في وجهه : كانت ثمة غشاوة لزجة على عينيه ، وتألق اللعاب على أسنانه ، وشعره الذي خف بعد التفوس انبسط خصلات داكنة فوق جبينه .

جلست إلى جانبه . وهمست وقد اعتصر الاشفاق والألم فؤادها :

ـ هل يرهقك ذلك ، يا ايليا ؟

فعصر يدها ، وصك أسنانه ، واستدار إلى الحائط . وأخلد إلى النوم دون أن ينبس بكلمة . وجعل يدمدم في نومه بأشياء مبهمة بائسة ، وحاول الوثوب . وراقبته هلعة ، وهي ترتعد من الخوف ارتعاداً شديداً . نام وقد أغمض عينيه نصف اغماضة ، وكانت مقلتاهما الصفراوان الجاحظتان تلتمعان بشكل محموم تحت الأجفان .

قالت له في الصباح :

ـ أترك هذا العمل! اذهب إلى الجبهة . انك لا تشبه أي شيء على الأرض يا ايليا . وسوف يهلكك هذا العمل .

فصرخ وعيناه تطرفان من الغيظ :

ـ اخرسي!

ـ لا تصرخ ، هل أسأت اليك ؟

فلزم الصمت في الحال ، وكأن صرخته قد أطلقت هياجه المتجمع في

صدره . ثم نظر إلى راحتيه بقلق ، وقال :

ـ القضاء على قذارة الانسانية عمل قذر هو الآخر . واطلاق النار على الناس يكرب الصحة والروح . اللعنة عليها جميعاً... ـ وجعل يلعن لأول مرة أمامها بما يصعب وصفه . ـ ان المخابيل والوحوش والمتعصبين وحدهم هم الذي يتطوعون لمثل هذا العمل القذر . أليس كذلك ؟ كلنا نريد الحياة في جنينة . ولكن اللعنة عليها جميعاً! فقبل أن تزرع الورود والأشجار يجب أن تزاح القذارة . ويجب أن تسمد الأرض! ولابد أن تتسخ يداك! ـ ورفع صوته رغم أن آنا قد ابتعدت عنه ببطء . ـ يجب أن يقضى على القذارة ، ومع هذا فالناس يقرفون من هذا العمل! ـ كان يصرخ ويرعد على الطاولة بقبضته ويطرف بعينيه المتأججتين .

فألقت أم آنا نظرة داخل الغرفة ، فثاب إلى رشده وجعل يتكلم بهدوء :

ـ لن أترك هذا العمل! أنا أدرك ، وعلى ثقة من أنني أقدم خدمة هنا . لسوف أجرف القذارة ، وسوف أسمد الأرض بالروث ، كيما تزداد خصوبة... أجل ، خصوبة . ولسوف يمشي ناس سعداء على هذه الأرض يوما ما... وربما سيمشي عليها ابني الذي لم أنجبه بعد! ـ وأطلق ضحكة صارة جوفاء . ـ لكم قتلت من هذه الأفاعي ، هذا القراد! ان القرادة حشرة تنهش في الجسد . قتلت حوالي عشر منها بهاتين اليدين... ـ ومد يديه الطويلتي الأصابع ، السوداويتي الشعر المعقوفتين كمخلبي نسر ثم أسقطهما على ركبتيه وقال بصوت مهموس : ـ إلى الجحيم! سوف أذهب إلى الجبهة... أنت على حق...

فقالت بهدوء :

ـ نعم ، اذهب إلى الجبهة أو اتخذ لك عملاً آخر . افعل ذلك يا ايليا ، والا... فسوف تفقد صوابك .

أدار لها ظهره وجعل ينقر على النافذة .

ـ كلا... أنا قوي بما فيه الكفاية . ولكن لا تحسبي أن هناك رجالاً قدّوا

من حديد . لقد جبلنا من طينة واحدة . ولا يوجد انسان في واقع الحياة مجرد من الخوف في المعارك ، ليس هناك انسان يستطيع أن يقتل أناساً دونما احساس... دون أن يتألم معنوياً . أمّا أنا فلا أتوجع للضباط . فهم واعون طبقياً ، مثلك ومثلي . ولكن كان عليَّ البارحة أن أقتل ، من بين التسعة الذين قتلتهم ، ثلاثة قوازق... ثلاثة كادحين . وعندما شرعت أفك وثاق أحدهم... - واستحال صوته أجوف غير واضح ، لكأنه كان يبتعد رويداً رويداً ، - لمست يده عفواً ، فالفيتها صلبة مثل كتاب مجلد مطلي بالصمغ . راحة سوداء ، كلها شقوق وكدمات... حسناً ، يجب أن أذهب . - وقطع حديثه بغلظة ، واستدار ليتحاشى عيني آنا ، وجعل يحك جوزة عنقه التي أحس وكأنها تشد بأنشوطة من ذيل الحصان .

ارتدى جزمته ، وشرب قدحاً من الحليب وخرج . وفي المجاز لحقت به آنا . وقفت وأمسكت بيده الثقيلة ، ثم ضغطتها على خدها الملتهب وجرت إلى الفناء .

* * *

ازداد الطقس دفئاً . وجاء الربيع يطرق أراضي الدون . وفي بواكير نيسان بدأت مفارز من الحرس الأحمر الأوكراني تتوافد على روستوف يطاردها الهيداماك* والألمان . ووقعت في المدينة حوادث اغتيال ونهب ، وتجاوزات غير مشروعة . وقد اضطرت اللجنة الثورية إلى نزع السلاح عن بعض وحدات متفسخة كلياً . ولم يكن ذلك ليتم دونما مشاحنات وتبادل اطلاق النار . أمّا القوزاق المقيمون حول نوفوتشيركاسك فقد بدؤوا يتململون . وكما تشب براعم الحور في آذار ، شبت الصدامات في القرى بين القوزاق والغرباء ، وقامت التمردات هنا وهناك ، ووضعت اليد على مؤامرات معادية للثورة .

* قوات أوكرانية قومية . المترجمون

ولكن روستوف ظلت تحيا حياة ناشطة بنبض الدم في عروقها . كان الجنود والبحارة والعمال يتنزهون جيئة وذهاباً في الشارع الرئيسي في الأماسي . وكانوا يعقدون الاجتماعات ، ويقشرون بذور عباد الشمس ، ويبصقون على الأرصفة الندية ، ويغازلون النساء ، وكانوا كالسابق يعملون ، ويأكلون ، ويشربون ، ويهجعون ، ويموتون ، وينسلون ، ويتعاطون الحب ، ويحقدون ، ويتنسمون نسيم البحر المالح ، ويعيشون في خضم من العواطف النبيلة والتافهة . ولكن أيام النحس كانت تقترب من روستوف . وكان الهواء مشحوناً بشميم الأرض السوداء بعد ذوبان الجليد ودماء المعارك الوشيكة .

ذات يوم مشمس لطيف عاد بونتشوك إلى البيت مبكراً على غير عادته ، وقد أدهشه وجود آنا قبله .

ـ ولكنك تتأخرين دائماً فلماذا بكّرت اليوم ؟

ـ ليست صحتي على ما يرام . تبعته إلى غرفته . وخلع ملابسه الخارجية ، وقال بإبتسامة شابها السرور :

ـ آنا لن أعمل في المحكمة بعد اليوم .

ـ ماذا ؟ أين ستذهب ؟

ـ إلى اللجنة الثورية . لقد تحدثت اليوم مع كريفو شيليكوف . وقد وعد بإيفادي إلى مكان ما في المنطقة .

ثم تناولا عشاءهما سويّة وبعد ذلك استلقى لينام . ولكنه لبث وقتاً طويلاً لا يستطيع النوم من شدّة اضطرابه ، وظل راقداً يدخّن ، ويتقلّب على الفراش الخشن ، ويتأوه بسرور ، لقد تنفّس الصعداء لتركه المحكمة ، فقد شعر أنّه لن يمضي طويل وقت حتى تنهدَ أعصابه . وكان قد انتهى من سيكارته الرابعة عندما تناهى إلى سمعه صرير الباب الخفيض . ولمّا رفع رأسه رأى آنا فمرقت عبر عتبة الباب حافية القدمين لا يسترها سوى قميصها الداخلي ، واقتربت من فراشه بهدوء . ومن خصاص صفاقة النافذة سقط ضوء القمر الأخضر الضبابي على كتفها العاري .

انحنت فوقه ووضعت يداً دافئة على شفتيه .

تزحزح بهدوء...

واستلقت بجانبه .

ودفعت إلى الوراء بنفاذ صبر خصلة من شعرها بثقل العنقود ، كانت قد تدلّت على جبينها وتوهجت عيناها بنار زرقاء وهمست بصوت قاسٍ معذّب :

ـ سوف أحرم منك عاجلاً أم أجلاً... أريد أن أحبّك بكل جوارحي ، وارتعدت بشدّة من كلامها :

حسناً ، عجّل!

فقبلها بونتشوك ، ولكن بهلع ، واستبد به حياء طغى على شعوره الواعي ، فقد أدرك أنه عاجز . وجعل رأسه يهتز ووجنتاه تصطليان عذاباً . وبعد ذلك فكّت آنا نفسها وأبعدته عنها مغضبة . وبنفور واشمئزاز في صوتها تساءلت بهمس بادي الإزدراء : ألا تستطيع ؟... عليل ؟ أه ، يا للشناعة!... اتركني لوحدي!

فعصر أصابعها بقوّة ترضرضت بعض الشيء من شدتها ، وحدق في العتمة الضبابية لعينيها المتسعتين الضبابيتين ، وتساءل متلعثماً ، ورأسه يهتز في حركة مفلوجة :

لماذا ؟لماذا تدينينني ؟ أجل ، أحرقت نفسي حتى صرت رماداً!... أنا لاأقوى حتى على هذا الشيء في الوقت الحاضر . أنا لست عليلاً... هل تفهمين... جربي أن تفهمي! لقد استنزفت حتى القعر...

وأطلق أنيناً خفيضاً وقفز من السرير ثم أشعل سيكارة . ووقف أمام النافذة وقتاً طويلاً مهدلاً كتفيه...

نهضت آنا وطوقته بهدوء ثم قبلته على حاجبه برفق كما تفعل الأمهات .

وبعد اسبوع ، اعترفت آنا وهي تخفي وجهها الملتهب تحت إبطه :

ــ ظننت... أنك كنت... مع غيري... ولم أدرك أن العمل قد استنزفك إلى هذا الحد .

منذ ذلك الحين ما عاد بوتتشوك يشعر بتدليل امرأة محبّة فحسب ، بل بعناية دافئة دفاقة توليها إياه أم رؤوم . ولم يوفد إلى الريف . فقد أصرّ بوتيليكوف على بقائه في روستوف . وكانت لجنة الدون الثورية تفور نشاطاً ، واستعداداً لعقد مؤتمر سوفييتات اقليمي وفي كفاحها ضد ثورة الردة التي ذر قرنها في منطقة الدون .

٢١

كانت الضفادع ترسل نقيقها وراء الصفصاف النابت على شاطئ النهر... والشمس تغرب خلف تلة وطيئة ، وكانت قرية سيبيتراكوف تتلفع ببرودة المساء . وعلى الطريق الترابي امتدت الظلال المائلة للبيوت ، وكانت ماشية القرية تتهادى قادمة من السهب ، تستحثها النساء القوزاقيات ، ويتبادلن القيل والقال أثناء سيرهن . وكان الأطفال الحفاة وقد لفحتهم الشمس ، يلعبون لعبة الدباخ* في الأزقة . وجلس الشيوخ من الرجال بوقارهم على الدكات أمام البيوت .

كانت القرية قد فرغت من بذار الربيع خلا أماكن هنا وهناك كانوا يبذرونها ذرة وعباد الشمس .

كان فريق من القوزاق جالسين على كومة من جذوع البلوط قرب أحد المنازل في ضاحية القرية . وكان رب البيت ، وهو جندي مدفعي مجدور ، يروي حادثة عن الحرب الألمانية . وكان مستمعاه ، وهما جار عجوز وصهره ، قوزاقي شاب متجعد الشعر ، ينصتان اليه بصمت . وقدمت زوجة المدفعي ، وهي امرأة حسناء طويلة القامة ، مكتنزة ، هابطة الدرجات . كان كما قميصها

* وهي لعبة (السنبيلة) كما تسمى في بغداد ، حيث يطأطىء اللاعب فيها رأسه ليقفز من فوقه الآخرون . المترجمون

الوردي المحشور في تنورتها ، قد طويا حتى المرفقين وكشفا عن ذراعيها السمراوين الجميلتين . ومضت وهي تحمل وعاء إلى الحظيرة بخطوات طليقة جريئة رشيقة تتميز بها القوزاقيات . وكان شعرها قد أفلت من عصابتها البيضاء الضاربة إلى الزرقة ، (لقد فرغت لتوها من اعداد الموقد لتشعله في الصباح) وكان صندلها الذي انتعلته قدماها العاريتان يصطفق ، أثناء وطئها الرقيق على الحشيش الفتي الذي يغطي الفناء .

وتناهى إلى مسامع القوزاق صوت الحليب الرنّان يشخب في الوعاء . وإذا فرغت المرأة من الحلب ، انحنت إلى الأمام قليلاً ويدها اليسرى مقوسة إلى الأعلى مثل عنق أوزة وحملت الوعاء المليء بالحليب وعادت به إلى المنزل ونادت من على الدرجات :

ـ يحسن بك ياسيميون أن تذهب وتبحث عن العجل .

فأجابها زوجها :

ـ وأين هو ميتكا ؟

الشيطان يدري ، لقد انسل إلى مكان ما .

ونهض القوزاقي متباطئاً وذهب إلى منعطف الشارع . ونهض العجوز وصهره أيضاً ليذهبا إلى بيتهما . بيد أن القوزاقي ناداهما من المنعطف :

ـ انظر يا دوروفي غافرايليتش! تعال إلى هنا!

فذهب الرجلان شطر القوزاقي ، الذي أشار بصمت إلى السهب . كان ثمة طابور من المشاة ، وخيالة ، وعربات تتقدم وسط مثار من النقع الأحمر طوال الطريق .

فضيق العجوز حدقتي عينية منذهلاً ووضع كفه فوق حاجبيه الأبيضين وقال :

ـ يبدو أنهم جنود .

فقال القوزاقي وفي صوته نبرة خفيفة :

ـ من عساهم يكونون ؟

وقدمت زوجته من بوابة الفناء وقد ألقت سترتها على كتفيها . وتطلعت إلى السهب فشهقت بقلق :

ـ من هم ؟ رحماك يارب ، ماأكثرهم!

ـ مجيئهم لايبشر بخير ، . هذا أكيد...ومضى العجوز إلى الفناء ونادى صهره بصوت غاضب :

ـ ادخل إلى الفناء ، لاحاجة للوقوف والتطلع!

وهرعت النسوة والأطفال إلى المنعطف تتبعهم جماعات من القوزاق . وانعطف طابور الجند في الطريق عبر السهب حوالي الفرسخ من القرية وحملت الريح أصواتهم وزنخرة خيلهم ، وجلبة العربات .

قالت زوجة المدفعي لزوجها :

ـ إنهم ليسوا قوزاقاً ، ليسوا منا .

فهز كتفيه :

ـ بالطبع ليسوا قوزاقاً وربما كانوا ألماناً ؟ كلا ، إنهم روس ، انظري ، بوسعك أن تري علمهم الأحمر... هكذا إذاً... واقترب قوزاقي طويل . كان يبدو عليه أنه مصاب بالملاريا ، فقد أصفر بلون الومل ، وقد تلفع بفروة وارتدى جزمة من اللباد ، رفع قبعته الفرو الشعثاء وقال :

ـ هل ترون ذلك العلم ؟ إنهم بلاشفة .

ـ أجل إنهم لكذلك .

وانطلق عدة فرسان من الطابور يذهبون باتجاه القرية . وتبادل القوزاق النظرات وأخذوا ينحسرون بهدوء ، وتفرق الأطفال والصبايا كل إلى حال سبيله ، ولم تمض بضع دقائق حت خلا الشارع . وجرى الفرسان إلى القرية وصاروا عند البلوط حيث كان يجلس القوزاق الثلاثة قبل بضع دقائق . كان المدفعي واقفاً عند بوابة فنائه . فتقدم نحوه قائد الفرسان مرتدياً قبعة كوبانية ومتخصراً بوشاح قرمزي كبير من الحرير حول قمصلته الخاكية المحزمة وهو يمتطي فرساً فحماء .

ـ مرحباً أيها القوزاقي افتح البوابة!

فشحب القوزاقي ورفع قبعته :

ـ ومن عساك تكون ؟

فصاح الجندي

ـ افتح البوابة!...

وجعلت الفرس ترفس في السياج المصنوع من الأغصان بقادمتيها ، وهي تعضعض اللجام وقد نمّت عيناها عن نظرة خبيثة . وفتح القوزاقي فتحة البوابة ، فدخل الفرسان واحداً في إثر واحد على صهوات جيادهم وقفز قائدهم وهو الذي كانت قبعة كوبانية على رأسه من على سرجه بخفة وخطا نحو الدرجات . وجلس عليها قبل أن يترجل الآخرون ، ثم أشعل سيجارة وقدم علبته للوزاقي فرفض الرجل .

ـ ألا تدخن ؟

ـ كلا ، شكراً .

أنتم لستم من طائفة المؤمنين القدامى ؟

ـ كلا ، نحن أرثذوكس . وماعساكم تكونون ؟

ـ من نحن ؟ الحرس الأحمر التابع للجيش الاشتراكي الثاني .

وتقدم بقية الفرسان نحو الدرجات وهم يقودون جيادهم . وربطوها إلى الحظار* . ومضى أحدهم إلى زريبة الخراف ، وهو رجل طويل تدلى شعره المتسخ مثل عرف الحصان على حاجبه . وفتح البوابة كأنه رب الدار ، وانحنى إلى الأسفل وجعل يبحث في أرجاء الزريبة ، فجرّ خروفاً كبيراً من قرنيه وصاح بصوت عال مصطنع :

ـ تعال يابيوتر وساعدني .

وهرع إلى مساعدته جندي يرتدي جلداً نمساوياً . فجفل رب الدار

---

* سياج الحظيرة . المترجمون

القوزاقي يمسد لحيته ويتطلع حواليه وكأنه ليس في بيته ولم ينبس ببنت شفة ، إنما راح يحمحم ودخل المنزل صاعداً الدرجات ، فيما طوى الخروف ساقيه الرفيعتين بعد أن نحرت رقبته بسيف .

ومضى في أثره الجندي ذو القبعة الكوبانية وآخران أحدهما صيني والآخر روسي إلى المطبخ وصاح القائد بلامبالاة وهو يجتاز العتبة :

ـ لا تغضب يا مالك ، فسوف ندفع لك نقوداً كثيرة .

وصفق يده على جيب بنطاله وقهقه عالياً . ولكن قهقهته جمدت في الحال عندما وقع بصره على زوجة القوزاقي . كانت واقفة أمام الموقد ، ترمقه بعينين مرتعبتين ، وقد زمّت على أسنانها .

فالتفت إلى الصيني وقال له وعيناه تحومان حول المطبخ بقلق :

ـ اذهب أنت مع هذا الرجل ، ـ وأشار إلى القوزاقي . ـ اذهب معه ، فسوف يعطيك تبناً للجياد . اعطنا بعض التبن ، ـ والتفت إلى القوزاقي وقال : ـ سوف ندفع نقوداً كثيرة مقابل ذلك . ان الحرس الأحمر لا يستلب أحداً البتة . اذهب ، أيها القوزاقي ، اذهب! ـ قال ذلك بصوت ذي رنّة فولاذية .

وخرج القوزاقي من المنزل وهو يسترق النظر من فوق كتفه ، وبصحبته الصيني والجندي الآخر . وعندما شرع يهبط الدرجات سمع زوجته تنادي بصوت ناشج . فجرى عائداً نحو المجاز وارتمى على الباب ، وانفتح المزلاج بيسر . كان الجندي قد أمسك بذراع المرأة فوق مرفقها العاري وجعل يجرها إلى الغرفة الأمامية التي هبط منها نور الغسق . وكانت تقاومه وتدفع صدره بيديها ، وكان على وشك أن يضع ذراعيه حول خصرها ويحملها ، غير أن الباب فتح في تلك اللحظة . فهرع القوزاقي عبر المطبخ ووضع نفسه أمام زوجته . وقال بصوت جاف وخفيض :

ـ جئت إلى بيتي زائراً... فعلام تتعرض لزوجتي ؟

أتركها . أنا لا أخاف بنادقكم . خذوا أي شيء تبغون ، اسرقوا كل شيء ، ولكن لا تمسّوا زوجتي . ولن تفسق مع زوجتي وأنا على قيد الحياة .

وأنت ، يانيورا... ـ والتفت إلى زوجته ومنخراه يرتعشان : ـ اذهبي إلى بيت العم دوروفي . فلا معنى لبقائك هنا .

فابتسم الجندي ابتسامة شوهاء وهو يصلح وضع السير على قميصه :

إنك تنزعج بسرعة أيها القوزاقي ، إلى حد أنك لاتدع امرءاً يمزح قليلاً ، فأنا أحب المزاح ، وسريتي كلها تعرف مزاجي... وقد فعلت ذلك عمداً ، فقد قلت في نفسي :

«لأجالس المرأة» ، ولكنها شرعت بالعياط ، ألا تدعنا نأخذ بعض التبن ؟لايوجد ؟ حسناً . هل لدى جارك شيء منه ؟

وخرج يصفر ويلوح بسوطه بشدة . وبعد ذلك بقليل دخلت الوحدة بكاملها القرية . كان تعدادها حوالي ثمانمائة حربة وسيف . وقد أعد الحرس الأحمر العدة ليبيت الليلة خارج القرية . فقد كان جلياً أن الآمر لم يكن ليأتمن جنوده الشذاذ والمتسيبين إذا قضوا الليلة في القرية .

كانت وحدة تيراسبول التابعة للجيش الاشتراكي الثاني قد هزتها المعارك التي خاضتها ضد الهيداماك وضد جيش الاحتلال الألماني الذي كان يتحرك عبر أوكرانيا ، فشقت طريقها القهقرى إلى الدون ، وإذ تخلت عن طريق السكك الحديد ، حاولت أن تأخذ طريقها المنعطف إلى فورونيج في الشمال سيراً على الأقدام لأن الألمان قد استقروا هناك قبلهم ، وقد ازداد تهور الحرس الأحمر أثناء ذلك ، تشجعهم العناصر الاجرامية التي تكاثرت في صفوفهم .

وفي تلك الليلة ، تدفقوا زرافات على القرية ، رغم أوامر ووعيد قيادتهم ، وذبحوا الخراف ، واغتصبوا امرأتين قوزاقيتين في الضواحي ، وراحوا يطلقون النار في الساحة دونما مبرر ، فجرح أحد من جنودهم . وفي الليل شربوا من الكحول الذي كانوا يحملونه معهم ، على كل عربة .

وأثناء ذلك أرسل ثلاثة قوزاق على الخيل من أهل القرية ليستنفروا القرى المجاورة .

فأسرج القوزاق جيادهم في عتمة الليل ، وحملوا سلاحهم ، وجمعوا

بسرعة مفارز من قوزاقي خط الجبهة دون أن يستثنوا الكهول .

وهرعوا إلى سيتراكوف تحت قيادة ضباط وحتى رؤوساء عرفاء من أهالي القرى ، وأحاطوا بالحرس الأحمر مختبئين في الوهاد أو خلف المرتفعات . كما توافدات خلال الليل جماعات من الرجال من سائر أنحاء القرى المتاخمة .

وتلاشت نجوم الثريا في السماء . وفي الفجر انهدت سيول من فرسان القوزاق بزئيرها على الحرس الأحمر من كل جانب . ولعلع رشاش ، ثم تلاشى صوته ، ثم انطلق ينفث ناراً وحشية على غير ما اتفاق من جديد . ثم ما لبث أن عاد إلى هدأته ، وجرى بعد ذلك طعان عن قرب .

ولم تمض ساعة من الزمن حتى قضي الأمر ، فقد هزمت الوحدة شر هزيمة ، وقتل أكثر من مائتين ، وأسر حوالي خمسمائة .

ووقعت في أيدي القوزاق بطاريتان تتألف كل منهما من أربعة مدافع ، وستة وعشرين رشاشاً ، وآلاف البنادق وكميات كبيرة من المعدات العسكرية .

وفي اليوم التالي انطلق الرسل على خيلهم يحملون الرايات الحمر في كل مكان ، وراحت القرى تمور بالحركة ، وطردت مجالس السوفييات شر طردة ، وسرعان ما انتخب الأتمانات . ولم يحل شهر أيار حتى انفصلت المناطق العليا من اقليم الدون كلياً عن اللجنة الثورية . واختيرت فيشينسكايا الآهلة بالسكان مركزاً للمنطقة الجديدة التي سميت «بالدون الأعلى» ، . وشرعت منطقة الدون الأعلى التي تضم اثنتي عشرة منطقة قوزاقية ومنطقة أوكرانية ، تحيا حياتها المستقلة ، بمعزل عن المركز الرئيسي لاقليم الدون . وانتخب في الحال قوزاقي من منطقة يلانسكايا ، وهو جنرال يدعى زاخار أكيموفيتش ألفيوروف ، أتماناً للمنطقة . وقد قيل أنه كان قد شق طريقه من ضابط قوزاقي عسير الحال إلى مرتبة الجنرالية بفضل زوجته ليس إلا ، وهي امرأة ذكية نشطة . كما قيل أنها كانت تجر بعلها غير الموهوب من أذنيه ولم

تكن تدعه يحيا في سلام إلا عندما دخل الأكاديمية العسكرية إثر ثلاث محاولات فاشلة .

ولئن كان ألفيوروف مثار حديث ما في تلك الأيام ، فلم يجر ذلك على نطاق واسع . ذلك أن أذهان القوزاق كانت منشغلة بأشياء أخرى .

٢٢

كانت مياه الفيضان آخذة بالانحسار من الحقول . وبدت الأرض السمراء عند أسيجة الحدائق جرداء تحف بها أعواد القصب اليابس ، والأغصان ، والأوراق الميتة التي خلفها الفيضان . وأخذ الصفصاف المنفوش عند أجمات شاطئ الدون التي اكتسحها الفيضان يخضوضر ، وتتدلى الأزهار على شكل أقراط في أطراف الغصون .

وأوشكت براعم أشجار الحور أن تتفتق . وفي أفنية حقول القرية تدلت عساليج الصفصاف الأراجواني خفيضة فوق الغدران ، وبراعمها الصفر تغتسل في الماء الذي تعابثه الريح ، كالزغب الذي يعلو فراخ البط . وعند الفجر تقترب أسراب الأوز في سباحتها من الأسيجة بحثاً عن الطعام ، يبطبط الغطاس* ذو الصوت النحاسي في المياه المتخلفة . وعند الظهيرة تعابث أمواج الدون التي يدفعها الريح البط البري الأبيض .

وشهدت تلك السنة مرور أعداد غفيره من الطيور . وكان الصيادون القوزاق يشاهدون على غير ماألفوه طائر البجع البري مستريحاً في غياض الغابات ، وهم يمضون بزوارقهم إلى شباكهم في الفجر ساعة تصبغ حمرة الغسق الخمرية الماء بنجيعها . بيد أن الأخبار التي عاد بها خريسونيا وماتفي كاشولين إلى القرية كانت تفوق كل الغرائب . فقد ذهبا إلى غابة الحكومة

---

* طائر كالبط . المترجمون

بالعربة لينتقيا زوجاً من شتل البلوط لأغراض الزراعة ، وحينما كانا يشقان طريقهما خلل أجمة ، أفزعا معزى برية وجديها الصغير . فقفزت المعزى العجفاء البنية الحائلة إلى صفار من وهدة غطاها نبات الشوك والحسك* ووقفت تحدق فيهما بضع لحظات ، وأرجلها الرشيقة ترقص بارتباك ، وجديها ملتحق بها . وإذ تناهت اليها شهقة خريستونيا المستغربة ، مرقت خلل شتلات البلوط بسرعة ووجد القوزاقيان صعوبة في أن يلمحا حوافرها الزرقاء وذنبها البني بلون وبر الجمال .

فتساءل ماتفي كاشولين وقد ترك الفأس تسقط منه من شدة دهشته :

ـ ماذا كان ذلك ؟

فأطلق خريستونيا صوته في الغابة التي يلفّها سكون ساحر ، وقد تملكه سرور لايوصف :

ـ لابد أنها معزى . معزى برية! شاهدت أمثالها في جبال الكربات .

ـ إذاً لابد أن الحرب قد ساقتها إلى سهوبنا .

ولم يكن من خريستونيا إلا أن يوافقه قائلاً :

ـ لابد أن هذا هو السبب . ثم ألَمْ تر الجدي معها ؟ مشهد جميل ، اللعنة عليه! كأنه طفل مع أمه!

وظلا طوال طريقهما إلى القرية يتحدثان عن هذا الزائر العجيب الذي طرأ على المنطقة . وأخذت الوساوس تساور ذهن ماتفي العجوز :

ـ ولكن أين قرونها لوكانت معزى ؟

ـ وماحاجتك إلى القرون ؟

ـ لاحاجة إلى القرون! للسؤال فقط : إن كانت معزى فلماذا لم تبد كالمعزى ؟ هل شاهدت في حياتك معزى دونما قرون ؟ تلك هي الحكاية . لعلها كانت ضرباً من النعاج البرية .

---

* الحسك : هو نبات شائك . المترجمون

فتصدى له خريستونيا قائلاً :

ـ تخطيت زمانك أيها العجوز! اذهب إلى آل ميليخوف ، لفتاهم غريغوري سوط مصنوع من ساق معزى ، وحينذاك ستصدق ماأقول ؟

وعمد ماتفي العجوز بالفعل إلى زيارة آل ميليخوف في اليوم نفسه . لقد كانت عصا سوط غريغوري حقاً مغطاة بجلد ساق معزى برية ، وقد بقي حتى الحافر الدقيق في طرفها ، منعلاً بشكل حاذق بنعل نحاسي .

وفي يوم الأربعاء من الأسبوع الأخير لعيد الصيام الكبير ، خرج ميشا كوشيفوي باكراً في الصباح ليتفحص الشباك التي وضعها في النهر قرب الغابة . وقد غادر المنزل قبل الفجر . وكان زمهرير الصباح قد لسع الأرض فغطاها بقشرة رقيقة من الجمد ، راح يخشخش تحت قدميه . سار مشيا وعلى كتفه مجذاف كبير ، وقد انزاحت قبعته إلى مؤخرة رأسه ، ودس سرواله في جوربيه الصوفيين الأبيضين ، وهو يتنشق هواء الصباح المسكر وشذى الرطوبة الثقيلة . ودفع زورقه وجعل يجذف بسرعة ، ووقف يشد على المجذاف بقوة ، فنقب في شباكه ، والتقط السمك من الشبكة الأخيرة ، ثم ألقى بها إلى الماء ثانية ، وطاب له أن يدخن وهو يجذف على مهل في طريق عودته . كانت السماء تتشرب بحمرة الغسق ، فيما لاحت من ناحية الشرق بزرقتها الضبابية وكان أسفلها قد رش بالنجيع .

وطفحت الحمرة فوق الأفق واستحالت لوناً عسجدياً صدئاً ، وراقب ميشا وهو يشعل سيجارته ، طيراناً بطيئاً لطائر غطاس ، وانضفر الدخان وانعقد حول أغصان الشجر ، ثم مالبث أن انساب كتلاً كالغمام . وتفحص صيده ـ ثلاث سمكات صغيرة ، وشبّوطاً يزن حوالي ثمانية باونات ، وكومة من أحراش السمك ـ وقال في دخيلته :

« يجب أن أبيع بعضاً منه . ستبادله لوكشكا الحولاء بشيء من الكمثرى المجففة . وأمي ستطهيه » .

وجذف وهو يدخن حتى بلغ المرسى . فألفى رجلاً جالساً عند سور

البستان الذي ترك القارب أمامه . وتساءل من عساه يكون حينما كان يجذف بالقارب جذفاً قوياً متساوقاً . وحينما اقترب قليلاً ألفى أنه الولد ، جالساً القرفصاء على عجيزته ويدخن سيكارة هائلة لفت من ورق الجرائد ، والتمعت عيناه الصغيرتان الماكرتان وسناً ، ونما على وجنتيه دغل مربد من الشعر .

ناداه ميشا صائحاً : ـ ماذا تريد ؟ ـ وتواثب صوته فوق الماء مثل الكرة .

ـ اقترب .

ـ هل تريد بعض السمك ؟

ـ ماحاجتي بالسمك ؟

واهتز الولد بنوبة من السعال ، وراح يبصق بعنف ، ثم استوى واقفاً على مضض . فتهدل معطفه الذي لايناسبه مثل سترة على فزاعة* . وكانت أذناه الغضروفيتان الحادتان تغطيهما طيتا قبعته العاليتان . ولم يكن قد عاد إلى القرية الا حديثاً ، تصحبه شائعة تفيد أنه كان في الحرس الأحمر . فقد سأله القوزاق أين كان مذ سرح ، غير أن الولد كان يراوغ في اجابته ، متحاشياً الأسئلة الخطيرة . وقد اعترف لايفان اليكسييفتش وميشا كوشيفوي أنه قضى أربعة أشهر في مفرزة من الحرس الأحمر في أوكرانيا ، وقد أسرته القوات الأوكرانية القومية ، وهرب ثم التحق بالجيش الأحمر قرب روستوف ، أما الآن فقد منح نفسه إجازة ليستريح ويستعيد قواه .

رفع الولد قبعته ، ومسد شعره الخشن ، وتلفت حواليه ، ثم تقدم من الزورق ودمدم قائلاً :

ـ هناك أمور سيئة تجري في البلد... سيئة جداً! اترك صيد السمك! وإلا فسوف نظل نصيد ونصيد وننسى كل شيء آخر .

ـ ماذا عندك من أخبار ؟ قل لي! ـ تساءل ميشا وهو يشد على يد الولد

---

* الفزاعة أو الخراعة باللهجة العراقية ، أي الدمية التي توضع في الحقل لصد الطيور . المترجمون

بقبضته الزفرة ويبتسم بابتسامة حارة ، فقد كانا صديقين حميمين منذ زمن طويل .

ـ يوم أمس حُطم الحرس الأحمر قرب ميكولنسكايا . بدأ القتال شديداً ، أيها الأخ! الريش يتطاير!...

ـ أي حرس أحمر ؟ كيف بلغوا ميكولنسكايا ؟

ـ كانوا مارين بالمنطقة ، فانقض عليهم القوزاق وساقوا الأسرى الكثيرين إلى كارغين . وسرعان ماأقاموا محكمة عسكرية هناك . واليوم سيجندون كل شخص في تاتارسكي . لابدّ أنهم سيقرعون الناقوس هذا الصباح .

وربط كوشيفوي قاربه ، وأفرغ السمك في سلة ، ثم مضى يسير بخطوات واسعة ، ودرج الولد يهبع أمامه مثل مهر صغير ، وأذيال سترته تتطاير ، وذراعاه يتأرجحان .

ـ أخبرني بذلك ايفان اليكسييفيتش . أعفاني من العمل لتوه ، فقد كانت الطاحونة تعمل طوال الليل . لقد التقط الخبر من فم الرسول . جاء ضابط من فيشنسكايا وحل عند آل موخوف .

فلاحت على وجه ميشا الذي أنضجته وأذبلته سنوات الحرب ، ملامح القلق . ورمق الولد مخاوصاً عينيه :

ـ والآن ماذا سيحدث ؟

ـ يجب أن نهجر القرية .

ـ إلى أين ؟

ـ إلى كامنسكايا .

ـ ولكن القوارق البيض هناك .

ـ اذن نمضي أبعدا منها يساراً .

ـ وكيف نصل إلى هناك ؟

ـ يمكن تدبير ذلك إذا أردت ، وإلا ، فابق حيث سيتشمّمك الشيطان

في كل مكان تأوي اليه! ـ ثم زمجر الولد فجأة وأردف : ـ « إلى أين »! كيف لي أن أعرف ؟ تلفت حواليك قليلاً وسوف تجد جحراً يأويك .

ـ لاتصرخ! هل تعرف ماهو قدر العصبيين مثلك ؟ ماذا يقول ايفان ؟

ـ لاتستطيع أن تزحزح صاحبك ايفان...

ـ لاتصرخ! فهناك امرأة تعاين .

وتطلعا بحذر إلى امرأة شابة تسوق بقرات خارج فناء أحد الدور . ثم استدار ميشا على عقبيه في أول ملتقى طريق . فسأله الولد مستغرباً :

ـ أين تراك ذاهباً ؟

فدمدم ميشا دون أن يلتفت إلى الوراء :

ـ إني ذاهب لأخرج شباكي

ـ لماذا ؟

ـ لاأريد أن أفقدها .

ـ فقال الولد بسرور :

ـ اذن فسوف نذهب ؟

ولوح ميشا بمجذافه وقال وهو يبتعد :

ـ اذهب إلى ايفان اليكسييفتش ، أما أنا فسوف آخذ شبكي إلى البيت ثم التحق بكم .

كان ايفان اليكسييفتش قد استطاع بالفعل أن يبلغ القوزاق الميالين إلى جانبه بالخبر . وأرسل ابنه الصغير إلى آل ميليخوف ، فعاد معه غريغوري ، وحضر خريستونيا دون أن يبلغ ، كأنما كان لديه هاجس لتكهن الأمور . والتحق بهم كوشيفوي بعد قليل ، وشرعوا يتدارسون الموقف . كانوا يتكلمون جميعاً في وقت واحد ، وبعجالة ، متوقعين كل لحظة أن يطرق سمعهم ناقوس للخطر .

فحثهم الولد قائلاً بانفعال :

ـ يجب أن نرحل في الحال . نحزم حاجياتنا ونذهب ، فحاججه

خريستونيا قائلاً :

ـ قدّم لي الأسباب .

ـ أي أسباب ؟ وإذا قاموا بالتجنيد ؟ لماذا تعتقد أنك ستنجو منه ؟

ـ لن أذهب ، وهذا كلمافي الأمر...

ـ سوف يأخذونك!

ـ فليجربوا! أنا لست ثور حراثة .

فأرسل ايفان اليكسييفتش زوجته الحولاء خارج الدار ، ثم زنخر مغضباً :

ـ سوف يأخذونك ، الولد على صواب . لكن إلى أين تذهب ؟ تلك هي المسألة .

فقال ميشا متحسراً :

ـ ذلك هو ماسبق وأن قلته له .

فنبّ الولد قائلاً :

ـ حسناً ، افعل حسبما تشاء ، هل تعتقد أن لي حاجة بكم ؟ سوف أرحل بمفردي . فأنا لا أريد جبناء معي . «نعم ، ولكن لماذا ؟!» و «نعم ، ولكن إلى أين!» . سيلقنونكم درساً حامياً ويلقون بكم في السجن بتهمة البلشفية . كيف يمكنكم أن تقضوا الوقت مازحين ، وفي مثل هذه الأوقات ؟ سيذهب كل شيء إلى الشيطان!

فقاطعه غريغوري ميليخوف قائلاً ببرودة وهو يقلب في يديه بتأمل وغضب مكتوم مسماراً صدئاً انتزعه من الحائط :

ـ على مهلك! إن وضعك مختلف ، اذ ليس لديك هنا ما يشدّك ، وتستطيع أن تذهب أنّى تشاء! أمّا نحن فعلينا أن نتبصّر في الموضوع بتروّ ، ان لدي زوجة وطفلين صغيرين . وقد شممت من البارود أكثر مما تشم أنت طوال حياتك! ـ وضيّق عينيه السوداوين الغضوبين ، وكشّر عن أسنانه القوية ، وصاح :

ـ تستطيع أن تلجم لسانك ياتافة! ذاك هو أنت كشأنك دائماً . فلست

تملك الا ما عليك من أسمال...

فصرخ الولد :

ـ على من تزمجر ؟ وتتباهى بخلق الضباط! لا تصرخ! أنت لا تساوي عندي قلامة ظفر!

واستحال وجهه البارز الصغير من شدّة الغضب ، والتمعت عيناه الصغيرتان الصارمتان بحزن ، وبدا وكأن شعر خدّيه الأبلق يتحرك .

لقد صبّ عليه غريغوري الغضب الذي استبد به لدى سماعه نبأ الاصطدامات بين القوزاق والحرس الأحمر في المنطقة وأغضبته صرخة الولد إلى أقصى حد . وقفز كمن أصيب بضربة ، ووثب إلى حيث كان الولد يتململ على مقعده ، وهتف وهو يكبح رغبته في ضربه :

ـ اخرس ،أيها الثعبان الصغير! ياسافل ياحقير! يا جذمة الانسان ، على من تتأمّر ؟ اذهب حيث تسير بك عجيرتك . انقشع كيلا تبقى جيفتك هنا! واخرس وإلا فسوف ألقنك درساً تتذكرني به...

فتدخل كوشيفوي وقال وهو يدفع قبضة غريغوري عن أنف الولد :

ـ دعك من هذا يا غريغوري! فما هكذا يعالج الأمر!

ـ ينبغي أن تقلع عن هذه العادات القوزاقية! ألا تخجل ؟ عار عليك يا ميليخوف! عار عليك!

ونهض الولد ومضى صوب الباب وهو يسعل في ارتباك .

ولكنه لم يستطع أن يكبح جماع نفسه عند العتبة ، فالتفت إلى الوراء ، وسلّط لسانه على غريغوري الذي كان يبتسم بشراسة :

ـ وكان في الحرس الأحمر! أنت أيها الجندرمة! نحن أعدمنا رجالاً مثلك .

وعند ذاك لم يستطع غريغوري السيطرة على نفسه هو الآخر .

فقذف بالولد حتى سقيفة الباب وهو يسير على عقبي جزمته التالفة وصاح متوعداً :

ـ انقشع والا خلعت عنك ساقيك!

فهز ايفان اليكسييفتش رأسه استهجاناً وصوب نظرة عداء على غريغوري وقال :

ـ لا حاجة إلى كل هذا . أنتما تتصرفان كطفلين .

وظل ميشا صامتاً يعض شفتيه ، وهو ، كما يبدو ، يجاهد ليكتم الكلمات الغضوب التي كانت على طرف لسانه .

وحاول غريغوري أن يبرر تصرفه دون أن يخلو كلامه من الارتباك :

ـ لا يتكلف بما لا يعنيه... لماذا انجرف هذا الانجراف ؟ ـ فألقى خريسونيا عليه نظره ودّيه ، فاستجاب غريغوري لنظرته بابتسامة طفولية ساذجة وأضاف :

ـ كدت أن أضربه! ولكن من عساني أضرب ؟ ضربة واحدة ، ثم لا يبقى منه شيء!

ـ حسناً ، ماذا ترى ؟ يجب أن نتوصل إلى قرار .

فتململ ايفان اليكسييفتش ازاء النظرة الثابتة لميشا كوشيفوي الذي طرح السؤال ، ثم أجاب متمهلاً :

ـ حسناً ، يا ميخائيل ، ان غريغوري مصيب إلى حد ما . كيف نستطيع أن نأخذ حوائجنا ونهرب ؟ فإن لنا عوائلنا ويجب أن نفكّر بها . ولكن انتظروا لحظة ، ـ وراح يتكلم بسرعة عندما لمح ميثا يتململ : ـ من المحتمل ألا يقع شيء... من يدري ؟ فقد شتتوا الوحدة في سيتراكوف ، ولن تقدم أخريات . بوسعنا الانتظار قليلاً . لدي زوجة وطفل ، وملابسنا خلقة وليست لدينا ذرة طحين . فكيف أستطيع أن أذهب ؟ من سيعنى بهما ؟

فرفع ميشا حاجبيه وسمّر عينيه على الأرضية الترابية وقد استبد به الحنق :

ـ إذاً . فأنت لا تفكّر في الذهاب ؟

ـ الأفضل أن ننتظر . فلم يفت أوان الرحيل أبداً . ماذا ترى يا غريغوري ،

وأنت يا خريسونيا ؟

فراح غريغوري يتحدث بمزيد من الهمة ، بعد أن لمس تأييداً غير منتظر من ايفان وخريستونيا :

ـ لماذا ؟ طبعاً ، ذاك هو ما قلته بالضبط . وذاك هو ما تخاصمت مع الولد من أجله . فالأمر ليس بمثل هذه السهولة . واحد ، اثنان ثم نذهب ؟ علينا أن نتبصّر بالموضوع... أجل ، نتبصّر...

وما أن فرغ من كلامه حتى انطلقت رنّة مفاجئة من ناقوس برج الكنيسة ، وطفح الصوت فوق الساحة ، والشوارع ، والأزقة .

وتدحرج الرنين فوق سطح مياه الفيضان البني ، وفوق منحدرات التلال الكلسية الرطبة ، متناثراً شبه حبات البازلاء ليتلاشى في الغابة . ثم ما لبث أن انبعث ثانية ، كنذير مستديم هذه المرّة :

ـ دان ، دان ، دان ، دان...

فطرفت عين خريستونيا وقال :

ـ تلكم هي! أنا ذاهب إلى زورقي . لأمضي إلى الجانب الآخر ثم إلى الغابة . وليعثروا عليّ هناك!

ونهض كوشيفوي متثاقلاً مثل رجل عجوز :

ـ حسناً ، وماذا الآن ؟

فأجاب غريغوري عن الآخرين :

ـ لن نذهب الآن .

ورفع ميشا حاجبيه مرّة أخرى ، وأزاح خصلة شعره الذهبية عن ناصيته ، وقال :

ـ حسناً ، وداعاً...يبدو وكأن سبلنا مختلفة الاتجاهات .

فندّت عن ايفان اليكسييفتش ابتسامة اعتذار :

ـ أنت شاب يا ميشا ، حاد الطبع ، أوتحسب أنهم لن يفرّوا سويّة بعدئذ ؟ انهم سيفعلون ذلك! كن واثقاً من ذلك!

ثم ودّع كوشيفوي الآخرين وخرج . ويمم وجهه عبر الباحة إلى ساحة درس الحبوب . فألفى الولد مقرفصاً في الساقية ، كأنه قدر أن ميشا سيتخذ ذلك الطريق . فنهض ليقابله ، وسأله :

ـ حسناً ؟

ـ لقد رفضوا .

ـ كنت أرى أنهم سيفعلون ذلك . انهم ضعفاء... أما غريشا ، صديقك ذاك ، فهو كلب نتن! شيطان سليط ان كان هناك شياطين . لقد أهانني ، الخنزير! لا شيء الا لأنه أقوى مني . لم يكن معي سلاح ، والا قتلته ، ـ قال ذلك بصوت مدندن .

فنظر ميشا إلى شعره الدغلي والخشن وقال في نفسه وهو يحث خطوه إلى جانبه :« وكان يمكن أن يفعل ذلك هو الآخر ، ابن العرس! »

وسارا بسرعة ، تلفحهما كل ضربة من ضربات الناقوس .

اقترح كوشيفوي :

ـ لنعرج على بيتي ولنأخذ شيئاً من الطعام . سنذهب مشياً على الأقدام ، سوف أترك حصاني حيث هو . أليس لديك شيء تأخذه ؟

فقال الولد ساخراً :

ـ لا أملك شيئاً . فلم أوفر مايكفي لشراء قصر أو عقار . بل لم أتسلم أية أجور عن الأسبوعين الماضيين . فليسمن بها موخوف العجوز البطين! كم سيرقص جذلاً لعدم اضطراره إلى دفعها!

كان الناقوس قد توقّف عن الرنين . ولم يعكّر السكون الهامد شيء . كان الدجاج يبحث في الرماد على قارعة الطريق ، والعجول السمينة تسعى وراء العشب تحت الأسيجة . فالتفت ميشا إلى الخلف : كان القوزاق يهرعون إلى الاجتماع في الساحة ، وبعضهم يزرر قمصلاتهم الرسمية أثناء سيرهم . وانطلق خيال صوب الساحة وتجمّع حشد عند المدرسة : النساء بتنوراتهن وعصاباتهن البيض ، والرجال كتلة من سواد .

اعترضت سبيلهما امرأة تحمل دلوين ، وأبت العبور أمامهما تطيراً . وقالت مغضبة :

ـ هيا ، هيا! لا أريد أن أمرّ أمامكما .

فحياها ميشا ، تساءلت وقد ندّت عنها ابتسامة مشرقة :

ـ كل القوزاق ذاهبون إلى الاجتماع . فالى أين تمضيان أنتما ؟ انكما تسيران في الطريق المغاير يا ميشا .

ـ لديّ بعض الشغل في البيت .

وعرجا إلى زقاق جانبي . وصار بوسعهما أن يريا سقف منزل ميشا : قفص الزرزور وغصن الكرز المشدود اليه يهتز في الريح . وكانت أذرع الطاحونة على المرتفع تدور ببطء ، ويرفرف قماش قلوعها الخرق ، وتبعث صفيحة السقف المائل قعقعة خفيفة .

لم تكن الشمس قوية ، ولكنها دافئة . وكان نسيم فاتر يهب من الدون . وفي فناء بوغاتيريوف كانت ثمّة نسوة يطلين منزلاً مستديراً كبيراً بالطين ويبيضنه استعداداً لعيد الفصح . كانت احداهن تعجن الطين بالروث ، تدور في حلقة وقد رفعت تنورتها عالياً ، وتجرجر ساقيها المكتنزتين البيضاوين من الخليط اللزج . وقد أمسكت تنورتها بأطراف أصابعها كاشفة عن ربطتي ساقيها وقد أمسكت تنورتها بأطراف أصابعها كاشفة عن ربطتي ساقيها وقد حزّتا على لحمها فوق ركبتيها . كانت تياهة بمظهرها ، فلفعت وجهها بعصابتها ، رغم أن الشمس كانت ماتزال خفيضة في الأفق . وكانت المرأتان الأخريان الشابتان ، وهما كنّتا بوغاتيريوف ، قد صعدتا على السلم تحت السقف المغطى بالقصب ، تبيضان وقد لفعت كل منهما وجهها بعصابة حتى العينين .

كانت تستعملان الفرشاتين جيئة وذهاباً وقد شمرتا أكمامهما إلى مافوق المرفقين ، ورشاش الطلاء الأبيض يتناثر عليهما . وكنّ يغنين أثناء عملهن . كانت ماريا كبراهن ، وهي أرملة أحد أبناء بوغاتيريوف ، حاطة

عينها على ميشا على المكشوف . إنها نمشاء ولكنها امرأة جميلة . انطلقت تغني بصوت خفيض ، قريب من الصوت الرجالي في قوته ، وقد ذاع صيته في القرية :

آه ، ليس هناك من يقاسي أكثر...

ورافقتهاالمرأتان الأخريات وتواشجت الأصوات الثلاثة سوية تؤدي الأغنية الساذجة الحزينة المتظلمة بإتقان :

من حبيبي في الحرب .
مدفعي هو ،
ويفكّر فيّ على الدوام .

ومر ميشا والولد على مقربة من السياج ، ينصتان إلى الأغنية التي اختلطت بصهيل الخيل القادم من المرج :

ثم وصل خطاب يقول :
ان حبيبي قد قتل .
أوه ، لقد قتل ، حبيبي قتل .
وهو يرقد الآن تحت شجيرة .

وتطلعت ماريا إلى الأسفل ورنت إلى ميشا ، وقد التمعت عيناها الرماديتان تحت عصابتها .وجعلت تغني بصوت متيم عميق ، وقد أشرق وجهها المرشوش بالطلاء بابتسامة :

وخصلاته ، خصلاته الذهبية
كانت تذروها الرياح .
وعيناه ، عيناه البنيتان الغامقتان...
نقرهما زاغ أسحم .

فابتسم ميشا لها على طريقته الرقيقة التي يستعملها مع النساء ، وقال لبيلاغيا التي كانت تعجن الطين :

ـ ارفعي تنورتك إلى الاعلى قليلاً . فلسنا نرى جيداً غير السياج!

فضيقت عينيها له وقالت :

ـ تستطيع ذلك ان شئت .

ووقفت ماريا على السلم ويداها على خاصرتها ، وسألته بنبرة مغناجة ، وهي تتلفت حواليها :

ـ ـ أين كنت ياعزيزي ؟

ـ أصطاد السمك .

ـ لا تبتعد ، فسوف نذهب إلى مخزن الحبوب ونمتع نفسينا .

ـ يا سفيهة ياقليلة الحياء! انظري ، فهناك حموك!

فطقت ماريا بلسانها ، وهزت الفرشاة المنقوعة على ميشا وهي تضحك . فتناثرت قطرات الطلاء الأبيض على سترته وقبعته .

وصاحت في أثرهما المرأة الأخرى وهي تبتسم وتكشف عن أسنان بيضاء بلون الحليب :

ـ ألا تعيرنا الولد على الأقل ؟ فهو يستطيع أن يساعدنا في تنظيف البيت ، ـ وأسرت لها ماريا بشيء فانفجرتا ضاحكتين .

فقطب الولد وقال وهو يحث خطواته :

ـ أيتها القحبة الداعرة!

بيد أن ميشا صحح كلامه بابتسامة واهنة رقيقة :

ـ ليست داعرة ، بل مرحة ،ـ وأضاف بكلمات الأغنية وهو يمر خلال بوابة فنائه : « سأذهب ، بيد أنني سأخلف حبيبتي ورائي ، وداعاً ، يا حبيبتي ، ياروح قلبي! »

٢٣

بعد رحيل كوشيفوي ظل الآخرون جالسين بعض الوقت دونما كلام . وظل ناقوس الخطر يتأرجح فوق القرية ويهز زجاج نوافذ المنزل . وتطلع ايفان أليكسيفتش إلى الخارج خلال النافذة . ولاح على الأرض ظل الصباح الباهت تلقيه السقيفة . واستقر الندى أشهب على الحشيش الناعم . وبدت السماء لازوردية حتى من خلال الزجاج . ونظر ايفان إلى رأس خريستونيا المطأطأ وقال :

ـ لعل هذه ستكون خاتمة الأمر ؟ فقد شتت أهالي ميكولنسكايا شمل الحمر ، ولن يتقدموا أبعد من ذلك...

فاختلج جسد غريغوري بكامله :

ـ كلا! ماهذه الا البداية ، وسوف يستمرون . حسناً ، هل نذهب إلى الساحة ؟

وتناول ايفان اليكسييفتش قبعته ، وقال ليبدد ظنونه :

ـ حسناً ، لعل الصدأ قد علانا . ميخائيل حامي الرأس ، ولكنه فتى نشيط . إنه يحرجنا .

فلم يحر أحد بجواب . ولاذوا جميعاً بالصمت ، ثم عطفوا إلى الساحة .

سار ايفان اليكسييفتش ساهماً ، يحدق في الأرض . لقد أمضّه ظنه بأنه قد اختار الطريق الخاطئ ولم يستجب لنداء ضميره .

كان الولد وميشا مصيبين ، كان ينبغي أن يذهبوا جميعهم دونما تردد . إن محاولاته في تبرير سلوكه لم تكن ذات جدوى ، فقد بددها نداء سافر لجوج في دخيلته ، كما يسحق حافر فرس الجليد الرقيق في المرج . لقد كان الشيء الوحيد الذي استقر عليه رأيه بثبات هو أن يفر إلى البلاشفة في أول سانحة . توصل إلى هذا الرأي عندما كان يسير شطر الساحة ، ولكنه لم يخبر غريغوري ولا خريستونيا ، ظناً منه بأن نوازع مغايرة تصطرع في نفسيهما ،

وبات يخشاهما في أعماق قلبه . لقد خذلوا ثلاثتهم معاً اقتراح الولد ، متذرعين بعوائلهم . بيد أن كلاً منهم كان يدري أن المسوغ لم يكن مقنعاً ولم يبرر موقفهم . وقد أحس الآن كل منهم بالحرج أمام الآخرين ، كمن قام بعمل وضيع مخزٍ . ظلوا لائذين بالصمت ، ولكن ايفان ليكسييفتش لم يعد يقوى على تحمل الصمت القاتل عندما اجتازوا منزل موخوف ، فقال مؤنباً نفسه والآخرين :

ـ لا معنى من إخفاء الأمر . لقد عدنا من الجبهة بلاشفة ، وها نحن الآن نلوذ بأنفسنا بين الأدغال . فليقاتل الآخرون من أجلنا ، ونبق نحن مع نسائنا!

فنب غريغوري قائلاً وهو يشيح بوجهه :

ـ لقد أديت نصيبي من القتال ، فليقم الآخرون بدورهم . فأضاف خريستونيا :

ـ ولكن كيف يمكن أن يكونوا هكذا ؟ شرذمة من اللصوص! أينبغي أن ننضم إلى رجال مثلهم ؟ أي ضرب من الحرس الأحمر يتصورون أنفسهم ؟ يغتصبون النساء ، ويسلبون القوزاق! ينبغي لنا أن نتبصر فيما نفعل . فالأعمى يتعثر بما يصادفه .

وتساءل ايفان بحدّة :

ـ وهل رأيت كل ذلك بأم عينيك يا خريستونيا ؟

ـ ان الناس يتحدثون عن...

ـ آه... الناس...

ـ حسناً ، حسبنا ذلك... لا نريد أن يسمعنا الآخرون .

زخرت الساحة بسراويل القوزاق ، وقبعاتهم ، وانتشرت هنا وهناك قبعات من جلد الخراف سود شعث ، كان جميع رجال القرية مجتمعين ، ولم تحضر امرأة ما ، إنّما الشيوخ ، والقوزاق الذين شهدوا الحرب ، وحتى الشبان الذين يصغرونهم سنّاً . وقف الأكبر سناً في المقدمة ، متكئين على عصيهم : القضاة المحترمون ، وأعضاء مجلس الكنيسة ،ومعلمو المدارس ،

وقيم الكنيسة ، وبحثت عينا غريغوري عن لحية أبيه السوداء المشوبة بالفضة ، فوجده واقفاً إلى جانب ميرون غريغوريفتش . وأمامهما كان غريشا العجوز متكئاً على عصاه ذات العقدة ، بقمصلته الرمادية الكاملة ونياشينه ، وكان مع بانتيلي وميرون جميع شيوخ القرية . ووقف خلفهم الرجال الأصغر سناً ، وجلهم من رفاق غريغوري في السلاح .

ولاحظ أخاه بيوتر في الطرف الآخر من الحلقة ، وقد تحلّى قميصه بأشرطة وسام غيوغوري المقدّس البرتقالية والسوداء . والى يساره كان ميتكا كورشونوف بعينيه الخضراوين يشعل سيكارته من سيكارة بروخور زيكوف . كان بروخور يجر نفساً بقوة ليساعده ، مهدلاً شفتيه وجائلاً بعينيه الشبيهتين بعيني العجل ، والى الوراء تجمع أصغر القوزاق سناً .

وفي وسط الحلقة جلس رئيس اللجنة الثورية للقرية أمام طاولة كسيحة انغرست أرجلها الأربع في التربة التي لما تزل رطبة ناعمة . والى جانبه وقف ملازم لم يعرفه غريغوري ، يرتدي قبعة خاكية عليها شارة ، وسترة جلدية على كتفيها شارات ، وبنطال فرسان خاكياً .

كان رئيس اللجنة الثورية يتحدّث معه بخجل ، وقد انحنى الضابط قليلاً لينصت وأذنه الكبيرة الناتئة قريبة من لحية الرئيس . كان الجمع يطن كخلية نحل . وكان القوزاق يتحدثون ويمزحون مع بعضهم ، غير أن إمارات القلق علت جميع الوجوه ، فصاح أحدهم بصوت فتي دون أن يحتمل المزيد :

ـ فلنبدأ! فيم انتظاركم ؟ لقد حضر كل الناس تقريباً! فانتصب الضابط ، ورفع قبعته ، وقال ببساطة كما لو كان بين عائلته :

ـ يا سادة شيوخ القرية ، واخواني قوزاق خط الجبهة! سمعتم جميعاً بما حدث في قرية سيتراكوف ، أليس كذلك ؟

فهدر خريستونيا :

ـ من هو ؟ من أي الديار ؟

ـ من فيشنسكايا . أظن أنه يدعى سولداتوف .

واستمر الملازم :

- قبل يوم أو يومين وصلت وحدة من الحرس الآحمر القرية . واحتل الالمان أوكرانيا ، وعند تقدمهم شطر اقليم الدون قذفوا بالحرس الأحمر وراء السكك الحديد . فدخل الحمر سيتراكوف وشرعوا في سلب ممتلكات القوزاق ، واغتصاب نسائهم ، وقاموا باعتقالات غير شرعية ، وما إلى ذلك . وعندما تناهى إلى القرى المجاورة ماحدث انهال القوزاق عليهم بالسلاح بأيديهم . فقضي على نصف الوحدة ، وأسر الباقون . وحظي القوزاق بغنائم طيبة . وقد قذفت منطقتا ميكولنسكايا وكازانسكايا بالحكومة البلشفية من ديارهما . لقد هب القوزاق شباباً وشيباً في الدفاع عن الدون الهادىء . وقذف باللجنة الثورية في فيشنسكايا بكاملها ، وقد انتخب أتمان للمنطقة ، وحصل الشيء ذاته في معظم القرى .

وعند هذه النقطة من الخطاب نفس الشيوخ عن صدورهم بدمدمة مكتومة .

- ويجري الآن تشكيل المفارز في كل مكان ، وعليكم أنتم أيضاً أن تشكلوا مفرزة من قوزاق خط الجبهة ، للدفاع عن المنطقة ضد وصول قطعات جديدة من اللصوص المتوحشين . يجب أن نقيم إدارة خاصة بنا . نحن لا نريد حكومة حمراء ، إنها لاتجلب لنا الحرية ، انما الدعارة! ولن نسمح للفلاحين بانتهاك حرمة زوجاتنا وأخواتنا ، والاستخفاف بعقيدتنا الأرثدوكسية ، وتدنيس كنائسنا المقدسة ، واستلاب أرزاقنا وممتلكاتنا... ألا توافقونني أيها الشيوخ ؟

فهدر الاجتماع بغتة بـ «نعم! » وشرع يتلو بلاغاً .

وانسل الرئيس من أمام الطاولة ناسياً أوراقه . وأصاخ حشد الشيوخ دون أن ينبسوا بكلمة . وتبادل رجال خط الجبهة وراءهم الهمهمة مع بعضهم .

وحالما شرع الضابط بالقراءة ، انسل غريغوري من الحشد وانثنى ليعود إلى البيت . فلاحظ ذلك ميرون غريغوريفتش ، ولكز بانتلاي بروكوفيتش بمرفقه :

ـ ابنك الأصغر ينسل!
فخرج بانتلاي بروكوفتش من الحلقة يعرج وصاح بنبرة آمرة :
ـ غريغوري!
فالتفت ابنه نصف التفاته وتوقف دون أن ينظر إلى الوراء .
ـ عد ياولدي!
وجاء هدير الأصوات من الحشد :
ـ فيم تراك ذاهباً ؟ عد إلى الاجتماع! ـ والتفت صوب غريغوري جدار من الوجوه :
ـ وقد كان ضابطاً!
ـ لاداعي إلى الشموخ بأنفك!
ـ كان مع البلاشفة .
ـ وأراق دم القوزاق!...
ـ الشيطان الأحمر!
تناهى الصياح إلى أذني غريغوري . كان يصغي ويصر بأسنانه ، تتصارعه الخواطر دونما ريب ، وبدا وكأنه سيذهب بعد دقيقة دونما التفاتة إلى الوراء . ولكن بنتلاي بروكوفيتش وبيوتر تنفسا الصعداء عندما تردد ثم عاد إلى الحشد مسبل العينين .
وبرز الشيوخ في كل مكان . فانتخب ميرون غريغوريفتش أتماناً بسرعة عجيبة . وسار إلى وسط الحلقة ووجهه الأنمش يلوح عليه الشيب ، وتسلم من سلفه مرتبكاً رمز سلطته ، عصا الأتمان ذات الرأس النحاسي . لم يكن أتماناً من قبل ، ولذلك تردد ورفض المنصب عندما استدعوه ، قائلاً انه لا يستحق مثل هذا الشرف ، لأنه غير مثقف . ولكن الشيوخ أصروا قائلين :
ـ خذ العصا ، يا غريغوريفتش ، ولا ترفض .
ـ انك خير مزارع في القرية .
ـ لن تبدد خيراتنا .

ـ حاذر من أن تبددها في الشراب مثل سيميون!

ـ لن يفعل ذلك!

ـ وان فعل فباستطاعتنا أن نسترده من ماله . ، فإن لديه الشيء الكثير .

ـ سنسلخه مثل الخروف .

كانت الظروف الانتخابية والحالة الشبيهه بالحرب في المنطقة غير اعتيادية إلى درجة جعلت ميرون يوافق دونما الحاح شديد . ولم تجر الانتخابات كماكانت في الأيام السابقة ، حيث كان يأتي أتمان المنطقة إلى القرية ، ويستدعي وجوه القوزاق إلى الاجتماع ، وتوزّع أوراق الانتخاب . أمّا الآن فقد جرت بهذه البساطة : «من كان إلى جانب كورشونوف يقف إلى اليمين» وماج الحشد بكامله إلى ذالك الجنب ، خلا الاسكافي الذي يضمر حقداً لكورشونوف ، فقد لبث واقفاً في مكانه كبلوطة في مهب الريح .

وقبل أن يطرف ميرون المتصبب عرقاً بعينه دست العصا في يده ، وعلا هدير من الأصوات :

ـ والآن مارأيك أن تنفحنا نخباً على حسابك ؟

ـ ارفعوا الأتمان الجديد عالياً!

فتدخل الضابط ، ووجه الاجتماع لحل المسائل المتبقية بجد . وأثار مسألة انتخاب آمر لمفرزة القرية ، ولا بد أنه كان قد سمع عن غريغوري في فيشنسكايا ، فلقد شرع يمتدحه ويمتدح القرية عن طريقه .

ـ يحسن أن يكون لدينا آمر ممن شغل رتبة ضابط . فاذا تحتم علينا أن نقاتل فسوف نقوم بدورنا بشكل أفضل وتكون خسائرنا أقل . ان في قريتكم الكثير من الأبطال . أنا لا أستطيع أن أفرض ارادتي عليكم ، ولكني من جهتي أوصي بأن تنتخبوا نائب الضابط ميليخوف .

ـ أي منهما ؟

ـ فلدينا اثنان .

فجال الضابط ببصره فوق الحشد ، ولمح رأس غريغوري المحني ، وهتف مبتسماً :

ـ غريغوري ميليخوف! ماذا تقولون أيها القوزاق ؟

ـ رجل طيب!

ـ ليكن الحظ حليفه!

ـ غريغوري ميليخوف! انه جوزة صلدة!

ـ تعال وسط الحلقة ، فالشيوخ يريدون أن يلقوا عليك نظرة .

فدفع غريغوري إلى الأمام وظهر وسط الحلقة ، وقد حال وجهه قرمزياً ، وجعل ينظر حواليه مثل حيوان مطارد .

فقرع ماتفي كاشولين الأرض بعصاه ورسم إشارة الصليب بحركة مزهوة من يده وقال :

ـ قُدْ أولادنا! قدهم وأرشدهم كيما يكونوا معك مثل الأوز مع الفحل . وكما يدافع فحل الأوز عن عائلته ويحميها من الناس والوحوش ، عليك أن تحافظ عليهم! ستحصل بعون الله على أربعة أوسمة أخرى!

ـ يا بانتلاي بروكوفيفتش ، ولدك نعم الولد!

ـ في رأسه عقل ناصح! والله ، انه شاطر!

ـ أنت أيها الشيطان الأعرج ، ماذا لو تبرعت علينا بالشراب ؟

ـ أيها الشيوخ! صمتاً! ربما نضع قائمتين أو ثلاثاً بلا تطوع ؟ قد يأتي متطوعون أولا يأتون...

ـ لثلاث سنوات!...

ـ لخمس...

ـ سنجمع متطوعين!

ـ اذهب أنت بنفسك ، ما الذي يمنعك ؟

وفي هذه الأثناء تقدم من الضابط أربعة شيوخ من طرف القرية الأعلى كانوا يتشاورون مع الأتمان الذي عين حديثاً . كان أحدهم وهو عجوز ضئيل

الجسم لا أسنان له يلقب بالـ« جعدة » . قد عرف بأنه صرم حياته بتتبع المسائل القضائية التافهة . كان يزور المحكمة مراراً حى أن مهرته الوحيدة البيضاء كانت تعرف الطريق جيداً بمجرد أن يقوى سيدها السكران على التكوّم في العربة ويصيح بصوته الناعم الصادح : « الى المحكمة! » فتنطلق دائبة في الاتجاه الصحيح . ورفع الجعدة قبعتة العتيقة عن رأسه ومضى صوب الملازم . ووقف على مقربة منهما الشيوخ الآخرون ، يدعى أحدهم غيراسيم بولديروف وهو مزارع صالح يحظى باحترام زائد في القرية .

كان الجعدة أول المتكلمين ، وهو مهذار اضافة إلى صفاته الأخرى :

ـ يا صاحب السعادة . يبدو وكأنك لا تعرف الكثير عن قريتنا ، والا لما وقع اختيارك على غريغوري ميليخوف آمراً . نحن معشر الشيوخ لدينا تحفظ على هذا الاختيار . ومن حقنا أن نحتج كما تدري . ان لدينا اعتراضاً ضده .

ـ أي اعتراض ؟ ما الخبر ؟

ـ حسناً ؟ كيف نستطيع أن نثق به وهو نفسه كان في الحرس الأحمر وواحداً من امرائه ، ولم يمض سوى شهرين على عودته من صفوفهم مصاباً بجرح .

فاحتقن وجه الضابط ، وبدت أذناه قد انتفختا من تدفق الدم .

ـ مستحيل! لم أسمع بذلك... فلم يخبرني أحد عنه أبداً .

فأكد بولديروف قائلاً بتجهم :

ـ إنه لصحيح ، لقد كان مع البلاشفة . ولهذا لا نستطيع أن نثق به!

ـ ابدله! ما قول قوزاقنا الشباب ؟ يقولون أنه سيخونهم في المعركة الأولى!

فجعل الضابط يصيح رافعاً نفسه على طرف أصابعه مخاطباً الشيوخ ، متجاهلاً رجال خط الجبهة بلباقة :

ـ أيها الشيوخ! أيها الشيوخ! لقد انتخبنا لتونا غريغوري ميليخوف آمراً ، ولكن ألا يوجد خطر في ذلك ؟ لقد علمت الآن أنه كان خلال الشتاء مع

الحرس الأحمر . فهل تستطيعون أن تطمئنوا على حياة أبنائكم وأحفادكم معه ؟ وأنتم يا اخوتي ، يا رجال خط الجبهة ، هل تستطيعون أن تنضووا تحت امرته بقلوب مطمئنة ؟

ومرت على القوازاق لحظة صمت وذهول ، ثم تعالى ضجيج وصياح متضارب ، وبات من العسير أن تفهم كلمة ، وعندما تلاشى ذلك خطا بوغاتيريوف العجوز الكث اللحية إلى الوسط ، ونزع قبعته امام الاجتماع ، وتطلّع حواليه :

ـ يحدثني ذهني البليد بما يلي : نحن لا نستطيع أن نمنح غريغوري بانتيلييفتش هذا المنصب . فقد سلك السبيل الخاطىء ، وقد سمعنا كلنا بذلك . فليحظ أولاً بثقتنا ، ويكفّر عما فعله ، ومن ثم فسوف نرى .اننا ندري أنه مقاتل جيد... ولكننا لا نستطيع أن نرى الشمس خلال الضباب ، لا نستطيع أن نرى خدماته السابقة ، إن عمله من أجل البلاشفة قذى في عيوننا .

فصاح اندريه كاشولين الشاب بقسوة :

ـ فليكن نفراً .

ـ اجعلوا بيوتر ميليخوف آمراً .

ـ ليخدم غريشا مع الآخرين!

ـ كدنا ننصب علينا آمراً رائعاً!

فصاح غريغوري وقد احتقن وجهه من شدة الانفعال :

ـ نعم ، ولست بحاجة إلى هذا المنصب ولا اليكم جميعاً! لماذا رشحتموني للقيادة بحق الشيطان ؟ـ وأعاد القول ملوحاً بيده : ـ لن أتسلم المنصب اذا أردتم لي ذلك! ـ ودس بيديه في أعماق جيبي بنطاله ، وابتعد محني الرأس متجهاً إلى بيته .

فتعقبته الصيحات :

ـ عل مهلك!

ـ الجيفة النتنة! هوذا دمه التركي يبين!

ـ انك تشمخ بأنفك المقوّس عالياً جداً!

ـ انه لا يمسك لسانه! ولا يغلق فمه حتى أمام ضباطه في الخنادق .

ـ عد!

ـ الحقوه! هوه! بووه!

ـ لماذا تركتموه ينصرف لحاله ؟ فلنحاكمه بأنفسنا!

ولم يمض وقت طويل حتى هدأ الاجتماع ثانية . وفي حميا النقاش لطم أحدهم شخصاً آخر ، وراح أنف آخر ينزف ، وتزيّن أحد الصبية على حين غفلة بانتفاخ تحت عينيه . وحين أعيد النظام آخر الآمر انتخبوا بيوتر ميليخوف آمراً ، فاستبد به الزهو والخيلاء .

وهنا كبا الضابط مثل حصان شديد البأس جوبه بسياج مرتفع جداً . وطلب ممن يريد التطوّع أن يتقدّم ، فلم يتقدّم أحد . لقد تردد رجال خط الجبهة ، الذين كانوا متحفظين في موقفهم أثناء الاجتماع ، ولم يرغبوا في تسجيل أنفسهم ، مصطنعين المزاح :

ـ لماذا لا تذهب يا أنيكوشكا ؟

بيد أن أنيكوشا دمدم :

ـ أنا صغير جداً... ولم ينبت عذاراي بعد .

فزعق كاشولين العجوز في أذنه :

ـ دعك من المزاح : تريد أن تجعل منّا أضحوكة ؟

فرد أنيكوشكا وهو يبتعد عنه كمن يبتعد عن دندنة البعوض :

ـ سجّل ابنك!

وتعالت صيحة من الطاولة :

ـ بروخور زيكوف! هل نسجّل اسمك ؟

فأجاب :

ـ لست أدري...

ـ سنسجل اسمك .

وتقدم ميتكا كورشونوف من الطاولة بوجه جدي ، وقال باقتضاب :
ـ سجلوني .
ـ حسناً ، ومن أيضاً ؟ ماذا عنك يا فيدوت بودو فسكوف ؟
فدمدم فيدوت مسبلاً عينيه الكالميكيتين :
ـ عندي فتق .
فهدر رجال خط الجبهة ضاحكين ، وراحوا يسخرون منه دونما رأفة :
ـ خذ زوجتك معك . فإذا أقلقك فتقك . فسوف تتدبر أمره!
ورفرفت فوق الحشد نكتة أخرى من الجانب الآخر للحلقة :
ـ سنجعلك طباخاً ، وإذا كان الحساء فاسداً فسوف نملؤك به حتى يخرج فتقك من الطرف الآخر!
ـ سوف يكون وضعك حسناً أثناء التراجع ، فلن تركض سريعاً جداً .
إلا أن الشيوخ بدا عليهم الانزعاج فشرعوا يلعنون :
ـ كفى ، كفى ، علام مزاحكم هذا ؟
ـ وقت مناسب لاظهار حماقاتكم!
ـ وصاح أحدهم :
ـ عار عليكم أيها الأولاد! فكروا بالرب . إن الرب لن يغفر هذه! الناس يموتون ، وأنتم... والرب ؟!
وجال الضابط ببصره وصاح :
ـ ايفان توميلين!
فأجاب توميلين :
ـ أنا مدفعي .
ـ هل نسجل اسمك ؟ إننا بحاجة إلى مدفعيين أيضاً .
ـ أوه ، لابأس ، سجل اسمي إذاً .
وشرع أنيكوشكا وعدد من الآخرين يمازحون توميلين :
ـ سننحت لك مدفعاً من جذع صفصافة . وسوف تطلق من فوهتك قرعاً

وبطاطا بدلاً من القنبلة العنقودية .

ووسط الدعابة والضحك سجل حوالي ستين رجلاً ، وكان خريستونيا آخرهم . تقدم من الطاولة وقال متأنياً :

ـ سجل اسمي . ولكنني أنذركم بأني لن أقاتل .

فسأله الضابط مغتاظاً :

ـ إذاً لماذا تسجل اسمك ؟

ـ سوف أرى أيها الضابط . أريد أن ألقي نظرة!

فهز الضابط كتفيه وقال :

ـ سجّله .

ولم ينته الاجتماع الا عند الظهيرة تقريباً . وفي اليوم التالي تقرر إرسال المفرزة لاسناد قرويي ميكولنسكايا .

وفي الصباح التالي ، لم يحضر في الساحة سوى حوالي أربعين من بين الستين متطوعاً . فاستعرض بيوتر القوزاق مرتدياً بدلة أنيقة ومعطفاً وحزمة طويلة . كان لمعظمهم شارات كتف عليها أرقام كتائبهم القديمة . وقد حملت أسرجتهم بحقائب فيها طعام ، وبياضات ، وخراطيش جيء بها من الجبهة . ولم يكن لدى جميعهم بنادق ، ولكن لدى الأكثرية سلاح أبيض .

وتجمع حشد من النساء والفتيات والأطفال والشيوخ في الساحة ليودعوهم ، وصفّ بيوتر وهو ممتط صهوة جواده المختال ، جماعته الذين يشكلون نصف سرية ، وتفحص مجموعة الخيل الصغيرة ، والخيالة بمعاطفهم ، وقمصلاتهم ، ومشمعاتهم* ، وأعطى إيعازاً بالرحيل ، وسار بالمفرزة صعد التل ، وتطلع القوزاق بوجوم ملتفتين إلى القرية ، وأطلق واحد من الصف الأخير اطلاقة ، وفي القمة لبس بيوتر قفازيه ، ومسد عذاريه الشقراوين ، واستدار بحصانه فأخذ يسير به مجانبة . وأمسك قبعته بيده

---

* ما يرتدى اتقاء للمطر . المترجمون

اليسرى ، وهتف :

ـ سرية ، خبباً سر!

فحث القوزاق جيادهم على الخبب ، وهم واقفون على ركائبهم يلوحون بسياطهم . وهبت الريح في وجوههم ، وعبث بأذيال الخيل وأعرافها ، ونثرت رذاذاً خفيفاً من المطر ، وشرعوا يتحدثون ويمزحون ، وكبا جواد خريستونيا الأدهم ، فلعنه وأمطره بلفحات السوط ، فقوس الحصان رقبته ، وانطلق يعدو وجنح عن الصف .

ولم يفارق القوزاق مزاجهم المرح حتى بلغوا كارغين ، ساروا وكلهم ثقة بأن حرباً لن تقع ، وأن حادثة ميكولنسكايا لم تكن سوى غارة عرضية شنها البلاشفة في أرض القوزاق .

٢٤

وصلوا كارغين في الأصيل . ولم يجدوا أحداً من رجال خط الجبهة في المنطقة : فقد ذهبوا جميعاً إلى ميكولنسكايا . وأوعز بيوتر لمفرزته بالترجل في الساحة ، وشخص إلى منزل اتمان المقاطعة .

فالتقى به ضابط أسمر طويل قوي البنية ، كان يرتدي قميصاً فضفاضاً خالياً من سير الكتف ، متمنطقاً بحزام قوزاقي ، وقد دسّ سرواله المخطط في جوربيه الصوفيين الأبيضين . وتدلى غليون من زاوية شفتيه الرفيعتين ، ولاحت على عينيه البنيتين المتألقتين نظرة يشوبها التجهم والخبث . كان واقفاً على الدرجات يدخن ويراقب بيوتر يتقدم نحوه . وكان جرم الرجل الجسيم وصدره المنتفخ القوي كالفولاذ وعضلات ذراعه التي تظهر تحت قميصه تشهد على قوته الخارقة .

ــ هل أنت أتمان المقاطعة ؟

فنفث الضابط سحابة من الدخان من تحت عذاريه المتهدلين ، وأجاب بصوت جهير عميق :

ـ نعم ، إنني أتمان المقاطعة . مع من أتشرف بالكلام ؟

ذكر بيوتر اسمه ، فأحنى الأتمان رأسه قليلاً وهو يشد على يده :

ـ اسمي فيودور دمترييفتش ليخوفيدوف .

كان فيودور دمترييفتش ليخوفيدوف ، وهو قوزاقي من قرية غوسينو ـ ليخوفيدوف ، امرءاً أبعد من أن يكون اعتيادياً . فبعد أن أنهى تحصيله في كلية عسكرية ، ظل مختفياً عن الأنظار كلياً لوقت طويل ، وبعد عدة سنوات ظهر فجأة في قريته من جديد وشرع يجند وحدة من المتطوعين من بين القوزاق الذين أنهوا خدمتهم الفعلية ، يحمل أذناً من السلطات العليا . وجمع من المنطقة التي تدعى الآن قصبة كارغين سرية من القوزاق المغاوير وقادهم إلى ايران ، حيث لبثوا هناك سنة بمثابة الحرس الخاص للشاه . وأثناء الثورة الإيرانية هرب ليخوفيدوف مع الشاه ، وظهر فجأة في كارغين من جديد بعد أن انقطعت صلته بمعظم رجاله ، وأتى ببقية مفرزته ، وثلاثة جياد عربية أصيلة من اسطبل الشاه ، وغنائم كثيرة ، وسجاد نفيس ، وحلي ثمين ، وحرير فاخر . وظل طوال شهر يمتع نفسه وينعم بالملذات ، وأفرغ جيوب سرواله من كميات وافرة من الذهب الايراني ، وراح يجوب القرية على صهوة جواده الجميل الأبيض كالثلج ذي القوائم الرشيقة ، الذي كان يرفع رأسه بمثل رشاقة البجعة ، وبمضي به صاعداً درجات حانوت ليوفوتشكين ، ويختار مايريد ويدفع ثمن مشترياته دون أن يترجل ، ثم يمضي من الباب الآخر ، ثم اختفى فيودور ليخوفيدوف ثانية بمثل السرعة التي جاء بها ، واختفى معه صاحبه الذي لايفارقه ، مراسله الراقص القوزاقي بانتيلوشكا ، وكذلك الجياد وكل ماجيء به من ايران .

وبعد ستة أشهر ظهر ليخوفيدوف في ألبانيا وصار معارفه في كارغين يتلقون بطاقات بريدية تحمل صورة جبالها الزرق ، وبأختام غريبة . ثم انتقل إلى ايطاليا ، وساح البلقان ، ورومانيا ، وأوروبا الغربية ، ونأت به أسفاره حتى أسبانيا ، وصار اسم فيودور ليخوفيدوف محاطاً بهالة من الغموض ،

ودارت في القرية كل ضروب التكهنات حوله . وغاية ماعرفه الناس صدقاً عنه هو أنه كان مقرباً من الأوساط الملكية ، وأن لديه معارف بين علية القوم في سانت بطرسبرغ ، وأنه كان عضواً دائماً في «تحالف الشعب الروسي»* ، أما طبيعة رحلاته الخارجية فلم تكن لدى أي امرئ معلومات عنها البتّة .

ولدى عودة ليخوفيدوف من الخارج ، استقر في بنزا في منزل الحاكم العام فهز معارفه في كارغين رؤوسهم وطقوا ألسنتهم مندهشين لدى رؤيتهم صورته في الصحف . «لكم تقدم فيودور دمترييفش! أنظر من من الناس يصاحب!» ، ذلك هو ليخوفيدوف ، يتناول يد زوجة الحاكم العام ليساعدها في ارتقاء عربتها ، والابتسامة تملأ وجهه الصربي ذا الأنف المقوس . ويهش له الحاكم نفسه بحنان كواحد من أفراد العائلة . ويمسك سائق العربة البدين الأعنة بطرف أصابعه ، والجوادان يشدان على اللجام ويعضعضانه ، متأهبين للوثوب . ويقف ليخوفيدوف وقد رفع يداً إلى قبعته الفرو المنفوشة ، وقور الأخرى تحت مرفق عقيلة الحاكم .

وفي نهاية ١٩١٧ ، وبعد غياب عدة سنوات ، ظهر ليخوفيدوف في كارغين وحط رحله هناك لوقت طويل كما يبدو .

وجاء معه بقرينة ربما كانت أوكرانية أو بولندية ، وطفل ، واتخذ له منزلاً صغيراً في الساحة مؤلفاً من أربع غرف ، وقضى الشتاء في وضع خطط مجهولة . كانت نوافذ بيته مفتوحة على مصاريعها طوال الشتاء (وقد كان شتاء قاسياً لم يألفه الدون» . وكان ليخوفيدوف يتشدد مع نفسه وعائلته بشكل يثير استغراباً شديداً بين القوزاق .

وفي ربيع ١٩١٨ ، بعد حادثة سيتراكوف ، انتخب أتماناً . ومن جديد ظهرت للعيان قابلية فيدور ليخوفيدوف الخارقة . لقد وقعت القصبة في يدين

* منظمة ملكية في روسيا القيصرية ينطوي نشاطها على دعاية ضد السامية وتنظيم المجازر واغتيال العناصر السياسية المناوئة . وقد بات معروفاً الآن أن التحالف كان ينال مساعدة مالية كبيرة من الحكومة القيصرية .

بلغتا من القسوة بحيث أن الشيوخ جعلوا يهزون رؤوسهم بعد مضي أسبوع واحد . وروض القوزاق إلى درجة أن الشيوخ ، بعد أن يتكلم في أي اجتماع (وكان له لسان ذرب ، وقد أسبغت عليه الطبيعة ذكاء إلى جانب القوة) كانوا يخورون مثل قطيع ثيران : «حالفك الحظ ، ياصاحب السعادة! نرجوك ونتوسل اليك من صميم قلوبنا! إنك على تمام الصواب!» .

وقد قام الاتمان الجديد بواجباته بصرامة . وكانت أولى خطواته أن أرسل كل رجل من رجال خط الجبهة في المقاطعة إلى سيتراكوف في اليوم التالي للمذبحة التي تعرض لها الحرس الأحمر ، وفي بادئ الأمر لم يرغب الغرباء الذين يؤلفون ثلث سكان المقاطعة في الذهاب ، كما عارض الجنود ، إلا أن ليخوفيدوف أصرّ على تنفيذ ماأراد ، فوقع الشيوخ على مرسومه الذي يقضي بطرد جميع الفلاحين الذين لايشتركون في الدفاع عن الدون ، من المقاطعة . ولم يحل اليوم التالي حتى تقاطرت عشرات العربات ملأى بالجنود يغنون ويعزفون على الأكورديونات شطر ميكولنسكايا . ولم يهرب من الغرباء سوى بضعة جنود التحقوا بالحرس الأحمر .

عندما اقترب بيوتر ، خمن ليخيدوف من مشيته أنه ضابط تدرج من نفر بسيط في الجيش ، فلم يدعه إلى منزله ، وخاطبه بلهجة متعالية دونما تكلف :

ـ كلا يابني ، ليس هناك ماتفعلونه في ميكولنسكايا . فقد دبروا أمرهم بدونكم ، هذا ماتفيد به البرقية التي تسلمتها مساء أمس ، انكص على أعقابك وانتظر أوامر أخرى ، استنفر القوزاق جيداً! قرية كبيرة مثل تتارسكي ، ولايزيد عددكم عن أربعين مقاتلاً ؟ هز كواهلهم ، أولئك الحثالة! إن أرواحهم هي التي في خطر ، وداعاً ، ورحلة سعيدة .

ودلف إلى منزله ، يحمل جسمه الثقيل بسهولة غير منتظرة ، وصندلاه القوزاقيان البسيطان يخطان على الدرجات الخشبية . وعاد بيوتر إلى قوزاقه في الساحة . فأمطروه بالأسئلة . فابتسم وأجاب ، دون أن يسعى إلى إخفاء ارتياحه :

ـ إلى ديارنا! لقد دبروا أمرهم بدوننا!

فكشر القوزاق عن أسنانهم ومضوا متزاحمين شطر جيادهم أما خريستونيا فقد تنفس الصعداء وكأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهله ، وربت على كتفي توميلين :

ـ إذاً فنحن ذاهبون إلى البيت ، أيها المدفعي!

ـ قد اشتاقت زوجاتنا الينا!

ـ سنرحل لتونا!

وبعد أن تدارسوا الوضع قرروا أن لايقضوا الليلة في كارغين ، بل يعودوا في الحال ، وخرجوا من القرية زمراً مبعثرة تفتقر إلى النظام .

كانوا قد أتوا إلى كارغين على مضض منهم ، لايغيرون الا لماماً ، أما في عودتهم فقد ألحفوا على جيادهم . وأرعدت الأرض المتصدعة من قلة المطر ، تحت سنابك خيلهم ، وخلف الدون وسلسلة التلال القصية أومض بريق أزرق في الأفق .

وبلغوا تاتارسكي في منتصف الليل ، فأطلق أنيكوشكا اطلاقة من بندقيته النمساوية وهم يخبون بجيادهم حدر التل ، ورنت دفقة من الاطلاقات لتعلن عن عودتهم ، فاستجابت الكلاب في القرية بنباحها ، وزنخر أحد الجياد وصهل إذ شم رائحة موطنه ، وتفرقوا في القرية باتجاهات شتى .

زعق مارتن شامل متنفساً الصعداء وهو يودع بيوتر :

ـ لقد انتهى القتال! ذلك أمر حسن!

فتبسم بيوتر في الظلام ومضى راكباً إلى منزله . فخرج بانتلاي بروكوفتش وأخذ حصانه ، ورفع عنه السرج وقاده إلى الاسطبل ، ودخل هو وبيوتر البيت سوية .

ـ انتهت ؟

ـ آ... ها!

ـ حسناً ، حمداً لله! عسى ألا نسمع المزيد عنها!

ونهضت داريا دافئة من النوم . ومضت لتعد بعض العشاء لزوجها . وجاء غريغوري بملابسه الداخلية من غرفة النوم ، يحك صدره المشعر ، ويغمز لبيوتر هازلاً :

اذاً فقد قهرتموهم لتوكم ؟

ـ ها أنا الآن أقهر بقايا الحساء .

ـ تستطيع أن تقهر الحساء جيداً ، لا سيما اذا أسديت اليك يد العون!

***

لم تكن هناك نأمة ولا رائحة للحرب حتى عيد الفصح . وفي سبت الفصح قدم رسول يهذب إلى القرية من فيشنسكايا ، وترك حصانه الذي علاه الزبد أمام بوابة كورشونوف ، وجرى شطر سقيفة الباب . فحياه ميرون غريغوريفتش :

ـ ما الخبر ؟

ـ أريد الأتمان . أهو أنت ؟

ـ نعم .

ـ جند القوزاق في الحال ، بودتيولكوف يقود الحرس الأحمر إلى مقاطعة ناغولنسكايا . اليك الأوامر . ـ وقلب بطانة قبعته العرقة ليخرج المظروف .

وعلى صوت الحديث خرج غريشاكا العجوز مسرجاً زوجاً من النظارات على أنفه . وجاء ميشكا راكضاً وقرأوا الأمر الصادر من أتمان الاقليم سوية . وراح الرسول يمسح الغبار بكمه عن وجهه الملفوح ، وهو يتكيء على الدرابزين المزخرف .

وفي أحد عيد الفصح بعد الافطار ، ترك القوزاق المجندون قريتهم ممتطين جيادهم ، فقد كان أمر الجنرال الفيورف حازماً إذ هدد كل من يرفض الذهاب بحرمانه من لقب القوزاق . ومن ثم لم تعدالمفرزة تتألف من أربعين رجلاً ، كما في بادىء الأمر . بل من مائة وثمانية .بضمنهم عدد من رجال كهلة استبدت بهم الرغبة في ضرب البلاشفة . أما الشباب فقد ذهبوا

مكرهين ، لأن شيوخهم كانوا يستحثونهم بحمية .

وكان غريغوري في الصف الأخير وقد جرّ قلنسوة مشمعة فوق قبعتة . وكان المطر ينث من السماء الضبابية . وتتدحرج الغيوم فوق السهب المكسو بالخضرة . ويحلق النسر عالياً عند أعتاب الغيوم . ويطير أمام الرياح إلى الشرق وهو يخفق بجناحية خفقاناً متأنياً ، ثم ما يلبث أن يتلاشى في الأبعاد هباءةً بنية لامعة .

كان السهب يتألق تألقاً ندياً وترامت هنا وهناك أعشاب الذئب والأدغال من بقايا شيح السنة المنصرمة . وانتصبت قبور رمادية كالحرس فوق المرتفع .

حينما هبطوا على كارغين التقوا صبياً يسوق ثيراناً إلى المرعى .

كان ماضياً في طريقه يخط بقدمين حافيتين ، ويلوح بسوطه . ولما رأى الركب توقف وجعل يتفحصهم باهتمام هم وجيادهم الموحلة .

سأله توميلين ، من أين جئت ؟ فأجابه الصبي بشجاعة ، وهو يضحك من تحت السترة الملقاة على رأسه :

ـ من كارغين .

ـ هل رحل قوزاقكم ؟

ـ رحلوا . رحلوا ليقضوا على الحرس الأحمر . هل لديك تبغ لسيكارة أيها العم ؟

فشدّ غريغوري على عنان حصانه :

ـ تبغ لك ؟

فتقدم إليه الصبي . كان ساقا سرواله المشمران مبللين والشرائط حمراء زاهية وتطلّع إلى وجه غريغوري بشجاعة حينما كان القوزاقي يخرج كيس تبغة من جيبه ، وقال :

ـ سوف ترون بعض الجثث بعد دقيقة ، حالما تذهبون حدر التل . فقد ساق قوزاقنا الحرس الأحمر أمس وقتلوهم . كنت أرى الماشية هناك عند ذلك

الدغل ، ورأيتهم يحصدونهم . أوه ، كان شيئاً رهيباً! فعندما بدأت السيوف تصل جعلوا يصرخون ويتراكضون... ثم ذهبت لأرى . كان واحد منهم قد ضرب في كتفه ، واستطعت أن أرى قلبه ينبض في صدره ، وكبده الزرقاء... رهيب! أعاد ذلك وقد أدهشه أن القوزاق لم ترعبهم حكايته ، هكذا ، على الأقل فكر الصبي في دخيلة نفسه عندما رأى إلى وجوه غريغوري وخريستونيا وتوملين الباردة الساكنة .

وأشعل سيجارته ومسد على رقبة حصان غريغوري الندية ، وقال :

« أشكرك » وجرى نحو ثيرانه .

كان جثث الحرس الأحمر ترقد على قارعة الطريق في حفرة ضحلة غسلتها مياه الأمطار ، لم يهل عليها سوى قليل من التراب . وقد لاح وجه رصاصي أزرق ، وعلى شفتيه غشاوة من الدم . وبرزت من الحفر قدم حافية وساق سروال أزرق مبطن .

فدمدم خريستونيا :

ـ لم يتريثوا ليواروهم التراب ، يا للخنازير! ـ ولفح حصانه ، ولحق بغريغوري وذهب حدر التل .

فقال توميلين مبتسماً ، غير أن وجنته كانت تلمع :

ـ حسناً ، أريق الدم على تربة الدون أيضاً!

٢٥

كان ماكسيم غريازنوف مدفعي مفرزة بونتشوك ، وهو قوزاقي من قرية تاتارسكي . كان قد فقد حصانه في مناوشة مع مفرزة متطوعي كوتيبوف ، ومنذ ذلك الحين راح يسرف في الشراب ويلعب القمار . وعندما قتل حصانه تحته . (حصانه الذي يشبه الثور وذو الخط الفضي على امتداد ظهره) حل السرج وحمله ثلاثة فراسخ أو نحوها ، ثم لما رأى أنه لن

يستطيع على هذا المعدل أن ينجو بجلده من البيض نزع عنه الرمانة المعدنية الثمينة ، وفك الشكائم وترك رجال وحدته ينهضون بأعباء القتال ومضى . وظهر في روستوف ، وقامر في الحال بسيفه ذي المقبض الفضي الذي استحوذ عليه من ضابط برتبة رئيس قتله في المعركة ، ثم قامر بعدة الحصان التي حملها معه ، وحتى سرواله وجزمته المصنوعة من جلد الماعز . وعندما التحق برماة الرشاش التابعين لبونتشوك كان عارياً تقريباً . وربما كان قد لم شتات نفسه مرة أخرى ، لولا أن طلقة أصابته في وجهه في أول معركة يخوضها ، فاندلقت عينه الزرقاء على صدره ، وتدفق الدم من قفا رأسه ، الذي تهشم مثل عيدان الكبريت ، وهكذا غاب عن الوجود مكسيم غريازنوف ، من قوزاق تاتارسكي ، سارق الخيل سابقاً والسكير مؤخراً .

فنظر بونتشوك اليه وهو يعالج سكرات الموت . ومسح الدم بعناية من سبطانة الرشاش ، الدم الذي طفر من رأس ماكسيم المثقوب . وبات التراجع ضرورياً في أعقاب ذلك ، فسحب بونتشوك الرشاش إلى الوراء تاركاً ماكسيم يموت على الأرض الحامية . كان جسده الأسمر معرضاً للشمس ذلك أن ماكسيم قد سحب قميصه فوق رأسه وهو يصارع الموت .

وتوقف في أول مفترق طرق في الضاحية فيلق من الحرس الأحمر كان قد عاد أفراده جميعاً من الجبهة التركية . وساعد جندي يرتدي قبعة فرو مهترئة بونتشوك في نصب الرشاش وبنى الآخرون متاريس مستعجلة في عرض الشارع ، وهم يمزحون ويطلقون شتائمهم باتجاه العدو . واستقلت آنا الى جانب بونتشوك . واستلقى جنود الحرس الأحمر صفوفاً متروسة وراء المتراس المؤقت .

وعلى حين غفلة تناهى اليهم وقع أقدام في الشارع من اليمين ، فهرع تسعة أو عشرة من الحرس الأحمر الى المنعطف . وصاح أحدهم :

ـ انهم قادمون! اهربوا!

ولم تمض لحظة حتى أمسى مفترق الطريق مهجوراً بلقعاً . ثم علا مثار من النقع ، واندفع الى المنعطف قوزاقى خيال على قبعته شريط أبيض ، وقد شد الى جانبه بندقية فرسان . وكبح حصانه بقوة جعلت الحيوان يقعي على ساقيه الخلفيتين . فأطلق بونتشوك اطلاقة من مسدسه . فجرى القوزاقي ناكصاً الى الوراء وقد مال بشدة على رقبة حصانه . وانتابت الجنود خلف المتراس البلبلة والتردد ، وركض اثنان منهم تحت الجدار واستلقيا عند بوابة . كان واضحاً أن الرجال سيتزعزعون ويتراجعون بعد دقيقة . فلم يكن الصمت المشحون ونظراتهم المتوجسة لينم عن الصمود...

لم يعلق في ذاكرة بونتشوك من كل ما أعقب ذلك سوى مشهد واضح لا تنمحي ذكراه . لقد اندفعت آنا وهي تجرجر بندقيتها وراءها ، شعثاء الشعر منفعلة الى درجة لا تصدق ، وقد انداحت عصابتها الى قفا رأسها ، وتلفتت حولها وأشارت الى المنزل الذي اختفى القوزاق خلفه ، وصرخت بصوت أرعش يصعب تمييزه : «اتبعوني!» . ثم ركضت شطر المنعطف بخطوات متعثرة مترددة .

فرفع بونتشوك نفسه من الأرض . وندت من فمه صيحة مبهمة ثم اختطف بندقية من أقرب جندي وجرى خلف آنا ، وهو يلهث ويحس برعشة في ساقيه لا تكبح ، وقد قتم وجهه وجرى وهو يحاول دونما طائل أن يصيح ، أن يناديها ويعود القهقرى . وسمع لهاث بضعة من الرجال يتراكضون خلفه . وأحس بكل جوارحه أن شيئاً مريعاً لا يعوض على وشك الوقوع . وأدرك حتى منذ تلك اللحظة أن الآخرين لن يتبعوها ، وأن اندفاعها كان غير ذى معنى ، وطائشاً ، وانتحارياً .

وقرب المنعطف اصطدم بكل طاقته بالقوزاق الذين انطلقوا بجيادهم نحوهم . فأطلقوا رشقة من الطلقات المتبعثرة... أزيز الرصاص . صرخة بائسة واهنة ندت عن آنا . ثم رآها تتهاوى على الطريق بيد منبسطة وعينين متوحشتين . ولم يعد يرى القوزاق ينكصون الى الوراء ، ولا الجنود الحمر

يطاردونهم ، وقد ألهبهم حماس متأخر بعد اندفاع آنا الذي يستحث الهمهم . لم تعد عيناه تريان سواها فيما راحت تنازع تحت قدميه . فقلبها ليرفعها ويحملها بعيداً . بيد أنه رأى الدم يتدفق من جنبها الأيسر ، والأذيال الخلقة لبلوزتها الزرقاء تتهدل باسترخاء حول الجرح ، فأدرك أنها أصيبت برصاصة دم ـ دم وأيقن أنها كانت تحتضر : فقد أحس بالموت يحوم حول عينيها الغائمتين .

فنحّاه أحدهم جانباً وحملوها إلى باحة أحد البيوت وأرقدها في فيء سقيفة مائلة .

ودس جندي لبادات من القطن الطبي في الجرح مالبث أن رماها بعد أن تشربت بالدم . وضبط بونتشوك عواطفه ، ففك أزرار ياقة بلوزتها ، ومزق خرقة من قميصه ، وطواها على شكل اضمامة وضغطها على الجرح . غير أن الدم نزّ خلالها ، ورأى وجهها يستحيل أزرق وشفتيها ترتعشان من شدة الألم وقد حالتا داكنتين . وانفغر فمها ناشداً للهواء ، غير أن رئتيها لم تقويا على التنفس ، اذ جعل الهواء يخرج من فمها وجرحها . فخرق مزق ثوبها ، دون أن يستشعر خجلاً وسدّوا الجرح بقطعة من القطن كيفما اتفق ، فعادت إلى وعيها بعد بضع دقائق . وحدقت عيناها الغائرتان لحظة في بونتشوك من محجريهما الداكنين ، ثم ما لبث جفناها المرتعشان أن انطبقا عليهما .

وجعلت تئن وتتضور : «ماء! ياللحر الفظيع!» وانفجرت تجهش : «أريد أن أعيش! ايليا! حبيبي !...آ... آه !» .

وضع بونتشوك شفتيه المنتفختين على وجنتها الملتهبة . وصب ماء على صدرها . فملأ التجويفين تحت ترقويتها ، ولكنه ما لبث أن جف بعد هنيهة . كانت تصطلي بنار موات . وجعلت تنازع ، ثم أفلتت بنفسها من يديه .

ـ حارة... نار!...

ولما خارت قواها فترت حرارتها بعض الشيء ، وقالت بوضوح :

ـ« ولكن لماذا ياايليا ؟ حسناً ، ها أنت ترى كم الأمر بسيط..أنت شخص غريب... انه بسيط إلى حد الفظاعة..ايليا ، حبيبي ، سوف تـ... هناك أمي » . وفتحت عينيها قليلاً ، وكأنما تغضنتا من الضحك ، وشرعت تتكلم بصورة مبهمة ، وهي تجهد أن تتغلب على الألم والرعب ، وكأن شيئاً ما كان يخيفها : « كان احساسي بادىء الأمر... ضربة لافحة... أما الآن فكل شيء يشتعل... أحس... اني أموت » . وقطبت لما لاحظت ايماءة الانكار المرة عليه : « لا!... عسير... آه . ما أشق التنفس ! » .

كان كلامها دفقات متشنجة ، وكأنها تحاول أن تخبره بكل ما كانت تعاني منه . ولاحظ بهلع أن وجهها أخذ يشحب ويستحيل أصفر عند الصدغين . فحول عينيه إلى يديها الممدودتين بلا حياة إلى جنبيها ، ورأى أظفارها تكتسي زرقة وردية مثل اجاص أسود ناضج .

ـ ماء! صدري... يا للحر الفظيع!

وهرع إلى المنزل ليأتي بالماء . وعند رجوعه لم يسمع لهاث آنا المتحشرج في فيء السقيفة . كانت الشمس الغاربة تلقي أشعتها على فمها و هو يرسم أمارة النزع الأخير ، وعلى يدها الشمعية الدافئة الجامدة المشدودة إلى الجرح . فأحاط كتفيها بذراعيه مترفقاً ، ثم رفعها ، ونظر هنيهة إلى أنفها الأقنى الأنمش بعض الشيء ، والغضون الدقيقة المعتمة بين عينيها ، وحاول أن يتلمس ألق بؤبؤيها الذاوى تحت حاجبيها السوداوين . وتهدل رأسها الواهن العاجز إلى أسفل ، ونبض العرق في جيدها الأهيف الفتي نبضته الأخيرة .

وطبع شفتيه الباردتين على جفنيها الداكنين نصف المغمضين ، وجعل يناديها : « صديقتي! عزيزتي! آنا » .

ثم استوى ، ودار بحدة على عقبه ، ومضى يسير منتصب القامة بصورة غير اعتيادية ، دون أن يحرك ذراعيه المشدودتين إلى جنبيه .

٢٦

مرت الأيام التي تلت على بونتشوك كتلك التي عاشها حين أصيب بالتيفوس . كان على عهده يتجول ، وينجز أعماله ، ويتناول طعامه ، ويخلد إلى النوم . انما كان على الدوام أشبه بمن يتناول جرعة مخدر مبلدة . كان يحدق في العالم المحيط به شارداً ، بعينين منتفختين مهووستين ، ولم يعد يميز أصدقاءه ، وبدا كمن أصيب بخدر شديد الوطأة أو كمن شرع يبل من مرض عضال .فمنذ مصرع آنا كانت تمر عليه لحظات يتبلد فيها احساسه : لم يكن يريد شيئاً ، أو يفكر في شيء« كل يا بونتشوك! » كان رفاقه يلحفون عليه ، فيأكل ، ويتحرك فكاه ببطء وتكاسل . وظل رفاقه يراقبونه ، وتشاوروا حول إرساله إلى المستشفى .

سأله أحد رماة الرشاشات في اليوم التالي :

ـ هل أنت مريض ؟

ـ كلا .

ـ ما الأمر ؟ أتراك حزيناً ؟

ـ كلا .

ـ حسناً ، فلندخن . ليس بوسعك أن تستعيدها الآن ، يا صاح . ان ذلك لن يجدي فتيلاً .

وعندما يحين وقت النوم كانوا يقولون له : «حان وقت النوم! » فيرقد .

أمضى أربعة أيام في حالة انطوائه عن دنيا الواقع هذه . وفي اليوم الخامس التقى به كريفوشليكوف في الشارع ، وأمسك بذراعه . وقال له :

ـ أها ، هوذا أنت! كنت أبحث عنك . ـ ونفح بونتشوك بضربة ودود على كتفه وهو لا يدري ما حدث له ، وابتسم قلقاً وأضاف : ـ ماذا دهاك ؟ لست سكران ، أليس كذلك ، ألم يبلغك أننا سنرسل حملة إلى منطقة الدون

الشمالية ، لتعبئة القوزاق هناك ؟ وسوف يقودها بودتيلكوف ؟.. إن رجاءنا الوحيد هو في قوزاقيي الشمال . والا فسوف نقع في الفخ هنا . هل سنذهب ؟ نحن بجاجة الى محرضين . ستذهب ، أليس كذلك ؟ »

فأجاب بونتشوك باقتضاب : ـ أجل .

ـ طيب ، ذلك حسن . سنرحل غداً .

وأعد بونتشوك عدته للرحيل ، وهو على حاله تلك من الاعياء العقلي ، ومضى مع الحملة في اليوم الأول من أيار .

في هذه المرحلة كان وضع حكومة الدون السوفيتية عصيباً جداً . فقد كان جيش الاحتلال الألماني يتقدم شرقاً في أوكرانيا ، وكانت مناطق الدون الأسفل تمور بتمردات معادية للثورة . وكمن بوبوف في السهوب وراء الدون ، يهدد بالإغارة على نوفوتشيركاسك في أية لحظة . وكان مؤتمر السوفييت المحلي الذي انعقد في أواسط نيسان قد قوطع أكثر من مرة لصد المتمردين القوزاق الذين كانوا يقتربون من روستوف ويحتلون ضواحيها . في الشمال فقط كانت نيران الثورة البلشفية ماتزال في أوارها ، والى هذه النيران كان بودتيلكوف والآخرون قد انسحبوا اضطراراً بعد أن فقدوا أمل الحصول على مساندة من الدون الأسفل . فقد باءت التعبئة بالفشل . ومن ثم قرر بودتيلكوف الذي انتخب حديثاً رئيس مجلس قوميسارية الشعب في الدون ، بمبادرة من لاغوتين ، الشخوص الى الشمال لتعبئة ثلاث أو أربع كتائب من رجال خط الجبهة ، وتوجيههم ضد الألمان والثورة المعادية في المناطق السفلى .

فعينت لجنة تعبئة استثنائية مؤلفة من خمسة أعضاء ، برئاسة بودتيلكوف ، وسحب عشرة ملايين روبل من الذهب والعملة القيصرية من خزينة الدولة لسد نفقات التعبئة ، وجمعت بعجالة وحدة مؤلفة بصورة رئيسية من قوزاق من منطقة كامينسكايا لتقوم بحراسة النقود ، وفي الأول من آيار توجهت الحملة صوب الشمال ، وقد تعرّضت لنيران السلاح الجوي الألماني .

كانت السكك تمور بالحرس الأحمر المتراجعين من أوكرانيا . وكان القوزاق المتمردون ينسفون الجسور ويخربون القطارات . وكانت الطائرات الألمانية تحلّق صبيحة كل يوم فوق السكك الحديدية من نوفوتشيركاسك الى كامينسكايا ، وتنقض مثل أسراب من النسور وتفتح نيران رشاشاتهاعلى مفارز الحرس الأحمر . فيتفرق الجنود من الشاحنات ، وتدوي الإطلاقات بأزيز حاد ، وتختلط في المحطات رائحة الخبث بدخان الحرب والدمار . ثم تمضي الطائرات بعيداً في الفضاء ويفرغ رماة البنادق مشطاً اثر مشط من العتاد ، فارشين الأرض حول القطارات بالخراطيش الفارغة حتى لتبدو أشبه بأجمة بلوط في الخريف تناثرت فوقها أوراق ذهبية . وعمّت أمارات الخراب كل مكان . وتناثرت شاحنات القطارات المحطمة المحترقة ، والأسلاك المقطوعة المدلاة من أعمدة التلغراف ، والمنازل المخربة ، والأسيجة المقامة لاتقاء الثلج ، تناثرت أشلاء وكأن عاصفة اجتاحتها .

ظلت الحملة تشق طريقها بطيئة طوال خمسة أيام على امتداد الخط الحديدي باتجاه ميليروفو . وفي اليوم السادس دعا بودتيلكوف لجنة التعبئة للاجتماع في عربته .

ـ لا نستطيع المضي على هذه الشاكلة . أرى أن نترك العربات وكل حاجياتنا ونقطع بقية الطريق سيراً .

فتساءل لاغوتين :

ـ لماذا ؟ سوف يطبق البيض علينا فيما نسرح نحن على أقدامنا .

وقال مريخين غير واثق :

ـ انها مسيرة بعيدة بعض الشيء .

كان كريفوشليكوف جالساً لا يرين ، وقد تدثر بمعطفة ، وبدا أصفر بفعل الملاريا والكنين . كان متكوماً على كيس سكر ، لايسهم في النقاش . وكانت على عينيه غشاوة من أثر الحمى .

ناداه بوتيلكوف دون أن يرفع عينيه :

ـ كريفوشليكوف!

ـ ما الأمر ؟

ـ ألست تسمع ؟ يجب أن نذهب على أقدامنا ، والا فسيدركوننا ، ماذا تقول ؟ فأنت أكثرنا ثقافة .

فقال كريفوشليكوف بتؤدة وجلاء : «بوسعنا أن نسير» ، بيد أن أسنانه اصطكت على حين غفلة مثل الذئب وجعل يرتجف في نوبة من الحمى . واستطرد : «بوسعنا أن نفعل ذلك لو لم يكن لدينا الكثير مما نحمله» .

فنشر بودتيلكوف خارطة ازاء الباب ، وأمسك بها مريخين عالياً من طرفيها . فاندفعت اليها الريح التي كانت تهب من ناحية الغرب المدلهمة ، وكأنها تهم بنتشها .

ـ سنتخذ هذا الطريق ، ـ ومر بودتيلكوف بأصابعه الملطخة بالنيكوتين على الخارطة ، وأردف : ـ نقطع مائة وخمسين أو مائتي فرسخ ، بالكثير ، ها!

فوافقه لاغوتين :

ـ بلى ، يحسن بنا أن نقطعها سيراً . ولينزل العمى بأعينهم!

ـ ماذا تقول أنت ، ياميخائيل ؟

فاهتز كريفوشليكوف مغتاظاً ، وقال :

ـ لا مانع لديّ .

ـ سأخبر القوزاق بالنزول من القطار في الحال . فلاداعي لضياع الوقت .

ـ قال مريخين ذلك وجال ببصره حوله يترقب ، وإذا لم يصادف معارضة ما ، قفز من الشاحنة .

وفي صباح ذلك اليوم الماطر القاتم لم يكن القطار الذي يقل حملة بودتيلكوف بعيداً من بيلايا كلتيفا . كان بونتشوك مستلقياً في شاحنة وقد غطى رأسه بمعطفه . وفي الشاحنة نفسها كان القوزاق يعدون شاياً ،

ويتضاحكون وبعضهم يجرجر سياق البعض الآخر . أبقى بونتشوك عينيه مغمضتين . كان يستعيد ذكرى حوادث الماضي ، مستشعراً آلامها . وقد مثل أمام عينيه المغشوتين السهب المغطى بالثلج تطرزه هامات الغابات البنية في الأفق . وخيل اليه أنه يستطيع أن يتحسس الريح الباردة ، وقد بدت آنا واقفة الى جانبه . كان بوسعه أن يرى عينيها السوداوين ، وتقاطيع فمها الصارمة الرقيقة في الوقت ذاته ، والنمش الخفيف فوق أنفها ، وتغضن حاجبها الذي يوحي بالاستغراق والتأمل . على أنه لم يكن بوسعه أن يميز الكلمات التي ندت عن شفتيها ، كانت غير واضحة تقاطعها أصوات غريبة وقهقهات ، ومن التماع عينيها ورفيف أهدابها حدس ماكانت تقوله .

ثم هذه آنا أخرى ، بوجه أصفر مزرق ، وعلى خديها آثار الدموع ، وأنفها معصور وشفتاها تتضوران ألماً . انحنى ليقبل محجري عينيها القائمتين . وجعل يئن ويضغط على بلعومه لحبس نشيجه . ولم تبارح آنا ذهنه أبداً . وظلت ملامحها ماثلة أمام عينيه دون أن تذوي أو تضطرب . لقد التأم وجهها وقوامها ، ومشيتها ، وحركاتها ، وقوس حاجبيها ، ليؤلف منها كلاً حياً . واستعاد كلماتها وأحاديثها الشاعرية الرقيقة ، وكل الأشياء التي عاشاها معاً . فزادته هذه الذكرى الحية عذاباً على عذاب .

وأيقظوه عندما صدر الأمر بالنزول ، وجمع حاجياته دونما اكتراث ، وخرج . واشترك في تفريغ الأمتعة . وبنفس الشعور من اللامبالاة تسلق عربة خيل ومضى بها .

كان المطر يرذ ، وكان العشب القميء على امتداد الطريق ندياً . وهناك السهب الطلق ، ، حيث تهيم الريح جوابة فوق الحزون والوهاد . وترامي وراءهم دخان القاطرات ، وأبينة المحطات بلونها الأحمر . كانت العربات الأربعون التي استؤجرت من أقرب قرية تدب متثاقلة . وكانت الخيل تسير وئيدة ، اذ كانت تعيق حركتها التربة الطينية السوداء المنقوعة بالمطر . والتصق الوحل بالعجلات كتلاً سوداً أشبه بجعد الصوف . وسارت

أمامهم ووراءهم جموع من عمال المناجم لائذين بالفرار مع زوجاتهم وأهليهم وحاجياتهم البائسة ، ميممين وجوههم صوب الشرق اتقاء شر القوزاق .

وعند مفرق الخط الحديد لحقت بهم فلول مفرزتين أخريين من مفارز الحرس الأحمر المبعثرة . كانت وجوههم ترابية كالأرض من أثر القتال ، وافتقادهم النوم ، والجوع . تقدم آمرهم شادينكو نحو بودتيلكوف ، وقد لاح الاعياء الشديد على وجهه الوسيم ذي الشاربين المقصوصين على الطريقة الانكليزية والأنف الدقيق القاسي . وإذ مرّ بونتشوك بهما سمع شادينكو يتكلم بصوت متعب غضوب ، وقد عقد حاجبيه :

ـ أتظن أني لا أعرف جماعتي ؟ كانت الأمور بالأمس سيئة بما فيه الكفاية ، وعلينا أن نحسب حساب الألمان أيضاً ، سلخ الله وجوههم . لعمري متى أستطيع أن ألم شعث قواتي ثانية ؟

بعد هذا الحديث حث بودتيلكوف خطاه ليلحق بعربته ، بادي العبوس والارتباك . فتقدم منه كريفوشيلكوف وجعل يخاطبه بانفعال . ولاحظه بونتشوك يلوح بذراعه الى الاسفل ويهدر ببضع عبارات . فدبّ الحماس في ذهن بودتيلكوف وقفز الى العربة فصرت من ثقله . ولم يكد السائق يلفح ظهور الخيل حتى تطاير الوحل من العجلات .

وصاح بودتيلكوف والريح تنفخ سترته الجلدية :

ـ أسرعوا!

٢٧

ظلت الحملة تواصل مسيرتها عدة أيام متوغلة في قلب اقليم الدون . وقد رحب بهم سكان القرى الأوكرانية وأكرموا وفادتهم ، وباعوهم المؤن عن طيبة خاطر وآووهم . ولكن ما ان أثير موضوع اكتراء خيل الرحلة الى كراسنوكوتسك حتى شرع الأوكرانيون يحكون رؤوسهم ، وأعلنوا بعد تردد يسير رفضهم البات فقال بودتيلكوف لواحد منهم :

ـ ستحصل على كمية وافرة من النقود ، فلماذا تشيح بوجهك عنا ؟
ـ هل تعتقد أنني أفضل النقود على حياتي ؟
ـ نحن لا نريد حياتك ، انما نطلب منك أن تؤجرنا بعض الخيل ، عربة واحدة ليس غير .
ـ لا أستطيع .
ـ لِمَ لا ؟
ـ أنتم ذاهبون الى القوزاق ، أليس كذلك ؟
ـ وماذا في ذلك ؟
ـ هب أن شيئاً سيقع وأفقد خيلي . ماذا تراني سأفعل آنذاك ؟ كيف سيتسنى لي أن أعيش دونما خيل ؟ كلا ، يارجل ، دعني وشأني . لن أفعل ذلك .

وعندما أخذوا يقتربون من أراضي القوزاق ، ازداد توجس بودتيلكوف وبقية القادة . فقد لاحظوا تغيراً في موقف الناس الذين طفقوا الآن يظهرون لهم الضغينة والتهيب علانية ، ويبيعونهم الطعام على مضض ، ويتملصون في الاجابة . لم تعد العربات يتكأكأ حولها حشد فرح من صبية القرى ، بل أخذت تسترق النظر اليهم وجوه عدائية من النوافذ ، ويتوارى القرويون عن الأنظار حالما يقع نظرهم عليهم .

فراح قوزاق الحملة يصرخون في وجوههم :
ـ ماذا أنتم ، ثلة كفار ؟ فيم تحملقون فينا كالبوم ؟

وألقى فانكا بولديريف بقبعته على الأرض في ساحة القرية ، وقد بعث في نفسه اليأس مما لا قوه من استقبال فاتر ، وأرعد وهو يجول ببصره خشية أن يراه أحد القواد :
ـ أأنتم أنس أم جن ؟ فيم وقوفكم صامتين ؟ ألا لعنة الله عليكم! نحن نريق دماءنا من أجل حقوقكم وأنتم لا تفعلون سوى أن تلتهمونا بنظراتكم! لقد حلت المساواة الآن أيها الرفاق ، فلم يعد هناك لا قوزاقي ولا أوكراني ،

ولن يمسكم أحد بسوء من الآن فصاعداً . ايتوا لنا ببيض ودجاج في الحال ، ندفع لقاء ذلك روبلات قيصرية .

كان ستة أوكرانيين يستمعون اليه ، وقد انحنت رؤوسهم بقنوط ، وكإنهم جياد وضع عليها نير الحراثة . ولم يبد أي منهم تجاوباً مع خطابه الناري .

ـ لا زلتم أولئك الاوكرانيين العفنين كعهدنا بكم! ألا فلتنبعج بطونكم ، أنتم أيها البرجوازيون أصحاب الكروش المنتفخة! ـ ورمى بولديريف ثانية بقبعته البالية واستحال وجهه أرجوانياً من شدة الغيظ ، وأردف : ـ أنتم لا تجودون بحفنة من الثلج في عز الشتاء!

فلم يزد الاوكرانيون على أن يقولوا له :

ـ لا داعي لزعيقك! ـ ثم تفرقوا كل الى سبيله .

وفي القرية نفسها سألت عجوز أوكرانية أحد القوزاق :

ـ أصحيح أنكم ستسلبون كل شيء وتمزقوننا إرباً إرباً ؟

فأجابها القوزاقي دون أن يطرف جفناً :

ـ أجل ، صحيح . ولعلنا لن نفعل ذلك مع كل انسان ، ولكننا سنمزق كل الشيوخ .

ـ أوه ، ياالهي! ولماذا تمزقونهم ؟

ـ لنأكلهم مع الثريد . لقد سئمنا طعم الضأن منذ زمن . ولم يعد شهي المذاق ، ولهذا نضع الشيوخ في قدورنا ونطهو مرقاً نفيسا منهم...

ـ لا أخالك تمزح ، أليس كذلك ؟

فتدخل مريخين :

ـ انه يكذب أيتها الجدة! ـ والتفت الى القوزاقي الهازل وقال :

ـ تعّلم كيف تمزح ومع من تمزح! سيقطع بودتيلكوف لك رأسك على أكاذيبك هذه . فيم تنشر هذه الحكايات ؟ سوف تذهب وتخبر كل انسان بأننا نمزق الشيوخ!

واذا استبد ببودتيلكوف القلق ، جعل يختصر من طوال الوقفات والاستراحات الليلية ، وراح يعجل في تقدم الحملة . وفي اليوم السابق لوصولهم منطقة الدون الأعلى جرى بينه وبين لاغوتين حديث طويل .

ـ ليس هناك من جدوى في ذهابنا بعيداً جداً ، ياايفان . سنشرع بالتجنيد حالما يتسنى لنا ذلك . سوف نعلن عن موعد التسجيل ونعرض أجوراً طيبة . انما يتأتى عليهم أن يأتوا جميعاً بجيادهم وعددهم ، فليس لنا أن نرمي بنقود الشعب في البالوعة . سنجمع رجالاً كلما تقدمنا . وعندما نكون قد بلغنا ميخائيلوفكا يجب أن تتكون لدينا فرقة تحت امرتنا . مارأيك ، أتظن أننا سنحقق ذلك ؟

ـ سنحقق ذلك ، شريطة أن يكون كل شيء مايزال هادئاً هناك .

ـ اذاً فأنت تعتقد أن البيض ربما بدأوا عملهم فعلاً ؟

ـ من يدري ، ـ ثم مسد لاغوتين لحيته القصيدة وأضاف بقنوط :

لقد تأخرنا... وأخشى أننا لن نوفق . فقد باشر الضباط عملهم هناك . علينا أن نسرع...

فأجابه بودتيلكوف وقد تألقت عيناه بقسوة :

ـ نحن مسرعون بالفعل! واياك أن تجزع! علينا ألا نجزع ، فمن ورائنا رجال ، فلا داعي للخوف . سوف نشق طريقنا! وفي غضون أسبوعين سنكون قد اكتسحنا الألمان والبيض من الدون . ثم قال في سريرته معرباً عن شعوره الداخلي وهو ينفخ سيكارته بقوة : ـ لئن كنا قد تأخرنا كثيراً ، لسوف يقضى علينا وعلى النظام السوفييتي في الدون . يجب علينا أن لا نتأخر كثيراً . أمّا اذا كان الضباط قد دبروا عصياناً قبل أن نصل الى هناك ، فتلك هي النهاية! ـ ووشيك غروب اليوم التالي وطأوا أرض القوزاق . وحينما اقتربوا من أول قرية رأى بودتيلكوف ، وهو في إحدى العربات الأمامية مع لاغوتين وكريفوشليكوف ، قطيعاً من الماشية في السهب . فاقترح قائلاً للاغوتين : «لنذهب ونسأل ذلك الراعي» . فأيد كريفوشليكوف الفكرة .

فترجل لا غوتين وبودتيلكوف ومضيا شطر القطيع ، كان العشب المشاع الذي لفحته الشمس يومىء بلون بني . كان العشب قميئاً قد هرسته الأقدام ، ونما على حافة الطريق شيء من اللفت والشوفان البري تخشخش ذؤاباته الشعث . ومضى بودتيلكوف وهو يفرك بيده عسلوجاً من شيح متيبس ويتنشق رائحته المريرة :

ـ لك العافية ، أيها الراعي .

ـ العافية من عند الله .

ـ تسرح بقطيعك ؟

ـ أي .

وأرخى العجوز نظره من تحت حاجبيه الأشيبين الكثين .

ـ حسناً ، كيف تسير معكم الأمور هنا ؟

ـ نقضيها بمعونة الله .

ـ ماعندك من أخبار ؟

ـ لا شيء يذكر . ومن عساكم تكونون ؟

ـ نحن جنود عائدون الى أهلينا .

ـ من أية قرية أنتم ؟

ـ أوست ـ خوبر سكايا .

ـ عسى ألا يكون بودتيلكوف ذاك بينكم ، أم تراه معكم ؟

ـ نعم .

فلاح الجزع على الراعي اثر الجواب ، وشحب لونه . فسأله بودتيلكوف :

ـ مالخبر أيها الشيخ ؟

ـ يقال أنكم ستقتلون الأرثودوكس .

ـ هراء! من ينشر هذه الأكاذيب ؟

ـ الأتمان قال ذلك في اجتماع عقد قبل يومين . لعله سمع أو تسلم

رسالة من الحكومة تقول ان بودتيلكوف والكالميكيين في طريقهم الينا ليذبحونا جميعاً .

فسأله لاغوتين وهو ينظر الى بودتيلكوف الذي كان يعض نصلاً من الحشيش بأسنانه القوية الصفر : ـ إذاً فقد اصبح لديكم أتمانات من جديد ؟

ـ انتخبنا أتماناً قبل بضعة أيام . وقد ألغى مجلس السوفييتات .

وكان بود لاغوتين أن يلحف عليه بمزيد من الاسئلة ، غير انه حصل في هذه اللحظة أن ثوراً هائجاً شب على احدى البقرات على مبعدة يسيرة منهما فطرحها أرضاً . فشهق الراعي قائلاً :

ـ سيقصم ظهرها ، ذلك الشيطان!

واندفع الى قطيعه بسرعة لا تتناسب مع سنه وراح يصيح وهو يركض :

ـ انها بقرة ناستينكا... سوف يقصم ظهرها... ماذا دهاك ياأقرع!

فنشر بودتيلكوف ذراعيه وعاد الى العربة . وراح لاغوتين ، وقد كان فلاحاً جيداً ، يحدق قلقاً في البقرة الصغيرة الواهنة التي طرحها الثور أرضاً وهو يقول في ذهنه : أجل ، كاد أن يقصم ظهرها ، ذلك الشيطان!

ولم يعد الى القافلة الا بعد أن تأكد أن البقرة قد نجت بظهرها من سطوة الثور . وراح يسأل نفسه : «ماذا سنفعل ؟ عسى ألا يكون أهل الجانب الآخر من الدون قد أقاموا أتمانات جديدة ؟ » بيد أن ثوراً أصيلاً كان يقف على جانب الطريق مالبث أن صرف ذهنه من جديد . كان يشتمّ بقرة جسيمة كبيرة الضرع ، دهماء ، ويهز برأسه الهائل ذي العظام الناتئة . كان صدره الكبير يتدلى حتى ركبته وجسمه القوي الطويل مشدوداً مثل وتر الكمان . وقد انغرزت سيقانه القصيرة في الأرض كالركائز ، واذا حطت عينا لاغوتين بحنو على اهاب الثور البني المرقط ، متملياً أصالته بغبطة ، شغل ذهنه بهذه الخاطرة : «ان ثوراً كهذا يصلح لقريتنا حقاً . أمّا ثيراننا فبائسة تعيسة » . لقد استأثرت الخاطرة باهتمامه هنيهة ، ثم مالبثت أن تلاشت ، وراح يقلّب في ذهنه الرأي حول الطريق الذي ينبغي أن يسلكوه فيما هو

يمضي صوب العربة ويرى الى وجوه القوزاق الكئيبة .

كان كريفوشليكوف الحالم الشاعر ، الذي نالت منه الحمى ، يقول لبودتيلكوف :

ـ اننا نبذل جهدنا لنتحاشى موج الثورة المعادية ، ولكنها في سبيلها لاكتساحنا . انها لأشبه بالمد يعلو شاطئاً مستوياً . وليس بوسع المرء أن يسابقه .

وكان بودتيلكوف وحده يبدو عليه أنه يدرك خطورة الموقف ادراكاً تاماً . كان جالساً في العربة وقد انحنى جسمه الى الامام ، يهتف للسائق بين دقيقة وأخرى :

ـ أسرع!

وانطلق أحدهم ينشد أغنية من مؤخرة الطابور بيد أنها مالبثت أن تلاشت على حين فجأة . فتعالى الضحك والصخب وطغى على قرقعة العجلات .

واتضح أن المعلومات التي استقوها من الراعي كانت صحيحة . وصادفوا قوزاقياً من رجال خط الجبهة في طريقه إلى قرية سفيتشنيكوف مع زوجته . كان الرجل يرتدي شريط الكتف وشارة على قبعته . ولما سأله بودتيلكوف بضعة أسئلة ازداد وجهه اكفهراراً .

عندما تجاوزوا قرية اليكسييفسكايا ، شرع المطر يتساقط . كانت السماء غائمة . ومن الشرق فقط بدت السماء زرقاء قاتمة خلل فجوة في الغيوم . وفيما كانوا يهبطون منحدراً يؤدي الى مضرب صغير شاهدوا أناساً يهرولون ، وبضع عربات تجري منطلقة من الجانب الآخر .

فقال لا غوتين شارد البال وهو يعاين الآخرين :

ـ انهم يهربون ، انهم يخافوننا...

فهتف بودتيلكوف :

أرجعوهم . صيحوا عليهم ، الشياطين!

فوقف الجنود في عرباتهم وطفقوا يلوحون بقبعاتهم . وراح أحدهم يصيح بقوة :

ـ إلى اين أنتم متجهون ؟ قفوا!...

ومضت عربات الحملة تقعقع صوب المضرب . كانت الريح تدوم خلل الشارع الفسيح المهجور . وفي أحد الافنية كانت عجوز أوكرانية تتذمر وترمي وسائد في عربة فيما أمسك زوجها بلجام الفرس وهو حافي القدمين حاسر الرأس .

وعلموا هنا أن الرجل الذي أرسله بودتيلكوف ليدبر لهم مأوى قد أسرته دورية قوزاقية وقادته وراء المرتفع . ولا بد أن القوزاق كانوا غير بعيدين . فقرروا بعد اجتماع قصير أن يعودوا أدراجهم . على أن بودتيلكوف الذي كان في بادىء الأمر يصر على مواصلة سيرهم ، ظل متردداً .

أما كريفوشليكوف فقد لزم الصمت . كان مايزال يرتعش من الحمى .

فسأل بودتليكوف بونتشوك الذي كان حاضراً الاجتماع :

ـ ربما نستطيع المضي قدماً ؟

فهز بونتشوك كتفيه بلا اكتراث . لم يكن ليهمه سواء مضوا في مسيرتهم الى الامام أو الخلف ، ماداموا يواصلون السير ، لينأى عن أحزانه التي ظلت ترافقه . وظل بودتيلكوف يتخطى جيئة وذهاباً ، ويتكلم عن مزايا ذهابهم إلى أوست ـ مدفيديتسا . بيد أن أحد المحرضين القوزاق قاطعه بعنف :

ـ يبدو أنك فقدت صوابك! الى أين تريد أن تقودنا ؟ إلى أعداء الثورة ؟ اننا سنعود ادراجنا! فلسنا نريد أن نموت! ما ذاك! ؟ ألا ترى تلك ؟ ـ وأشار الى المرتفع في أعلى القرية .

فالتفتوا جميعاً وراحوا يحدقون صعد التل . كانت على قمته صورة لثلاثة خيالة ترتسم على صفحة السماء .

فهتف لاغوتين :

ـ تلك احدى دورياتهم!

ـ انظروا! هناك أيضاً!

وظهرت جماعات أخرى من الخيالة ، وتوارت وراء التل ، ثم ظهرت من جديد .

فأصدر بودتيلكوف أمراً بالعودة . ومضوا إلى أليكسييفسكايا ، بيد أن سكان القرية شرعوا بالاختفاء والهرب بعد أن أنذرهم القوزاق سلفاً .

وبدأ الغسق يدركهم . وبللهم المطر البارد الخفيف حتى الجلد . كان الرجال يسيرون حذاء العربات حاملين بنادقهم على هيئة استعداد . وتعرج الطريق إلى وادٍ ، وتخلله ، وارتقى المرتفع خلفه . وكانت دوريات القوزاق تظهر وتختفي بين الحين والآخر على قمم التلال . فزاد وجودها المتربص توتر أعصابهم .

وقرب احدى الوهاد التي تعترض الوادي قفز بودتيلكوف من عربته ودعا الرجال باقتضاب :

ـ استعدوا! ـ ورفع صمام الأمان في غدارته التي يستعملها الخيالة وجعل يمشي قدماً بجانب العربة . كان ماء الفيضان الربيعي يلوح أزرق في الوهدة . كان يجري الى بركة يحدها سد وكان الوحل المحيط بالبركة قد عجنته حوافر الماشية التي قصدتها لترتوي . وكان السد المتهاوي مهدباً بنبات الحلفاء التي راح المطر ينيمها ويعبث بها . وقد توجس بودتيلكوف وجود كمين في هذا الموضع ، بيد أن الدورية الأمامية لم تفلح في العثور على أحد .

وهمس كريفوشيلكوف في أذنه :

ـ ليس هناك مايدعوك الى أن تتوقع وجودهم هنا . فهم لا يشنون الهجوم الآن . إنما ينتظرون حلول الليل .

ـ وهذا ماأحسبه أنا أيضاً .

٢٨

تجمعت سحب مدلهمة في الغرب ، وخيم الظلام ، وبعيداً ، صوب الدون ، كانت السماء تومض ، وتهتز صفحة البريق البرتقالية مثل طير مهيض الجناح . وتوهج الغروب بشحوب تحت بساط غيمة . وبدا السهب وكأن الصمت قد لفّه ، وتوارى البصيص الكابي لضوء النهار المنحصر ، في أغوار الوادي . كان ذلك المساء من أيار خريفياً بأنفاسه . فحتى الأعشاب التي لمّا تزهُ بعد كانت تنبعث منها رائحة تحلّل يصعب وصفها . وكان بودتيلكوف يتنسم الشميم الثر للأعشاب المخضلة وهو ماضٍ في سيره . وكان يتوقف بين الفينة والأخرى وينحني ليزيح الوحل من جزمته ، ثم مايلبث أن يستوي من جديد ويحث خطوه ساهماً ، وسترته الجلد مفتوحة تصر بفعل الرطوبة .

بلغوا القرية التالية في الليل . فترك قوزاق الحملة عرباتهم وذهبوا ليقضوا الليل في دور القرية . وأصدر بودتيلكوف أمراً يقضي بتعيين خفراء عسكريين ، بيد أنهم وجدوا مشقة في الحصول على رجال لتلك المهمة . فقد رفض ثلاثة الامتثال للأوامر رفضاً باتاً .

فقال كريفوشليكوف مستشاط الغضب :

ـ أحيلوهم الى محكمة عسكرية حزبية في الحال! واعدموهم لرفضهم اطاعة الأوامر!

بيد أن بودتيلكوف أتى بحركة تعبة يائسة وقال :

ـ المسيرة زعزعت معنوياتهم ، ولن ينبروا للدفاع عن أنفسهم . لقد قضى علينا ياميشا!

على أن لاغوتين أفلح على نحو ما بجمع بضعة قوزاق ، وأقام مراكز حراسة خارج القرية . ودار بودتيلكوف في البيوت وتحدث الى القوزاق الذين يستطيع الاعتماد عليهم أكثر من غيرهم ، قائلاً :

ـ لا تناموا أيها الشباب! والا فسوف يطبقون علينا!

وأمضى الليلة بكاملها جالساً الى طاولة وقد أسند رأسه بيده ، يجرجر أنفاساً ثقيلة مكدودة أشبه بحيوان جريح . وقبيل الفجر بقليل أخذته سنة من النوم ، وألقى برأسه الكبير على الطاولة . ولكنه مالبث أن أوقظ في الحال استعداداً لمواصلة تراجعهم . كان ضوء النهار ينبلج . فخرج الى الفناء فلقيته ربة المنزل في سقيفة الدار وهي عائدة من الحلب .

قالت له دونما اهتمام :

ـ هناك بعض الفرسان يتحركون على التل .

فهرع الى الفناء . فتراءت خلف لفاع الضباب المخيم على القرية وعلى صفصاف المروج ، قوات كبيرة من القوزاق على التل . كانوا يقتربون من القرية في خبب سريع ويطوقونها .

وجعل القوزاق يتدفقون من الدور الأخرى الى الفناء . وتقدم أحدهم من بودتيلكوف وانتحى به جانباً وقال :

ـ أيها الرفيق بودتيلكوف... لقد جاء رسل منهم لتوهم ،ـ ولوح بيده صوب التل وأردف : ـ وأخبرونا أن نبلغك بأن علينا أن نسلم سلاحنا ونستسلم في الحال . والا فسوف يهجمون علينا .

فأمسك بودتيلكوف بتلاليب الرجل وقال له :

ـ أنت... يابن القحبة! كيف تجرؤ ان تقول لي مثل هذا الكلام ؟...

ودفعه جانباً ثم هرع إلى العربة . والتقط بندقيته من ماسورتها ، والتفت وراح يهتف الى القوزاق بصوت خشن أبح :

ـ نستسلم ؟ أي جامع يجمعنا بأعداء الثورة ؟ سنقاتلهم! اتبعوني! الى السلاح!

فاندفع عدد من القوزاق من الفناء في أثره ، وهرولوا لمة واحدة إلى طرف القرية . وعندما بلغوا آخر بيوتها أدرك مريخين بودتيلكوف . وراح يقول له :

ـ ويحك يا بودتيلكوف! أهناك داع لإراقة دماء اخوتنا ؟ تعال معي! فلابد أن نتوصل إلى إتفاق ما .

ولما وجد بودتيلكوف أنه لم يتبعه سوى شطر صغير من رجال الحملة ، واذ أدرك عن سداد أن الهزيمة أمر لا محيد عنه اذا ما نشب القتال ، انتزع الترباس من بندقيته ولوّح بقبعته بلا مبالاة قائلاً :

ـ لاجدوى من ذلك يا أولاد! لنعد الى القرية!

وعادوا أدراجهم . وتجمع رجال الحملة كلهم في ثلاثة أفنية متلاصقة . وبعد بضع دقائق دخلت القرية ثلة من أربعين فارساً قوزاقياً . أمّا قوة العدو الرئيسية فقد بقيت في مواضعها على التلال الواطئة المحيطة بالقرية . ، وبدعوة من الشيوخ ذهب بودتيلكوف الى طرف القرية ليبحث شروط الاستسلام . وفيما كان ماضياً في طريقه لحق به بونتشوك الذي كان يركض وراءه وأوقفه :

ـ هل قرّ رأيك على الاستسلام ؟

ـ ان المقاومة لا تجدي فتيلاً . فما عسانا نفعل غير الاستسلام ؟

فقال بونتشوك وهو يختض من رأسه حتى أخمص قدميه :

ـ أتريد أن تموت ؟ ـ وراح يصرخ بصوت عالي النبرة لا جرس له ، متجاهلاً الشيوخ الذين مالبثوا أن رافقوا بودتيلكوف : ـ قل لهم اننا لن نسلم أسلحتنا!

ثم استدار على عقبيه وعاد يحث الخطى ويلوح بمسدّسه . وجرّب اقناع الحرس الأحمر ليحاولوا ايجاد منفذ لهم ويشقوا طريقهم الى السكك . بيد أن الأكثرية كانت إلى جانب الاستسلام . فقد أشاح البعض بوجوههم ، أما الآخرون فقد هتفوا مغضبين :

ـ اذهب انت وقاتل . أما نحن فلن نطلق النار على اخواننا!

ـ سنضع أنفسنا تحت رحمتهم دونما حاجة إلى السلاح .

ـ اليوم عيد الفصح وتريد منا أن نريق الدماء ؟

فاستدار بونتشوك وعاد الى عربته ، ورمى معطفه تحتها ، ثم انبطح شاداً كفه على عقب مسدسه بقوة . وفي البدء فكر في محاولة للهرب . بيد أنه لم يسغ فكرة الهرب والفرار ، فلبث ينتظر عودة بودتيلكوف .

وعاد بودتيلكوف بعد نحو ثلاث ساعات ، مصطحباً معه حشداً كبيراً من القوزاق إلى القرية . كان يسير ثابت الخطى مرفوع الرأس . والى جانبه كان آمر قوات القوزاق البيض الرئيس سبيريدونوف ، الذي صادف أنه كان رفيقه في المدفعية . كان سبيريدونوف يتحدث اليه ويبتسم بدهاء . وخلفه كان قوزاقي على صهوة جواد يشد إلى صدره صارية خشبية خشنة لعلم أبيض .

كانت الشوارع والأفنية حيث تجمعت عربات الحملة قد سدت بالقوزاق القادمين . وضج هدير من الأصوات على حين غرة . كان الكثير منهم رفاق سلاح لقوزاق بودتليكوف فيما مضى ، وعندما عرف بعضهم البعض تعالى الضحك وهتافات الفرح :

ـ مرحباً ، أهذا أنت يابروخور ؟ ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

فأجاب بروخور :

ـ كنا على وشك ان نقاتلكم . أتذكر كيف طاردنا النمساويين قرب لفوف ؟

ـ وهذا ابن العم دانيلو! لقد قام المسيح ، يا ابن العم!

فأجاب دانيلو على تحية عيد الفصح :

ـ لقد قام حقاً ؟

وتعالى صوت التقبيل . ثم وقف القوزاقيان يمسدان بعواذرهما ويتمليان النظر ببعضهما البعض ، يضحكان ويضربان على ظهر بعضهما الآخر .

وقال أحد القوزاق الحمر :

ـ لم ننته من صيامنا بعد...

ـ ولكنكم بلاشفة ، وما شأنكم والإفطار ؟

ـ هم... م! قد نكون بلاشفة ، ولكننا نؤمن بالله مع ذلك .

ـ هوه! أنت تكذب!

ـ الله يشهد على ما أقول!

ـ وهل تحمل صليباً ؟

ـ بالطبع . هذا هو . ـ وفتح الجندي الأحمر ياقة قمصلته وأخرج الصليب النحاسي المحضوضر الذي كان معلقاً على صدره الأسمر المشعر .

وراح الشيوخ الذين خرجوا بمذاريهم وفؤوسهم ليظفروا بـ «بودتيلكوف المتمرد» ينظرون إلى بعضهم البعض مذهولين وقال أحدهم :

ـ ماذا ؟ لقد أخبرونا أنكم قد تخليتم عن ديانتكم المسيحية! وسمعنا أنكم كنتم تسرقون الكنائس وتقتلون القسس .

ـ وانكم تؤمنون بالشيطان!...

فراح الجندي الأحمر ذو الوجه العريض يؤكد لهم بصدق :

ـ كلها أكاذيب! انهم يروون لكم الأكاذيب . ولعلمكم ، أقول انني قبل أن أبارح روستوف ذهبت الى الكنيسة وتقرّبت .

ـ أوه ، انك تعقد الأمور عليّ!

وانبرى عجوز قميء مسلح برمح مبتور حتى النصف يصفق بيديه فرحاً .

وضجّ الشارع والأفنية بطنين صاخب . ولم تمض نصف ساعة حتى خف عدد من القوزاق إلى الشارع ينحون كتلة الرجال المتراصة ويهتفون :

ـ على أولئك الذين ينتمون إلى مفرزة بودتيلكوف أن يصطفوا استعداداً لتلاوة الأسماء!

وجاء خلفهم الرئيس سبيريدونوف . ونزع قبعته وصاح :

ـ على كل من ينتمي الى مفرزة بودتيلكوف أن يخطو إلى اليسار صوب الأسيجة . أما الآخرون فالى اليمين . ايها الأخوة ، يارجال خط الجبهة! لقد

توصلنا الى قرار بالاتفاق مع قادتكم يقضي بأن تسلموا كامل أسلحتكم ، لأن الناس يخافونكم مادمتم مسلحين . ضعوا بنادقكم وبقية أسلحتكم ، في عرباتكم . وسنحرسها سوية . وسوف نرسلكم إلى كراسنوكوتسكايا ، وهناك ستتسلمون أسلحتكم من جديد .

فتعالت همهمة تذمر عالية من قوزاق الحرس الأحمر ، وهتف أحدهم :

ـ لن نسلم أسلحتنا!

وسرت بين الحشد دمدمة ملأت الشارع والأفنية الغاصة بالناس .

وماج القوزاق التابعون لسبيريدونوف الى اليمين ، تاركين الحرس الأحمر في هرج ومرج وسط الشارع . وراح كريفوشليكوف ينظر حوله كحيوان طريد . وزم لاغوتين شفتيه . أما بونتشوك الذي كان قد أصر ألا يسلم سلاحه ، فقد خطا بسرعة نحو بودتيلكوف ، وبندقيته في يده تخط في أثره .

ـ يجب ألا نسلم أسلحتنا! هل تسمع ؟

فهمس بودتيلكوف وهو يخبط بأصابعه بعصبية قائمة تعداد المفرزة :

ـ لقد فات الأوان .

فوقعت قائمة التعداد بيد سبيريدونوف ، الذي ألقى عليها نظرة وقال متسائلاً :

ـ يجب أن يكون تعداد المفرزة مئة وثمانية وعشرين . فأين البقية ؟

ـ انسلوا عن المفرزة في الطريق .

ـ هكذا اذاً . حسناً قل لهم أن يسلموا سلاحهم .

فكان بودتيلكوف أول من بادر إلى نزع مسدسه من قرابه . ثم قال بصوت أبح وهو يسلمه :

ـ ان سيفي وبندقيتي في العربة .

وبدأ تجريدهم من السلاح . وراح القوزاق يسلمون أسلحتهم بتثاقل ، وحاول بعضم اخفاء مسدساتهم في الأسيجة والأقنية .

فهتف سبيريدونوف مبتسماً بجذل :

ـ سوف يفتش كل من لا يسلم سلاحه!

ورفض عدد منهم بتحريض من بنتشوك تسليم بنادقهم ، فانتزعوا منهم السلاح بالقوة . وذهب حامل رشاش بحصانه إلى خارج القرية حاملاً معه متراس رشاشه ، فأحدث جلبة وراءه . وفي غمرة الفوضى أفلح بضعة آخرون في إخفاء أنفسهم . فوضع سبيريدونوف في الحال حراسة على بودتيلكوف والبقية ، وفتشهم وحاول أن يقرأ تعدادهم ، غير أن الأسرى أحجموا قائلين :

ـ فيم لجؤوك الى قائمة التعداد ؟ اننا هنا جميعاً!

ـ اذهب بنا الى كراسنوكوتسكايا!

ـ ضع حداً لهذه اللعبة!

وختم صندوق المال وأرسل الى كارغنسكايا تحت الحراسة المشددة . ثم جمع سبيريدونوف الأسرى ، وأصدر أمره مغيراً في الحال لهجة صوته وتعابير وجهه :

ـ اصطفوا صفين! يساراً استدر! عادة سر! الكلام ممنوع!

فسرت بين صفوف الحرس الأحمر همهمة من التذمر . ومضوا في مسيرتهم مكرهين ، وسرعان ما خرجوا عن الصف وواصلوا سيرهم دونما انتظام .

كان بودتيلكوف حينما طلب من رجاله تسليم أسلحتهم ، لا يزال يأمل في حل أفضل للقضية . الا أنه ما ان اقتيد الأسرى خارج القرية حتى شرع القوزاق الذين كانوا في حراستهم يضايقون الرجال الذين هم في أطراف المسيرة بخيولهم . وكان بونتشوك يحث خطوه في اليسار ، ولغير ما سبب ضربه بالسوط قوزاقي شيخ ذو لحية حمراء متوهجة يتدلى من أذنه قرط اسودّ لونه بفعل القدم . فلفح طرف السوط وجنة بونتشوك . فالتفت وضم قبضته ، بيد أن ضربة ثانية أوجع من سابقتها أجبرته على أن يشق طريقه بين حشد الأسرى . لقد فعل ذلك بلا ارادة ، تدفعه غريزة بدائية في الدفاع

عن النفس ، وللمرة الأولى منذ موت آنا ارتسمت على شفتيه ابتسامة شوهاء عندما أدرك والدهشة تتملكه مدى قوة وعناد الرغبة في الحياة عند الإنسان .

وشرع الحرس القوزاق يضربون الأسرى . واندفع الشيوخ اليهم ، يستثيرهم منظر أعدائهم المستضعفين ، بخيلهم ، يميلون من فوق سروجهم ، ويضربونهم بسياطهم وبنصل سيوفهم . فراح من أصابتهم الضربات يحاولون بلا ارادة أن يشقوا طريقهم إلى الوسط وهم يتدافعون ويطلقون الصرخات وهتف أحد رجال الحرس الأحمر وهو يهز بقبضته فوق رأسه :

ـ اذا كنتم تريدون قتلنا ، فاقتلونا في الحال ، عليكم اللعنة! والا ففيم تعذبوننا ؟

وهتف كريفوشليكوف :

ـ أين هي وعودكم ؟

فخفف الشيوخ من غلواء قساوتهم . ودمدم أحد الحراس الذي حنا ، كما يبدو ، على البلاشفة جواباً على سؤال أحد الأسرى :

«الى اين تسوقوننا ؟»

ـ الأوامر التي تسلمناها تقتضي بالذهاب بكم الى بونوماريوف . لا تجزعوا أيها الأخوة ، فلن يصيبكم ما هو أسوأ من هذا .

وعندما وصلوا قرية بونوماريوف ، وقف سبيريدونوف عند باب حانوت صغير ، وأخذ يسأل الأسرى فيما هم يدخلون الواحد بعد الآخر :

ـ لقبك ؟ اسمك ؟ أين ولدت ؟

وكان يسجل أجوبتهم في مفكرته البالية المتسخة .

ولما جاء دور بونتشوك ، سأله سبيريدونوف وقلمه الرصاص حاط على الورقة استعداداً للكتابة : «لقبك ؟» . وألقى نظرة على وجه الجندي الأحمر الكئيب العريض الجبين فزاغ عنه بسرعة لما رأى شفتي الرجل قد زمتا استعداداً للبصاق وقال :

ـ تحرك أيها الخنزير! ستموت بلا اسم .

واستلهم اثنان آخران موقف بونتشوك فرفضا الادلاء باسميهما ، مؤثرين ان يموتا مجهولين . وحينما دخل آخر رجل في الحانوت أقفله سبيريدونوف بنفسه ووضع حوله الحرس .

وفيما كانت الغنائم المستلبة من عربات الحملة توزع على مقربة من الحانوت ، عقدت في بيت قريب جلسة لمحكمة عسكرية تم تشكيلها على عجل من ممثلين لكافة القرى التي أسهمت في عملية الأسر . كان رئيسها رئيساً أول في الجيش مكتنزاً أشقر الشعر يدعى فاسيلي بوبوف . جلس تحت مرآة معلقة مع المناشف المطرزة ، ومرفقاه حاطان على الطاولة . وقد انداحت قبعته الى الوراء . وكانت عيناه النفاذتان الرضيتان الدبقتان تنتقلان بين أعضاء المحكمة متسائلتين ، ثم طرح السؤال :

ـ ماذا نفعل بهم أيها الشيوخ ؟

ومال إلى رئيس يجلس بجانبه وأسرّ له بشيء . فهز الضابط رأسه في الحال موافقاً . فضاقت عينا بوبوف ، وتلاشى الحماس فيهما وحل محلهما بصيص بارد كالحديد لم تفلح أهدابه السفلى كثيراً في اخفائه .

ـ ما الذي نفعله بهؤلاء الذين خانوا وطنهم ، وجاؤوا لنهب بيوتنا والقضاء على القوزاق ؟

فوثب عجوز على قدميه كما تنطلق دمية مشدودة إلى نابض . وقال :

ـ أعدموهم! جميعاً!

وهز رأسه كالمأخوذ وراح يجول حوله بعينين مهووستين ، ثم هتف وهو يغص بالبصاق الذي أرغى من بين شفتيه :

ـ لا رحمة بأشباه يهوذا أولاء! اقتلوهم! اصلبوهم! احرقوهم! اقتلوا اليهود منهم!

واقترح أحد الأعضاء بتردد :

ـ هل ننفيهم ؟

ـ اقتلوهم!

ـ عقوبة الموت!

ـ الاعدام علناً!

ينبغي استئصال الاعشاب الضارة!

ـ الموت لهم!

فأعلن سبيريدونوف بادي الغيظ :

ـ من البديهي أن يرموا بالرصاص . فيم نشغل أنفسنا بالنقاش ؟

كان الصباح قد أزال آخر أثر من آثار الطيبة والرقة من وجه الرئيس . فزم شفتيه بقسوة ، وأمر الكاتب :

ـ الاعدام رمياً بالرصاص! دوّن هذا القرار!

فانبرى قوزاقي كهل بدين يجلس بمحاذاة النافذة وهتف بحدة :

ـ وماذا عن بودتيلكوف وكريفوشليكوف ؟ هل سيعدمان رمياً بالرصاص أيضاً ؟ ان هذا تساهل معهما!

فأجاب الرئيس باقتضاب :

ـ أما هما فيجب ان يشنقا بصفتهما رئيسي العصابة .

والتفت الى الكاتب وأمره قائلاً :

ـ اكتب هذا : « قرار . نحن الموقعين أدناه... »

فصدع الكاتب ، كانت تربطه بالرئيس قرابة بعيدة ، وأحنى رأسه المصفف شعره بعناية ، فوق المنضدة ، وراح يخط بقلمه .

وقال أحدهم متأسياً :

ـ يبدو المصباح قد نفذ زيته .

وجعل المصباح ينازع ، والفتيلة تدخن . وخلل الصمت كان طنين ذبابة وقعت في شراك نسيج عنكبوت على السقف ، وخربشة القلم على الورقة ، والتنفس الثقيل لرجل من أعضاء المحكمة العسكرية يعاني من الربو ، يسمع بوضوح .

قرار

٢٧ نيسان (١٠أيار) ، ١٩١٨

نحن الموقعين أدناه ، ممثلي القرى التابعة لنواحي
كارغينوفسكايا ، وبوكوفسكايا وكراسنوكوتسكايا :

ستيبان ماكساييف	يمثل	قرية فاسيلييفسكي
نيكولاي كروجيلين	يمثل	قرية بوكوفسكي
فيودور كوموف	يمثل	قرية فومين
الكسندر كوختين	يمثل	فرخنى ـ يابلونوفسكي
ليف سنيف	يمثل	قرية نجنى ـ دولينسكي
سميون فولوتسكوف	يمثل	قرية ايلينسكي
ميخائيل بوبوف	يمثل	قرية كونكوفسكي
ياكوف رودين	يمثل	قرية فرخنى ـ دولنسكي
ألكسندر فرولوف	يمثل	قرية سافوستيانوف
مكسيم فيفراليوف	يمثل	قرية ناحية ميليوتنسكايا
ميخائيل غروشيف	يمثل	قرية نيكولاييف
ايليا يلانكين	يمثل	ناحية كراسنوكوتسكايا
ايفان دياتشنكو	يمثل	قرية بونوماريوف
نيكولاي كريفوف	يمثل	قرية يفلانتييف
لوقا يمييليانوف	يمثل	قرية مالاخوف
ماتفي كونوفالوف	يمثل	قرية نوفو ـ زمتزيفو
ميخائيل بوبوف	يمثل	قرية بوبوف
فاسيلي شيفولكوف	يمثل	قرية أستاخوف
فيدور تشيكونوف	يمثل	قرية أورولوف
فيودور تشوكارين	يمثل	قرية كليمو ـ فيودورفسكي

اجتمعنا هنا في السابع والعشرين من نيسان (١٠ أيار) ١٩١٨
برئاسة ف . بوبوف

قرار

١ ـ الحكم بالموت رمياً بالرصاص على خونة الشعب الكادح وسارقي قوته ، المدرجة أسماؤهم أدناه ، والذين يبلغ مجموعهم ثمانين ، باستثناء اثنين ـ هما بودتيلكوف وكريفوشليكوف ـ حيث تقرر اعدامهما شنقاً باعتبارهما رئيسين لهذه المجموعة .

٢ ـ تبرئة ساحة القوزاقي أنطوان كاليتفنتسوف من أهالي قرية ميخائيلوفسكي لعدم توفر الأدلة .

٣ ـ وتقرر اعدام قسطنطين ميلنكوف ، وغافريلا ميلنكوف ، وفاسيلي ميلنكوف ، وأكسيونوف ، وفرشنين الذين هربوا من مفرزة بودتيلكوف وألقي القبض عليهم في ناحية كراسنوكوتسكايا ، بموجب الفقرة الأولى من هذا القرار (الموت رمياً بالرصاص) .

٤ ـ ينفذ هذا الحكم غداً الثامن والعشرين من نيسان (١١ أيار) في السادسة صباحاً .

٥ ـ يكون الملازم سينين مسؤولاً عن حراسة الأسرى ، وعند الحادية عشرة بعد الظهر ينسب للحراسة تحت امرته قوزاقيان من كل قرية ، مسلحان ببندقيتهما . وسيكون أعضاء المحكمة مسؤولين عن تنفيذ هذه الفقرة . وأن ينفذ الحكم خمسة قوزاق من كل قرية ، يرسلون إلى ساحة الاعدام .

التوقيع
ف . ن ، بوبوف ،
رئيس القطاع العسكري
ا . ف بوبوف ، الكاتب

وحين انتهى الكاتب من كتابة قائمة المحكومين ، دسّ القلم بيد الرجل الجالس الى جانبه وقال :

ـ وقّع!

فأمسك الرجل القلم الملطخ بالحبر بأصابعه الصغيرة السمر وقال وقد ندت عن شفتيه ابتسامة بلهاء :

ـ لا أحسن الخط...

ووقع الآخر مرتبكاً هو أيضاً ، مقطب الجبين ، وهو يتصبب عرقاً من الاجهاد . وقام آخر بعدة محاولات فاشلة قبل التوقيع ، ثم سحب بعدها لسانه الذي ظل مدلى أثناء هذه العملية . أما بوبوف فقد ثبت توقيعه وذيّله بخط محدود ، ثم نهض وهو يمسح وجهه العرقان بمنديله .

وقال متثائباً :

ـ ارفق به القائمة

فقال أحدهم مبتسماً وهو يراقب الكاتب يلصق الورقة على الجدار :

ـ لسوف يشكرنا كاليدين من الآخرة على صنيعنا هذا .

ولم يستجب أحد للمزحة . ثم بارحوا الدار صامتين .

وفي عتمة سقيفة الباب تنهد أحدهم قائلاً : « ياعيسى المسيح... »

٢٩

لم تغمض جفون الأسرى المحتجزين في الحانوت الا لماماً ، أثناء تلك الليلة المتلألئة بالنجوم . وسرعان ما انقطع الحديث بينهم ، فقد ضاقت أنفاسهم بالهواء الخانق وبما تجيش صدورهم من قلق .

وظل واحد منهم يسأل الحارس طوال المساء :

افتح الباب أيها الرفيق ، أريد أن أخرج...

ويقف مضطرب الهندام ، حافي القدمين ، وصديريه مدلى على سرواله ، ويعيد الكلام وهو يشد على ثقب المفتاح .

ـ افتح أيها الرفيق!

وأجابه أخيراً أحد الحرس :

ـ الغول لك يارفيق!

فغّير لهجته في المخاطبة :

ـ افتح أيها الأخ!

فأنزل الحارس بندقيته ، وجر آخر نفس من سيكارته . وأعار سمعه لخفق أجنحة سرب من البط البري في طيرانه بحثاً وراء طعام الليل ، ثم وضع فمه أمام خصاص الباب وقال :

ـ بوسعك التبول على نفسك ، أيها الشيطان البائس! فلن تحتاج الى سروالك في الليل ، ولن يحل الفجر حتى يرسلوك إلى الآخرة سواء كنت مبللاً أو ناشفاً...

فصاح الجندي الأحمر قانطاً : «اننا هالكون» ، ثم ابتعد عن الباب .

كانوا جالسين كتفاً لكتف . وفي احدى الزوايا كان بودتيلكوف يسب مع نفسه ويمزق النقود التي كان يحتفظ بها في جيبه . وبعد أن فرغ من ذلك ، خلع جزمته وربّت على كتف كريفوشليكوف :

ـ لقد بات واضحاً الآن... انهم خدعونا . أجل خدعونا ، أولئك الأنذال عليهم اللعنة! ـ قال ذلك لصديقه الذي كان مستلقياً الى جانبه وأردف : ـ انه لشيء مقرف ياميخائيل . حينما كنت صبياً كنت أذهب للصيد في الغابة حاملاً غدارة أبي . كنت أسير والأشجار تبدو أشبه بسقف أخضر فوق رأسي . وكنت اذا رميت البط وأخطأته ينتابني الحنق ، حتى لأكاد أبكي لولا الخجل . أما هنا فقد خبطت خبط عشواء . فلو أنا تركنا روستوف قبل ذلك بثلاثة أيام لما كتب لنا أن نواجه الموت هنا ، ولكنا قد قلبنا عليهم ثورتهم المعادية رأساً على عقب .

واذ حاول كريفوشليكوف أن يبتسم له التوت شفتاه ألماً . وهمس قائلاً :

ـ اللعنة عليهم ، فليقتلونا! فأنا لم أعد أخشى الموت . وكل ماأخشاه

هو أننا قد لا نعرف بعضنا البعض في الآخرة ، كما تقول الأغنية . سنكون هناك ، أنا وأنت يا فيودور ، ولكننا سنلتقي مثل الغرباء... وهذا ما ماأخشاه!

فهز بودتيلكوف بغضب واضعاً يديه الكبيرتين الحارتين على كتفي صديقه :

ـ دعك من هذا! ليست المشكلة هنا!

أما لاغوتين فقد كان يحدث آخر عن قريته ، وكيف كان جده يسخر منه لطول رأسه ، وكيف أنه نال جلداً بالسوط على يد جده ذاك حين أمسك به الجيران في مزرعة البطيخ العائدة لهم .

ودارت نتف الحديث حول مواضيع شتى في تلك الليلة .

وكان بونتشوك قد وجد مكاناً قرب الباب ، حيث راح يتنشق بلهفة الهواء الداخل خلل الخصاص . وعندما عاد بذاكرته إلى الماضي ، جعل يفكر في أمه . واذ أحس بوخزة حادة من الألم ، راح يجبر نفسه على تغيير مجرى أفكاره ، فعرج على ذكرى آنا والحوادث الأخيرة . فوجد في هذا عزاء وراحة بال كبيرين . ولم يعد يشعر بالرعشة التي كانت تعاوده في عموده الفقري أو بالألم الداخلي الذي يحس به عندما يتملكه شعور بأنه على وشك أن تنتزع منه الحياة . بل راح يرقب الموت ليخلد إلى راحة هامدة بعد مسيرة شاقة مريرة ، حتى أعياه الكلال ، وناء جسده بآلام مبرحة ، فلما دنت خاتمة المطاف كانت أحاسيسه ناضبة متحجرة .

وكان قربه جماعة من الأسرى يتحدثون بمرح وأسى ، عن النساء والحب ، وعن المسرات ، كبيرها وصغيرها ، التي عاشها كل منهم . تحدثوا عن عوائلهم ، وأقاربهم ، وأصدقائهم . وتطرقوا في الحديث الى جودة القمح اليانع ، فقد كانت سيقان الحنطة عامذاك عالية إلى درجة لا يستطيع المرء أن يرى الغربان السحم فيها . وتاقوا إلى الفودكا والى الحرية ، ولعنوا بودتيلكوف . ولكن النعاس خيم على الكثير منهم بجناحه الأسود . واذ هدّمهم التعب والاعياء ، خلدوا الى النوم رقوداً وجلوساً وحتى وقوفاً .

وما ان انبلج ضوء النهار حتى انفجر أحدهم باكياً في يقظته أو منامه . ولشد ماهو فظيع أن يشرع بالبكاء رجال كبار أشداء نسوا مذاق الدموع المالحة منذ الطفولة . وفي الحال مزقت السكون الوسنان عدة أصوات :

ـ اخرس ، عليك اللعنة!

ـ اخرس والا مزقت حنجرتك .

ـ ما أشبهك بالنساء!

ـ فقد كل شعور بالحياء ، في حين ينام الرجال الى جانبه!

وخنّ الرجل بأنفه ، وتمخط ، ثم خلد الى الصمت . وشعت هنا وهناك رؤوس السكاير الحمر المتلامعة ، ولكن أحداً لم يحر بكلام . كان الهواء خانقاً مفعماً برائحة العرق الذي يتصبب من أجساد الرجال القوية وقد تلاصقت مع بعضها ، وبدخان السكاير والندى الذي تجمع في الليل .

وفي القرية أنبأ ديك بشروق الشمس . وتناهى من خارج الحانوت وقع أقدام وقعقعة الحديد .

وصاح أحد الحراس :

ـ من هناك ؟

فأجاب صوت فتى متحمس :

ـ أصدقاء! اننا ذاهبون لنحفر قبراً لرجال بودتيلكوف . وفي الحانوت سرت ململة بين الأسرى .

٣٠

وصلت مفرزة قوزاق تاتارسكي بقيادة بيوتر ميليخوف قرية بونوماريوف في فجر اليوم الحادي عشر من أيار فألفوا القرية تضج بقعقعة أحذية القوزاق ، وصهيل الخيل في طريقها لورد الماء . كانت الحشود تتدفق صوب الطرف الأقصى للقرية . فأوقف بيوتر رجاله وسط القرية ، وأصدر أمره

بالترجل . فشخص اليهم عدد من القوزاق . وسأل أحدهم :

ـ من أين أنتم ؟

ـ من تاتارسكي .

ـ تأخرتم بعض الشيء . فقد أسرنا بودتيلكوف بدون مساعدتكم . وقد احتجزوا هناك مثل الدجاج في القن . ـ وضحك ولوح بيده صوب الحانوت .

فاقترب خريستونيا وغريغوري وبضعة رجال آخرين منه ، وتساءل خريستونيا :

ـ الى أين سيرسلونهم ؟

ـ ليلتحقوا بالموتى .

فأمسك غريغوري بمعطف الرجل وقال :

ـ ماذا ؟ أنت تكذب!

فرد عليه الرجل بعطف ، وخلص نفسه بحذر من أصابع غريغوري القوية :

ـ حسناً ، اخترع أنت أكذوبة أفضل منها ، ياصاحب السعادة! انظر هناك ، ها قد أعدوا المشنقتين لهما . ـ وأشار إلى حبلين مدليين من عارضة وضعت بين صفصافتين قميئتين :

فأصدر بيوتر أمره قائلاً :

ـ خذوا الجياد إلى الاسطبل .

* * *

كانت السماء غائمة . وكان مطر خفيف يتساقط . وتجمع حشد كبير من القوزاق والنساء خارج القرية . لقد خرج أهالي بونوماريوف بلهفة وكأنهم ذاهبون للفرجة على مشهد نادر مسلٍ ، بعد أن أحيطوا علماً بأن الاعدام سينفذ في الساعة السادسة . كانت النسوة ترتدي ملابس العيد ؛

وقد اصطحبت الكثيرات منهن أطفالهن . وغصت أرض المرعى بالجمهور المتجمع حول المشنقتين والحفرة التي يبلغ عمقها ست أقدام . وتسلق الأطفال تلة التراب الطري المرمي الى جانب الحفرة ، في حين راح الرجال يتحدثون بحماس عن الاعدام المقبل ، والنساء يتهامسون بأسى فيما بينهن .

ووصل رئيس المحكمة العسكرية وآثار النوم مازالت بادية على وجهه الذي ارتدى سيماء الجد . ولاحت أسنانه القوية فيما كان يدخن ويعضعض بسيكارته . وبصوت أبح أمر الحرس القوزاق قائلاً :

ـ ابعدوا الناس عن الحفرة . واخبروا سبيريدونوف أن يرسل الوجبة الأولى .

وألقى نظرة إلى ساعته ووقف جانباً يرقب الحشد يدفعه الحراس وقد بدا في هيئة نصف دائرة زاخرة بالألوان .

وقاد سبيريدونوف ثلة من القوزاق بسرعة الى الحانوت . فالتقى في طريقه بيوتر ميليخوف :

ـ هل من متطوعين من قريتكم ؟

ـ متطوعين لأي شيء ؟

ـ ليقوموا بمهمة الرمي .

فأجابه بيوتر بخشونة ، وهو يجتاز سبيريدونوف الذي سد الطريق :

ـ كلا ، لا يوجد لدينا ، ولن يكون البتة!

ومع هذا فقد تطوع بعض من الرجال تاتارسكي . فلقد اندفع ميتكا كورشونوف إلى بيوتر وقال محاوصاً عينيه الخضراوين وهو يمسد شعره الظاهر من تحت رفرف قبعته :

ـ أريد أن اتطوع . ففيم تقول « كلا ؟ » سأكون واحداً منهم . اعطني بعض الخراطيش ، فلديّ ما يكفي لمشبك واحد فقط .

وانضم اليه أندريه كاشولين وعلى وجهه الشاحب أمارات شر مستطير ، وفيدوت بودفسكوف .

وسرى الهمس والهمهمة ببن الحشد المتراص عندما خرجت أول مجموعة من الأسرى المحكومين ، قوامها عشرة ، يحيط بهم حراس من القوزاق .

كان بودتيلكوف يسير في المقدمة ، حافي القدمين يرتدي بنطلون خيالة أسود فضفاضاً ، وكانت سترته الجلد مشرعة . كانت قدماه الكبيرتان تطآن الأرض الموحلة بثبات ، وحين حدث أن تزحلق رفع ذراعه اليسرى قليلاً ليحافظ على توازنه . والى جانبه كان كريفوشليكوف شاحباً شحوب الموتى ، يجر خطاه بمشقة . كانت عيناه تنبضان بوميض محموم ، وفمه يختلج من الألم . وفيما كان يلملم معطفه على كتفيه ، سرت في جسمه رعشة كمن يهلك من البرد . ولسبب ما ابقى على ملابس هذين الاثنين ، أما الآخرون فقد عروا إلا من ملابسهم الداخلية . وسار لاغوتين إلى جانب بونتشوك . كان كل منهما حافي القدمين ، وقد كشف سروال لا غوتين الداخلي الممزق عن جلده المصفّر المشعر ، فجعل يلمه على بعضه حياء . أما بونتشوك فراح يتطلع عبر رؤوس الحرس في بساط الغيم المترامي في الأبعاد . كانت عيناه الباردتان الحزينتان تطرفان من شدة الترقب والانفعال ، وكان يمسد براحته العريضة صدره المشعر من تحت ياقة قميصه المفتوحة . كان يوحي للرائي أنه يتطلع الى شيء بعيد المنال ، ولكن التأمل فيه شيء يسر النفس مع ذلك . أما الآخرون ، فقد نمّت أمارات بعضهم عن عدم اكتراث وتحجر ، ولوح بلشفي أشيب الشعر بيده بازدراء وبصق عند قدم الحراس القوزاق . بيد ان اثنين أوثلاثة لاح في عيونهم حنين أبكم ، وعلى وجوههم الممسوخة رعب لا حد له ، حتى أن الحرس كانوا يشيحون بوجوههم كلما التقت بهم نظراتهم .

كانو يسيرون بسرعة . وأعطى بودتيلكوف ذراعه لكريفوشليكوف الذي كان يتعثر في سيره . واقتربوا من الحشد الذي كان يمور بعصابات الرأس البيض والقبعات الحمر . وعندما رنا اليهم بودتيلكوف راح يلعنهم

بصوت عال . ثم لما ألفى لاغوتين قد سمر عينيه فيه ، سأله فجأة :

ـ ماالأمر ؟

ـ لقد شاب رأسك في الأيام الأخيرة...

ـ هذا ليس بالغريب! ـ وجر بودتيلكوف نفسه بمشقة ، ومسح العرق من حاجبيه الضيق ، وأعاد القول : ـ هذا ليس بالغريب! حتى الذئب يشيب في القفص ، فكيف بي وأنا رجل .

ولم ينبسا بكلمة أخرى . وماج الحشد الى أمام بكتلة متراصة . وامتد القبر إلى اليمين أشبه بندبة طويلة سوداء .

وأصدر سيبريدونوف أمره :

ـ قف!

فخطا بودتيلكوف في الحال خطوة الى الأمام ، وجال ببصره بقلق في الصفوف المتقدمة من الناس . كان معظمهم شيباً . وكان رجال خط الجبهة الى الوراء بعض الشيء تعذبهم ضمائرهم . واهتز شاربا بودتيلكوف المتهدلان حين راح يقول بتباطؤ وبجلاء في الوقت ذاته :

ـ أيها الشيوخ! اسمحوا لي ولكريفوشليكوف أن نرى كيف سيواجه رفاقنا الموت . اشنقونا بعدئذ ، فنحن الآن نود ان نرى أصدقاءنا ورفاقنا ، وأن نقوي عزائم الضعفاء منهم .

وخيم على الحشد سكون مطبق ، حتى ان قطرات المطر صارت تسمع وهي تتساقط على قبعاتهم .

ووقف الرئيس بوبوف في المؤخرة يبتسم ، ويكشف عن أسنانه التي صبغها التبغ ، ولكنه لم يرفض الطلب . وأعلن الشيوخ عن موافقتهم بجلبة وضجيج . فخطا كريفوشليكوف وبودتيلكوف نحو الحشد الذي انشطر وفتح فسحة ضيقة أمامهما . وتوقفا على مسافة يسيرة من الحفرة ، يحف بهما الحشد من جميع الجوانب ، ترقبهما مئات العيون . وراحا يحدقان النظر فيما جعل القوزاق يصفون الحرس الأحمر صفاً مضطرباً وظهورهم الى

الحفرة ، كان بودتيلكوف يستطيع الرؤية جيداً ، بيد أن كريفوشليكوف كان عليه أن يشرئب برقبته ويقف على أطراف أصابعه .

كان بونتشوك الأخير في أقصى اليسار ، واقفاً وقد انحنى قليلاً ، يتنفس بمشقة دون أن يرفع عينيه عن الأرض . والى جانبه وقف لا غوتين ، وهو لما يزل يغطي سرواله الداخلي الممزق بذيل قميصه . أما الرجل التالي في الصف فقد تغيرت ملامحه حتى لا يكاد المرء يميزه بسهولة . فلقد بدا عليه أنه شاخ عشرين عاماً على الأقل . واقترب آخران من الحفرة واستدار ، كان واحد منهما يبتسم بتحد وجسارة ، ويصب سيلاً حامياً من اللعنات على الحشد الصامت ويتوعدهم ملوحاً بقبضته القذرة . أما آخر الثمانية فقد تعين عليهم ان يحملوه ، اذ رمى بنفسه الى الوراء ، وراح يجرجر قدميه بوهن على الأرض ، ويتشبث بالحرس القوزاق ، ثم شخص بنظرة إلى الاعلى وهو يهز وجهه الذي علته الدموع :

ـ اتركوني ، أيها الأخوة! اتركوني بحق الرب! أيها الاخوة! أيها الاخوة! ماذا انتم فاعلون! لقد نلت أربع أوسمة في الحرب الألمانية . ولدي أطفال . رباه ، انني بريء ، آه ، فيم تفعلون هذا ؟...

فركله قوزاقي مديد القامة برجله على صدره وجره صوب الحفرة . وهنا تميزه بودتيلكوف ، فجمد قلبه : كان واحداً من أشجع رجال الحرس الأحمر ، رجلاً نال الدرجات الأربع كلها لوسام القديس غيورغي ، فتى وسيماً أشقر الشعر . ثم رفعه القوزاق وأوقفوه على قدميه ، ولكنه مالبث ان تهاوى أيضاً وراح يتشبث بأقدامهم ، ضاغطاً شفتيه على جزماتهم - على الجزمات التي كانت تركله على وجهه ـ ويجأر بصوت مختنق كسير :

ـ لا تقتلوني! ارحموا حالي! فلدي ثلاثة أطفال صغار ، بينهم بنت... ياأخوتي ، يا أصدقائي!

واحتضن ركبتي القوزاقي الطويل ، غير ان الرجل تخلص منه ، ووثب

الى الخلف ، وسدد له ركلة حامية على أذنه بكعبه المنعل بالحديد . فسال الدم من أذنه الأخرى وجرى حدر ياقته البيضاء .

فصرخ سبيريدونوف بغضب :

ـ اوقفوه!

ورفعوه بصورة ما ، وأوقفوه وهرولوا الى الخلف . وفي الصف المقابل رفعت ثلة المتطوعين بنادقها استعداداً . وصدر عن الحشد أنين ، ثم ران عليهم صمت لا يرين . وأعولت امرأة بصورة هستيرية .

أما بونتشوك فقد تاق مرة أخرى وأخرى إلى النظر الى بساط السماء الرمادي ، والى الأرض الحزينة التي ظل يجوبها ويعاني فيها تسعة وعشرين عاماً . ورفع عينيه ، فرأى صف القوزاق المتراص على بعد نحو خمس عشرة خطوة . رأى رجلاً طويلاً ، ذا عينين خضراوين محاوصتين ، وعلى حاجبه الأبيض الضيق خصلة الصبابة* ، وشفتاه مزمومتان ، وقد مال بجسده الى الامام ، يهدف الى صدر بونتشوك تماماً . وقبل أن يدوي الرصاص مباشرة أصمّت أذني بونتشوك صرخة مستطيلة . فالتفت فاذا بامرأة شابة نمشاء تندفع من الحشد وتولي الأدبار شطر القرية ، واحدى ذراعيها تشد رضيعاً الى صدرها ، والأخرى على عينيه .

وبعد أن أطلقت ثلة الرمي رشقتها غير المنتظمة ، على الرجال الثمانية الذين كانوا واقفين عند الحفرة وسقطوا في خط مضطرب ، هرولت الثلة الى الحفرة ، وعندما رأى ميتكا كورشونوف الجندي الأحمر الذي هدف نحوه مازال يتضور وينهش كتفه ، سدد اليه طلقة أخرى وهمس لاندريه كاشولين :

ـ انظر الى الشيطان! لقد عض كتفه حتى نزف دماً ، ومات ميتة الذئب ، دونما أنة .

---

* خصلة شعر يتزين بها شباب القوزاق الذين يسعون وراء النساء . المترجمون

وافترب عشرة محكومين آخرين من الحفرة يستحثهم الحرس بأعقاب البنادق .

وبعد الرشقة الثانية عاطت النسوة وسط الحشد وولين الأدبار ، متدافعات مجرجرات أطفالهن وراءهن ، وشرع الرجال كذلك يبتعدون عن المكان . لقد كان مشهد الاعدام الكريه ، وصراخ وأنين المحتضرين ، وصياح الذين ينتظرون دورهم ، مؤثراً للغاية ، كان ذلك المشهد الفظيع أكثر مما يحتمله المتجمهرون ، ولم يبق غير رجال خط الجبهة الذين ألفوا منظر الموت ، ومن الشيوخ أشدهم صلابة .

وجيء بوجبات جديدة من الحرس الأحمر الحفاة العراة ، فواجهتهم صفوف جديدة من المتطوعين ، وانطلقت الرشقات تتبعها اطلاقات فرادى تشق الهواء لتجهز على الجرحى . وأهيل التراب في الحال على الوجبة الأولى من الجثث في الحفرة . ومضى بودتيلكوف وكريفوشليكوف صوب الآخرين الذين ينتظرون دورهم وحاولا أن يبثا فيهم الصلابة . غير أن كلماتهما قد فقدت كل معنى : فلقد هيمنت قوة أخرى على هؤلاء الرجال الذين سيتساقطون بعد دقيقة أو اثنين كما تتساقط الأوراق الذاوية من الأغصان .

وشق غريغوري ميليخوف طريقه بين الحشد ليعود الى القرية ، فصار وجهاً لوجه أمام بودتيلكوف . فخطا قائده السابق خطوة الى الوراء وجعل يحدق فيه :

ـ حتى أنت هنا ياميليخوف ؟

فاكتست وجنتا غريغوري شحوباً أزرق ، وتوقف وقال :

ـ أنا هنا ، كما ترى...

فابتسم بودتيلكوف ابتسامة مزدرية وقال : ـ أجل ، أرى... ـ وحدق في وجه غريغوري بحقد مفاجيء وأردف : ـ حسناً ، فأنت تقتل اخوانك اذا ؟ هل قلبت بطانة سترتك ؟ يالك من... ـ وتقدم من غريغوري وهمس : ـ اذاً

فأنت حاضر لخدمتنا ، ولخدمتهم أيضاً ، أرى أنك تخدم من يدفع أكثر ؟ يا لك من!...

فأمسك غريغوري بكمه وسأله مبهور النفس :

ـ هل تذكر المعركة في غلوبوكايا ؟ هل تذكر كيف أعدموا الضباط ؟ أعدموهم حسب أوامرك ، ها ؟ والأن جاء دورك . لا تحزن! فلست الوحيد الذي يمتلك صلاحية سلخ جلود الرجال! لقد انتهى أمرك يارئيس قوميساري الدون! أيها الخنزير القذر ، لقد بعت القوزاق لليهود! أتفهم ، أم تريد سماع المزيد ؟

واحتوى خريستونيا غريغوري الهائج بذراعه ومضى به . وقال له :

ـ لنعد الى الخيل . فليس لدينا ما نفعله هنا . يا إلهي ، ماذا دهى الناس ؟...

ولكنهما توقفا لما سمعا صوت بودتيلكوف قد ارتفع بحماس . وراح يصيح ، بين شيوخ ورجال خط الجبهة :

ـ أنتم عُمي... جهلة! وهل ستعتقدون أنها ستنتهي بموتنا ؟ كلا! فاليوم أنتم الأعلون ، أما غداً فسيأتي دوركم وتعدمون . ان حكم السوفييتات سيقام في كل أنحاء روسيا . تذكروا كلماتي! انكم تريقون دماء الآخرين دونما طائل! ولستم سوى شرذمة من الحمقى .

فردّ عليه رجل عجوز :

ـ سنعالج أمر كل من يأتي الينا!

فقال بودتيلكوف باسماً :

ـ لن تقدر على قتلهم جميعاً ، أيها الجد! لن تقدر على وضع كل روسيا على المشانق! بل حافظ على رأسك أنت . وسوف تعيد النظر في الموضوع يوماً ما ، ولكن بعد فوات الأوان .

ـ لا تهددنا!

ـ لست مهدداً! إنما أريد أن أريكم السبيل السوي .

ـ انك لأعمى يابودتيلكوف . لقد أعمت موسكو بصيرتك .

ولم يلبث غريغوري ليصغي أكثر من ذلك ، فمضى مسرعاً يكاد يركض ، صوب الفناء حيث ربط حصانه ، وأحكم شد حزام سرجه ومضى هو وخريستونيا هذباً خارج القرية وجرى على التلال دون أن يلقي نظرة الى الخلف .

ولكن القوزاقي ظل يقتل أخاه القوزاقي في بونوماريوف . وامتلأت الحفرة بالجثث بعد أن أعدم جميع أفراد الحرس الأحمر . وأهيل عليهم التراب وديس بالأقدام . وقاد ضابطان يرتديان قناعين أسودين بودتيلكوف وكريفوشليكوف ، الى المشنقة . واعتلى بودتيلكوف الكرسي تحت الانشوطة ، جريئاً أبياً مرفوع الرأس ، وفك ياقته من حول عنقه الأسمر المتين ، ووضع بنفسه الحبل حول رقبته دون أن تند عنه اختلاجة . وساعد أحد الضابطين كريفوشليكوف على ارتقاء الكرسي ، ووضع الحبل حول رقبته .

فطلب بودتيلكوف قائلاً :

ـ اسمحوا لنا أن نقول كلمة أخيرة قبل موتنا .

ـ تكلم! هيا!

فبسط يديه نحو الجمع الصغير المتبقي . وشرع يقول :

ـ انظروا كيف لم يبق سوى القليل ليتفرجوا على موتنا! ان ضميرهم يعذبهم . اننا باسم الشعب الكادح ، ولمصلحته ناضلنا ضد حثالة الجنرالات ، مضحين بأرواحنا . وها نحن نموت على أيديكم! ولكننا لا نصب اللعنات عليكم! فقد غرر بكم أيما تغرير . وسوف تأتي الحكومة الثورية وستعرفون مع من كان الحق .

لقد ألقيتم بخيرة أبناء الدون الهادىء في تلك الحفرة...

فعلا هدير الأصوات ، وضاعت كلماته في الجلبة ، فاستغل أحد الضابطين هذه الفرصة ، وركل الكرسي من تحت قدميه فهوى جسم

بودتيلكوف الضخم وراح يتأرجح غير أن قدميه لامستا الأرض وخنقته العقدة المشدودة الى عنقه واضطرته إلى ان يشرئب بنفسه الى الأعلى . واستوى على أطراف أصابعه ، وراح ينشد الهواء ، وأصابع قدميه الحافيتين تحفر في الأرض الرطبة . وقال بهدوء وهو يجيل بين الحشد بعينيه الجاحظتين :

ـ حتى شنق الرجال لم تتعلموه كما ينبغي... ولو كنت أنا القائم بالمهمة ، لما جعلتك تلمس الأرض ياسبيردونوف!...

وسال اللعاب من فمه ، فرفع الضابطان المقنعان وأقرب الرجال اليهما الجسد الثقيل الذي لا حول له ووضعوه بصعوبة على الكرسي .

أما كريفوشليكوف فلم يسمح له بانهاء خطابه . فقد قذف بالكرسي من تحت قدميه فارتطم بمسحاة مهجورة . وظل جسده مشدود العضل يتأرجح الى الأمام والوراء وقتاً طويلاً ، ويتقلص إلى كتلة متكومة حتى لاصقت ركبتاه الذقن ، ثم مالبث أن انبسط ثانية وهو ينتفض في اختلاجة النزع . كان مايزال ينازع ، ولسانه الأسود الناتىء يتضور ، عندما ركل الكرسي ثانية من تحت بودتيلكوف . ومن جديد هوى جسمه بقوة ، وانقصم سلك سترته الجلد من الكتف ، لكن أطراف أصابعه بلغت الأرض ثانية .

فسرى في حشد القوزاق أنة متوجعة ، ورسم بعضهم اشارة الصليب وابتعدوا مسرعين . لقد بلغ بهم الفزع والارتباك حداً عظيماً ، حتى أنهم وقفوا جميعهم برهة وكأنهم مشدودون الى الأرض ، يحدقون برعب في وجه بودتيلكوف الذي احتقن بالسواد .

ولكنه لم يقو على الكلام ، فقد شدت العقدة عليه الخناق ، وراح يجيل بعينيه اللتين كانت تسيل منهما الدموع ، ويلوي فمه . وأخذ يجاهد للتخفيف من ألمه ، فشد جسمه بكامله الى الأعلى بصورة موجعة فظيعة .

وأخيراً فكر أحدهم في حل ، فأخذ يحفر الأرض من تحته بمسحاة . ومع كل ضربة مسحاة كان جسده يزداد توتراً ، وتستطيل رقبته أكثر فأكثر ويتدلى رأسه على كتفيه ، ولم يتحمله الحبل إلا بصعوبة ، فقد كان يتأرجح

ببطء ، ويصر عند العارضة . وراح بودتيلكوف يتأرج أيضاً متجاوباً مع حركته الايقاعية ، ويستدير الى جميع الجهات كإنه يعرض أمام قاتليه وجهه الأزرق المسود ، وصدره الذي يفيض بسيل حام من اللعاب والدموع .

٣١

ترك ميشا كوشيفوي والولد كارغين في الليلة الثانية بعد هروبهما من تاتارسكي . كان ضباب يلف السهب ، متجمعاً في الحفر ويزحف صعد سفوح الوهاد العميقة . وكانت طيور السلوى تتنادى في العشب الغض . وفي أعالي السماء طفا القمر أشبه بالزنبق المائي المتفتح في بحيرة علاها القصب والحلفاء .

ظلا يسيران حتى الغبش ، وأخذت المجرة تتلاشى في السماء ، وكان الندى يتساقط . واقتربا من احدى القرى . ولكن ستة فرسان من القوزاق أدركوهما قبل القرية ببضعة فراسخ . وحاول ميشا والولد أن يغيرا طريقهما ، غير ان الحشيش كان قصيراً ، والقمر طالعاً . فألقى القوزاق عليهما القبض وعادوا بهما نحو كارغين . وقطعوا نحو ثلاثمئة ياردة دون أن ينبس أحد ببنت شفة ، ثم علا أزيز اطلاقة . فتعثر الولد بقدميه وراح يمشي مترنحاً ، أشبه بحصان يخاف من ظله . لم يهو ، لكنه انثنى على الأرض بصورة مرتبكة ، وشد وجهه إلى نبات الشيح الرمادي .

وواصل ميشا السير خمس دقائق ، وهو يتعثر ، دون أن يشعر بشيء سوى رنين في أذنيه . ثم تساءل :

ـ لِمَ لا ترمون أيها الخنازير ؟ فيم تعذبونني ؟

فقال أحد القوزاق بنبرة عطوف :

ـ امش ، امش! وامسك لسانك! لقد قتلنا الفلاح ، ولكننا رأفنا بحالك . لقد كنت في الكتيبة الثانية أثناء الحرب الألمانية ، أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ حسناً ، ستؤدي الخدمة مرة أخرى في الثانية عشرة . فأنت ماتزال شاباً ، لقد شططت بعض الشيء ، ولكن ذلك ليس بالإثم الكبير . لسوف نشفيك من علتك .

وبعد ثلاثة أيام « أشفت » ميشا محكمة عسكرية عقدت في كارغين . وفي تلك الأيام كانت المحكمة توجه نوعين من العقوبة : الرمي بالرصاص ، والفلقة ، وكان المحكومون بالاعدام يساقون إلى السهب في الليل . أما أولئك الذين كان ثمة أمل في صلاحهم فيجلدون علناً في الساحة .

وفي صباح الأحد بدأ الناس يتجمهرون ، مالئين الساحة ومتسلقين على المصاطب ، والسقائف ، وسقوف البيوت والحوانيت .

كان أول من نال العقاب ابن قسيس . كان الرجل بلشفياً صلباً ، وكادوا أن يعدموه ، بيد أن أباه كان قساً صالحاً ، يحترمه الجميع ، ولذا قرروا أن ينفحوا ابنه عشرين جلدة . فشلحوه سرواله وطرحوه عارياً على مصطبة وأوثقوا يديه سوية تحتها ، وقعد قوزاقي فوق ساقيه ، ووقف الى جانبه اثنان آخران يحملان حزماً من أغصان الصفصاف المبللة . وشرعا بالضرب . وعندما انتهيا نهض الرجل ، وخض نفسه ، وسحب سرواله ، ثم انحنى باحترام لجميع الحاضرين في كل الاتجاهات الأربعة . كان في منتهى السعادة لأنه تخلص من الاعدام ، ولهذا انحنى معرباً عن امتنانه :

ـ شكراً لكم ، أيها الشيوخ!

فأجابه أحدهم :

ـ كان ذلك مبعث سرور لنا!

وهكذا غصت الساحة بهدير من الضحك حتى أن الأسرى الجالسين على مقربة يسيرة منهم داخل سقيفة علت وجوههم البسمة .

وعلى هذا المنوال ، أتحفوا ميشا عشرين من أجود الجلدات بيد أن عاره كان أعظم فكل المنطقة بشيوخها وشبابها تجمعت لتتفرج عليه وشد

ميشا سرواله وقال للقوزاقي الذي جلده وهو يكاد ينتحب :

ـ هذا اخلال!

ـ بأي شيء ؟

ـ عقلي هو الذي فكر ، وكان على عجيزتي أن تدفع الثمن . سأظل بقية حياتي أحس بالعار .

فقال له القوزاقي معزياً :

ـ « لا تقلق ، فالعار ليس كالنار ، انه لن يلتهم عينيك ، ـ وأضاف ليشجع ضحية سوطه : ـ أنت قوي ياولدي! لقد كانت ضربتان مما نفحتك قويتين حقاً . أردت أن أرى فيما اذا كنت ستبكي ، ولكني لم أستطع أن أنتزع منك الدموع . وقبل بضعة أيام جلدوا رجلاً فلم يستطع ضبط بطنه . لابد أن أمعاءه ضعيفة .

وفي اليوم التالي أرسل ميشا الى الجبهة .

ولم يدفن الولد الا بعد يومين . لقد أرسل الأتمان قوزاقيين من أقرب قرية فحفرا له قبراً غير عميق . وجلسا يدخنان وسيقانهما مدلاة في الحفرة . قال أحدهما :

ـ ان الأرض قوية هنا .

ـ مثل الحديد . فلم يسبق لها أن حرثت طيلة حياتي ، وهكذا تصلبت على مر السنين .

ـ أجل ، ان الفتى سيرقد في أرض طيبة ، على رابية . وتأتيها هنا الريح والشمس ، انها جافة . ولن يتفسخ بسرعة .

وألقيا نظرة على جثة الولد المضغوطة في العشب ، ونهضا .

ـ هل نخلع جزمته ؟

ـ بالطبع . انها جزمة جيدة .

وأرقداه في القبر على الطريقة المسيحية ، حيث جعلا رأسه الى الغرب ، وأهالا بالمسحاة التراب الأسود الثر فوقه .

وسأل أصغرهما سناً حين بلغ التراب مستوى الحواف :

ـ هل نسويه بأقدامنا ؟

فتنهد الآخر وقال :

ـ لا حاجة ، أتركه! فحينما تنفخ الملائكة بالصور الأخير سيكون من الأيسر له النهوض على قدميه .

وفي غضون أسبوعين نما على الرابية نبات الشيح والأرقطيون ، وراحت سيقان الشوفان البري تتراقص فوقه ، وأزهر اللفت على جانبيه بصفرة بهيجة ، وارتفعت سيقان البرسيم ، وفاح الهواء بالسعتر والشبرم والندوة العسلية .

وبعد ذلك بأيام ذهب رجل عجوز الى خارج القرية ، واحتفر حفرة صغيرة عند رأس القبر ، وأقام هيكلاً صغيراً على عمود نُحِت من بلوطة خضراء . فراحت معالم العذراء الحزينة تشع برقة تحت الجملون الصغير ، وفي القاعدة تحتها نقشت كتابة باللغة السلافية القديمة :

أيها الناس ، لا تدينوا أخا لكم

في أيام الحرب والمصائب .

وعاد العجور على صهوة جواده وبقي الهيكل الصغير في السهب ليبعث الأسى في عيون عابري السبيل بمنظره الأليم أبداً ، وليثير في قلوبهم حنيناً غريباً حزيناً .

وبعد ذلك ، في أيار ، راح اثنان من طيور الحباري يتصارعان حول الهيكل . وأحدثا فسحة صغيرة جرداء في الشيح الأزرق ، وسحقا الجزء الأخضر النامي لعشب الأرائك ، وهما يتنازعان على الأنثى ، ليجددا الحياة ، والحب والخصب . وبعد ذلك بقليل وضعت أنثى الحباري تسع بيضات زرق مضببة مرقشة ، تحت رابية تقع تحت الهيكل تماماً ، في الظل المهلهل لنبات الشيح الشائخ ، ورقدت فوقها ، لتبعث الدفء فيها ، وتحميها بجناحيها الزاهيين .

ميخائيل شولوخوف

نوبل 1965

ولد في قرية فيوشينسكايا في بلاد القوقاز 1905 .
لم يكمل شولوخوف دراسته الابتدائية.
عاش الفترة من 1918 وحتى 1924 في أقليمه
حيث كانت المنطقة تحت سيطرة الجيش الابيض
الذي اراد ان يطيح بثورة البلاشفة.
في 1924 سافر إلى موسكو ليجرب مختلف الاعمال
ويمارس حظه في الكتابة والنشر والتعرف على الاوساط الادبية.
بعد عامين اي في عام 1926 عاد الى موطنه الاصلي
ولم يفارقه حتى مماته.
وفي نفس العام ظهرت مجموعته الاولى قصص الدون وقصة سهب لازوريف.
انضم إلى الحزب الشيوعي السوفيتي عام 1932
وفي عام 1934 أصبح عضوا في اتحاد الكتاب .
كتب روايته الدون الهادئ في الفترة ما بين 1928 - 1940
فقد صدر الجزء الأول من الرواية عام 1928
وانتظر القراء 12 عاما ليكمل شولوخوف روايته الملحمية.

وتوفي في 21 فيفري 1984

علي مولا


ISBN 978-9933-407-05-6

1965

مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

3



ترجمة

علي الشوك.أمجد حسين . غانم حمدون

مراجعة : غائب طعمة فرمان

علي مولا



الدون الهادئ

١٩٦٥

مكتبة نوبل

ميخائيل شولوخوف

الدون الهادئ

(المجلد الثالث)

ترجمة

علي الشوك . أمجد حسين . غانم حمدون

مراجعة: غائب طعمة فرمان



مكتبة نوبل



اسم المؤلف : ميخائيل شولوخوف
عنوان الكتاب : الدون الهادئ ـ ٣
ترجمة : علي الشوك/أمجد حسين/غانم حمدون
مراجعة : غائب طعمة فرمان
الناشر : دار المدى للثقافة والنشر
المجمع الثقافي/ أبو ظبي
الطبعة الأولى : ١٩٩٨

Author : Mikhail Sholokhov
Title : The Silent Don /3
Translator: A. Al-Shuk/
A.Hussein\ G. Hamdoun
Al- Mada : P. C.
Cultural Foundation
First Edition 1998

دار المدى للثقافة والنشر

سوريا - دمشق صندوق بريد : ٨٢٧٢ أو ٧٣٦٦
تلفون : ٧٧٧٢٠١٩ - ٧٧٧٦٨٦٤ - فاكس : ٧٧٧٣٩٩٢
بيروت - لبنان صندوق بريد : ٣١٨١ - ١١
فاكس : ٤٢٦٢٥٢ - ٩٦١١

المجمع الثقافي

الامارات العربية المتحدة - أبو ظبي
ص .ب : ٢٣٨٠
تلفون : ٢١٥٣٠٠

Al Mada : Publishing Company F.K A.
Nicosia - Cyprus , P.O.Box : 7025
Damascus - Syria , P.O.Box . : 8272 or
7366 . Tel: 7776864 , Fax: 7773992
P.O. Box : 11 - 3181 , Beirut - Lebanon,
Fax : 9611- 426252

Cultural Foundation
U.A.E. Abu Dhabi
P.O.Box: 2380
Tel. 215300

ايه ، أبانا الدون الهادىء المجيد

أيها الدون ، يا أبانا ، أيها الدون ، يا حامي حمانا

بورك اسمك

وطاب ذكرك

لقد طالما كنت دفاقاً ، أيها الدون

لقد طالما كنت دفاقاً رائقاً

ولكنك الآن تجري ، أيها الدون ، طينياً

أنت كدرا كدرا تجري .

ثم نطق الدون الهادىء المجيد :

«وكيف لي إلا أن أكون طينياً ،

فلقد سيقت نسوري الجريئة بعيداً

نسوري ، قوزاق الدون

وعلى اغترابهم تآكلت شطآني

وأنبتت رمالي الصفر على اغترابهم ضفائر طويلة» .

(أغنية قوزاقية قديمة)

الجزء السادس

١

في نيسان عام ١٩١٨ حدث انشقاق خطير في اقليم الدون . فقد انسحب مع مفارز الحرس الأحمر المتقهقرة قوزاق الجبهة القادمون من المناطق الشمالية ـ خوبر ، وأوست ـ ميدفيديتسا ، والدون الأعلى ، في حين شدد عليهم الخناق قوزاق المناطق السفلى وساقوهم نحو حدود الاقليم .

وقد انضم قوزاق منطقة الخوبر برمتهم تقريباً إلى الحمر ، وأيدهم في ذلك نصف قوزاق منطقة أوست ـ ميدفيديتسا ، وعدد قليل من قوزاق الدون الأعلى .

ولم يتخذ هذا الشق الكبير شكله النهائي الا في عام ١٩١٨ ، بيد أن بوادره ترقى إلى مئات السنين ، يوم كان قوزاق الشمال الفقراء ، المحرومون من الأراضي الخصبة في سواحل بحر آزوف ومن بساتين الكروم ومناطق القنص وصيد السمك الغنية ، ينفصلون عن تشركاسك ، بين حين وآخر ، فيغيرون على مناطق روسيا الكبرى على هواهم ، وكانوا ملاذاً للمتمردين منذ أيام ستيبان رازين .

وحتى في السنين الأخيرة ، يوم كان الاقليم برمته يموج بالثورة تحت

وطأة الأوتوقراطية القيصرية فإن قوزاق المناطق العليا هم الذين ثاروا علناً ، بقيادة أتماناتهم فزعزعوا النظام القيصري من الأساس ، بمقارعة جيوش الإمبراطورية ، وسلب قوافل الجنائب الماخرة في الدون ، فبلغوا بضرباتهم مناطق الفولغا ، ودفعوا قوزاق زابوروجيه المضطهدين إلى الانتفاض .

وفي أواخر نيسان كان الحمر قد تخلوا عن ثلثي اقليم الدون . وبعد ان بات ضرورياً أن تقام حكومة محلية للمقاطعة بشكل من الأشكال ، اقترح الضباط القادة من المجموعات الحربية الذين كانوا يحاربون في الجنوب ، عقد مجلس الدون العسكري . وقد حدد يوم ٢٨ نيسان موعداً لاجتماع أعضاء حكومة الدون المؤقتة ومندوبين من البلدات ومن وحدات الجيش في نوفوتشيركاسك .

وقد ورد قرية تتارسكي إعلام من أتمان بلدة فيشنسكايا يفيد أن اجتماعاً سيعقد في البلدة يوم الثاني والعشرين من ذلك الشهر لانتخاب المندوبين إلى المجلس . وقرأ ميرون كورشونوف الإعلام في اجتماع عقدته القرية ، فتقرر إيفاده والجد بوغاتيريوف وبانتلاي ميليخوف إلى فيشنسكايا .

وفي فيشنسكايا ، انتخب ميليخوف مندوباً إلى المجلس العسكري المرتقب ضمن المندوبين الآخرين . فعاد إلى قريته في اليوم ذاته ، وقرر السفر إلى ميليروفو في الغد بصحبة نسيبه ميرون كورشونوف لكيما يبلغ نوفوتشيركاسك في وقت مناسب . وكان ميرون يود الذهاب إلى ميليروفو لابتياع الكيروسين والصابون وحاجيات منزلية أخرى ، وكذلك ليربح بعض المال بشراء الغرابيل ومعدن البابيت لموخوف .

أسريا عند انبلاج الفجر ، وراح جوادا ميرون كورشونوف الأدهمان يجران العربة الخفيفة بيسر . وقد جلس النسيبان جنباً إلى جنب في المقعد المصبوغ بألوان زاهية . وحين بلغا قمة التل المطل على القرية شرعا في الحديث . وكان الألمان معسكرين في ميليروفو ، فسأل ميرون بلهفة قائلاً :

ـ أتظن الألمان لا يتصدّون لنا ؟ انهم معشر شرار ، اللعنة عليهم .

فطمأنه بانتلاي قائلاً :

ـ كلا ، لقد كان ماتفي كاشولين في ميليروفو قبل أيام ، وقال إنهم يخافون القوزاق ولا يجرؤون على التعرض لهم .

ـ هكذا الأمور إذن... ـ فابتسم ميرون بين ثنايا لحيته الحمراء ، وعبث بسوطه المصنوع من عود الكرز . والظاهر أنه سرّ في دخيلته ، فأدار الحديث إلى أمور أخرى ، وسأل : ـ أي نوع من الحكومة ينبغي أن نقيمها ، في رأيك ؟

ـ سنقيم لدينا أتماناً ، واحداً من أبناء جلدتنا . قوزاقياً!

ـ حقق الله الآمال! اختاروا رجلاً طيباً . تفحصوا أولئك الجنرالات كما يتفحص الغجري الخيل ، رجلاً لا تشوبه شائبة .

ـ سوف نفعل ذلك . ما زالت بين قوزاق الدون رؤوس حكيمة .

ـ قد يكون ذلك ، يا قريبي... لكن الحمقى أيضاً لا يزرعهم أحد ومع ذلك يولدون تلقائياً ـ ثم تغضنت أطراف عيني ميرون ، وادلهم وجهه الأنمش وعلته سيماء الحزن ، وأردف :

حسبت أنني جاعل من ولدي ميتكا شيئاً ما ، أردته أن يتعلم لكي يصبح ضابطاً ، ولكنه لم يتم دراسته في مدرسة الأبرشية ، فهرب في الشتاء الثاني .

وران عليهما الصمت برهة اذ راحا يفكران بأبنائهما الذين كانوا قد ذهبوا في اثر البلاشفة وراحت العربة الصغيرة تثب وثبات محمومة على الطريق الوعر ، وكان الحصان الأيمن يؤذي أحد حوافره مصلصلاً بحدوة جديدة . وأخذت العربة تتأرجح فيرتطم الشيخان كالسمك أثناء وضع البيض .

وقال بانتلاي متنهداً :

ـ أين قوزاقنا الآن ، يا ترى ؟

ـ ذهبوا بمحاذاة نهر الخوبر . عاد فيدوت كالميك إلى القرية قبل أيام ، وقد فقد حصانه . قال إنهم ماضون صوب تيشانسكايا .

ثم ران الصمت عليهما مرة ثانية . وهب على ظهريهما نسيم قارس . ومن ورائهما عبر الدون كانت شمس الفجر المتوهجة تضرم النار بصمت وروعة في الغابات ، والمروج ، والبحيرات ، والفرجات بين الأشجار . وقد بدت الربوة الرملية أشبه بقرص عسل أصفرٍ ، واكتست قمم الأمواج التي تشبه أسنام الجمال لوناً برونزياً باهتاً .

حل الربيع وئيداً عامذاك وكانت الغابات المكتسية بلون زرقة البحر قد استحالت خضرة ثرة هفهافة . وتفتق السهب بالأزهار ، وانحسر ماء الفيضان ، فخلف وراءه بركاً لا حصر لها تشع في المروج المنخفضة ، على أن الثلج الذي نهشه الذوبان كان لا يزال يشع بسطوع وتحد لصق المنحدرات الطينية المتعرية العالية في الوهاد .

بلغا ميليروفو مساء اليوم التالي وأمضيا الليل عند أوكراني من معارفهما يقطن عند صومعة بنية الحبوب . وفي صباح اليوم التالي بعد الفطور أسرج ميرون جواديه ومضى بالعربة صوب الحوانيت وتخطى معبر السكة الحديد بسلام ، وحينئذ شاهد الألمان لأول مرة في حياته . كان ثلاثة من مشاة الألمان يعبرون الطريق أمامه . وقد لوح أحدهم بيده ليقف ، وكان قصير القامة ، ولحيته الجعدة الكستنائية نمت حتى أذنيه .

سحب ميرون الأعنة لإيقاف حصانيه ، وهو يعض على شفتيه قلقاً ، ودنا الألمان منه . فقال بروسي مديد القامة مكتنز وهو يبتسم مكشراً عن أسنان لامعة :

ـ انظروا ، ها هو قوزاقي حقيقي حي ،! إنه يرتدي بزة القوزاق أيضاً . أحسب أن أولاده قد حاربوا ضدنا . دعونا نرسله إلى برلين حياً . انه لقطة نادرة للعرض .

فقال ذو اللحية الكستنائية الكثة فيما هو يمر أمام الجوادين بحذر ويتقدم نحو العربة الصغيرة دون أن يبتسم :

ـ نريد جواديه ، وليذهب هو إلى الشيطان!

وطاف حول الجوادين واقترب من العربة .

ـ انزل ، أيها العجوز! نحن بحاجة إلى جواديك لنقل الدقيق من الطاحونة إلى المحطة . قلت لك انزل! بامكانك استعادتهما من القومندان فيما بعد . ـ وأومأ بعينيه إلى الطاحونة ، وبحركة لا تدع شكاً في مقصده ، ثم طلب إلى ميرون أن يترجل .

واستدار رفيقاه ، وسارا نحو الطاحونة ، وهما يتلفتان إلى الوراء ضاحكين . فاحمر وجه ميرون احمراراً رمادياً أصفر . وقفز من العربة بخفة بعد أن شد الأعنة إلى العربة وتقدم إلى رأسي الجوادين ليقودهما .

وبرق في ذهنه والرعدة تسري في بدنه : « من المؤسف أن بانتلاي ليس معي ، سوف يأخذون الجوادين ، بحق الشيطان . ما الذي دعاني ، أن أخرج بمفردي ؟! » .

وزم الألماني شفتيه ، وأمسك بكمّ ميرون ، وأشار اليه أن يستدير صوب الطاحونة .

فجّر ميرون نفسه مبتعداً وقد ازداد احمرار وجهه وقال :

ـ إليك عني! ارفع يديك النظيفتين عن جواديّ ، لن تحصل عليهما!

وأدرك الألماني فحوى رد ميرون من نبرة صوته . وكشر عن أسنانه البيض المائلة إلى الزرقة بوحشية ، واتسعت حدقتاه بتهديد ، وصرخ بصوت غاضب وآمر . ، وأسرعت يده إلى حمالة البندقية المعلقة عبر كتفه ، إلا ان ميرون تذكر في تلك اللحظة أيام شبابه . فسدد بجمع يده إلى الرجل لكمة في عظم وجنته . فارتد وجه الرجل إلى الخلف وانقطع سير خوذته . وكبا الألماني على الأرض على وجهه وهو يبصق كتلة قانية من الدم الكثيف من فمه ،وبينما هو يحاول النهوض ، ضربه ميرون كرة أخرى على قفا رأسه ، وتلفت حواليه ، ثم التقط بندقية الرجل بدفعة . وراح ذهنه يعمل بسرعة وبشكل لا يصدق وضوحه . انه يعرف أن الرجل لم يعد قادراً على إطلاق النار عليه وهو يدير الجوادين ، وكل ما كان يخشاه هو أن يقع عليه بصر

الألمانيين الآخرين أو الواقفين وراء السياج أو الحرس عند السكة الحديدية في المحطة .

وجرى الحصانان الأدهمان بسرعة جنونية لا مثيل لها حتى في المسابقات . وراحت عجلات العربة تجلجل بشدة غير معهودة حتى في احتفالات الزفاف وجعل ميرون يتمتم وهو يسلط السوط على صهوتي حصانيه : «أيها الرب ، نجني! احمني ، أيها الرب! باسم الأب!...» وكاد ما جبل عليه من جشع أن يدفع به إلى التهلكة : فقد أراد أن يذهب بعربته إلى الأوكراني لأخذ حاجياته . ولكن الحكمة غلبت ، فاستدار خارجاً من المدينة . وقطع الفرستات العشرين الى القرية أريخوفايا أسرع (على حد قوله بعد ذلك) من النبي ايليا في عربته النارية . ساق العربة إلى فناء بيت أوكراني من معارفه ، وأخبر الرجل بما جرى له ، وهو أدنى إلى الموت من الحياة ، وتوسل اليه أن يخفيه وحصانيه .

ـ سوف أخفيك ، يا رجل ، لكن اذا ضيقوا علي الخناق باستجوابهم فسأضطر إلى إخبارهم . إنك تعرف الأمر ، سيضرمون النار بالبيت ويشنقونني ان لم أفعل ذلك .

ـ اخفني! سأعطيك كل ما شئت! أنقذني من الموت فقط واخفني في مكان ما ، سأرسل لك عدداً من غنمي . ولن أبخل عليك بعشر من خيرة غنمي! ـ ومضى ميرون يتضرع ويكيل الوعود ، وهو يجر عربته إلى داخل المأوى .

كان يخشى المطاردة أكثر من أي شيء آخر . مكث عند الأوكراني إلى أن حل الليل ، ثم انطلق بعربته ثانية كالمخبول ، حتى غطى الزبد جواديه وتناثر على جنبيهما ، وقرقعت العربة بسرعة حتى مرقت برامق العجلات كالأقراص . ولم يجر العنان إلى أن خلّف ميليروفو وراءه بمسافة كبيرة وقبل أن يبلغ القرية نيجني ـ يابلونوفسكي ، أخرج البندقية التي غنمها من تحت المقعد ، وتفحص السير وقد كتب في أسفله اسم الألماني بحبر ثابت . ثم تنفس الصعداء مغمغماً :

ـ ماذا ، هل تمسكوني ، يا أبناء الشيطان ؟ لن تبلغوا ذلك!

لكنه لم يرسل إلى الأوكراني الغنم الموعود . وصادف أن ذهب إلى القرية في ذلك الخريف ، وحين لاحظ عيني الرجل مسمرتين فيه بترقب ، أخبره قائلاً :

ـ لقد ماتت أغنامنا كلها ، إن وضعنا سيء بالنسبة للأغنام ، ولكنني جلبت لك بعض الكمثرى من بستاني ، اعترافاً بجميلك القديم . ـ ثم أخرج من العربة كيساً من كمثرى تلفت أثناء الرحلة ، وقال له مشيحاً عينيه الماكرتين : ـ إن كمثراتنا جيدة ، جيدة جداً... ـ ثم ودعه على عجل .

وفيما كان ميرون يهذب بعربته إلى خارج ميليروفو كان بانتلاي في محطة القطار . وقد حرر له ضابط ألماني شاب جواز مرور ، واستجوبه عن طريق مترجم ، ثم أشعل سيكاراً رخيصاً ، وقال له بأريحية :

ـ بإمكانك أن تمضي في حال سبيلك ، ولكن تذكر أنكم بحاجة إلى حكومة ذكية . انتخبوا رئيس جمهورية ، أو قيصراً ، أو أياً تشاءون ، شريطة أن يكون رجلاً لا يخلو من العقل السياسي ويتبع سياسة موالية لألمانيا .

فحدجه بانتلاي بعينين لا ود فيها ، اذ لم تكن لديه رغبة في هذه المحادثة فأخذ جواز مروره ، ومضى لشراء تذكرة .

وحين بلغ نوفوتشيركاسك دهش لكثرة الضباط الشبان في المدينة : كانوا يملأون الشوارع ، ويجلسون في المطاعم ، يتمشون مع الفتيات ويتحلقون حول قصر الأتمان أو بناية المحكمة ، حيث تقرر انعقاد المجلس .

وفي المنزل المعد للمندوبين ، التقى بانتلاي بعدد من قوزاق المناطق الأخرى وبشخص من معارفه ، وكان غالبية المندوبين من القوازق ، ولم يكن ثمة سوى بضعة ضباط ، مع عدد أكثر بقليل من ممثلي المثقفين المحليين . وكان الحديث يدور بصورة ما حول انتخاب حكومة مؤقتة في الاقليم ، ولكن

شيئاً واحداً فحسب بدا واضحاً : فقد كان انتخاب أتمان أمراً محتوماً . وكانت أسماء بضعة جنرالات قوزاق معروفين تدور على الألسن ، فراح المندوبون يتبادلون الرأي في مزايا كل من المرشحين على حدة .

وفي مساء يوم وصوله ، صعد بانتلاي إلى غرفته ، بعد أن احتسى شاي المساء ، لكي ينعم ببعض ما جلبه من طعام البيت . وضع على المائدة شيئاً من سمك الشبوط المجفف ثم قطع الخبز . وما كاد يفعل ذلك حتى انضم إليه قوزاقيان من قرية ميغولينو مع بضعة قوزاق آخرين . وابتدأ الحديث حول الوضع في الجبهة ، ثم عرّج ، رويداً رويداً ، على مسألة انتخاب الحكومة .

فقال قوزاقي من شوميلينو ذو لحية رمادية اللون وهو يتنهد :

ـ ليس بوسعكم أن تجدوا رجلاً أفضل من المغفور له الجنرال كاليدين رحمه الله وكتب له الراحة .

وأيده قوزاقي آخر من بلدة ايلانسكايا فقال :

ـ أجل والحق يقال .

وتكلم أحد المشتركين في النقاش ، وهو ضابط برتبة ملازم مندوب عن بلدة بيسرغنيفسكايا فقال بشيء من الحماس :

ـ ما قصدك من القول ان ليس ثمة رجل لائق ؟ ما رأيك بالجنرال كراسنوف ؟

ـ أي كراسنوف ؟

ـ أيها السادة ، ألا تخجلون من هذا السؤال ؟ إنه جنرال شهير ، وهو قائد فيلق الفرسان الثالث ، مفرط الذكاء ، ويحمل وسام القديس جورج ، وهو آمر عظيم الموهبة .

فاستفزت كلمات الملازم الحماسي هذه مندوباً يمثل احدى الكتائب العاملة إلى القول :

ـ أقول لكم بأننا نعرف كل شيء عن عبقريته! إنه لجنرال عديم النفع! نال شهرة في الحرب الألمانية! ولم يكن بوسعه أن يتخطى رتبة اللواء لولا الثورة .

فردّ عليه الملازم بنبرة باردة كالثلج :

ـ كيف تجرؤ على هذا القول ، وأنت لا تعرف الجنرال كراسنوف ؟ وكيف تجرؤ على أن تتحدث هكذا! عن جنرال يحترمه الجميع ؟ لعلك نسيت أنك قوزاقي بلا رتبة .

فغلب القوزاقي الإرتباك والحيرة ، وغمغم قائلاً :

ـ كل ما أقوله ، يا صاحب السعادة ، انني خدمت بنفسي تحت قيادته ، وفي الجبهة النمساوية دفع فوجنا إلى الهجوم على الأسلاك الشائكة ، ولذلك نعتبره عديم النفع... وعلى كل حال فقد أكون مخطئاً...

فشن بانتلاي الهجوم على رجل الجبهة وكاد أن يبتلع عظم سمكة الشبوط لفرط غضبه :

ـ لماذا منحوه صليب القديس جورج اذاً ، في رأيك ؟ يا أحمق! لقد تعودتم على التبرم ، فكل شيء رديء ، انكم لا تطيقون شيئاً... فلو أنكم ، يا اصحاب العقول ، اقتصدتم في الكلام قليلاً ، لما وقعنا في ما نحن فيه الآن من متاعب . يا لكم من عقاعق!

كانت منطقة تشيركاسك والمناطق السفلى تؤيد كراسنوف برمّتها ، . فالشيوخ يميلون إلى جانب الجنرال حامل الوسام ، فقد قاتل معظمهم تحت أمرته في الحرب الروسية ـ اليابانية . أما الضباط فيملأ سجله قلوبهم غبطة ، اذ كان في الماضي ضابطاً في الحرس ، وهو جم الثقافة ، فقد كان قريباً إلى قصر الأمبراطور وخدم في حاشيته . وقد رضي به المثقفون المتحررون لأنه لم يكن جنرالاً فحسب ، بل أديباً ، فقد ظهرت له قصص عن حياة الضباط في ملاحق مجلة «نيفا» ، فكانوا يعتبرونه من المثقفين رغم أنه رجل عسكري .

وكانت بين المندوبين دعاية قوية لكراسنوف ، فبدت أسماء الجنرالات الآخرين شاحبة لا أهمية لها أمام اسمه . وقد أشاع الضباط المؤيدون لكراسنوف أن بوغايفسكي متواطئ مع دينيكين ، واذا تم انتخابه لمنصب

الأتمان فان امتيازات القوزاق واستقلالها الذاتي ستزول حالما يتم القضاء على البلاشفة ويدخل الحرس الأبيض موسكو .

وكان لكراسنوف معارضوه أيضاً . فقد سعى عبثاً أحد المندوبين وهو معلم مدرسة ، أن يثير الشكوك حول سمعة الجنرال . فراح يدور على غرف القوزاق وينفث حقده في آذانهم المشعرة :

ـ كراسنوف ، ها ؟ إنه لجنرال تافه ، أكثر تفاهةً كأديب! يلعب على الحبلين ، ومهرج قصر! إنه يحاول الحصول على شهرة على نطاق الأمة ، كما يقال ، ثم يبقى في الوقت نفسه ديمقراطياً بريئاً . انتبهوا لما أقول ، انه سيبيع الدون لأول مشتر ، بقفله ، وعتاده ، وماسورته! يا للنكرة! ليس هو برجل دولةٍ قط . إن أكابيف هو الرجل الذي نريده ، فهو يختلف عنه تماماً .

بيد أن المعلم لم يصب أي نجاح . ففي الأول من أيار ، بعد ثلاثة أيام من انعقاد المجلس ، دبّ الحماس بالمجتمعين حين تعالت الهتافات تنادي بالجنرال كراسنوف .

ـ لا بد من دعوة الجنرال كراسنوف!

ـ روعة!

ـ نجلّه!

ـ نفتخر به!

ـ دعه يأتي ويحكي لنا عن الحياة!

واستجاب القوزاق للتصفيق الحاد الذي ضج به الضباط ، فشرعوا يهبدون أكفهم بارتباك . وكانت الأيدي السود ، التي صلبها الكدح تبعث صوتاً جافاً خشناً ، يختلف تماماً عن الموسيقى الرقيقة التي تنبعث من الأكف الناعمة للسيدات والضباط والطلاب الذين ملأوا الشرفات والممرات .

ولكن ما إن خطا جنرال مديد القامة إلى المنصة ، وكأنه يسير في استعراض عسكري حتى دوت القاعة بعاصفة من التصفيق والهتاف . كان رشيقاً وجميلاً رغم تقدمه في السن ، وقد انتصب ، وكأنه يقف أمام مصور ،

تزين صدره الصلبان والأوسمة ، ويعبر وجهه عن عميق المشاعر ، فبدا لكثير من الحاضرين وكأنه يبعث بمظهره جلال الأمبراطورية السالف . وهو يتأمل متأثراً كراسنوف الواقف على المنصة .

اغرورقت عينا بانتلاي ، فتمخط في منديل أحمر أخرجه من قبعته ، وقال في نفسه : «هذا هو الجنرال! بوسع المرء أن يرى فوراً أنه رجل حقاً ، يشبه الامبراطور قليلاً ، بل هو أبهى منه طلعة . إن من السهولة بمكان أن يحسبه المرء الكسندر الراحل» .

ومضى المجلس ـ وقد سمي بمجلس انقاذ الدون ـ في أعماله بخطى وئيدة . واتخذ ، باقتراح من رئيسه يانوف ، قراراً حول شرائط الكتف وشارات الرتب العسكرية .

ثم ألقى كراسنوف كلمة أعدها خير إعداد . فتحدث بكلمات مؤثرة عن روسيا التي تعاني لعنة البلاشفة ، وعن سالف جبروتها ، وعن مصير الدون . ثم أوجز الوضع الراهن ، مشيراً إلى الاحتلال الألماني إشارة عابرة ، وأثار ضجة من الاستحسان حين ختم كلمته منوهاً باحتمال حصول الدون على الاستقلال حين يتم القضاء على البلاشفة .

ـ سيحكم المجلس العسكري إقليم الدون . وسوف يستعيد القوزاق ، وقد حررتهم الثورة ، نظام حياتهم القديم الرائع برمته ، وإننا ، كأجدادنا في الأيام الخوالي ، سنهتف بأصوات داوية شديدة : نحن ، قوزاق الدون الكريم ، نرحب بك ، يا قيصر موسكو الحجرية الأبيض!

وتم انتخابه أتمانا مساء في الثالث من أيار بأغلبية مائة وسبعة أصوات مقابل ثلاثين ، وامتناع عشرة عن التصويت . بيد أنه أبى قبول صولجان الأتمان من يد ضابط الجيش حتى وافق المجلس على بعض الشروط . فقد طلب منحه صلاحيات مطلقة بحكم منصبه أتماناً ، والموافقة على بعض القوانين الأساسية وقال :

ـ ان بلدنا على شفا الخراب! فلا يسعني قبول الصولجان إلا عند توفر

ثقة تامة بالأتمان . ان الظرف يقتضي أن أعمل بثقة تامة ، ووعي بهيج بأن المقاييس الشرعية الثابتة قد حلت محل التسيب والفوضى التي جاء بها البلاشفة .

ولما كانت المقاييس المشار إليها لا تعدو كونها قوانين العهد الأمبراطوري السابق ، وقد أجري عليها تعديل طفيف لكي تلائم الوضع الجديد في الدون ، فقد وافق المجلس عليها بكل حماس فكيف لا يوافق عليها ؟ وافق بفرح ، فإن كل شيء حتى العلم المعدل بشكل غير موفق كان يحمل طابع الأيام السابقة : خطوط طولانية ذات اللون الأزرق ، والأحمر ، والأصفر (معبرة عن القوزاق ، والمستوطنين الأجانب ، والكالميك) ، ولم يدخل تغيير جذري إلا على شعار الدولة المرسوم على الترس ، إرضاء لنفسية القوزاق . فاستعيض عن النسر الكاسر ذي الرأسين والجناحين المشرعين ، والمخالب المسلولة ، بقوزاقي عار يعتمر قبعة من جلد الخراف ، متسلح بسيف ، وبندقية ، وعتاد ، قد امتطى برميل خمر .

وقد وجه أحد المندوبين السذج ، المتزلفين ، سؤالاً ذليلاً :

ـ ربما يقترح صاحب السعادة تعديلاً أو إعادة النظر في بعض القوانين المطروحة ؟

فابتسم كراسنوف متلطفاً وأجاز لنفسه أن يمزح . فحوّم على المجتمعين بنظرة سريعة وأجاب بصوت من يتمتع باهتمام ورضى الجميع .

ـ أجل ، بوسعي أن أفعل ذلك . المواد ثماني وأربعون ، وتسع وأربعون ، وخمسون ، الخاصة بالعلم ، وشعار الدولة ، والنشيد الوطني ، أنا على استعداد للقبول بأي علم ، ما خلا العلم الأحمر ، وبأي شعار ما خلا النجمة السداسية اليهودية أو الشارة الماسونية ، وبأي نشيد ما خلا النشيد الأممي .

فصادق المجلس على هذا الاقتراح وسط ضجة من الضحك ، وظل الناس يتناقلون دعابة الأتمان فترة طويلة .

وانفضّ المجلس في الخامس من أيار بعد أن ألقيت الكلمات الختامية . ووعد آمر الجيش الجنوبي ، العقيد دينيسوف ، وهو ساعد كراسنوف الأيمن ، أن يضع حداً للتخريب البلشفي في المستقبل القريب . وقد توجه المندوبون إلى أهلهم هانئين مغتبطين بنجاحهم في اختيار أتمانهم ، وبآخر الأخبار الواردة من الجبهة .

استقل بانتلاي القطار عائداً من عاصمة اقليم الدون ، وكان متأثراً عميق التأثر ، يكاد البشر يطفح منه ، شاعراً باليقين الراسخ أن صولجان سلطة الأتمان وقع في يد أمينة ، وأن البلاشفة سيقهرون بسرعة ، وأن ولديه سيعودان إلى مزرعتهم عما قريب . وبينما هو في القطار وقد ارتفق طاولة العربة كان ما يزال بوسعه أن يسمع أنغام نشيد الدون ينشد عند الوداع . وقد تغلغلت كلماته المنعشة إلى أعماق وعيه ، وبدا له أن «الدون المسيحي الهادئ قد هبّ بالفعل واستيقظ» .

ولكن ما كاد القطار يقطع بضعة فرستات بعد نوفوتشيركاسك حتى شاهد من النافذة دوريات أمامية من الخيالة البافارية ، وكانت جماعة من الفرسان تمضي بجانب الخط الحديد ميمّمة صوب القطار . كان الفرسان جالسين على سروجهم بيسر ، تلتمع أكفال خيلهم الأسيلة قصيرة الذيل . فمال بانتلاي إلى الامام ، وقد انعقد حاجباه ألماً ، وراح يراقب حوافر الجياد تدق أرض القوزاق بزهو ، وحين مروا به قبع في مقعده وظهره إزاء النافذة ، يجر أنفاسه بمشقة .

٢

تدفقت صفوف طويلة من القطارات ، تحمل من الدون الدقيق الأبيض ، والزبدة ، والبيض ، والماشية إلى ألمانيا عبر أوكرانيا . وكان يحرس كل قاطرة جندي ألماني بقمصلة زرقاء رمادية ، وقبعة مستديرة لا رفوف لها ، وحربة مشكوكة . وراح الألمان يدوسون دروب الدون بأحذيتهم ، ذات

الكعوب الحديدية ، المصنوعة من الجلد الأصفر الفاخر . وكان الخيالة البافاريون يذهبون بجيادهم لسقايتهم من الدون . ولكن شباب القوزاق مجندين لتوهم كانوا منهمكين في قتال كتائب بتلورا على الحدود الفاصلة بين الدون وأوكرانيا . وقد قتل زهاء نصف جنود فوج قوزاق الدون الثاني عشر الذي شكل حديثاً ، قرب ستاروبيلسك بغية الاستيلاء على رقعة جديدة من الأرض الأوكرانية .

وفي الشمال تبادلت الأيدي قصبة أوست ـ ميدفيديتسكايا مراراً وتكراراً . فقد استولت عليها أول الأمر مفرزة من قوزاق الحرس الأحمر التابعة لميرونوف ، ولم تمض ساعة حتى طردتهم منها مفرزة الأنصار البيض التابعين لألكسييف ، فطرزت دروبها ستر تلامذة المدارس الثانوية وطلاب الكليات الذين يؤلفون العمود الفقري للمفرزة الاخيرة .

وراح قوزاق الدون الأعلى يتدفقون أمواجاً من قصبة إلى أخرى . وتقهقرت مفارز ميرونوف صوب حدود محافظة ساراتوف . فقد تركوا وراءهم منطقة الخوبر برمتها ، وما أن حلت نهاية الصيف ، حتى سيطر على الحدود جيش الدون المؤلف من القوزاق القادرين على حمل السلاح من شتى الأعمار .

وبعد أن أعيد تنظيم الجيش ، وعزز بضباط من نوفوتشيركاسك ، بدأ يكتسب مظهر قوة محاربة حقيقية : فقد دمجت المفارز الصغيرة التي أرسلتها مختلف المناطق ، وأعيد بناء الكتائب النظامية من الرجال الذين بقوا على قيد الحياة في الحرب الألمانية ، وتشكلت من مجموعها فرق ، وفي الأركان العامة ، استبدل نواب الضباط بعقداء من المحاربين القدماء ، وجرى تغيير القادة الضباط بالتدريج أيضاً .

وحين أوشك الصيف على نهايته كانت الوحدات القتالية التي تم تشكيلها من مئات القوزاق من ميكولينسكايا ومشكوفسكايا وكازانسكايا وشوميلينسكايا بأمر من الجنرال الفيوروف قد اجتازت حدود الدون واحتلت

دونيتسكويه أولى القرى الأمامية من اقليم فورونيج ، وأحكم الحصار على بلدة بوكوتشار الصغيرة .

* * *

ظلت سرية مؤلفة من قوزاق تتارسكي تسير ، طوال أيام أربعة ، نحو الشمال خلال القرى والنواحي ، بقيادة بيوتر ميليخوف . وكان الحرس الأحمر ، في مكان ما إلى اليمين ، يتراجع صوب سكة الحديد دون أن يجازف بالقتال . ولم يعثر القوزاق أثناء مسيرتهم ، على أثر للعدو ، كما أنهم لم يقطعوا مسافات طويلة دفعة واحدة . فقد قرر بيوتر ، وسائر القوزاق ، فيما بينهم ، أن ليس ثمة من داع للإسراع إلى حتفهم ، فلم يقطعوا أكثر من ثلاثين فرستاً دفعة واحدة .

وفي اليوم الخامس دخلوا قصبة كوميلجينسكايا وعبروا نهر الخوبر عند ضيعة دوندوكوفو . وكانت حشود البرغش تخيم على المرج كستار من الموسلين ، وطنينها الناعم الرجراج لا ينقطع . فكان يدخل آذان وعيون الخيل وفرسانها ، فتزنخر الجياد وتنفض رؤوسها ، ويلوح القوزاق بأيديهم ولا يتوقفون عن تدخين تبغهم المحلي .

ودمدم خريستونيا ، ماسحاً عينه الدامعة بكمه :

ـ إنها رياضة جميلة ، عليها اللعنة!

فقال غريغوري باسماً :

ـ هل دخلت واحدة في عينك ؟

ـ لا بد أنها سامة ، إنها تخز كالشيطان!

ثم سحب خريستونيا جفنه المحمر ودفع إصبعه الخشنة فوق كرة العين ، مدلّياً شفته السفلى ، وفرك عينيه بعض الوقت بظهر يده .

وكان غريغوري يسير بجانبه . فقد بقيا سوية منذ أول يوم غادروا فيه تتاركسي . ثم انجذب إليهما أنيكوشكا أيضاً ، وقد ازداد في الأسابيع

الأخيرة سمنة ، فبات أشبه بامرأة أكثر من أي وقت مضى .

لم يكن تعداد السرية يبلغ المائة تماماً . وكان مساعد بيوتر هو رئيس العرفاء لاتيشيف الذي صاهر عائلة من تتاركسي . وكان غريغوري آمراً لأحد الرعال . وكان قوزاق رعيله برمتهم تقريباً ، من جنوب القرية : خريستونيا ، أنيكوشكا ، فيدوت بودوفسكوف ، مارتن شامل ، ايفان توميلين ، بورتششيلوف الطويل ، زاخار كوروليوف الشبيه بالدب ، بروخور زيكوف ، ميركولوف ، وهو من دم غجري ، يبيفان ماكساييف ، يغور سنيلين ، وبضعة عشر قوزاقياً آخر أصغر منهم عمراً .

وكان الرعيل الثاني بقيادة نيكولاي كوشيفوي ، والثالث بقيادة ياكوف كولوفيدين ، والرابع بقيادة ميتكا كورشونوف ، الذي رقي إلى رتبة عريف من قبل الجنرال ألفيروف نفسه وذلك اثر إعدام بودتيلكوف .

كانت السرية تبعث في جيادها الدفء بخبب نشاط . ودار بهم الطريق حول غدران فائضة ، ثم ولج أخاديد تغطيها أشجار الصفصاف الفتية والحلفاء ، ثم تعرج بهم الدرب عبر المروج .

وتعالى هدير عميق من ضحكات ياكوف بودكوفا في الصفوف الخلفية ، فردد صداه أندريه كاشولين بضحكاته الرخيمة الرفيعة ، وكان هذا قد نال شرائط عريف لهدره دماء رفاق بودتيلكوف .

وكان بيوتر ميليخوف يمضي إلى جانب الرتل على صهوة جواده بصحبة لاتيشيف وهما يتحدثان بهدوء . وراح لاتيشيف يعبث بأنشوطة سيفه الجديدة ، وبيوتر يمسد بيسراه على جواده ويحك رأسه بين الأذنين . وبدت على وجه لاتيشيف المكتنز ابتسامة ، وظهرت من تحت شاربه الخفيف أعقاب أسنانه التي اصفرت من الدخان .

وسار وراء الجميع قوزاقي يدعى أنتيب افديفييتش ، ابن بريخ يلقبه القوزاق أنتيب بريخوفيتش .

مضى القوزاق يتحادثون فيما بينهم ، وكانوا يخالفون نظام المسيرة ،

بين الحين والحين ، ليسير كل خمسة معاً . وكان البعض منهم يمعن النظر في المنطقة التي لم يألفوها من قبل ، والمرج الذي تنتشر فيه البرك كبثور الجدري ، والحاجز الأخضر من الصفصاف والحور في المدى . ويحسب الناظر إلى عدتهم أنهم لا ريب ماضون في حملة طويلة . فخروجهم ملأى بالثياب والتجهيزات ، وقد لفوا معاطفهم بعناية وحزموها خلف سروجهم . وكانت سيور الأعنة قد شمعت جيداً ، وبدا كل شيء مرتباً على ما يرام . كانوا قبل شهر على يقين أن الحرب لن تقع ، وها هم الآن ماضون ، وقد أيقنوا أن إراقة الدماء أمر لا معدى عنه . وكانت هذه الفكرة تشغل بال الجميع : « إن جلدك اليوم عليك ، ولكن الغربان ستدبغه في البرية غداً » .

مر طريقهم بقرية سقوفها من القصب . وأخرج أنيكوشكا من جيب سرواله كعكة من صنع بيته ، وقضم نصفها ، وجعل يمضغ بقوة وفكاه يتحركان كفكي الأرنب .

فألقى خريستونيا إليه نظرة ، وسأله :

ـ جائع ؟

ـ لمَ لا... وقد خبزته زوجتي .

فقال خريستونيا :

ـ أنت تفرط في الأكل! لا بد أن لك بطن خنزير! ـ ثم التفت إلى غريغوري وأردف بلهجة شاكية غضبة : ـ يا له من أكول . هذا العفريت القذر! أين يضع كل ذلك ؟ حين أتطلع إليه هذه الأيام أشعر بالفزع : فهو صغير الجسم ولكنه يبتلع الطعام في بئر بلا قرار .

ـ إن ما آكله هو من مالي . أتعشى بلحم الضأن وفي الصباح أشعر بالجوع . نحن نتناول كل ما هو لذيذ ومفيد للمعدة .

وضحك أنيكوشكا وغمز بعينه لغريغوري ، مومئاً إلى خريستونيا الذي بصق بغضب .

وصاح توميلين :

ـ أين نقضي الليلة ، يا بيوتر بانتلييفتش ؟ فقد تعبت الخيل .
وأيده ميركولوف قائلاً :
ـ الشمس تغيب . حان وقت المبيت .
فلوّح بيوتر بسوطه قائلاً :
ـ سنبيت في قرية « كلوتشي » ، أو ربما سنمضي حتى كوميلزينسك .
وابتسم ميركولوف بين ثنايا لحيته السوداء المجعدة وهمس لتوميلين :
ـ يحاول أن يكون عند حسن ظن ألفيروف ، يا له من ابن كلبة! مستعجل!...
كان أحدهم يشذب لحية ميركولوف فاحتال عليه وقص لحيته المسترسلة بحيث غدت أشبه بأسفين معوج ، فبات مظهره موضع هزء لا ينقطع .
وحتى الآن لم يستطع توميلين أن يكبح رغبته في السخرية ، فقال :
ـ وحظوة مَنْ تريد أن تكسب ؟
ـ ماذا تعني ؟
ـ حين شذبت لحيتك كالجنرال . أحسبك تظن أنهم سيبادرون إلى إعطائك فرقة وأنت بلحية كهذه ؟
ـ إنك لأحمق . أليس بوسعك أن تنظر إلى الأمور نظرة جدية ؟
دخلوا القرية التالية ، مازحين ضاحكين ، . وكان أندريه كاشولين قد سبقهم ليدبر لهم المأوى ، فلقيهم عند أول بيت ، وقال :
ـ رعيلنا ، اتبعوني! الرعيل الأول إلى تلك البيوت الثلاثة هناك ، الرعيل الثاني إلى اليسار ، الرعيل الثالث إلى هذه الدار حيث ثمة بئر وأربعة أكواخ بعدها ايضاً .
وتقدم بيوتر إليه ، قائلاً :
ـ هل سمعت شيئاً ؟ هل سألت أحداً ؟
ـ لا رائحة لهم في هذه الأنحاء ولكن هناك الكثير من العسل ، أيها

الفتى . إن لدى إحدى العجائز زهاء ثلاثمائة خلية . سنفتح واحدة منها هذه اللية بكل تأكيد .

ـ لا تكن أحمق . سأفتح رأسك إن فعلت ذلك! قال بيوتر ذلك ، ثم تجهم ، ولمس جواده بالسوط .

ذهب القوزاق كل إلى مأوى رعيله وربطوا خيلهم في الاسطبلات . وخيّم الظلام ، فقدم القرويون إلى القوزاق العشاء ، ثم خرج الرجال إلى الأفنية وجلسوا على أكوام الحطب . وبعد أن تسامروا بعض الوقت دلفوا إلى مآويهم ليناموا .

وعند الفجر استأنفت السرية مسيرتها صوب كوميلزنسك . ولكن رسولاً أدركهم قبل أن يمضوا شوطاً بعيداً . وفضّ بيوتر الرسالة التي جاء بها الرجل ، ثم جلس على سرجه يترنح وهو يقرأ الرسالة ، وقد أمسك بطبقة الورق ، وكأنه يجد مشقة في حملها لثقلها ودنا غريغوري منه بجواده وسأله :

ـ أهو أمر ؟

ـ ها ها!

ـ ماذا يقال ؟

ـ علي أن أسلم السرية . فكل الرجال الذين بدأوا الخدمة في دورتي مدعوون للذهاب لتشكيل الكتيبة الثامنة والعشرين ، المدفعيون وحملة الرشاش كذلك .

ـ ماذا عن البقية ؟

ـ هاك ، إنها تريد أن تضع نفسها تحت تصرف آمر الكتيبة الثانية والعشرين في أرزينوفسكايا . «على الفور» .

وحين جاء لاتيشيف ، أخذ الأمر ، فقرأه ، وشفتاه الثقيلتان تختلجان ، وقد رفع أحد حاجبيه بحدة .

وصاح بيوتر : ـ إلى الأمام سر!

ومضى القوزاق على خيلهم سيراً وبعضهم ينظر إلى بعض ، ويرمقون بيوتر منتظرين أن يقول شيئاً . وحين بلغوا كوميلزنسك أعلن لهم فحوى الأمر . وشرع القوزاق ذوو الخدمة المبكرة يتأهبون لرحلة العودة . وقرروا أن يمضوا الليل في كوميلزنسك ثم يتفرقوا في اليوم التالي كل إلى سبيله . وكان بيوتر طوال يومه يتحين الفرصة للتحدث إلى أخيه ، فذهب إليه في مأواه ، ودعاه قائلاً :

ـ تعال إلى الساحة .

فتبعه غريغوري صامتاً . وجاء ميتكا كورشونوف وراءهما راكضاً ، بيد أن بيوتر قال له بجفاء :

ـ إليك عنا ، ميتكا! أريد أن أكلم أخي .

فابتسم ميتكا عن فهم ، وتخلف وراءهما ، قائلاً :

ـ لا مانع أبداً .

ونظر غريغوري إلى بيوتر بزاوية عينه ، فأدرك في الحال أنه يضمر شيئاً جدياً . ولتفادي هذه النيّة المبيتة شرع الكلام بحيوية مصطنعة .

ـ إنه أمر غريب ، أليس كذلك ؟ نحن لم نبتعد عن ديارنا إلا مائة فرست ، وإذا الناس يختلفون تماماً . إنهم لا يتكلمون مثلنا ، وأبنيتهم لا تشبه أبنيتنا . انظر إلى تلك البوابة المسقفة ، ما أشبهها بالمزار . ليس عندنا من هذا القبيل . وانظر! ـ ثم أشار إلى أحد المنازل ، وأردف : ـ إن إفريز ذلك البيت مسقوف هو الآخر . أظنهم يفعلون ذلك كي لا يتلف الخشب .

فانتهز بيوتر قائلاً :

ـ أوه ، كفاك! ليس هذا موضع الحديث ، لنمضِ قرب السياج ، فالناس ينظرون إلينا .

وكان القرويون القادمون من الساحة يتطلعون إليهما بفضول . وقد وقف رجل شيخ بقميص أزرق سائب وقبعة قوزاقية ذات حافة توردت من

كونها قديمة وقال :

ـ هل تمضون النهار هنا ؟

ـ نريد ذلك .

ـ هل عندكم شيء من الشوفان لخيلكم ؟

فرد بيوتر :

ـ نعم ، لكنه قليل .

ـ إذن ، ادخلا إلى عندي ، سأعطيكما كيسين منه...

ـ الله يخليك يا جدي!

ـ الله معكما! عرّجا عليّ . ها هي داري مسقفة بسفائح خضراء .

قال غريغوري عابساً وقد عيل صبره :

ـ حسناً ، عمّ تريد أن تتكلم ؟

ـ عن كل شيء ، ـ ثم ابتسم بيوتر ابتسامة خجل وإجهاد ، وهو يعض ذؤابة شاربه القمحي : ـ إن الأمور ، يا غريشاتكا ، في حال ربما لا نستطيع معها أن يرى أحدنا الآخر ثانية...

وفجأة تلاشى ما كاد يحسه غريغوري من عداء إزاء أخيه ، فقد أُخِذ بالابتسامة البائسة وبندائه إليه باسمه الطفولي القديم «غريشاتكا» . فراح بيوتر ، يتملى وجه أخيه بحنو وقد علت شفتيه ذات الابتسامة الناعسة ، ثم كبت ابتسامته ، وتجهم وجهه اذ قال :

ـ انظر كيف زرعوا الفرقة بين الناس ، يا للحثالة! تماماً كما يشق المحراث حقلاً ، جزء إلى هذه الجهة والآخر إلى تلك . من الفظاعة أن يعيش المرء في زمن لا يفهم بنو البشر بعضهم بعضاً . فأنت ، مثلاً ، أنت شقيقي اللح ، ولكنني لا أفهمك ، يشهد اللّه أنني لا أفهمك . فأنا أحس بأنك تنأى عني أكثر فأكثر . هذا صحيح ، أليس كذلك ؟ أنت تعرف أنه صحيح . إني لأخشى أن تنحاز إلى الحمر . فأنت لم تكتشف نفسك بعد ، يا غريشا .

فسأله غريغوري :

ـ وهل اكتشفت نفسك أنت ؟

وراح يحدق في الشمس الغاربة وراء خيط نهر الخوبر غير المرئي وراء التل الكلسي ، وسماء المغرب برمتها تشتعل بما خلّفته الشمس من وهج ، والغيوم تولي الأدبار من الأفق مسرعة ندفاً سوداً كالفحم :

ـ أجل ، لقد وجدت طريقي . وليس بوسعك أن تحرفني عنه . لن أتعثر مثلك ، يا غريغوري .

ـ آه .

وافترت شفتا غريغوري عن ابتسامة كدر :

ـ كلا ، لن أتعثر! ـ وفتل بيوتر شاربيه غاضباً ، وطرف بعينه ، وكأن شيئاً قد بهر بصره . وأردف : ـ ليس بوسعك أن تجرني إلى صفوف الحمر ، حتى والحبل في عنقي . فالقوزاق ضدهم ، وكذلك أنا . ولست أرغب في أن أقف ضد القوزاق ، ولن أفعل ذلك! كيف أعبر عن الأمر... ليس في ذلك حكمة ، لهم طريقهم ولي طريقي .

فقال غريغوري وقد تملكه الإعياء : ـ دعك من هذا القول . ـ ثم استدار ليذهب إلى مأواه . وعند البوابة أوقفه بيوتر ، وسأله :

ـ قل لي ، أريد أن أعرف... قل لي ، يا غريغوري ، هل تنضم إليهم ؟

ـ لا أظن ذلك... لا أدري .

جاء جواب غريغوري متعثراً متردداً . فتنهد بيوتر ولكنه كف عن استجواب أخيه . فمضى عنه مهموماً وقد غارت وجنتاه . إذ آلمه ، شأن غريغوري ، أن يرى أجمة منيعة من تجارب الحياة تعترض الدرب الذي سلكاه معاً . (انه أشبه بدرب مهدته أظلاف الماعز ، ينحدر على سفح تل ملتوياً ، ولكنه ما أن يبلغ منعطفاً ما ويهبط إلى القرار حتى ينتهي فجأة عند منعطف وكأنه تحول غائصاً إلى أجمة شجيرات) .

في اليوم التالي قفل بيوتر بنصف السرية راجعاً نحو فيشنسكايا . وسار بقية الفتيان تحت قيادة غريغوري صوب أرزينوفسكايا . كانت الشمس منذ

الصباح الباكر تستعر دونما رحمة ، وراح السهب يموج بضباب داكن ، ولاحت من خلفهم المعالم الزرق للتلال ، وترامت الكثبان الرملية وكأنها بحر من الزعفران . ومضت الجياد العرقى تتمايل في سير وئيد . وتوردت وجوه القوزاق وغدت بنية اللون بهتت من جراء فعل الشمس وباتت قرابيس سروجهم ، وركائبهم ، وشكائمهم ، يصعب لمسها باليد من شدة الحرارة . ولم يكن القيظ أخف وطأة حتى في الغابة ، حيث كان الهواء حاراً خانقاً تفوح منه رائحة المطر بشدة .

كان غريغوري يمضه حنين بائس ، وظل طوال يومه يفكر بمستقبله تفكيراً لا نسق له ، وهو يهتز على سرجه . كانت كلمات بيوتر ترنّ في أذنيه رنين خرزات المسبحة . وأشاعت مرارة الشيح الجفاف في شفتيه . وبدا الطريق وكأنه يحترق ، وانكفأ السهب الذهبي البني تحت وطأة الشمس ، تجوب فوقه نفثات الهواء اللافح ، محركة بقايا الأعشاب مثيرة الغبار .

وعند الغروب لفع الشمس ضباب رهيف ، وحالت السماء فأمست رمادية اللون . وتجمعت في الغرب سحب أسيانة ، وتعلقت فوق خط الأفق الدقيق وهي لا تكاد تبدي حراكاً . ولكن الرياح ساقتها ، فاندفعت تحمل النذير ، جارةً السحب الداكنة على ارتفاع قليل خانق ، بينما اكتست حواشيها لوناً أبيض كالسكر .

عبرت الحضيرة نهيراً ، ومضت تتغلغل في غابة من الحور . وجعلت الريح تعبث بأوراق الشجر فتكشف عن أسفلها الأزرق الحليي وترسل حفيفاً هامس النغم . وفي مكان ما ، وراء نهر الخوبر ، تناثر رشيش مطر مائل وبرد من حواشي السحب البيض يطوقها قوس قزح متألق .

وأمضوا اللية في قرية صغيرة موحشة . وبعد أن عني غريغوري بجواده ، خرج إلى حديقة النحل . وقد أخبره مضيفه ، وهو قوزاقي كهل أجعد الشعر ، بنبرة تنم عن القلق :

ـ أترى تلك الخلية ؟ لقد اشتريت سرب النحل قبل أيام ، وها هي صغارها تموت لسبب ما . أنظر ، إن النحل تجرها إلى الخارج .

وتوقفا عند الخلية الخشبية ، فأشار إلى الفتحة ، وكانت كبار النحل ترسل طنيناً خافتاً وهي تخرج جثث الصغار وتطير بها مبتعدة .

خاوص صاحب النحل عينيه وزم شفتيه أسفاً .

كان يرتجّ في مشيته ، ويهز ذراعيه بعنف وارتباك ، فبدت غلظته تلك وحركاته اللامجدية نشازاً في حديقة النحل تلك ، حيث يكد المجتمع الهائل من النحل كداً مشتركاً رتيباً في عمله الدؤوب الحكيم . فراح غريغوري يتفرس فيه بشعور أقرب إلى النفور . وزادته نفوراً طريقة كلام الرجل السريعة الصارة :

ـ كان عام خير على العسل . لقد حمل الصعتر زهراً جيداً ، فجمع النحل نتاجاً طيباً . إن الأقفاص خير من الخلايا سأحصل على المزيد من هذا...

جلس غريغوري في المطبخ يشرب الشاي المحلى بعسل كثيف دبق كالغراء ، يعبق بالأعشاب وأزاهير المروج . وتولت تقديم الشاي ابنة رب البيت ، وهي فتاة حسناء فارعة القوام ، متزوجة من أحد الجنود . وكان زوجها قد ذهب مع الحمر المتراجعين ، الأمر الذي جعل أباها يظهر الود والمسكنة ، فبدا وكأنه ودود مسالم . كان لا يلاحظ النظرات الخاطفة التي تصوبها ابنته إلى غريغوري من تحت أهدابها وهي تزم شفتيها الرقيقتين الباهتتين . وحين مدت يدها إلى إبريق الشاي ، استطاع غريغوري أن يرى الشعر الأسود الفاحم تحت إبطها . وقد التقت عيناه بعينيها المتوسلتين الفضوليتين ، أكثر من مرة ، وخيل إليه اذ تلاقت أعينهما أن الحمرة خضبت وجهها وأنها ابتسمت ابتسامة دافئة .

وبعيد الشاي قالت له :

ـ سوف أعد فراشك في الغرفة الأمامية ـ ثم ذهبت لتجلب وسادة وبساطاً . وحين مرت بجانبه لفحته بنظرة جائعة فاضحة . وبينما هي تسوي

الوسادة قالت له على عجل وبصوت خافت ، وكأن الأمر ليس ذا بال : «إني أنام تحت السقيفة . فالهواء خانق في الداخل ، والبرغوث يلسع... »

لم يخلع غريغوري سوى جزمته ، وما إن تناهى إليه شخير القوزاقي الشيخ حتى ذهب إليها في السقيفة . فأفسحت له بجانبها ، وغطت نفسها بالفروة ، ورقدت صامتة تلامسه بساقيها . وكانت شفتاها جافتين خشنتين تنبعث منهما رائحة بصل وعذوبة شفافة . فرقد غريغوري بين ذراعيها الرشيقين الأسمرين حتى الفجر ، وراحت طوال الليل تشده إليها بضراوة ، وترضيه بشراهة وتعض شفتيه وهي تتضاحك وتتمازح حتى نز منهما الدم . وقد تركت على عنقه ، وصدره ، وكتفيه آثاراً زرقاً من قبلاتها اللاسعة ومن أسنانها الصغيرة التي تشبه أسنان الحيوان . وحين صدح الديك للمرة الثالثة حاول أن ينهض ويذهب إلى الكوخ ، ولكنها حالت دون قيامه .

فجعل يبتسم تحت شاربيه المتهدلين وتوسل إليها ، جاهداً أن يفك أسار نفسه :

ـ دعيني أذهب ، يا عزيزتي ، دعيني أذهب ، يا توتتي الصغيرة!

ـ اضطجع قليلاً... اضطجع!

ـ ولكن سيروننا . سينبلج ضياء الصبح عما قريب .

ـ حسناً دعهم يروننا!

ـ وماذا عن أبيك ؟

ـ إنه يدري .

فرفع غريغوري حاجبيه دهشة :

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ الواقع... طلب إليَّ البارحة أن أضاجع الضابط إن هو أراد ذلك ، لئلا يأخذوا حصانه بسبب زوجي ، أو يلحقوا به ضرراً أشد... فقد ذهب زوجي مع الحمر .

فقال غريغوري بازدراء ، ولكنه شعر بالإهانة في دخيلته :

ـ هكذا الأمر ، اذاً!

وعمدت بنفسها إلى تبديد هذا الشعور الذي ساوره ، فراحت تعابث عضلة ذراعه وارتعشت وهي تقول :

ـ ليس زوجي الغالي مثلك .

فسألها غريغوري ، وعيناه الصاحيتان تحدقان بقبة السماء المتشاحبة :

ـ كيف هو ، اذاً ؟

ـ لا ترجى منه فائدة... إنه ضعيف ـ ثم استكانت إليه والتصقت به ، ونمّ صوتها عن دموع جافة ، وأردفت : ـ عشتُ معه دون أن أذوق معه طعم حلاوة في حياتي . انه لا يفي بحاجة المرأة . ـ وكالزهرة الريانة بالندى تفتح أوراقها بكل بساطة ، تفتحت لعين غريغوري روح هذه الفتاة الغريبة الساذجة كالطفل . فأصاب غريغوري الثمل ، وثار فيه الإشفاق . فراح يداعب خصلات شعر صديقته الطارئة ، وأغمض عينيه الكليلتين .

جرى نور القمر الحائل خلال قصب السقف ، وخرّ شهاب واندفع صوت الأفق بعنف ، فخلف وراءه رفلاً تلاشى وهو يتوهج في السماء الرمادية . ونادت بطة في البركة فأرسل الذكر جواباً بصوت أجش ولهان .

ذهب غريغوري إلى الكوخ . وكان جسمه الخاوي خفيفاً يغمره تعب لذيذ مخدر . وأخذه النوم وعلى شفتيه طعم شفتيها المالح . وأودع بكل عناية في أعماق قلبه ذكرى جسد القوزاقية اللهوف ، وعبقه الذي كان مزيجاً من روائح عسل الأعشاب ، والعرق ، والدفء .

أيقظه قوزاق سريته بعد ذلك بساعتين . وأسرج بروخور زيكوف حصانه وقاده خارج البوابة . وودع غريغوري رب البيت ، وهو يتحمل بثبات نظرة الأب اللافحة بالعداء ، ثم أومأ برأسه إلى ابنته وهي تمر إلى داخل البيت . فأحنت رأسها ، ولاحت في طرفي شفتيها الرقيقتين الشاحبتين ابتسامة وظل مرارة وحسرة .

ومضى غريغوري بجواده في الشارع الفرعي ، وهو يتلفت إلى الوراء .

وتعرج الطريق ماراً بالدار التي أمضى فيها ليلته ، فشاهد المرأة التي بعث فيها الدفء تحدق صوبه عبر السياج ، وراحتها السمراء تظلل عينيها . فالتفت غريغوري بحنين غير متوقع جاهداً أن يستشف ما ارتسم على محياها من تعبير ، وأن يستوعب صورتها الكاملة . بيد أنه أخفق ، فلم ير إلا رأسها يدور فيما كانت عيناها تتعقبانه كما تتعقب زهرة عباد الشمس مسار الشمس الدائري الوئيد .

* * *

سيق ميخائيل كوشيفوي على قدميه من فيشنسكايا إلى الجبهة . وبلغ قصبة فيدوسييف ، بيد أن أتمان المنطقة هناك أبقاه يوماً ، ثم أعاده إلى فيشنسكايا مخفوراً .

فسأل ميخائيل الكاتب قائلاً :

ـ لماذا تعيدونني ؟

فأجابه الرجل بتردد :

ـ وصلتنا تعليمات من فيشنسكايا .

واتضح أن والدته قد جثت على ركبتيها أمام مجمع القرية وتضرعت إلى الشيوخ ، فبعثوا التماساً باسم مجمع القرية طالبين تعيينه راعياً في حقل المنطقة المعد للخيل ولكونه المعيل الوحيد في عائلته . وقد أخذ ميرون كورشونوف الالتماس إلى الأتمان بنفسه وأفلح في اقناعه .

وصرخ أتمان المنطقة في وجه ميخائيل ، الواقف امامه باستعداد وأنهى خطابه غاضباً :

ـ لن نأتمن البلاشفة في الدفاع عن الدون! بإمكانك أن تذهب إلى مرعى الجياد ، وسنرى بعد ذلك . فاحذر ، يا ابن الخنزير! لقد أشفقنا على أمك ، وإلا كنا... أخرج!...

سار ميخائيل في الشوارع اللاهبة بدون حرس . يوجع كتفه المعطف

العسكري الملفوف ، وأبت قدماه مطاوعته فقد أضنتها الكيلومترات المئة والخمسون التي قطعتها ، ولم يبلغ قريته عند المغرب إلا بشق النفس . وفي اليوم التالي مضى على فرسه إلى حقل الخيل ، بعد أن عانقته أمه وبكت عليه . وقد انطبعت في ذاكرته صورة وجه أمه الشائخ وبواكير المشيب في شعرها .

الى الجنوب من كاركينسكايا امتدت بقعة من أرض السهوب البكر ، طولها نيف وثمانية وعشرون فرستاً وعرضها ستة فرستات . وقد أفرزت هذه البقعة من الأرض ، ومساحتها آلاف عديدة من الأكرات ، لرعي جياد المنطقة لذلك راح يسموها «المفروزة» . وفي كل عام ، في عيد القديس بيغور ، يسوق الرعاة قطعان الجياد من اصطبلات الشتاء ويأتون بها إلى هذا المرعى . وقد أقيم في المرعى اصطبل ، وأكواخ للرعاة ، وللمشرف ، والطبيب البيطري ، من المبالغ التي اعتمدها ناظر خزينة المنطقة . فيجلب قوزاق منطقة فيشنسكايا أفراسهم ، فيتثبّت الطبيب البيطري والمشرف من أن كل فرس لا يقل ارتفاعها عن أربعة عشر شبراً ، ولا عمرها عن أربع سنين . وكانت الأفراس السليمة توزع على قطعان يضم كل منها أربعين فرساً فيقود كل فحل قطيعه من الأفراس ويرعاها بكل عناية .

ذهب ميخائيل إلى الحقل على صهوة الفرس الوحيدة التي تملك عائلته . وقالت أمه وهي تمسح دموعها بصدريتها :

ـ ربما ستلد مهراً... لا تنس العناية بها ، لا تلح عليها بالعدو ، فنحن بأمس الحاجة إلى فرس أخرى .

وعند الظهيرة لاح لميخائيل الكوخ وسقف الاسطبل الرمادي الكالح خلل الضباب الذي اكتنف الوادي . حثّ فرسه وصعد قمة تل فشاهد ، بوضوح تام ، الشكنات وغمر العشب الحليبي وراءها . واستطاع أن يرى إلى الشرق ، على مبعدة ، ثلة بنية من الخيل تجري نازلة إلى البركة ، وكان يهذب إلى جانبها فارس بدا وكأنه دمية صغيرة على ظهر فرس من لعب الأطفال .

ولج ميخائيل فناء الثكنة ، وترجل ، ثم ربط عنان فرسه بعمود سقيفة الباب ، ودخل والتقى في المجاز العريض براعٍ ربع القامة يكسو وجهه النمش :

فسأله الراعي بنبرة لا ود فيها وهو يتفحصه من أم رأسه إلى أخمص قدمه :

ـ من تريد ؟

ـ أريد المشرف .

ـ غير موجود ، خرج . مساعده هنا . الباب الثاني إلى اليسار ، ولماذا تريده ؟ من أين أنت ؟

ـ جئت لأشتغل راعياً .

فغمغم الرجل وهو يسير إلى الباب :

ـ ما يحشرون لنا من هبّ ودبّ... ! ـ وكان الحبل ذو الأنشوطة الذي ألقاه عبر منكبه يخط على الأرض في أثره . وحين فتح الباب وقف وظهره إلى ميخائيل ، ثم لوّح بسوطه وقال بلهجة أرق : ـ إن عملنا شاق ، أيها الأخ . إننا نقضي بعض الأحيان أكثر من يومين على السرج دونما راحة .

وحدق ميخائيل بمنكبيه المكورين وساقيه المعوجّتين إلى الداخل . وبدت تقاطيع جسمه غير المتناسق بارزة في ضوء الباب . وقد سر ميخائيل لمنظر ساقيه المقوّستين ، وقال في دخيلته وهو يلتمس رتاج الباب : « كأنه أمضى أربعين عاماً وهو راكب برميلاً » .

استقبل مساعد المشرف الراعي الجديد بعدم اكتراث ينم عن تعال . ثم جاء المشرف نفسه بعد فترة وجيزة . وكان قوزاقياً جسيماً ، ورئيس عرفاء سابق في كتيبة الأتمان . وقد أصدر التعليمات بأن يدرج اسم ميخائيل في سجل الأرزاق ، ثم خرج وإياه إلى سقيفة الباب وسأله :

ـ هل تستطيع تدريب الخيل ؟ هل سبق لك أن روّضت حصاناً ؟

فاعترف ميخائيل قائلاً بصراحة :

ـ لا أستطيع أن أقول إنني قمت بذلك . وسرعان ما لاحظ ظلاً من التبرم يمر على وجه المشرف العرقان . وجعل الرجل يحك ظهره ، ثم سمّر نظره بوجه ميخائيل ، وسأله :

ـ هل تستطيع استعمال الحبل ذي الأنشوطة ؟

ـ أستطيع ذلك .

ـ وهل اعتدت معاملة الخيل معاملة لائقة ؟

ـ أجل .

فأمره قائلاً : « كن رفيقاً بدون أن تلجأ الى السوط! لأنهم كالبشر ولكنهم لا ينطقون » .

وبدا على محياه التفكير لحظة ولكن سرعان ما تلاشى ذلك التعبير ليحل محله قناع صارم من اللامبالاة .

ـ متزوج ؟

ـ لا .

فصاح المشرف جذلاً :

ـ أنت أحمق إذن! ينبغي أن تتزوج!

ووقف برهة يحدق في صدر السهب الرحب وهو صامت ثم تثاءب ودخل الكوخ . ولم يسمع ميخائيل من شفتيه كلمة أخرى طيلة شهر أو يزيد أمضاه في الرعي .

كان في الحقل خمسة وخمسون جواداً ، يتولى كل راع العناية بقطيعين أو ثلاثة ، وقد عهد إلى ميخائيل قطيع كبير يتصدره جواد عجوز شديد البأس اسمه باخار ، وقطيع أصغر منه يضم حوالي عشرين فرساً وجواداً يلقب بـ « البسيط » . وأرسل المشرف في طلب أمهر الرعاة وأشجعهم ، رجل اسمه ايليا سولداتوف ، وأخبره قائلاً :

ـ إليك راعياً جديداً ، ميخائيل كوشيفوي من قرية تتاركسي ، أره

قطيعي باخار و«البسيط» وأعطه حبلاً بأنشوطة . سوف يسكن في كوخك ، أره موقعه . اذهبا!

أشعل سولداتوف سيكارة وهو صامت ، تم أومأ إلى ميخائيل :

ـ تعال معي .

وفي سقيفة الباب أشار إلى فرس ميخائيل وهي تقف في الشمس وكأنها نائمة ، وقال :

ـ هذه بهيمتك ؟ أهي ملقحة ؟

ـ كلا .

ـ ضعها مع باخار . إنه من حقل كوروليوف لتربية الجياد مهجن بحصان انكليزي . إنه عداء سريع! حسناً ، اركب .

مضيا سوية ، وفرساهما تفجان عشباً يعلو حتى الركب وقد خلفا وراءهما الكوخ والاسطبلات . وامتد السهب أمامهما مهيب الصمت ، متلفعاً بضباب رقيق أزرق . وانهمر ضياء الشمس من سمتها عبر خيط من السحب البيضاء . وفاح من العشب الدافئ عبق مفعم لزق . وإلى اليمين ، توهج أديم باسم أبيض متلألئ لبركة جيروف في وهدة يكتنفها الضباب . وفي كل اتجاه على مرمى البصر ، فضاء أخضر لا حدود له ، ومسارب راعشة من الضباب ، والسهب الجليل يصفده قيظ الظهيرة ، وعند الأفق لاحت أكمة تسبح بطيف لازوردي خلّاب .

كان العشب عند الجذور نضيراً ذا خضرة عميقة بينما أزهرت أوراقه بالمن تحت ضوء الشمس فراحت ترسل ألوانا نحاسية . وكان العشب الريشي أشعث تحت ثقل حبوب لما تنضج ، مبقعاً بنبات الايموركا ، وبدا الثيل رافعاً سنابله المحملة بالبذور نحو الشمس بكل لهفة . ولاذت بالأرض هنا وهناك شجيرات قميئة من القصعين ، ومن جديد انساب عشب السهب غزيراً تزينه ألوان الشوفان البري ، وعشب السلجم الأصفر ، والفربيون ، وعشب الجينكين القاسي الأناني الذي يطرد الأعشاب الأخرى من حواليه .

ومضى القوزاقيان دونما كلام . وكان ميخائيل يشعر باحساس جديد من الطمأنينة الذي لم يشعر به منذ الزمن البعيد . كان السهب يخيم عليه بصمته ، ومهابته الجليلة . وأغفى صاحبه على السرج ، مائلاً إلى الأمام فوق عرف حصانه ، وقد انطوت يداه النمشاوان على قربوس السرج وكأنه على وشك أن يتلقى العشاء الرباني .

وطار حباري من بين حوافر الخيل ، وحلق فوق واد وخوافيه البيض تسطع بوهج أبيض . وتماوجت الأعشاب بنسيم ربما كان يداعب أمواج بحر آزوف صبيحة ذلك اليوم .

وعثرا بعد نصف ساعة على قطيع يسرح على مقربة من البركة ، فاستيقظ سولداتوف وتمطى في سرجه متكاسلاً :

ـ هذا هو قطيع لوماكين . ولكنني لا أراه في أي مكان . فسأله ميخائيل وهو ينظر باعجاب إلى الكميت الفاقع ذي السيقان الطويلة :

ـ ما اسم هذا الجواد ؟

ـ فرازر . انه ابليس عنيف! انظر كيف يبحلق فينا!... ها هو يمضي!

وابتعد الجواد فهبت الأفراس وراءه .

تسلم ميخائيل القطيعين اللذين أوكلا له ، ووضع متاعه في كوخ الحقل . وقد شاركه الكوخ ثلاثة آخرون يترأسهم سولداتوف ، الذي عرّف ميخائيل بواجباته عن طيب خاطر ، وأخبره بعادات الجوادين وخصائصهما ، ونصحه وهو يبتسم بمكر :

ـ ان الأصول تقضي بأن تؤدي عملك على ظهر فرسك ، ولكنك اذا بقيت تمتطيها ، يوماً بعد يوم ، فإنك ستنهكها . دعها تنضم إلى القطيع ، وأسرج أفراس الآخرين ، ثم بدلها بسرعة .

وأمام عيني ميخائيل ، اختار فرساً من القطيع ، وألقى حول عنقها أنشوطة الحبل بمهارة . ثم أسرجها بسرج ميخائيل وقادها اليه :

ـ امتط هذه! أحسب أن أحداً لم يروضها من قبل ، يا للشيطانة .

اركبها! ـ صرخ بذلك غاضباً ، ويمناه تشد على العنان بقوة ، ويسراه تضغط على خطمها الراعش . «عاملها بلطف! ربما تصرخ على جواد في الاسطبل فيطاوعك ، ولكن الأمر يختلف هنا في البرية . راقب باخار بعين مفتوحة . إياك أن تدنو منه كثيراً وإلا سحقك» ـ أضاف ذلك وهو يمسك بالركاب ، ويربت بحنان على ضرع الفرس الرقيق المتوتر .

٣

استراح ميخائيل أسبوعاً ، يمضي سحابة يومه على ظهر جواده . لقد أذله السهب ، وأرغمه على أن يحيا حياة البراري البدائية . كان قطيعه يسرح غير بعيد عنه ، فيجلس ميخائيل على سرجه غافياً ، أو يطرح نفسه على العشب ، ويراقب أسراب الغيوم البيض تجوب السماء ، وهو ساهم . وقد استمرأ تلك العزلة عن العالم بادئ الأمر ، فقد بدت الحياة بعيداً عن الناس شيئاً مسراً . ولكنه حين ألف تلك الحالة في أواخر الأسبوع بدأ خاطر مبهم يقض مضجعه وكان يقول في دخيلته : «هناك يقرر الناس مصائرهم ومصائر غيرهم ، وهنا لا شغل لي سوى الاعتناء بحشود الأفراس . ينبغي أن أرحل ، وإلا دفعت بي هذه الحياة إلى الحضيض! » . بيد أن همسة كسلى أسرت اليه : «دعهم يقتتلون : هناك يحوم الموت ، أما هنا فحرية وعشب وسماء . هناك يستشيط الرجال غضباً ، وهنا يسود السلام . علام أهتم لما يفعله الآخرون ؟ » ومع ذلك شرعت أفكاره تخز طمأنينته الطيعة الأمر الذي دفعه إلى التماس صحبة الآخرين . فجرب أكثر من السابق أن ينسجم وسولداتوف ، وحاول أن يوطد رفقته به .

وجلي أن سولداتوف لم تثقل كاهله مثل تلك الوحشة . فنادراً ما كان يمضي الليل في الكوخ ، ولكنه كان على الدوام تقريباً مع قطعانه أو قرب البركة . كان يحيا حياة الحيوانات . يوفر طعامه من الصيد ، ويفعل ذلك

بمهارة فائقة . لكأنه لم يفعل في حياته شيئاً آخر غيره . وذات مرة ألفاه يجدل خيط صنارة من شعر الفرس ، فسأله :

ـ ماذا ستصيد بهذا ؟

ـ سمكاً .

ـ وأين السمك ؟

ـ في البركة .

ـ وأي طعم تستخدم ؟ الديدان ؟

ـ الخبز والديدان .

ـ هل تسلقه ؟

ـ أجففه في الشمس . إليك ، كل قطعة! ـ قال ذلك اذ أخرج من جيب بنطاله قطعة من سمكة الشبوط وقدمها إلى ميخائيل بحفاوة .

وحدث أيضاً فيما كان ميخائيل يسوق قطيعه أن عثر على حباري في فخ كان سولداتوف قد نصبه . وكان يقف عن كثب تمثال حباري متقن الصنع . وكانت الشبكة مخفية في العشب بمهارة . وقد شوى سولداتوف الحباري مساء ذلك اليوم في حفرة في الأرض ، ناثراً بعض الفحم فوقها . ثم دعا ميخائيل ليأكل معه .

وفيما كان يتناول اللحم اللذيذ ، قال :

ـ لا تلمس الفخ ثانية ، ستفسده .

فسأله ميخائيل : ـ كيف حدث أن جئت إلى هنا ؟

ـ في رقبتي عائلة ـ ثم صمت سولداتوف لحظة ، وسأل على حين غرة :

ـ اسمع! أصحيح ما يقوله الأولاد أنك من الحمر ؟

فارتبك ميخائيل اذ لم ينتظر سؤالاً كهذا :

ـ كلا... حسناً ، أجل ، انضممت إليهم... ثم ألقي القبض علي .

وسأله سولداتوف وفي عينيه نظرة قاتمة وصار أبطأ في مضغه :

ـ لماذا انضممت إليهم ؟ ما الذي كنت تبغي ؟

كانا جالسين قرب النار على شفا واد جاف ، وكان وقود الروث يبعث دخاناً كثيفاً ، وراحت لهبة صغيرة تختلج بين الرماد ، والليل من ورائهما يبعث أنفاساً لاهفة ورائحة شيح ذاوٍ . وكانت السماء بلون الحبر تخططها الشهب المتساقطة ، فكلما خر شهاب ترك في السماء أثراً أشبه بالحز الذي يتركه السوط على ثفر الحصان .

وتفرس ميخائيل بحذر وجه سولداتوف الذي أضاءته النار ، ثم أجاب :

ـ أردت أن أناضل من أجل حقوق الشعب .

ـ أي حقوق ؟ أخبرني .

كان صوت سولداتوف خافتاً متهيباً ، فأحجم ميخائيل برهةٍ ، وظن أن صاحبه وضع قطعة جديدة من الوقود على النار عامداً إلى اخفاء الانطباع البادي على وجهه . ثم استجمع شجاعته وقال :

ـ المساواة للجميع ، ذلك ما أريد! ينبغي ألا يكون هناك أسياد وخدم . أفهمت ؟ وسوف يتحقق ذلك يوماً ما .

ـ هل تعتقد أن الكاديت سينتصرون ؟

ـ كلا ، لا أعتقد .

فقال سولداتوف :

ـ هذا ما كنت تسعى وراءه إذن ؟ ـ وجر نفساً عميقاً ثم وثب على قدميه : ـ ابن العاهرة ، أردت أن تغدر بالقوزاق من أجل اليهود ؟ ـ وكان صوته ينم عن غضب شديد . ـ أردت أن تقتلعنا كلنا من الجذور ؟ ها! لكي يستطيع اليهود إقامة معاملهم في كافة أرجاء السهب ؟ لكي يستطيعوا طردنا من أراضينا ؟

ونهض ميخائيل المذهول على مهل . وظن أن سولداتوف يوشك أن يضربه ، فخطا إلى الوراء . وحين رأى سولداتوف ميخائيل يتراجع لوّح بجمع يده . بيد أن ميخائيل أمسك ذراعه في منتصف الطريق ، وهصرها عند الرسغ ، ونصحه قائلاً :

ـ دعك من هذا يا عم ، وإلا دققت لك عنقك! علام تصرخ ؟

وقفا في الظلام وجهاً لوجه . وقد انطفأت النار التي دهساها بأقدامهما ، ولم تبق سوى جمرة واحدة أطارتها رفسة من أقدامهما فظلت تدخن في حواشيها . وأمسك سولداتوف بيسراه ياقة قميص ميخائيل ، ولمها في جمع يده ورفعها إلى أعلى ، محاولاً أن يطلق يده اليمنى .

فقال ميخائيل لاهثاً : ـ أبعد يدك عن قميصي ، ـ ولوى رقبته القوية ، وأردف : ـ أطلق قميصي ، قلت لك! سأسحقك ، أسمعت ؟

فزنخر سولداتوف :

ـ كلا... تسحقني ، ها... انتظر!

فحرر ميخائيل نفسه ودفع الآخر إلى وراء ، وأصلح وضع قميصه وهو يرتجف ويشعر برغبة فظيعة لضربه ، وركله ، ويطلق الحرية ليديه .

لم يحاول سولداتوف أن يهجم عليه . فصاح وسط سيل من السباب وهو يصر بأسنانه :

ـ سأخبر... سأخبر المشرف حالاً . أيها الثعبان! أيها الدنيء! بلشفي! يجب أن تلقى مصير بودتيلكوف نفسه! إلى المشنقة!

«سوف يخبرهم... سوف يختلق شيئاً ما . سيضعونني في السجن . لن يرسلوني إلى الجبهة . فلا أستطيع الانضمام إلى الحمر ، لقد قضي علي!» ـ ودبت البرودة في أوصاله ، وراحت أفكاره وهي تبحث عن مخرج ، تضطرب اضطراب سمكة في بركة صغيرة خلفتها مياه الفيضان المنحسر : «سأقتله! سأخنقه الآن! لا مفر من ذلك» . ومنذ تلك اللحظة شرعت أفكاره تبحث عن حجة : «سأقول أنه حاول قتلي . فأمسكت بخناقه... سأقول إنه حادث عارض» .

وخطا نحو سولداتوف مرتجفاً ، ولو حاول هذا أن يهرب في تلك اللحظة لالتحم الدم والموت فوق رأسيهما . الا أن سولداتوف وقف يزعق شاتماً ، فتوقف ميخائيل ، وساقاه تختضان والعرق يتصبب حدر ظهره ، وقال :

ـ مهلاً ، ألا تسمعني ؟ سولداتوف ، كفاك! لا تصرخ! كنت أنت البادئ... ـ كان فكاه يتحركان بعصبية ، وعيناه تجولان على غير هدى ، ثم شرع يتضرع بذلة :

ـ كان شجاراً بين صديقين ليس إلا . لم أضربك في حين أمسكت أنت بتلابيبي . ما الذي قلته لك ؟ إغفر لي... أي والله ، حسناً ؟

هدأ سولداتوف تدريجياً ، وبعد برهة قال وهو يلتفت منتزعاً يده من يد ميخائيل الباردة العرقانة :

ـ إنك تهز ذنبك كالأفعى! حسناً ، لن أخبر أحداً . سأشفق على غبائك . ولكن لا ترني وجهك ثانية ، فلست أطيق مرآك . أيها الخنزير! لقد بعت نفسك لليهود ، وليس في قلبي رحمة لأولئك الذين يبيعون أنفسهم بالمال!

ابتسم ميخائيل في الظلمة بذلة وأسى ، إلا أن سولداتوف لم يستطع رؤية ابتسامته ، كما لم يستطع أن يرى من قبل قبضتي ميخائيل وهو يشدهما بقوة .

وافترقا دون كلمة أخرى . وراح كوشيفوي يلهب جواده بالسوط ويخب باحثاً عن قطيعه . كان البرق يومض جهة الشرق . وتناهى إلى سمعه هدير الرعد .

وفي تلك الليلة مرت عاصفة بالسهب ، فهبت الريح عند منتصف الليل ومضت هائجة فوق الأرض تجر في أذيالها البرد والغبار المر . كانت السماء ملبدة بغيوم جعل البرق يحرث أكداسها التي تشبه التربة السوداء . وخيم سكون طويل ، ثم جاء هدير الرعد يحمل النذير من بعيد ، وشرعت زخة غزيرة من المطر تنيم العشب إلى الأرض ، وعلى وهج البريق التالي رأى كوشيفوي الغيوم سوداء منذرة في السماء ، وخيله قد تجمعت على الأرض كالحزمة . وانفجر الرعد يدوي رهيباً وطفق المطر كالسيل على حين غرة .

همهم السهب همهمة مبهمة ، وانتزعت الريح القبعة المبتلة من على رأس ميخائيل وأطاحتها على قربوس سرجه . وخيم لبرهة صمت رهيب ، ثم مرق البرق ثانية عبر السماء ، مخلفاً وراءه ظلاماً أشد وحشة . وكان هزيم الرعد التالي من القوة ما جعل فرس ميخائيل تقعي على كفلها ، ثم شبّت مزنخرة . وبدأت خيل القطيع تدق الأرض بحوافرها . فصاح ميخائيل وهو يعتّ اللجام بكل قواه ، جاهداً أن يهون عليها .

ـ قف! هيه... هيه!

ومن خلال البرق المتعرج ، ذي البياض السكري ، الذي رف بين الغيوم ، أبصر القطيع يستدير ويعدو صوبه بكل قواه ، ورؤوس الخيل تكاد تلمس الأرض ، ومناخيرها المتسعة تنشد الهواء لاهثة ، وحوافرها الحافية تدق الأرض الندية . وكان باخار في الطليعة ، يجري بأقصى سرعته . فأدار كوشيفوي فرسه وأفلح بمراوغة القطيع ، فتدفقت الخيل مارة به ، ثم توقفت عن بعد . ولم يدرك ميخائيل أن الخيل ، وقد أهاجها الرعد وأفزعها هرعت اليه جراء صيحته ، فصرخ ثانية بصوت أعلى :

ـ قف! هيه... هيه!

وكرة ثانية سمع في الظلام هزيم الحوافر الداوي يهرع نحوه . وانتابه الهلع فضرب فرسه بالسوط ما بين عينيها ، ولكن بعد فوات الأوان : فقد ارتطمت احدى الأفراس المهووسة بكفل فرسه فطار من على سرجه وكأنه قذف بالمقلاع . ولكنه نجا بأعجوبة ، فقد اندفع معظم القطيع يجري إلى يمينه عن بعد قليل ، غير أن فرساً واحدة أصابت ذراعه الأيمن بحافرها ، ثم نهض وابتعد حذراً وبأقصى ما يسعه من هدوء . وسمع القطيع على بعد قليل ينتظر صيحته ، على أهبة الاستعداد ليعدو نحوه ثانية باندفاعه الهائج ، وسمع الزنخرة التي تميز الفحل .

ولم يبلغ كوخه حتى انبتق الفجر .

٤

في ١٥ أيار وصل كراسنوف أتمان جيش الدون الأعظم إلى مانيتشسكايا ، على ظهر باخرة ، يصحبه كل من اللواء أفريكان بوغايفسكي ، رئيس مجلس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية ، والعقيد كيسلوف رئيس تموين جيش الدون ، وفيليمونوف ، أتمان الكوبان .

وقف أسياد أراضي الدون والكوبان على ظهر الباخرة يرقبون إرساءها ، وعمال المرفأ المنهمكين ، والأمواج الدكناء تترقرق تحت الرصيف . ثم دلفوا إلى الشاطئ تحت أنظار الحشد الذي تجمهر في المرفأ .

كان ثمة ضباب أزرق يلفع السماء ، والأفق ، والنهار وحتى الدون اتخذ لوناً أزرق شاحباً لا عهد له به ، فغدا كالمرآة المقعّرة يعكس القمم البيضاء كالثلج التي تعلو الغيوم المنتفخة .

وكانت الريح مضمخة بروائح الشمس ، والسبخات اليابسة والعشب الميت . وسرت بين الجمهور همهمة من الكلام . وقد رحب رجال السلطة المحلية بالجنرلات ، ثم مضوا إلى الساحة جميعاً .

وبعد ساعة ، عقد مؤتمر بين ممثلي حكومة الدون وجيش المتطوعين في منزل أتمان المنطقة . وكان جيش المتطوعين ممثلاً بالجنرالين دينكين وألكسييف ، والجنرال رومانوفسكي ، رئيس أركانهم ، والعقيدين رياسنيانسكي وايفالد...

ساد الفتور جو المؤتمر ، فاحتفظ كراسنوف بهيبته . أما ألكسييف فقد دار على الحاضرين يصافحهم ، ثم جلس إلى طاولة ، وأسند خديه المترهلين إلى راحتيه البيضاوين اليابستين وأغمض عينيه غير آبه لشيء . فقد سببت له الرحلة بالسيارة شعوراً بالدوار ، وكان الذبول بادياً عليه من ثقل الأحداث وتقدمه في السن ، فتهدلت زاويتا فمه على نحو أسيان ، وكانت أجفانه الزرق المعروقة ثقيلة منتفخة ، وانتشرت على عارضيه مروحة من الغضون .

وتغلغلت أصابعه ، الحاطة على خده المترهل ، في شعره الأشيب المصفر . ونشر العقيد رياسنيانسكي على الطاولة خارطة مخشخشة ، يساعده كيسلوف بكل اهتمام . ووقف رومانوفسكي إلى جانبهما يضغط على زاوية الخارطة بظفر خنصره . واتكأ بوغايفسكي على حافة النافذة الواطئة وراح يراقب وجه ألكسييف المتعب القانط بعطف شديد ، فقد بدا له لشدة بياضه كقناع من الجبس . فهمس بوغايفسكي لنفسه وعيناه المائعتان ، الشبيهتان ببندقتين ، مسمرتان في وجه ألكسييف : «لكم تقدمت به السن! ما أفظع ما تبدو عليه الشيخوخة!» ولم يتيسر الوقت لكي يأخذ الآخرون مقاعدهم حول الطاولة اذ خاطب دينيكين كراسنوف بلهجة مفاجئة منفعلة :

- قبل افتتاح المؤتمر لا بد لي أن أبلغك بأننا فوجئنا للغاية حين علمنا أنك أشرت ، في توزيعك القطعات للاستيلاء على باتيسك ، أن فوجاً وبطارية ألمانيين يعملان في طابور جناحك الأيمن . فينبغي أن أعلن بأن تعاوناً كهذا يبدو لي أكثر من مستغرب... هل لي أن أسأل عن الدوافع التي حدت بك إلى الدخول في مفاوضات مع هؤلاء الأعداء - هؤلاء الأعداء الغادرين! - لبلادنا ، وقبولك عونهم ؟ ولا بد أنك قد أبلغت باستعداد الحلفاء لمدنا بالمعونة .إن جيش المتطوعين يعتبر التحالف مع الألمان خيانة لهدف اعادة النظام السابق إلى روسيا ، إن أعمال حكومة الدون لقيت ذات الانطباع في أوساط الحلفاء الواسعة . انني أطالبك بتقديم إيضاح حول هذا الأمر .

وانتظر دينيكين الجواب عاقداً حاجبيه بغضب .

ولولا ضبط النفس وحسن المنبت لما استطاع كراسنوف أن يحتفظ برصانته ، ولكن الغضب بدأ يفعل مفعوله فجعل فمه يرتعش بعصبية تحت شاربيه الأشيبين . فأجاب بهدوء وأدب زائدين :

- حين يكون مصير القضية كلها معلقاً في كفتي القدر ، لا يسع المرء أن يتقزز من قبول العون حتى من الأعداء السابقين . وعلى أية حال ، فان حكومة الدون ، التي تمثل شعباً ذا سيادة تعداده خمسة ملايين ، والتي لا

تعترف برعاية أحد ، لتجد من حقها أن تتصرف تصرفاً مستقلاً ، وفق مصالح القوزاق التي يفترض أن ترعاها .

وهنا فتح ألكسييف عينيه وبدا عليه جهد عظيم للإنصات بانتباه . ووجه كراسنوف نظرة سريعة إلى بوغايفسكي الذي كان يفتل شاربه الرفيع ، واستطرد قائلاً :

ـ إن الصفة الغالبة على تفكيرك ، يا صاحب السعادة ، تبدو ذات طبيعة أخلاقية ، لقد أوضحت بكلماتك ، التي تتحمل أنت مسؤوليتها ، ما يروق لك أن تدعوه خيانتنا لقضية روسيا ، وخيانتنا للحلفاء ، وما إلى ذلك . ولكني أحسبك على علم بأن جيش المتطوعين قد تلقى من عندنا قنابل باعها لنا الألمان ؟

ـ هل لك أن تميز ، من فضلك ، بين مسائل تختلف بطبيعتها كل الاختلاف! لا تهمني طريقة تسلمك الذخيرة من الألمان ، بل تقبل معونة جيوشهم!...

ثم هز دينيكين كتفيه غضباً .

وأنهى كراسنوف كلمته مشيراً بعناية وتأكيد إلى أنه لم يعد ذلك الفريق الذي عرفه دينيكين في الجبهة النمساوية الألمانية .

وعمد دينيكين إلى تشتيت الصمت الذي خيم على أثر خطاب كراسنوف بأن حوّل وجهة النقاش بمهارة إلى موضوع توحيد جيشي الدون والمتطوعين وتشكيل قيادة موحدة . إلا أن الشجار السابق أدى في حقيقة الامر إلى تدهور مستمر في العلاقات بينهما ، التي انقطعت نهائياً أثناء تنحية كراسنوف عن السلطة .

وتحاشى كراسنوف وقتئذ أن يعطي جواباً مباشراً ، بل اقترح القيام بحملة مشتركة على تساريتسين لكيما يتم الاستيلاء على أكبر مركز استراتيجي أولاً ، ولإقامة صلة مع قوزاق الأورال ، ثانياً .

ودار بينهما هذا النقاش الوجيز :

ـ لا أكاد أجد حاجة لايضاح ما لتساريتسين من أهمية هائلة بالنسبة الينا .

ـ قد يلتقي جيش المتطوعين مع الألمان . إنني أرفض المضي الى تساريتسين حتى أحرر الكوبان .

ـ أجل ، ولكن الاستيلاء على تساريتسين يشكل المهمة الأساسية . لقد خولتني حكومة جيش الدون أن ألتمس مساعدتكم ، يا صاحب المعالي .

ـ أكرر ، إنني لا أستطيع التخلي عن قوزاق الكوبان...

ـ لا يمكن أن يكون توحيد القيادة موضوع بحث إلاّ بشرط أن يتمَ الهجوم على تساريتسين ـ ومضغ ألكسييف شفتيه بغير استحسان .

ـ ليس ذلك موضوع بحث! لن يخطو قوزاق الكوبان خطوة واحدة خارج حدودهم حتى ينظف إقليمهم من البلاشفة تماماً . ليس لدى جيش المتطوعين سوى ألفين وخمسمائة حربة ، وإن ثلث جنوده خارج الخدمة الفعلية ما بين جريح ومريض .

وكانت الملاحظات المتبادلة أثناء وجبة الطعام المتواضعة ثقيلة لا معنى لها ، فبدا جلياً أن اتفاقاً ما لن يحصل . ثم قص العقيد رياسنيانسكي مغامرة مسلية نادرة لأحد رجال ماركوف ، وبدأ التوتر يخف تدريجياً بتأثير القصة المضحكة ووجبة الطعام . ولكن بعد الطعام ، حين ذهب الضباط للتدخين في قاعة الاستقبال ، ربّت دينيكين على كتف رومانوفسكي وأمال عينيه الحادتين نصف المغمضتين صوب كراسنوف وهمس :

ـ نابليون قروي... رجل يعوزه الذكاء .

فابتسم رومانوفسكي وأجاب بسرعة :

ـ إن بوده أن يمسك بالصولجان... فريق قد أثملته سلطة ملك . إنه في رأيي ، ثقيل الظل .

افترقوا والعداء والكراهية يملآنهم . ومنذ ذلك اليوم ازدادت العلاقة بين

جيش المتطوعين وحكومة الدون سوءاً ، وقد بلغ هذا التدهور ذروته حين علمت قيادة جيش المتطوعين بمضمون رسالة كراسنوف إلى ويلهلم ، أمبراطور ألمانيا . وكان جرحى المتطوعين ، الذين يقضون أيام النقاهة في مستشفى نوفوتشيركاسك ، يسخرون من رغبة كراسنوف في الاستقلال ، وميله إلى بعث التقاليد القوزاقية القديمة . كانوا في أوساطهم يزدرونه ، ويتحدثون عنه بلهجة قاسية ، فيلقبونه بالمعلم ، ويستعملون صفة «قذير» بدلاً من «قدير» الواردة في اللقب الرسمي لجيش الدون . ويرد عليهم طالبو الاستقلال فيلقبون المتطوعين بـ «المغنين المتجولين» و «الحكام الكارتونيين» وقال شخص ذو منصب هام في جيش المتطوعين ساخراً من حكومة الدون إنها «مومس تكسب أجرها في سرير ألماني» . وجاء الرد على ذلك من الجنرال دينيسوف نفسه : «لئن كانت حكومة الدون مومساً ، فإن جيش المتطوعين هو القط الذي يقتات على فتات مائدتها» .

كان ذلك تلميحاً إلى اعتماد جيش المتطوعين على قوزاق الدون ، الذي يقاسمهم التجهيزات العسكرية التي يتلقونها من الألمان .

كانت روستوف ونوفوتشيركاسك ، اللتان تشكلان مؤخرة جيش المتطوعين ، تعجّان بالضباط . وقد اعتاش الألوف منهم على المضاربة ، أو عملوا في العديد من تنظيمات مؤخرة الجيش أو التجأوا إلى الأقارب والمعارف ، أو دخلوا المستشفيات بشهادات مزورة تشير إلى أنهم مصابون بجراح . لقد مات كل شجعانهم ، إما في سوح القتال أو من جراء التيفوس والجراح ، أما الباقون ، الذين فقدوا في سني الثورة كل معاني الشرف والضمير ، فتواروا في المؤخرة كأبناء آوى ، وباتوا كالزبد العفن يطفو على مياه الزمن العاصفة . كان هؤلاء يشكلون الاحتياطي التافه والعاطل من الضباط الذين صب عليهم تشيرنتسوف ذات مرة العار والتهم ، وأهاب بهم أن يدافعوا عن روسيا . وكانوا بغالبيتهم أحط «المثقفين المفكرين» الذين ارتدوا البزة العسكرية خلال تلك الفترة . كانوا قد فروا من البلاشفة ولكنهم

لم يربطوا مصيرهم بالبيض أيضاً ، فعاشوا حياة التخفّي ، يتناقشون حول مصير روسيا ، ويكسبون ما يسعهم لشراء الحليب لأطفالهم ، آملين بكل جوارحهم أن تحل نهاية الحرب .

لم يكن يعنيهم ، من الذي سيحكم البلاد ، كراسنوف ، أم الألمان ، أم البلاشفة . كان كل همهم أن ينتهي كل شيء .

على أن هدير الأحداث استمر يوماً بعد يوم . ففي سيبيريا تمرّد التشيكيون ، وفي أوكرانيا حوار صاخب بلغة المدافع والرشاشات بين ماخنو والألمان... روسيا برمتها مطوقة بالنيران . روسيا برمتها تتلوى من عذاب الانقسام الكبير .

في حزيران اجتاحت الدون ، مثل ريح شرقية ، شائعة تقول ان التشيكيين سيحتلون ساراتوف وتساريتسين واستراخان لكي يفتحوا جبهة شرقية على امتداد الفولغا ، تمهيداً لشن هجوم على الألمان . وفي أوكرانيا شرع الألمان يمنعون مرور الضباط الذين يتسربون خلال خطوطهم بعد أن هربوا من روسيا تحت شارات جيش المتطوعين .

أرسلت القيادة الألمانية ممثليها إلى الدون ، فقد أقلقتها شائعات فتح «الجبهة الشرقية» . وفي العاشر من تموز وصل إلى نوفوتشيركاسك كل من الرؤساء الأوائل فون غوغنهاوزن ، وفون ستيفاني ، وفون شلاينتس ، وهم من الجيش الألماني .

وقد استقبلهم الأتمان كراسنوف في قصره في اليوم ذاته بحضور الجنرال بوغايفسكي .

وبعد أن ذكّر الرئيس الأول غوغنهاوزن سامعيه بأن جيش الدون العظيم في قتاله ضد البلاشفة ومن أجل استعادة حدوده قد تلقى المعونة من القيادة الألمانية بكل السبل ، بما في ذلك التدخل المسلح ، استفسر عما ستفعله حكومة الدون اذا ما لجأ التشيكيون إلى القيام بعمليات عسكرية ضد الألمان . فأكد له الجنرال كراسنوف أن القوزاق سيلتزمون الحياد التام ،

وأنهم بطبيعة الحال ، لن يدعوا أرض الدون مسرحاً للعمليات العسكرية . وقد أبدى الرئيس الأول فون ستيفاني رغبته في أن يؤيد الأتمان كلامه خطياً . وعلى هذا النحو اختتم اللقاء .

وفي اليوم التالي كتب كراسنوف الرسالة الآتية إلى الامبراطور الألماني :

« صاحب الجلالة الملكية والأمبراطورية! إن حامل هذه الرسالة ، مبعوث أتمان جيش الدون العظيم إلى بلاط جلالتكم الأمبراطورية ، قد خولته وزملاءه ، أن يقدموا تحياتي ، أنا أتمان الدون ، إلى جلالتكم الأمبراطورية ، عاهل ألمانيا العظمى الأعلى ، وأن يعلموا جلالتكم بما هو آت : لقد تكلل بالظفر الكفاح الذي خاضه لمدة الشهرين قوزاق الدون الصناديد من أجل حرية أوطانهم ، ذلك الكفاح الذي ما زالوا يخوضون غماره بالشجاعة الفائقة التي أبداها - البوير - بنو عمومة الشعب الألماني ضد الانكليز في الآونة الأخيرة . لقد تم حتى هذا التاريخ ، تحرير تسعة أعشار أراضي جيش الدون العظيم من قبضة عصابات الحمر الوحشية . ولقد توطد النظام في داخل البلاد وأعيدت للقانون سيادته . وبفضل المعونة المادية التي قدمتها قوات جلالتكم ، أعيد الهدوء إلى جنوب بلادنا ، وقد أعدت من قبلي قوات من القوزاق للمحافظة على النظام في الداخل ، وصد هجمات العدو من الخارج . وإن من الصعوبة لجهاز دولة فتية ، كدولة جيش الدون ، أن يعيش بمفرده ولهذا السبب فقد عقدنا حلفاً متيناً مع قائدي جيشي القوزاق في استراخان والكوبان العقيد الأمير توندوتوف والعقيد فيليمونوف ، هادفين ، بعد تطهير أراضي استراخان من البلاشفة ، إلى إقامة نظام وطيد للدولة ، على أساس اتحاد فيدرالي بين جيش الدون العظيم ، وجيش استراخان ، وكالميك مقاطعة ستافروبول ، وجيش الكوبان ، وكذلك شعوب قفقاسيا الشمالية . وقد تمت موافقة هذه الولايات جميعها ، وقررت الدولة الجديدة ، باتفاق تام مع جيش الدون العظيم ، ألا تدع أراضيها تتحول إلى ميدان للقتال الدامي ، وأن تلتزم الحياد

التام .إن أتامان المنطقة «زيموفايا» سفيرنا لدى بلاط جلالتكم مخول من قبلي :

«أن يلتمس من جلالتكم الأمبراطورية الاعتراف بحق جيش الدون العظيم في العيش باستقلال ، وحين يتم تحرير بقية أراضي جيوش الكوبان ، واستراخان والتيريك ، وأراضي قفقاسيا الشمالية ، أن تعترفوا بحقوق السيادة للاتحاد برمته تحت اسم اتحاد الدون والقفقاس .

وأن يلتمس من جلالتكم الأمبراطورية أن تعترفوا بحدود جيش الدون العظيم على الأسس الأثنوغرافية والجغرافية السابقة ، وأن تمدوا يد المساعدة لحل الخلاف القائم بين أوكرانيا وجيش الدون حول مقاطعة تاغانروغ ، لصالح جيش الدون الذي ملك مقاطعة تاغانروغ لما يزيد على ٥٠٠عام ، والذي يعتبر مقاطعة تاغانروغ جزءاً من تموتاراكان التي انبتق جيش إقليم الدون منها في الأصل .

وأن يلتمس من جلالتكم مدّ يد المساعدة في توحيد إقليم الدون ، لاعتبارات استراتيجية ، مع مدينتي كاميشين وتساريتسين التابعين لمقاطعة ساراتوف ، وكذلك مدن فورونيج ، وليسكي ، بوفارينو ، وتثبيت حدود إقليم جيش الدون كما هو مبين على الخارطة التي توجد في منطقة «زيموفايا» الآن .

وأن يلتمس من جلالتكم ممارسة الضغط على السلطات السوفياتية في موسكو وإرغامها ، بأوامر من لدنكم ، أن تُخلي أراضي جيش الدون العظيم والولايات الأخرى التي تؤلف إتحاد الدون والقفقاس من عصابات قطاع الطريق التابعة للجيش الأحمر ، وأن تهيئ السبل لإعادة العلاقات الطبيعية السلمية بين موسكو وجيش الدون . وعلى روسيا السوفياتية أن تعوض جميع الخسائر التي لحقت سكان الدون ، في تجارتهم وصناعتهم ، بسبب الغزو البلشفي .

وأن يلتمس من جلالتكم الأمبراطورية مساعدة دولتنا الفتية بالأسلحة ، والعتاد ، والمعدات الهندسية ، وإن وجدتم في ذلك صالحكم ، أن تقيموا في أراضي جيش الدون معامل لصناعة المدافع والأسلحة الخفيفة والقذائف والذخيرة .

إن جيش الدون العظيم ، وسائر ولايات اتحاد الدون والقفقاس ، لن تنسى المساعدات الودية التي قدمها الشعب الألماني ، الذي قاتل القوزاق معه كتفاً لكتف

في حرب الثلاثين سنة ، يوم كانت كتائب القوزاق تعمل في صفوف جيش فالنشتاين وفي سني ١٨٠٧ ـ ١٨١٣ ، حين قاتل قوزاق الدون ، بقيادة أتمانها الكونت بلاتوف لتحرير ألمانيا ، واليوم ، وفي غمار الحرب الدامية التي دامت ثلاث سنوات ونصفاً ، في حقول بروسيا ، وغاليسيا ، وبوكوفينا ، وبولندا ، تعلّم القوزاق والألمان على حد سواء أن يحترموا شجاعة ووفاء بعضهما ، وهما يقاتلان الآن معاً من أجل حرية وطننا الدون ، بعد أن تصافحا محاربين نبيلين .

يتعهد جيش الدون العظيم ، وفاء لمساعدات جلالتكم الأمبراطورية ، أن يلتزم الحياد التام خلال النزاع الدولي بين الأمم ، ولا يسمح بوجود قوات مسلحة معادية للشعب الألماني في أراضيه ، وقد اقترن ذلك بموافقة أتمان إقليم جيش استراخان ، الأمير توندوتوف ، وكذلك حكومة الكوبان ، وستتم موافقة بقية أعضاء اتحاد الدون والقفقاس لدى انضمامهم .

ويمنح جيش الدون العظيم الأمبراطورية الألمانية حق الأفضلية في تصدير المقادير الفائضة عن الحاجة المحلية من منتجات القمح والدقيق ، والبضائع الجلدية والجلد الخام والصوف ومنتجات السمك واللحوم ، والدهونات الحيوانية والزيوت النباتية ومنتجاتها ، والتبغ ومنتجات التبغ ، والخيل والماشية ، والكروم ، والنبيذ وسائر غلال البستنة والزراعة ، وسوف تجهزنا الأمبراطورية الألمانية في مقابل ذلك ، بالمكائن الزراعية ، والمنتجات الكيماوية ومواد الدباغة ، ومعدات لانتاج الوثائق الحكومية ، فضلاً عن مواد ومعدات كافية لمعامل نسيج ، وقطن ، ودباغة وكيمياء ، وسكر ، وغيرها من المعامل ، وكذلك الأجهزة الكهربائية .

وفضلاً عن ذلك ، فإن حكومة جيش الدون العظيم ستمنح الصناعة الألمانية امتيازات خاصة لتوظيف رؤوس الأموال في مشاريع الدون الصناعية والتجارية ، ولاسيما في بناء واستغلال الطرق المائية الجديدة وفي وسائل المواصلات .

ان تحالفاً وثيقاً يعود بالمنافع على الطرفين وصداقة لحمتها الدماء التي أراقها العنصران المحاربان الألماني والقوزاقي في ميدان واحد لهما قوة جبارة في مقارعة العدو المشترك .

وبعد فإن هذه الرسالة لم تكتبها إلى جلالتكم الأمبراطورية يد دبلوماسي ، أو عالم داهية بالقانون الدولي ، بل جندي تعوّد ، خلال المعارك المشرّفة ، أن يحترم قوة السلاح الألماني ، ولذلك ألتمس من جلالتكم أن تصفحوا لصراحة لا تعرف الحيلة والدهاء ، وأن تؤمنوا بصدق مشاعري الخالصة .

مع مزيد من الاحترام

اللواء بيوتر كراسنوف ، اتمان الدون .

وقد عرضت الرسالة على مجلس مديري المصالح في ١٥ تموز ورغم التحفظ الواضح في موقف المجلس من الرسالة ، والمعارضة الصريحة التي أبداها بوغايفسكي وبضعة آخرون من أعضاء الحكومة ، فإن كراسنوف لم يتردد في تسليمها إلى دوق ليختنبرغ ، المبعوث القوزاقي إلى برلين ، الذي سافر الي كييف في الحال ومن هناك إلى ألمانيا بصحبة الجنرال تشرياتشوكين .

وقد استنسخت الرسالة بمعرفة بوغايفسكي في مصلحة الشوون الخارجية قبل إرسالها ، ووزعت نسخها بشكل واسع على وحدات القوزاق ومناطقهم مرفقة بالإيضاحات اللازمة . وتبين أنها سلاح ماض للدعاية . فتعالت الأصوات القائلة بأن كراسنوف باع نفسه للألمان . واستعر التذمر في جبهات القتال .

أما الألمان فقد أثملهم الظفر فذهبوا بالجنرال الروسي تشيرياتشوكين إلى مشارف باريس حيث قام وهيئة الأركان الألمانية العامة بمشاهدة العمل الرائع الذي كانت تؤديه مدافع كروب في دكّ معاقل الجيوش الأنكلو فرنسية .

٥

اثناء «الحملة الجليدية»* أصيب يفغيني لستنتسكي مرتين بجراح غير

* بذلك كان رجال الجنرال كورنيلوف يسمون تقهقرهم من روستوف إلى كوبان . المؤلف

بليغة عاد على أثرها إلى وحدتـه . ولكن وعكة ألّمت به في أيار ، وجيش المتطوعين ينال قسطاً من الراحة في نوفوتشيركاسك ، فحصل على إجازة لمدة أسبوعين . ورغم رغبته الشديدة في الذهاب إلى أهله ، قرر البقاء في نوفوتشيركاسك ، لكيلا يخسر الوقت برحلتي الذهاب والايياب الطويلتين . وحصل رفيق من فصيله ، هو الرئيس غورتشاكوف على إجازة في الوقت ذاته ، فدعاه للإقامة في بيته في نوفوتشيركاسك قائلاً :

ـ ليس لديَّ أطفال ، وستكون زوجتي سعيدة برؤيتك ، لقد أخبرتها عنك في رسائلي .

وعند الظهر ذهبا بالعربة إلى بيت منعزل قائم في أحد الشوارع القريبة من محطة القطار . فقال غورتشاكوف :

ـ كان هذا محل إقامتي ، يوماً ما ، ـ وحث خطاه وعيناه السوداوان الكبيرتان نديتان لفرط سروره ، ثم دلف إلى المنزل ، فملأ الغرف برائحة الجنود الحريفة . وهتف بالخادمة التي خرجت من المطبخ باسمة :

ـ أين أولغا نيكولاييفنا ؟ في الحديقة ؟ اتبعني يا لستنتسكي .

وفي الحديقة لاح فيء مبقّع تحت أشجار التفاح ، وكان الهواء يعبق برائحة العسل والأرض الملفوحة . والتمعت عوينات لستنتسكي المعلقة على أنفه في أشعة الشمس المائلة . وفي مكان ما على خط سكة حديد بعيد ، راحت قاطرة تهدر دونما كلل ، فقاطع نداء غورتشاكوف هديرها الرتيب ذلك :

ـ أولغا! أولغا!

وجاءت امرأة طويلة القامة تسير في ممر الحديقة الجانبي لتستقبلهما وقد توشحت بالأصفر ، توقفت لحظة ، وراحتاها تشدان على صدرها بحركة أنثوية أنيقة وكأن الرعب قد استبد بها ، ثم هرعت نحوهما وهي تصرخ ، بذراعيها الممدودتين . كانت تركض مسرعة بحيث لم يستطع لستنتسكي أن يرى سوى ركبتيها تصطفقان بتنورتها ، ورأسي خفيها المدببين ، وطوفان ذهبي من الشعر يتطاير حول رأسها باضطراب . ثم وقفت على رؤوس

أصابعها ، وألقت ذراعيها العاريين ، المتوردين في أشعة الشمس ، حول عنق زوجها ، وقبلته على وجنتيه المغبرتين ، وأنفه ، وعينيه ، وشفتيه ، وعنقه الملفوح ، وكان صوت قبلاتها ينبعث كطلقات المدفع الرشاش .

وراح لستنتسكي يمسح عويناته ، ويستنشق فوح أزهار حشيشة الأوجاع . ثم ألفى نفسه يبتسم ابتسامة مصطنعة غبية إلى أقصى حد .

ولما خفت ثورة فرحها فك غورتشاكوف أصابعها عن رقبته بعناية ولكن بإصرار ، ثم وضع ذراعه عبر كتفها ، وأدارها بخفة :

ـ أولغا ، أقدم إليك صديقي لستنتسكي .

فقالت وهي تمر عليه بعينيها الباسمتين ، دون أن تبصر شيئاً لفرط سعادتها .

ـ لستنتسكي ؟ أنا مسرورة جداً بالتعرف إليك . زوجي أخبرني عنك...

ثم عادوا إلى المنزل سوية . وكانت يد غورتشاكوف المشعرة ، بأظافرها القذرة ، تطوق خصر زوجته الأهيف . فاسترق لستنتسكي النظر إلى تلك اليد ، واستنشق عبق حشيشة الأوجاع وجسد تلك المرأة الذي بعثت فيه الشمس دفئاً فانتابه شعور طفولي بالتعاسة ، لكأن أحداً أصابه بجرح عميق دونما حق . ورمق أديم خديها الأسبل ، وفص أذنها الصغيرة الوردي ، تكاد تخفيه خصلة من شعرها الذهبي الحائل . ثم انسلت عيناه كالسحلية ، إلى فتحة ردائها ، فرأى ثدياً نافراً أبيض كالحليب . وحلمة بنية صغيرة . وكانت تلتفت إليه بين حين وآخر بعينين تشع فيهما زرقة خفيفة ، فتلوح النظرات فيها رقة وودّ . لا يلبث أن يخزه الألم إذ تدير تيكما العينين إلى محيا زوجها الأسمر فتشعان نوراً آخر .

واستطاع لستنتسكي أثناء الغداء أن يتملى زوجة صديقه على نحو تام فلاحظ في قوامها الجميل وفي محياها ذلك الحسن الذاوي الذي يتفتح في المرأة إذ تشهد الثلاثين خريفاً . بيد أنها احتفظت بمعين من الشباب لم ينضب في حركاتها وفي عينيها المتضاحكتين والباردتين نوعاً ما . لربما لم

يكن في وجهها ما يميزه بملامحه الجميلة وقسماته غير المتناسقة بل الجذابة . على أن ثمة تناقضاً فيها سرعان ما يلفت النظر ، كانت لها شفتا سمراوات الجنوب الحمراوان الرقيقتان اللافحتان إزاء بشرة وردية صافية وحاجبين أشقرين . وكانت تضحك بكثرة ، غير أن الاصطناع كان يبدو واضحاً في بسمتها التي تومض بأسنان صغيرة وكأنها مقصوصة . وكان صوتها الخفيض لا رنة فيه ويفتقر إلى العذوبة والعمق . وبدا جمالها مفرطاً لعيني لستنتسكي اللتين لم تشهدا طيلة شهرين إلا ممرضات الجيش المرهقات . فراح يتملّى رأسها الشموخ وعقصة شعرها الغزير ، ويرد على أسئلتها بأجوبة خرقاء ، ثم ما لبث أن آوى إلى غرفته متذرعاً بالتعب...

... مرت الأيام طافحة بالحلاوة واللهفة . وحين استعاد لستنتسكي ذكرى تلك الأيام ، بعد ذلك ، شعر إزاءها بإجلال ، ولكنه حينذاك ظل يعذب نفسه كالطفل عذاباً لا مبرر له . وقد تحاشى غورتشاكوف وزوجه لقاءه وهما يهدلان هديل اليمام . ثم عمدا إلى نقله من الغرفة الملاصقة بمخدع نومهما إلى أخرى بعيدة في ركن المنزل بحجة إجراء بعض الترميمات الضرورية فأدرك أن بقاءه يضايقهما ولكنه لم يجد رغبة في الذهاب إلى أي مكان آخر . فأمضى أياماً بطولها مستلقياً تحت شجرة التفاح ، حيث الفيء البرتقالي الأغبش ، يطالع صحفاً طبعت على ورق رديء بعجالة ، أو يغط في نوم ثقيل لا ينعش النفس . وكان يشاركه السأم كلب صغير وسيم أبلق ، إذ كان يحس بغيرة صامتة من احتكار سيده لسيدته ، فحوّل اهتمامه إلى لستنتسكي ، وراح يرقد بجانبه وينفث الحسرات .

كان لستنتسكي يمسد على ظهر الكلب ويتمتم أبياتاً أثيرة لديه من شعر بونين* . وحين ينتهي من ترديد ما يحفظ لذلك الشاعر من شعر مزوق مضمخ بالعطور ، يستسلم للنوم من جديد...

---

* كاتب وشاعر روسي كبير (١٨٧٠ ـ ١٩٥٣) . المعرب

وأدركت أولغا بغريزة المرأة مبعث هذا المزاج . وقد كانت متحفظة في موقفها إزاءه منذ البداية ، فزادها ذلك تحفظاً ، وذات مساء عادا سوية من منتزه المدينة (فقد تخلّف غورتشاكوف وراءهما حين صادف بعض معارفه الضباط عند بوابة المنتزه) . فتأبط لستنتسكي ذراعها ، وأقلقها بأن شد مرفقها إلى جنبه بقوة .

فسألته باسمة :

ـ علام تحدق فيّ هكذا ؟

تصور أنه وجد في صوتها نبرة خافتة تنّم عن تحد عابث ، فدفعه ذلك إلى أن يغامر بورقته . وكان رأسه لبضعة أيام خلت يعج بالشعر ، وبمناحة رجل آخر . فأحنى رأسه وهمس باسماً :

قريب منها مصفد بسحرها
أحاول المستحيل استكناه سرها الملفع بالظلام
لكأني أرنو إلى شاطئ مسحور
يتوارى في المدى وراء شحوب يأسر الألباب

فحررت يدها منه بهدوء وقالت بنبرة مرحة :

ـ يفغيني نيكولايفتش ... أنا... لا أستطيع إلاّ أن ألاحظ سلوكك تجاهي . ألا تخجل ؟ على مهلك ، على مهلك! كنتُ أظنك على... غير هذه الشاكلة . هذا غير لائق ، أليس كذلك ؟ أنا هدف سيء لمثل هذه المحاولات . تريد مطارحتي الغرام ؟ طيب ، لا تفسد علاقتنا الودية ، ولا ترتكب حماقة . ولنكن صديقين . مفهوم ؟ هاتِ يدك .

فاصطنع لستنتسكي غضبة رجل شريف ، ولكنه لم يستطع المضي في ذلك فحذا حذوها ، وانفجر ضاحكاً . وحين بلغهما غورتشاكوف ازدادت حيوية ومرحاً ، إلا أن يفغيني خلد إلى الصمت ، وهو يشعر بالاحتقار القاسي لنفسه طوال الطريق إلى المنزل .

وعلى الرغم من ذكائها اللامع ، فقد خيل إليها بكل صدق أنهما سيغدوان بعد هذا صديقين . وقد حقق لستنتسكي تصوراتها تلك في الظاهر ، ولكنه كاد أن يضمر لها الكراهية في قلبه ، ثم ألفى نفسه بعد بضعة أيام يعذب نفسه بالبحث عن صفات مكروهة في شخصها وخلقها ، فأدرك أنه على شفا الوقوع في حب صادق عميق .

ونضبت أيام الاجازة ، مخلّفة رواسبها في أعماق وعيه . ثم أخذ جيش المتطوعين يستعد لكيل ضربة ، بعد أن نال الراحة والتعزيز ، فتحرك نحو الكوبان ومعه غورتشاكوف ولستنتسكي .

وجاءت أولغا تودعهما . وقد زادها ثوب أسود من الحرير جمالاً على جمالها الهادئ . كانت تبتسم بعينين دامعتين وقد أسبغت شفتاها الوارمتان على محياها ملامح صبيانية مثيرة . وانطبعت صورتها تلك في ذاكرة لستنتسكي وظل يحتفظ ، في غمرة دماء الحرب وقذارتها ، بتلك الصورة الواضحة الثابتة ، وقد أحاطها بهالة من القدسية لفرط إخلاصه .

وفي حزيران خاض جيش المتطوعين المعركة . وبقرت بطن غورتشاكوف في الصدام الأول بشظية من قذيفة ، فنقل إلى ما وراء خط القتال ، وبعد ساعة خاطب لستنتسكي ، وهو راقد في العربة والبول والدماء تنزف منه :

ـ لا أظن أنني سأموت... سوف يجرون لي عملية على الفور...ويقال أن ليس لديهم كلوروفورم . إنها لا تسوى الموت ، أليس كذلك ؟ ولكن هب أنني مت... يا يفغيني ، اني الآن بكامل حواسي ، وما إلى ذلك... لا تتخلى عن أولغا فليس لأي منا قريب . أنت رجل شريف وطيب لا غبار عليك . تزوجها... لعلك لا ترغب في ذلك ؟

ومضى يحدق في يفغيني وفي عينيه ضراعة وحقد ، وارتجف خداه غير المحلوقين . ثم أسند بعناية يديه الداميتين الملطختين بالوحل والدم إلى بطنه المبقور ، ولعق العرق الوردي من على شفتيه ، وأردف قائلاً :

ـ هلا وعدتني ؟ أن لا تتخلى عنها... اللهم الا اذا أجرى لك الجنود الروس عملية تجميل كما فعلوا بي! أتعد بذلك ؟ إنها امرأة رائعة . ـ والتوت تقاسيم وجهه وأضاف : ـ إنها امرأة من بطلات تورغنيف . ليس في هذه الأيام نساء من شاكلتها . هلا وعدتني ؟ لماذا لا تتكلم ؟

ـ انني أعدك .

ـ حسناً ، والآن اذهب إلى الشيطان! وداعاً!...

وصافحه بيد مرتعشة ثم جره إليه بحركة ثقيلة يائسة . وارتجف لشدة ما بذل من جهد وهو يرفع رأسه المخضل بالعرق ليضغط شفتيه المسفوعتين على يد لستنتسكي . ثم غطى رأسه بطرف معطفه على عجل وأشاح بوجهه . فلمح يفغيني ، وهو متهّيج ، قساوة صارمة على شفتيه وظلاً رمادياً ندياً على خده .

مات بعد يومين . وفي اليوم التالي بالذات أرسل لستنتسكي إلى المؤخرة بعد أن أصيب بجراح خطيرة في ذراعه وفخذه الأيسرين .

كانوا في غمرة قتال عنيد لا نهاية له . وقد شن يفغيني مع كتيبته هجوماً وبعده هجوماً معاكساً ، وأهيب بفوجه للمرة الثالثة أن يتقدم . وجعل آمر سريتهم يستحثهم للتقدم : «استمروا يا أولاد ، لا تنبطحوا! إلى الأمام من أجل كورنيلوف! » . فدب لستنتسكي يتعثر في القمح الذي لم يحصد بعد ، يحمل بيسراه رفشاً يقي به رأسه ، ويمسك بندقيته بيمناه . وبترت رصاصة معدن الرفش المستدير وهي تنز ، فأحس بوخزة من الفرح : «لم تصب! » وفي اللحظة التالية ارتمت يده جانباً بضربة خاطفة هائلة . فأسقط الرفش واندفع إلى الأمام مسافة خمسين ياردة أخرى دون أن يقي رأسه بشيء . وأراد أن يحمل بندقيته أمامه ، ولكنه عجز عن رفع يده . وسرى ألم ممض في كل مفاصل بدنه ، كما ينسكب ذوب الرصاص في القالب . فاستلقى في شق محراث وراح يرسل صراخاً متواصلاً دون أن يستطيع السيطرة على نفسه . ومع أنه كان راقداً إلا أن رصاصة أصابت فخذه ، فغاب عن الوعي ببطء وعذاب .

وفي المؤخرة بتروا ذراعه المهشمة وأخرجوا من فخذه كسراً من عظمة . ورقد مدة أسبوعين يمزقه اليأس والألم والحنين . ثم نقل إلى نوفوتشيركاسك ، حيث أمضى ثلاثين يوماً آخر مثقلة بالضنى في المستشفى ، ما بين تبديل الضمادات ، ومواجهة الأطباء والممرضات بوجوههم الضجرة ، ورائحة اليود والكاربوليك لا تنقطع... وكانت أولغا تزوره أحياناً . لقد علا وجنتيها ظل أصفر مخضوضر . وزاد لباس الحزن في عمق الأسى الحنون البادي في عينيها . فكان لستنتسكي يتملى وجهها الذاوي وهو صامت وقد أخفى كمه الخاوي تحت بطانيته بتكتم وخجل . وقد سألته عن تفاصيل مصرع زوجها من غير ما لهفة . وراحت تنصت إليه ، وعيناها تجولان فوق الأسّرة بشرود بيّن . وحين غادر يفغيني المستشفى ذهب لزيارتها ، فاستقبلته على درجات عتبة المنزل ، وأشاحت بوجهها حين أحنى رأسه ، ذا الشعر الغزير الأشقر القصير ، ليلثم يدها .

كان قد حلق وجهه بعناية وارتدى قمصلة خاكي أنيقة تقولب قامته كعادته ، بيد أنه أحس بالعذاب من كمه الخاوي وعقب ذراعه المبتور القصير المضمّد يختلج متشنجاً في داخله ، ثم ولجا المنزل ، وقبل أن يجلس شرع في الكلام :

ـ رجاني بوريس قبل موته... جعلني أعده بعدم التخلي عنك .

ـ أعرف .

ـ كيف ؟

ـ أخبرني في آخر رسالة .

ـ كانت مشيئته أن نعيش سوية... وهذا طبعاً منوط بموافقتك وقبولك الزواج من ذي عاهة . أرجو أن تثقي... إن القاء خطاب عن مشاعري سيبدو في مثل هذه الظروف... لكنني لا أريد إلا إسعادك... من صميم قلبي .

فتأثرت بحرجه وعباراته المتقطعة المنفعلة . وقالت :

ـ فكرت بالأمر ، أنا موافقة .

ـ سوف نذهب إلى ضيعة والدي .

ـ طيب .

ـ هل يمكننا أن نسوي بقية الترتيبات فيما بعد ؟

ـ أجل .

فلمس بشفتيه يدها الرخامية باحترام . وحين رفع عينيه المتضرعتين شهد ظل ابتسامة ينزلق من شفتيها .

كان الحب والشهوة العارمة يشدان لستنتسكي إلى أولغا . فشرع يزورها كل يوم . كان قلبه ، وقد أضنته الحرب ، يحن إلى عالم الأساطير . فراح ينظر إلى نفسه كبطل في رواية كلاسيكية ، ويبحث مجهداً عن مشاعر سامية لم يحس بها لأحد ولا في أي وقت كان . ولعل مرد ذلك رغبته في التستر على بواعث جسده البدائية والتسامي بها ، بيد أن الأسطورة لم تكن لتخلو من واقع فلم تكن الجاذبية الجنسية وحدها ، بل كان ثمة خيط آخر غير منظور يشده إلى هذه المرأة التي ولجت حياته عرضاً . وقد حاول أن يحلل مشاعره الغامضة فاذا به لا يدرك إلا أمراً واحداً بجلاء : أنه رغم العجز الذي لحق به لما يزل نهبا لغريزة بدائية عارمة : « كل شيء مباح لي » . كان يفغيني يهفو إليها ، بشوق مخبول ، ويستعر غيرة من بوريس الراحل مع أن أولغا كانت ما تزال في حدادها تعاني مرارة نكبتها الفاجعة . كانت الحياة من حوله تزبد كدوامة عارمة . فقد أمسى الرجال الذين تنفسوا دخان البارود ، وأعمتهم وصمّت آذانهم الأحداث من حولهم ، لا يعيشون إلا لساعتهم . يحيون حياة عاطفية شرهة . ولعل هذا الذي حدا بلستنتسكي أن يسارع إلى شد حياته بحياة أولغا ، فقد تنبأ بشكل مبهم أن القضية التي واجه الموت من أجلها مقضي عليها بفشل محتوم .

كتب إلى والده يخبره بعزمه على الزواج وبقدومه وزوجته إلى ياغودنويه . واختتم رسالته بهذه الكلمات الحزينة الساخرة : « لقد أديت نصيبي . وكان بوسعي مع ذلك أن أمضي بيد واحدة في محق الحثالة المتمردة . هذا « الشعب »

اللعين الذي تباكى على مصيره المثقفون وسال لعابهم طيلة عقود . ولكن ، الآن ، والحق يقال ، يبدو الأمر لعيني غير ذي معنى بشكل فظيع . فكراسنوف لن يتصالح مع دينيكين وثمة في صميم كل من الطرفين مكائد ، ومؤامرات ، وفضائح ، وفساد . إني أستشعر بالهلع أحياناً . كيف لهذا كله أن ينتهي ؟ إني قادم إلى البيت لأعانقك بذراع واحدة ، ولأعيش معك ، وأرقب الصراع من الخارج . لم أعد جندياً ، بل كسيحاً في جسدي وروحي . لقد تعبت . لم أعد أستطيع المضي ولذلك أستسلم . وربما كان هذا دافعاً من دوافع زواجي ورغبتي في ضمان ـ مرسى هادئ ـ لنفسي » .

وقرر مغادرة نوفوتشيركاسك بعد أسبوع . قبل أن يبارحا المدينة ببضعة أيام انتقل يفغيني إلى منزل أولغا . وغب ليلة تواصلهما بدت وكأن خديها يغوران وسحنتها تزداد عتمة . لقد أذعنت لإلحاحه ولكنها بدت مهمومة كسيرة الخاطر من الوضع الذي وجدت نفسها فيه . ولم يكن يفغيني يعلم ، وما كان بوده أن يعلم ، أنه قد توجد مقاييس شتى للحب الذي يربط بينهما ، ولكن ثمة مقياساً واحداً للكراهية .

لم تخطر أكسينيا على بال لستنتسكي إلا لماماً وعلى مضض . كان يصد عن التفكير بها شأن رجل يذود الشمس عن نفسه براحة يده . ولكن ذكريات عشرته بها ، والتي لم يستطع نسيانها أخذت تقض مضجعه بإلحاح متزايد . حتى أنه خيل إليه مرة أن قطع صلته بها أمر غير ضروري : « إنها ستقبل بالأمر الواقع » بيد أن إحساس اللياقة تغلب عليه . فقرر أن يتحدث إليها بعد وصوله ، وأن يفصم علاقته بها إن تيسر له ذلك .

بلغا ياغودنويه بعد أربعة أيام من رحيلهما عن نوفوتشيركاسك . وقد استقبلهما رب البيت الشيخ على بعد فرست تقريباً من الضيعة . لاحظ يفغيني بطء والده في خلع قبعته ورفع ساقه عبر المقعد في عربته الخفيفة .

قال الشيخ ، وهو يعانق الكنّة بارتباك ، دافعاً شاربه الأشيب المخضوضر إلى وجنتيها :

ـ جئت أستقبل ضيفيّ العزيزين . دعيني ألقي نظرة عليك .

واقترح يفغيني قائلاً :

ـ اركب معنا ، بابا . امض بنا ، يا حوذي ، آه ، هذا أنت يا جدّ ساشكا ؟! مرحباً! ما زلت على قيد الحياة ؟ اجلس في محلي ، بابا . وسأجلس أنا مع الحوذي .

جلس الشيخ بجانب أولغا ، ومسح شاربه بمنديله ، وراح يتفحص ابنه بعدم اكتراث ملحوظ :

ـ حسناً ، كيف حالك ؟

ـ أنا سعيد جداً بلقائك ثانية ، يا بابا .

ـ اذا فأنت كسيح ، كما تقول ؟

ـ لا مفر من ذلك .

وحدق أبوه فيه ، جاهداً أن يخفي حنانه بما أضفى على وجهه من قسوة ، مشيحاً عينيه عن كم قمصلته الخضراء الخاوي .

قال يفغيني وهو يهز كتفيه :

ـ إنه ليس شيئاً ذا بال . لقد اعتدته .

فسارع والده بالقول :

ـ بالطبع ، إنك تعتاد عليه ، طالما بقي رأسك سليماً ، لقد عدت عودة مشرفة ثم إنك جئت بـ «أسيرة» جميلة .

فسّر يفغيني بالمجاملة الرقيقة التقليدية التي صدرت عن والده ، فسأل أولغا بعينيه : «ما رأيك فيه ؟» ومن ابتسامتها المشرقة وعينيها الدافئتين أدرك أن الشيخ قد أعجبها .

جر الجوادان الرماديان السريعان العربة الخفيفة فراحت تقعقع بسرعة حدر التل . وبدت للعين المرافق الخارجية ، ولبدة البستان الخضراء المتماوجة ، والمنزل ذو الجدران البيض وأشجار الاسفندان تظلل النوافذ . فهتفت أولغا :

ـ يا للروعة! يا لروعة كل شيء هنا!

واندفعت كلاب البرزوي السود خارجة من الفناء وأحاطت بالعربة ففرقع الحوذي ساشكا بسوطه على أحدها حين أراد القفز إلى داخل العربة ، وصاح : «ستدهسك العجلات بعد هذا ، أيها الشيطان!» .

أدار يفغيني ظهره إلى الجوادين ، وحين زنخرا رشت الريح القطرات الصغيرة على عنقه .

وعلت وجهه ابتسامة وهو ينظر إلى والده ، إلى أولغا ، إلى الطريق المزروع بالقمح ، والى الرابية ترتفع وراءها رويداً لتحجب خط الأفق البعيد .

ـ يا للبقعة النائية! يا للهدوء...

وتطلعت أولغا باسمة إلى الغربان تحلق عبر الطريق ، وكتل الشيح والبرسيم تمرق مسرعة .

وضيق أبوه عينيه وقال :

ـ ها ، قد خرجوا لاستقبالنا .

ـ مَنْ ؟

ـ خدمنا .

فنظر يفغيني عبر كتفه ورغم أنه كان ما يزال بعيداً يشق عليه تمييز أحد أحس أن أكسينيا بين النسوة فعلت وجهه حمرة شديدة . وتوقع أن ينم وجهها عن إمارات الانفعال حين مرت العربة خلال البوابة فخفق قلبه لما رنا إلى اليمين وشاهدها هادئة باسمة . فأومأ برأسه وكأن حملاً ثقيلاً قد انزاح عن كاهله .

وأشارت أولغا إلى اكسينيا بعينين تطفحان اعجاباً وقالت :

ـ يا للجمال الطاغي! من هي ؟ إنه جمال عنيف ، أليس كذلك ؟

بيد أن يفغيني استعاد رباطة جأشه . فوافقها مؤيداً بفتور :

ـ أجل ، إنها امرأة جميلة... إنها خادمتنا .

* * *

كان لمجيء أولغا أثره على أهل ياغودنويه كلهم . فقد أصدر رب البيت الشيخ ، الذي كان فيما مضى يتجول طوال يومه بثوب النوم والبنطال الصوفي الدافئ ، أوامره بأن تخرج سترة وبنطال الجنرالية من الصناديق حيث عبئت في أكياس تحفظها من العث . كان في السابق لا يكترث لمظهره ، فاذا به يصرخ في وجه اكسينيا إن وجد في ثيابه أي تغضن ، ويعبس أشد العبوس حين تأتيه بجزمة غير ممسوحة في الصباح . واستعاد نضارته فأثار استغراب يفغيني الممزوج بالفرح بنعومة خديه الحليقين .

جهدت أكسينيا أن ترضي سيدتها الشابة ، وكأنها تتوجس شراً ، فجعلت تتودد إليها بتواضع وتبدي العناية الزائدة في خدمتها ، وكادت لوكريا أن تجن في حرصها على إعداد وجبات لذيذة ، وتفننها في ابتكار ضروب شهية من المرق والتوابل . ولم ينج من أثر تلك التغيرات التي حصلت في ياغودنويه حتى الحوذي ساشكا الذي بلغ من الشيخوخة والهزال عتيا . فقد صادف أن التقى به سيده الشيخ عند الدرجات ، وتفحصه من الرأس حتى القدم ، فهز سبابته مهدداً :

ـ ما هذا كله ، يا ابن القحبة ؟ ـ وأجال لستنتسكي الشيخ عينيه بحدة ، وأردف : ـ بنطالك ، بأي حال ؟!

فأجاب ساشكا العجوز بوقاحة ، رغم أنه ارتبك قليلاً للتفتيش الدقيق الذي تعرض له ولصوت سيده المرتجف :

ـ حسناً ، بأي حال ؟

ـ امرأة شابة في المنزل ، وأنت تحاول أن تدفع بي إلى القبر ،يا ابن الكلبة ؟ لماذا لا تزرر سروالك ؟ أيها التيس الهرم العفن ؟!

فمر ساشكا العجوز بأصابعه القذرة حدر الخط الطويل من الأزرار على سرواله . وكأنه يعزف على أكورديون . كان على وشك الرد بوقاحة مرة أخرى ، بيد أن سيده خبط قدمه خبطة عنيفة بحيث انخلع نعل جزمته المدببة قديمة الطراز عند الوجه وزنخر :

ـ عد إلى اسطبلك! عادة ، سر! سأخبر لوكريا أن تغسلك بالماء الفائر ، أزل عنك هذه القذارة ، أيها الكديش الهرم!

راح يفغيني ينعم بالدعة يتجول ببندقية لصيد الحجل . كانت مشكلة أكسينيا تقض مضجعه . ولكن والده استدعاه إلى غرفته ذات مساء وسأله وهو ينظر صوب الباب بقلق متحاشياً عيني ابنه :

ـ أنا ، أنت تعلم... ينبغي أن تعذرني لتدخلي في شؤونك الخاصة . ولكني أود أن أعرف ما تقترحه بشأن أكسينيا ؟

ففضح يفغيني نفسه بالسرعة التي أولع فيها سيكارة . وكما حدث له يوم وصوله ، فقد احمر وجهه ، وحين أحس بذلك ، ازداد وجهه احمراراً . فاعترف بصراحة ، قائلاً :

ـ لست أدري... والله لست أدري...

فقال الشيخ وهو يزن كلماته :

ـ لكن أنا أدري! اذهب وتحدث إليها حالاً . اعرض عليها النقود ، نقود الستر ، ـ ثم ابتسم تحت طرف شاربه وأردف : ـ أطلب منها أن تغادرنا . سوف نجد واحدة غيرها .

وبادر يفغيني للذهاب إلى جناح الخدم في الحال . فألفى أكسينيا واقفة تعد العجين وظهرها إلى الباب . وكان عظما اللوح يعملان في ظهرها المقوس بحيوية ، وكماها مشمرين إلى ما فوق المرفقين ورأى العضلات تترقرق في ذراعيها الأسمرين الريانين . وراح يحدق في الجدائل المنفوشة حول عنقها ، وقال :

ـ أكسينيا ، أود أن أكلمك دقيقة .

والتفتت في الحال ، جاهدة أن تضفي على وجهها تعبيراً من الأدب والهدوء . بيد أن يفغيني لاحظ أصابع يدها ترتجف وهي ترخي كميها .

وألقت إلى الطباخة نظرة وجلة ، ولم تستطع كبت فرحتها ، فتبعت يفغيني بابتسامة سعيدة متسائلة .

وحين بلغا درجات العتبة في الخارج ، قال :

ـ سنذهب إلى البستان . أود أن أكلمك .

فقالت بفرح وتواضع : «حسناً!» فقد حسبت أن هذا يعني استئناف علاقتهما السابقة . وبينما هما سائران سألها بصوت خافت :

ـ أتدرين لماذا استدعيتك ؟

فابتسمت في العتمة ، وتعلقت بذراعه ، ولكنه انتزعها منها ، فأدركت كل شيء ، وتوقفت قائلة :

ـ ماذا تريد ، يفغيني نيكولايفتش ؟ لن أتقدم خطوة أخرى .

ـ طيب ، يمكننا أن نتكلم هنا! لن يسمعنا أحد . ـ وراح يفغيني يسرع ويتخبط في شبكة خفية من الكلمات : ـ يجب أن تفهميني . لا أستطيع أن أكون معك كما كنت في السابق . لا أقدر أن أعيش معك ، هل تفهمينني ؟ أنا الآن متزوج ، ولا أستطيع ، بصفتي رجلاً شريفاً أن آتي أمراً معيباً . إن ضميري لا يسمح بذلك . ـ قالها وهو يتعذب خجلاً من كلماته الرنانة .

كان الليل قد دب لتوه من جهة الشرق المعتم . وفي الغرب كانت سلخة من السماء ما تزال زرقاء بنور المغرب . وعلى ساحة الدرس كان الرجال يدرسون الحبوب على ضوء الفانوس ، مستغلين صفاء الجو ، وكانت المكائن تنبض بالحياة . وراح الرجل الذي يغذي ماكينة الدرس دونما كلل يصرخ بصوت أجش فرح : «مزيداً!» وخيم في البستان صمت عميق ، وفاح عبق القريص ، والقمح ، والندى .

لم تقل أكسينيا شيئاً .

ـ ما قولك ؟ لماذا أنت صامتة ، يا أكسينيا ؟

ـ ليس لديَ ما أقوله .

ـ سوف أعطيك نقوداً . يجب أن ترحلي . وأظن أنك ستقبلين ، سيكون من الصعب عليَ أن أراك دائماً :

ـ سينتهي الشهر بعد أسبوع ، هل أستطيع أن أبقى حتى نهاية الشهر ؟
ـ طبعاً ، طبعاً .

صمتت أكسينيا برهة ، ثم زحفت إلى جانبه بخجل والتصقت به ، وكأن أحداً يضربها ، وقالت :

ـ حسناً ، سوف أذهب . ولكن هل لك... للمرة الأخيرة فحسب ؟ إنها حاجتي التي تحملني أن أفقد الحياء هكذا . لقد أكلت قلبي الوحشة... لا تقس في الحكم علي ، يفغيني .

كان صوتها جافاً مرناناً . وعبثاً حاول يفغيني أن يعرف ما اذا كانت جادة أم هازلة في كلماتها تلك .

ـ ماذا تريدين ؟

ثم تنحنح متضايقاً ، وأحس بغتة أنها تتلمس يده بوجل ، من جديد .

... وبعد بضع دقائق ، خرج من وراء شجيرة الزبيب الرومي العبقة الندية . وقبل أن يبلغ المنزل توقف ومسح بمنديله ركبتي بنطاله الملطختين بنسغ العشب . والتفت بينام هو يرتقي الدرج . ومن خلال نافذة في جناح الخدم ، شاهد أكسينيا وقد شمرت ذراعيها خلف رأسها ، وهي تسوي شعرها . وكانت ثمة بسمة تتراقص على شفتيها .

٦

اكتمل نمو العشب الريشي ، فاتشح السهب الذي لا نهاية له بحلة فضية متموجة . وجعلت الريح تغذ خطاها المتواثبة فوقه وهي تنشر حفيفها ، وتدفع أمواجاً شهباً ترة الظلال تارة نحو الجنوب وأخرى نحو الغرب . وحيتما ولت النسائم المنسابة وجهها طأطأ العشب الريتي هامه بخشوع وامتد على أديمه الأشهب مسرب أعمق ظلاً .

ذوت الأعشاب المبرقشة ، وذبل الشيح الواهن الكئيب في أعالي

التلال . وكانت الليالي القصار تتلاشى على عجل ، كانت سماؤها تنتشر فيها أنجم لا حصر لها . وغام القمر ، وهو الذي يدعوه القوزاق «الشمس الصغيرة» فدخل محاقه وجعل يرسم وهجاً خابياً . وتداخلت المجرة الفسيحة بغيرها من مسارب الأنجم . وكانت السموم خانقة والريح جافة تحمل رائحة الشيح . وكانت الأرض ، وقد أترعها الشيح الجبار مرارة ، تهفو إلى نسمة من البرد . ودب الشحوب في مجرات الأنجم الشم ، التي لم تطأها سنابك الخيل ولا أرجل الانسان ، ثم توارت عن الأنظار . وخمدت أنفاس النجوم المنتشرة كحبات القمح في السماء المعتمة القاحلة التي لم تعط شتلاً ولم تذق طعم الحياة رغم سوادها الذي يحاكي سواد الأرض . وبدا القمر أشبه بمستنقع أجاج قاحل . وأذوى العطش أعشاب السهب ، وعلقت في سمائه أصوات فضية الرنين متواصلة لطير السمان ، وصرير معدني الجرس يرسله الجراد...

كان السهب في النهار يتسربل بغبش ضبابي خانق ، وكانت تحوم في زرقة سمائه الصافية الشاحبة شمس لا ترحم وقوس جناحي حدأة مشرعين بلون الفولاذ الداكن . ويترامى العشب الريشي ساطعاً عنيداً في غلالة بنية كوبر البعير . وجعلت الحدأة تتمايل وراحت تعوم في السماء ، وظلها الكبير ينساب على العشب بصمت .

وكانت السناجب البرية ترسل نداءات كسلى مبحوحة ، والفئران البرية تغفو على المنحدرات الهشة الصفر . كان السهب يشع حرارة لكنه لا ينبض بالحياة ، فقد ران سكون الموتى في كل مكان . وحتى رابية المقبرة الزرقاء التي لاحت في الأفق كانت تترجرج على نهاية مرمى البصر أشبه ما تكون بالحلم .

ايه أيها السهب الحبيب! إن لفح هوائك المر يعابث أعراف الجياد والأفراس . وخطوم الخيل تتشرب ملوحة فتروح تلوك شفاهها الحريرية وهي تتنسم لهاثها المر الأجاج وتصهل اذ تذوق طعم الريح والشمس . يا سهبنا

الحبيب! تنوء أنت تحت سماء الدون الخفيضة . وهاد ملتوية ، وديان يابسة ، ضفاف حمر ، مدى من العشب الريشي تتخلله آثار داكنة من حوافر الخيل ، رواب قائمة بصمت حكيم ، لتحرس مجد القوزاق الدفين... اليك أركع بخشوع يا سهب قوزاق الدون ، أنا واحد من بنيك ، ألثم ترابك الذي غسلته دماء لا تجف مدى الزمن .

* * *

كان رأس الجواد صغيراً ، دقيقاً ، أشبه ما يكون برأس الثعبان ، وأذناه منبسطتين مرنتين . وكانت عضلات صدره بديعة التكوين وسيقانه جميلة قوية ، بعواضد مستقيمة ، وحوافر ه أشبه بحصاء النهر . أما كفلاه فكانا لدنين مائلين قليلاً ، وذيله غزير الشعر منتصباً . كان من أصائل جياد الدون ، لا تجري في عروقه قطرة واحدة من دم أجنبي ، وتبدو أصالته في كل سمة من سماته . وكان اسمه مالبروك .

وذات يوم ، اشتبك عند الورود مع جواد أقوى وأكبر سناً منه دفاعاً عن فرس ، فأصيب برفسة مؤذية في قادمته اليسرى ، رغم أن جياد المراعي لا تحذى قط . فقد شب الجوادان وترافسا بقوادمهما ، وعض كل منهما الآخر فمزق لحمه...

لم يكن الراعي حاضراً ، كان مستلقياً في السهب يغط في نومه ، وقد أعطى ظهره إلى الشمس ، وباعد بين ساقيه بجزمته المتربة . وطرح الجواد الآخر مالبروك أرضاً ، ثم طارده إلى مسافة بعيدة عن قطيعه . ثم تركه سابحاً بدمائه ، واستولى على القطيعين معاً وساقهما بمحاذاة المستنقع .

جيء بالجواد الجريح إلى الاسطبلات ، فعالج الطبيب ساقه الجريحة ، وبعد ذلك بستة أيام ، جاء ميخائيل كوشيفوي بتقريره إلى الإدارة فرأى مالبروك ، وقد استبدت به غريزة الحفاظ على النوع العارمة ، يقضم حبل الرسن ، ويقفز خارجاً من مربطه ، ويلم الأفراس المقيدة حجولها والتي

كانت ترعى في فناء الثكنة ، ليسوقها أمامه إلى السهب ، خبباً في بداية الأمر ، ثم جعل يستحث على العدو بعض المتوانيات منهن . فهرع الرعاة والمشرف إلى خارج الكوخ . ولكن الأوان فاتهم فلم يسعهم سوى أن ينصتوا إلى أصوات الحبال وهي تتصرم فيما راحت الأفراس تحطم قيودها وتجري بعيداً .

- لم يبق اللعين لنا مطية نركبها!

وراح المشرف يصب لعناته ، وهو يحدق وراء الخيل المبتعدة عنهم ، شاعراً بالرضى في سريرته .

وعند الظهيرة عاد مالبروك بأفراسه لترد . فعزله الرعاة الراجلون عن الأفراس ، وأسرجه ميخائيل ، ثم امتطاه وخرج به إلى السهب ، فأطلقه بين قطيعه الأصلي .

عكف ميخائيل خلال الشهرين الذين أمضاهما في رعي الخيل على دراسة حياتها عن كثب ، فأفعم باحترام عظيم لذكائها ونبلها الذي لا يدانيه نبل البشر . شهد جياداً تشبو أفراساً ، وكان ذلك الفعل الفطري ، الذي الذي تمارسه في ظروف بدائية ، يبدو من الحكمة والبساطة ما يحمل المرء على مقارنتها بالبشر مقارنة ليست في صالحه ولكن ميخائيل وجد في علاقات الخيل كثيراً من سيماء العلاقات بين البشر . فقد لاحظ ، مثلاً ، أن الجواد العجوز باخار ، وهو فظ قاس لا يرحم في معاملة أفراسه ، يولي اهتماماً خاصاً لفرس شقراء جميلة ، ملتهبة العينين لها من العمر أربع سنوات ، تزين جبينها غرة كبيرة ، فيبدو في صحبتها عصبي المزاج مرتبكاً منفعلاً ، يتشممها على الدوام بزنخرة خاصة تنم عن تحفظ مشوب بالوله . كان حين تقف الخيل يحب أن يركن رأسه الوحشي على كفل فرسه المحبوبة ويغفو على هذه الحال ساعات طوالاً . وقد راقبه ميخائيل ، فلاحظ عضلاته تتحرك لينة تحت جلده الناعم ، وبدا لعينه أن باخار مغرم بتلك الفرس بما للشيوخ من عاطفة يائسة في عنفوانها وأساها .

كان ميخائيل مجداً في خدمته ، ولا بد أن خبر حماسه للخدمة بلغ أتمان المنطقة ، فقد تسلم المشرف ، في منتصف آب ، تعليمات باعادة كوشيفوي إلى فيشنسكايا .

تأهب ميخائيل لفوره ، فسلم عدته ، وتوجه صوب فيشنسكايا بعيد العصر في اليوم ذاته . وجعل يستحث فرسه دونما انقطاع ، فاجتاز كارغين عند الغروب . وعلى التلال الواقعة وراء كارغين أدرك عربة صغيرة تمضي نحو فيشنسكايا . كان الحوذي الأوكراني يستحث حصانيه القويين المتصببين عرقاً ، وقد استكان في مؤخرة العربة ، ذات النوابض الخفيفة ، رجل عريض المنكبين أنيق المظهر يرتدي سترة أهل المدن ، وقبعة رمادية من اللباد وقد انداحت إلى مؤخرة رأسه . وسار ميخائيل بعض الوقت ، وراء العربة ، يتفرس في منكبي الرجل وهما يهتزان والعربة ترتج فوق العثرات ، وفي شريط ياقته الأبيض المترب . وكان ثمة حقيبة سفر صفراء وكيس مغطى بمعطف مطوي عند قدمي المسافر . وبلغت رائحة السكائر الغريبة أنف ميخائيل ، فحدث نفسه فيما حاذى المسافر بفرسه : «لا بد أنه موظف ذاهب إلى فيشنسكايا» . بيد أن فكه تهدل وسرت حدر ظهره قشعريرة من الخوف والدهشة البالغة ، حين حاوص بنظره إلى ما تحت حافة القبعة التي يعتمرها الرجل . كان الرجل القابع في العربة ، يمضغ عقب سيكار بنفاد صبر ويخاوص عينيه الحادتين الفاقعتين ، إلى ستيبان أستاخوف . واذ لم يستطع ميخائيل الجزم تماماً ألقى نظرة أخرى إلى ذلك الوجه المألوف ، وقد طرأ عليه تبدل غريب ، وجه ابن قريته ، فأيقن أنه ستيبان . فتنحنح والعرق يتصبب منه لفرط الانفعال :

ـ عفوك ، يا سيدي ، ولكن ألست أستاخوف ؟

فدفع الرجل الجالس في العربة قبعته إلى الوراء ، واستدار رافعاً عينيه إلى ميخائيل ، وأجاب :

ـ بلى ، أنا أستاخوف . هل أنت ـ مهلاً ، ألست كوشيفوي ؟ ـ فهب ،

يكاد يقف في العربة ، ولم تمتد الابتسامة أبعد من شفتيه تحت شاربيه ، أما وجهه الذي كاد ينم عن الشيخوخة ، فقد احتفظ بقسوة منيعة ، ثم مد يده بسرور لا يخلو من بعض ارتباك ، وأردف : ـ انك كوشيفوي! ميخائيل! يسعدني كثيراً...

فقال ميخائيل وهو يسقط العنان وينشر يديه دهشة :

ـ ولكن كيف... ؟ كيف وصلت إلى هنا ؟ قالوا إنك قتلت . ولكني أرى أستاخوف بعينه!

ثم أشرق بابتسامة وراح يتململ على سرجه . لقد أربكه مظهر ستيبان ونبرته المهذبة الخفيضة ، فغيّر أسلوبه في الحديث ، وتخلى عن كلمات الألفة ، اذ اعتوره إحساس غامض بأن ثمة حاجزاً خفياً يفصل بينهما .

طفقا يتحدثان ، وراحت الخيل تمضي وئيدة ، كان الغروب يتورد في الغرب بكل مهابته ، وراحت سحب حمر كالزنابق تعوم عبر السماء اللازوردية شطر الليل . ومن بين الدخن المزروع على جانب الطريق أرسل طائر سلوى نداء نفاذاً ، ولكن صمتاً مغبراً ران على السهب وهو يودع صخب النهار وضجيجه ليستقبل سكون الليل وهدوءه . وعن بعد لاح الصليب الذي يتفرع عنده الطريق بين تتارسكي وفيشنسكايا ، فبدا على صفحة السماء الليلكية كالطيف .

سأل ميخائيل بنبرة ودود :

ـ من أين جئت ، يا ستيبان أندرييتش ؟

ـ من ألمانيا . عدت إلى وطني ، كما ترى .

ـ ولكن قوزاقنا ذكروا أنك قتلت أمام أعينهم .

فأجاب ستيبان بتحفظ وتؤده ، ولكأن الأسئلة تثقل كاهله :

ـ جرحت في موقعين . أما القوزاق... ما شأنهم ؟ لقد تخلوا عني هناك... فوقعت في الأسر... أشفى الألمان جروحي وأرسلوني للعمل...

ـ ولكننا لم نتلقّ في القرية أية رسالة منك...

ـ لم يكن لديَّ من أكتب له .

ورمى ستيبان عقب سيكاره وما لبث أن أشعل واحداً آخر .

ـ ولكن ماذا عن زوجتك ، إنها حية ترزق .

ـ لم أكن أعيش وإياها ، حسبت أن الكل يعرف هذا .

كان صوته جافاً خالياً من أية نبرة ودية . وبدا أن ذكر زوجته لم يضايقه .

وسأله ميخائيل بفضول متلهف ، وهو يميل إلى الأمام حتى كاد يلامس رمانة سرجه :

ـ ألم تشعر بالحنين إلى وطنك في غربتك ؟

ـ أجل ، في بداية الأمر ، ولكنني ألفتها . لقد عشت حياة ميسورة . ـ وأضاف بعد برهة : ـ كدت أبقى في ألمانيا وأحصل على الجنسية الألمانية . بيد أن دافع العودة إلى الوطن هو الذي تغلب... وهكذا تركت كل شيء وجئت . ـ ثم ارتخت الغضون القاسية البادية في طرفي عيني ستيبان للمرة الأولى وابتسم .

قال ميخائيل :

ـ أرأيت ما نحن عليه من فوضى هنا ؟ نقاتل بعضنا البعض .

ـ أجل ، هذا ما طرق سمعي...

ـ كيف عدت ؟

ـ عن طريق فرنسا ، بالباخرة من مرسيليا ـ وهي مدينة في فرنسا ـ إلى نوفوروسييسك .

ـ هل سيجندونك أيضاً ؟

ـ ربما... ما أخبار القرية ؟

ـ إنها أكثر من أن يتسع لي الوقت لإخباك بها الآن ، لقد حدثت أشياء كثيرة .

ـ أما زال بيتي قائماً ؟

ـ إنه خالٍ...
ـ ماذا عن الجيران... ؟ أما زال الأخوان ميليخوف على قيد الحياة ؟
ـ بلى ، إنهما كذلك .
ـ هل سمعت شيئاً عن زوجتي السابقة ؟
ـ ما زالت هنا ، في ياغودنويه .
ـ وغريغوري... ألا يزال يعيش معها ؟
ـ كلا ، إن له زوجته الشرعية ، لقد هجر زوجتك أكسينيا...
ـ هكذا اذاً... لم أعرف ذلك .
لبثا صامتين برهة . ومضى كوشيفوي يتفحص ستيبان بلهفة ثم قال له بارتياح وبشيء من الاحترام :
ـ يبدو أن الحظ قد واتاك ، يا ستيبان أندرييتش . إن ثيابك مترفة ، أشبه ما تكون بثياب النبلاء .
ـ كل الناس يرتدون ملابس لائقة هناك . ـ قال ستيبان ذلك ، ثم عبس وجهه ، وربت على كتف الحوذي قائلاً :
«أسرع ، يا صاح» .
لوح الحوذي سوطه بفتور ، فراح الحصانان المتعبان يجران العربة على مضض . وأخذت العربة الصغيرة تتواثب على العثرات ؛ وبلغ الحديث خاتمته حين أدار ستيبان ظهره إلى ميشا سائلاً :
ـ أذاهب أنت إلى القرية ؟
ـ كلا ، أنا ذاهب إلى أتمان المنطقة .
وعند مفترق الطريق انحرف ميخائيل نحو اليمين وانتصب في ركابيه قائلاً : ـ إلى اللقاء يا ستيبان أندرييش!
فلمس ستيبان حافة قبعته بلمة أصابعه الثقيلة ، وأجاب بفتور ، وهو ينطق كل كلمة بوضوح كالأجانب :
ـ أسعدت نهاراً!

٧

امتدت الجبهة في خط موصول من فيلونوف حتى بوفورينو . كان الحمر يحشدون قواتهم ، تأهباً لإنزال ضربة مضادة . وكان القوزاق الذين يعانون نقصاً خطيراً في الذخيرة يواصلون هجومهم بوهن ، دون أن يحاولوا تخطي حدود إقليمهم . وكان الطرفان يتبادلان الانتصارات . وقد طرأ ، في آب ، فتور نسبي على القتال وراح القوزاق الذين عادوا إلى أهليهم في إجازة قصيرة يتحدثون عن هدنة تعقد في الخريف .

وفي أثناء ذلك ، كان حصاد القمح يجري في مؤخرة الجبهة . وقد أحس الجميع بقلة اليد العاملة ، فلم يستطع الشيوخ والنساء تدبير أمر الحصاد ، هذا إلى أن تسخير عرباتهم وخيلهم لنقل المؤن والتجهيزات العسكرية إلى الجبهة كان يعيق حصادهم على الدوام . فقد كان الجيش يسخّر كل يوم تقريبا خمس أو ست عربات في تتارسكي ، ويرسلها إلى فيشنسكايا لنقل التجهيزات العسكرية ، حيث تتجه من هناك إلى قوات القوزاق .

كانت الحياة في القرية نشيطة لكنها كئيبة . فقد اتجهت خواطر الجميع صوب الجبهة البعيدة ، والكل ينتظر أنباء القوزاق بلهفة وألم ، متوجسين الشر منها . غير أن وصول ستيبان أستاخوف كان حدثاً أثار اهتمام الجميع .

كان ذلك موضوع الحديث الوحيد في كل كوخ ، وعلى كل ساحة لدرس الحبوب . لقد عاد قوزاقي إلى أهله وقد حسبه الناس قد دفن منذ زمن بعيد ، رجل لم تأت على ذكره إلا العجائز ، وإن هن فعلن ذلك في الكنيسة ، في أيام التأبين ، يتمتمن قائلات : « رحمة الله على روحه » . أوليست تلك معجزة ؟...

نزل ستيبان في بيت زوجة أنيكوشكا وحمل متاعه إلى داخل الكوخ .

وفيما كانت هي تعد له شيئاً من الطعام ذهب هو إلى داره . فسار بخطوات رب البيت الحازمة جيئة وذهاباً في باحة الدار المغمورة بضوء القمر ، ثم مشى إلى داخل السقائف المتداعية ، وتفحص الدار ، واختبر الأسيجة . وكان البيض المقلي قد برد على مائدة زوجة أنيكوشكا منذ وقت طويل ، بيد أن ستيبان مضى يتفحص داره التي تكاثفت عليها الأعشاب ، مفرقعاً أصابعه وهو يتمتم مع نفسه...

وجاء القوزاق في ذلك المساء ليروه ويسألوه عن حياته في الأسر . فازدحمت الغرفة الأمامية في دار أنيكوشكا بنساء وصبية وقفوا كالجدار المرصوص ، وراحوا يصغون بأفواه فاغرة إلى حكايات ستيبان . كان يتكلم دونما حماس ، ولم يشرق محياه الذي زحفت إليه الشيخوخة بأية ابتسامة . فقد غيرته الحياة أيما تغيير .

وصباح اليوم التالي جاء بانتلاي بروكوفتش ميليخوف وستيبان ما يزال نائماً ، فتنحنح الشيخ في راحته وانتظره في الخارج حتى أفاق . وكانت الغرفة تفوح برائحة الأرض الترابية الرطبة العفنة والتبغ الخانق غير المألوف . فضلاً عن تلك الرائحة التي تلازم المسافر وقتاً طويلاً .

لقد استيقظ ستيبان الآن ، ذلك أمر واضح ، فثمة صوت لكبريت يضرب لإشعال سيكار .

فسأل بانتلاي : ـ هل لي أن أدخل ؟ ـ وجعل بكل عناية يسوي طيات قميصه الجديد الذي أصرت ايلينشنا على أن يرتديه لتلك المناسبة ، وكأنه على وشك أن يقدم نفسه إلى ضابط رفيع الرتبة .

ـ أدخل!

كان ستيبان يرتدي ثيابه وهو يدخن سيكاراً ويخاوص عينيه ليتحاشى الدخان . وتخطى بانتلاي بروكوفتش العتبة بشيء من الارتباك ، ثم توقف ومد راحته السوداء ، وقد أدهشه التبدل الذي طرأ على سيماء ستيبان والإبزيم المعدني لحمالة بنطاله الحريرية .

ـ صباح الخير ، يا جار . يسعدني أن أراك حياً...

ـ صباح الخير .

سحب ستيبان حمالات بنطاله عبر كتفه القوي ، ثم وضع يده بوقار في راحة الشيخ المتقرنة . وتفحص كل صاحبه على عجل . فأومضت عينا ستيبان بشرر من النفور ، ولاح في بؤبؤي ميليخوف ، الجاحظين المائلين ، احترام يخالطه شيء من الدهشة الساخرة .

ـ أنت كبرت ، يا ستيبان ، كبرت ، يا بني .

ـ أجل ، كبرت .

وقال الشيخ :

ـ تلونا صلاة الموتى على روحك ، كما تلوناها على ابني غريشا... ـ ولكنه توقف حانقاً ، فلم يكن ذلك يناسب المقام . فلم يكن من اللائق أن يذكر هذا! وحاول إصلاح خطأه . ـ الحمد لله ، أنك عدت حياً ، معافى! الحمد لله! لقد تلونا صلاة الموتى على غريشا ابني ، أيضاً ، ولكنه قام يمشي ، كلعازر* . إن لديه طفلين الآن ، وقد تحسنت صحة زوجته ناتاليا ، والحمد لله ، إنها امرأة رائعة... وكيف حالك ؟

ـ إنني على أحسن ما يرام ، أشكرك .

ـ هلا أتيت لزيارة جيرانك ؟ تفضل ، شرفنا . سوف نتحدث...

ورفض ستيبان ذلك ، إلا أن بانتلاي بروكوفتش ألح عليه حتى بدا عليه الاستياء فقبل ستيبان الدعوة . ثم اغتسل ومشط شعره القصير وابتسم حين سأله الشيخ : «ماذا فعلت بخصلتك ، هل أبليتها تمشيطاً ؟» . ثم وضع قبعته على رأسه بكل ثقة وتقدم خارجاً إلى الفناء .

وأبدى بانتلاي بروكوفتش من الود واللطف ما جعل ستيبان يقول في سريرته : «انه يحاول التكفير عن الإساءة القديمة...» .

---

* يروي الانحيل أن لعازر أخ ماري ومارتا بعثه المسيح من الموت . المترجمون

ولبّت ايلينشنا إشارة زوجها فانهمكت في المطبخ وراحت تستحث ناتاليا ودونيا على العمل ، وأعدت المائدة بنفسها .

وجعلت المرأتان تلقيان نظرات فضولية بين حين وآخر إلى ستيبان الذي جلس تحت الأيقونات فراحت أعينهما تتفرس سترته ، وياقته ، وسلسلة ساعته الفضية ، وتسريحته ثم رحن يتبادلن ابتسامات الدهشة خلسة .

ودخلت داريا من الفناء بوجه متورد ، تبتسم بارتباك وتمسح خط شفتيها الجميل بطرف شالها . ثم خاوصت عينيها وهتفت :

ـ ماذا ، يا جارنا ، لم أعرفك... أنت لم تعد تشبه القوزاق .

ولكي لا يذهب الوقت سدى وضع بانتلاي بروكوفتش على المائدة قنينة من الفودكا المنزلية ، ثم انتزع الخرقة التي تسدها ، وتشمم شذاها الحاد ، وأطرى حسناتها .

ـ ذقها! إنها من صنع يدي . ما إن تقرب الكبريت منها حتى تشتعل بلهب أزرق!

وكانا يتجاذبان أطراف الحديث البطيء . لم يكن ستيبان راغباً في الشراب ، ولكن سرعان ما بدا عليه الثمل بعد أن شرب قدحاً ، فغدا ألطف معشراً . فقال بانتلاي بروكوفتش :

ـ ينبغي لك أن تتزوج الآن ، يا جار .

ـ وماذا أفعل بزوجتي القديمة ؟

ـ صارت عجوزاً ؟ وهل تتصور أن الزوجة القديمة لا تذبل ؟ الزوجة كالفرس : بوسعك أن تركبها طالما بقيت في فمها أسنان . سوف نعثر لك على فتاة شابة .

فأجاب ستيبان ، وقد بارحه أسلوب الأجانب في الكلام اذ اشتد به الثمل :

ـ حياتنا كانت مشربكة . لا وقتَ للزواج... عندي إجازة لعشرة أيام ، وعلي بعد ذلك أن أعود إلى فيشنسكايا ، ومن ثم إلى الجبهة ، كما أحسب .

غادرهم بعد برهة وجيزة ، ترافقه نظرة الإعجاب من عيني داريا ، مخلفاً وراءه نقاشاً وجدالاً .

ـ لكم هذّب نفسه ، ابن العاهرة! يا لطريقته في الكلام! ما أشبهه بمأمور الضرائب أو بأحد النبلاء . حين دخلت اليه ألفيته يسحب شرائط حريرية ذات أبزيم عبر كتفه . يشهد الله ، كان ظهره وصدره مشدودين كما يشد الحصان إلى العربة . لماذا كل ذلك ؟ إنه الآن يشبه رجلاً مثقفاً كل الشبه! ـ قال بانتلاي بروكوفتش ذلك بإعجاب ، وواضح أنه سر بقبول ستيبان لكرمه وتغاضيه عن الإساءة القديمة .

واستنتجوا ، بعد تقليب الأمر على أوجهه ، أن ستيبان سيعود إلى القرية ويشيد بيته وحقله من جديد بعد أن ينهي خدمته العسكرية . وقد ذكر عرضاً أن لديه ثروة ، فأثار هذا في نفس بانتلاي بروكوفتش حدساً جاداً واحتراماً لا إرادياً . فقال حين غادرهم ستيبان :

ـ عنده فلوس ، بالتأكيد! غيره من القوزاق يعودون من الأسر بجلودهم ، أما هو فقد عاد يرفل بالحرير . لا بد أنه قتل شخصاً ما أو سرق مالاً .

أمضى ستيبان الأيام الأولى من عودته في كوخ زوجة أنيكوشكا بهدوء ، وكان نادراً ما يخرج إلى الشارع . فراح الجيران يترصدونه ، ويحصون سكناته ، حتى أنهم حاولوا استجواب زوجة أنيكوشكا عما ينتوى عمله . ولكنها أطبقت شفتيها بقوة وتذرعت بالجهل . وسرعان ما سرت شائعات قوية في أرجاء القرية حين اكترت زوجة أنيكوشكا عربة صغيرة وفرساً من آل ميليخوف ومضت بها في صبيحة يوم السبت إلى مكان لا يعرفه أحد ، ولم يحدس القصد من وراء ذلك سوى بانتلاي بروكوفتش ، فغمز لايلينشنا وهو يشد الفرس الحجلاء إلى العربة الصغيرة وقال : «إنها ذاهبة لتعود بأكسينيا» . ولم يخطئ ظنه . فقد طلب ستيبان إلى المرأة أن تذهب إلى ياغودنويه أكسينيا تسأل ما اذا كانت راغبة في العودة إلى زوجها ، وإسدال ستار النسيان على كل الهفوات السابقة .

ويومذاك فقد ستيبان زمام نفسه ورصانته . فراح يجوب القرية حتى المساء ، جالساً لفترة طويلة على عتبة دار موخوف ، قاصاً عليه الحكايات عن حياته في ألمانيا وعودته عن طريق فرنسا عبر البحر . وكان لا ينفك ينظر إلى ساعته طوال حديثه إلى موخوف واستماعه إلى شكواه .

عادت زوجة أنيكوشكا من ياغودنويه عشاء . فيما كانت تعد الطعام في المطبخ الصيفي حكت له كيف فوجئت أكسينيا بالخبر المباغت ، وكم من الأسئلة وجهت ، وكيف أنها رفضت العودة رفضاً قاطعاً ، وأخبرته زوجة أنيكوشكا وهي تبتلع حسرات الغيرة : ـ لا حاجة بها للعودة ، فهي تعيش كإبنة أكابر . لقد غدت ناعمة وابيض وجهها . إنها لا تعرف العمل الشاق ، وماذا تريد أكثر من هذا ؟ لن تصدقني إن وصفت لك ثيابها! كان يوم عمل ولكني ألفيتها ترتدي تنورة كالثلج ، ويديها نظيفتين كل النظافة .

فعلت الحمرة وجنتي ستيبان ، وجعل شرر الحنين الغضوب يتقادح في عينيه المنكستين ثم يخبو . فغرف ملعقة لبن من إنائه بيدٍ جهد أن يحول دون ارتجافها . وغدا استجوابه بطيئاً متمعناً .

ـ تقولين إنها امتدحت معيشتها ؟

ـ ولم لا ؟ لا أظن أن أحداً يرفض حياة كتلك .

ـ ولكن هل سألتك عني ؟

ـ بالطبع! أقول لك أن وجهها ابيض تماماً لما أخبرتها بعودتك .

وبعد أن أتم ستيبان تناول طعام العشاء خرج إلى الفناء الذي غطاه العشب . كانت ليالي آب القصيرة تتلاشى بسرعة . وقد ضايقته في برودة تلك الأمسية الرطيبة الأصوات الفضية وجلبة المباذر . واستمرت زحمة الحصاد على ضوء القمر الأصفر الأبقع . كانوا يغربلون أكوام القمح الذي يدرسونه في النهار ومن ثم ينقلونه إلى المخازن . واكتنف القرية غبار التبن والرائحة الحريفة اللافحة ، المنبعثة من القمح الذي درس لتوه . وفي مكان ما قرب الساحة ، كانت ثمة دارسة ميكانيكية تبربر وكلاب تنبح . وتناهى

صوت غناء من ساحة لدرس الحبوب نائية . وهبت من الدون رطوبة منعشة .

مال ستيبان على السياج وراح يحدق في مجرى الدون المنساب وراء الشارع ، وفي الشريط الوهاج المتماوج الذي خطه البدر على النهر . ومضت رقرقات جعد تدوم حدر النهر . وفي الجانب الآخر استكانت أشجار الحور إلى راحة وخدر وسنان . وأخذ الحنين يدب في ستيبان رويداً رويداً ، فلم يستطع له صداً .

* * *

تساقط المطر عند الفجر ، ولكن السماء ما لبثت أن صحت بعد شروق الشمس ، وما ان مرت زهاء ساعتين حتى لم يبق من أثر للطقس الماطر سوى كتل من الطين لما تجف علقت بعجلات العربة . وفي الصباح ذهب ستيبان إلى ياغودنويه . وربط حصانه عند البوابة وهو يحس بشيء من الارتباك ، ثم سار مسرعاً إلى جناح الخدم . كان الحوش الفسيح الذي تكاثف عليه العشب الجاف قفراً . وكان الدجاج يبحث في الروث عند الاسطبل ، وديك أسود كالزاغ ينقل خطاه بحذر قرب السياج المتهدم . وفيما كان ينادي الدجاجات تظاهر بنقر دعاسيق حمر فوق السياج الذي سقط على الأرض . وكانت كلاب البورزوي الملساء جاثمة في الفيء قرب مأوى العربة . وقد طرحت ستة جراء بلقاء أمها أرضاً وراحت تترافس بنشاط فيما كانت ترضع منها . وكان الندى يتلألأ على الجانب الظليل من السقف الحديدي للبيت .

راح ستيبان يجيل النظر فيما حوله ، ثم دلف إلى جناح الخدم ، وسأل الطباخة البدينة :

ـ هل أستطيع أن أرى أكسينيا ؟

فسألته لوكريا ، وهي تمسح وجهها النمش العرقان بصدريتها .

ـ من أنت ؟

ـ هذا ليس من شأنك . أين أكسينيا ؟

ـ في حضرة السيد . انتظر!

جلس ستيبان ، واضعاً قبعته على ركبتيه بحركة تنم عن كلال فظيع . وانهمكت الطباخة في المطبخ دون أن تعيره أي انتباه . وكانت رائحة الجبن والتخمر الحامضة تملأ الغرفة ، وانتثر ذباب أسود على الموقد ، والجدران والمائدة التي يعلوها الدقيق . انتظر ستيبان ، يصغي متوتر الأعصاب ، واذ تناهى إليه صوت مشية أكسينيا المألوف هب من مصطبته فسقطت القبعة من على ركبتيه .

دخلت أكسينيا تحمل كومة من الصحون . واذ رأت ستيبان علا وجهها شحوب الموتى ، وجعلت زاويتا شفتيها ترتعشان . توقفت وهي تشد الصحون إلى صدرها بوهن ، وتسمرت عيناها الفزعتان على وجه ستيبان . ثم انتزعت نفسها على نحو ما وسارت من مكانها إلى الطاولة بسرعة ووضعت الصحون . ثم قالت :

ـ صباح الخير...

وراح ستيبان يتنفس بتؤده وعمق ، لكأنه مستغرق في النوم ، وأرغمت ابتسامة متوترة شفتيه على الانفراج ، ثم مال إلى الأمام بصمت ومد يده إلى أكسينيا . فأشارت تدعوه قائلة :

ـ تعال إلى غرفتي .

فرفع ستيبان قبعته وكأنها حمل ثقيل ، واندفع الدم إلى رأسه وغشي عينيه . وحين دخلا غرفتها وجلسا على جانبين متقابلين من الطاولة ، لعقت أكسينيا شفتيها الجافتين ، وسألته وهي تئن :

ـ من أين جئت ؟

فلوح ستيبان يده على نحو غامض ثمل في محاولة مفتعلة لخلق جو من المرح . وكانت ابتسامة الفرح والألم ما تزال عالقة بشفتيه .

ـ من الأسر في ألمانيا... جئت كي أراك ، يا أكسينيا...

تململ بارتباك ، ثم هب واقفاً ، وأخرج من جيبه صرة صغيرة فمزق الخرقة

على عجل بأصابع مرتجفة ، وأخرج ساعة نسائية من الفضة ، وخاتماً محلى بحجر أزرق رخيص . وقدمهما إليها في راحة يده العرقة ، بيد أن عينيها بقيتا مسمرتين على وجهه الغريب الذي لم تألف فيه الابتسامة الذليلة الشوهاء من قبل .

ـ خذيها ، احتفظت بها لك... لقد عشنا سوية...

فهمست خلال شفتيها الخدرتين :

ـ ما حاجتي إليها ؟ انتظر!

ـ خذيها... لا تزدري بي . علينا أن ندع حماقاتنا القديمة جانباً...

قامت وهي ترفع يدها وكأنها تتقي شيئاً ومضت إلى الموقد :

ـ قالوا إنك قتلت...

ـ وهل سيسرك ذلك ؟

لم تجب ، بل راحت تتفحص زوجها من الرأس إلى القدم بمزيد من الهدوء ، فيما جعلت تسوي لغير ما داع طيات تنورتها المكوية بكل عناية . وقالت وذراعاها وراء ظهرها :

ـ هل أرسلت زوجة أنيكوشكا إليّ ؟ قالت إنك تريدني أن أعود إليك... للعيش سوية .

فقاطعها ستيبان قائلاً :

ـ هل ستأتين ؟

فأجابته بصوت جاف :

ـ كلا! كلا ، لن آتي .

ـ لِمَ لا ؟

ـ لم أعد آلف ذلك... والأوان متأخر جداً . أجل ، متأخر .

ـ ولكنني أريد أن أحيي حقلي . فكرت بالأمر طوال الطريق وأنا عائد من ألمانيا ، فكرت في ذلك أيضا وأنا مقيم هناك . ماذا أنت فاعلة ، يا أكسينيا ؟ لقد هجرك غريغوري... أم تراك وجدت رجلاً آخر ؟ سمعت بعض الحكايات عنك وعن ابن السيد هنا... أصحيح ذلك ؟

فالتهبت وجنتاها ، وتدفقت دموع الإثم من تحت أهدابها المسبلة .

ـ هذا صحيح تماماً . أعاشره .

فانتاب ستيبان الفزع وقال :

ـ لا تحسبي أنني ألومك . كنت على وشك القول إنك ربما لم تقرري مستقبل حياتك بعد . إنه لن يظل راغباً فيك زمناً طويلاً ، إنه يعبث بك ليس إلا . الغضون ظهرت تحت عينيك... سوف يطردك حالما يشبع منك . وآنذاك إلى أين ستولين وجهك ؟ ألم تسأمي حياة العبودية ؟ فكري بالأمر جيداً... ها قد عدتُ ببعض المال ، وحين تنتهي الحرب سنعيش بيسر . حسبت أن شملنا سيلتئم... أريد أن أنسى الماضي .

فسألته خلل دموعها بمرح ورعشة يسيرة تسري في أوصالها :

ـ لماذا لم تفكر في الأمر قبل اليوم ، يا صاحبي العزيز ؟ ـ ثم انتزعت نفسها من جانب الموقد وجاءت إلى الطاولة ، قائلة : ـ بماذا فكرت حين سحقت شبابي في التراب ؟ لماذا دفعتني إلى أحضان غريشا دفعاً ، أيبست قلبي . أتذكر ما فعلت بي ؟

فقال ستيبان وهو يحدق في ذراعيه الممتدين على الطاولة :

ـ لم آت إلى هنا للعتاب . أنت... كيف لك أن تعرفي كم فكرت وعانيت ؟ ـ وراح يتحدث على مهل وكأنه يجتث الكلمات من فمه : ـ كنت أفكر فيك على الدوام .الدم تخثر في قلبي... لم تبارحي فكري لا في الليل ولا في النهار... كنت أعيش مع أرملة ، مع ألمانية... عشت حياة ميسورة ، ولكني تركتها... أردت العودة إلى الوطن...

فسألته أكسينيا ومنخراها يرتعشان انفعالاً :

ـ والآن ترغب أن تحيا حياة هادئة ؟ تريد أن تستأنف زراعتك . أظنك تريد أطفالاً وزوجة... زوجة تغسل ملابسك وتعد لك الطعام ؟ ـ ثم ابتسمت ابتسامة خبيثة ، وأردفت : ـ كلا ، لا أريد ذلك ، لا سمح الله! شختُ أنا... بوسعك أن ترى الغضون في وجهي . ثم إني قد نسيت كيف أحمل الأطفال .

أنا محظية ، ينبغي على المحظيات ألا يحبلن . أتريد امرأة كهذه ؟

ـ صرتِ سليطة...

ـ هذا حالي ، وسأبقى عليها .

ـ اذاً فأنت تقولين لا .

ـ أقول لا ، لن أذهب! كلا!

ـ حسناً ، مع السلامة ـ وقام ستيبان ، وقلب الساعة في يده بتردد ، ثم وضعها على الطاولة ثانية ، وأضاف : إذا غيرت رأيك ، فأخبريني .

رافقته أكسينيا إلى البوابة . ثم وقفت تحدق وراءه وقد أثارت عجلات العربة غباراً اكتنف منكبيه العريضين .

وراحت تغالب عبراتها الحانقة ، وتنشج نشيجاً متقطعاً فيما كانت تفكر على نحو مبهم في آمالها التي لم يكتب لها أن تتحقق ، وتبكي حياتها التي أضحت في مهب الريح من جديد . فبعد أن علمت أن يفغيني لم يعد بحاجة إليها ، وحين سمعت بعودة زوجها ، عقدت العزم على العودة إليه ، لتلم أشتات السعادة التي لم تكن ملك يديها . فانتظرت ستيبان يحدوها ذلك الأمل . ولكن حين رأته ذليلاً حقيراً استبد بها التعالي وثارت فيها الكبرياء بكل عنفوانه ، تلك الكبرياء التي ما كان لها أن تدعها تبقى في ياغودنويه بعد أن عافها لستنتسكي ، ولا بد أن واعزاً شريراً هو الذي وسوس لها بتلك الكلمات ودفعها إلى ذلك السلوك . تذكرت عارها القديم ، تذكرت كل ما عانته من هذا الرجل ، من يديه الحديديتين الضخمتين . واستبد بها الذعر لما تفوه به ، وهو مغاير لما تريده ، حين لهثت بهذه الكلمات اللاسعة : « لا ، لن أذهب! كلا! » .

ومرة ثانية سرحت الطرف في إثر العربة المبتعدة .

ولوح ستيبان سوطه ، وتوارى خلف ليلك الشيح الواطئ على جانب الطريق .

* * *

وفي اليوم التالي ، تسلمت أكسينيا أجورها ، ثم جمعت حاجياتها . وحين ودعت يفغيني انفجرت باكية :

ـ لا تذكرني بالسوء ، يا يفغيني نيكولايفتش .

فأجابها بصوت ينم عن مرح مفتعل ، جاهداً أن يخفي حرجه :

ـ لماذا ، طبعاً لا ، يا عزيزتي... أشكرك على كل شيء .

ثم رحلت . وبلغت تتارسكي عند المساء الباكر . وقابلها ستيبان عند البوابة ، وسألها باسماً :

ـ هل قد عدت إذاً ؟ إلى الأبد ؟ هل لي أن آمل بأنك لن ترحلي مرة أخرى ؟

ـ لن أرحل بعد الآن .

قالت ذلك ببساطة ، وقد اعتصرها قلبها اذ أجالت البصر بالكوخ الذي أوشك أن يتداعى والفناء الذي تكاثف عليه الدغل والنجيل .

٨

وأخيراً اشتبكت كتيبة فيشنسكايا بالحرس الأحمر المتقهقر بعد أن ظلت تتقدم عدة أيام . ففي ظهيرة أحد الأيام احتلت السرية التي يقودها غريغوري ميليخوف قرية صغيرة تعشش في بساتين وافرة الخضرة . فأمر غريغوري قوزاقه بالترجل في فيء صفصاف ينمو قرب جدول كان قد شق له مجرى ضحلاً خلال القرية . وكانت الينابيع تبقبق من ثنايا التربة الرخوة السوداء في مكان ليس بالبعيد . كان الماء بارداً كالثلج ، فعب القوزاق منه بنهم ، مغترفين بقبعاتهم التي صفقوها بعدئذ على رؤوسهم المخضلة بالعرق وهم يطلقون جنيراً ينم عن ارتياح . وكانت الشمس ترسل أشعة عمودية على القرية التي أترعت بالحر . وكانت الأرض تضطرم تحت وطأة الظهيرة الوخمة . وتدلت الأعشاب وأوراق الصفصاف واهنة ، وقد رشقتها الأشعة

الكاوية بلفحها ، على أن شيئاً من البرودة كان في فيء الصفصاف إلى جانب الجدول . كان نبات الأرقطيون نضراً بخضرته . وراح دغل البطة يومض ببسمة عذرية في الجداول الصغيرة ، وطفق البط عند حنوة الجدول يرشق الماء ويصفق أجنحته فيه ، وزنخرت الخيل واشرأبت صوب الماء وهي تعض على شكائمها وتشد على أعنتها ، وراحت شفاهها تتلمس الماء الصافي فيما كانت أرجلها تثير الوحل . وكان النسيم الوغر ينثر قطرات كبيرة متوهجة كحبات الماس من شفاهها . وتصاعدت رائحة كبريتية من الماء الخابط ورائحة ذكية حادة من جذور الصفصاف المتعفنة التي يغسلها ماء الجدول...

وما إن استلقى القوزاق بين الأرقطيون ليدخنوا ويتجاذبوا أطراف الحديث حتى عادت دوريتهم الأمامية . وحال سماع كلمة «الحمر» هب الرجال على أقدامهم ، فشدوا أحزمة السروج وذهبوا إلى الجدول ثانية ليشربوا منه ويملأوا زمزمياتهم ، وكل منهم يقول في دخيلته : «ربما كانت هذه آخر مرة أشرب فيها ماء كهذا صافياً مثل دموع الأطفال» .

اتجه بهم الطريق عبر الجدول ، وتوقفوا في الجانب الآخر . وعلى مبعدة من القرية لمحوا على بعد فرسخ منهم دورية تضم ثمانية من خيالة العدو تتحرك بحذر على ربوة رملية ، تعلوها الأحراش ، ميممين صوب القرية . فاقترح ميتكا كورشونوف على غريغوري قائلاً :

ـ سوف نطبق عليهم ، ها ؟

ثم ذهب بنصف رعيل إلى خارج القرية ليطوق الدورية بيد أن رجال الحرس الأحمر اكتشفوا أمر القوزاق في الوقت المناسب فعادوا أدراجهم .

وحين وصلت بعد ذلك بساعة السريتان الأخريان اللتان تؤلفان كتيبة فيشنسكايا استأنفوا تقدمهم من جديد . وعادت الدوريات بمعلومات تفيد أن الحمر ، وهم يناهزون الألف عدداً ، قادمون للاشتباك بهم . كانت سرايا كتيبة فيشنسكايا قد فقدت الصلة عن يمينها مع كتيبة بوكانوفسكي الثالثة والثلاثين ، ومع ذلك فقد تقرر الاشتباك بالعدو . فتقدموا إلى قمة الربوة

وترجلوا ، واقتيدت الخيل إلى منخفض فسيح ينحدر صوب القرية . وفي مكان ما إلى اليمين كانت الدوريات قد بدأت القتال ، فتناهت إلى سمعهم لعلعة خفيفة من المدافع الرشاشة .

وبعد قليل لاح خط رفيع من الحمر . فوضع غريغوري رجال سريته على قمة التل واستلقى القوزاق على امتداد القمة التي تعلوها الأحراش فيما راح غريغوري يتطلع بمنظاره ، من تحت شجرة تفاح قميئة ، إلى صفوف العدو النائية . وقد استطاع أن يرى بوضوح الصفين الأولين ، ومن خلفهما طابور آخر من الجنود انتشروا في صف خلال أكداس من القمح المحصود الذي لم يجمع بعد .

فدهش ، وسائر القوزاق لرؤية فارس ، لا بد أنه القائد ، يمتطي حصاناً أبيض كبيراً في مقدمة الصف الأول . وكان ثمة آخران في مقدمة الصف الثاني . وكان الصف الثالث كذلك يتقدمه قائد ترفرف بجانبه راية بدت إزاء صفرة الحقل المغبر أشبه ما تكون بقطرة صغيرة من الدم القاني .

قال ميتكا كورشونوف ضاحكاً باعجاب :

ـ قوميساروهم في المقدمة : إنها بطولة منهم!

ـ هؤلاء هم الحمر الآن! أنظروا إليهم! يا فتيان!

فرفع جميع القوزاق تقريباً أنفسهم من على الأرض لينظروا ، وعلت الأيدي لتظلل العيون ، وتلاشى الحديث فخيم على السهب والوادي صمت مهيب كئيب ، نذير الموت ، وكأنه ظل سحابة ينساب بهدوء ورفق .

والتفت غريغوري فرأى الغبار يتصاعد خلف جزيرة الصفصاف الرمادية الداكنة إزاء القرية : إنها السرية الثانية ماضية لتطويق العدو . وقد أخفت حركاتها بعض الوقت في أحد الأخاديد ، ولكنها بعد أربعة فراسخ تقريباً أخذت ترتقي مرتفعاً وفق نظام الانتشار فقدّر غريغوري في ذهنه المكان والزمان الذي ستحاذي فيه السرية جناح العدو .

أعاد منظاره إلى حافظته ، والتفت بسرعة ليأمر رجاله بالبقاء على وضع الامتداد .

وعاد إلى صفه ، فالتفتت إليه وجوه القوزاق قاتمة متلامعة بفعل الغبار والحر . وانبطح الرجال يتبادلون النظرات . وحين صدر الأمر : « تأهب! » تعالت من الترسانات جلبة صخابة . وكان بوسع غريغوري أن يرى من وقفته سيقاناً ممتدة ، ورؤوس قبعات ، وظهوراً تغطيها قمصان معفرة ، ومعالم عظام اللوح ندية بالعرق . وجعل القوزاق يزحفون هنا وهناك بحثاً عما يتقون به النار أو عن نقاط أفضل للرمي . وحاول البعض أن يحفروا بسيوفهم حفراً .

وفي أثناء ذلك ، حملت الريح إلى سفح الربوة ، أنغام نشيد غير واضح المعاني... وتعرجت صفوف الحرس الأحمر دونما نسق ، وتناهت أصواتهم خافتة ضائعة في أرجاء السهب الفسيح الراكد الهواء . وأحس غريغوري بضربات قلبه العنيفة المتشنجة ، فقد سمع من قبل لازمة ذلك النشيد المتأوه! سمع البحارة ينشدونه ، حين كان مع بودتيلكوف في غلوبوكايا ، كانوا يرفعون قبعاتهم خاشعين ، وعيونهم تشع حماساً . وتنامى في دخيلته قلق غامض فجائي أقرب إلى الخوف .

فسأل أحد القوزاق الكهول ملتفتاً بوجه قلق :

ـ بماذا يجأرون ؟

فأجابه الرجل الراقد إلى يمينه :

ـ بصلاة الأبالسة .

ـ صلاة إلى ابليس ، ـ قال أندريه كاشولين ذلك باسماً ، ثم صوّب إلى غريغوري نظرة وقحة وسأله : ـ وأنت ، يا غريغوري ، كنت في السابق معهم . أنت تعرف ماذا ينشدون ، أليس كذلك ؟ لا بد أنك أنشدت ذلك النشيد معهم ، ها ؟...

ـ « ... امتلكوا الأرض... » جاءت الكلمتان في تلك اللحظة واضحتين عبر المدى الفاصل بين الفريقين ، ثم ران السكون على السهب من جديد . وسرت بين القوزاق موجة من المرح المرير وانفجر رجل في وسط الصف ضاحكاً . فشتمهم ميتكا كورشونوف شتماً مقذعاً وسخر منهم قائلاً :

ـ هل تسمعون ذلك ؟ إنهم يريدون أن يمتلكوا الأرض! غريغوري باتنلايفتش ، هل لي أن أصرع ذلك الخيال من على فرسه ؟ سأطلق النار مرة واحدة لا أكثر . ممكن ؟

وأطلق النار دون أن ينتظر الإيعاز . ويبدو أن الطلقة أربكت الفارس ، فترجل وسلم حصانه إلى أحد الجنود ، ثم سار في طليعة رجاله ، وسيفه المستل يلتمع .

وشرع القوزاق يطلقون النار فانبطح الحمر . وأمر غريغوري حملة الرشاشات أن يفتحوا النار . وبعد بضع رشقات هب الصف الأمامي من الحمر وتقدم راكضاً نحو ثلاثين ياردة ثم انبطحوا ثانية . واستطاع غريغوري أن يراهم ، خلل منظاره العسكري ، يعملون بأدوات الحفر لإعداد الخنادق ، فتعلقت فوقهم سحابة غبار مائل إلى الزرقة ، وتنامت أمام الصف تلال صغيرة أشبه ما تكون بتلال حيوان الخلد . وأخذت تصلهم من تلال الخلد تلك رشقات من الرصاص ، وبدا أن المعركة ستطول . وفي أقل من ساعة بدأت الاصابات تحل في القوزاق : فقد قتل رجل من الرعيل الأول ، وزحف ثلاثة جرحى متقهقرين صوب المنخفض حيث الجياد . ثم ظهرت السرية الثانية على جناح العدو وأغار قوزاقها على الحمر هذباً ، غير أنهم صدوا بنيران الرشاشات فهذبوا ناكصين وقد تملكهم الرعب وتناثروا كراريس صغيرة . ثم لمت السرية شعثها ، وتقدمت ثانية بصمت ، وللمرة الثانية صدتهم زوبعة من نيران الرشاشات فتراجعوا كالأوراق في مهب الريح .

بيد أن الهجوم قد نال من معنوية الحرس الأحمر . فارتبك الصفان الأماميان وشرعا في التقهقر .

فأمر غريغوري سريته بالنهوض دون أن يوقفوا اطلاق النار . وتلاشى الإحجام الذي اعتورهم بادئ الأمر ، وشجعهم أن رأوا بطارية المدفعية تهرع إلى مراكزها . وجر المدفع الأول إلى مركزه وفتح النار . وأرسل غريغوري رجلاً يأمر القوزاق في المنخفض بجلب الخيل . فقد أعد العدة للهجوم . وجر

مدفع ثالث إلى مركزه قرب شجرة التفاح حيث وقف غريغوري يرقب بداية المعركة . وكان ضابط مديد القامة يرتدي سروال خيالة ضيقاً يضرب جزمته بالسوط ويصب اللعنات الداوية على رؤوس رجال المدفعية البطيئين .

ـ أنصبوه ، ها ؟ تخطفكم الشيطان!

كان ثمة مراقب وضابط متقدم يقفان على بعد نصف فرسخ من البطارية يحدقان بمنظاريهما نحو صفوف الحمر المتقهقرة . وكان جنود المخابرة يركضون بسلك لربط البطارية بمركز المراقبة . وكان آمر البطارية الرئيس الكهل ، يعدل منظاره بأصابع عصبية معقدة ـ في أحدها خاتم زواج يلتمع . كان يتخبط قرب المدفع الأول ، منحنياً برأسه على صوت الطلقات ، ومع كل حركة فجائية كانت محفظة ميدان بالية تضرب على جنبه .

وبعد أن انطلق هدير داو مدمر انتظر غريغوري سقوط القذيفة فغطى منثار أول قذيفة سافات القمح الذي لم يجمع بعد ، فعلقت كتلة من دخان أبيض كالقطن في إطار خلفي أزرق . وراحت المدافع الأربعة ترسل قذائفها على سافات القمح المحصود ، ولكن ، على غير ما توقع غريغوري ، لم تحدث نار المدافع ارتباكاً ملموساً في صفوف الحمر المتقهقرين . فقد استمروا في تراجعهم البطيء المنتظم ثم تواروا في أحد المنخفضات . فأدرك غريغوري خطل فكرة الهجوم ، ولكنه قرر مع ذلك بحث الموضوع مع آمر البطارية . فذهب إلى الضابط ، وابتسم له ابتسامة ود وهو يلمس بيسراه طرف شاربه المتجعد الذي حال لونه من الشمس . وقال :

ـ أنا أفكر بقيادة رجالي للهجوم .

ـ كيف يسعك أن تهاجم ؟ ـ وهز الرئيس رأسه بعنف ، وهو يمسح من صدغه سيلاً من قطرات بظهر يده . وأردف : ـ يمكنك أن ترى كيف تراجعوا بانتظام . هؤلاء الخنازير! انهم لم يذعنوا . ومن السخف أن ننتظر منهم الإذعان : إن تلك الوحدات يقودها ضباط نظاميون ، رجال ارتقوا من بين الجنود . إن لي بينهم رفيقاً قديماً ، اسمه سيروف .

فسأله غريغوري مرتاباً :

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ عن طريق الفارين . ـ ثم أصدر الأمر إلى رجاله : ـ أوقفوا النار ، ثم أوضح الأمر لغريغوري ، وكأنه يبرر له ما فعل : ـ إن نارنا لم تحقق أي غرض ، ثم إن القذائف تنقصنا . أنت ميليخوف ، أليس كذلك ؟ اسمي بولتاقتسيف ـ ثم دفع يده الضخمة العرقى في يد غريغوري ، وأخرج من محفظته بعض السكائر بسرعة ، ودعا غريغوري قائلاً : ـ أتريد سيكارة ؟

وانبعث قعقعة مكتومة وهرع السواق يجرون عربات المدافع من المنخفض . وامتطى غريغوري حصانه وقاد سريته يتعقب الحمر المتقهقرين . واحتل العدو القرية التالية ، ولكنه تخلى عنها دون مقاومة . وانتشرت البطارية وسرايا كتيبة فيشنسكايا الثلاث في أرجاء القرية . ولم يشأ القرويون المرتعبون إخراج رؤوسهم من أكواخهم . فراح القوزاق يهومون في أقنية الأكواخ بحثاً عن الطعام . وترجل غريغوري خارج كوخ منعزل بعض الشيء ، ثم ربط حصانه عند سقيفة الباب ، فألفى رب البيت ، وهو قوزاقي كهل طويل القامة ، راقداً في فراشه ، يئن ويقلب رأسه الصغير الذي يشبه رأس الطير على الوسادة القذرة . فابتسم غريغوري للرجل قائلاً :

ـ أمريض أنت ؟

ـ مر... يض...

بيد أن الرجل كان يتظاهر بالمرض فحسب ، وكانت عيناه الزائغتان القلقتان تدلان على أنه لم يتوقع أن يصدقه غريغوري .

فسأله غريغوري قائلاً :

ـ هلا أعطيت رجالي بعض الطعام ؟

وظهرت ربة البيت من وراء الموقد سائلة :

ـ كم عددهم ؟

ـ خمسة .

ـ حسناً ، أدخلهم ، سنعطيهم مما قسم الله .

وبعد أن تناول غريغوري الطعام مع رجاله خرج إلى الشارع . كانت البطارية عند البئر على أهبة تامة للقتال . وكانت الخيل تأكل شعيراً من المخالي ، والسواق ورجال المدفعية يتفيأون في ظل صناديق العتاد ، في حين جلس بعضهم أو رقد حول المدافع . وكان أحد المدفعيين مستلقياً يغط في نوم عميق وساقاه متقاطعان ، وكتفاه تختلجان . ربما كان قد استلقى في الفيء ، بيد أن الشمس بلغته فصارت تلفح رأسه الأجعد الحاسر الذي خالطه بعض القش .

وبدت أدم الخيل براقة صفراء من العرق الذي كان يتصبب من تحت أحزمة العدة العريضة .

وكانت خيل الضباط تقف مربوطة إلى أحد الأسيجة وقد تهدلت ذيولها بكلال ، أما القوزاق فقد خلدوا إلى الراحة ، لائذين بالصمت ، مثقلين بالغبار والعرق ، في حين جلس الضباط وآمر البطارية على الأرض يدخنون وظهورهم إزاء جدار البئر . وفي مكان ليس بعيداً عنهم ، تحلق ستة قوزاق ، على هيئة نجمة سداسية فوق الدغل المحروق ، وراحوا يشربون اللبن الرائب من جرة ، وبين آونة وأخرى يبصقون شعيراً كان قد وجد سبيله إلى اللبن .

راحت الشمس تصب لهيبها . وبدت شوارع القرية الممتدة على التل وكأنها مقفرة . كان القوزاق نائمين بجانب مخازن الحبوب ، أو تحت السقائف أو عند الأسيجة في الظل الأصفر لنبات الأرقطيون . وكانت الخيل التي وقفت مسرجة عند الأسيجة قد تملكها الاعياء وران عليها النعاس من شدة الحر الخانق . ومر قوزاقي على حصانه ، كان لفرط كسله لا يكاد يقوى على رفع سوطه عن ظهر حصانه ، ثم ما عتمت القرية أن هجعت كدرب في السهب أتى عليه النسيان ، وبدت المدافع الخضراء والجند المنهكون النيام أشياء زائدة لا لزوم لها .

كان غريغوري يوشك أن يأوي إلى الكوخ ، وقد استبد به الضجر من ضياع الوقت دونما عمل . إلا أنه صادف في هذا الحين أن ظهر في الشارع

ثلاثة خيالة قوزاق من سرية أخرى يسوقون أمامهم ثلة صغيرة من أسرى الحرس الأحمر . فتململ رجال المدفعية وجلسوا من رقدتهم ، نافضين الغبار عن سترهم وسراويلهم ونهض الضباط على أقدامهم .

ومن الفناء المجاور ، نبت صيحة جذلة :

ـ هيه ، يا أولاد ، ها هم قادمون ببعض الأسرى... يشهد الله أنهم لكذلك .

وجاء قوزاق بدا عليهم النعاس يتراكضون من الأفنية القريبة .

وأقبل الأسرى ، وكانوا فتياناً ثمانية يعلوهم الغبار والعرق فحف بهم حشد حاشد .

وسأل آمر البطارية وهو يعاين الأسرى بفضول وكراهية :

ـ أين أمسكتم بهم ؟

فأجابه أحد مرافقي الأسرى وفي صوته نبرة من التباهي :

ـ محاربون!... عثرنا عليهم بين عباد الشمس في ضواحي القرية مختبئين كما تختبئ من الحدأة طيور السلوى . رأيناهم من على ظهور خيلنا ، فجعمناهم وقتلنا واحداً...

وتلاصق جنود الحرس الأحمر فزعين ، مترقبين أن يعدموا جميعاً ، وراحت أعينهم تنتقل بين وجوه القوزاق على نحو بائس ، إلا أسيراً ، أسمر الوجه من لفح الشمس ، يرتدي قمصلة متسخة ولفاف أرجل خلقاً ، ويبدو أكبر سناً من الآخرين فقد ظل ينظر عبر رؤوس القوزاق بازدراء بعينيه السوداوين والحولاوين بعض الشيء وقد أطبق شفتيه المتشققتين . كان مكتنز الجسم عريض المنكبين ، تعلو شعره الأسود الذي يحاكي بخشونته عرف الفرس ، قبعة بالية لا بد أنه احتفظ بها من أيام الحرب الألمانية . كان واقفاً في وضع الاستراحة وأصابعه السوداء الغليظة ، التي يكسو أظافرها دم متيبس ، تعبث بياقة قميصه المفتوح وجوزة عنقه المشعرة . كان بادي الهدوء تماماً ، سوى أن إحدى ساقيه ، التي تخلفت عن الأخرى بعض الشيء ، كانت ترتعش ، وقد بدت هائلة الحجم بلفافها الذي يبلغ الركبة .

أما الآخرون فقد علاهم الشحوب ، ولم يكن في سيمائهم ما يتميزون به . وكان وحده يستلفت النظر باتساع منكبيه القويين ، وبوجهه التتري المتسم بالحيوية . ولعل ذلك جعل آمر البطارية يتوجه إليه بالسؤال :

ـ من أنت ؟

فلاح ضوء في عيني الرجل ، الشبيهتين بقطعتين من فحم الأنثرسيت ، ثم انتصب في وقفته على نحو رشيق لا يكاد يحس به أحد :

ـ جندي من الحرس الأحمر . روسي .

ـ أين ولدت ؟

ـ في اقليم بيتزا .

ـ أمتطوع أنت ، يا ثعبان ؟

ـ كلا . كنت نائب ضابط أقدم في الجيش السابق ، ثم وجدت نفسي في الحرس الأحمر عام ١٩١٧ ، وبقيت معهم منذ ذلك الحين...

وتدخل أحد الحرس المرافقين للأسرى فأخبر الضابط قائلاً :

ـ هذا الخنزير أطلق علينا النار!

ـ أطلق النار ؟ ـ وتجهم وجه الرئيس غاضباً ، وحين التقت عيناه بنظرة غريغوري الواقف تجاهه ، أشار إلى الأسير بعينيه ، وأردف : ـ يا للـ !... أطلقت النار على القوزاق ، أليس كذلك ؟ ألم يخطر ببالك أنك قد تقع في الأسر ؟ لنفرض أننا سوينا الحساب معك هنا في الحال ؟

فارتعشت شفتا الرجل المتشققتان بابتسامة استرحام وهو يقول :

ـ أردت أن ادافع عن نفسي...

ـ يا لك من نموذج رائع! ولماذا لم تفعل ذلك ؟

ـ استنفدت كل طلقاتي...

ـ آها!

أصبحت عينا الرئيس باردتين ، ولكنه راح يحدق في الجندي بارتياح جلي . ثم أجال عينيه بالآخرين وسألهم بنبرة مغايرة تماماً :

ـ وأنتم ، يا أولاد العاهرات ، من أين أنتم!

فأعول شاب طويل العنق ، وراحت عيناه تطرفان وهو يحك شعره الذي يشبه اللهب ويقول :

ـ جندونا ، يا صاحب السعادة... نحن من ساراتوف ، من بالاشوف .

تفحص غريغوري بفضول وألم أولئك الفتيان بسحناتهم الريفية الساذجة ومظهرهم الذي يدل بوضوح على أنهم مشاة مكلفون ، ولم يثر شعور العداء فيه سوى الرجل ذي الشعر الأسود . فخاطبه بازدراء وغضب ، قائلاً :

ـ بِمَ اعترفت ؟ أحسبك كنت تقود سرية من الحمر ، أليس كذلك ؟ آمر ؟ وشيوعي ؟ تقول انك استنفدت كل رصاصك ؟ حسناً ، لنفرض أننا قطعناك بالسيوف في الحال ؟ ما قولك في هذا ؟

فاختلج منخرا أنفه المتشقق بالزناد وأجاب بجسارة مضاعفة :

ـ لم أقل ذلك شيطنة مني . علام أخفي الأمر ؟ فلو أني أطلقت النار عليهم لوجب عليَّ الاعتراف بذلك . أليس كذلك ؟ أما عن بقية... قطعوني بالسيوف ، اذا شئتم . أنا لا أتوقع رحمة منكم . ـ ثم ابتسم ثانية ، وأردف : ـ تلك هي مهمة القوزاق .

فعلت ابتسامات الرضى وجوه من حوله . أما غريغوري فقد أشاح عنه بوجهه شاعراً بالرضى من نبرة الجندي المتندة ، وشاهد الأسرى يذهبون إلى البئر لشرب الماء . وفي تلك الأثناء جاءت سرية من القوزاق المناوشين من وراء العطفة وقد انتظموا أرتالاً .

٩

وبعد هذه الفترة صار غريغوري يلتقي بالعدو على الدوام اذ كانت كتيبته تخوض غمار قتال مستديم وقد التحمت جبهة القتال في خط موصول بعد أن كانت أشبه بستار مهلهل . وعند التماس المباشر بالعدو ، كان

يتملكه ذلك الشعور الحاد بالفضول الهائل الذي لا يشفي غليله إزاء جنود الحرس الأحمر ، إزاء أولئك الروس الذين بات عليه أن يقاتلهم ، ولكن لا يعلم إلا الله لماذا . لكأنه ما يزال نهباً لذلك الشعور الصبياني الساذج الذي تملكه في مطلع الحرب الألمانية يوم التقى بالقوات النمساوية الهنغارية للمرة الأولى . «ترى أي ضرب من الرجال هم» ؟ لكأن حياته لم تشهد فترة قاتل فيها جنباً لجنب مع الحمر ضد مفرزة تشيرنتسوف في غلوبوكايا . بيد أنه كان وقتئذ يعرف سيماء الأعداء معرفة تامة : فجلهم قوزاق من ضباط الدون . أما الآن فهو يواجه مشكلة الجنود الروس ، رجال يختلفون عن أولئك كل الاختلاف ، إنهم حشد حاشد من الرجال الذين يؤيدون الحكم السوفييتي ، ويحاربون حسب ظنه ، من أجل الاستيلاء على أراضي القوزاق وممتلكاتهم .

وذات مرة ، في غمرة المعارك كاد أن يلتقي ثانية بالحرس الأحمر وجهاً لوجه ، ففيما كان في دورية مع رعيل خيالة يسير في باطن أحد الوديان سمع على حين غرة شتائم بالروسية ووقع أقدام . ثم جاء بضعة من رجال الحرس الأحمر ، وبينهم صيني ، يتراكضون إلى شفا الوادي فصعقوا لمرأى القوزاق . ووقفوا لبرهة مشدوهين .

فصرخ أحدهم بصوت مرعوب : «قوزاق!» ثم ألقى بنفسه على الأرض . وأطلق الصيني رصاصة ، ثم صاح الجندي المنبطح وهو يتأتئ بصوت حاد ناشج :

ـ يا رفاق! أجلبوا رشاش المكسيم!

إنهم قوزاق! فأردى ميتكا كورشونوف الصيني أرضاً بطلقة من مسدسه ، ثم استدار بحصانه وكان أول الهاذبين على امتداد الوادي ، وما لبث الآخرون أن هبوا وراءه ، وكل يحاول استباق الآخر . ودوت خلفهم لعلعة الرشاش العميقة ، فراح الرصاص يئز خلال أوراق العليق والزعرور البري النابت على جانبي الوادي ، ويهرش قاعه الصخرية .

والتقى بالحمر وجهاً لوجه في مناسبات أخرى وشاهد رصاص القوزاق يمزق الأرض تحت أقدامهم ، ورآهم يتساقطون لينزفوا آخر قطرة من دمائهم على هذه التربة المعطاء الغريبة عنهم .

... ورويداً رويداً راحت الكراهية للبلاشفة تملأ قلب غريغوري . ولقد ولجوا حياته كأعداء ، وانتزعوه من الأرض انتزاعاً! ولاحظ أن القوزاق الآخرين يمتلكهم الشعور ذاته . فقد خيل إليهم جميعاً أنه لو لم يغز البلاشفة إقليم الدون لما نشبت هذه الحرب على الإطلاق . وكلما رأى رجل منهم حزم القمح التي لم تجمع ، والحبوب غير المحصودة يدوسها حصانه بحوافره ، وساحات درس الحبوب الخالية ، تعود به الذاكرة إلى أرضه هو حيث تكدح نسوة بيته كدحاً لا قبل لهن به ، فيشتد قلبه قسوة وضراوة . وكان غريغوري يعتقد أحياناً أن قلوب أعدائه ، فلاحي تامبوف وريازان وساراتوف ، لا بد أن تنبض بهذا الحب الموهوب للأرض ، فيقول في دخيلته : «ها نحن نتنازع عليها وكأنها امرأة حسناء » .

تناقص عدد الأسرى . وتكاثرت حالات الإعدام الجماعي الذي كان ينفذ في الحال . وطغت على الجبهة موجة من السلب والنهب . فراح القوزاق يسلبون عوائل الحرس الأحمر ومن يشتبه فيهم العطف على البلشفية ، وكان الأسرى يعرون من ملابسهم .

راحوا ينهبون كل شيء ، من الخيل والعربات ، إلى الحاجيات المنزلية الثقيلة التي لا يرجى منها خير يذكر ، ولم يكن الضباط ليختلفوا عن القوزاق الجنود في ذلك ، فكلهم في النهب سواء . وحملت قوافل الشحن بالغنائم : بالثياب ، والسماورات ، ومكائن الخياطة ، وعدد الخيل ، وبكل شيء ذي فائدة تذكر . وراحت الحاجيات تتدفق من قوافل الشحن إلى أهاليهم في سيل لا ينقطع . وكان الأقرباء يأتون إلى الجبهة ، يجلبون العتاد والمؤونة عن طيب خاطر ، ثم يحملون عرباتهم بالأسلاب . وكانت كتائب الخيالة ، وهي أكثرية الجيش ، تبز غيرها ولا يردعها في ذلك رادع . فلم يكن عند المشاة

ما يحملون عليه الأسلاب ، أما الخيالة فبوسعهم أن يعبئوا خروج جيادهم ، ويحملوا الأسلاب على سروجهم ، فيشدوا خلفهم من الصرر ما يجعل خيلهم تبدو أشبه منظراً ببغال التحميل منها بجياد القتال . لقد أطلق القوزاق لأنفسهم كل العنان . كان السلب في الحروب جانباً أساسياً في سلوكهم . وكان غريغوري على بينة تامة من ذلك ، سواء من أقاصيص الحروب السابقة ، أو من تجاربه هو . فحتى في الحرب الألمانية ، يوم كانت كتيبته تجوب بروسيا ، فقد أشار آمر اللواء ، وكان جنرالاً شريفاً محترماً ، بسوطه إلى بلدة صغيرة تقع في سفح التلال ، وقال للكتيبة :

ـ اذا استوليتم على البلدة فإنها ستكون تحت تصرفكم مدة ساعتين ، ولكن من يقبض عليه متلبساً بالنهب بعد انقضاء الساعتين يعدم رمياً بالرصاص!

على أن غريغوري لم يعتد السلوك على هذا النحو أبداً . كان لا يأخذ إلا الطعام لنفسه ولحصانه ويرفض أن يلمس أي شيء آخر ، فكانت نفسه تعاف النهب ، ويزداد نفوره حين يعمد قوزاقه إلى النهب . فشدد النكير على سريته . فلو حدث أن عمد أي من رجاله إلى السلب فلم يكن ذلك يحدث إلا خفية وفي أحوال نادرة . كان لا يأمر بتجريد الأسرى من ثيابهم ولا بالإجهاز عليهم . وقد أثارت رقة قلبه غير المألوفة السخط لدى القوزاق ولدى قيادة الكتيبة ، فاستدعي إلى رئاسة أركان الفرقة ليقدم إيضاحاً عن سلوكه . وصرخ ضابط من ضباط الأركان فيه بفظاظة :

ـ أيها نائب الضابط ، علام تفسد سريتك ؟ ما هذا التساهل من عندك ؟ أتراك تعد لنفسك فراشاً وثيراً في حالة انقلاب الأحوال ؟ أتلعب على الحبلين بسبب ماضي أيامك ؟ صه ، لا تجادل! ألا تعرف أصول الضبط ؟ ماذا ؟ نستبدلك ؟ سوف نفعل ذلك! سوف أصدر الأمر إليك بتسليم سريتك هذا اليوم بالذات ، وإياك أن تتذمر ، يا فتى!

وفي نهاية الشهر احتلت كتيبة غريغوري ، وسرية من كتيبة يلانسكايا الثالثة والثلاثين قرية غريماتشي لوغ .

كان الوادي يعج بأشجار الصفصاف والدردار والحور ، وعلى المنحدر القريب كان ثمة عشرون أو ثلاثون كوخاً بيض الجدران متباعدة تحف بها أسيجة واطئة من الحجر المصقول . وتقوم على قمة التل المطل على القرية طاحونة هوائية قديمة تعبث فيها الرياح كلما هبت . وبدت أذرعها المقيدة أشبه بصليب معوج داكن إزاء غيمة بيضاء منفوشة كانت تلامس ذروة التل . كان النهار ماطراً يكتنفه الضباب ، وقد علا حفيف أوراق الشجر وهي تتساقط في الأخدود مثل رذاذ من الثلج الأصفر . وراح الصفصاف الأزغب يرسل وهجاً قانياً . وعلت ساحات درس الحبوب أكداس عالية من القش المتلامع . لقد نشر الشتاء المقبل لحافه الوثير على الأرض العطرة .

ونزل غريغوري في البيت المخصص له ولقوزاقه ، وكان يومذاك آمر رعيل . وتبين لهم أن رب البيت قد تراجع مع الحمر ، فراحت الأم الكهلة وابنتها التي لم تبلغ العشرين تقومان على خدمتهم وهما صاغرتان . ودخل غريغوري غرفة الاستقبال وأجال فيها عينيه ، فبدا له جلياً أن أهل البيت كانوا يحيون في بحبوحة من العيش ، فأرضية الغرفة مطلية بالدهان ، ولديهم كراسي من الخشب المثني على الطراز النمساوي ، وثمة مرآة ، والتصاوير المألوفة على الجدار ، وشهادة مدرسية بإطار أسود . وعلق غريغوري مشمعه الندي عند الموقد لكي يجف ثم لف له سيكارة . ودخل بروخور زيكوف ، ووضع بندقيته إزاء السرير ، ثم قال له بدون اكتراث :

ـ جاءت عربات من تتارسكي ، وأبوك معها ، غريغوري بانتلايفتش!

ـ هل من أكاذيب أخرى كهذه ؟

ـ إنها الحقيقة ، هناك ست عربات من قريتنا ، اذهب واستقبلهم .

فارتدى غريغوري معطفه وخرج ، فرأى أباه يقود حصانه خلل بوابة الفناء ، وقد جلست داريا في العربة ماسكة بالأعنة . متدثرة بمعطف من نسيج محلي . ولاحت لغريغوري ابتسامة ندية وعينان ضاحكتان من تحت قلنسوة معطفها المبتلة .

فصاح غريغوري وهو يبتسم لوالده :
ـ ما الذي جاء بكما إلى هنا ؟
ـ آه ، يا ولدي ، جميل أن نراك حياً . جئنا لزيارتك ضيفين متطفلين...
عانق غريغوري منكبي والده العريضين وشرع في حل أحزمة العربة .
ـ أظن اننا جئنا على غير انتظار ، أليس كذلك ؟
ـ بالطبع!...
وفيما كانا يحلان الحصانين تبادلا حديثاً متقطعاً . قال له أبوه :
ـ جلبنا لكم الذخيرة لكي تواصلوا القتال بها .
أما داريا فقد أخرجت من العربة طعاماً وشيئاً من الشوفان للحصانين .
فسألها غريغوري :
ـ وعلام جئت أنت أيضاً ؟
ـ رافقت أبي . لم تكن صحته على ما يرام . وقد خشيت أمي أن يحدث له شيء وهو وحيد في ديار غريبة .
ورمى بانتلاي بروكوفتش حزمة من القش الأخضر إلى الحصانين ، ثم دنا من غريغوري وسأله في همس أبح ، وقد اتسعت بقلق عيناه السوداوان ببياضهما المرضي المحمر :
ـ حسناً ، وكيف تسير الأمور ؟
ـ آه ، على ما يرام . ما زلنا نقاتل .
ـ سمعت حكاية تفيد أن القوزاق لا يريدون تخطي حدود الاقليم... أصحيح هذا ؟
فأجابه غريغوري مراوغاً :
ـ ليست هذه إلا أقاويل...
فقال الشيخ بنبرة قلقة فيها شيء من الارتباك :
ـ ماذا تعني بذلك ، يا ولدي ؟ ليس بوسعكم أن تستمروا على هذا المنوال... فنحن معشر الشيوخ نأمل... من سواكم يذود عن أبينا الدون ؟ اذا

لم ترغبوا في القتال ، لا سمح الله. أخبرني رجالك... أنهم يبثون الشائعات ، أبناء العاهرات!...

ودلفا إلى البيت ، فالتم القوزاق لسماع أخبار القرية ، ثم فتحت داريا كيساً من الطعام وشرعت تعد العشاء بعد أن عقدت مع ربة البيت مشاورات هامسة .

وسأل بانتلاي بروكوفتش وهو يسرّح لحيته الشعثاء بمشط عظمي :

ـ بلغني أن رتبتك أنزلت من آمر سرية ؟

فأغاظ غريغوري أباه الشيخ اذ أجابه بلا مبالاة :

ـ أنا الآن آمر رعيل .

فلاحت الغضون فوق حاجبي بانتلاي بروكوفتش ، ومشى يظلع إلى المائدة ثم غمغم بالصلاة على عجل ، ومسح ملعقته بذيل معطفه ، ثم سأله بنبرة تنم عن مهانة :

ـ ولأي سبب كان ذلك ؟ ألم ترض رؤساءك ؟

فلم يجد غريغوري رغبة في خوض الموضوع بحضور القوزاق ، فهز كتفيه امتعاضاً ، وقال :

ـ أرسلوا الينا آمراً جديداً... متعلماً...

ـ مع ذلك ، أخدمهم ، يا بني! سيقدرونك حق قدرك عما قريب . تباً لهم ولتعليمهم! لقد حصلت أنت على تعليم حقيقي أثناء الحرب الألمانية ، تعليم يفوق ما لدى ضباطهم ذوي العوينات .

والواضح أن الشيخ كان ساخطاً ، بيد أن غريغوري عبس ونظر إلى القوزاق بزاوية عينه ليرى ما اذا كانوا يبتسمون .

لم يشعر غريغوري بأي استياء من تنزيل رتبته . لقد سلم سريته إلى خلفه عن طيب خاطر ، مدركاً أنه لم يعد يتحمل مسؤولية عن حياة رجال قريته . ومع ذلك فقد جرحت كرامته وسببت له كلمات أبيه كدراً لم يستطع كبحه .

دخلت ربة البيت إلى المطبخ ، فعاد بانتلاي بروكوفتش إلى الموضوع

الذي كان يقض مضجعه ، مستشفاً أمارات الرضى في وجه ابن قريته بوغاتيريف ، الذي جاء مع القافلة أيضاً . فوجه كلامه إلى جميع القوزاق الموجودين في الغرفة :

ـ اذاً ، صحيح أنكم لا تريدون المضي أبعد من الحدود ؟

وراح بروخور زيكوف يطرف بعينيه الوادعتين الشبيهتين بعيني العجل ويبتسم بهدوء . اما ميتكا كورشونوف الذي كان مقرضاً عند الموقد فقد جر آخر نفس من سيكارته حارقاً أطراف أصابعه ، وكان ثلاثة قوزاق آخرين بين جلوس ومتمددين على المصاطب ، بيد أن أحداً لم يجب على السؤال . فلوح بوغاتيريوف يده بمرارة ، وقال بصوت جهير عميق :

ـ لا يبدو عليهم أي اكتراث لأمور كهذه .

فسأل ايلين بتكاسل ، وكان رجلاً هادئ الطبع قليلاً :

ـ ولماذا ينبغي أن نتخطى الحدود ؟ لماذا ينبغي ذلك ؟ لقد ماتت زوجتي وخلفت لي أطفالاً يتامى ، أفينبغي ان أفقد حياتي بدون داع ؟

وأيده قوزاقي آخر فقال بعزم :

ـ سنطردهم من أراضي القوزاق ، ثم نعود إلى أهلينا!

وابتسم ميتكا كورشونوف بعينيه الخضراوين فقط وفتل شاربه النحيف وأعلن :

ـ بوسعي أن أمضي في القتال خمسة اعوام أخرى! فإنني أحبه .

وفي تلك اللحظة علت صيحة في الفناء :

ـ اخرجوا! إلى الخيل!

وقال ايليين بنبرة يائسة :

ـ ها ، هذا شاهد على ما قلت! ها نحن أولاء لم تجف ملابسنا من المطر بعد ، وهم يصيحون : «إلى الخيل!» هذا يعني الذهاب إلى مواقعنا ثانية ، وأنت تتحدث عن الحدود . أي حدود ؟ ينبغي لنا أن نعود إلى أهلينا . ويجب أن نسعى إلى إحلال السلام ، وأنت تتحدث...

وظهر أن الإنذار لم يكن له داع . فقاد غريغوري حصانه عائداً إلى الفناء ، وراح يركل الحصان على كفله لغير ما سبب ، ويزمجر :

ـ سر باستقامة ، ايها الشيطان!

وحين كان القوزاق يدخلون سألهم بانتلاي بروكوفتش وهو واقف يدخن عند الباب :

ـ ما سبب الإنذار ؟

ـ إنذار!... حسبوا قطيعاً من البقر جنوداً حمراً!

وخلع غريغوري معطفه وجلس إلى المائدة ، ورمى القوزاق الآخرون سيوفهم ، وبنادقهم ، وأكياس رصاصهم ، على المصاطب وهم يتنحنحون . وحين استلقى الآخرون ليناموا استدعى بانتلاي بروكوفتش غريغوري إلى الفناء . وجلسا على الدرجات . فربت الشيخ على ركبة غريغوري وهمس قائلاً :

ـ اريد ان اتحدث اليك . ذهبت لزيارة بيوتر قبل اسبوع . وكان سعيي هناك مشكوراً ، يا بني ، فبيوتر لا يغفل عن البيت ابداً ، اعطاني شوالاً من الملابس ، وحصاناً ، وسكراً... حصاناً رائعاً .

فقاطعه غريغوري بحدة وقد احتدم غيظه اذ ادرك ما تهدف اليه كلمات الشيخ :

ـ مهلاً! أتراك جئت هنا لهذا الغرض ؟

ـ ولم لا ؟

ـ ما قصدك بلم لا ؟

ـ الآخرون يأخذون الحاجيات ، يا غريغوري...

فكرر غريغوري كلمات أبيه بغضب شديد ، وقد أعياه الكلام :

ـ الآخرون! يأخذون الحاجيات! أليس يكفيهم ما عندهم ؟ انكم شرذمة من الخنازير! كان الجنود يعدمون رمياً بالرصاص في الحرب الالمانية لعمل كهذا...

فقاطعه ابوه بجفاء :

ـ كفى! أنا لا أسألك شيئاً . فلست بحاجة الى شيء . فأنا اليوم على قيد الحياة ولكنني غداً سأرقد في القبر . قل لي من فضلك : أي غني أنت... ليس لديك سوى عربة صغيرة في الحقل ولكنك.. لِمَ لا تأخذ الحاجيات من اولئك الذين انضموا إلى الحمر ؟ انها لخطيئة الا تفعل ذلك . ان كل قطعة وكل عصا تنفعنا في البيت...

فقال غريغوري وهو يرتجف ويلهث :

ـ لا تحدثني بذلك ، والا فسأطردك في الحال! لقد سلخت جلود بعض القوزاق لعمل كهذا ، والآن جاء أبي ليسلب الناس!

فسخر منه والده قائلاً :

ـ ولهذا انزلوا رتبتك من آمر سرية .

ـ اجل ، وسوف اتخلى عن الرعيل ايضاً .

ـ لم لا ؟ أنت شديد الذكاء...

ثم ران عليهما الصمت برهة . واذ أشعل غريغوري سيكارته لمح على ضوء الكبريت وجه ابيه وقد بدا عليه الغيظ والحرج . واذ ذاك فقط ادرك غريغوري سبب مجيء والده ، فقال في نفسه : «ولهذا السبب جلب داريا معه ، يا للشيطان العجوز! لتهتم بالأسلاب!» .

ثم قال بانتلاي بروكوفتش بلا اكتراث :

ـ ستيبان استاخوف عاد . هل بلغك ذلك ؟

فسقطت السيكارة من يد غريغوري وهو يقول :

ـ ماذا ؟

ـ الظاهر انه وقع في الاسر ولم يقتل رغم ما قيل ، وقد جاء محملاً بالمال والثياب ، صدق ذلك أو لا تصدقه! لقد جلب من ذلك عربتين محملتين . ـ كان الشيخ يكذب ويتباهى وكأن ستيبان قريب له ، واردف : ـ اعاد اكسينيا من ياغودنويه ، ثم رحل إلى الجيش . اوكلوا اليه عملاً مرموقاً ، فهو الآن قومندان منطقة في كازانسكايا ، أو غيرها .

وادار غريغوري دفة الحديث إلى وجهة أخرى ، فقال :

ـ كيف كانت حصيلة درس الحبوب ؟

ـ اربعمائة بوشل .

ـ كيف صحة حفيديك ؟

ـ أوهو ، انهما رائعان ، يا بني! ينبغي ان ترسل لهما هدية .

فتنهد غريغوري اذ قال :

ـ أرسل لهما هدايا من جبهة القتال! ـ اما افكاره فقد شغلت باكسينيا وستيبان .

ـ أليس عندك بندقية زائدة ؟

ـ ما حاجتك بها ؟

ـ للبيت . لنطرد بها السوائم المتطفلين . فقد تدعونا الحاجة اليها . وعندي من الخراطيش صندوق بأكمله أخذته فيما كنت أحمل العتاد في عربتي .

فندت عن غريغوري ابتسامة غائمة وقال :

ـ خذ بندقية من العربة . لدينا الكثير من هدايا كهذه حسناً ، اذهب الآن ونم . عليّ ان اتفقد المواقع .

وفي صبيحة اليوم التالي نقل من القرية جزء من الكتيبة ومن ضمنه سرية غريغوري . فرحل وهو على ثقة من انه قد أشعر اباه بالخزي ، وان الشيخ سيرجع خاوي الوفاض . على ان بانتلاي بروكوفتش حين فرغ من وداع القوزاق دخل المخزن وكأنه في بيته ، فانزل اطواقاً وعدة خيل من مشاجبها ثم حملها إلى عربته . فلحقته ربة البيت وهي تتشبث بكتفيه وتصيح باكية :

ـ يا سيدي العزيز ، الا تخشى ارتكاب خطيئة كهذه ؟ لمَ تسيء إلى أيتام ؟ أعد إليّ الاطواق . أعطني اياها كرامة لحب الله .

فدفعها بانتلاي بروكوفتش عنه ، قائلاً :

ـ مهلاً ، مهلاً ، اتركي الله جانباً . أظن أن أزواجكن أيضاً سيأخذون الحاجيات من عندنا . فأنا أعرف قوميساريكم! ان اموالك هي أموالي فاخرسي ولا تشتكي .

ثم كسر أقفال الصناديق ، والآخرون يراقبونه باستحسان صامت ، وانتقى سراويل ومعاطف جديدة ، ورفعها إلى الضوء ، وتلمسها بيديه السوداوين الخشنتين ، ثم شدها على هيئة صرة...

وعند الظهر تأهب وداريا لرحلة الاياب . فجلست داريا مطبقة شفتيها الرقيقتين فوق الصرر التي تكدست في العربة ، وقد علا خلفها مرجل انتزعه بانتلاي بروكوفتش من موضعه في الحمام ، وحمله بشق النفس إلى العربة ، وحين لامته داريا قائلة : «أنت لن تترك حتى غائطك ، يا أبتي!» رد عليها غاضباً : «أيتها المتعجرفة! أترك لهم هذا المرجل ؟ ما أشبهك ، ربة بيت حريصة ، بغريغوري ، يا فاجرة! هذا المرجل يعجبني ، فلا تفتحي فمك» .

وحين كانت ربة البيت الباكية تغلق البوابة وراءهما ، قال لها بأريحية :

ـ وداعاً ، أيتها المرأة . لا تغضبي . سوف تحصلين على غيرها عما قريب .

١٠

توالت الأيام سلسلة مترابطة الحلقات ، بين مسيرة ، وقتال ، واستراحة ، تنوء تحت وطأة الحر والمطر ، مفعمة برائحة عرق الخيل وجلد السروج الحامية... وغدا الدم في العروق كزئبق حار من فرط ارهاق لا ينقطع . وبات الرأس من فرط السهاد ، أثقل من قذيفة من عيار ست بوصات . واستبدت بغريغوري اللهفة إلى الراحة ، والى الرقاد ، ومن ثم إلى السير على شقوق الأرض الهشة غب مرور سكة المحراث عليها ، يستحث الثيران بالصفير ، ويتسمع نداء الكراكي الرخيم ، ويمسح عن خديه ريق الشمس المتطاير في الهواء ، ويرشف عبير التربة المحروثة المثمل .

ولكن عينه لم تقع الا على قمح تمزقه مسالك أشبه بحد السكين ، تعج بحشود من أسرى عراة باتوا من وعثاء الطريق أشبه بالجثث السود . وكانت السرايا تهرس الدروب ، وتدرس القمح بسنابك خيلها المنعلة بالحديد . أما في القرى فالهواة يفتشون بيوت المنسحبين مع الحمر ويجلدون نساءهم وأمهاتهم بالسياط...

ومضت الأيام غاصة بالسأم تجرجر خطاها ، ثم ما لبثت أن تلاشت من الذاكرة ، ولم تترك أحداثها ، حتى الهامة منها ، اي أثر وراءها . وبدت أيام هذه الحرب أشد كآبة منها في الحرب الألمانية ، ولعل مرد ذلك أنهم كانوا يعرفون كل شيء مسبقاً . كان جميع المشتركين في الحرب السابقة ينظرون باستخفاف إلى هذه الحرب : اذ بدت لعينهم ضيقة الأفق بمداها وقواها وخسائرها مقارنة بالحرب الألمانية ، لكن الموت وحده أبى أن ينزل من عليائه المهيبة ، شأنه في حقول بروسيا ، فراح يبعث الرعب في نفوسهم ، ويفرض عليهم تشبثاً حيوانياً بالحياة .

كان رجال خط الجبهة يقولون :

ـ أهذه حرب ؟ بل تمثيل . ففي الحرب الالمانية كانت الكتائب تباد عن بكرة أبيها تحت نيران المدافع الألمانية ، وها نحن أولاء نتحدث عن الخسائر كلما جرح رجلان في احدى السرايا .

ولكن حتى هذا اللعب بالحرب كان يثير في نفوسهم الغيظ . وتفاقم فيهم السخط والكلال والغيظ ، فكان القوزاق في سرية غريغوري يقولون بلجاجة متزايدة :

ـ سنطرد الحمر من اقليمنا ، وكفى . لن نذهب أبعد من ذلك . دع روسيا تدبر شؤونها بنفسها ، وسوف ندبر نحن شؤوننا . ولن نفرض عليهم نظامنا .

ودارت طوال الخريف حرب متثاقلة كسول . اذ كانت تسارتسين أهم مركز استراتيجي ، فقد قذف كل من الحمر والبيض خيرة قواتهما في

اتجاهها . وبنتيجة ذلك لم يكن لأي من الطرفين الباع الأطول في الجبهة الشمالية ، فراح كل منهما يحشد قواته تمهيداً للقيام بهجوم حاسم . وكان لدى القوزاق قوات كثيرة من الفرسان ، وقد استفادوا من تفوقهم في هذا المضمار ، فعمدوا إلى القيام بعمليات حربية موحدة ، وبحركات التفاف ، وهجمات على مؤخرة العدو . ولكن الغلبة لم تكن بجانب القوزاق الا حين تجابههم فرق مضعضعة الهمم قوامها جنود حمر مستجدّون من أهل المناطق الواقعة وراء الجبهة مباشرة . فكان رجال ساراتوف وتامبوف يستسلمون بالآلاف ، ولكن ما ان تدفع القيادة الحمراء بكتيبة من العمال أو بقوة من البحارة إلى المعركة حتى يتغير الوضع ، فلا يحتفظ أي من الطرفين بزمام المبادرة في يده ، ولا يحرز سوى انتصارات ذات أهمية موضعية .

وكان غريغوري يراقب مجرى القتال بغير اكتراث رغم اشتراكة فيه . وكان واثقاً أن الامر سينتهي حين يحل الشتاء ، وهو على علم بجنوح القوزاق إلى السلم ، وبأن التفكير بقتال طويل الأمد عبث لا طائل تحته . وكانت الصحف تصل الكتيبة بين آن وآخر ، وحين تصل واحدة يلتقط غريغوري بشعور من الكراهية الصحيفة المطبوعة على ورق التغليف الأصفر ، ويصر بأسنانه وهو يلقي نظرة سريعة على البلاغات الحربية . وكان القوزاق من حوله يقهقهون طرباً اذ يقرأ عليهم الكلمات الطنانة الزاخرة بتفاؤل كاذب :

٢٧ ايلول : يدور القتال على قطاع فيلونوف بنجاح متفاوت . ففي ليلة ٢٦ طردت كتيبة فيشنسكايا البارعة العدو من بودغورنايا ، وتابعت هذا النصر فدخلت لوغانوفسك . وقد استولت على غنائم كثيرة وأسرت عددا هائلا من الأسرى . وتتراجع مفارز الحمر بدون نظام ويتمتع القوزاق بمنعويات رائعة . ان رجال الدون مقبلون على انتصارات جديدة .

راح ميتكا يهتز من الضحك ، وهو يضغط راحتي يديه الطويلتين على جنبيه ، وقد فغر فاه عن أسنان بيض .

ـ كم أسرنا ؟ أعداداً هائلة ؟ ها... ها! يا لأبناء العواهر! أسرنا اثنين وثلاثين رجلاً بالضبط . وهم يقولون...

ولم يصدق القوزاق الأخبار التي وردتهم عن انتصارات الكاديت في سيبريا والكوبان . كانت الصحف تكذب دونما رادع أو حياء . وقد قرأ قوزاقي فارع القامة ذو يدين كبيرتين من رعيل غريغوري مقالة عن التمرد التشيكوسلوفاكي فأعلن على مسمع من غريغوري :

ـ سيقضي الحمر على التشيكيين ، ثم ينقلبون علينا بجيشهم كله ، فيهصروننا حتى نغدو هلاماً ، ـ ثم اختتم قوله بنبرة كئيبة : ـ انها روسيا! وليس في الأمر مزاح!

فقال بروخور زيكوف :

ـ لا تحاول بث الرعب فينا! ان أقوالك المخبولة تثير في الغثيان .

ولكن غريغوري قال في سريرته ، بهدوء ومرارة ، فيما كان يلف لنفسه سيكارة : «انه على حق!» .

ومساء ذلك اليوم لبث وقتاً طويلاً ، جالساً إلى طاولته ، مهموماً محدودباً ، وياقة قميصه الحائل اللون مفتوحة الأزرار . وكان ثمة تعبير قاس على محياه الملفوح ، واكتسب وجنتاه امتلاء لا ينم عن صحة ومعافاة . وراح يشرئب بعنقه الأسمر العضل ، ويفتل ذؤابة شاربه التي حال لونها من الشمس ، مستغرقاً في التفكير ، مسمراً في الجدار عينيه اللتين أمستا باهتتين قاسيتين في الأيام الأخيرة . كان يفكر بامان ، وبمشقة لا عهد له بها ، وفيما كان يستلقي للنوم ، قال وكأنه يجيب على سؤال يشغل بال الجميع :

ـ ليس هناك مفر .

ولم يذق طعم النوم طوال تلك الليلة . وقد خرج مراراً وتكراراً ليلقي على الخيل نظرة ، وليقف على درجات العتبة طويلاً ، مصغياً إلى همس السكون الرائق .

* * *

يبدو أن نجم غريغوري كان ما يزال يشع وميضاً هادئاً راعشاً . فلا بد أن الأوان لم يحن بعد لكي يحطم هذا النجم قيوده ويطير عبر السماء فيلفحها بوهجه البارد الآفل . فقد قتل خلال ذلك الخريف ثلاثة جياد من تحت غريغوري . وثقب معطفه في خمسة مواضع . ويبدو أن المنية كانت تعابثه وترفرف فوق رأسه بجناحها الأسود . وذات يوم نفذت رصاصات في مقبض سيفه النحاسي وسقطت عقدة السيف عند أقدام جواده وكأن أحداً قد قضمها .

فقال له ميتكا كورشونوف : ـ لا بد أن هناك من يصلي من أجلك بلا انقطاع يا غريغوري . ـ ودهش اذ رأى غريغوري يبتسم ابتسامة كالحة .

تعدّت الجبهة خط السكة الحديد . وكانت عربات الشحن تأتي كل يوم ببكرات ضخمة من الأسلاك الشائكة . وفي كل يوم تحمل أسلاك التلغراف هذه الكلمات على امتداد الجبهة :

«بات وصول جيوش الحلفاء وشيكا . فلا بد أن تعزز المواقع على حدود الاقليم ريثما تصل الامدادات ، فينبغي أن نقاوم ضغط الحمر مهما كلف الثمن» .

كان أهالي المنطقة ، الذين جندوا للعمل يضربون الأرض المتجمدة بالمعاول فيحفرون الخنادق ويحصنونها بشباك من الأسلاك الشائكة . ولكن ما ان يحل الليل ، ويترك القوزاق خنادقهم ليلوذوا بالقرى طلباً للدفء حتى تزحف جماعات من طلائع الحرس الأحمر إلى خنادق القوزاق فتحطم تحصيناتها وتعلق نداءات مطبوعة على أعمدة الأسلاك الشائكة الصدئة . فيقرأها القوزاق بنهم وكأنها رسائل من أهليهم . وبدا جليا أن مواصلة القتال في ظروف مثل هذه أمر لا طائل تحته . ثم حل موسم الصقيع ، تتخلله فترات من ذوبان التلج وتهاطله بمقادير هائلة . فامتلأت الخنادق بالثلج ، وبات من المتعذر أن يرقد المرء فيها ساعة واحدة . وتجمدت أوصال القوزاق ، وأصابت أقدامهم وأيديهم لسعة الجليد . وأمسى الكثير من جند المشاة

ومفارز المناوشات القوزاقية دونما جزمات ، وكان آخرون قد خرجوا إلى الجبهة بصنادل وسراويل صيفية فقط وكأنهم خارجون إلى أفنية حقولهم . ولم يكن الحلفاء موضع ثقتهم ، وذات يوم قال آندريي كاشولين بمرارة : «لا بد أنهم قادمون إلى هنا على ظهور الخنافس» .

وحين كان القوزاق يحتكون بدوريات الحمر كانوا يسمعونهم يصيحون :

ـ يا من هنا ، أنتم يا عبدة المسيح! ألم تحصلوا على دباباتكم بعد ؟ سنأتيكم على الزحافات ، فاستعدوا للهرب!

وفي أواسط تشرين الثاني بدأ الحمر هجومهم ، فواصلوا الضغط بعناد وحملوا فرق القوزاق على التقهقر الى خط السكة الحديد غير ان التغير الجذري في القتال جرى فيما بعد . وفي ١٦ كانون الأول أحاقت الخيالة الحمراء بكتيبة القوزاق الثالثة والثلاثين بعد قتال طويل ، أما في القطاع الذي كانت كتيبة فيشنسكايا تذود عنه فقد جوبه الحمر بمقاومة مستمية ، فراحت رشاشات الكتيبة تستقبل مشاة العدو من وراء أسيجة الأفنية التي يعلوها الثلج ، بسيل جارف من الرصاص . واذ كان المندفع الرشاش يمطر من الميمنة وابلاً من الموت ، أرسلت من المسيرة سريتان للقيام بحركة التفاف .

ووشيك المساء استبدلت قوات الجيش الأحمر التي كانت تزحف زحفاً واهناً بقوة من البحارة وصلت الجبهة حديثاً . فتدفق سيلهم في هجوم صامت على المدافع الرشاشة ، دون أن ينبطحوا أو يهتفوا .

وراح غريغوري يطلق النار دون توقف ، حتى غدت ماسورة بندقيته حارة كالجمر . فاكتوت يداه . ثم برّد البندقية ، ودفع الخراطيش فيها كرة ثانية ، وصوبها بعينين مخاوصتين إلى الهياكل السود الصغيرة البادية عن بعد .

واقتحم البحارة تحصينات القوزاق . فهرعت السرايا إلى الخيل ولاذت بالفرار هذباً عبر القرية إلى الربوة التي وراءها . واذ التفت غريغوري إلى

الوراء سقط من يده العنان دون ارادته ، فمن على سفح التل استطاع أن يرى السهب الحزين وقد جلله الثلج ، وانتشرت في أرجائه رواب صغيرة لشجيرات تكللها الثلوج ، وترامت على مدى وهاده ظلال المساء الليلكية . وكانت جثث البحارة الذين حصدتهم نيران الرشاشات ترقد على امتداده فرسخ بأكمله ، فبدوا بسترات البحرية ، والقمصلات الجلدية أشبه بالزيغان وقد حطت على الحقل...

وفي المساء توقفت السرايا المشتتة ، وقد فقدت صلتها بالكتائب على الجانبين ، لتمضي الليل في قريتين تقعان على جدول من روافد نهر بوزولوك .

وفيما كان غريغوري عائداً عند الغسق من الموقع حيث طلب اليه آمر سريته أن يضع الحرس ، صادف آمر الكتيبة ومرافقه . فسأله الآمر وهو يكبح حصانه :

ـ أين السرية الثالثة ؟

فأجاب غريغوري على سؤاله ومضى الضابطان في طريقهما .

وحين ابتعد بعض المسافة التفت المرافق وسأله : ـ هل كانت الخسائر فادحة في السرية ؟ ـ واذ لم يسمع جواب غريغوري أعاد سؤاله .

الا أن غريغوري مضى في طريقه غير آبه .

وطوال الليل راحت عربات الشحن تسير متثاقلة خلال القرية حيث أوت سرية غريغوري . توقفت بطارية مدفعية في الشارع وقتاً طويلاً ، فحل في كوخ غريغوري مدفعيون ومراسلو أركان ينشدون الدفء ولا يعلم الا الله كيف ظهروا في هذه القرية . وفي منتصف الليل اندفع ثلاثة مدفعيين إلى داخل الكوخ ، فأيقظوا أهل البيت والقوزاق . كان مدفعهم قد غرز في الجدول القريب من القرية ، فقرروا تركه هناك ريثما ينقضي الليل فيخرجونه بواسطة الثيران عند الصبح . استيقظ غريغوري وراح يحدق في المدفعيين وهم ينظفون جزمهم من الوحل اللزج ، ويخلعون ملابسهم ، وينشرون

جواربهم لتجف . وبعد ذلك بقليل جاء ضابط مدفعية ملطخ برشاش الوحل حتى أذنيه . فسأل ما اذا كان بوسعه أن يمضي الليل هنالك ، ثم خلع معطفه ووقف ينشر بقع الوحل على وجهه بكم قمصلته وقتاً طويلاً دون أن يبدو عليه أي اكتراث .

قال ، وهو يمعن النظر في غريغوري بعينين ذليلتين كعيني حصان كليل :

ـ خسرنا مدفعاً . فقد توصلوا إلى تحديد موقعنا بعد أن أطلقنا مرتين . وما ان بدأ قصف مدفع العدو حتى أصيب محور مدفعنا ، وكان منصوباً في ساحة لدرس الحبوب ، ولم يكن بالوسع اخفاؤه في موضع أفضل من ذلك... ـ كان يذيل كل عبارة بشتيمة معيبة دون أن يشعر بذلك تماماً . وأردف : ـ هل أنت من كتيبة فيشنسكايا ؟ هل تريد شيئاً من الشاي ؟ يا امرأة ، ما رأيك باعداد سماور لنا ، هاه ؟

وتبين أن الضابط جليس ثرثار يبعث في النفس الملل . وراح يشرب الشاي دونما كلل ، وفي غضون نصف ساعة علم غريغوري أنه من مواليد منطقة بلاتوفسكي وخريج المدرسة الثانوية ، وأنه شارك في الحرب الألمانية ، وأنه تزوج مرتين زواجاً فاشلاً . قال وهو يلعق العرق من موضع شاربه الحليق بلسان أحمر طويل :

ـ هذه نهاية المطاف بالنسبة لجيش الدون! فالحرب قاربت نهايتها . غدا تتفكك الجبهة ، وما هما الا أسبوعان ونعود إلى نوفوتشيركاسك . أرادوا اجتياح روسيا بقوزاق حفاة! أليسوا مخابيل ؟ ثم ان ضباط القيادة كلهم أوغاد . أنت قوزاقي ، أليس كذلك ؟ هاه ؟ لقد أرادوا منك أن تخرج لهم البلوط من النار . أما في المؤخرة فهم ماضون في نهب برغل وغار في المخازن .

وراح يطرف بعينيه الباهتتين ، وقد مال بجرمه الثقيل على الطاولة ، وتهدلت زاويتا شفتيه بقنوط ، أما وجهه فهو مايزال يحتفظ بسيماء حصان ذليل منهك .

ـ في سالف الأيام كانت ثمة متعة في الحرب ، حتى أيام نابليون . يشتبك الجيشان ، فيتضاربان بعض الوقت ثم يفترقان . فلا جبهات ولا قبوع في الخنادق . ولكن حاول أن تفهم ما يجري هذا اليوم... ان الشيطان ذاته عاجز عن ذلك! ربما كذب المؤرخون في ما كتبوا عن الحروب الأخرى ، ولكن ما كتبوه ليس شيئاً يذكر قياساً بما سيكتبونه عن هذه الحرب . انها ليست حربا بل الضجر بعينه ، لا لون لها! لا شيء غير الخوض في الوحل . جنون عموماً . أتدري ما بودي أن أقول للمتربعين في القمة ؟ سأقول : «هاك ، أيها السيد لينين ، اليك رئيس عرفاء دعه يعلمك كيف تستعمل البندقية . وأنت أيها السيد كراسنوف لا بد أنك تجيد ذلك» . ثم خلهما يقتتلان على الحكم كما اقتتل داود مع الغول* ، ثم ليتسلم الحكم من ينتصر منهما . فالشعب لا يهمه من الذي يتولى حكمه . ما رأيك يا نائب الضابط ؟

لم يجبه غريغوري ، بل راح يراقب ، والنعاس قد تملكه ، الحركات الثقيلة لمنكبي الرجل اللحيمين ، وذراعيه ، ولسانه الذي كان يخرجه من فمه ، باستمرار . كان يتوق إلى النوم ، فراح يضطرم في دخيلته غيظاً من هذا الضابط المتطفل الأبله ، الذي اثار في نفسه الغثيان من نتانة قدميه العرقتين .

استيقظ غريغوري في الصباح يمضه شعور بأنه ترك أمراً لم يسوه . فرغم انه كان يتوقع تلك التطورات منذ الخريف فانها افزعته بحدوثها الفجائي . فقد فاته ان يرى السخط من الحرب الذي يتسرب في اول الامر إلى صفوف السرايا والكتائب مثل مسارب صغيرة ، ما لبث ان التم بشكل خفي فتدفق معاً في طوفان جبار . ولم يعد الآن بوسعه ان يرى سوى ذلك الطوفان الذي طفق يكتسح الجبهة اكتساحاً عارماً نهماً .

ومثل خيّال يسير عبر السهب في الربيع الباكر ، يرى الشمس مشرقة ،

---

* يروي الانجيل ان داود تصارع مع الغول فقتله بصخرة رماها بمقلاع . المترجمون

وعلى مدى العين يترامى الثلج البنفسجي الذي لم تطأه قدم . اما تحت الثلج فثمة عمل أزلي خارق يجري دون ان تلحظه اعين البشر : فقد جعلت الاصفاد تتحطم عن الارض . فتأكل الشمس الثلوج ، تقضمها رويداً رويداً ، فتغمرها بالبلل من اسفلها ، ثم يرخي الليل سدوله متلفعاً بضباب رجراج ، وما ان يحل الصباح الا وقشرة الثلج آخذة بالهبوط فيتعالى هسيسها وهديرها ، ولا يلبث الماء الاخضر المنحدر من سفوح التلال ان يتدفق إلى الدروب والمسالك ، واذا بكتل ندية من الثلج تتطاير من تحت حوافر الجواد في كل اتجاه . ها قد حل الدفء وانجاب الثلج عن الروابي ، وشاعت رائحة بكر من التربة الطينية والعشب المتعفن وما ان ينتصف النهار حتى تهدر الوديان بالمياه ، وتعلو خشخشة الجليد المنزلق على الجروف المائلة ، وينبعث عن البقع الجرد من ارض الحقول السوداء المخملية بخار عبق . وما ان يهبط المساء حتى يقضم نهير السهب جليده وهو يئن ، ثم يدفع به حدر تياره الدافق مترعاً مليئاً كثدي ام شابة . ويقف الرجل على الضفة الرملية وقد اذهله رحيل الشتاء المباغت ، باحثاً عن موضع ضحل ، ضارباً بالسوط جواده المرتبك العرق . وفي هذه الأثناء يومض الثلج فيما حوله بزرقة بريئة خادعة ، ثم لا يلبث الشتاء الناعس ان يبسط سلطانه من جديد...

وراحت الكتيبة تتقهقر طوال اليوم التالي ، فكانت عربات الشحن تجري على امتداد الطريق . وتناهى إلى الاسماع هدير قصف المدافع من موضع ما إلى اليمين وراء الغيوم الرمادية التي تغشى الأفق . ومضت السرايا تخبط في الطريق التي ذاب عنها الثلج المختلط بالروث ، والخيل تنثر الثلج الندي وهو يقبق تحت حوافرها ، فيما كان المراسلون يهذبون على جانب الطريق . وكانت الزيغان الصامتة ، وقد ارتدت حلة زاهية من ريش مائل للزرقة ، سمينة وخرقاء ، تنقل خطاها التقيلة على مقربة من الطريق ، وكأنها فرسان راجلة ، تنظر بمهابة إلى الصفوف المتقهقرة من سرايا القوزاق ، والمناوشين ، وسيل العربات ، فبدت وكأنها تشهد عرضاً عسكرياً .

ادرك غريغوري ان أحداً لن يستطيع ان يضع حداً للتراجع الذي كان اشبه بنابض منطلق . وفي تلك الليلة فر من كتيبته بلا اذن وقد افعم بهجة لقراره ذلك .

واذ كان ميتكا كورشونوف يراقب غريغوري وهو يرتدي وقاء المطر فوق معطفه ويشد حزام السيف وقراب المسدس ، سأله باسماً :

- إلى أين ذاهب ، ياغريغوري ؟

- ولماذا تريد ان تعرف ؟

- من الفضول ، ليس غير .

فاختلج محيا غريغوري ، ولكنه اجاب بغمزة مرحة من عينيه :

- إلى ارض اسمها «لا تدس انفك في شؤون الآخرين» ، أفهمت ؟

ثم خرج .

كان حصانه واقفاً وهو مسرج ، فمضى يهذب فوق مسالك الحقول المتجمدة حتى مطلع الشمس . «سأبقى في البيت ، وحين يبلغني انهم يمرون بديارنا سيكون بوسعي الالتحاق بالكتيبة من جديد» . هذا ما عنّ له بشأن أولئك الذين كان بالأمس فقط يقاتل إلى جانبهم . وما ان هبط مساء اليوم التالي حتى دخل غريغوري حوش ابيه يقود جواده الذي انهكته وهدت قواه رحلة المائتي فرسخ .

١١

في نهاية تشرين الثاني ، شاع في نوفوتشيركاسك خبر وصول بعثة عسكرية من حلف (الانتينت)* وسرت في المدينة شائعات متواترة مفادها ان سرية قوية من البحرية البريطانية قد رست في ميناء نوفوروسيسك وان

* حلف بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية في الحرب العالمية الأولى . المترجمون

قوات حليفة ضخمة منقولة من سالونيكا تنزل إلى البر ، وان فيلقاً من المغاربة التابعين للجيش الفرنسي قد نزل إلى البر بالفعل وانه سينضم إلى جيش المتطوعين لشن هجوم عام عما قريب . وراحت الشائعات تكبر شأن كرة من الثلج المتدحرج .

اصدر كراسنوف أوامره ان يستقبل البعثة حرس شرف من الحرس الاتماني الخاص ، وسرعان ما تزينت سريتان من الحرس الشباب بالجزم العالية وبمحافظ الرصاص البيض عبر صدورهم ، ثم اوفدوا بسرعة البرق إلى تاغانروغ تصحبهم سرية من عازفي البوق .

كانت البعثتان العسكريتان البريطانية والفرنسية في جنوب روسيا قد قررتا ايفاد بضعة ضباط إلى نوفوتشيركاسك للاستطلاع السياسي ، وليأخذوا على عاتقهم التعرف على الوضع في الدون وما هنالك من امكانات لمواصلة القتال ضد البلاشفة . كانت بريطانيا ممثلة بالرائد بوند والملازمين بلومفيلد ومونرو ، أما فرنسا فكان يمثلها الرائد أوشين والملازمان دوبريه وفور .

وقد حدثت هرجلة في القصر الأتماني بوصول هؤلاء المندوبين ذوي الرتب الواطئة نوعاً ما ، والذين رفعتهم نزوات القدر إلى « سفراء » دون سابق انذار .

وزف «هؤلاء السفراء » إلى نوفوتشيركاسك في بهرج عظيم . ولفرط ما لقي أولئك الضباط الصغار من خنوع وذلة دارت رؤوسهم ، واذ شعروا بعظمتهم «الحقيقة» على حين غرة ، راحوا ينظرون بتعال إلى مشاهير جنرالات القوزاق والى شخصيات تلك الجمهورية الكارتونية العظمى .

ودبت في أحاديث الملازمين الفرنسيين الشابين إلى جنرالات القوزاق نبرة من الغطرسة والتعالي على الرغم من كياستهم الظاهرة ودماثتهم الفرنسية التي تتسم بالطلاوة المخنثة .

وفي المساء أقيم احتفال في القصر ، وأضفت جوقة عسكرية على القاعة أوشحة حريرية من الأغاني القوزاقية تطرزها الأصوات الصادحة المنفردة

بألوان ثرة وراحت جوقة من الآلات النحاسية تدوي بالنشيدين الوطنيين للدولتين الحليفتين وتناول «السفراء» الطعام بتكبر شديد وعلى نحو يناسب المقام ، واذ أحس ضيوف الأتمان بالأهمية التاريخية لتلك المناسبة راحوا يتطلعون إلى السفراء بفضول خفي واحترام .

وشرع كراسنوف يلقي خطابه :

ـ سادتي ، انكم تجلسون في قاعة تاريخية ، يطل عليكم من جدرانها أبطال حرب وطنية سابقة ، حرب ١٨١٢ ، بشهادة صامتة . ان بلاتوف . وايلوفايسكي ، ودنيسوف ليذكروننا بتلك الأيام المقدسة ، يوم رحب سكان باريس بمحرريهم ، قوزاق الدون ، يوم انتشل الأمبراطور ألكساندر الأول فرنسا الجميلة من الخراب...

كانت عيون مبعوثي «فرنسا الجميلة» ، قد أخذت تشع وميضاً مرحاً لفرط ما كرعوا من الشمبانيا الوفيرة ، ولكنهم راحوا ينصتون إلى خطاب كراسنوف بانتباه .

وبعد أن أطنب كراسنوف في وصف المحن التي كان الشعب الروسي يعانيها تحت «نير البلاشفة الوحوش» اختتم كلامه بنبرة تنم عن شجن عميق :

ـ ... ان خيرة ممثلي الشعب الروسي يموتون الآن في السجون البلشفية . ان أنظارهم تشخص اليكم ، انهم ينتظرون عونكم ، فعليكم أن تساعدوهم ، هم ، لا الدون . اننا بوسعنا أن نقول بكل اعتزاز إننا أحرار . غير أن كل أفكارنا ، وغاية كفاحنا هي روسيا العظمى ، روسيا المخلصة لحلفائها ، روسيا التي دافعت عن مصالحهم ، وضحت بنفسها على مذبحهم روسيا التي تتعطش إلى مساعدتهم بظمأ مريع . وقبل مائة وأربع سنين ، في شهر آذار رحب الشعب الفرنسي بالأمبراطور ألكساندر الأول وحرسه الروسي . ومنذ ذلك اليوم ، حل في فرنسا عهد جديد ، عهد ارتقى بها إلى طليعة أمم العالم . وقبل مائة وأربع سنين زار أتماننا ، الكونت بلاتوف

لندن . اننا في انتظار وصولكم إلى موسكو! اننا ننتظركم كي ندخل واياكم قصر الكرملين ، على أنغام نشيدنا الوطني الشجي لكي تشاركونا كل حلاوة السلم والحرية! روسيا العظمى! في هاتين الكلمتين نضع أحلامنا وآمالنا!

وحين اختتم كراسنوف كلمته نهض الرائد بوند على قدميه . وقد خيم صمت الموتى على القاعة عند سماع اللغة الانكليزية ، وراح المترجم يؤدي مهمته بكل حماس فقال :

ـ ان الرائد بوند ، أصالة عن نفسه ونيابة عن الرائد أوشين ، مخول أن يخبر أتمان الدون ، أنه وزملاءه الضباط قد انتدبوا رسمياً مبعوثين عن حلف «الانتينت » لكي يقفوا على ما يجري في الدون . ان الرئيس بوند يؤكد أن دول حلف «الأنتينت » ستقدم المساعدة إلى الدون والى جيش المتطوعين في قتالهم الباسل ضد البلاشفة ، بكل ما يتيسر لديها من سبل ، دون ان تستثني القوات أيضاً .

وقبل أن يستطيع المترجم النطق بالجملة الختامية ، اهتزت جدران قاعة الاحتفال بثلاثة هتافات داوية . ونودي بالأنخاب على أنغام الموسيقى ، فشرب الحضور نخب ازدهار «فرنساالجميلة» و «بريطانياالعظمى» والنصر على البلاشفة وعلا زبد الشمبانيا ووهجها في الكؤوس ، وفاح شراب «كاهورز» المعتق بنكهته الرقيقة الحلوة . وبات منتظراً أن يقول ممثلو بعثتي الحلفاء كلمتهم ، فلم يخيب الرائد بوند آمال مضيفيه :

ـ أقترح أن نشرب نخب روسيا العظيمة ، ويطيب لي أن أسمع في هذه القاعة نشيدكم الوطني السابق . ليس ما يهمنا فيه الكلمات ، انما أريد سماع اللحن وحسب...

ونقل المترجم هذا الالتماس .

فالتفت كراسنوف إلى ضيوفه ، وقد شحب وجهه انفعالاً ، وصاح بصوت متكسر :

ـ لتعش روسيا عظيمة موحدة لا تتجزأ ، هوراه!

وعزفت الفرقة الموسيقية اللحن المهيب : «حفظ الله القيصر» . وهنا نهض الجميع فأفرغوا كؤوسهم . وانهمرت الأدمع على خدي رئيس أساقفة أشيب الرأس . وهتف الرائد بوند وقد أصابه ثمل طفيف : «ما أجمل ذلك» وغلبت العاطفة أحد الضيوف البارزين فأجهش باكياً ، لسذاجة روحه ، فدس لحيته في منديل سفرة ملطخ ببقع كبيرة من الكافيار...

* * *

اعولت في المدينة ليلتذاك ريح صرصر آتية من بحر آزوف . وراحت قبة الكاتدرائية تومض بلون موات في حومة ندف الثلج التي طفقت تدوم في أول عاصفة ثلجية .

وفي تلك الليلة تم اعدام عمال سكة حديد شاختينسكك البلاشفة ، في مقلب النفايات تحت جرف طيني ، وذلك بأمر من المحكمة العسكرية . فاقتيدوا إلى شفا الجرف أزواجاً وقد شدت أيديهم وراء ظهورهم ثم أطلقت عليهم النار بالبنادق والمسدسات من مسافة قصيرة ، فضاع دوي الرصاص في خضم الريح الزمهرير كما يتلاشى الشرر من السيكارة...

ولبث حرس الشرف واقفاً عند مدخل القصر الأتماني لا يبدي حراكاً في ريح الشتاء القر ، فاسودت أيدي القوزاق وهي تمسك بنصب السيوف المسلولة وسالت دموعهم من شدة البرد ، ودب الخدر في أقدامهم... ومضى القصر يصخب حتى مطلع الفجر بصيحات العربدة ، وضجيج الجوقة النحاسي ، والجرس النائح تشدو به الأصوات الصادحة في الجوقة العسكرية...

* * *

وبعد اسبوع حدث أفظع ما في الحسبان : فقد اخذت الجبهة تنهار . وكان اول من فتح الجبهة على مصراعيها الكتيبة الثامنة والعشرون التي يخدم بيوتر ميليخوف فيها . فبعد ان اجرى القوزاق مفاوضات سرية مع قيادة العدو

المواجهة لهم ، قر رأيهم على الانسحاب وافساح المجال لمرور الجيش الاحمر خلال منطقة الدون الاعلى دونما عائق . وتولى قيادة هذه الكتيبة العاصية ياكوف فومين ، وهو قوزاقي ضيق الافق محدود الذكاء ، اما في واقع الحال فلم يكن فومين سوى دمية تحركها اصابع جماعة من القوزاق الميالين إلى البلشفية ، وشرعت الكتيبة بالتراجع غب اجتماع عاصف الح فيه الضباط دونما حماس على ضرورة مواصلة القتال ، فقد كانوا يتوجسون ان يطلق على ظهورهم الرصاص ، في حين راح القوزاق يصرخون بعنف ولجاجة وفوضى ، يرددون نفس الكلمات القديمة التي ضجر منها الجميع ، الكلمات المنادية بعدم ضرورة الحرب ، وبعقد الصلح مع البلاشفة . وفي نهاية اليوم الاول من المسيرة تخلى عن الكتيبة آمرها وجل ضباطها ، فالتحقوا بلواء الكونت موليير الذي كان يتراجع بعد ان عانى هزائم جسيمة .

حذت الكتيبة السادسة والثلاثون حذو الكتيبة الثامنة والعشرين ، فتخلت عن مواقعها ، ووصلت إلى كازانسكايا بكامل تعدادها ، بما في ذلك الضباط . وكان آمرها القميء ذو العينين الماكرتين قد أفلح في الاحتفاظ بمنصبه بالتذلل للقوزاق ، فتقدم ، يحف به الخيالة ، إلى الدار التي ينزل فيها قومندان المنطقة ، وترجل ، ثم دخل المنزل متغطرساً وهو يعبث بسوطه ، وصاح :

ـ من القومندان هنا ؟

فنهض ستيبان استاخوف وقال بكبرياء :

ـ انا مساعده ، اغلق الباب يا حضرة الضابط .

ـ انا آمر الكتيبة السادسة والثلاثين العقيد نعوموف... لي الشرف... ينبغي ان اجهز رجالي بثياب وجزمات جديدة . انهم حفاة يرتدون الاسمال . أتسمعني ؟

ـ القومندان غير موجود ، ولا يسعني بدون تخويل منه ان اسلم من المخازن زوجاً واحدا من الجزمات اللبادية .

ـ ماذا ؟

ـ هذا ما اقوله!

ـ انت ، مع من تتكلم ؟ سوف اعتقلك ، يا لعين! خذوه ، يا فتيان! اين مفتاح المخازن ، يا جرذ المؤخرة ؟ ـ قال الضابط ذلك ، وهوى على الطاولة بسوطه ، ثم اعاد قبعته المصنوعة من جلد الخراف إلى رأسه ، وقد شحب وجهه غضباً ، واضاف : ـ اعطني المفتاح ، دون مناقشة!

وما هي الا نصف ساعة حتى شرعت تتطاير من باب المخازن على الثلج جزم من الفراء والجزمات اللبادية والجلدية ، وراحت اكياس السكر تنتقل من يد إلى يد . فتساعت في الساحة جلبة من الاصوات المرحة .

وفي هذه الأثناء كانت الكتيبة الثامنة والعشرون تتراجع إلى منطقة فيشنسكايا بقيادة آمرها الجديد رئيس العرفاء فومين . وكانت وحدات من الفرقة الخامسة عشرة الحمراء تتقدم وراءهم على بعد ثلاثين فرسخاً تقريباً ، وقد شرعت دورياتها تستطلع قرية دوبروفكا .

وكان قائد الجبهة الشمالية اللواء ايفانوف ورئيس اركان حربه الجنرال زامبريجيتسكي قد اجليا قبل ذلك بأربعة ايام إلى كارغينسكايا على عجل . وقد انغرزت سيارتهما في الثلج فراحت زوجة رئيس الاركان تعض على شفتيها حتى ادمتهما وجعل اطفالها ينتحبون .

وبقيت فيشنسكايا في حالة من الفوضى بضعة أيام . ودارت شائعات تفيد ان قوات يجري تحشيدها في كارغينسكايا للهجوم على الكتيبة الثامنة والعشرين المتمردة . ولكن في الثاني والعشرين من كانون الاول وصل مرافق ايفانوف قادماً من كارغينسكايا ، وجعل ، وهو يضحك مع نفسه ، يلم الحاجيات التي تركها الآمر وراءه : قبعة جنرال صيفية ذات شارة جديدة ، وفرشاة شعر وملابس داخلية واشياء أخرى من سقط المتاع .

وراحت وحدات من الجيش الأحمر الثامن تتدفق خلال فجوة المائة فرسخ التي حدثت في الجبهة الشمالية . وقد تراجع الجنرال سافاتييف إلى

الدون دون ان يشتبك بقتال ، وانسحبت كتائب الجنرال فيتسخالاورف على عجل . وقد ساد الشمال سكون غريب طيلة اسبوع . فكفت الرشاشات عن لعلعتها ، وخلدت المدافع إلى الصمت . وراح قوزاق الدون الاسفل ، الذين كانوا يحاربون في الشمال ، يتراجعون دون ان يخوضوا اية معركة ، فقد ثبطت عزائمهم من خيانة قوزاق الدون الاعلى . اما الحمر فجعلوا يتقدمون ببطء وحذر ، فيستطلعون كل قرية بعناية .

ولكن حادثاً بهيجا طرأ على حكومة الدون فخفف من وقع الكارثة التي حلت في الجبهة الشمالية . ففي ٢٦ كانون الاول وصلت نوفوتشيركاسك بعثة الحلفاء التي كانت تضم الجنرال بول رئيس البعثة العسكرية البريطانية في القفقاس ، ورئيس اركان حربه العقيد الركن كيس ، والمبعوثين العسكريين الفرنسيين الجنرال فرانشي دي سبير والرئيس فوكيه .

واصطحب كراسنوف ضباط الحلفاء إلى جبهة القتال . ففي صبيحة يوم بارد من ايام كانون الاول ، اصطف حرس شرف على الرصيف في محطة تشير . وبدا الجنرال مامونتوف بشاربيه المتهدلين ووجهه الثمل المألوف ، انيق الهندام حليق الذقن في هذه المرة على غير عادته ، فيما كان يقطع الرصيف جيئة وذهاباً وقد أحاط ضباطه به . وكانوا في انتظار القطار .

وظل عازفو الجوقة العسكرية عند مدخل المحطة يراوحون على اقدامهم وينفخون في اصابعهم المتجمدة ، وقد اخذ وضع الاستعداد حرس شرف بهي من قوزاق المناطق السفلى للدون ، وكانوا من شتى الاعمار والهيئات ، فقد وقف الشيوخ بلحاهم البيض إلى جانب فتيان لم تنبت شواربهم بعد ، وجنود خط الجبهة وقد تدلت خصلات شعرهم . وكانت معاطف الشيوخ تزهو بالاوسمة الذهبية والفضية التي نالوها في لوفتشا وبليفنا ، وازدان القوزاق الذين هم اصغر سناً بالأوسمة التي فازوا بها خلال هجماتهم الجسورة في غيوك تيبيه وصانديب وفي معارك بيرمشيل ووارشو ولفوف اثناء الحرب الالمانية . اما الفتيان فلم يكن لديهم ما يزهون به ، غير انهم وقفوا بقامات

مشدودة كأوتار الكمنجة ، وسعوا لمحاكاة كبارهم في كل شيء .

هدر قطار إلى داخل المحطة تكتنفه سحابة من بخار ابيض كالحليب ، وقبل ان يتسنى فتح ابواب العربة الفخمة لوح قائد الجوقة الموسيقية بعصاه بهزة عنيفة فدوت الجوقة بالنشيد الوطني البريطاني . وهرع مامونتوف إلى العربة ، واحدى يديه تشد على سيفه . وسار كراسنوف رب البيت الكريم بضيوفه إلى بناية المحطة عبر صفوف القوزاق الذين وقفوا ثابتين كالحجارة .

وتحدث بلغة فرنسية فصحى ، فقال وهو يبستم ابتسامة رقيقة ويومئ متلطفاً إلى القوزاق الذين اصطفوا وقد جحظت عيونهم واحتبست انفاسهم :

ـ القوزاق هبوا عن بكرة ابيهم ليصدوا عن ارضهم عصابات الحرس الاحمر المتوحشة . فبوسعكم ها هنا ان تشهدوا ممثلي ثلاثة اجيال . لقد حارب هؤلاء الرجال في البلقان ، واليابان ، وفي النمسا والمجر أو في بروسيا ، وهم اليوم يحاربون من اجل حرية وطنهم .

كان مامونتوف قد بذل قصارى جهده لتفيذ الأوامر التي تلقاها من رؤسائه بشأن اختيار حرس الشرف . وقد ادى عرض سلعته تلك خير مفعول . فقال الجنرال بول لكراسنوف قبل رحيله :

ـ انني راض كل الرضى عن مظهر قواتك الرائع ، وضبطها ، ومعنوياتها الحربية ، وسأقوم باصدار التعليمات لكي ترسل اليكم الدفعة الاولى من رجالنا القادمين من سالونيكا . وألتمسك ، أيها الجنرال ، ان تهيئ ثلاثة آلاف معطف شتوي من الفرو وجزمة دافئة . واني آمل ان تستطيع ، بمساعدة من عندنا محق البلاشفة محقاً تاماً .

وصنعت المعاطف القصيرة من جلد الخراف على عجل وجزمات الشتاء من اللباد . ولكن القوات الحليفة لم تظهر في نوفوتشيركاسك لسبب ما . ثم رحل بول إلى لندن واستبدل ببريكز ذي الطابع البارد الفظ الذي جاء بتعليمات جديدة من لندن . فصرح بأسلوب الجنرلات المباشر الجاف ، قائلاً :

ـ ان حكومة جلالته ستقدم لجيش المتطوعين في الدون مساعدات مادية واسعة ولكنها لن تقدم جندياً واحداً .

ولم يكن ثمة لزوم للتعقيب على هذا التصريح...

١٢

في ايام التحلل تلك بلغ العداء بين القوزاق والضباط حداً لم يسبق له مثيل ، ذلك العداء الذي كان منذ الحرب الاستعمارية يفصل الضباط عن قوزاقهم مثل شق محراث غير منظور . لقد كانت حوادث اغتيال الضباط والغدر بهم نادرة الوقوع في اواخر عام ١٩١٧ ، يوم كانت كتائب القوزاق تتدفق ببطء في طريق عودتها إلى الدون ، ولكن ما ان مر عام حتى غدت امثال هذه الحوادث عادية تقريباً . فراح القوزاق يحملون ضباطهم على السير في الطليعة اثناء الزحف كما يفعل قادة الجيش الاحمر ، ومن ثم يطلقون النار عليهم من الخلف بهدوء . الا ان المعنويات كانت ما تزال عالية في عدد من الوحدات ، مثل كتيبة القديس غيورغي التابعة لغوندروفسكي ، بيد ان امثال هذه الوحدة كانت نادرة في جيش الدون .

وقبل ذلك الحين بوقت طويل كان بيوتر ميليخوف ، وهو بطيء الذهن دقيق التفكير معاً ، قد ادرك ان التشديد على القوزاق يعرضه للهلاك ، فعمل بعناية منذ اول ايام التمرد على ازالة الحواجز التي تفصله عن مراتب الجنود بحكم منصبه كضابط ، فكان في بعض المناسبات الملائمة يتحدث مثلهم عن عدم جدوى الحرب . وكان يجد مشقة في حديثه الذي لا يأتي عن ايمان ، ولكن احداً لم يفطن اليه . كما شرع يضفي على نفسه صبغة بلشفية ، وما ان وجد ياكوف فومين مقبلاً على تسلم قيادة الكتيبة حتى شرع يتودد اليه بمهارة . وحذا بيوتر حذو الآخرين فلم يتوان في النهب أو في شتم الضباط والابقاء على حياة الاسرى ، رغم ان قلبه كان مفعماً بمقتهم ، ويديه

ترتعشان من رغبته في ضربهم والاجهاز عليهم .اما في قضايا الخدمة العسكرية فقد كان ليناً كريماً ، فبدا اشبه بفص من الشمع منه بضابط! وعلى هذا النحو افلح في كسب ثقة القوزاق والتمويه على حقيقته دون ان يشعروا .

وحين سار آمر الكتيبة بضباطه ورحل ، آثر بيوتر البقاء ، فكان هادئاً مسالماً ، لا يبرز نفسه قط ، متحفظاً في كل تصرفاته . وهكذا وصل مع كتيبته إلى فيشنسكايا ، ولكنه بعد ان امضى يومين فيها لم يعد يطيق صبراً ففر إلى اهله دون ان يستأذن فومين أو رئاسة الاركان في ذلك .

ويومذاك كان ثمة اجتماع قد انعقد منذ الصباح الباكر في ساحة التدريب ، عند الكنيسة القديمة . كانوا ينتظرون مندوبي الفرقة الخامسة عشرة . فراح القوزاق يجوبون الساحة اسراباً ، وقد ارتدوا معاطف ، وستراً مبطنة بالفراء ، أو ستراً قصيرة قصت من المعاطف ، أو ستراً محشوة بالصوف . كان من المستحيل ان يصدق المرء ان هذا اللملم العجيب كان في يوم من الايام يشكل الكتيبة الثامنة والعشرين .

وجعل بيوتر ينتقل من جماعة إلى أخرى ويتأمل القوزاق وقد اعتراه القنوط . ولم يكن طراز ملبسهم قد اثار استغرابه في جبهة القتال ، ولعل مرد ذلك إلى انه لم ير آنذاك الكتيبة برمتها متجمهرة في حشد حاشد . فجعل يعض ذؤابتي شاربيه الطويلتين البيضاوين بحقد وهو يحدق في رؤوسهم التي كانت تعتمر تشكيلة غريبة من القبعات الاعتيادية ، والقبعات المصنوعة من جلد الخراف والقلنسوات ، ثم خفض عينيه فوقع نظره على تشكيلة ثرة من الجزم اللبادية البالية ، والجزم الجلدية ، ولفافات تعلو جزماً قصيرة غنمها اصحابها من الحرس الاحمر . فجعل يتمتم لنفسه وقد تملكه الغيظ واليأس :

ـ يا للصعاليك! يا للفلاحين الملاعين! يا للمتفسخين!

كانت اوامر فومين معلقة على الأسيجة ، ولم يكن بالوسع ان يشاهد المرء في فيشنسكايا احداً من سكانها . فقد توارى كل اهالي المدينة عن

الانظار ولبثوا يترقبون . وكان صدر الدون الابيض الذي اجتاحته الثلوج يلوح خلل فجوات الشوارع الفرعية ، وبدت الغابة من ورائه سوداء وكأنها خضبت بالحبر الصيني . ومن حول كومة الاحجار الرمادية لبناء الكنيسة تجمهرت النسوة القادمات من القرى لزيارة ازواجهن مثل قطيع من الشياه .

واحس بيوتر بنظرات جانبية شزر قد سمرت فيه وهو يرتدي سترة مبطنة بالفرو يعلو صدرها جيب واسع ، ويعتمر قبعة الضباط الاستراخانية اللعينة التي كانت محط اعتزازه الشديد في يوم ليس ببعيد . وضاعفت تلك النظرات مما كان قد انتابه من قلق وحيرة . فوقف بعض الوقت يصغي إلى جندي قصير الجرم من الجيش الاحمر يرتدي معطفاً فاخراً وقبعة جديدة من جلد الحمل قد اعتلى برميلاً فارغاً في وسط الساحة . فسوى الرجل وشاحاً من فراء الارنب الرمادي حول عنقه بيد يغطيها قفاز من الوبر ، ثم نظر فيما حوله .

وراح صوته الخفيض المبحوح ينفذ إلى أذني بيوتر : «ايها الرفاق القوزاق!...» .

وجال بيوتر بنظره فيما حوله . فالفى القوزاق ينظرون إلى بعضهم ويغمزون بأعينهم ترقباً ، اذ ان كلمة «رفاق» التي لم يألفوها قد اشاعت فيهم الارتباك . واسهب الجندي الاحمر في الحديث عن الحكم السوفييتي والجيش الاحمر ، والعلاقات مع القوزاق ، وعلقت في ذاكرة بيوتر تلك الصيحات التي كانت تقاطع حديث الجندي باستمرار :

- أيها الرفيق ، ماذا تعني بكلمة « كومنة » ؟

- هل سيقبلوننا ؟

- ما هو الحزب الشيوعي ؟

فشد الرجل يده على صدره وراح يشرح بأناة :

- ايها الرفاق! ان الحزب الشيوعي مسألة اختيارية . والناس ينضمون

إلى الحزب بمحض ارادتهم لأنهم يريدون النضال في سبيل الهدف العظيم لتحرير العمال والفلاحين من اضطهاد الرأسماليين ومالكي الاراضي .

وفي ذات اللحظة تقريباً نبت صيحة من شخص آخر :

ـ وضح لنا موضوع الشيوعيين والقوميسارية!

وما كاد الرجل يفرغ من شرحه حتى ارتفعت صيحة اخرى :

ـ اننا لا نفهم ما تقول . نحن اناس جهلة . تحدث بكلمات ابسط .

وحين فرغ الجندي الاحمر من كلمته ، القى ياكوف فومين كلمة طويلة مملة ، محاولاً ان يتباهى بكلمات لا يكاد يستطيع النطق بها . وكان صبي يرتدي قبعة الطلاب ومعطفاً انيق الصنع يتواثب إلى جانبه . واذ راح بيوتر يصغي إلى تخبط فومين عادت به الذاكرة إلى اول لقاء له مع فومين في الجيش ، يوم تقدمت داريا لزيارته في المحطة على طريق بتروغراد في شباط عام ١٩١٧ وتراءت له صورة ذلك الهارب من كتيبة الاتمان بعينيه القاسيتين ترسلان وميضاً ندياً ، وبمعطفه وقد علا كتفيه الرقم ٥٢ الذي حال لونه ، وبمشيته التي تحكي مشية الدب . وعادت كلماته إلى ذاكرة بيوتر : «لم اعد استطيع الاحتمال أكثر من ذلك ، يا أخي» . فقال بيوتر في دخيلة نفسه وعيناه تشعان مرارة : «هارب احمق مثل خريستونيا ، وها قد اصبح آمرا للكتيبة ، اما انا فلا ازال صفر اليدين» .

واحتل مكان فومين قوزاقي يتمنطق عبر صدره بأحزمة من عتاد الرشاشات ، فصاح بصوت ابح وهو ينشر ذراعيه :

ـ اسمعوا ، يا اخوان! انا نفسي في مفرزة بودتيلكوف ، ويلوح لي اننا سنحارب الكاديت معاً ، بعون الله!

فدار بيوتر على عقبيه ومضى إلى مأواه على عجل . واسرج حصانه وراح ينصت إلى القوزاق فيما كانوا يبارحون فيشنسكايا على ظهور خيلهم ويطلقون النار من بنادقهم ايذاناً بعودة الجند إلى قراهم جرياً على العرف الذي ما فتئ الجميع يحترمونه منذ القدم .

١٣

كانت الايام القصيرة ساكنة إلى حد الرعب تبدو طويلة مثل ايام موسم الحصاد . وقد انبسطت القرى كالسهب البكر الذي تطأه الاقدام . لكأن المناطق المحاذية للدون فقدت الحياة ، وكأن وباء قد حل بالمنطقة فأمست قراها يباباً . ولكأن سحابة هائلة راحت تحوم بجناحها الاسود الاصم في سماء اقليم الدون ، فتنتشر انتشاراً صامتاً مريعاً ، حتى يعن للريح أن تهب فتثني أشجار الحور إلى الارض فتنقض بلعلعة من الرعد الحاد العاتي لتمزق الغابة البيضاء القائمة عبر الدون ، وترسل الاحجار التي تجللها الطحالب متواثبة من على التلال الكلسية ، وتظل تزمجر بصخب العواصف الرعدية المدمر...

كان الضباب قد اكتنف تتاركسي والسهب منذ الصباح . وتجاوبت التلال بهدير ينذر بالزمهرير . ونبعت الشمس عند الظهيرة خلل الضباب الذي علق بها ، غير انها لم تزد الدنيا نوراً . وراح الضباب يضرب على غير هدى فوق أعالي التلال المحاذية للدون ، وينحدر في الوهاد والأخاديد ، حيث يتلاشى ، فيحط غباراً ندياً على السفوح الكلسية التي تغطيها الطحالب ، وعلى القمم الجرد التي يجللها الثلج .

وفي المساء بزغ ترس القمر المحمر من وراء رماح الغابة الجرداء . وطفق يبعث فوق القرى الصامتة وجهاً خافتاً بلون الدم من لهيب الحرب والنيران . وتحت نوره الازلي الذي لا يرحم تولدت في افئدة الرجال نذر خوف مبهم . وراحت البهائم تتململ بقلق ، والخيل والثيران تجوب الافنية لا يقر لها قرار حتى مطلع الفجر . وجعلت الكلاب ترسل عواء اسياناً ، والديكة تتنادى قبل انتصاف الليل بوقت طويل . وكان الصقيع يكسو غصون الاشجار الجرد عند الغسق بقشرة من الجمد ، تهزها الرياح فتجلجل مثل ركائب الخيل الفولاذية . لكأن جيشاً من فرسان لا تراهم العين ، مضوا

يزحفون على ضفة الدون اليسرى خلال الغابة المعتمة والضباب الداكن ، فيسمع الناس قعقعة اسلحتهم وجلجلة ركائبهم .

كان قوزاق تتارسكي ، الذين حاربوا في الجبهة الشمالية قد عادوا إلى القرية ، كلهم تقريباً ، تاركين كتائبهم على هواهم وهي تتقهقر صوب الدون ببطء . كان لا يمر يوم دون أن يعود إلى القرية فارس طال اليه الانتظار . كان البعض يعودون ليجردوا مطايا الحرب من سروجها ويلبثوا اياماً عديدة في انتظار مجيء الحمر ، فيدسون عدتهم العسكرية في كوم من القش أو تحت افريز سقيفة . وثمة آخرون قادوا خيلهم إلى افنية بيوتهم ، وباتوا ليلتهم مع زوجاتهم ، وفي صباح اليوم التالي تزودوا بالمؤن ومضوا ثانية على دروب السهب ، بعد ان القوا من قمة التلال نظرة اخيرة على مجرة الدون البيضاء الهامدة ، وعلى قرية اهليهم ، وقد خلفوها وراءهم ربما للأبد .

ترى من بوسعه ان يتنبأ في أي مكان سيلقى مصرعه ؟ من بوسعه ان يعرف نهاية مطاف الانسان ؟لكم شق على الخيل ان تجهد مبتعدة عن القرية! لكم شق على القوزاق ان يزيحوا عن قلوبهم الواهنة شعور الفجيعة في اعزائهم!

وفيما مضى القوزاق في تلك الطريق عادت الذاكرة بالكثير منهم إلى الاهل ، فراحوا يقلبون العديد من الخواطر في اذهانهم ، وقد تنساب دموعهم مالحة كالدماء إلى السرج وتتصبب حدر الركاب إلى الدرب الذي تآكلته سنابك الخيل ، فلا يقيض حتى لوردة الفراق الصفراء المحمرة ان تنبت هناك في الربيع!

* * *

وفي بيت ميليخوف انعقد مجلس عائلي في الليلة التي اعقبت مجيء بيوتر من فيشنسكايا . فقد سأل بانتلاي بروكوفتش ابنه بيوتر حالما اجتاز عتبة الباب :

ـ حسناً ، ما هذا ؟ هل سئمت الحرب ؟ عدت وانت لا تحمل شارة

الضباط على كتفك ؟ حسناً ، اذهب ، سلم على اخيك ، وابعث الفرحة في قلب امك . زوجتك توشك على الهلاك من الشوق اليك . عظيم ، يا بيوترا! غريغوري! لماذا انت راقد فوق الموقد كفأر الجبل ؟ انزل .

فدلّى غريغوري ساقيه العاريتين ، وجعل يحك صدره ذا الشعر الاسود ، وهو يبتسم ويراقب اخاه فيما كان يحل نطاق سيفه بأصابع خدرة ، وتعمل يده المتجمدة في عقد شرائط قلنسوته . وكانت داريا تبتسم في عيني زوجها دونما كلام وهي تفك ازرار سترته المصنوعة من جلد الخراف متحاشية جنبه الايمن باحتراس حيث كانت قنبلة يدوية مثبتة في الحزام على مقربة من قراب المسدس .

وقد مسحت دونيا شاربي اخيها بقبلة وهرعت إلى الخارج لتعنى بحصانه . اما ايلينشنا فقد مسحت شفتيها بصدريتها وتهيأت لتقبيل ابنها «البكر» ، في حين انهمكت ناتاليا في اعداد الموقد وطفلاها يتشبثان بأذيالها . وبقي الجميع ينتظرون كلام بيوتر ، إلا انه اكتفى بأن القى بـ« كيف الصحة ؟ » من العتبة بصوت مبحوح ، وراح يخلع ملابس الطريق بصمت ، وقد امضى وقتا طويلا في مسح جزمته بمكنسة من قش الدخن . ثم اعتدل وارتجفت شفتاه بغتة ، ومال على حافة السرير شارد الفكر ، ورأى الجميع الدموع تشرق على خده الاسمر الذي لفحه الزمهرير .

فتساءل ابوه مازحاً وهو يحاول إخفاء قلقه ودموعه هو الآخر :

ـ ما هذا ، ايها الجندي ، ماذا جرى ؟

فالتوى فم بيوتر ، وارتعش حاجباه الحائلان ، ثم اخفى عينيه وهو يتمخط في منديله القذر الملطخ بالتبغ ويقول :

ـ لقد انتهى أمرنا ، يا ابتي!

وركل غريغوري القطة التي كانت تتمسح به ، وقفز هابطاً من على الموقد وهو ينحنح . وانفجرت الأم ناشجة ، وراحت تلثم رأس بيوتر الذي يعج بالقمل ، ولكنها سرعان ما ابتعدت عنه قائلة :

يا حبيبي! يا ولدي المسكين ، هل ترغب بشيء من اللبن الرائب ؟ اذهب واجلس ، لقد برد حساؤك ، لا بد انك جائع...

وحين جلس بيوتر إلى المائدة ، واضعاً ابن اخيه على ركبتيه ، بدا عليه الانشراح . واذ استعاد رباطة جأشه ، راح يحكي لهم قصة انسحاب الكتيبة الثامنة والعشرين من الجبهة ، وهرب الضباط ، وفومين والاجتماع الأخير الذي شهده في فيشنسكايا .

فقال غريغوري ويده ذات العروق الداكنة على رأس ابنته :

ـ حسناً ، ما رأيك في كل هذا ؟

ـ لست ارى شيئاً . سأمضي نهار الغد هنا ، ثم ابارح عند حلول الليل .

ـ ثم التفت إلى أمه قائلاً : ـ اعدي لي شيئاً من الطعام ، يا اماه .

فقال بانتلاي بروكوفتش وهو يدس اصابعه في كيس تبغه :

ـ اذا ، فستتراجع ؟ ـ ثم لبث ينتظر جواب بيوتر وقبضة التبغ بين اصابعه .

فنهض بيوتر ورسم على صدره اشارة الصليب امام الايقونات العتيقة الداكنة ، ثم حدق في والده بمرارة وقسوة وقال :

ـ نجني ايها المسيح ، لقد نلت ما فيه الكفاية . قلت أتراجع! ماذا عساي أفعل غير هذا ؟ لماذا أبقى ؟ أمن اجل ان يقطع الحمر رأسي ؟ ربما فكرت انت في البقاء ، اما انا فلا! انهم لن يرحموا الضباط .

ـ وماذا عن البيت ؟ يعني تتخلى عنه ؟

فلم يقل بيوتر شيئاً بل اكتفى بهز كتفيه ، ولكن سرعان ما انطلق لسان داريا :

ـ انت ترحل ، وعلينا نحن ان نبقى ؟ لطيف حقاً! أنبقى هنا لحراسة أموالك ؟ وقد تفقد حياتنا بسببها! لتحل عليها اللعنة! لن ابقى أنا!

وحتى ناتاليا تدخلت في النقاش ، فرفعت صوتها فوق صوت داريا الداوي الرنان ، وهتفت قائلة :

ـ اذا رحلت القرية برمتها ، فلن نبقى نحن . سنذهب على اقدامنا!

فأرعد بانتلاي بروكوفتش حانقاً وهو يجيل عينيه باحثاً عن عصاه دون ارادته :

ـ يا للحمقاوتين! يا للقحبتين البلهاوين! اخرسا ايتها اللعينتان! هذه شؤون الرجال ، وانتما تدسان أنفيكما فيها . حسناً ، لنفرض اننا تركنا كل شيء لنذهب إلى حيت تحملنا اقدامنا ، فما سنفعل بالماشية ؟ انضعها في جيوبنا ، والبيت ايضاً ؟

فأيدت ايلينشنا زوجها بحمية وقالت :

ـ لقد مسكما الجنون ، يا ابنتي! لم تتحملا جهد انشاء الحقل ، فلا اسهل عليكما من تركه . اما انا والرجل الشيخ فقد كدحنا فيه ليل نهار ، فلن نبارحه! ـ ثم زمت شفتيها وتنهدت : ـ اذهبوا انتم ، اما انا فلن اتحرك من هنا . خير للمرء ان يقتل على عتبة بيته من ان يموت تحت جدار الغرباء .

وسوى بانتلاي بروكوفيتش فتيلة المصباح ، وهو يجر أنفاساً ثقيلة وينفث الحسرات . وخيم على الجميع الصمت لحظة . ثم رفعت دونيا التي كانت منهمكة في الحياكة رأسها وهمست :

ـ بوسعنا ان نسوق الماشية معنا... ولا داعي لبقائنا بسبب الماشية .

وثار الشيخ من جديد ، وجعل يضرب الارض بقدميه كجواد طال بقاؤه في الاسطبل ، وكاد ان يقع حين عثر بجدي نائم عند الموقد . تم توقف امام دونيا وارعد :

ـ نسوقها!... والبقرة العجوز على وشك ان تلد ؟ ماذا نفعل بها ؟ إلى أية مسافة نستطيع ان نسوقها ؟ ليتك تغصين بآثامك! ايتها السفيهة التافهة! الفطرة السامة! بيضة القملة! بعد كل ما بذلنا من جهد لنبني لهم بيوتاً صرنا نصغي لمثل هذه الاقوال! ماذا نفعل بالغنم ؟ ماذا ستفعلين بالحملان ؟ يا ابنة العاهرة! خير لك ان تمسكي لسانك!

ونظر غريغوري إلى بيوتر بزاوية عينه ، وكعهده وجد في عيني اخيه ابتسامة ماكرة متهكمة تنم في الوقت ذاته عن الاحترام ، ولاحظ الارتعاش المألوف على شاربه القمحي . ورفت عينا بيوتر بسرعة . واختض جسده بقهقهة حبيسة . واحس غريغوري هو الآخر برغبته في الضحك الذي كاد ان ينساه في السنوات الاخيرة فأرسلها ضحكة جهورية داوية دونما تصنع .

فقال الشيخ :

ـ عال ، عال! الحمد لله!... هكذا ، اذن كنا نتحادث اليوم... ـ ثم حدجه بنظرة غاضبة واشاح بنظره صوب النافذة التي غشاها الجمد .

ولم يتوصلوا إلى اتفاق الا في منتصف الليل ، فارتأوا ان يبارح القوزاق الثلاثة تتارسكي ، في حين تبقى النسوة للمحافظة على البيت والحقل .

اوقدت ايلينشنا الموقد قبل بزوغ الشمس بوقت طويل ، وما ان حل الصبح حتى كانت قد خبزت الخبز وجففت كيسين منه . وتناول الشيخ افطاره على ضوء المصباح ، وخرج عند الفجر ليعنى بالماشية ويعد الزحافة للرحيل . وقد اطال الوقوف في مخزن الحبوب فغرز يده في خابية القمح وترك حبات القمح تتقاطر من بين اصابعه . وخرج كمن يبارح جثة هامدة ، رافعاً قبعته وهو يغلق الباب الاصفر بهدوء...

كان مايزال متلكئاً حول الزحافة تحت السقيفة حين ظهر انيكوشكا في الشارع وهو يسوق بقرته ليوردها . فتبادل الرجلان التحية . وسأل بانتلاي بروكوفتش :

ـ هل تتهيأ للرحيل ، يا انيكوشكا ؟

ـ أنا اتهيأ ؟ العريان لا يحتاج إلى حزام! لست املك إلا احشائي ، وبوسعي ان أتدبر أمري من فتات الآخرين .

ـ هل من اخبار ؟

ـ كثير منها ، يا بروكوفتش!

فتملك بانتلاي بروكوفتش القلق فدّس فأسه في جنب الزحافة .

ـ ماذا ؟

ـ سيكون الحمر هنا عما قريب . انهم يقتربون من فيشنسكايا . رآهم رجل من بولشوي كروموك وقال انهم يقتلون الناس اثناء تقدمهم . ثمة يهود وصينيون معهم . ليتنا قضينا عليهم جميعاً ، لعنة الله على الشياطين الحول!

ـ يقتلون الناس ؟

ـ ماذا كنت تنتظر غير هذا ؟ ـ ثم صب انيكوشكا اللعنات ، ومضى يتحدث وهو سائر : ـ النسوة في القرى يصنعن الفودكا ويقدمنها اليهم دفعاً لأذاهم ، فيأخذهم السكر ويمضون قدماً لاحتلال القرية التالية فيعيثون فيها فساداً .

وراح الشيخ يجيل عينيه في ارجاء السقيفة ، ممعناً النظر في الاعمدة والعيدان التي اقامتها يداه . ثم أخذ شوالاً فذهب إلى ساحة درس الحبوب ليتزود بشيء من القش لرحلته . وانزل كلاباً حديدياً ، واذ غاب عنه ان الرحيل أمر لا مفر منه ، شرع في انتقاء اردأ القش (كان دوما يدخر القش الجيد لكي يستعمله اثناء الحراثة في الربيع) . ولكنه عدل عن رأيه ، فتحول إلى كدس آخر من القش ، وهو حانق على نفسه . فلم يخطر بباله انه في غضون دقائق سيبارح الفناء والقرية ، ويمضي إلى مكان ما في الجنوب ، وربما لا يعود أبداً . وانزل بعض القش ، ثم استدار ليعيد ما انتثر منه إلى الكدس بحكم العادة كذلك . ولكنه جر يده وكأن المذراة حامية .

ثم مسح حاجبه العرقان وقال بصوت مسموع :

ـ علام أعنى الآن به ؟ ما جدوى ذلك ، سيلقون به تحت اقدام خيلهم ، وسيتلفونه أو يحرقونه .

ثم كسر المذراة على ركبته ، وصر بأسنانه وحمل شوال القش ، ثم سار متثاقلاً نحو المنزل ، وهو بادي الانحناء والشيخوخة .

ولم يدخل المنزل ، بل صاح خلال الباب المفتوح :

ـ تهيأوا! فسأشد الخيل في الحال ، يحسن بنا الا نتأخر في الرحيل .

وضع العدة على الخيل ، ورمى بكيس من الشوفان في مؤخرة الزحافة ، واستبدت به الدهشة لأن ولديه لم يخرجا بعد لشدّ السرج على حصانيهما فدلف إلى الكوخ .

وطالع عينيه في المطبخ مشهد غريب : كان بيوتر يحل غاضباً الصرر التي اعدت لرحلتهم فيرمي البنطالات ، والقمصلات ، وثياب الاعياد الخاصة بالنساء على الارض .

فسأل الشيخ وهو يخلع قبعته من فرط الذهول :

ـ ما كل هذا ؟

فأشار بيوتر بابهامه عبر كتفه إلى النساء وقال :

ـ هن! انهن يعولن! لذا فلن نذهب إلى اي مكان! ينبغي ان نرحل جميعاً والا فلا! كيف نستطيع الرحيل لانقاذ اموالنا والحمر قد يغتصبونهن في غيابنا ؟ فلئن قتلونا ها هنا ، حسبنا ان نموت تحت انظارهن!

وقال غريغوري باسماً ، وهو يخلع معطفه وسيفه :

ـ اخلع ثيابك ، يا ابتي .

فأمسكت ناتاليا الباكية يده وقبلت ظهرها ، وراحت دونيا تصفق ابتهاجا ، وقد احمر وجهها فبات مثل شقائق النعمان .

ارتدى الشيخ قبعته ، ولكنه خلعها ثانياً في الحال ، وخطا عبر الغرفة إلى الايقونات فرسم على نفسه اشارة الصليب بحركة سريعة . ثم انحنى ثلاثاً ، ونهض من ركوعه وأجال حوله النظر :

ـ حسناً ، لئن كان الأمر كذلك فنحن باقون! يا ملكة السماء ، استري علينا واحمينا! سأذهب واخلع عن الخيل عدتها .

وجاءهم انيكوشكا صدفة فدهش اذ رأى آل ميليخوف كلهم بوجوه ضاحكة مستبشرة . فسألهم : ـ ما الخبر ؟

فأجابت داريا عن الجميع :

ـ لن يرحل رجالنا .

ـ غريب! هل غيرتم فكركم ؟...

فكشر غريغوري عن اسنانه القوية المائلة إلى الزرقة بابتسامة مقتضبة ، وغمز بعينه وقال :

ـ أجل ، غيرنا رأينا! لا داعي للسعي وراء الموت ، فانه سيجدنا في انتظاره هنا .

فهتف انيكوشكا :

ـ حسناً ، لئن قرر الضباط عدم الرحيل ، فلا ريب أنّا باقون كذلك .

وخرج من الكوخ يخبط الأرض كأن في قدميه نعلي فرس .

١٤

ظلت بيانات فومين ترفرف على اسيجة الدور في فيشنسكايا ، فقد بات وصول الجيش الاحمر متوقعاً بين ساعة وأخرى . وفي اثناء ذلك ، عمدت هيئة اركان الجبهة الشمالية إلى اتخاذ مقر عام لها في كارغينسكايا على بعد خمسة وثلاثين فرسخاً . وفي مساء الرابع من كانون الثاني وصلت إلى مدينة كارغينسكايا مفرزة التشيتشينيين التأديبية التي يقودها العقيد رومان لازاريف وما لبثت ان غادرتها على جناح السرعة لمعالجة امر كتيبة فومين المتمردة .

وكان المفروض ان تهاجم تلك المفرزة فيشنسكايا في الخامس من كانون الثاني . فقد اتمت الدوريات استطلاع القرى المحيطة بالمدينة . على ان الهجوم لم يتم حين اخبر جندي فار من كتيبة فومين بأن قوات غير قليلة من الجيش الاحمر قد توقفت لتبات ليلتها في غوروخوفكا ، وان وصولها إلى فيشنسكايا بات منتظراً في اليوم التالي . حاول كراسنوف ، الذي كان منشغلاً مع ممثلي الحلفاء في نوفوتشيركاسك ان يستميل فومين . وقد استدعى فومين إلى دائرة التلغراف في فيشنسكايا بعد ان ظل جهاز التلغراف يئز لوقت طويل ، فتسلم رسالة مقتضبة :

فيشنسكايا فومين نقطة العريف فومين فاصلة آمرك بالرجوع إلى صوابك وضع رجال كتيبتك في مراكزهم حالاً نقطة ارسلت مفرزة تأديبية نقطة عصيان الاوامر عقوبته الموت نقطة كراسنوف .

وقف فومين مفتوح السترة يراقب على ضوء مصباح البرافين شريط الورق المخرم ينسل كالثعبان من تحت اصابع عامل التلغراف ، ثم نفث على رقبة الرجل انفاساً من حرقة الفودكا والهواء البارد وقال :

ـ ماذا يهرف ؟ ارجع إلى صوابي ؟ هل انتهى من ثرثرته ؟ حسناً ، اكتب له الآن... ماذا ؟ ممنوع ذلك ؟ اطع أوامري ، والا انتزعت احشاءك!

ومرة ثانية شرع مفتاح التلغراف يعمل :

نوفوتشيركاسك الاتمان كراسنوف نقطة اذهب إلى جهنم وبئس المصير نقطة فومين .

بات الوضع في الجبهة الشمالية من التعقيد ما حدا بكراسنوف ان يقرر الذهاب إلى كارغينسكايا بنفسه ليسدد من هناك «ضربة انتقام» إلى فومين ، والأهم من ذلك ليستنهض همم القوزاق الذين ثبطت عزائمهم ، وكان هذا الهدف نصب عينيه حين دعا الحلفاء للقيام بجولة تفتيشية في الجبهة .

وفي بوتورلينوفكا استعرضوا كتيبة القديس غيورغي من غوندروفسكي التي قد سحبت لتوها من المعركة . وبعد ان تفقد كراسنوف رعائل الكتيبة اتخذ مكانه عند رايتها ، واتى بالتفاتة رشيقة إلى اليمين وصاح بصوت رنان :

ـ كل من خدم تحت امرتي في الكتيبة العاشرة... خطوة إلى الامام تقدم!

فتقدم زهاء نصف رجال الكتيبة تقريباً إلى الامام . فخلع كراسنوف قبعته وعانق رئيس العرفاء ، الذي كان ما يزال رشيقاً رغم كهولته والذي كان اقرب الجميع اليه ، ثم قبله ثلاث مرات . فمسح رئيس العرفاء شاربيه القصيرين بكم معطفه ووقف يحملق بعينين جاحظتين . قبل كراسنوف كافة رجال كتيبته السابقة . فجعل ضباط الحلفاء يهسمون إلى بعضهم دهشين على أن

دهشتهم تلاشت وحلت محلها الابتسامات والرضا المتحفظ حين تقدم كراسنوف نحوهم وشرح لهم الأمر :

ـ هؤلاء هم الأبطال الذين بهم سحقت الالمان في نيزفيزكايا والنمساويين في بلزيتس وكوماروف لأجل انتصارنا المشترك على العدو .

.. وعلى جانبي الشمس كان عمودان تلغرافيان محزمان بجمد أبيض ويلفعهما سكون الموتى ماثلين اشبه بجنديين يقفان على حراسة خزينة الكتيبة . وجعلت ريح شمالية غربية باردة تعزف خلل الغابات كالبوق . وتجتاح السهب وتثني الادغال الشائكة وتسحقها سحقاً . وفي مساء السادس من كانون الثاني ، حين كانت ظلال الغسق تلفع نهر التشير وصل كراسنوف كارغينسكايا يرافقه ضابطا جلالته البريطانية ادوردز والكوت ، والضابطان الفرنسيان الرئيس بارتيلو والملازم ارليخ ، فهبط ضباط الحلفاء من السيارة تحف بهم رائحة دخان السيكار وعطور الكولونيا ، وقد تدثروا بمعاطف من الفرو وقبعات وثيرة من جلد الأرانب . وكانوا يتضاحكون وهم يرتجفون ويدقون الارض بأقدامهم . وبعد ان تدفأوا واحتسوا الشاي في بيت التاجر الثري ليفوجكين ، توجهوا بصحبة كراسنوف وقائد الجبهة الشمالية أمير اللواء ايفانوف إلى المدرسة المحلية حيث اعدت العدة لعقد اجتماع .

والقى كراسنوف كلمة مسهبة في حشد من القوزاق المتلفهين . فاصغوا اليه بانتباه وطيب خاطر . ولكنه حين شرع في مجرى كلمته يصور لهم « فظائع البلاشفة » التي اقترفوها في المناطق المحتلة ، نب من وراء حجاب الدخان الازرق صوت يقول : « هذا غير صحيح »! مما افسد الاثر الذي تركته الكلمة .

وفي صبيحة اليوم التالي رحل كراسنوف والحلفاء صوب ميليروفو على عجل .

وبعجالة مماثلة تم الجلاء عن مقر قيادة الجبهة الشمالية . وراح التشيتشينيون يطوفون الناحية حتى المساء بحثاً عن القوزاق الذين حاولوا

التخلف عن الجيش . وفي ذلك المساء اضرمت النيران في مستودع العتاد ، وظلت خراطيش البنادق تلعلع ، حتى منتصف الليل ، مثل كوم هائل من دغل تلتهمه النيران ، اما القذائف فقد راحت تدوي دوي الجليد المنهار . وفي اليوم التالي ، وفيما كانت الصلاة تقام قبل التراجع ، ارتفع صوت مدفع رشاش من على تل كارغينسكايا فجعلت الطلقات تضرب سقف الكنيسة مثل برد الربيع ، فهرعت القطعات إلى السهب كغوغاء شاع فيه الاضطراب . وحاول لازاريف ومفرزته ان يحمي الجنود المنسحبين تساعده في ذلك بضع من وحدات القوزاق . فاتخذ بعض المشاة مواقع لهم وراء الطاحونة الهوائية ، وقامت بطارية كارغينسكايا السادسة والثلاثون ، التي يقودها الرئيس فيودور بوبوف ، وهو من اهالي كارغينسكايا ، بصب حمم من قذائفها على الصفوف الهاجمة من قطعات الحمر .

ولكن البطارية ما لبثت ان شدت رحالها ، فقد ضرب الخيالة الحمر الطوق حول المشاة المدافعين بعد ان طلعوا عليهم من قرية مجاورة عن طريق الوديان ، وفتكوا بزهاء العشرين شيخاً من اهالي كارغينسكايا الذين اطلق البعض عليهم اسم «القوميين الأوكرانيين» .

١٥

تجدد ايمان بانتلاي بروكوفتش بما للاشياء من قوة وأهمية ، بعد ان عقدوا العزم على البقاء في تتارسكي مهما كلفهم ذلك . ففي المساء خرج ليعنى بالماشية ولم يتردد في انتقاء القش من اردأ الكدوس . ولبث في الفناء الذي بدأ يخيم عليه الظلام يتفحص البقرة من جميع جوانبها بكل عناية ، وقال في سريرته بشعور من الرضى : «انها تزداد سمنة . فهل انعم الله عليها بتوأمين يا ترى ؟» لقد عاوده الشعور بأن كل شيء يخصه ، وعاد لكل شيء ما كان يرى فيه من قيمة واهمية . وقبل ان يحل المغرب وجد

متسعاً من الوقت ليزجر دونيا لأنها بعثرت شيئاً من العصافة ولأنها لم تكسر الجليد الذي علا جابية الماء ، وكذلك ليصلح ثغرة احدثها خنزير ستيبان استاخوف في السياج . وفيما كان يفعل ذلك خرجت اكسينيا لتسد نوافذ كوخها الخارجية . فسألها ما اذا كان ستيبان ينوي الرحيل . فلفت اكسينيا رأسها بعصابتها واجابت بصوت ملول :

ـ كلا ، كلا ، اين تراه يذهب ؟ انه راقد فوق الموقد وقد المت به حمى . ان رأسه يضطرم كالنار . انه مريض فليس بوسعه ان يرحل .

ـ ونحن لسنا راحلين كذلك . ان الشيطان وحده يعلم ما اذا كانت الأمور ستتحسن أو تسوء...

هبط الليل ، وراح نجم الشمال يتوهج في اعماق السماء المخضوضرة ، عبر الدون ، ووراء خليج الغابة الرمادية . وفي الشرق تلفعت السماء بالأرجوان وكان الغروب يضطرم في الغرب . وتهادى سنام القمر بين قرون اشجار الحور المنتشرة . واختلطت على أكوام الثلج المعتمة ظلال مبهجة . كان السكون من العمق بحيث استطاع بانتلاي بروكوفتش سماع شخص يكسر الجليد في حفرة على الدون ، ولعله كان انيكوشكا . وكانت فتات الجليد ترن وتدندن بينما في الحوش كانت الثيران تمضغ الحشيش اليابس بتؤدة وشهية .

وأنير المصباح في الدار ، ومرقت ناتاليا ما بين النافذة والمصباح . وقد جذب الدفء بانتلاي بروكوفتش ، فألفى العائلة مجتمعة في الداخل . كانت دونيا قد عادت لتوها من زيارة لزوجة خريستونيا . فأفرغت كوباً من المشروب البيتي ناقلة لهم آخر الاخبار على عجل ، خشية ان يقاطعها احد .

وفي غرفة الاستقبال دهن غريغوري بندقيته ، ومسدسه وسيفه ، ثم لف منظاره العسكري بقطعة من الجنفاص ، ونادى بيوتر قائلاً :

ـ أهيأت بندقيتك ؟ يحسن بنا ان نخبئها .

ـ ولكن ماذا لو اردنا الدفاع عن انفسنا ؟

فضحك غريغوري قائلاً :

ـ دعك من هذا! لئن عثروا عليها فسيشنقوننا .

ثم خرجا إلى الحوش . ولسبب ما اخفيا اسلحتهما كل على انفراد . ولكن غريغوري كان قد دس مسدسه الاسود الجديد تحت وسادته .

وما كادوا يفرغون من عشائهم ، وفيما كانوا يتهيأون للمنام ، شرع الكلب المربوط في الفناء يرسل نباحاً مبحوحاً وهو يشد قيده خانقاً نفسه بالطوق . وخرج العجوز ليستجلي الامر وعاد برجل قد امال قلنسوته إلى عينيه . وحين دخل الرجل الذي كان يرتدي بزة عسكرية كاملة رسم اشارة الصليب على نفسه وتصاعدت من شاربيه المتجمدتين سحابة من البخار وسأل :

ـ ألا تعرفونني ؟

فهتفت داريا :

ـ انه قريبنا ماكار!

وحينذاك فقط عرف بيوتر والآخرون قريبهم البعيد ماكار نوغايتسيف ، وهو قوزاقي من قرية سينغين ، ذاع صيته في انحاء المنطقة لصوته الجميل وافراطه في الشراب . فابتسم بيوتر ، دون ان يتحرك من مجلسه ، وقال :

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا ؟

وانتزع نوغايتيسف من شاربيه بلورة من الجليد ، وألقى بها قرب الباب ، وضرب الأرض بقدميه في جزمته اللبادية الكبيرة . ثم شرع يخلع ثياب السفر على مهل .

ـ ليس الرحيل بمفردي امراً ساراً ، ففكرت بالمجيء اليكم لنذهب معاً . فقد بلغني ان كلا الأخوين في البيت ، فقلت لزوجتي انني ذاهب لاصطحب آل ميليخوف ، وحينذاك تغدو جماعتنا اكثر مرحاً .

ثم انزل بندقيته عن كتفه ووضعها عند الموقد بجانب الملاقط ، فأثار بذلك ضحك النساء . ثم دس صرته تحت الفرن ، ولكنه وضع سيفه وسوطه

على السرير بعناية . وكان زفيره يفوح كعهده برائحة الفودكا المنزلية . وبدا الثمل واضحاً في عينيه ولاح من ثنيات لحيته الندية صف جميل من اسنان بيضاء مائلة للزرقة تشبه الصدف النهري .

فسأله غريغوري وهو يقدم اليه كيس تبغه المزرقش :

ـ هل سيرحل جميع القوزاق عن سينيغين ؟

فدفع الضيف عنه يد غريغوري قائلاً :

ـ اشكرك ، لا ادخن... القوزاق ؟ رحل بعضهم ، ويبحث الآخرون عن مكان يختفون فيه . هل أنتم راحلون ؟

فقالت ايلينشنا بفزع :

ـ لن يرحل قوزاقنا . اياك ان تزين لهم ذلك .

ـ لا أحسبكم باقين هنا ؟ لا استطيع ان اصدق ذلك ، أصحيح هذا ، يا قريبي غريغوري ؟ انكم تسعون إلى المتاعب ، يا أولاد .

فقال بيوتر :

ـ لا حول ولا... ـ وتنهد واحمر وجهه على حين غرة ، واردف : ـ غريغوري ، ما رأيك ؟ الم تغير رأيك ؟ هل نرحل ؟

ـ أبداً .

واكتنف غريغوري اكليل من الدخان فتعلق على خصلات شعره الكثة . فسأل بيوتر ماكار مغيراً وجهة الحديث :

ـ هل خرج والدي ليعنى بحصانك ؟

وران عليهم صمت طويل لم يقطعه سوى طنين دولاب مغزل دونيا يثير النعاس . وظل توغايتسيف ساهراً حتى الفجر يحاول اقناع الآخرين للذهاب معه عبر الدونيتس . واثناء الليل انسل بيوتر إلى الخارج مرتين ليسرج حصانه ، ولكنه عاد في كلتا المرتين ليجرد الحصان من سرجه راضخاً لعيني داريا المنذرتين بالوعيد .

طلع الصبح ، فتهيأ الضيف للرحيل . وحين ارتدى كل ملابسه وقف

ويده على سقاطة الباب ، واتى نحنحة ذات مغزى ، وقال بصوت ينم عن الوعيد .

ـ قد يكون طريقكم افضل ، ولكنكم قد تأسفون فيما بعد . فاذا ما قيض لنا ان نعود ، فسنتذكر اولئك الذين فتحوا للحمر ابواب الدون ومكثوا ليقوموا على خدمتهم...

كان الثلج يتساقط بكثرة منذ الصباح . وحين خرج غريغوري إلى الفناء شاهد حشداً اسود من الرجال يتحرك نحو المعبر في الجانب الآخر من الدون . كانت الخيل تجر شيئاً ما ، وقد شدت كل ثمانية منها معاً ، وكان بوسعه ان يسمع الكلام ، والصهيل ، والشتائم . وبدت اشكال الرجال والخيل داكنة خلل دوامة الثلج وكأنها وسط لجة من الضباب . ومن طريقة شد الخيل خمن غريغوري انها بطارية مدفعية : «اتراهم حمراً ؟» واشتد وجيب قلبه ازاء هذا الاحتمال ، ولكنه اطمأن بعد ان فكر بالأمر ثانية .

واقترب الحشد المبعثر من القرية . وقام بالتفاف واسع المدى تحاشياً لحفرة سوداء فاغرة في الجليد . ولكنهم حين اقتربوا من حافة النهر انكسر الثلج تحت عجلة المدفع الاول . وحملت الريح إلى اذني غريغوري صيحات السواق وخشخشة الثلج المتهشم ، وضربات حوافر الخيل السريعة المنزلقة . ودخل إلى حظيرة الماشية القائمة وراء البيت وجعل يسترق النظر بحذر . واستطاع ان يعرف من كتافياتهم التي غطاها الثلج قليلاً انهم قوزاق . وبعد بضع دقائق اجتاز بوابة ميليخوف مدفعي كهل على صهوة حصان طويل القامة عريض الظهر . فترجل عند درجات العتبة وربط العنان إلى عمود السياج ودخل الدار . وقال بعد ان حيا من في الدار :

ـ من هو رب البيت هنا ؟

فأجاب بانتلاي بروكوفتش : «انا...» ـ وانتظر بقلق ان يوجه إليه مثل هذا السؤال : «لماذا بقي رجالك في الدار ؟» بيد ان المدفعي نفض الثلج عن عذاريه الطويلين المجعدين وتوسل قائلاً :

ـ بحب المسيح ، ساعدونا على اخراج مدفعنا . لقد غاص في النهر حتى المحور قرب الشاطئ تماماً . ألديكم شيء من الحبال ؟ ما اسم هذه القرية ؟ لقد تهنا بسبب الثلج . ثم ان الحمر يتعقبوننا عن كثب .

فقال الشيخ متردداً :

ـ لا ادري ، والله...

ـ ما الذي لا تدريه ؟ لعمري انكم قوزاق طيبون! نحن في حاجة إلى رجال لمساعدتنا . فقال بانتلاي بروكوفتش كاذباً :

ـ ان صحتي ليست على ما يرام .

فجال المدفعي عينيه بينهم كالذئب ، دون ان يدير رقبته ، وبدت نبرة صوته اكثر قوة وعنفواناً :

ـ ألستم قوزاقاً ؟ هل بوسعكم ان تدعوا المعدات الحربية تذهب هباء ؟ لم يعد ثمة من يقود البطارية سواي ، فقد هرب الضباط جميعاً . ومضى علي اكثر من اسبوع وانا لا أكاد ابارح السرج ، لقد تجمدت اوصالي ، وفقدت اصابع احدى قدمي بسبب لسعة الجليد ، ولكني لن اتخلى عن بطاريتي ، وانتم... لئن ابيتم تقديم المساعدة لنا فإني سأستدعي قوزاقي وسوف... ـ وصاح بصوت غاضب متهدج : ـ سوف نرغمكم على ذلك يا ابناء العواهر! يا بلاشفة! سوف نشد عدة الخيل عليك ايها العجوز ، ان شئت ذلك . اذهب واستدع مزيداً من الرجال واذا لم تعد بهم ، فاننا ، والله ، سنمحو قريتكم من الوجود...

كان يتكلم كمن لا يثق بقوله كل الثقة . فأسف غريغوري لحاله . امسك بقبعته وقال بخشونة ، دون ان ينظر إلى المدفعي الهائج :

. كفى زعيقاً! سنساعدك ثم امضِ إلى شأنك بسلام .

سرعان ما عثر على جمع كبير من القوزاق الراغبين في تقديم ـدة . وبالتعاون مع رجال البطارية قام انيكوشكا ، وتوميلين وخريستونيا . ميليخوف وزهاء عشر نساء ، بوضع العصي تحت العجلات ثم رفعوا مدفع

الميدان وصناديق الذخيرة وأعانوا الخيل على مواصلة السير . ولم تدر العجلات ، انما راحت تنزلق على الثلج انزلاقاً . وقد وجدت الخيل المنهكة كل المشقة في ارتقاء اوطأ المرتفعات . ولم يبق من رجال البطارية الا نصفهم راح يمشي على الاقدام . وخلع المدفعي قبعته وانحنى شاكراً اولئك الذين مدوا اليه يد المعونة ، واستدار على سرجه فأمر البطارية بهدوء ان تتبعه .

وسرح غريغوري النظر وراءه بشعور من الاحترام تخالطه الريبة والدهشة وتقدم بيوتر وهو يلوك شاربيه ، وكأنه يعقب على ما دار في خلد غريغوري :

ـ ألا ليتهم جميعاً مثل هذا! هكذا يكون الدفاع عن الدون الهادئ!

فسألهما خريستونيا وهو متسخ من رأسه إلى أخمص قدميه :

ـ أتتحدثان عن ذلك المدفعي ؟ يبدو انه سيوصل مدافعه حيث يشاء مهما كلفه الامر! ارأيتم كيف هز السوط امام وجهي ، ذلك النغل! لا بد ان اليأس قد تملكه . لم اكن راغباً في المساعدة ، ولكن الذعر تملكني فجئت رغم انني لا املك جزمة ارتديها . ولكن ما جدوى تلك المدافع لهذا الاحمق ؟ انه اشبه بخنزير خطر مربوط إلى جلمودة من الخشب . انها لا تجديه فتيلاً ، بيد انه يمضي قدماً في جرها .

فابتسم القوزاق ومضوا كل إلى حال سبيله .

١٦

تصرّم الظهر ، ومن وراء الدون تأتأ مدفع رشاش ببضع صليات ، ثم خلد إلى الصمت .

وبعد نصف ساعة خطا غريغوري ، الذي امضى سحابة يومه عند نافذة غرفة الاستقبال ، إلى الوراء وقد استحال وجهه ازرق كالرماد ، وقال :

ـ ها قد جاءوا!

فصاحت ايلينتسنا واندفعت صوب النافذة . كان في الطريق ثمانية فرسان يهذبون على خيلهم . واذ بلغوا فناء ميليخوف على خبب ، توقفوا ، ونظروا إلى المعبر على الدون والدرب الاسود الممتد بين النهر والجبل ، ثم عادوا ادراجهم . كانت خيلهم الشبعى تلوح بذيولها المهلوبة ، وتثير كتل الثلج بحوافرها . وراحت الدورية تستطلع القرية ثم توارت عن الانظار .

وما هي إلا ساعة حتى ضجت تتارسكي بخبط أقدام وكلام غريب ، ونباح كلاب . فقد عبرت الدون كتيبة مشاة وجعلت تتدفق إلى القرية ومعها رشاشات محملة على الزحافات ، وعربات شحن ومطبخ ميدان .

رغم ما في تلك اللحظة الأولى لوصول قوات العدو من فظاعة ، لم تستطع دونيا أن تكبح هأهأتها . فحين عادت الدورية أدراجها ، زنخرت في صدريتها وهرولت إلى المطبخ ، فلقيتها ناتاليا بنظرة وجلة ، وسألتها :

ـ ما الأمر ؟

ـ اوه ، ناتاليا ، يا عزيزتي ، ليتك رأيت كيف يركبون خيلهم! كان رجل منهم يهتز في سرجه إلى الأمام وإلى الوراء ، إلى الامام وإلى الوراء... وكان ذراعاه ومرفقاه يصفقان جنبيه ، وكأنهم جميعاً مصنوعون من قماش!

لقد أجادت محاكاة الجنود الحمر الذين كانوا يتأرجحون على سروجهم مما جعل ناتاليا تهرع إلى الفراش ، وهي تكتم ضحكتها ، وتنكب على الوسادة لتتحاشى غضب حميها منها .

كان بانتلاي بروكوفتش ، الذي اعترت أوصاله الرجفة ، جالساً على المصطبة يعبث على غير هدى بخيط السكافة والإبر وعلبة المسامير الخشبية ، وظل يتطلع إلى خارج النافذة ، وفي عينيه نظرة حيوان وقع في الفخ .

أما في المطبخ فقد تعالت قهقهات النسوة على نحو يثير حفيظة الآخرين . كانت دونيا ، وقد احمر وجهها فغدا بلون الارجوان ، واخضلت عيناها بالدموع فراحتا تشعان كحبات الزيتون الأسود المندى ، تمثّل لداريا

كيف جلس الجنود الحمر على سروجهم وتضفي على حركاتها المنتظمة مسحة من التهتك دون أن تشعر بها .

فراح حاجبا داريا المزججان يرتعشان وهي تغصّ بضحكاتها العصبية وتشهق شهيقاً أبح .

ـ أخشى ان يثقبوا سراويلهم . ويسمون أنفسهم خيالة...!

وحتى بيوتر ، الذي دخل المطبخ مهموماً سرى إليه مرحهن لحظة فقال :

ـ إنه لمشهد غريب أن يراهم المرء راكبين على هذه الشاكلة . ولكن لا يضيرهم ، فإن هم قصموا ظهر جواد حصلوا على واحد آخر! يا للفلاحين! لعلهم لم يروا الخيل في حياتهم إلا مرة واحدة! كان آباؤهم يخافون من صرير عجلات العربات ، أما هؤلاء فيمتطون صهوات الجياد... غريب أمرهم!...

ثم لوح بيده بحركة تنم عن ازدراء لا يوصف .

وراح جنود الجيش الاحمر يتدفقون من الشوارع ، وتوزعوا جماعات دخلت الأفنية . وقد عرج ثلاثة منهم إلى بوابة انيكوشكا ، ونزل خمسة آخرون في كوخ استاخوف ، كان أحدهم يمتطي جواداً ، وتوجه الخمسة الباقون إلى بيت ميليخوف بمحاذاة السياج . دخلوا البوابة يتقدمهم كهل مكتنز الجسم حليق الوجه ذو أنف أفطس واسع المنخرين ، بادي اليقظة والنشاط ، والظاهر أنه كان محارباً قديماً . وتوقف عند الدرجات برهة يراقب الكلب الذي طفق ينبح ، وهو يكاد يختنق بقيده ، ثم أنزل بندقيته من على كتفه . فانهال على دوي الاطلاقة ضباب أبيض من الثلج الذي تساقط من سقف المنزل . وكان غريغوري يشهد ذلك من الشباك فجعل يجر ياقة قميصه الضيقة وهو يرى الكلب يتلوى على الثلج الملطخ بالدماء ويعض جنبه الجريح وقيده الحديدي وهو يعاني سكرات الموت ، واذ التفت وقع نظره على وجوه النسوة وقد ابيضت من الشحوب ، وعلى عيني أمه الفزعتين . فخطا شطر الباب دون أن يرتدي قبعته .

فصاح أبوه وراءه بصوت غريب :

ـ قف!

واذ فتح غريغوري الباب الامامي ، سقطت على العتبة خرطوشة فارغة فأحدثت رنيناً معدنياً . ودخل الجنود الحمر الآخرون من خلال البوابة ، فسأل غريغوري من على العتبة :

ـ علام أطلقت النار على الكلب ؟ هل كان يؤذيك ؟

كان منخرا الجندي الاحمر الواسعان يجران أنفاساً ثقيلة ، وقد تهدلت زاويتا شفتيه الرقيقتين ، فالتفت وجعل بندقيته في وضع التهيؤ لإطلاق النار . وقال :

ـ ما شأنك في ذلك ؟ أآسف انت ؟ سأضع فيك رصاصة دون أن آسف لذلك . أتود أن أفعل ذلك ؟ قف إزاء السياج!

فتقدم رجل من الحرس الأحمر طويل القامة ، أحمر الشعر وقال ضاحكاً :

ـ كفى ، كفى! دعك من هذا ، يا الكساندر . أسعدت عصراً ، أيها السيد! هل رأيت حمراً من قبل ؟ إننا نريد مأوى . هل رمى كلبك بالرصاص ؟ لم يكن هناك داع لذلك أبداً! ايها الرفاق ، ادخلوا!

كان غريغوري آخر من دخل الدار ، فألفى رجال الجيش الاحمر يحيون أهل البيت بانشراح ، وينزلون حقائبهم وينزعون أحزمة العتاد الجلدية اليابانية ، ويلقون معاطفهم ، وسترهم المحشوة بالقطن ، وقبعاتهم على السرير . فامتلأ المطبخ للحال برائحة الجنود الكحولية الحامضة والعرق ، والتبغ ، والصابون الرخيص ، وشحم البنادق ، ووعثاء السفر .

جلس الرجل المدعو الكساندر عند المائدة ، وأشعل سيكارة ، ثم سأل غريغوري ، وكأنه يستأنف حديثه :

ـ هل كنت مع البيض ؟

ـ أجل...

ـ هكذا... بوسعي أن أميز البوم في الحال من طيرانها ، أما أنت فمن مخاط أنفك . أبيض! وأحسبك ضابطاً كذلك ؟ ضابط بشارات كتف ذهبية ؟

وأرسل الدخان خلل منخريه على هيئة عمودين ، والتفت بعينيه العدائيتين العابستين إلى غريغوري الذي كان واقفاً عند الباب ، ثم نفض سيكارته بظفر مقوس ملطخ بالتبغ وأردف :

ـ كنت ضابطاً ، أليس كذلك ؟ هيا اعترف! بوسعي أن أعرف ذلك من الطريقة التي تشد بها قامتك . لقد كنت في الحرب الألمانية ، أنا ايضاً .

فحمل غريغوري نفسه على الابتسام وأجاب : «أجل ، كنت ضابطاً» . واذ التقت عيناه بعيني ناتاليا الهلعتين المتوسلتين وقد سمرتهما عليه ، عبس وارتعش حاجباه ، وهو يشعر بالغيظ من ابتسامته تلك .

ـ اسفاً! اذاً لم يكن الكلب هو الذي ينبغي أن أرميه بالرصاص!...

ومن جديد أحس غريغوري بشفتيه تلتويان ، بالرغم عنه ، في ابتسامة مستغفرة مسترحمة ، فاحمر وجهه خزياً من بوادر تخاذله الذي لم يقو على كبحه . وجعلت هذه الفكرة تلهب أفكاره : «ما أشبهني بكلب مذنب أمام سيده!» وتمثل لعينيه برهة الكلب المقتول يوم كان يدنو منه ، وهو سيده ، فتلتوي شفتاه ويهتز ذيله الزنجبيلي الكث فيما ينبطح على ظهره .

وبالنبرة الغريبة نفسها سأل بانتلاي بروكوفتش ضيوفه ما اذا كانوا يريدون بعض العشاء ، قائلاً إنه سيأمر ربة البيت أن...

ومضت ايلينشنا صوب الموقد دون أن تنتظر الجواب . وقد ارتجف السفود في يدها ، وهي لا تكاد تستطيع ان ترفع به قدر حساء الكرنب المخلل من الفرن . وأعدت داريا المائدة منكسة العينين ، فجلس الجنود الحمر دون أن يرسموا إشارة الصليب على أنفسَهم . فراح الشيخ يراقبهم بوجل ونفور خفي . وأخيراً لم يعد يستطيع كبح جماح نفسه ، فرأى من واجبه أن يسألهم :

ـ اذاً فأنتم لا تصلون لله ؟

فلاح على شفتي الكسندر ظل ابتسامة طفيف ، وأجاب وسط عاصفة من قهقهات زملائه :

ـ لا أنصحك بالصلاة ، أنت ايضاً ، أيها الشيخ! لقد طردنا آلهتنا منذ زمن بعيد إلى... ـ ثم تلعثم وأردف : ـ ليس ثمة آلهة ، ولكن الحمقى لا يصدقون ذلك فيمضون في صلاتهم لهذه القطع من الخشب .

فأسرع بانتلاي بروكوفتش يؤيده بخوف :

ـ أجل ، أجل... إن للمثقفين بطبيعة الحال...

وكانت داريا قد وضعت لكل رجل ملعقة ، بيد أن الكسندر دفع ملعقته جانباً وقال :

ـ أليست عندكم ملاعق أخرى غير خشبية ، لسنا نريد أن نصاب بالمرض . أتسمون هذه ملعقة ؟ إنها قطعة خشب لا غير...

فغضبت داريا وصاحت :

ـ عليك أن تحمل ملعقتك معك إن كانت ملاعقنا لا تروق لك .

ـ اسكتي يا شابة! أليس لديكم غيرها ؟ إذن أعطيني منشفة نظيفة امسح بها هذه الملعقة .

وجاءت ايلينشنا بالحساء إلى المائدة في إناء كبير ، فطلب إليها قائلاً :

ـ ذوقيه أنت أولاً ، يا أم .

فسألته العجوز فزعة :

ـ لماذا أذوقه ؟ أتظنه مالحاً أكثر من اللازم ؟

ـ ذوقيه كما أمرتك ، ذوقيه . ربما وضعت فيه لضيوفك مسحوقاً ما...

فأمرها بانتلاي بروكوفتش بصرامة : «تناولي منه ملعقة ، هيا!» وما عتم أن أطبق شفتيه . ثم جاء بآلات اسكافٍ وقرمة لشجرة حور كان يستعمله مقعداً حين يرقع الأحذية ، فدفعه إلى النافذة وجلس يحتضن جزمة عتيقة . ولم يعد يسهم في الحديث .

أما بيوتر فقد لبث في غرفة الاستقبال . وقد ذهبت ناتاليا هناك هي

الأخرى فجلست مع الطفلين . ولبثت دونيا جالسة تنسج جورباً وقد اتكأت على الموقد ، ولكنها غادرت المكان حين خاطبها أحد الجنود الحمر بـ«سيدتي الشابة» ودعاها للعشاء معهم . ثم تلاشى الحديث . وبعد أن تناول الضيوف طعامهم أشعلوا السكائر ، وقال ذو الشعر الأحمر :

ـ هل التدخين مسموح عندكم ؟

فوافقت ايلينشنا على مضض :

ـ يوجد هنا الكفاية من المدخنين .

ورفض غريغوري السيكارة التي قدموها إليه . كان داخله كله يرتجف ، وقد اعتصر قلبه مرأى الرجل الذي قتل الكلب ، وراح يبدي إزاءه ذلك الموقف المتحدي الوقح . ولا ريب أن الرجل كان يبحث عن المتاعب ، فراح يحاول طوال الوقت أن يجر غريغوري إلى الحديث . فسأله :

ـ في أي كتيبة خدمت ، يا صاحب السعادة ؟

ـ في العديد منها .

ـ كم من زملائنا قتلت ؟

ـ ليس ثمة حساب في الحروب . لا حاجة بك إلى الظن بأنني ولدت ضابطاً ، يا رفيق . حصلت على الرتبة أثناء الحرب الالمانية . منحوها لي لقاء خدماتي...

ـ لست رفيقاً للضباط ، إننا نوقف امثالك إزاء الحائط ونرميهم . أنا نفسي صوبت بندقيتي إلى أكثر من واحد .

ـ ما أود قوله ، يا رفيق هو : لا يحسن أن تسلك هذا السلوك ، تتصرف وكأنكم استوليتم على القرية عنوة . لقد تركنا الجبهة بأنفسنا ، وأفسحنا لكم الطريق ، ولكنكم جئتم إلى هنا كمن يدخل بلداً مدحوراً . بوسع أي إنسان أن يرمي كلباً بالرصاص ، وليس فخراً أن تقتلوا أناساً عزلاً أو توجهوا الإهانات إليهم...

ـ لا تشر علي بما يجب أن أفعله! إننا نعرفكم جيداً... «تركنا الجبهة»! لو لم ندحركم لما تركتموها . وبوسعي أن أكلمك كما يحلو لي .

فزمره الرجل ذو الشعر الاحمر قائلاً :

ـ اخرس ، يا الكسندر! سمعنا من صوتك ما فيه الكفاية! إلا أن الكسندر تقدم من غريغوري ، وقد اتسع منخراه وتلاحقت انفاسه :

ـ خير لك ألا تثيرني ، أيها الضابط ، وإلا فالويل لك!

ـ أنا لا أثيرك .

ـ أجل ، أنت تثيرني!

ففتحت ناتاليا باب الغرفة الامامية ونادته بصوت مرتعش . فدار حول الرجل الواقف أمامه ، وترنح في مدخل الغرفة كالسكران ، فاستقبله بيوتر بهمس عدائي متوجع :

ـ ما هذا العبث ؟ الشيطان وحده يعلم لماذا رددت عليه! ستجلب الويل على نفسك وعلينا! اجلس!

فدفع غريغوري إلى احد الصناديق وأجلسه عنوة ثم ذهب الى المطبخ . وجلس غريغوري يلهث بشهقات كبيرة وتلاشى الاحمرار الشديد من خديه ، والتمعت عيناه بوهن .

فتوسلت ناتاليا إليه وهي ترتجف واضعة ثديها على فمي الطفلين اللذين أوشكا أن يصرخا :

ـ غريغوري! يا روح قلبي! دعهم وشأنهم!

فقال غريغوري ، وهو ينظر إلى ناتاليا بقنوط :

ـ لِمَ لم أرحل ؟ لا داعي للقلق ، لن أفعل ذلك . ولكن اسكتي! لا أستطيع احتمال المزيد .

وبعدها جاء ثلاثة جنود آخرين من الجيش الاحمر . وقال أحدهم ، وكان يرتدي قبعة من الفرو الأسود ، والظاهر انه الآمر :

ـ ما عدد النازلين هنا ؟

فأجابه الرجل ذو الشعر الاحمر عن الجميع ، وهو يعالج العزف على أوكورديونه :

ـ سبعة رجال .

ـ سنضع نقطة رشاشات هنا . عليكم أن تفسحوا لهم المجال .

وخرج الرجال الثلاثة . ثم ما لبثت البوابة أن صرت ودخلت الفناء عربتان . وسحب رشاش إلى سقيفة الباب . وأشعل أحدهم عود ثقاب وشتم في الظلمة بحنق . وراح رجال المدفع الرشاش يدخنون تحت سقف المخزن ، ثم أنزلوا بعض القش ، وأوقدوا في ساحة درس الحبوب ناراً . ولكن أحداً لم يخرج إليهم من اصحاب البيت ، .

وهمست ايلينشنا وهي تمر قرب بانتلاي بروكوفتش : «ينبغي أن تذهب للعناية بالخيل» . ولكنه اكتفى بهز كتفيه دون أن تبدر منه محاولة للقيام . وظلت الأبواب تصطفق طوال الليل . وعلق تحت السقف بخارأبيض وتقطر على الجدران كالندى . وقد افترش رجال الجيش الاحمر قاع الغرفة الامامية . وجاء غريغوري ببعض البسط وفتحها لهم ثم وضع فروته ليتوسدوها .

ـ كنت في الجيش كذلك ، فأنا اعرف الحالة ، ـ قال غريغوري ذلك وهو يبتسم ابتسامة صلح للرجل الذي اعتبره عدواً . الا ان منخري الكساندر العريضين اتسعا وراحت عيناه ترقبان غريغوري دون رغبة في المصالحة . رقد غريغوري وناتاليا في الغرفة نفسها . ووضع رجال الجيش الاحمر بنادقهم عند رؤوسهم واحتشدوا على البسط . وكانت ناتاليا على وشك أن تطفئ المصباح ولكن سؤالاً زاجراً ما لبث أن حال دون ذلك :

ـ من طلب إليك أن تطفئي المصباح ؟ إياك أن تطفئي الضوء! اخفضي الفتيلة ، ودعيها تشتعل طوال الليل .

وأرقدت ناتاليا الطفلين عند قدميها ، وتمددت إزاء الجدار دون أن

تخلع ملابسها . وتمدد غريغوري بجانبها بصمت ويداه تحت رأسه .

وراح يقول في سره ، وهو يصر بأسنانه :

ـ لو كنت قد رحلت ، لو كنت قد ذهبت لافترشوا ناتاليا على هذا السرير وقضوا معها وطرهم ، كما فعل الرجال بفرانيا في بولندا .

وشرع أحد رجال الحرس الأحمر يروي قصة ، لكن صوتاً مألوفاً انطلق في العتمة يقاطعه بتحد :

ـ آه ، ما أشقى الحياة ، بلا نساء ؟ إلا أن رب البيت ضابط! ولن يتنازل عن زوجته لنا معشر الجنود البسطاء ذوي الأنوف القذرة... أتسمع أيها السيد ؟...

كان احد الرجال يشخر ، واطلق آخر ضحكة ناعسة . ولكن الرجل ذا الشعر الأحمر قطع عليه الكلام بصوته المتوعد :

ـ كفى ، يا الكسندر ، لقد نصحتك ما فيه الكفاية ، ففي كل مأوى يحدث الشيء ذاته ، تثير المتاعب ، وتسلك سلوك الشقاة . فتجلب العار إلى اسم مقاتل الجيش الاحمر . لم أعد أحتمل! إني ذاهب إلى القوميسار أو إلى آمر السرية في الحال . وسيكون لديه ما يقوله لك!

فخيم عليهم صمت كصمت المقابر لا يقطعه إلا صوت الرجل ذي الشعر الاحمر وهو يقبع غضباً فيما كان يرتدي جزمته . وبعد قليل غادر الغرفة صافقاً الباب وراءه .

ولم تقو ناتاليا على ضبط نفسها أكثر من ذلك فانفجرت تنشج بصوت مسموع . فراح غريغوري يمسد بيد راجفة رأسها ، وجبينها الندي ، ووجهها المخضل بالدموع فيما كانت يده الأخرى تفك أزرار قميصه وتشدها من جديد بحركة لا إرادية .

وهمس لها بصوت لا يكاد يسمع : «اهدأي ، اهدأي!» كان في تلك اللحظة يعلم علم اليقين أنه على استعداد لتقبل أية محنة أو مذلة لينقذ حياته وحياة أعزائه .

وأشعل أحدهم عود ثقاب فكشف الضوء عن الكسندر وفمه وأنفه الافطس ، وهو جالس يجر نفساً من سيكارة . ودمدم بصوت خافت وشرع يرتدي ملابسه . فأجهد غريغوري أذنيه ، وقد تملكه امتنان لا حد له للرجل ذي الشعر الاحمر ، واعترته رعشة البهجة حين سمع وقع خطوات تحت النافذة وصوتاً ساخطاً يقول :

ـ وهو طوال الوقت يحاول إثارة المشاكل... أيها الرفيق القوميسار .

وتعالى وقع الخطوات في السقيفة وصر الباب ثم فتح ، وأصدر أحدهم أمراً بنبرة فتية :

ـ الكسندر تورنيكوف ، ارتدِ ملابسك واخرج على الفور . ستمضي الليل في كوخي ، وفي الصباح سنحاكمك لسلوكك الذي لا يليق بجندي من الجيش الاحمر .

والتقت عينا غريغوري بنظرة ثاقبة طيبة تنبعث من عيني رجل يرتدي سترة قصيرة سوداء من الجلد واقف بجانب الرجل ذي الشعر الاحمر . كان بادي الفتوة والعنفوان وقد انطبقت شفتاه بصرامة أكثر قليلاً مما ينبغي . فقال لغريغوري وهو يبتسم ابتسامة طفيفة :

ـ اذا ، فقد كان عندك ضيف مشاكس ، أيها الرفيق ؟ حسناً ، يمكنكم الآن أن تناموا وسوف نلقنه درساً غداً . طاب مساؤكم ، هيا ، ياتورنيكوف!

ثم خرجوا ، فتنفس غريغوري الصعداء . وفي الصباح ، حين سدد الرجل ذو الشعر الاحمر أجرة مبيت الليلة والمؤونة تخلف عن الآخرين عامداً وقال :

ـ حسناً ، يا سادة ، لا تغضبوا منا . الكسندر ، صاحبنا ذاك ، كأنه مصاب في عقله بعض الشيء . ففي العام الماضي قام بعض الضباط البيض في لوغانسك (وهي مدينته) باعدام أمه وأخته بالرصاص أمام عينيه . وهذا سبب حالته هذه . حسناً ، شكراً لكم . اوه ، كدت أنسى الطفلين!...

واخرج من حقيبته قطعتين رمادتين متسختين من السكر دسهما في يديهما ، فسر الطفلان أيما سرور .

وحدق بانتلاي بركوفتش بحفيديه ، ثم هتف وقد تأثر تأثراً عميقاً :

ـ يا لها من هدية! لم نرَ سكراً طيلة ثمانية عشر شهراً أو يزيد . الله معك ، ايها الرفيق . انحنيا للرجل أيها الطفلان! اشكريه يابوليا! وأنتِ يا ميلوشكا ، فيم وقوفك كالبكماء ، يا حبيبتي ؟

ثم خرج الجندي الاحمر ، فالتفت الشيخ صوب ناتاليا غاضباً :

ـ ألا تعرفين حسن التصرف ؟ كان عليك أن تعطيه كعكة لرحلته . علينا أن نرّد معروف الرجل الطيب بمعروف .

وأمرها غريغوري قائلاً :

ـ اركضي وراءه!

فألقت ناتاليا شالها على رأسها وجرت فأدركته عند البوابة الصغيرة ودست الكعكة في جيب معطفه الواسع وقد احمر وجهها ارتباكاً .

١٧

عند الظهيرة مرت بالقرية فرسان حمر مسرعة ، فأخذت معها الخيل العسكرية العائدة لبعض القوزاق . وكان دوي المدافع يتناهى إلى الأسماع من وراء التل .

فاستنتج بانتلاي بروكوفتش قائلاً :

ـ لا بد أن هناك قتالاً على نهر التشير .

وفي المساء ، خرج بيوتر وغريغوري إلى الفناء أكثر من مرة . كان بوسعهما أن يسمعا هدير مدافع الميدان ، وحين كانا يضعان أذنيهما على الأرض المتجمدة كانت تبلغ أسماعهما ترثرة رشاشات خافتة تكاد لا تميز ، من موضع ما بعيد عن الدون .

فقال بيوتر ، وهو ينهض نافضاً الثلج عن ركبتيه وقبعته :

ـ إنهم يخوضون معركة حامية!

ثم أضاف دونما مناسبة :

ـ سيأخذون حصانينا ، إن حصانك ؛ جيد ، يا غريغوري ، سيأخذونه حتماً .

وحين ذهب غريغوري عند حلول المساء إلى الاسطبل ليخرج بالحصانين إلى النهر ليوردهما ، وجد أنهما يظلعان على قادمتيهما . فذهب يستدعي أخاه ، وقال له :

ـ أصيب جوادانا بأذى ، جوادك في قادمته اليمنى وجوادي في اليسرى . ولكن ليس هناك أثر للجروح .

كان الحصانان واقفين دون حراك على الثلج ذي الظلال الارجوانية ، تحت أنجم المساء الخابية . فأشعل بيوتر فانوساً ، غير أن أباه خرج من ساحة درس الحبوب واستوقفه :

ـ ما حاجتك بالفانوس ؟

ـ الجوادان يظلعان ، يا أبتي .

ـ وهل في هذا ما يدعو للأسف ؟ أم إنك تريد أن يأتي فلاح فيسرجهما ، ويمضي بهما ؟

ـ هذا صحيح ، ولكن...

ـ أنا الذي فعلت ذلك . قل لغريشا أنني أخذت مطرقة وأدخلت مسماراً في ساقيهما تحت الغضروف ، وسيظلان يظلعان حتى يذهب الحمر .

فهز بيوتر رأسه وراح يعض على شاربيه ، لكن علاج العجوز أنقذ الحصانين . ففى تلك الليلة ضجت القرية بالجند ثانية ، فراح الفرسان يذهبون فى الشوارع ، وسيقت البطاريات لتصف فى الساحة . فقد باتت كتيبة الخيالة الثالثة عشرة ليلتها فى القرية . وجاء خريستونيا إلى بيت ميليخوف ، فجلس القرفصاء وأشعل سيكارة وسأل :

ـ ألم ينزل فى بيتكم أي من الشياطين ؟

فدمدمت ايلينشنا برمة :

ـ لقد نجانا الله حتى الآن . كان البعض منهم عندنا ، فامتلأ الكوخ بجيفتهم الفلاحية .

فانخفض صوت خريستونيا حتى غدا همساً وقال : «لقد جاؤوا لزيارتي» . ثم مسح براحته الضخمة دمعة صغيرة من عينية . بيد انه هز رأسه الكبير ، وتأوه ، وبدا عليه الخجل من دموعه .

ولأول مرة في حياة بيوتر رأى خريستونيا يبكي فسأله ضاحكاً :

ـ ماذا ، يا خريستونيا ، ما بالك ؟

ـ أخذوا حصاني... لقد خضت الحرب الالمانية على ظهره . وقاسينا المحن سوية... كان أشبه بالانسان وله من العقل ما يفوق البشر . لقد قال لي الرجل : «أسرجه أنت فلست أقدر عليه» . فقلت له : «آه ، ألا تستطيع ؟ هل ينبغي أن أسرجه لك طوال حياتي ؟ أسرجه أنت اذا أردت أن تأخذه . وقد فعل ، ذلك النغل الصغير . كان قزماً صغيراً لا يكاد يبلغ خاصرتي . وحين قاد الحصان إلى البوابة جعلت أبكي كالأطفال . وقلت لزوجتي : «كم اعتنيت بذلك الحصان وأطعمته وسقيته ، وها هو...» واستحالت كلمات خريستونيا همسات متلاحقة كالصفير فيما كان ينهي حديثه : «بت أتوجس خيفة من النظرإلى الاسطبل الخاوي والفناء الذي يعمه صمت المقابر...»

أرهف غريغوري أذنيه ، فاستطاع أن يسمع خارج النافذة خشخشة ، وقعقعة السيوف ، وصوت رجل يصيح : هوه!...

فجعل بانتلاي بروكوفتش يحرك يديه ، دون أن يعرف ماذا يفعل بهما ، وقال : «إنهم قادمون إلى هنا . لعل أحداً أخبرهم أن...» .

وجاء صوت يصيح :

ـ يارب البيت! يا هذا ، اخرج إلى هنا!

فألقى بيوتر فروته على كتفيه وخرج . فأمره رجل يتقدم فارسين آخرين قائلاً :

ـ أين خيلكم ؟ اخرجها!

ـ لا مانع لدي ، ولكنها تظلع ، أيها الرفاق .

ـ أين تظلع ؟ ما عليك إلا أن تخرجها! لا تخف ، لن نأخذها دون مقابل . سنترك لكم خيلنا نحن .

فقاد بيوتر الحصانين واحداً بعد الآخر . فقال أحد الرجال وهو يدير الفانوس إلى داخل الاسطبل :

ـ هناك فرس أخرى في الداخل . لِمَ لم تخرجها ؟

ـ إنها فرس حامل . وهي هرمة ، عمرها مائة عام .

وصرخ الرجل الذي بيده الفانوس غاضباً :

ـ هيه ، أنت ، هات السروج . مهلاً ، لقد صدقت إنهما يظلعان ؟ بحق المسيح ، إلى أين تقود هذين الجوادين الكسيحين ؟ أعدهما!

فجر بيوتر الرسن ، وأشاح بوجهه عن الضوء لكي يخفي شفتيه المتغضنتين .

ـ أين هي السروج ؟

ـ أخذها الرفاق صباح هذا اليوم .

ـ كذبت ، أيها القوزاقي! من أخذها ؟

ـ بحق الله... لعنة الله على الكاذب ، لقد أخذوها . مرت بالقرية كتيبة خيالة فأخذوها : السرجين وطوقين معهما .

مضى الخيالة الثلاثة وهم يشتمون . ودخل بيوتر الدار تنبعث منه رائحة عرق الخيل وبولها . وكانت شفتاه الصارمتان ترتعشان وهو يضرب على كتف خريستونيا ويقول مباهياً :

ـ هكذا تُدبر الأمور . قلنا لهم إن جوادينا يظلعان ، وأنهم أخذوا السروج... آه ، يا لك من أبله!

وأطفأت ايلينشنا المصباح ومضت فى العتمة لتعد الأفرشة . وقالت :

ـ سنجلس فى الظلمة ، وإلا قد يزورنا بعض الثقلاء .

* * *

وفي تلك الليلة أقام آنيكوشكا حفلة أنس في داره . فقد طلب إليه رجال الحرس الأحمر الذين نزلوا عنده أن يدعو إليها جيرانه القوزاق للشراب . فجاء أنيكوشكا ليدعو آل ميليخوف ، وراح يجادلهم :

ـ تقولون إنهم حمر ؟ حسناً ، وماذا أنهم حمر ؟ لقد تعمدوا في الكنيسة ، أليس كذلك ؟ إنهم روس مثلنا ، إني والله أرثي لحالهم ، سواء صدقتم قولي أو لا . هناك يهودي بينهم ، ولكنه إنسان كذلك . لقد ذبحنا من اليهود في بولندا عدداً كبيراً ، ولكن هذا قدم إليَّ كأسا من الفودكا . أنا أحب اليهود . هيا ، يا غريغوري ، وأنت يا بيوتر! لا تنظر اليَّ شزراً...

فرفض غريغوري ، بادئ الأمر ، أن يذهب ، ولكن أباه نصحه قائلاً :

ـ اذهب ، وإلا حسبوا أننا نعتبرهم أقل شأناً منا . لا تضمر حقداً لهم .

وخرج بيوتر وغريغوري بصبحة أنيكوشكاإلى الحوش . وكان الليل الدافئ يبشر بجو حسن . كانت في الهواء رائحة رماد وجل محترق . وتوقف القوزاق الثلاثة صامتين برهة ، ثم مضوا . وعند البوابة أدركتهم داريا ، وكان حاجباها المقوسان المزججان يلتمعان في ضوء القمر الخابي كالمخمل الأسود .

وغمغم أنيكوشكا قائلاً :

ـ إنهم يسكرون زوجتي ، ولكنهم لن يحصلوا على ما يبتغون ، فلدي عينان... ـ وكان ثملاً من شرب الفودكا المنزلية . فمضى يترنح صوب السياج ، وتعثر فحاد عن الطريق وغاص في كومة من الثلج .

كان الثلج الأزرق المحبب يخشخش تحت أقدامهم . وراح التلج ينهمر مزناً من صفحة السماء الرمادية ، والريح تطير الشرر من سكائرهم وتعفرهم بنثار الثلج ، ثم انقضّت على غيمة متهدلة تحت نجوم السماء العالية كما ينقض الصقر على البجع ، فتطاير منها ثلج كالريش الأبيض وانثال على الأرض المستكينة ، فغطى القرية والسهب ومسالك الإنسان والبهائم .

لم يكن في بيت أنيكوشكا متنفس من هواء . وكانت ألسنة حادة من

السخام تتصاعد من المصباح ، ولم يكن في وسع المرء أن يرى شيئاً خلل دخان السكائر وكان عازف أوكورديون من الجيش الأحمر قد مد ساقيه الطويلتين أمامه وراح يعمل منفاخ آلته بحمية . وجلس جنود حمر على المصاطب بصحبة نسوة من جيران أنيكوشكا . وكان يداعب زوجة أنيكوشكا رجل ضخم الجرم يرتدي سروالاً محشواً من الخاكي ، وجزمة قصيرة تنوء بمهمازين كبيرين كأنه جاء بهما من المتحف . وقد دفع قبعته المصنوعة من فرو الحمل الناعم إلى مؤخرة رأسه ، والعرق يتصبب من وجهه الأسمر . وراحت يده العرقة تلهب ظهر المرأة . وكانت الخمرة قد لعبت برأسها فلم تقو على الابتعاد عنه رغم أنها كانت ترغب في ذلك . أدركت ما تعنيه نظرة زوجها وابتسامات النسوة الأخريات . بيد أنها لم تعد تقوى على إبعاد الذراع القوية عن ظهرها ، فلبثت تضحك ضحكات ثملة واهنة .

كانت الأباريق مفتوحة على المائدة ، فملأت رائحة الخمر الكوخ وأمسى غطاء المائدة خرقة قذرة .

وقد توسط الغرفة آمر رعيل خيالة يرتدي سروال فرسان ضيقاً وجزمة بلون صبغة الكروم الصفراء وراح يرقص ويتلوى كشيطان أخضر . وتفرس غريغوري في السروال والجزمة من عتبة الغرفة وقال في دخيلته : «لا بد أنه سلبها من أحد الضباط!» ثم رفع عينيه إلى وجه الرجل : كان أسمر داكن السحنة ، يتصبب عرقاً ، وقد برزت أذناه الكبيرتان المستديرتان ، وبدت شفتاه الغليظتان متهدلتين . فقال غريغوري في نفسه : «إنه يهودي ، ولكنه رشيق الحركات» . ثم صبوا له ولبيوتر شيئاً من الفودكا المنزلية . فراح غريغورى يشرب بحذر ، بيد أن الخمرة سرعان ما لعبت برأس بيوتر . وما إن انقضت ساعة حتى راح يرقص رقصة قوزاقية على الأرض الترابية ، مثيراً بكعبيه الغبار ، صارخاً بصوت مبحوح إلى عازف الأوكورديون أن يسرع في العزف . وجلس غريغوري عند المائدة ، يقشر بذور القرع . وكان يجلس إلى جانبه حامل رشاشة من أهالي سيبيريا . فقال لغريغوري :

ـ لقد سحقنا كولتشاك ، وسنعالج الآن أمر صاحبكم كراسنوف بما يستحق ، وسيكون في هذا خاتمة المطاف! وعند ذلك تستطيعون أن تعودوإلى زراعتكم ، لتحرثوا الأرض ، وتبذروها ، وتجعلوها تلد . فالأرض كالمرأة ، إنها لا تستيجيب لك من تلقاء نفسها ، بل عليك أن تنتزع منها ما يروق لك . واقتل كل من يعترض سبيلك! نحن لا نريد شيئاً مما تملكون . غاية مرادنا أن نساوي بين الجميع...

فوافقه غريغوري الرأي ، بيد أنه كان طوال الوقت يتأمل الجنود الحمر خلسة . ولم يلمح في الجو ما يدعوه للقلق . كان الجميع ينظرون إلى بيوتر ، ويبتسمون استحساناً للمهارة التي يبديها في رقصه .

وهتف رجل بنبرة صاحية جذلى : «انظروإلى هذا الشيطان! أحسنت! » ولكن غريغوري لاحظ بالصدفة أن عيني جندي أحمر أجعد الشعر قد سمرتا فيه باهتمام ، فلزم الحذر وكف عن الشراب .

وشرع عازف الاوكورديون يعزف ألحان رقصة البولكا ، فدعا الجنود الحمر نساء القوزاق للرقص . وطلب أحدهم ، وهو يترنح ثملاً ، من زوجة شابة ، من جيران خريستونيا ، أن تراقصه ، ولكنها رفضت ، ثم التقطت تنورتها وجرت عبر الغرفة إلى غريغوري ، وقالت له :

ـ تعال ارقص معي .

ـ لا أريد .

ـ هيا ، يا غريغوري ، يا زهرتي الذهبية!

ـ دعيني وشأني! لا أريد!

فجرته من كمه ، وهي تتصنع الضحك . فعبس ومانع ، بيد أنه أذعن اذ لمح غمزتها إليه . وبعد بضع دورات استغلت وقفة في الرقص فوضعت رأسها على كتف غريغوري وهمست إليه بصوت لا يكاد يسمع :

ـ إنهم يعدون العدة لقتلك... فقد أخبرهم أحد الناس انك ضابط... أخرج من هنا...

ثم أضافت بصوت مرتفع :

ـ اوه ، إن رأسي يدور .

فخطا غريغوري عبر الغرفة إلى المائدة بمرح مفاجئ وشرب قدحاً من الفودكا . ثم استدار يسأل داريا :

ـ هل بيوتر سكران ؟

ـ تقريباً .

ـ خذيه إلى البيت!

فقادت داريا بيوتر إلى خارج الغرفة وهي تقاوم دفعاته وعثراته بقوة كقوة الرجال . فتبعهما غريغوري .

فهرع أنيكوشكا وراء غريغوري قائلاً : «هيه ، إلى أين أنتم ذاهبون ؟ كلا ، لا تذهبوا!» بيد أن غريغوري حدجه بنظرة جعلت أنيكوشكا ينشر ذراعيه ويمضي مترنحاً .

وحين بلغ غريغوري عتبة الباب لوح بقبعته وغمغم قائلاً :

ـ شكراً لدعوتك!

فسوى جندي الحرس الأحمر ذو الشعر الأجعد وضع حزامه ولحق غريغوري . وعند العتبة همس الرجل وهو ينفث أنفاسه في وجه غريغوري وعيناه الجريئتان تتقادحان :

ـ إلى أين أنت ذاهب ؟

فأجابه غريغوري دون أن يتوقف : «إلى البيت» وجعل يجر الرجل وراءه ، وقال في سريرته وقد أخذته لجة من الحبور : «لن تظفر بي حياً» .

فراح جندي الحرس الاحمر يتنفس بشدة ، ثم أمسك غريغوري بيسراه برفق ، وسارإلى جانبه . وتوقفا عند البوابة . ثم سمع غريغوري الباب يصر من ورائهما . وفي تلك اللحظة أحس بيد الجندي الاحمر تتلمس خاصرته ومسمع أظافر يده تخمش قراب مسدسه . ولمح غريغوري عيني الرجل الفولاذيتين مسمرتين في وجهه . فاستدار وأمسك باليد التي كانت تجر

غطاء القراب ، فأمسك بها من المعصم ، وتلَّ ذراع الرجل عبر كتفه بقوة مريعة ، ثم انحنى وألقى جسد الرجل الثقيل على ظهره وجر اليدإلى أسفل بكل ما عهد فيه من مهارة ، فسمع صوت طقطقة المرفق . فهوى الرأس الأشقر الأجعدإلى أسفل وغاص في كومة من الثلج .

وجرى غريغوري في طريق جانبي نحو الدون منحنياً وراء الأسيجة وراح يعدو قفزاً ، ميمماً شطر النقطة التي يهبط عندها الطريق إلى الضفة . وظلت هذه الفكرة تساوره : «لئن لم تصادفني نقطة أمامية هناك فسوف...» ثم توقف برهة . كان فناء بيت أنيكوشكا ينبسط من ورائه . وسمع طلقة . فمرقت الرصاصة تصفر بقربه بشراسة . ثم تتابعت الطلقات ، فقرر في نفسه : «تحت التل ، عبر الدون» وحين بلغ منتصف النهر أزت بقربه رصاصة ثم دفنت نفسها في الجليد ، مثيرة الشظايا البلورية وهي تلذع عنق غريغوري . وحين بلغ الجهة الثانية من النهر التفت وراءه . كانت الطلقات ماتزال تفرقع مثل سوط راعي الخيل . ولكن النجاة لم تبعث في نفسه حرارة الفرح ، بل كان يقبضه شعور بعدم الاكتراث لما مر به من أحداث . وإذ توقف ثانية قال في سريرته دونما اهتمام : «كأنهم كانوا يطاردون حيواناً... لن يفتشوا عني ، سيخافون دخول الغابة . لقد أصبت ذراعه بشيء يتذكرني به . يا للوغد ، يظن أن بوسعه النيل من قوزاقي بلا سلاح» .

واتخذ طريقه إلى أكداس القش الشتوية ولكنه تحول عنها فخلفت قدماه آثاراً متعرجة متشابكة كآثار الأرنب . وعقد العزم على أن يبيت ليلته في كدس مهجور من البردي اليابس ، فشرع يحفر في قمة الكدس ، فانسل نمس من بين قدميه . واحتفر غاراً ودفن نفسه حتى الرأس في البردى العفن ، فاستكان وهو يرتجف . كان ذهنه خلواً من أية خطة أو فكرة . على أن شيئاً أشبه بالخاطرة مر بذهنه : «هل أسرج الحصان غداً وأجتاز جبهة القتال نحو جماعتي ؟» بيد أنه لم يستطع أن يجد جواباً فرقد بهدوء .

وقبيل الفجر اعترته رجفة باردة ، فأطل بعينيه : كان ضوء الصباح

الباكر يترجرج من فوقه على نحو بهيج ، وخيل لعينه لحظة أنه يرى قعر هوة السماء السوداء الزرقاء ، شأن ضفاف الدون الضحلة ، وكان لازورد الصبح الباكر المضبب بادياً في سمت الأوج يحف به نتار من أنجم خابية .

١٨

ابتعدت جبهة القتال عن قرية تتارسكي ، وتلاشى ضجيج الحرب . وفي اليوم السابق لرحيل الجند من القرية نصب حملة الرشاشات من إحدى كتائب الخيالة جهاز الغرامفون العائد لموخوف على زحافة عريضة راحوا يهذبون بها خيلهم في الشوارع جيئة وذهاباً . وجعل الغرامفون يئز ويسعل فيما كانت حوافر الخيل تقذف الثلج في بوقه الوسيع . وقد تولى أحد حملة الرشاشات وهو يرتدي قبعة سيبيرية ذات غطائين طويلين للأذنين ، تنظيف البوق بهدوء ، وراح يدير ذراع الفونوغراف المنقوشة بكل ثقة وكأنه يعالج مدفعه الرشاش . وتراكض وراءهم صبية القرية كسرب رمادي من العصافير ، وراحوا يتشبثون بالزحافة وهم ، يصرخون : « يا عمّ ، شغل ذلك الشيء الذي يصفر! مرة أخرى ، يا عمّ! » وقد جلس صبيان محظوظان جداً على ركبتي حامل الرشاش ، واذ كان يفرغ من إدارة ذراع الغرامفون ، راح يمسح بأناة وصبر أنف الصبي الاصفر الذي كان مخاطه يتصبب من شدة الصقيع وفرحه .

وبعد ذلك ، حين تلاشت ضوضاء القتال ، ظلت عربات الشحن تتهادى ببطء خلل تتارسكي لتزود الجيش الأحمر في الجبهة الجنوبية بالمؤن والعتاد .

وفي اليوم التالت دار رسل من بيت إلى بيت ، داعين القوزاق لحضور مجمع القرية . وقال أحد القوزاق لبلانتلاي بروكوفتش مازحاً :

ـ سوف ننتخب أتماناً أحمر!

فتساءل بانتلاي بروكوفتش قائلاً :

ـ هل سيسمحون لنا بانتخاب أتمان ، أم انهم سيعينونه بأنفسهم ؟
ـ سوف نرى!...

وذهب غريغوري وبيوترإلى المجمع . وقد حضر القوزاق الشباب برمتهم ، أما الشيوخ فقد تخلفوا عن الحضور ، إلا أفدييتش الكذوب الذي لمّ حوله حلقة صغيرة من القوزاق ومضى يقص عليهم كيف أن قوميساراً أحمر قد بات عنده ليلة وطلب إليه قبول منصب هام .

ـ قال لي : «لم أدر أنك كنت عريفاً في الجيش السابق ، فمن دواعي سروري والحالة هذه أن تتبوأ هذا المنصب» .

صب ميحائيل كوشيفوي ساخراً :

ـ أي منصب ؟ لا يوجد غير منصب واحد يليق بك ، وأنت أدرى به .

فانطلقت أصوات عديدة تؤيده :

ـ سيوكلون إليك أمر فرس القوميسار ، لتمسح دبرها!
ـ استمر!
ـ كاه ، كاه!

ـ أنت لا تدري أي منصب يخبئون لك... شغله ذلك القوميسار بالكلام فيما نعم مراسله بدغدغة زوجة أفدييتش العجوز . وانشغل أفدييفتش بالانصات حتى نسي أن يمسح المخاط من أنفه...

فابتلع أفدييتش ريقه ، وسأل ، وهو يجيل النظر بعينين جاحظتين :

ـ من قال ذلك ؟

فجاء صوت جريء من الوراء :

ـ أنا قلت ذلك!

فقال أفدييتش : «حسنا ، هل رأيتم في حياتكم ابن عاهرة كهذا!» ثم أجال بصره فيما حوله بحثاً عن التأييد ، فجاءه سيل منه :

ـ إنه ثعبان قذر ، هذا هو رأيي فيه دائماً .
ـ عائلته برمتها على هذه الشاكلة .

فقال أفدييتش : «لو أنني كنت أصغر سناً...» ثم توهجت وجنتاه توهج الاجاص ، وأضاف : «لو كنت أصغر سناً للقنتك درساً أو درسين . ماذا ، أنت تتكلم كلام أوكراني قذر . أنت يا وعاء الشحم!...» .

ـ لماذا لا تنقض عليه ، يا أفدييتش ؟ انه مجرد فروج بالنسبة لك .

ـ أفدييتش عاجز هذه الأيام...

ـ يخشى تمزّق سرّته من شدة الضغط .

وانسحب أفدييتش بمهابة وسط رعيد من الأصوات .

وتحلق القوزاق جماعات صغيرة في ساحة القرية . ولم يكن غريغوري قد رأى صديقه القديم ميشا كوشيفوي منذ التعبئة العامة في الربيع ، وحين لمحه ، تقدم منه ، وشد على يده ، وسأله وهو يبتسم وينظر في عينيه الزرقاوين :

ـ مرحباً ، يا ميشا ، أين اختفيت ؟ تحت راية من كنت تقاتل ؟

فأجاب ميتشا : «أوهوه! أول الامر كنت أشتغل راعياً للخيل ، ثم جندوني في سرية تأديبية في جبهة الكالاش فهربت وعدت إلى دياري لأنضم إلى الحمر في الجبهة ، ولكنهم وضعوا علي رقابة أشد من رقابة أم لابنتها الجاهلة . ثم جاءني قبل أيام ايفان اليكسييفتش مرتدياً بزة كاملة وقال : «أعد بندقيتك وهلم!» وكنت قد عدت إلى أهلي تواً فسألته : «لعلك لا تقصد الرحيل ؟» فهز كتفيه وقال : «الأتمان أرسل في طلبي . كنت في سابق الأيام أعمل تحت خدمتهم في الطاحونة» . ثم ودعني ومضى . وحسبت أنه رحل بالفعل . ولكن كتيبة حمراء دخلت القرية في اليوم التالي فاذا به مع رجالها . ثم صاح بصوته عبر الساحة : «هاه ، هوذا! يا ايفان اليكسييفتش!»

وتقدم ايفان بصحبة دافيد العامل الأجير في الطاحونة ، يضحك دافيد وأسنانه تلمع مثل اللؤلؤ . فاعتصر وايفان يد غريغوري بأصابعه الصلبة التي تفوح منها رائحة الدهان ، ثم طق لسانه قائلاً :

ـ كيف حدث أن تخلّفت ، يا غريغوري ؟

ـ وماذا عنك ؟

ـ حسناً ، الأمر يختلف بالنسبة لي .

فقال غريغوري :

ـ أتعني رتبتي ؟ لقد جازفت بها وبقيت هنا . كدت أن أُقتل البارحة ، اذ طاردني الحمر وشرعوا يطلقون النار عليّ ، وقد تملكني الأسف لأنني لم أرحل . أما الآن فلست آسفاً لذلك .

ـ ماذا كان السبب ؟ هل هم من الكتيبة الثالثة عشرة ؟

ـ نعم . كنت في بيت أنيكوشكا ، وأخبرهم البعض أنني كنت ضابطاً ، ولكنهم لم يمسوا بيوتر بسوء... وقد أفلت من قبضتهم بعبور الدون . ولكني أتلفت يد أحدهم قليلاً... ومقابل ذلك ، ذهبوا إلى بيتنا وأخذوا كل شيء : السراويل ، والستر ، وكل شيء . ولم يبق لي إلا ما عليّ من ملبس .

فقال ايفان اليكسييفتش :

ـ كان علينا أن ننضم إلى الحمر في أول فرصة . ولوفعلنا ذلك لما بدا علينا هذا السخف .

ثم ابتسم ايفان بمرارة ، وشرع يدخن .

ابتدأ الاجتماع ، فافتتحه الضابط لابتشنكوف من فيشنسكايا ، وكان من رجال فومين :

ـ أيها الرفاق القوزاق! لقد رسخت جذور الحكم السوفييتي في منطقتنا . والآن ينبغي أن نقيم إدارة ، وننتخب لجنة تنفيذية ورئيساً ، ونائب رئيس . تلك هي المسألة الأولى . ثم إنني جئت بأمر من سوفييت الاقليم يقضي بتسليم كافة الأسلحة النارية والأسلحة الأخرى .

فقال رجل في المؤخرة بصوت ملؤه الحقد : «شيء جميل!» ثم خيم صمت طويل .

ـ لا داعي لتعليق كهذا ، أيها الرفاق . ـ تم اعتدل الضابط في وقفته

ووضع قبعته الفرو على المنضدة . وأردف : «من الطبيعى أن الأسلحة يجب أن تسلم ، لأنكم لا تحتاجون إليها في حياتكم المنزلية اليومية . فاذا شاء أحدكم أن يسهم في الدفاع عن الحكم السوفييتى فإنه سيزود بالسلاح . ينبغي تسليم كافة البنادق خلال ثلاثة أيام . والآن سيجري الانتخاب . سوف أكلف الرئيس بإخبار الجميع بهذا الأمر ، ويجب عليه أن يأخذ الختم من الاتمان وكذلك المال .

ـ هل هم الذين أعطونا أسلحتنا هذه ليتصوروا أن بوسعهم الاستيلاء عليها ؟

ولم ينته القائل من كلامه حتى التفتت إليه كل العيون ، فاذا به زاخار كوروليوف . فقال خريستونيا ببساطة :

ـ ولماذا تريد الاحتفاظ بها ؟

ـ لست أريدها . ولكننا جين سمحنا للجيش الاحمر بدخول مقاطعتنا ، لم يكن ثمة اتفاق على أن يقوموا بتجريدنا من السلاح .

ـ هذا صحيح !

ـ قال فومين ذلك في الاجتماع .

ـ وقد اشترينا سيوفنا بفلوسنا!...

ـ لقد عدت ببندقيتي من الحرب الالمانية ، فهل ينبغي عليَّ أن أتخلى عنها ؟

ـ إنهم يريدون سلبنا . ماذا بوسعنا أن نفعل بدون أسلحتنا ؟ إنني بدونها كالمرأة من غير تنورة... سأصبح عارياً .

ثم طلب ميشا كوشيفوي أن يصغوا إلى صوته ، فقال بوقار :

ـ دعوني أتكلم ، يا رفاق! أنا أعجب أن أسمعكم تتكلمون على هذه التاكلة! هل هناك حالة حرب في المنطقة أم لا ؟ فإن كانت هناك حرب ، فلا طائل من النقاش حول الأمر . سلموها! ألم نجعل الأوكرانيين يقومون بالشيء ذاته حين احتللنا قراهم ؟

ومر لابتشنكوف بيده على قبعته الفرو وقال مؤكداً :
ـ إن كل من لا يسلم أسلحته خلال ثلاثة أيام سيقدم إلى محكمة ثورية ويعدم رمياً بالرصاص باعتباره معادياً للثورة .
وبعد برهة من الصمت تنحنح توميلين ونادى :
ـ دعونا نشرع بالانتخاب .
فرشحوا نيفاً وعشرة أسماء . وصاح أحد الفتيان : «أفدييتش» ولكن المزحة خابت . وكان اسم ايفان اليكسييفتش أول المرشحين ، فانتخب بالاجماع .
فاقترح بيوتر ميليخوف :
ـ إن هذا يحسم الأمر ، فلا لزوم لتصويت آخر .
فوافقه القوزاق الرأي فعين ميتا كوشيفوي نائباً للرئيس دونما تصويت .
وفيما كان الأخوان ميليخوف وخريستونيا عائدين إلى بيوتهم إثر الاجتماع صادفوا أنيكوشكا في الطريق . وكان يحمل تحت إبطه بندقيته والعتاد ملفوفاً بصدرية زوجته . وقد بدا عليه الحرج حين رأى القوزاق فاختفى في منعطف جانبي . فنظر بيوتر إلى غريغوري ، ونظر غريغوري إلى خريستونيا ، وضحك الجميع سوية .

١٩

هبت على السهب ريح شرقية عاتية ، وكان الثلج قد ملأ الحفر والوهاد . ولم تعد الطرق والمسالك بادية للعيان . فحيثما جالت العين طالعها السهل الأجرد الأبيض تجتاحه الرياح . وبدا السهب هامداً همود الموتى إلا من غراب هرم بعمر السهب يحلق عالياً بين الفينة والفينة فوق الثلج ويرسل نداءه ، فتحمل الريح صرخته عبر السهب ، فاذا بها تبدو طويلة حزينة ، شأن وتر عميق النغمة جرته بالصدفة يد في سكون الليل .

أما تحت الثلج فكان السهب يمور بالحياة . فحيث تمتدالأرض المحروثة تحت لجج من الثلج الفضي ، وحيث ازدادت الأرض المحروثة انتفاخاً منذ الخريف ، هناك يرقد جويدار الشتاء تحت الجمد تتشبث جذوره الحية الشرهة بالتربة ، ويمضي الجويدار ذو الخضرة الحريرية يسبح بدموع من الندى المتجمد ، ويشد على التربة الهشة السوداء ، يتغذى من دمها الأسود الطافح بالحياة ، ويرتقب حلول الربيع ، حلول الشمس ، ليستوي فيقتحم القشرة الثلجية الرقيقة المرصعة بالماس ، ويشب في أيار أخضر يانعاً . ولا بد أنه سيشب في أوانه ، فتتقاتل طيور السلوى بين سيقانه ، وتشدو قبرة نيسان في سمائه . وستغمره الشمس وتهدهده الرياح ، حتى تتساقط سنابله التي داعبتها الأمطار الكاسحة والرياح القاسية تحت ضربات منجل صاحبه فتلقى حباتها الثقيلة الغضة على ساحة الدرس بكل تواضع .

كان إقليم الدون برمته يحيا حياة منغلقة منسحقة . كانت أيامه كالحة ، ولاح في الأفق شيء ما . وراحت شائعة قاتمة تزحف من أعالي الدون ، من روافده ، من التشير ، من الخوبر ، ومن اليلانكا ، من الأنهر الكبيرة والصغيرة التي تتناثر حولها قرى القوزاق . فقد أفاد بعض الرجال أن الجبهة لم تعد مصدر الخوف ، فقد انحدرت تمضي في سبيلها وتوقفت عند نهر الدونتيس ، إنما مصدر الخوف تلك اللجان الاستثنائية والمحاكم العسكرية . قيل إن هذه اللجان والمحاكم ستصل مناطق القوزاق في يوم قريب ، وإنها قد ظهرت بالفعل في ميغولينسكايا وكازانسكايا وراحت تعقد محاكمات مقتضبة غير شرعية للقوزاق الذين قاتلوا إلى جانب البيض . والظاهر أن قوزاق الدون الأعلى لم يشفع لهم انسحابهم الاختياري من جبهة القتال ، وان إجراءات المحاكمة بسيطة إلى حد مرعب : اتهام ، وبضعة أسئلة ، وصدور الحكم . ومن ثم الموت بالمدفع الرشاش . وقيل إن ثمة في كازانسكايا عديداً من جثث القوزاق ملقاة بين الأدغال باهمال . ولكن رجال الجبهة ضحكوا من هذه

الشائعات : «أكاذيب! حكايات ضباط! كم حاول الكاديت بث الرعب فينا بأكاذيب مثل هذه» .

وكان الناس بين الشك واليقين إزاء تلك الشائعات ، التي كان العديد منها يدور في القرى على الدوام . والشائعات هي التي حملت ضعاف الهمم على الفرار ولكن حين ابتعدت جبهة القتال ، كان ثمة كثيرون لا ينامون الليالي ، يتقلبون على فرشهم ويتضورون فتعجز ملاطفات زوجاتهم عن تهدئة أنفسهم . وقد ندم البعض لعدم فرارهم عبر الدونيتس . ولكن ما فات فات ، فعبثاً تراق الدموع .

وكان قوزاق تتارسكي يجتمعون في الأزقة الجانبية عند المساء ، فيتبادلون الأنباء ، ثم يتنقلون من بيت إلى بيت يشربون الفودكا المنزلية . كانت القرية تحيا حياة هادئة مريرة . وحين حل عيد المرافع لم تجلجل أجراس الزحافات إلا بزفاف واحد : فقد زوّج ميشا كوشيفوي أخته ، فراح الجيران يتحدثون عن هذا الزفاف بسخرية وحقد :

ـ وجدوا وقتاً مناسباً للزواج! لا بد أنه زواج اضطراري!

وفي غداة الانتخابات سلم كل بيت ما لديه من سلاح فتكومت الأسلحة في سقائف ومجازات بيت موخوف الدافئ ، الذي صار مقراً للجنة الثورية وقد سلم بيوتر ميليخوف بندقيته وبندقية غريغوري ، ومسدسين ، وسيفاً ، بيد أنه لم يسلم إلا تلك الأسلحة التي عادا بها من الحرب الألمانية ، واحتفظا بمسدسيهما اللذين كانا يحملانهما وهما ضابطان .

وعاد بيوتر إلى البيت مرتاح البال فألفى غريغوري في سقيفة الباب ، مشمراً عن ساعديه ، يفكك أجزاء صدئة لترباسي بندقيتين وينظفهما بالكيروسين . وكانت البندقيتان مسندتين إلى الموقد .

فتهدل شاربا بيوتر دهشة وقال :

ـ من أين حصلت عليهما ، بحق الشيطان ؟

ـ جاء بهما أبي من فيلونوفو يوم أتى لزيارتي .

والتمعت عينا غريغوري ، وهدر ضاحكاً ، وهو يضرب جنبيه بيديه الملطختين بالكيروسين . وكما ضحك فجأة تلاشت ضحكاته فجأة أيضاً ، وكشّر عن أسنانه التي تشبه أسنان الذئب ، وقال :

ـ البندقيتان ؟ ليس ذلك شيئاً يذكر . أتدري ؟ ـ ثم خفض صوته وجعل يهمس ، رغم أن أحداً غريباً لم يكن في الدار : ـ أتدري ، أبي أخبرني اليوم أن لديه رشاشاً . ـ وراحت شفتاه تقاومان ابتسامة .

ـ تكذب! أين حصل عليه ؟ وما فائدته ؟

ـ يقول إن بعض القوزاق المكلفين بالنقل أعطوه الرشاش لقاء بعض اللبن ، ولكني أعتقد بأنه يكذب ، ذلك الشيطان العجوز! لقد سرقه ، على ما أظن . إنه كالخنفساء يجر كل ما يستطيع ولا يستطيع حمله . لقد همس لي قائلاً : ـ لديّ مدفع رشاش مدفون في ساحة الدرس . إن نابضه الرئيسي يصلح لعمل كلاليب رائعة ، بيد أنني لم ألمسه . ـ فسألته قائلاً : ـ ما حاجتك بالرشاش ؟ ـ فأجابني : ـ أعجبني النابض . خيل إليّ أنه يفيد لعمل شيء ما . إنه شيء نفيس ، ومصنوع من الحديد...

فتميز بيوتر غضباً وهمّ بالذهاب إلى والده والتحدث إليه حول الموضوع ، بيد أن غريغوري ثناه عن ذلك قائلاً :

ـ انتظر قليلاً! ساعدني في تنظيف هذين وتركيبهما . وما حيلتنا في هذا وهو عجوز...

فزنخر بيوتر وهو ينظف الترباسين ، ولكنه بعد برهة قال مفكراً :

ـ ربما كان على حق... قد نجد فيه فائدة . ليظل مدفوناً هناك .

وزارهم ذلك اليوم ايفان توميلين لينقل إليهم شائعة تفيد أن الرمي بالرصاص قائم على قدم وساق في كازانسكايا ، فجلسوا يدخنون ويتحدثون حول الموقد . ولبث بيوتر ، أثناء الحديث ، مقطب الحاجبين مستغرقاً في التفكير حتى تصبب جبينه عرقاً . وحين ذهب توميلين قال :

ـ سأذهب إلى روبيجين وأقابل ياكوف فومين . بلغني أنه عاد إلى

قريته . ويقال أنه يقوم برئاسة اللجنة الثورية الاقليمية . سأذهب وأطلب إليه التدخل اذا ما حدث شيء ما .

وفيما كان بنتلاي بروكوفتش يشد الفرس إلى الزحافة ، لفت داريا نفسها بفروة جديدة وتشاورت مع حماتها بعض الوقت بهمس . ثم دخلتا معاً إلى مخزن الحبوب وجاءتا بصرّة ، فسألهما العجوز :

ـ ما تلك ؟

فلبث بيوتر صامتاً ، ولكن ايلينشنا همست على عجل :

ـ «لديَّ بعض السمن وفرته هنا ، احتفظت به لوقت الحاجة . ولكن ليس هذا وقت التفكير بالسمن ، فأعطيته إلى داريا تقدمه هدية إلى زوجة فومين ، فلعله يصغي إلى بيوتر . ـ ثم أجهشت بالبكاء ، وأردفت : ـ ولداي شقّا طريقهما إلى رتبة الضباط بعرق الجبين ، والآن قد تؤدي بهما هذه الرتبة إلى ...

فقال بنتلاي بروكوفتش :

ـ كفاك نحيباً!

ثم ألقى السوط في داخل الزحافة غاضباً وتقدم إلى بيوتر . وقال :

ـ خذ بعض القمح له أيضاً .

فانفجر بيوتر صائحاً :

ـ ماذا عساه فاعلاً بالقمح بحق الشيطان! من الافضل لو ذهبت إلى أنيكوشكا وجلبت له بعض الفودكا المنزلية ، قمح!...

وذهب بانتلاي بروكوفتش في الحال ليعود بعد بضع دقائق بقارورة فودكا تحت معطفه . وحين وضع القارورة على الأرض قال باستحسان :

ـ إنها فودكا جيدة والله ، إنها بجودة الفودكا التي كنا نشربها أيام القيصر .

فصاحت ايلينشنا به : «لقد شرب منها ، يا له من كلب عجوز!» وتظاهر الشيخ أنه لم يسمع قولها ، فظلع إلى داخل البيت بفتوة وهو يمسح شفتيه الخدرتين ، ويخاوص عينيه راضي النفس .

وانطلق بيوتر تاركاً بوابة بيته مفتوحة وكأنه ضيف .

وأخذ معه فضلاً عن الفودكا قطعة من جوخ من صنع ما قبل الحرب ، وجزمة ، ورطلاً من الشاي الشذيّ الفاخر هدية لزميله السابق في الجندية الذي أصبح يومذاك عظيم السلطان .

وكانت هذه الاشياء كلها ، والكثير غيرها ، نصيبه من الأسلاب حين استولت الكتيبة الثامنة والعشرون على محطة السكة الحديد في ليسكي وقامت بنهب الشاحنات والمخازن . وكان قد استولى على رزمة كبيرة من الألبسة النسائية الداخلية فأرسلها بصحبة والده يوم قام الشيخ بزيارة الجبهة . ويوم عودة بانتلاي بروكوفتش إلى القرية أثارت داريا حسد ناتاليا ودونيا حين تزينت بملابس داخلية لم تشهد القرية لها مثيلاً . كانت مصنوعة من أجود قماش أجنبي ، فهي أنصع من الثلج بياضاً ، وقد طرز كل قطعة منها الشعار والأحرف الأولى ، وكان دانتيل سروالها أرهف من زبد الدون...

وكانت داريا في الليلة الأولى لعودة بيوتر من فيشنسكايا قد أوت إلى الفراش بسروالها الطويل . فابتسم لها مداعباً قبل أن يطفئ المصباح وقال :

ـ اذاً فقد حصلت على سروال رجل لترتديه ؟

فأجابت داريا بنبرة حالمة :

ـ إنه أكثر دفئاً وجمالاً . ما الذي يجعلك تظنه للرجال ؟ لو صح ذلك لوجب أن يكون أكثر طولاً ، ثم ما حاجة الرجال بالدانتيل ؟

فأجابها بيوتر وهو يحك جسمه ، وقد استبد به النعاس :

ـ أحسب أن النبلاء يضعون الدانتيل في سروايلهم . ولكن لست أبالي ، بوسعك أن ترتديه إن شئت .

ولكنه حين اضطجع في الليلة التالية إلى جانب زوجته أبعد نفسه عنها فزعاً وهو ينظر إلى الدانتيل نظرة وجلة وارتباك لم يستطع كتمانها ، ويخشى أن يلمسه شاعراً وكأن داريا غريبة عنه . وفي الليلة الثالثة انتابه الغضب فأمرها بلهجة لا تقبل الرفض :

ـ اخلعي سروالك وألقي به إلى الشيطان! إنه لا يليق بالمرأة أن ترتديه ، وهو ليس سروال نساء على أية حال . ترقدين هنا كالسيدات! أنت تصبحين امرأة أخرى حين ترتدينه .

ونهض صباح اليوم التالي قبل داريا وراح يجرب ارتداء السروال وهو يتنحنح عابساً . وظل وقتاً طويلاً ينظر إلى المشدات الحريرية ، وإلى الدانتيل ، وإلى ساقيه المشعرتين العاريتين فيما تحت ركبتيه . وصادف أن استدار فلمح نفسه في المرآة ، بسرواله المتغضن عند المؤخرة في ثنيات أنيقة ، فبصق وجعل يصب اللعنات وهو يخرج نفسه من السروال كالدب . فعلق اصبعه الكبير بالدانتيل فكاد أن يسقط على الصندوق ، فانتابه غيظ حقيقي فقطع المشدات واستعاد حريته . وقد سألته داريا بنبرة نعسانة : «ماذا تفعل ؟» إلا أن بيوتر خلدإلى صمت جريح ، وراح يزنخر ويبصق دون أن يجيب ، وصباح ذلك اليوم حملت داريا السروال فأودعته الصندوق وهي تتحسر . وكانت قد أودعته كثيراً من حاجيات لا تجد النساء فيها أيما فائدة ، بيد أنها استفادت من التنورات الداخلية خير استفادة ، فرغم أن التنورات الداخلية كانت قصيرة جداً ، إلا ان داريا الذكية كانت ترتديها بحيث تتدلى من تحت تنورتها الاعتيادية . فيبرز الدانتيل مقدار بوصة . ثم تخرج للتباهى أمام الآخرين ، فتكنس الأرض الترابية بدانتليها الهولندي .

وبدت داريا في أبهى وأزهى حلة حين ذهبت بصحبة زوجها لزيارة فومين . كان الدانتيل بادياً من تحت معطفها الفرو ، وكانت سترتها الصوفية جديدة جميلة ، كل ذلك لتدرك زوجة فومين التي صعدت من الثرى إلى الثريا ، أن داريا ، رغم كل شيء ليست قوزاقية من العامة ، بل زوجة ضابط .

لوّح بيوتر بسوطه وطق شفتيه . فانطلقت الفرس الهرمة البطينة تخب في الطريق المحاذي للدون . وبلغا روبيجين في ساعة الغداء ووجدا فومين في

بيته كما أملا . فرحب ببيوتر ، وأجلسه إلى المائدة ، وراح يبتسم بين ثنيات عذاريه الأحمرين حين أخرج بيوتر جرة الفودكا المخلوطة بالقش من الزحافة المفضضة بالثلج...

وقال فومين بصوت وئيد جهوري لطيف : حسناً ، يا صاحبي ، لماذا لم نرك قبل هذا ؟ ـ وكان يلقي إلى داريا النظرات من زاويتي عينيه الزرقاوين الواسعتين المغازلتين ويفتل شاربه بوقار .

ـ حسناً ، أنت تدري ، يا ياكوف يفيموفتش ، لقد تقهقرت الكتائب ، إنه لوقت عصيب .

ـ وهو كذلك! أنت على حق . ـ ثم نادى على زوجته : ـ هيه ، يا امرأة! ايتينا بشيء من الخيار المخلل والكرنب ، أو بعض السمك المجفف...

كان البيت الصغير مدفأ إلى درجة الاختناق . وكان ثمة طفلان جاثمان فوق الموقد : صبي له عينان وسيعتان زرقاوان كعيني أبيه ، وبنت صغيرة . وبعد أن شرب بيوتر قليلاً عرج على مهمته قائلاً :

ـ يدور في القرى كلام كثير عن وصول التشيكا* وقيامهم بإلقاء القبض على القوزاق .

ـ لقد وصلت إلى فيشنسكايا محكمة عسكرية تابعة للجيش الأحمر . ولكن ماذا في ذلك ؟ وماذا يضيرك منها ؟

ـ أنت تدري ، يا ياكوف يفيموفتش ، أنني أعتبر ضابطاً . ولكن أي ضابط أنا ؟ أنا ضابط في المظهر وحسب .

ـ حسناً ، ماذا في ذلك ؟

وشعر فومين بأنه سيد الموقف . وقد بعثت فيه نشوة الخمر الطفيفة الغرور والاعتداد بالنفس ، فراح يمسد شاربه ويشخص إلى بيوتر بنظرة متسلطة لا تريم .

---

* التشيكا ، اللجنة الاستثنائية ـ كان هدفها النضال ضد أعداء السلطة السوفييتية والتشرد والمضاربة في الأعوام الاولى من الحكم السوفييتي المترجمون

وجعل بيوتر يتملقه ، فغدا متواضعاً ذليلاً في موقفه ، رغم أنه اتخذ لهجة أقل تكلفاً :

ـ لقد خدمنا أنا وأنت سوية . وليس بوسعك أن تقول فيَّ كلمة رديئة . هل كنت يوماً ضدك ؟ أبداً! لعنة الله على الكاذب ، ولكني كنت دوماً إلى جانب القوزاق!

ـ نحن ندري ، لا تخف يا بيوتر بانتلايفتش! نحن نعرفك كل المعرفة . لن يمسك أحد بشيء . ولكن ثمة أناساً سوف يمسهم شيء! لقد تخلف العديد من الثعابين ممن يخبئون سلاحهم... هل سلمت سلاحك ؟ ها ؟

وكان انتقال فومين من حديثه البطيء إلى أسئلته اللجوج من السرعة ما أفقد بيوتر اتزانه ، فاندفع الدم إلى وجهه...

ألح فومين متسائلاً ، وهو يميل فوق المائدة :

ـ سلمت أسلحتك ، أليس كذلك ؟ حسناً ، ماذا تنتظر ؟

ـ سلمتها بالطبع ، يا ياكوف يفيموفتش . لا تظن... إنني أتحدث بنية صافية...

فغمز فومين غمزة ثملة وقال :

ـ بنية صافية! نحن نعرف نياتكم الصافية! أنا ابن المنطقة ، كما تعلم . صافح القوزاقي الميسور بيد وأمسك السكين باليد الأخرى... يا للكلاب! لا وجود لنيات صافية هنا . لقد خبرت الكثير من الناس في حياتي . يا للخونة! ولكن لا تخف . لن يصيبوك بأذى . إن كلمتي من ذهب!

وأكلت داريا شيئاً من اللحم البارد . وقد اصطنعت الأدب فلم تأكل من الخبز إلا قليلاً ، رغم أن زوجة فومين كانت لا تني تلحف عليها بالطعام .

وانطلق بيوتر في المساء الباكر ليعود إلى أهله يساوره التفاؤل والأمل المتجدد .

* * *

بعد أن ودع بانتلاي بروكوفتش بيوتر ذهب لزيارة كورشونوف العجوز وكان قد زاره قبيل مجيء الحمر ، ولكنه وجد لوكينشنا منهمكة في اعداد العدة لهرب ميتكا وكان المنزل في حالة الفوضى الشاملة . واذ شعر بانتلاي بروكوفتش بأن زيارته كانت تعيقهم عادإلى بيته . ولكنه أحس آنذاك برغبة في الذهاب ليرى إن كانت الأمور عندهم على ما يرام ، وليجلس ويتجاذب أطراف الحديث عن الفترة التي تحياها القرية .

وأمضى وقتاً طويلاً وهو يظلع في مشيته إلى الطرف الآخر من القرية . وفي الحوش التقى بغريشاكا العجوز وقد فقد العديد من أسنانه ودب الوهن في قواه . كان اليوم أحداً والشيخ ذاهباً إلى صلاة المغرب . فبهت بانتلاي بروكوفتش اذ رآه ، فقد كانت الأوسمة والمداليات التي نالها أثناء الحرب التركية بادية متوهجة من تحت فروته ، وكانت شرائط صغيرة حمر تتلامع بتحد على الياقة المتصلبة لقمصلته قديمة الطراز ، وكان سرواله المقلم العتيق قد دس في جوربيه الأبيضين بعناية ، وعلى رأسه قبعة عسكرية تحمل شعاراً وقد انداحت إلى أذنيه الكبيرتين اللتين تشبهان الشمع .

ـ ماذا ، أيها الجد! هل أنت بكامل عقلك ؟ علام ترتدي الشعار والأوسمة في أيام كهذه ؟

فوضع الشيخ يده على أذنه قائلاً :

ـ هاه ؟

ـ أقول لك : انزع هذا الشعار . انزع هذه الأوسمة . سيلقون القبض عليك إن خرجت بهذه الحالة . ليس بوسعك التجوال على هذه الحالة في ظل الحكم السوفييتي ، فقوانينهم لا تجيز ذلك .

ـ لقد خدمت قيصري الأبيض بصدق وإيمان ، يا بني . وليست هذه حكومة ترضي الله . لست أعترف بها حكومة . لقد أقسمت يمين الولاء للقيصر ألكساندر وليس للفلاحين! ـ ثم مضغ العجوز شفتيه الشاحبتين وأشار إلى المنزل بعصاه وقال : «أتريد ميرون ؟ إنه في البيت .أما ميتكا فقد كان

عليه أن يهرب ، يا ملكة السماء ، أحرسيه! لقد تخلف ولداك ، أليس كذلك ؟ ها هما قوزاقيا زماننا هذا!... أقسما اليمين ، وها إن الجيش بحاجة إلى الرجال وهما باقيان عند زوجتيهما . هل ناتاليا بصحة جيدة ؟

ـ أجل ، ولكن انزع أوسمتك ، يا إلهي ، لقد ركبك الجنون ، أيها الجد!

ـ امضِ في طريقك! أنت أصغر من أن تعلمني!

وخطا الشيخ نحو بانتلاى بروكوفتش مباشرة ، فهز ميليخوف رأسه يائساً وتنحى نازلاً إلى الثلج ليفسح الطريق لمروره .

ونهض ميرون غريغوريفتش ، الذي بدت الشيخوخة واضحة عليه في الأيام القلائل الأخيرة ، يستقبل بانتلاي بروكوفتش ، وقال :

ـ هل رأيت محاربنا الشيخ ؟ إنه مصيبة على رؤوسنا! ومع ذلك لم يأخذ الرب روحه بعد . إنها أفضل طريقة لجلب البلايا على رؤوسنا! علق أوسمته ، وارتدى قبعته ، ثم خرج بكل بساطة! لقد أضحى طفلاً تماماً ، إنه لا يفقه أي شيء .

فقالت لوكينشنا :

ـ دعه يعزي نفسه كما يحلو له ، فلم يبق أمامه عمر طويل .

ثم جلس مع القوزاقيين وراحت تتشكى بمرارة :

ـ حسناً ، كيف أنتم جميعاً ؟ سمعنا أن أعداء المسيح قد طاردوا غريشا . لقد أخذوا أربعة من خيلنا ولم يتركوا لنا سوى فرس ومهر حولي . لقد سلبونا كل شيء!...

فضيق ميرون عينيه وكأنه يسدد الهدف إلى شخص ما وشرع يتكلم بنبرة جديدة يفعمها الحقد . فقال :

ـ ما سبب الدمار الذي يحل في حياتنا ؟ من فعل هذا ؟ إنه من فعل هذه الحكومة الشيطانية! أية حكمة هناك في محاولة المساواة بين الجميع ؟ بوسعك أن تزهق الروح مني ، ولكني لن أرتضي هذه المساواة . لقد تعين

عليَّ أن أشتغل طيلة حياتي بجهد ، واذا بهم يريدون مساواتي برجل لم يرفع في حياته إصبعاً لينتشل نفسه من الفاقة . كلا ، سننتظر قليلاً! إن هذه الحكومة ستقطع شرايين المزارع المجدّ! ولهذا السبب لا نستطيع الانصراف إلى العمل! فما جدوى العمل ، ولأجل من نشتغل ؟ لئن كسبت شيئاً فانهم سيأتونك لينتزعوه منك... انتبه الآن لما أقول . وكما قلت لصديق لي من مريخين ، إن الجبهة تمتد الآن على نهر الدونيتس . ولكن أتراها باقية هناك أبداً ؟ إنني أقول لن أركن إليهم ، أن علينا مدّ يد العون إلى قوزاقنا الذين يعملون وراء الدونيتس...

فسأله بانتلاي بروكوفتش بحذر ، وقد خفض صوته لسبب ما فغدا هامساً :

ـ كيف يكون ذلك برأيك ؟

ـ كيف ؟ بأن نركل هذه الحكومة ونطردها! أجل ، نركلها ركلة شديدة تعيدها إلى اقليم تامبوف . فليتقاسموا مساواتهم مع الفلاحين هناك . إنني على استعداد لأن أقدم كل ما أملك حتى آخر خيط من أجل القضاء على هؤلاء الأعداء . هذا أوان العمل ، والا فسيغلبنا الوقت بلغني من القرى الأخرى أن القوزاق متذمرون هناك . علينا أن نعمل سوية! ـ وانخفض صوته إلى همس لاهث : ـ لقد انسحبت كتائبهم ، ولم يبق منهم الآن سوى قلائل! لم يبق سوى رئيس لكل قرية... لن تستغرق تسوية الحساب معهم سوى لحظة . أما فيشنسكايا... فاذا هجمنا كلنا معاً سنمزقهم إرباً إرباً! لن يتخلى رجالنا عنا . إنه لأمر أكيد .

فنهض بانتلاي بروكوفتش على قدميه . ثم نصح ميرون بقلق وهو يزن كلماته بعناية :

ـ حذار من الانزلاق! وإلا فستجني لنفسك المتاعب . صحيح أن القوزاق مترددون ، ولكن الشيطان وحده يعلم إلى أية وجهة سيتجهون في النهاية . ليس بوسعك هذه الأيام أن تتحدث في هذه الأمور إلى كل الناس... أنا لا

أستطيع فهم القوزاق الشباب أبداً ، يبدو كأنهم يعيشون بعيون مغمضة . رحل البعض منهم ، وتخلف الباقون . انها حياة شاقة . هذه ليست حياة ، بل ظلام في ظلام...

فابتسم ميرون ملاطفاً وقال :

ـ لا تدع الشك يساورك! أنا لا ألقي الكلام جزافاً . فالناس كالأغنام : حينما يسير الكبش ، يتبعه القطيع برمته . ولذا ينبغي أن ندلهم على الطريق . علينا أن نفتح أعينهم على هذه الحكومة . فحيث لا تجد الغيوم لا تسمع الرعد . اني أقول للقوزاق بصراحة : عليهم أن يهبوا للتمرد لقد سمعت أنهم أصدروا الأوامر بشنق كافة القوزاق . كيف نقبل بهذا ؟

واحمر وجه ميرون غريغوريتش تحت نمشه ، وأردف :

ـ ماذا سيحل بنا ، يا بروكوفيتش ؟ بلغني أنهم شرعوا بإعدام الناس رمياً بالرصاص... أتسمي هذه حياة ؟ أنظر كيف حل الخراب والدمار بكل شيء خلال هذه الأعوام! فليس هناك كيروسين ولا ثقاب . ولم يكن لدى موخوف ما يبيعه إلا الحلوى قبل أن يغلق حانوته نهائياً! وماذا بشأن البذار ؟ قارن ما زرعنا الآن بما كنا نزرع سابقاً . لقد استولوا على خيلنا . انهم يحسنون الاستيلاء على كل شيء ، ولكن من ذا الذي سيعوض عن هذه الأشياء كلها ؟ كنا نملك في صباي ستاً وثمانين حصاناً ، أنت تذكر هذا ، أليس كذلك ؟ كانت أسرع من الطير وبوسعها أن تلحق حتى بجواد عربي أصيل!... وكان أحدها كستنائياً ، ذا غرة على ناصيته . كنت أذهب به لقنص الأرانب البرية . أخرج به إلى السهب وأفزع أرنباً من بين العشب الطويل فأطارده ثلاثمائة ياردة أو يزيد ثم أدهسه بحصاني . ما زلت أتذكر ذلك حتى الآن...

ثم علت وجه ميرون ابتسامة منفعلة ، وأضاف :

ـ كنت ذات يوم على صهوة هذا الحصان في طريقي إلى الطاحونة

فانطلق أرنب في الطريق ، أمامي مباشرة . فاستدرت لأطارده ، فاذا به يجري حدر التل ويمضي عبر الدون . كان ذلك عشية عيد المرافع وقد جرفت الرياح الثلج من على الجليد ، ولشد ما كان هذا زلقاً ، فهوى الحصان ولم ينهض أبداً . كاد الخوف يعصف بي . انتزعت السرج وعدت أجري إلى البيت . قلت : « أبتاه ، أهلكت حصاني في طراد أرنب! » فاذا به يقول : « ولكن هل اقتنصت الأرنب ؟ » ، « لا يا أبي » ، « حسناً ، أسرج الأدهم واذهب فاقتنصه ، يا ابن العاهرة! » هكذا كانت الحياة! كان القوزاق يومذاك يحيون حياة ممتعة . لم يكن ليضيرهم أن يقتل المرء حصاناً ما دام قد اقتنص أرنباً . كان الحصان يساوي المائة والأرنب قرشاً... آه ، ولكن ما جدوى الكلام!...

* * *

عاد بنتلاي بروكوفتش إلى البيت وقد اشتدت به الحيرة أكثر من ذي قبل ، وعصف به القلق والحنين . وكان يشعر الآن شعورا يقينياً بأن عناصر غريبة معادية شرعت تتولى زمام الحياة . كان في سابق الأيام يدبر أمور حقله وحياته كما لو كان على صهوة جواد حسن التدريب في سباق الطراد ، ولكن ها هو الجواد وقد استبد به الهياج فاذا هو مرتم على ظهره المتمايل وهو يبذل جهداً يائساً ليجنب نفسه السقوط .

توارى المستقبل في ثنايا الضباب . فها هو ذا ميرون كورشونوف الذي كان ذات يوم أغنى قوزاقي في المنطقة برمتها ، وها هي الأعوام الثلاثة الماضية قد هدّت حيله : ذهب عماله جميعاً ، وصار لا يزرع الا النزر اليسير ، وكان عليه أن يبيع ثيرانه وخيله لقاءأثمان مضحكة وبعملة تتناقص قيمتها على الدوام . ما أشبه اليوم بحلم ، بضباب ينضح من الدون . لم يبق سوى المنزل بشرفته ذات النقوش ، وأفاريزه الخشبية المتقشرة يروي قصة أمجاده الغابرة . ولقد حالت لحية ميرون التي يحاكي لونها حمرة الثعالب ،

حالت قبل أوانها بوقت طويل ، ودب الشيب بقعاً صغيرة في بادئ الأمر ، أشبه بشجيرات على الرمال ، حتى اجتاح كل صدغيه ببياضه الأملح ، ثم جعل يزحف إلى ناصيته شعرة تلو شعرة . وكان ثمة عاملان يتنازعان السلطة في نفس ميرون . فقد كان دمه الفوار يحدوه للعمل ، ويحمله على زرع أرضه ، وبناء سقائفه ، وإصلاح معدات حقله ، وزيادة ثروته . ولكن ما فتئت تجثم على صدره : ما جدوى ثروته ؟ إنها ستنهار برمتها . فاذا بالإهمال يلقي ظلاله المميتة على كل شيء . فلم تعد يداه اللتان ترك عليهما الكدح آثاره تمسكان بالمطرقة أو المنشار كعهدهما في سالف الأيام بل تحطان على ركبتيه بكسل . لقد حلّت الشيخوخة فيه قبل أوانها ، وحتى الآن غدت تثير فيه النفور : فقد أتاها في الربيع كما تؤتى زوجة غير محبوبة بحكم من العادة ، وشعور بالواجب . وصار يضاعف أملاكه دونما سرور ويخسرها دون أن يخامره أسفه المرير السابق . فحين أخذ الحمر أحصنته لم يرف له جفن ، ولكنه قبل عامين كاد أن يبقر زوجته بالمذراة حين وطأت الثيران شيئاً لا يؤبه له من القش . كان جيرانه يدمدمون قائلين : لقد اكتنز من المال حتى التخمة .

ظلع بانتلاي بروكوفتش إلى بيته واستلقى على فراشه . وأحس في نقرة في أسفل الصدر ألماً ممضاً ، وتصاعد إلى بلعومه غثيان بطيء . وبعد العشاء طلب إلى زوجته أن تأتيه بشيء من البطيخ المملح ثم اعترته نوبة من القشعريرة فأخذ طريقه إلى الموقد عبر الغرفة بشق النفس ، وقبيل الصبح انهد فاقد الوعي تلهبه حمى التيفوس . وتشققت شفتاه ، واصفر وجهه وقتم بياض عينيه بظل أزرق . وقد جاءت دروزديخا العجوز ففصدت دمه ، وسحبت من أوردته ملء صحنين من السائل الأسود كالقطران إلا أنه لم يستعد وعيه : اشتد وجهه بياضاً وفغر فاه وهو يلهث ناشداً الهواء .

٢٠

في أواخر كانون الثاني ، استدعى ايفان اليكسييفتش إلى فيشنسكايا لمقابلة رئيس اللجنة الثورية للمنطقة . وكان المفروض أن يعودإلى تتارسكي مساء اليوم ذاته ، فجلس ميشا كوشيفوي في انتظاره في منزل موخوف الخاوي ، وراء منضدة الكتابة الكبيرة العائدة لرب البيت السابق . وكان يجلس على حافة الشباك رجل ميليشيا من فيشنسكايا يدعى أولشانوف (فلم يكن ثمة إلا كرسي واحد في الغرفة) ، وكان أولشانوف يدخن بصمت ويبصق عبر الغرفة بمهارة فائقة . وكانت سماء الغروب عبر النافذة قد استحالت ليلاً مرصعاً بالكواكب وخيم على القرية سكون الصقيع المرنّ . وكان ميشا يحرر أمراً بتحري منزل ستيبان أستاخوف ، ويشخص بين آونة وأخرى إلى النافذة ، إلى أغصان أشجار القيقب والمفضضة .

اجتاز أحدهم الشرفة ، ودخل سقيفة الباب ، وجزمته اللبادية تخشخش بهدوء . فقال ميشا :

ـ ها هو ذا!

ثم نهض ، ولكنه سمع في المجاز وقع خطوات غير مألوفة ، ونحنحة غريبة ، ثم دخل غريغوري ميليخوف ، وقد استحال وجهه أحمر داكناً من الزمهرير ، وكانت بلورات ثلجية عالقة بحاجبيه وعذاريه ، ومعطفه مزرراً حتى الرقبة ، قال :

رأيت في النافذة ضوءاً ، فعنّ لي أن أدخل . كيف حالك ؟

فحياه ميشا ، قائلاً :

ـ مرحباً ، هل من شكاية ؟

ـ لا شكاية . جئت لتبادل الحديث ولأطلب منك عدم إرسالنا في مهمة النقل . ان خيلنا تظلع .

فنظر إليه ميشا بزاوية عينه ، وقال :

ـ ولكن ماذا عن الثيران ؟

ـ ليس بوسعك استخدام الثيران للمواصلات! فالطريق زلقة .

وتناهى اليهم وقع أقدام تجرجر على الألواح ، التي تجمدت من الصقيع ، حين ارتقى أحدهم الدرج ، وفي اللحظة التالية ولج الغرفة ايفان اليكسييفتش ودخل الغرفة معه الهواء المنعش القارس ورائحة الحشيش اليابس والدخان وقد تلفع بعباءة كالمرأة ، فصاح :

ـ أنا متجمد ، متجمد ، يا أولاد! مرحباً غريغوري! فيم تجوالك ليلاً ؟ هذه العباءات من عمل الشيطان ، الريح تنفذ خلالها كما تنفذ خلال الغربال .

وفيما خلع عباءته مضى يتحدث بلهفة وعيناه تومضان :

ـ حسناً ، لقد قابلت الرئيس . دخلت مكتبه فصافحني وقال : «اجلس ، أيها الرفيق!» لا تنسوا أنه رئيس منطقة! وكيف كانت الأمور في العهد السابق ؟ لا بد أن يكون مكانه أمير لواء ، فيحتم على المرء أن يقف أمامه وكأنه في عرض عسكري . هكذا هي حكومتنا اليوم... الكل سواسية .

فلم يستطع غريغوري أن يفهم سبب حديث ايفان الجذل والسعادة والحيوية المرتسمتين على وجهه ، فسأله قائلاً :

ـ فيم اغتباطك ، يا ايفان اليكسييفتش ؟

فرفع ذقنه ، وقال :

ـ فيم اغتباطي ؟ لقد عاملني معاملة الرجال ، فلماذا لا أغتبط ، مدّ لي يده كالند للند ، وطلب إليَّ الجلوس...

فمسّد غريغوري عذاريه ، وقال :

ـ حتى الجنرالات يخرجون هذه الأيام بقمصان من الجنفاص . لقد رأيت أيام التراجع ضابطاً تعلو كتفه شارات مرسومة بقلم لا يمحي حبره . وكانوا يمدون أيديهم إلى القوزاق كذلك...

ـ الجنرالات يفعلون ذلك مكرهين ، أما هؤلاء فهو طبعهم ، ألا ترى الفرق ؟

فهز غريغوري رأسه قائلاً :

ـ لا فرق .

ـ وهل تعتقد أن هذه الحكومة تشبه سابقتها ؟ لماذا قاتلت ؟ أمن أجل الجنرالات ؟ تقول لا فرق بين الحكومتين!

ـ قاتلت من أجل نفسي ، وليس من أجل الجنرالات . لو توخيت الصدق ، لقلت انني لا أميل إلى أي من الحكومتين .

ـ إلى من تميل اذاً ؟

ـ لا أميل إلى أحد .

فبصق أولشانوف ، رجل الميليشيا ، عبر الغرفة مباشرة ، ثم ابتسم مؤيداً . فلا ريب أنه هو الآخر لم يجد في أي من الحكومتين ما يرضيه .

فقال ميشا متعمداً جرح شعور غريغوري :

ـ لا أظنك كنت تحمل آراء كهذه في السابق .

ولكن غريغوري لم يظهر أنه قد تأثر ، فأجاب :

ـ أنت ، وأنا ، والجميع ، كنا نحمل أفكاراً مختلفة...

كان ايفان اليكسييفتش متلهفاً للتخلص من غريغوري كي يروي لميشا أخبار رحلته وحديثه مع رئيس المنطقة ، ولكن الحديث بدأ يثير قلقه ، فنزل إلى حومة النقاش ، متأثراً بما شاهد وسمع من فيشنسكايا . فقال :

ـ أتيت هنا لتضللنا! أنت ، يا غريغوري ، لا تعرف ما تريد .

ـ صدقت ، لا أعرف .

ـ لماذا تعادي هذه الحكومة ؟

ـ وعلام تساندها أنت ؟ متى أصبحت أحمر هكذا ؟

ـ سوف لا نتحدث عن ذلك . سوف نتحدث عما يجري الآن . ولا تكثر القول عن هذه الحكومة ، فأنا رئيس مجلس قرية ، وليس من الحكمة أن أجادلك في هذا المكان .

ـ دعنا من هذا الحديث اذاً . حان وقت ذهابي ، على أية حال . جئت

بشأن سخرة النقل ، أما عن حكومتك هذه ، فقل ما تشاء ، ولكنها حكومة عفنة . قل لي شيئاً واحداً بصراحة ، فندع الأمر عند ذلك الحد : ما نفع هذه الحكومة للقوزاق ؟

ـ أي قوزاق ؟ هناك قوزاق من شتى الفئات .

ـ لكل الفئات...

ـ الحرية ، والمساواة... مهلاً... هناك شيء لا تعرفه...

فقاطعه غريغوري قائلاً :

ـ هذا ما قالوه عام ١٩١٧ ، ولكن ينبغي لهم الآن أن يفكروا بشيء أفضل . هل يعطوننا الأرض ؟ أم الحرية ؟ هل يساوون بين الجميع ؟ ان لدينا الآن من الأرض ما يكفي لإتخامنا . ولسنا نريد مزيداً من الحرية فيقتل بعضنا البعض في الشوارع . كنا فيما مضى ننتخب اتماناتنا بأنفسنا ، ولكنهم الآن يفرضونهم علينا فرضاً . ان هذه الحكومة لا تجلب للقوزاق سوى الخراب . إنها حكومة فلاحين ، وإن الفلاحين هم الذين بحاجة إليها . ولسنا بحاجةإلى الجنرالات كذلك . سيان بين الشيوعيين والجنرالات : إنهم جميعاً نير في أعناقنا .

ـ أثرياء القوزاق ليسوا بحاجة إليها ، ولكن ماذا عن الآخرين ؟ أيها الأحمق! هناك ثلاثة قوزاق أثرياء في القرية ، وكم عدد الفقراء ؟ وماذا عساك فاعلاً بالشغيلة ؟ كلا ، ليس بوسعنا أن نقبل رأيك فيها . ليتنازل أثرياء القوزاق عن بعض أموالهم وليعطوها إلى الفقراء . وإن هم امتنعوا عن ذلك ، فسننتزعها مع جلودهم أيضاً! لقد سئمنا من تحكمهم برقابنا! لقد سرقوا الأرض منا...

ـ لم يسرقوها ، بل استولوا عليها عن طريق الفتح . لقد سكب جدادنا الدم في سبيلها ، وربما كان ذلك مرجع خصبها...

ـ هذا لا يغير من الأمر شيئاً ، عليهم أن يتقاسموها مع أولئك الذين يحتاجون إليها . أما أنت... فأشبه بديك الطقس على السطح . فأنت تدور مع الرياح . إن رجالاً على شاكلتك يثيرون المتاعب .

ـ لا داعي لشتمي! لقد أتيت بدافع صداقتي القديمة لكي أقول لكم ما يغلي في دخيلتي . أنت تتحدث عن «المساواة» . هكذا كسب البلاشفة الجهلة إلى جانبهم . إنهم يستخدمون كثيراً من الكلمات المعسولة طعماً ، فيدلف أناس كثيرون في شباكهم كالأسماك . وأين هي «مساواتك» هذه ؟ أنظرإلى الجيش الأحمر . لقد مروا بالقرية ، وكان ضباط الرعيل يرتدون جزماً من الجلد بلون الكروم ، أما ايفان* وصحبه فلا يرتدون الا الأسمال . لقد شاهدت قوميسارات يرتدون الجلد من أعلى الرأس إلى أسفل القدم : البنطال والسترة وكل شيء . ولم يكن لدى الآخرين جلد يكفي لصنع حذاء . لم يكد يمضي على الحكم السوفييتي سوى عام واحد ، فما عسى أن يحل بمساواتهم حين ترسخ جذور هذا الحكم تماماً ؟ كنا في جبهة القتال نقول إننا سنغدو جميعاً سواسية ، فيتلقى الضباط والجنود رواتب واحدة . ولكن لا! لم يكن ذلك إلا طعماً! فمهما بلغ السيد من السوء فإن الصعلوك الذي يغدو سيداً أسوأ منه بعشر مرات . كان الضباط القدامى سيئين ، ولكن حين يصير القوزاقي ضابطاً فما عليك إلا أن ترقد وتموت ، فليس في الكون أسوأ منه . لقد نال من الثقافة قدر ما نال أي قوزاقي آخر ، فتعلم ثني أذيال الثيران ، ولكن أنظر اليه الآن! علا نجمه وأثملته السطوة ، وهو مستعد لسلخ جلد أي انسان آخر لكيما يحتفظ بكرسيه .

فرد ايفان اليكسييفتش على غريغوري ببرود دون أن يرفع عينيه إلى وجهه :

ـ إن كلامك يعبر عن عداء للثورة . أنت لن تستطيع أن تجرني إلى طريقك ولست أريد أن أحطمك ، لقد مضى زمن طويل مذ رأيتك آخر مرة ، ولا بد من القول بأنك قد تغيرت . إنك الآن من أعداء الحكومة السوفييتية .

ـ لم أنتظر منك مثل هذا الكلام! ألأنني أبديت رأيي في نوع الحكم

---

* يراد بذلك سواد الناس ، إذ إن ايفان اكثر الأسماء في روسيا شيوعا . المترجمون

الذي ينبغي أن يقوم عندنا ، أصبح معادياً للثورة ، هل أنا واحد من الكاديت ؟

فاستعار ايفان من أولشانوف كيس تبغه ، ثم قال بنبرة أخف حدة :

ـ كيف أوضح لك الأمر ؟ فالناس يتخذون هذا الموقف أو ذاك بالاحتكام إلى عقولهم وقلوبهم . ليس بوسعي أن أعبر عن الأمر بالكلمات ، وذلك لجهلي وقلة ثقافتي . أنا نفسي يتعين عليَّ أن أتلمس طريقي إلى أشياء كثيرة .

فصاح ميشا مغتاظاً :

ـ كفاني ما سمعت من هذا الكلام!

ثم غادروا المنزل سوية . وظل غريغوري صامتاً . وحين افتراقهم ، قال له ايفان اليكسييفتش :

ـ أفضل لك أن تكتم مثل هذه الأفكار في نفسك ، والا فلن أعدم وسيلة لإسكاتك ، رغم أنك من أقاربي . لن أدعك تشيع البلبلة بين القوزاق ، حسبهم ما عندهم من بلبلة . وإياك أن تعترض سبيلنا ، وإلا فسوف نسحقك...إلى اللقاء!

فمضى غريغوري في طريقه شاعراً أنه قطع على نفسه خط الرجعة . لقد اتضحت الأمور التي كان يغشاها الشك ، فكل ما فعله هو أن أفصح عن الأفكار التي كانت تدور في خلده منذ مدة طويلة . كان يقف في مفترق الطرق ، يتنازعه عاملان ، فيصد عن كليهما مما خلق في نفسه شعوراً عميقاً بالغيظ لا يخمد أواره .

ومضى ايفان وميشا سوية . فشرع ايفان يحكي له عن اجتماعه برئيس المنطقة . ولكنه حين أخذ يتكلم لم يعد يجد في الأمر ما كان قد استشعره من مسرة ومتعة . وحاول أن يستعيد مزاجه المرح ، غير أنه لم يفلح : كان شيء يعترض سبيله ويحول دون تمتعه ببهجة الحياة وملء صدره بالهواء المنعش القارس ولم تكن العقبة سوى غريغوري وكلامه . واذ تذكر النقاش الذي دار بينهما قال بصوت ينم عن الحقد :

ـ ليس غريغوري وأمثاله سوى عثرات في الطريق ، الحثالة! إنه لا يبلغ ضفة النهر أبداً ، بل يظل يطفو كروث البقر اليابس ؛ إن جاء ثانية فسألقنه درساً! وإن شرع بإثارة الناس ، فسنجد له مكاناً صغيراً هادئاً... حسناً ، وأنت ، يا ميشا ؟ كيف تسير أمورك ؟

فنفس ميشا عن أفكاره بأن أرسل لعنة .

ومضيا يسيران في الشارع ، فالتفت كوشيفوي إلى ايفان والابتسامة تلوح على شفتيه المكتنزتين اللتين تحاكيان شفتي فتاة . وقال :

ـ أي شيء عفن هي السياسة ، بحق الشيطان! بوسع المرء أن يتحدث في أي موضوع آخر يشاء ، دون أن ينتابه غم كهذا . هوذا غريغوري : كنا صديقين مذ كنا في المدرسة سوية . وكنا نلاحق الفتيات سوية ، وكان أشبه بأخ لي ، وها نحن أولاء نشرع في الكلام فيستبد بي الجنون حتى يوشك قلبي أن ينفطر كما تنفطر البطيخة . كنت أختض من رأسي إلى أخمص قدمي . فكأنه انتزع مني شيئاً عزيزاً أو سلبه مني . إن كلاماً مثل هذا قد يدفع المرء إلى القتل . إن هذه الحرب لا تعرف أخوّة أو قرابة . فليس أمامك إلا أن تسير في الطريق الذي رسمته لنفسك .

ثم ارتعش صوت ميشا لما كان يستبد به من شعور جارح وأردف :

ـ لم يبلغ غضبي منه على فتاة انتزعها مني يوماً ما بلغه الآن على ما قاله . إن ذلك يريك كم ابتعدت الشقة بيننا!

٢١

جعل الثلج يذوب وهو يتساقط . وعند الظهر انهالت أكوام الثلج من على الصخور الناتئة محدثة هديراً ثقيلاً أصمّ . ودبت الحركة في الغابة الواقعة في الجانب الآخر من الدون وسرى حفيفها . وتعرت جذوع البلوط ، وراحت قطرات صغيرة تتساقط من أغصانها فتنفذ خلل الثلج إلى الأرض التي كانت

تنعم بالدفء تحت غطاء من أوراق الخريف المتعفنة . وكانت رائحة الربيع الحارة المسكرة تفوح ، وعبق البستان بشذى الكرز . وظهرت الحفر على صفحة الدون الجليدية ، وراح الجليد ينحسر عن الضفاف ، وطفا على حوافي الحفر ماء رائق أخضر .

كانت إحدى قوافل النقل التي تحمل العتاد إلى جبهة الدون قد توقفت في تتارسكي لتبديل الزحافات . وقد برهن الجنود الحمر المرافقون للقافلة أنهم فتيان نشطون . وظل آمرهم يراقب ايفان اليكسييفتش قائلاً له : «سأبقى عندك ، وإلا فإنك ستختفي عن الأنظار فلا نعرف أين أنت» . وذهب الاخرون ليجمعوا الزحافات وكانوا بحاجة إلى سبع وأربعين زحافة ذات حصانين .

وذهب يميليان ، حوذي موخوف السابق ، إلى بيت ميليخوف فوجد بيوتر وقال له :

ـ شد حصانيكم لحمل العتاد إلى بوكوفسكايا .

فزنخر بيوتر وقال دون أن يتحرك قيد شعره :

ـ الحصانان يظلعان ، ثم إنني نقلت البارحة بعض الجرحى إلى فيشنسكايا بواسطة الفرس .

فلم يقل يميليان كلمة أخرى ، بل استدار ذاهباًإلى الاسطبل . فجرى بيوتر وراءه ، حاسر الرأس ، وهو يصيح :

ـ هيه! انتظر دقيقة... لا تذهب هناك .

فحدّق يميليان في بيوتر بصرامة وقال : «لا تعبث اذاً! أريد أن أرى حصانيكم... أحسبكم جعلتموهما يظلعان بالمطرقة . ليس بوسعكم ذر الرماد في عيني . لقد رأيت في عمري من الخيل قدر ما رأيتم من الجل . شد أي شيء ، حصانين أو ثورين سيان عندي!

وذهب غريغوري برفقة القافلة . وقبل أن يرحل هرع إلى المطبخ ، فقبل طفليه ، وقال لهما على عجل :

ـ سأعود إليكما بهدايا لطيفة ، ولكن عليكما أن تحسنا السلوك وتصغيا إلى قول أمكما . ـ لكنه قال لبيوتر : ـ لا يأخذك القلق عليَّ . لن أذهب بعيداً . اذا أرادوا الذهاب أبعد من بوكوفسكايا فسأترك الثورين وأرجع . ولكنني قد لا أعود إلى القرية . سأمكث في بيت خالتنا في سينغين . تعال لزيارتي ، يا بيوتر ، لست أحب البقاء هنا . ـ ثم ابتسم بمرارة ، وقال : ـ حسناً ، مع السلامة . لا تتأسي على فراقي كثيراً يا ناتاليا .

ثم حملت الزحافة بالقذائف عند حانوت موخوف ، الذي جعلوا منه مخزناً للطعام وانطلقوا في رحلتهم .

وفيما كان غريغوري راقداً في الزحافة متدثراً بمعطفه ، والثوران يسيران أمامه بثبات ، قال في دخيلة أفكاره : «الحمر يقاتلون في سبيل حياة أفضل لهم ، ولكننا قاتلنا أيضاً من أجل حياة أفضل لنا . فلا وجود للحقيقة في هذه الحياة . فالغالب يأكل المغلوب . وقد كنت أبحث عن الحقيقة التي لا وجود لها ، فأضنيت قلبي من أجلها ، وانتقلت من جانب إلى آخر . يقال أن التتار حاولوا ، في سابق الأيام ، أن يستولوا على أراضي الدون ويجعلوا منا عبيداً . وها قد جاء الآن دور روسيا . لا ، لا سلام معهم! إنهم غرباء عني وعن القوزاق جميعاً . سيدرك القوزاق الآن ذلك . لقد فررنا من الجبهة ، وها هم الجميع مثلي يندمون... ولكن فات الأوان» .

كان كتف الطريق مطرزاً بحاشية متماوجة من السهب الذي كان يتلاشى بين آونة وأخرى في أخدود يعج بالأحراش ، وكانت الحقول الثلجية مترامية على مدى العين لا تكاد ترتفع عن مستوى الزحافة أبداً . وامتد الطريق لا تحده نهاية ، يبعث في النفس شعوراً بانقباض خدر .

وراح غريغوري يستحث الثورين ، بين آونة وأخرى بوسن ، ثم أغفى متكئاً على صناديق الذخيرة . فبعد أن دخن سيكارة ، دفن رأسه في القش . وكان يعبق برائحة البرسيم اليابس وأنسام تموز . ثم أخذه النوم . فحلم أنه

يسير وأكسينيا خلل ذرة طويلة وهي تحمل بين ذراعيها طفلة بكل حنان ، وعيناها القادحتان مسمرتان في غريغوري بترقب ، وكان بوسع غريغوري أن يسمع وجيب قلبه ، وحفيف الذرة الغريد ، ويشاهد زركش العشب الألق يفصل بين الحقول ، وزرقة السماء الصافية . لقد عاوده غرام أكسينيا بكل جوارحه ، وفي كل ضربة من ضربات قلبه . ولكنه في الوقت نفسه كان يدرك أن ما ترى عيناه ليس حقيقة بل ظلاً آفلاً من عالم الرؤى . على أنه استمرأ حلمه ذاك واعتبره واقعاً . كانت أكسينيا كما عهدها قبل خمسة أعوام سوى أنها غدت أكثر تحفظاً وفتوراً ورأى غريغوري خصلات شعرها المخملي تعابثها الريح من حول جيدها كما لم يرها من قبل . ورأى أطراف عصابة رأسها البيضاء...

لكن رجة من الزحافة أيقظته ، فعادت به جلبة الأصوات إلى دنيا الواقع . وحين رفع عينيه رأى أنهم يمرون بصف طويل من زحافات النقل تتحرك في اتجاه معاكس .

وكان بودوفسكوف يسوق زحافته أمام غريغوري ، فسألهم بصوت مبحوح :

ـ ما حملكم ، يا أصدقاء ؟

وراحت مزالق الزحافات تصر ، وأظلاف الثيران المتشققة تخشخش على الثلج . ومرت فترة طويلة من الصمت قبل أن يجيبه أحد على السؤال فقال أخيراً أحد السواق :

ـ جثث . ماتوا بالتيفوس...

فرفع غريغوري نظره فرأى جثثاً مغطاة بالمشمع ممددة على الزحافات المارة به وارتطمت سكة زحافته بيد ظاهرة من تحت المشمع فانبعث من لحمها رنين معدني خاب... فأشاح غريغوري بنظره غير آبه .

وجعلت رائحة البرسيم الثقيلة المخدرة تبعث فيه النعاس من جديد ، وتستدرج إلى ذاكرته أحداث الماضي التي كاد يطويها النسيان ، وتحدو به

أن يفتح قلبه لمشاعر الماضي التي كانت أشبه بالسيف البتار . وتناهبه ألم ممض ولذيذ معاً وهو يرتمي في الزحافة ثانية ، فيلامس خده سيقان البرسيم الصفر . وراح قلبه ينزف ويعلو وجيبه تحت سياط الذكريات ، ولم يعاوده النوم إلا بعد وقت طويل .

٢٢

تجمع حول لجنة تتارسكي الثورية بعض الأشخاص ، هم دافيد العامل ، وتيموفي ، ويميليان حوذي موخوف السابق ، والاسكافي فيلكا ذو الوجه المجدور . وكان على ايفان اليكسييفتش أن يركن إلى هذه الجماعة لإسناده في نشاطه اليومي فقد أدرك أن بينه وبين أهل القرية الاخرين جداراً ما ينفك يرتفع . كان القوزاق يحجمون عن حضور الاجتماعات ، فلا يأتون إلا بعد أن يدور دافيد والآخرون على البيوت مرات عديدة ، وحينذاك يوافقون على كل المقترحات بصمت . وكان القوزاق الشباب يشكلون أغلبية الذين يحضرون هذه الاجتماعات . ولم يكن هناك مؤيدون حتى بين هؤلاء . فلم تكن عينا ايفان لتقع أثناء الاجتماعات إلا على وجوه جامدة ، ونظرات مرتابة وأعين مسبلة . فكان الفتور يسري إلى قلبه ، وتلوح في عينيه نظرة توسل ، ويغدو صوته واهناً تعوزه الثقة . وذات يوم شكا له فيلكا قائلاً :

ـ انقطعنا عن القرية ، أيها الرفيق كوتلياروف . فقد ركب الشيطان رؤوسهم . ذهبت البارحة لأحصل على زحافات لنقل جرحى الجيش الاحمر إلى فيشنسكايا ، لكن أحداً لم يقبل بالذهاب . إننا لن نتقدم كثيراً على هذه الشاكلة .

وهتف يميليان وهو يدك الغليون بإبهامه :

ـ وما أشد ما يسرفون في الشراب هذه الأيام! الفودكا تُقطَّر الآن في كل منزل .

وعبس ميشا كوشيفوي وكتم خواطره.، ولكنهم حين هموا بالذهاب إلى بيوتهم مساء طلب من ايفان اليكسييفتش قائلاً :

ـ دعني آخذ بندقية .

ـ لماذا ؟

ـ لست أميل إلى التجوال خاوي اليدين . أم تراك لم تلاحظ شيئاً ؟ أحسب أن علينا اعتقال البعض... ينبغي أن نعتقل غريغوري ميليخوف ، وبولديريف العجوز ، وماتفي كاشولين ، وميرون كورشونوف . إن هؤلاء الأشخاص يقرأون في آذان القوزاق... إنهم في انتظار عودة رجالهم من الدونيتس .

فقطب ايفان اليكسييفتش وجهه وأتى حركة قانطة :

ـ إن نحن شرعنا في اقتلاع الدغل ، فإن علينا اجتثاث الكثيرين من مثل هؤلاء . لقد بدأ الناس يتذبذبون... بعضهم يؤيدنا ، ولكنهم يهابون كورشونوف . إنهم يخشون عودة ابنه ميتكا من الدونيتس فيزهق أرواحهم .

وتغيرت الحياة تغيراً عنيفاً ومفاجئاً... فجاء رسول عاجل من فيشنسكايا في اليوم التالي ، حاملاً تعليمات تقضي بفرض أتاوة على أغنى العوائل . فكان لزاماً أن يجبي من القرية مبلغ أربعين ألف روبل فحددت اللجنة الثورية مقدار ما ينبغي لكل عائلة أن تسهم به . وحين حل اليوم التالي كان قد جمع قرابة ثمانية عشر ألف روبل ، وضعت في كيسين . وكتب ايفان اليكسييفتش رسالةإلى لجنة المنطقة . ثم جاء منها ثلاثة رجال من الميليشيا يحملون هذا الامر : « يجب أن يعتقل أولئك الذين رفضوا تأدية أتاواتهم وأن يرسلوا إلى فيشنسكايا مخفورين » فألقى القبض فوراً على أربعة شيوخ أودعوا موقتاً قبو موخوف ، حيث كان يختزن تفاحه الشتائي في السابق .

وضجت القرية مثل خلية نحل مستثار . كان كورشونوف قد رفض ، رفضاً باتاً ، أن يدفع أي شيء مما يكتنزه من العملة التي ما انفكت قيمتها تهبط . على أن الوقت قد حان ليقدم حسابه عن أيامه المترفة الغابرة .

فوصل القرية محقق ، وهو قوزاقي شاب من فيشنسكايا كان قد خدم في الكتيبة الثامنة والعشرين وبصحبته رجل يرتدي فروة فوق صدرية جلدية . وعرضوا على ايفان أمر المحكمة الثورية . ثم اختلوا به في مكتبه . وكان رفيق المحقق رجلاً كهلاً ، حليق الوجه ، فقال بجد :

ـ لقد بدأت القلاقل في المنطقة . فمن بقي من رجال الحرس الأبيض أخذوا يرفعون رؤوسهم ويحرضون القوزاق الكادحين . علينا أن نزيح جميع المعادين لنا : الضباط والقسس ، والأتمانات والدرك ، والأغنياء وكل أولئك الذين قاتلوا ضدنا بحمية . أعد قائمة بأسمائهم ، وقدّم للمحقق كل عون . مع العلم أن له معلومات سابقة عن البعض منهم .

وحدق ايفان في وجه الرجل الحليق ، واستعرض الأسماء عائلة بعد عائلة ومر على ذكر بيوتر ميليخوف أيضاً ، بيد أن المحقق هز رأسه قائلاً :

ـ إنه واحد منا . كما أن فومين طلب ألا نتعرض له . إنه صديق للبلاشفة ، لقد خدمت معه في الكتيبة الثامنة والعشرين .

وكتب كوشيفوي القائمة بخط يده على ورقة مسطرة مقطوعة من كراسة ووضعها على المنضدة .

وبعد ذلك ببضع ساعات جلس القوزاق المعتقلون في حوش موخوف الفسيح يحرسهم رجال الميليشيا ، ينتظرون أن ترسل لهم عوائلهم المؤونة والملابس والحاجيات الأخرى . وكان ميرون كورشونوف يرتدي ملابس جديدة تماماً وهي معطف فرو وحذاء وجوارب بيضاء ، وكأنه يعد العدة لمواجهة منيته ، وكان يجلس في الأخير إلى جانب بوغاتيروف العجوز وماتفي كاشولين . وراح أفدييتش الكذوب يجوب الحوش ويلقي نظرات ساهمة على البئر أو يلتقط عوداً من الأرض ثم يعود من سقيفة الباب إلى بوابة الصفصاف ، وهو يمسح وجهه الأرجواني العرِق بكمه . أما الآخرون فقد جلسوا صامتين ، منكسي الرؤوس ، يخطون على الثلج بعصيهم . وجرت نساؤهم إلى الحوش دامعات العيون ، يحملن أكياساً وصرراً وهنّ يتهامسن .

وبكت لوكينشنا وهي تزرر سترة الفرو على رجلها العجوز وتشدّ ياقته بمنديلٍ نسائيٍّ كبيرٍ أبيض . وفيما كانت تحدق في عينيه الذاويتين قالت :

ـ لاتحزن ،ياميرون! فلعل نهايتنا خير . يا إلهي! ـ واستطال فمها وهي تخنق عبراتها ، و لكنها ما لبثت أن زمت شفتيها و همست : ـ سآتي لزيارتك وأجلب معي أغريبينا ، فإنك تحبها كثيراً...

و صاح رجل من رجال الميليشيا عند البوابة :

ـ وصلت الزحافات . ضعوا عليها حوائجكم وهلموا! يا نساء ، كفى هذا البكاء والنحيب!

فلثمت لوكينيشنا يد ميرون المشعرة ، لأول مرة في حياتها ، ثم جرت نفسها عنه . و دبت زحافات الثيران عبر الحوش وئيدة صوب الدون . وتبعها المعتقلون السبعة ورجلان من رجال الميليشيا مشياً على الأقدام .

وقد تخلف أفدييتش عنهم ليربط حذاءه ثم جرى كالشباب ليلحق بهم . وسار ماتفي كاشولين إلى جانب ابنه . وراح ميدانيكوف وكوروليوف يدخنان . أما ميرون فقد تشبث بالزحافة ، و سار خلفهم جميعاً بوغاتيريوف الشيخ بخطى ثقيلة مهيبة . كانت الريح تدفع لحيته الكهنوتية البيضاء إلى وراء ، وكان اللفاح الملقى على كتفه يخفق فيما يشبه تلويحة الوداع .

في ذلك اليوم الغائم من شباط وقع في تتارسكى حادث خارق آخر . كان أهل القرية قد ألفوا في الآونة الأخيرة مجيء الموظفين من مركز المنطقة . و لذا فإن أحداً لم يلق بالاً إلى المركبة الزحافة تجتاز ساحة القرية ، يجرها حصانان ويجلس إلى جانب سائقها أحد الرجال وهو منكمش من البرد . وتوقفت المركبة عند منزل موخوف ونزل الرجل ، فإذا به كهل متئد الحركة . فسوى معطف الخيالة الطويل الذي يرتديه ، ثم رفع غطائي الأذن لقبعة الخيالة الحمراء الفرو من على أذنيه ، ثم أمسك بالقراب الخشبي لمسدسه الموزر ، و ارتقى الدرجات على مهل .

كان ايفان اليكسييفتش في غرفة اللجنة الثورية بصحبة اثنين من رجال

الميليشيا . ودخل القادم الجديد دون أن يطرق الباب ، ثم مسد لحيته القصيرة الشهباء ، وقال مستفهماً بصوت عميق :

ـ أريد الرئيس .

فأدار إيفان إلى المتكلم عينيه الجاحظتين وحاول أن يهب على قدميه . ولكنه لم يستطع إلا أن يحرك فمه كالسمكة ، وينقر على ذراعي كرسيه الباليتين بأصابع يده . فقد كان شتوكمان يحدق فيه من تحت قبعة الخيالة القوزاقية . و ظل لحظة يشخص إلى إيفان بعينين ضيقتين دون أن يبدو عليه أنه عرفه ، ثم أشرقت عيناه وانساب خط من الغضون الصغيرة من زاويتيهما حتى الصدغين ، وخطا عبر الغرفة نحو إيفان الذي لبث جالساً ، فعانقه بدون تردد وقبله ، ماسحاً وجهه بلحيته المبتلة ، وهتف :

ـ لقد عرفت ذلك! قلت في نفسي ، إذا كان إيفان ما يزال حياً فسأجده رئيساً في تتارسكي!

ـ أوسيب دافيدوفيتش ، اقرصني! اقرصني ، أنا الخنزير! فلا أستطيع أن أصدق عيني!...

وكاد إيفان أن يجهش بالبكاء ، فرد عليه شتوكمان وهويفك يده برفق :

ـ إنها الحقيقة تماماً! حسناً ، أليس لديك ما نجلس عليه ؟

ـ هاك ، خذ هذا الكرسي . و لكن من أين نبعت ؟ قل لي .

ـ أنا الآن أعمل في الشعبة السياسية للجيش الأحمر . أراك ما تزال غير مصدق بأنني ماثل أمامك حقيقة! أيها الحجر! ـ قال شتوكمان باسماً وهو يضرب على ركبة إيفان برفق . ـ ولكن الأمر في غاية البساطة ، يا صاحبي القديم . فبعد أن أخذوني من هنا أرسلوني إلى المنفى وهناك استقبلت الثورة . و قد قمنا ، أنا ورفيق آخر بتنظيم مفرزة من الحرس الأحمر وأسهمنا في قتال دوتوف وكولتشاك . لقد كان وقتاً بهيجاً ، يا ولدي! ثم طردناه إلى ما وراء الأورال ، هل تعرف ؟ وها أنذا الآن في جبهتكم ، فقد

أرسلتني الشعبة السياسية في الجيش الثامن إلى هنا لأعمل في منطقتكم لأنني سبق أن عشت فيها وخبرت الأوضاع ، كما يقال . وحين وصلت فيشنسكايا ، تحدثت إلى جماعة اللجنة الثورية ، ثم قررت المجيء إلى تتارسكي قبل كل شيء . فكرت بالمجيء إلى هنا والبقاء لأعمل وأساعدكم على تنظيم الأمور ، ومن ثم أذهب إلى مكان ثان . أنا ، كما ترى ، لم أنس صداقتنا القديمة . ولكن بوسعنا أن نعود إلى ذلك فيما بعد ، دعنا الآن نتحدث عنك ، عن الوضع هنا ، أخبرني بكل ما تعلم عن الجميع ، من يعمل الآن معكم ؟ من بقي على قيد الحياة ؟ ـ ثم التفت إلى رجلي الميليشيا وأردف : ـ أيها الرفيقان ، أتركاني والرئيس وحدنا ساعة أو بعض ساعة . أف يا للشيطان! حين كنت أجتاز القرية شممت رائحة الأيام الخوالي... أجل ، لقد كانت الحياة راكدة يومئذ ، أما الآن... حسناً هات ما عندك!

وبعد زهاء ثلاث ساعات أوصل ميشا كوشيفوي وايفان شتوكمان ٠إلى مأواه القديم عند لوكيريا الحولاء . سارا على ممشى الطريق بني اللون ، وميشا متشبث بكم شتوكمان وكأنه يخشى أن يتلاشى كشبح .

وقدمت لوكيريا لنزيلها القديم صحناً من الحساء ولم تبخل حتى بقطعة مهروشة من السكر نبشتها من مذخرها الخفي . وبعد أن تناولوا شاياً من خلاصة أوراق الكرز تمدد شتوكمان على رف الموقد ، ولبث ينصت إلى حكايات لا رابط بينها ، يرويها ميشا وايفان ، ويطرح أسئلة ، ويعض على مبسم سيكارته . وقبيل الفجر استسلم إلى الرقاد فسقطت سيكارته على قميصه الفانيلة الوسخ . ومضى ايفان في حديثه نحو عشر دقائق أخرى ، ولكنه حين سمع شتوكمان يجيب على سؤاله بالشخير ، بارح الغرفة على أطراف أصابعه بهدوء ، وقد احمر وجهه من الجهد الذي بذله لكبت سعاله .

وفيما كانا يهبطان الدرج سأله ميشا وهو يضحك بهدوء :

ـ هل تشعر بتحسن ؟

* * *

عند منتصف الليل عاد أولشانوف الذي كان قد رافق المعتقلين إلى فيشنسكايا . فطرق مراراً على نافذة الغرفة الصغيرة حيث ينام ايفان اليكسييفتش ، وأيقظه في نهاية الأمر .

فسأله ايفان وقد انتفخ وجهه من النوم :

ـ ماذا تريد ؟ هل عدت برسائل ، أم ماذا ؟

فجعل أولشانوف يعبث بسوطه وقال :

ـ رموا القوزاق بالرصاص .

ـ أنت تكذب ، أيها الخنزير!

ـ حققوا معهم حال وصولهم ثم ذهبوا بهم إلى غابة صنوبر قبل حلول الظلام... شهدت الأمر بنفسي!...

فشرع ايفان يتخبط بجزمته اللباد ، وارتدى ملابسه على عجل ، ثم جرى إلى شتوكمان ، وهتف قائلاً :

ـ أرسلنا بعض المعتقلين الى فيشنسكايا اليوم فأعدموهم رمياً بالرصاص! ظننت أنهم سيودعونهم السجن وحسب ، ولكن هذا شيء آخر . لن يسعنا والحالة هذه أن نحرز أي تقدم . سيعرض الناس عنا يا أوسيب دافيدوفتش ، علام قتلوهم ؟ ماذا سيحدث الآن ؟

كان يتوقع أن يعتري شتوكمان ما يشعر به من هياج وسخط على ما جرى ، ولكن شتوكمان قال فيما كان يرتدي قميصه على مهل :

ـ والآن ، دعك من الصياح!فإنك ستوقظ لوكيريا! ـ ثم ارتدى ملابسه ، وأشعل سيكارته ، وسأله مرة أخرى عن الأسباب التي أدت الى اعتقالهم ثم قال بفتور : ـ ينبغي أن تدخل في رأسك شيئاً ، وتبقيه هناك! إن الجبهة على بعد مائة وعشرين فرسخاً من هنا . وإن غالبية القوزاق ، يناصبوننا العداء ، وسبب ذلك أن الكولاك من القوزاق وأتماناتكم ، والرؤساء الآخرين ، ما زالوا يتمتعون بنفوذ كبير بين القوزاق الكادحين . ما علة ذلك ؟ حسناً ، ينبغي أن يكون في وسعك الإجابة عن ذلك . إن القوزاق طائفة عسكرية

خاصة . لقد ربت القيصرية فيهم حبهم هذا للسلطات و« للقادة الآباء » . هؤلاء « القادة الآباء » أنفسهم هم الذين كانوا يأمرون القوزاق بسحق إضرابات العمال . لقد لعبوا برؤوس القوزاق طيلة ثلاثمائة عام . حسناً! ثمة فرق كبير بين كولاكي من إقليم ريزان وكولاكي من قوزاق الدون . فقد كان كولاكي ريزان عرضة للاستغلال ، إنه أفعى سامة خطرة . فهو لا يكتفي بتلفيق الأكاذيب ضدنا ، كما فعل كورشونوف والآخرون ، حسب قولك أنت ، بل سيحاول أن يهاجمنا هجوماً مكشوفاً . إنه سيفعل ذلك حتماً! إنه سيحمل بندقية ويطلق النار علينا . سيقتلك . وسيحاول أن يجعل القوزاق الآخرين يتبعونه ، ولا سيما غير المعسرين منهم ، لا بل وفقراءهم أيضاً وسيقتلنا بأيديهم! حسناً ، ما تهمة هؤلاء ؟ هل اتهموا بنشاطهم المعادي لنا ؟ حسناً ، قل كلمة أو اثنتين . وادفع بهم إلى الحائط! ولا داعي لذرف المخاط عليهم... « كان رجلاً طيباً » وما إلى ذلك...

فحرك ايفان اليكسييفتش يده وقال :

ـ لست آسفاً ، لا تسيء فهمي . إن ما أخشاه هو أن نثير عداء الآخرين لنا .

كان شتوكمان حتى تلك اللحظة قد ربت على صدره المشعر وهو يتظاهر بشيء من الهدوء . ولكنه انفجر ، فجأة وأمسك ايفان من ياقة قميصه بعنف وجره إليه ، وقال بصوت مخنوق :

ـ لن نثير عداءهم إن أدخلنا في أذهانهم حقيقة واقعنا الطبقي ، فليس لدى القوزاقي الكادح من رفاق سوانا ، لا الكولاك . آه ، يا الهي ، أنت... الكولاك يعيشون من كدح هؤلاء ويسمنون عليه ، أليس كذلك ؟ أيها المغفل العجوز! لقد فقدت حماسك! آه ، أراني بحاجة إلى معالجة أمرك! عامل مثلك ، وها أنت ترول كالمثقفين... كأنك عضو حقير في الحزب الثوري الاشتراكي القذر! آه ، يا ايفان! ـ ثم خلى عن ياقة ايفان وابتسم بوهن ، وهز رأسه ، ثم جعل يجر أنفاساً عميقة من سيكارته واختتم كلامه بنبرة أخف وطأة :

ـ اذا لم نلق القبض على أنشط الأعداء في المنطقة فستحدث انتفاضة . أما اذا عزلناهم في الوقت المناسب فقد لا تحدث تلك الانتفاضة . ليس ضرورياً أن نعدمهم جميعاً ، ينبغي القضاء على القادة فقط ، أما الآخرون فقد نرسلهم الي قلب روسيا . ولكن ليس بوسعك أن تبدي المجاملات لأعدائك . ليس بوسعك أن « تصنع ثورة وأنت مرتد قفازين » كما يقول لينين . هل كان من الضروري إعدام هؤلاء الرجال والحالة هذه ؟ أحسب أنه كذلك ، ربما ليس جميعهم ، ولكن كورشونوف بالتأكيد . هذا أمر واضح . وثمة غريغوري ميليخوف : لقد نجا إلى حين . كان ينبغي أن نعالج أمره . إنه أخطر من الآخرين جميعاً . وتذكر هذا ايضاً . إن ذلك الحديث الذي تحدث به إليكم هو حديث رجل سيصبح في الغد عدواً . إننا لا نعاني هنا شيئاً يذكر . أما في جبهة القتال فيموت الآن خيرة أبناء الطبقة العاملة ، يموتون بالألوف . ينبغي أن تحزن عليهم هم ، لا على أولئك الذين يقومون بقتلهم أو يتحينون الفرصة لتسديد الطعنة إلى ظهورنا . فإما نحن وإما هم! ليس ثمة حل وسط . هذا هو الحال ، يا ايفان ، يا صاحبي القديم!

٢٣

كان بيوتر قد دخل المطبخ لتوه بعد أن أطعم الماشية ، وعلى أثره في الحال طق مزلاج الباب الخارجي ، وتخطت لوكينشنا العتبة وهي متلفعة بشال تركي أسود . وهرولت صوب ناتاليا واقفة عند المصطبة بخطى صغيرة ، دونما تحية وهوت على ركبتيها أمامها .

فصرخت ناتاليا بصوت غريب فيما حاولت رفع جسد أمها الثقيل :

ـ ماما! عزيزتي! ماذا جرى ؟

وبدل أن تجيب راحت تضرب رأسها على الأرض الترابية وتنوح بصوت مكبوت منكسر وتبكي كمن يبكي على الموتى :

ـ يا حبيبي! لم ذهبت عني وخلفتني ؟

وانفجرت المرأتان تنتحبان نحيباً زاده حزناً على حزن زعيق الطفلين الباكيين ، فما كان من بيوتر إلا أن أخذ كيس تبغه من على حافة الموقد وهرع إلى سقيفة الباب . وقد خمن في الحال ما حدث ، ووقف يدخن على الدرجات . ثم تلاشت الأصوات الناحبة ، فعاد إلى المطبخ وهو يحس بقشعريرة مزعجة تسري في ظهره . كانت لوكينشنا قد دفنت وجهها في منديلها الندي ، وهي تندب :

ـ لقد قتلوا عزيزنا ميرون غريغوريفتش! فغاب نسري عن الحياة... تركنا أيتاماً... ليس لنا الآن من يرعانا...

ثم علا صوتها فاستحال عويلاً : «انغلقت عيناه العزيزتان . انغلقتا إلى الأبد!»

ورشت داريا الماء على وجه ناتاليا التي أغمي عليها . ثم مسحت ايلينشنا خديها بصدريتها وجاءهم من الغرفة الأمامية ، حيث يرقد بانتلاي بروكوفتش عليلاً ، صوت سعال وأنين موجع .

وأمسكت لوكينشنا بيد بيوتر وشدتها إلى صدرها بجنون :

ـ بحب المسيح! بحب الله! اذهب إلى فيشنسكايا وعد به رغم أنه ميت . عد به . أواه ، يا ملكة السماء الرحيمة! أواه ، لا أريده أن يجيف هناك من دون تشييع لائق!...

فخطا بيوتر مبتعداً عنها وكأن فيها طاعوناً ، وقال :

ـ ماذا بحق!... بماذا تفكرين ؟ إنها لمهمة رائعة أن أبحث عنه! حياتي أغلى عندي من أن أفعل ذلك . كيف يسعني أن أعثر عليه هناك ؟

ـ لا ترفض طلبي ، يا عزيزي بيوتر! بحب المسيح... بحب ربنا...

وراح بيوتر يلوك شاربه ، ثم وافق في نهاية الأمر . فقرر الذهاب إلى قوزاقي من معارف أبيه في فيشنسكايا ، ليستعين به في محاولة للحصول على جثة ميرون . وانطلق بعربته ليلاً ، ومنازل القرية تفيض بالضياء ، والناس

يناقشون حادث الإعدام في كل مطبخ . ثم توقف قرب الكنيسة الجديدة ، في بيت رفيق قديم لوالده في الجندية ، والتمس مساعدته . فوافق القوزاقي عن طيب خاطر ، وقال معلقاً :

ـ أعرف أين دفنوهم . لا يحفرون الأرض عميقاً . ولكن من الصعب أن نعثر عليه فليس هو الوحيد . لقد أعدموا البارحة اثني عشر رجلاً من الذين أعدموا القوزاق في ايام سلطة الكاديت . لديَّ شرط واحد : عليك أن تبتاع لي ربع غالون من الفودكا . هل اتفقنا ؟

وتزودا بمحفة ومجارف ، واجتازا المقبرة عند منتصف الليل متجهين بمحاذاة القرية نحو الصنوبر حيث نفذت أحكام الاعدام . كان ثلج ناعم يتساقط ونبات السرخس المتجمد يخشخش تحت أقدامهما فأرهف بيوتر أذنيه لكل نأمة وهو يلعن في سره هذه المهمة ، ولوكينشنا ، وحتى ميرون المتوفى . ثم توقف القوزاقي عند ربوة رملية ، وقال :

ـ ينبغي أن يكونوا في مكان قريب من هنا .

ثم مضيا مائة ياردة أخرى ، فولت الأدبار ثلة من الكلاب وهي تنبح وتزمجر . فرمى بيوتر المحفة وهمس بصوت مبحوح :

ـ إني عائد! ليذهب إلى الشيطان! كيف يتسنى لنا العثور عليه بين الآخرين ؟ أوه ، تورطت ، توسلت تلك الروح الشريرة العجوز!...

فضحك القوزاقي منه وقال :

ـ علام خوفك ؟ تعال!

مضيا فبلغا بقعة عند شجرة صفصاف عجوز حيث كان الثلج مداساً بشدة ومختلطاً بالرمل . وكانت تخرج منه كالأشعة آثار خطوات الناس العريضة وخطوات الكلاب الصغيرة . وشرعا يحفران .

... عرف بيوتر ميرون بلحيته الحمراء . فرفع الجثة من الحزام ، ورماها على المحفة . وراح القوزاقي يسعل وهو يردم القبر ، ثم رفع مقبضي المحفة ، وهو يتبرم :

ـ كان ينبغي أن نأتي بالزحافة إلى أشجار الصنوبر . نحن أحمقان! فهو يزن أكثر من ثمانين كيلوغراماً . وليس من السهل أن نمشي على الثلج .

وباعد بيوتر ما بين ساقي الرجل الميت كيما يستطيع أن يمسك بمقبضي المحفة .

وفي كوخ القوزاقي ، جلسا يشربان حتى مطلع الفجر . وكان ميرون كورشونوف ملفوفاً ببساط ينتظر في الزحافة خارج المنزل ، وبسبب ثمله فقد ترك بيوتر الحصان مشدوداً إلى الزحافة ، فوقف الحيوان طوال الوقت يشد على رسنه ، ويزنخر وينصب أذنيه . لقد شم رائحة الجثة فلم يقترب من القش الموضوع في الزحافة .

كان الفجر ينبلج حين وصل بيوتر إلى تتارسكي ، قادماً عن طريق المرج يسوق الحصان دونما توقف . وكان رأس ميرون من ورائه يضرب على قاع الزحافة ، فتوقف بيوتر مرتين ليدس تحته شيئاً من قش المروج الندي . وذهب بالجثة إلى أهلها مباشرة ، ففتحت البوابة أغريبينا ابنة ميرون الأثيرة لدى أبيها الميت ، ثم تولت عن الزحافة إلى أكوام الثلج في الحوش . فرفع بيوتر الجثة على كتفه كما يرفع كيساً من الدقيق ، ثم حملها إلى المطبخ الواسع ، وأنزلها بعناية فوق المنضدة التي نشر عليها خوان أبيض . فزحفت لوكينشنا ، حاسرة الرأس وقد بحّ صوتها من البكاء ، فدنت من قدمي زوجها وعليهما جوربا جناز أبيضان نظيفان . ثم همست قائلة :

ـ كنت أحسب أنك تعود إلى بيتك على قدميك ، يا سيدي العزيز . ولكن كتب لك أن تأتي محمولاً على الأيدي . كان همسها ونشيجها خافتين لا يكاد المرد يسمعهما ، يشبهان قهقهة الضحكات إلى حد غريب . ثم قاد بيوتر غريشاكا العجوز إلى داخل الغرفة من ذراعه . كان الشيخ يختض بكل جسده . ولكنه سار إلى الطاولة بنشاط فوقف عند الرأس .

ـ حسناً ، يا ميرون! هكذا اذا نلتقي ثانية ، يا ولدي! ـ ثم رسم إشارة الصليب على نفسه وقبل الجبين المتجمد الملطخ بالطين الأصفر : ـ ميرون...

وأنا لن أتأخر كذلك... ـ ثم ارتفع صوت الشيخ إلى عويل متوجع . ورفع اليد الهامدة ، بحركة فتية نشطة ، إلى شفتيه ، كأنه يخاف من إفشاء سرّ ، ثم جثا عند الطاولة .

أخذت نوبة من الحزن بخناق بيوتر ، فخرج إلى الفناء ، بهدوء حيث كان حصانه مربوطاً عند بيت الدجاج .

٢٤

يتهافت الدون من بطونه العميقة الهادئة على الضفتين ، فيخلف بركاً واسعة ضحلة . وتدوم المياه فيما ينساب الدون دؤوباً رقيقاً ، تسرح على قعره الرملي الصلد أسراب سمك أسود البطن ، وفي الليل يرتفع صغار السمك بحثاً عن الطعام ، ويتجول الشبوط في الأماكن الخضر الموحلة التي يرتادها قرب الضفة ، ويبحث سمك الكراكي وسمك الشط عن صغار السمك ، وينبش سمك القرموط بين القواقع ، فيرمي بعض الأحيان برشة من الماء الأخضر حين يظهر للعيان هنيهة فيهف بزعنفته الذهبية في ضوء القمر الغامر ، ثم يغوص ثانية لينقب بين القواقع برأسه المنتفخ ذي العذار حتى مطلع الصبح ، حين يرقد خدراً في أمان تحت نتوء أسود متهرئ .

ولكن حيث تضيق الفسحة بين الضفتين يشق الدون الحبيس لنفسه مجرى عميقاً ويمضي على صهوة أمواجه المزبدة يرسل هديراً مكتوماً فتظهر الدوامات حول الرؤوس والنتوءات ، وتروح المياه تتسابق بسرعة مريعة فتعجز العين عن تتبعها .

وانسابت الحياة في رحابة أيامها الوادعة إلى مجرى يضيق بها . كانت مناطق الدون الأعلى تمور . وقد ارتطم تياران فانقسم القوزاق على أنفسهم وراحت الدوامة تحوم بكل عنفوانها . كان الشباب والفقراء من القوزاق ما يزالون قابعين مترددين ، يأملون أن يأتيهم السلام من الحكم السوفييتي ،

ولكن الرجال المسنين بدؤوا الهجوم وكانوا يقولون صراحة أن الحمر عازمون على إبادة القوزاق عن بكرة أبيهم .

وفي الرابع من آذار دعا ايفان اليكسييفتش أهل تتارسكي إلى عقد اجتماع ، فحضر الاجتماع حشد كبير على غير العادة ، ولعل مردة ذلك أن شتوكمان كان قد اقترح أن تدعو اللجنة الثورية إلى عقد اجتماع لتوزيع أملاك التجار الذين هربوا إلى صفوف البيض على القوزاق المعوزين . وقد سبق الاجتماع لقاء عاصف بين شتوكمان وموظف محلي قدم من فيشنسكايا يحمل تخويلاً باستلام بعض الملابس المصادرة فأوضح شتوكمان له أن اللجنة الثورية لا تستطيع تسليم الملابس في الوقت الراهن اذ أنها أعطيت في اليوم السابق إلى قافلة تحمل جرحى ومرضى من الجيش الأحمر .

فاغتاظ الموظف الشاب ، وجعل يصرخ بحدة في وجه شتوكمان :

ـ من أعطاك إذناً لتسليم الملابس المصادرة ؟

ـ لم نطلب إذناً من أحد .

ـ فبأي حق اختلست أموال الدولة ؟

ـ لا تصرخ ، أيها الرفيق ، ولا تهذر . لم يختلس أحد شيئاً . لقد سلمنا الفروات إلى السواق وفق تعهد خطي يقضي بإعادة الملابس بعد أن ينقلوا جرحاهم إلى نقطة معينة . كان الجنود شبه عراة ، فلو أننا سمحنا بذهابهم على تلك الحال لكنا مرسيلهم إلى حتوفهم . ما كان بوسعي أن أفعل غير ذلك ؟ لا سيما والملابس كانت مهملة في القبو .

كان شتوكمان يتحدث بهدوء ، كابحاً جماح غيظه ، فكان يمكن أن ينتهي الحديث بسلام . ولكن الشاب مضى يقول بصوت صارم النبرات :

ـ من أنت ؟ رئيس اللجنة الثورية ؟ سأعتقلك! سلم عملك إلى مساعدك . سأرسلك إلى فيشنسكايا على الفور . أحسب أنك سرقت نصف الأموال هنا ، ولكن...

فسأله شتوكمان وقد علا وجهه شحوب الموتى :

ـ هل أنت شيوعي ؟

ـ ليس هذا من شأنك! يا رجل الميلشيا! خذ هذا الرجل فوراً وسلمه في فيشنسكايا . ضعه تحت يد ميليشيا المنطقة وخذ به إيصالاً .

ثم تفحّص شتوكمان بنظرة خاطفة ، وأضاف :

ـ سوف نتحدث وإياك هناك! سأجعلك ترقص ، أيها المتسلط .

ـ يا رفيق ، هل جننت ؟ ألا تعرف...

ـ بلا كلام! أسكت!...

كان ايفان اليكسييفتش يصغي إلى ذلك الحوار دون أن يستطيع التدخل بكلمة ، فرأى شتوكمان يمد يده إلى مسدسه الموزر المعلق على الحائط بحركة بطيئة فظيعة ، فتراقص الهلع في عيني الشاب . وبسرعة مدهشة فتح الباب دفعاً بظهره ، فهوى على درجات العتبة وظهره يرتطم بكل درجة . وحبا على قدميه ثم ألقى بنفسه في زحافته وراح يستحث سائقه ، يهمزه في ظهره وهو يجتاز ساحة القرية ، ناظراً إلى الوراء باستمرار ، ليرى ما اذا كان أحد يتعقبه .

فهز هدير الضحك نوافذ مقر اللجنة الثورية . وتكوم دافيد الضحوك على المنضدة متشنجاً . ولكن أجفان شتوكمان كانت تطرف بعصبية وهو يلف سيكارة بأصابع راجفة ، ويدمدم :

ـ يا له من خنزير! يا للخنزير البائس!

وذهب إلى الاجتماع بصحبة ميشا وايفان . كانت الساحة ملأى ، فخفق قلب ايفان بجزع وهو يقول في دخيلة أفكاره : ثمة شيء في الهواء ، لقد حضرت القرية برمتها . على أن مخاوفه تبددت عندما خلع قبعته وسار إلى وسط الحلقة . فقد أفسح له القوزاق الطريق عن طيب خاطر . وكانت وجوههم تنم عن الاحترام ، وبدت عيون البعض باسمة . فأجال شتوكمان النظر في حلقة القوزاق ، وكان يريد إزالة ذلك الجو المتوتر ، وجر القوزاق إلى الحديث . وحذا حذو ايفان فخلع قبعته الفرو وهتف :

ـ أيها الرفاق القوزاق! ها قد مضت ستة أسابيع منذ أن أقيم عندكم الحكم السوفييتي . ولكننا ، معشر أعضاء اللجنة الثورية ، ما نزال نلاحظ أنكم لا تطمئنون إلينا ، بل وتناصبوننا العداء . إنكم لا تحضرون الاجتماعات ، وتدور بينكم الشائعات ، والحكايات السخيفة عن الإعدام بالجملة وعن الظلم الذي يزعم أن الحكومة السوفييتية فرضته عليكم . لقد حان الوقت لأن نتحدث بصراحة أكثر ونزيل الحواجز بيننا . لقد اخترتم بأنفسكم لجنتكم الثورية ، فايفان كوتلياروف وكوشيفوي قوزاقيان منكم ، فلا ينبغي أن تكتموا عنا الأمور . وقبل كل شيء ، أعلن الآن على رؤوس الأشهاد أن ما يروج الأعداء من الحكايات حول الإعدام الجماعي إن هي إلا افتراءات لا أكثر ولا أقل . إن هدفهم من نشر هذه الافتراءات لواضح : إنهم يودون بذر الشقاق بين القوزاق والحكومة السوفييتية ، ودفعكم إلى أحضان البيض من جديد .

فصاح أحدهم في مؤخرة الحشد :

ـ أنت تقول أن ليس هناك إعدام بالرصاص؟ فأين ذهب رجالنا السبعة ، اذاً ؟

ـ لم أقل ، أيها الرفيق ، أن ليس هناك اعدام بالرصاص البتة . لقد أعدمنا ، وسنظل نعدم ، أعداء الحكومة السوفييتية وكل من يفكر بتكبيلنا بنظام مالكي الأراضي . إننا لم نطح بالقيصر ، ونضع نهاية للحرب مع ألمانيا ، ونحرر الشعب ، لأجل ذلك . ماذا أصابكم من الحرب الألمانية ؟ آلاف من القوزاق الموتى ، واليتامى ، والأرامل ، والدماء...

ـ هذا صحيح!

واستطرد شتوكمان قائلاً :

ـ ونحن نريد إنهاء الحروب جميعاً . إننا ندعو للأخوة ما بين الشعوب . أما تحت النظام القيصري فكنتم تستخدمون لفتح الأرض من أجل أصحاب الأرض والرأسماليين . وفي سبيل إثراء أولئك الملاكين

والصناعيين . خذوا لستنتسكي الذي كان يعيش على مقربة من قريتكم مثلاً . لقد تسلم جده عشرة آلاف أكر من الأرض لقاء خدماته في حرب ١٨١٢* . ولكن ماذا تسلم أجدادكم ؟ خسروا رؤوسهم على أرض ألمانية . أراقوا دماءهم عليها .

فسرت في بداية الأمر همهمة ثم ارتفع هدير الجمع مؤيداً . فمسح شتوكمان العرق من جبينه الذي دبّ فيه الصلع ، وهتف :

ـ سنحطم كل من يرفع يداً ضد حكومة العمال والفلاحين . لقد كان قوزاقكم الذين أعدموا بأمر المحكمة الثورية أعداءنا . إنكم جميعاً تعلمون ذلك . ولكننا سنمضي معكم ، مع الكادحين ، مع الذين يؤيدوننا ، يداً بيد ، أو منكباً لمنكب شأن ثيران الحراثة . سنشق الأرض سوية لأجل حياة جديدة ، ونمشطها لنزيل الأدغال القديمة منها ، لنزيل أعداءنا ، من التربة ، لكي لا يرسلوا في الأرض جذورهم مرة أخرى ، فيخنقوا نماء الحياة الجديدة .

وأدرك شتوكمان من همهمة القوزاق الخفيفة ووجوههم المشرقة بأن كلماته أصابت مرماها في قلوب القوزاق ، ولم يخطئ حدسه ، فقد شرعوا يفصحون عما يدور في أفكارهم وأرواحهم .

ـ أوسيب دافيدوفتش! إننا نعرفك خير معرفة ، لقد عشت معنا ذات مرة ، فأنت مثل واحد منا . أوضح لنا الأمر ، لا تخش شيئاً . حكومتك هذه ، ماذا تريد منا ؟ نحن بطبيعة الحال نؤيدها ، وقد فرّ أبناؤنا من الجبهة ، ولكننا قوم جهلة ، لا نفهم جلية الأمر .

هكذا استرسل غريازنوف العجوز في حديث طويل ، لا يكاد يفهم إلا بعضه ، فقد كان يدور حول الموضوع ، وواضح أنه خشي أن يفرط في الكلام . بيد أن اليكسي شامل ذا الذراع الواحدة لم يطق صبراً فصاح :

---

* حرب روسيا ضد نابليون . المعرب

ـ هل بوسعي أن أتكلم ؟
فأجاب ايفان ، وقد بعث فيه النقاش حماساً :
ـ هيا ، اذا .
ـ يا رفيق شتوكمان ، قبل كل شيء أجبني عن هذا : هل بوسعي أن أقول ما أشاء ؟
ـ أجل .
ـ ولن تعتقلني ؟
فابتسم شتوكمان وأجاب بالنفي بحركة من يده .
ـ ولكن لا تغضب . أنا رجل ساذج ، وسأنطق بما يدور في ذهني .
فجره أخوه مارتن من كمه الخاوي من الخلف وهمس قلقاً :
ـ دعك من هذا ، يا أحمق! دعك من هذا وإلا فإنهم يضعون اسمك في القائمة! سيضعونك في القائمة ، يا أليكسي!...
ولكن أليكسي جر نفسه مبتعداً ، واستدار ليواجه المجتمعين وخده ما انفك يرمع ، ثم قال :
ـ أيها القورزاق! سوف أتكلم ، واحكموا أنتم إن كان كلامي صحيحاً أم لا . ـ ثم استدار إلى الوراء على عقبيه كما يفعل الجند ونظر إلى شتوكمان بمكر : ـ هكذا أرى الأمر . إن كنا سنقول الحقيقة ، فلنفعل ذلك بلا تحفظ! والآن سأفصح لك عما يجول في خواطر القوزاق جميعاً . وسأذكر سبب شعورنا بسوء معاملة الشيوعيين لنا . قلت إنكم لستم ضد القوزاق الشغيلة ، أولئك الذين لا يحاربونكم . وإنكم ضد الأغنياء ، وأن المفروض فيكم أنكم إخوان الفقراء . حسناً ، أجبني عن هذا ، هل كانوا على حق في إعدام قوزاق قريتنا أم لا ؟ لم أقل شيئاً عن كورشونوف : لقد كان أتماناً ، وظل يركب ظهور القوزاق طوال حياته . ولكن لماذا أعدم أفدييتش الكذوب ؟ وماتفي كاشولين ؟ وبوغاتيريوف ، وميدانيكوف وكوروليوف ؟ لقد كانوا مثلنا تماماً جهلة اختلطت عليهم الأمور . لقد تعلموا كيف يمسكون بمقابض المحاريث

لا الكتب . ولو صح أنهم تفوهوا بسوء ، فهل كان هناك داع لصفهم عند الحائط بسبب ذلك ؟ ـ ثم جرّ نفساً عميقاً ، وخطا إلى الأمام ، فخفق كمه الخاوي على صدره ورمع فمه : ـ أنتم اعتقلتم أولئك الذين تكلموا كالحمقى ، وعاقبتموهم ، ولكنكم لا تلمسون التجار بشيء . التجار افتدوا حياتهم بمالهم . ولكن ليس لدينا نحن ما نفتدي به حياتنا ، إننا ننفق حياتنا في عزق الأرض ، ولكن الحظ يصد عنا . ربما أعدمتم البعض منهم ، ولكن كان من الممكن أن يسوقوا آخر ثيرانهم إليكم من بيوتهم لينجوا بجلودهم . ومع ذلك فإنكم لم تفرضوا عليهم فدية ، بل أعدمتموهم وحسب ، وإننا جميعاً نعرف ما يجري في فيشنسكايا ، فالتجار والقسس هناك أحياء سالمون . وفي كارغينسكايا أيضاً . إننا نسمع بما يحدث من حولنا : الذكر الطيب لا ينتشر ، أما الذكر السيء فيطوّف في العالم كالطير .

فصاح صوت منفرد في مؤخرة الحشد :

ـ هذا صحيح!

وغطت دمدمة القوزاق على كلمات أليكسي . ولكنه تريث حتى تلاشت الجلبة ، ثم مضى يصيح غير آبه بيد شتوكمان المرفوعة :

ـ ونحن ندرك أن الحكومة السوفييتية ربما كانت حكومة خيرة . ولكن الشيوعيين الذين تولوا المهام يحاولون إغراقنا بملعقة من الماء إنهم يعاقبوننا بسبب ما حدث عام ١٩٠٥ ، وقد سمعنا الجنود الحمر يقولون ذلك . فنحن نقول لبعضنا بأن الشيوعيين يريدون هلاكنا ومحو أثرنا . إنهم يريدون نفي القوزاق من الدون إلى الأبد! هذا كل ما عندي من قول . إني أشبه برجل سكران : أتفوه بأول شيء يخطر ببالي . ونحن جميعاً سكارى بهذه الحياة الطيبة ، وبما نحمل لكم من ضغائن ، أيها الشيوعيون!

وشق أليكسي طريقه متراجعاً خلال حشد القوزاق فخيم صمت طويل . ثم شرع شتوكمان يتحدث ، ولكنه قوطع بصيحات من المؤخرة :

ـ إنه على حق! فالقوزاق مغتاظون . أتعرف أي أغان تغنيها القرى الآن ؟

لسن الكل مستعدين للافصاح عن دخيلتهم ، ولكنهم يعبرون عنها بالغناء . ليس بوسع أحد ان يؤاخذ الناس على أغنية! حتى أن هناك أغنية يتظلم فيها القوزاق إلى الكاديت حين يعودون إليهم . فلا ريب إذن أن هناك أساساً لشكواهم!

فضحك أحدهم في غير مناسبة ، وتململ الحشد ، وسرت فيه الهمهمات .

فلبس شتوكمان قبعته بعنف ، ثم أخرج من جيبه القائمة التي كان كوشيفوي قد كتبها وصاح :

ـ كلا ، ليس هذا صحيحاً! إن أنصار الثورة لا يشكون من شيء . لقد أعدم رجال قريتكم أعداء النظام السوفييتي ، لهذه الأسباب . انصتوا! ـ وشرع يقرأ بصوت مرتفع وببطء ووضوح :

قائمة

بأسماء أعداء النظام السوفييتي الذين اعتقلوا

وسلموا إلى اللجنة التحقيقية التابعة

للمحكمة الثورية للفرقة الخامسة عشرة :

كورشونوف ميرون غريغوريفتش : أتمان سابق ، وثري نتيجة استغلال جهد الآخرين .

سنيلين ايفان أفدييتش : يروج الشائعات للإطاحة بالحكومة السوفييتية .

كاشولين ماتفي ايفانوفتش : للسبب نفسه .

ميدانيكوف سيميون غافريلوفتش : يحمل شارات الضباط على كتفه ويهتف في الشوارع ضد الحكومة السوفييتية .

ميليخوف بانتلاي بروكوفيتش : كان عضواً في المجلس العسكري .

ميليخوف غريغوري بانتلاييفتش : كان ضابطاً رئيساً معادياً للحكومة السوفييتية ، وهو من الخطرين .

كاشولين أندريه ماتفييتش : اشترك في إعدام قوزاق بودتيلكوف الحمر .

بودوفسكوف فيدوت نيكيفوروفتش : ارتكب الشيء نفسه .

بوغاتيريوف أرخيب كاتفييتش : كان قيم الكنيسة ومعادياً للحكومة ويحرض الناس ضد الثورة .

كوروليوف زاخار ليونتييفتش : رفض تسليم أسلحته ، وهو لا يوتق به .

وكانت إزاء أسماء ميليخوف وابنيه وبودوفسكوف ملاحظات لم يقرأها شتوكمان بصوت مرتفع ، تقول : «إن أعداء الحكم السوفيتي هؤلاء لا يمكن اعتقالهم لغياب اتنين منهم كلفا بمهمة النقل ، ثم إن بنتلاي بروكوفتش ميليخوف مريض بالتيفوس . وسيعتقل الرجلان الغائبان ويرسلان إلى فيشنسكايا فور عودتهما ، أما الثالث فحين يستطيع الوقوف على قدميه» .

خيم الصمت على الاجتماع برهة ، ثم نبّت صيحة :

ـ ليس هذا صحيحاً!

ـ لا تكذب! لقد تكلموا ضد السوفييتات!

ـ لمثل هذه الأمور يجب أن يعتقلوا الرجال!

ـ لفق أحدهم هذه الأشياء كلها ضدهم .

وتكلم شتوكمان ثانية . وبدا أنهم يصغون إليه باهتمام ، حتى انطلقت بعض الصيحات استحساناً . ولكنه حين طرح في نهاية الأمر مسألة توزيع ممتلكات أولئك الذين فروا إلى صفوف البيض ، خيم الصمت .

فتساءل ايفان اليكسييفتش حانقاً :

ـ ماذا دهاكم جميعاً ؟

وبدأ الاجتماع يرفض مثل قذيفة عنقودية متناثرة . وتقدم واحد من أفقر القرويين متردداً ، ولكنه أحجم وعادإلى مكانه .

ـ سيعود أصحاب الممتلكات ، وحينذاك ماذا سيـ... ؟

وحاول شتوكمان أن يقنعهم بالبقاء ، إلا أن كوشيفوي ، وكان وجهه مبيضاً كالدقيق ، همس في أذن ايفان اليكسييفتش :

ـ قلت لك إنهم لن يلمسوها . الأفضل أن نحرقها بدل أن نسلمها لهم الآن...

٢٥

ساركوشيفوي إلى درجات منزل موخوف بتؤدة وهو منكس الرأس يضرب بالسوط ساق بنطاله مفكراً . كانت في المجاز بعض السروج ملقاة على الأرض . وكان من الواضح أن أحداً قد وصل لتوه : كانت كتلة من الثلج بلون الروث ما تزال عالقة في أحد الركائب ، وعليها أثر جزمة ، أخذت تتكون تحتها بركة صغيرة من الماء . ورفع كوشيفوي عينيه من السروج ومن أرض الشرفة القذرة إلى سورها المنقوش وإلى الطبقة الهشة من التلج البنفسجي قرب الحائط ، ثم ألقى نظرة إلى النوافذ التي يغشاها البخار ، ولكن ما رآه لم يخلف في ذهنه أيما انطباع . لقد كان قلب ميشا الطيب يغلي رثاء وحقداً على غريغوري ميليخوف .

كانت الغرفة الأمامية لمقر اللجنة الثورية تفوح برائحة خانقة من الدخان وعدة الخيل والثلج الذائب ، وكانت تشعل الموقد خادمة خلفها آل موخوف بعد فرارهم إلى ما وراء الدونيتس . وفي الغرفة التالية راح رجال الميليشيا يتضاحكون بصخب ، فقال ميشا في دخيلة فكره ساخطاً فيما مر بغرفتهم : «يا لهم من سخفاء! علام يضحكون ؟ » ثم ولج غرفة اللجنة ، وهو يخبط ساق جزمته بالسوط للمرة الأخيرة .

كان ايفان اليكسييفتش جالساً إلى منضدة الكتابة ، وقد فتح سترته السميكة ، وأمال قبعته الفرو على نحو يوحي بالتهتك ، وقد بدا التعب على وجهه العرق المتغضن . وكان شتوكمان جالساً إلى جانبه على دكة النافذة

وهو ما يزال يرتدي معطف الخيالة الطويل ، فابتسم لميشا مرحباً ، ثم دعاه للجلوس بقربه . وأثار صوت شتوكمان الهادئ الطمأنينة في نفس كوشيفوي فجلس ماداً قدميه ، وقال :

ـ سمعت البارحة من مصدر موثوق أن غريغوري ميليخوف عاد إلى أهله . ولكني لم أذهب إليه بعد .

فقال شتوكمان وهو يلف لنفسه سيكارة :

ـ ماذا تقترح أن نفعل بصدده ؟ ـ ثم نظر إلى ايفان اليكسييفتش مترقباً .

فتساءل ايفان ، وعيناه تطرفان بسرعة :

ـ أنودعه القبو ، أم ماذا ؟

ـ أنت رئيس اللجنة الثورية . فالقرار موكول لك! ـ ثم ابتسم شتوكمان وهز كتفيه تملصاً . كان في مقدوره دائماً أن يبتسم ابتسامة تفوق لفحة السوط حرقة . فتفصّد العرق على ذقن ايفان وهو يقول بحدة :

ـ بصفتي رئيساً فاني على استعداد لاعتقال غريغوري وأخيه أيضاً ، وإرسالهماإلى فيشنسكايا .

فردّ عليه شتوكمان قائلاً :

ـ لا جدوى من اعتقال أخيه . ففومين إلى جانبه ، وأنت تدري كم يطنب في مدح بيوتر... ولكن ينبغى اعتقال غريغورى اليوم ، وفي الحال! وسنرسله إلى فيشنسكايا غداً ، ثم نرسل الأدلة ضده إلى رئيس المحكمة الثورية هذا اليوم بيد خيّال من الميليشيا .

فاقترح ايفان قائلاً :

ـ الأفضل أن نعتقل غريغوري مساءً ، ألا ترى ذلك ، يا أوسيب دافيدوفتش ؟

فانتابت شتوكمان نوبة حادة من السعال . ثم مسح لحيته وسأل :

ـ ولماذا في المساء ؟

ـ كي لا يكون ذلك مثار لغط كثير .

فأجاب شتوكمان :

ـ إن هذا اعتراض سخيف .

فالتفت ايفان إلى كوشيفوي وقال له :

ـ ميخائيل ، خذ رجلين واذهب لاعتقاله في الحال . ضعه في موقف انفرادي . فهمت ؟

فانسل كوشيفوي من على دكة النافذة وذهب إلى رجال الميليشيا ، وشرع شتوكمان يتخطى في الغرفة جيئة وذهاباً وحذاؤه اللبادي المهترئ يخفق اثناء السير . وبعد برهة توقف عند المنضدة وسأل :

ـ هل بعثت آخر دفعة من الأسلحة التي جمعت ؟

ـ كلا ، سنرسلها هذا اليوم .

فعبس شتوكمان ، ورفع حاجبيه وسأل بسرعة :

ـ ماذا سلم آل ميليخوف ؟

فعقد ايفان اليكسييفتش حاجبيه جاهداً أن يتذكر ، ثم قال آخر الأمر وهو يبتسم :

ـ سلموا بندقتين ومسدسين . أتظن أن هذا كل ما عندهم ؟

ـ ألا تظن ذلك ؟

ـ أوهو ! لا تحسبهم أشد حماقة منك!

فقال شتوكمان وهو يزم شفتيه :

ـ بالضبط! لو كنت مكانك لقمت بتفتيش بيتهم تفتيشاً دقيقاً بعد الاعتقال . أصدر الأوامر إلى القومندان لينفذ ذلك . فوضع الخطة شيء وتنفيذها شيء آخر .

وبعد نصف ساعة عاد كوشيفوي ، فاندفع عبر الشرفة ، وفتح الباب بعنف ثم توقف عند العتبة ليستعيد أنفاسه ، وصاح :

ـ اللعنة على الشياطين أجمعين!

فأسرع شتوكمان إليه عبر الغرفة ، وقد اتسعت عيناه على نحو مرعب ورفرفت أطراف معطفه وضربت على جزمتيه اللبادتين ، وقال :

ـ ما الأمر ؟

فاستبد بكوشيفوي الغضب إما بسبب نبرة شتوكمان الهادئة أو لشيء آخر ، فهدر قائلاً :

ـ كفاك تقليب عينيك هكذا! ـ ثم أطلق لعنة وأردف : ـ يقولون إن غريغوري ذهب إلى خالته في سينغين . ما علاقتي بذلك ؟ولكن أين كنتم ؟ تصطادون الذباب ؟ من الذي فتح له الباب ؟ لقد يسرتم له الإفلات من بين أصابعكم . لا حاجة للصراخ في وجهي ، ليس هذا من شأني... ولكن بم كنتم أنتم تفكرون ؟ ـ وجعل يتقهقر إلى الموقد فيما كان شتوكمان يتقدم نحوه ، ثم ضحك وقال : ـ لا تقترب ، يا أوسيب دافيدوفيتش ، لا تقترب ، وإلا سأضربك والله!

فتوقف شتوكمان أمامه مباشرة وفرقع أصابعه . ثم حدق في أسنان ميشا البيضاوين وعينيه الوفيتين الباسمتين ، وقال من بين أسنانه :

ـ أتعرف الطريق إلى سينغين ؟

ـ أجل .

ـ اذاً لمَ عدت إلى هنا ؟ وأنت تقول أنك حاربت الألمان!... يا لك من مغفل! ـ ثم عبس وهو يتصنع الازدراء .

* * *

كان السهب راقداً تحت ضباب يحاكي الدخان زرقة ، والقمر الأرجواني يبزغ من وراء التلال المحاذية للدون ، فيرسل نوراً خابياً لم يحجب ألق النجوم .

ومضى ستة خيالة يهذبون في الطريق إلى سينغين . وكان شتوكمان على حصانه يسير إلى جانب ميشا ، وقد استبد القلق بحصانه طويل القوائم

فظل يحاول عض ركبة فارسه . وراح شتوكمان يقص على ميشا حادثاً مضحكاً دون أن توحي نبرته بانشغال باله ، فجعل ميشا ينكب على قربوس سرجه ويرسل قهقهات صبيانية ويشهق فيما كان يحاول أن ينفذ بنظرته إلى وجه شتوكمان الصارم تحت القبعة .

... وفي سينغين لم ينجم البحث الدقيق عن أية نتيجة .

٢٦

أجبروا غريغوري على مغادرة بوغوفسكايا إلى تشيرنيشفسكايا وعاد بعد عشرة أيام . وقبل يومين من عودته إلى تتارسكي ألقي القبض على أبيه . كان بانتلاي بروكوفتش العجوز قد غادر لتوه فراش المرض . وقد اشتد به الهزال والشيب . كان شعره يتدلى فوق ناصيته وكأن العثة قرضته . وبدت لحيته خفيفة يحف بها المشيب .

وذهب رجال الميليشيا به بعد أن أمهلوه عشر دقائق ليجمع حاجياته ، فأودع قبو موخوف ، تفوح منه رائحة التفاح الشذي ، حتى يتسنى إرساله إلى فيشنسكايا . وكان معه رهن الاعتقال تسعة شيوخ آخرين وقاض فخري واحد .

وأبلغ بيوتر الخبر إلى غريغوري قبل أن يدخل بحصانه الفناء ، ثم نصحه قائلاً :

ـ أدر حصانك وعد من حيث أتيت ، يا أخي! لقد سألوا عن موعد رجوعك إلى البيت . اذهب وتدفأ وألق نظرة إلى طفليك ، ثم ارحل إلى قرية ريبني ، حيث يسعك أن تختفي وتنتظر هناك ، ولئن سألوني عنك فسأخبرهم بأنك ذهبت إلى بيت خالتك في سينغين . لقد أعدموا سبعة من رجالنا رمياً بالرصاص ، ألم يبلغك ذلك ؟ اسأل الله ألا يكون مصير أبينا مثل هذا! أما بخصوصك...

وجلس غريغوري في المطبخ نصف ساعة ، ثم أسرج حصانه وانطلق يهذب طوال الليل إلى ريبني . فأخفاه قوزاقي أمين من أقاربه البعيدين بين الجل في المخزن ، فلبث هناك يومين لا يخرج إلا عند هبوط الليل .

٢٧

في العاشر من آذار توجه ميشا كوشيفوي إلى فيتننسكايا ، بعد يومين من عودته من سينغين ، ليعرف موعد اجتماع منظمة التيوعيين . فكان قد قرر ، هو وايفان اليكسييفتش ، ودافيد ، ويميليان ، وفيلكا أن ينضموا جميعاً إلى الحزب . وحمل معه آخر دفعة من الأسلحة التي سلمها القوزاق ، ومدفعاً رشاشاً عثر عليه في ساحة المدرسة ، ورسالة من شتوكمان إلى رئيس اللجنة الثورية المنطقية .

واستثاروا في طريقهم إلى فيشنسكايا العديد من الأرانب الكامنة في الغياض ، كانت قد تدفقت أثناء الحرب إلى المنطقة وجعلت تتوالد دونما عائق فصار المرء يجدها لدى كل خطوة تطل في كل مكان شأن دغل مستنقع أصفر . كان صرير الزحافة يفزعها فتتواثب على الثلج الذي لم تطأه قدم ، فتكشف عن بطونها البيضاء وأذنابها المتصلبة المسودة . فكان يميليان الذي يسوق الزحافة يلقي الأعنة ويصيح بأعلى صوته :

ـ هيا! ارمه!

فيثب ميشا من زحافته ، وينثني على ركبتيه ، ثم يفرغ بندقيته على الكرة الشهباء المتواثبة عن بعد ، ثم يراقب بخيبة أمل الطلقات تثير فتات الثلج والكرة تتواثب أسرع فأسرع حتى تتوارى بين الأدغال .

ألفى لجنة المنطقة في حالة من الفوضى والارتباك . وكان الرجال يتراكضون هنا وهناك قلقين ، وكان الرسل الخيالة في جيئة وذهاب ، والشوارع تكاد تقفر من السابلة . فانتاب ميشا العجب دون أن يدرك سبب

تلك الجلبة . ودس نائب رئيس اللجنة رسالة شتوكمان في جيبه وهو شارد اللب ، وحين سأله ميشا ما اذا كان ثمة جواب ، زنخر بشدة :

ـ اذهب إلى الشيطان! ليس لديّ وقت لك الآن!

كان بعض الجنود الحمر التابعين لأحد مراكز الحراسة يتحركون في أرجاء الساحة . ومر مطبخ ميدان يتصاعد الدخان منه مخلفاً رائحة لحم البقر وورق الغار في الهواء .

ودخل ميشا المحكمة الثورية ليدخن سيكارة مع بعض معارفه وسألهم قائلاً :

ـ فيم هذه الجلبة ؟

فأجاب محقق المحكمة المحلية غروموف على مضض :

ـ هناك اضطرابات في كازانسكايا . لقد اقتحمها البيض ، أو أن القوزاق قد ثاروا ، أو أن شيئاً ما قد حدث . لا بد أن قتالاً قد نشب هناك البارحة ، وقطعت أسلاك التلفون .

ـ يجب أن تبعثوا رسولاً .

ـ فعلنا ذلك ، ولكنه لم يعد . واليوم أرسلنا سرية إلى يلانسكايا ، ثمة قلاقل هناك أيضاً .

جلسوا عند النافذة يدخنون ، وكان الثلج كالدقيق ينهال عبر زجاج النوافذ في بيت التاجر حيث مقر المحكمة الثورية .

وعلى حين غرة دوت طلقات في مكان ما خارج القرية قرب أكمة الصنوبر . فشحب وجه ميشا وسقطت سيكارته . وهرع الكل إلى الحوش . ثم تعالى صوت الرصاص واشتد وقعه ، ثم دوت صلية من الطلقات فأخذت الرصاصات تنهش السقائف والأبواب بشراسة . وجرح جندي أحمر كان يقف في الفناء . وانطلق غروموف . راكضاً إلى الميدان وهو يدسّ أوراقه في جيوبه . فصفت فلول السرية العسكرية على عجل أمام اللجنة الثورية وقادهم الآمر ركضاً نحو المنحدر المؤدي إلى الدون . وشاع الفزع المهلك ، فراح

الناس يتراكضون جيئة وذهاباً في الساحة . وعدا عبر الساحة حصان من غير فارسه .

ولم يتذكر ميشا في خضم رعبه كيف جاء إلى الساحة . فشاهد فومين في جلباب اسود يندفع من وراء الكنيسة كالزوبعة ، وقد شد إلى حصانه عربة مدفع رشاش . وعجزت العجلات عن استيعاب الاستدارة ، فانقلب المدفع وراح ينجر ، وهو يتأرجح من جهة إلى أخرى على صهوة حصانه وتوارى فومين عند سفح التل ، وهو منكب على سرجه ، مخلفاً وراءه مثاراً من الثلج الفضي .

وكانت أول فكرة خطرت لميشا : « إلى الخيل » . فجرى في الأزقة الجانبية حانياً ظهره ، دون أن يتوقف مرة للتنفس . فألفى يميليان يشد الحصانين ، ويعمل يده في الأسارين وقد انتابه الرعب ، فتساءل بصوت متقطع وأسنانه تصطك :

ـ ماذا يجري يا ميخائيل ؟ ماذا حصل ؟

ولاستعجاله لم يستطع العثور على الأعنة . وحين عثر عليها انحل سير الطوقين . وكان الحوش الذي نزلا فيه يطل على السهب ، فشخص ميشا نحو أشجار الصنوبر ، ولكن لم يظهر أي صف من المشاة في ذلك الاتجاه ، ولم ير أي أثر للخيالة المغيرين أيضاً . كان إطلاق النار مستمراً في مكان بعيد ، وبدت الشوارع مقفرة واتشح المكان مظهره الكئيب المألوف . ولكن شيئاً فظيعاً كان يجري : لقد اندلع التمرد بكل ما في الكلمة من معنى .

لم يحوّل ميشا نظرته عن السهب طوال انشغال يميليان بالخيل ، فشاهد رجلاً عليه معطف أسود يعدو من وراء المصلّى الصغيربجانب المكان حيث أضرمت النار في كانون الأول الماضي بمحطة اللاسلكي . كان الرجل يعدو بكل سرعته ، وقد انحنى إلى أمام وذراعاه تشدان على صدره . ومن معطفه عرف ميشا أنه محقق المحكمة غروموف . ثم برز فارس يعدو من وراء سياج ، فعرفه كذلك : كان قوزاقياً من فيشنسكايا يدعى

تشيرنيتشكين ، وكان هذا الشاب حرساً أبيض بكل معنى الكلمة . وكانت المسافة بينهما حوالي مئة متر . وفيما كان غروموف يعدو نظر إلى الخلف مرة ، ثم أخرى ، وأخرج مسدسه من جيبه . ودوى صوت اطلاقة ، ثم أخرى . وجرى غروموف إلى قمة ربوة رملية ثم أطلق النار . وقفز تشيرنيتشكين من سرجه والحصان ما يزال يعدو ، ثم أنزل بندقيته من على كتفه ، وانبطح وراء كومة من الثلج وهو ما يزال ممسكاً بالأعنة وعلى أثر طلقته الأولى ، تعثر غروموف ، وراح يتشبث بالدغل بيده اليسرى . ودار حول الربوة ثم كبا على الثلج . «قتل!» ودب البرد في أوصال ميشا . كان تشيرنيتشكين هدافاً سديد الرماية ، يستطيع بغدارته النمساوية التي عاد بها من الحرب الألمانية أن يصيب أي هدف مهما كان بعيداً . وفيما كان جالساً في زحافته وهي تعدو خارجة من الباب رأى تشيرنيتشكين يركض إلى الجثة ويعمل سيفه في المعطف الأسود المتكوم على الثلج .

كان من الخطر أن يحاولا عبور الدون عند المعبر الاعتيادي ، لأن الخيل والرجال تكون هدفاً واضحاً على صفحة النهر البيضاء . وكان جنديان أحمران من سرية المقر العام مطروحين هنا وقد طوح بهما الرصاص . فاستدار يميليان عبر البحيرة إلى داخل الغابة . وفيما كانا يعبران البحيرة ، خلفت حوافر الخيل بركاً صغيرة من الماء على الثلج الذي يوشك على الذوبان ، وأحدث المزلاقان شقين عميقين وانطلقا يهذبان بجنون عائدين إلى تتارسكي . ولكنهما حين بلغا المعبر القائم عند أعتاب القرية جر يميليان أعنة الخيل وأدار وجهه الذي احمر من لفح الريح إلى ميشا : ـ ماذا يحسن بنا أن نفعل ؟ هب أن اضطراباً مماثلاً يجري في قريتنا ؟

فبدت التعاسة على وجه ميشا وشخص بنظره إلى القرية . كان ثمة فارسان يهذبان في الشارع القريب من النهر ، وحسب أنه ميز فيهما رجلين من رجال الميليشيا .

فأجاب ميشا بعزم :

ـ سق الخيل إلى القرية . ليس هناك مكان آخر يمكن أن نذهب إليه!

فجعل يميليان يسوط الخيل على مضض . وعبرا النهر وارتقيا المنحدر القائم في الجهة الأخرى . فجاء أنتيب ، ابن افدييتش الكذوب يركض نحوهما بصحبة رجلين آخرين من سكان الطرف الأعلى من القرية يكبرانه سناً .

فقال يميليان : «أوه ، ميشا!» واذ رأى البندقية في يد أنتيب جر الأعنة فأدار الحصانين .

وجاءهما الأمر :

قف!

ودوت اطلاقة ، فسقط يميليان ، ويده ماتزال تمسك بالأعنة . واقتحم الحصانان سياجاً ، فقفز ميشا من الزحافة . فهرع انتيب نحوه وقدماه تنزلقان ثم ترنح ، وألقى البندقية على كتفه . وحين هوى ميشا على السياج لمح الرؤوس اللماعة لمذراة ذات ثلاث شوكات تمسك بها يد أحد الشيوخ .

ـ اضربه!

وأحس بألم محرق في كتفه وخر دون أن تبدر منه صيحة ، وغطى وجهه بيديه . وانحنى فوقه رجل يلهث بشدة وراح ينخسه بالمذراة ويقول :

ـ انهض ، عليك اللعنة!

ولم يتذكر ميشا بقية ما حدث إلا كما يتذكر المرء الأحلام .

لقد ألقى انتيب نفسه عليه وأعمل أظافره في صدره ، وهو ينتحب :

ـ لقد أرسل أبي إلى حتفه . دعوني أظفر به ، أيها الناس الطيبون! دعوني آخذ ثأري منه!

ثم جروه عنه . وتجمع حشد صغير . وسمع ميشا صوت رجل أبح يحاججهم :

ـ دعوا الفتى وشأنه! هل أنتم مسيحيون ، أم لا ؟ دعه ، يا انتيب! لن تعيد أباك إلى الحياة ، بل ستكون سبباً لهلاك رجل! اذهبوا إلى بيوتكم ، يا أخوان! إنهم يتقاسمون السكر فى المخزن ، اذهبوا وخذوا حصتكم...

وحين أفاق ميشا فى المساء ألفى نفسه راقداً تحت السياج نفسه . كان جنبه حيث طعنته المذراة يلتهب ألماً . ولكن أسنان المذراة لم تكن قد توغلت في اللحم عميقاً بعد أن اخترقت الفروة والقميص . فتحامل على قدميه وأرهف السمع ، فلا بد أن المتمردين قد عينوا دوريات لحراسة القرية . وكان ينبعث بين آونة وأخرى صوت إطلاقة تتير نباح الكلاب . وكانت الأصوات المنطلقة من بعيد تقترب منه . فسلك مسار الماشية بمحاذاة الدون ، ثم بلغ قمة الجرف ، وزحف حذاء الأسيجة ، ويداه تتخبطان على الثلج فيما كان يدب ويسقط من جديد . ولم يدر أين هو فظل يزحف على غير هدى . كان جسده يهتز من شدة البرد ، ويداه متجمدتين . ثم دفع البرد به إلى داخل بوابة ما . وفتح البوابة التي يعلوها العوسج ودخل الحوش الخلفي ، ورأى سقيفة إلى يسار فاتجه صوبها . ولكنه سرعان ما سمع وقع خطوات وسعلة . ثم دخل السقيفة شخص وجزمته اللبادية تخشخش ، ففكر ميشا في نفسه دونما اكتراث ، وكأنه يتحدث عن شخص آخر : «سيجهزون عليَّ في الحال» . وقف الرجل في المدخل الذي ينفذ منه ضياء باهت .

ـ من هناك ؟

كان الصوت ضعيفاً ينم عن الخوف . فمضى ميشا قرب الجدار الفاصل . فسأل الرجل بنبرة أعلى وأشد قلقاً : ـ من هذا ؟

فعرف ميشا صوت ستيبان استاخوف فصرخ :

ـ ستيبان ، هو أنا! كوشيفوي! أنقذني ، لحب الله! لا أحسبك تخبر عني . أليس كذلك ؟ ساعدني!

فقال ستيبان بصوت واهن :

ـ إذن ، هو أنت! ـ وكان قد نهض لتوه من الفراش إثر اصابته بالتيفوس . واتسع فمه الممطوط وندت شفتاه عن ابتسامة مترددة : ـ حسناً ، أمض الليلة هنا ، ولكن يجب أن ترحل في الصباح . ثم كيف أتيت إلى هنا ؟

فالتمس ميشا يده وشد عليها ، ثم دس نفسه في كومة من التبن . وما أن حل الغسق مساء اليوم التالي حتى توجه إلى بيته بحذر ، بعد أن عقد العزم على قرار يائس ، ثم نقر على الشباك . ففتحت أمه الباب ، وتفجرت دموعها اذ رأته . وتشابكت يداها على رقبته وراحت تخمشها ، وطفق رأسها يدق على صدره .

ـ إرحل ، لحب المسيح ، إرحل ياميشا . جاء القوزاق إلى هنا هذا الصباح . وفتشوا الفناء كله بحثاً عنك . وضربني انتيب افديتش بسوطه قائلاً : أخفيت ابنك . يؤسفني أنني لم أقتله على الفور!

لم يكن ميشا يعلم أين يعثر على أصحابه . وقد فهم من حديث أمه المقتضب أن قرى الدون كافة قد تمردت ، وأن شتوكمان ، وايفان اليكسييفتش ، ودافيد ورجال الميليشيا قد فروا ، وأن فيلكا وتيموفي قتلا في الساحة ظهر اليوم السابق .

وجعلت أمه تبكي ولكن الحزم بدا في نبرتها اذ قالت له :

ـ والآن إرحل . سيعثرون عليك هنا .

وللمرة الأولى منذ أعوام عديدة أجهش ميشا بالبكاء . وجعل ينشج كالأطفال ويبقبق بشفتيه . ثم أخذ الفرس العجوز التي كان يمتطيها وهو راع وقادها إلى الحوش ، فلحق بها مهرها . وأعانته أمه على اعتلاء السرج ، ثم رسمت عليه إشارة الصليب . فسارت الفرس على مضض وهي تصهل لمهرها . وكان قلب ميشا يثب هلعاً كلما نادت الفرس مهرها .

ولكنه نجا من القرية بسلام ومضى يخب على امتداد طريق هيتمان نحو الشمال الشرقي .

كانت الليلة المدلهمة تستقبل الشاردين بترحاب ، وفرسه لا تكف عن الصهيل خشية أن تفقد مهرها ، فيصر ميشا بأسنانه ويلفح أذنيها بالعنان ، ويتوقف المرة تلو المرة فينصت ليعرف ما اذا كانت سنابك الخيل الثقيلة تدق الأرض من أمامه أو من ورائه . ولكن صمتاً سحرياً كان يخيم من حوله

فلا يصل سمعه سوى صوت المهر الذي ينتهز فرصة توقف أمه ليرضع منها ، وقد انغرزت ساقاه الخلفيتان في الثلج .

٢٨

كانت السقيفة تعج بنتن القش المتعفن ، والجل اليابس وحزم التبن . وفي النهار كان ضوء باهت يتسلل خلل السقف ، وتطل الشمس بعض الاحيان خلل الباب المضفور من الأغصان وكأنها تطل خلل الغربال ، أما في الليل فلم يكن ثمة إلا صئي الفئران والصمت...

كانت ربة البيت تأتي غريغوري بالطعام خلسة مرة كل يوم . وكان هناك إبريق من الماء مدفون في الجل . ولم يكن يشعر بتعاسة حياته تلك ، لولا أنه استنفد كل تبغه ، فراح يتعذب من حالته تلك خلال اليوم الاول ، فلم يقو على البقاء من دون شيء يدخنه ، فزحف صباحاً على القاع الترابية وجمع شيئاً من روث الخيل الجاف في يديه . ثم فركه براحتيه ولف منه سكائر . وفي المساء بعث إليه رب البيت بأوراق بالية من نسخة انجيل ، وعلبة ثقاب ، وحفنة من البرسيم والجذور اليابسة من التبغ المنزلي . فاستبد الفرح بغريغوري وطفق يدخن حتى أوشك أن يصاب بالغثيان ، ثم استغرق في أول نوم عميق على الجل ، وهو يغطي رأسه بذيل معطفه مثلما يخفي طير رأسه تحت جناحه .

وفي صباح اليوم التالي أيقظه مضيّفه وهو يركض إلى السقيفة صارخاً بأعلى صوته :

ـ أنت نائم ؟ انهض! الدون كسر جليده!

ثم طفق يضحك من كل قلبه .

فقفز غريغوري إلى الأرض ، فتساقط قطعات الجل المربعة الثقيلة وراءه هادرة ، وسأله :

ـ ماذا حصل ؟

ـ ثار قوزاق يلانسكايا وفيشنسكايا في الجانب الآخر . وهرب فومين وكل رجال الحكومة في فيشنسكايا ، إلى توكين . يقولون إن قوزاق كازانسكايا ، وشوميلين ، وميكولينسكايا ثاروا ايضاً . هل فهمت إلى أي حد بلغت الحال ؟

فانتفخت حزم الأوعية على ناصية غريغوري ورقبته ، وراحت عيناه تبعثان شرارات صغيرة خضراً . ولم يستطع كتمان ابتهاجه فجعلت أصابعه السود تعبث بعرى معطفه ثم قال بصوت راعش :

ـ وهنا... في قريتكم ؟ هل حصل شيء هنا ؟

ـ لم أسمع شيئاً . التقيت بالرئيس لتوي وقد ضحك قائلاً :

« سيان عندي أي رب نعبده ، طالما أن هناك رباً » . ولكن يمكن أن تخرج من جحرك .

فذهبا إلى المنزل . فسار غريغوري بخطى واسعة ، وهرع القوزاقي إلى جانبه ، يحكي له الأنباء :

ـ في منطقة يلانسكايا كانت كراسنويارسكي أولى القرى الثائرة . فقبل يومين ذهب عشرون من شيوعيي يلانسكايا لاعتقال بعض القوزاق . فسمع رجال كراسنويارسكي بذلك فقر رأيهم وقالوا :

« إلى متى نتحمل هذا ؟ إنهم يأخذون الآن آباءنا ، وسيأتي دورنا بعد ذلك . لنسرج خيلنا ونذهب لاطلاق سراح المعتقلين » . اجتمع حوالي خمسة عشر فتى غيورا . ولم يكن لديهم سوى بندقيتين أو ثلاث ، وبعض السيوف والحراب . ووجدوا الشيوعيين يستريحون في حوش ملنيكوف ، فأغاروا عليهم بالخيل ، ولكن الحوش كان مسوراً بجدار حجري ، فصد هجومهم . وقد قتل الشيوعيون واحداً منهم ، تغمده الله برحمته . ولكن منذ تلك اللحظة حانت نهاية الحكم السوفييتي ، عليه اللعنة!...

التهم غريغوري بقية فطوره بنهم ثم خرج مع صاحبه إلى الشارع . كان

القوزاق قد تحلقوا جماعات صغيرة عند المنعطفات وكأنهم في عيد . وحين تقدما من إحدى الجماعات ، رفعا أيديهما إلى قبعتيهما تحية ، فردوا عليهما بتحفظ ، متطلعين بفضول وترقب إلى ملامح غريغوري غير المألوفة . فقال رب البيت متفاخراً :

ـ إنه واحد منا . لا تخافوا . أسمعتم بآل ميليخوف من تتارسكي ؟ هذا غريغوري بن بانتلاي بروكوفتش . التجأ إليَّ لينجو بنفسه من الإعدام .

فشرعوا يتحدثون ، ولكن ما إن بدأ أحد القوزاق يحكي لهم كيف طرد الحمر من فيشنسكايا حتى لاح فارسان في أقصى الشارع ، كانا يهذبان ويتوقفان عند كل جماعة من القوزاق ، فيديران فرسيهما ويصرخان بشيء ما ملوحين بأذرعهما . فانتظر غريغوري دنوهما بفارغ الصبر . وقال أحد القوزاق وهو يتشخص بعينيه نحوهما :

ـ ليس هذان من رجالنا... إنهما رسولان من مكان ما .

وتقدم الفارسان من الجماعة . كان أحدهما عجوزاً مشرع الفروة ، وقد احمر وجهه العرق ، وتهدل شعره الاشيب على جبينه . فكبح فرسه كما يفعل الفتيان ثم شرع يده اليمنى ، وهتف :

ـ أيها القوزاق ، علام تثرثرون عند منعطفات الشوارع كالنساء . ـ وهدجت الدموع صوته ، واختلج خداه المزرقان انفعالاً .

وراحت فرسه تتوثب من تحته ، وكانت كميتاً بيضاء المنخرين جميلة لها من العمر أربع سنوات ، ذيلها كث طويل وسيقانها كالفولاذ المسقي . وجعلت تزنخر وتعض على شكيمتها ثم جمحت وشدت على اللجام ، طالبة أن يخلي رأسها لتستطيع المضي في عدوها الراقص مستوية الأذنين ، تعابث الريح عرفها وترنّ الأرض المتجمدة تحت حوافرها المقعرة النظيفة . وكانت كل عضلة في رقبتها وسيقانها تختلج وتترقرق تحت أديمها الرقيق ، وخطمها ذو اللون الوردي الرائق يرتعش وعيناها الجاحظتان ، بلونهما الأبيض والياقوتي ، تصليان فارسها بنظرات آمرة حادة .

صاح العجوز ثانية ، وهو يجيل نظرته من غريغوري إلى القوزاق الآخرين :

ـ علام وقوفكم هنا ، يا أبناء الدون الهادئ؟ إنهم يعدمون آباءكم واجدادكم . إنهم يستولون على أموالكم . القوميسارية اليهود يسخرون من ديننا ، وأنتم تلوكون بذور عباد الشمس وتلاحقون النساء . إنكم تنتظرون إلى أن يضعوا الأنشوطة حول رقابنا . انسوا النساء بعض الوقت! ثارت منطقة يلانسكايا برمتها ، شيباً وشباناً . طردوا الحمر من فيشنسكايا ، وأنتم... هل يجري كفاس* الفلاحين في عروقكم بدل الدم القوزاقي ؟ هبوا! احملوا أسلحتكم! أرسلتنا قرية كريفسكوي لنستنفر قريتكم . إلى الخيل ، يا قوزاق ، قبل أن يفوت الاوان . ـ ثم سمر عينيه الهائجتين في وجه كهل من معارفه وصاح بسخرية لاذعة : ـ علام وقوفك هنا ، ياسيمون كريستوفورفيتش ؟ الحمر ذبحوا ابنك في فيلونوفو ، وأنت مختبئ على موقد دارك!

ولم يتمهل غريغوري ليسمع مزيداً ، فهرع نحو الفناء وشرع ينبش بأظافره حتى أدماها ليخرج سرجه من تحت الجل ، فأسرج حصانه ، وأخرجه من سقيفة التبن ، وطار خلل الباب وكأن به مساً من الجنون .

واستطاع أن يوصل صوته إلى صاحب البيت المقترب من البوابة : «أنا ذاهب! في أمان الله!» ـ ثم مال على قربوس سرجه حتى لامس عنق حصانه ، وراح يلفح الحيوان بسوطه فجعل يهذب ، ومثار الثلج يحط وراءه ، وتحتك ساقاه بالسرج ، ويجلجل الركابان السائبان على جزمته . وطفقت سنابك الجواد تتسابق من تحته . وأحس بفرحة طاغية عارمة ، ودفق من القوة والعزم فانفجرت في حنجرته صيحة راعدة ، وانطلقت مشاعره الخفية الحبيسة . ها قد بدا طريقه أخيراً واضح المعالم ، وضوح مسار القمر عبر السهوب .

---

* مشروب شعبي روسي . المترجمون

فكر بكل شيء ملياً وحسب له حسابه خلال الأيام المرهقة ، حين كان مختبئاً بين الجل كالحيوان يجفل لكل صوت ونأمة في الخارج . لكأن أيام البحث عن الحقيقة ، والتأرجح ، والتقلب ، والصراع الداخلي المؤلم لم تكن قط . لقد مرت كما يمر السحاب ، وها هو سعيه ذاك صار يبدو جزافاً لا طائل تحته . ما الذي كان يشغل أفكاره ؟ علام تقلبت روحه كالذئب الطريد ، بحثاً عن سبيل للخلاص ، عن حل للتناقضات ؟ لقد بدت الحياة حكيمة وسخيفة معاً في بساطتها . وغدا يعتقد بأن ليس هناك حقيقة واحدة يستطيع الكل أن يستظلوا تحت جناحها ، وبات يعتقد بأن لكل امرئ حقيقته الخاصة به وسبيله الخاص . فمن أجل كسرة خبز ، أو رقعة أرض ، أو من أجل الحق في الحياة ، كان الناس يحتربون منذ الأبد ، ولسوف يقتتلون أبد الدهر ما دامت الشمس تسطع فوق رؤوسهم ، وما بقي الدم يجري حاراً في عروقهم . ينبغي أن يحارب أولئك الذين يريدون حرمانه من حياته ، من حقه في الحياة ، أن يحاربهم بثبات لا يعرف الكلل ، بسلاح الكراهية البارد . ينبغي ألا يكبح مشاعره ، بل يطلق لها كل العنان .

لقد اعترض مسار القوزاق درب فلاحي روسيا الذين لا يملكون أرضاً ودرب عمال المصانع . فلتحاربهم حتى الرمق الأخير! انتزع منهم ارض الدون الخصيبة التي غسلتها دماء القوزاق . اطردهم كما طرد التتار ذات يوم إلى خارج الاقليم . اضرب موسكو ، وافرض عليهم سلاماً لا يشرفهم! فالمعبر لا يتسع لاثنين : ينبغي لأحد الطرفين أن ينحي جانباً . لقد ذاقوا طعم التجربة : سمحوا لكتائب الحمر أن تدخل اراضي القوزاق وعرفوا معنى ذلك . فالآن ـ إلى السيوف!

تضرم غريغوري حقداً أعمى ، فجعل يهذب حتى حمله حصانه عبر بساط الدون ذي العرف الابيض . ثم انقض عليه الشك لحظة : «إنها حرب الفقراء على الأغنياء ، وليست حرب القوزاق على الروس... ميشا كوشيفوي وايفان اليكسييفتش قوزاقيان أيضاً ، ولكنهما أحمران حتى العظم ـ ولكنه نفض عنه هذه الفكرة مغضباً .

ولاحت تتارسكي من بعيد ، فجّر العنان . فأخذ حصانه المزبد يمضي في خبب يسير . ثم لزّه ثانية عند بوابة بيته فدفعها الحصان بصدره ودخل هاذباً .

٢٩

عند الفجر دخل كوشيفوي قرية في منطقة اوست خوبرسكايا منهك القوى . فأوقفه مركز حراسة لكتيبة حمراء ، وقاده إثنان من الحرس الاحمر إلى مقر هيئة الاركان . ثم استجوبه ضابط من الأركان استجواباً طويلاً ينطوي على التشكك ، جاهداً أن يجعله يناقض نفسه . وقد سئم ميشا الإجابة على أسئلة خرقاء كهذه :

« من كان رئيساً للجنتكم الثورية ؟ » و« لِمَ لا تحمل هوية ؟ » .

فاحتج قائلاً :

ـ لا تحاول إعاقتي ، ايها الرفيق ، القوزاق جربوا كل شئ معي ولكنهم لم ينالوا شيئاً .

ثم رفع قميصه كاشفاً عن جنبه وبطنه المطعونين بالمذراة .

وكان على وشك أن يصب اللعنات على الضابط فاذا بشتوكمان يدخل في تلك اللحظة .

وارتعش صوت شتوكمان الهادر وهو يطوق ظهر ميشا بذراعه قائلاً :

ـ أيها السفيه! أيها الشيطان الصغير! علام تستجوبه يا رفيق ؟ ـ ثم التفت إلى الضابط ـ إنه واحد من فتياننا . لماذا لم تستدعني أو تستدعِ كوتلياروف ، لما كانت هناك حاجة للأسئلة . هم ، يا ميخائيل . ولكن كيف نجوت ؟أخبرني ، كيف نجوت ؟ شطبناك من قائمة الاحياء . حسبناك مت ميتة الأبطال .

فتذكر ميشا كيف أسر ، وكيف عجز عن الدفاع عن نفسه ، تاركاً بندقيته في الزحافة ، فاحمر وجهه ألماً .

٣٠

يوم بلغ غريغوري تتارسكي كانت القرية قد أفلحت في جمع سريتين من القوزاق . وكان مجمع القرية قد اتخذ قراراً بتعبئة كافة الرجال القادرين على حمل السلاح ، من السادسة عشرة حتى السبعين . على أن العديد منهم كان يائساً من الوضع : ففي الشمال كان إقليم فورونيج تحت سيطرة البلاشفة ، فضلاً عن منطقة خوبر التي تميل إليهم ، أما في الجنوب فهناك الجبهة التي قد تتراجع فتسحق المتمردين في زحفها . وكان بعض القوزاق الحذرين لا يريدون حمل السلاح ، ولكنهم أرغموا على ذلك . فقد رفض ستيبان استاخوف رفضاً باتاً أن يذهب للقتال . فأعلن لغريغوري وخريسترنيا وانيكوشكا ، حين ذهبوا لمقابلته صباحاً قائلاً :

ـ لست ذاهباً ، خذوا حصاني ، افعلوا بي ما شئتم ، ولكني لا أريد بندقية .

فسأله غريغوري ، ومنخراه يرتعشان :

ـ ماذا تعني بقولك لا أريد ؟

ـ لا أريد ، وهذا كل ما في الأمر .

ـ واذا استولى الحمر على القرية ، فماذا ستفعل ؟ أترحل ام تبقى ؟

فحول ستيبان نظرته الثابتة النافذة من غريغوري إلى اكسينيا . ، وأجاب بعد برهة :

ـ سوف نرى...

ـ في هذه الحالة ، تعال إلى الخارج! خذه ، يا خريستونيا! سوف نعدمه رمياً بالرصاص في الحال!

ثم أمسك غريغوري بكم ستيبان ، جاهداً أن يتحاشى النظر إلى اكسينيا المنكفئة إزاء الموقد ، وقال : ـ هيا!

فشحب وجه ستيبان وجعل يقاوم بوهن قائلاً :

ـ غريغوري ، لا تكن أحمق! خل عني!

فأحاط خريستونيا العابس بخصره من الوراء وهو يدمدم :

ـ اذا كان موقفك على هذا النحو ، فهلم!

ـ يا إخوان!...

ـ لسنا إخوانك! قلت لك هيا!

ـ خل عني ، سأنضم إلى السرية . إني معتل الصحة من أثر التيفوس .

فابتسم غريغوري ابتسامة لاذعة ، وخلى عن كم ستيبان ، قائلاً :

ـ هيا اذهب واجلب بندقيتك . كان ينبغي أن تقول ذلك منذ زمن .

ثم زرر معطفه وخرج دون كلمة وداع ، ولكن بعد كل الذي حصل ، لم يخجل خريستونيا من طلب بعض التبغ من ستيبان وجلسا يتحادثان طويلاً وكأن شيئاً لم يحدث بينهما .

وعند المساء جيء من فيشنسكايا بزحافتين محملتين بسلاح قوامه أربع وثمانون بندقية ونيف ومائة سيف . وأخرج كثير من القوزاق أسلحتهم المخبأة ، فجندت القرية مائتين وأحد عشر قوزاقياً ، مائة وخمسون منهم فرسان ، فيما سار البقية على الأقدام .

كان المتمردون ما يزالون بدون قيادة موحدة ، فكانت القرى تعمل دونما تنسيق ، كل قرية تشكل السرايا من تلقاء نفسها ، فتنتخب القادة من بين أشد القوزاق ضبطاً ، آخذة الخدمة بعين الاعتبار وليس المرتبة . ولم يقوموا بعمليات هجوم ، فكل ما فعلوه هو أنهم أقاموا الصلة مع القرى المجاورة ، وأرسلوا دوريات الخيالة .

وقبيل وصول غريغوري كان أخوه بيوتر قد اختير آمراً لسرية الخيالة في تتاركسي ، كما كان في عام ١٩١٨ ، في حين تولى لاتشيف قيادة المشاة . وكان المدفعيون ، وعلى رأسهم ايفان توميلين ، قد ذهبوا إلى قرية مجاورة حيث ترك الحمر مدفع ميدان معطوباً ، فعملوا على إصلاحه . ووزعت مائة وثماني بنادق ومائة واربعون سيفاً وأربع عشرة بندقية صيد جيء بها من

فشينسكايا على مائتين واحد عشر قوزاقياً . واخرج بانتلاي بروكوفتش مدفعه الرشاش من مخبئه في الأرض وكان قد أخلي سبيله مع الآخرين من قبو موخوف . على ان أحزمة العتاد كانت تعوزهم فرفضت السرية أن يكون الرشاش جزءاً من سلاحها .

وجاءت الأخبار مساء اليوم التالي تفيد أن مفرزة تأديبية من الجنود الحمر برئاسة ليخاتشوف ، تعدادها نحو ثلاثمائة ، مجهزين بسبعة مدافع ميدان واثني عشر رشاشاً ، كانت تتقدم من كارغينسكايا لإخماد التمرد . فعزم بيوتر على إرسال دورية وكذلك إنباء فيشنسكايا بالأمر . فبارحت الدورية المؤلفة من اثنتين وثلاثين رجلاً بقيادة غريغوري القرية عند الغسق . فانطلقوا من القرية يهذبون حتى كادوا أن يبلغوا توكين دون أن يخففوا من سرعتهم . وعلى مبعدة حوالي الفرسخين من الجانب الأدنى للقرية ، أمر غريغوري قوزاقه بالترجل عند أخدود غير عميق ، ثم وزعهم في أماكن مختلفة من الأخدود ، واقتيدت الخيل إلى باطن وهدة مشجرة ، حيث كان الثلج كثيفاً ، فغاصت حتى بطونها في الثلج . وكان أحد الجياد ينبض الربيع في دمه ، فراح يثير المتاعب ، فأفرد له رجل ليعنى به عناية خاصة .

وأرسل غريغوري إلى القرية ثلاثة قوزاق : انيكوشكا ومارتن شامل وبروخور زيكوف . فمضوا على خيلهم سيراً . كانت بساتين توكين تتعرج نحو الجنوب الشرقي خلال زرقة المنحدرات الداكنة . وكان الليل قد حل ، وراحت غيوم واطئة تتدحرج فوق السهب . ولبث القوزاق في الأخدود صامتين ، وظل غريغوري يراقب خيال الفرسان الثلاثة حتى هبطوا التل فتداخل خيالهم في معالم الطريق المعتمة . ثم اختفت خيلهم عن ناظريه ولم يعد يرى سوى رؤوسهم فحسب . ثم تلاشوا تماماً . وبعد برهة شرع رشاش يثرثر في الجانب الأقصى من التل ، ثم لعلع رشاش آخر بنبرة أعلى ، وكان جلياً أنه مدفع رشاش خفيف . ثم لاذ الرشاش الخفيف بالصمت ، وبعد برهة

وجيزة أنهى الأول شريطاً آخر بسرعة . فتطاير وابل من الرصاص في الغسق فوق الأخدود يئز أزيزاً مفعماً بالحيوية والمرح . وجاء القوزاق الثلاثة عائدين يهذبون بأقصى سرعتهم .

وصاح بروخور زيكوف وهو ما يزال على مبعدة ، فضاع صوته بين هدير حوافر الخيل :

ـ اصطدمنا بنقطة امامية .

فأمر غريغوري بأن تكون الخيل على أهبة الاستعداد ، ثم قفز خارجاً من الأخدود ، وذهب يلقى القوزاق ، غير آبه للرصاص الذي كان ينغرز في الثلج وهو يئز . وسألهم :

ـ هل رأيتم شيئاً ؟

فأجابه انيكوشكا لا هثاً شاتماً فيما عالج باليد جزمته التي علقت بالركاب بعد أن وثب من الحصان :

ـ كان بوسعنا أن نسمعهم يتحركون . لا بد أنهم كثرة . استنتجنا ذلك من أصواتهم .

وبينما كان غريغوري يستجوبهم هرع ثمانية قوزاق من الأخدود إلى حيث وضعت الخيل ، فركبوا خيلهم ، وانطلقوا يهذبون في اتجاه القرية .

فقال غيرغوري بهدوء وهو ينصت إلى صوت الحوافر المبتعدة :

ـ سنعدمهم غداً .

أما القوزاق الذين بقوا تحت أمرته فلبثوا ساعة أخرى ، محافظين على الصمت التام وهم يصيخون سمعهم ، وأخيراً سمع أحدهم صوت حوافر الخيل . فأعلن قائلاً :

ـ إنهم آتون من جهة توكين .

ـ هي دورية!

وراحوا يتهامسون مع بعضهم ، ويشرئبون برؤوسهم خارج الأخدود ، ويحاولون عبثاً أن يميزوا شيئاً في الظلمة الحالكة . وكانت عينا فيدوت

بودوفسكوف الكاليميكيتان الحادتان أول من لمحتا الفرسان المتقدمين فقال واثقاً ، وهو ينزل بندقيته عن كتفه :

ـ ها هم قادمون .

كان يحمل بندقيته على نحو غريب ، جاعلاً السير حول رقبته مثل خيط الصليب ، والبندقية مدلاة عبر صدره . كان يحملها على هذا النحو سواء كان راجلاً أم راكباً ، فيضع إحدى يديه على ماسورتها والأخرى على عقبها ، شأن امرأة توازن حمالة دلوين على كتفيها .

كان نحو عشرة فرسان يتقدمون بهدوء على الطريق دونما نظام . وكان شخص مهيب وثير الملبس يتقدمهم قليلاً ، وحصانه ذو القوائم الطويلة والذنب الملهوب يسير سيراً حثيثا واثقاً . وفيما كان غريغوري يصعد فيهم نظراته ، ومن خلفهم رقعة السماء الرمادية ، استطاع أن يرى معالم أجسام الخيل ، ومعالم فرسانها ، وحتى قبعة الفرو المسطحة التي يعتمرها قائدهم . ولم يبق بينهم وبين القوزاق سوى ثلاثين ياردة ، وبدا وكأنهم يستطيعون سماع أنفاس القوزاق الثقيلة ووجيب قلوبهم العميق .

كان غريغوري قد أصدر أوامره مسبقاً بالإمساك عن الرمي حتى يصدر لهم الإيعاز . ومثل الصياد في مكمنه كان ينتظر اللحظة المناسبة وهو واثق من تقديراته : سوف يدعو الفرسان ، ثم يفتح النار حين يكبحون خيلهم ويلتمون بارتباك .

كانت خشخشة الثلج تنبعث من الطريق بهدوء . طارت شرارة صغيرة صفراء من تحت أحد الحوافر : ربما انزلقت الحدوة على صخرة جرداء .

ـ من هناك ؟

ثم وثب غريغوري إلى حافة الأخدود وثبة هر وانتصب واقفاً . فاندفع قوزاقه وراءه بحفيف خفيف . ولكن غريغوري لم يكن متهيئاً لما تلا ذلك .

فسأله قائد الفرسان قائلاً : «من تريد ؟» وكان صوته الأبح لا ينم عن إمارة خوف أو مباغتة . وأدار الرجل حصانه صوب غريغوري .

فصاح غريغوري بحدة ، دون أن يتململ من مكانه وقد رفع مسدسه خلسة « من أنت ؟ » فأجاب الرجل بصوت مرتفع غاضب :

ـ من هذا الذي يتجرأ على الصياح هكذا ؟ أنا آمر الحملة التأديبية وأنا مخول من هيئة أركان الجيش الأحمر الثامن بإخماد التمرد . من هو آمركم ؟ دعه يأتي إلى هنا .

ـ أنا الآمر .

ـ أنت ؟ آه...

ورأى غريغوري شيئاً أسود في يد الفارس المرفوعة ، فارتمى إلى الأرض وهو يصرخ قبل أن يطلق الفارس رصاصته :

ـ نار!

واعولت من فوق رأسه رصاصة فطساء من مسدس الرجل من نوع البراونينك . وانطلق من الجانبين دوي الطلقات يصم الآذان . ثم جرى بودوفسكوف وأمسك بعنان حصان القائد الاحمر . ومال غريغوري جانباً ثم ضرب رأس الرجل بنصل سيفه فأهوى به من على سرجه . وانتهى كل شيء في بضع دقائق . فهذب ثلاثة جنود حمر هاربين ، وقتل اثنان ، وجرد البقية من سلاحهم .

واستجوب غريغوري القائد الاحمر بصرامة ، داساً ماسورة مسدسه في فم الرجل المهشم :

ـ ما اسمك ، أيها الخنزير ؟

ـ ليخاتشوف .

ـ ماذا كنت تأمل أن تفعل ، لا يحرسك سوى تسعة رجال ؟ أحسبت أن القوزاق سيركعون أمامك ويرجون المغفرة ؟

ـ اقتلني!

فواساه غريغوري قائلاً :

ـ سيكون ذلك في الوقت المناسب! أين أوراقك ؟

ـ في حقيبتي . خذها ، يا قاطع طريق... يا خنزير!

ولم يلتفت غريغوري إلى شتائم ليخاتشوف ففتشه بنفسه ، وأخرج من جيب سترته الفرو مسدساً آخر من نوع البراونينك ، ثم أزاح مسدس الموزر وحقيبة الميدان . وعثر في جيب جانبي على علبة سكائر ودفتر جلدي صغير مع الأوراق .

ولم ينقطع سباب ليخاتشوف وتأوهاته من الألم . فقد شجت ضربة سيف غريغوري رأسه كما أن رصاصة قد استقرت في كتفه الأيمن . كان مديد القامة ، أطول من غريغوري ، متين البنية بادي القوة ، وكان حاجباه الأسودان الكثان ينعقدان فوق أنفه على نحو يوحي بالقوة ، وكان ذا وجه أسمر حليق وفم كبير وفك مربع . كان يرتدي معطفاً قصيراً ضيقاً عند الخصر ، تغطي رأسه قبعة كوبانية سوداء دعكتها ضربة غريغوري بالسيف ، ويرتدي تحت معطفه سروال خيالة واسعة وقمصلة عسكرية تناسبه تماماً . بيد أن قدميه كانتا صغيرتين رشيقتين تغطيهما جزمة أنيقة ذات ساق جلدي لامع .

وأمر غريغوري قائلاً :

ـ اخلع معطفك ، أيها القوميسار! أنت منعّم ، لقد سمنت على خبزالقوزاق ، ولا أظنك ستتجمد .

وقيدت أيدي الاسرى إلى ظهورهم بالسيور والأعنة ، ثم أجلسوا على خيلهم . وأمر غريغوري وهو يعدل على جنبه وضع مسدس ليخاتشوف :

ـ اتبعوني!...

وباتت الجماعة ليلتها في بازكي وهي لا تبعد كثيراً عن فيشنسكايا . وراح ليخاتشوف يتقلب على الأرض عند الموقد ، يئن ويصر بأسنانه . وغسل غريغوري كتفه وضمده على ضوء مصباح الكيروسين ، وقرر ألا يمضي في استجواب الرجل . فجلس إلى المنضدة وقتاً طويلاً يتفحص الأوراق التي استولى عليها ، وقوائم القوزاق المعادين للثورة في فيشنسكايا ، التي كانت المحكمة الثورية الهاربة قد أعدتها ، ودفتر الملاحظات والرسائل ،

والعلامات المرسومة على الخارطة . وكان بين آونة وأخرى يحدق في ليخاتشوف ، مبادلاً إياه نظرات أشبه بسيوف متقاطعة . وسهر القوزاق طيلة الليل ، وكانوا يخرجون إلى خيلهم بين حين وآخر ، أو يستلقون متسامرين أو يدخنون داخل السقيفة .

وقبيل الفجر غفا غريغوري ، ولكنه ما لبث أن أفاق ورفع رأسه المستثقل من على المنضدة فرأى ليخاتشوف جالساً على القش يفك ضماداته بأسنانه ويمزقها . كان مكشراً عن أسنانه ألماً ، ورفع إلى غريغوري عينين قاسيتين محمرتين تنمان عن شوق قتال . أزاح النعاس عن غريغوري مثل يد خفية . فسأله :

ـ ماذا تفعل ؟

فأرعد ليخاتشوف والشحوب ينتابه وهو يلقي رأسه على القش من جديد : «ما شأنك في ذلك ، بحق الجحيم ؟ أريد أن أموت ؟» . كان قد شرب أثناء الليل نصف دلو من الماء ، ولم يغمض له جفن . وفي الصباح أرسله غريغوري إلى فيشنسكايا على زحافة مع الوثائق التي استولى عليها وتقرير مقتضب .

٣١

رافق الزحافة قوزاقيان فارسان فمضت تقرقع حتى بلغت بناية الآجر الأحمر التي كانت مقر اللجنة التنفيذية في فيشنسكايا . كان ليخاتشوف بين جالس وراقد في مؤخرة الزحافة ، فنهض ماسكاً الضمادة المشربة دماً بإحدى يديه ثم ترجل القوزاقيان وقاداه إلى داخل المنزل .

كان حوالي الخمسين قوزاقياً متجمهرين في الغرفة التي يشغلها سورياروف الآمر المؤقت للقوات المتمردة . واتجه ليخاتشوف ، وهو يصون يده المصابة ، إلى المنضدة حيث جلس سورياروف ، وهو قوزاقي قميء ليس

فيه ما يميزه سوى شقي عينيه الصفراوين اللذين ينمان عن مزاجه الصفراوي . فنظر إلى ليخاتشوف وسأله :

ـ إذن ، أنت ليخاتشوف ، يا ولدي ؟

ـ نعم ، هناك أوراقي . ألقى القائد الاحمر دفتر الملاحظات على المنضدة وجعل يحدق بسوياروف بعناد وصرامة : ـ يؤسفني أنني لم افلح في تنفيذ التعليمات التي تلقيتها لسحقكم كما تسحق الأفاعي . بيد ان روسيا السوفييتية ستعاملكم كما تستحقون . أعدموني رمياً بالرصاص في الحال رجاء! ـ وحرك يده الجريحة ثم حاجبه الكث .

فرد عليه سوياروف برفق وعيناه تلتمعان بعض الشيء :

ـ كلا ، أيها الرفيق ليخاتشوف . نحن أنفسنا ثرنا ضد أحكام الإعدام . لسنا من شاكلتكم ، نحن لا نعدم الناس . سنداوي جرحك ، وقد نفيد من خدمتك لنا . ـ ثم التفت إلى الحشد ، وأردف : ـ إلى الخارج ، كلكم! أسرعوا!

فلم يبق في الغرفة سوى آمري السرايا الخمس ، فجلسوا إلى المنضدة ، ودفع أحدهم بقدمه مقعداً إلى ليخاتشوف ، إلا أنه أبى الجلوس ، فاتكأ على الجدار شاخصاً بنظره عبر رؤوسهم إلى خارج النافذة .

وبدأ سوياروف الكلام ، بعد أن تبادل النظرات مع آمري السرايا :

ـ حسناً الآن ، يا ليخاتشوف ، أخبرنا كم عدد أفراد مفرزتك ؟

ـ لن أفعل ذلك .

ـ لن تفعل ؟ حسناً ، لا حاجة . سنحصل على ذلك من أوراقك ومن استجواب حرسك الأحمر . شيء آخر نطلبه منك :

اكتب لمفرزتك كي تأتي إلى فيشنسكايا . ليس لدينا ما نقاتلكم عليه . لسنا ضد الحكومة السوفييتية ، بل ضد الشيوعيين واليهود . سنجرد رجالك من السلاح ونرسلهم إلى أهليهم . وسنطلق سراحك . وصفوة القول ، اكتبْ لهم بأننا كادحون ايضاً ولا داعي لخوفهم منا ، فلسنا ضد السوفييت...

فبصق ليخاتشوف على لحية سورياروف الشهباء الصغيرة مباشرة ، فمسح سوياروف لحيته بكمه واحمر وجهه . فابتسم واحد من الأمراء ، ولكن أحداً منهم لم ينهض للدفاع عن شرف قائدهم .

وقال سوياروف بتصنع واضح :

ـ إذن فأنت تريد إهانتنا أيها الرفيق ليخاتشوف! كان الاتمانات والضباط يوجهون الإهانات الينا ، ويبصقون علينا وها أنت الشيوعي تبصق علينا أيضاً! ومع ذلك تقولون إنكم إلى جانب الشعب... حسناً ، اسمعوا! من من الخفراء هناك ؟ قودوا القوميسار! سنرسلك إلى كازانسكايا غداً .

وسأله أحد أمراء السرايا بصرامة :

ـ ألا تعيد النظر في القضية ؟

فسوى ليخاتشوف قمصلته على كتفه والتفت إلى الحارس الواقف على الباب .

ولم يعدموه مع ذلك . لقد كان المتمردون يقاتلون ضد «الإعدام والنهب»...

وفي اليوم التالي سيق إلى كازانسكايا . فسار أمام حارسه الخيال ، يخطو على الثلج بخفة وهو معقود الحاجبين . ولكنه حين مر ، خلال الغابة ، بشجرة بتولا يجللها بياض تبسم في الحال ، توقف ، ثم مد ذراعه السليمة وانتزع غصناً . وكانت عليه براعم صغيرة بدأت تنتفخ بعصير آذار الحلو يفوح منها عبق الحياة الربيعي . فدس ليخاتشوف البراعم في فمه ولاكها ، شاخصاً بعينين مضببتين إلى الشجرة وقد ازدانت بنضارة الربيع الفضي ، وعلت الابتسامة طرفي شفتيه .

مات وعلى شفتيه تويجات البراعم السود . فعلى مبعدة سبع فراسخ من فيشنسكايا ، وبين الكثبان الرملية الكثيفة ، مزقه الحرس بعنف ووحشية . وقد غرزوا في عينيه رؤوس سيوفهم وهو ما يزال على قيد الحياة ، وبتروا ذراعيه ، وجدعوا أنفه وصلموا أذنيه وشقوا وجهه بسيوفهم . ثم حلوا سرواله

ومثلوا بجسده الرجولي الوسيم الكبير . ثم هتكوا جذعه الدامي ، ووطأ أحدهم صدره الراعش ودحرج رأسه بعيداً عن جسده بضربة من سيفه .

٣٢

جاءت الأنباء من وراء الدون ، ومن أعاليه ، ومن كل المناطق تشير إلى اتساع مدى التمرد . لقد انتفضت سبع مناطق وجمعت سرايا الخيالة على عجل ، وكانت ثلاث مناطق أخرى على استعداد للانضمام إلى التمرد . وبات خطر التمرد يهدد بالاتساع شمالاً . وأصبحت فيشنسكايا مركزاً للعصيان . وبعد نقاش وجدال طويلين تقرر الإبقاء على الشكل الأسبق للحكم . فانتخب لعضوية اللجنة التنفيذية الإقليمية قوزاق يتمتعون بأوفر قسط من الاحترام ، وكان أغلبهم من الذين لم يتقدم بهم العمر . فانتخب دانيلوف ، وهو ضابط مدفعية سابق ، رئيساً وشكلت مجالس السوفييت في المناطق والقرى ، ومن الغريب ، أن كلمة «رفيق» بقيت دارجة في الحياة اليومية بعد أن كانت مستهجنة ، ورفع شعار مضلل يقول : «من أجل الحكم السوفييتي ، ولكن ضد نظام الكومونات ، والإعدام ، والنهب» . وبدلاً من الشارة أو الشريط الأبيض على القبعة ، ارتدى المتمردون شريطاً أبيض وأحمر متقاطعين .

وحل محل سوياروف في قيادة القوات المتمردة الموحدة نائب ضابط شاب يدعى بافل كودينوف له من العمر ثمانية وعشرون ، يحمل وسام القديس غيورغي بدرجاته الأربع ، وهو رجل ذكي ذلق اللسان . وكانت نقيصته تكمن في ضعف شخصيته ، ثم إنه لم يكن الرجل اللائق لقيادة منطقة ثائرة في وقت يعج بالمشاكل كذلك ، بيد أن القوزاق انجذبوا إليه لسجيته البسيطة المفضلة . والمهم أن لكودينوف طبائع قوزاقية ذات جذور عميقة فكان خلواً من العجرفة وغطرسة الضباط اللتين يظهرهما حديثو النعمة في

العادة . كان بسيط الملبس دائماً ، طويل الشعر ، يسير مطأطئ الهامة بعض الشيء ، وهو سريع الكلام . ولم يتميز وجهه الذي يحمل شيئاً من سيماء الفلاحين بشيء سوى أنف طويل أقنى .

وانتخب القوزاق لرئاسة أركانهم رئيساً يدعى ايليا سافونوف . وقع عليه اختيارهم ، رغم أنه كان جباناً بعض الشيء ، لا لشيء إلا لأنه يحسن استعمال قلمه ولكونه متعلماً . وكان أحدهم قد قال أثناء الاجتماع :

ـ أبقوا سافونوف في المقر . إنه لا يصلح في خط القتال . فلن يفعل سوى التفريط بحياة القوزاق . إن جدارته للعمل في خط القتال لا تختلف عن جدارة الغجري بأن يكون قسيساً .

فابتسم لهذا القول سافونوف وراء ثنيات عذاريه الأشقرين المائلين للبياض ، وكان قصير القامة مكتنزاً ، ثم وافق بسرور على تولي رئاسة الأركان .

ولكن كودينوف وسافونوف لم يفعلا شيئاً أكثر من أن يضيفا الطابع الرسمي على الأعمال التي قامت بها السرايا من تلقاء نفسها . ومن حيث التنظيم والقيادة كانا مقيدي الأيدي ، وما كانت لديهما القوة اللازمة لتوجيه دفة منظمة مرتبكة كتلك أو لمتابعة الحركة السريعة للأحداث .

أرسلت كتيبة حمراء من الخيالة لمواجهة التمرد ، وقد لمت في مسيرتها بلاشفة أوست ـ خوبرسكايا ، ويلانسكايا وبعض مناطق فيشنسكايا ، ثم شقت طريقها قتالاً من قرية إلى قرية ، متحركة على السهب غرباً بمحاذاة الدون . وفي الخامس من آذار هذب قوزاقي إلى تتارسكي يحمل استغاثة مستعجلة لإرسال المساعدة إلى متمردي يلانسكايا ، الذين كانوا قد تراجعوا دون أن يبدوا مقاومة تذكر ، اذ كانت تعوزهم البنادق والذخيرة . كان الحمر يحصدونهم برصاص الرشاشات ، وراحت بطاريتان تقذفانهما بحممهما . وفي ظروف كهذه بات انتظار التعليمات من مركز المنطقة أمراً ميؤوساً . ومن ثم فقد عقد بيوتر ميليخوف العزم على التقدم لمواجهة الحمر بسريته .

وتولى قيادة السرايا الأربع الأخرى التي جمعتها القرى المجاورة ، وخرج بقوزاقه من تتارسكي صباحاً . وبدأت المناوشات المألوفة بين الدوريات . أما القتال الحقيقي فقد تأخر قليلاً .

ترجل الخيالة في ذلك اليوم الشتائي القارس على مبعدة ستة فراسخ من القرية في البقعة التي كان غريغوري وزوجته ناتاليا قد حرثاها وحيث اعترف لها غريغوري بأنه لم يكن يحبها . ثم انتشر القوزاق في صف على الثلج قرب وديان ضيقة عميقة ، واقتيدت الخيل إلى مخبأ . وكان بوسعهم أن يروا الحمر يسيرون في ثلاثة صفوف خارجين من واد فسيح . وكان العدو ما يزال على بعد فرسخين تقريباً ، فراح القوزاق يتهيأون للمعركة على مهل .

وخب بيوتر بحصانه العرق المعتنى به إلى حيث يتولى غريغوري قيادة نصف سريته . وكان بيوتر فرحاً نشيطاً :

ـ أيها الإخوان ، لا تضيعوا رصاصكم . أطلقوا النار حين آمركم . يا غريغوري ، خذ نصف سريتك مسافة خمسين ياردا إلى اليسار . أسرع! ولا تجمع الخيل كلها معاً! ـ ثم أصدر بضعة أوامر ختامية أخرى ، ورفع ناظر الميدان إلى عينيه ، وهتف : ـ ماذا ، هل ينصبون بطارية فوق ربوة ماتفييف ؟...

فقال غريغوري :

ـ رأيت ذلك منذ وقت ، لا حاجة بك لناظور كي تراهم . ـ ثم تناول الناظور من يد أخيه وحدق فيه . واستطاع أن يرى فوق الربوة التي تعبث بها الرياح عربات وأشباحاً صغيرة لرجال منهمكين حولها .

وعلى الرغم من الأوامر القاضية بعدم التجمع ، التم مشاة تتارسكي أو «الزاحفون» كما كان الخيالة يسمونهم هزلاً ، في شراذم يدخنون ويتقاسمون الرصاص ويتناولون الخراطيش ويتمازحون . وبدا خريستونيا بقبعته الفرو العالية أطول بمقدار رأس من القوزاق الأصغر منه بعض الشيء (وكان خرستونيا بين المشاة لفقدانه حصانه) وبدت قبعة بانتلاي بروكوفتش

بغطاء الأذنين حمراء متميزة بين غيرها . كان المشاة جلهم من الشيوخ والفتيان . وكان رجال يلانسكايا إلى الجانب الأيمن من عباد الشمس الذي لم يحصد بعد . وكان تعداد المشاة في السرايا الأربع ستمائة ، لكن حوالي المائتين ، أي ثلث مجموع القوات ، التجأوا إلى الوديان ليعتنوا بالخيل .

وجاءت الصيحات من المشاة :

ـ بيوتر بانتلايتش ، لا تتخلوا عنا ، نحن المشاة ، حين يبدأ القتال ، نرجوك!

فابتسم بيوتر قائلاً :

ـ لا تخافوا ، لن نترككم . ـ وفيما نظر إلى صفوف الحمر تتقدم صوب التل ، شرع يعبث بسوطه وهو بادي العصبية .

وناداه غريغوري ، وهو يبتعد قليلاً عن صف الرجال :

ـ بيوتر ، تعال إلى هنا . ـ فتبعه بيوتر . فقال غريغوري وكان عبوسه ينم عن برم جلي :

ـ إني لا أرتاح إلى هذا الموقع . علينا أن نبتعد عن هذه الوديان . فربما هاجمونا من أحد الجناحين . فماذا يحل بنا ؟ ما رأيك ؟

فلوح بيوتر يده غاضباً وقال :

ـ ما هذا منك ؟ كيف يسعهم أن يهاجمونا من الجناح ؟ لقد أبقيت سرية احتياطاً ، اذا ما ساءت الأمور فإن الوديان ستكون نافعة لنا . إنها ليست مبعث خطر علينا .

فحذره غريغوري ، وهو يلقي نظرة خاطفة أخرى حول الموقع ، ويتفحص المكان بعينه :

ـ اذا ، خذ الحذر .

ثم قفل راجعاً إلى رجاله وكان العديد منهم قد ألهبهم الانفعال فخلعوا قفازاتهم الاعتيادية ، وراح بعضهم يصلحون وضع سيوفهم ويشدون أحزمتهم بعصبية .

وقال أحد القوزاق مبتسماً وهو يشير إلى حيث يسير بيوتر على امتداد الصفوف بخطوات ثقيلة :

ـ آمرنا قرر أن يترجل عن حصانه .

وزعق أليكسي شامل ذو الذراع الواحدة الذي كان السيف كل سلاحه :

ـ هيه ، أنت يا جنرال! مر أن يقدم لكل قوزاقي كوزاً من الفودكا!

ـ اخرس ، أنت يا سكير! سيبتر الحمر ذراعك الأخرى ، وكيف ستشرب حينذاك ؟ سيكون لزاماً عليك أن تلعق الشراب من الحوض .

ـ كفاكما .

وقال ستيبان استاخوف متنهداً ، وهو يرفع يده عن مقبض سيفه ليفتل عذاريه المائلين إلى الحمرة :

ـ إني مستعد لبذل الكثير من أجل قطرة شراب الآن .

وما إن شرعت بطارية الميدان تطلق نارها من خلف الرابية حتى تلاشى الحديث الذي لا يتصل بالموقف الحالي إلا من بعيد . وانطلق الصوت الداوي الثقيل من فوهة المدفع وعلق فوق السهب . وكانت القذيفة الاولى غير محكمة التسديد فسقطت أمام خطوط القوزاق بنحو نصف فرسخ . فانتشر الدخان الأسود المنبعث من الانفجار ثم علق بالشجيرات . وشرعت مدافع الرشاش تطلق النار من صفوف الحمر ، محدثة صوتاً كصوت المدقة الخشبية . فانبطح القوزاق على الثلج ، وراء الشجيرات ، وبين سيقان عباد الشمس الكثة التي لا رؤوس لها .

وصاح بروخور زيكوف منادياً غريغوري :

ـ ذلك الدخان شديد السواد . يبدو وكأنهم يستعملون قذائف ألمانية .

وساد السرية الثانية هرج . وحملت الريح صرخة :

ـ ميتروفان قُتل!

وجاء آمر سرية أحمر اللحية من قرية روبنجي إلى بيوتر راكضاً ، وقال :

ـ لديّ فكرة ، يا رفيق ميليخوف . ابعث سرية تهبط إلى الدون ، فتمر حذاء النهر إلى القرية ثم تضرب الحمر في المؤخرة . لا بد أنهم تركوا زحافات متاعهم دونما حراسة . فإن تم ذلك شاع الهلع في صفوفهم .

واستحسن بيوتر « الفكرة » وبعد أن أمر سريته بإطلاق النار سار إلى غريغوري وشرح له الاقتراح ، وأمره باقتضاب :

ـ اسحب نصف سريتك واضرب مؤخرتهم!

فسحب غريغوري قوزاقه ، وأمرهم بركوب خيلهم في أحد الوديان ، وسار بهم في خبب سريع صوب القرية .

وأطلق القوزاق من مراكزهم رشقتين من الرصاص ثم لزموا الصمت . وانبطح صف الحمر ، وبقيت رشاشاتهم تطلق النار . وأصابت حصان مارتن شامل رصاصة ، فانتزع نفسه من يد القوزاقي الذي يقوم على حراسته ، وجرى هائجاً خلال صف قوزاق روبنجي ومضى مسرعاً صوب الحمر . فتطاير عبره فيض من رصاص الرشاشات ، فوثبت ساقا الحيوان الخلفيتان عالياً في الهواء قبل أن يهوي على الثلج .

وأصدر بيوتر الأوامر بتصويب النار إلى حملة الرشاشات . ولم يطلق النار سوى خيرة الهدافين فأوقعوا بهم ضرراً جسيماً . وقد أصاب قوزاقي قميء عرف بإحكام رميه ثلاثة من حملة الرشاش ، فسكت رشاش المكسيم والماء يغلي في مبردته . بيد أن حملة رشاش احتياط أسرعوا يحلون محلهم ، وسرعان ما أخذ المدفع يزرع بذور الموت من جديد . وجاءت الصليات متلاحقة فجعل القوزاق يدفنون أنفسهم أعمق في الثلج . وحفر انيكوشكا حتى بلغ الارض الجرداء وهو يمزح طوال الوقت . وكان قد نفذت خراطيشه (اذ لم يكن لديه سوى خمس منها في مشط صدئ) وأخذ يرفع رأسه من حجره بين آونة وأخرى ، محدثاً بشفتيه صئياً يحاكي صئي فأر جبلي فزع .

وكان ستيبان استاخوف على يمينه يبكي من فرط الضحك ، فيما كان انتيب الكذوب على يساره يلعن غاضباً :

ـ صه ، يا حشرة! أهذا وقت مناسب للعبث!

فيزعق انيكوشكا : «اهيو!» جاحظاً عينيه صوبه مصطنعاً الذعر .

والواضح أن بطاريات الحمر كان ينقصها العتاد ، اذ كفت عن إطلاق النار بعد نحو ثلاثين قذيفة . فالتفت بيوتر إلى قمة التل بنفاد صبر ، كان قد بعث برسولين إلى القرية يحملان أوامر تقضي بخروج كافة السكان البالغين متسلحين بالمذاري والمناجل والفؤوس . كان يأمل أن يترك ظهورهم على التل أثره في الحمر فيكونون انطباعاً خاطئاً عن قوة القوزاق .

واستجابة للأمر ظهر حشد الناس على حنوة التل وتدفقوا حدره . وقد استقبلهم القوزاق بالتنكيت :

ـ انظروا إلى تلك الحجارة السوداء تتدحرج!

ـ خرجت القرية ، النساء وكل الآخرين!

وراح القوزاق يصيحون إلى بعضهم ويبتسمون . كانوا قد أوقفوا إطلاق النار كلياً . ولم يبق سوى رشاشين يطلقان النار على صفوف الحمر ، وكانت الصليات تلعلع من حين إلى آخر .

وقال اليكسي ذو الذراع الواحدة :

ـ آسف أن تتوقف بطاريات الحمر عن إطلاق النار . فلو أنهم رموا قذيفة واحدة بين هذا الحشد لرأيتهن يهرولن عائدات إلى القرية بتنورات مبتلة . ـ يبدو أنه كان آسفاً بالفعل لأن الحمر لم يطلقوا أي قذيفة على النساء .

اصطف الحشد صفين طويلين غير متسقين ثم توقف . وأمرهم بيوتر أن يلبثوا بعيدين وراء خطوط القوزاق . ولكن يبدو أن ظهورهم بحد ذاته قد ترك أثره في الحمر ، فشرعوا يتقهقرون وانحدروا إلى قعر الوادي . وبعد أن عقد بيوتر مشاورات قصيرة مع أمراء سراياه عمد إلى كشف ميمنة قواته حين أمر صفين من رجال يلانسكايا بالانسحاب والذهاب شمالاً على خيلهم لإسناد الهجوم الذي اعتزمه غريغوري . واصطفت السرايا على مرأى من الحمر ثم انحدرت شطر الدون .

استأنف القوزاق إطلاق نيرانهم على العدو المتقهقر . وفي أثناء ذلك ، توغل في صفوف المحاربة «جنود الاحتياط» وهم عدد من أشد النسوة طيشاً وحشد من الصبيان . وكانت داريا في عدادهم ، فدنت من بيوتر قائلة :

ـ بيوتر ، دعني أطلق رصاصة على الحمر . إني أعرف كيف أستعمل البندقية . ـ ثم أخذت غدارة بيوتر وركعت على ركبتيها فأسندت عقبها على صدرها بثقة رجال وأطلقت طلقتين .

وجعل « جنود الاحتياط » الماثلون على سفح التل يراوحون بأرجلهم ويتواثبون التماساً للدفء ، فراح الصفان يرتجان وكأن الريح تهزهما . وصارت خدود النسوة وشفاههن زرقاء ، وتسلل الزمهرير تحت أذيال تنوراتهم الفضفاضة . وتجمد الشيوخ الهرمون تجمداً تاماً ، وكان يجب أن يُعاني الكثيرون منهم ليصعدوا التل ، بما فيهم غريشاكا العجوز ولكن ما إن بلغ الشيوخ قمة التل التي تعبث بها الرياح حتى بعث الرمي البعيد والبرد فيهم الحماس . وانهمكوا في حديث حام يروون مآثر الحروب والمعارك السالفة وبؤس الحرب الراهنة ، حيث يقاتل الأخ أخاه ، والوالد ولده ، وحيث تطلق المدافع من بعد شاسع تعجز العين المجردة عن رؤيتها...

٣٣

أغار غريغوري بنصف سريته على زحافات الامتعة ، فصرع ثمانية من الحرس الأحمر ، واستولى على أربع زحافات محملة بالذخيرة وعلى حصانين للركوب . وقد خسر حصاناً واحداً ، وأصيب أحد القوزاق بخدش طفيف .

ولكن حين قفل غريغوري راجعاً على محاذاة الدون بما غنم من زحافات ، قرير البال منتشياً بانتصاره ، كان القتال قد بلغ نهايته فوق التل المشرف على تتارسكي . فقبل أن تبدأ المعركة شرعت سرية من فرسان

الحمر في مسيرة عشرة فراسخ لتطويق القوزاق ، وظهرت وراء التل بغتة وأغاروا على الرجال المكلفين برعاية الخيل واختلط الحابل بالنابل . فسرى الذعر في القوزاق وهربوا بالخيل من الوهدة . وقد أفلح بعضهم في قيادة المطايا إلى صفوف القوزاق . ولكن أغلبيتهم سقطوا صرعى سيوف الخيالة الحمر . والكثيرون من القوزاق المجردين من أسلحتهم أطلقوا سراح الجياد التي كانوا يكلفون برعايتها ولاذوا بالفرار شذر مذر . ولم يستطع المشاة إطلاق النار خشية أن يصيبوا رجالهم . وتدفقوا إلى باطن الاخدود يخبطون خبط عشواء كما تتدفق حبات الفاصولياء من كيس . أما فرسان القوزاق الذين أفلحوا في بلوغ الخيل ، وهم الغالبية ، فقد راحوا يتزاحمون في سباق سريع عائدين شطر القرية .

وحالما سمع بيوتر الصيحة ورأى جحافل الحمر المتدفقين إلى القوزاق ، أصدر أمره :

ـ إلى الخيل! لاتيشيف! خذ المشاة عبر الأخدود!...

بيد أنه لم يفلح في الوصول إلى حصانه . فقد جاء الصبي الذي كان حصانه في عهدته يهذب هذباً ، يقود حصانه وحصان فيدوت بودوفسكوف . بيد أن رجلاً من الجيش الأحمر أغار عليه من الخلف وأهوى بالسيف على كتفه . ومن حسن حظ الصبي أن بندقيته كانت معلقة على ظهره ، فلم يقطع السيف عنقه المعصومة بالوشاح الأبيض ، بل انزلق على ماسورة البندقية مصراً فطار من يد الرجل . غير أن حصان الصبي استدار وهذب مبتعداً ، فتبعه حصانا بيوتر وفيدوت . فندت عن بيوتر أنة ولبث واقفاً لبرهة ، شاحب الوجه ، والعرق يتصبب حدر خديه . ثم التفت فرأى ما ينوف على عشرة قوزاق يعدون شطره . وصاح بودوفسكوف وقد شوه الرعب وجهه :

ـ هلكنا!

فأمرهم بيوتر قائلاً :

ـ اهبطوا إلى الاخدود ، يا قوزاق! يا إخوان ، إلى الأخدود!

واستعاد رباطة جأشه فقادهم جرياً إلى حافة الأخدود ، وتدحرج حدر المنخفض كيفما اتفق . وعلق بمعطفه الفرو القصير شيء ما فتمزق من جيب صدره حتى درز الحاشية . وحين بلغ القعر وثب ونفض نفسه كما يفعل كلب . فتدحرج القوزاق من فوق التل وهم يتقلبون أثناء طيرانهم .

وكان الرصاص ما يزال يلعلع من عل ، وكان بوسعهم أن يسمعوا الصيحات ووقع الحوافر . وراح القوزاق في باطن الأخدود ينفضون الثلج والرمل عن قبعاتهم بحركات آلية اويدلكون كدماتهم . وانهمك مارتن شامل في تنظيف ماسورة بندقيته من الثلج . أما الفتى مانيتسكوف ، ابن الاتمان السابق ، فقد كان يرتعد خوفاً والدموع تنهمر على خديه . وقال باكياً :

ـ ماذا نفعل ؟ قل لنا ، يا بيوتر! الموت يحيق بنا! أين نذهب ؟ سيقتلوننا!...

واستدار فيدوت يودوفسكوف ، وأسنانه تصطك ، وجرى على امتداد القعر شطر الدون ، فتبعه الآخرون كالاغنام . كاد بيوتر أن يوقفهم :

ـ قف! سنتدبر الأمر... لا تهربوا! سيحصدونكم بالرصاص!

ثم قادهم إلى ما تحت جرف ناتئ واقترح عليهم وهو يتلعثم ، جاهداً أن يحتفظ بشيء من مظاهر الهدوء :

ـ ليس بوسعكم الخروج من الأخدود . فهم الآن يطاردون رجالنا دونما ريب . علينا أن نختفي هنا . وينبغي لبعضنا أن يذهب إلى الجانب الآخر... يجب أن نطلق النار وندافع عن هذه النقطة . وبوسعنا أن نقاوم الحصار هنا!

وانفجر مانيتسكوف الصغير الأبيض الشعر يبكي ويعول :

ـ انتهى أمرنا! يا آبائي! يا إخواني! دعوني أخرج من هذا المكان! لا أريد أن... لا أريد أن أموت!

فالتمعت عينا بودوفسكوف الكالميكيتان ، وأنزل جمع يده على وجه الصبي ، فأسال الدم من أنفه وانخرط ظهره على جدار الجرف . فكاد الصبي يسقط لكنه كف عن العويل .

سأل مارتن شامل وهو يمسك بيوتر من ذراعه :

كيف نستطيع إطلاق النار عليهم ؟ ليس لدينا أي رصاص .

ـ سيمحقوننا بالقنابل اليدوية! يا ويل!...

ـ حسناً ، ماذا علينا أن نفعل غير هذا ؟ ـ واستحال وجه بيوتر أزرق ، على حين غرة ، ولاح الزبد على شفتيه : ـ انبطحوا!... ألست القائد أم لا ؟ سأقتل! ـ وهز مسدسه فوق رؤوسهم بالفعل .

ولكأن همسه الصافر قد بعث فيهم حياة جديدة . فجرى بودوفسكوف ومارتن شامل وقوزاقيان آخران إلى الجانب المقابل من الأخدود وانبطحوا تحت الجرف ، أما الآخرون فقد ظلوا مع بيوتر .

في فصل الربيع تدفع مياه التلول الفائضة العكرة الأحجار وتجرف قعر الاخدود ، فتنخر طبقات الطين الأحمر وتحدث الحفر والشقوق في جدران الجرف . وقد اختبأ القوزاق في تلك الحفر .

وربض انتيب الكذوب محدودباً بجانب بيوتر وقد هيأ بندقيته ، وراح يتمتم بكلام غير واضح :

ـ أمسك ستيبان استاخوف بحصانه من الذيل ، وأفلح في النجاة ، أما أنا فلم أستطع... لقد خاننا رجال المشاة... انتهى امرنا ، يا أخوان... يعلم الله ، انتهينا!...

وسمعوا من فوقهم صوت أقدام تتراكض ، وتساقط في الاخدود نثار من الثلج والرمل .

فهمس بيوتر :

ـ ها هم قادمون! ـ ثم امسك بكم انتيب ، لكنه انتزع بعنف ونظر إلى فوق واصبعه على الزناد .

لم يدن أحد من حافة الجرف ، ولكن القوزاق سمعوا جلبة أصوات ورجلاً يصرخ بحصانه .

فقال بيوتر في دخيلته : ـ إنهم يتشاورون في طريقة الإجهاز علينا . ـ وعاد العرق يتصبب حدر ظهره وعلى صدره ووجهه...

ثم علت صيحة من فوقهم :

ـ يا هؤلاء ، اخرجوا! سنقتلكم على أية حال!

وانثال في الاخدود سيل من الثلج ابيض كالحليب ، فلا بد أن احدهم اقترب من حافة الجرف .

وعقب صوت آخر بكل ثقة :

ـ قفزوا هناك ، هذه آثار اقدامهم . وقد رأيتهم بنفسي .

ـ بيوتر ميليخوف ، اخرج من هناك!

فانتابت بيوتر برهة فرحة تعمي الأبصار . وقال في سريرته : «من الذي يعرفني من بين الحمر ؟ لا بد أن هؤلاء من قوزاقنا ، لقد هزموهم» . ولكن الصوت ذاته ما لبث أن بعث فيه الرعدة بعد لحظة .

ـ أنا ميخائيل كوشيفوي ، إننا ندعوكم للاستسلام . لن تفلتوا على أية حال .

فمسح بيوتر حاجبه الندي ، فعلقت خيوط من عرق يخالطه الدم في راحة يده . ودب فيه شعور غريب من اللامبالاة ، أشبه بالغيبوبة . وبدت صيحة انتيب وكأنها آتية من بعيد :

ـ سنخرج إن أخليتم سبيلنا ، وإلا فسنطلق النار!

وجاء الرد من عل ، بعد صمت وجيز :

ـ سوف نخلي سبيلكم .

وبذل بيوتر جهداً هائلاً كي ينفض عنه شعور الخدر . وظن أنه شم رائحة السخرية في كلمتي «نخلي سبيلكم» . فصاح بصوت مبحوح : «ارجع! » بيد أن أحداً لم يلتفت اليه . فقد تسلل كل القوزاق إلى خارج الأخدود ما خلا انتيب الذي اختبأ في حفرة .

كان بيوتر آخر من غادر مخبأه . كانت الحياة تنتفض في اعماقه انتفاض الجنين في أحشاء الأم .

وقد حدت به غريزة البقاء أن يفرغ مخزن بندقيته من الطلقات قبل أن

يتسلق المنحدر المائل . كانت عيناه لا تبصران ، وكأن الطين أعماهما ، وقلبه يملأ صدره . وخالجه شعور الاختناق كطفل يغط في نوم عميق ، فحرر عنقه من ياقته . كان العرق يملأ عينيه ، وراحت يداه تنزلقان على منحدر الجرف البارد . وتسلق لاهثاً إلى حيث كانوا يقفون ، فألقى بندقيته عند قدميه ، ورفع يديه فوق رأسه . وكان القوزاق الذين سبقوه قد حشروا سوية . فخطا ميخائيل كوشيفوي من بين جمع الجنود المشاة والخيالة ، وتقدم نحوهم . ودنا من بيوتر ، فوقف إزاءه مباشرة ، ثم سأله بهدوء وقد تسمرت عيناه في الأرض :

ـ هل شبعت من القتال ؟ ـ ولبث برهة ينتظر الجواب ، ثم سأله بالنبرة ذاتها ، وهو ما يزال يحدق في قدمي بيوتر : ـ كنت تتولى قيادتهم ، أليس كذلك ؟

فاختلجت شفتا بيوتر . وبحركة تنم عن وهن فظيع ومشقة بالغة رفع يده إلى جبينه المبتل . وخفقت أهداب ميخائيل الطويلة ، وانثنت شفته العليا المتورمة . واختص جسده برعشة عنيفة فبدا وكأنه لن يستطيع الثبات على قدميه . ولكنه سرعان ما رفع عينيه إلى عيني بيوتر ، وراح يحدق في بؤبؤيه مباشرة ، نافذاً خلالهما بنظرة غريبة كل الغرابة ، ثم غمغم بسرعة :

ـ اخلع ملابسك!

فنزع بيوتر سترته الفرو على عجل ، ثم لفها بعناية ، ووضعها على التلج . ثم خلع قبعته ، ونطاقه ، وقميصه الخاكي ، وجلس على طرف سترته ، وشرع يخلع جزمته ، فيما كان شحوبه يزداد لحظة إثر لحظة .

وترجل ايفان اليكسييفتش ، ثم خطا نحوهما ، يصر بأسنانه خشية أن يجهش بالبكاء .

وهمس ميخائيل : «لا تخلع قميصك» . ـ ثم اعترته الرجفة ، وصرخ على حين غرة :

ـ أسرع ، يا...

فدس بيوتر جوربيه الصوفيين في ساقي جزمته على عجل ، وانتصب واقفاً ، ثم نحى قدميه الحافيتين عن سترته ، وكانتا على صفحة الثلج أشبه بالزعفران صفرة .

ثم نادى بيوتر على ايفان اليكسييفتش ، وهو لا يكاد يحرك شفتيه : ـ يا عزاب! ـ ولكن ايفان لبث واقفاً ينظر بصمت إلى الثلج يذوب تحت قدمي بيوتر العاريتين . وراح بيوتر يتضرع : ـ ايفان ، كنت عراب ابنتي في العماد... يا عراب ، لا تقتلوني . ـ وحين رأى أن ميخائيل قد رفع مسدسه إلى مستوى صدره ، جحظت عيناه ، كمن يتوقع ومضة تبهر الابصار ، ثم خفض رأسه بين كتفيه .

لم يسمع الطلقة ، وهوى على قفاه ، وكأن أحداً كال له ضربة عنيفة .

خيل إليه أن يد كوشيفوي المبسوطة قد أمسكت قلبه ، واعتصرت الدم منه . وبذل بيوتر آخر ما فيه من جهد ففتح ياقة قميصه وكشف عن ثقب الرصاصة تحت ثديه الأيسر . وجعل الدم ينز من الجرح أول الأمر ، ثم تفجر وراح يتدفق سيلاً كثيفاً داكناً .

٣٤

عند الغسق عادت ثلة استطلاعية أرسلت من تتارسكي بأنباء تفيد أنهم لم يعثروا على أثر للحمر . ولكنهم وجدوا بيوتر ميليخوف وعشرة قوزاق آخرين راقدين في السهب وقد مزقتهم السيوف .

فأمر غريغوري بإرسال زحافات لجلب الجثث ، ثم ذهب ليقضي الليلة عند خريستونيا ، هارباً من بيته الذي كان يضج بعويل النسوة على بيوتر القتيل وبكاء داريا الهيستيري . ولبث جالساً حتى الفجر عند الموقد في كوخ خريستونيا ، يدخن سيكارة إثر سيكارة ، مواصلاً حديثاً لا طائل تحته مع خريستونيا النعسان ، ومن جديد يختطف كيس تبغه بعصبية ويستنشق

رائحته الحادة بنهم ، وكأنه يخشى الانفراد وجهاً لوجه مع أفكاره ، ومع كربته على أخيه .

انبلج النهار . وشرع الجليد في الذوبان منذ الصباح الباكر . وما إن حلت الساعة العاشرة حتى ظهرت البرك على الطريق الذي تبعثر عليه الروث . وجعل الماء يقطر من السطوح . وصاح ديك وكأنه في عز الربيع ، وقاقت دجاجة وكأنها في ظهيرة راكدة الهواء .

وتجمعت الماشية في الجانب المشمس من الأفنية وجعلت تحتك بالأسيجة . فحملت الريح شعرها المتساقط من على ظهورها البنية . وفاح الثلج الذائب بالرطوبة والعفونة . وراح طائر قرقف صغير الحجم ، أصفر الصدر ، يتأرجح ويغرد فوق غصن أجرد لشجرة تفاح تقوم عند بوابة خريستونيا .

واذ وقف غريغوري عند البوابة ينتظر وصول الزحافات ، ألفى نفسه يترجم زقزقة القرقف إلى لغة طفولته . كان القرقف ينادي بانشراح في ذلك الصباح الدافئ : «اشحذ محراثك ، اشحذ محراثك! » ولو أصبح الطقس زمهريراً لتغير صوت القرقف ، ولتعجل بالنصح : «البس جزمتك! البس جزمتك! »

حول عينيه من الطريق إلى القرقف المتأرجح ، الذي مضى يغرد نشوان : «اشحذ محراثك! اشحذ محراثك! » وفيما أنصت غريغوري ، عادت به الذاكرة إلى أيام الطفولة ، يوم كان وبيوتر يسوق الديكة الرومية لرعيها في السهب ، وكيف أن بيوتر بشعره الأشقر وأنفه الأفطس المقشّر دائماً في الصيف يقلد صياح فرخ الديك الرومي الحزين بكل مهارة ويترجمه إلى لغة الاطفال :

«لكل القوم أحذية ما عداي! لكل القوم أحذية ما عداي! » وراح يقلب عينيه ويخفق بيديه وقد ألصق مرفقيه بجنبيه ، يتهادى في مشيته مغمضاً مدمدماً وكأنه ديك رومي عجوز : «غور! غور! غور! سنشتري لك حذاء في

السوق ، يا صعلوك » ويومذاك ضحك غريغوري من كل قلبه ، فطلب إلى أخيه أن يقلد ثانية لغة الديك الرومي وفراخه المغمغمة وقد عثرت في العشب على قطعة حديد أو قماش وهو شيء غير مألوف لديها...

ظهرت في نهاية الشارع زحافة يسير قوزاقي إلى جانبها . ثم بدت للعين أخرى وثالثة . فمسح غريغوري دمعة وأزال معها ابتسامته الهادئة التي أثارتها تلك الذكريات اللجوج . ثم ذهب نحو بوابة داره على عجل . كانت أمه شبه مخبولة من شدة الويل ، فأراد في تلك اللحظة الرهيبة الأولى أن يحول بينها وبين الزحافة التي تحمل جثمان بيوتر . كان اليكسي شامل يسير حاسر الرأس إلى جانب الزحافة الأولى ، يشد قبعته إلى صدره بجذمة ذراعه اليسرى ويمسك الأعنة بيده اليمنى . فنظر غريغوري إلى الزحافة : كان مارتن شامل راقداً على ظهره فوق القش ، وقد لطخ الدم المتخثر وجهه وقمصلته الخضراء . وكان مانيتسكوف في الزحافة الثانية وقد انغرز وجهه المثخن بالجروح في القش ، وتكوم رأسه على كتفيه ، وقد طوحت بجمجمته ضربة ماهرة حاذقة ، وكانت عظام القحف مؤطرة ببلورات من الثلج قاتمة يخالطها الشعر . ونظر غريغوري إلى الزحافة الثالثة ، فلم يستطع معرفة الجثة الهامدة ، بيد أن اليد المتدلية من جانب الزحافة استرعت انتباهه ، بأصابعها الشمعية المصطبغة بدخان التبغ وقد التمت لرسم إشارة الصليب . وأمسك لجام الحصان الرابع وقاده إلى داخل الحوش ، فتراكض من ورائها الجيران والنسوة والاطفال . واجتمع الحشد حول درجات الباب .

قال أحدهم بصوت هادئ :

ـ هوذا راقد عزيزنا بيوتر بانتلايتش! لقد انتهت حياته على هذه الأرض!

وجاء ستيبان استاخوف خلال الباب حاسر الرأس ، ووصل غريشكا وثلاثة شيوخ آخرين من مكان ما . وأجال غريغوري حوله نظرة شاردة ، ورجاهم قائلاً :

ـ أعينوني في حمله إلى داخل الدار...

واذ هم السائق بحمل بيوتر أفسح الحشد الطريق لايلينشنا بصمت واحترام وهي تهبط الدرجات .

راحت تحدق في الزحافة ، ورف على جبينها شريط من شحوب الموت . وأمسك بانتلاي بروكوفتش ذراعها وهو يرتجف . وكانت دونيا أولى النائحات فرددت نواحها عشر دور أخرى في القرية . ثم جاءت داريا منفوشة الشعر ، متورمة الوجه من البكاء ، وعدت تهبط الدرجات وألقت بنفسها على الزحافة .

ـ بيوتر ، أيها العزيز ، يا عزيزي بيوتر ، انهض! انهض! واسودت الدنيا في عيني غريغوري . فصرخ بوحشية عارمة :

ـ ابتعدي ، يا داريا!

ثم دفعها بعنف فسقطت في كومة من الثلج . وأسرع غريغوري يرفع بيوتر من إبطيه وأمسك السائق بقدميه الحافيتين . ولكن داريا زحفت على يديها وركبتيها صاعدة الدرجات وراءهما ، فتشبثت بيدي زوجها المتخشبتين المتجمدتين وراحت تقبلها . وأحس غريغوري أنه يوشك أن يفقد زمام نفسه تماماً ، فدفعها بقدمه . وفكت دونيا يدي داريا عنوة ثم شدت إلى صدرها رأس داريا الذي غشيته الغيبوبة .

* * *

خيم على المطبخ صمت موحش . ورقد بيوتر على الأرض ضئيل الجرم إلى حد فظيع ، وكأن بدنه قد تيبس . وقد ضاق أنفه ، وغام لون عذاريه الكتاني ، بيد أن تقاسيم وجهه كانت قد توترت فزادته وسامة . كانت ساقاه العاريتان المشعرتان بارزتين من سرواله . وأخذ الثلج يذوب عن الجثة ببطء ، فتكونت تحتها بركة صغيرة من ماء وردي . وكلما ازداد ذوبان الثلج عن الجثة اشتدت رائحة الدم الملحية ، ورائحة التفسخ المقرفة .

كان بنتلاي بروكوفتش في السقيفة منهمكاً يصنع تابوتاً ، والنسوة ما زلن منشغلات بداريا التي لم تثب إلى وعيها بعد . ومن حين لآخر تنبعث من الغرفة صرخة هستيرية نفاذة تعقبها صرخات اوطأ نبرة من فم الخالة فاسيليسا ، التي هرعت «تشاطر» آل ميليخوف أتراحهم . وجلس غريغوري على المصطبة يحدق في وجه أخيه الذي تزايدت صفرته ، وفي يده ذات الاظافر المستديرة الزرقاء . وانتابه شعور بالاغتراب عن بيوتر ، فسرت فيه رعدة باردة : لم يعد أخاً بل ضيفاً طارئاً ينبغي له أن يرحل الآن . كان راقداً وخده على الأرض الطينية دونما اكتراث وقد تجمدت تحت شاربه ابتسامة رائقة غامضة . وغداً ستعده أمه وزوجته لرحلته الأخيرة .

في الليل تقوم أمه بتسخين ثلاث جرات من الماء له ، وتهيء زوجته حراماً ، وأفضل سراويله ، وقمصلته الرسمية . ويغسل غريغوري وبانتلاي بروكوفتش ذلك الجسد الذي لم يعد ملك بيوتر ، والذي لم يعد يشعر بالحياء من عريه . ثم يلبسونه أحسن حلة ويسجونه على المائدة ، وتأتي داريا فتمسك يديه العريضتين المتثلجتين ، اللتين كانتا حتى أمس تعانقانها ، وتضع الشمعة التي أنارت لهما حين سارا معاً وراء الكاهن يطوف بهما حول منبر الكنيسة بيوم زفافهما . واذ ذاك يكون القوزاقي بيوتر ميليخوف متأهباً لتشييعه إلى ذلك المكان حيث لا عودة منه إلى دفء البيت في أيما اجازة .

وصار غريغوري يلوم أخاه في ذهنه : ـ كان خيراً لك أن تموت في مكان ما في روسيا بدلاً من أن تموت هنا أمام عيني أمك . ـ وحين نظر إلى الجثة اعتراه الشحوب فجأة . كان ثمة دمعة تلتمع على خد بيوتر ، فقفز غريغوري نحوه ، ولكنه حين أمعن النظر ، تنفس الصعداء ، فلم تكن تلك دمعة ميت بل قطرة ذابت من بين شعر بيوتر الذي تهدل على ناصيته وراحت تسير على خده ببطء .

٣٥

بأمر من قائد القوات الثائرة المتحدة ، عُين غريغوري ميليخوف آمراً لكتيبة فيشنسكايا المؤلفة من عشر سرايا قوزاقية . وقد أوعزت له الأركان من فيشنسكايا أن يسير باتجاه منطقة كارغينسكايا لكي يقضي على مفرزة ليخاتشوف مهما كلف ذلك من ثمن ، ويطردها إلى خارج حدود الاقليم ، فيصبح بالمستطاع إشعال العصيان في القرى الواقعة على ضفاف نهر تشير .

وفي السابع من آذار قام باستعراض قوزاقه وهم خارجون من فيشنسكايا . جلس على سرجه محني الظهر ، وقد شد عنان جواده الواقف فوق ربوة على جانب الطريق ، يوشك ثلجها أن يذوب ، وراحت تمر أمامه السرايا طوابير ، وقد جند رجالها من قرى الدون : بازكي بيلوغوركي ، اولشانسكي ، ميركولوف ، غرومكوفسكي ، سيميونوفسكي ، زيبينسكي ، فوديانسكي ، ليبياجي ويريك . كان يمسد شاربه بيده المقفزة ، ويجعد أنفه الشبيه بمنقار الصقر ، وهو يتفحص كل سرية بعين صارمة يقظة . وكان معارفه من القوزاق يبتسمون اذ يمرون به على ظهور خيلهم . وجعلت سحب من دخان التبغ تنساب وتتلاشى فوق الصفوف وراح البخار يتصاعد من الخيل .

وحين بلغت الكتيبة مكاناً يبعد عن فيشنسكايا زهاء ثلاثة فراسخ ، عادت إحدى الدوريات بخبر يفيد أن الحمر يتقهقرون صوب تشوكارين . ولم تشتبك مفرزة ليخاتشوف معهم ، فأرسل غريغوري ثلاث سرايا لتطويق مفرزة العدو ، ومضى بالبقية يتعقب خطاها بسرعة جعلت الحمر يشرعون في التخلي عن عربات الشحن وصناديق العتاد . وفيما كانت بطارية ليخاتشوف تترك تشوكارين فقدت بعض مدافعها في نهر صغير قرب الكنيسة المهترئة ، فقطع السواقون السيور ولاذوا بالفرار . وتعدى القوزاق تشوكارين بمسافة خمسة عشر باتجاه كارغينسكايا دون أن يصادفوا مقاومة تذكر ، فبدأ القوزاق يمزحون : «ها ، سنصل إلى نوفوتشيركاسك ، إن شاء الله!» .

وقد سر غريغوري بالبطارية التي استولوا عليها ، وقال في نفسه باحتقار : « إنهم لم يتريثوا حتى لإتلاف المدافع » . وقام القوزاق بجر المدافع من النهير مستعينين بالثيران ، وسرعان ما تجمع المدفعيون من شتى السرايا ، وشدت الجياد ، ستة أزواج إلى كل مدفع ، وأفردت نصف سرية لحراستها .

استولى القوزاق على كارغينسكايا عند الغسق . وقد أسروا جزءاً من مفرزة ليخاتشوف مع مدافع الميدان الثلاثة الباقية ، وتسعة رشاشات . أما بقية الجنود واللجنة الثورية معهم فقد أفلحوا في الهرب شمالاً .

ظل المطر يهطل طوال الليل ، فراحت الوديان والشعاب تهدر صباح اليوم التالي بالمياه ، وأضحى المرور على الطريق شاقاً ، فغاصت الخيل في الثلج الذائب والوحل ، وتهادى الرجال إعياء . أرسلت لمطاردة العدو المتقهقر سريتان بقيادة الضابط يرماكوف فأسرتا في الصباح زهاء ثلاثين من الحمر وعادتا بهم إلى كارغينسكايا .

كان غريغوري قد اتخذ مقراً له في بيت كبير يعود إلى أحد تجار المدينة . فسيق الأسرى إلى داخل الفناء . وجاء يرماكوف ، آمر السريتين ، يقدم تقريره إلى غريغوري :

ـ أسرنا سبعة وعشرين من الحمر ، ومراسلك جاء بحصانك هل أنت ذاهب الآن ؟

فشد غريغوري الحزام فوق معطفه ، ثم مشط خصلته المتلبدة أمام المرآة ، وحينذاك التفت إلى يرماكوف :

ـ لنذهب ، سوف نعقد اجتماعاً في الميدان ، ثم نغادر .

فابتسم يرماكوف وهز كتفه قائلاً :

ـ وهل نحن بحاجة إلى اجتماع ؟ الرجال على خيولهم فعلاً ، بلا أي اجتماع . انظر ها قد أتى رجال فيشنسكايا ، أليس كذلك ؟

فأرسل غريغوري نظرة خارج النافذة . كانت سرايا قد اصطف رجالها

أربعاً تمر بنسق رائع . وبدا القوزاق وخيولهم في مظهر بهي .
فغمغم غريغوري بسرور وهو يتمنطق بسيفه ويهرع خارجاً من البيت :
من أين جاؤوا بحق الجحيم ؟
أدركه يرماكوف عند البوابة . كان ثمة آمر سرية أمامية ماثلاً أمام غريغوري ويده مرفوعة بالتحية ، اذ لم يكن ليجرؤ على مصافحته :
ـ الرفيق ميليخوف ؟
ـ نعم . من اين انتم ؟
ـ أقبلوا انضمامنا إلى كتيبتكم . سريتنا تشكلت ليلة أمس ، في ليخوفيدوف . أما السريتان الأخريان فقد جاءتا من غراتشوف ، وارخيبوفكا ، وغاسيليفكا .
ـ خذ القوزاق إلى الميدان . سنعقد اجتماعاً في الحال . وقاد مراسل غريغوري (وهو بروخور زيكوف) حصان يرماكوف ، بل وساعده في الإمساك بالركاب . وألقى يرماكوف جسده الرشيق الحديدي على السرج بحركة سريعة وأنيقة ، وسوى طيات معطفه ثم تقدم من غريغوري ، وسأله :
ـ ماذا سنفعل بالأسرى ؟
فأمسكه غريغوري من زر معطفه الأعلى ومال إلى أذنه ، وأومضت في عينيه شرارات صغيرة ، وتحت شاربيه انفجرت شفتاه بابتسامة تحاكي ابتسامة الذئب :
ـ أرسلهم إلى فيشنسكايا مخفورين . أتفهم ؟ ولكن ينبغي ألا يصلوا إلى أبعد من الجانب الآخر لذلك المرتفع . ـ ثم لوح بسوطه في اتجاه مرتفع رملي يشرف على كارغينسكايا .
وقال في سريرته : «تلك هي الخطوة الأولى للأخذ بثأر بيوتر» ـ ثم أرسل حصانه خبباً ، ودونما سبب واضح ، أهوى بسوطه على الحصان فبدت على ساقيه الخلفيتين لفحة بيضاء .

٣٦

خرج غريغوري من كارغينسكايا على رأس ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل . وأرسلت هيئة أركان فيشنسكايا واللجنة التنفيذية وراءه بأوامر وتعليمات عاجلة وبعث له أحد أعضاء اللجنة خطاباً مزوقاً :

« الرفيق ميليخوف الموقر ، تصل أسماعنا شائعات سوء مفادها أنك تعدم أسرى الجيش الأحمر بلا رحمة . ويبدو أن الثلاثين جندياً من الجيش الأحمر الذين أسرهم يرماكوف قد أجهز عليهم بأوامر من عندك .

وقد بلغنا أنه كان في عدادهم قوميسار كان بوسعنا الإفادة منه لمعرفة قوة العدو . أيها الرفيق العزيز ، ألغ أوامرك القاضية بقتل الأسرى فهي تعود علينا بضرر جسيم . لقد شاع التذمر بين القوزاق من هذه القسوة وهم يخشون أن يعمد الحمر بدورهم إلى قتل أسراهم وتدمير قرانا . هذا وأرسل لنا القادة أحياء ، وسنتخلص نحن منهم بهدوء في فيشنسكايا أو في كازانسكايا . غير أنك سائر بما عندك من سرايا مثل تاراس بولبا في رواية بوشكين التاريخية* ، تعمل السيف والنار في كل شيء ، فتثير بذلك القلق في نفوس القوزاق . أكبح جماح نفسك ، من فضلك ، ولا تحكم على الأسرى بالموت ، بل أرسلهم إلينا . ففي ذلك قوة لنا . مع تمنياتنا الطيبة لك بالصحة نبعث إليك بالتحيات الحارة ، ونحن بانتظار أنباء المزيد من انتصاراتك » .

مزق غريغوري الرسالة دون أن يبلغ نهايتها . ثم ألقى بها تحت حوافر جواده ، وجواباً على الأمر الذي تلقاه غريغوري من كودينوف بالتقدم نحو الجنوب والاتصال بالكاديت وتحاشياً لتطويق العدو له ، كتب غريغوري من على سرجه يقول : « إنني أتعقب العدو باتجاه بوكوفسكايا ، أرفض الذهاب

* يخطئ كاتب الرسالة ، فان الكاتب الروسي البارز نيقولاي غوغول هو مؤلف هذه الرواية . المعرب

جنوباً وأعتبر أمركم سخيفاً . فليس هناك من شيء سوى الرياح والفلاحين الأوكرانيين » .

بهذا انتهت مراسلاته « الرسمية » مع مقر المتمردين . وجمع السرايا في كتيبتين ومضى في زحفه صوب بوكوفسكايا .

حالف النجاح غريغوري طيلة أيام ثلاثة ، فاستولى على بوكوفسكايا بهجوم عاصف ثم سار على رأس قواته نحو كراسنوكوتسكايا ، وأجهز على مفرزة صغيرة كانت تعترض سبيلهم ، بيد أنه لم يصدر الأوامر بقتل الاسرى ، بل أرسلهم إلى فيشنسكايا .

وفي التاسع من آذار كان غريغوري يسير بكتيبته الي تشيستياكوفكا .

وفزعت القيادة الحمراء في جبهة نهر الدونتسي من الخطر المباغت الذي تعرضت له المؤخرة ، فبعثت ببضع كتائب وبطاريات لمعالجة أمر الانتفاضة . وقد اشتبكت تعزيزات الحمر بكتيبتي غريغوري على مقربة من تشيستياكوفكا . واستمر القتال ساعات ثلاث ، ثم سحب غريغوري قواته في اتجاه كراسنوكوتسكايا ، خشية تعرضها للتطويق . غير أن كتيبتيه تعرضتا في صبيحة اليوم التالي إلى هجوم شنته قوة القوزاق الحمر من خوبرسكايا ، فجعل قوزاق الدون يعملون السيوف في بعضهم البعض كرة ثانية . وفقد غريغوري حصانه وأصيب بجرح في خده . فسحب كتيبته من المعركة وتقهقر إلى بوكوفسكايا .

وفي مساء ذلك اليوم ، أراد الحصول على مزيد من المعلومات عن العدو ، فاستجوب أحد الاسرى ، وكان هذا قوزاقياً من منطقة خوبر ، رجلاً ضامر الصدر أشقر الشعر ، تجاوز سن الشباب ، يحمل على طية معطفه قطعة من شريط أحمر فأجاب الرجل على أسئلته طوعاً ولكن بابتسامة مصطنعة شوهاء :

ـ أي كتائب شاركت في القتال البارحة ؟

ـ كتيبتنا ، وكتيبة باسم ستينكا رازين الثالثة . إنهم جميعاً قوزاق من

منطقة خوبر . وكتيبة زآمورسكي الخامسة ، وكتيبة الخيالة الثانية عشرة ، وكتيبة متسينسكي السادسة .

من هو القائد ، كيكفيدزا ، كما يقال ؟

ـ كلا ، الرفيق دومنيتش كان يقود قطعاتنا .

ـ والعتاد لديكم كثير ؟

ـ لا يُعد ولا يُحصى!

ـ والمدافع ؟

ـ ثمانية على ما يبدو .

ـ أين كنتم معسكرين ؟

ـ في قرى كامننسكايا .

ـ هل أعلموهم إلى أين يرسلون بهم ؟

تردد القوزاقي ولكنه اجاب على السؤال في نهاية الأمر . وعلى حين غرة استبدت الرغبة في غريغوري لمعرفة موقف القوزاق الحمر .

ـ ماذا قال القوزاق حين جندوهم ؟

ـ لم يرغبوا في ذلك...

ـ هل علمتم لماذا انتفضنا ؟

ـ كيف يمكن أن نعلم ؟

ـ لماذا اذاً لم ترغبوا في الجندية ؟

ـ حسناً ، ألستم قوزاقاً مثلنا ؟ ألم نشبع من الحرب ؟ لم نكف عن القتال منذ انضمامنا إلى صفوف الحمر .

ـ أتود الخدمة في صفوفنا ؟

وأجاب القوزاقي هازاً كتفيه : ـ كما تريد . ولكني لا أود في...

ـ طيب ، اخرج . سنعيدك إلى زوجتك . أنت مشتاق إليها ، أليس كذلك ؟

وجعل غريغوري يحدق بعينين مخاوصتين وراء الرجل فيما اقتاده إلى

خارج الغرفة ثم استدعى مراسله ، بروخور زيكوف ، مستغرقاً في تفكير صامت طويل ، مدخناً . وسارعبر الغرفة إلى النافذة ، فوقف وظهره إلى بروخور ، وأمره بهدوء :

ـ هل للأولاد أن يأخذوا ذلك الرجل الذي كنت أستجوبه ويقتادوه إلى البستان بهدوء . لا أريد أن أبقي على أسرى من القوزاق الحمر! ـ ثم استدار على عقبي جزمته الواطئتين وسرح النظر خارج النافذة ، وقال : ـ أجهز عليه في الحال! هيا!...

خرج بروخور . ووقف غريغوري بضع دقائق يتلهى بتكسير أغصان الجيرانيوم الرقيقة المزروعة على النافذة . ثم استدار وأسرع يخرج إلى درجات العتبة ، فرأى بروخور زيكوف يتحدث بصوت منخفض إلى جماعة من القوزاق الجالسين في الشمس تحت جدار مخزن الحبوب .

فنادى على بروخور دون أن ينظر إلى القوزاق :

ـ دع الأسير يذهب! حرر له جواز مرور!

ثم عاد إلى الغرفة وتوقف أمام مرآة عتيقة ، ونشر ذراعيه بدهشة ، عاجزاً عن معرفة سبب خروجه وإصدار الأمر بالافراج عن الأسير . لقد احس بنوع من الرضى حين قال بسخرية : « سنعيدك إلى زوجتك . اخرج » . وهو على علم بأنه سيصدر لفوره أمراً إلى بروخور للإجهاز على الرجل في البستان .

كان مغتاظاً من نفسه بعض الشيء لشعوره المفاجئ بالرثاء ، أوليس الرثاء الأعمى هو الذي اقتحم ذهنه وحدا به إلى أن يفك إسار عدو من الأعداء ؟ ومع ذلك فقد أحس بالارتياح . ومما زاد الأمر غرابة أنه كان في اليوم السابق بالذات قد خاطب القوزاق قائلاً : « الفلاح عدونا ، ولكن القوزاقي الذي يساعد الحمر عدو لدود فينبغي أن ينال القوزاقي قصاص الجاسوس : فيوضع إزاء جدار ويرفع إلى ابواب السماء! » .

غادر غريغوري غرفته وذهنه لا يزال نهب ذلك التناقض المستعصي ، وقلبه مفعم بشعور عات من جور القضية التي يقاتل من أجلها . فتقدم إليه

آمر كتيبة التشير ، وهو رجل من الحرس مديد القامة له وجه مألوف بعض الشيء . وكان بصحبته آمر فصيل ، فقال آمر الكتيبة :

ـ تعزيزات جديدة! ثلاثة آلاف من الخيالة ، وسريتان من المشاة . ماذا سنفعل والحالة هذه ، يا بانتلايتش ؟

ثبت غريغوري مسدسه والمحفظة الأنيقة التي غنمها من ليخاتشوف ثم خرج إلى الفناء . كانت الشمس تشع دافئة ، والسماء بعيدة زرقاء ، شأنها في أواسط الصيف ، تنساب على صفحتها غمائم صغيرة بيض ميممة نحو الجنوب . وجمع غريغوري أمراء السرايا في ركن من الفناء لتبادل الآراء . التم نحو من ثلاثين رجلاً اقتعدوا سياجاً متهدماً ، ودار كيس تبغ أحدهم من يد إلى يد . وافتتح غريغوري المجلس قائلاً :

ـ أي خطط سنضع ؟ كيف يجب أن نتدبر أمر الكتائب التي أعادتنا على أعقابنا ، وأي سبيل ينبغي أن نسلك ؟ ـ ثم أخبرهم بالأمر الصادر عن كودينوف .

فسأل أحد أمراء السرايا بعد فترة من الصمت :

ـ ما عدد الذين يقاتلوننا ؟ هل عرفت شيئاً من الأسير ؟

عدّد غريغوري الكتائب . وخمن على عجل ما يتوقع أن يكون عدد أفرادها . فلبث الضباط جالسين بصمت ، اذ لم تكن بأحدهم رغبة للكلام دون تفكير وتمحيص . وأفصح أحدهم عن ذلك اذ قال لغريغوري :

ـ رويدك قليلاً ، يا ميليخوف! دعنا نفكر . ينبغي ألا ترتكب خطأ الآن .

وكان ذلك الرجل أول من تقدم باقتراح . وأصغى غريغوري إليهم جميعاً باهتمام ، وأبدى غالبية الضباط معارضتهم للمضي أبعد مما بلغوا ، حتى وإن كان النجاح حليفهم ، فقد كانوا يريدون أن يقتصر نشاطهم على حرب دفاعية محض . ولكن أحدهم ، وهو من قوزاق التشير ، أعلن تأييده الحار للأمر الصادر عن هيئة أركان حرب فيتنساكايا بالسير قدماً ، اذ قال :

ـ لا جدوى من إضاعة الوقت ها هنا . ليسر بنا ميليخوف إلى الدونيتس ، إننا حفنة ليس غير ، أما هم فروسيا برمتها من ورائهم . كيف يسعنا أن نصمد ؟ سيسحقوننا ، فينتهي أمرنا . علينا اقتحام الجبهة . ليس لدينا عتاد كثير ، ولكنا سنغنم المزيد منه . علينا أن نشن غارة .

ـ ولكن ماذا عن أهلنا ؟ النساء والشيوخ ، والأطفال ؟

ـ دعهم يبقون وراءنا!

ـ عقلك ذكي ، ولكن نصيبه أن يكون في رأس أحمق!

كان الضباط حتى ذلك الحين لا يتحدثون إلا همساً بما ساورهم من قلق بشأن حراثة الربيع ، وما قد يصيب حقولهم اذا ما اقتحموا الجبهة ، أما الآن ، وقد تحدث رجل التشير ، فإنهم شرعوا جميعاً يزعقون بأعلى أصواتهم ، وأخذ المجلس يضج وكأنه مجمع قرية . وبزّ قوزاقي كهل الآخرين في الصياح :

ـ لن نتخلى عن بيوتنا! سأكون أول العائدين بسريتي إلى القرية . إن كان لا بد لنا من القتال ، فليكن ذلك حول بيوتنا لا من أجل إنقاذ حياة الآخرين .

ـ لا تكمّ فمي! ولا تدعني أبدي رأيي ، بينما أنت تزعق!...

ـ لا فائدة في الكلام!...

ليتقدم كودينوف نفسه إلى الدونيتس!

فتريث غريغوري حتى خيم الصمت ، ثم أدلى برأيه الحاسم :

ـ سوف ندافع عن الجبهة هنا . وان انضم الينا قوزاق كراسنوكوتسكايا ، فسندافع عنهم أيضاً ، ليس ثمة مكان نذهب إليه . انتهى المجلس ، فاذهبوا إلى سراياكم! سنخرج إلى مواقعنا في الحال .

وبعد نصف ساعة وفيما كان غريغوري يراقب صفوف الخيالة المتراصة تتدفق على امتداد الشوارع ، بسيل لا نهاية له ، اعتراه شعور حاد من الفرح والخيلاء . ولكن قلقاً ومرارة كاوية كانت تغلي في دخيلة نفسه إلى جانب

فرحه وغروره . أبوسعه أن يقودهم كما ينبغي ؟ هل سيتهيأ له الذكاء اللازم لتوجيه فعاليات آلاف القوزاق! فتحت أمرته فرقة بأكملها ، لاسرية واحدة فحسب . أينبغي له ، وهو ذلك القوزاقي ذو الثقافة الضحلة ، أن يتحكم بآلاف الأنفس ويتحمل المسؤولية المقدسة عنهم جميعاً ؟ وفكر في نفسه : «المهمّ ضد مَنْ أقودهم ؟ ضد الشعب ... ولكن من هو المحق ؟ »

وراح يصر بأسنانه ، وهو ماض على حصانه إلى جانب صفوف السرايا المتراصة . لقد خبت نشوة الجبروت والسلطة من عينيه فخلّفت وراءها القلق والمرارة ، وأحنت كاهليه بكلكلها الذي لا يحتمل .

٣٧

فجّر الربيع أوردة الأنهار . وصارت الأيام أكثر صحواً ، وازدادت سيول التلال الخضر تصخاباً . واشتد وهج الشمس احمراراً ، فتلاشت ظلالها الصفر الكليلة ، وغدت أشعتها المترامية مخملية لافحة . وكانت الأرض المحروثة تنفث البخار عند الظهيرة ، وغدا الثلج الأجرد المنخور وهاجاً لا تحتمله العين . وأضحى الهواء ، وقد تشبع رطوبة ، ثقيلاً فواحاً .

أشاعت الشمس الدفء في ظهور القوزاق ، وغدت مقاعد السروج دافئة مريحة . وجعلت شفاه الريح الندية ترطب خدود القوزاق السمر ، وتحمل بين حين وآخر أنفاساً باردة من الروابي التي تجللها الثلوج . غير أن الدفء أجهز على الشتاء ، فجعلت الخيل تتراقص وتتواثب في حومة الربيع ، فيتناثر شعرها المتساقط واشتد وخز العرق في مناخيرها . وكان القوزاق قد ربطوا ذيول خيولهم الكثة ، وعلق الفرسان قلنسواتهم الوبرية على ظهورهم بعد أن انتفت حاجتهم إليها ، وتندت جباههم عرقاً تحت قبعاتهم الفرو ، وصاروا يشعرون بالحر في سترهم الفرو ومعاطفهم الملبدة بالقطن .

سارغريغوري بكتيبتيه في الطريق الصيفية . ولاحت لهم فصائل الحمر

عن بعد تصطف في تشكيلات القتال من وراء إحدى الطواحين . ثم نشب القتال بالقرب من قرية سيفريدوف .

لم يصبح غريغوري بعد قادراً على إدارة معركة من خارج صفوف المحاربين ، كما ينبغي لقائد الفرقة أن يفعل . فتولى بنفسه قيادة قوزاق فيشنسكايا إلى المعركة ، فرمى بهم في أشد المواضع خطورة . وسارت المعركة دونما قيادة موحدة . فكانت كل كتيبة تتجاهل ما توصلت إليه من اتفاق مع الكتيبة الأخرى ، وتتصرف بما تملي عليها ظروفها .

لم يكن ثمة جبهة بالمعنى المألوف للكلمة ، وهكذا غدا بالإمكان أن يلجؤوا إلى مناورات واسعة . وأفاد غريغوري من كثرة أعداد الخيالة عنده ، حيث كانوا غالبية جنود فرقته ، فعقد العزم على استغلال هذا التفوق إلى أقصى حد ، وشن الحرب بالأساليب «القوزاقية» : هجمات على الأجنحة ، تسلل إلى مؤخرة العدو ، اعتراض قوافل الشحن ، وشن غارات ليلية تشيع القلق والتحلل في صفوف الحمر .

ولكنه بدل خطته عند قرية سيفريدوف . فقادهم إلى الهجوم بنفسه في خبب سريع ، تاركاً احدى السريا مترجلة تنصب كميناً في بستان يقع عند طرف القرية ، وأرقل بالسريتين الأخريين إلى قمة التل فاستدرج العدو إلى القتال على مسافة نصف الفرسخ من الطاحونة . وكان امامه اكثر من سريتين من الخيالة الحمر . ولم يكن اولئك من قوزاق الخوبر ، اذ كان بوسعه ان يرى خلال منظاره الحربي خيولهم وقد قصت ذيولها ، فليس من عادة قوزاق الدون قط ان يفسدوا جمال خيولهم بقص ذيولها . فإما ان تكون هذه الكتيبة كتيبة الفرسان الثالثة عشرة اوغيرها من الوحدات التي وصلت لتوها .

تفحص الموضع من قمة التل خلال منظاره . وكانت الارض تبدو لعينيه من على السرج اشد اتساعاً ، وتزداد ثقته بالنفس طالما احس بمقدمتي جزمته تستقران على الركابين .

وشاهد طابوراً طويلاً يميل لونه إلى البني قوامه ثلاثة آلاف وخمسائة

قوزاقي يزحفون إلى المرتفع في الجانب الآخر من نهر التشير ، ميممين شطر الشمال للقاء العدو الزاحف من أوست ـ ميدفيديتسا ولمساعدة قوزاق يلانسكايا الذين تعرضوا لضغط شديد .

كان على بعد فرسخ ونصف من جحافل العدو الذي راح يتأهب لشن الهجوم . فأسرع يصف سراياه على النمط القديم ، واضعاً حملة الرماح من الذين كانت عندهم رماح في طليعة الصفوف ثم هذب إلى مقدمة الجند وادار حصانه جانباً ، واستل سيفه :

ـ خبباً بطيئاً ، إلى الامام سر!

وخلال الدقيقة الاولى من الزحف علقت قدم الحصان في جحر فأر بري يعلوه الثلج فعثر من تحته . فشحب وجه غريغوري غضباً وأهوى عليه بضربة عنيفة من نصل سيفه . كان حصانه جواداً كريماً من خيل الجيش العنيفة كان قد استعاره من احد قوزاق فيشنسكايا ، ولكنه لم يكن ليطمئن اليه . فهو يعلم ان بضعة ايام لا تكفي الحصان كي يعتاد عليه . كما ان الوقت لم يتسن له للالمام بطبائعه وحيله . كان يخشى الا يفهم مركوبه الجديد قصده بلمسة هينة من العنان شأن حصانه الذي قتل في تشيستياكوفكا . لقد اهاجت الضربة الحيوان فانطلق يهذب غير آبه للعنان . فسرى البرد في اوصال غريغوري وفارقه شيء من رباطة جأشه اذ حسب انه لا يستطيع الركون إلى حصانه . ولكنه ازداد ثقة بنفسه وعاودته الطمأنينة حين تباطأ الحصان ، وجعل يحضر متمايلاً ، ويذعن اكثر فأكثر إلى يديه توجهانه بحركات لا تكاد العين تحس بها . وخفض عينيه المشرئبتين إلى صفوف العدو الزاحفة فنظر برهة إلى عنق جواده . كانت اذناه الحمراوان الداكنتان منطبقتين على رأسه بقوة وعنقه المشرئب وكأنه على النطع يختلج بانتظام . واستوى غريغوري على سرجه وعب من الهواء بنهم ، ودفع جزمته في الركاب مسافة اكثر . ثم القى نظرة إلى الخلف . كم من مرة شهد وراءه هذا السيل العرمرم من الخيل والفرسان! لطالما انتاب الخوف قلبه من الصدام المحيق ، واعتراه هياج وحشي لا

يوصف ، فبين لحظة انطلاق حصانه ولحظة دنوه من العدو لحظة خاطفة يحدث خللها تغير داخلي فيه . ففي تلك اللحظة الرهيبة يفارقه الرشد والروية والبصيرة ، وتمتلك زمام ارادته غزيرة بهيمية مستبدة . الا ان الناظر اليه في لحظة الهجوم يخال ان حركاته طوع ذهن رائق لا تعصف به العواطف ذلك لأنه يبدو واثقاً من نفسه ، مسيطراً عليها ، حاسباً للأمور حسابها .

راحت المسافة الفاصلة بين القوتين تتناقص بسرعة تريح القلب . وبدت الجياد والفرسان أكبر حجماً . وأتت حوافر الخيل على الرقعة التي تناثر عليها الثلج من الأرض المشاع بين الطرفين . فانتقى غريغوري فارساً يتقدم سريته بثلاثة أذرع . كان حصانه الضخم الكميت الداكن يجري كالذئب بخطوات قصيرة . وكان الرجل يلوح فوق رأسه بسيف من سيوف الضباط ، وقرابه الفضي يتأرجح فيدق على ركابه ويتوهج في ضوء الشمس توهجاً قوياً . وبعد لحظة استطاع غريغوري أن يعرف في شخص الرجل شيوعياً من كارغينسكايا بيوتر سميغلازوف ، كان في طليعة من عاد في سنة ١٩١٧ من الحرب الألمانية ، وكان يومئذ في الرابعة والعشرين ربيعاً ، يلف ساقيه بلفاف غريب لم ير مثيله أحد من قبل . وقد عاد معه بعقائد بلشفية وحيوية وعزم تمخضت عنهما حياته في الجبهة وقد ظل بلشفياً ، وخدم في الجيش الأحمر ، وقبيل قيام التمرد ، عاد من كتيبته لاقامة النظام السوفييتي في منطقته . وها هو يهذب باتجاه غريغوري تماماً ، واثقاً من زمام جواده ، يلوح سيفه على نحو خلاب ، ذلك السيف الذي استولى عليه عند قيامه بتفتيش منزل لأحد الضباط ، والذي لا يرجى منه خير الا في ميدان الاستعراض .

فكشر غريغوري عن أسنانه ورفع العنان ، فطاوعه الحصان وضاعف سرعته .

كان غريغوري يلجأ في العادة إلى خدعة في الهجوم . فقد كان في طفولته أعسر اليد ، يمسك الملعقة بيسراه وبها أيضاً يرسم اشارة الصليب

على نفسه ، وقد نال على يد والده ضرباً موجعاً مراراً وتكراراً ، بغية حمله على الاقلاع عن تلك العادة ، كما أن أصحابه لقبوه «غريشا اليسراوي» ولابد أن الضرب وقارس الكلام قد أثر فيه ، فما ان بلغ العاشرة من عمره حتى فارقه لقبه «اليسراوي» وعادة استعمال اليد اليسرى وحدها . على انه ظل محتفظاً بمهارتها ، وكان بوسعه أن يفعل بها ما يريد شأن يده اليمنى اضافة إلى ان يسراه كانت أقوى من يمناه . وجعل يفيد دائماً من مهارة يده اليسرى في حالات الهجوم فيلقى نجاحا أكيدا . فهو يمضي بحصانه نحو الفارس المعين من جهة اليسار كما هي العادة وذلك لكي يضرب باليد اليمنى ، اما العدو فانه يفعل الشيء ذاته . وحين تكون المسافة بينهما نحواً من عشرين خطوة ، ويكون الفارس قد مال ميلاً طفيفاً إلى جانب وهيأ السيف ليضرب به ، حينذاك يدير غريغوري حصانه بقوة نحو اليمين ، وفي ذات الوقت يحوّل سيفه إلى اليد اليسري ، فيجد العدو نفسه في موقف ضعيف حيث يضطر إلى ضرب غريغوري عبر رأس حصانه هو ، فينتابه الاضطراب اذ يحس بأنفاس الموت في وجهه . وحينذاك ينزل غريغوري سيفه على الرجل المسكين بقوة مريعة .

لقد انسلت مياه كثيرة تحت الجسور منذ تعلم غريغوري ضربة «باكلانوف» على يد تشوباتي . فالطعان بالسيف لا يتقن بالسير وراء المحراث . لقد «تمرست يد غريغوري» في مجرى حربين ، فغدا أستاذاً خبيراً في الطعان بالسيف .

لم يكن قط ليدخل معصمه في عقدة السيف وذلك لكي يسهل عليه تحويله من يد إلى اخرى بطرفة عين . وكان يدرك ان انحراف ضربة شديدة قد ينتزع السيف من يده وربما خلع رسغ يده . وكان يعرف حيلة لا يحسنها الا القلائل ، فهو يجيد الاطاحة بسلاح الخصم من يده وشل ذراعه بلمسة خفيفة من سيفه . لقد أتقن غريغوري الكثير من فن ذبح البشر بالفولاذ البارد .

سقط سميغلازوف الوسيم من على ظهر حصانه الجامح ، وانزلق من على سرجه بهدوء ويده تشد على صدره المثخن بالجراح القاتلة ، تماماً كما تسقط عصا التمارين من عمودها بضربة مائلة جانبية ، فتقع دونما ارتعاش ، ودون أن يتغير وضعها ، فتنغرز في الرمل بشكل عمودي قرب العمود الذي منه اقتطفها القوزاقي بسيفه . واستوى غريغوري للحال في سرجه انتصب واقفاً في ركابيه . وجاءه رجل آخر لا يلوى على شيء ولا يستطيع كبح جماح حصانه . وكان خطم الحيوان المزبد يحجب فارسه ، ولكن غريغوري استطاع أن يرى حد سيفه المقوس . فشد على العنان بكل ما اوتي من قوة ، وتلقى الضربة ورد عليها ، ثم لمّ العنان بيمناه وأهوى بضربة قاصمة على الرقبة القرمزية الحليفة .

كان اول من شق طريقه وابتعد بحصانه عن حشد القوزاق والحمر المختلط . وحين التفت رأى كتلة موارة من الخيالة وأحس بالحكة في راحة يده جراء توتر أعصابه . فأعاد سيفه إلى غمده ، واستل مسدسه ، وقفل يهذب حصانه بأقصى سرعة . فتدفق القوزاق وراءه صفاً متناثراً . وكان بوسعه أن يرى هنا وهناك قبعات وخوذا ذوات شرائط بيض وقد مالت على أعناق الخيل . وكان يهذب إلى جانبه عريف يرتدي قبعة من جلد الثعالب وسترة خاكي من فرو الخراف ، وقد سلخ خد الرجل وأذنه حتى أسفل حنكه ، وبدا وكأن سلة من الكرز الناضج قد تكسرت على صدره . وكان يكشر عن أسنان مدماة .

ورغم أن عزائم رجال الجيش الأحمر كانت قد تضعضعت وأوشكوا على الفرار ، فانهم تشجعوا وأداروا خيلهم لمطاردة القوزاق المتقهقرين . وقد طار قوزاقي متلكئ عن حصانه ، وكأن الريح ذرته ، فداسته حوافر الخيل في الثلج . صار القوزاق على مرأى من القرية ، وأجمة البساتين السوداء ، ومصلى على منحدر التل ، والشارع الفسيح . ولم تبق بينهم وبين السياج الذي نصب القوزاق وراءه الكمين سوى مائتي خطوة . وكان العرق والدم

يتصبب من ظهور الخيل . وفيما كان غريغوري يهذب بأقصى سرعته حاول أن يطلق النار من مسدسه بكل ما أوتي من قوة ولكن الرصاصة حشرت ، فدس المسدس العاطل في قرابه الخشبي وصرخ منذرا :

ـ افتح الصف!

فانشق تيار سرايا القوزاق المرصوص الى شطرين كتيار نهر تعترضه صخرة عاتية ، وانكشف صف خيالة الجيش الاحمر المطاردين ، فلعلعت رشقة من رصاص السرية الكامنة وراءالسياج ولعلعت ثانية ، وثالثة . وانطلقت صرخة . وتهاوى حصان وفارسه الأحمر ، وجثا آخر ودفن رأسه في الثلج . وطاح ثلاثة أو أربعة حمر من سروجهم . وحين أفلح الخيالة الحمر في كبح جماح خيلهم وداروا على أعقابهم كان القوزاق قد أفرغوا رصاص بنادقهم وخيم عليهم الصمت . وما كاد غريغوري يصرخ : «سرايا...» حتى دارت آلاف الحوافر على الأعقاب في الثلج وانطلق القوزاق يطاردون الخصم . لكنهم تعقبوا الحمر دونما حماس ، فقد هدّ التعب خيلهم . وبعد أن قطعوا مسافة فرست ونصف فرست عادوا أدراجهم . فنزعوا الملابس عن قتلى الجيش الأحمر وجردوا خيلهم الميتة من سروجها . وفتك أليكسي شامل ذو الذراع البتراء بثلاثة من الجرحى الحمر ، حيث أوقفهم ازاء السياج ومزقهم بسيفه واحدا بعد الآخر . وحين فرغ من ذلك تجمع القوزاق حول جثثهم والسكائر في افواههم ونظروا إليها مدة طويلة . وكانت الجثث الثلاث تحمل ذات الأثر : فقد شطرت الهامات من عظم الترقوة إلى الخصر .

وقال اليكسي مباهياً ، وعينه وخده يرمعان :

ـ جعلت من الثلاثة ستة .

فقدم له القوزاق الآخرون التبغ متملقين ، وراحوا يتطلعون باحترام واضح إلى قبضة يده ، التي كانت رغم صغرها صلبة كالقرع الجاف ، والى عضلات صدره المفتولة البادية من تحت قمصلته .

وقفت الجياد العرقى ترتجف عند السياج وقد جللت بالمعاطف . وشد

القوزاق أحزمة السروج وتناوبوا على البئر في طلب الماء . وقد اضطر الكثيرون إلى جر الخيل المنهكة من أعنتها .

سار غريغوري وبروخور وخمسة قوزاق آخرون في الطليعة ، وشعر وكأن عصابة قد سقطت من عينيه . وعاد من جديد يرى ، كما فعل قبل المعركة ، إلى الشمس مشرقة على الارض والى الجليد الذائب جنب أكداس القش ، وتناهت إلى سمعه تغاريد العصافير الجذلى في القرية ، واستاف أذكى روائح الربيع الماثل على اعتاب السنة . وعادت الحياة اليه بكل وهجها ، ولم تبلها الدماء التي أهرقت لتوها ، بل جعلت تغريه أكثر من ذي قبل بأفراحها الشحيحة الخداعة . فرب بقعة من الثلج تخلفت على الارض السوداء بعد الذوبان تتخايل للعين أنصع بياضا وأشد بريقا من حقيقتها...

٣٨

ماج التمرد وانتشر ، كمياه الفيضان ، وطغى على مناطق الدون جمعاء والسهب الممتد إلى شرقي الدون في رقعة قطرها اربعمائة فرست . فاعتلى خمسة وعشرون ألف قوزاقي صهوات الجياد ، وأسهمت القرى الواقعة في اقليم الدون الأعلى بعشرة آلاف من المشاة .

جرت الحرب في ظروف لم يسبق لها مثيل . كان جيش الدون الأبيض يدافع عن جبهة الدونيتس ، ويحمي نوفوتشيركاسك ويعد العدة لخوض معركة فاصلة . وقد نشب تمرد في مؤخرة الجيشين الثامن والتاسع الأحمرين فيما كانا يخوضان القتال ضد قطعات البيض ، الأمر الذي زاد مهمة السيطرة على الدون صعوبة وتعقيداً .

وفي نيسان أصبح المجلس الثوري العسكري أمام خطر اتصال المتمردين بالجيش الأبيض . فكان لزاما أن يخمد التمرد مهما كلف الثمن قبل ان يفلح المتمردون بتفتيت جبهة الحمر من المؤخرة والاندماج بجيش

الدون الابيض . فارسلت قوات ممتازة للاسهام في اخماد التمرد : قوات من بحارة أسطولي بحر البلطيق والبحر الاسود ، وكتائب مجرّبة يركن اليها ، وقوات من حرس القطارات المسلحة ، ووحدات من أشد الخيالة بسالة . ونقلت من جبهة الدونيتس خمس كتائب تابعة لفرقة بوغوتشارسكايا قوامها نحو ثمانية آلاف حربة ، وبضع بطاريات وخمسمائة مدفع رشاش . وما ان حلّ شهر نيسان حتى كان منتسبو المدارس الحزبية في ريازان وتامبوف يقاتلون المتمردين بشجاعة وحمية في قطاع قازان من جبهة المتمردين ، وقد انضم اليهم بعدئذ طلبة كلية موسكو الحربية ، وكانت قوات المشاة الخفيفة اللاتفية تقاتل العصاة في شوميلينسكايا .

أما القوزاق المتردون فكانوا يعانون من نقصان المعدات الحربية . كانت البنادق تنقصهم بادئ الأمر ، ثم أعوزهم الرصاص . وبات لزاما أن يغنموا البنادق عن طريق شن الهجمات والغارات الليلية بدمائهم . وقد غنموها . فاكتمل سلاح المتمردين من البنادق في نيسان عام ١٩١٩ وأصبح لديهم ست بطاريات ومئة وخمسون مدفعا رشاشا .

كان ثمة في بداية التمرد خمسة ملايين خرطوشة فارغة في مستودعات فيشنسكايا . فعبأ لها مجلس سوفيات الاقليم* خيرة الحدادين وصانعي الأقفال وصانعي الأسلحة ، فأنشئت ورشة لسبك الرصاص ولكن لم يكن هناك رصاص تصنع منه الطلقات . وتلبية لنداء مجلس سوفيات الاقليم شرعت كافة القرى بجمع مالديها من الرصاص والنحاس . وصودرت كافة الاجزاء الرصاصية في الطواحين البخارية ، وحمل رسل خيالة نداء مقتضبا إلى القرى ، هذا نصه :

ليس لدى ، أزواجكن ، واخوانكن ، وأبنائكن ما يطلقونه من بنادقهم .

---

* وهو مجلس معاد للثورة البلشفية ، رغم هذه التسمية . المترجمون

انهم لا يجدون من ذخيرة لسلاحهم سوى ما يستطيعون أن يغنموه من العدو اللعين .

سلمن كل ما يصلح عندكن لصنع الطلقات .

انزعن الغرابيل الرصاصية من مكائن التذرية .

وفي غضون أسبوع لم تبق ماكينة تذرية بغربالها في طول الاقليم وعرضه . فقد حملت النسوة إلى مجالس السوفيات في القرى كل ما ينفع ولا ينفع ، وعمد الصبية في القرى التي دارت فيها المعارك إلى اقتلاع الرصاص من الجدران ونبش الأرض بحثا عن شظايا القنابل . ولكن حتى في غمرة ذلك النشاط لم تجمعهم وحدة الكلمة ؛ فقد ألقي القبض على بعض النساء المعوزات وأرسلن إلى مراكز المنطقة بتهمة «العطف على الحمر» وذلك لأنهن لم يشأن حرمان أنفسهن من آخر أوانيهن المنزلية . وفي تتارسكي ضرب أغنياء القوزاق الشيوخ قوزاقياً شابا عاد لتوه من كتيبته حتى سالت دماؤه ، لأنه فاه بصوت مسموع بعبارة يعوزها الحذر : «ليعطل الأثرياء انفسهم ما يملكون من مكائن التذرية . فقد تكون لديهم أسباب للخوف من الحمر أشد من خوفهم من الافلاس» .

كان الرصاص يصهر في ورشات فيشنسكايا ، ولكن الرصاصات المصنوعة كان ينقصها غلاف النيكل . الأمر الذي جعلها تذوب أيضا . فحين تطلق البنادق يطير الرصاص كرة صغيرة ذائبة من الماسورة تصحبها فرقعة عالية ولكنه لا يصيب ابعد من مئة أو مئة وعشرين خطوة . بيد أنه كان يحدث جروحا فظيعة . وكان جنود الجيش الاحمر بعد ان عرفوا كيف يصنع الرصاص يصرخون احيانا في القوزاق اثناء الاشتباكات : «رصاصكم ليس صالحا... استسلموا ، وإلا سنقضي عليكم جميعا» .

وزع الخمسة والثلاثون ألف متمرد في خمس فرق ولواء سادس خاص . وتولى غريغوري ميليخوف قيادة الفرقة الاولى ، التي كانت تعسكر

على امتداد نهر التشير وقد تحمّل قطاع الجبهة الموكل اليه وطأة هجوم القطعات الحمر التي جيء بها من خط الدونيتس الجنوبي ، ولكنه لم يفلح في صد ضغط العدو فحسب ، بل في مساعدة الفرقة الثانية التي لا يطمئن اليها كالأولى وذلك بمدها بتعزيزات من الخيالة والمشاة .

لم يفلح التمرد بالانتشار شمالا في مناطق الخوبر وأوست ـ ميدفيديتسا رغم اضطرابها . وقد وفد من هذه المناطق رسل يطلبون ارسال القوات صوب البوزولوك والأصقاع العليا من الخوبر لاثارة القوزاق هناك . ولم تجرأ قيادة القوزاق أن تجازف بالتقدم إلى ما وراء حدود اقليم الدون الأعلى ، لعلهما أن الكثرة الكاثرة من قوزاق الخوبر تؤيد النظام السوفييتي ولا تريد الانتفاض المسلح عليه . كما أن الرسل لم يبعثوا الثقة فيهم لأنهم اضطروا إلى الاقرار بأن القوزاق المتذمرين من الحمر ليسوا بالكثيرين ، وأن الضباط الذين بقوا في الزوايا النائية تواروا عن الأنظار ، وليس في وسعهم ان يجمعوا القوات الكافية لأن جنود الجبهة بين مستكين في بيته وملتحق بالقوات الحمر ، وأما الشيوخ فلم تعد لديهم السطوة ولا الاعتبار السابقان في تلك المناطق .

والى الجنوب ، في المناطق الأوكرانية ، قام الحمر بتجنيد الشباب ، الذين راحوا يقاتلون المتمردين بكل حماس . وهكذا انحصر التمرد داخل حدود اقليم الدون الأعلى . وازداد الأمر وضوحا ، يوما بعد يوم ، فأيقن المساهمون في التمرد ، قادة وجنودا ، أنهم لن يستطيعوا الدفاع عن الأهل والديار طويلا . وسيكر الحمر عليهم من جهة الدونيتس ، عاجلا أو آجلاً ، فيسحقونهم سحقا .

في ١٨ آذار استدعى غريغوري ميليخوف إلى فيشنسكايا للتشاور مع القيادة العليا . وأوكل قيادة فرقته إلى مساعده ريابتشيكوف ورحل مع مراسله في الصباح الباكر . فوصل مقر هيئة الأركان في اللحظة التي كان فيها القائد كودينوف يستجوب رسولا من قرية اليكسييفا . كان كودينوف

يجلس متكورا وراء مكتبه ، يلوي طرف حزامه القفقاسي بين يديه ، لا يرفع عينيه الوارمتين الملتهبتين بسهاد ليال متعددة .

سأل الرسول الجالس قبالته قائلا :

ـ وانتم ما رأيكم ؟ ماذا تفكرون ؟

ـ ماذا أقول ؟ وأنت تعرف حالة الناس . انهم خائفون ، يريدون الانتفاض ، ولكنهم خائفون .

فصرخ كودينوف غاضبا : « يريدون ، ولكنهم خائفون! » وشحب وجهه وراح يتململ على كرسيه وكأن المقعد يلفحه من تحت . «انكم كالبنات! يشتهين ويستحين ، وأمهاتهن يمنعهن! حسنا ، عد إلى قريتك واخبر شيوخكم أننا لن نرسل رعيلا واحدا إلى هناك حتى تبادروا أنتم . وليشنقكم الحمر واحدا تلو الآخر! » .

فدفع القوزاقي الضخم قبعته المصنوعة من فرو الثعالب إلى مؤخرة رأسه بيده الأرجوانية المرتبكة . وراح العرق يتصبب على تجاعيد جبينه كما يتدفق ماء الفيضان في المسارب ، وطرفت أهدابه القصيرة بلون الكتان مسرعة ، وكانت نظرة عينيه بسامة وكأنها تكفر عن شيء .

ـ الطاعون يضطركم إلى المجيء الينا ، اني اعرف ذلك . ولكن المسألة هي الشروع . فالشروع هو الأمر المهم...

وقف غريغوري يصغي إلى الحديث بانتباه ، ثم تنحى جانبا حين فتح الباب على حين غرة ودخل الغرفة رجل قصير القامة قليلا ، دون أن يطرق الباب ، وكان أسود العذارين يرتدي سترة من الفرو . وحيّا كودينوف بايماءة من رأسه وجلس إلى المنضدة ، مسندا خده إلى راحة يده . كان غريغوري يعرف رجال الأركان بوجوههم الا أنه لم يستطع معرفة ذلك الرجل ، فراح يحدق فيه . كانت قسمات وجهه الجميلة ، وسحنته السمراء رغم أن الشمس لم تلفحها ، وبياض يديه الناعمتين وسلوكه المهذب ، كل ذلك يدل على انه ليس من اهل المنطقة .

وقال كودينوف لغريغوري وهو يشير إلى القادم الجديد بعينيه :

ـ ميليخوف ، هذا هو الرفيق غيورغيدزا . انه ـ ثم توقف ولوى أبزيم حزامه القفقاسي الفضي ، ونهض ، والتفت إلى الرسول قائلاً :

ـ حسنا ، يمكنك أن تذهب . لدينا ما يشغلنا . عد إلى اهلك واخبر من ارسلوك بما قلته لك .

فنهض القوزاقي من على كرسيه ، فكادت قبعته تلمس السقف بفرو الثعلب الوردي الداكن المتوهج . وقد حجب منكباه العريضان الضوء فبدت الغرفة صغيرة مزدحمة .

فسأله غريغوري وهو ما يزال يحس بالنفور من مصافحته القفقاسي :

ـ جئت تطلب المساعدة :

فالتفت القوزاقي إلى غريغوري فرحا ، وعيناه تشعان بالرجاء .

ـ اي ، هو ذاك! المساعدة . ها انت ترى كيف هي الأمور...

وكان عرقه يتصبب بغزارة فبدت لحيته وشاربه الأحمر المتهدل وكأن قطرات صغيرة قد انتثرت عليهما . وكان وجهه احمر مثل فراء قبعته وبدا مرتبكا إلى اقصى حد فاستمر غريغوري بأسئلته ، متظاهرا بأنه لا يلاحظ حركات كودينوف التي تنم عن نفاد الصبر :

ـ اذا فأنتم أيضا لا يعجبكم الحكم السوفييتي ؟

فقال القوزاقي في حكمة بصوت عميق :

ـ لا يبدو أنه رديء ، أيها الأخ ، الا أننا نخشى أن يزداد سوءا .

ـ هل حصلت اعدامات عندكم ؟

ـ لا سمح الله . لا شيء من هذا القبيل . استولوا على الخيل والقمح ، وبالطبع ألقوا القبض على الناس الذين جاهروا بالعداء لهم . وهم في الواقع ينبحون أكثر مما ينهشون .

ـ لو كنا أرسلنا لكم القطعات ، فهل كنتم ستثورون ؟ جميعكم ؟

فضاقت عينا القوزاقي الصغيرتان العسجديتان بفعل الشمس ، وزاغتا

بمكر عن عيني غريغوري ، وانحدرت قبعته على جبينه المتغضّن :

ـ لا اعرف عن الجميع.. أما المزارعون الميسورون فانهم سيثورون بطبيعة الحال .

ـ وماذا عن الفقراء ؟

وأفلح غريغوري أخيرا باقتناص نظرته ، وكانت لحظة ذاك طافحة بدهشة طفولية مخلصة .

ـ تقصد الصعاليك ، لماذا يثورون بحق الشيطان ، هذه هي الحكومة التي يريدونها ، انهم في عيد سعيد .

فهدر كودينوف بغضب لم يستطع كتمانه :

ـ اذاً ، ماذا كنت تقول طوال الوقت ، يا ابله ؟ علام جئت هنا ؟ أين هي ثورتكم ؟ أم تراكم أثرياء جميعا ؟ ان اثنين أو ثلاثة مزارعين أثرياء لا يمكن أن يقوموا بثورة . أخرج من هنا! ان اردافكم لم تشبع ضربا بعد ، ولكن حين تنالون كفايتكم من الضرب ستشبون كالخيل دون مساعدتنا . لقد اعتدتم على القاء المهام الدونية على كواهل غيركم ، وتعيشون أنتم بسلام ، يا خنازير ، أخرج ، ان مرآك يثير فيّ الغثيان!

فعبس غريغوري وأشاح بوجهه . وغدت البقع الحمر على وجه كودينوف داكنة . وراح غيورغيدزا يفتل شاربه ، ومنخرا أنفه الكبير المعقوف يرمعان .

فقال القوزاقي وهو يخلع قبعته :

ـ يؤسفي أن يكون الأمر كذلك . ولكن لا داعي لصياحك فيّ ، يا صاحب السعادة . جئتك برسالة شيوخنا وسأبلغهم بجوابك . ولكن لا داعي لصياحك . كان البيض يصيحون فينا ، تم أعقبهم الحمر ، وها قد بدأتم أنتم ، آه ، ما أشق حياتنا حياة الفلاحين هذه الأيام .

وأعاد قبعته الفرائية إلى رأسه بغضب شديد ، ثم دفع نفسه إلى المجاز ، وأغلق الباب وراءه بهدوء . ولكن ما أن أصبح خارج الغرفة حتى

استبد به الحنق فصفق الباب الخارجي بشدة جعلت الطلاء يتساقط من السقف .

وحين غادرهم الرجل قال كودينوف باسما وقد استعاد هدوءه بسرعة وما يزال يلوي طرف حزامه بين يديه :

ـ عجيب أمر الناس هذه الأيام! كنت في ربيع عام ١٩١٧ ذاهبا إلى القطار في عربة ، وكان ذلك موسم الحراثة ، حوالي عيد الفصح . كان اولادنا القوزاق الأحرار منهمكين في الحراثة ، وقد أفقدتهم حريتهم الصواب فراحوا يحرثون حتى الطريق وكأن أرضهم لا تكفيهم . ناديت قوزاقيا كان يحرث الطريق ، فجاء إليّ . سألته : «أنت ، يا هذا ، علام تحرث الطريق ؟ » فانتابه الفزع ، وأجاب : «لن أفعل ذلك ثانية ، سأمهد الطريق من جديد » . وقد أرعبت اثنين أو ثلاثة على هذا النحو . ولكني وجدت الطريق محروثا من جديد على مبعدة من هناك فرأيت الرجل الذي فعل ذلك بمحراثه . ناديته : «أنت . . تعال هنا!» وجاء اليّ ، فصحت : «من الذي أعطاك الحق في حراثة الطريق بحق الشيطان ؟ » فجعل يحدق فيّ (وكان قوزاقيا ضخما له عينان فاتحتان) ثم استدار دونما كلمة وركض إلى ثوريه ، فالتقط قضيبا من الحديد وجرى عائدا ، فأمسك بجانب الرفرف ووضع قدمه على المرقاة ، وصاح : «من أنت ؟ والى متى تستمرون على امتصاص دمائنا ؟ اني مستعد لأن أقلع رأسك في الحال» . ثم رفع القضيب ، فقلت له : «هون عليك يا ايفان ، كنت أمزح فقط» . فأجاب : «لم أعد الآن ايفان بل ايفان أوسيبوفتش* ، وان لم تستطع مخاطبتي حسب الاصول فسأحطم وجهك! » وتملصت منه بجهد . وكذلك هو الحال مع هذا القوزاقي الآن : انه يتذلل ويتمخط ، وفي نهاية الأمر يكشف لك عن حقيقة خلقه . لقد استعاد الناس كبرياءهم .

---

* ومعناه ايفان بن أوسيب وهي طريقة للمخاطبة يراد بها الاحترام . المترجمون

وقال الضابط القوزاقي بهدوء تام :

ـ لقد طغت عليهم سفاهتهم ، لا الكبرياء . لقد باتت ، السفاهة خلقاً مشروعاً .

ولم يتريث كيما يتسنى لأحد معارضته ، فأغلق الموضوع بقوله :

ـ لنبدأ المؤتمر من فضلكم . أريد أن أعود الى كتيبتي هذا اليوم .

فنقر كودينوف على الحائط ونادى سافونوف ، ثم التفت الى غريغوري قائلاً :

ـ ابق هنا ، سنتشاور كلنا . أنت تعرف المثل القائل : «رأسان خير من رأس واحد » . إنه لمن حسن حظنا أن الرفيق غيورغيدزا قد تخلّف في منطقة فيشنسكايا وسيكون بوسعه أن يساعدنا . انه مقدم وقد درس في أكاديمية عسكرية .

فسأل غريغوري غيورغيدزا ، وقد اعتراه شعور خفي بالنفور والحذر لسبب ما :

ـ كيف دبرت بقاءك في فيشنسكايا ؟

ـ أصبت بالتيفوس ، فتركوني في احدى القرى حين بدأ التقهقر في الجبهة الشمالية .

ـ في اي كتيبة كنت ؟

ـ لم اكن في خط الجبهة ، كنت ملحقا بأركان مجموعة خاصة .

ـ اي مجموعة ؟ تحت قيادة الجنرال سيتنيكوف ؟

ـ لا...

وكان بود غريغوري أن يمضي في استجوابه ، غير أن التوتر الذي بدا على وجه القفقاسي دفعه إلى الحذر من مواصلة الاستجواب فتوقف قبل أن يتم جملته .

وبعد دقيقة أو اثنتين دخل رئيس الأركان سافونوف ، وقائدا الفرقة القوزاقية الرابعة واللواء السادس الخاص ، فابتدأ المؤتمر . وأوجز لهم

كودينوف الوضع في الجبهة . وكان القفقاسي أول المتحدثين . فنشر خارطة على المنضدة متهملا وراح يتحدث بلباقة واعتداد تشوب كلامه رطانة خفيفة :

ـ قبل كل شيء ، أرى من الضرورة المطلقة أن نرمي بعضا من احتياطيي الفرقتين الثالثة والرابعة في القطاع الذي تحتله فرقة ميليخوف واللواء الخاص . وعلى ضوء المعلومات المتوفرة لدينا ، واستنادا إلى افادات الأسرى ، يبدو واضحا كل الوضوح أن القيادة الحمراء تعد العدة لشن هجوم كبير على هذا القطاع بالذات . كما علمنا أنهم سيرسلون كتيبتين من الخيالة ، وخمس مفارز خاصة مع ثلاث بطاريات ومفارز رشاشات ملحقة بها . وهذا يضيف إلى قواتهم نحواً من خمسة آلاف وخمسمائة رجل على وجه التقريب . وفي تلك الحالة سيتوفر لديهم التفوق العددي ناهيك عن التفوق في السلاح .

كانت أشعة الشمس الصفراء تتدفق إلى الغرفة من الجنوب . وتحت السقف سحابة زرقاء هامدة من دخان التبغ . ورائحة التبغ المحلي تختلط بنتانة الأحذية الرطبة . وراحت ذبابة تطن يائسة في موضع ما تحت السقف ، وقد اختنقت بالدخان . سرّح غريغوري نظره خارج النافذة بكلال وقد اشتدت به الحاجة للنوم اثر ليلتين من السهر ، وسرى الخدر إلى عزيمته ووعيه تحت وطأة الحرارة الزائدة في الغرفة وبفعل ما يشعر به من كلال . كانت نسائم الربيع الخفيضة تتراقص خارج النافذة ، وبقايا الثلوج تتألق بوميض وردي على سفوح التلال ، وأشجار الحور تتمايل وراء الدون وتهتز في مهب الريح حتى خيل اليه وهو يراقبها أنه يسمع حفيفها العميق الذي لا ينقطع .

أثار صوت القفقاسي الواضح اللجوج انتباهه ، فحمل نفسه على الاصغاء وتلاشى نعاسه دون أن يشعر بذلك .

ـ ان نشاط العدو الذي عراه الضعف في الجبهة التي تدافع عنها الفرقة الأولى وجهوده الحازمة للتقدم على خط ميكولينسك ـ ميتسكوف يحملان

النذير ويستوجبان الاحتراس من جانبنا . يلوح لي... ـ وهنا تلعثم اذ قال : «ايها الرفاق» ، وشرع يلوح بعنف يديه الشبيهتين بأيدي النساء ، ورفع صوته : ـ يلوح لي ان كودينوف وسافونوف يرتكبان خطأ جسيما في الحكم على مناورات الحمر من مظهرها ، وفي اقتراحهما بوجوب اضعاف القطاع الذي يسيطر عليه ميليخوف . فمن أبجدية علم الستراتيجيا ايها السادة إن تستدرج قوات عدوك إلى موضع ما بغية قذف قواتك في هجوم على القطاع الذي حل فيه الضعف...

فقاطعه كودينوف قائلا :

ـ ولكن ميليخوف ليس بحاجة إلى كتائب الاحتياطية .

ـ على العكس! ينبغي تهيئة قوات احتياطية بغية سد أية ثغرة يمكن للعدو أن يفتحها .

فقال غريغوري وقد تفاقم غضبه :

ـ يبدو لي أن كودينوف لا ينوي استشارتي حول رغبتي في تسليم الاحتياطي الذي لديّ أم لا . ولكني لم أتخل عن الاحتياطي التابع لي ، ولا سرية منه!

فشرع سافونوف يتكلم ، وهو يبتسم ويمسد عذاريه الأصفرين :

ـ ماذا ، أيها الأخ ، ان ذلك...

ـ لا دخل للأخوة في هذا . لن أسلمها ، وهذا كل ما عندي من قول .

ـ من وجهة النظر الستراتيجية...

فانتهز غريغوري :

ـ دعك من وجهة النظر الستراتيجية هذه . أنا المسؤول عن قطاعي وعن رجالي .

وأنهى غورغيدزا الخلاف الذي نشأ فجأة على هذه الصورة . فحدد على الخارطة بقلمه الأحمر القطاع المعرض للخطر من الجبهة . وحين مالت الرؤوس على الخارطة سوية بدا واضحا لهم جميعاً أن أي هجوم تعده القيادة

الحمراء لا يمكن أن يأتي الا في القطاع الجنوبي ، وذلك لقربه من الدونيتس ولأفضليته من ناحية المواصلات .

وانتهى المؤتمر في غضون ساعة . وفي آخر الأمر تلفت كوندارت ميدفيديف حوله بتجهم وهو قائد الفرقة الرابعة الكئيب شبه الأمي الذي لزم الصمت طوال النقاش ، ثم قال :

ـ بوسعنا ارسال الاحتياطي لاسناد ميليخوف ، فلدينا وفرة من الرجال . ولكن شيئا واحدا لعينا ما فتئ يضايقني ، لنفرض أنهم هاجمونا على كافة القطاعات في وقت واحد ، فماذا نفعل آنذاك ؟ سيكوموننا واحدا فوق الآخر ونقع في ورطة ، مثل أفاع حصرت في جزيرة .

فقال بوغاتيريف قائد اللواء السادس الخاص ضاحكا :

ـ بوسع الأفاعي أن تسبح ، أما نحن فليس لدينا مكان نسبح اليه .

فقال كودينوف مفكرا :

ـ أخذنا هذا أيضاً في الحسبان . ولكن اذا ما طرأت هذه الحالة فيجب أن نترك وراءنا كافة العاجزين عن حمل السلاح ونترك عوائلنا كذلك ، ونشق طريقنا إلى الدونيتس بالسلاح . فلسنا قوة صغيرة ، ثلاثون ألفا .

ـ ولكن هل سيقبلنا الكاديت ؟ ان لديهم حسابات قديمة يريدون تصفيتها مع قوزاق الدون الأعلى!

فقال غريغوري : ـ لا تحص دجاجك... لا فائدة من الحديث على هذا النحو!

ثم ارتدى قبعته وخرج . وفيما كان يغلق الباب سمع جواب غورغيدزا وهو يلف الخارطة :

ـ سيكفر قوزاق فيشنسكايا وكافة قوات الثوار عما ارتكبوا بحق الدون وروسيا من ذنوب اذا ما استمروا على قتال البلاشفة برجولة...

فقال غريغوري في دخيلة نفسه : «وهذا ما يقوله ، ولكنه يُبيّت أمراً ، يا له من ثعبان!» وعاوده ما انتابه لحظة تعرفه على هذا الضابط من شعور بالقلق الخفي والغيظ الذي لا يجد له سببا .

وعند البوابة ادركه كودينوف ، فسارا دقيقة أو اثنتين دون ان يتجادلا كلمة واحدة . وكانت الريح تعبث بالبرك في الساحة المتسخة بالروث . وكان الغروب وشيك الحلول ، واقبلت سحب صيفية شهب ، منتفخة ثقيلة ، تعوم من الجنوب كالبجع . وكانت الارض التي ذاب عنها الجليد تعبق بالطب والحياة . واطل الحشيش اخضر تحت الاسيجة ، واذا بغريغوري يستطيع ان يسمع الحفيف المثير . ترسله اشجار الحور من وراء الدون تنحنح كودينوف وقال :

سيتكسر الجليد عما قريب .

ـ اجل .

ـ اللعنة... سنموت دون ان ننعم بالدخان . ان حفنة من التبغ البري يكلف الآن اربعين روبلا من روبلات كيرنسكي .

فسأله غريغوري بحدة :

ـ اسمع! هذا الضابط الجركسي ماذا يفعل هنا ؟

ـ أتعني غورغيدزا ؟ انه رئيس دائرة الحركات . شيطان كبير الدماغ! وهو الذي يرسم كل الخطط . وهو يتفوق علينا في فن الستراتيجيا جميعا .

ـ أهو مقيم في فشنسكايا دائما ؟

ـ كلا . نسبناه إلى قافلة الشحن التابعة لكتيبة تشيرنوفسكي .

ـ كيف يسعه اذاً ان يبقى على صلة بالاحداث ؟

ـ انه يأتي إلى فيشنسكايا دائما . كل يوم تقريبا .

فسأل غريغوري جاهدا ان يتوصل إلى جوهر القضية :

ـ لماذا لا تبقيه هنا ؟

فتنحنح كودينوف وغطى فمه بيده . ثم اجاب على مضض :

ـ لا يستحسن ذلك امام القوزاق . أنت أدرى بحالهم . إنهم سيقولون : «ها قد اعتلى الضباط السرج وراحوا يسوقوننا امامهم . الشارات الذهبية عادت إلى الاكتاف ثانية ؟» .

ـ أهناك غيره في قواتنا ؟ .

ـ هناك اثنان أو ثلاثة في كتيبة كازانسكايا . ولكن لا تدقق كثيرا . انا اعرف ما يدور في افكارك . ولكن ليس لنا ملاذ سوى الكاديت ، يا ولدي . اليس كذلك ؟ ام تراك تفكر بانشاء جمهورية صغيرة من مقاطعاتك العشر ؟ كلا ، سيكون لزاما علينا ان نذهب إلى كراسنوف برؤوس مطأطأة ، وعلينا ان نقول له : لا تُدنّا ، يا بيتور نيكولا يفتش ، لقد ضللنا الطريق قليلا حين تركنا الجبهة .

فقاطعه غريغوري قائلا :

ضللنا الطريق ؟

فأجابه كودينوف بدهشة صادقة ، وهو يتحاشى بركة بكل عناية :

ـ حسناً ، ألم نضل الطريق ؟

ـ فهمت القصد... ـ وتورد وجه غريغوري وابتسم مكرهاً ، وأردف : ـ اظن اننا ضللنا الطريق يوم بدأنا التمرد . اما سمعت ما قاله قوزاقي الخوبر ذاك ؟

فلزم كودينوف الصمت ومضى يحدق في وجه غريغوري بفضول .

وافترقا عند مفرق طرق وراء الساحة ، فذهب كودينوف الى مسكنه وعاد غريغوري إلى مقر الأركان وامر مراسله ان يأتي بالحصانين . وحين مضى في طريقه ، يرخي العنان رويدا رويدا ظل يحاول ادراك السبب الذي بعث في نفسه شعور العداء والحذر ازاء القفقاسي . وعلى حين غرة صفا ذهنه وتساءل في دخيلة نفسه برعب : «ماذا لو ان الكاديت تركوا هؤلاء الضباط المثقفين معنا عن قصد ليثيروا التمرد في مؤخرة الحمر ويجرونا وراءهم ؟ » وسرعان ما قدمت ذاكرته الدليل لدعم ما توصل اليه من نتائج : «لم يشأ ان يقول لي من اية كتيبة كان . قال انه ملحق بالاركان ، ولكن لم تمر اية هيئة اركان في هذه الانحاء . واي شيطان ذهب به إلى دودوريفكسي ، تلك القرية الصغيرة القصية ؟ آه ، واضح اننا اوقعنا انفسنا في ورطة رائعة! شد

علينا المثقفون العنان! اوقعنا السادة في شباكهم ، قيدوا حياتنا وراحوا يستخدمونها لتنفيذ مآربهم . ليس بوسع المرء ان يطمئن إلى أحد أبداً...» .

وما ان عبر الدون حتى ارسل جواده في حضر سريع ، وهب مراسله من ورائه فراح السرج يصر من تحته ، وكان هذا جنديا طيبا وقوزاقيا شجاعا . اصطفى غريغوري رجالا على هذه الشاكلة للسير وراءه لاقتحام الصعاب ، فاحاط نفسه برجال كهؤلاء عركوا الحرب الالمانية . ولزم المراسل ، وهو كشاف سابق الصمت طوال الطويق ، وكان يشعل السكائر وهو منطلق على جواده . وحين دخلا احدى القرى نصح غريغوري قائلا :

ـ اذا لم يكن هناك من داع للعجلة ، فلنتوقف ونقضي الليلة في مكان ما . فالجوادان منهكان وستريحهما هذه الوقفة .

أمضيا ليلتهما في احدى القرى . وبدا الكوخ المتداعي ذو الحجرتين حنونا مريحا دافئا غب زمهرير السهب . كانت ارضه الترابية تبعث صنانا مالحا من بول العجول والماعز ، والموقد يفوح برائحة الخبز الندي المحترق الذي يخبز على اوراق اللهانة . وراح غريغوري يجيب مكرها على استفسارات العجوز القوزاقية . وكانت قد ودعت ابناءها الثلاثة وزوجها الذين انضموا إلى المتمردين . وكان لها صوت رجولي عميق ، وابتعدت تخاطب غريغوري بخشونة :

ـ قد تكون ضابطا وقائدا للحمقى القوزاق ، ولكن لا سلطان لك علي ، انا العجوز التي في عمر امك . كلمني ارجوك . ها انت ذا جالس تتثاءب ، احسب انك لا تريد التحدث إلى امرأة! انا ارسلت إلى حربكم الاثيمة اولادي الثلاثة ، ورجلي الشيخ كذلك . انت تقود ابنائي ، ولكني انا التي ولدتهم ، وارضعتهم ، وربيتهم ، وحملتهم إلى الحقول في اعطاف تنورتي . ولم يكن ذلك بالامر الهين . فلا تشمخ بأنفك ، وقل لي : هل سيحل السلام عما قريب ؟

ـ عما قريب! . الآن كان يجب ان تكوني في فراشك ، ايتها العجوز...

ـ عما قريب! ولكن متى سيكون هذا القريب ؟ اياك ان تحاول دفعي

إلى الفراش ، انا سيدة هنا ، لا انت . يجب علي ان اخرج لأعنى بالماعز والحملان . ندخلها هنا في الليل ، فهي ما تزال فتية . هل سيحل السلام قبل عيد الفصح .

ـ حين نطرد الحمر سيحل السلام .

فقالت العجوز : «لا يا هذا!» ثم القت على ركبتيها العجفاوين يديها وقد تورم معصماهما وتقوست اصابعهما من الكدح والروماتزم ، ولاكت شفتيها الذاويتين الداكنتين بمرارة واضافت :

ـ أي شيء فعل بكم الحمر ، بحق السماء ؟ علام تحاربونهم ؟ الناس جنوا تماما . أتحسبونها لعبة اذ تطلقون النار من بنادقكم . وتختالون على صهوات جيادكم ، ولكن ماذا عن معشر الامهات ، انهم اولادنا الذين يقتلون ، اليس كذلك ؟ ابتدعوا حروبا .

فهدر مراسل غريغوري غاضباً ، وقد أثار أعصابه كلام العجوز :

ـ اولسنا ابناء لأمهاتنا ؟ من نحن... ابناء قحاب ؟ انهم يقتلوننا ، وانت تقولين «نتخطر على صهوات جيادنا» . وهل امر الابناء اهون من امر الامهات ؟ لقد عشت حتى المشيب ، ولكن ها انت تثرثرين ولا تدعين أحداً ينام .

فانتهزته العجوز قائلة :

ـ نم ، نم ، ايها الاحمق اللعين! علام انفجرت ؟ لائذ هناك بصمت الجب ، ثم تنفجر هكذا بغتة! حتى بح صوتك!

فتوجع المراسل يائساً : «لن نذوق نوماً مع هذا اللسان ، يا غريغوري بانتلايفتش» . ثم اشعل سيكارة ضاربا الزناد بشدة اطارت منه رشاشا من الشرر .

ـ انت مضجرة كالزنبور ، ايتها المرأة . احسب ان رجلك الشيخ ستغمره السعادة ان اصابته طلقة . سيقول لنفسه : الحمد لله ، تخلصت من امرأتي العجوز .

ـ سد فمك يا لعين!

ـ نامي يا عجوز! سهرنا ثلاث ليال . نامي بحق الرب!

ثم ارغمهما غريغوري على التفاهم . وحين استسلم للرقاد على الارض ، راقه الدفء الحامض المنبعث من فروته . وسمع الباب يصفق ـ فأحست ساقاه بتيار من الهواء البارد . وثغا خروف عند اذنه بصوت عال . وراحت اظلاف الجداء الصغيرة تخبط الارض ، واستاف منخراه رائحة بهيجة تنبعث من القش الغض ، وحليب الضأن الجديد ، والتلج ، تلك الرائحة التي تتميز بها زريبة الماشية...

استيقظ عند منتصف الليل ولبث راقدا مفتوح العينين . كان الفحم يرسل بصيصا خابيا من تحت رماده البني من الموقد . ورقدت الخراف متزاحمة حول الموقد ، ومن خلال السكون اللطيف الذي خيم في منتصف الليل ، استطاع أن يسمع الخراف تجتر وهي نعسى وتزنخر وتعطس بين آونة وأخرى . وأطل بدر تمام خلل النافذة من بعيد ، وفي مربع ضوئه الأصفر راح جدي نشط اسود يتواثب ويرفس فيثير غباراً لألاءً . وبدا الكوخ في ضوئه الأزرق المصفر وكأنه في وضح النهار وكانت كسرة من مرآة تتلألأ على طنف الموقد ، واطار أيقونة فضي يرسل وميضا معتماً في احدى الزوايا . وعادت أفكار غريغوري إلى مؤتمر فيتسنسكايا من جديد ، إلى الرسول القادم من منطقة الخوبر والى المقدم القفقاسي . وحين تذكر المقدم بمظهره وأسلوب حديته المهذبين غشيه قلق ممض . ومشى الجدي على فروته ثم على بطنه وتلفت فيما حوله ببلادة مدة طويلة ، وهز اذنيه ، ثم تجرأ وقفز مرة أو مرتين وباعد بين ساقيه فجأة فانصب سيل رفيع على الراحة الممدودة لمراسله النائم بجانبه . فأنَّ الرجل وأفاق وراح يمسح يده على سرواله : ـ بللني! لعنة الله عليه! ابتعد عني . ـ ثم نقفه بالاصبع على جبينه في متعة ، فقفز من على فروته ، وهو يرسل ثغاء حادا ، ثم تقدم إلى غريغوري وجعل يلحس يده بلسانه الخشن الصغير الدافئ .

٣٩

التحق شتوكمان وكوشيفوي ، وايافان اليكسييفتش ، وبضعة قوزاق آخرون (ممن عمل في الميليشيا) بكتيبة زامورسكي الحمراء الرابعة بعد فرارهم من تتارسكي . كانت هذه الكتيبة قد انضمت في مطلع عام ١٩١٨ إلى احدى وحدات الجيش الأحمر وهي في طريق عودتها من الجبهة الألمانية ، وكانت ما تزال محافظة على قواها الأساسية بعد ثمانية عشر شهرا من القتال الذي خاضته في جبهات الحرب الأهلية . وكانت الكتيبة مجهزة أفضل تجهيز ، خيلها مطواعة حسنة التدريب ، وقد ذاع صيتها لكفاءتها الحربية ومعنوياتها العالية وبسالتها .

وحين اندلع العصيان استطاعت كتيبة زاموسكي ان تحول دون زحف المتمردين نحو اوست ـ ميدفديتسا لا تساندها في ذلك الا كتيبة موسكو الأولى للمشاة ، ثم وصلت التعزيزات فاحتلت الكتيبة على نحو منظم قطاع أوست ـ خوبر سكايا على امتداد نهر كريفايا .

وفي أواخر آذار اضطر المتمردون على وحدات الجيش الاحمر على الانسحاب من يلانسكايا ، بعد ان استولوا على عدد من القرى الواقعة في منطقة أوست ـ خوبرسكايا ، وقد تغير ميزان القوى اثر ذلك فبقيت الجبهة على حالها زهاء الشهرين . وقام فوج من كتيبة موسكو باحتلال قرية كروتوفسكي الواقعة على الدون بمساندة احدى البطاريات ، بعد ان طوقا الجناح الغربي لأوست ـ خوبر سكايا . ومن المرتفع الممتد على الضفة اليمنى من كروتوفسكي راحت البطارية الحمراء تساند مشاتها فتقصف ، من مكمنها في ساحة لدرس الحبوب ، قطاعات المتمردين التي احتشدت على التلال الواقعة على الضفة اليمنى ، كل يوم من الصباح حتى المساء ، وتحوّل نيرانها ، بين الحين والحين صوب يلانسكايا عى الجانب الآخر من الدون . وجعلت نفثات صغيرة من الدخان تتفجر عالية وواطئة فوق الكتل المتراصة

من الأفنية والبيوت . وكانت القذائف تسقط على القرية أحيانا فتجعل الناس والماشية يهرعون في الشوارع وقد استبد بهم رعب مخبول ، وكانت القذائف تنفجر أحياناً على الكثبان الرملية المهجورة الواقعة وراء المقبرة ، فتتطاير عاليا كتل من التربة التي مازالت متجمدة .

في ١٥ آذار حين بلغ شتوكمان وايفان وميشا أن سرية تتألف من الشيوعيين وأعضاء مجالس السوفييت الذين فروا أمام المتمردين ، يجري تشكيلها في أوست ـ خوبر سكايا ، ذهبوا للانضمام إليها . وقد اكتروا زحافة ساقها بهم قوزاقي من شيعة المؤمنين القدامى له وجه طفولي متورد نظيف مما جعل شفتي شتوكمان تختلجان بابتسامة وهو ينظر اليه . ورغم ان القوزاقي لم يتخط شبابه فقد كانت له لحية هائلة شقراء مجعدة ، وبدا فمه المتورد غضا كشريحة من البطيخ الأحمر ، ونبت على وجنتيه زغب ذهبي اللون ، وكانت عيناه تومضان بزرقة شفافة غريبة يصعب على المرء أن يتبين ما اذا تأتت عن انعكاس ألوان لحيته الكثة أو بشرته الوردية .

مضى ميشا يترنم طوال الطريق بأغنية مع نفسه ، أما ايفان اليكسييفتش فكان جالسا في مؤخرة الزحافة وبندقيته على ركبته ، يتململ بكآبة ، فيما راح شتوكمان يحادث السائق ، فتساءل :

ـ لعلك تشكو من صحتك ، أيها الرفيق ؟

فافتر المؤمن القديم الذي يطفح قوة وعافية عن ابتسامة دافئة ، وقال :

ـ كلا ، والحمد لله! علام أشكو ؟ لم يسبق لفرد من شيعتنا أن دخن سيكارة قط . اننا نشرب الفودكا الصرف ونأكل خبز القمح الجيد طوال عمرنا . فمن أين يأتينا المرض ؟

ـ هل كنت في الجيش ؟

ـ فترة قصيرة . جندني الكاديت .

ـ لمَ لم تذهب معهم إلى الدونيتس ؟

ـ انت تسأل أسئلة غريبة ، أيها الرفيق ـ ثم ألقى الأعنة المجدولة من

شعر الخيل ، وخلع قفازه ليمسح فمه ، مقطبا حاجبيه وكأنه أحس باساءة وجهت اليه ، وأردف : ـ لماذا ينبغي أن اذهب إلى هناك ؟ كنت سأرفض الخدمة في صفوفهم لولا أنهم أرغموني على ذلك . ان حكومتكم عادلة سوى انكم اخطأتم قليلاً .

ـ كيف ؟

ولف شتوكمان سيكارة وأشعلها ، ولبث مع ذلك ينتظر الجواب .

فقال القوزاقي مشيحا بوجهه عن السيكارة :

ـ علام تحرق هذه الخضرة ؟ انظر ، ما أنقى هواء الربيع من حولنا ، وها أنت تتلف رئتيك بدخانك الكريه . سأقول لك اي خطأ ارتكبتم . أثقلتم على القوزاق وارتكبتم أخطاء عديدة ، ولولا ذلك لبقيت حكومتكم راسخة إلى الابد . ان في صفوفكم كثيرا من الحمقى ، ولهذا السبب تواجهون هذا التمرد .

ـ ما وجه أخطائنا ؟

ـ انك تعرفها كما اعرفها أنا... أعدمتم الناس . فاليوم تدور الدائرة على هذا وغدا على ذلك . فمن يرتضي أن ينتظر حلول دوره مكتوف اليدين ؟ حتى الثور يهز رأسه اذا ما هممت بذبحه . خذ قرية بوكانوفسكايا تلك مثلا . أترى الكنيسة حيث أشير بسوطي ؟ حسنا ، كان فيها قوميسار ، اسمه مالكين . هل عامل الناس بالعدل ؟ دعني أخبرك . لقد ساق الشيوخ إلى خارج القرية ، وذهب بهم إلى أجمة ، ثم انترع أرواحهم من أبدانهم ، ورفض السماح لأهليهم أن يدفنوهم . وكل جريرتهم أنهم انتخبوا في يوم من الأيام قضاة فخريين . وهل تدري أية قضاة كانوا ؟ ان الواحد منهم لا يستطيع أن يكتب غير اسمه ، أما الثاني فيغمس اصبعه في الدواة ، وكل ما يفعله الثالث هو أن يرسم شارة الصليب . ان أفضل ما فيهم لحاهم الطويلة ، سوى أنهم كانوا يغفلون عن تزرير فتحات سراويلهم ، لكبر سنهم . كانوا أشبه بالأطفال . أما مالكين ذاك فقد كان يتحكم في أرواح الناس وكأنه الرب...

وذات يوم كان شيخ مارا عبر الساحة يحمل مقودا ليربط فرسه ، فنادى وراءه الصبيان مازحين : «اسمع ، القوميسار يناديك» . فرسم الشيخ على نفسه اشارة الصليب الهرطقية (فكل الناس هناك من شيعة المذهب الجديد) وخلع قبعته وهو ما يزال على مبعدة من الباب . ثم دخل وأوصاله كلها ترتعد ، وتساءل : «هل أرسلتم في طلبي ؟» فاذا بالقوميسار يجيبه ضاحكا : «كلا ، لم يطلبك أحد ، ولكن ما دمت قد أتيت فينبغي ان تنال ما ناله غيرك . خذوه إلى الخارج ايها الرفاق!» حسنا ، أخذوه بالطبع ووضعوه ازاء الحائط . وظلت امرأته العجوز تنتظر ، ولكنه لم يرجع اليها قط . فقد رحل إلى ملكوت السماء . وقد يقع بصر مالكين هذا في الشارع على شيخ آخر من قرية أخرى فيناديه قائلاً : «من أين أنت ؟ ما اسمك ؟» ثم يزنخر قائلا : «ان لك لحية تشبه ذيل الثعلب ، انك أشبه بالقديس نيقولاي . سنصنع منك صابونا» ثم يأمر رجاله : «خذوه!» فيعدمونه لا لشيء إلا لأن لحيته طويلة ولأن القوميسار صادف أن رآه في لحظة نحس . أوليس ذلك انتهاكا لحرمة الناس ؟

كان ميشا قد توقف عن الترنم بأغنيته حالما بدأ الرجل قصته ، وعندما انتهى قال له بغضب :

ـ أكاذيبك غير محبوكة ، يا رجل!

ـ لابد أن أكاذيبك أحسن! تحقق من الامر قبل ان تصفها بالأكاذيب . وحينذاك يمكنك ان تتكلم!

ـ وانت على ثقة من صحة كل ما قلت ؟

ـ كل الناس يتحدثون في ذلك .

ـ الناس! قد يقول الناس ان بوسعك أن تحلب الدجاج ، ولكن ليس للدجاج ضروع كما تعلم . لقد اصغيت إلى الاكاذيب ، وها هو لسانك لا يكف عن الحركة كأنه لسان امرأة .

ـ كان الشيوخ مسالمين .

فهزأ ميشا به قائلاً :

ـ مسالمين! أغلب الظن أن شيوخك المسالمين أولاء قد ساعدوا على اثارة التمرد ، وربما دفن قضاتك الرشاشات في أفنية دورهم ، ثم تقول انهم أعدموا بسبب لحاهم أو على سبيل المزاح . لماذا لم يعدموك أنت ؟ ان لحيتك بطول لحية تيس هرم .

فدمدم المؤمن القديم قائلا بارتباك : «لم أقل الا ما طرق سمعي . من يدري ربما كان الناس كاذبين ، ربما ارتكب الشيوخ الأذى بحق الحكومة الجديدة» . ثم وثب من سلة الزحافة وجعل يسير على جانب الطريق ، وقدماه تزلقان وتخشخشان على الثلج الهش المائل إلى الزرقة . وكانت الشمس تغدق على السهب فيضا من أشعتها ، والسماء اللازوردية الأسيلة تحتضن في طوقها الهائل التلال والوديان النائية المتداخلة ، كان حفيف النسيم يحمل أثرا من أنفاس الربيع الوشيك المعطرة . والى الشرق ، من وراء السلسلة المتعرجة لتل الدون ، ارتفعت ذروة التل المطل على اوست ـ ميدفيديتسكايا في كنف من ضباب ليلكي . وكانت تحف بالافق سحب بيض منفوشة ترامت فوق الارض مثل لحاف هائل وثير .

وثب السائق إلى داخل العربة والتفت إلى شتوكمان وعلى محياه تعبير أشد صرامة ، واستأنف الحديث قائلا :

ـ لي جد ما يزال حيا ، له من العمر مائة وثمانية أعوام كما يقولون ، أخبره جده أنه في أثناء حياته ، اي حياة جد جدي ، أرسل القيصر بطرس أميرا إلى دوننا الأعلى (وكان اسمه لينوروكوف أو دولكوروكوف) فانطلق هذا الأمير بجنده من فورنيج وأعمل النهب في قرى القوزاق لأنهم رفضوا تقبل المذهب اللعين الذي جاء به البطريق نيكون ولأنهم رفضوا خدمة القيصر . وراحوا يمسكون بالقوزاق ويشرّحون أنوفهم ، ويشنقون بعضهم ، ثم يرسلونهم حدر الدون على طوافات عائمة .

فسأله ميشا عابسا :

ـ علام تقص علينا كل هذا ؟

ـ أحسب أن القيصر لم يخوله تلك الصلاحيات رغم أنه أمير ، والشيء ذاته ينطبق على قوميسار بوكانوفسكايا ايضا . كان يصيح في مجمع قرية بوكانوفسكايا : «سأسحق فيكم روح القوزاق وسألقنكم درسا لا تنسوه ، أيها الخنازير» ولكن هل أعطته الحكومة السوفييتة حقا كهذا ؟ تلك هي المسألة . اه لم يتلق اي أمر لاتيان أشياء كهذه ، ولمعاملة كافة القوزاق بجريرة المذنبين ، فهنالك قوزاق من شتى الأصناف .

فتغضنت وجنتا شتوكمان وقال :

ـ لقد أصغيت إليك ، والآن أنصت أنت الي .

فنمغم الرجل قائلا :

ـ ربما قلت شيئاً غير صحيح بسبب من جهلي . فان كان الامر كذلك ينبغي ان تغفر لي .

ـ مهلا ، مهلا! ان ما ذكرته عن القوميسار لا يوحي بالصدق ابدا . ولكني سأتقصى الأمر . فان صح ذلك ، اي أنه عامل القوزاق هذه المعاملة ، فاننا لن ندعه يمضي بسلام!

ـ من يدري!

ـ لا داعي للشك ، انها الحقيقة . حين امتدت جبهة القتال إلى قريتكم أو لم يعدم الجنود الحمر رفيقا من كتيبتهم لأنه سرق شيئا من امرأة قوزاقية ؟ ذلك ما قالوه لي في قريتك .

ـ هذا صحيح . سلب المرأة كل ما في صندوقها . انها الحقيقة . هذا ما حصل . كان العقاب صارما ، والحق يقال . أعدموه بالرصاص خلف ساحة درس الحبوب وقد احتدم بيننا النقاش حول المكان الذي ينبغي أن يدفن فيه ، فاقترح البعض المقبرة ، ولكن الآخرين قالوا إنه سيدنس المكان . وهكذا دفناه قرب ساحة درس الحبوب حيث اطلقت عليه النار ، ذلك الشيطان المسكين .

فلف شتوكمان سيكارة على عجل وقال :
ـ اذا فقد حصلت حالة كهذه!
فأيده الرجل دونما تردد :
ـ اجل ، اجل ، انا لا أنكر ذلك .
ـ اذا لماذا لا تصدق أنا سنعاقب القوميسار اذا ما وجدناه اقترف ما ذكرت ؟
ـ ولكن يا رفيقي العزيز! قد لا يكون مرؤوسا لاحد . فقد كان ذلك جنديا ، أما أن يكون المذنب قوميساراً...
ـ محاسبته ستكون أشد صرامة! أتفهم ؟ الحكومة السوفييتية لا تستخدم العنف الا مع أعدائها . وسنعاقب دونما رحمة اي ممثل لحكومتنا يضطهد الكاحين ظلما .
وبدد دوي مدفع مفاجئ الصمت الذي خيم على السهب عند الظهيرة ، ذلك الصمت الذي لم يعكره الا الصرصر المنبعث من مزلاقي الزحافة ووقع حوافر الخيل . كانت البطارية الموجودة في قرية كوتوفسكي قد استأنفت قصف ضفة الدون اليسرى .
تلاشى الحديث في الزحافة ، فقد مزق قصف المدافع النشاز روعة السهب الشاحب وهو يغفو في خدر الربيع المبكر ، وحتى الخيل جعلت تغذ السير وتنصب آذانها بحذر .
عرج بهم الدرب إلى طريق هيتمان ، فلاحت لهم السهول المترامية وراء الدون ، وقد انتشرت في أرجائها بقع الثلج الذائب على الرمال الصفر ، وأجمات رمادية زرق من الصفصاف والحور .
وحين بلغوا أوست ـ خوبرسكايا أوقف السائق حصانيه خارج منزل اللجنة الثورية المجاور للمقر العام لكتيبة موسكو ، وجعل شتوكمان ينقب في جيبه ثم اخرج ورقة نقدية من فئة الأربعين روبلا من روبلات كيرنسكي وناولها إلى السائق . فأشرق الرجل في ابتسامة كشفت عن اسنانه الصفر من تحت عذاريه النديين وتردد في قبولها محرجا .

ـ ماذا ، أيها الرفيق ، بحق المسيح! ذلك لا يستحق نقودا .

ـ خذها لقاء تعب حصانيك . ولا تدع الشكوك تساورك في أمر الحكومة . تذكر أننا ننادي بسلطة العمال والفلاحين ، فأعداؤنا هم الذين دفعوا بكم إلى العصيان . انهم الكولاك ، الأتمانات والضباط . وعليهم تقع المسؤولية الرئيسية لنشوب العصيان . واذا ما ثبت ان أيا من رجالنا قد أساء إلى قوزاقي كادح يميل الينا ويقدم العون للثورة فاننا سنجد السبيل لتصفية الحسابات مع هذا الرجل .

ـ أنت تعرف ، المثل القائل ايها الرفيق : الله أعلى من أن يطار له والقيصر أبعد من أن يسار اليه فالدرب بعيد إلى قيصركم هو الآخر ، والمثل يقول : لا تخاصم الأقوياء ولا تقاض الأثرياء . وانتم اقوياء في آن واحد .

ثم ابتسم بمكر وأضاف :

ـ كيف تبدد روبلاتك الأربعين هكذا! ان خمسة منها كافية . ولكني اشكرك على اي حال .

فابتسم ميشا كوشيفوي قافزا من الزحافة وقال وهو ينفض ساقي بنطالة :

ـ انه أعطاك هذا لقاء حديثك . ومن أجل لحيتك الجميلة هذه ، أتدري من الذي نقلته في زحافتك ، أيها الحمار ؟ إنه جنرال أحمر!

ـ اوه!

ـ أجل بوسعك أن تقول : أوه! شأنك شأن الآخرين عليكم اللعنة! فان أعطاك المرء القليل تذهب وتتباكى في أرجاء المنطقة فتقول : «لقدحملت بعض الرفاق فلم يعطوني سوى خمسة روبلات!» ستظل متكدرا طيلة الشتاء . وان نحن زدنا لك العطاء ، ترفع عقيرتك إلى السماء بالصياح : «ما اغناهم! انهم يبددون أربعين روبلا! لم يتسن لهم عد نقودهم لكثرة ما لديهم منها!» لو ان الامر لي لما أعطيتك اي شيء . انكم لا تشبعون من شيء ، على اي حال . حسنا ، مع السلامة ، يا طويل اللحية!

وحتى ايفان اليكسيفتش تبسم حين انهى ميشا كلامه الناري .

خرج جندي من الحرس الأحمر يهذب على جواده من ساحة البيت الذي نزلت فيه هيئة أركان كتيبة موسكو . فصاح وهو يكبح حصانه : «من أين جاءت هذه الزحافة ؟» .

فسأله شتوكمان : «لماذا تريد أن تعرف ؟»

ـ نريد شحن العتاد إلى كرتوفسكي .

ـ ليس بوسعك ان تأخذ هذه الزحافة ، أيها الرفيق .

فتقدم الفارس الأحمر من شتوكمان ، وكان فتى وسيما ، وقال :

ـ ومن أنت ؟

ـ نحن من كتيبة زامورسكي . لا تأخذ هذه الزحافة .

ـ حسنا ، بوسعه أن يذهب ، أمض بعربتك ، أيها الشيخ!

٤٠

علم شتوكمان ، بعد ان قام ببعض الاستفسارات ، أن سرية يجري تشكيلها في بوكانوفسكايا ، لا في اوست ـ خوبرسكايا . وكان يجمع أفرادها القوميسار مالكين الذي تحدث عنه السائق أثناء الرحلة . وقد التأم شمل الشيوعيين والعاملين في مجالس السوفييت في يلانسكايا وبوكانوفسكايا وغيرهما من المناطق ، وضم اليهم عدد من جنود الجيش الاحمر فتكونت وحدة حربية ذات شأن تعدادها مائتا حربة وبضع عشرات من السيوف ، تؤلف دورية خيالة . وقد عسكرت السرية في بوكانوفسكايا بصورة وقتية ، وكانت تصد ، بمساعدة سرية من كتيبة موسكو ، محاولات المتمردين في التقدم من المناطق العليا لنهري يلانكا وزيموفنايا .

وبعد ان تداول شتوكمان مع رئيس أركان كتيبة موسكو ، وهو ضابط نكد مكتئب النفس من ضباط الجيش النظامي السابق ، ومع القوميسار

السياسي ، وهو عامل من موسكو ، وطد شتوكمان عزمه على البقاء في أوست ـ خوبرسكايا ، والانخراط في الفوج الثاني التابع للكتيبة . وقد اجرى حديثا طويلا مع القوميسار السياسي في حجرة صغيرة نظيفة تكومت فيها البكرات وأسلاك التلفون وغيرهما من التجهيزات العسكرية .

تحدث القوميسار القصير القامة ذو الوجه الأصفر ، الذي كان يقاسي نوبة حادة من التهاب الزائدة الدودية ، فقال على مهل :

ـ كما ترى أيها الرفيق ، فان الوضع هنا معقد نوعا ما . فأغلب جنودي رجال من موسكو وريازان ، وقليل من أهل نزني ـ نوفوكورد . انهم رجال أشداء ، اغلبهم من العمال . انما كانت عندنا سرية من الكتيبة الرابعة عشرة لا يرجى من أفرادها خير ، فاضطررنا إلى اعادتها إلى اوست ـ ميدفيديتسا . ابق معنا ، فثمة عمل كثير ينتظرك هنا . علينا أن نعمل بين السكان ونثقفهم .أنت ملم بأحوال القوزاق ، فينبغي أن تلتزم جانب اليقظة .

فأجاب شتوكمان وهو يبتسم لنبرة الرجل الأبوية :

ـ لا داعي لأن تقول ذلك لي!

ثم نظر إلى البياض المصفر لعيني الرجل المعذبتين وسأله :

ـ ولكن قل لي ، من هو القوميسار في بوكانوفسكايا ؟

فمسد الرجل شاربيه الأشيبين القصيرين ، ثم رفع جفنيه الرقيقين المائلين إلى الزرقة وقال ببطء :

ـ اتسمت اعماله بالتطرف فترة من الوقت . انه فتى طيب ، ولكنه لا يفهم الوضع السياسي الفهم اللازم . ليس بوسع المرء أن يقطع الخشب دون ان يتطاير النثار.. انه عاكف على ترحيل ذكور المنطقة كلهم إلى أواسط روسيا.. اذهب لمقابلة مأمور المخزن ، وسيقوم بتدوين اسماء كم في قائمتنا .

ثم عبس القوميسار متألما ووضع راحة يده على سرواله المبطن الذي يعلوه الدهن .

وفي صباح اليوم التالي دعي الفوج الثاني لحمل السلاح ، وبعد ساعة من الوقت سار ارتالا نحو قرية كرتوفسكي ، وسار مع رجاله كل من شتوكمان وكوشيفوي وايفان اليكسييفتش . وأرسلت دورية خيالة من كرتوفسكي عبر الدون ، وتبعها الفوج على طريق مبتل تتناثر عليه بقع من الروث وكان الجليد الذي يعلو النهر منقّرا مثل اسفنجة زرقاء . وراحت البطارية الماثلة وراءهم على التل تطلق نيرانها على أجمات الحور البادية وراء قرية يلانسكايا . وكان الفوج قد تلقى الأوامر بتخطي قرية يلانسكايا التي أجلي عنها القوزاق والمضي قدما خلال المنطقة ، لتوحيد قواه مع الفوج الأول الزاحف من بوكانوفسكايا . وكان طريق الفوج الثاني يمتد باتجاه بيزبورودوف . ولكن دورية استطلاع من الخيالة سرعان ما عادت بأخبار تفيد بأن بيزبورودوف خالية من قوات العدو وأن تبادل النار بالبنادق يجري إلى يمين القرية .

وراحت القذائف تزعق فوق رؤوس الجنود ، وانفجار القنابل اليدوية يهز الأرض في موضع ليس بالبعيد . وكان الجليد يتصدع من وراء الفوج ويتهشم . وكان ايفان اليكسييفتش سائرا بجانب شتوكمان وميشا ، فالتفت وراءه ، وقال :

ـ يبدو أن الماء سينزل .

فزنخر ميشا الذي لم يستطع التعوّد على السير مع المشاة وقال بحدة :

ـ من السخف أن نعبر الدون في وقت كهذا . انظر ان الجليد آخذ في التكسر .

راح شتوكمان يحدق في ظهور الرجال السائرين امامه ، والى التمايل الرتيب لماسورات بنادقهم بحرباتها الزرق المضببة . ثم أجال النظر فيما حوله فلاحظ أمارات الجلد مرتسمة على محيا الجنود الذين يختلفون عن بعضهم كثير الاختلاف ويتشابهون كل الشبه في ان واحد ، كما لاحظ حركة القبعات الرمادية وهي تتمايل بنجومها الخماسية والمعاطف الرمادية المصفرة

من فرط القدم . وراح ينصت إلى الوطء الثقيل تحدثه الأقدام العديدة ، والى همهمة الكلام والسعال ، وارتفعت إلى أنفه رائحة الأحذية المبتلة والتبغ والسيور الجلدية . فأغمض عينيه نصف اغماضة وأحس بفيض دافق من الحنان لهؤلاء الشبان الذين لم يمض على تعرفه بهم أكثر من يوم . ثم ساءل نفسه « جميل أن يحس المرء ذلك ، ولكن لماذا بدأت أحبهم فجأة إلى هذا الحد ؟ هناك مبدأ مشترك يشدنا إلى بعضنا ، بطبيعة الحال ، ولكن في الامر شيئا أبعد من ذلك . هناك المهمة المشتركة وربما كان دنو الخطر والموت هو السبب . ما أعزهم إلى قلبي...» ثم لاحت في عينيه بسمة : « أتراني هرمت ؟ » .

وراح يتفرس بشعور يكاد يبلغ تحنان الأبوة في الظهر العريض القوي للرجل السائر أمامه ، وجزء الرقبة النظيفة الفتية الحمراء وقد برز من بين الياقة والقبعة ، ثم ادار عينيه إلى جاره ، وكان الرجل حليقاً ذا خدين أسمرين متوردين وفم جميل صارم . وكان يضيق عينيه كأنه يشعر بألم وشبكة من الغضون تحيط بعينيه . وشعر شتوكمان بالرغبة في محادثته فسأله :

ـ هل مضى عليك في الجيش زمن طويل ، أيها الرفيق ؟

فمرت عينا الرجل الشهلاوان على شتوكمان بفتور وتساؤل ، وأجاب من خلال أسنانه :

ـ منذ ١٩١٨ .

ولم يؤد ذلك الجواب المتحفظ إلى فتور الحماس في نفس شتوكمان فسأله « من اي بلد انت ؟ » .

ـ أتراك تبحث عن شخص من ديارك ، يا ابتاه ؟

سيسعدني أن اعثر على شخص من هناك .

ـ أنا من موسكو .

ـ عامل ؟

ـ اي!

فنظر شتوكمان الي يدي الرجل ولاحظ آثارا تنم عن كونه من عمال التعدين .

ـ أعامل تعدين ؟

ومرت العينان الشهلاوان على وجه شتوكمان ثانية ، وأجاب : « أنا خرّاط معادن . هل كنت من عمال التعدين أيضا ؟ » ولاح في العينين الصارمتين بصيص من الدفء .

ـ كنت صانع أقفال . ولكن لماذا تضيق عينيك على الدوام ؟

ـ جزمتي تؤلمني فقد يبست بعد ان تبللت ليلة أمس ، حين كنت في مهمة نصب الكمين .

فابستم شتوكمان قائلا :

ـ أليس ذلك بسبب خوفك ؟

ـ خوفي من اي شيء ؟

ـ نحن ماضون إلى المعركة...

ـ أنا شيوعي .

فشاركهم ميشا الحديث قائلا :

ـ ألا يخاف الشيوعيين الموت ؟ أليسوا اناسا مثل الآخرين ؟

فأجاب الرجل بعد أن فكر لحظة وعدل من وضع بندقيته على كتفه :

ـ أنت مازلت مستجدا في هذه الأمور ، كما هو واضح ، أيها الأخ . ينبغي عليّ ألا أخاف ، فقد اصدرت إلى نفسي الأوامر . أفهمت ؟ فلا تحاول أن تنبش ما في أعماقي من أفكار الا اذا كانت يداك نظيفتين . اني أعرف لماذا نقاتل ومن الذي نقاتله ، كما أعرف أننا سننتصر . وهذا هم المهم . ـ ثم ابتسم لخاطرة عنّت له ، والتفت إلى شتوكمان ، وشرع يقص عليهما :

ـ كنت في السنة الماضية في مفرزة في اوكرانيا . وكنا نتعرض لضغط شديد من جانب العدو طوال الوقت . فخسرنا العديد من رجالنا . وبلغ بنا

الأمر أن اضطررنا إلى ترك جرحانا وراءنا ثم قام العدو بتطويقنا وتلقينا أوامر تقضي بأن يقوم أحدنا باختراق صفوف العدو ليلاً ويذهب إلى مؤخرتهم لينسف جسرا على أحد الأنهر ، للحيلولة دون عبور قطار مسلح . وقد طُلب المتطوعون لهذه المهمة ، ولكن احدا لم يتقدم . فاقترح شيوعيو وحدتنا ـ وكانوا بضعة رجال لا غير ـ أن نقذف قطعة نقدية في الهواء لتقرر من يذهب منا . ولكنني فكرت في الأمر مليا وقررت التطوع . أخذت الألغام ، والفتيلة البطيئة الاحتراق والثقاب ، ثم ودّعت رفاقي ومضيت : كان الظلام والضباب مخيمين في تلك الليلة . وبعد ان قطعت مائتي خطوة شرعت بالزحف خلال ذرة غير محصودة ومن ثم على امتداد أحد الأخاديد . وفيما كنت زاحفا إلى خارج الأخدود هب طير يرف بجناحيه من تحت أنفي مباشرة . وزحفت عبر نقطة للحراسة على بعد عشرين خطوة تقريبا ثم بلغت الجسر . وكانت مفرزة رشاشات تتولى حمايته . فقبعت هناك ساعتين من الزمن في انتظار اللحظة المناسبة ، ثم زرعت اللغم وشرعت أقدح الثقاب تحت ذيل معطفي ، الا ان العيدان كانت مبتلة من الندى فلم تشتعل ، فقد كانت في جيب صدري حين اضطررت إلى الزحف على بطني . وحينذاك خفت فعلا . فالفجر أوشك على الانبلاج ، فجعلت يدي ترتجف وتصبب العرق إلى داخل عيني ، وقلت في سريرتي : قضي الأمر . لئن فشلت في نسفه فسأقتل نفسي . وحاولت مرارا وتكرارا فأفلحت اخر الأمر في اشعال الثقاب وأشعلت الفتيل . ثم أخفيت نفسي وراء السد على الشاطئ . وحين حصل الانفجار قام هرج ومرج رائعان : فأخذ رشاشان يلعلعان ، وهذب فرسان من جانبي مباشرة ولكن مهمتهم في العثور عليّ ليلا لم تكن يسيرة . فابتعدت عن الوقاء وتسللت إلى الذرة . وفي تلك اللحظة بالذات ــ أتدري ـ انهارت قوة يدي وساقي ، ولم أستطع حراكا ، فرقدت . وحين كنت اشق طريقي إلى الجسر خالجني شعور بالجسارة أما العودة ، فذاك أمر اخر ، لبثت راقدا هناك وانتابني الغثيان كالكلب... وبطبيعة الحال استطعت العودة

آخر الأمر . ـ ولمعت عيناه لمعانا دافئا ـ وكنت أقص على الاولاد سوء طالعي في أمر الثقاب ، صباح اليوم التالي ، فسألني أحدهم : ولكن ما بال ولاعة السكائر التي عندك ؟ هل فقدتها ؟ وجسست جيبي ، فإذا بها مستقرة هناك طوال الوقت أخرجتها فاشتعلت من أول ضربة!

كان ثمة غرابان يطيران مسرعين على ارتفاع شاهق منطلقين على أجنحة الرياح من أجمة حور بعيدة . وبدت الريح وكأنها تقذف الغرابين إلى أمام بشدة . كانا على مسافة غير بعيدة من الطابور حين دوت المدافع المنصوبة على تل كروتوفسكي من جديد غب ساعة من الصمت فمرقت من فوقهم قذيفة محدثة هديرا زاعق . وحين لاح ان صرختها اوشكت ان تبلغ الانفجار اخذ احد الغرابين يتلوى كقشة في دوامة تم اخذ يهوي إلى الارض مدوما كورقة كبيرة سوداء ناشرا جناحيه على نحو شائه محاولا أن ينقذ نفسه . فهتف جندي أحمر يسير وراء شتوكمان باعجاب : «طار إلى حتفه! أرأيتم كيف قذفت به ؟ » .

وعدا آمر السرية على صهوة جواد كميت طويل مثيرا الثلج الذائب .

ـ اصطفاف!...

وجرت قربهم ثلاث زحافات تحمل الرشاشات فنثرت الثلج على ايفان اليكسييفتش وهو يسير في الصف الخارجي صامتا . وقد سقط أحد المدفعيين من الزحافة الاخيرة ، فدوى الضحك من رجال الجيش الأحمر إلى ان أرسل السائق اللعنات وأدار حصانيه لكي يصعد المدفعي إلى الزحافة ثانية .

٤١

اتخذت الفرقة الأولى التابعة لقوات المتمردين كاركينسكايا مركزا لمقاومة الحمر . وقد أدرك غريغوري ميليخوف ما لموقع كاركينسكايا من أهمية استراتيجية فعقد العزم على ألا يتخلى عنها باي حال من الاحوال . فقد

كانت تمتد على الضفة اليسرى لنهر تشير الأمر الذي جعل بمقدور القوزاق ان يحموا خطوطهم من على قممها بشكل رائع . وكانت كاركينسكايا في سفح التلال على الجانب الآخر من نهر التشير ، ومن ورائها يترامى السهب فرستات عديدة نحو الجنوب ، تعترضه الشعاب والوديان هنا وهناك . وقد اختار غريغوري بنفسه لبطاريته التي تضم ثلاثة مدافع موقعا غير بعيد عن ربوة تغطيها اشجار البلوط تشرف على المنطقة وتشكل نقطة مراقبة ممتازة .

كان القتال يدور كل يوم حول كاركينسكايا . فيشن الحمر الهجوم من جبهتين عادة : من السهب جنوباً ، وبمحاذاة التشير شرقاً . وكانت صفوف القوزاق تنتشر على مسافة غير بعيدة من وراء القرية ، فيطلقون نيرانهم بين آونة وأخرى . وكانت نيران الحمر تحمل القوزاق في كل مرة تقريباً على التراجع خلال كاركينسكايا ثم يتخذون طريقهم في بطون شعاب ضيقة شديدة الانحدار تؤدي بهم الى التلول . غير أن الحمر لم تبلغ بهم القوة لدفعهم الى أبعد من ذلك ، فقد كان تقدمهم يتعثر كثيراً بسبب ما يعانون من نقص في الخيالة الذين كان بوسعهم حمل القوزاق على التراجع مسافة أبعد ، وحينذاك تنطلق يد المشاة ، الذين كانوا يضيعون الوقت خارج القرية حائرين ، فيقومون بحركات جديدة . ولم يكن بالوسع أن يستخدم المشاة لمناورات كهذه ، اذ كان بمقدور القوزاق أن يغيروا في أية لحظة على الجنود السائرين فيشتتوا شملهم .

وقد امتاز المتمردون ، فضلا عن ذلك ، بمعرفتهم التامة للمنطقة ، فلم يفوتوا سانحة في ارسال خيالة يستترون في بطون الوديان ليغيروا على جناح العدو ومؤخرته ، ويهددون الحمر على الدوام ويشلّون أي حركة جديدة يقومون بها .

ولم يمض وقت طويل ، حتى رسم غريغوري خطة للقضاء على العدو : يعمد القوزاق الى تضليل العدو فيتراجعون ليستدرجوا الحمر الى داخل

كاركينسكايا ، فيما تقوم كتيبة من الخيالة بحركة التفاف خلال الوديان لتطويق العدو من الشرق والغرب والقضاء عليه . وقد أعدت الخطة بأدق تفاصيلها . وتسلم أمراء المفارز تعليمات دقيقة أثناء اجتماع عقد في مساء اليوم السابق . وتقرر أن تبدأ حركة الالتفاف عند الفجر ، حين يسهل التستر . وبدا كل شيء بسيطاً بساطة الألف باء . وبعد أن فرغ غريغوري من دراسة كافة الاحتمالات بعناية ، وكل ما من شأنه أن يعيق تنفيذ الخطة على غير انتظار ، كرع قدحين من الفودكا المحلية ، ودون أن ينزع ملابسه ، ألقى بنفسه على الفراش ، وغطى رأسه بمعطفه الرطب وغط في النوم كالأموات .

احتل الحمر كاركينسكايا في صباح اليوم التالي . فهرب جانب من مشاة القوزاق خلال الشوارع الى التلال بغية جر الحمر وراءهم . وجعل رشاشان محملان على زحافتين يحصدانهم بالرصاص . وراح الجنود الحمر ينتشرون في القرية رويداً رويداً .

وقف غريغوري على رابية قريبة من احدى البطاريات يراقب مشاة الحمر وهم يحتلون كاركينسكايا ويتجمعون قرب نهر التشير . وكان الاتفاق قد تم على أن تبدأ سريتان من القوزاق رابضتان في بساتين عند سفح التل بالهجوم لدى أول قذيفة تطلقها البطارية ، في حين تقوم كتيبة الالتفاف بمهاجمة المؤخرة . وكان آمر البطارية يريد توجيه أول قذيفة على زحافة مدفع رشاش كانت تجري الى داخل كاركينسكايا ، ولكن الراصد أفاد لحظتئذ أن قوة من الحمر تتقدم من جهة الشرق ببطارية عبر جسر يبعد زهاء ثلاثة فرستات .

فأشار غريغوري عليه وما يزال يراقب الموقع بالمنظار العسكري :

ـ أطلق النار عليهم بمدفع المورتر .

وفي الحال سدد المدفعي مدفعه ، فدوى المورتر بهدير ثقيل ، وشق الأرض التي وراءه حينما ارتد الى الخلف . فأصابت القذيفة الأولى طرف الجسر لحظة وصول المدفع الثاني لبطارية حمراء اليه فأطاحت القذيفة

بالخيل ، وعلموا بعدئذ أن حصانا واحدا لا غير بقي سالما من بين ست خيول تجر المدفع . وأطاحت شظية قذيفة برأس السائق . واستطاع غريغوري أن يرى خلال منظاره عموداً من الدخان الرمادي والأصفر يرتفع أمام المدفع ، وجفلت الخيل والدخان يكتنفها ، ووقع الجنود ولاذوا بالفرار . وكان أحد الجنود على ظهر حصانه أمام المدفع فأطاحت القذيفة به وحصانه من على الجسر الى الجليد .

ولم يكن في حسبان المدفعيين أن يحرزوا نجاحاً كهذا بالقذيفة الأولى ، فحام الصمت برهة من حول مدفع القوزاق المورتر ، ولكن الراصد الذي كان يقف على رابية قريبة صاح بشيء ولوح ذراعيه .

وفي تلك اللحظة نبّ هتاف « هورا » من خلال الأجمة الكثيفة لبساتين الكرز والمزارع التي تحتها وعلت لعلعة نيران البنادق . فضرب غريغوري بالحيطة صفحا وهرع الى الرابية . كان رجال الجيش الأحمر يلوذون بالفرار خلال الشوارع ، وسمع هديرا مختلطاً من الأصوات ، وصرخات حادة توعز بالاوامر ، ولعلعة الرصاص . وشرعت احدى زحافات الرشاشات تجري صعد مرتفع ، ولكنها سرعان ما استدارت بحدة ، على مسافة قصيرة من المقبرة ، وفتحت النار من فوق رؤوس رجال الجيش الأحمر على القوزاق الذين تدفقوا من البساتين .

وعبثاً راح غريغوري يستجلي الأفق بحثاً عن أثر لخيالة القوزاق ، وكان رجال الجيش الأحمر في الجناح الأيسر يتراكضون شطر الجسر الذي يربط كاركينسكايا بقرية أرخيبوفكا الملاصقة ، في حين ما يزال جناحه الأيمن يتدفق الى كاركينسكايا ، فينبطح الرجال تحت نيران القوزاق الذين كانوا مسيطرين على الشارعين القريبين من نهر التشير .

وأخيرا ظهرت السرية الاولى لخيالة القوزاق من وراء التلال ، ثم جاءت الثانية والثالثة والرابعة وانتشروا في خط واستداروا نحو اليسار بحدة لقطع الطريق على حشود الجيش الأحمر الهاربة . فدعك غريغوري قفازيه بيده وهو

يتتبع سير القتال بنفاد صبر دون ان يرفع المنظار العسكري . دنت خيالة القوزاق من الطريق الرئيسية بسرعة فانقلب رجال الجيش الأحمر على أعقابهم وهربوا عائدين صوب قرية أرخيبوفكا زرافات ووحدانا ، وهناك واجهتهم نيران مشاة القوزاق فانقلبوا ثانية وهرعوا الى الطريق ولم يفلت من قبضة القوزاق الا جزء صغير من الجيش الأحمر يمم صوب كليموفكا .

وجعل القوزاق يعملون السيف بالجنود الحمر على الرابية بصمت مريع ، ثم استدارت خيالة القوزاق صوب كاركينسكايا وأعادتهم على أعقابهم كأوراق في مهب الريح . وعند الجسر قُطع خط الرجعة على نحو من ثلاثين جنديا أحمر وحين لم يبق أمامهم رجاء في النجاة ، أخذو بالدفاع عن أنفسهم . كان لديهم مدفع رشاش واحتياطي كبير من العتاد ، فلم يكد مشاة المتمردين يخرجون من البساتين حتى شرع المدفع الرشاش يلعلع بسرعة محمومة . فانبطح القوزاق وشرعوا يزحفون بحثاً عن ملجأ وراء السقائف والأسيجة الحجرية . وشاهد غريغوري من نقطة المراقبة قوزاقه يجرون رشاشا خلال كاركينسكايا . وحين بلغوا أحد الأفنية عند الضواحي توقفوا ثم هرعوا الى داخل الفناء وبعد بضع دقائق شرع مدفعهم الرشاش يتأتئ من على سطح مخزن الحبوب . وشاهد غريغوري المدفعيين من خلال منظاره ، وكان أحدهم يرقد على السطح بساقين ممدودتين وراء درع المدفع ، والثاني يزحف صعد سلم خشبي وقد لف أحزمة العتاد حوله . أعانت بطارية القوزاق مشاتهم ، فركزت نيرانها على تجمعات الحمر . وما ان مرت خمس عشرة دقيقة حتى لاذ رشاش الحمر عند الجسر بالصمت بغتة ، فارتفع هتاف « هورا » ، وبدت أشباح القوزاق الفرسان تظهر وتختفي بين سيقان الصفصاف الجرداء .

وانتهى كل شيء .

* * *

وبناء على أوامر غريغوري قام سكان كاركينسكايا وأرخيبوفكا بسحب المائة والسبعة والأربعين قتيلا من الجنود الحمر الى خندق غير عميق حفر خارج القرية تماما . وقد استولى القوزاق على ست عربات ذات عجلتين من عربات الذخيرة بخيلها ورشاش معطوب واثنتين وأربعين عربة شحن بما فيها من مؤن . وقد خسروا أربعة قتلى ، وخمسة عشر جريحاً .

وبعد هذه المعركة حظي القوزاق بأسبوع كامل من الراحة دونما قتال في المنطة المحيطة بكاركينسكايا . ثم دفعت القيادة الحمراء بقوات ضد فرقة المتمردين الثانية ، وبعد أن حملتها على التقهقر ، استولت على عدد من القرى في منطقة ميكولينسكايا . وصباح كل يوم كان صوت المدافع البعيدة يتناهى الى كاركينسكايا ، ولكن الأنباء الواردة عن سير القتال كانت تتأخر ، فلم تعط فكرة واضحة عن الوضع هناك .

وفي تلك الأيام أخذ غريغوري يسرف بالشراب في محاولة لإلهاء نفسه عن الخواطر المكربة التي راودته عن الأحداث الجارية من حوله وعن دوره البارز فيها . وكان المتمردون يعانون من نقص شديد في الدقيق ، الأمر الذي اضطر القوزاق في غالب الاحيان الى تناول القمح المسلوق ، اذ لم يكن في وسع الطواحين أن تسد حاجة الجيوش . ولكن بالنظر لتوفر مقادير هائلة من القمح فإن الفودكا المحلية لم تكن شحيحة ، فجعلت تتدفق بسيل لا ينضب . وتعددت المرات التي يدخل فيها القوزاق المعارك وهم سكارى . وذات مرة شنت سرية من خيالة القوزاق الهجوم وأفرادها كلهم نصف سكارى ، فهذبوا صوب مدفع رشاش للعدو ، فأبيدت السرية كلها تقريباً . وكان غريغوري يحصل على وفرة من الفودكا ، فقد امتاز بروخور زيكوف في الحصول على الكحول . وبعد معركة كاركينسكايا جاء بثلاث قوارير من الفودكا ، تلبية لطلب غريغوري ، ثم دعا المغنين ، فمضى في الشرب مع القوزاق حتى مطلع الفجر جذلا بشعور الانطلاق من أسار التحفظ متلمسا السلوى عن أفكاره . وفي الصباح عب كأسا ليتخلص من آثار سكره ، ثم

كأساً آخرى . وفي المساء التالي طلب المغنين مرة أخرى ، ومن جديد راح ينعم في صخب الأصوات والمرح البشري ، فبعث كل ذلك فيه وهما من السعادة وحجب عنه قسوة الواقع .

وسرعان ما تحول كلفه بالشراب الى عادة مستحكمة . فما ان يجلس إلى المائدة صباحا حتى يستشعر رغبة عارمة لشرب الفودكا . كان يشرب كثيرا ، ولكن دون أن يفرط ، ويظل مالكاً لشعوره حين يثمل الآخرون وينامون تحت الموائد وعلى الأرض ، ويتدثرون بمعاطفهم ويبقى هو صاحيا بالرغم من شحوب وجهه وشرود عينيه ، وكثيراً ما كان يشد راحتيه الى رأسه .

وبعد أن أمضى أربعة أيام في منادمة متواصلة شرعت آثارها تظهر عليه : أزرق ما تحت عينيه وتورم وأمست نظراته صارمة لا حسّ فيها . وفي اليوم الخامس أشار بروخور زيكوف عليه وهو يبتسم ابتسامة اغراء :

ـ تعال معي هذا المساء الى امرأة رائعة أعرفها في ليخوفيدوف . موافق ؟ لكن اياك أن تفوت الفرصة . إني أعرفها امرأة شهية كالبطيخة ، على الرغم من أنني لم أذق طعمها . ولكنها حادة الطبع متوحشة ، تلك الشيطانة . إنك لن تنال منها شيئاً في أول مرة تسألها ، فلن تدعك تلمسها . بيد أنك لن تجد من يحسن صنع الفودكا مثلها . لديها أروع فودكا في كل قرى التشير .

ثم ختم كلامه وكأنه لا يقصد شيئاً :

ـ زوجها انسحب عبر الدونيتس .

انطلقوا الى ليخوفيدوف مساء ذلك اليوم . ورافق غريغوري اثنان من آمري وحداته هما ريابتشيكوف ويرماكوف ، وأليكسي شامل ذو الذراع الواحد ، وقائد الفرقة الرابعة ميدفيديف الذي جاء بزيارة للفرقة الأولى . وتقدمهم بروخور زيكوف على حصانه وحين بلغوا القرية جعل حصانه يمضي سيراً ، ثم استدار في شارع فرعي وفتح بوابة صغيرة تؤدي الى ساحة لدرس

الحبوب . وبلمسة من السوط قفز حصان غريغوري ليتخطى كومة كبيرة من الثلج نصف الذائب ، ثم كبا لحظة واستعاد وضعه وهو يزنخر وخب الى داخل الفناء . أما ريابتشكوف فقد ترجّل وقاد حصانه من الرسن . ومضوا في أثر بروخور زهاء خمس دقائق عبر أكوام من التبن والقش ، ومن ثم خلال بستان من أشجار الكرز الجرد المخشخشة . وكان قدح الهلال الذهبي ينتصب على صفحة السماء الزرقاء الداكنة ، والنجوم تتألق ، وخيم من حولهم سكون مسحور ، لا يعكره سوى نباح كلب بعيد ووقع حوافر خيلهم . وأومضت نقطة من الضوء الأصفر على صفحة السماء القاتمة ، وطالعهم هيكل منزل واسع مسقوف بالقصب . وانحنى بروخور من على سرجه وفتح بوابة من الصفصاف ذات صرير . والتمعت صورة القمر في بركة متجمدة عند الدرجات . فهشم حصان غريغوري حافة الجليد ثم توقف وهو يلهث ، فقفز غريغوري من على حصانه ولف الأعنة حول عمود السلم ودخل سقيفة الباب . وترجل القوزاق الآخرون وهم يهمهمون ويتحدثون وراءه .

تلمس سقاطة الباب ثم فتحه ودلف الى مطبخ فسيح . كانت ثمة امرأة قوزاقية شابة ، مكتنزة ولكنها أنيقة كطير الحجل ، لها سحنة سمراء وحاجبان فاحمان جميلان ، وقفت وظهرها الى الموقد تحوك جوربا . وكانت فتاة شقراء الشعر ، يناهز عمرها التاسعة ، نائمة فوق الموقد وقد نشرت إحدى ذراعيها .

جلس غريغوري الى المائدة دون أن يخلع معطفه ، وقال :

ـ ألديك فودكا ؟

فأجابت المرأة دون أن تنظر الى غريغوري أو تتوقف عن الحياكة :

ـ ألا ترى أن من اللياقة أن تقول مساء الخير أولاً ؟

ـ مساء الخير ، ان كان ذلك يروق لك . ألديك فودكا ؟

فرفعت حاجبيها وابتسمت له عيناها المستديرتان البندقيتان ، ثم أصاخت السمع الى وقع الخطوات في سقيفة الباب .

ـ عندي شيء من الفودكا . ولكنكم أتيتم بعدد كبير لقضاء السهرة ، أليس كذلك ؟

ـ أجل ، الفرقة برمتها .

ودخل ريابتشيكوف وبدأ يرقص مقرفصاً وهو يجر سيفه ويضرب ساقي جزمته بقبعته المصنوعة من جلد الخروف . وتزاحم القوزاق الآخرون في المدخل . وجعل أحدهم ينقر لحنا راقصا سريعا بزوج من الملاعق الخشبية ، ثم كوموا معاطفهم فوق السرير وألقوا أسلحتهم على المصاطب . وخف بروخور لمساعدة المرأة في اعداد المائدة ، دخل أليكسي ذو الذراع الواحدة الى القبو ليجلب شيئاً من الكرنب المخلل ثم سقط حدر الدرج ، وخرج يحمل هشيم الطبق المكسور وكومة من اللهانة الندية في طرف سترته .

وما انتصف الليل حتى كانوا قد شربوا دلوين من الفودكا والتهموا مقادير لا حصر ها من الكرنب . ثم قرروا نحر خروف ، فذهب بروخور يلتمس واحدا في زريبة الأغنام ، فبتر يرماكوف رأسه بضربة واحدة من سيفه . وأشعلت المرأة النار ووضعت فوقها قدراً مليئاً بلحم الضأن لتطبخه . وعادت الملعقتان الخشبيتان من جديد تنقران لحنا راقصاً ، وراح ريابتشوكوف يدور في رقصته مشمراً عن ساقيه ، صافقا اياهما بيديه وهو يغني بصوت صادح حاد ولكنه حلو .

وهدر يرماكوف قائلاً : «أريد أن ألهو!» ولبث يمتحن متانة اطار النافذة بسيفه وكان غريغوري يحب يرماكوف لشجاعته النادرة وجرأته القوزاقية ، فضرب على المائدة بكوزه النحاسي وصاح :

ـ لا تكن سخيفا يا أخي!

فأعاد يرماكوف سيفه الى غمده بإذعان وتناول قدحاً من الفودكا بتعطش .

قال أليكسي ذو الذراع الواحدة ، وهو يجلس بجوار غريغوري :

ـ لا أخشى حتى الموت في سهرة مثل هذه . ايه غريغوري بانتلايفتش ، انك فخر بلادنا! لولاك لكنا الآن في الدنيا الآخرة! أنشرب معا كأساً أخرى!... املأ الكؤوس ، يا بروخور!

ولبثت الخيل غير المسرجة واقفة عند المعلف دونما عقال فكان القوزاق يخرجون اليها بالتناوب ليلقوا عليها النظر .

ولم يحس غريغوري أنه بدأ يثمل إلا وقد أدركهم الفجر . فخيل له أن أصوات الآخرين تأتيه من مسافة بعيدة . فرفع عينيه الحمراوين بثقل باذلاً جهده للسيطرة على نفسه .

فهدر يرماكوف ، وهو يعانق غريغوري :

ـ ان شارات الكتف الذهبية عادت تتحكم برقابنا من جديد! ان بيدهم مقاليد الحكم كلها .

فسأله غريغوري منحيا عنه يديه :

ـ أي شارات ؟

ـ في فيشنسكايا ، أو تعني أنك لم تسمع بها ؟ زمام الأمر هناك في يد أمير قفقاسي! انه عقيد . سوف أقتله! يا ميليخوف! أني أضع حياتي عند قدميك : لا تتخل عنا! شاع التذمر بين القوزاق . سر بنا الى فيشنسكايا فنقتلهم جميعاً ونضرم النار بالمنطقة . نقتل اكودينوف ، والعقيد ، والكل! كفانا مارأينا من حكمهم! دعنا نقاتل الحمر والكاديت في آن واحد . هذا ما أريد! .

فقال غريغوري :

ـ سوف نقتل العقيد! تخلّف في المنطقة عن قصد... يا أخي! دعونا نرضخ لسلطة السوفييتات . اننا على خطأ . ـ وفجأة استعاد غريغوري رشده لحظة وابتسم ابتسامة شوهاء وأضاف : ـ لست الا مازحا . هيا اشرب ثمالة الناس ، يرماكوف .

فقال ميدفيديف بحدة :

ـ بماذا تمزح ، يا ميليخوف ؟ لا تمزح ، انها مسألة خطيرة . إننا نريد تغيير الحكم . سنطردهم جميعاً ونضعك في مكانهم . لقد تحدثت الى القوزاق بالأمر ، فأبدوا موافقتهم . سنقول لكودينوف وزمرته : «انقشعوا انكم لا تصلحون لنا!» .

فان ذهبوا عنا فمع السلامة . والا فسنرسل كتيبة الى فيشنسكايا ونكنسهم كنساً ، لعنة الله عليهم .

فأرعد غريغوري بغضب شديد : «اقلع عن هذا الكلام!» فهز ميدفيديف كتفيه ، وغادر المائدة ، وكف عن الشراب . وراح ريابتشيكوف يغني بصوت نائح وهو ممدد في ركن من الغرفة ورأسه الأشعث متدلّ من المصطبة واحدى يديه تهرش الأرضية الوسخة :

تعال أرح رأسك ، يا فتاي المسكين ،
تعال أرح رأسك ، أيها الحبيب ،
رأسك هذا الثقيل ، رأسك هذا المسكين ،
رأسك الذي تهدل متعباً
دعه يسترح على هذا النحو أو ذاك
دعه يرقد على صدري الأبيض .

وانضم أليكسي شامل بصوته الجهوري الأبح إلى صداح ريابتشيكوف النائح الرقيق :

حين رقدت على صدرك ..
ندت حسراتي ثقيلة أسيانة
ثقيلة حسراتي ثقيلة أسيانة
وذات مرة ، قلت لك عازماً :
وداعا يا حبي الراحل ، وداعا
وداعا ، ولتذهبي الى سقر

كانت ظلال الفجر تستحيل ليلكية خارج المنزل حين قادت المرأة غريغوري الى الغرفة الأمامية .

وقالت وهي تسند غريغوري بيد وتصد بالأخرى يرماكوف الذي كان يتبعهما بكوز من الفودكا :

ـ لقد أسكرتموه بما فيه الكفاية! كفاك الآن ، أيها الشيطان! ألا ترى أنه لم يعد يصلح لشيء ؟

فغمز يرماكوف ، وهو يترنح ويريق الفودكا من الكوز :

ـ إياك أن تضاجعيه الآن ، لا فائدة منه .

فانتهرته قائلة :

ـ ليس هذا من شأنك . لست أنت أبي .

فهأهأ يرماكوف : «خذي معك ملعقة!» ثم تهاوى في نوبة من الضحك الثمل .

ـ يا لك من شيطان! شربت اكثر من اللازم وتقول ما لا يليق!

ودفعت غريغوري الى الغرفة ، وأرقدته على السرير ، ثم جلست وملء عينيها الاشفاق والقرف تراقب وجهه الشاحب شحوب الأموات والنظرة المحدقة تشخص من عينين لا تطرفان . جلبت له قدحا من مشروب الكرز البارد ثم جلست على حافة السرير وراحت تمسد رأسه ، وتبعث أصابعها خلال شعره ، حتى استسلم للنوم . ثم أعدت فراشها فوق الموقد الى جانب ابنتها ، لكن شامل أبى أن يدعها تنام فقد أرقد رأسه على ذراعيه وراح يزنخر كحصان فزع ثم أفاق على حين غرة وجعل يهدر بلحن من أغنية . ثم ألقى برأسه فوق ذراعيه من جديد ، وخلد للنوم بضع دقائق ، وما لبث أن انفجر يغني ثانية وهو يجيل النظر فيما حوله كالمخبول .

٤٢

حين أفاق غريغوري صباح اليوم التالي تذكر كلمات يرماكوف وميدفيديف ، فلم يكن الشراب قد أسكره آنذاك تماما . ولم يجد مشقة كبيرة في استعادة حديثهما حول اسقاط الحكومة ، فأدرك لتوه أن وليمة الشراب في ليخوفيدوف قد أعدت بقصد أن يكسبوا تأييده للخطة . فقد كان القوزاق ذوو الميول اليسارية يحلمون بالانفصال التام عن أجزاء اقليم الدون الأخرى وتأليف نموذج خاص بهم من الحكم السوفييتي دون التعاون مع الشيوعيين ، فراحوا يكيدون لكودينوف الذي كان قد أعرب بكل صراحة عن رغبته في الانسحاب إلى الدونيتس وضم قواته إلى الجيش الأبيض . وقد فاتهم أن يدركوا ما يترتب من نتائج وخيمة على النزاع في داخل معسكر المتمردين ، فقد تيمم قوات الحمر ، اذا ما أعيدت على أعقابها في منطقة الدونيتس ، وجهتها اليهم فتمحقهم ، هم وخصوماتهم . وقال غريغوري في خلده وهو يقفز من على سريره بخفة : «ان هذا عبث صبياني» . وحين ارتدى ملابسه استدعى يرماكوف وميدفيديف الى غرفته ثم أوصد الباب من ورائهما وقال :

ـ انتبها الآن اليّ أيها الصبيان! أطردا كلام الأمس من رأسيكما ، وحذار من التذمر ، والا فستكون عاقبتكما وخيمة . ليست القضية قضية من يتولى القيادة ، انها ليست مسألة وجود كودينوف في القيادة أم سواه ، فالمشكلة أننا في مأزق حرج ، فنحن أشبه ببرميل داخل أطواقه ، وهذه الأطواق ستحطمنا ان عاجلاً أو آجلاً . فينبغي لنا أن نسير بكتائبنا لا إلى فيشنسكايا بل شطر ميكولين وكراسنوكوتسكايا ـ وأضاف مشددا كلماته دون أن يحوّل عينيه عن وجه ميدفيديف الكئيب الذي لا يبدو عليه الاكتراث :

ـ أجل ، هذه هي الحالة ، يا كوندرات . يحسن بك أن تكف عن اثارة

المتاعب . فكر بالأمر مليا تر أننا ان شرعنا في التخلص من قادتنا وتدبير حركات عصيان هلكنا لا محالة . علينا أن ننحاز اما الى البيض أو الى الحمر . فليس ثمة من سبيل وسط : سيسحقنا هذا الجانب أو ذاك .

فقال يرماكوف وهو يشيح بوجهه :

ـ لعلك لن تعمد الى نقل حديثنا إلى أسماع الغير .

ـ لن أتخذ خطوة أخرى شريطة أن تكفوا عن اثارة القوزاق . ما شأن كودينوف ومستشاريه ؟ فليست بيدهم القوة كلها ما دمت أنا . أتولى قيادة فرقة . انهم حفنة من الأغبياء كما أعرفهم ، وهم يسعون الى جرنا الى الكاديت وبوسع المرء أن يراهن على ذلك . ولكن الى أين يمكننا أن نسير ، على كل حال ؟ ليس ثمة من سبيل أمامنا ، فنحن مقيدون .

فأيده ميدفيديف قائلاً باحجام : «هذا صحيح» وللمرة الأولى مذ دخل تلك الغرفة رفع عينيه الصغيرتين الحاقدتين الى وجه غريغوري .

وأمضى غريغوري يومين آخرين يعاقر الخمرة في القرى الواقعة حول كاركينسكايا ، فينفق حياة خاوية في المنادمة والسكر . وقد تشبع برائحة الفودكا حتى بلغت مرشحة سرجه . وعبثت يداه بنسوة وفتيات فقدن زهرة عفافهن ، تشاطره الواحدة منهن ساعة وجيزة من الغرام ، ولكنه يفيق صباح كل يوم وقد أتخمته حمى الغرام التي نالها من آخر نزوة وصحا من سكره ، فيقول لنفسه بعدم اكتراث : «لقد عشت وخبرت كل شيء في أيامي . طارحت الغرام نسوة وفتيات كثيرات ، وجبت السهب على ظهر جوادي ، ونعمت بالأبوة ، وقتلت رجالا وواجهت المنية ، ونعمت بزرقة السماء . أي جديد يمكن للحياة أن تأتيني به ؟ لا شيء! وبوسعي أن ألاقي الموت! ذلك لن يكون أمراً رهيباً . وبوسعي أن أعبث في الحرب دون أن أجازف بشيء ، شأن ثري يلعب القمار . لن تكون خسارتي فادحة» .

وكانت أيام الطفولة تنساب خلال ذاكرته رائقة مثل يوم مشمس : أعشاش الزرازير ، وقدماه الحافيتان على التراب الحار ، والدون يعمه سكون

مهيب فيعكس ضفافه التي تزخر بالشجر ، والوجوه الفتية لأصدقائه ، وأمه الغضة الممشوقة القوام... فيغطي غريغوري عينيه بيده . أصدقاء قدامى ، وجوه قديمة ، احداث صغيرة متشبثة بذاكرته لسبب ما ، أصوات طواها النسيان ، نتف من حديث ، قهقهات من الضحك . وتعرج به الذاكرة إلى مرأى المنظر القديم ، فإذا به ينتشر مداه أمام عينيه على نحو مفاجئ يبهر الأبصار ، فترى عيناه دروب الصيف تقطع السهب ، وعربة تجرها الثيران وأباه جالساً على عارضتها ، والأرض المحروثة ، والجذامات الذهبية للقمح المحصود ، ونثارا أسود من الغربان على الطريق . وكلما طاف خياله في ذكريات الماضي الذي لا مرد له تراءت له أكسينيا فيقول في سريرته : «حبي ، حبي الذي لن أنساه! » ثم ينجر عن المرأة النائمة إلى جنبه وقد تملكه الازدراء . ويتنهد تنهيدة عميقة وهو ينتظر الفجر بصبر نافذ ، وما أن توشك الشمس على رشق المشرق بظلال العليق والأوبريز حتى يثب على قدميه ، ويغتسل ويمضي إلى جواده .

٤٣

سرى التمرد سريان حريق يلتهم السهب ، ولكن الجبهات أحاطت مناطق المتمردين مثل حلقة الفولاذ ، وكان ظل القدر جاثماً على صدور الناس كوسم الميسم . فقد كان القوزاق يلعبون بالموت ، وخاب فأل الكثيرين منهم فراح الفتية يقبلون على الحياة والغرام بكل جوارحهم ، والكبار يكرعون الفودكا حتى يصعب عليهم الوقوف ، ويلعبون الورق على النقود والرصاص (إذ كان الرصاص أثمن من النقود) ثم يرحلون إلى أهليهم في اجازة ، ليلقوا بنادقهم ولو دقيقة واحدة ، ويلتقطوا الفأس ، أو يرمموا السياج أو يهيئوا المسلفة أو طوق الحصان لعمل الربيع ، مما يريح النفس ، ويعود الكثيرون من الذين ذاقوا حياة السلم هذه إلى كتائبهم وهم سكارى ،

وحين يصحون من سكرهم ينطلقون في الهجوم بشعور مرير ، فيتمدمون إلى الرشاشات وجهاً لوجه ، أو ينطلقون في غارات الليل وقد التهبوا جنوناً ، فلا يحسون بالخيل من تحتهم ، فيأسرون الأسرى ويعبثون بهم بكل قسوة ووحشية ومن ثم يقضون عليهم بالسيوف شحاً بالرصاص .

حل الربيع يزهو بجمال لم يعهد له مثيل . وكانت أيام نيسان مشرقة صافية كالبلور وعلى مدى السماء اللازوردي المنيع ما انفكت أسراب من الأوز البري والكراكي ذات الأصوات اللطيفة تعوم فتدرك الغمام في هجرتها نحو الشمال ، وكان البجع الذي خرج إلى رقعة السهب القريبة من البركة يسطع على الخضرة الشاحبة كاللؤلؤ المنثور . ولم تكن الطيور لتكف عن تغريدها وندائها في الغياض المترامية على ضفاف النهر . وجعل الأوز يتنادى على الغدران الفائضة تأهباً للهجرة . ولم ينقطع حفيف الصفصاف الذي يعج بنشوة الغرام تبثها ذكور البط ، وبدت أشجار الصفصاف خضراً بعراجينها ، وتفتح الحور براعم دبقة فواحة . وكان السهب الأخضر غارقاً في سحر لايوصف ، يغمره فوح الأرض السوداء العريانة والعشب الجديد .

ولعل خير مافي حرب التمرد إن كل قوزاقي بقي على مقربة من قريته . فإذا انتابهم الملل من الذهاب في مهام النقاط الأمامية ونصب الكمائن ، ومن السير على التلال وحدر الوديان في مهام الدوريات ، فإنهم يحصلون على اجازة من آمر سريتهم ، ويذهبون إلى أهليهم ، ويرسلون آباءهم الذين دبت فيهم الشيخوخة والوهن ، أو أبناءهم اليافعين ليحلوا محلهم .

فبقيت السرايا بكل تعدادها على الدوام رغم تغير الوجوه . ولكن بعض القوزاق كانوا أشد مكراً . فما أن تجنح الشمس إلى المغيب حتى تراهم يمضون هذبا من مأوى سريتهم ، فيقطعون عشرين أو ثلاثين فرستا ، فيبلغون بيوتهم عشاء ، فيقضون الليلة مع زوجاتهم أو مع خليلاتهم ، وحين يصيح الديك صيحته الثانية يسرجون خيلهم ويعودون إلى سريتهم قبل أن تتلاشى المجرة في السماء . وكان العديد من القوزاق المرحين مسرورين

كل السرور لهذه الحرب التي يخوضونها على مقربة من بيوتهم . كانوا حين يتوجهون إلى منازلهم يقولون لأنفسهم : «لاداعي للموت» .

وكانت القيادة تخشى أن يعم الهرب الجماعي حين يحل موسم العمل في الحقل أيام الربيع . فقام كودينوف بزيارة خاصة لكل فرقة ، وأعلن بقسوة خارقة قائلاً :

ـ لا يهمني أن تسرح الرياح على حقولنا الخاوية ، ولا يهمني إن خلت أرضنا من أي زرع! ولكنني لن أسمح بمنح إجازة لأي قوزاقي . وإذا ماقبض على أحد في قريته دونما رخصة فسيعدم رميا بالرصاص .

٤٤

ساهم غريغوري مساهمة فعلية في اشتباك آخر وقع في أسفل كليموفكا ، فقد اندلع اطلاق النار قبيل الظهر في يوم من أيام نيسان حول المنازل الواقعة في طرف القرية ، وبعد بضع دقائق دخلت صفوف الحمر إلى القرية ، وكان في ميسرتهم بحارة ، وهم ملاحو سفينة ما من اسطول البلطيق ، يتقدمون إلى أمام بحزم ، فطردوا سرايا القوزاق في القرية بهجوم جريء ودفعوا بهم إلى الوراء على امتداد أحد الوديان .

كان غريغوري يرقب القتال من على تل ، وحين أخذت المبادرة تنتقل إلى يد الحمر لوح بقفازه إلى بروخور زيكوف ليأتيه بحصانه . ثم وثب إلى سرجه وانحدر يخب سريعاً إلى وادٍ كان قد أبقى فية سرية من الخيالة كاحتياط . وشق طريقه إلى السرية خلل البساتين وعبر الأسيجة فألفى القوزاق مترجلين ينعمون بالراحة . وحين كان مايزال على مبعدة منهم استل سيفه وصاح : «الى الجياد!» وفي غمضة عين اعتلى المائتا قوزاقي صهوات جيادهم . وتقدم آمر السرية ليستقبل غريغوري وسأله :

ـ هل تقرر أن تشن هجوم ؟

فأومضت عينا غريغوري :

ـ أجل ، لقد تأخرنا .

ثم جر عنان جواده وترجل ، واضطر إلى تبديد دقائق عديدة ليحكم أحزمة سرجه ، وحصانه العرق الهائج يدور ويروغ رافضاً أن يدع غريغوري يشد الأحزمة فحاول أن يعضه من جنبه ، وحين ثبت غريغوري سرجه باحكام وضع قدمه في الركاب . ودون أن ينظر إلى آمر السرية الذي كان ينصت إلى اطلاق النار المتزايد بأعصاب متوترة ، صاح : « سأتولى أنا قيادة السرية » .

ثم التفت إلى الرجال :

ـ على هيئة رعائل إلى طرف القرية . سر!

وحين تعدوا القرية أمر السرية بالاصطفاف استعداداً للهجوم ، ثم جرّب ما إذا كان سيفه ينسل من غمده بيسر ، وتقدم السرية نحو خمسين خطوة ، ثم قادها هذباً شطر كليموفكا . وحين بلغ قمة المرتفع المطل على كليموفكا أوقف جياده لحظة وتفحص الموقف . كان المشاة والخيالة الحمر يتراكضون ويهذبون متراجعين أمام بصره ، فاستدار نصف استدارة لمواجهة سريته :

ـ استلوا سيوفكم! إلى الهجوم سر! اتبعوني ياأولاد! ـ ثم استل سيفه من الغمد وكان أول الهاتفين « هورا! » فسرت في أوصاله رعشة طفيفة معهودة ، فدفع بجواده هذباً شطر القرية . وجعلت الأعنة المشدودة تختلج في يسراه ، وراح سيفه المرفوع فوق رأسه يفح في مهب الريح .

كانت ثمة غيمة بيضاء هائلة ساقتها نسائم الربيع فحجبت الشمس دقيقة أو اثنتين ، وانسل ظل رمادي عبر المرتفع ببطء متظاهر ثم أدرك غريغوري ، فحول عينيه من أكواخ كليموفكا لحظة إلى هذا الظل المنساب على الأرض الرطبة البنية ، ثم إلى النور الأصفر الوهاج البهيج يلوذ بالفرار أمام الظل . وقد تملكته رغبة لاشعورية ، يستحيل وصفها ، للحاق بالنور الذي راح يجري على الأرض . فضرب جواده وأرسله يهذب بأقصى سرعته ،

بعد بضع دقائق من هذب يائس أشرق رأس الجواد المشرئب برشفة من نور الشمس ، والتمع أديمه الأحمر فجأة بوهج ذهبي أخاذ ، وفي تلك اللحظة لعلعت الطلقات من الشارع الذي أمامه فحملت الريح أصواتها إلى أذنيه ، ولم تمض ثانية حتى لم يسمع ، من خلال وقع سنابك جواده وأزيز الرصاص وهدير الريح عبر أذنيه ، دوي السرية الهاذبة من ورائه . لكأن دوي هذا الحشد الصاخب قد انداح من قرب أذنيه ، وكأنه يتلاشى في الأبعاد ، وبدت لعلة البنادق لأذنه أشبه بقرقعة الحطب في نار المخيمات ، ومضى الرصاص يئز من حوله . فالتفت ينظر إلى وراء بحيرة وفزع ، فشوّه الذهول والغضب قسمات وجهه . فقد دارت السرية بالخيل على أعقابها وعادت تهذب من حيث أتت ، وها هم يتخلون عنه ، وكان آمر السرية وراءه مسافة قصيرة واقفاً في ركابيه يلوح سيفه بارتباك وهو يبكي ويصرخ بصوت كسير أجش . لم يكن وراء غريغوري سوى قوزاقيين ، أما بروخور زيكوف فقد أدار حصانه ومضى يرقل إلى آمر السرية ، وأما الآخرون فقد تشتتوا وانطلقوا من حيث أتوا وهم يعيدون سيوفهم إلى أغمادها ويعملون السياط بخيلهم .

فأوقف غريغوري جواده لحظة وجيزة محاولاً استجلاء ما حدث وراءه ، ومادعا السرية تنقلب على أعقابها فجأة وتلوذ بالفرار ، قبل أن يسقط منها أي رجل ، وفي تلك اللحظة عقد غريغوري عزمه : لن يعود على أعقابه ، لن يهرب ، بل سيمضي قدما . ورأى أمامه سبعة بحارة حمر منهمكين حول رشاش محمول على عربة وراء سياج على نحو مائتي خطوة منه ، كانوا يجاهدون لإدارة الرشاش وتصويبه إلى القوزاق ، إلا أن الزقاق كان ضيقاً . وقد فترت نيران البنادق وقل عدد الرصاص الذي كان يئز من فوق رأسه ، فأدار جواده ليدخل إلى الزقاق عبر حاجز متهدم .

وما إن رفع عينيه عن الحاجز حتى شاهد البحارة أمامه على مسافة قصيرة بكل جلاء ، لكأنه يتطلع اليهم خلال منظار ، وكانوا يهرعون لحل شداد الجواد عن العربة ، ولاحت وجوههم مستديرة سمينة على نحو غريب

لأن قبعاتهم المسطحة ثبتت على رؤوسهم باحكام وهم بسترهم السوداء الملطخة بالطين وكان اثنان منهم يقطعون الأحزمة وثالث قد جثم فوق الرشاشة ، وكان الباقون بين راكع وواقف يطلقون النار على غريغوري من بنادقهم ، وفيما دنا منهم يرقل على حصانه استطاع أن يرى أصابعهم تعالج الترابيس بشكل محموم وسمع الطلقات تدوي أمامه مباشرة .

وكان الرمي من العجالة وأعقاب البنادق ترتفع إلى المنال بسرعة بحيث خالط غريغوري ، والعرق يتصبب منه ، يقين بهيج مباغت أنهم لن يصيبوه .

خشخش السياج من تحت حوافر جواده ثم خلفه وراءه فرفع سيفه وسمر عينيه في أقرب بحار إليه ، واعترته رجفة أخرى من الخوف لفحته كالبرق : «سيطلقون علي النار أفقياً.. إلى صدر الحصان مباشرة.. سيلقي بي.. فينتهي أمري!» . طلقتان صوبتا إليه مباشرة ، تلتهما صيحة :«سنأسره حيا!ورأى أمامه وجهاً جريئاً ذا جبين حاسر وشرائط قبعة بحرية عليها اسم سفينة بأحرف ذهبية باهتة . وانتصب غريغوري في ركابيه وأهوى بسيفه فأحس به ينغرز في جسم البحار الهش اللين وأفلح بحار ثان جسيم في ارسال رصاصة في لحم كتف غريغوري الأيسر قبل أن يخر تحت ضربة من سيف بروخور وقد انفلق رأسه شطرين ، والتفت غريغوري على قعقعة ترباس بندقية : فإذا بالعين الصغيرة السوداء لماسورة بندقية تحدق فيه من وراء عربة المدفع الرشاش ، وأزّت الرصاصة فوق رأسه وهو يميل جانباً بشدّة زحزحت السرج وجعلت حصانه الفزع يترنح مزنخراً ، ثم وثب حصانه عبر العمود الوسطى للعربة وقضى غريغوري على الرجل قبل أن يتسنى له الوقت لحشو بندقيته من جديد ، وما أن مضت لحظة (كان يتصورها حين كانت تعود به الذاكرة إليها بعدئذ) حتى كان قد أعمل سيفه في أربعة بحارة ، وهم بخامس يجري عند منعطف الزقاق ، غير مبال بصيحات بروخور إلا أن آمر السرية انطلق بحصانه فاعترض طريق غريغوري وأمسك جواده من شكيمته :

ـ إلى أين ذاهب ؟ سيقتلونك! عندهم مدفع رشاش ثان خلف تلك السقيفة .

وهرع قوزاقيان آخران إليه مع بروخور الذي كان قد ترجل ، فأنزلوه من عن جواده عنوة . وجعل يقاوم بين أيديهم ويصيح :

ـ أتركوني ياخنازير! سأقتلهم ، سأقتلهم جميعاً .

فتضرع إليه بروخور زيكوف قائلاً :

ـ . غريغوري بانتلايفش! أيها الرفيق ميليخوف! عد إلى صوابك!

فرجاهم بصوت ذاو متغير : «اتركوني ، ياإخوان!» فخلوا عنه ، وهمس آمر السرية إلى بروخور قائلاً :

ـ ضعه على حصانه ، وعد به . أظنه مريضاً .

كان آمر السرية على وشك الذهاب إلى حصانه حين رمى غريغوري قبعته على الأرض ووقف يترنح . وبغتة صرَّ بأسنانه وشاهت قسمات وجهه على نحو فظيع ، وندت عنه أنّة مريعة ، وشرع يفتح أزرار معطفه . وإذ خطا آمر السرية عائداً إليه خرّ على وجهه حيث كان واقفاً ، وصدره الحاسر إزاء الثلج . وراح يبكي ويختض مع بكائه ، وشرع يلعق الثلج الذي تحت السياج كالكلب .وفي لحظة عجيبة من الصفاء الذهني حاول أن ينهض على قدميه .

ولكن ذلك كان عبثاً فأدار وجهه المتضور الملطخ بالدموع إلى القوزاق الواقفين حوله ، وصاح بصوت متكسر وحشي :

ـ من قتلت ؟

ولأول مرة في حياته جعل يتلوى في نوبة عصبية وهو يصرخ ويبصق زبداً من بين شفتيه :

ـ إخواني ، أنا لاأستحق غفراناً... أقتلوني... . قطّعوني بالسيف بحق الرب!... أقضوا علي... .

فهرع آمر السرية وضابط فصيل إليه وألقيا نفسيهما عليه وجرداه من حقيبة الميدان وحمائل سيفه ، وسدّا فمه وشدا ساقيه إلى الأرض ولكنه

ظل ينافح من تحتهم فترة طويلة ، مبعثراً الثلج بساقيه اللتين كانت تخبطان بارتعاص ، وظل يدق رأسه على الأرض الثرة السوداء التي حفرتها سنابك الخيل ، على الأرض التي ولد عليها وعاش فيها نصيبه الكامل من الحياة المترعة بالمصائب والضنينة بالأفراح . لاينمو على الأرض غير العشب متقبلاً بلا مبالاة مايأتيه من نور الشمس وماء المطر ، ومقتاتاً على أنساغه مانحة الحياة مطأطئاً هامته في مهب العواصف العاتية . ومن ثم يذرو حبه في الريح ويموت باللامبالاة ذاتها ، فتستقبل سيقانه الذاوية شمس الخريف بترحاب...

٤٥

في اليوم التالي أوكل غريغوري قيادة الفرقة إلى أحد أمراء الكتائب ، وانطلق إلى فيشنسكايا بصحبة بروخور زيكوف . وحين تعديا كارسينسكايا شاهدا سرباً كبيراً من الأوز البري حاطا على بركة في وهدة عميقة . فأشار بروخور إلى الأوز بسوطه وابتسم :

ـ جميل أن نصطاد أوزة ، يا غريغوري بانتلايفتش . إنها خير ما يؤكل مع شيء من الفودكا المحلية .

فقال غريغوري :

ـ سنقترب منها ، وأجرّب بندقيتي . كنت ذات يوم هدافاً لا بأس به .

انحدرا إلى الوهدة ، وتوقف بروخور مع الجوادين فوق ناصية التل في حين خلع غريغوري معطفه ، وأحكم سداد الأمان على بندقيته ، وراح يزحف في شعب ضيق يغطيه دغل رمادي اللون خلّفه العام المنصرم . ظل يزحف وقتاً طويلاً ، لا يكاد يرفع رأسه ، لكأنه يستطلع نقطة أمامية للعدو كما فعل يوم أسر الحارس الألماني على نهر ستوخود ، وكان قميصه الخاكي الحائل يماثل لون الأرض البنية المخضوضرة ، وقد ستره العشب عن العينين

الحادتين للفحل الحارس الذي كان واقفاً على ساق واحدة عند حافة الماء . ظل غريغوري يزحف حتى غدا بوسعه أن يحسن مرماه ، ثم رفع نفسه قليلاً . فأدار الفحل عنقه الرمادي الثعباني وراح يجيل النظر فيما حوله باحتراس . وكان الاوز يعوم فوق الماء ويغوص ويجذف . وبلغ أذنه الصوت الخافت لثرثرته وخبطه على الماء . وفكّر في نفسه : « بوسعي أن أضبط الهدف عبر سدادة مرماي» . ثم رفع البندقية إلى كتفه وقد اشتد وجيب قلبه ثم سدد مرماه إلى الفحل .

وحالما أطلق الرصاصة هبّ إلى قدميه وقد أصم اذنيه خفق الأجنحة وصياح الأوز . وطار الفحل الذي سدد إليه الرصاصة وراح يبذل جهداً مخبولاً للتحليق . أما بقية الأوزفقد ارتفع فوق البركة مثل العنقود . وأطلق رصاصتين أخريين على غيمة الطيور ، ولبث يترقب ليعرف ما إذا أصاب أوزة ، ثم دار على عقبيه ورجع إلى بروخار قانطاً .

وصرخ بروخور إليه :« انظر! انظر! » ووثب إلى سرجه وانتصب عليه وهو يؤشر بسوطه إلى الاوز المتلاشي في المدى الأزرق .

التفت غريغوري فسرت فيه رعشة الفرح وأطربته نشوة الصياد المنتصر . فقد تخلفت إوزة عن السرب وجعلت تهبط بسرعة ، وجناحاها يرفان بوهن بين حين وآخر .وراح غريغوري يراقبها وهو واقف على رؤوس أصابعه واضعاً يده فوق عينيه . وفجأة سقط الطائر كالحجر ، والتمع جناحاه في ضوء الشمس ببياض يخلب الابصار .

فدنا بروخور من غريغوري طافحاً بالبشر وألقى إليه عنان جواده وانطلق الاثنان على امتداد المنخفض . فألفيا الأوزة راقدة وقد مدّت عنقها ونشرت جناحيها وكأنها تحاول احتضان الأرض القاسية . فمال غريغوري في سرجه والتقط غنيمته .

سأله بروخور :

ـ أين أصبتها ؟

وتبين أن الرصاصة قد نفذت خلال منقار الطائر وهشمت العظم المحيط بمحجر العين . وقد لفظ أنفاسه وهو طائر ، فانتزعه الموت من السرب وأهوى به إلى الأرض . فشدّه بروخور إلى قربوس سرجه ، ومضيا في طريقهما .

عبرا الدون في قارب ، تاركين جوادهما في قرية بازكي .

وفي فيشنسكايا توقف غريغوري في بيت قوزاقي من معارفه القدماء ، ورجاه أن يطبخ الأوزة في الحال ، ثم أرسل بروخور في طلب الفودكا . ولم يحاول أن يذهب إلى الأركان . ولبثوا يشربون حتى العصر وأثناء الحديث شرع القوزاقي العجوز يبث شكواه ، اذ قال :

ـ الرئاسة هنا تتطاول ، ياغريغوري بانتلايفتش .

فسأله غريغوري قائلاً :

ـ أي رئاسة ؟

ـ جماعتنا ، كودينوف والآخرون .

ـ ماذا يفعلون ؟

ـ إنهم لا يرحمون الناس الذين هم من غير القوزاق . فهم يعتقلون أهل كل من التحق بالحمر... يعتقلون النساء والأطفال والشيوخ . لقد حبسوا حماتي بسبب ابنها . ولكن أي معنى في هذا ؟ لنفرض جدلاً أنك التحقت بالكاديت وذهبت معهم إلى الدونيتس ، فاعتقل الحمر أباك ، بانتلاي ، أفيكون هذا من الانصاف في شيء ؟ ها ؟

ـ طبعاً لا .

ـ ولكن حكومتنا تقوم الآن باعتقالهم . حين جاء الحمر إلى هنا لم يسيؤوا إلى أحد ، ولكن جماعتنا قد مسهم الجنون ، وليس بالإمكان ردعهم .

فقام غريغوري ، وهو يترنّح قليلاً ، ثم تناول معطفه المعلق على عمود السرير . وكان به ثمل طفيف ، وصاح :

ـ بروخور! هات سيفي ومسدسي!
ـ الى أين ذاهب ، يا غريغوري بانتلايفتش ؟
ـ ليس هذا من شأنك . افعل ما تؤمر به .

وعلّق غريغوري سيفه ومسدسه ، وزرر معطفه ، وتحزّم بالنطاق ، وذهب إلى السجن القائم على الساحة مباشرة . فاعترض الحارس المسؤول طريقه عند البوابة وطلب منه بطاقة المرور .

ـ تنح جانباً ، أنا آمرك!
ـ لا يمكنني أن أدع أحداً يدخل بدون بطاقة مرور .

وقبل أن يفلح غريغوري في استلال سيفه من غمده ، هرب الحارس خلال الباب . فتبعه غريغوري إلى الممر ويده ماتزال على مقبض سيفه . وصاح :

ـ أريد مدير السجن .

كان وجهه ممتقعاً ، وحاجباه معقودين فوق أنفه المعقوف . فجاء اليه قوزاقي قميء أعرج وهو سجّان وأطل صبي كاتب برأسه من المكتب . وبعد لحظة ظهر المدير نعسان مغتاظاً .

وهدر قائلاً : « أنت تعرف أنك لا تستطيع بدون بطاقة... » ولكنه حين عرف غريغوري وحدّق في وجهه تأتأ قائلاً :

ـ هو أنت ، يا صاحب الـ...أيها الرفيق ميليخوف ؟ ماذا تريد ؟
ـ مفاتيح الزنزانات .
ـ الزنزانات ؟
ـ حسناً ، أينبغي لي أن أقولها عشر مرات ؟ أعطني المفاتيح ، ياوغد .

وخطا غريغوري نحو الرجل ، فتقهقر هذا . إلا أنه استطاع أن يجيب بثبات :

ـ لن أعطيك المفاتيح . ليس من حقك...
ـ حق! ـ وصرّ غريغوري بأسنانه واستل سيفه . فرسم السيف الصافر

بيده دائرة تحت سقف الممر الواطئ . ولاذ الكاتب والسجان بالفرار كعصفورين فزعين ، والتصق المدير بالحائط ، وقد غدا وجهه أشد بياضاً من الجبس ، وهس من بين أسنانه :

ـ خذها ... ولكني سأرفع عليك الشكوى .

ـ سأعطيك سبباً جيداً للشكوى! أنتم اعتدتم على حياة المؤخرة بعيداً عن الجبهة أكثر من اللازم . يا لكم من رجال شجعان ، تعتقلون النساء والشيوخ! سأهزكم كلكم هزاً : رح إلى الجبهة أيها الخنزير ، والا فإني سأذبحك في مكانك .

ثم أعاد غريغوري سيفه إلى غمده ولطم المدير المرتعب بجمع يده وراح يسوقه بركبته وقبضته إلى الباب الخارجي وهو يهدر :

ـ إلى الجبهة! هيا! هيا! اللعنة عليكم ... . يا قمل المؤخرة!

ثم دفع الرجل خارجاً وحين سمع ضوضاء في باحة السجن الداخلية هرع إلى هناك . كان ثلاثة سجانين واقفين عند مدخل المطبخ ، وأحدهم يمسك بندقية يابانية صدئة وهو يصيح بعجالة :

ـ السجن يتعرض لغارة . علينا أن نطرده ، ماذا تقول التعليمات القديمة ؟ ماذا تقول التعليمات القديمة ؟

فأخرج غريغوري مسدسه ، فهرع السجانون إلى داخل المطبخ عجالى يسابق بعضهم بعضاً .

هدر غريغوري :« أخرجوا كلكم واذهبوا إلى بيوتكم! » وفتح أبواب الزنزانات المزدحمة وهو يهز قبضة من المفاتيح . وأطلق سراح كل المساجين ، وكانوا زهاء مائة شخص ، وأخرج بالقوة أولئك الذين كانوا يخافون الخروج ، وساقهم إلى الشارع ثم أوصد أبواب الزنزانات الخاوية .

وبدأ حشد من الناس يتجمع خارج بوابة السجن . وتدفق السجناء الذين أطلق سراحهم إلى الساحة وخفّوا إلى بيوتهم .

وجاء قوزاق الحرس من داخل مقر هيئة الاركان يتراكضون عبر الساحة إلى السجن يصحبهم كودينوف وهو يتعثر .

وكان غريغوري آخر من غادر السجن الخاوي . وفيما كان يمر خلال الحشد أطلق سيلاً من السباب على جمهور من نسوة فضوليات علت ثرثرتهن . وسار ببطء ، محدودب الكتفين ، ليلقى كودينوف . واذ عرفه الحرس القوزاق الذين كانوا يهرولون عبر الساحة ، أدوا له التحية ، فصاح بهم :

ـ عودوا إلى مقركم ، يا أولاد! علام تتراكضون ؟ عادة سر!

ـ سمعنا أن هناك تمرداً في السجن ، أيها الرفيق ميليخوف .

ـ جاء إلينا صبي كاتب راكضاً وقال أن الرجل الأسمر يحطم الأقفال .

فرد عليهم : ـ كان ذلك إنذاراً كاذباً .

فعاد القوزاق أدراجهم يتضاحكون ويثرثرون . فأسرع كودينوف يتقدّم إلى غريغوري ، وهو يمسد شعره الطويل المتدلى من تحت قبعته . وصاح :

ـ مرحباً ، ميليخوف! ماالأمر!

ـ سلامتك ، يا كودينوف! اقتحمت سجنكم لتوي .

ـ على أي أساس ؟ ما لعبتك ؟

ـ أخرجتهم جميعاً . علام تحدّق ؟ على أي أساس كنتم تعتقلون النساء والشيوخ ؟ ما هذه اللعبة التي تلعبونها ؟ احذر يا كودينوف!

ـ لا تتصرف على هواك .هذا تسلط .

ـ سأرسلك إلى قبرك! سأعود بكتيبتي من كاركينسكايا في الحال ، وحينذاك سأريك ما هو التهور!

وفجأة أمسك غريغوري كودينوف من حزامه الجلدي القفقاسي ، وأخذ يهزه وهو يهمس بغيظ بارد :

ـ سأفتح الجبهة في الحال ، إن كان ذلك يروق لك . سوف أخرج روحك من جسدك ها هنا إن أردت ذلك .

وصرّ على أسنانه ثم حل قبضته عن كودينوف الذي كان يبتسم بهدوء . وسأله : « علام تكشّر ؟ » .

فسوى كودينوف حزامه ، وأمسك بغريغوري من ذراعه قائلاً :

ـ تعال معي إلى غرفتي . لماذا فار دمك ؟ ينبغي أن ترى كيف تبدو... كالشيطان بعينه! كنّا نتطلّع إلى مجيئك . أما عن السجن ، فليس هذا أمراً ذا بال . أطلقت سراحهم ، ولابأس ، لا ضير في ذلك . سأقول للأولاد ألا يتشددوا في اعتقال النساء اللواتي يحارب أزواجهن في صفوف الحمر . ولكن ماالذي يجعلك تقوض سلطاننا هنا ؟ آه ، يا غريغوري ، انك لفتى عنيد . كان بوسعك أن تأتي الينا وتقول : ينبغي اطلاق سراح السجناء ، أو ما إلى ذلك . لكان بإمكاننا آنذاك أن نراجع القوائم ونطلق سراح البعض منهم . ولكنك أطلقت سراحهم جميعاً . لقد أحسنّا صنعاً بعزل المجرمين الخطرين عن البقية .

فلو أنك أطلقت سراحهم... يالك من رجل حاد الطبع!

وصفق على كتف غريغوري وضحك ، ثم أردف :

ـ حتى أنت يمكن في حال كهذه أن تقتل أي رجل يحاول أن يعترض عليك . وأسوأ من هذا أنك شرعت في إثارة القوزاق...

فانتزع غريغوري ذراعه من قبضة كودينوف وتوقف خارج مقر هيئة الأركان :

ـ أصبحتم كلكم شجعاناً هنا ، وراء أظهرنا ، ملأتم السجون بالناس! بوسعكم أن تظهروا قابليتكم هناك في الجبهة .

ـ أظهرتها في أيامي ولست أسوأ منك . أنا الآن على الاستعداد لأن أفعل ذلك . تعال خذ مكاني ، وسأتولى أنا فرقتك .

ـ كلا ، شكراً .

ـ تلك هي المسألة تماماً .

ـ ولكننا نضيع وقتاً طويلاً هنا في الحديث دونما طائل . أنا ذاهب إلى

أهلي لأستريح بضعة أيام . لست في حالة جيدة . جرحت في كتفي .

ـ ماذا تشكو ؟

فابتسم غريغوري ساخراً :

ـ الحنين ليتآكلني . قلبي مسحوق .

ـ لا! ولكن دعك من المزاح ، ماذا به ؟ لدينا طبيب بين الأسرى هنا ، وقد يكون استاذاً ، كان يرافق البحارة في شوميلينسكايا . انه رجل مهيب الطلعة يضع عوينات سوداء . دعه يعاينك .

ـ ليذهب إلى الشيطان .

ـ حسناً إذاً ، اذهب إلى أهلك واسترح . لمن أوكلت قيادة الفرقة ؟

ـ لريابتشيكوف .

ـ ولكن انتظر لحظة . ما الداعي للعجلة ؟ أخبرني بما يجري في الجبهة . بلغني أحد البارحة أنك قتلت عدداً لا يحصى من البحارة في كليموفكا . أصحيح هذا ؟

ـ مع السلامة ـ وسار غريغوري مبتعداً ، ولكنه حين قطع بضع خطوات ، استدار نصف استدارة وصاح : «إن سمعت أنكم بدأتم في الاعتقالات ثانية...» .

ـ لا ، لا تقلق... تمتع براحة جيدة .

كان النهار ينسحب الى الغرب في اثر الشمس . وتسللت ريح قارصة من الدون . وطار من فوق غريغوري سرب من البط البري وقد علا حفيف أجنحتها ، وفيما كان غريغوري يدخل فناء الدار بلغ أذنيه قصف المدافع من أعالي النهر .

فأسرج بروخور الجوادين بسرعة ، وسأل فيما كان يقودهما خارجاً :

ـ إلى أين ؟ تتارسكي ؟

فأخذ غريغوري الأعنّة ، وأومأ برأسه ايجاباً .

٤٦

كانت تتارسكي تحيا في غياب القوزاق حياة خاوية ملؤها السأم . كان رجالها قد جندوا في سرية مشاة وأرسلوا عبر الدون للالتحاق مؤقتاً بإحدى كتائب الفرقة الخامسة .

كانت قطعات الحمر قد عُززت فشنّت من الشمال الشرقي هجوماً عنيفاً فاستولت على عدد من القرى وأخذت تتقدم صوب يلانسكايا . ولكن النصر حالف المتمردين في الاشتباك العنيف الذي أعقب ذلك . وكان ذلك لأن كتيبتي يلانسكايا وبوكانوفسكايا المتقهقرتين أمام كتيبة موسكو التابعة للجيش الأحمر وسريتين من الخيالة قد وصلتهما امدادات قوية . وقد أرسلت كتيبة المتمردين الرابعة التابعة للفرقة الأولى (التي ضمت سرية تتارسكي) وبطارية من ثلاثة مدافع ، وسريتين من الخيالة الاحتياط ، صعدا على امتداد الضفة اليسرى من الدون فيما حشدت امدادات قوية في القرى التي تواجه يلانسكايا تقريباً . ونصبت بطاريه على التل المطل على كريفسكايا . وكان أحد المدفعيين ، وهو قوزاقي من تلك القرية ، مشهوراً بدقة رمايته ، فسحق أحد مكامن الرشاشات الحمر بقذيفته الأولى ، وبقذيفتين أو ثلاث من قذائف المنشار ، وألحق الهزيمة بجنود الجيش الأحمر المتسترين في أجمة من الصفصاف . فانتهت المعركة لصالح المتمردين وراحوا يتعقبون وحدات الحمرعبر نهر يلانكا ، وأرسلوا وراءهم احدى عشرة سرّية من الخيالة فلحقت سرية من خيالة الحمر وأعملت فيها القتل والذبح على التل القريب من قرية زاتولوفسكي .

ومنذ تلك المعركة ظل مشاة تتارسكي يجرون الخطى على التلال الرملية الواقعة في الجانب الأيسر من الدون . ونادراً ما تيسّر لأي منهم أن يعود إلى قريته بإجازة . وحدث مرة واحدة فحسب في عيد الفصح أن عاد نصف سرية تتارسكي المشاة إلى القرية وكأن بينهم اتفاقاً سرياً ، فأمضوا

هناك يوماً ، وغيروا ملابسهم ، وتزودوا بشحم الخنزير ، والخبز المقسب ، وسواهما من المأكولات ، ثم عبروا الدون مثل جمع من الحجاج يحملون البنادق بدل العصي ، ومضوا يجرجرون الخطى شطر منطقة يلانسكايا .

وقد وقفت زوجاتهم وأمهاتهم وأخواتهم على التل المطل على تتارسكي يرقبنهم وهم يمضون في مسيرتهم . وكانت النسوة يعولن حزناً ، فيمسحن عيونهن بأطراف عصاباتهن ومناديلهن ، ويتمخطن في أذيال تنوراتهن الداخلية ، وعلى امتداد الضفة الأخرى من الدون ، وفوق الكثبان الرملية مضى القوزاق يغذون السير : كريستونيا وأنيكوشكا وبانتلاي بروكوفيتش وستيبان أستاخوف وآخرون . وكانت الاكياس التي تضم زادهم مدلاة من حرباتهم المثبتة على البنادق ، والريح تحمل أناشيدهم ، حزينة كعطر الشمّام البري ، وكانوا يتحدثون فيما بينهم بفتور . ساروا حزانى ، بيد أن الشبع والنظافة كانا باديين عليهم ، فقد سخنت زوجاتهم وأمهاتهم الماء عشية العيد وغسلن أجسامهم الكالحة من القذارة ، ومشّطن القمل المترع بالدم من شعورهم . فلم لا يبقون بين أهليهم ينعمون بمسرات الحياة ؟ ولكن لا ، كان عليهم أن يرحلوا لملاقاة الموت . وقد رحلوا . كان بينهم صبيان في السادسة عشرة والسابعة عشرة من العمر قد جندوا حديثاً في صفوف المتمردين . فخلع هؤلاء صنادلهم وجزماتهم وساروا حفاة على الرمل الدافيء . كانوا في غمرة فرح لايدرون له سبباً ، وبوسعهم أن يتحدثوا بمرح ويشرعوا في الغناء بأصواتهم الفتية الراعشة . كانوا يجدون في الحرب طرافة كالتي يجدونها في لعبة جديدة . وكانوا أثناء الأيام الأولى من القتال يرفعون رؤوسهم من على الأرض القاسية لينصتوا إلى الرصاص يئز من فوقهم . وكان قوزاق الجبهة يزدرونهم ويلقبونهم بـ « الحلفاء الخضراء » فيما يعلمونهم حفر الخنادق والرمي وحمل تجهيزاتهم أثناء السير ، وكانوا يعلمونهم حتى فن تفلية قملهم ولف قماش أقدامهم . بحيث لا يكادون يحسون بجزماتهم الثقيلة على أقدامهم ولكن الصبي يجيل حول الحرب التي تحيط به عينا

مستغربة كعين الطائر رافعاً رأسه ليتطلع من الخندق وقد ألهبه الفضول جاهداً ماوسعه أن يرى « الحمر » حتى تصيبه رصاصة جندي أحمر ، وهو في غمرة هذا الفضول . فاذا ماكانت المنية نصيب هذا « الجندي » ذي السادسة عشرة تمدد ليرقد كطفل كبير بذراعيه الصبيانتين البضتين ، وأذنيه الكبيرتين وتباشيرجوزة الحلق في عنقه النحيف ، ومن ثم يحملونه إلى قريته ليوارى في القبر حيث يتعفّن أسلافه . فتلقاه أمه وهي تعصر يديها وتنوح على جثمانه وتجز الشعر الأشيب من رأسها . وحين توارى الجثة ويبدأ الطين في الجفاف على رابية القبر ، تحمل الأم الهرمة المحدودبة أحزانها التي لا ينطفئ أوارها إلى الكنيسة ، وهناك تحيي ذكرى ولدها الذي « مات وارتحل » .

أما اذا لم تصبه الرصاصة بجرح مميت ، فإن الصبي يبدأ حينذاك في إدراك طبيعة الحرب التي لاترحم فتختلج شفتاه وتلتويان ، فيصرخ « الجندي » بصوت طفولي : « آه ، أماه ، أماه! » وتسيل عبرات صغيرة من عينيه . ثم تخضه عربة الاسعاف خضاً على الحقول التي لم يمهد فيها طريق فيؤلمه جرحه ، ويغسل مضمد السرية الجرح ويواسيه ضاحكاً وكأنه يواسي طفلاً : « كفاك ، يافانيا ، لاتقل إنك ستموت! » ولكن « فانيا الجندي » يمضي في بكائه ، ويستأذن في الذهاب إلى أهله أو استدعاء أمه . واذا ماتماثل للشفاء وعاد إلى سريته ، فإنه حينذاك سيفهم الحرب كل الفهم . ولن يمضي اسبوع أو اسبوعان في المعارك ، في القتال بالحراب ، حتى تراه واقفاً أمام جندي أسير من الجيش الأحمر ، وقد باعد بين قدميه ، يبصق شأن أي رئيس عرفاء فظ ، وتسمعه يفح خلال أسنانه ليقول : « حسناً ، أيها الفلاح ، إذاً فقد وقعت في الفخ ، أيها النغل! كنت تريد الأرض إذاً ؟ وتريد المساومة ؟ أحسبك شعوعياً* ، هيا تكلم ، أيهاالثعبان! » ولهفة منه لإظهار جرأته ، و« بسالته القوزاقية » يرفع بندقيته ويقتل الرجل الذي عاش

* يقصد شيوعياً . المترجمون

ومات على أرض الدون ، محارباً من أجل الحكم السوفييتي ، في سبيل الشيوعية ، في سبيل إلغاء الحرب من على وجه البسيطة .

وفي موضع ما في إقليم موسكو أو في اقليم فياتكا ، في قرية نائية من قرى روسيا السوفييتية الكبرى ، تتلقى أم إشعاراً بأن ولدها قد « استشهد في حومة النضال ضد الحرس الأبيض ، في سبيل تحرير الكادحين من نير الملاكين والرأسماليين » . وتعول ، والدموع تنساب على وجنتيها . ويتآكل الحزن المستعر قلب الأم ، وفي كل يوم حتى مماتها ستذكر ذاك الذي حملته في رحمها ، وولدته في غمرة الدم وعذاب المرأة ، ذاك الذي سقط على يد عدو في مكان ما من أصقاع الدون الغربية...

سار نصف سرية مشة تتارسكي فوق الكثبان الرملية وخلال أشجار الصفصاف الوردي ، كان الفتيان يسيرون فرحين لاتثقل كواهلهم الهموم ، أما الكبار فكانوا يرسلون الحسرات ويبكون دموعاً لاتراها العين . فقد آن أوان الحراثة ، والبذار ، فالأرض ما انفكت تناديهم ، تناديهم ليل نهار ، بينما يتأتى عليهم المضي إلى القتال ، ومعاناة الضنى في قرية غريبة من جراء البطالة المفروضة عليهم ، والخوف ، والفاقة ، والحنين . ذاك هو ما استدر العبرات من عيون الرجال الملتحين ، وما نشر الكآبة فوق رؤوسهم وهم سائرون ، ويتذكر الجندي حقله المهجور وحيواناته وأدواته . فكل شيء يحتاج إلى يد الرجل ، وكل شيء ينوح في غيبة السيد المشرف . فما عسى المرأة فاعلة ؟ ستجف الأرض فلا ينبت الزرع ، وستلوح نذر المجاعة في العام المقبل . فليس عبثاً أن يقال : حتى الشيخ أفضل من المرأة في الحقل .

وهكذا سار الكبار على الرمل صامتين . ولم تدب فيهم الحياة إلا حين أرسل أحد الفتيان رصاصة في أعقاب أرنب بري .فقرر الكهول معاقبة المخالف لتبذيره تلك الرصاصة المفيدة (اذ كانت قيادة المتمردين قد منعت ذلك منعاً باتاً) فانصب غضبهم على رأسه . واقترح بانتلاي بروكوفيتش :

ـ يستحق أربعين جلدة .

ـ هذا فوق طاقته .

ـ فلن يستطيع بلوغ الجبهة بعد ذلك .

وهدر كريستونيا قائلاً :

ـ ست عشرة .

وقر قرارهم على الست عشرة ، فمددوا المذنب على الرمل وأنزلوا سرواله . وراح كريستونيا يترنم بلحن ما وهو يقتطع أغصاناً من صفصاف الهر تغطيها عراجين صفر منفوشة . وتولى أنيكوشكا الجلد فيما جلس الآخرون يدخنون من حوله . ثم استأنفوا مسيرتهم ، والمسكين من ورائهم يجرجر خطاه ويمسح دموعه ويشد حزامه .

وما إن بلغوا نهاية الأرض الرملية البور وخرجوا إلى الأرض الصالحة للزراعة حتى بدأ الحديث الهادئ ، تنهد أحد الشيوخ وهو يشير إلى رقعة من الأرض قد جفت تماماً :

ـ تلك هي الأرض الحبيبة في انتظار سيدها ، وهو في شغل شاغل عنها ، يجري في الفيافي والوديان لأمر لا يعلم كنهه إلا الشيطان .

واذ مروا بحقول انحنى كل قوزاقي ، والتقط كتلة من التربة الجافة التي لفحتها الشمس وفتتها بين راحتيه ، وهويكظم حسرة :

ـ الأرض تنتظر .

ـ إنها تنتظر المحراث بكل لهفة .

ـ ثلاثة أيام أخر ويفوت أوان البذار هنا .

ـ الربيع مبكّر في صوبنا .

ـ مبكر! ألا ترى الثلج مايزال جاثماً في الأخاديد!

وتوقفوا لينالوا استراحة الظهيرة . وقدّم بانتلاي بروكوفتش إلى الصبي المعاقب شيئاً من اللبن الرائب . وكان قد حمله في كيس من الكتان شدّ إلى نهاية ماسورة بندقيتة ، والماء يقطّر من الكيس طوال الطريق وقد

عاب أنيكوشكا عليه قائلاً :« إنك تترك وراءك مسرباً مثل ثور هرم ، يا بروكوفتش » . واذ كان بانتلاي بروكوفتش يقدم اللبن إلى الصبي ، قال له :

ـ لا تحنق على من هم أكبر منك سناً ، أيها الأحمق الصغير . لقد جلدوك ، وهذا أمر تافه ، إن فتى مجلوداً خير من اثنين لم يجلدا .

ـ لو أنك ذقت طعمها أيها العم بانتلاي بروكوفتش ، لما تحدثت إليّ هذا الحديث .

ـ ذقت ما هو أمرّ من هذا ، ياولدي . لقد ضربني والدي ذات مرّة بعريش عربة على ظهري .

ـ بعريش عربة ؟!

ـ نعم . لماذا تنظر إليّ ؟ عليك أن تأكل من لبني . أين مقبض ملعقتك ؟ كسرته ، أليس كذلك ؟ يالك من جرو! إنهم لم يجلدوك هذا الصباح بما فيه الكفاية .

وبعد أن تناولوا وجبة الغداء استراحوا في هواء الربيع العاصف . وأغفوا بعض الوقت وظهورهم إلى الشمس ، ثم راحوا يسيرون في السهب ذي اللون البني والرمادي ويطأون جذامات الزرع التي لم يقلبها المحراث . كانوا يرتدون قمصلات ، ومعاطف ، ومعاطف رعاة ، وفروات ، وكان لدى بعضهم جزمات ، أو صنادل وقد دسّوا سراويلهم الفضفاضة في جوارب بيض ، بينما كان البعض حفاة تماماً . وكانت أكياس زادهم مدلاة من حرابهم المثبتة على بنادقهم .

لم تكن سيماء الجند بادية على رجال هذه السرية من الهاربين ، حتى أن القبرات التي كانت تغرد في قبة السماء الزرقاء تحط على الحشيش بالقرب من أقدامهم .

* * *

ألفى غريغوري القرية خلواً من القوزاق . وفي صباح اليوم التالي لوصوله وضع ابنه ميشاتكا الذي بدأ يشتد عوده على حصانه وطلب إليه أن يورده من الدون ثم ذهب هو وناتاليا لزيارة حماته وغريشاكا العجوز .

فاستقبلته لوكينشنا بالدموع :

ـ غريشا ، يابني! نحن لا محالة هالكون بدون ميروننا ، رحمة الله على روحه . المخازن طافحة بالحب ، ولكن ليس هناك من يبذره . لقد تيتمنا ، ولم يعد أحد يلتفت إلينا ، إننا غرباء بين أهلينا ، منبوذون... انظر كيف يحل الدمار والخراب في بيتنا ، فليس لدينا من يقوم بالعمل .

كان البيت ، والحق يقال ، قد آل إلى خراب سريع . فقد كسرت الماشية الأسيجة المحيطة بالأفنية ، وتأكلت مياه الربيع الجدار الطيني للزريبة فبدأ ينهار ، وأمست ساحة درس الحبوب بلا سياج . وبدا الحوش قذراً ينتشر الروث في أرجائه ، وكان ثمّة مكائن زراعية معطوبة يعلوها الصدأ ملقاة عند السقيفة . كانت إمارات الإهمال والسوس بادية في كل مكان .

وإذ راح غريغوري يجوب الفناء فكّر في نفسه قائلاً دون اكتراث : « كل شيء سائر إلى خراب في غياب السيد » . وعاد إلى المنزل فوجد ناتاليا تهمس لأمها . ولكن ما إن ظهر حتى خلدت إلى الصمت وافترت عن ابتسامة ملق ، وقالت :

ـ كانت ماما تسألني ، ياغريشا... أنت خارج إلى الحقول غداً . لعلك تبذر لها شيئاً من الأرض .

فسأل غريغوري قائلاً :

ـ ولكن ما حاجتك إلى بذار أي شيء ، يا أماه ؟ إن مخازنك طافحة بالقمح .

فصفقت لوكينشنا يديهاوسألته قائلة :

ـ ولكن ، ياغريشا ، ماذا عن الأرض ؟ لقد حرث ميروننا الراحل رقعة كبيرة من الأرض .

ـ حسناً ، ما بالها ؟ ستحول* اذا بقينا على قيد الحياة في الربيع المقبل فسنزرعها .

ـ ولكن كيف يمكن أن ندع الأرض تبور ؟

وحاول غريغوري أن يقنعها فقال :

ـ بوسعكم أن تبذروا عند انحسار سوح القتال .

على أن لوكينشنا لم تتزحزح عن مطلبها قيد أنملة . فغضبت عليه ، وفي آخر الآمر زمّت شفتيها المرتجفتين ، وقالت :

ـ اذا لم يتيسر لك الوقت ... يظهر أنك لا تود مساعدتنا .

ـ أوه ، حسناً! انني ذاهب غداً للبذار لنا ، وسوف أبذر شيئاً لكم . يكفي هذا . هل غريشاكا مايزال حياً ؟

فتألقت أسارير لوكينشنا في الحال وقالت :

ـ شكراً ، شكراً ، سأخبر أغريبيا أن تجلب البذور إليكم هذا اليوم . الجد ؟ الرب لا يأخذه إلى جواره . مازال حياً ولكنه خرف بعض الشيء . إنه يجلس في البيت طول الوقت ويقرأ الكتاب المقدس طول الليل . إنه بعض الأحيان يظل يتكلم ويتكلم دون أي معنى... . يتحدث بلغة الكنائس . بوسعك أن تذهب لتراه ، إنه في الغرفة الأمامية .

وقالت ناتاليا وهي تبتسم خلال دموعها :

ـ مررت لتوي به فقال لي : أيتها السفيهة لماذا لاتأتين لزيارتي أبداً ؟ سأموت قريباً ، ياعزيزتي . سأدعو الله لك يا حفيدتي الصغيرة . إنني أحن إلى التراب ، ياعزيزتي ، التراب يناديني ، فقد آن الأوان!

ذهب غريغوري لرؤية الشيخ فملأت منخريه رائحة البخور والسناخة والعفن ، رائحة رجل هرم رث الهيئة . كان غريشاكا مايزال يرتدي قمصلته العتيقة الرمادية بشرائط ياقتها الحمر ، وكان بنطاله في هيئة حسنة وجورباه

---

* تترك دون زرع إلى الموسم التالي . المترجمون

مرتوقين جداً . فمنذ زواج ناتاليا آلت العناية بالشيخ إلى حفيدته الثانية أغريبيا ، فراحت تعنى به عناية فيها من الحب والاهتمام ماكانت ناتاليا توليه إليه . كان ممسكاً بإنجيل على ركبتيه . فرفع إلى غريغوري نظره من تحت عويناته ، وفغر فاه ، وكشر عن أسنانه مبتسماً :

ـ ما زلت سالماً ، أيها الجندي ؟ إذاً فقد حماك الرب من الرصاص... . الحمد لله! اجلس .

ـ إذاً فأنت ماتزال بصحة جيدة ، يا جدي ؟

ـ هاه ؟

ـ قلت أما تزال بصحة جيدة ؟

ـ أنت فتى غريب ، غريب . كيف يمكن أن أكون بصحة جيدة في عمري هذا ؟ أكاد أبلغ المائة الآن . أجل ، قرابة المائة . كأنني في الأمس فقط كنت أجول بخصلتي وأنا شاب معافى ، وكأنني فقد أفقت اليوم لأجد نفسي عفناً في عفن . مرت الحياة مثل وميض البرق . ها قد مضت هذه السنون العديدة وتابوتي ملقى في السقيفة ، ولكن يبدو أن الرب نسيني . إني أتضرع إليه أحياناً فأقول : رباه أدر عينك الرؤوم إليّ ، أنا عبدك غريشاكا ، فأنا عبء على الأرض وهي عبء عليّ .

ـ أمامك عمر طويل ، أيها الشيخ . إن فمك مملوء بالأسنان .

ـ ماذا تقول ؟

ـ عندك أسنان كثيرة .

وغضب غريشاكا قائلاً :

ـ أسنان!إنك أحمق يافتى! لن تستطيع أن تبقي على روحك بأسنانك حينما تهم الروح بمغادرة الجسد . إذاً فمازلت تقاتل يا أبله ؟

ـ أجل ، مازلنا نقاتل .

ـ ويقاتل حفيدي ميتيا أيضاً . سيتعذب بما فيه الكفاية .

ـ سيتعذب حتماً .

ـ هذا ما قلته . ولكن من أجل ماذا تقاتلون ؟ أنتم أنفسكم لاتعرفون . كل شيء يجري وفق الإرادة الإلهية . ما سبب مقتل ميرون ؟ لأنه عصى الله ، فأثار الناس على الحكومة ، وما الحكومات إلا من عند الله جميعاً . حتى وإن كانت حكومة أعداء المسيح ، فهي من الله أيضاً ، قلت لميرون : «ميرون ، لاتقد الناس إلى الغواية . لاتثرهم على الحكومة» . ولكنه قال : «كلا ياأبتي ، لاأستطيع احتمالها . علينا أن نثور ، علينا أن نحطم هذه الحكومة ، إنها تسبب لنا الخراب . كنا يوماً نعيش عيشة الرجال ، ولكن ها نحن الآن أمسينا محضر شرذمة من الشحاذين» . وهكذا أذعن ميرون للغواية . من يشهر السيف يموت بالسيف . تلك حقيقة . يقول الناس إنك نصبت جنرالاً وإنك تتولى قيادة الفرقة ، ياغريشا . أصحيح هذا ؟

ـ أجل .

ـ ولكن أين هي شارات الكتف ؟

ـ لانستعملها الآن .

ـ لاتستعملونها الآن! أي جنرال أنت ، إذاً ؟ في الأيام الخوالي كان مرأى الجنرلات يسر الناظرين : كانوا ذوي صحة جيدة ، ضخام البطن ، مهيبي الطلعة . ولكن ها أنتذا... أنظر إلى نفسك! معطفك كله ملطخ بالوحل ، وليس عليك شارات كتف ، ولاقياطين بيض عبر صدرك ، إنك تعج بالقمل ، لعمري لقد أكلك القمل .

فانفجر غريغوري يهدر ضاحكاً . ولكن غريشاكا مضى في كلامه بحماس :

ـ لا تضحك ، يا وغد! أنت تقود الرجال إلى حتفهم ، أثرتهم على الحكومة . ارتكبتم إثماً كبيراً ، سوف يهلكونكم ويهلكوننا معكم . سيريكم الله مشيئته . ألم ينبئنا الانجيل بمتاعب عصرنا هذا؟ أصغ إلي وسأقرأ لك شهادة النبي أرميا .

وجعل الشيخ يقلب صحف إنجيله الصفر بأصابعه الشاحبة ، وشرع يقرأ ، وهو ينطق بكل مقطع على مهل* :

« أخبروا في الشعوب واسمعوا وارفعوا راية . اسمعوا لاتخفوا . قولوا أخذت بابل ، خزي بيل ، انسحق مردوخ . خزيت أوثانها انسحقت أصنامها . لأنها قد طلعت عليها أمة من الشمال هي تجعل أرضها خربة فلا يكون فيها ساكن . من إنسان إلى حيوان هربوا وذهبوا » ، أتفهم ذلك ، ياغريشا ؟ سيأتون من الشمال ويزهقون أرواحكم ، أيها البابليون . وأصغ إلى هذا :

« وفي تلك الأيام وفي ذلك الزمان يقول الرب يأتي بنو اسرائيل هم وبنو يهوذا معاً يسيرون سيراً ويبكون ويطلبون الرب إلههم » .

« كان شعبي خرافاً ضالة ، وقد أضلتهم رعاتهم . على الجبال أتاهوهم ساروا من جبل إلى أكمة . نسوا مريضهم » .

وسأله غريغوري دون أن يفهم إلا القليل من تلك اللغة القديمة :

ـ ولكن ماقصدك ؟ كيف لنا أن نفسر كل هذا ؟

ـ كذلك أنتم ، ياوغد ، ستهربون إلى التلال يامقلقي راحة الشعب . لستم رعاة للقوزاق ، بل أنتم أسوأ من شياه قطيعكم البلهاء . أنتم لاتعرفون ماتفعلون . أصغ إلى هذا :

« كل الذين وجدوهم أكلوهم » أرأيت! ألا يلتهمكم القمل الآن ؟

واعترف غريغوري قائلاً : « لامهرب من القمل » .

ـ وهكذا ينطبق القول عليكم تماماً . ـ ثم يمضي في قوله : ـ « وقال مبغضوهم لانذنب من أجل أنهم أخطأوا إلى الرب مسكن البر ورجاء آبائهم الرب . اهربوا من وسط بابل واخرجوا من أرض الكلدانيين وكونوا مثل كراريز أمام الغنم » .

---

* آثرنا نقل هذه الآيات بنصها من النسخة العربية للإنجيل (العهد القديم) : سفر أرميا-إصحاح ٥٠ المترجمون

« لأني ها أنذا أوقظ وأصعد على بابل جمهور شعوب عظيمة من أرض الشمال فيصطفون عليها . من هناك تؤخذ . نبالهم كبطل مهلك لايرجع فارغاً » .

« وتكون أرض الكلدانيين غنيمة . كل مغتنميها يشبعون يقول الرب : لأنكم قد فرحتم شمتم ياناهبي ميراثي ... » .

فقاطعه غريغوري قائلاً : ـ أيها الجد غريشاكا! هلا فسرت لي هذا كله بلغة بسيطة ، فلست أفهم من كل هذا شيئاً .

ولكن الشيخ راح يلوك شفتيه ، ومحدقاً فيه بنظرة شاردة ، وأجاب :

ـ سأنتهي خلال دقيقة . أصغ! « ... . وقفزتم كعجلة في الكلاء وصهلتم كخيل ، تخزى أمكم جداً . تخجل التي ولدتكم . ها ، آخرة الشعوب البريّة وأرض كاشفة وقفر . بسبب سخط الرب لاتسكن بل تصير خربة بالتمام . كل مار ببابل يتعجب ويصفر بسبب كل ضرباتها » .

فسأله غريغوري ثانية وقد أحس بشيء من الامتعاض :

ـ ولكن مامعنى كل ذلك ؟

فلم يجب الشيخ ، بل أغلق الإنجيل ورقد على الأريكة .

وفيما كان غريغوري يبارح الغرفة فكر في نفسه قائلاً : « كل الناس على هذه الشاكلة . ففي شبابهم ينعمون بحياة سعيدة . فيشربون مايتيسر لهم من الفودكا ، ويأثمون شأن غيرهم ، وفي شيخوختهم يشتد سعيهم لإنقاذ أنفسهم من غضب الله على قدر طيشهم أيام الشباب . هاهو غريشاكا ، لازالت لديه أسنان كأسنان الذئب ، يقولون أنه حين كان يعود إلى القرية من الخدمة العسكرية كانت نساء القرية يبكين جميعاً بسببه ، فقد كن طوع بنانه كلهن ، النحيفة فيهن والسمينة . وهاهو الآن ... . لو بلغت مثل عمره فلن أصير على شاكلته فلست أنا من عشاق الإنجيل » .

وفيما كان غريغوري وناتاليا عائدين إلى البيت من زيارتهما جعل يفكر بحديثه مع الشيخ ، « ونبوءات » الإنجيل الغامضة المبهمة .

ومضت ناتاليا أيضاً هي الأخرى تسير دونما كلام . لقد أبدت لزوجها بروداً غير مألوف منذ عودته هذه ، والظاهر أن حكايات عن سلوكه مع نساء منطقة كاركينسكايا قد طرقت أذنيها . ففي مساء اليوم الذي عاد فيه ، أعدت فراشه في غرفة الاستقبال ، أما هي فقد نامت فوق الصندوق وغطت نفسها بفروة . ولم تنبس بكلمة لوم أو تتوجه إليه بأي سؤال ، ولم يقل غريغوري هو الآخر شيئاً في تلك الليلة شاعراً أن من الأفضل ألا يسألها عن السبب في استقبالها له بفتور لم يعهده من قبل .

سارا في الشارع المهجور صامتين ، واشتد بهما شعور البعد عن بعضهما . كانت ريح دافئة رؤوم تهب من الجنوب ، وتجمعت في الغرب سحب بيض . وتناهى إليهما هدير رعد بعيد ، وتعطرت القرية بعطر الحياة المبارك تنشره البراعم المتفتحة والتربة الندية السوداء . وتسابقت أمواج بيض أعرافها على صفحة الدون الزرقاء حيث كانت الريح منعشة برطوبتها مرة برائحة الأوراق المتعفنة والأخشاب الندية ، وكان البخار يتصاعد من الطرف الأدنى للأرض المحروثة وهي رقعة سوداء كالمخمل تقع على امتداد سفح التل ، وشرع ضباب يرتفع وينساب فوق التلال الواقعة على جانب الدون . وراحت قبره تغرد فوق الطريق بنشوة عارمة ، وكانت الفئران البرية تصيء . ومن فوق هذه الأرض ، التي تطفح بعطاء سخي وطاقة موفورة تنبض بالحياة ، تعلقت شمس سامقة شموخ .

توقفت ناتاليا في وسط القرية على مقربة من جسر صغير يعلو أخدوداً تضج فيه مياه الفيضان ، وانحنت وكأنها تشد شريط حذائها ، ولكنها في الواقع كانت تريد أن تخفي وجهها عن غريغوري حين سألته :

ـ لِمَ لاتتكلم ؟

حسناً ، عم أتكلم ؟

ـ هناك مواضيع كثيرة للكلام... وربما أخبرتني كيف كنت تسكر في كاركينسكايا ، وكيف كنت تجري وراء العاهرات ... .

ـ يبدو أنك تعرفين ذلك... .

وأخرج غريغوري كيس تبغه وشرع يلف لنفسه سيكارة .

وقد اشتعل مزيج البرسيم والتبغ المنزلي بأريج ذكي ، فأخذ نفساً أو نفسين ، ثم عاد يسألها :

ـ إذاً فقد سمعت بالأمر ؟ من أخبرك ؟

ـ بما أني أستطيع التحدث في الأمر ، فلا شك أني على معرفة به ، فالقرية برمتها تعرف ذلك . لذا فهناك كثيرون يستطيع المرء أن يسمع منهم .

ـ حسناً ، إذا كنت تعرفين ، فما عساي أن أخبرك ؟

مضى يسير بخطى واسعة . وكان وقع قدميه وقدمي ناتاليا السريعتين يرن بوضوح في سكون الربيع الرائق . ولبثت تسير برهة دونما كلام ، وهي تمسح دموعها . ثم خنقت نشيجها وسألته :

ـ إذاً ، فقد عدت إلى ألاعيبك القديمة ؟

ـ دعك من هذا ، ياناتاليا .

ـ يالك من كلب شره! علام تعذبني من جديد ؟

ـ عليك ألا تصغي كثيراً لأكاذيب الناس .

ـ ولكنك اعترفت الآن بها!

ـ ليتك تقللين من سماع أحاديث الناس . أنا ملوم بعض الشيء ... ولكن اللوم يقع على الحياة نفسها ، ياناتاليا . فالمرء يحيا على حافة قبره طوال الوقت ، وهو يحيد عن الطريق بعض الأحيان... .

ـ ماذا عن أطفالك ؟ ألا تخجل من النظر في وجوههم ؟

ـ هوه! أخجل! وكشر غريغوري عن أسنانه مبتسماً وأضاف :

ـ نسيت معنى الخجل ، كيف يمكن للمرء أن يشعر بالخجل وحياته برمتها قد تسربت ؟ ها هو يقتل الناس ، ولايعرف جلية الأمر . ولكن كيف يمكن أن أصور لك الأمر . أنت لن تفهمي ذلك . أنت تضطرمين بمافيك من

قسوة المرأة ، فلا تفكرين قط بما ينخر قلبي ، ويستنزف دمي... ذلك ماجعلني ألجأ إلى الفودكا ، قبل أيام واعترتني نوبة عصبية... وتوقف وجيب قلبي لحظة بصورة تامة ، وسرى البرد في أوصالي ... . وادلهم وجهه وتعسرت عليه الكلمات . ـ إنه أمر شاق ، وبسبب ذلك يعبث المرء لكي ينساه : عن طريق الفودكا أو النساء! مهلاً! دعيني أنتهي ، إن شيئاً ما يتأكلني طوال الوقت ، لقد سلكت الحياة بي منعطفاً خاطئاً ، وربما أكون خاطئاً في ذلك أيضاً... . ينبغي أن نتصالح مع الحمر ونهاجم الكاديت ، ولكن كيف ؟ من الذي يقيم لنا صلة مع السوفييتات ؟ كيف لنا مداواة ما ارتكبناه بحق بعضنا البعض ؟ إن نصف القوزاق هم في الجانب الآخر من الدونتيس ، أما من بقي منهم فقد استبد بهم الجنون فهم يمزقون الأرض من تحت أقدامهم... إن كل شيء ملتبس في رأسي ، ياناتاليا . حتى جدك ، غريشاكا قرأ عليَّ الانجيل وقال إننا أخطأنا ، كان ينبغي ألا نثور ، وقد لعن أباك .

ـ جدي فقد عقله ، وسيأتي دورك من بعده .

ـ لايمكنك إلا أن تفكري على هذه الشاكلة ، ليس لديك ذكاء يريك ما هو أبعد من ذلك .

ـ آه ، لاحاجة بك إلى أن تقنعني ، لقد أسأت إلي ، واعترفت بذلك . وها أنت تحاول أن تتعذر بالحرب ، أنتم جميعاً على شاكلة واحدة . ألم أنل بسببك كفايتي من الأحزان ، أيها الشيطان ؟ من المؤسف أنني لم أنه حياتي في تلك المرة...

ـ ليس لدينا مانتحدث به . الأمر شاق عليك ، فابكي ، فالدموع تخفف من أحزان المرأة . أما أنا فلا أستطيع الآن أن أواسيك لقد عبثت بدم الرجال كثيراً حتى لم تبق في قلبي شفقة على أحد... . لاأكاد آبه لطفلي ، ولا أعير نفسي بالاً ، الحرب أيبست كل عاطفتي ، غدوت قاسياً... أنظري إلى روحي تجديها سوداء كبئر خاوية... .

كانا على وشك أن يبلغا البيت حين أخذ مطر راشق مدرار يهطل فأنام

الغبار على الطريق ، وأحدث جلبة على السقوف ، وأشاع برداً منعشاً . فحل غريغوري أزرار معطفه وغطى ناتاليا الباكية واضعاً ذراعه حولها . وعلى هذا النحو دخلا الفناء ، وقد التصقا ، يجللهما معطف واحد .

وفي المساء أعد المحراث والبذارة في الفناء . وأفلح سيمون على نحو ما في تثبيت سكة على محراث ميليخوف العتيق ، وهو ابن الحداد ، البالغ خمس عشرة سنة من العمر ، والذي كان قد تعلم حرفة والده ، وبات الحداد الوحيد في تتارسكي ، وغدا كل شيء جاهزاً للبذار . وقد اجتازت الثيران فصل الشتاء على خير مايرام ، إذ إن بانتلاي بروكوفتش وفر لها تبناً كثيراً .

وفي صباح اليوم التالي أعد غريغوري كل شيء للخروج إلى السهب . وكانت ايلينشنا ودونيا قد أوقدتا النار في المساء لإعداد الطعام للحارث . كان غريغوري ينوي قضاء خمسة أيام في العمل ، فيبذر لأهله ولحماته ، ويحرث حقلاً للبطيخ وعباد الشمس ، ومن ثم يستدعي أباه من سرية المشاة لاتمام العمل .

تصاعد الدخان الليلكي من المدخنة كالحلزون ، وراحت دونيا تركض في أرجاء الفناء لتجمع الحطب للنار . وجعل غريغوري يتأمل خصرها الأهيف ، وثدييها النافريين ، وقال في سريرة نفسه بحزن وأسى : « ما أسرع ما شبت . العمر يمر كفرسٍ عدّاء في الأمس فقط كانت دونيا صبية يسيل مخاطها ، وتتراقص ضفائرها على ظهرها عندما تركض ، وها هي أهل للزواج . وها أنا قد أخذ الشيب يوخط رأسي . غريشاكا الشيخ على حق حين قال العمر يمر كومض البرق . ما أقصر الزمن الذي يعيشه الإنسان ، ومع ذلك يتحتم علينا اختزاله... ياه ، لئن جاءت المنية ، فلتأت بسرعة » .

أقبلت داريا عليه . لقد برأت من خسارة بيوتر بسرعة مذهلة . وكانت قد حزنت لفترة وجيزة ، فاصفر وجهها من الغم وبدا عليها الكبر . ولكن ما أن أخذت نسائم الربيع تهب والشمس تبعث الدفء في الأرض ، حتى

تلاشى حزنها مع الثلوج الذائبة . فاصطبغ خداها البيضويان من جديد بحمرة طفيفة ، وشاع الوميض في عينيها ، وعاودتها مشيتها الطلقة المتبخترة . وعادت إليها عاداتها القديمة كذلك : فجعلت تزجج حاجبيها من جديد ، وتلمّع خديها بالدهان ، وعاودها كلفها بالدعابة ، ومغايظة ناتاليا بلسانها الفاجر ، وكانت بسمة أمل غامضة تلوح على شفتيها مراراً وتكراراً . لقد انتصر فيها عنفوان الحياة .

دنت من غريغوري وهي باسمة . وفاح من وجهها الوسيم عطر دهن الخيار .

فسألته قائلة : ـ أيمكنني مساعدتك ، ياغريشا ؟

ـ لا أحتاج إلى مساعدة .

ـ آه ، كم صرت خشناً نحوي ، أنا الأرملة! إنك لاتجود عليّ حتى بابتسامة .

ـ الأجدر بك أن تعيني ناتاليا ، هوذا ميشاتكا متسخ من اللعب بالطين .

ـ أهذا واجبي ؟ أنت تنجبهم وأنا أغسلهم لك ؟ كلا . شكراً لك . ان ناتالياك ولود كالأرنبة . ستلد لك عشرة آخرين قبل أن تنضب . وحينذاك سينهكني غسلهم جميعاً .

ـ كفى ، كفى! هيا امضي من هنا!

ـ غريغوري بانتيلايفتش ، أنت القوزاقي الوحيد الذي بقي في القرية الآن . لاتطردني ، دعني أنظر إلى عذاريك الأسودين الخلابين من بعيد على الأقل .

فضحك غريغوري وألقى شعره إلى الخلف من على جبينه العرق :

ـ لا أدري كيف استطاع بيوتر أن يعيش معك... أحسبك ستحصلين دوماً على ماتسعين وراءه .

فردت عليه قائلة باعتذار : « كن مطمئناً » ثم نظرت إليه بعينيها

المحرقتين نصف المغمضتين ، والتفتت إلى المنزل وهي تصطنع الفزع قائلة :

ـ ماذا لوخرجت ناتاليا الآن! ما أشد غيرتها عليك! هذا اليوم أثناء الغداء ألقيت عليك نظرة خاطفة فتغير وجهها تماماً . البارحة قالت لي فتيات القرية : أي قانون هذا ؟ لم يبق في القرية قوزاق ، وها قد عاد غريغوري وهو لا بد بجانب زوجته لا يبارحها . كيف يتسنى لنا أن نعيش ؟ حتى إن كان جريحاً ، وحتى إن بقي نصفه ، فإننا سنجد متعتنا من ذلك النصف . قولي له ألا يسير في القرية ليلاً ، والا فسيلقى منّا الويل فقلت لهن : لا ، يافتياتي ، إن عزيزنا غريغوري لا يعبث إلافي القرى الأخرى ، أما حين يعود إلى أهله فإنه يتشبث بذيل تنورة ناتاليا . أصبح ولداً عفيفاً قبل حين... .

فقال غريغوري ، وهو يضحك جذلاً :

ـ قحبة أنت! لسانك أشبه بمكنسة .

ـ ومن أنا . ولكن زوجتك الشرعية ناتاليا الطاهرة لم تسمح لك بالنوم في فراشها البارحة ليلاً ، لقد نلت جزاءك ،أيها الشيطان الرجيم ، إن ذلك يعلمك حسن السلوك!

ـ لا تتدخلي في شؤون الآخرين ، ياداريا .

ـ أنا لاأتدخل ، كل ما أردت قوله أن ناتاليا هذه حمقاء ، يعود زوجها ، وهي تتعالى ، وتنام بمفردها على الصناديق مثل فطيرة بحجم الفلس . أما أنا فلن أحرم نفسي قوزاقياً إذا سنحت لي الفرصة ، فأبث الرعب حتى في رجل شجاع مثلك......

ثم طقّت بأسنانها ، وأطلقت ضحكة عالية ، ومضت شطر المنزل ، وقرطاها الذهبيان يومضان حين التفتت نحو غريغوري الذي كان يضحك محرجاً .

فقال غريغوري في سريرته :« كنت محظوظاً بموتك ياأخي بيوتر ، فداريا هذه ليست امرأة ، بل شيطانة . كانت ستدفع به إلى هاوية القبر إن عاجلاً أم أجلاً » .

٤٧

أطفئت الأضواء الأخيرة في قرية باخموتكين . كان ثمة جمد خفيف يلفع البرك بغطاء رقيق من الجليد . وفي موضع ما من حقل الحنطة المحصود خارج القرية كانت طيور الكراكي ، التي تخلفت في الطيران ، قد حطّت تلتمس الراحة ، وحملت الريح الشمالية الشرقية لغوها الهادىء المتعب إلى أسماع سكان القرية ، ليؤكد الصمت المخيّم لليل نيسان . وادلهمت الظلال في البساتين . وجأرت بقرة في أحد الأفنية ، ثم سكنت . وتنادت طيور الشنقب بحنين وهي تطير خلال الظلام . وكان ثمة حفيف ينبعث من أجنحة لا تعد لسرب من البط مسرع صوب المدى الطلق للدون الفائض... . وتناهت إلى الأسماع أصوات من ضواحي القرية . وتوهجت سكاير في العتمة ، وانبعثت زنخرة خيل وخشخشة الطين المتجمد تحت حوافرها . ومضت دورية خيالة خلال الشارع الرئيسي ، تتألف من سريتي اللواء السادس الخاص الذي اتخذ مقره في القرية . ودلفوا إلى فناء آخر بيت ، وهم يتحدثون ، وربطوا خيلهم إلى زحافة متروكة واضعين لها شيئاً من العلف . وشرع صوت خفيض أجش يردد أغنية خفيفة ، سرعان ما انضمّت إليها أصوات عديدة أخرى واندفع الجميع في جوقة مرحة منطلقة .

وانحدرت همهمة الكراكي ، وأغنية القوزاق ، وخفق أجنحة البط إلى القوزاق الموكل إليهم أمر الحراسة وراء الطاحونة الهوائية . كان الاستلقاء على التراب البارد المتجمد في الليل شيئاً فظيعاً . ولم يكن يسمح للحرس بالتدخين ولا بالتحدّث وبالسير على الأقدام ، حتى ولا بمحاولة إشاعة الدفء في أنفسهم بشيء من المصارعة الودية . كانوا مضطجعين بين سيقان عباد الشمس المتخلف عن العام الماضي ، يحدقون في عتمة السهب المتثائبة ، يتسمعون وآذانهم لصيقة بالأرض . وما كان لشيء أن يرى على مبعدة عشر خطوات ، وكانت الليلة النيسانية غنية بالحفيف والأصوات

المريبة التي قد يكون أي منها صادراً عن جندي أحمر يزحف باتجاههم . ومسح قوزاقي شاب بقفازه دمعة سببها تطلعه في العتمة . وحسب أنه سمع صوت عسلوج يتكسّر ولهاثاً مكتوماً على مبعدة قليلة منه . فلكز جاره الغافي إلى جانبه في وضع غير مريح . وغدت خشخشة الدغل والأنفاس البطيئة أكثر وضوحاً وما لبث الصوت أن علا فوق الشاب مباشرة . فرفع هامته على مرفقه وتبين بصعوبة وهو يحدّق خلال الحرش قنفذاً كبيراً يعدو في أثر فأر ، وأنفه في الأرض . واستشف القنفذ وجود عدو له قريب منه ، فرفع رأسه ، ورأى الرجل محدقاً فيه . فتنهد القوزاقي بارتياح :« ياللشيطان! كم أخافني! » ودس القنفذ رأسه إلى الداخل ، وغدا كرة شائكة بعضاً من الوقت ، ثم انبسط ، شيئاً فشيئاً ، ومضى زاحفاً ، وهو يرتطم بسيقان عباد الشمس ويدوس على نبات متسلق ذابل . وعاد الصمت ينسج شراكه من جديد ، وكانت الليلة أشبه بليالي حكايت الجن .

وفي القرية ، صاح الديك صيحته الثانية . وانجابت السحب من السماء ، وأطلّت النجمات الأولى خلال حجاب خفيف من الضباب . ثم أزاحت الريح الضباب ، ورنت السماء إلى الأرض بعدد لا يحصى من العيون الذهبية .

وفي تلك اللحظة استمع القوزاقي الشاب إلى الصوت الجلي لحوافر الحصان وخشخشة سيقان الأعشاب وصليل معدني أمامه ، وبعد هنيهة ، إلى صرير سرج . وسمعه القوزاق الآخرون كذلك ، فحطت الأصابع بسرعة على زناد البنادق ، وبزغ شبح الفارس كما لو ارتسم على خلفية السماء . كان راكباً الهوينا صوب القرية .

ـ قف! من هناك ؟ كلمة السر!

ووثب القوزاق على أتم استعداد لإطلاق النار! فتوقف الفارس ورفع يديه فوق رأسه ، وصاح :

ـ لاتطلقوا النار ، أيها الرفاق!

فصاح الضابط المسؤول عن النقطة الأمامية :

ـ ماهي كلمة السر ؟

ـ أيها الرفاق... .

ـ ماهي كلمة السر ؟ يارعيل... .

ـ قف! أنا وحدي ، أسلم نفسي .

ـ مهلاً ، أيها الأولاد . لاتطلقوا النار! سنأخذه حياً .

وجرى آمر الرعيل إلى الفارس وأمسك القوزاقي الشاب بأعنة حصان الفرس ، فعبر الرجل ساقه فوق السرج وترجل عن حصانه .

ـ من أنت ؟ أحمر ؟ أجل ، أيها الإخوان ، هي ذي النجمة على قبعته . أنت مقضي عليك... .

فأجاب الفارس بهدوء :

ـ قدني إلى آمرك ، وعلي أن أوصل إليه خبراً على جانب كبير من الأهمية ، أنا فورونوفسكي ، آمر كتيبة سيردوبسكي ، وقد أتيت للتفاوض معه .

ـ الآمر ؟... . اقتلوه ، أيها الإخوان!

ـ أيها الرفاق ، اقتلوني إن شئتم ، ولكن دعوني أخبر آمركم بما جئت من أجله . وأكرر أنه أمر على جانب كبير من الأهمية ، خذوا سلاحي إن كنتم تخشون هربي .

وشرع يحل نطاق سيفه .

فأخذ آمر الرعيل مسدسه وسيفه ، وأصدر أمره وهو يعتلي صهوة حصان الضابط : « فتشوه! » .

وبعد التفتيش اقتاد آمر الرعيل وقوزاقي آخر الأسير إلى القرية . فمضى هذا سيراً على الأقدام ، والحارس القوزاقي إلى جانبه في حين ركب آمر الرعيل حصانه خلفه ، وقد علت محياه علامات الرضا . ساروا عدة دقائق صامتين ، وتوقف الأسير من حين لآخر ليولع سكائر ، فاستثارت رائحة التبغ الجيد شراهة حارسه .

وسأله القوزاقي :«أعطني واحدة!» فناوله الضابط علبة سكائره المليئة . ، فأخرج القوزاقي واحدة ودس العلبة في جيبه هو . لم يعلق الآمر الأحمر بشيء ، ولكنه تساءل فيما كانا يقتادانه إلى القرية :

ـ أين تأخذانني ؟

ـ ستعرف عما قريب!

ـ لكن قل لي!

ـ إلى آمر السرية .

ـ خذني إلى آمر اللواء ، بوغاتيريوف .

ـ لايوجد رجل هنا بهذا الاسم .

ـ يوجد . فأنا أعرف أنه وصل البارحة إلى باخموتكين بصحبة هيئة أركانه .

ـ لاعلم لنا بذلك .

ـ أوه . كفاكم هذا ، أيها الرفاق! أنا أعلم ذلك ، وأنتم لاتعلمون! ليس هذا سراً عسكرياً ، خصوصاً حينما يكون مكشوفاً لدى أعدائكم! .

ـ هيا ، واصل سيرك!

ـ أواصل سيري . إذا كنت ستأخذني إلى بوغاتيريوف .

ـ صه! لايسمح لي بالتحدث إلى الأسرى .

ـ ولكنه يسمح لك أن تأخذ علبة سكائري ؟

ـ هيا امض لاتحرك لسانك وإلا أخذت معطفك أيضاً ، إن كنت سريع الغضب بهذا الشكل .

وجدوا آمر السرية نائماً . فنهض يتثاءب داعكاً عينيه دون أن يستطيع في بداية الأمر استيعاب ماكان آمر الرعيل يخبره .

وأخيراً قال :

ـ من قلت إنك ؟ آمر كتيبة سيردوبسكي ؟ لعلك لاتكذب ؟ أين أوراقك ؟

وبعد بضع دقائق اقتاد الآمر الأحمر إلى مقر آمر اللواء بوغاتيريوف ، وما إن سمع بوغاتيريوف بالأسير حتى قفز كمن مسه شيء ، وأسرع يزرر بنطلونه ، وأشعل فانوساً وسأل الآمر الأحمر الواقف قرب الباب :

ـ أ أنت آمر كتيبة سيردوبسكي ؟

ـ نعم .

ـ اجلس .

ـ شكراً .

ـ كيف وقعت ـ كيف حدث أن وقعت في الأسر ؟

ـ جئت طوعاً . أريد أن أحدثك على انفراد ، دع الآخرين يخرجون!

فلوح بوغاتيريوف بيده ، فغادر الغرفة آمر الرعيل ورب الدار الفاغر فاه . وجلس بوغاتيريوف إلى المنضدة وليس عليه سوى قميص داخلي قذر ، وهو يدعك رأسه القاتم الحليق المكور كالبطيخ ، وكان وجهه المجعد المنتفخ ينم عن فضول مكبوت . أما الضابط فورونوفسكي ـ وكان ذا قامة رشيقة قوية يرتدي معطفاً أنيقاً تعلو كتفيه شرائط الضباط ـ فقد ابتسم من تحت شاربيه الأسودين . وقال :

ـ أنا أتشرف بالحديث إلى ضابط ، أليس كذلك ؟ أستميحك عذراً في أن أقول كلمة أو كلمتين عن نفسي في البدء ، ومن ثم سأخبرك بالمهمة التي جئت من أجلها . أنا نبيل بالولادة ، وكنت رئيساً ركناً في خدمة القيصر . وقد قاتلت في الجبهة خلال الحرب الألمانية . وفي عام ١٩١٨ ، أعادتني الحكومة السوفيتية إلى الخدمة وأنا الآن آمر كتيبة سيردوبسكي الحمراء . لقد لبثت أتحين الفرصة منذ زمن للقدوم إليكم ـ إلى جانب الذين يحاربون البلاشفة .

ـ لقد تأخرت طويلاً في انتظارك هذا ، أيها الرئيس!

ـ أدري ، لكنني أردت أن أمحو جريرتي إزاء روسيا ليس عن طريق قدومي إليكم بنفسي وحسب (فقد كان هذا في مقدوري منذ أجل طويل)

ولكن عن طريق اصطحاب وحدة من رجال الجيش الأحمر ، أكثر من يركن إليهم من الرجال ، طبعاً ، الذين خدعهم الشيوعيون وجروهم إلى حرب الاقتتال مابين الإخوة .

وإذ ألقى فورونوفسكي نظرة إلى بوغاتيريوف ولاحظ ابتسامته المتشككة ، احمر وجهه كفتاة ، واستطرد مسرعاً :

ـ طبيعي أن تشعر بشيء من عدم الثقة بي وبكلماتي . ولو كنت في مكانك لشعرت بالشيء نفسه ، دعني أثبت لك بحقائق لاتدحض... .

ورفع طرف معطفه وأخرج مطواة من جيب سرواله شق بها حاشية معطفه وأخرج بعض أوراق مصفرة وتصويراً صغيراً . فتفحص بوغاتيريوف الأوراق بإمعان . كانت إحداها تشهد بأن حاملها هو الملازم الأول فرونوفسكي من كتيبة لوبوميرسكي الـ ١١٧ ، وأنه ذاهب إلى بيته لإجازة مدتها أسبوعان بعد المعالجة في مستشفى وكانت تحمل الورقة توقيع وختم رئيس الأطباء في مستشفى ميدان . وأعطت الوثائق الأخرى والتصوير دليلاً ثابتاً على صحة أقوال فورونوفسكي .

ثم تساءل بوغاتيريوف :

ـ حسناً ، وماهوالأمر التالي ؟

ـ جئت لأعلمكم بأنني ومساعدي ، الملازم الأول السابق فولكوف ، كنّا نعمل بين رجال الجيش الأحمر الذين هم تحت أمرتنا ، وأن مجموع القوة الكاملة لكتيبة سيردوبسكي ، باستثناء الشيوعيين طبعاً ، على استعداد للانتقال إلى جانبكم في أية لحظة . ويتألف الرجال كلهم تقريباً من فلاحي مقاطعتي ساراتوف وسامارا . إنهم على استعداد لمحاربة البلاشفة . وليس لنا إلا أن نتوصل إلى اتفاق حول شروط استسلام الكتيبة .وفي الوقت الحاضر تعسكر الكتيبة في أوست ـ خوبرسكايا . ويبلغ عددها حوالي ألف ومائتين من حاملي الحراب ، وهناك خلية شيوعية عدد أفرادها ثمانية وثلاثون ، يضاف إليهم فصيل ينتظم نحو ثلاثين رجلاً من شيوعي المنطقة .

لقد استولينا على البطارية التابعة للكتيبة ، ولكن يحتمل أن يتعين علينا إبادة رجال البطارية حيث أن أغلبهم شيوعيون . إن رجال الجيش الأحمر التابعين لي في حالة من الهياج بسبب الاستيلاء على الطعام في مناطقهم . وقد عملنا على استغلال هذا الظرف لاستمالتهم إلى جانب القوزاق . لكنهم يخشون أن يتعرضوا إلى التنكيل اذا ماالستسلموا . وهكذا ، يصبح لزاماً عليّ أن أصل إلى تفاهم معكم حول هذه النقطة وان كانت مسألة تفصيلية .

ـ أي تنكيل يمكن أن يتعرضوا له ؟

ـ القتل أو السلب... .

ـ كلا ، لن نسمح بذلك .

ـ ثمة شيء آخر : يصر الجنود على أن تظل كتيبة سيرودوبسكي على حالها وأن يسمح لها بمقاتلة البلاشفة كوحدة عسكرية مستقلة جنباً إلى جنب معكم .

ـ لا أستطيع أن أقول لك......

ـ فاهم . عليك أن تتصل بقيادتك العليا ثم تعلمنا بالنتيجة .

ـ أجل ، علي أن أعلم هيئة الأركان في فيشنسكايا .

ـ معذرة ، غير أن وقتي قصير جداً ، وإذا تأخرت عودتي فقد يلاحظ قوميسار الكتيبة غيابي . أخال أننا نستطيع أن نصل إلى اتفاق حول شروط الاستسلام . دعني أكون على علم بقراركم في أقرب وقت ممكن . فقد تنقل الكتيبة إلى جبهة الدونيتس ، أو قد تصل إمدادات ، وآنذاك ... .

ـ سأبعث مراسلاً إلى فيشنسكايا في الحال .

ـ هناك شيء آخر ، مر قوزاقك بإعادة سلاحي لي .

إنهم لم ينزعوا سلاحي فحسب ـ وتوقف وابتسم في حرج ـ لكنهم أخذوا علبة سكائري! هذه بالطبع قضية تفصيلية ، لكن للعلبة قيمة بالنسبة لي لأنها تذكار عائلي موروث

ـ سيعاد كل شيء لك . كيف يتسنى لنا أن نعلمك برد فيشنسكايا ؟

ـ في غضون يومين ستأتيك امرأة إلى باخموتكين قادمة من أوست ـ خوبرسكايا . أما كلمة السر فلتكن «اتحاد» باستطاعتك أن تخبرها شفاهاً ، طبعاً...

* * *

وما هي إلا نصف ساعة حتى انطلق مراسل قوزاقي على حصانه إلى فيشنسكايا .

وفي اليوم التالي وصل إلى باخموتكين مراسل كوديونوف الشخصي . ومضى راكباً حتى بلغ مقر آمر اللواء ودلف إلى الكوخ دون أن يتوقف لربط حصانه ، وسلم بوغاتيريوف اضمامة مكتوب عليها :

«مستعجل وسري» . فمزق بوغاتيريوف الظرف باستعجال وقرأ الخطاب مكتوباً بخط يد كودينوف الممدود :

بعد التحية . النبأ مشجع أخولك التفاوض مع كتيبة سيردوبسكي وجعلهم يستسلمون مهماكان الثمن . وأقترح أن نتنازل لمطالبهم ونعد بأننا سنقبل الكتيبة بمجموعها وأننا لن ننزع حتى سلاحها عنها ، بشرط ، وهذا الشرط لايمكن التخلي عنه ، أن يأسروا ويسلموا قوميسار الكتيبة والشيوعيين ، وعلى الأخص شيوعي فيشنسكايا ، ويلانسكايا ، وأوست ـ خوبرسكايا . كذلك يجب أن يستحوذوا على البطارية ، وقافلة الأمتعة وعدة الكتيبة . تعجل الأمر قدر ماتستطيع . وحينما تكون الكتيبة على استعداد للمجيء ، جمّع ما في مستطاعك من القوات ، وطوقهم بهدوء ، وانزع عنهم السلاح في الحال . وإذا حاولوا المقاومة ، افنهم عن آخرهم . تصرف بحذر ، ولكن بشدة . وما أن ينزع عنهم السلاح ، سق الكتيبة برمتها إلى فيشنسكايا على امتداد الضفة اليمنى للدون ، كي يكونوا بعيدين عن الجبهة وملزمين بالمسير خلال السهب الطلق . وحينئذ لن يكون بمقدورهم أن يلوذوا بالفرار إذا مابدلوا رأيهم . سقهم عبر القرى الواقعة على جانب الدون وأرسل في أثرهم سريتي خيالة كحرس . سوف نوزعهم مثنى وثلاث

على السرايا المختلفة وسنرى كيف سيحاربون الحمر . وبعد ذلك ، إن أفلحنا في الانضمام إلى رجالنا في الدونيتس ، فلهم أن يفعلوا مايشاؤون بهم ـ لن آبه إن شنقوهم عن آخرهم . إني لمسرور بنجاحك . إبقني على علم يومياً بواسطة مراسل .

كودينوف

وكان في الحاشية مكتوباً مايلي :

إذا سلمت كتيبة سيردوبسكي شيوعيينا المحليين ، سقهم تحت حراسة قوية إلى فيشنسكايا خلال القرى الواقعة على جانب الدون . ولكن ابعث بكتيبة سيردوبسكي أولاً . واختر لحراسة الشيوعيين من القوزاق أكثر من تستطيع الاعتماد عليه (المندفعين والكهول) ، وقل لهم أن يخبروا القرويين سلفاً بقدومهم . فلا داعي بأن نلوث أيدينا بهم فستضربهم النساء بالعصي إذا استطاع الحرس أن يدبر القضية بشكل لائق . إن هذه ستكون أفضل سياسة بالنسبة لنا . فلو رميناهم بالرصاص لسرت الشائعة إلى الحمر بأننا نعدم الأسرى . فمن الأسهل أن نسيب الناس عليهم ، أن نطلق غضب الناس مثل الكلب السلوقي . دع الناس يقضون عليهم ، دون قيل أو قال!

٤٨

في الثاني عشر من نيسان كانت كتيبة موسكو الأولى تتكبد خسائر فادحة في القتال مع المتمردين في منطقة يلانسكايا . ومضت صفوف الحمر تشق طريقها إلى قرية أنتونوفسكي وهي لاتعرف عن المنطقة شيئاً .

كانت مساكن القوزاق تقوم متباعدة عن بعضها على جزر صغيرة قوامها تربة صلصالية ، بيد أن الشوارع والأزقة التي انتشر عليها الدغل كانت تنتهي بأرض مستنقعية لايمكن اجتيازها في حين كانت القرية برمتها غارقة في أجمة الحور . وكان نهر اليلانكا ينساب حول القرية ، وهو نهر صغير ضحل ذو قاع طينية زلقة .

وجرب مشاة كتيبة موسكو الأولى تمشيط القرية في تشكيلة مفتوحة ، ولكن ما إن اجتازوا المساكن الأولى وبلغوا أجمة الحور حتى اكتشفوا استحالة اجتياز الأجمة على النحو الذي قصدوه . ورفض آمر الفوج الثاني . ـ وهي ليتواني عنيد ـ أن يستمع إلى وجهة نظر رئيس عرفائه ، الذي كان قد استطاع لتوه أن يجر حصانه من مستنقع عميق ، فأصدر أوامره بالتقدم وكان أول من تحرك للأمام على الأرض الخادعة المترجرجة . ومضى رجال الجيش الأحمر المترددون يتبعونه حاملين رشاشتهم . وحينما كانوا قد قطعوا مايقرب من المائة خطوة وهم يغوصون في الوحل حتى ركبهم ، انطلقت صيحة من الجناح الأيمن انحدرت على امتداد الصفوف : « حذار! فالقوزاق يحيطون بنا! » .

كانت سريتان من المتمردين قد أحاطتا بالفوج فعلاً وشرعتا تهاجمانهم من الخلف . وفقد الفوجان الأول والثاني في أجمة الحور ثلث مجموع أفرادهما ، وأخذا يتراجعان .

وفي غمار القتال جرح ايفان أليكسييفتش في ساقه بواحدة من رصاص القوزاق المحلي . فحمله ميشا كوشيفوي خارج المعركة وأجبرا سائق عربة عتاد ، وهو يهدده بحربته ، على استعمال العربة لنقله .

ردت الكتيبة على أعقابها حتى قرية يلانسكايا . وكان لذلك الانحدار نتائج وخيمة على التقدم الكلي لمفارز الحمر في تلك المنطقة ، إذا اضطرت بعض المفارز إلى التراجع عشرين فرستاً شمالاً وثم عبر نهر خوبر ، قبل تحرك الجليد بيوم واحد وقد غرق عدد كبير من الجياد فتقدمت فصائل المتمردين كسيل عارم متفوقة عدة مرات على قوات الحمر من حيث عدد الأفراد .

ووجدت كتيبة موسكو الأولى نفسها منعزلة بسبب من انكسار الثلج عند مدخل نهر خوبر وعبرت الدون إلى الضفة اليمنى وتوقفت عند أوست ـ خوبرسكايا تنتظر الامدادات . وما إن انقضت مدة قصيرة على وصولهم حتى انضمت إليهم كتيبة سيردوبسكي . وكان رجال سيردوبسكي يختلفون اختلافاً بيناً عن كتيبة موسكو الأولى . لقد كان عمال موسكو وتولا ونيجني

ـ نوفغورود ، الذين كانوا يؤلفون عصب كتيبة موسكو وقوتها الصدامية ، يقاتلون بضراوة وعناد ، وطالما التحموا مع العدو يداً بيد ، وهم لاينون يفقدون من رجالهم مابين قتيل وجريح . وحتى بعد اندحارهم في قرية أنتونوفسكي ، فإنهم تراجعوا دون أن يخسروا عربة عتاد واحدة ، لكن الذي حدث لسرية من كتيبة سيردوبسكي في معركتها الأولى في قرية ياغودينسكي هو أنها تشتت تحت وطأة الهجوم الذي شنته خيالة المتمردين فما أن لمحوا القوزاق المغيرين فوق خيولهم حتى فروا من خنادقهم ، وكان محتملاً أن يبادوا عن آخرهم لو لم تكن الرشاشات بيد الشيوعيين الذين ردوا الهجوم بعاصف من نيرانها .

كان رجال كتيبة سيردوبسكي قد جندوا بصورة مستعجلة في مدينة سيردوبسك ، من مقاطعة سارتوف ، وجلهم فلاحون كهول أميون وكان عدد كبير منهم قد انتزعوا من عوائل الكولاك الغنية الأمر الذي لايساهم في رفع الروح القتالية . وكان رجال قيادتهم في الغالب ضباطاً سابقين في الجيش القيصري ، أما القوميسار الأحمر فكان بلاحول أو قوة ولم تكن له سيطرة على الجنود ، وتحت بصر جماعة الحزب الشيوعي أنفسهم الذين غشيت عيونهم عن كل شيء ، كان ضابط القيادة فورونوفسكي وخونة آخرون يعملون على إثارة جنودهم بصورة حاذقة ، ويزرعون في نفوسهم الشك في إمكانية القضاء على التمرد ، ويهيؤونهم للاستسلام للقوزاق .

كان شتوكمان وإيفان وميشا قد نقلوا إلى كتيبة سيردوبسكي واستقروا في كوخ واحد مع ثلاثة من رجال سيردوبسكي . ولاحظ شتوكمان بقلق روح الجفاف التي بدت على رفقائه الجدد ، وانتهى ـ بعد أن نشب بينهم خصام حاد ـ إلى أن ثمة خطر يهدد الكتيبة . وحدث ذات مساء أن دخل اثنان من رجال سيردوبسكي إلى الكوخ ، ومن غير أن ينطقا بكلمة تحية قال أحدهما وهو ينظر مبتسماً بوقاحة إلى شتوكمان وإيفان أليكسييفتش المستلقي على السرير :

ـ إذاً فهذا هو المآل الذي أوصلنا اليه القتال! إنهم يستحوذون على حنطة عوائلنا في قرانا ، وهنا يتعين علينا أن نحارب من أجل ما لا ندرك كنهه .

فسأله شتوكمان بحدّة :

ـ ألا تعرف ماالذي تحارب من أجله ؟

ـ كلا ، لانعرف . فالقوزاق فلاحون مثلنا تماماً . نحن نعرف سبب تمردهم . أي ، نعم ، نعرف ذلك!

واذا بشتوكمان يفقد زمام نفسه المعهود ، وصاح :

ـ وهل تعرف أيه لغة تتفوه بها الآن ، أيها الخنزير ؟ إنها لغة الحرس الأبيض!

ـ اقتصد بـ« خنزيرك » هذه ، والا لقنتك درساً! أسمعتموه ، أيها الاولاد ؟

فتدخل رجل ثانٍ ، قميء وشديد كزكيبة من الطحين :

ـ اهدأ ، اهدأ يا طويل اللحية! لقد رأينا أمثالك من قبل . أتحسب أن مجرّد كونك شيوعياً يمكنّك من اسكاتنا متى ماشئت ؟ كن على حذر وإلا اقتلعنا نزواتك!

واجتاز الكوخ صوب شتوكمان وذراعاه القصيرتان القويتان إلى ظهره ، وعيناه تومضان متوعدتين .

فقال شتوكمان لاهثاً وهو يدفع الرجل عنه :

ـ ماهذا ؟ أتراكم جميعاً خدعتم بآراء الحرس الأبيض ؟

وترنح الرجل إلى الوراء وكان على وشك أن يمسك ذراع شتوكمان غير أن الرجل الذي كان أول المتكلمين أوقفه :

ـ لا تزعج نفسك به .

ـ أنتم تتحدثون كالمرتدين . سنحاكمكم خونة للحكومة السوفييتية .

فأجاب أحد رجال سيردوبسكي :

ـ لا أخالك ستقدم كل الكتيبة إلى المحكمة . إن الشيوعيين يحصلون على السكر والسكاير أما نحن فلا نحصل على أي شيء آخر وصاح إيفان اليكسييفتش ، وهو يستوي على السرير :

ـ هذا افتراء! نحن نحصل على مثل ماتحصلون عليه .

ومن غير ما كلام لبس شتوكمان معطفه وخرج . ولم يحاولوا إيقافه ، غير أنهم هزأوا منه حينما مرّ بهم .

ووجد قوميسار الكتيبة في مقر هيئة الأركان . فناداه إلى غرفة ثانية وأسرّ له بشجاره مع رجال سيردوبسكي واقترح اعتقالهم . فاستمع إليه القوميسار وهو يحك لحيته ويسوّي بتردد نظارتيه ذات الاطار القرني .

ـ سوف ندعو إلى اجتماع الشيوعيين غداً لبحث الموقف . لكنني لا أرى من الممكن أن نعتقلهم في الحال الحاضر . فتساءل شتوكمان محتداً :

ـ ولم لا ؟

ـ طيب أترى ، أيها الرفيق شتوكمان لقد لاحظت بنفسي أن ثمة شيئاً ليس على مايرام في الكتيبة . لعل هناك منظمة معادية للثورة تعمل في صفوف كتيبتنا ، غير أنني لا أستطيع أن أستجلي سر هذه المنظمة . لكن أغلبية الكتيبة واقعة تحت نفوذها . فالفلاحون لا ينصاعون إلا لأهوائهم ، فما عسانا نفعل ؟ لقد أحطت هيئة أركان الفرقة علماً بحقيقة الموقف واقترحت عليهم أن يسحبوا الكتيبة ويعيدوا تشكيلها من جديد .

ـ لماذا تحسب أن من المستحيل اعتقال عملاء الحرس الأبيض وتقديمهم إلى المحكمة الثورية للفرقة ؟ إن كلامهم ذاك لهو الخيانة بعينها!

ـ أدري ، ولكنني لو فعلت ذلك فقد ينتهي إلى تطرف غير مرغوب فيه ، وحتى إلى عصيان .

ـ ولكنك مادمت قد لاحظت موقف الأغلبية فلماذا لم تعلم الشعبة السياسية في حينها ؟

ـ قلت لك إنني قد أعلمتهم . ولكنهم بطيئون في الرد . ما أن تسحب

الكتيبة حتى ننزل العقاب بكل أولئك الذين خرقوا النظام ، وعلى الأخص هؤلاء الذين مافتئوا يرددون ما أخبرتني به . وأضاف متجهماً : ـ لدي شكوك حول فورونوفسكي ورئيس هيئة الأركان ، فولكوف . وبعد اجتماع الشيوعيين غداً سأمضي إلى أوست ـ مدفديتسكايا لبحث الموقف مع الشعبة السياسية علينا أن نتخذ اجراءات سريعة لنضع يدنا على موطن الخطر . ولهذا يتعين عليَّ أن أسألك أن تظل محادثتنا هذه في طي الكتمان .

ـ ولكن لمَ لاتدعو إلى اجتماع المنظمة في الحال ؟ إن الوقت لن ينتظرنا ، أيها الرفيق!

ـ أعرف ذلك ، ولكن هذا ليس ممكناً الآن . فغالبية الشيوعيين موجودون في النقاط الأمامية . لقد نسبتهم لهذه المهمة عن عمد لأنني أعتقد أن من المجازفة أن نثق بأية عناصر لاحزبية في وضع مثل هذا . أضف إلى ذلك أن البطارية ، التي يتألف رجالها من الشيوعيين بصورة رئيسية ، لن تصل إلا الليلة . لقد استدعيتها بسبب هذه الأخطار التي تتهدد الكتيبة ... .

عاد شتوكمان من الأركان إلى كوخه وأسر إلى ايفان وميشا بفحوى حديثه مع القوميسار .

وسأل شتوكمان إيفان أليكسييفتش :

ـ ألا تستطيع السير الآن ؟

ـ بلى ، على أنني أعرج . كنت أخشى أن ينفتح الجرح ، ولكن إذا كان لابد من ذلك سأفعل .

وبعد أن مضى الآخرون إلى أسرتهم ، قعد شتوكمان ليكتب تقريراً مفصلاً عن الحالة في الكتيبة ، وعند منتصف الليل أيقظ ميشا . وقال وهو يدس الخطاب الذي كتبه في قمصلة كوشيفوي :

ـ خذ حصاناً من أي مكان حالاً وامض إلى أوست ـ مدفديتسكايا بهذا الخطاب . وينبغي أن تسلمه إلى الشعبة السياسية للفرقة الرابعة عشرة مهما كان الثمن ، حتى لو كلفك ذلك حياتك . كم من الوقت سيستغرق ذلك ؟ أين ستجد

حصاناً ؟ فجمجم ميشا من بين أسنانه وهو يحتذي جزمته اليابسة الصلبة :

ــ سوف أسرق حصاناً من الدورية الخيالة ، وسأبلغ أوست مدفديتسكايا في غضون ساعتين على الأغلب . فالخيل هنا بائسة وإلا بلغتها في أقل من ذلك . لقد كنت راعي خيل ذات يوم . وأنا أعرف كيف أجعل حصاناً ينطلق حضراً . وأخذ الخطاب ودسه في جيب معطفه . فسأله شتوكمان مستغرباً :

ـ لمَ تضعه هناك ؟

فرد ميشا :

ـ يسهل علي التصرف به إذا ما أسرت .

فشرع شتوكمان يقول :

ـ صح ، ولكن... .

ـ لو أسروني ، فسوف أستطيع أن أبلعه وأزدرده .

ـ يا للفتى الشجاع!

وابتسم شتوكمان قليلاً ، ثم عانق ميشا ، وكأنه يتوجس سوءاً ، وقبله بشفتين باردتين مرتعشتين . وقال : هيا ، انطلق!

فخرج ميشا ، وحل واحداً من أفضل خيل الدورية دون أن يكتشف أمره ، ومضى عليه بحذر خلال القرية ، ماراً بالنقطة الأمامية ، وسبابته على زناد قربينة الخيالة الجديدة . ولم يعلق بندقيته على كتفه إلا بعد أن خرج على الطريق العام وانطلق ليستنزف سرعة حصانه الساراتوفي الصغير .

٤٩

عند الفجر ، شرع مطر خفيف يسقط . وأعولت الريح وانحدرت من الشرق سحب رعدية ثقيلة . وما إن أطل الصباح حتى نهض رجال سيردوبسكي المقيمون مع شتوكمان وخرجوا . وبعد نصف ساعة فتح باب

الكوخ شيوعي من يلانسكايا يدعى تولكاتشيف ملحق بكتيبة سيردوبسكي مثل شتوكمان ورفاقه ، وصاح وهو يلهث :

شتوكمان ، كوشيفوي ، أنتما هنا ؟ هيا اخرجا! فصاح شتوكمان وهو يلتقط معطفه ويرتديه باستعجال :

ـ ما الأمر ؟ ادخل هنا! فتمتم تولكاتشيف فيما تبع شتوكمان :

ـ هناك اضطراب في الكتيبة . حاول المشاة أن يجردوا البطارية من سلاحها أثناء مرورها قبل قليل . شرعوا يطلقون النار ، لكن المدفعيين صدوا الهجوم ، وانتزعوا مغالق المدافع ، وعبروا النهر إلى الجانب الآخر بالزوراق .

فاستحثه ايفان أليكسييفتش ، وهو يحتذي جزمته محمحماً :

ـ وماهو الموقف الآن ؟

ـ هناك اجتماع قائم الآن عند الكنيسة... . الكتيبة بكاملها .

فأمر شتوكمان ايفان أليكسييفتش : «ارتد ملابسك! بسرعة!» وأمسك تولكاتشيف من كمه وسأله : «أين القوميسار ؟ أين بقية الشيوعيين ؟ »

ـ لاأدري . لاذ البعض بالفرار ، لكنني جئت إليك . احتلوا دائرة البرق ، ولم يعد مسموحاً لأي امرئ بالدخول . يجب أن نهرب ، ولكن كيف ؟

وهوى الرجل بقنوط على صندوق ، ويداه بين ركبتيه . وفي تلك اللحظة سمعت أصوات أقدام في سقيفة الباب واندفع إلى داخل الكوخ ستة من رجال سيردوبسكي . كانت وجوههم محتقنة وقد بدت ضارية بما تضمر من شر . وصرخوا :

ـ على جميع الشيوعيين أن يذهبوا إلى الاجتماع! اسرعوا! فتبادل شتوكمان النظر مع ايفان وزم شفتيه ، وأجاب : « إننا قادمون » .

فقال أحد الرجال : «اتركوا سلاحكم هنا . فلستم ذاهبين إلى معركة» . غير أن شتوكمان علق بندقيته على كتفه كأنه لم يسمع ، وكان أول من خرج من الكوخ .

كان ثمة ألف ومائة حنجرة تهدر في الساحة . ولم يظهر أي من أهل المنطقة ، إذ سرت شائعات قوية تفيد أن الكتيبة ستنضم إلى المتمردين وأن قتالاً قد ينشب في الشوارع مع الشيوعيين . ومضى شتوكمان صوب الجمع ، وعيناه تبحثان عن أعضاء قادة الكتيبة . ومر به القوميسار ، وقد أمسك بذراعيه رجلان من الجيش الأحمر فيما كان ثالث يدفعه من الخلف . ودفع القوميسار ، وقد شحب وجهه ، خلال الجمع ، وبعد برهة رآه شتوكمان يرتقي طاولة في وسط الغوغاء . تلفت شتوكمان حوله : كان ايفان أليكسييفتش وراءه يتكئ على بندقيته ، وإلى جانبه كان الرجال الذين جاؤوا يستدعونه إلى الاجتماع .

ـ يارفاق الجيش الأحمر!

وبدت كلمات القوميسار خافتة وسط هدير الأصوات .

ـ إن عقد الاجتماعات في وقت كهذا ، حينما يكون العدو قريب جداً... . أيها الرفاق...

ولم يسمح له بالاستمرار إذ راحت قبعات الجيش الأحمر الرمادية والحراب الزرق الناتئة كالشوك ، تميد حول الطاولة ، وكأن الريح تهزها ، وامتدت القبضات نحوه ، وجلجلت صيحات جافة فظة مثل طلقات المسدس :

إذاً فنحن الآن رفاق . ها ؟

ـ إخلع عنك هذه السترة الجلدية!

ـ لقد خدعنا!

ـ من تريدنا أن نقاتل ؟!

ـ اقتلوه! اطعنوه في بالحراب! لقد عانينا الكفاية من قمسرته .

ورأى شتوكمان رجلاً من الجيش الأحمر ، كهلاً ، ضخم الجرم يرتقي الطاولة ويمسك بلحية القوميسار الصغيرة . فتأرجحت الطاولة وهوى الرجل والقوميسار معاً على الأيدي الممدودة للرجال المتدافعين حولهما . وماجت

كتلة رمادية من المعاطف بالقرب من الطاولة ، وضاعت صيحة القوميسار اليائسة في رعيد الأصوات العنيف .

وشرع شتوكمان على الفور يشق طريقه إلى وسط الجمع ، وهو ينحي الرجال عن طريقه بعنف مندفعاً نحو المكان الذي ألقى القوميسار الخطاب منه ولم يحاول أحد إيقافه ، لكن القبضات وأخامص البنادق كانت تهوي على رأسه وظهره ، وانتزعت البندقية عن كتفه وقبعته القوزاقية عن رأسه .

وزعق رجل من الجيش الأحمر حينما داس شتوكمان على قدمه بشدة : «افتح عينيك حيث تسير ، أيها الشيطان!» وعند الطاولة المقلوبة كان ضابط رعيل يسد الطريق أمامه . وكانت قبعته المصنوعة من جلد الحمل قد انداحت إلى مؤخرة رأسه ووجهه يتصبب عرقاً وقد استحال لونه أحمر كالقرميد ، وعيناه تدوران في محجريهما والشرر يتطاير منهما . وكان معطفه غير مزرر . وزأر الرجل : «أين تراك موليا ، تدفع الناس ؟» .

فصرخ شتوكمان بصوت أجش ، مقيماً الطاولة على أرجلها : أريد أن أتكلم! أفسح المجال لجندي نفر أن يقول كلمة! » .

فلم يتردد بعض الواقفين في إعانته على ارتقاء الطاولة . لكن الجلبة لم تخفت في الساحة ، فصاح شتوكمان بأعلى صوته :

ـ سكوت!

وهمدت الضوضاء بعد برهة من الوقت وجعل شتوكمان يصرخ بصوت مبحوح ، وهو يكظم نوبة من السعال :

ـ يارفاق الجيش الأحمر! عار عليكم! أنكم تخونون حكومة الشعب في أحرج اللحظات . تخور عزائمكم في اللحظة التي ينبغي عليكم أن تنزلوا على العدو بقبضتكم القوية ضربة تنفذ إلى قلبه . إنكم تعقدون الاجتماعات في الوقت الذي تناضل فيه بلاد السوفييات من أجل وجودها الذي يتهدده طوق حديدي من الأعداء . إنكم على أبواب خيانة مكشوفة وما هو السبب ؟ لقد

خدعكم أمراؤكم الخونة لصالح الجنرالات القوزاق . إن هؤلاء الضباط السابقين قد أخلوا بثقة الحكومة السوفيتية بهم ، وأنهم ـ إذ يستغلون جهلكم ـ يرسمون الخطط لتسليم الكتيبة إلى القوزاق . ثوبوا إلى رشدكم! فبتسخير سواعدكم يريدونكم أن تسهموا في القضاء على حكومة العمال والفلاحين .

فصفق آمر السرية الثاني ، وهو ضابط قيصري سابق ، بندقيته إلى كتفه ، غير أن شتوكمان لحظ حركته فصرخ فيه :

ـ إياك أن تجرؤ! سوف يتسع لك الوقت لذلك! إنني أطالب بأن تصغوا إلى جندي شيوعي . لقد وهبنا ، نحن الشيوعيين ، كل حياتنا... . وارتفع صوت شتوكمان إلى درجة مفزعة من التوتر وكان وجهه شاحباً مشوهاً... . كل دماءنا ، قطرة إثر قطرة ، في خدمة الطبقة العاملة والفلاحين المضطهدين . لقد اعتدنا على مواجهة الموت وجهاً لوجه . في مقدورك أن تقتلني... . فارتفعت صيحات متضاربة :

ـ لقد سمعنا مافيه الكفاية!

ـ لانريد أن تخدعونا أكثر من ذلك ؟

ـ دعوه يكمل!

ـ سكوت!

ـ ...... اقتلني ، لكنني أكرر القول : ثوبوا إلى رشدكم فليس الوقت وقت اجتماعات الآن ، بل عليكم أن تمضوا لضرب البيض .

وأجال عينيه المضيقتين فوق جمع الجنود شبه الصامتين ولاحظ فورونوفسكي ، آمر الكتيبة ، واقفاً على مبعدة قليلة يبتسم بافتعال ويهمس إلى جندي من الجيش الأحمر إلى جانبه ، فصاح شتوكمان ، ماداً يده ومؤشراً نحو فورونوفسكي :

ـ إن آمر كتيبتكم ... .

غير أن الآمر وضع يده على فمه وأسر بشيء إلى الرجل الواقف إلى جانبه ، وقبل أن يستطيع شتوكمان إكمال جملته ضجت إطلاقة ثقيلة الرجع

خلال الهواء الرطب في ذلك اليوم النيساني المطير . فضم شتوكمان قبضته إلى صدره وهوى على ركبتيه ، وغاب عن الأنظار رأسه الحاسر الأشيب . لكنه مالبث إن وثب على قدميه من جديد ووقف مترنحاً .

فصاح ايفان إذ رأى شتوكمان يقوم : «أوسيب دافيدوفيتش!» وشرع ينافح لشق طريقه اليه غير أن الذين كانوا حوله أمسكوا به من مرفقيه وحمحموا :

ـ صه! سلم بندقيتك ، ياخنزير!

ونزعوا سلاحه . وفتشوا جيوبه وأبعدوه عن الساحة . ثم انقضوا على الشيوعيين الآخريين في الحال ونزعوا سلاحهم أيضاً . وسمعت من شارع جانبي بالقرب من حانوت تاجر خمس أو ست رصاصات صرعت شيوعياً من حملة الرشاشات رفض أن يسلم رشاشته من طراز لويس .

وفي تلك الأثناء استقام شتوكمان مترنحاً على الطاولة وهو يحس باختناق فظيع . وقد علا وجهه بياض الموت ، بينما كانت شفتاه تزبدان دماً وردياً . وأفلح في الأخير أن يصيح ، مستنفذاً آخر ما لديه من عزم وقوة :

لقد خدعوكم . أولاء الخونة...... إنهم يسعون إلى الحصول على العفو عنهم وعلى مناصب عالية في الجيش... . غير أن الشيوعية سوف تحيا... . أيها الرفاق ... . ثوبوا ... الى... . رشدكم ......

ومن جديد أسند الجندي الواقف إلى جانب فورونوفسكي بندقيته إلى كتفه . فجعلت الرصاصة الثانية شتوكمان يخر من على الطاولة على رأسه تحت أقدام الجنود . وقفز إلى الطاولة جندي من كتيبة سيردوبسكي ، ذو وجه مجدور وفم رفيع قبيح ، وجأر :

ـ استمعنا إلى الكثير من الوعود الخلابة ، أيها الرفاق ، ولكنها لم تكن سوى كلام فارغ ووعيد . والآن ، يموت هذا الخطيب اللبيب ميتة الكلاب . الموت للشيوعيين ، لأعداء الفلاحين الكادحين ، أقول أن عيوننا قد تفتحت ، وأننا نعرف من هم أعداؤنا . أتذكرون ماقالوه لنا في قرانا ؟ قالوا

ستكون هناك مساواة ، إخاء مابين الشعوب . هذا ماقاله لنا الشيوعيون… وما الذي وجدناه بالفعل ؟ اللصوصية أيها الإخوان! لقد بعث لي أبي برسالة مليئة بالشكاوي ، يقول فيها أنهم ينهبون ويسرقون في وضح النهار . أخذوا كل الحنطة من أبي ، وطاحونته أيضاً . ولكن ماذا يقول مرسومهم ؟ إنه يقول : كل شيء للفلاح العامل . ألم يحصل أبي على طاحونته بعرق جبينه ؟ إذاً أسألكم بالله أيمكن أن يكون هذا شيئاً آخر غير اللصوصية من جانب الشيوعيين ؟ حطموهم ، مزقوهم ارباً ارباً!

ولم يستطع المتكلم أن يتم حديثه : فقد قدمت من الغرب سريتان من خيالة القوزاق تجريان هذباً داخل القرية ، وعلى المنحدر الجنوبي للتلال الواقعة على جانب الدون هبط مشاة القوزاق وعلى رأسهم بوغاتيريوف ، آمر اللواء الخاص للمتمردين ، فمضى إلى الساحة تحف به هيئة أركان وتحرسه نصف سرية .

وبدأ المطر الشديد يسقط وسمع صوت الرعد العميق في مكان ما على جانب الدون الآخر .

شرعت كتيبة سيردوبسكي بالاصطفاف صفين على عجل . وما كادت جماعة بوغاتيروف تلوح من بعد حتى صرخ آمر الكتيبة ، فورونوفسكي ، بنبرة آمرة لم يسمع رجال الجيش الأحمر لها مثلاً في صرامتها :

ـ كتيبة! استـ… . ـعد!

٥٠

أمضى غريغوري ميليخوف خمسة أيام في تتارسكي ، فبذر عدداً من الحقول بالحنطة ، له والعائلة وحماته . ثم ، ما أن عاد أبوه من كتيبته ، وقد استبد به الحنين إلى الأهل وتفشّى القمل في جسمه ، حتى استعد هو للعوده إلى فرقته . وكان كودينوف قد أخبره سراً بالمفاوضات الجارية مع قيادة

كتيبة سيردوبسكي ، وطلب منه العودة إلى الجبهة بأسرع ما يمكن وتولي قيادة الفرقة .

وفي ظهيرة اليوم الذي قرر غريغوري أن يغادر فيه تتارسكي إلى كارغينيسكايا ، قاد حصانه إلى الدون ليورده . وبينما كان ينزل إلى الماء الذي قد فاض حتى حوافي البساتين ، رأى أكسينيا . وخيل اليه أنها كانت تتلكأ عن قصد في امتياح الماء ، مالئة دلويها بتمهل ، وكأنها تنتظر نزوله . فتعجل خطاه ، وإذ كان يتقدم منها عبرت ذهنه ذكريات حزينة ، متوهجة كلمع البرق... .

وما أن سمعت خطاه حتى استدارت ، وبدت على وجهها دهشة مفتعلة دونما شك . غير أن فرحها باللقاء وألمها القديم فضحا افتعالها . فابتسمت ، ابتسامة بائسة ساهمة ، لا تليق بوجهها الأنوف ، حتى لقد ارتج قلب غريغوري حباً وشفقة . فأوقف حصانه ، وقد وخزه الشوق وأذلته الذكرى ، وقال :

- صباح الخير ، أيتها العزيزة أكسينيا .

- صباح النور .

كان صوت أكسينيا مزيجاً غريباً من الدهشة والحب والمرارة .

- منذ زمان لم نتحادث .

- منذ زمان .

- نسيت حتى رنّة صوتك... .

- أنت سريع النسيان .

- صحيح ؟

ودفع غريغوري عنها الحصان الذي كان يلتصق به . وأحنت أكسينيا رأسها وحاولت أن تعلق دلوها بطرف النير ، لكنها لم تستطع . ولبثا واقفين لا يريمان برهة من الزمن . ورفت كالسهم بطة برية فوق رأسيهما . ومضت الأمواج ترتطم بالضفة ، وهي تلعق التربة الطباشيرية بنهم ، وعلى الجانب

الآخر كانت الأمواج بيضاء الصدور تسري خلال الغابة التي فاض عليها النهر . وكانت الريح مغعمة بالرذاذ وعطر الدون الريحاني ، وهي تغذ الهبوب في طريقها صوب مراميه البعيدة في طغيان عارم .

حول غريغوري عينيه عن أكسينيا إلى النهر ، كانت أشجار الحور قائمة في الماء بجذوعها الرمادية الشاحبة ، تؤرجح فروعها الجرد ، وأشجار الصفصاف ، تزينها أزهار البكر ، مطلة فوق النهر مثل غيمات خضر ناعمة . ثم سأل غريغوري ، وقد شاب صوته شيء من البرم والمرارة :

ـ حسناً ، أليس لنا مانتحدث به ؟ فيم سكوتك ؟ لكن أكسينيا كانت قد استعادت رباطة جأشها ، فأجابت دون أن يرف عصب في وجهها :

ـ يبدو أننا قلنا كل ماكان لدينا... .

ـ حقاً ؟

ـ نعم ، كما يجب . لاتزهر الشجرة إلا مرة كل عام .

ـ وهل ترين أن شجرتنا انقضى وقت ازدهارها ؟

ـ وماذا ترى أنت ؟

ـ إنه لشيء غريب ، نوعا ما... .

وترك غريغوري حصانه يمضي إلى الماء ، وابتسم ابتسامة حزينة ، وهو يرنو إلى اكسينيا :

ـ غير أنني لاأستطيع أن أنتزعك من قلبي ، يا أكسينيا . ها إن لي أطفالاً يكبرون ، وبدأ الشيب يدب في رأسي ، وكم من السنين باعدت بيننا ، مثل هوة سحيقة! لكنني لم أزل أفكر بك . ومافتئت أراك في نومي وأهواك . وفي بعض الأحيان ، وحين أفكر بك ، أشرع في استعادة ذكريات حياتنا معاً عند ليستنسكي . لكم أحببنا بعضنا!... وحين أنظر أحياناً إلى ماضي حياتي تبدو لي مثل جيب خاو قُلِب على بطانته...

ـ وأنا كذلك . لكن علي أن أذهب الآن... فنحن واقفان نتحدث أكثر من اللازم...

وبعزم رفعت الدلوين ، ووضعت يديها الملفوحيتن على النير ، وكانت على وشك أن ترقى المنحدر ، غير أنها أدارت وجهها على حين غرة صوب غريغوري ، واكتست وجنتاها توردأً فتياً بديعاً :

ـ كان هنا تماماً ، عند هذا الموضع بالضبط ، حيث ولد حبنا ، ياغريغوري . أتذكر ؟ كان ذلك يوم رحل القوزاق إلى معسكر التدريب .

قالت ذلك مبتسمة ، وانبعثت في صوتها نغمة جذلى...

ـ أذكره كله!

وعاد غريغوري بحصانه إلى الفناء ثم إلى المعلف . وخرج بانتلاي بروكوفتش من السقيفة ، وكان قد بقي ليودع غريغوري ، وسأله :

ـ حسناً ، هل سترحل عما قريب ؟ أتريد أن أطعم حصانك ؟

فنظر غريغوري إلى أبيه ساهما وتساءل :

ـ أرحل إلى أين ؟

ـ ماذا ، إلى كارغينسكايا بالطبع .

ـ لست راحلا اليوم .

ـ ماذا تقول ؟

ـ غيرت رأيي .

ولعق غريغوري شفتيه اليابستين وحول عينيه صوب السماء :

ـ الغيوم تتصاعد ويبدو أنها ستمطر . ليس هناك ما يدعوني لأن أعرض نفسي للبلل .

فقال العجوز موافقا : «هذا صحيح» وإن كان لم يصدق غريغوري ، لأنه كان في زريبة الماشية وراء المنزل قبل بضع دقائق وشاهد غريغوري يتحدث إلى أكسينيا . فقال في سريرته بقلق : «هاهو يعود إلى حيله القديمة . آمل ألا يجلب المتاعب لناتاليا من جديد ، عليه اللعنة ، لاشك أن يشابهني ، هذا الكلب!» . وتوقف عن صنع العريش للعربة وشخص إلى ظهر ابنه المبتعد ، وحين نبش ذاكرته مستعيداً شبابه هو ، شبابه المبكَر ، قرْ قراره : « انه

صورة منّي ، هذا الشيطان! لكنه فاق أباه العجوز في هذا الميدان ، لسوف أجلده بدلاً من أن أدعه يلعب برأس أكسينيا من جديد ويجلب المتاعب إلى العائلة! ولكن أنّى لي ذلك ؟!

في سابق الأيام ، كان اذا ظفر بغريغوري يتحدّث إلى أكسينيا ، لم يتردد في ضربه على ظهره بأيما شيء وقع في يده . لكنه اليوم لم ينبس ببنت شفة حتى أنه لم يكشف عن معرفته السبب الحقيقي الذي حدا بغريغوري أن يبدل رأيه فجأه . اذ أن غريغوري لم يعد « غريشا » ذلك القوزاقي الفتى الطائش ، بل قائد فرقة ، جنرالاً تحت أمرته آلاف من القوزاق ، وان لم يكن يحمل شارات على كتفه . فكيف يتسنى له ، هو بانتلاي بروكوفتش الذي لم ترق رتبته إلى أعلى من رتبة عريف ، أن يعارض جنرالاً ، وان كان ابنه ؟ فلن يسمح له شعوره بالضبط والنظام حتى مجرّد التفكير بإتيان ذلك ، ولهذا شعر أن يديه مقيدتان ، وأحس بشيء من الغربة عن غريغوري . وحتى عندما صاح غريغوري عليه بخشونة أثناء الحراثة البارحة : «فيم وقوفك هناك فاغراً فاك ؟ أمسك بذاك المحراث!» رضخ للأمر ولم ينبس بجواب . ولقد بدا في الآونة الأخيرة أنهما قد تبادلا مقاميهما . فغدا غريغوري يصيح بأبيه المسن وراح بانتلاي بروكوفتش يرضخ إلى نبرة الأوامرالخشنة ، وهو يعظل هنا وهناك على ساقه العرجاء ابتغاء لمرضاة غريغوري .

وفكّر : « يقول أنه يخاف المطر! بينما لم تكن هناك أية إشارة للمطر ، والريح شرقية وليس ثمة الا غمامة صغيرة واحدة تمرق عبر السماء! أيجب عليّ أن أخبر ناتاليا ؟ » واذ أشاعت الفكرة الراحة في نفسه ، همّ بالذهاب إلى الدار . لكنه أعاد النظر في الأمر ، فعاد إلى عمله ، وقد خشي ما قد يعقب ذلك من عراك...

ما إن وصلت أكسينيا إلى الدار وأفرغت دلويها حتى مضت إلى المرآة ووقفت تحدّق قلقة في وجهها الذي كان يزحف اليه الكبر وإن ظل جميلاً .

كان لايزال محافظاً على مجونه وسحرغوايته ، على أن خريف الحياة كان قد شرع بالقاء ألوان كابية على وجنتيها ، وكانت ثمة صفرة تحف بجفنيها ، وخصلات شائبة قد اشتبكت في شعرها ، وقد غامت عيناها من كلال أسيان . ووقفت تحدّق في صورتها ، ثم استدارت وألقت بنفسها على السرير ، تذرف دموعاً غزيرة ، حلوة تسرّي عن الآلام مما لم تعرف لها مثيلاً منذ أجل بعيد .

في الشتاء تعول الرياح القارصة فوق منحدرات الدون القاتمة ، فتكنس عصفا أبيض من الثلج من الحوافي الجرد ، وتكومه أكواماً ، وتعجنه عجناً قوياً . فيتعلق ذلك الجلمود الجبار من الثلج فوق الصقيع ، متلألئاً في ضوء الشمس ، أزرق في السحر ، بنفسجياً شاحباً في الصباح ، وردياً في الفجر . ويظل متعلقاً ، يبعث الرهبة بصمته حتى يتآكله الذوبان من تحته ، أو ينوء بثقله فتقذفة عصفة من الريح . وآنذاك ، يهوي إلى أسفل في زئير مكتوم ، ساحقاً ادغال الشوك القميئة ، مكسراً كرز الطير المتعلق بالمنحدر باستحياء ، جاراً في طريقه حاشية من مثار الثلج ، مزبداً ومتوثباً صوب السماء...

ولم يكن حب أكسينيا الذي تراكم عبر عدد من السنين ، مثل تلك الثلوج ، ليحتاج إلى أكثر من دفعة صغيرة . فكان لقاؤها مع غريغوري كافياً وكذلك تحيته الرقيقة : « صباح الخير ، ايتها العزيزة أكسينيا » . ولكن ماذا عنه هو ؟ ألم يكن عزيزاً عليها ؟ ألم تكن مشغولة البال به كل هذه السنين ، ترجع اليه كل يوم ، كل ساعة ، خلال ذكريات لا تمحى ؟ كانت أفكارها تحوم حول غريغوري دائماً ، مع كل خاطرة تدور في ذهنها وكل خطوة تقوم بها . كذلك الحصان المعصوب يسير ويسيرحول مدار الناعور الذي لا ينتهي...

لبثت راقدة على السرير إلى أن حلّ المساء ، فنهضت واغتسلت ، ومشطت شعرها ، وشرعت ترتدي ملابسها بسرعة محمومة ، كأنها فتاة

على وشك أن تزف إلى عريسها المقبل . ارتدت قميصاً نظيفاً ، وتنورة صوفية ذات لون بنفسجي أحمر ، وحطّت عصابة على رأسها ، وألقت نظرة على نفسها في المرآة ، ثم انفلتت خارجة .

كانت الظلال تحوم حول تتارسكي رمادية بلون الحمام . وكان البط البري يتنادى بلهفة فوق المروج المغمورة بمياة الفيضان . وكان القمر الشاحب الواهن يرتفع وراء أشجار الحور على جانب الدون ، بينما استلقى عبر النهر شريط متموج من نوره . وكانت القطعان قد عادت من السهب قبل أن يتلاشى الضوء ، والبقرات تخور في أفنيتها ، وهي لم تشبع بعد من الحشيش الغض . لم تتوقف أكسينيا لحلب بقرتها ، بل ساقت العجل أبيض الأنف خارج الاسطبل وتركته يمضي إلى أمه . فانقض العجل بنهم على الضرع الرقيق ، ملوحاً بذيله ، وساقاه الخلفيتان متوترتان متباعدتان .

كانت داريا قد فرغت من الحلب ، وكانت تحمل السطل والمصفاة عائدة إلى الدار حينما سمعت صوتاً يناديها من ناحية السياج :

ـ داريا!

ـ من أنت ؟

ـ أنا اكسينيا ... تعالي إلى كوخي لحظة .

ـ ما الذي تريدينه مني ؟

ـ أنا بحاجة ماسّة اليك . تعالي ، بحب المسيح .

ـ سأصفّي هذا الحليب ثم أتيك .

ـ سأكون في انتظارك في الفناء .

وبعد بضع دقائق خرجت داريا فوجدت اكسينيا تنتظرها عند بوابة آل استاخوف . وكانت تنبعث من داريا رائحة الحليب الطازج وزريبة البقر ، واصابتها الدهشة لمرأى اكسينيا متزينة بملابس العيد .

ـ انهيت أعمالك مبكراً هذا المساء ، يا جارة! .

ـ أشغالي قليلة في غياب ستيبان . ليس هناك سوى بقرة واحدة... ولا أكاد أطبخ ... الا قليلاً ومن حين إلى حين ، وهذا كل شيء .

ـ ماذا أردت منّي ؟

ـ تعالي إلى الداخل بعض الوقت . لدي ما اطلبه منك .

وكان صوت اكسينيا يرتجف ، فتبعتها داريا إلى المطبخ ، وهي تكاد تحزر سبب الحديث . وما أن دخلت حتى مضت اكسينيا إلى صندوقها دون أن تشعل ضوءاً ، فنبشت فيه ، ثم امسكت بيد داريا بيديها اليابستين اللاهبتين ، وادخلت خاتماً في اصبعها باستعجال .

فقالت داريا مستغربة :

ـ ما هذا ؟ أهو خاتم حقاً ؟ لا أظنّك تقصدين اعطاءه لي ؟

ـ بلى ، انه لك... تذكاراً...

فاستفهمت داريا بنبرة جدّية وهي تمضي إلى النافذة لتتفحص الخاتم في اصبعها تحت نور القمر الباهت :

ـ أهو من ذهب ؟

ـ نعم ، من ذهب . خليه لديك .

ـ حسناً ، شكراً لك . ماالذي تريدينني أن أفعل لأجل ذلك ؟

ـ اطلبي من غريغوري ... ان يأتي اليّ...

فابتسمت داريا ابتسامة عليم بالأمور :

ـ اللعبة القديمة من جديد ؟

فجفلت اكسينيا وتوهجت حتى طفرت الدموع إلى عينيها :

ـ لا ،لا! اوه ، ماالذي يجول في ذهنك! اريد أن أكلمه حول ستيبان فقد يستطيع أن يحصل له على اجازة .

واحتجت داريا بخبث :

ـ ولكن لمَ لم تأتي لزيارتنا ؟ كان يمكن أن تتحدثي اليه هناك لو كان لديك أمر معه .

ـ لا ، لا! فقد تظن ناتاليا... . احراج...
ـ حسناً ، سأدعوه . لست بخيلة به .

* * *

كان غريغوري يتناول عشاءه . وكان قد فرغ من ملعقته وراح يمسح شاربه بيده . واذ شعر بقدم تلامس قدمه تحت المائدة ، رفع نظره . فرأى داريا تغمز له غمزة لا تكاد ترى .

فحدّث نفسه باهتياج : «إن كانت تستهدف جرّي لأحتل مكان بيوتر ، وتحدثني بأي شيء من هذا القبيل ، فسأضربها بالسوط . لسوف آخذها إلى ساحة درس الحبوب ، واعقد تنورتها حول رأسها ، والهبها بالسوط كالكلبة!» غير أنه قام عن المائدة ، واشعل سيكارة ومضى على مهل إلى سقيفة الباب . فخرجت داريا وراءه على الفور . وحين مرّت به همست في اذنيه قائلة :

ـ آه ، أيها الخنزير! اذهب إنها تريدك .

فتساءل غريغوري وهويشهق بالسؤال :

ـ من ؟

ـ هي!

وبعد ذلك بساعة ، حينما نامت ناتاليا والأطفال ، خرج غريغوري ، ومعطفه مزرر بإحكام عليه ، مع اكسينيا من بوابة فناء آل ستاخوف . لبثا لحظة واقفين بصمت في الشارع الجانبي المعتم ثم مضيا ، يلفهما الصمت ذاته ، نحو السهب الذي كان يلوح لهما بسكونه ، وظلمته ، وعطر حشيشه الغض المسكر . وشدّ غريغوري اكسينيا اليه وهو يلفها بطيات معطفه ، فأحس بها ترتجف ، بينما كان قلبها يدق عنيفاً بطيئاً تحت قميصها...

٥١

قبل رحيل غريغوري في اليوم التالي ، جرى نقاش بينه وناتاليا اذ انتحت به جانباً وسألته همساً :

ـ أين ذهبت الليلة الماضية ؟ ولمَ تأخرت في العودة إلى هذا الحد ؟

ـ هل تأخرت حقّاً ؟

ـ حسناً ، ألم يكن كذلك ؟ لقد استيقظت وسمعت الصيحة الأولى للديك ، ولم تكن قد عدت بعد... .

ـ كان كودينوف هنا . وكان عليّ أن أراه للبحث في بعض القضايا العسكرية . وهذا شيء لا تستوعبه عقول النساء ، كعقلك .

ـ ولكن لِمَ لم يأت لقضاء الليلة هنا ؟

ـ كان يستعجل الوصول إلى فيشنسكايا .

ـ وأين يبيت ؟

ـ عند آل أبونشتشيكوف . اذ له قرابة بعيدة معهم . أو شيء من هذا القبيل .

ولم تثر ناتاليا أي سؤال آخر ، وبدت شبه مقتنعة ، لكن عينيها لم تكشف عن حقيقة أفكارها ، ولم يكن في مقدور غريغوري أن يتأكد إن كانت قد صدقته أم لا .

تناول فطوراً سريعاً فيما خرج بانتلاي بروكوفيتش ليسرج حصانه . وهمست الينشنا وهي ترسم علامة الصليب وتقبّله :

ـ لا تنس الله ، لاتنس الله ، يابني . بلغ سمعنا أنك قتلت جماعة من البحارة... يا الهي!فكر بما أنت فاعل يا ولدي! أنظر ، أي أطفال لطاف لديك ، لربّما كان لأولئك الذين قتلتهم أطفال كذلك ، حينما كنت صبياً ، لكم كنت رقيقاً ، أمّا الآن فإنك دائم العبوس ولا بد أن قلبك كقلب ذئب . اصغ لما تقوله لك أمك ، يابني ، ليست حياتك محفوظة بطلسم ، وقد يكون هناك سيف صارم ينتظر عنقك أيضاً...

فابتسم غريغوري بفتور ، وقبّل يد أمّه اليابسة ، ومضى نحو ناتاليا . فعانقته ببرود وأشاحت عنه . لكنّه لم يلحظ أيّة دموع ، ولاشيء غير المرارة والغيظ المكتوم في عينيها . ثم ودّع أطفاله وخرج...

وحين كان يضع قدمه في الركاب ويمسك بعرف الحصان الكث ، قال يحدّث نفسه :« حسناً ، ها ان الحياة تأخذ منحى جديداً ، غير أن قلبي لايزال بارداً وخاوياً... وحتى اكسينيا لاتستطيع أن تملأه اليوم... »

ومن غير أن يلتفت ليلقي نظرة على عائلته المتجمعة حول البوابة ، مضى على حصانه متمهلاً حذر الشارع . واذ مرّ بكوخ أستاخوف نظر من زاوية عينيه إلى النوافذ فرأى اكسينيا عند النافذة الأخيرة للغرفة الأمامية ، فابتسمت ولوحت له بمنديل مطرّز ، ثم دعكته فجأة في يدها وضغطته على شفتيها وعلى عينيها اللتين كان السواد يحف بهما بعد ليلة لم تنم خلالها...

مضى صاعداً التل في خببٍ سريع . وعند القمّة رأى فارسين وعربة يتحركان ببطء على طريق الحقل باتجاهه . وتبين بينهما أنتيب ، ابن الكذوب ، وقوزاقياً شاباً أسمر من الطرف الآخر للقرية . فحدّث نفسه وهو يرى إلى عربة الثيران : «يجلبان قوزاقاً ميتين إلى أهلهم» . وحين تقدّم من القوزاقيين سألهما :

ـ من هم ؟

ـ أليكسي شامل وايفان توميلين وياكوف .

ـ مقتولين ؟

ـ نعم .

ـ متى

ـ أمس ، عند الغروب .

ـ هل البطارية سليمة ؟

ـ نعم . الحمر باغتوهم في مقرهم . أمّا اليكسي هذا فقد نال حتفه صدفة .

فنزع غريغوري قبعته وترجّل عن حصانه . فأوقفت السائقة المسنة الثيران . كان القوزاق القتلى ممددين جنباً إلى جنب في قاع العربة ، يتوسطهم اليكسي شامل . وحين تقدّم غريغوري ، تناهت إلى أنفه رائحة التفسّخ الكريهة . كان قميص اليكسي الأزرق العتيق مفتوحاً ، وقد طوى كمّه الخاكي تحت رأسه المشجوج ، وكان جذمور ذراعه المقطوعه ملفوفاً بخرقة قذرة ومسجّى على صدره . وقد تسمرت على أسنانه البيض ابتسامه وحشية خالدة ، لكن عينيه الجامدتين كانتا تحملقان بهدوء وتأمل بادي الأسى في السماء الزرقاء ، وفي السحب الطافية فوق السهب......

لم يكن بمقدور امرىء أن يميز وجه توميلين ، وفي الواقع ، لم يكن هناك وجه ، بل كتلة حمراء لاشكل لها شطرت بضربة سيف مائلة . أمّا ياكوف فقد كان أصفر كالزعفران ، ويكاد رأسه أن يكون مقطوعاً برمته عن الرقبة . وكانت عظمة الترقوة البيضاء المقطوعة بارزة من ياقة قميصة غير المزررة ، وامتد على جبينه جرح رصاصة أسود . والظاهر أن أحد رجال الجيش الأحمر قد أخذته الشفقة إزاء حشرجات الموت المنبعثة من القوزاقي المصاب فأطلق عليه النار بصورة تكاد تكون أفقيه ، اذ كان وجهه محروقاً ومبقعاً بأثار البارود الأسود .

اقترح غريغوري قائلاً :« حسناً ، يا اخوان ، فلنتذكّر أصدقاءنا القتلى وندخّن من أجل أن ترقد أرواحهم في سلام » .

ثم تنحّى جانباً وأرخى حزم السرج عن حصانه ، وأسقط الشكيمة من فمه ، وعقد الأعنّة بقادمته اليسرى ثم تركه يرعى على الكلأ الحريري الأخضر . فترجل أنتيب والقوزاقي الآخر عن حصانيهما ، وقيداهما ، ثم تركاهما يسرحان . واستلقى القوزاق وشرعوا يدخنون .

وتساءل غريغوري وهو يلقي نظرة على الثيران كثة الشعر وهي تتدافع على الحشيش :

ـ كيف قتل شامل ؟

ـ كان الذنب ذنبه .

ـ كيف ؟

ـ حسناً ، كان الامر كالاتي . ظهر أمس خرجنا لاداء واجبنا في مهمة دورية . كنّا أربعة عشر ، ومعنا شامل . مضى على حصانه جذلاً فلم يكن والحالة هذه ليشعر بنذير السوء . وراح يهز جذمور ذراعه هنا وهناك ، ويلقي الأعنّة على قربوس سرجه ويقول : «متى سيرجع عزيزنا غريغوري بانتلايفتش الينا ؟ بودّي أن أشرب معه من جديد وأغنّي معه أغنية أخرى» . أجل ، ظل يغنّي طوال الطريق ، وانحدرنا إلى الوهدة وقال العريف : «حسناً ، لا أثر للحمر هنا ، ياأولاد . برأيي أنهم لم يغادروا القرية بعد . ليس الفلاح الروسي بالذي يستيقظ مبكراً ، أظنهم مايزالون يحشون أنفسهم بالدجاج الاوكراني . فلنسترح قليلاً ، فخيلنا تتصبب عرقاً» وهكذا ترجلنا واضطجعنا فوق الحشيش في وهدة ناضبة ، وأبقينا حارسا على التل . رأيت أليكسي يرخي أحزمة سرج حصانه ، فقلت له : «يحسن بك ألا ترخي هذه الأحزمة ، فقد نضطر إلى الرحيل بسرعة . وحينذاك كيف سيتسنّى لك شدّها من جديد بيدك الواحدة ؟» لكنّه ردّ عليّ : «سأتدبرها اسرع منك . لا تحاول أن تعلمني ، يانبات الحلفاء الأخضر» فأرخى الأحزمة وأسقط الشكيمة من فم حصانه ، فتمددنا هناك ندخّن ونتحادث ونغفو . غير أن حارسنا كان مستلقياً تحت شجيرة ، فغفا هو الآخر . وعلى حين غرّة سمعت زنخرة حصان على مبعدة ما . لم أكن أرغب في الحركة ، لكنني نهضت مع ذلك ومضيت إلى قمّة التل . وهناك كان الحمر على خيولهم يجرون باتجاهنا وفي المقدمة قائدهم على حصان رائع ومعهم رشاش فعدوت هابطاً إلى الوهدة وصحت : «الحمر قادمون ، إلى الخيل!» ورآني الحمر أيضاً وتناهى الينا صوت آمرهم يصدر أمراً ، فامتطينا الخيول فاستل عريفنا سيفه وأرادنا أن نهجم ، لكننا لم نكن غير أربعة عشر ، وهم نصف سرية ، ولديهم مدفع رشاش أيضاً . فانطلقنا

خبباً ، ولم يكن في مقدورهم أن يستخدموا رشاشاتهم لموقعنا الذي لم يكن مناسباً بالنسبة لهم ، وهكذا بدأوا يطاردوننا . على أن خيلنا كانت أفضل من خيلهم ، فابتعدنا مسافة لابأس بها عنهم ، ثم ترجلنا عن خيلنا وبدأنا نطلق النار عليهم . وفي تلك اللحظة بالذات لاحظت أن شامل لم يكن معنا . فحين هرعنا لركوب خيلنا ، عدا هو إلى حصانه ، واستطاع أن يضع يده السليمة على قربوس السرج وقدماً في الركاب ، ولكن فيما كان يحاول الركوب انزلق السرج تحت بطن الحصان ولم يفلح في ركوب الحصان وبقي وحيداً يواجه الحمر . وعلى نحو ما استطاع الحصان أن يتخلص منهم فجاء يجري وراءنا والسرج يتأرجح تحته ، وصار مذعوراً بحيث لم يسمح لأحد أن يقترب منه فهو يخور كالوحش . وهكذا أودى شامل بنفسه . فلو لم يكن قد أرخى أحزمة السرج لكان اليوم حيّاً يرزق .

سرت ابتسامة تحت شاربي القوزاقي فختم قصته :

ـ كان شامل يغني في الايام الاخيرة أغنية تقول أن الدب قتل بقرة وصاحبها وهذا ماحدث في الواقع . لقد قتلوه بشكل لايتعرف به المرء على وجهه . ظلوا يشطبونه حتى صار الدم يتدفق منه ، ولو كنت هناك لحسبت أن ثوراً هائجاً قد ذبح في ذلك المكان . وبعد أن رددنا الحمر على أعقابهم ، مررنا بالوهدة والتقطناه .

وتساءلت المرأة التي كانت تقود العربة وقد نفذ صبرها ، وهي تزيح جانباً العصابة التي كانت تقي وجهها من الشمس :

ـ حسناً ، هل نواصل السير ؟

ـ لا تستعجلي ، ياامرأة ، سنمضي بعد لحظة .

ـ كيف تتوقّع منّي ألا أستعجل! إن هذه الجثث الميتة تبعث رائحة نتنة يمكن أن تطرحك أرضاً!

فقال أنتيب متفكراً :

ـ ولماذا لا تكون رائحتها قويّة ؟ لقد أكلوا كفايتهم من اللحم ونهشوا كفايتهم من النساءفي حياتهم... فالرجال على شاكلتهم تنبعث منهم رائحة نتنة دائماً حينما يموتون . يقال أن القديسين وحدهم هم الذين يفوحون بعطر ذكي ، ولكنكم لو سألتموني لقلت لكم إنها حزمة من الأكاذيب . فمهما بلغت قداسته فإنه سيظل يفوح برائحة نتنة كالبلوعة ما أن يبدأ في التعفن . ذلك قانون من قوانين الطبيعة . فهم جميعاً يهضمون طعامهم في مصارينهم ، والله أعطاهم من المصارين مثل أي انسان آخر .

غير أن القوزاقي الآخر انتابه الغضب لأمر ما فصاح به :

ـ أي جحيم تتحدث عنه ؟ قديسون! لنواصل السير .

ثم ودّع غريغوري القوزاق ومضى إلى العربة ليلقي نظرة أخيرة على أبناء قريته الموتى . ولم يلاحظ الا حينذاك أنهم كانوا ، ثلاثتهم ، حفاة ، بينما وضعت ثلاثة أزواج من الجزم عند أقدامهم .

فتساءل :

ـ من خلع جزمهم ؟

ـ قوزاقنا فعلوا ذلك ، ياغريغوري بانتلاييفتش . كانت جزمهم جميعاً جيدة ، فارتأت السرية أن من الأفضل خلعها واعطاءها لمن جزمهم عتيقة . وطبيعي أن للرجال الموتى عوائلهم . ولكن اولادهم يلبسون حتى الجزم العتيقة . ذلك ماقاله أنيكوشكا . قال : « الموتى لا يمكن أن يمشوا أو يركبوا . أعطوني جزمة أليكسي ، فإن لها زوجاً جيداً من النعل . والا فسأموت من البرد قبل أن أحصل على زوج واحد من الحمر! » وهكذا خلعناها ووضعنا بدلها ثلاثة أزواج عتيقة .

استحث غريغوري حصانه على الخبب ، وبينما كان يبتعد سمع القوزاقيين يتجادلان حول ما اذا كان قد ظهر قديس من بين القوزاق في يوم ما .

هبط إلى الوهدة ثم اجتاز طريق الهتمان ورأى كيف وصلت العربة

والفارسان القرية ببطء بعد أن نزلوا من المنحدر .

ولبث محافظاً على سرعته طوال الطريق تقريباً إلى كارغينسكايا . كان النسيم الرفيف ينفش عرف الحصان . وكانت السناجب البرية الطويلة ذات اللون البني تعدو عبر الطريق ، وهي تصفر هلعة . وكان صفيرها الحاد المنذر منسجماً على نحو غريب مع الصمت العميق المخيم على السهب . وكانت طيور الحباري تطير على علو منخفض فوق التلال القائمة على جانب الطريق ، وارتفع أحدها نحو السمت وكأنه يسبح في الفضاء اللازوردي ، متوهجاً كالثلج في ضوء الشمس ، وجناحاه يخفقان بسرعة ، ورقبته المطوقة بريش مخملي تشرئب أثناء طيرانه السريع ، وارتفع ، ثم خرّ هابطاً ، وجناحاه يشتد خفقانهما . وحين اقترب من الأرض راح جناحاه يخفقان ازاء مهاد خضر من الحشائش ، وذلك للمرة الأخيرة قبل أن يختفي ، وقد احتواه بحر من الخضرة .

كان نداء ذكور الحباري الملهوف العارم يسمع في كل مكان . وفي موضع ما ، وعلى مبعدة بضع خطوات من الطريق ، رأى غريغوري دائرة كاملة من الأرض هرستها ذكو ر الحباري المتصارعة على انثى الطير . لم تبق حشيشة في الدائرة ، ولم يكن فيها غير الغبار الرمادي الرقيق عليها آثار سيقان الطيور وعلى حواشي الدائرة تنتصب عيدان جافة من الشيح والنجيل ، وريش قوادم وذيل عالق بها مهتزاً في مهب الريح . وعلى مسافة ليست بعيدة من ذلك الموضع جفلت أنثى حباري في عشها ، وحين لم تجرؤ على الطيران راحت تركض مسرعة على ساقيها الصغيرتين ، وظهرها محدودب كظهر امرأة عجوز ، متجهة صوب الحشيش ، ثم اختفت .

كانت ثمة حياة عارمة ، نابضة غير مرئية تتفتح في السهب ، وقد بعث الربيع فيها الخصب والعطاء . كان العشب يتنامى بغزارة ، وكانت الطيور والحيوانات تتناسل في مضاجعها الخفية في السهب ، واكتست الحقول بكساء منفوش رائع من نبتات صغيرة لاحصر لها ، وليس ثمة غير النجيل

المتخلف من العام الماضي ، يتشبث بالأرض باصرار اتقاء الموت ، وقد تكاثف باكتئاب على منحدرات روابي الدفن التي انتصبت كالحرس فوق السهب . بيد أن الهواء النشيط المنعش كان يجتث ذلك النجيل بلا اكتراث من جذوره ويقذف به ، وهو يطارده من هنا ومن هناك فوق السهب النابض بالحياة .

بلغ غريغوري كارغينسكايا قبيل المغرب ، وفي الصباح التالي تسلّم قيادة الفرقة . وبعد أن ألقى نظرة على آخر التقارير الواردة من هيئة الأركان في فيشنسكايا ، وتشاور مع رئيس هيئة الاركان ، قرّ رأيه على القيام بعملية تعرض ، اذ كانت الكتائب تعاني نقصاً خطيراً في العتاد ، وصار لزاماً الحصول عليه عن طريق الهجوم ، والاستيلاء عليه من الحمر ، وكان هذا هو السبب الرئيسي للقرار الذي اتخذه غريغوري .

وقرب المساء سحبت إلى كارغينسكايا كتيبة مشاة وثلاث كتائب من الفرسان . واستقر الرأي على أخذ ستة من المدافع الرشاشة فقط من أصل اثنين وعشرين مماكان موجوداً في الفرقة ، اذ لم تكن ثمّة أحزمة عتاد للرشاشات الأخرى .

وشرعت قوات القوزاق بشن هجوم التعرض في الصباح التالي . فاستلم غريغوري بنفسه قيادة كتيبة الخيالة الثالثة ، وأرسل دوريات راكبة أمامه ، وقاد الكتيبة مسرعاً صوب الجنوب حيث أفادت التقارير أن كتيبتين من الجيش الأحمر قد حشدتا هناك استعداداً للهجوم على القرزاق .

وما أن ابتعد زهاء فرستين عن كارغينسكايا حتى لحق به ساع يحمل خطاباً من كودينوف ، وكان الخطاب كما يلي :

لقد استسلمت كتيبة سيردوبسكي لنا . وقد نزع السلاح عن جميع جنودها . وحاول عشرون منهم المقاومة فقتلوا واستولينا على أربعة مدافع ميدان (بيد أن المدفعيين الشيوعيين الملاعين قد هربوا بالمغالق) إضافة إلى مائتي قديفة وتسعة مدافع رشاشة . وتجري عندنا الآن احتفالات كبيرة بهذه المناسبة ، اننا

ـ حسناً ، لابأس . ولكن فيم الاستعجال ؟ ماذا جاء في الرسالة ؟ ومن الذي كتبها ؟ كودينوف ؟

ـ استسلمت كتيبة سيردوبسكي في أوست ـ خوبرسكايا .

ـ بديع! اذاً مازلنا أحياء نرزق! أذاهب أنت في الحال ؟

ـ في الحال .

ـ حسناً ، ليكن الله معك! وحينما تعود ستجدنا قد تقدمنا مسافة طيبة .

فألهب غريغوري حصانه بعنف . « يجب أن أرى ميشا وايفان على قيد الحياة... فقد أستطيع أن أعرف قاتل بيوتر... وأخلص إيفان وميشا من الموت... يجب أن أنقذهما... صحيح أن هناك دماً مهدوراً بيننا ، لكن هناك صداقتنا القديمة أيضاً » هكذا كان يفكّر وهو ينحدر من التل عدواً .

٥٢

ما ان دخلت السرايا المتمردة أوست ـ خوبرسكايا وأحاطت بكتيبة سيردوبسكي ، حتى مضى آمر اللواء بوغاتيريوف يصحبه فورونوفسكي وفولكوف لعقد مؤتمر للمداولة . فعقد المؤتمر فى بيت أحد التجار الواقع على مقربة من الساحة ، ولم يدم الا زمنا وجيزا . فحيا بوغاتيريوف فورونوفسكى دون أن يلقي سوطه ، وقال :

ـ كل شئ جرى على نحو بديع! سوف تثبت هذه المأثرة في سجل خدماتم . ولكن لِمَ لم تستطع الاستيلاء على المدافع ؟

فأجاب فورونوفسكي :

ـ صدفة ، مجرد صدفة ، أيها الآمر . كان كل المدفعيين تقربيا من الشيوعيين ، وقد أبدوا مقاومة يائسة حينما حاولنا تجريدهم من السلاح . فقتلوا اثنين من رجالنا وهربوا بمغالق المدافع .

ـ يا لسوء الحظ!

وألقى بوغاتيريوف قبعته على الطاولة ـ فبان بوضوح على القبعة الأثر الذى خلفته شارة الضباط التى انتزعت منها مؤخرا ـ وابتسم ابتسامة فاترة وهو يمسح وجهه العرق الأحمر ورأسه الحليق بمنديل قذر :

ـ حسناً ، ان كل شئ على مايرام! اذهب وتكلم الى جنودك ... أخبرهم بأن عليهم تسليم جميع أسلحتهم .

فارتج فورونوفسكي لنبرة الضابط القوزاقى الآمرة ، وسأل متلعثما :

ـ جميع أسلحتهم ؟

ـ لن أقول مرتين . قلت «جميع» وأعني «جميع» .

ـ لكننا اتفقنا على ألا تجرد الكتيبة من سلاحها . لا شك أنني أدرك أن المدافع والمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية... وكل ماهو من ذلك النوع من المعدات ، يجب أن نسلمه دون قيد أو شرط . أما بشأن المعدات التى تعود لرجال الجيش الأحمر...

فزمجر بوغاتيريوف وضرب ساقه بسوطه :

ـ ليس هناك جيش أحمر الآن! انهم ليسوا رجال الجيش الأحمر الآن بل جنود فى طريقهم للدفاع عن أراضي الدون...فاهم ؟ واذا لم يرضخوا ، فاننا سنجد طرقا كفيلة بجعلهم يرضخون . اننا لن نلعب الختيلة* . لقد زرعتم قذارتكم فى أرضنا ، وها انكم الآن تريدون فرض الشروط . لايمكن أن تكون بيننا أية شروط .فاهم ؟

وأحس فولكوف ، رئيس هيئة أركان كتيبة سيردوبسكي ، بالاستياء من كلمات بوغاتيريوف . فتساءل بحدة وهو يمرر أصابعه على أزرار ياقة قميصه الاطلس الاسود وينفش الخصل الكثة لناصية شعره السوداء الغزيرة :

ـ اذاً فأنتم تعتبروننا أسرى ؟ أهذا هو موقفكم ؟

---

* من كلمة «ختل» اى اختفى . لعبة الطماية ، وبالعامية المصرية لعبة الاستغماية . المترجمون

سنوزع الجنود الحمر على السرايا ونجعلهم يقاتلون أبناء جلدتهم . هناك شيء واحد كدت أنساه . لقد أسر اثنان من أبناء قريتك الشيوعيين ، هما ايفان كوتلياروف وميخائيل كوشيفوي ، اضافة إلى عدد كبير من شيوعيي يلانسكايا . انهم يساقون الآن في الطريق مشياً على الأقدام إلى فيشنسكايا حيث سنقضي عليهم . كيف هي الأمور لديك ؟ إن كنت بحاجة إلى خراطيش ، فأخبر الساعي سنبعث اليك خمسمائه .

كودينوف

فصاح غريغوري :« مراسل! » فهرع اليه بروخور زيكوف على حصانه في الحال ، واذ لاحظ التعبير المرسوم على وجه غريغوري ، استبد به الذعر حى أنه رفع يده بالتحية .

فصاح غريغوري فيه :

ـ ريابتشيكوف! أين ريابتشيكوف ؟

ـ في نهاية الرتل .

ـ اذهب وايت به هنا حالاً .

فمضى زيكوف هذباً ، وما هي الا برهة حتى جاء ريابتشيكوف إلى غريغوري خبباً .كان وجهه ذو العذارين الأشقرين قد ترك الطقس عليه أثره فبات جلده يتقشّر ، وقد حرقت شمس الربيع شاربيه وحاجبيه حتى استحال لونها أحمر كلون الثعلب وكان يبتسم وينفث دخان سيكاره كبيرة وهو يتقدّم . وكان حصانه الكميت الداكن ، السمين القوي على الرغم من حلول الربيع ، يخب بمرح خفيف جذل ، ونطاق صدره يتلامع .

وتساءل اذ لاحظ الساعي إلى جانب غريغوري :

ـ أهي رسالة من فيشنسكايا ؟

فأجاب غريغوري باقتضاب :

ـ نعم . استلم قيادة الكتيبة والفرقة . أنا راحل .

فقاطعه بوغاتيريوف ، وهو يفصح بسلوكه بشكل جلي أن الضابطين واقعان تحت رحمته تماما :

ـ لم أقل ذلك ، ولا داعي لازعاجي بافتراضاتكما .

وسادت الغرفة لحظة صمت . وكان ينبعث من الساحة هدير مكتوم . فراح فورونوفسكي يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، مفرقعاً مفاصل أصابعه ، ثم زرر قمصلته والتفت الى بوغاتيريوف وعيناه ترفان بعصبية :

ـ إن في لهجتك اهانة لنا ، وهى لا تليق بك ، ، كضابط روسي ، وأقول هذا لك وجها لوجه . ولسوف نعرف ، مادمت قد تحديتنا.. سنعرف كيف نتصرف . أيها الرائد فولكوف ، انا آمرك بالذهاب الى الساحة واخبار الضباط ألا يسلموا أسلحتهم الى القوزاق بأي حال من الأحوال . وأصدر أمرا الى الكتيبة أن تكون فى حالة استعداد . .سوف أنهي حديثي بعد قليل مع هذا.. هذا السيد بوغاتيريوف ثم آتي إلى الساحة .

فتلوى وجه بوغاتيروف غضباً ، وفتح فاه ليتكم . وغيّر لهجته فى الحال . فصفق قبعته على رأسه وهو لايزال يعبث بسوطه ، وقال برقة وأدب غير متوقعين :

ـ أيها السيدان ، انكما لم تفهماني جيدا . لا شك أنني لم أنشأ على ثقافة خاصة ، ولم أذهب الى الكلية العسكرية أبدا ، ولهذا فقد لا أكون قد عبرت عما أريد بشكل لائق . ولكننا جميعاً فى جانب واحد . ويجب ألا يكون بيننا أى شعور بالاستياء . فكل ما أردت قوله هو أن رجال الجيش الأحمر ينبغي أن يجردوا من سلاحهم على الفور ، وعلى الأخص أولئك الذين لا ثقة لنا ، أو لكم ، بهم . وهذا كل ما قلت .

ـ فى مثل هذه الحالة ، كان عليك أن تتحدث بوضوح أكثر ، أيها الآمر . يجب أن تتفق معنا ان لهجتك المتحدية ، وسلوكك كله...

وهز فورونوفسكي كتفيه واستطرد بلهجة أهدأ ، وإن ظلت نبرة برمة تشوب صوته :

ـ كان من رأينا نحن أن ينزع السلاح عن العناصر المترددة وغير المؤتمنة وتسلم لكم لتتصرفوا بهم كما تشاؤون...

ـ نعم ، هذا ماقلته .

ـ حسنا ، اذاً ، قلت اننا صممنا على تجريدهم من السلاح بأنفسنا . أما جماعتنا من الصداميين ، فاننا سنحتفظ بهم كوحدة . سنحتفظ بهم بأي ثمن . أنا نفسي أو مساعدي فولكوف ، الذى سمحت لنفسك أن ترفع الكلفة معه ، فسوف نتولى قيادة الوحدة وسنمحو عن أنفسنا بكل شرف عار الاشتراك فى صفوف الجيش الأحمر . وعليك أن تمنحنا هذه الفرصة .

ـ كم سيكون عدد المشاة فى جماعتكم ؟

ـ نحو مائتين .

فوافق بوغاتيريوف على مضض : « حسنا ، لا بأس » .

ثم قام ، وفتح الباب وصاح حدر الممر على صاحبة البيت :

وحينما ظهرت عند الباب امرأة متقدمة فى السن تضع حول رأسها شالا ، أمرها أن تأتي اليه بشئ من اللبن...

ـ اعذرني ، ارجوك . لا يوجد لدينا لبن .

فقال متهكما :

ـ أظنك كنت تقدمين اللبن للحمر ، اما لنا فلا ؟

وأعقب ذلك صمت مقلق . ثم قطعه فولكوف اذ تساءل :

ـ هل لي أن أذهب ؟

فأجاب فورونوفسكي وهو يتنهد :

ـ نعم ، اذهب واصدر أمرا بنزع السلاح عن أولئك الذين أدرجنا أسماءهم فى القائمة .

لم يكن ما حدا بالرئيس الركن فورونوفسكي أن يقول : «سنعرف كيف نتصرف» الا شعوره بالاهانة التي وجهت الى كرامته كضابط . فقد أدرك تماما أن اللعبة قد تمت وأن طريق التراجع قد انقطع . وكانت الأنباء

قد بلغته بأن قوات أرسلت من مقر الجيش لنزع السلاح عن كتيبة سيردوبسكي المتمردة وأنها كانت فى طريقها قادمة من أوست ـ مدفد يتسا وسوف تصل فى غضون بضع ساعات . على أن بوغاتيريوف هو الآخر أدرك أن فورونوفسكي كان ضابطا يعتمد عليه ولا يخشى منه أي ضرر ، ولم تكن لديه أية فرصة للتراجع ، ولهذا وافق على مسؤوليته الخاصة على تشكيل وحدة مقاتلة مستقلة من القسم الذى يعتمد عليه من الكتيبة . وعلى هذا الأساس انتهى المؤتمر .

وفي الوقت نفسه ، كان القوزاق قد شرعوا ينزعون سلاح الكتيبة بنشاط وجد ، دون أن ينتظروا نتائج المؤتمر . وراحت عيون وأيدي القوزاق الشرهة تنقب فى عربات أمتعة الكتيبة ، وتستولي لا على العتاد فحسب ، ولكن على الجزم الجيدة ، ولفافات السيقان ، والبطانيات ، والسراويل والطعام . وازاء هذا التطبيق للعدالة القوزاقية حاول زهاء العشرين من رجال سيردوبسكي أن يقاوموا فهمز أحدهم أخمص بندقيته في قوزاقي أخذ منه كيس النقود ، وصاح «أيها اللص! ما الذي تأخذه ؟ أرجعه والا ستنال حربة تنفذ فيك» .

فتلقى الاسناد من رفاقه وارتفعت صيحات حانقة :

ـ يا رفاق ، الى السلاح!

ـ لقد خدعونا .

ـ لاتسلموا بنادقكم!

ونشبت معركة بالأيدي ، ثم حشر المتمردون رجال الجيش الأحمر ازاء جدار . حيث قضى عليهم خيالة القوزاق فى بضع دقائق .

وحين وصل فولكوف استؤنف نزع السلاح بسرعة أشد . وصف رجال سيردوبسكي صفوفا ، وأخذوا يكومون على الأرض بنادقهم وقنابلهم اليدوية ومعدات تلفون الميدان ، وصناديق الخراطيش وأحزمة المدافع الرشاشة .

ثم تهادى بوغاتيريوف الى الساحة على حصانه خببا . وصاح من فوق

حصانه الهائج أمام رجال سيردوبسكى وهو يرفع سوطه فوق رأسه على نحو متوعد :

ـ اصغوا الي! من اليوم فصاعدا ، سوف تقاتلون الشيوعيين الملاعين وجنودهم . وسيشمل العفو كل من يمضي معنا ، أما أولئك الذين يحاولون التملص فسينالون ذلك الجزاء! ـ وأشار بسوطه الى الجثث ، التى لم يبق عليها سوى الملابس الداخلية . وقد جثمت تحت الجدار فى كومة بيضاء لا شكل لها .

وهدرت همهمة خلال صفوف رجال الجيش الأحمر ، دون أن يرفع أحدهم صوته بالاحتجاج أو يخرج من الصفوف .

كان القوزاق ـ مشاة وفرسانا ـ يحيطون بالساحة فى حلقة محكمة ، وعلى مقربة من سور الكنيسة صوبت مدافع سيردوبسكى الرشاشة باتجاه مراتب سيردوبسكي نفسها ، وقد قرفص خلفها رماة رشاشات القوزاق على أتم استعداد لاطلاق النار .

وفى غضون ساعة من الزمن ، قام فورونوفسكي وفولكوف بانتقاء الرجال الذين يعتمد عليهم من بقية الكتيبة . كان عددهم ١٩٤ . وقد سميت الوحدة «فوج الثوار الخاص الأول» وخرجت فى اليوم نفسه الى خط الجبهة . وقد سرت شائعة آنذاك بأن الكتيبة الثانية والثلاثين للجيش الأحمر تحت قيادة ميشكا بلينوف الشهير كانت تتقدم ساحقة كل ما يصادفها . ولقد أرسلت سرية من احدى قرى منطقة أوست ـ خوبرسكايا لملاقاتها فأبيدت هذه السرية عن بكرة أبيها . وقد كان بوغاتيريوف عازما على اختبار عناصر القتال فى الفوج الجديد عن طريق اقحامه فى معركة ضد بلينوف .

أما بقية كتيبة سيردوبسكي البالغ عددهم زهاء ثمانمائة رجل فقد سيقوا على امتداد ضفاف الدون الى فيشنسكايا . هذا ما امره كودينوف فى رسالة موجهة الى بوغاتيريف . وكان فى حراستهم ثلاث سرايا من القوزاق ، مجهزة بمدافع سيردوبسكي الرشاشة .

وقبل أن يغادر بوغاتيريوف أوست ـ خوبرسكايا حضر قداسا دينيا ، ثم غادر الكنيسة ولم يكن القس قد أتم دعاءه بالنصر «للمحاربين القوزاق المحبين للمسيح» . وحينما امتطى حصانه نادى على أحد أمراء السرايا المتمردة والتي كان عليها ان تبقى فى اوست ـ خوبزسكايا وأصدر اليه التعليمات هامسا فى اذنه :

ـ أحرسوا أولئك الشيوعين كما تحرسون مستودعا للبارود .

وفى الغد سوقوهم الى فيشنسكايا تحت حراس موثوقة . وأرسلوا السعاة اليوم الى القرى لاخبار الناس عن هوية القادمين . انهم سينزلون عقابهم بهم .

وغادر القرية .

٥٣

حوالى منتصف النهار ، ذات يوم من أيام نيسان ، ظهرت طائرة فوق قرية سينكين فى مقاطعة فيشنسكايا . فهرع الأطفال والنساء والشيوخ خارج أكواخهم وقد استلب هدير المحرك العميق لبهم ، ورحوا يشرئبون بأعنافهم ويضعون راحاتهم على عيونهم وهم يحملقون نحو الطائرة التى راحت تحوم دائرة كالصقر فى السماء المضببة فوقهم . وصار هدير المحرك أعلى وأقوى فيما كانت الطائرة تهبط على مهل ، باحثة عن موضع مستو للبهوط فى المرعى خارج القرية .

وصاح جد عجوز ذو خيال خصب وقد استبد به الفزع : «سيلقون علينا القنابل فى الحال! حذارا» فتناثر الحشد المتجمع فى ركن الشارع كقطرات الماء . وراحت النساء تجرجر أطفالهن الزاعقين ، والشيوخ يتواثبون كالماعز فوق الأسيجة ويلوذون بالبساتين .

ولم تبق فى الركن الا امرأة عجوز واحدة . وما كان لها أن تتخلف عن

الهرب ، بيد أنها انكفأت على الأرض . إما لأن ساقاها خانتاها في غمرة الرعب أو أنها تعثرت فوق أجمة . وحيث انكفأت بقيت راقدة وهى تدفر بساقيها الهزيلتين بلا حياء وتنادي بصوت واهن :

ـ آه ، أنقذوني! الموت ، الموت!

ولم يستدر أحد لينقذ المرأة العجوز . ومرت الطائرة فوق مخزن الغلال مباشرة ، بهديرها الفظيع ، فحجب ظل جناحيها نور النهار ثانية من الوقت عن عيني العجوز المرتعبة . وفى تلك اللحظة ، حين أضحت نصف ميتة من الخوف ، لا تسمع ولاتحس بشيء حولها أوتحتها ، بالت على نفسها كالطفل . وكان من الطبيعي أن يستبد بها الرعب حتى أنها لم تلحظ أن الطائرة قد حطت على المرعى ، وأن رجلين يرتديان قمصلتين جلديتين سوداوين ظهرا من قمرة الطيار . واستدارا بتردد صوب القرية وهما يجيلان النظر حولهما حذرين .

بيد أن زوجها ، الذى كان قد اختبأ فى البستان ، كان عجوزاً شجاعا ، وبالرغم من أن قلبه كان يخفق بشدة كقلب عصفور فى فخ ، فقد كانت لديه من الشجاعة ما جعله يلبث ليراقب ماحدث . وكان هو الذي شخص فى أحد الرجلين ضابطا ، ، هو بيوتر بوغاتيريوف ، ابن رفيق له فى الكتيبة . وكان بيوتر ، وهو قريب غريغوري بوغاتيريوف ، آمر لواء المتمردين الخاص ، قد تراجع مع البيض الى الدونيتس . ولكن مما لا شك فيه أنه كان هو نفسه ، بيوتر بوغاتيريوف .

وحدّق العجوز متفرسا بعض الوقت ، وهو يقرفص كالأرنب ويداه متدليتان أمامه . وأخيرا قام على قدميه ليرى ما اذا كانت ساقاه ستحملانه ، وقد اقتنع أنه كان بيوتر بوغاتيريوف فعلا ، بيوتر أزرق العينين نفسه الذي كان قد زارهم فى العام السابق بذقنه غير الحليق . وحملته ساقاه بشكل بديع ، ولم يرتجف الا قليلا . وهكذا بزغ العجوز ، ببطء من البستان .

ولم يذهب الى زوجته العجوز ، التى كانت لا تزال راقدة فى التراب ، بل سار مباشرة صوب بيوتر ورفيقه ، وهو ينزع قبعته فتساءل العجوز :

ـ قل لي ، ألست بيوتر بوغاتيريوف حقا ؟

ـ بلى ، هو أنا ، أيها الجد!

ـ اذن ، فقد أنعم الله عليّ برؤية الماكنة الطيارة في شيخوختي! لقد بثّت فينا الرعب حقا .

ـ لا يوجد حمر فى المقاطعة ، أليس كذلك ، أيها الجد ؟

ـ كلا ، يابني . ردوا الى مكان ما عبر التشير في المناطق الأوكرانية .

ـ وهل نهض قوزاق قريتنا سينكين أيضا ؟

ـ لقد نهضوا بالفعل ، ولكن عددا كبيرا منهم رقدوا من جديد .

ـ وكيف هذا ؟

ـ اقصد قتلوا .

ـ آه! وعائلتي ، وأبي... . هل هم بخير ؟

ـ كلهم بخير وأحياء يرزقون ، ولكن ، هل أتيت من الدونيتس ؟ هل رأيت ابني تيخون هناك ؟

ـ نعم ، لقد جئت اليك بتحية منه . حسنا ، أيها الجد ، كن حارسا على الطائرة كيلا يعبث بها الأولاد . انا ذاهب الى البيت ـ والتفت الى الرجل الآخر وقال : ـ هيا بنا .

وانطلق بيوتر وصاحبه الى القرية . وبدأ القرويون المذعورون يظهرون من البساتين ومن المآوي والسراديب ومن كل جحر وشق يخطر على البال . مضوا يحيطون بالطائرة التي كانت ماتزال تنفث رائحة النفط والزيت . وكان جناحاها قد اخترقهما رصاص ومنشار في مواضع عدة . وكانت تقف صامتة حارة كحصان مجهد .

هرول العجوز الذى كان أول من شخص بيتر بوغاتيريوف نحو الزقاق الذي سقطت فيه زوجته ، ليزف اليها أخبار ابنهما .

ولكنه لم يعثر لها على أثر . اذ كانت قد لملمت نفسها وهرعت الى الكوخ لتغير ملابسها . فمضى العجوز الى الكوخ ، وحين وجدها صاح : « بيوتر بوغاتيريوف عاد الى القرية . حمل الينا تحية من يتخون » . ثم لاحظ أن زوجته العجوز كانت تغير ملابسها ، ومن غير أن يدرك لذلك سببا ، فار الغضب فيه فزأر فيها : « لماذا ترتدين أحسن الحلل ، أيتها العجوز الهرمة ؟ لن يلتفت إليك أى انسان ، ايتها الشيطانة الفانية! » .

وسرعان ما تجمع كهول القرية في بيت والد بيوتر بوغاتيريوف وراح كل منهم ينزع قبعته عند العتبة ، ويرسم علامة الصليب أمام الايقونات ، ويجلس بوقار على المصطبة متكئا على عكازته .ومضى بيوتر بوغاتيريوف يقص عليهم ، وهو يرتشف من قدح لبناً بارداً ، كيف أنه طار إلى المنطقة بناء على تعليمات من حكومة الدون في نوفوتشيركاسك ، بغية اقامة اتصال مع القوزاق المتمردين ومد يد المعونة اليهم في نضالهم ضد الحمر ، بتجهيزهم بالعتاد والضباط بواسطة الجو . وأخبرهم بأنه لن يمضي وقت طويل حتى يقوم جيش الدونيتس بهجوم تعرضي على امتداد جبهته ثم يلتحق بجيش المتمردين . ولام الشيوخ على ضعف تأثيرهم في القوزاق الشباب الذين تركوا الجبهة وسمحوا للحمر أن يطأوا أرض الدون ، وأنهى كلامه بالقول :

ـ ولكن ما دمتم قد أعدتم النظر في ذلك وطردتم الحكومة السوفيتية الى خارج المنطقة ، فان حكومة الدون ستغفر لكم كل شيء .

فقال أحد الشيوخ متردداً :

ـ ولكن حتى الان ، يا بيوتر غريغوريتش ، ماتزال لنا حكومة سوفيتية ، ولكن ليس فيها شيوعيون ، ولا يحمل علمنا ألوانه الثلاثة ، انما هو أحمر وأبيض .

وأضاف آخر :

ـ وشبابنا ، الخنازير ، لايزالون ينادي أحدهم الآخر بكلمة « رفيق » حينما يتحادثون .

فابتسم بوغاتيروف تحت شاربه ، وأجاب وهو يضيق عينيه الزرقاوين بصورة مرحة :

ـ حكومتكم السوفيتية أشبه بالجليد في الربيع . لا تلقي الشمس عليها بعض الدفء حتى تذوب وتتلاشى . أما أولئك الذين نظموا عملية الفرار من الجبهة ، فاننا سنجلدهم جميعاً فور عودتنا من الدونيتس!

فهدر الشيوخ مستحسنين فرحين :

ـ لا فض فوك ، أجلدوهم ، هؤلاء الشياطين! أجلدوهم حتى ينزف الدم منهم! أجلدوهم على الملأ!

* * *

وقرب حلول المساء ، هرع قائد المتمردين ، كودينوف ، وضابط ركنه ، ايليا سافونوف ، الى سينكين فى مركبة تجرها ثلاثة جياد ، وكان ساع قد أحاطهما علما بوصول الطائرة . فهرعا الى كوخ بوغاتيريوف وقد استبد بهما الفرح بالنبأ ، حتى أنهما لم يتوقفا لتنظيف جزمتيهما ومعطفيهما من الوحل .

٥٤

سار الشيوعيون الخمسة والعشرون الذين غدرت بهم كتيبة سيسردوبسكي الى خارج أوست ـ خوبرسكايا ، تحت حراس مشددة . لم يخطر ببالهم أن يحاولوا الفرار . وكان ايفان أليكسييفتش يحدق فى الوجوه المتحجرة للحرس القوزاق وفى نظراته حقد وتوفز ، وهو يحجل وسط الجماعة ، ويحدث نفسه : « هذه خاتمة المطاف . اذا لم نحاكم ، قضي علينا » .

كانت أغلبية الحرس القوزاق من الكهول الملتحين . وكان يقودهم شيخ من شيعة « المؤمنين القدامى » ، وهو عريف سابق فى كتيبة الأتمان . وما ان

ترك الأسرى أوست ـ خوبرسكايا حتى أصدر أوامره ألا يتحدثوا أو يدخنوا أو يسألوا شيئا .

وصرخ بهم ، وهو يرفع مسدسه :

ــ أتلو صلواتكم ، ياخدم أعداء المسيح . أنتم ذاهبون الى حتفكم ، فلا حاجة بكم لاقتراف الخطايا فى ساعاتكم الأخيرة . لقد نسيتم الرب ، وبعتم أنفسكم الى الشيطان الرجيم . وسمتم أنفسكم بسمة الأعداء!

لم يكن بين الأسرى سوى شيوعيين اثنين من كتيبة سيردوبسكي . أما الباقون ، خلا ايفان ، فقد كانوا من منطقة يلانسكايا ، وهم فتية طوال أشداء كانوا قد انضموا الى الحزب الشيوعي حينما بلغت القوات السوفييتية منطقتهم ، وعملوا في الميليشيا أو كرؤساء للجان الثورية فى القرى ، ، ثم هربوا الى أوست ـ خوبرسكايا للانضام الى الجيش الأحمر حينما اندلع التمرد . وكانوا كلهم تقريباً من الحرفين فى زمن السلم : نجارين ، صانعي براميل ، بنائين ، أسكافيين وخياطين . ولم يبد على أي منهم أن له أكثر من خمسة وثلاثين ربيعا ، وكان أصغرهم سنا فى العشرين من عمره . وبدا الاختلاف الكبير واضحاً بينهم ، وهم الأشداء الوسيمون ذوو الأذرع التي فتلها العمل البدني ، بين قوزاق الحراسة الكهول ذوي الظهور المحدودبة .

همس أحد شيوعيي يلانسكايا وكان يسير الى جانب ايفان :

ـ هل سيحاكموننا ؟ ماذا تظن ؟

ـ ليس ذلك محتملا جدا .

ـ سوف يقتلوننا ؟

ـ هذا ما أتوقعه .

ـ لكنهم لايعدمون أسراهم بالرصاص . هذا ما قاله القوزاق . ألا تذكر ؟

وخيم على ايفان اليكسييفتش الصمت ، لكن شرارة من الامل اضيئت في داخله . فقال فى سريرته : «هذا صحيح ، لن يجرؤوا على إعدامنا

بالرصاص . فقد كان شعارهم «يسقط نظام الكومونات ، والاعدام والسلب»... ويشاع انهم لم يذهبوا الى أبعد من إلقاء الاسرى فى السجن . شئ من الجلد ، ثم السجن . حسنا ، فما هذا بالشيء الذي يخيف . سوف نبقى فى السجن حتى يحل الشتاء ثم ما ان يتجمد الدون حتى يكون اصحابنا قد طردوا البيض ، فيطلقوننا من الاسر» .

توهج الامل مثل الشرارة ، وتلاشى مثل الشرارة أيضا . «كلا ، سيقتلوننا ، انهم متوحشون كالابالسة . وداعا ، ايتها الحياة! آه ، نحن لم نسر على النهج الصحيح! لقد كان علينا ان نقاتلهم ولاتأخذنا بهم رحمة . كان يجب علينا الا نبقيهم احياء ، بل وجب ان نشطرهم بسيوفنا حتى اقدامهم» . لم قبضتيه وهز كتفيه في سورة غضب يائس ، وسرعان ما انكفأ واوشك ان يسقط على الأرض اذ هوت على رأسه ضربة من الخلف .

وارعد العريف المسؤول عن الركب وهو على حصانه قريبا منه : «فيم تلم قبضتيك ، يا خنزير ؟» ولفح ايفان بسوطه ، فتخلفت ندبة عبر وجهه تمتد من الصدغ الى الذقن .

فتساءل احد رجال يلانسكايا بابتسامة متوسلة وصوت راعش : «من تراك تضرب ؟ اضربني انا ، يا أب! انه جريح ، فلماذا تضربه ؟» وخطا خارج الجمع ووقف قدام ايفان باستكانة . فهدر العريف : «سيكون لك ما يكفيك كذلك! اشبعوهم ضربا ، ايها القوزاق! اضربوا الشيوعيين!» .

وهوى السوط بضراوة على قميص الرجل الخفيف حتى ان خرق القماش انكمش كما تنكمش الاوراق فى النار ، وانفجر الدم القاتم من الجرح مبللاً القميص . وراح العريف ، وهو يلهث غيظا ، يستحث الاسرى بحصانه وشرع يعمل بسوطه بلا وازع...

وهوى السوط كرة اخرى على ايفان أليكسيفتش . فتوهجت نيران قرمزية فى عينيه ، ومادت الارض تحت قدميه ، وبدت الغابة الخضراء

تتأرجح على الضفة المقابلة . فأمسك بالركاب وحاول ان يجر العريف من سرجه ، بيد ان ضربة من نصل السيف أطاحت به ارضا على رأسه . فامتلأ فمه بتراب جاف خانق ، وراح الدم اللافح يتدفق من أنفه وأذنيه .

وظل الحرس يضربونهم ضربا موجعا فترة طويلة من الوقت ، وقد كوموهم حتى غدوا مثل قطيع من الغنم . وتناهت الى اذن ايفان اليكسيفتش ، وهو ملقى على الارض وكأنه فى حلم ، صيحات ووقع اقدام حاد من حوله وزنخرة الخيل الهائجة . وسقطت على رأسه الحاسر كتلة من زبد الحصان الدافئ ، وانبعثت من موضع ما ، قريب جدا ، فوقه مباشرة ، جهشة تشنجية فظيعة وصرخة :

ـ ايها الخنازير! لعنة الله عليكم! تضربون رجالا عزلا! يا...

وداس الحصان على ساق ايفان اليكسيفتش المجروحة ، وضغطت اطراف الحدوات العمياء فى لحم سمانة ساقه ، وأحس بخبطة سريعة من الضربات فوقه . وما هى الا لحظة حتى تكوم الى جانبه جسد ثقيل مبلل ، يفوح منه العرق ورائحة الدم المالحة ، وتسمع ايفان الى الدم يبقبق من بلعوم الرجل كما يبقبق سائل يسكب من قنينة...

وحينما أتم القوزاق اشباعهم ضربا ، ساقوهم حدر النهر ، جعلوهم يغسلون جراحهم . ومضى ايفان يغسل جراحه ورضوضه المحرقة ، فتوغل فى الماء حتى بلغ ركبتيه ، وضم كفيه كالقدح وراح يشرب الماء بلهفة ، مخافة ان تفوته فرصة ارواء الظمأ الذي كان يخز بلعومه .

وبينما كانوا يتقدمون من القرية الاولى ، سبقهم احد القوزاق وهو يركب حصانا شد الربيع من عوده والتمع جلده بالعرق ، وانطلق فى عدو سريع . ومضى داخل القرية ، واذ لم يكد الأسرى يمرون بأول فناء ، حتى تدفق عليهم جمع من الناس مسلح بالمذاري والمعازق والعصي والعتلات . وما ان رأى ايفان والاخرون القوزاق والنساء حتى أدركوا ان تلك كانت الطريقة التى سيلاقون فيها حتفهم .

فصاح احد الشيوعيين : «ليودع احدنا الآخر ، ايها الرفاق!» لقد بدا ظل ماحدث ، بعد عملية الضرب الاولى تلك ، حوداث وقعت في كابوس مريع . فقد سيقوا ثلاثين فرستا خلال قرية تلو قرية ، يستقبلهم في كل منها جمع يسومهم العذاب . كان الشيوخ والنساء والاطفال الكبار يضربونهم ، ويبصقون على وجوههم المتورمة والملطخة بالدماء ، ويقذفونهم بالحجارة وكتل الطين المتيبس ويقذفون الرماد والتراب في عيونهم ، وكانت النساء فظاظاً بشكل خاص ، فلجأن الى اكثر وسائل التعذيب دهاء وقسوة . وحين دنت خاتمة المطاف لم يكن يسيراً تشخيص الرجال الخمسة والعشرين على انهم كائنات بشرية ، فقد كانت اجسامهم ووجوههم مشوهة على نحو وحشي ، وكان يغطيهم دم قاتم متلبد يخالطه الوحل .

كان كل واحد من الخمسة والعشرين يسعى ، فى البدء ، الى الابتعاد ما أمكنه عن حرسهم ، لتجنب الضربات . وحاول كل منهم ان يندفع الى الوسط ، وكانت النتيجة ان تكوموا فى كتلة قوية من الاجساد . بيد ان القوزاق لجأوا الى تفريقهم على الدوام وأجبروهم على المسير فى تشكيلة اكثر اتساعاً . ففقد الرجال كل أمل فى اقل حماية من الضربات وراحوا يغذون السير على نحو غير منظم ، لاتعتمل فيهم غير رغبة مؤلمة واحدة : ان يلزموا انفسهم بمواصلة السير وعدم الوقوع . فلو وقعوا لما استطاعوا النهوض من جديد . وكان كل منهم يعطي وجهه ، فى البدء ، بيديه ، ويرفع كفيه بضعف الى عينيه حينما كانت الاسنان الحديدية للمذاري او اطراف العصي المفلطحة تلوح امامه . غير انهم اضحوا فى الاخير لايأبهون لأيما شيء ابدا . فقد كانوا بادئ الامر ، يرفعون ابتهالات تطلب الرحمة ممزوجة بالأنات واللعنات وزئير ألم لايطاق كزئيرحيوان يائس . ولكن ما ان انتصف النهار حتى مضوا صامتين ، الا واحدا منهم ، وهو شاب من يلانسكايا ، كان اصغرهم سنا جميعا ، وهو مهذار الكتيبة ومحبوبها ،

وجسمه يتشنج بمجموعه ، وهو يجرجر ساقا غدت حطاما اثر ضربة بعمود هوت عليها .

غدا ايفان اليكسييفتش أقوى معنويا بعد اغتساله في الدون ، وحينما رأى القوزاق والنساء يجرون ناحيته ، ودع الرفاق القريبين منه بعجالة وقال بصوت خفيض :

ـ حسنا ، ايها الاخوة ، لقد عرفنا كيف نحارب . والآن ينبغي علينا ان نعرف كيف نموت بشرف . هناك شيء واحد يجب ان نتذكره حتى النفس الاخير ، فكرة واحدة تظل عزاء لنا . قد يحطموننا بعصيهم ، غير انهم لا يستطيعون القضاء على السلطة السوفييتية بعصا . ايها الشيوعيون! ايها الاخوة! موتوا شجعانا ، حتى لا يستطيع العدو ان يضحك منا!

وفي قرية بوبروفسكي لم يصبح بمقدور احد الأسرى ،كان قد ضربه الشيوخ بقساوة ومهارة ، ان يتحمل اكثر مما يتحمل فاطلق صرخة بصوت طفولي موحش ، وفتح ياقة قميصه ، واظهر للنساء والقوزاق صليبا صغيرا قاتما معلقاً بخيط حول عنقه :

ـ ايها الرفاق ، انني لم انضم الى الحزب الا مؤخرا... لتأخذكم الرحمة بي! انا اؤمن بالله . لدي طفلان صغيران... اشفقوا عليّ! ان لكم اطفالا كذلك...

ـ أي رفاق نحن لك ؟ امسك لسانك! فلهث عجوز افطس الانف صائحا به وهو يضربه مرتين ضربا شديداً :

ـ تذكرت طفليك ، ايها الخنزير الشرير! ها قد عدت الى صوابك الآن اذاً ، أليس كذلك ، أخرجت صليبك ؟ لكنك حين قتلت قوزاقنا ، حين وضعتهم نصب الحائط ، لم تكن تفكر بربك آنذاك ؟

من غير ان ينتظر الرد ، لوح بقبضته وهوى بها على رأس الرجل .

لم يكن لأي شيء مما رأته عينا ايفان اليكسييفتش او سمعته اذناه ان

يترك أي اثر فيه او يستحوذ على اهتمامه حتى لبرهة وجيزة من الوقت . كان قلبه كمن قُدَّ من حجر ، ولم يع ما حوله الا مرة واحدة فقط . دخلوا قرية ذات ظهر ، تلاحقهم الشتائم والضربات ، ومضوا يجاهدون حدر الشارع . وعلى حين غرة ، لاحظ ايفان ، وهو يلقي نظرة الى احد الجوانب ، طفلاً له من العمر زهاء السبع سنوات يتشبث بتنورة امه ، والدموع تنساب مدراراً من عينيه وهو ويصرخ :

ــ ماماتي! لاتضربيه! آه ، لاتضربيه... انني مقهور عليه... انني خائف... انه غارق في الدم .

فصرخت الامرأة بغتة ، وكانت على وشك ان تنزل عصاها على احد الأسرى . وألقت سلاحها ، ولاذت فرارا بزقاق جانبي وهي تمسك بولدها بيدها . فجاشت نفس ايفان من شفقة الطفل ودموعه . فأحس بالدموع تترقرق في عينيه هو وتملّح شفتيه المتشققتين . ونشج عندما تذكر ولده الصغير وزوجته ، ومن خلل الذكرى المفاجئة تولدت فيه رغبة عارمة في الا يموت على مرأى منهما... من الخير ان يموت قبل ذلك...

ومضوا يجاهدون في سيرهم ، لا يكادون يقوون على جر أرجلهم ، وهم يترنحون من شدة الانهاك والألم . كان ثمة بئر في السهب وراء القرية ، فتوسلوا الى العريف المسؤول أن يسمح لهم بالشرب .

فصاح العريف : «لا حاجة بكم للشرب . لقد تأخرنا . هيا!» على ان واحدا من الحرس نطق بلسانهم قائلا :

ـ لا تكن بهذه القسوة ، يااكيم سازونوفتش! هم بشر مثلنا .

ــ بشر ؟ ليس الشوعيون ببشر . ولا تحاول انت ان تعلّمني ، أأنا المسؤول أم أنت ؟

فأجاب القوزاقي العجوز : «ثمة مسؤولون كثار من امثالك . امضوا ، يا اولاد ، واشربوا!» وترجل عن حصانه ، واستقى من البئر جرة مليئة بالماء . فأحاط به الأسرى في الحال ، وقد التمعت عيونهم الخابية المهروسة ، وامتد

خمسة وعشرون زوجا من الايدي للامساك بالجرة . وهمسوا بأصوات مبحوحة :

ـ اعطني شيئا من الماء ياجدي!

ـ جرعة واحدة على الاقل!

ـ ايها الرفاق! كل بدوره!

فلبث العجوز متردداً دون ان يدرى من يسقي اولا . ثم مرت ثانية لا تنصرم ، صب الماء بعدها في جابية الشرب المدفونة وتنحى وهو يصيح :

ـ هاكم . هل انتم قطيع من الماشية ؟ كل بدوره!

وانسكب الماء فوق القعر العفن الدبق الاخضر للجابية . فقذف الأسرى انفسهم ناحيتها . واستقى العجوز احدى عشرة جرة ، واحدة اثر اخرى ، حتى ملأ الجابية ، وقد انعقد حاجباه شفقة بهم .

فجثا ايفان اليكسييفتش على ركبته ليشرب . وحينما اطفأ ظمأه ، رفع رأسه ، ورأت عيناه ، بوضوح غريب يكاد يعمى ، الغطاء الابيض بلون الجمد للتراب الطباشيري على الطريق المحاذي للدون ، وزرقة التلال النائية ، ورأتا فوقها ، فوق الدون ذي الناصية البيضاء والانسياب الرشيق ، وفي قبة السماء اللازوردية المنيعة ، غيمة صغيرة . كانت تمضي طافية على جناح من ريح مثل شراع ابيض ، تيمم صوب الشمال ، وقد انعكست صورتها البيضاء على منحنى للنهر ، بعيد .

٥٥

في مؤتمر سري عقدته القيادة العليا للقوات المتمردة اتخذ قرار بطلب المساعدة من حكومة الدون والاتمان بوكايفسكي . وصدرت التعليمات لكودينوف ان يحرر رسالة يعلن فيها عن توبة المتمردين وندمهم لدخولهم في مفاوضات مع الحمر وتركهم الجبهة في نهاية عام

١٩١٨ . فقطع كودينوف فى هذه الرسالة وعداً نيابة عن قوزاق الدون الاعلى المتمردين بان القتال ضد البلاشفة سيستمر بضرواة حتى النصر النهائى وطلب ان يزود بضباط أركان وخراطيش بواسطة الجو عبر جبهة القتال .

بقي بيوتر بوكاتيريوف مع المتمردين ، اما الطيار فقد عاد الى نوفوتشيركاسك حاملاً رسالة كودينوف . ومنذ ذلك الحين اقيم اتصال وثيق بين حكومة الدون والقوات المتمردة . وجعلت طائرات صنعت فى فرنسا تحلق كل يوم تقريبا من وراء الدونيتز ، ، جالبة ضباطا وخراطيش وكميات قليلة من قذائف مدافع الميدان الخفيفة . وكان الطيارون يحملون ايضا رسائل من قوزاق الدون الاعلى الذين تراجعوا مع جيش الدون ، ويعودون برسائل جوابية من عوائلهم .

وراح الجنرال سيدورين ، قائد جيش الدون الابيض ، يبعث الى كودينوف بخطط العمليات والتعليمات والتقارير والمعلومات الخاصة بفرق الجيش الاحمر التى كانت تنقل الى جبهة المتمردين ، وفق متطلبات الوضع فى جبهة الدونيتز واعتباراته الستراتيجية . ولم يطلع كودينوف الا نخبة قليلة من رجاله على الاتصالات القائمة بينه وسيدروين ، ملقيا على الامر ستارا من السرية يحجبه عن جميع الآخرين .

٥٦

بلغ الأسرى تتارسكي فى حوالى الساعة الخامسة . كان ضوء الغسق الوجيز وشيكا ، وكانت الشمس تغور راء الافق ، وقرصها المتوهج متكئا على حافة كتلة ممزقة زرقاء رمادية من الغيوم فى الغرب .

وكان قوزاق سرية مشاة تتارسكي بين جالس وواقف فى ظل مخزن حبوب القرية الكبير يومذاك ينقلون الى الضفة اليمنى للدون لمساعدة سرايا

يلانسكايا التى كانت تواجه مشقة فى الصمود امام ضغط الحمر ، وحين كانوا فى طريقهم الى موقعهم الجديد عرجت السرية برمتها الى القرية ليروا عوائلهم وليجددوا مؤونتهم من الزاد .

وكانوا على وشك ان يستأنفوا مسيرتهم فى الحال ، بيد انهم سمعوا ان الشيوعيين الاسرى كانوا يساقون صوب فيشنسكايا وان ميشا كوشيفوى وايفان اليكسييفتش كانا من بينهم ، وانهم بالغون تتارسكي عما قريب . ولذلك قرروا ان ينتظروهم . وكان القوزاق الذين قتل اقرباؤهم مع بيوتر ميلخوف فى المعركة خارج تتارسكي مصرين بشكل خاص على رؤية كوشيفوى وايفان اليكسييفتش .

جلسوا ووقفوا يتبادلون أحاديث فاترة فيما بينهم ، وقد أسندت بنادقهم الى حائط المخزن ، يدخنون ويمضغون بذور عباد الشمس ، وقد أحاطت بهم النساء والشيوخ والاطفال . كانت القرية عن آخرها فى الشارع . وكان الاطفال قابعين على سطوح الاكواخ يرقبون قدوم الأسرى .

وأخيرا انطلق صياح صبي :

ـ ها هم قادمون!

فأسرع الجنود ينهضون ، وعج الناس وضجوا ، وكانت ثمة اصوات مسرعة فيما كان الصبية يركضون لملاقاة الاسرى . واطلقت أرملة اليكسي شامل ، والاسى لا يزال غضا فى قلبها ، صرخة جنوبية .

وقال احد الشيوخ :

ـ اعداؤنا قادمون!

فصاحت اصوات اخرى :

ـ إقتلوا الأبالسة!

ـ لقد قتلوا رجالنا!

ـ لسوف نصفي الحساب مع كوشيفوي وصاحبه وكانت داريا ميليخوفا

واقفة مع زوجة انيكوشكا . وكانت اول من شخَّص ايفان اليكسييفتش من بين رهط الاسرى وهم يتقدمون .

وهدر العريف بصوته فوق عويل الصيحات وصراخ النساء والنحيب : «لقد جئناكم بواحد من قريتكم . تعالوا وتفرجوا عليه ، ابن القحبة هذا! امنحوه قبلة مسيحية!» ومد يده واشار الى ايفان اليكسييفتش .

ـ ولكن اين الآخر ؟ اين ميشا كوشيفوي ؟

وشق انتيب طريقه خلال الجمع ، وهو ينزع بندقيته عن كتفه .

فاجاب العريف ماسحا العرق من وجهه بمنديل احمر وهو يترجل عن حصانه بكلال :

ـ ليس معنا الا واحد من رجالكم ، فلم يكن هناك آخرون! ولكن كلا منكم سيحصل على نتفة منه اذا مزقتموه إرباً!

وعلا صراخ النساء وعويلهن الى اقصى حد يستطعنه . وشقت دايا طريقها صوب الركب فرأت ايفان اليكسييفتش وقد استحال وجهه اسود مزرقاً بالرضوض والدماء وهو يخفق على مبعدة بضع خطوات امامها . وكان رأسه المتورم على نحو مريع بشعره المغطى بقشرة الدم المتيبس يبدو مثل سطل مقلوب . وكان اديم وجهه يخفق مزقا ، وكان قد وضع على الكتلة من مزيج الدم والشعر فوق فروة رأسه قفازين صوفين اراد بهما ان يقي الجرح المفتح من الشمس المحرقة والذباب . وكان القفازان قد التصقا بالجرح ، وهكذا بقيا على رأسه .

اجال بصره حوله وقد بدا عليه سيماء الطريد ، باحثا فى الجمع عن زوجته وولده الصغير ، وان كان يتوجس خيفة من العثور عليهما . كان يريد ان يطلب من شخص ما ، اي شخص ، ان يبتعد بهما ان كانا حاضرين هناك . فقد ادرك انه لن يذهب الى ابعد من تتارسكي ، ان حتفه هنا ، ولم يرد ان تشهد عائلته موته . وكان ينتظر موته بفراغ صبر متعاظم . واذ كان فى وقفته تلك ، متهدل الكتفين ، شرع يدير رأسه ببطء ومشقة ، وعيناه

تجولان في الوجوه المألوفة لأهل قريته . فلم يستشف في أي وجه اثراً من شفقة او تعاطف . لقد كانوا كلهم ، قوزاقا وقوزاقيات ، يخزرونه بعيون يتطاير منها الشرر . وكان قميصة الخاكي التالف ، الذى تصلب من الدماء ، يخشخش مع كل حركة منه . وكان ثمة دم على بنطاله ، بنطال الجيش الأحمر المبطن ، وعلى قدميه العاريتين المعقدتين .

زرعت درايا نفسها امامه... ولبثت تحدق في وجهه ، وهي تلهث كراهية وألما وتتلظى بهاجس معذب من ان شيئا فظيعا ينبغي ان يتم هنا ، في هذا المكان ، غير انها لم تستطع ان تتبين ان كان قد رآها وشخَّصها ام لا .

وبذات التعبير القلق المتوفر ، مضى ايفان اليكسييفتش يجيل في الجمع نظرة عينه باستمرار (اذ صُمِّت العين الاخرى برضة) . وعلى حين غرة استقرت نظرته على داريا ، فارتج الى الامام مترنحا ، كما لو كان قد اعطي مخدرا قويا . وكان رأسه يميد لكثرة ما فقد من الدم ، واوشك ان يقع مغشيا عليه . بيد ان حالة التخبط التى بدا كل شيء خلالها غير حقيقي واستحال فيها الضياء الى عتمة ، أشاعت فيه القلق وجعلته يبذل اقصى ما في حوزته من ارادة ليظل واقفا على قدميه . فرأى داريا وشخَّصها وخطا الى الامام مترنحا . حوَّم شيء يشبه الابتسام من بعيد على شفيته المشوهتين . فبعث شبح الابتسامة تلك القلق في درايا وجعل قلبها يجب بسرعة وعنف ، وكأنه قد صعد الى بلعومها .

فتقدمت الى ايفان اليكسييفتش مباشرة ، وهى تلهث بشدة ووجهها يزداد شحوبا ، أكثر فأكثر .

وتساءلت : « كيف حالك ياابن العم ؟ » . وأفلحت نبرة صوتها الرنانة المتهيجة وترنيمة كلماتها الغريبة في اسكات هدير الحشد . وكان جوابه لا حياة فيه وان كان ثابتا ، وجاء مسموعا وسط ذلك السكون :

ـ وكيف حالك ، يا ابنة العم درايا ؟

ـ أخبرنا ، يا ابن العم العزيز ، كيف قتلت... ـ واختنقت داريا وشدت

قبضتها الى صدرها ، ، ثم مرت لحظة لم تقو فيها على المضي . لكن همستها اذ استأنفت كلامها ، بلغت الأسماع حتى فى اخر الجمع : ـ ... ابن عمك ، زوجي .

ـ كلا ، يا ابنة العم ، لم اقتله .

فعلا صوتها متحشرجا :

ـ لم تقتله ؟ ألم تكن أنت وميشا كوشيفوي من قتل قوزاقنا ؟

ـ كلا ، يا ابنة العم ... نحن ... أنا لم أقتله .

فرفعت درايا صوتها :

ـ اذن ، من الذي أزهق روحه ؟ من ؟ قل لي من .

ـ كتيبة زامورسكي...

ـ انت! انت قتلته... القوزاق قالوا انهم شاهدوك على التل . كنت تمتطي حصانا أبيض . أتنكر ذلك ، ياوغد ؟

ـ كنت فى تلك المعركة...

وارتفعت يد ايفان اليكسييفتش اليسرى ببطء الى رأسه وجعلت تعدل وضع القفازين اللصيقين بالجرح . وحينما استطرد فى كلامه ، كانت ثمة نغمة تردد واضحة فى صوته :

ـ كنت فى تلك المعركة ، على أنني لم أكن من قتل زوجك ، بل ميخائيل كوشيفوي . أرداه بالرصاص . ان هدر دم ابن العم بيوتر لم يكن على يدي .

فزعقت أرملة ياكوف بصوت نفاذ من بين الجمع :

ـ اذن ، من قتلت من أبناء قريتنا ، يا عدو ؟ أطفال من تركتهم يتامى في هذه الدنيا ؟

فشرعت النساء يبكين بكاءً هستيرياً ، مضاعفات ما كان في الجو من توتر .

قالت داريا ، بعد تلك الحادثة ، انها لاتستطيع أن تتذكر كيف ومن أين

جاءت غدارة خيالة بيديها . لابد أن أحداً قد أعطاها اياها . ولكن حينما تعالت أصوات النساء ، هجست شيئاً غريباً في يديها ، وبدون أن تنظر اليه عرفت انها غدارة . فأمسكت بها ، في البدء ، من ماسورتها مستهدفة أن تضرب ايفان بأخمصها . غير أن سدادة الرمي راحت تخز راحتها وخزاً مؤلما فرفعت أصابعها ، وأدارت الغدارة ، ثم ركزتها على كتفها ، وصوبتها كذلك باتجاه الناحية اليسرى من صدر ايفان .

فرأت القوزاق وراءه يجرون الى الجانبين ، كاشفين عن جدار مخزن الحبوب . وطرقت سمعها صيحات : «أنت مجنونة! سوف تصيبيننا! قفي ، ولاترمي! » . واذ كان يستحثها الترقب الوحشي للجمع ، والرغبة فى الثأر لموت زوجها ، والى حد ما المجد الزائف الذى ولّده فيها اكتشاف نفسها فجأة أنها متميزة عن باقي النساء ، وادراكها أن القوزاق كانوا يشخصون اليها فى ذهول وحتى فى خوف وهم ينتظرون خطوتها التالية ، وأنها بسبب من ذلك ملزمة باتيان شئ ما غريب ، خارق ، قمين ببث الرعب فيهم جميعا.. واذ استحثتها كل تلك المشاعر فى آن واحد ، اندفعت بسرعة مخيفة اتجاه شيء كان قد تقرر فى أعماق وعيها ، شيء ما كان بمقدورها ان تعمل فكرها فيه وما كانت حتى لتفعل ذلك ، فترددت ، ، وهى تتلمس موضع الزناد بحذر . ثم ، فجأة وعلى غير ان توقعت هي نفسها ، وسحبته الي الوراء بقوة .

كاد رجع الغدارة ان يزعزعها من موضع قدميها ، وأصم الطلق اذنيها . بيد انها رأت ، خلال شقي عينيها المضيقتين ، ، وجه ايفان اليكسييفتش تتبدل قسماته بشكل فجائي ، فظيع لايمحى من الذاكرة ، ورأته ينشر يديه ثم يضمهما وكأنه على وشك ان يقفز الى الماء من علو شاهق ، ثم يهوي على رأسه ، ويرتج رأسه كمن اصابته حمى ، وجسده يرتعش ، واصابع يديه المبسوطتين تنشب فى الأرض .

فأسقطت داريا الغدراة ، وهى لما تزل غير مدركة ما فعلته بوضوح ،

وادارت ظهرها للرجل المطروح ، وبحركة بدت بساطتها المطلقة امرا غير طبيعي ، سوت عصابة رأسها ودست شعرها المشعث تحتها .

فقال احد القوزاق وهو يفسح لها المجال باحترام غريب : «انه لايزال يتنفس! » .

ومن غير ان تستوعب ما كان يقال او عما كان الكلام ، تلفتت حولها واستمعت الى انين عميق متقطع بدا انه ينبعث لا من بلعوم انسان ولكن من اعماق قلبه . استحال الانين الى حشرجة الموت . ولم تدرك الا آنئذ ان الانين كان ينبعث من ايفان اليكسييفتش ، الذي لقي حتفه على يديها . واستحثت خطاها بسرعة وخفة حذاء جدار المخزن متجهة صوب الساحة . ولم تلتفت لتتابعها الا عيون قليلة ، اذ كان اهتمام الجمع قد تحول الى انتيب ابن الكذوب ، الذى هرع الى ايفان اليكسييفتتش مسرعا على اصابع قدميه وكأنه فى ساحة الاستعراض ، وهو يخفي حربة وراء ظهره لسبب ما . وبحركات موزونة متأنية ، قرفص على عقبيه ، وسدد نصل حربته الى صدر ايفان ، ، وقال بهدوء : ـ حسنا ، مت الآن يا كوتلياروف! ـ وبكل ما لديه من قوة ضغط على مقبض الحربة .

كان موت ايفان مؤلما وبطيئا . كانت الحياة تصدف عن مغادرة جسده الصحيح القوي . وكان ، حتى بعد الطعنة الثالثة للحربة ، لايزال يفغر فاه وتنبعث « آه ـ آه ـ آه » متحشرجة كليلة من بين اسنانه المدماة .

وقال عريف الركب وهو يدفع انتيب بعيدا : «انت يا هذا ، رح الى الشيطان! » . ورفع العريف مسدسه وسدده نحو ايفان بحركة اعتيادية .

كانت طلقته بمثابة الاشارة للقوزاق ليقذفوا بانفسهم على الاسرى . فتشتت الرجال المطاردون وتبعثروا باضطراب ، واختلط صوت اطلاقات البنادق الحاد المقتضب بالصرخات...

دلف غريغوري ميليخوف مسرعا على حصانه الى تتارسكي في اقل من ساعة بعد ذلك . وكان قد انهك حصانه حتى الموت ، الى ان انكفأ على

الطريق بين قريتين . فحمل غريغوري سرجه الى اقرب قرية ، واستعار حصانا بانسا . بيد انه وصل متأخرا . فقد كانت سرية تتارسكي قد اختفت وراء التل فى طريقها صوب حدود منطقة اوست ـ خوبرسكايا ، حيث كان المتمردون يقاتلون وحدات من الخيالة الحمراء ، وكانت القرية ساكنة مهجورة ، والليل ينشر غطاءه القاتم على التلال المحيطة وما وراء الدون واشجار الحور والصفصاف...

مضى غريغوري على الحصان الى فنائه ، فترجل ودخل الى الدار . لم يكن ثمة ضياء فى المطبخ . وكان البعوض يطن فى الظلال المعتمة ، والايقونات ترسل بصيصا خافتا فى الركن... فصاح غريغوري ، وهو يتنسم رائحة البيت المألوفة التى تشيع فى النفس الاضطراب :

ـ هل من احد فى الدار ؟ اماه ؟ دونيا ؟

وانبعث صوت دونيا من الغرفة الامامية : «غريغوري ، أهذا انت ؟» وتناهى الى سمعه صوت انصفاق اقدام عارية ، وظهر شبح اخته الابيض عند الباب وهي تعقد مشدة تنورتها الداخلية باستعجال .

فسألها : «فيم ذهابك الى الفراش مبكرا ؟ اين امي ؟» وغرقت دونيا فى الصمت ، تسمع غريغوري اليها تتنفس بسرعة واضطراب .

ـ ماذا حدث ؟ كم من الوقت مضى على وصول الاسرى هنا ؟

ـ لقد قتلوهم .

ـ ماذا ؟

قتلهم القوزاق ، آه ، غريشا! داريا ، هذى الغراب الشرير... ـ ورنت في صوت دونيا دموع مغضبة ـ ... لقد قتلت ايفان اليكسييفتش بنفسها... بالرصاص...

فصاح غريغوري مذعورا وهو يمسك بأخته من ياقة قميصها :

«ماهذا الذي تهذرين ؟» وتلألأت الدموع في عيني دونيا ، فأدرك غريغوري من الذعر المتجمد في بؤبؤيهما ان أذنيه لم تخدعاه .

ـ وميخائيل كوشيفوي ؟ وشتوكمان ؟

ـ لم يكونا بين الاسرى .

وقصت عليه بايجاز وبصوت كسير مصرع الاسرى الحمر وما فعلته داريا . وانتهت الى القول :

ـ وخافت ماما من قضاء الليلة معها فى البيت نفسه ؟ فذهبت لتنام عند بعض الجيران . وعادت داريا ثملة... ثملة... كالوحش . وهي نائمة الآن .

ـ اين ؟

ـ فى مخزن الحبوب .

فاستدار وخرج ، ومشى عبر الفناء وفتح باب المخزن بقوة . كانت داريا نائمة على الارض وقد جرت تنورتها الى اعلى بلا حياء لتتلفع بها . وكان ذراعاها النحيفان مبسوطين ، وخدها الايمن يتألق بالرضاب ، وانبعثت من فمها المفتوح رائحة الفودكا المنزلية ، قوية نفاذة . وكانت تتنفس انفاسا ثقيلة مجهدة ، ورأسها محني بشكل قبيح ، وقد التصق خدها الايسر بالارض .

لم تعتمل في نفس غريغوري الرغبة الوحشية في استعمال سيفه قدر اعتمالها تلك اللحظة . فانتصب فوق داريا بضع لحظات ، يئن ويترنح ، ويصر على أسنانه ويدق فى الجسد المتمدد عند قدميه بمقت واحتقار طاغيين . ثم خطا خطوة الى الأمام ، وحط عقب جزمته ذا النعل الحديدي على وجهها وعلى حاجبيها الأسودين المقوسين ودمدم بصوت أبح :

ـ أيتها الأفعى السامة!

فند عن داريا أنين سكر ودمدمت بشيء . فأمسك غريغوري رأسه بين يديه وجرى الى الفناء .

انطلق على حصانه الى الجبهة فى الليلة ذاتها ، حتى أنه لم يلبث ليرى أمه .

٥٧

كان الجيشان الأحمران الثامن والتاسع لا يزالان يحاولان القيام بعملية تعرض في بعض القطاعات ، بعد أن أخفقا في القضاء على مقاومة جيش الدون وعبور الدونيتس قبل فيضان الربيع . الا أن أغلب هذه المحاولات آلت الى الفشل وانتقلت المبادرة الى قيادة جيش الدون .

والى أواسط شهر أيار لم تحدث أية تغييرات محسوسة على الموقف في الجبهة الجنوبية . واعتمادا على خطة وضعها القائد السابق لجيش الدون ، الجنرال دنيسوف ، ورئيس هيئة أركانه ، الجنرال بولياكوف ، أوشكت عملية تحشيد ما يسمى بالقوة الضاربة على الانتهاء في منطقة كامنسكايا ، هذه القوة التى تنتظم خيرة الكتائب المدربة لجيش الدون الفتي . وصار تعداد تلك القوة الضاربة ينوف على ستة عشر ألفا من حاملي الحراب والسيوف ، وكانت مجهزة بأربعة وعشرين مدفع ميدان ومائة وخمسين رشاشا .

كانت خطة الجنرال بولياكوف أن تضرب القوة ، بالتعاون مع وحدات أخرى ، باتجاه ماكييفكا ، وتهزم فرقة الجيش الأحمر الثانية عشرة ، ثم تتخطى القوات الحمر الأخرى في المنطقة لتنفذ الى منطقة الدون الأعلى ، حيث تنضم الى جيش المتمردين وتدخل فيما بعدالى منطقة خوبر لكي «تشفي» أولئك القوزاق الذين سرت اليهم عدوى البلشفية .

وعلى الدونيتس اتُخذت استعدادات ضخمة لعملية النفاذ . وأنيطت قيادة القوة الضاربة بالجنرال سكريتيف . وبدأ النجاح يحالف جيش الدون . وكان قائده الجديد ، الجنرال سيدورين الذي خلف دنيسوف (ربيب كراسنوف) ، والأتمان الذي أعيد انتخابه ، الجنرال أفريكان بوغايفسكى ، ينتهجان سياسة التعاون مع الحلفاء الغربيين . وكانا يعدّان ، بالتعاون مع ممثلي البعثات العسكرية البريطانية والفرنسية ، خططا بعيدة المدى للزحف على موسكو وتصفية البلشفية في جميع أنحاء الأرض الروسية .

ووصلت الى الموانئ الواقعة على شاطئ البحر الأسود بواخر تحمل الأسلحة . ولم تأت البواخر عابرة المحيط بالطائرات البريطانية والفرنسية والدبابات والمدافع والرشاشات والغدارات ، فحسب ، بل جاءت بقوافل من البغال وتجهيزات غذائية وملابس لم تعد ذات قيمة بعد ابرام الصلح مع المانيا . وامتلأت مخازن البضائع في نوفوروسيسك ببالات من القمصلات الخاكي البريطانية حيث يشب الأسد البريطاني على أزرارها النحاسية . وضاقت المخازن بالطحين والسكر والشوكولاته والمشروبات الروحية الأميركية واذ ذهلت أوروبا الرأسمالية ازاء العنفوان العنيد للبلاشفة ، راحت تصب القذائف والخراطيش في جنوبي روسيا ، تلك القذائف والخراطيش نفسها التى لم يتسن للقوات المتحالفة أن تستخدمها ضد الالمان . لقد هبت الرجعية العالمية لتجهز على روسيا السوفييتية النازفة الممزقة... أما الخبراء العسكريون البريطانيون والفرنسيون الذين كانوا قد قدموا الى الدون والكوبان ليعلّموا الضباط القوزاق وضباط «جيش المتطوعين» فن قيادة الدبابات واستعمال المدافع البريطانية ، فقد باتوا يتطلعون الى دخول موسكو ظافرين...

على أن أحداثا وقعت في ذلك الوقت فى الدونيتس آلت الى نجاح عملية التعرض التي شنها الجيش الأحمر عام ١٩١٩ .

ليس ثمة شك فى أن السبب الاساسى في اخفاق الجيش الأحمر فى مواصلة هجوم التعرض كان تمرد القوزاق فى الدون الأعلى ، ، حيث ظلوا ثلاثة أشهر ينهشون مؤخرة الجيش الأحمر كالسرطان ، ويضطرونه الى اجراء تنقلات دائمة للقطعات ، ويعرقلون وصول الامدادات والاحتياطات الى الجبهة وصار اجلاء المرضى والجرحى أمراً شاقاً . فمن الجيشين الأحمرين الثامن والتاسع وحدهما سحب زهاء عشرين ألف جندي للقضاء على الحركة .

أما المجلس العسكري الثوري ، الذي لم يكن على علم تام بالمدى الحقيقي للحركة ، فقد كان بطيئا فى اتخاذ الاجراءات الفعالة اللازمة للقضاء

عليها . وفى البدء ، لم يرسل لسحقها سوى مفارز صغيرة متفرقة (حتى أن مدرسة اللجنة التنفيذية المركزية ، مثلا ، بعثت بمائتي رجل فقط) ، ووحدات أخرى غير كاملة الاعداد . كان الامر أشبه ما يكون بمكافحة النار بأقداح من الماء . كانت وحدات الجيش الأحمر المتفرقة المحيطة بمنطقة التمرد ، التى ناهز قطرها على المائة وعشرين فرستا ، تعمل مستقلة عن بعضها ، دون أية خطة عامة للعمل ، وبالرغم من ازدياد القوات المحاربة ضد المتمردين الى خمسة وعشرين آلف محارب فلم يتم الوصول الى أية نتائج فعالة .

فقذفت الى الميدان أربع عشرة سرية من المشاة وعشرات من مفارز الحماية ، واحدة بعد أخرى ، بغية حصر التمرد فى موضعه... ووصلت مفارز من طلاب المدارس العسكرية من تامبوف وفورونيج وريازان . ولم يحدث الا بعد أن اشتد عود التمرد ، وتسلح المتمردون بالرشاشات ومدفعية الميدان التي استولوا عليها أن أسهم الجيشان الأحمران الثامن والتاسع بفرقة لكل منهما لتشكيل حملة تعززها حضائر من المدفعية والرشاشات . وكانت النتيجة أن تكبد المتمردون خسائر فادحة ، ، الا أنه لم يقض عليهم .

وسرت شرارة من لهيب الدون الأعلى الى منطقة خوبر . وحاولت بضع جماعات قليلة من القوزاق أن تنتفض تحت قيادة بعض الضباط . وفى ناحية أوريوبنسكايا لملم عقيد يدعى أليموف عددا لابأس به من القوزاق والضباط الذين كانوا مختبئين . وقد كان من المقرر أن يبدأ التمرد ليلة الأول من أيار ، بيد أن المؤامرة اكتشفت في الوقت المناسب فألقي القبض على أليموف وعدد من شركائه وأصدرت عليهم محكمة ثورية الحكم بالاعدام رميا بالرصاص . واذ جردت الحركة من قيادتها ، خبت نارها فأخفقت عناصر الثورة المعادية فى منطقة خوبر فى الانضمام الى متمردي الدون الأعلى .

وفى الأيام الأولى من أيار نزلت من القطار مفرزة حمراء فى محطة

تشيرتكوف ، حيث وضعت عدة وحدات للمناوشة من الجيش الاحمر احتياطا . وكانت نشيرتكوفو احدى المحطات الأخيرة الواقعة على سكة الحديد الجنوبية ـ الشرقية التي تمتد مباشرة بحذاء القطاع الغربي لجبهة التمرد . وكان القوزاق من مناطق شتى فى ذلك الجزء يقومون فى ذلك الوقت بتجميع قوة كبيرة من الفرسان على حدود منطقة كازانسكايا ويخوضون معارك يائسة مع القوات الحمر التي اتخذت آنئذ موقف المهاجم .

سرت شائعة بين رجال الجيش الاحمر فى المحطة أن القوزاق قد أحاطوا بتشيرتكوفو وأنهم على وشك أن يشنوا هجوما . وعلى الرغم من أن المحطة لم تكن لتبعد عن الجبهة بأقل من أربعين فرستا وأن هناك وحدات من الجيش الأحمر أمامية كانت ستبعث بانذار لو كانت حركة نفاذ ، إلا أن الهرج والمرج دبّ في المحطة . كانت ثمة ململة فى صفوف الجيش الأحمر . ونعق صوت آمر من موضع ماوراء الكنيسة قائلاً : «الى السلاح! » . فاندفع الرجال على نحو هائج فى الشوراع .

ثم تبين أن ذلك كان انذارا لا أساس له . اذ أخطأ أحدهم فى تشخيص سرية من رجال الجيش الأحمر كانت تقترب منهم وحسبها من القوزاق . ومضت المفرزة الحمراء وكتيبتا المناوشة باتجاه قصبة كازانسكايا .

وفى اليوم التالي لاقت كتيبة كرونستادت ، التى وصلت مؤخرا ، حتفها عن بكرة أبيها تقربيا ، على يد القوات القوزاقية .

فحين انصرم اليوم الأول من القتال شن القوزاق غارة ليلة . وكانت كتيبة كرونستادت تقضي الليلة فى السهب ، تحرسها ربايا* ونقاط أمامية ، مفضلين ذلك على المجازفة باحتلال القرية التى هجرها المتمردون . وعند منتصف الليل أحاطت بالكتيبة عدة سرايا من الخيالة القوزاق وفتحوا عليها نارا حامية ، مستخدمين مقارع خشبية كان أحدهم قد اخترعها لارهاب

---

* ربايا . مفردها ربيئة . هى الطليعة فى الجيش . المترجمون

العدو . وقد استخدمت هذه المقارع في الليل بدلاً من الرشاشات ولم يكن بالامكان تمييز الصوت الذي تحدثه عن صوت الرشاشات الخفيفة .

وحينما سمع رجال الكتيبة المحاصرون في الظلمة الحالكة ذلك الصرير الهادر لـ «رشاشات» القوزاق ، والاطلاقات القوية لنقاطهم الامامية ، وصياح القوزاق وارعاد الخيالة المتقدمين ، هرعوا صوب الدون ، وعلى الرغم من أنهم أفلحوا في شق طريقهم الى النهر ، غير أنهم فوجئوا بغارة شنها عليهم الخيالة . ولم يفلح في الهرب من الكتيبة كلها سوى بضعة رجال استطاعوا أن يسبحوا عبر الدون المائج بفيضان الربيع .

وفي شهر أيار ، نقلت تعزيزات حمر أكثر فأكثر من الدونيتس الى جبهة التمرد . واشتركت فرقة الكوبان الثالثة والثلاثون في القتال ، فكان ان لمس غريغوري ميليخوف آنذاك لأول مرة مدى ما في الهجوم الحقيقي من قوة . وراحت فرقة الكوبان هذه تكيل الضربات في صفوف فرقته الاولى بلا هوادة ، فاضطر غريغوري للتخلي عن قرية بعد أخرى فيما كان يتراجع ناحية الدون . وعلى مقربة من كار اغينسكايا ، عند ضفاف نهر تشير صمد مدة يوم . غير أنه تعرض لضغط قوات متفوقة وما لبث أن اضطر ليس الى التراجع وحسب بل الى طلب الامدادات .

فأمده كوندرات مدفيديف ، قائد الفرقة الثالثة ، بثماني سرايا من الخيالة ، وكان قوزاق مدفيديف مجهزين تجهيزاً ممتازاً ، إذ كان لجميع عتاد كثير وكانت جزمهم وبزاتهم ، التي استلبوها من الاسرى الحمر ، في حالة حسنة ، وعلى الرغم من شدة الحر فان العديد منهم كانوا يختالون هنا وهناك بقمصلاتهم الجلدية وكان لكل واحد منهم تقريباً مسدس أو ناظور . واستطاعوا بعض الوقت أن يقاوموا هجوم القراع لفرقة الكوبان الثالثة والثلاثين ، فعزم غريغوري على أن يستغل الفرصة ليذهب الى فيشنسكايا للمشاورة ، نزولاًعند طلبات كودينوف الملحاحة .

٥٨

بلغ فيشنسكايا في الصباح الباكر .

كان ماء الدون قد شرع بالانحسار ، وأفعم الهواء بالرائحة الدبقة الحلوة لاشجار الحور . وعلى امتداد النهر كانت أوراق السنديان اللدنة غامقة الخضرة ترسل حفيفاً حالماً . وكانت المرتفعات الترابية تنضح بالبخار ، وأخذت تظهر عليها حشائش نحيفة ، شوكية خضر . وما فتئت الاخاديد تتلألأ بالماء الراكد . وطيور الأنس تهدر ، والبعوض يطن في الهواء الوخم رغم أن الشمس كانت قد ارتفعت .

وفي المقر ، كانت ثمة الة كاتبة تطرقع ، والغرف مزدحمة ومختنقة بدخان التبغ .

وجد غريغوري كودينوف جالساً وقد ارتسم على وجهه الجد والاستغزاق ، وانكب على مهمة غريبة . وحين دلف غريغوري الى الغرفة بهدوء ، لم يرفع كودينوف نظره ، بل استمر في نتف سيقان ذبابة زمردية كبيرة . نتف ساقاً ، ثم صخم راحته اليابسة الضخمة على الذبابة ووضعها لصق أذنه ، متسمعاً الى الطنين المتراوح في طقته بين العالي والخفيض ، لتلك الحشرة السجينة . ثم لاحظ غريغوري على حين غرة ، فقذف الذبابة تحت المنضدة بحركة نافرة مغضبة ، ومسح راحته بسرواله ، ومال بكلال على ظهركرسيه اللامع . وقال :

ـ اجلس ، يا غريغوري بانتلاييتش .

ـ كيف حالك ، أيها القائد ؟

ـ حسن . حسن بقدر ما هو متوقع . كيف تسير الامور عندكم ؟ اذن هم يدفعونكم الى الوراء .

ـ على امتداد خط الجبهة كلها .

ـ هل أوقفتهم عند نهر تشير ؟

ـ بعض الوقت . لكن امدادت مدفيديف أنقذت الموقف .

ـ هذا هوالموقف ، يا ميليخوف . ـ وأخذ كودينوف الجلد الرمادي لنطاقه القفقاسي بين يديه ، وتنهد وهو يحدق باهتمام متفحصاً فضة الابزيم المسودة ، حسب تقديراتنا ، فان مستقبل الحال سائر نحو الاسوأ . ان شيئاً ما يحدث في الدونيتس . فإما أن يكون أصحابنا هناك قد شرعوا يكتسحون صفوف الحمر فيدفعونهم الى الوراء باتجاهنا ، أو أن يكون الحمر قد أدركوا أننا السبب في كل متاعبهم الحالية فراحوا يحاولون أن يطبقوا علينا الكماشة .

ـ وماهي أخبار «الكاديت» ؟ ماذا أرسلوا من تقارير في الطائرة الاخيرة ؟

ـ لاشيء ذا بال . انهم لا يخبرونك أو يخبروني بخططهم يا صاحبي . فسيدورين رجل ذو دهاء . انهم يحاولون النفاذ خلال جبهة الحمر لمد يد المساعدة لنا . لقد وعدونا بالمساعدة ، غير أن المساعدة لا تأتي دائماً . فليس النفاذ خلال الجبهة بالأمر اليسير . لقد جربت ذلك بنفسي في الأيام الخوالي الجائز أن يكونوا قد أخذوا بضعة فيالق من جبهة كولتشاك وجاؤوا بها الى هنا . اننا في ظلام ، وليس بمقدوزنا أن نرى أبعد من أنوفنا . فتساءل غريغوري متثائباً : «حسناً ، ما الذي استدعيتني من اجله ؟ » فلم يكن غريغوري معنياً بشكل خاص بنتيجة الحركة . اذ لم تعد القضية تقلقه ، كما يبدو . لقد ظلت أفكاره تحوم يوماً بعد يوم حول القضية القديمة ذاتها ، كما يجر حصان دواسة حول ساحة درس الحبوب ، الى أن قال في سريرته ، كمن يهز كتفيه دونما اكتراث : «لن يقوم سلام بيننا وبين السوفييتات ، فهذا شيء أكيد . لقد سفكوا من دمنا الكثير ، وسفكنا الكثير من دمهم . أما حكومة الكاديت ، فرغم أنها تزجينا بمعسول الكلام فانهم سينتفون ريشنا فيما بعد . اللعنة ، فلتأت النهاية مهما كان لونها» .

ونشر كودينوف خارطة ، وهو لا يزال يتحاشى عيني غريغوري ، وقال :

ـ عقدنا مؤتمرا هنا فى غيابك وتوصلنا الى قرار...

فقاطعه غريغوري ، وهو يتذكر مجلس الحرب الذى كان قد انعقد فى هذه الغرفة ذاتها فى الشتاء ، حينما كان العقيد القفقاسي حاضرا : «مع من عقدت المؤتمر ؟ مع الأمير ؟ »

فتجهم وجه كودينوف وقتم . ثم أجاب :

ـ إنه لم يعد من بين الأحياء .

فتساءل غريغوري وقد اعتراه اهتام مفاجئ :

ـ وكيف كان ذلك ؟

ـ ألم أخبرك ؟ الرفيق جورجيدزه قتل .

ـ أوه ، صار لك ...« رفيقا »...كان رفيقا منذ أن اخذ يرتدي فروة . غير أننا لوكنا قد وحدنا قوانا مع الكاديت ـ لا سمح الله ـ ولو أنه كان لايزال حيا ، لدهن شاربه فى الحال ، ولما عاد يمد إليك يده للمصافحة ، بل يمد اصبعه الصغير فقط! هكذا!

ومد غريغوري اصبعه الوسخ الخشن والتمعت أسنانه بضحكة .

لكن كودينوف ظل عابسا ، وعبّرت نظرته ونبرة صوته عن الاستياء الواضح والضيق والغضب المكبوت ، ثم زمجر قائلا :

ـ ليس ثمة ما يدعو للضحك . لا تضحك لمقتل انسان آخر .

فأحس غريغوري بالوخز ، الا أنه أجاب ضاحكا :

ـ ليس لي من رحمة أترحم بها على روح ذاك العقيد الابيض الوجه الابيض اليدين...

ـ مات قتيلا .

ـ فى معركة ؟

ـ من الصعب القول... انها قصة غريبة وليس من اليسير تلمس الحقيقة فيها . ذلك أنه كان ملحقا بقافلة نقل بناء على أوامري . ويبدو أنه لم يكن على وفاق تام مع القوزاق . وحدث أن كان هناك قتال يدور قريبا من

دوباريفكا ، وكانت القافلة التي يركب معها على مبعدة فرستين تقريبا وراء خط النار . كان جالسا فى احدى العربات ، وأصابته رصاصة طائشة فى وجهه تماما . هكذا قال القوزاق . حتى أنه لم يتحرك أبدا... لا بد أن القوزاق هم الذين قتلوه . أولئك الخنازير!

ـ حسنا فعلوا!

ـ كفاك مثل هذا الكلام . ألاتستطيع أن تكف عن خلق المتاعب .

ـ لاتغضب . كنت أمزح .

ـ عليك أن تحتفظ بمزاحك السخيف لنفسك فى المستقبل . ان مثلك مثل الثور ، فأنت تلوث علفك بنفسك . اذن فأنت ترى أنه يجب قتل الضباط! أتراك ترفع من جديد شعار «تسقط شارات الضباط» ها ؟ ألم يحن الوقت لتثوب الى رشدك ، ياغريغورى ؟ اذا شئت أن تتصنع العرج ، فاعرج على الساق نفسها ، على الاقل .

ـ امض فى قصتك .

ـ ليس لدي المزيد مما يقال . خمنت أن القوزاق قتلوه ، فخرجت اليهم وتبادلت معهم حديثا صريحا فقلت : «اذاً ، لقد عدتم الى حيلكم القديمة من جديد . أليس من سبق الأوان أن تشرعوا بقتل ضباطكم ؟ لقد استبدت بكم نوبة من هذا القبيل فى الخريف الماضي ، ولكن ما ان أجلسكم الحمر على الخازوق ، حتى وجدتم أنفسكم فى حاجة الى الضباط وجئتم تجرجرون أذيالكم الينا متوسلين أن تكونوا تحت قيادتنا . وها هى الآن القصة نفسها تعاد من جديد» . وألقيت عليهم درسا طيباً . ومن الطبيعي أنهم أنكروا قتله ، بيد أننى استطعت أن أتبين من أعينهم أنهم كاذبون . ولكن ماعساك تفعل بهم ؟ بامكانك أن تتبول على وجوههم وسيقسمون بأن ذلك ندى نازل من عند الله . ـ ودعك كودينوف النطاق بيده وانتفخت أوداجه غضبا : ـ لقد قتلوا رجلا ذكيا ، وها انني الآن ـ وقدأمسيت بدونه ـ كمن فقد يده اليمنى . من ذا الذي سيرسم لنا الخطط الآن ومع من نتشاور ؟ فى مقدورنا

أن نتحدث الى ما لا نهاية ، ولكن ما ان نجابه مسألة استراتيجة حتى تجد أننا خواء الوفاض . انني أشعر بالامتنان لوصول بيوتر بوغاتيريوف ، والا لما كان في وسعي أن أجد رجلا واحداً أتبادل معه الكلام . أوه حسنا ، لا عليك . فلنبدأ عملنا . اذا لم يستطع أصحابنا أن ينفذوا خلال جبهة الدونيتس فلن يصبح بقدورنا الصمود فى مواقعنا . ولذا قر عزمنا ، كما سبق أن ذكرت ، على الزج بكل الجيش ، بآلافه الثلاثين ، فى محاولة لشق طريقنا . فاذا أرجعتم على أعقابكم ، انسحبوا نحو الدون . وسنقوم نحن باخلاء الضفة اليمنى من أوست ـ خوبر سكايا حتى كازانسكايا ، وحفر الخنادق على امتداد الدون ، والدفاع عن أنفسنا...

وقاطعته طرقة حادة على الباب ، فصاح : «ادخل» . فدخل آمر اللواء السادس الخاص ، غريغوري بوغاتيريوف ، كان وجهه الاحمر الصارم يتلألأ بالعرق وحاجباه النحاسيان الذاويان قد انعقدا غضبا... وبدون أن ينزع قبعته جلس الى المنضدة .

فتساءل كودينوف وهو يشخص الى بوغاتيريوف بابتسام مكتوم : «ما الذى جئت من اجله ؟»

فقال بوغاتيريوف : «أعطنا خراطيش!»

ـ أعطيناك شيئا منها . كم تريد اكثر ؟ أتحسب أن لدي معملا للخراطيش هنا ؟

ـ وماذا أعطيتنا ؟ خرطوشة لكل رجل! انهم يصلوننا بنيران رشاشاتهم ، وكل ما نستطيع فعله هو أن نحنى ظهورنا ونخفي انفسنا . أتدعو هذه حربا ؟

فقال كودينوف : «انتظر لحظة ، يا بوغاتيريوف ، فاننا نبحث أمورا هامة» . وأضاف حينما نهض بوغاتيريوف يهم بالخروج : «ولكن لا تذهب ، فليست لدينا أسرار نحجبها عنك» . واستدار الى غريغوري : «حسناً . اذاً يا ميليخوف . فاذا لم نستطع ان نقاوم حتى على هذه الضفة ، فسنحاول أن نشق الحصار . سوف نخلف كل من ليس في الجيش ، نخلف

كل أمتعتنا ، ونضع المشاة فى عربات ، ونأخذ ثلاث بطاريات معنا ، ونسير صوب الدونيتس . اننا نريد أن تكون فرقتك فى المقدمة . لعلك لن تعارض ؟

ـ الأمر سيان لدي . ولكن ماذا عن عوائلنا ؟ ففتياتنا ونساؤنا ، وشيوخنا ، سنفقدهم جميعا .

ـ ما عسانا... من الخير أن يستسلموا هم على أن تدور الدائرة علينا جمعياً .

وتهدل فم كودينوف من طرفيه . وران عليه الصمت زمنا . ثم أخرج جريدة من طاولته .

ـ اليك خبرا آخر... قدم القائد العام ليقود القطعات بنفسه . ويقال انه فى ميليروفو أو كانتيميروفكا الآن . انتظر حتى يبلغ موضعنا!

فتساءل غريغوري :

ـ أجاد أنت ؟

ـ نعم . هاك ، اقرأ هذه . أرسلت إلي من كازانسكايا . احدى دورياتنا ظفرت باثنين من المراسلين الحمر . فقتلوهما ، بطبيعة الحال ، وعثروا لدى أحدهما ـ وهو رجل يبدو متقدما فى السن ، كما قيل ، ولربما كان قوميسارا ـ عثروا على هذه الصحيفة «الطريق» مؤرخة فى الثاني عشر من هذا الشهر . انهم يقدمون وصفا بديعا عنا!

وناول كودينوف غريغوري الصحيفة البالية . فنظر غريغوري الى السطر العريض الذى خط بقلم لا يمحى أثره ، وشرع يقرأ :

تمرد فى المؤخرة

لقد انقضت بضعة اسابيع على قيام تمرد فى جزء من أرض قوزاق الدون . ان هذه الحركة التي أوحى بها عملاء دينكين ـ الضباط المعادون للثورة ـ قد وجدت الاسناد من كولاك القوزاق ، وقد جر الكولاك وراءهم عددا كبيرا من القوزاق الوسط . وانه لمن المحتمل جدا أن يكون القوزاق ، قد تعرضوا ، فى بعض

الحالات ، الى مظالم على يد بعض الأفراد من ممثلي الحكومة السوفييتية . ولقد استغل هذه الحالات عملاء دينكين استغلالا ماهرا لاشعال نار التمرد . ان رجال «الحرس الأبيض» الذين تخلفوا فى منطقة التمرد يتظاهرون أنهم يتبنون نظام السوفييتات بغية اكتساب ثقة القوزاق الوسط . وبهذه الطريقة تضافرت مخططات الثورة المعادية ، مصالح الكولاك وجهل جماهير القوزاق معا للقيام بتمرد جنوني اجرامي فى مؤخرة جيوشنا العاملة فى الجبهة الجنوبية . ان حركة تمرد في مؤخرة الجيش مثلها مثل دملة فى كتف العامل . فلأجل أن نحارب بجدارة ، وندافع عن الوطن السوفييتي ونقضي على زمر دينيكن من سادة الأرض ، يجب أن نضمن مؤخرة لجيشنا تعتمد على التحالف الودي ، السلمي والوثيق بين العمال والفلاحين . وعلى هذا الأساس فإن أخطر مهمة تواجهنا هى تطيهر الدون من التمرد والمتمردين .

لقد أصدرت الحكومة السوفييتية المركزية أوامرها القاضية بانجاز هذه المهمة بأقصر وقت ممكن . ولقد وصلت تعزيزات كبيرة ولا تزال تصل لمساندة الحملة التى تحارب هذا التمرد المعادي للثورة . ويجري الآن ارسال خيرة المنظمين الحزبيين ليعالجوا هذه المهمة الملحة .

يجب أن يوضع حد للتمرد . ويجب على رجال جيشنا الأحمر أن يدركوا بجلاء أن متمردي مناطق فيتشنسكايا ويلنسكايا وبوكانوفسكايا هم شركاء مباشرون لجنرالي «الحرس الأبيض» دينيكين وكولتشاك . وكلما أتيح للحركة أن تستمر مدة أطول ، زادت الخسائر من كلا الجانبين . وليس بالامكان حقن الدماء الا عن طريق واحد : تسديد ضربة سريعة ، قوية قاصمة .

يجب أن يوضع حد للتمرد ويجب أن تفجر الدملة على كتفنا وتكوى بحديد حار . وآنذاك ستصبح يد الجبهة الجنوبية طليقة لكى تهوي بضربة مميتة على العدو .

قرأ غريغورى المقالة وابتسم باكتئاب . لقد أفعمته مرارة وحنقاً ، فقال فى نفسه : «يجعلون مني شريكا لدينيكين هكذا بجرة قلم» .

ـ حسنا ، مقال بديع ، أليس كذلك ؟ انهم يريدون أن يعالجوا بالحديد الحار . سنرى من هو الذي سيقوم بعملية الكي! أليس كذلك يا ميليخوف ؟

وبينما كان كودينوف ينتظر رداً من غريغوري استدار إلى بوغاتيريوف :

ـ تقول انك بحاجة الى خراطيش ؟ ستحصل عليها! ثلاثون لكل خيال ، لجميع اللواء . أهذا كاف ؟ اذهب الى المخازن واسحبها ، وسيحرر ضابط الاعاشة اصدارا بذلك . ولكن عليكم أن تلجأوا الى سيوفكم أكثر ، يا بوغاتيريوف ، أضف الى أن الدهاء شئ حسن!

فابتسم بوغاتيريوف مبتهجا وقال : «شعرة من جلد خنزير!» .

ثم ودعهم على عجل وغادر الغرفة .

وحينما أتم غريغوري عمل الترتيبات الخاصة بالتراجع المرتقب نحو الدون ، مع كودينوف ، استدار هاما بالخروج غير أنه سأل كودينوف قبل أن يمضي :

ـ هب أنني جئت بكل الفرقة الى بازكي ، فهل هناك ما ستعبر النهر عليه الى فيشنسكايا ؟

ـ أية فكرة! من المؤكد أن بمقدور الخيالة أن يعبروا الدون سباحة على حيلهم . لعمري من سمع بخيالة يحملون على شئ عبر نهر ؟

ـ ولكن ليس لدي العديد من أهل القرى الواقعة على جانبي الدون ، كما لايخفى عليك . أضف الى أن القوزاق القادمين من نهر تشير ليسوا ماهرين فى السباحة . فقد قضوا كل حياتهم في السهب ، وأين يسبحون هناك ؟

ـ سيبعرون مع الخيول . فعلوا ذلك فى المناورات وفى الحرب الألمانية .

ـ إنني أتحدث عن المشاة .

ـ هناك المعبر . وسنهيئ لهم زوارق ، فلا تخش شيئا .

ـ سيقدم المدنيون معنا ، أيضا .

ـ أعرف ذلك .

ـ عليك أن تهيئ وسائل العبور الجميع ، والا فسأزهق روحك حينما أصل . ليس بالامر الهيِّن أن نخلّف المدنيين على الجانب الخطر من النهر .

ـ طيب ، سأهتم بذلك .

ـ وماذا عن المدافع ؟

ـ دمر مدافع الهاون ، ولكن أجلب مدافع الميدان الى هنا . سوف نهيئ قوراب كبيرة تتسع لنقل البطاريات الى هذا الجانب .

ثم غادر غريغوري المقر وهو واقع تحت تأثير المقالة التى كان قد قرأها لتوه .

«انهم يدعوننا شركاء دينيكين... ومن نحن اذن ؟ هذا هو واقعنا بالضبط ، فلِمَ نجانب الحقيقة...» وتذكر شيئا كان ياكوف قد قاله يوم كان حيا . اذ حدث ذات مساء فى كاركنيسكايا أن كان فى طريقة الى قريته فعرج على مقر المدفعية القائم فى الساحة . وحينما كان ينظف جزمته عند المدخل ، سمع ياكوف يجادل شخصا ما «أنت تقول اننا مستقلون الآن ؟ ولن نكون فى خدمة أية حكومة بعد اليوم ، ها ؟ باه! ان لديك بطيخة متعفنة بين كتفيك بدلا من رأس . واذا شئت أن تعرف ، فاعلم بأننا لسنا أفضل حالا من كلب ضال . فاذا اقترف كلب خطأ وهرب ، فأين عساه يذهب ؟ انه يخاف أن يمضي مع الذئاب ، ويخاف أن يعود الى سيده خشية ما سيناله من ضرب... انه مثلنا تماما . تذكر كلماتي : لن يمضي وقت طويل حتى ندب عائدين الى«الكاديت» وأذيلنا بين سيقاننا متوسلين اليهم أن يصفحوا عنا تذكر كلماتى ، وهذا ما سنفعله! » .

راح غريغوري ، منذ المعركة التى كان قد قتل فيها البحارة ، يعيش فى حالة من الخدر واللامبالاة . وصار يحني رأسه بقنوط دونما ابتسام . ولأجل من الوقت لبث الألم والحزن لمصرع ايفان اليكسييفتش يؤرقه . ثم مر هذا أيضاً ، وانقضى . وكان الشيء الوحيد الذي بقي لديه فى حياته (أو هكذا بدا

له الأمر) هو عاطفته المشبوبة نحو أكسينيا ، التى عادت اليه من جديد بزخم لاينثني . لقد كانت هى وحدها التى تومئ اليه أن يوافيها كما تؤمئ نار مضرب خفاقة بعيدة للمسافر على السهب خلال العتمة المتجمدة لليلة خريفية .

والآن ، وحين كان عائدا من المقر انعطف ذهنه صوب اكسينيا «اننا سنحاول فك الحصار عنا ، فما مصيرها هي ؟» ومن غير ما تردد استقر عزمه : «ستبقى ناتاليا مع الأطفال ومع أمي ، لكنني سآخذ آكسينيا معي . سأعدلها حصانا ، وتستطيع أن تركب مع أركاني

عبر الدون الى بازكي وما ان بلغ مقره ، حتى مزق ورقة من دفتر ملاحظاته وكتب :

«أكسينيا... قد يتعين علينا أن نتقهقر الى الجانب الايسر للدون . فاذا صار الأمر كذلك ، أتركي كل شيء واذهبي الى فيشنسكايا . ابحثي عني هناك ، ، فستذهبين معي» .

ثم طوى الورقة وختمها بصمغ الكرز ، وأعطاها لبروخور زيكوف ، وقال له وهو متجهم ، يحاول أن يحجب حرجه بصرامة لامبرر لها :

ـ اركب حصانك الى تتارسكي واعط هذه الورقة لاكسينيا أستاخوفا . احرص على ألا يراك أحد من أهلي وأنت تعطيها الورقة . ومن الأفضل أن تأخذها إليها ليلا... لاتنتظر ردا... وبعد ذلك تستطيع أن تتمتع باجازة يومين . هيا انطلق .

فاستدار بروخور يهم بالذهاب الى حصانه ، غير أن غريغوري نادى عليه :

ـ وعرج على بيتي وأخبر والدتي أو ناتاليا ، بأن من الخير لهم أن يرسلوا بالملابس وكل ما له قيمة الى هذا الجانب من الدون . ويحسن بهم أن يدفنوا الحبوب ، ولكن يستحسن أن تساق الماشية الى هذا الجانب .

٥٩

بدأت القوات المتمردة بالتراجع على امتداد الجبهة كلها فى الثاني والعشرين من أيار ، كانوا يتقهقرون وهم يحاربون وينازعون حول كل بوصة من الأرض . وكان سكان القرى يهربون أمامهم صوب الدون وقد استبد بهم الذعر ، فراح الشيوخ يسرجون كل ما لديهم من حيوانات الجر ، ويحملون عرباتهم بالصناديق ، والأواني والأدوات والحبوب والأطفال وقاموا بتوزيع قطعان القرية على أصحابها ، فراح هؤلاء يسوقون بقراتهم وأغنامهم على امتداد الطريق . وانحدرت قوافل كبيرة من اللاجئين الى القرى الواقعة على جانب الدون ، متقدمين الجيش ، وكان المشاة قد تلقوا أمرا من مقر القيادة يقضي بالشروع فى انسحابهم قبل ذلك بيوم . ففى الحادي والعشرين من أيار قام قوزاق تتارسكي المشاة مع مفرزة قوامها رجال من فيشنسكايا من غير القوزاق ، بمغادرة مواقعهم في منطقة أوست ـ خوبرسكايا وقاموا بمسيرة اضطرارية قطعوا خلالها أكثر من ثلاثين فرستا الى قرية ريبني المجاورة لفيشنسكايا .

وفى صباح الثاني والعشرين كانت السماء ملفعة بضباب رقيق ، ولم تكن العين لترى غيمة واحدة فى المدى خلا غيمة صغيرة ذات لون وردي باهر ظهرت قبيل الشروق فى الجنوب . وبدا جانبها المواجه للشرق وكأنه ينزف دما... ثم ارتفعت الشمس فوق التلال الرملية على الجانب الأيسر من النهر ، فاختفت الغيمة عن الأنظار . وعلى المروج أضحى صياح طيور الصفرد أكثر وضوحا ، ، وظهرت على حين غرة نعاج الماء ذوات الأجنحة المدببة مثل ندف زرق فوق الجوانب الضحلة للنهر ، ثم حومت صعدا فى الجو حاملة فى مناقيرها الكاسرة سمكاً متلألئاً كفضة...

وحينما انتصف النهار غدا الجو حارا على نحو لم يعتده الناس فى شهر أيار . وصار الهواء خانقا رطبا كما لوكان المطر وشيكا . ومنذ بكرة الفجر

كانت عربات اللاجئين تدب على امتداد الضفة اليمنى للدون ميممة صوب فيشنكايا . وطوف على النهر صوت عجلات العربات ، وزنخرة الخيل ، وخوار الثيران والاصوات البشرية .

وفي الثاني والعشرين من ايار كان رجال مفرزة فيشنسكايا غير القوزاق لا يزالون في ريبني... وفي حوالي الساعة العاشرة صباحا تلقوا أمرا بالمضي الى قرية كروموك الواقعة على طريق هتمان العام ، ، واقامة ربايا ثمة للقبض على كل القوزاق الذين تصلح أعمارهم للخدمة االعسكرية ممن كانوا يحاولون بلوغ فيشنسكايا .

بلغت كروموك موجة عربات اللاجئين المتوجهة إلى فيتسنسكايا كانت النساء تسوق الماشية ، وقد علاهن الغبار وحال لونهن قاتما من لفح الشمس ، وفيما كان الخيالة يمضون على جانب الطريق . وكانت أصوات صرير العجلات وزنخرة الخيل والخراف ، وخوار الأبقار وصراخ الأطفال وأنين المصابين بالتيفوس الذين حملوا أيضا للهرب ، تمزق الصمت المطبق على القرية وبساتين الكرز . كان ذلك الهدير الذي اختلطت فيه آلاف الأصوات من الغرابة حتى أنه أبح الكلاب من كثرة النباح ، فأقلعت عن ملاحقة كل عابر ، ولم تعد تصطحب العربات الماضية في طريقها مسافة فرست أو نحوه ، كما تفعل في الظروف الاعتيادية .

أمضى بروخور زيكوف يومين في قريته ، فسلم أكسينيا رسالة غريغوري ، أخبر ايلينشنا وناتاليا بتعليماته ، ثم غادر القرية قاصدا فيشنسكايا في الثاني والعشرين من أيار . وتوقع أن يجد سريته في بازكي ، الا أن رمي المدافع الثقيل بدا قادما من موضع ما وراء نهر تشير . فلم يشعر بروخور بأية رغبة قوية تدفعه للمضي الى حيث يتأجج أوار معركة حامية ، واستقر رأيه على التوجه الى بازكي وانتظار وصول غريغوري والفرقة الأولى اليها .

فمضى الى كروموك على حصانه متمهلا في طريق هتمان العام ، تكاد

خطى حصانه لا تعدو سرعة المشي الاعتيادي ، وحتى لقد سبقته عربات اللاجئين . ثم لحق بهيئة أركان كتيبة شكلت مؤخرا فى أوست ـ خوبرسكايا ، وانضم اليها . كانت هيئة الأركان مسافرة فى مركبات خفيفة ذوات نوابض وفى عربتين صغيرتين تجري وراءها ستة من الخيل مسرجة وكانت احدى العربتين الصغيرتين تحمل وثائق وجهاز تلفون ، وفى الأخرى قوزاقي كهل جريح ورجل معقوف أنفه وقد استبد به اعياء شديد يغطي رأسه بقبعة من فرو الكاراكول ، رمادية مما يستعملها الضباط . وكان جليا أنه يمر بفترة الإبلال من التيفوس . وكان متمدداً وقد تلفع بمعطف سميك حتى ذقنه ، بيد أنه كان لا يني يطلب من أحدهم أن يلف قدميه بشيء دافئ ، وراح يتفجر غضبا ويطلق اللعنات وهو يمسح العرق من جبينه بيده الهزيلة .

ـ أيها الخنزير! الريح تتسرب من تحت قدمي! بوليكارب ، غطني ببساط . يوم كنت قويا صحيحا ، كان الكل يلجأ الي ، أما الآن... ـ وراحت عيناه تجولان بتلك القساوة الهائلة لرجل عانى من مرض خطير .

فترجل الرجل الذي دعاه بوليكارب وهرع الى العربة ، وقال :

ـ على هذه الحال يمكن أن تصاب بنزلة برد ، ، يا صاموئيلو ايفانوفيتش .

ـ قلت لك غطني!

فصدع بوليكارب للأمر ، ثم تخلف عن العربة .

فسأله بروخور مشيرا الى المريض بعينيه :

ـ من يكون هذا ؟

فأجاب القوزاقي :

ـ ضابط من أوست ـ مدفديتسكايا... كان ملحقا بهيئة أركاننا .

كان ثمة حشد مائج من اللاجئين القادمين من قرى أوست ـ خوبرسكايا ينسحب مع هيئة الأركان . فنادى بروخور على قوزاقي عجوز جالس فى عربة وضعت عليها كومة عالية من النفائس المنزلية المختلفة :

ـ أنت يا هذا... بحق الشيطان أين تظن أنكم ذاهبون ؟

فرد الرجل :

ـ نحن ذاهبون الى فيشنسكايا .

ـ وهل أرسلوا فى طلبكم ؟

ـ لم يرسل أحد في طلبنا ، ولكن من يريد أن يلقى بنفسه في الموت ؟ حينما يطل الذعر في عينيك ستنطلق على حصانك بالسرعة اللازمة .

فسأله بروخور :

ـ سألتك لماذا تذهبون الى فيشنسكايا . كان بمقدوركم أن تعبروا النهر عند يلنسكايا ولم يكن الأمر ليأخذ منكم وقتا طويلا .

ـ وبأي شئ نعبر ؟ الناس تقول لا يوجد معبر هناك .

ـ وكيف ستعبرون في فيشنسكايا ؟ وهل سيخلفون القطعات وراء كم ريثما يأخذونكم وعرباتكم ؟ انكم تهيمون مثل قطيع من الخراف ، لايعلم الا الشيطان الى أين ولماذا! ولماذا! تصطحبون كل تلك معكم ؟ ـ وأشار بروخور بسوطه حانقا الى الصرر الموضوعة على العربة .

ـ معنا ملابسنا ، ، وأطواق الخيل وطحين وما شاكل ذلك مما نحتاجه في الحقل . لم يكن بمستطاعنا أن نخلّفها وراءنا ، فلئن عدنا سنجد كوخنا قاعا صفصفا . يابنى ، حينما تكون قد لملمت حوائجك بالدموع والعرق ، فليس من اليسير أن تخلّفها وراءك ، ولو كان في مقدوري ، لحزمت كوخي أيضا ، حتى لا يستحوذ عليه الحمر ، فلتحل بهم الهيضة!

ـ وذاك الجرن الكبير هناك ، ، فيم تجرجره معك ؟ وتلك الكراسي ؟ ليس الحمر بحاجة اليها!

ـ لم نقدر أن نخلفها وراءنا . لكنهم سيكسرونها ويحرقونها . كلا ، لن أدعهم يغتنون على حسابي . لقد نظفت كوخي عن آخره!

ولوّح العجوز بسوطه على الخيل السمينة ، ثم التفت وأشار بالسوط الى عربة تجرها الثيران خلفه ، وأضاف قائلا :

ـ أترى تلك الفتاة المتلفعة هناك ، تسوق الثيران ؟ انها ابنتي . معها خنزيرة ونسل من الخنازير الصغار فى تلك العربة . لعلنا ضايقناها حينما قيدناها ووضعناها في العربة ولذا ولدتهم الخنزيرة خلال الليل وهى راقدة فى العربة . أتستطيع أن تتسمع الى الصغار يقبعون ؟ كلا ، لن أدع الحمر يسمنون على حسابي ، عسى أن يأخذ الطاعون أوراحهم !

فقال بروخور وهو يحدق حانقا فى وجه العجوز العريض العرق :

ـ اياك أن تقف في طريقي حينما تصل المعبر ، أيها الجد! والا فسيُلقى بك وبخنازيرك وبكل ماتملك في الدون .

فتساءل العجوز بذهول مطبق :

ـ لماذا ؟

فصاح بروخور ، الهادئ في عادته :

ـ لأن الناس يموتون ، ، ويفقدون كل يملكون ، وأنت ، أنت أيها الشيطان العجوز ، تجرجر معك كل شيء متل الجعل . اننى لا أطيق آكلي الروث من أمثالك .

فحمحم العجوز مغضبا ، وهو يشيح بوجهه :

ـ هيا... اذهب وابعد عني! اي قادة لنا ، مستعدون لقذف أمتعة الناس الآخرين فى الدون . كلمته باحترام وهو... لماذا ، ان لي أنا ولدا ، برتبة عريف ، يصد الحمر مع سريته... اذهب ، رجاء! لا تضع عينك على أموال الآخرين لو كنت أنت قد اغتنيت بعض الشئ لما صرت حسودا هكذا .

مضى بروخور يخب . وارتفع على حين غرة خلفه زعيق خنزير صغير طغى على الأصوات الأخرى ، نافذا الى طبلتي أذنيه . وقبع الخنزير الكبير فى اضطراب .

فصاح الضابط الملقى فى العربة ، مقطبا يوشك أن يبكي :

ـ ما هذا بحق الشيطان ؟ من أين جاء هذا الخنزير ؟ بوليكارب!...

فأنبأه بوليكارب قائلا :

ـ انه خنزير سقط من عربة ، وداست العجلة على ساقه .

ـ قل لصاحبه أن يقطع بلعومه... قل لـه يوجد مرضى هنا... يكفينا ما نحن فيه دون خنازير تزعق فى آذاننا! أسرع!

ورأى بروخور ، الذى كان قد حاذى العربة الصغيرة ، الضابط متسمعا الى الزعيق وقد انعقد حاجباه ، وهو يحاول عبثا أن يغطي أذنيه بقبعته . ثم قدم بوليكارب من جديد .

ـ انه لا يريد أن يقتله ، ياصاموئيلو ايفانوفيتش . يقول ان حالته ستتحسن ، والا فانهم سيذبحونه هذا المساء .

فشحب لون الضابط ، وجاهد ليستقيم ، ثم جلس مدليا ساقيه من على جانب العربة .

وصاح :

ـ اين مسدسي ؟ أوقف الحصان! أين صاحب ذلك الخنزير ؟ سأريه! فى أية عربة هو ؟

فاضطر العجوز القوزاقي البخيل الى ذبح الخنزير .

فابتعد بروخور ضاحكا ، وسرعان ماسبق صفاً جديداً طويلاً من عربات أوست ـ خوبرسكايا . كانت تربو على المائتين ، فامتدت مع ماشيتها وخرافها مسافة فرست تقريبا على الطريق . أما الفرسان فكان عددهم زهاء الاربعين . فقال بروخور في نفسه : «سنشاهد ألعابا نارية عند المعبر!» .

انطلقت امرأة من مقدمة الصف تركب كميتا بديعا ، نحو بروخور . وحين تقدمت صوبه أوقفت حصانها . كانت تجلس على سرج كثير الزركشة ، وكانت الأحزمة التحتانية والمقعد تلمع بجلد زاه لم يكد يصيبه خدش ما ، والشكيمة والاجزاء المعدنية تتلألأ بالفضة . وكانت المرأة تجلس على السرج على نحو يدل على الخبرة والدراية ، وقد أمسكت بالأعنة بشكل صحيح فى يدها القوية السمراء ، الا أن الحصان العسكري القوي كان بادي النفور من سيدته . فأجال عينيه ، وقوّس رقبته وكشر عن صف أصفر

من الأسنان محاولا أن يعض ركبة المرأة الجميلة التي بدت من تحت تنورتها .

كانت ملثمة الى عينيها بعصابة رأس نظيفة زرقاء . وسألت بروخور وهي تميطها عن شفتيها :

ـ ربما مررت بعربات تحمل جرحى ،أليس كذلك ؟

ـ مررت بالعديد من العربات ، ولكن ماذا في ذلك ؟

فأجابت المرأة وهي تمط الكلمات :

ـ لم أستطع أن أعثر على زوجي . لقد جرح في ساقه ، وهو ينقل الآن في مستشفى ميدان من أوست ـ خوبر سكايا . ولكن يبدو أن الجرح قد تقيّح فأخبرني أن أجلب له حصانه . هوذا الحصان ـ ولسعت المرأة رقبة الحصان العرقة بسوطها . ـ أسرجته وركبته الى أوست ـ خوبرسكايا ، لم أستطع أن أجد المستشفى . سرت وسرت ، دون أن أستطع العثور عليه .

كان بروخور يتسمع بسرور الى الجرس الخفيض المرنان لصوت المرأة القوزاقية . وهو ينظر باعجاب الى وجهها الوسيم المليء ، فقال مستغربا :

ـ اية حاجة لك للبحث عن زوجك يا امرأة ؟ دعيه يذهب مع مستشفى الميدان! ان أي رجل يمكن أن يتزوج حسناء مثلك ، صداقها جواد كهذا . انا مستعدللمغامرة شخصيا!

فابتسمت المرأة على مضض ، ثم انحنت لتغطي ركبتها بطرف تنورتها . وتساءلت : «قل لي ، بلا مسخرات ، هل مررت بمستشفى ميدان ؟» .

فأجاب بروخور متنهدا ، وهو يشير الى صف العربات الممتد وراءه على مبعدة قليلة : «سوف تجدين مرضى وجرحى فى ذلك الجمع هناك» .

فلوحت المرأة بسوطها ، أدارت حصانها بحدة ومضت تخب مبتعدة .

كانت العربات تغذ سيرها ببطء والثيران تلوح بذيولها متكاسلة لتهش عنها ذباب الخيل الطنان... كان الجو حارا والهواء خانقا عكيكا يحمل نذير

الرعد ، حتى أن الأوراق الصغيرة لعباد الشمس القمئ النامي على قارعة الطريق كانت ذاوية ذابلة .

ومن جديد حاذى بروخور صفا من العربات . وأذهله أن يجد عددا كبيرا من القوزاق الشباب معهم... رجال إما فقدوا سراياهم أو هربوا منها ، فانضموا الى عوائلهم ، وصاروا يمضون معهم نحو معبر النهر . وكان بعضهم قد ربطوا خيلهم العسكرية وراء العربات وكانوا متمددين يحادثون زوجاتهم أو يعنون بأطفالهم . وكان آخرون ممتطين صهوات خيلهم ، وقد تسلحوا تسليحا كاملا بسيوفهم وبنادقهم ، ، فقال بروخور لنفسه وهو يحدق بهم : «لقد تركوا وحداتهم وهم يسعون الى مصيرهم» .

أفعم الهواء برائحة عرق الحيوانات ، والخشب والأواني المنزلية وزيت العربات الذى لفحته الشمس . ومضت الثيران تتقدم بتباطؤ وفتور ، قد تدلت من ألسنتها الهادلة خيوط من اللعاب تمتد الى التراب . وكانت العربات التى تجرها الخيل تتحرك على الوتيرة ذاتها دون أن تبدي أية محاولة لاجتياز الآخرين . وكانت المجموعة بكاملها تمضي بسرعة لاتزيد على ثلاثة فرستات أو أربعة في الساعة . ثم سُمعت رمية مدفع على حين غرة من بعيد من جهة الجنوب ، فاذا بالحياة تنبعث في الموكب على الفور . فانعطفت العربات التي يجرها حصان أوحصانان خارج الصف ، ، واستحثت الخيل على الخبب ، وشرعت السياط تفح والصرخات تتعالى . وراحت أغصان الصفصاف تهس على ظهور الثيران ، والعجلات تفرقع على نحو أسرع . وانطلق الجميع وقد استبد بهم الذهول ، يستحثون خطاهم . وارتفعت من الطريق سحابات من الغبار أمواجا كثيفة ، ثم طوقت عائدة لتحط على سيقان القمح والأعشاب .

كان حصان بروخور يجر العنان نحو العشب ، مدليا خطسمه الى أسفل ينتزع حزما من البرسيم واللفت والخردل البري ولكن ، وما ان دوت الرمية ، حتى غرز بروخور مهمازيه فى خاصرتي الحصان ، فانطلق طوعا يخبّ ببطء ،

وكأنه أدرك أن ذلك الوقت لم يكن وقت الرعي .

اشتد القصف فتذبذب صوت راعد في الهواء العكيك .

ـ يا سيدنا المسيح!

ورسمت امرأة شابة تركب في عربة حمل اشارة الصليب على نفسها ، وانتزعت حلمة ثديها البنّية المتلامعة باللبن من فم طفلها ، وحشرت ثديها المكتنز الأصفر في قميصها .

وصاح عجوز ، يمشي الى جانب ثيرانه ، على بروخور :

ـ أهم رجالنا الذين يطلقون النار ، أم لا ، أيها الجندي ؟

ـ انهم الحمر ، أيها الجد . فليس في مدافعنا أية قذائف .

ـ يامليكة السماء ، أنقذيهم!

وأسقط العجوز الأعنة من يده ، ورفع قبعته القوزاقية المتآكلة ، ورسم اشارة الصليب وهو يدير وجهه ناحية الشرق .

ومن الجنوب ارتفعت غيمة سوداء ناتئة من وراء حافة مسنبلة بعيدان الذرة الصفراء المتأخرة في النمو . وانتشرت حتى غمرت من الأفق نصفه ، ، حاجبة السماء بستار مضبب... فصاح أحدهم :

ـأنظروا ، هناك حريق كبير!

وارتفعت أصوات تتساءل فوق قرقعة عجلات العربات :

ـ ماذا يمكن أن يكون ؟

ـ أين الحريق ؟

ـ بمحاذاة نهر تشير .

ـ انهم الحمر يحرقون القرى على امتداد تشير .

ـ لا سمح الله!...

ـ يا لها من غيمة دخان هائلة!

ـ لا بد أن أكثر من قرية واحدة تضطرم فيها النار .

ـ ايفان ، قل لمن في المقدمة أن يسرعوا!

وراحت رقعة الغيمة السوداء تتسع أكثر فأكثرعلى صفحة السماء . وصار هدير رمي المدافع يتعالى بشكل مستديم . وفي غضون نصف ساعة جعلت الريح الجنوبية تحمل الى طريق هتمان العام الرائحة الحريفة المرعبة للقرى المحترقة علي ضفة نهر تشير .

٦٠

يمر الطريق المؤدي الى كرموك ، في موضع منه ، بسياج ذي بلاط من الحجر الرمادي ، ثم ينعطف بحدة صوب الدون ، منحدرا في أخدود غير عميق أُلقي عبره جسر خشبي . وكان قعر الأخدود أيام الجفاف ، يتلألأ برمله الأصفر وحصبائه ثرة الالوان ، أما بعد هطول أمطار الصيف فقد كانت السيول الغرينية لمياه المطر تنحدر بهياج على التل ، فيتكون جدول يجري في الأخدود ، غاسلا الصخور ومتدحرجا فوقها ، وهو يهدر في طريقه الى الدون . وفي مثل تلك الأيام تغمر المياه الجسر ، ولكن ليس لمدة طويلة . فبعد أن تبلغ مياه التل الهائجة ذورتها ، وتحطم الجدران وتقتلع الأسيجة وعواميدها ، تعود فتنحسر ، فتتلألأ الحصباء من جديد في قعر الأخدود ، وتفوح منها رائحة الكلس والطين الطري الذي جرفته السيول من المنحدرات .

كان جانبا الأخدود تغطيهما أشجار كثيفة من الصفصاف والحور ، حتى أن فيئها يظل باردا حتى في أشد أيام الصيف حرارة . وفي ذلك الفيء تنعمت الربيئة المؤلفة من مفرزة فيشنسكايا غير القوزاقية . وعسكرت عند الجسر برجالها الأحد عشر ، وقد زودوا بتعليمات لاعتقال جميع القوزاق الذين يبلغون من العمر ما يؤهلهم للخدمة العسكرية ، ممن كانوا يحاولون بلوغ فيشنسكايا . والى أن ظهرت من بعيد أولى عربات اللاجئين لبث الرجال مستلقين تحت الجسر يلعبون الورق ويدخنون ، وراح بعضهم يخلع قميصه وسرواله وينظفهما من قمل الجنود الشره . وحصل اثنان منهم على سماح

من ضابطهما فذهبا الى الدون ليسبحا .

غير أن استراحتهم كانت قصيرة الأجل ، اذ سرعان ما بدأ اللاجئون يتدفقون حدر الجسر فيضاً لا ينقطع ، وفجأة غدا الموضع الظليل الوسنان الصغير يعج بالناس والجلبة والحرارة ، وكأن العربات كانت تحدر معها عكة السهب من التلال الواقعة على جانب الدون .

وقف آمر الربيئة عند الجسر ويده على بيت مسدسه ، وهو ضابط صف طويل نحيف ذو لحية قصيرة واذنان كبيرتان بارزتان كأذني صبي... وسمح لعدد من العربات بالمرور دون أن يعترضها ، غير أنه حين لاحظ قوزاقيا شابا ، ، له من العمر زهاء الخمس والعشرين سنة ، يقود عربة مع الآخرين ، أصدر اليه أمرا صارما بالوقوف .

فعبس القوزاقي وشد الأعنة . فمضى الآمر الى العربة وسأله : «من أية كتيبة أنت ؟» .

ـ وما شأنك أنت ؟

ـ سألتك من أى كتيبة أنت . حسنا ؟

ـ انا من سرية روبزني . ومن أنت ؟

ـ انزل!

ـ أريد أن أعرف من أنت .

ـ قلت لك ، انزل .

واحمر وجه الآمر حتى أذنيه . وفتح بيت مسدسه ، وأخرجه ، ثم نقله الى يده اليسرى . فدس القوزاقي الشاب الأعنة في يدي زوجته ونط من العربة...

فاستجوبه الآمر قائلا :

ـ ما السبب فى أنك لست مع كتيبتك ؟ وأين كنت ذاهباً ؟

ـ كنت مريضا . وانا ذاهب الآن الى بازكي مع عائلتي .

ـ ألديك وثيقة تثبت أنك في اجازة مرضية ؟

ـ من أين آتي بوثيقة ؟ لم يكن في السرية طبيب .

ـ إذن أنت لم تحصل على وثيقة! ـ ثم نادى على أحد رجاله ـ كاربنكو! خذ هذا الرجل الى المدرسة .

فتساءل القوزاقي :

ـ من تكونون ، بحق الشيطان ؟

سوف نريك من نحن!

ـ علي أن أرجع الى سريتي . لا يحق لك أن تمنعني .

ـ سنرسلك بأنفسنا . ألديك سلاح ؟

ـ بندقية .

ـ أخرجها فوراً وإلا حفرت ثقباً فيك . قوزاقي شاب مثلك وتختبئ تحت تنورة زوجتك الداخلية! أيتعين علينا أن ندافع عنك ؟

ثم قال بازدراء عبر كتفه وهو يشيح بوجهه : « وغد! »

فأخرج القوزاقي بندقيته من تحت بساط . ولما لم يستسغ تقبيل زوجته على مرأى من الآخرين أخذ بيدها ، وتمتم لها بشيء ، ثم مضى مخفوراً صوب المدرسة

وعادت العربات المتزاحمة في الطريق الضيق تسير من جديد على الجسر بجلبة مرعدة .

وفي غضون ساعة من الزمن كانت الربيئة قد اعتقلت زهاء خمسين هارباً . حاول بعضهم أن يقاوم ، وعلى الأخص قوزاقي كهل ذو شارب طويل ومظهر جندي شجاع . فحينما أمره الآمر بالنزول من عربته ، لفح حصانيه بسوطه ، إلا أن اثنين من الحرس أمسكا بالحيوانين من لجاميهما وأوقفاهما عند الطرف الأبعد من الجسر . ومن غير أن يعمل القوزاقي ذهنه نتش بندقية أميركية من نوع ونتشستر من تحت غطاء المشمع وحطها على كتفه ، صائحاً :

ـ تنحيا عن الطريق وإلا قتلتكما ، عليكما اللعنة!

فقال له أحد الحارسين :

ـ انزل ، انزل! لقد تلقينا أوامر بإطلاق النار على كل من يخرج عن الطاعة . سنرميك .

ـ يا فلاحون! بالأمس كنتم أنفسكم حمراً ، واليوم تصدرون الأوامر الى القوزاق... يا ذوي الجلود الزنخة! تنحيا عن الطريق وإلا رميتكما...

فوثب أحد الحارسين على عجلة أمامية ، وبعد صراع قصير انتزع البندقية من يد الرجل . فتقوس القوزاقي كالقطة ، ودس يده تحت الغطاء المشمع ، وسحب حساماً من غمده ، وحين جثا على ركبتيه استطاع أن يبلغ جانب العربة ، إلا أنه أخطأ رأس الحارس بقليل فيما ابتعد هذا قافزاً .

فصرخت زوجة القوزاقي الباكية ذات الوجه الهزيل في زوجها الهائج : « تيموفي ، كف عن ذلك! تيموفي! آه! لا تفعل هذا... لا تقاوم ، إنهم سيقتلونك! » .

غير أنه انتصب بملء قامته في العربة ، ولوح بالحسام المشع بلون في زرقة الفولاذ فوق رأسه ، مبعداً عنه الحارسين ، وهو يقذفهما بسباب مبحوح ويجول بعينيه . وأرعد صائحاً : « ابتعدا وإلا مزقتكما! » ووجهه يرتجف غضباً ، وتحت شاربيه أزبد لعابه ، وبياضا عينيه المزرقان يحول لونهما أحمر قانياً كالدم .

واستطاعا أخيراً أن يجرداه من سلاحه بشق النفس ، ثم طرحاه أرضاً وقيداه . وحينما فتشا العربة عثرا على تفسير بسيط لمقاومته العنود . إذ كانت ثمة جرة كبيرة تحت الغطاء المشمع مليئة بالفودكا المنزلية القوية .

وكان الطريق في تلك الأثناء قد اكتظ بالعربات والبهائم . وقد ازدحمت العربات بحيث صار لزاماً على اللاجئين أن يحلوا الخيل والثيران ويجرّوا العربات بأيديهم حدر الجسر . وراحت الثيران والخيل المزنخرة بعنف ، وقد أهاجها ذباب الخيل ، تعت عرائش العربات بضراوة وتتزاحم متدافعة صوب حاجزي الجسر . وضج الجسر باللعنات وصفير السياط ونحيب النساء . أما العربات التي كانت في المؤخرة فقد استدارت الى الخلف وصعدت الى الطريق

العام من جديد لتيمم صوب الدون عند بازكي .

أرسل الهاربون المعتقلون الى بازكي تحت الحراسة ، غير أن الحراس لم يستطيعوا أن يسيطروا عليهم إذ كان الهاربون جميعهم مسلحين . فما أن عبروا الجسر حتى احتدمت معركة بين الحراس والأسرى . وبعد مضي وقت قصير عاد الحراس الى النقطة الأمامية ، بينما مضى الهاربون أنفسهم الى فيشنسكايا في تشكيلة عسكرية .

حتى أن بروخور نفسه أوقف في كروموك . فأبرز أمر المرور الذي كان غريغوري قد زوّده به ، فسُمح له بالمرور دون اعتراض .

وبلغ بازكي الواقعة مقابل فيشنسكايا في المساء المبكر . كانت آلاف من عربات اللاجئين تسد كافة الشوارع والأزقة الجانبية وتنتشر على ضفة الدون مسافة فرستين تقريباً . وكان ثمة أكثر من خمسين ألفاً من الناس منتشرين داخل الغابات ينتظرون نقلهم الى الجانب الآخر .

كانت البطاريات ، وهيئات أركان الكتائب ، والمعدات العسكرية تنقل على المعبر عبر النهر . أما المشاة فكانوا ينقلون في زوارق ذوات مجاذيف ، حيث كانت عشرات منها تنقط صفحة الدون . وكانت حشود من الكائنات البشرية تمور متزاحمة حول المرسى . وكان هدير المدفعية لايزال ينبعث من نهر تشير ، وقد اشتدت رائحة الحريق الحريفة .

شرعت أولى مفارز الخيالة التي كانت تحمي التقهقر بالوصول عند منتصف الليل ، وكان مقرراً أن تعبر النهر حالما يطل الفجر . إلا أن أية أنباء لم تصل عن خيالة الفرقة الأولى ، فقرر بروخور أن يلبث في بازكي منتظراً وصول سريته . شق طريقه بجهد وهو يقود حصانه بالأعنة عبر العربات الواقفة عند سياج مستشفى بازكي فربط حصانه على عربة لاجئ ومضى يبحث عن معارف بين الزحام .

ومن بعيد لاحظ أكسينيا أستاخوفا نازلة الى النهر ، وقد ضغطت على صدرها صرة صغيرة وألقت على كتفيها سترة صوفية . فأثار جمالها الخارق

اهتمام بعض المشاة عند جانب النهر ، مما جعلهم ينادون عليها بسفاهة ، وشعت أسنانهم ببريق أبيض وسط وجوههم المغبرة العرقى حينما انفجروا في هدير من الضحك المتشوق . وتجرأ قوزاقي طويل أشقر الشعر ، كان نطاق قمصلته سائباً ، على وضع ذراعه حولها من الخلف ، وضغط شفتيه على رقبتها قاتمة الجلد . غير أنها دفعت الرجل بخشونة وهي تقول شيئاً ما وتكشر عن أسنانها . فهدرت جماعة الجنود ، ونزع القوزاقي قبعته ، وهو يتوسل بصوت أجش : «قبلة صغيرة واحدة لا غير!» .

فأسرعت أكسينيا خطاها ومضت ، وقد علت شفتيها الممتلئتين ابتسامة مزدرية . لم ينادها بروخور بل راح يبحث بين الجمع عن آخرين من أهالي قريته . وبينما كان يشق طريقه ببطء خلال الزحام طرقت سمعه أصوات وضحكات ثملة ، وسرعان ما وجد ثلاثة شيوخ جالسين على مرشحة حصان تحت عربة . كانت لدى أحدهم جرة من الفودكا المنزلية وضعها بين ساقيه ، وكان هؤلاء الشيوخ المرحون يتناوبون على شرب الفودكا بكوز نحاسي اتخذوه من طلقة فارغة ، ويمضغون شيئاً من السمك المجفف . فتوقف بروخور الجائع إزاء فواح الشراب القوي ورائحة السمك المالحة .

فدعاه أحد الرجال : «أيها الجندي ، تعال واشرب جرعة معنا!» ولم يجد بروخور في ذلك ضيراً ، فجلس ورسم علامة الصليب ، وتقبل بابتسام كوزاً من المشروب نفاذ الرائحة من يد العجوز المضياف .

وهدر عجوز آخر ، بدا أنفه وشفته العليا متهشمين :

ـ اشرب مادمت حياً! هاك ، خذ عضة من هذا الأبرميس* . لا تشمخ بأنفك على معشر الشيوخ ، يا فتى . إن الحكمة تأتي من الشيوخ . فمازال عليكم ، أيها الأولاد ، أن تتعلموا منا كيف تعيشون وكيف تشربون الفودكا .

فشرب بروخور وهو يلقي نظرات وجلى على العجوز عديم الأنف . ولم

---

* نوع من السمك . المترجمون

يستطع أن يمنع نفسه من السؤال ، بين كوزه الثاني والثالث :

ـ كيف فقدت أنفك ، يا أب ؟ في المجون ؟

ـ كلا ، يا بني . أصابني الزكام . كنت أعاني دائماً من الزكام منذ صباي . هذا هو السبب!

فاعترف بروخور :

ـ وأنا أسأت الظن بك . كنت أتصور أن داء عفناً ما قد خلف أثره الأسود على أنفك . ولم أكن أود أن أمس أياً من هذه الترهات .

وإذ طمأنه تفسير العجوز ، ضغط شفتيه الى الكوز وأفرغه حتى القعر دونما وجل .

وجأر صاحب الفودكا ، وهو رجل عجوز قوي :

ـ حياتي انتهت! فلمَ لا أشرب ؟ جلبت معي مائتي بود من الحبوب ، ولكن اضطررت الى ترك ألف بود ورائي . سقت خمسة أزواج من الثيران الى هذا الموضع ، ولكن علي الآن أن أخلفها ورائي أيضاً ، لأنني لا أستطيع أن أنقلها عبر النهر . سأفقد كل ما لملمته في حياتي . لننطلق في الغناء! هيا ، أيها الأصدقاء!

واستحال لون وجهه قرمزياً وامتلأت عيناه بالدموع . فقال العجوز المجدوع الأنف يناقشه :

ـ لا تصرخ ، يا تروفيم ايفانيتش! فإن بقينا على قيد الحياة ، فسنستعيد ثراءنا من جديد .

فرفع القوزاقي العجوز صوته أكثر من السابق ، وتجعد وجهه وهو يبكي :

ـ كيف يمكن أن أمنع نفسي من الصراخ ؟ سأفقد كل حبوبي . ستموت كل ثيراني . سيحرق الحمر داري عن آخرها . ابني قتل في الخريف ، فكيف لي أن أمنع نفسي من الصراخ ؟ لمن كسبت حقلي وأملاكي معاً ؟ في الأيام الخوالي ، كانت لدي عشرة قمصان تتعفن بالعرق على ظهري خلال الصيف ، وها أنا الآن أمسيت عريان حافياً . هيا اشربوا!

وبينما كانوا يتحدثون ، أتى بروخور على أبرميسة كاملة ، وكرع سبعة كيزان من الفودكا ، وصار من السكر بحيث وجد مشقة كبيرة في النهوض على قدميه ، حينما أراد أن يتركهم .

فعرض صاحب الفودكا عليه قائلاً :

ـ أيها الجندي ، أيها المدافع عنا ، سأمنحك شيئاً من الحبوب لحصانك إن شئت ذلك . كم تريد ؟

فتمتم بروخور غير مكترث لكل ما حوله :

ـ سآخذ ملء زكيبة .

فصب العجوز ملء زكيبة من أحسن الشوفان وساعده على وضعها على كتفيه . ثم سأل بروخور وهو يحتضنه ويذرف دموعاً منفعلة : «ولكن أعد الزكيبة إلي . لا تنس ، بحب المسيح! »

فرفض بروخور بعناد وطيش لسبب ما :

ـ لن أعيد الزكيبة . أقول لك إنني لن أعيدها وأنا أعني أنني لن أعيدها .

وابتعد عن العربة مترنحاً . وكانت الزكيبة تستحثه على المضي وهي تتأرجح على ظهره ، وقد بدا لبروخور وكأنه يسير على أرض زلقة بالجمد ، إذ كانت قدماه تتزحلقان وساقاه تهتزان كسيقان حصان غير منعل يخطو فوق الجليد . وبعد بضع خطوات مترنحة ، توقف ليتذكر ما إذا كان مرتدياً قبعته أم لا . وتشمم حصان ، مربوط الى عربة ، زكيبة الشوفان ، فشد نفسه نحوها وقضم إحدى زواياها . فانهمرت الحبوب خلل الثقب بوقع ناعم موصول . وإذ وجد بروخور حمله أقل ثقلاً من السابق ، انطلق من جديد .

وكان من الممكن أن يفلح في حمل بقية الشوفان الى حصانه إلا أن ثوراً ضخماً كان يمر بجانبه رفسه فجأة بحوافره . وما كان للثور أن يدع أي امرئ يقربه ، وهو الذي كان قد لقي الأمرين من السياط وذباب الخيل ، فاستبد به الهياج بفعل الحرارة والوقوف المستديم . فطار بروخور ، وهو الذي لم يكن أول ضحية لهياج الثور ذلك النهار ، وارتطم رأسه بمدار عجلة ، وارتمى نائماً في الحال .

استيقظ وشيك انتصاف الليل . كانت ثمة غيوم رمادية غامقة تتدفق عبر السماء فوقه متجهة ناحية الغرب . ومن حين لآخر كان القمر الفتي يطل هنيهة خلال شق بين الغيوم ، ثم تتلفع السماء بالسحب ، وبدا على الريح أنها تزداد برودة . كانت الخيالة تمر قريبة جداً من العربة التي استلقى الى جانبها بروخور . وكانت الأرض تئن تحت عدد لا يحصى من الحوافر المنعلة . وحين تشممت البهائم المطر ، راحت تزنخر . وكانت أغمدة السيوف تجلجل على الركائب ، والوهج الباهت للسكائر يتألق لحظة ويختفي . وتناهت رائحة عرق الخيل والرائحة الحريفة للعدة الجلدية الى منخري بروخور . وكان قد اعتاد على تحسس هذه الرائحة الغريبة للخيالة كما يحس بأي جزء من بدنه ، مثله في ذلك كمثل جميع القوزاق العاملين في الخدمة العسكرية . لقد حمل القوزاق هذه الرائحة معهم على جميع الطرق من بروسيا وبوكوفينا الى سهوب الدون ، ولقد غدت هذه الوخامة الدائمة للخيالة عزيزة وأليفة عليه مثل رائحة بيته هو . فرفع منخراه المفلطحان ورفع رأسه الثقيل ، وهتف متسائلاً :

ـ من أية كتيبة أنتم ، يا أولاد ؟

فرد عليه صوت مستخف خلل العتمة :

ـ خيالة .

ـ نعم . ولكنني سألت من أية كتيبة ؟

فأجابه الصوت ذاته :

ـ كتيبة بتلورا* .

فسبه بروخور : « يا خنزير! » وانتظر لحظة ثم كرر السؤال : « من أية كتيبة أنتم ، أيها الرفاق ؟ » .

فجاءه الجواب :

ـ بوكوفسكي .

---

* أحد رؤوس التمرد في الحرب الأهلية . المترجمون

وحاول بروخور أن يقوم على قدميه ، إلا أن الدم هجم الى رأسه وصعد الغثيان الى بلعومه ، فاضطجع ، وغيبه النوم من جديد . وقبيل الصباح هبت برودة رطبة من ناحية النهر . وتناهى الى سمعه وهو نائم صوت يتساءل من فوقه :

ـ لم يمت ؟

فيرد رجل آخر عند أذن بروخور تماماً :

ـ جسمه حار... وثمل!

فقال الأول :

ـ جره عن الطريق! إنه منكفئ كجثة ميت . خله يذوق طعم رمحك!

فمنح الرجل الثاني بروخور نصف الواعي نخسة مؤلمة برمحه في أضلاعه ، وأمسكت بساقيه يدان وسحبتاه الى جانب الطريق .

وأرعد صوت صارم :

ـ تحلون هذه العربات ، وجدتم الوقت المناسب لتناموا! ها هم الحمر في أعقابنا تماماً ، ورجالنا ينامون وكأنهم في بيوتهم! نحوا العربات عن الطريق ، فستمر البطارية من هنا عما قريب . أسرعوا! تسدون الطريق!... يا لكم من تنابلة!

وبدأ اللاجئون النائمون فوق وتحت العربات يتململون . ووثب بروخور على قدميه . لم يكن لديه سيف ولا بندقية ، وكان قد ضيع جزمته اليمنى منذ نوبة سكره في المساء السابق . وكان يجول ببصره بارتباك فيما حوله وهمّ بالبحث عن أشيائه تحت العربة ، إلا أن سواق ومدفعيي بطارية قادمة قلبوا العربة على رأسها بطيش ، بما عليها من صناديق ، وما هي إلا لحظة حتى كانوا قد فتحوا طريقاً لمدافعهم .

وهرع السواق الى خيلهم . وارتعشت السيور الجلدية العريضة وتوترت . وراحت العجلات الضخمة لمدافع الميدان تئن على عثرات الطريق . وتعلق مدار عجلة من عربة عتاد بمحور عربة حمل فكسر .

وصاح العجوز المجدوع الأنف الذي كان قد استضاف بروخور ، من عربته : « أنتم تلوذون بالفرار من الجبهة! لعمري انكم جنود أخيار ، عليكم اللعنة! » .

ومضى جنود البطارية يمرون صامتين ، يغذون السير ليعبروا النهر . وعلى ضوء الغبش الباكر ظل بروخور يبحث وقتاً طويلاً عن بندقيته وحصانه ، إلا أنه لم يعثر على أي منهما . وعند النهر خلع جزمته الأخرى وقذف بها في الماء ، ثم بلل رأسه مرة وأخرى محاولاً تخفيف وطأة الألم الذي كان يضغط على رأسه بأطواق حديدية لا تُحتمل .

وشرعت الخيالة تعبر النهر عند شروق الشمس . فساق القوزاق خيلهم حدر الدون فوق الموضع الذي ينعطف فيه شرقاً في زاوية قائمة . وكان آمر السرية ، وهو رجل ذو أنف معقوف وسيماء قاسية ولحية زنجبيلية كثة ، يشبه الى حد غريب خنزيراً برياً متوحشاً . وكانت ذراعه اليسرى معلقة بمشدة وسخة ملطخة بالدم ، بينما كانت يمناه تعمل بالسوط بلا كلل .

وصاح على القوزاق ، فيما كانوا يحاولون إدخال الخيل الى الماء ، فتكشفت أسنانه بيضاً كأنياب الكلب ، من بين عذاريه الأحمرين : « لا تدعوا خيلكم تشرب!... استحثوها على المضي! ماذا يا أبناء... الـ...! أتخافون الماء أم ماذا ؟ خذه الى الماء!... إنه ليس مصنوعاً من السكر ، فلن يذوب! »

وتزاحمت الخيل معاً محجمة عن النزول الى الماء القارس ، فجعل القوزاق يصيحون ويسوقونها بسياطهم . وبدأ حصان أدهم ذو غرة عريضة في جبينه ، يسبح ، كان واضحاً أنه قد خبر السباحة من قبل . وراحت الأمواج تنحدر فوق ثفره المنحدر ، وانحسر ذيله الكث جانباً ، فيما انتصب رأسه وعنقه خارج الماء . فتبعته الخيل الأخرى ، وهي تزنخر حين تخبط في الماء . ثم تبعها القوزاق في ست جنائب ، وقد وقف رجل على مقدمة كل جنيبة وبيده حبل ذو أنشوطة على أهبة الاستعداد لأي طارئ .

وصاح آمر السرية ، وهو يفرقع بسوطه قبل أن ينزله على ساق جزمته المعفرة بالكلس : « لا تذهبوا أمامها! سوقوها مع التيار . لا تدعوه يجرفها بعيداً » .

وبدأ التيار السريع يجرف الخيل معه . واستطاع الحصان الأدهم بسهولة

أن يسبق الآخرين بمسافة ، وكان أول من ظهر على الشاطئ الرملي للضفة اليسرى . وفي تلك اللحظة أطلت الشمس فوق الأغصان الكثيفة لشجرة حور ، وسقطت حزمة وردية من الضياء على الحصان الأدهم ، فتوهج شعره ، وقد تلألأ بالبلل ، وهجاً قاتماً .

زعق آمر البطارية ، الذي كان يحكي الخنزير شكلاً ، بصوت أجش : «اعتن بالمهرة . ساعدها ، إن عليها عناناً . أجذف ، ألا تستطيع! اجذف! »

وبلغت جميع الخيل الضفة الأخرى دون أية حادثة . وقد كان القوزاق في انتظارها ، يفرزون الخيل حالما تحط على اليابسة ويضعون عليها الأعنة . ومن الجانب الآخر شرع الرجال يرسلون الأسرجة في قوارب عبر النهر .

سأل بروخور قوزاقياً كان يأخذ سرجاً الى قارب :

ـ أين شبت النار أمس ؟

ـ على امتداد نهر تشير .

ـ هل أضرمتها قذيفة مدفع ؟

ـ اللعنة على القذيفة! الحمر يضرمون النار عن عمد...

فتساءل بروخور بدهشة :

ـ هل يعمدون الى حرق كل شيء ؟

ـ لا ، لا يفعلون ذلك... يحرقون بيوت الأغنياء . البيوت ذات السقوف الحديدية والمآوي الجيدة .

وبعد الاستفسار عن فرقته ، عاد الى عربات اللاجئين . وكان الدخان الحريف لنيران المضارب التي أضرم فيها الحطب والأسيجة المنتزعة والجل ، يتصاعد في كل مكان مع مهب النسيم . وانهمكت النساء في إعداد الفطور . وكانت قد وصلت أثناء الليل عدة آلاف أخر من اللاجئين القادمين من مناطق السهوب على الضفة اليمنى للدون . وارتفع حول النيران طنين الأصوات . وتناهت الى سمع بروخور نتف من الأحاديث :

ـ متى ستحين لنا فرصة للعبور ؟

ـ عسى الله أن لا يدعنا نعبر . فسوف ألقي حبوبي في الدون ولا أدع الحمر يحصلون عليها .

ـ أرأيت عدد الناس المحيطين بالمعبر... مثل سرب من الذباب!

ـ ولكن كيف بمقدورنا أن نترك صناديقنا على الشاطئ . يا إلهي!

ـ بعد كل التعب والشقاء الذي تكبدناه من أجلها... يا سيدنا المسيح!

ـ آه لو عبرنا النهر عند قريتنا .

ـ نعم ، أي شيطان جاء بنا إلى موضع فيشنسكايا هذا ؟

ـ يقال إن كالينوف أوكول قد حرقت عن آخرها .

ـ حسبت أننا سنعبر على المعبر .

ـ أتظن حقاً أنهم سيصفحون عنا ؟

ـ عندهم أوامر بإنزال السيف بكل قوزاقي يتجاوز عمره السادسة .

ـ سيظفرون بنا هنا . وما عسانا نفعل آنذاك ؟

ـ سيكون ثمة الكثير من اللحم الفج آنئذ!

والى جانب عربة مزينة زينة بهيجة وقف عجوز أشيب ، أتمان قرية كما يبدو من هيئته وتعاليه ، يخطب :

ـ سأله : « يعني لازم أن يموت الناس على شاطئ النهر ؟ متى سيتسنى لنا العبور الى الجانب الآخر ؟ سيمزقنا الحمر عن بكرة أبينا » . فقال معاليه : « لا تخف ، أيها الجد! سوف نحافظ على مواقعنا وندافع عنها حتى يكون جميع الناس قد عبروا . سنهلك ولكننا لن ندع زوجاتنا وأطفالنا وآباءنا يقاسون الأمرين » .

كان جمع النساء والشيوخ المتحلقين حوله يصغون إليه باهتمام زائد ، وارتفع منهم خليط شامل من الأصوات حينما توقف العجوز هنيهة ليجر نفسه :

ـ فلمَ عبرت البطارية إذن ؟

ـ كادوا يسحقوننا بحوافرهم في عجالة عبورهم .

ـ وها قد وصلت الخيالة .

ـ يقولون إن غريغوري ميليخوف قد ترك الجبهة .

ـ من سيدافع عنا الآن ؟ الجنود كانوا السباقين في العبور ، وخلفوا الأهالي وراءهم .

ـ كل واحد يلوذ بجلده .

ـ الجميع يخوننا .

ـ يجب أن نبعث للحمر بشيوخنا مع الخبز والملح ، فقد تأخذهم الشفقة بنا ولا يعاقبوننا .

وانعطف فارس عند زاوية الشارع إزاء البناية الطابوقية الكبيرة للمستشفى . وكانت بندقيته معلقة على قربوس جلده ، ويتأرجح رمح الى جانبه .

فصاحت عجوز فرحة : «لعمري ، هو ذا ولدي ميكيشكا!» وجرت نحوه ، تشق طريقها بين الخيل والعربات وتتوثب فوق العرائش . فأمسكوا بالخيال من ركابه وأوقفوه . فرفع فوق رأسه رزمة رمادية مختومة وصاح :

ـ أحمل بريداً الى رئيس الأركان! دعوني أمر!

فصاحت العجوز متأثرة ، وخصلات شعرها الأشيب مسدولة على وجهها اللامع : «ميكيشكا ، يا صغيري العجوز!» ثم سألته بابتسامة مرتعشة ، وهي تضغط بجسمها على جنب الحصان :

ـ هل مررت بقريتنا ؟

ـ نعم ، الحمر فيها الآن...

ـ وبيتنا...

ـ بيتنا لايزال قائماً . إلا أن بيت فيدوت حرق عن آخره . سرت النار الى سقيفتنا كذلك ، إلا أن الحمر أخمدوها بأنفسهم . أما فتيسكا فقد لاذت بالفرار وأخبرتنا أن ضابطهم أمرهم ألا يحرقوا أياً من بيوت القوزاق الفقراء ، بل جميع الدور التي تعود للبرجوازيين .

فرسمت المرأة إشارة الصليب وقالت :

ـ حسناً ، الحمد لله! ليحفظهم المسيح!

فتدخل عجوز صارم مغضباً :

ـ ما الذي تقولين ، يا امرأة ؟ أضرموا النار في بيت جارك وأنت تجأرين بـ« الحمد لله! »

فردت المرأة بسرعة وحيوية :

ـ ليتخطفه الشيطان! جاري يستطيع بيسر أن يبني له بيتاً جديداً ، ولكن ماذا كنت سأفعل لو أضرمت النار في دارنا ؟ لفيدوت جرة مدفونة ملأى بالذهب ، أما أنا فكنت أعمل طيلة حياتي أجيرة لدى الآخرين .

ومال الخيال من سرجه قائلاً :

ـ دعيني أذهب ، يا أمي! علي أن أسرع بهذه الرزمة .

سارت المرأة الى جانب الحصان بعضاً من الوقت تقبل يد الخيال ، ثم قفلت راكضة الى العربة ، بينما مضى هو يصيح بصوت جهوري فتي :

ـ أفسحوا الطريق! لدي رزمة للقائد العام . أفسحوا الطريق!

وراح الحصان يتواثب ويجانب ، فأفسح الجمع له الطريق على مضض . وبدا على الخيال أنه كان يتحرك ببطء ، بيد أنه سرعان ما اختفى وراء العربات ، ووراء ظهور الثيران والخيل ، ولم يبن غير رمحه المتأرجح فوق الجمع الحاشد وهو يشق طريقه صوب النهر .

٦١

وفي بحر النهار نُقلت الى الجانب الآخر للنهر جميع القوة المتمردة واللاجئون كذلك . وكان آخر العابرين سرايا خيالة كتيبة فيشنسكايا التابعة للفرقة الأولى التي يقودها غريغوري ميليخوف . وكان غريغوري واثنتا عشرة سرية مختارة قد استطاعوا الصمود أمام ضغط الحمر ، وذلك حتى المساء ، وفي حوالي الساعة الخامسة ، ولدى استلامه إشعاراً من كودينوف بأن الجيش واللاجئين قد عبروا النهر جميعاً ، أصدر أمره بالتراجع .

وبموجب خطة المتمردين كان على السرايا المسحوبة من القرى الواقعة على الضفة اليمنى أن تعبر وتلازم ضفة النهر ، كل سرية مقابل قريتها . وعند انتصاف النهار وصلت التقارير الى القائد العام تفيد أن أغلبها قد اتخذت مواقعها .

وحيثما كانت هناك فجوات واسعة بين القرى ، نسبت هيئة الأركان فيها سرايا تتألف من قوزاق مناطق السهوب ، أما بقية هذه السرايا فقد أبقيت في مؤخرة خط النار احتياطاً . وهكذا امتدت جبهة المتمردين على الضفة اليسرى للدون الى أكثر من مائة فرست ، من أقصى قرى منطقة كازانسكايا في الغرب حتى مصب الخوبر .

ما ان عبر القوزاق النهر حتى شرعوا بالتهيؤ لحرب الخنادق ، فراحوا يحفرون الخنادق على عجل ، ويقطعون وينشرون أشجار الحور والصفصاف والبلوط ، ويشيدون الحفائر وأوكار الرشاشات . وجرى الاستيلاء على جميع الزكائب الفارغة من اللاجئين ، فملئت رملاً ، ونظمت استحكامات أمام صف الخنادق الطويل .

وعند المساء كان حفر الخنادق قد تم في كل مكان . وأخفيت وراء فيشنسكايا البطاريتان الأولى والثالثة في غابات صنوبر . ولم يكن لدى المدافع الثمانية سوى خمس قذائف فقط . وقد نفدت الخراطيش كذلك تقريباً . فأرسل كودينوف سعاة يحملون تعليمات مشددة تمنع أي إطلاق بالبنادق وتأمر كل سرية بانتقاء واحد أو اثنين من خيرة رماتها وتجهزهم بكميات كافية من الرصاص ، بحيث يصبح باستطاعتهم أن يقتنصوا أي حامل رشاشة أحمر أو آخرين يظهرون في شوارع القرى الواقعة على الجانب الأيمن . أما بقية القوزاق فلم يسمح لهم بإطلاق النار إلا إذا حاول الحمر عبور النهر .

كان الوقت غسقاً حين خرج غريغوري ليفتش مواقع فرقته ، ثم عاد ليقضي الليلة في فيشنسكايا .

وفي تلك الليلة مُنعت جميع الأضواء والنيران في فيشنسكايا والمروج

المحيطة بها . فسبحت الضفاف بضباب بنفسجي . وفي بكرة الصباح التالي ظهرت أولى الدوريات الحمر على تلال بازكي . وسرعان ما غدوا يظهرون ويختفون على جميع التلال الواقعة على الضفة اليمنى من أوست ـ خوبرسكايا الى كازانسكايا . ثم اختفت الدوريات وخيّم فوق المنحدرات صمت ثقيل موات الى أن انتصف النهار .

في طريق هتمان العام كانت الريح تثير أعمدة الغبار . والدخان الأرجواني الحالك للقرى المحترقة ظل يتصاعد في جهة الجنوب . وجعلت سحب ، كانت الريح قد فرقتها ، تتجمع من جديد ، وراح برق شاحب يحوم فوق الأرض . وبدا كأن هزيماً من الرعد يمزق كتل السحب المتعلقة ، وطفق مطر قوي ينزل مدراراً . فراحت الريح ترسله أمواجاً راقصة فوق القمم الكلسية للتلال القائمة على جانب الدون ، وفوق عباد الشمس الذاوي من الحرارة الشديدة ، وفوق الحنطة العطشى . فأنعش المطر الأوراق الصغيرة المغبَّرة ، وتلألأت براعم الربيع طرية ، وأقام عباد الشمس المدوّر رؤوسه المسودة من جديد ، وارتفع من الحدائق الفواح الحلو للبطيخ الناضج ، وتصاعد البخار من الأرض الملفوحة فيما كانت تطفئ ظمأها...

وبعد الظهر عادت الدوريات الحمر تظهر كرة أخرى فوق التلال التي امتدت سلسلة على الضفة اليمنى للدون الى بحر آزوف .

ومن التلال كان بالمستطاع رؤية الضفة الرملية المستوية للجانب الأيسر لعشرات الفرستات تتشعب عليها الحواف الخضر للجداول . انحدرت دوريات الحمر بحذر الى داخل القرى . وراح المشاة يتدفقون وراءهم حذر التلال . وكانت البطاريات الحمر ترتقي أكمات الحراسة ، حيث كان خفراء بولوفتسي وعصابات البدو يقفون في سالف الأيام يترقبون ظهور الأعداء .

فتحت بطارية النار على فيشنسكايا . فانفجرت القذيفة الأولى في الساحة ، وسرعان ما امتلأ الهواء بنتف رمادية صغيرة من الدخان الذي انبعث من انفجار القذائف وسحب المنثار البيض بلون اللبن . ثم فتحت ثلاث

بطاريات أخرى النار على فيشنسكايا وعلى خنادق القوزاق الممتدة على النهر . وشرعت الرشاشات تثرثر غضبى .

كان ثمة رشاشان من طراز هوتشكيس يطلقان قذائفهما في دفقات قصيرة الأمد . بينما ظل مدفع من طراز مكسيم يصب حممه صباً مستديماً كضربات طبل من حديد ، بعد أن حدد المدى الذي كان المشاة المتمردون يتحركون فيه على الضفة المقابلة . وهدرت العربات صعداً الى الأكمات ، وحفرت الخنادق في المنحدرات التي يغطيها الشوك . وقرقعت عربات خفيفة وأخرى ذوات عجلتين على الطريق العام ، مثيرة سحباً من الغبار طويلة متموجة .

غدا هزيم المدفعية يسمع الآن على امتداد الجبهة كلها . وظلت بطاريات الحمر تصلي الضفة المقابلة بنار حامية من التلال الستراتيجية حتى موهن متأخر من المساء . وكانت الحقول النديية بالخنادق التي يحتلها المتمردون صامتة على امتداد خط النار . وكانت خيل فرسان القوزاق قد أخفيت على ضفاف النهر يغطيها القصب والبردي والأسل ، حيث لا يزعجها الذباب والحرارة الشديدة . وكانت الأشجار وأغصان الصفصاف العالية تحجبها حجباً تاماً عن أعين الراصدين الحمر .

لم تكن العين لتقع على أي امرئ على امتداد المروج الخضر ، خلا أشباحاً صغيرة ، من حين لآخر ، للاجئين يهرعون بعيداً عن الدون . وكان رماة الرشاشات الحمر يطلقون وراءهم بضع طلقات ، وعلى أزيز الرصاص يقذف اللاجئون المذعورون بأنفسهم على الأرض . فيلبثون مستلقين بين الحشائش الكثيفة حتى الغسق ، وآنذاك فقط ينطلقون راكضين صوب الغابات ، دون أن يلقوا نظرة الى الخلف ، مسرعين باتجاه الشمال ، الى المتاهة المضيافة لأشجار الحور الرومي والبتولا .

* * *

ظلت فيشنسكايا مدة يومين عرضة لقصف المدفعية الشديد المتواصل . فلم يخرج السكان من سراديبهم . ولم تدب الحياة في الشوارع

التي نخرتها القذائف إلا ليلاً .

انتهت هيئة الأركان العامة للمتمردين الى الاستنتاج بأن مثل ذلك القصف الثقيل لم يكن سوى تمهيد لمحاولة عبور النهر ، وكانوا يتوجسون خيفة من احتمال عبور الحمر للنهر مقابل فيشنسكايا مستهدفين الاستيلاء على الموضع ودق اسفين خلال خط الجبهة الطويل ، فيشطرونه شطرين ، ثم يقضون على قوات التمرد قضاء تاماً بشن هجمات جانبية . وبناء على أمر من كودينوف ركزت في فيشنسكايا أكثر من عشرين رشاشة مزودة بكميات احتياطية كبيرة من الذخيرة . وصدرت التعليمات الى آمري البطارية ألا يطلقوا قذائفهم المتبقية إلا إذا حاول الحمر العبور . أما المعبر وجميع الزوراق فقد سُحبت الى موضع من الماء الراكد على مبعدة من فيشنسكايا ووضعت عليها حراسة قوية .

أما بالنسبة لغريغوري ميليخوف فقد بدت مخاوف قيادة هيئة الأركان لا أساس لها . فعبّر عن رأيه بقوة في اجتماع للمجلس العام للحرب . وتساءل :

ـ أتحسبون أن هناك أي احتمال بعبورهم الى فيشنسكايا ؟ انظروا : إن الضفة في هذا الجانب جرداء كالدف ، رملية ملساء ، وليس على جانب الدون نفسه شجرة أو دغل . فمن تبلغ به الحماقة حتى يعبر من هناك ؟ فعلى شاطئ أجرد كهذا ستقوم الرشاشات بحصدهم عن آخرهم . لا يأخذن بك الظن ، يا كودينوف ، بأن قادة الحمر أغبى منا . إذ أن لدى بعضهم رؤساء على أكتافهم أفضل مما لدينا . كلا ، لن يحاولوا الاستيلاء على فيشنسكايا . فالاحتمال أقوى في أنهم سيحاولون العبور إما حيث يكون النهر ضحلاً ، حيث توجد مخاضات عبر الضفاف الرملية ، أو حيث توجد أرض مغطاة بالغابات ودق الشجر . يجب علينا أن نضع حراسة مشددة فوق مثل هذه المواقع : وخصوصاً في الليل . يجب أن نحذّر القوزاق ألا يند عنهم صوت أو رائحة ، يكشف عن مكانهم ، ولنجلب الاحتياطي لكي يكون لدينا شيء ما نقاتل به إذا حلت المتاعب .

فسأله واحد منهم :

ـ تقول إنهم لن يحاولوا الاستيلاء على فيشنسكايا ؟ فلماذا يقصفونها بهذا الشكل ، إذن ؟

فأجاب غريغوري :

ـ الأحسن أن تسألهم عن ذلك! أتراهم يقذفون فيشنسكايا فقط ؟ ماذا عن كازانسكايا ويرنسكايا ؟ كل ما في الأمر أن لديهم بضع قذائف أكثر مما لدينا . أما مدفعيتنا اللعينة نحن فليس لديها سوى خمس قذائف ، ولهذه القذائف أغلفة من البلوط!

فانفجر كودينوف ضاحكاً ، وقال :

ـ أصاب الثور في عينه!

فقال آمر البطارية الثالثة غضباً :

ـ لا جدوى في مثل هذا النقد الآن . علينا أن نتكلم بشكل جدي...

فتجهم كودينوف وعبث بنطاقه :

ـ استمر في كلامك ، من الذي يمنعك ؟ الأوامر صدرت إليكم مرة تلو المرة ألا تبددوا قذائفكم ، بل تحتفظون بها للظروف الحرجة . لكنكم على العكس ، رحتم تطلقون النار على كل ما يلوح أمام نظركم ، حتى على عرباتهم . ولهذا فليس من حقك أن تستاء من النقد . إن موقفكم مدعاة للضحك تماماً كما قال ميليخوف .

اقتنع كودينوف بحجج غريغوري ، ودعم بإصرار اقتراحه الرامي الى وضع حراسة قوية في جميع الأماكن الصالحة للعبور وتجميع القوات الاحتياطية في مكان قريب . كما اتخذ قرار بنقل عدة رشاشات الى السرايا الواقعة في الأماكن التي يحتمل العبور منها .

حل اليوم التالي فأكد ما توقعه غريغوري من أن الحمر لن يحاولوا العبور قبالة فيشنسكايا وإنما سينتقون موضعاً أكثر ملاءمة لذلك . ففي الصباح بعث آمر السرية المعسكرة مقابل كروموك بتقرير يفيد بأن الحمر كانوا يستعدون لعبور النهر . إذ أن الحرس ظلوا يتسمعون طوال الليل الى أصوات حركة تنبعث

من الجانب الآخر للنهر . وقد جيء بألواح خشبية الى كروموك على عربات لا تحصى ، وبعد ذلك مباشرة تناهت الى مسامع القوزاق عبر النهر أصوات المناشير وضربات المطارق والفؤوس . وبدا كأن الحمر يقومون بصنع شيء ما وخيل للقوزاق بادئ الأمر أنهم كانوا يصنعون جسراً عائماً ، فمضى قوزاقيان جريئان مسافة نصف فرست صعداً على امتداد الشاطئ ، ثم خلعا ملابسهما وغطيا رأسيهما بأغصان صغيرة وانحدرا طافيين مع التيار . وحين مرا على مقربة من الضفة سمعا رجالاً من الجيش الأحمر يتحدثون داخل مترسة رشاشة غير أنهما لم يجدا شيئاً في الماء ، فتبين أن الحمر لم يكونوا يشيدون جسراً .

ظلت النقطة الأمامية تراقب ضفة العدو في يقظة متزايدة . وحينما أطل الفجر لم يتمكن الراصدون ، الذين لم تتخلّ أعينهم عن النواظير لحظة ، من رؤية أي شيء زمناً من الوقت ، إلى أن تبيّن أحدهم ، وكان يعتبر أفضل رام في الكتيبة ، شبحاً خلال العتمة المتضائلة لجندي أحمر يقود حصانين مسرجين حدر الدون .

فهمس القوزاقي لرفيقه : « إن أحدهم يمضي حدر الدون » . ونحّى ناظوره جانباً .

خاض الحصانان في النهر وشرعا يردان .

فلوى القوزاقي الحمالة الطويلة لبندقيته حول مرفقه الأيسر ، ورفع ، واتخذ هدفه بعناية وتأن .

أزت الإطلاقة ، فانقلب أحد الحصانين على جنبه ، وانطلق الآخر هارباً صعد المرتقى . فانحنى الجندي الأحمر ليحل السرج عن الحصان الميت ، إلا أن القوزاقي أطلق ناره من جديد ، ثم أرسل ضحكة ناعمة حينما رأى الجندي الأحمر يشد قامته بحدة ويحاول أن يعدو مبتعداً عن النهر ، ثم يهوي فجأة على وجهه ولا يقوم بعدها .

ما أن وصل التقرير عن استعدادات الحمر حتى أسرج غريغوري حصانه وانطلق عليه الى الموقع . فاتخذ طريقاً ملتوية خلل الغابات غير أنه قرر أن يقطع

الفرسخين الباقيين جرياً سريعاً عبر المرج المكشوف ، معرضاً نفسه لاحتمال اطلاق النار عليه من جانب الحمر . وإذ أراح حصانه بضع دقائق ، اختار لساناً أخضر من أشجار الصفصاف ، ناتئاً عن أرض الغابات الواقعة على جانب الدون من الناحية الأخرى للمرج ، ثم رفع سوطه . فهوت الضربة اللاسعة على كفل الحصان ، فنصب الحيوان أذنيه وانطلق كالطير صوب أشجار الصفصاف . ولم يكد غريغوري يطوي مسافة قليلة عبر المرج حتى شرعت رشاشة تلعلع من الجانب الآخر للنهر . وراحت الرصاصات تتطاير من فوقه تصفر كالفئران البرية فقال في نفسه : « عالية جداً » ، وهو يهز العنان ويلصق وجنته بعرف الحصان . وبدا حامل الرشاشة الأحمر وكأنه قد خمن ما دار في ذهن غريغوري ، فخفض مرمى رشاشته ، وصارت الرصاصات تتواثب وتتقافز تحت حافري الحصان الأماميتين ، ناثرة الوحل من الأرض التي كانت لاتزال بليلة بماء الفيضان الربيعي .

قام غريغوري على ركابيه وكاد أن يتمدد تماماً على رقبة الحصان الممدودة ، وكان لسان غابة الصفصاف الأخضر ينطلق باتجاهه . وحينما طوى نصف المسافة أرعد مدفع ميدان من التل المقابل . فجعل الهدير غريغوري يتأرجح على سرجه . ولم يكد الأزيز المولول للمنشار يتلاشى من أذنيه ، ولا استقامت العيدان التي قوسها ضغط الهواء الشديد ، من جديد ، حتى انطلق المدفع يرعد كرة أخرى . وبدا الهدير الضاج كأنه يبلغ أشد قوته ، ثم توقف فجأة طرفة العين . وفي طرفة العين تلك ، ارتفعت أمام عينيه غيمة سوداء ، واهتزت الأرض إثر ضربة قاصمة ، وقذفت قادمتا الحصان في مكان ما في الفضاء...

أفاق غريغوري أثناء سقوطه . انكفأ على رأسه ، خابطاً الأرض بشدة حتى أن سرواله انشق عند ركبتيه ، وانقطعت السيور . كان النسف الهائل للانفجار قد قذفه مسافة ما عن حصانه ، وحينما هوى انزلق على الحشيش ، حتى احترقت يداه ووجنته .

قام على قدميه وقد بهرته السقطة . وانهمرت كالمطر ، من عل ، كتل ونثار من التراب والحشيش . وكان حصانه منطرحاً على مبعدة عشرين خطوة

تقريباً من الحفرة التي أحدثتها القذيفة . كان رأسه بلا حراك ، غير أن سيقانه وكفله العرقان وذيله ، كانت ترتعش ارتعاشاً عصبياً رتيباً .

كانت الرشاشة قد لاذت بالصمت . ولم يكن ثمة صوت مدة خمس دقائق من الزمن خلا صوت طيور السماك تطلق النذير بين عيدان القصب . فمضى غريغوري الى حصانه ، وهو ينافح للتغلب على دوخته . كانت ساقاه ترتجفان ، وأحس بهما ثقيلتين على نحو غريب ، كما لو كان قد جلس جلسة غير مريحة زمناً طويلاً . أزاح السرج عن الحصان ، وما كاد يبلغ القصب التالف بفعل القذيفة في أقرب حرش إليه ، حتى شرعت الرشاشة تتأتئ من جديد . إلا أنه لم يتسمع الى أزيز الرصاص المتطاير ، فلابد أنهم كانوا يصوبون نارهم نحو هدف جديد . ثم وصل بسلام الى قبو آمر السرية بعد ساعة .

أفاد آمر السرية قائلاً لغريغوري :

ـ توقفوا عن الطرق الآن . لكنهم سيستأنفون ذلك هذه الليلة . لعلك سترسل إلينا ببعض الخراطيش ، فليس في حوزتنا سوى مشبكين لكل رجل .

ـ سوف تصلكم الخراطيش هذا المساء . لا تتوقفوا لحظة عن مراقبة الصوب الآخر .

ـ إننا نراقب على ما يرام! ونحن نفكر بالطلب الى البعض أن يتطوعوا ليعبروا النهر هذه الليلة سباحة بغية اكتشاف ما يصنعون .

فتساءل غريغوري :

ـ لمَ لم ترسلوا أحداً الليلة الماضية ؟

ـ أرسلنا بالفعل رجلين ، بيد أنهما خشيا من الذهاب الى داخل القرية . سبحا بمحاذاة الضفة ، إلا أنهما لم يذهبا الى أبعد من ذلك . ومن تستطيع أن تجده راغباً في الذهاب الآن ؟ إنها مغامرة خطرة : ما أن تبلغ إحدى نقاطهم الأمامية حتى تلقى حتفك . وليس القوزاق بالمغامرين الأشداء حينما يكونون على مقربة من قراهم . كانوا أثناء الحرب ضد الألمان ، مستعدين للمغامرة بأي شيء سعياً للحصول على الأوسمة ، أما الآن فإن عليك أن تتوسل إليهم

لقبول واجب الخفارة . أضف الى ذلك أن النساء صرن يسببن لنا المتاعب . جئن الى هنا وعثرن على أزواجهن ، وها هن يقضين الليل في الخنادق . ولست بمستطيع إجلاءهن من هنا . حاولت أن أطردهن البارحة ، فتوعدني القوزاق . قالوا لي : «ليكن سلوكك أعقل قليلاً ، وإلا صفينا الحساب معك!» .

ثم مضى غريغوري من قبو الآمر الى الخنادق المتعرجة خلال الغابة على مبعدة خمسين خطوة تقريباً من الضفة الى الدون . كانت ثمة أجمة من أشجار البلوط والحور تحجب الرابية الصفراء لصدر الاستحكامات عن أعين العدو . وكانت خنادق المواصلات تصل ما بين الخط الأمامي والمخابئ التي كان القوزاق يخلدون الى الراحة فيها . وكانت ثمة خارج الحفائر ، أكوام رمادية من جلود السمك المجفف وعظام لحم الغنم وقشور عباد الشمس وبقايا طعام أخرى ، وتدلت من الأغصان جوارب وسراويل داخلية من الكتان ولفافات أرجل وقمصان نوم وتنورات نسائية ، لم يمض وقت طويل على غسلها .

انبثق رأس حاسر لامرأة شابة ناعسة العينين من أول حفيرة . فدعكت عينيها وأجالت نظرها في غريغوري دون اكتراث ، ثم اختفت كالفأر البري داخل الفجوة السوداء للجحر . وكان صوت غناء خافت ينبعث من الحفيرة الثانية حيث امتزج صوت نسائي صاف ، مكتوم غير عال ، بأصوات الرجال . وكانت ثمة امرأة كهلة أنيقة الملبس تجلس خارج منفذ الحفيرة الثالثة وقد ارتاح في حضنها رأس شائب لقوزاقي نائم . وبينما كان هذا مرتاحاً في غفوته ، راحت هي تفلي رأسه بهمة وتقصع القمل الأسود على مشط خشبي ، أو تهش الذباب الذي كان يحط على وجه «شائبها» . ولو لم تكن هناك تلك اللعلعة الغاضبة لرشاشة الجانب الآخر للدون وذاك القصف الخافت للقذائف القادم من أعلى المجرى ، لظن المرء أنهم جماعة من جامعي القش يستريحون في الغابة ، إذ ما أشد الدعة التي بدت على سرية المتمردين .

لم يحدث أبداً خلال سني الحرب الخمس أن رأى غريغوري خطاً أمامياً عجيباً كهذا . فمضى يمشي أمام الحفائر ، لا يستطيع أن يكتم ابتسامته ، وهو

يلتقي على الدوام بنساء يسهرن على راحة أزواجهن : يرتقن الملابس ، ويغسلن الأغطية ، ويهيئن الطعام ، وينظفن الأوعية والأواني .

وحينما عاد غريغوري الى حفيرة آمر السرية قال له :

ـ هل أنتم مرتاحون جداً هنا ؟

فتبسم الرجل وأجاب :

ـ على أحسن ما يرام .

فتجهم غريغوري قائلاً :

ـ لعل راحتكم أكثر من اللزوم! أبعد النساء من هنا في الحال . أهذا المكان حوشك الخاص أو سوق قرية ؟ سيعبر الحمر النهر عما قريب ، ولن تستطيعوا حتى سماعهم! ستكونون منهمكين باللهاث فوق نسوتكم . أطردهن جميعاً من هنا حالما يحل الغسق . سوف آتي في الغد ، فإن وقع نظري على امرأة هنا فسوف أطيح برأسك أنت قبل كل شيء .

فقال الرجل موافقاً :

ـ إنك على حق بيّن . فأنا من ناحيتي ضد وجود النساء هنا ، ولكن ما عساك تفعل مع القوزاق ؟ لقد زال الضبط من الوجود . أرادت النساء أن يزرن أزواجهن . وها قد مضت علينا ثلاثة أشهر ونحن نقاتل...

واحمر وجهه على حين غرة ، وجلس على فراشه القش ليخفي إزار امرأة أحمر ثم أشاح بوجهه عن غريغوري وأرسل نظرة متوعدة الى حيث كانت العينان البنيتان المبتسمتان لزوجته تختلسان النظر من وراء ستارة من الخيش كانت تحجب ركناً من القبو .

٦٢

حينما وصلت أكسينيا الى فيشنسكايا ، مضت لتنزل عند خالة لها تسكن في ضاحية البلدة على مقربة من الكنيسة الجديدة . وأمضت نهارها

الأول بكامله تبحث عن غريغوري ، بيد أنه لم يكن قد وصل فيشنسكايا بعد .
وطوال اليوم التالي ظل الرصاص يئز والقذائف تتفجر في الشوارع ، فلم تستطع أن تستجمع عزماً كافياً لمغادرة المسكن .

وقالت لنفسها غضبى ، وهي تعض على شفتيها الممتلئتين حيوية وإن كانت ذابلتين ، وقد استلقت على صندوق غرفة الاستقبال : « قال لي تعالي الى فيشنسكايا ، ووعدني أننا سنعيش معاً ، وها هو الآن قد اختفى الى حيث لا يعلم إلا الشيطان! » أما خالتها فقد جلست الى النافذة تحوك جورباً وترسم إشارة الصليب بعد كل طلقة . وراحت تنبح حينما تناثر زجاج النافذة مجلجلاً على الأرض :

ـ آه ، سيدنا المسيح! إنه لأمر فظيع ؟ فيم عساهم يقتتلون ؟ أية عداوة يضمر أحدهما للآخر ؟

فتوسلت إليها أكسينيا :

ـ خالتي! تعالي بعيداً عن النافذة ، فقد يصيبك شيء . إلا أن العجوز حملقت فيها بنظرة ساخرة من وراء نظارتيها ، وأجابت غاضبة :

ـ ما أشد غباءك ، يا أكسينيا! هل أنا عدو لهم ؟ ما الذي يدفعهم لإطلاق النار علي أنا ؟

ـ قد تقتلين مصادفة . فهم لا يرون أين تستقر طلقاتهم .

ـ إذن ، يقتلونني لأنهم لا يرون ، ها ؟ يطلقون النار على الرجال . فالرجال أعداؤهم . أما أنا فعجوز وأرملة . فما يريدون من إطلاق النار علي ؟ أعتقد أنهم يعرفون على من يطلقون نار بنادقهم ومدافعهم .

وعند الظهر مر غريغوري منطلقاً في الشارع ، وقد انحنى كثيراً فوق رقبة حصانه . فرأته أكسينيا من النافذة ، وهرعت خارجة الى السقيفة التي يعلوها النبات المتسلق ، وهي تصرخ : « غريشا! » إلا أن غريغوري كان قد اختفى تماماً وراء زاوية الشارع ، مخلفاً مثاراً من النقع يتطامن بهدوء على الطريق . وكان من العبث محاولة الركض وراءه . فلبثت على الدرجات تذرف دموعاً غضبى .

وسألتها خالتها :

ـ ألم يكن ستيبان ذاك الذي مرّ منطلقاً على حصانه ؟ لماذا هرعت الى الخارج كالمجنونة ؟

فردت أكسينيا خلل دموعها :

ـ كان واحداً من أبناء قريتنا .

فتساءلت العجوز الفضولية :

ـ ولكن لمَ تبكين ؟

ـ ولماذا تريدين أن تعرفي ؟ ليس هذا من شأنك .

ـ أوه ، ليس هذا من شأني ؟ طيب ، كان الذي مرّ منطلقاً حبيباً من أحبائك ؟ وإلا فما كنت ستبكين مثل هذا البكاء جزافاً . أنا لم أعش كل هذه السنين عبثاً .

وقبيل المساء دلف بروخور زيكوف الى الكوخ . كانت أكسينيا آنذاك في حجرة الاستقبال ، وعلى صوت بروخور جرت الى الخرج وهي تصيح جذلة : « بروخور! » .

فقال بروخور :

ـ حسناً ، يا فتاة ، لقد جعلتني أقوم بمهمة بحث وتنقيب محترمة . أنهكت قدمي بحثاً عنك . إنه مجنون كل الجنون . النار في كل مكان ، وكل روح حي يخبئ نفسه ، أما هو فإن كل ما يقوله : « جدها وإلا ستجد لك قبراً! » .

فأمسكت أكسينيا ببروخور من كم قميصه وجذبته الى سقيفة الباب ، وتساءلت : « أين هو ذلك الشيطان ؟ » .

ـ همم! لقد عاد من الخط الأمامي سيراً على قدميه . قتلوا الحصان من تحته . فعاد مسعوراً كما تتهيج كلبة مقيدة . وتساءل : « هل وجدتها ؟ » فأجبته : « أين لي أن أجدها ؟ أنا لا أستطيع أن أخلقها لك » . فقال : « لا يمكن لامرأة أن تضيع كما تضيع الإبرة! » يا لزنيره علي! إنه ذئب في جلد إنسان . ولكن ، هيا بنا!

وما هي إلا لحظة حتى كانت أكسينيا قد حزمت صرتها الصغيرة وودعت خالتها على عجل . فتساءلت العجوز :

ـ هل أرسل ستيبان في طلبك ؟

ـ نعم يا خالتي .

ـ حسناً ، بلغيه حبي . ولمَ لم يأت بنفسه ؟ كان بمقدوره أن يشرب شيئاً من اللبن ويأكل تلك الزلابية المتخلفة...

جرت أكسينيا خارج البيت دون أن تستمع الى كلمات خالتها الوداعية . وراحت تركض في الشارع مسرعة حتى شحب لونها ، وأضحت أنفاسها لهاثاً سريعاً . وصار لزاماً على بروخور آخر الأمر أن يرجو منها تخفيف سرعتها . فقال :

ـ اسمعي! كان من عادتي أنا أيضاً أن أجري وراء الفتيات في صباي ، ولكنني لم أكن على هذه الدرجة من الاستعجال التي أنت عليها . ألا تستطيعين صبراً ؟ هل هناك حريق ، أم ماذا ؟ لقد انقطع نفسي . ألا تستطيعين التصرف مثل الناس الآخرين...

وقال في نفسه : «ها هما يجتمعان ثانية... حسناً ، لن يستطيع الشيطان نفسه أن يفرقهما الآن! سوف ينعمان بالهناء ، ولكن ماذا عني أنا الذي توجّب أن أمضي باحثاً عنها ، هذه القحبة ، تحت النار... عسى ألا تتوصل ناتاليا الى معرفة ذلك أبداً ، وإلا مزقتني إرباً . إنني أعرف سلالتها ، فليس آل كورشونوف ممن يستهان بهم . لو لم أفقد بندقيتي وحصاني في لحظة تهالك على المشروب ، لما مضيت متسكعاً هنا وهناك بحثاً عنها . أي نعم ، فليلعنني الله لو فعلت ذلك! ليتدبرا أمريهما بنفسيهما من الآن فصاعداً! »

كانت ثمة شمعة تحترق مرسلة دخاناً داخل كوخ أحكم غلق نوافذه . وكان غريغوري جالساً الى طاولة ، وقد فرغ تواً من تنظيف بندقيته وشرع يحك ماسورة غدارته حين صر الباب فإذا بأكسينيا ماثلة على العتبة . كان جبينها الشاحب الضيق مبتلاً بالعرق ، وعيناها المتسعتان الغضباوان تضطرمان

بلهيب من العواطف الجياشة في وجهها الممتقع مما جعل قلب غريغوري ، وهو ينظر إليها ، يرتعش غبطة .

فقالت ، وهي تلهث بشدة : « أرسلت تطلبني إلى هنا... ثم ابتلعتك الأرض » . فلم يكن ثمة في الوجود في تلك اللحظة سوى غريغوري ، مثلما كان ذات مرة منذ زمن بعيد ، في أيام غرامهما الأولى . ومن جديد ، امحت الدنيا من الوجود حينما غاب غريغوري ، وعادت فبعثت كرة أخرى حين غدا قريباً إليها . ودون أن تكترث لوجود بروخور ، ارتمت على غريغوري ، ولفت نفسها حوله ، مثل الكروم البرية ، وراحت تقبل وجنتي حبيبها غير الحليقتين ، وتطبع قبلات صغيرة على أنفه ، وجبينه ، وعينيه ، وشفتيه ، وهي تهمس همسات متقطعة وتنتحب وتنشج :

ـ أوه ، كم تعذبت... أواه ، لكم عانيت ، يا حبيبي الأعز يا غريشا ، يا مهجة قلبي ، يا حياتي!

فتمتم غريغوري محرجاً : « حسناً ، كفى! ألا ترين أننا الآن... كفى... أكسينيا ، حسبك! » وأشاح بوجهه ، متجنباً عيني بروخور ، ثم أقعدها على المصطبة ، وأزاح الشال عن رأسها ، وجعل يمسد شعرها المضطرب . وشرع يقول : « إنك... »

ـ أنا كما كنت دائماً ، أما أنت...

ـ كفى ، أنت والله... أنت لمجنونة!

فألقت بذراعيها حول كتفيه ، وجعلت تضحك خلل دموعها ، وهي تهمس مسرعة :

ـ كيف ، كيف فعلت ذلك! ترسل إليَ ، فآتيك على قدمي ، بعد أن تركت كل شيء ، ثم لا أجدك هنا . لمحتك تنطلق على حصانك ، فهرعت أخرج وراءك ، وناديتك ، ولكنك غبت في المنعطف . كان محتملاً أن يقتلوك ، فلا أكون قد اكتحلت بنظرة أخيرة منك .

وقالت له أشياء أخرى ، أشياء كانت من الرقة والأنوثة والحماقة ما تعز

عن الوصف ، وهي تمسد كتفيه المهدلين طوال الوقت ، وتحدق في عينيه بعينيها الوالهتين . كانت نظرتها تنم عن بؤس وهيام ، وعن يأس مرير في الوقت نفسه ، مثل عيني حيوان مطارد ، حتى غدا غريغوري يشعر بالألم والحرج إذا ما التقى نظره بها . فأسبل أهدابه ، وابتسم غصباً ، وأخلد الى الصمت ، فيما راح تورد وجنتيها يزداد احمراراً ، أكثر فأكثر ، وبدا بؤبؤا عينيها وكأن ضبابة زرقاء معتمة تغشاهما .

خرج بروخور دون أن يستودعهما ، وحين صار في السقيفة ، بصق ثم داس على البصقة بقدمه . «يا للمجنون!» قال ذلك بقسوة فيما هبط درجات العتبة وصفق البوابة بعنف ليعبّر عن شعوره هذا .

٦٣

ظلا يومين يعيشان في حلم من الأحلام ، يصلان الليل بالنهار ، لا يعيان ما يدور حولهما . وكان يحدث أن يستيقظ غريغوري أحياناً غب إغفاءة قصيرة خدرة ، فيلقى عيني أكسينيا مسمرتين عليه في ضوء الغبش وكأنها كانت تستظهر ملامحه استظهاراً . وكانت تستلقي عادة على مرفقها وقد أسندت خدها براحة يدها ، وهي تحدق فيه تكاد لا يطرف لها جفن . فيسألها غريغوري :

ـ لماذا تحدقين ؟

ـ أريد أن أشبع نظري منك ، سيقتلونك . قلبي يحدثني بذلك .

فيبتسم غريغوري ويقول : «حسناً ، مادام قلبك يحدثك بذلك ، حدقي فيّ ما شئت!»

وفي اليوم الثالث ، خرج من الكوخ للمرة الأولى منذ وصولها ، كان كودينوف قد أرسل إليه المراسل تلو المراسل يطلب منه الحضور الى اجتماع يعقد في مقره ، بيد أنه كان يعيدهم إليه قائلاً إنهم يستطيعون عقد الاجتماع

دونه . وكان بروخور قد حصل على حصان جديد له من الأركان ، ثم مضى الى الخنادق ليلاً وعاد بسرجه من هناك .

وحين رأت أكسينيا غريغوري يهم بالخروج سألته فزعة : «أين أنت ذاهب ؟»

فأجاب : «أريد أن أذهب الى تتارسكي لأرى كيف يدافع رجالنا عن القرية وماذا حل بعائلتي» .

ـ هل مشتاق لأطفالك ؟ ـ وأحست برعدة تتمشى في أوصالها فلفت كتفيها الأسمرين بشال .

ـ نعم .

فراحت تتوسل إليه : «لا تذهب ، أتوسل إليك» . وأخذت عيناها تومضان وميضاً محموماً في محجريهما المعتمين . «هل عائلتك أغلى لديك مني ؟ ها ؟ أنت موزَّع العواطف . لمَ لا تأخذني معك أيضاً ، وسنسوي ، أنا وناتاليا ، أمر وجودنا معاً بشكل من الأشكال... حسناً ، اذهب! ولكن إياك أن ترجع إلي! لن أقبل بعد الآن! فأنا لا أريد أن أعامل بهذه الطريقة . لا أريد!»

لكن غريغوري خرج الى الفناء دون أن ينبس بشيء ، وامتطى حصانه .

* * *

كانت سرية مشاة تتارسكي متراخية الهمة في حفر خنادقها . وكان كريستونيا يرعد قائلاً :

ـ ما أكثر ما يبصقون من هراء سخيف . أين المفروض فينا أن نكون ، في الجبهة الألمانية ؟ لا تحفروا عميقاً ، يا أولاد ، لا أعمق من ركبكم . كيف يتوقعون أن نحفر أعمق من ذلك في هذه الأرض الصلدة ؟ لن يستطيع المرء أن يهمشها بمعول ، فكيف بمسحاة!

وبناء على نصيحته ، فقد حفروا في التل الوعر شديد الانحدار على الضفة اليسرى خنادق لا تصلح لغير الاستلقاء فيها ، وأقاموا حفائر في الغابة .

وآنذاك أعلن انيكوشكا الذي لا يكل له عزم : «ها نحن الآن أشبه بالسناجب البريةا سنعيش في جحور الأرانب ونقتات على الأعشاب . وداعاً للكعك والقشطة ، وداعاً أيها اللحم وأنت أيتها الشعرية . ما رأيكم بقضمة من البرسيم ؟»

لم يكن رجال تتارسكي يواجهون من ضغط الحمر إلا النزر اليسير . فلم تكن ثمة بطاريات موجهة صوب القرية . ولم يكن يحدث إلا أن يلعلع ، بين الحين والحين ، مدفع رشاش من الضفة اليمنى ، حين يطل راصد برأسه من الخندق ، ثم يخيم بعد ذلك سكون طويل آخر .

كانت خنادق الجيش الأحمر مقامة على التل . وكان أولئك أيضاً لا يطلقون نارهم إلا لماماً ، ولم يكن رجال الجيش الأحمر يزورون القرية إلا ليلاً ، ولمدة قصيرة .

* * *

بلغ غريغوري أرض المروج التابعة لقريته عصرا . كان كل شيء هناك مألوفاً لديه ، وعملت كل شجرة على إثارة الذكريات في نفسه... انحدر الطريق عبر «ممر العذراء» ، حيث اعتاد القوزاق في عيد القديس بطرس من كل عام أن يشربوا الفودكا بعد تقسيم أرض المروج بينهم . ومر بغابة أليكسي ، التي تمتد داخل أرض المروج ، كما يمتد رأس من الأرض في البحر . لقد حدث منذ أجل بعيد أن هاجمت الذئاب في هذه الغابة بقرة تعود لقوزاقي من تتارسكي يدعى أليكسي . وها قد مر أمد طويل مذ مات أليكسي ، وامحت ذاكرته كما تمحي الكتابة من على شاهدة القبر ، ونسي الأقارب والجيران لقبه ، لكن الغابة التي أعطيت اسمه ما تزال تمد نحو السماء بالتيجان غامقة الخضرة لأشجار البلوط والدردار . هنا ، كان قوزاق تتارسكي يأتون لقطع الأشجار للانتفاع منها في بعض الشؤون المنزلية ، ولكن ما أن يحل الربيع حتى تبرز براعم فتية ناشطة حول الجذامات القديمة ، وتمر سنة أو سنتان تنمو خلالها نمواً لا تستشفه

الحواس ، ومن جديد تعود غابة أليكسي فتنشر في الصيف أغصانها الخضر ، وتكتسي في الخريف دثاراً ذهبياً من أوراق البلوط التي عضها الصقيع بنابه .

وفي الصيف ، كانت شجيرات العليق الشائكة تمتد كثيفة فوق الأرض الرطبة ، وتنشغل طيور العقعق ونقار الخشب ذات الريش الزاهي ببناء أعشاشها في أعالي أشجار الدردار الفلينية العجوز . وفي فصل الخريف ، حين يشتد الهواء ويفعم برائحة ثمر البلوط وأوراقه المتساقطة ، تأتي طيور الحجل المهاجرة فتزور الغابة الصغيرة ، أما في الشتاء فليس ثمة إلا آثار الأقدام المستديرة للثعالب وقد امتدت بخيطها المرصع فوق دثار الثلج الأبيض . وكان غريغوري كثير التردد على غابة أليكسي ينصب الأفخاخ للثعالب .

مضى غريغوري على حصانه تحت فيء الأغصان البارد يسير على الممر القديم ، وقد علته الأعشاب الآن . واجتاز «ممر العذراء» ، ثم يمم صوب «المنحدر الأسود» ، والذكريات تلعب في رأسه كالخمرة المسكرة . كانت ثمة ثلاث أشجار حور يولي شطرها ، يوم كان صبياً ، ابتغاء صيد صغار البط البري ، وإزاء «البركة المدورة» كان يصطاد السمك بالخيط من الفجر حتى الغسق . وعلى مسافة أبعد قليلاً ، كانت هناك أجمة قديمة وحيدة من أشجار التوت الثلجي ، كان بالمستطاع رؤيتها من فناء ميليخوف ، وفي كل خريف كان من عادة غريغوري أن يقف على درجات عتبة داره ليمتّع ناظريه بمرأى تلك الأجمة . فكانت تبدو من بعيد وكأنها تمور بلهيب قرمزي . وكان أخوه الراحل بيوتر كلفاً أشد الكلف بالمربيات المصنوعة من توتها المر .

أجال غريغوري بصره ، بقلب يشوبه غم هادئ ، في مرابع طفولته . وراح حصانه يمشي الهوينا ، وهو يذود عنه ذباب الخيل والبعوض بذيله في ارتخاء . وكانت الأحراش تحني هاماتها برفق أمام النسيم الهاب ، وأرض المروج تموج بظلال متناثرة .

ومضى الى الخنادق التي تشغلها سرية مشاة تتارسكي ثم أرسل كريستونيا الى أبيه . ترجل غريغوري وأعطى لأنيكوشكا عنان حصانه ورأى

من بعيد أباه العجوز يعرج مسرعاً ، وحين صار على مقربة من غريغوري هتف له : «تحياتنا ، أيها القائد!» .

ـ مرحباً ، يا أبي!

ـ جئت لزيارتنا ؟

ـ بالكاد انتزعت نفسي . حسناً ، كيف حال الأهل ؟ أين أمي وناتاليا ؟

فلوّح بانتلاي بروكوفتش بيده وتجعد وجهه . وانحدرت دمعة على خده الأسمر .

فتساءل غريغوري بحدة وقد انتابه القلق :

ـ ماذا ؟ ما الأمر ؟ ما الذي حدث ؟

ـ لم يعبروا النهر...

ـ لماذا ؟

ـ ناتاليا طريحة الفراش منذ يومين... التيفوس ، كما يبدو ، ولم تود العجوز أن تتركها . ولكن ، لا تفزع ، يا بني ، فإنها بخير .

ـ وطفلاي ؟ ميشا ؟ بوليا ؟

ـ إنهما هناك أيضاً . لكن دونيا عبرت النهر . كانت تخشى البقاء هناك... فتاة وحيدة ، كما تعلم . راحت مع زوجة أنيكوشكا . لقد زرت البيت مرتين حتى الآن . عبرت النهر سراً خلال الليل في قارب وزرتهم . حالة ناتاليا في غاية السوء ، ولكن صحة الطفلين على ما يرام ، والحمد لله! لقد فقدت ناتاليا الوعي . كانت حرارتها مرتفعة جداً حتى لقد تيبس الدم على شفتيها .

فصاح غريغوري غضباً :

ـ لمَ لم تجلبهم الى هذا الجانب ؟

فساور العجوز الحنق ، حتى بدا الاستياء واللوم واضحين في صوته الراعش حين أجابه :

ـ وماذا كنت تفعل ، أنت ؟ ألم يكن في مقدورك أن تأتي الى هنا لانتشالهم ؟

فنب غريغوري محتجاً بانفعال شديد :

ـ تحت قيادتي فرقة بأكملها . كان علي أن أدبر أمر عبورها .

ـ لقد بلغت مسامعنا نزواتك في فيشنسكايا . ولا يبدو أنك عدت بحاجة الى عائلتك... آه ، يا غريغوري ، إن لم تكن مستعداً للتفكير بشؤون أهلك ، فما عليك إلا أن تولي مزيداً من تفكيرك صوب الخالق . إنني لم أعبر النهر في هذه المنطقة ، ولو فعلت ، فهل تظن بأنني سأتركهم ؟ كان رعيلي في يلانسكايا ، وحين وصلنا هنا كان الحمر قد دخلوا تتارسكي .

فقال غريغوري وقد بح صوته وخفت :

ـ ما كنت أفعله في فيشنسكايا لا يعنيك في شيء! ولا تحاول أن...

فذهل العجوز ، وأجاب : « إنني لم أقصد أي شيء! » وراح يحدق في رهط القوزاق المتجمعين على مبعدة يسيرة ، وقد انتابه الحرج ، وقال : « اخفض صوتك ، فبمقدور هؤلاء أن يسمعوك! » ثم خفض صوته هو حتى بات كالهمس ، وأردف : « إنك لم تعد طفلاً صغيراً ، ويحسن بك أن تدرك ذلك جيداً . ومهما يكن ، فلا تقلق على أهلك . فستستعيد ناتاليا صحتها ، إن شاء الله ، كما أن الحمر لا يسببون لهم أية متاعب . صحيح أنهم قتلوا عجلنا ، ولكن هذا ليس بالمهم . كانوا رؤوفين بأهلنا ولم يمسوهم بسوء . لا شك أنهم استولوا على كميات كبيرة من الحبوب ، ولكن لا حرب بلا خسائر » .

ـ أترانا نستطيع أن نعبر بهم النهر الآن ؟

ـ لا أظن ، وأين سنأخذ ناتاليا ، في حالتها هذه ؟ ذلك سينطوي على خطر كبير . ثم ان العجوز تقوم بالسهر على كل شيء ، وأنا شخصياً لم أعد قلقاً عليهما مثلما كنت في السابق . أتعلم ، لقد اندلعت النيران في القرية .

ـ ومن احترق بيته ؟

ـ احترقت ساحة القرية عن آخرها وكذلك دور جميع التجار الكبار . وأضرمت النار في بيت كورشونوف دون أن تبقي منه شيئاً . كانت لوكينشنا قد هربت قبل وصول الحمر ، ولكن غريشاكا العجوز ظل في الدار ليعنى بأمور

الحقل . وروت أمك أنه قال لها : « لن أتزحزح خطوة ولن أدع أعداء المسيح يقتربون مني ، فهم يخشون علامة الصليب » . وأنت تذكر كيف كان عقله يزداد خرفاً يوماً بعد يوم . لكن الحمر لم يخافوا من صليبه ، فحرقوا الدار ومرافق الحقل عن آخرها ، ولم يسمع أحد بما حل بغريشاكا . ومهما يكن من أمر ، فقد كان أوان أجله قد حل . ألم يصنع لنفسه تابوتاً منذ عشرين سنة ، ومع ذلك ظل حياً طوال هذا الوقت... إن الذي يقوم بإضرام النيران في القرية هو صديقك ، عليه اللعنة!

ـ من تعني ؟

ـ ميشا كوشيفوي ، لعنة الله عليه!

ـ لا يمكن أن يكون هو!

ـ إنه هو بعينه ، وحق الله! عرّج على بيتنا ليستفهم عنك ، وأخبر أمك أنك ستكون أول من يعقد الحبل على رقبته حالما يعبر الحمر الى الجانب الآخر . وقال لها : « سيشنق على أعلى بلوط ، ولن أدنس سيفي بدمه » . كذلك سأل عني : « وأين ولي الآخر ، بحق الشيطان ؟ كان عليه أن يرقد في بيته فوق الموقد! » وقال : « إن أمسكت ببانتلاي العجوز ، فلن ألجأ الى ضربه ضربة مميتة ، بل سأظل ألفحه بالسوط حتى أنتزع روحه » . أرأيت أي شيطان قد تكشف عنه! إنه يطوف في أرجاء القرية يضرم النار في دور التجار والقسس وهو يقول : « سأحرق كل منطقة فيشنسكايا انتقاماً لمقتل إيفان اليكسييفتش وشتوكمان » أي نعم ، هذا ما يقوله .

ولبث غريغوري يتحدث مع أبيه نصف ساعة بعد ذلك ، ثم مضى الى حصانه . وعلى الرغم من أن العجوز لم يشر مرة أخرى الى موضوع أكسينيا ، فإن غريغوري لم يبارحه شعوره بالاكتئاب . فحدث نفسه قائلاً : « مادام أبي يدري ، فلابد أن الجميع سمعوا بالأمر كذلك . من ترى أخبرهم ؟ من عساه رآنا معاً غير بروخور ؟ لا شك أن ستيبان لا يدري ، أم تراه يدري هو الآخر ؟ » وصرّ على أسنانه وقد أحس بالخزي والغيظ من نفسه...

مضى الى القوزاق وتبادل معهم حديثاً قصيراً . وكان انيكوشكا لايزال يمزح ويطالب ببعض الدلاء من الفودكا للسرية . فقال ضاحكاً وهو يضرب بأظافره على بلعومه ليظهر ظمأه : «لا تأبهوا للخراطيش إن أرسلتم لنا الفودكا!» .

ونفح غريغوري وأبناء قريته الآخرين شيئاً من التبغ الذي جلبه معه ، ولم ير ستيبان استاخوف إلا حينما كان يهم بامتطاء صهوة حصانه ، فتقدم منه ستيبان متمهلاً وتبادل معه التحية لكن دون أن يمد إليه يده .

كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها ستيبان منذ اندلاع التمرد ، فحدق فيه قلقاً متفحصاً ، وساءل نفسه : أتراه يدري ؟ لكن وجه ستيبان الوسيم لم يشبه أيما اضطراب ، بل كان جذل المحيا ، فتنفس غريغوري الصعداء .

٦٤

قضى غريغوري اليومين التاليين في تفقد قطاع الجبهة الذي تسيطر عليه فرقته الأولى . وحين عاد الى فيشنسكايا وجد أن القيادة العامة للأركان قد نقلت مقرها الى قرية تشورني التي تقع على مبعدة يسيرة من فيشنسكايا . وبعد أن أراح حصانه بعض الوقت وأورده انطلق مباشرة الى تشورني .

استقبله كودينوف بسرور ، وهو يتفرس فيه وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة متحدية :

ـ حسناً ، يا غريغوري بانتلايتش ، حدثنا بما رأيت .

فأجاب غريغوري :

ـ رأيت قوزاقاً ورأيت الحمر عبر النهر .

ـ إذن ، فلم تر الشيء الكثير! جاءتنا ثلاث طائرات الى هنا تحمل خراطيش ورسائل .

فتساءل غريغوري :

. ـ وماذا يقول صديقك الجنرال سيدورين في رسالته ؟

فاستطرد كودينوف بالنبرة الممراحة ذاتها :

ـ تعني ، صديقي القديم سيدورين! إنه يطلب منا أن نصمد هنا بكل ما لدينا من قوة كي لا ندع الحمر يعبرون النهر ، ويقول إن « جيش الدون » على وشك أن يشن هجوماً حاسماً .

فعلق غريغوري هازئاً :

ـ كلام جميل!

تغيرت لهجة كودينوف وصارت صارمة :

ـ إنهم سيقومون بعملية انقاذ . أنا لم أخبر أحداً غيرك بذلك ، وهو أمر في منتهى السرية . ففي غضون أسبوع ، سيكونون قد نفذوا خلال جبهة الجيش الأحمر الثامن . ويجب علينا أن نصمد!

ـ إننا صامدون .

ـ الحمر يعدون العدة في كروموك لعبور النهر .

فتساءل غريغوري دهشاً :

ـ ألا يزالون يضربون بمطارقهم ؟

ـ بلى... ولكن أين كنت طوال هذا الوقت ؟ ربما كنت مختفياً في فيشنسكايا ، أليس كذلك ؟ كنت أول من أمس أنقب عنك في كل مكان . ثم عاد أحد سعاتي وأفاد بأنك لم تكن في مقرك ، وأن امرأة جميلة خرجت من هناك والدموع تترقرق في عينيها وقالت إنك خرجت على جوادك الى مكان ما . فلم أستطع كبح نفسي عن التساؤل فيما إذا كنت تسلي نفسك بفتاة وتختفي عن الأنظار في مكان ما .

فقطب غريغوري ، إذ أنه لم يتقبل مزاح كودينوف بسعة صدر ، ورد بجفاء :

ـ عليك ألا تصغي الى الأكاذيب وأن تختار سعاة ذوي ألسنة قصار! فإن أرسلت رجالاً لهم ألسنة طوال كهذا فلسوف أقصرها لهم بسيفي .

فانفجر كودينوف هادراً بالضحك وصفق ظهر غريغوري بيده ، وقال :

ـ ألا تستطيع أن تتحمل مزحة ؟ على أية حال ، لدي أمور أكثر أهمية أريد أن أتباحث معك حولها . علينا أن نأسر واحداً من الحمر ليقدم لنا المعلومات عن الوضع . هذا أولاً . ثم نريد أن نرسل سريتين من سرايا الخيالة عبر النهر من موضع ما في هذا الجانب من كازانسكايا ، ليغيروا على الحمر . وقد يكون في مستطاعهم العبور حتى من كروموك ، فيبثون الرعب فيهم . ما رأيك ؟

فأجاب غريغوري بعد برهة من الصمت :

ـ فكرة لا بأس بها .

فسأل كودينوف :

ـ وهل ستقود السريتين بنفسك ؟

ـ ولم لا ؟

ـ لأننا نريد قائداً محارباً لهذه المهمة . نريد آمراً محنكاً ، فليست المهمة بالأمر اليسير . ولو عهدت بعملية العبور هذه الى يد غير ماهرة فقد لا يعود أي من الرجال حياً .

وإذ نفخت كلمات كودينوف الزهو في نفس غريغوري ، وافق على قيادة الهجوم بلا تردد : «سأقوم بالمهمة دونما ريب» .

فنهض كودينوف من مقعده ، وجعل يتحدث بحماس ، وهو يتخطى جيئة وذهاباً على ألواح الأرضية الخشبية ، فينبعث منها صرير ، وقال :

ـ هذه هي الأسس التي كنا نبني خططنا وتفكيرنا عليها . ليس من الضروري أن تتوغل هذه القوة حتى مؤخرة العدو ، إنما واجبها هو أن تمضي بمحاذاة الدون فتخض أعصاب العدو خضة مناسبة في قريتين أو ثلاث ، وتستولي على بعض الخراطيش والقذائف ، وتأسر بضعة منهم ومن ثم تكر عائدة من الطريق نفسها . هذا ، ويجب أن تتم المهمة كلها أثناء الليل ، حتى يكون بمستطاعكم العودة الى مكان المخاضة في النهر عند الفجر . ألا توافقني على

ذلك ؟ حسناً ، فكر في الأمر ملياً ، وانتق غداً القوزاق الذين تريد أن تأخذهم معك ، ثم انطلقوا . لقد أجمعنا على أن ليس هناك من يصلح لهذه المهمة غيرك . وإذا أنجزتها بنجاح ، فأن جيش الدون لن ينسى ذلك أبداً . وسوف أكتب عن ذلك تقريراً الى الجنرال نفسه حالما يلتئم شمل قواتنا بقوات أصدقائنا . ولسوف أدرج كافة خدماتك ومآثرك مما سيؤدي الى ترقيتك...

ثم توقف فجأة حين لاحظ وجه غريغوري يكفهر غضباً ، بعد أن كان هادئاً طوال الوقت .

ـ من تظنني أكون عندك ؟... ـ قال غريغوري ذلك وهو يضع يديه بسرعة وراء ظهره وينهض من مقعده . ـ أتحسب أنني أذهب بهذه المهمة سعياً وراء الترقية ؟ أتحسب أن باستطاعتك أن تستأجرني ؟ تلوّح لي بالترفيع ؟ إنني...

ـ مهلاً لحظة!

ـ أنا أبصق على ترقيتك هذه!

ـ مهلاً! أسأت فهمي تماماً!

ـ فهمتك كل الفهم! ـ وغص غريغوري بالكلام ، فجلس على المقعد من جديد . ـ ابحث لك عن شخص آخر . لن أقود أي قوزاق عبر الدون!

ـ غضبك من غير ما داع .

ـ لن أتولى القيادة ، وكفى .

ـ حسناً ، أنا لا أقسرك على ذلك أو أتوسل إليك . إذا أردت أن تقود ، قُد ، وإذا لم تشأ ، فالأمر متروك لك . وضعنا الحالي في منتهى الخطورة ، ولهذا قررنا ألا ندعهم يمضون في استعداداتهم للعبور ، إذا كان الأمر في مقدورنا . أما عن ترقيتك ، فإنني كنت أمازحك بها . أنت لا تستطيع أن تتحمل أية مزحة . وقبلها كنت أمازحك حول تلك المرأة ، فثارت ثائرتك أيضاً . كنت لا أقصد سوى استثارتك . فأنا أعرف أنك نصف بلشفي تكره المناصب الرفيعة . ومع ذلك فقد أخذت الأمر بمنتهى الجد! كنت أغيظك ممازحاً ، لا لشيء إلا لكي أراك تثور .

ثم ضحك كودينوف ضحكة لا تكلف فيها حتى أن غريغوري حسب ، لحظة ، أنه ربما كان يمزح فعلاً في أقواله تلك . لكنه رد عليه بعناد :

ـ مهما يكن من أمر ، فلن أتولى قيادة المهمة . لقد غيرت رأيي .

فجعل كودينوف يعبث بطرف نطاقه من غير ما اكتراث . ثم قال بعد فترة طويلة من الصمت :

ـ حسناً ، لا يهم ذلك ، سواء كنت قد غيرت رأيك أو أصابك الخوف من المهمة . إنما المهم في الأمر هو أن موقفك هذا سيفسد علينا خططنا . وإن كنا ، بلا ريب ، سنجد شخصاً آخر بدلاً منك . فلست أنت الشجاع الوحيد بين القوزاق . ولكن أحكم بنفسك بمدى خطورة الموقف الذي نحن فيه . لقد أرسل إلي كوندرات مدفيديف نشرة أخرى اليوم . تقول إن الحمر قد وصلتهم تعزيزات كبيرة . هاك ، اقرأها أنت بنفسك وإلا فلا أحسبك ستصدقني...

وأخرج من حقيبة الميدان طبقة مصفرة من الورق تعلوها بقع قاتمة من أثر الدم ، ثم أعطاها الى غريغوري :

ـ لقد عثروا عليها عند قوميسار سرية أممية أو شيء من هذا القبيل . وكان لاتفياً . ظل هذا النغل يقاوم الى آخر خرطوشة لديه ، ثم قذف بنفسه ، وهو رافع حربته ، على رعيل كامل من القوزاق . كان كوندرات هو الذي صرعه . إن للعدو رجالاً شجعاناً أيضاً ، وهم أولئك الذين يؤمنون بعقيدتهم . وقد وجدوا لديه نشرة التعليمات هذه

أمر الى قوات الحملة

٨ رقم ١٠٠

بوكوتشار ٢٥ أيار ١٩١٩

يتلى أمام جميع السرايا ، وسرايا الخيالة . والبطاريات

لقد دنت نهاية تمرد الدون المكلل بالعار!

لقد أزفت الساعة ، واتُخذت كافة الاستعدادات اللازمة . فقد حشدت قوات

كافية لمحق الخونة . وأزفت الساعة لتصفية الحساب مع أشباه « هابيل » الذين مضى عليهم أكثر من شهرين وهم يسددون الطعنات الى ظهور جيوشنا المحاربة في الجبهة الجنوبية . ولقد ظل عمال وفلاحو روسيا كلها يرقبون عصابات القوزاق هذه وهي تمد يد العون ، تحت راية حمراء زائفة ، الى مالكي الأرض « المائة السود » ، دينيكين وكولتشاك .

أيها الجنود ، أيها القادة ، يا قوميسارية الحملة التأديبية : لقد تم إنجاز الاستعدادات . والآن ، ومع الإيذان بالهجوم : انطلقوا الى الأمام!

إن أوكار الخونة والمارقين الأدنياء يجب أن تدك ، وأشباه هابيل يجب أن يقضى عليهم . ولا تأخذن بكم الرحمة بالمناطق التي تبدي مقاومة في وجهكم! ولا رحمة إلا بأولئك الذين يلقون سلاحهم طوعاً وينضمون الى جانبنا! أما الضالعون بركاب دينيكين وكولتشاك ، فجابهوهم بالرصاص والفولاذ والنار! أيها الرفاق الجنود ، إن روسيا السوفييتية تضع أملها فيكم . عليكم أن تطهروا الدون من وصمة الخيانة السوداء في أيام معدودات . لقد أزفت الساعة!

الى الأمام ، هبوا هبة رجل واحد!

٦٥

في التاسع عشر من أيار أصدر رئيس هيئة أركان الحملة التابع للجيش الأحمر التاسع أمراً بأن يحمل ميشا كوشيفوي رسالة مستعجلة الى مقر قيادة الكتيبة الثانية والثلاثين ، التي كان من المقرر أن تكون في قرية كورباتوفسكي .

فبلغ كوشيفوي القرية في مساء اليوم نفسه ، غير أنه لم يعثر على مقر الكتيبة فيها . كانت القرية تغص بقوافل الأمتعة التابعة لوحدة أخرى ، وكانت تمضي قادمة من الدونيتس ومتجهة صوب أوست ـ مدفيديتسا ، ترافقها سريتان من المشاة للحماية .

فلبث ميشا يتجول في القرية زهاء الساعتين لمعرفة محل وجود مقر الكتيبة الثانية والثلاثين . وأخيراً أخبره فارس من الجيش الأحمر أن مقرها في قرية يفلانتييفسكي ، في منطقة بوكافسكايا .

وبعد أن أطعم ميشا جواده ، مضى الى يفلانتييفسكي ، غير أنه لم يعثر على مقر الكتيبة هناك أيضاً . وفي طريق عودته الى كورباتوفسكي بعد منتصف الليل صادف في السهب دورية من الجيش الأحمر . وحينما كان لايزال على مبعدة منهم ، تناهت إليه صيحة أحدهم : «من هناك ؟»

- صديق .

فجاء صوت أوكرائي أبح : «حسناً ، فلنر أي صديق أنت...» وتقدم منه ضابط يعتمر قبعة فرائية بيضاء ويرتدي سترة زرقاء غامقة . «من أية وحدة أنت ؟»

- لواء الحملة التابع للجيش التاسع .

- أتحمل هوية رسمية ؟

فأبرز ميشا أوراقه . وبينما كان آمر الدورية يتفحصها تحت ضوء القمر ، مضى يستجوب ميشا مرتاباً :

- ومن هو آمر لوائكم ؟

- الرفيق لوزوفسكي .

- وأين هو لواؤكم الآن ؟

- عبر الدون . من أي كتيبة أنت ، أيها الرفيق ؟ الثانية والثلاثون ؟

- كلا . نحن فرقة الكوبان الثالثة والثلاثون . ولكن ، من أين جئت ؟

- من يفلانتييفسكي .

- وأين وجهتك ؟

- كورباتوفسكي .

- أوهوا هناك قوزاق الآن .

فقال ميشا دهشاً :

ـ أهذا صحيح ؟

ـ صدقني ، إن فيها قوزاقاً الآن... قوزاقاً متمردين . لقد جئنا من هناك تواً .

فتساءل ميشا بقنوط :

ـ فكيف يمكنني أن أصل الى بوبروفسكي إذن ؟

ـ ذلك من شأنك .

ثم ضرب الآمر جواده الأدهم بسوطه ، ومضى عن ميشا ، غير أنه ما لبث أن استدار على سرجه وهتف له : « خير لك أن تأتي معنا وإلا ظفر بك القناصة » .

فانضم ميشا الى الدورية بسرور . وأمضى معها تلك الليلة حتى بلغوا قرية كروجيلين ، حيث مقر كتيبة تاغانروغ ٢٩٤ ، فسلّم الرسالة الى آمر الكتيبة ، وبعد أن شرح له السبب في عدم استطاعته تسليم الرسالة الى الجهة المعنية ، سأله أن يسمح له بالبقاء في الكتيبة مع دورية راكبة .

كانت فرقة الكوبان الثالثة والثلاثون ، المؤلفة حديثاً ، قد سحبت من المنطقة القريبة من أستراخان الى منطقة فورونيج . وقد قذف بأحد ألويتها ، الذي ينتظم كتائب تاغانروغ وديربنت وفاسيلوفسكي ، الى المعركة للقضاء على التمرد القوزاقي . وكان هذا اللواء هو الذي انقض على فرقة غريغوري ميليخوف الأولى وأجبرها على عبور الدون .

استأنف اللواء زحفه ، على امتداد الضفة اليمنى للدون ، متجهاً صوب منطقة أوست ـ خوبرسكايا ، مستولياً على قرى نهر تشير بجناحه الأيمن ، ولم يتوقف ليعود إلا بعد أن أمضى قرابة أسبوعين في المنطقة .

وأسهم ميشا في المعارك التي دارت للاستيلاء على كارغينسكايا وعدد من القرى الواقعة على نهر تشير . وفي صباح السابع والعشرين من أيار ، صف آمر سريته رجاله في جانب الطريق ، وتلا عليهم أمراً كان قد استلمه تواً . وبعد ذلك ظلت هذه الكلمات عالقة في ذهن ميشا كوشيفوي : « إن

أوكار الخونة والمارقين الأدنياء يجب أن تدك ، وأشباه هابيل يجب أن يقضى عليهم... » وكذلك : « أما الضالعون بركاب دينيكين وكولتشاك ، فجابهوهم بالرصاص والفولاذ والنار! »

فمنذ اليوم الذي علم فيه ميشا باغتيال شتوكمان وبلغته شائعات مقتل ايفان أليكسييفتش وشيوعيي يلانسكايا ، تملكه شعور طاغ بالكراهية للقوزاق . ولم يعد يفكر ، أو يصغي الى نداء الرحمة الخافت المنبعث من قلبه ، إذا ما وقع قوزاقي متمرد في يديه . فلم يبد رأفة بأي منهم بل كان يتوجه بالسؤال الى الأسير بعينين زرقاوين باردتين كالثلج : « أشبعت من مقاتلة الحكومة السوفييتية ؟ » ثم يهوي بالسيف على الرجل بقسوة دون أن ينتظر منه رداً على السؤال أو يلقي نظرة على وجهه المصعوق . ولم يقتصر على قتل الأسرى ، ولكنه كان يسلط ألسن النار القرمزية من شعلة إحراق على أفاريز السقوف في بيوت القرى التي هجرها المتمردون ، فإذا ما اندفعت الأبقار والثيران عبر الأسيجة وقد تملكها الذعر وانطلقت تخور في الشارع ، أطلق عليها النار فأرداها قتيلة .

وأعلنها حرباً شعواء ماحقة على بطر القوزاق وغدرهم ، وعلى نمط حياتهم الجامد الراكد الذي لم يعكر صفوه شيء ، قروناً طوالاً ، في بيوت القوزاق المنيعة . فكان مصرع شتوكمان وإيفان اليكسييفتش بمثابة الوقود لكراهيته ، ثم جاءت كلمات الآمر القصيرة الواضحة فكانت تجسيداً دقيقاً لمشاعره العمياء . ففي اليوم الذي تُلي الأمر على سريته قام هو وثلاثة رفاق آخرين بإضرام النار في مائة وخمسين داراً في كارغينسكايا وحدها . وكان قد عثر على شيء من النفط الأبيض في مخزن أحد التجار ، فدار به الى الساحة وقد أمسك بعلبة من عود الثقاب بيده . فخلف وراءه خطاً من الدخان الحريف واللهيب يندلع من دور القسس والتجار زاهية الطلاء ومن بيوت أغنياء القوزاق ، مرابض أولئك الذين : «دفع تآمرهم بجماهير القوزاق الجاهلة الى التمرد » .

كانت الدوريات الراكبة أول من يدخل القرى المهجورة ، فكان كوشيفوي يأتي على حرق بيوت الأغنياء قبل أن يصل المشاة . وكانت الرغبة العارمة تعتمل في صدره للوصول الى تتارسكي بأي ثمن ليأخذ ثأر ايفان وشيوعيي يلانسكايا من أهل قريته . وكان يحدث نفسه بأنه سيضرم النار في نصف القرية على الأقل! وكان قد أعد في ذهنه قائمة بالدور التي يجب إحراقها إذا ما بلغ تتارسكي فعلاً . فإذا لم يقدَّر لكتيبته أن تمر بها ، فقد عقد العزم على التسلل إليها ليلاً من غير ما إذن .

وكانت ثمة دوافع أخرى ، علاوة على رغبته في الانتقام ، تستحثه للذهاب الى تتارسكي ثانية . ففي غضون العامين الماضيين كان يلتقي بدونيا ميليخوفا كلما وجد نفسه في القرية ، فتنامت لديهما عاطفة حب لم يفصحا عنه . لقد كانت أصابع دونيا السمر هي التي خاطت له كيس تبغه الملون المطرز ، وكانت هي التي أعطته سراً زوجاً من القفازات المصنوعة من شعر الماعز الناعم ليحمي بهما يديه من قر الشتاء ، وكان منديلها المطرز الصغير هو الذي يحتفظ به ويرعاه بحنان في الجيب العلوي لقمصلته العسكرية . فكان هذا المنديل الصغير ـ الذي كانت طياته لاتزال تحتفظ ، رغم مرور أشهر ثلاث ، بعبق جسد الفتاة ، الذي يحاكي عبق التبن ـ عزيزاً على قلبه الى حد يعز عن الوصف . وكان كلما أخرجه من جيبه ، يستعيد بانفعال ذكرى شجرة حور جردها الصقيع الأبيض قائمة الي جانب بئر ، وثلج خفيف ينث من سماء مدلهمة ، وشفتي دونيا الراعشتين وألق الثلج البلوري يحوم على أهداب عينيها .

تهيأ لزيارة قريته واتخذ استعدادت حصيفة لها ، فانتزع بساطاً ملوناً من حائط في بيت أحد تجار كارغينسكايا ، وشده تحت مرشحة حصانه . كما عثر على سروال يكاد يكون جديداً في صندوق أحد القوزاق ، وقص ستة شالات نسائية فجعل منها ثلاثة أزواج من لفافات الساق ، ودس زوجاً من القفازات الصوفية في حقيبته ليرتديها قبيل رحيله الى تتارسكي .

فمنذ القدم ، كانت العادة أن يرتدي الجندي أفضل ما لديه لدى عودته

الى أهله . وكان ميشا مايزال أسير هذه العادة القوزاقية ، رغم كونه جندياً في الجيش الأحمر فعمل كل ما في وسعه لمراعاة هذا التقليد القديم .

كان حصانه أشهب بديعاً استولى عليه من قوزاقي صرعه أثناء إحدى المعارك . وكان ، بمنظره المهيب وسرعته ، مدعاة للزهو ، لكن سرج ميشا لم يكن ليليق بذلك الحصان ، فقد كان جلده مخدشاً وممزقاً ، وأجزاؤه المعدنية صدئة . ولم تكن الشكائم واللجام بأفضل منه حالاً ، فصار لزاماً عليه أن يعمل شيئاً ما لإضفاء مظهر أفضل عليها . ثم أسعفه الحظ حين خطرت في ذهنه فكرة رائعة . ففي إحدى القرى عثر على سرير حديدي ذي صفائح من معدن النيكل ملقى خارج أحد بيوت التجار ، وكانت تعلو قوائمه الأربع مصاريع معدنية ملمعة ينعكس عليها ضياء الشمس . ولم تمض لحظة حتى حل ميشا هذه المصاريع من السرير ، ثم ربطها بخيوط حريرية ، اثنين الى حلقات اللجام ، واثنين الى سير العنان فوق جبين الحصان . فجعلت المصاريع تتوهج كشمس الظهيرة الناصعة فوق رأس الحصان ، حتى انبهر الحصان من شدة الألق وراح يتعثر في سيره . لكن ميشا لم ينتزعها ، رغم أن نظر الحيوان كان يعاني منها وعينيه تدمعان بسببها .

مضت الكتيبة في طريقها بمحاذاة الدون متجهة صوب فيشنسكايا . ولهذا لم يجد ميشا صعوبة كبيرة في الحصول على إذن من آمر الدورية بالسماح له بزيارة أهله ليوم واحد . ولم يكتف آمره بإعطائه الإذن ، بل أضاف الى ذلك شيئاً آخر . قال سائلاً ميشا :

ـ أنت متزوج ؟

ـ لا .

ـ لديك عشيقة ، ها ؟

ـ لدي ماذا ؟

ـ أعني حبيبة!

ـ حبيبتي فتاة محترمة .

ـ وهل لديك ساعة وسلسلة ؟

ـ كلا ، يا رفيق .

فعلق الآمر على ذلك بقوله : «شيء مؤسف!!» ؛ كان قد اشترك في الحرب الألمانية ، فكان يدرك أي عار تجلب على الجندي عودته الى قريته صفر اليدين من الأسلاب . فنزع من صدره هو ساعة وسلسلة كبيرة ، وقدمهما الى ميشا قائلاً :

ـ أنت محارب شجاع! هاك ، ارتد هاتين أثناء وجودك في القرية وابهر بهما عيون الفتيات . كنت أنا شاباً ذات يوم أيضا . وأفسدت عدداً لابأس به من الفتيات وأسعدت العديد من النساء في زمان . ولهذا فأنا أتفهم مثل هذه الأمور . قل لمن يسألك إن هذه السلسلة مصنوعة من الذهب الأميركي الجديد . وإذا أحرجك أحد بخصوص ختم الصائغ ، الطمه على وجهه! فهذا هو الشيء الوحيد الذي ينبغي فعله مع قليلي الحياء ، ولا خير في هدر الكلام معهم . حدث لي أن كان البعض من هؤلاء الكتاب أو مستخدمي المخازن يأتونني أمام الناس ويحاولون أن ينتزعوا النشوة مني : «آها ، أنظروا الى سلسلة الساعة المدلاة على كرشه . يحاول أن يتظاهر بأنها من الذهب الحقيقي... هيا ، أرنا الختم! » لكنهم لم يعاودوا سؤالي مرة أخرى . «تريد أن ترى الختم ، ها ؟ سنرى ، هو ذا ما تريد! » .

ولمّ آمر ميشا الممراح قبضته الهائلة وأطلقها الى أمام بقوة كاسحة .

علّق ميشا الساعة والسلسلة ، وحلق ذقنه على الضوء المنبعث من نار المعسكر ، ثم أسرج حصانه وانطلق . وما أن انبلج الفجر حتى كان يدخل تتارسكي خبباً .

لم يبد على القرية أنها تغيرت : كانت القبة الصغيرة للكنيسة المبنية بالطابوق لاتزال ترفع الى السماء صليبها المذهب الباهت ، وبيوت القسس والتجار لاتزال قابعة متراصة في مواقعها حول الساحة ، وشجرة الحور لاتزال تتمتم باللغة الأليفة القديمة فوق كوخ ميشا المتهدم . ولم يكن ثمة ما هو

غريب ومدهش سوى ذلك السكون العميق العالق فوق الشوارع مثل نسيج العنكبوت . كانت صفاقات الشبابيك محكمة الغلق ، وكانت ثمة أبواب مغلقة بالأقفال ، غير أن الكثرة الباقية منها كانت مفتوحة على مصاريعها . لكأن الوباء قد اجتاح القرية بخطاه الثقيلة فأخلى الأفنية والشوارع من الأحياء ولم يخلّف وراءه سوى الفراغ والخراب . ولم تكن الأذن لتلتقط أية نأمة بشرية ، أو خوار بقرة أو صيحة ديك . ولم تكن هناك سوى العصافير تثرثر تحت أفاريز المآوي أو على الاجمات .

مضى ميشا مباشرة الى بيته . لكن أحداً من عائلته لم يخرج لاستقباله . كان الباب المؤدي الى السقيفة مُشرعاً ، وكانت ثمة لفافات ساق عتيقة عند العتبة ، وضمادة داكنة اللون من أثر الدماء ، وريش ورؤوس دجاج تهافت الذباب عليها وقد شرع التفسخ يدب فيها . وكان واضحاً أن رجالاً من الجيش الأحمر كانوا تناولوا وجبتهم من الغذاء في الكوخ قبل بضعة أيام ، كانت الأرض مغطاة بنثار من حطام أقداح مكسرة ، وعظام دجاج سلخ اللحم عنه سلخاً ، وأعقاب سكائر ، وجرائد ممزقة . فمضى ميشا الى الغرفة الأمامية . كان كل شيء هناك على مثل حاله في سالف الأيام ، غير أنه لاحظ أن صفاقة من الباب الأرضي المؤدي الى القبو ، حيث كانت أمه تخزن البطيخ في الخريف ، كانت تبدو وكأنها مواربة قليلاً .

كان من عادة أم ميشا أن تحتفظ بالتفاح المجفف داخل القبو لكيلا يجده الأطفال . وإذ تذكر ميشا ذلك مضى الى الباب الأرضي ، وهو يقول في سريرته : « لا ريب أن أمي كانت تتوقع مجيئي ، فلابد أنها خبأت لي شيئاً في القبو » . فاستل سيفه ، ورفع الباب بمقدمته ، فإذا برائحة الرطوبة والعفن تتصاعد من القبو . جثا على ركبتيه ، وراح يحدق في الظلمة حتى استطاع أخيراً أن يميز قنينة من الفودكا ، ومقلاة فيها بضع بيضات مقلية ، وقطعة من الخبز قضمت نصفها الفئران ، وقدحاً يغطيه كوز خشبي ، وكان كل ذلك موضوعاً على غطاء مائدة مفروش . إذاً ، فلقد كانت أمه العجوز تتوقع مجيئه حقاً! فقد أعدت له ما

هو قمين بضيف معزز . فخفق قلبه بالحب والبهجة ، فيما مضى في تنقيبه داخل القبو . كل هذه الأشياء مستها منذ أيام يدا أمه الحريصتان . وعثر على زكيبة من الجنفاص معقودة بعارضة أرضية . فأنزلها ووجد فيها ملابسه الداخلية العتيقة ، ولكن بعد أن رُتقت بدقة وغسلت وكويت .

كانت الفئران قد أفسدت الطعام كله ، ولم ينج منها سوى اللبن والفودكا . فشرب الفودكا ، وأكل اللبن الذي زادت لذته بعد انجماده ، وأخذ الملابس الداخلية ، ثم زحف صعداً .

أما أمه ، فأغلب الظن أنها هربت عبر الدون . وقال لنفسه : « لقد خشيت البقاء في القرية ، وحسناً فعلت بذهابها ، وإلا لقتلها القوزاق . وعلى أية حال ، فلابد أنهم أساءوا معاملتها بسببي » . ثم خرج من الكوخ ، وحلّ حصانه ، بيد أنه قرر ألا يذهب الى دار آل ميليخوف رأساً ، فموقعه يشرف على الدون تماماً ، وقد يصيبه هدّاف جيد من الجانب الآخر للنهر فيرديه قتيلاً . فعقد العزم على الذهاب الى دار آل كورشونوف ، ثم العودة الى الساحة عند الغسق ليضرم النار في دور موخوف والتجار الآخرين والقسس ، تحت جنح الظلام .

فمضى على حصانه متوارياً وراء الأفنية حتى بلغ فناء كورشونوف الفسيح ، فولج إليه عبر البوابة المفتوحة ثم ربط حصانه ، وكان على وشك أن يدخل الى البيت حينما ظهر على عتبته غريشاكا العجوز . كان رأسه الأبيض يهتز وعيناه الذاويتان مغمضتين تقريباً لفرط ضعفهما ، وكانت قمصلته القوزاقية العتيقة ، بشاراتها الحمر على الياقة المدهنة ، مزررة باعتناء ، غير أن بنطاله كان شديد الارتخاء ، فصار لزاماً على العجوز أن يمسك به بيديه .

فهتف ميشا من موقعه عند درجات العتبة وهو يلوح بسوطه : « كيف حالك ، أيها الجد ؟ » لكن العجوز لم يجب بشيء ، بل كان الغيظ والكراهية يخالطان نظرته الصارمة .

فرفع ميشا صوته : « كيف حالك ؟ » .

فأجاب غريشاكا على مضض : « الحمد لله! » ، وما فتئ يحدج ميشا

بنظرته الغاضبة . فلبث ميشا واقفاً بهدوء وقد باعد ما بين ساقيه ، وهو يعابث سوطه ويزم ، عابساً ، شفتيه المليئتين الشبيهتين بشفاه الفتيات . ثم سأل غريشاكا قائلاً :

ـ لماذا لم تتراجع مع الآخرين عبر الدون ، يا جد غريشاكا ؟

فتساءل العجوز :

ـ ومن أنت ؟

ـ ميشا كوشيفوي .

ـ ابن أكيم ؟ الذي كان يشتغل عندنا ؟

ـ أي ، نعم .

ـ إذن ، فأنت يا ابن الحلال ؟ سموك ميشا يوم العماد ، أليس كذلك ؟ طلعت ابن حلال نجيب حقاً! تماماً مثل أبيك . كان دائماً يحاول الحصول على شيء لقاء لا شيء ، وها أنت ذا صورة طبق الأصل منه ، ها ؟

فنزع ميشا قفازاً من إحدى يديه ، وازداد عبوساً .

ـ ليس من شأنك من أكون وماذا أدعى . سألتك ، لماذا لم تعبر الدون ؟

ـ كل ما في الأمر أنني لم أشأ أن أفعل ذلك ، فلم أفعل . ولكن ما الذي تسعى وراءه ؟ هل بعت نفسك لخدمة أعداء المسيح ؟ تحمل نجمة حمراء على قبعتك ؟ آه يا ابن القحبة ، أنت عدو لقوزاقنا إذن ؟ عدو لأهل قريتك ؟

وتقدم هابطاً الدرجات مترنحاً . وكان واضحاً أنه لم يكن يحصل على طعام كاف منذ لاذت عائلة كورشونوف بالفرار عبر الدون . فتقدم من ميشا وهو على هذا الحال ، مهملاً ، سقيماً ، أشعث ، وجعل يتفرس فيه بنظرة ملؤها الغضب والذهول .

فأجابه ميشا : «نعم ، أنا أحاربهم . ولن يمضي وقت طويل حتى نضيق عليهم الخناق» .

ـ آه ، ولكن ماذا يقول الكتاب المقدس في ذلك ؟ بالكيل الذي تكيلون يكال لكم .

فقال ميشا بفظاظة :

ـ لا حاجة بك الى الاستشهاد بالكتابات المقدسة للتنديد بي ، يا شيخ! لم آت الى هنا لمثل هذا . اخرج من الدار حالاً .

ـ ماذا تريد ؟

ـ لا يهمك ما أريد! قلت لك ، اخرج!

ـ لن أترك بيتي! أنا أعرف ماذا ستفعل . أنت خادم أعداء المسيح ، فهذه علامتهم على قبعتك . ها قد حدث كل شيء ، كما تنبأ الإنجيل ، سيقف الابن ضد أبيه ، والأخ ضد أخيه...

ـ لا تحاول خداعي . القضية اليوم ليست قضية أخوة ، بل هي واضحة كالحساب . لقد عمل أبي لديكم حتى يوم مماته ، وأنا عملت لديكم قبل الحرب مزهقاً روحي خدمة لكم ، وها قد حان الوقت لتصفية الحساب معكم . انقشع عن الدار ، فسأضرم النار فيها . لقد قضيتم عمركم في دار مرفهة ، أما الآن فبإمكانكم أن تعيشوا حيث كان علينا أن نعيش ، في أكواخ القش . أتفهم ما أقول ، أيها العجوز ؟

ـ أي ، أفهم . حل أوان هذا ، أيضاً . لقد جاء في كتاب النبي أشعيا : جثثهم سوف تتبدد ، وستفوح من أجداثهم الجيفة ، وستذوب الجبال بدمائهم .

فقال ميشا بغضب مرير :

ـ لا وقت لي أبدده معك! ألا تنقشع عن الدار ؟

ـ كلا ، أيها العدو .

فقال ميشا وهو ينزع بندقيته على عجل :

ـ ما كان لهذه الحرب والقلاقل أن تستمر لولا أمثالك من المعاندين . أشباهك هم الذين يجلبون المتاعب للناس ، ويحرضونهم على معاداة التورة...

وعلى اثر الإطلاقة خر غريشاكا على رأسه ، وانبعثت منه تمتمة واضحة وهو ملقى على الأرض :

ـ هذه ليست مشيئتي... لكن مشيئتك تتحقق . يا إلهي ، خذ عبدك الى جوارك...

وند عنه زخير ، ونز الدم ما بين عذاريه الأبيضين .

فرد عليه ميشا : « إنه سيأخذ روحك! كان عليه أن ينتزعك من الدنيا منذ وقت طويل ، أيها الشيطان العجوز! » وأحس ميشا بالنفور والتقزز ، فاجتاز جثة العجوز من جانبها وهرع صاعداً درجات العتبة .

وسرعان ما شب لهب وردي في الأوراق والأغصان اليابسة التي كانت الريح قد حملتها الى السقيفة ، وسرت النار في الحال الى العوارض الخشبية الفاصلة ما بين المخزن والسقيفة . فتصاعد الدخان الى السقوف وانثنى الى داخل الغرف . فخرج كوشيفوي . وحين فرغ من إضرام النار في المأوى ومخزن الحبوب ، كانت ألسنة اللهيب في الدار قد نفذت الى الخارج وصارت تلعق عوارض صفاقات الشبابيك المصنوعة من خشب الصنوبر ، وتمد ذؤاباتها نحو السقف .

وفي حرش ليس ببعيد خلد ميشا الى النوم مستظلاً بفيء الكروم البرية والأدغال الشوكية ، الى أن حل الغسق . أما حصانه المقيد فقد تركه يسرح باسترخاء قريباً منه . ومع اقتراب المساء استبد بالحصان العطش فجعل يصهل حتى أيقظ سيده . فنهض ميشا وأورد حصانه من بئر البستان ، ثم أسرجه ومضى عليه في الشارع . كان الدخان الحريف لايزال ينبعث من الأدوات المحروقة في فناء كورشونوف ، ولم يبق من الدار إلا أسسه الصخرية العالية وموقده شبه المحطم رافعاً مدخنته السخماء الى السماء .

فيمم ميشا وجهته صوب فناء آل ميليخوف مباشرة ، وبينما كان يدخل عبر البوابة ألفى ايلينشنا تجمع قطع الخشب الصغيرة في صدريتها . فنادى عليها بصوت رقيق : « مرحباً ، يا خالتي! » وإذ رأته ، امتلكها ذعر رهيب حتى أنها لم تستطع أن تنبس بشيء رداً على تحيته ، بل أرخت ذراعيها فانهمرت قطع الخشب من صدريتها .

ـ كيف حالك ، يا خالتي ؟

فردت ايلينشنا بنبرة متقطعة : «الحمد لله!... الحمد لله! »

ـ سليمة معافاة ؟

ـ سليمة ، ولكن لا تسل عن عافيتي .

فسألها ، بينما هو يترجل عن حصانه ويمضي إليها :

ـ وأين هم قوازقك ؟

ـ في الجانب الآخر من الدون...

ـ ينتظرون وصول «الكاديت» ؟

ـ أنا لا أهتم إلا بشؤون النساء... فلست أفقه حرفاً من هذه الأمور...

ـ وهل يفدوكيا بانتلاييفنا* في الدار ؟

ـ رحلت هي الأخرى عبر الدون .

فصاح ميشا بصوت مرتعش : «وما الذي جعلهم ، بحق الشيطان ، يذهبون كلهم! » ثم اخشوشن صوته غضباً :

ـ دعيني أقل لك شيئاً ، يا خالتي : لقد تكشف ابنك غريغوري عن عدو لدود للحكومة السوفييتية . وحينما نعبر الى الضفة الأخرى ، فإن رقبته ستكون أول رقبة يلتف حولها الحبل . أما بانتلاي بروكوفتش فما كان عليه أن يهرب . إنه عجوز وأعرج ، كان من الخير له أن يبقى في بيته...

فسألته ايلينشنا بقسوة ، وقد شرعت تلم الخشب وتضعه في صدريتها من جديد : «أيبقى لينتظر موته ؟ »

ـ الموت بعيد عنه . كان من المحتمل أن ينال شيئاً من الجلد . وما كان لأحد أن يقتله . ومع ذلك ، فأنا لم أجئ للتحدث حول هذا الموضوع .

ثم عدّل من وضع سلسلة الساعة على صدره ، وأردف قائلاً وهو يخفض بصره :

---

* وهو الاسم الكامل لدونيا . المترجمون

ـ الواقع انني جئت لزيارة يفدوكيا باتتلاييفنا . انني شديد الأسف لعبورها هي الأخرى الى الجانب الآخر للدون . لكنني أريد أن أقول لك شيئاً ، باعتبارك أمها : إنني أريدها من أمد طويل ، ولكننا هذه الأيام لا نجد متسعاً من الوقت للاهتمام بأمور النساء ، فنحن منهمكون بالقضاء على الثورة المعادية ، وها نحن نمحقها محقاً لا مجال فيه للرحمة . وحالما نفرغ منها وتقام السلطة السوفييتية في كل مكان ، فسأرسل إليك آنئذ من يطلب يد ابنتك يفدوكيا .

ـ ليس هذا وقتاً مناسباً للتباحث بمثل هذه الأمور .

فأجاب ميشا عابساً ، وقد انعقد جبينه مقطباً :

ـ بل هو الوقت المناسب! إنه ليس مناسباً لعقد الخطبة ، ولكن لا بأس في التحدث بالأمر . لست حراً في التصرف بوقتي . فأنا اليوم هنا ، وقد يرسلونني غداً عبر الدون . ولهذا فأنا أحذرك . ليس لك أن تعطي يفدوكيا الى أي رجل آخر ، وإلا فالويل لك . أما إذا جاءتك رسالة من كتيبتي تعلمك بمقتلي ، فلك أن تزوجيها شخصاً آخر . أما الآن فإياك أن تفعلي ذلك ، فكلانا يحب الآخر . أنا لم أجلب إليها أية هدايا ، فليس هناك مكان يستطيع المرء شراءها منه ، ولكن إذا ما رغبتِ بأي شيء مما تحتويه بيوت التجار البورجوازيين ، فلا عليك إلا أن تقولي ، فسأذهب في الحال وآتيك به...

ـ لا سمح الله! أنا لم أمس ممتلكات الآخرين حتى الآن .

ـ حسناً ، كما تشائين . بلّغي دونيا أعمق تحياتي إن رأيتها قبلي ، والآن ، الى اللقاء ، يا خالتي . لا تنسي ما قلته لك .

فمضت ايلينشنا الى داخل البيت دون أن ترد عليه ، وامتطى ميشا حصانه ومضى به صوب الساحة .

فألفاها تعج بجنود الجيش الأحمر الذين هبطوا إليها من التل لقضاء الليلة . وكانت أصواتهم العالية تتعالى في الشوارع . واستوقف ثلاثة منهم ميشا ليتفحصوا أوراقه الرسمية ، وكانوا يحملون مدفعاً رشاشاً خفيفاً الى نقطة

أمامية تقع على جانب الدون . والى جانب دار سيمون تشوكن التقى بأربعة آخرين . كان اثنان منهم يدفعان عربة يدوية ذات عجلتين محملة بالشوفان ، فيما كان الاثنان الآخران يقدمان العون لزوجة سيمون المسلولة في حمل ماكنة خياطة وزكيبة من الطحين . فعرفت المرأة ميشا وحيته . فتساءل ميشا : « ماذا عندكم ؟ » .

فرد عليه الجندي الأحمر بلهجة فتية : « إننا نحاول أن نسدي لهذه المرأة العاملة بعض العون . إننا نقدم لها ماكنة خياطة وشيئاً من الطحين يعودان الى أحد البورجوازيين » .

ثم أضرم ميشا النار في سبع دور تعود الى التاجر موخوف وتجار آخرين ، وإلى القسين ، والى ثلاثة قوزاق أغنياء ، كانوا كلهم قد هربوا الى جبهة الدونيتس . ولم يغادر القرية إلا آنئذ ، فمضى على صهوة حصانه صعد التل ، ثم استدار . كان اللهب الأحمر يتصاعد من تتارسكي تحته ذؤابات هائلة من الشرر ، صوب السماء السوداء ، وصورة النيران تتراقص على مياه الدون الدفوق وكانت الريح تدفع باللهب ناحية الغرب ، فتنثني ثم تغور لتأتي على البنايات بلا كلل .

كان ثمة نسيم عليل يهب قادماً من السهوب الشرقية ينشر اللهب ويحمل على أجنحته شرراً قادحاً أسود نحو البعيد...



ميخائيل شولوخوف

نوبل 1965

ولد في قرية فيوشينسكايا في بلاد القوقاز 1905 .

.لم يكمل شولوخوف دراسته الابتدائية

عاش الفترة من 1918 وحتى 1924 في أقليمه

حيث كانت المنطقة تحت سيطرة الجيش الابيض

.الذي اراد ان يطيح بثورة البلاشفة

في 1924 سافر إلى موسكو ليجرب مختلف الاعمال

.ويمارس حظه في الكتابة والنشر والتعرف على الاوساط الادبية

بعد عامين اي في عام 1926 عاد الى موطنه الاصلي

.ولم يفارقه حتى مماته

.وفي نفس العام ظهرت مجموعته الاولى قصص الدون وقصة سهب لازوريف

انضم إلى الحزب الشيوعي السوفيتي عام 1932

. وفي عام 1934 أصبح عضوا في اتحاد الكتاب

كتب روايته الدون الهادئ في الفترة ما بين 1928 - 1940

فقد صدر الجزء الأول من الرواية عام 1928

.وانتظر القراء 12 عاما ليكمل شولوخوف روايته الملحمية

وتوفي في 21 فيفري 1984

علي مولا


ISBN 978-9933-407-05-6